

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الرابع شوال ١٤٣٠هـ / تشرين الأول ٢٠٠٩م

إهـــــــداء ٢٠١٠
مجلة الحضارة
جمهورية مصر العربية





حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير
العدد الرابع شوال ١٤٣٠هـ / تشرين الأول ٢٠٠٩م

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١
نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦

Mobile: 009647810808021
Mobile: 0020174876011
TeleFax: 0020237619596

البريد الإلكتروني
Hadhara.magazine@yahoo.com

ضوابط النشر في المجلة

(١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

(٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

(٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

(٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

(٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

(٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

(٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال وممانعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

حضارة.. وشق طريق التواصل والعطاء

رئيس التحرير

ها هي الإطلالة الجديدة لـ (مجلة حضارة) التي يصدر عددها الرابع فيأذن بدخول عام جديد بعد أن أكملت بأعدادها الثلاثة السابقة وعددها التجريبي الصادر في مطلع الشهر العاشر من عام (٢٠٠٨م)؛ عامها الأول.

وها هو فريق محرريها يجسد حالة الإصرار على تحقيق الأهداف والالتزام بالمبادئ التي وضعوها لأنفسهم وهم يقدمون على هذه المغامرة الجميلة على الرغم من كل الصعاب التي تواجههم وهم يعيشون ظرف الاحتلال الذي ستنجلي غيمته، ببزوغ فجر العراق المحرر من ظلم وعدوان المعتدين بجهود المخلصين والصادقين، وحسب (جنود) حضارة أن يكونوا ممن يسهمون معهم في نيل هذا الشرف.

وفريق حضارة يدرك جيداً أن مواصلة المشوار والإبداع فيه تتطلب منهم مزيداً من التحمل والصبر، ومواكبة الحدث والتطورات الجارية أولاً بأول، في ظل التقلبات التي يشهدها العراق الجريح، الذي يعاني أبناءه هذه الأيام - فضلاً عن معاناة الاحتلال- من الخلط العجيب في المفاهيم والتصورات، مما تقوم ببثه جهات لا مسؤولة، هدفها وغايتها تشويش الفكر، والتنازل عن القيم والمبادئ الفطرية.

وفي ظل ما نفخر به من تقدم ملحوظ في إمكانات المجلة العلمية، والفنية، وتواصل الباحثين، بما يعود بالنفع على القارئ الكريم؛ فإن هذا العدد سـوف يكون إضافة نوعية لما سبق من أعداد؛ لاحتوائه على مجموعة من الأبحـاث والدراسات المهمة تقف في مقدمتها الدراسة التي يقدمها الباحث الدكتور عبد الكريم العلوجي، بعنوان (اتفاقية الإذعان وتـداعيات الاحـتلال علـى دول الجوار)، والدراسة التي قدمها المفكر الإسلامي الدكتور محمد مورو بعنـوان (الإسلام والغرب، تعاون أم مواجهة)، وكذلك المشاركة المهمة والقيمة للخبير في طرائق التعليم الأستاذ منذر الأعظمي بعنوان (أولويات التعليم العراقي في المرحلة الراهنة).

وضمَّ العدد جملة من المقالات، منها مقالة الأستاذ حـارث الأزدي التـي يتناول فيها موضوع الانتخابات القادمة، بعنوان (الأداء الأخطبوطي المتناغم مع إرادة المحتل – مقتربات الانتخابات)، ومقالة الباحث جهـاد بـشير فـي مشاركته المعنية بحالة المقاومة في العراق، تحت عنوان (نحو ثقافة مقاوِمة، قراءة في مشروع الممانعة في العراق)، ومقالة الأستاذة سـكينة الـصميدعي رئيسة رابطة الأم العراقية، التي رصدت فيها ما تتعرض له المرأة العراقية، وما تعيشه من واقع مأساوي في ظل الاحتلال، بعنوان (واقع المرأة العراقيـة في زمن ديمقراطية الاحتلال الأمريكي).

ويمتاز ملف هذا العدد بمحاولة رصد التاريخ المخزي والجرائم المستمرة للشركات الأمنية الأمريكية التي مازال سجلها السيء مفتوحاً ومثار جدل، وقد ضم الملف ثلاث دراسات: الأولى لرئيس تحرير موقع لواء الشريعة الباحـث السيد أبو داود، بعنوان (بلاك ووتر، عنوان الحرب الصليبية فـي العـراق)، والثانية للكاتب والباحث محمد رشيد، الذي تحدث فيها عن تاريخ إرهاب هذه الشركات، وجاءت مشاركته بعنوان (جذور الإرهاب)، والدراسة الثالثة كانت

للباحث ناصر الفهداوي، بعنوان (الشركات الأمنية الخاصة والمهام الإنجيلية التبشيرية).

أما وثائق هذا العدد، فإنها تحتوي الرد على المتحدث باسم القيادة المركزية لقوات الاحتلال في العراق، الذي علق على مقالة الأستاذ حسين الرشيد (مدير تحرير مجلة حضارة) التي نشرت في العدد الثالث من المجلة، بعنوان (جيش الاحتلال في العراق بين الفرار والانتحار)، ثم أعيد نشرها في بعض المواقع الإلكترونية الخبرية، وجاء هذا الرد الذي كتبه الأخ الرشيد تحت عنوان (حينما تتجنى القيادة المركزية على الأقلام الحرة).

وفي حقل التقارير والاستطلاعات، الذي تعودنا أن ننشر فيه بعض الدراسات المترجمة التي تعود بالنفع على القارئ الكريم، قام الباحث سيف الجبوري بترجمة ثلاث نصوص مهمة، حيث خصصنا هذا الحقل من هذا العدد لترجمة بعض المقالات التي كتبها إعلاميون أجانب في عدد من الصحف الأوربية والأمريكية، بحق الإعلامي العراقي منتظر الزيدي، الذي قام بعمله المشهود حينما رشق بحذائه مسعر الحرب في العراق جورج بوش، أثناء زيارته الوداعية للعراق قبيل انتهاء ولايته الرئاسية.

وتختم المجلة صفحاتها بذكر عدد من نشاطات مركز الأمة للدراسات والتطوير بأقسامه المختلفة خلال الأشهر الماضية.

وأخيراً، فإن (مجلة حضارة) إذ تقدم للقراء الكرام حصادها في هذا العدد، فإنها تؤكد ترحيبها بمقترحات القراء وملاحظاتهم، وتغتنم هذه الفرصة لتجديد الدعوة للباحثين والمهتمين للمشاركة معنا في التعريف بقضيتنا العادلة، والسعي الجاد في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.. سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.. إنه نعم العون والمجيب.

عقد اتفاقية (الإذعان) الأمريكية - العراقية وتداعيات الاحتلال على دول الجوار الإقليمي والعربي

د. عبد الكريم العلوجي[1]

عندما سارت الولايات المتحدة الأمريكية في مشروعها الإمبراطوري لحكم العالم، بدأت بإطلاق النظريات السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهي بذلك تعتقد أنها من خلال هذه النظريات تحرّك العالم بأصبعها، ومنذ حرب الخليج الثانية ثم الحرب على أفغانستان وأخيراً احتلال العراق هو في واقع السياسة الأمريكية وكما أعلنتها كونداليزا رايس (بنشر) "الفوضى الخلاقة"، في العالم العربي لا بل في العالم أجمع، فكان تصور الولايات المتحدة بناء العالم بنظام جديد تضع هي خطوطه وتحركه سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، ولكن الحلم اصطدم منذ جاء إلى العراق بظاهرة المقاومة العراقية التي أوقفت هذا المشروع بل أسقطته من منظومة السياسة الأمريكية.

وبالرغم أن أكثر السياسيين الأمريكيين والاستراتيجيين رأوا أن القوة المفرطة التي استعملتها الحكومة الأمريكية في أفغانستان والعراق وفلسطين

---

[1] كاتب ومحلل سياسي.

ولبنان لم تضع لهم هذه الإمبراطورية، والتي يحلم بها الليكوديون الجدد في الولايات المتحدة بقيادة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، ولم يتمكنوا من امتلاك الشرق الأوسط والتحكم به وخاصة ثروته النفطية.

إن المشروع الأمريكي الذي انطلق من العراق لإرساء "الديمقراطية" و"الحرية والعدالة" و"الدفاع عن حقوق الإنسان" في هذه المنطقة الساخنة من العالم ولكن هذا المشروع اصطدم بالمقاومة الوطنية، وكانت المقاومة العراقية هي الأبرز في مقاومة المشروع الأمريكي، وعندما عجزت الولايات المتحدة في فرض مشروعها وإرادتها بالقوة المسلحة والغزو.. بدأت تشعر إنها وقعت في المستنقع العراقي والذي لابد أن تخرج منه بطريقة تحفظ ماء الوجه وهيبة القوة العسكرية الأقوى في العالم، لجأت إلى التفاوض والتحايل في محاولة منها لانتزاع القرارات السياسية والدبلوماسية، وهذا ما تحاوله اليوم في العراق بما فرضته مما يسمى باتفاقية (الإذعان) الموقعة بين الحكومة الأمريكية والحكومة العميلة لها في العراق.

إن القرار السياسي العراقي لا يخلو من تأثيرات على إقراره وصياغته.. رغم ما يصرح به من قبل الحكومة العراقية الحالية من استقلال القرار، ويضاف إلى ذلك ربط سياسة الخارجية العراقية بالسياسة الأمريكية وهذا تكبيل للسياسة وصناعة القرار العراقي الوطني.

وسوف ترسم السياسية الاقتصادية الأمريكية على ثروات العراق وخاصة النفط والغاز واستغلاله، ومن الأهداف الغير معلنة للحرب على العراق هو (النفط).

النفط هو الهدف الرئيسي من العدوان على العراق، وهذا ما أكده وزير الطاقة الأمريكي (جون هاري جون).. حيث قال إن العراق يسبح على بحر

من النفط كما أكد معهد (بيكر) للسياسة الدولية الذي يشرف عليه وزير الخارجية والخزانة الأمريكي.

إن إحدى النتائج البعيدة هي وعي الولايات المتحدة بضرورة تكثيف البحث عن مصادر وارداتها النفطية، وإن لم يحدث تغيير جذري في سياسة الاستثمار النفطي في العراق؛ فإنه لن يكون هناك بديل سريع في العراق، لذا خطط السياسيون الأمريكيون للهيمنة التامة على العراق ونفطه وإعادة رسم خريطة الحكم في بغداد، والدليل على ذلك أن عقود الغاز العراقي تم منحها إلى شركة شل الأمريكية دون موافقة ما يسمى مجلس النواب العراقي!.

لم يكن توقيع اتفاقية الإذعان إلا سلسلة من الاتفاقات التي ستفرض على حكومة الاحتلال من خلال الاتفاقيات الاقتصادية والأمنية والسياسية والثقافية والصناعية التي سوف تعقدها الولايات المتحدة مع حكومة الاحتلال مسيطرة على كل مقدرات الشعب العراقي لعقود طويلة، وكانت عقود النفط التي وقعتها هذه الحكومة مع الشركات متعددة الجنسيات بالمشاركة في الإنتاج والتنفيذ لعقود من الزمن هي البداية على هذه الثروة التي هي ملك الشعب العراقي، وكانت اتفاقية الإذعان وما جاء بها من بنود هي بمثابة القيد الذي قيدت به الحكومة الأمريكية والمسؤولين العراقيين الحاليين.

ولم يكن مقدراً لحكومة نوري المالكي، أن تتصرف حيال الاتفاق الأمني الذي فرض على العراقيين وجاء مكملاً لاتفاق الإطار الاستراتيجي الذي يشكل جوهر ما سُمّيَ (الالتزامات الأمريكية حيال العراق في المجالات السياسية والدبلوماسية والثقافية والاقتصادية إذاً لا مجال لوجود أوهام حيال إمكانية الجمع بين المصالح الوطنية للشعب العراقي ومصالح ومتطلبات الاحتلال كما تروج قوى الأمر الواقع السياسية في العراق، في محاولة للي عنق النصوص والوقائع، وإقناع العراقيين والعرب (أن ليس بالإمكان أفضل

مما كان) وأن البديل عن توقيع الاتفاق سيكون الفوضى العارمة، ولاسيما بعد ارتفاع وتيرة التهديدات الأمريكية وازدياد الضغط والترهيب التي شاركت فيها إلى جانب المسؤولين الرسميين وكبريات الصحف الأمريكية والتي اشتملت على التهديد بمصادرة أموال النفط العراقية المودعة في البنوك الأمريكية، وتحريك المحاكم لمقاضاة بغداد، وفتح الحسابات القديمة مع المدنيين والسماسرة والتجار والشركات، والإيعاز إلى دول كثيرة بوقف علاقاتها الدبلوماسية معها أو تجميدها وإطلاق يد القوى الميليشياوية وعملائها وإلغاء مشاريع بملايين الدولارات، فضلاً عن إيقاف جميع العمليات العسكرية، ورفع الحماية الجوية والبرية والبحرية وطرد أكثر من ١٥٠ ألف عراقي يعملون معها.

هذه التهديدات-أرسلت برسالة أمريكية لحكومة المالكي إذا لم توقع الاتفاقية، وهو ما لم تقله حكومة المالكي، بينما اتهم الكونغرس الأمريكي إدارة بوش بالتعتيم على نسخها الإنكليزية.

إن الخطر الأكبر على العراق لا يأتي فقط من الاتفاق الأمني الذي شحن جدلاً واسعاً طوال الأشهر السابقة، والذي نسف رئيس أركان الجيوش الأمريكية الأميرال مايكن مولن (حسنته الوحيدة) التي كان من الممكن أن يقتنع بها العراقيون والعرب ودول الجوار حينما توصل المفاوض العراقي إلى انسحاب قوات الاحتلال في العام ٢٠١١م وتتيح له الخروج من أحكام البند السابع، وقد نفى مولن هذه الحسنة من جانب حكومة المالكي أمام العراقيين عندما أعلن أن الانسحاب الأمريكي من العراق المقرر عام ٢٠١١م حسب مشروع الاتفاق بين بغداد وواشنطن سيكون مرتبطاً بالوضع على الأرض.

وجاء تصريح وزير الدفاع الأمريكي غيتس في ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٨م في أفغانستان (إن من المحتمل أن يكون اهتمام كبير للإبقاء على أكبر عدد ممكن من القوات في العراق خلال انتخابات المحافظات وربما لبعض الوقت)، وجاء أول تأكيد أمريكي لبقاء القوات الأمريكية في المدن العراقية بعد حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م وهو الموعد لانسحاب القوات الأمريكية خارج المدن العراقية في نهاية شهر يونيو/ حزيران، وبموجب اتفاق سحب القوات بين بغداد وواشنطن، حيث كشف قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال رايموند أوديرنو – أن قوات غير مقاتلة ستبقى في المدن لتقديم الدعم والتدريب والمساندة للقوات العراقية بعد حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م.

ومن اتفاقية الإطار المتعلقة بما يسمى التعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والدبلوماسية بين البلدين على المدى الطويل، حيث نص الاتفاق على تقديم الولايات المتحدة الدعم إلى الحكومة العراقية لـ (حماية النظام الديمقراطي) واحترام الدستور وصيانته، وتحقيق المصالحة الوطنية وتعزيز مكانة العراق في المنظمات والمؤسسات والمحافل الدولية والإقليمية، وتشجيع الجهود السياسية الرامية إلى إيجاد علاقات مع دول المنطقة والعالم.

أما فيما يخص الجانب الاقتصادي في الاتفاق بما تمّ تسميته (بالدعم الأمريكي للنهوض بالعراق في مختلف المجالات الاقتصادية، وربط الاقتصاد العراقي باقتصاد السوق والحصول على معاملة أمريكية تفضيلية تقابلها معاملة عراقية للشركات الأمريكية.

من الواضح أن النصوص المعلنة من الاتفاق الأجنبي تسمح للقوات الأمريكية ببناء قواعد، وتخزين أسلحة ومعدات عسكرية، والتعاقد مع خبراء ومستشارين وذلك بمعزل عن قبول أو عدم قبول الحكومة العراقية!.

ما يعنى أن الأرض العراقية ستبقى مرتعاً خصباً للجواسيس الصهاينة وغيرهم، كما أنها ستشكل قواعد مراقبة وتجسس على دول الجوار والمنطقة وربما تكون منطلقاً لعمليات عسكرية ضد البلدان المجاورة أو المنطقة.

أما البند المتعلق بالحصانة التي تتمتع بها القوات الأمريكية وموظفيها من جيش ما يسمى (أفراد العنصر المدني) لاسيما حيال عمليات القتل والتجاوزات بمختلف أشكالها فقد تمّ إحالته إلى لجنة مشتركة (أمريكية – عراقية) لكي تبت فيه، وتحدد إذا ما كان من صلاحيات المحاكم العراقية النظر في ذلك أم لا؟ أي أن قوات الاحتلال هي صاحبة القرار الأول والأخير في هذا الجانب الذي حاولت القوى السياسية الداعمة للاتفاق تقديمه على أنه إنجاز كبير تمكنت حكومة المالكي من انتزاعه من أنياب الأميركيين الذين قايضوا حصانة قواتهم بالشركات الأمنية التي يزيد عدد العاملين فيها على عدد أفراد الجيش الأمريكي، حيث يبلغ عدد القوات الأمريكية نحو ١٥٠ ألف رجل وامرأة منتشرين في ٤٠٠ قاعدة، في حين أن هناك ٢٢١ شركة أمنية خاصة أميركية وبريطانية توظف ٣٦١ ألف موظف يقومون تحديداً بمهمات تأمين حماية قريبة للشخصيات الأمريكية والعراقية.

أما حول ما أشيع بأنه موعد محدد لانسحاب القوات المحتلة عن أرض العراق؛ فإن النصوص تشير بوضوح إلى ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١م هو لإجراء مراجعة مشتركة أمريكية عراقية لمدة الاتفاقية (أما تجديداً أو تعديلاً) أي أنه لا يوجد موعد واضح محدد لخروج القوات الأمريكية من العراق! دون أن ننسى أن الرئيس المنتخب (باراك أوباما) والذي كان قد دعا إلى تسريع انسحاب القوات الأمريكية من العراق، ويؤكد في المقابل على بقاء ما لا يقل عن ٥٥ ألف جندي أمريكي بصورة دائمة في العراق على شكل خبراء ومدربين ومستشارين وأجهزة أمنية ومخابراتية وغيرها، وهذا ما يعني

تكريس وشرعنة الاحتلال الذي ستبقى له اليد الطولى في رسم التوجيهات والسياسات العراقية وتقرير مستقبل العراق.

وبالرغم من تعهد باراك أوباما في حملته الانتخابية التي ركز فيها على انسحاب القوات الأمريكية من العراق خلال ستة عشر شهراً، إلا أنه عاد أو بالأصح تراجع عن تعهده عندما ربط الانسحاب الأمريكي من العراق بما تقرره القيادة العسكرية الميدانية الأمريكية في العراق وبذلك نجد أن أوباما قد لا يوفي بتعهده أمام الناخب الأمريكي.

والناخب الأمريكي محتدم اليوم بوضعه الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي والبطالة، أما بخصوص (اتفاق الإطار) والذي صيغت نصوصه بلغة مخادعة، فإنه يضع واقعياً إمكانيات العراق حاضراً ومستقبلاً تحت تصرف الولايات المتحدة التي سيصبح من حقها ووفق الاتفاق وكونها الطرف الأقوى؛ إعادة صياغة الرؤى والتوجهات العراقية اقتصادياً وسياسياً وفكرياً وثقافياً وفق مصالحها وتوجيهاتها، وتشير النصوص إلى أن واشنطن ستصبح معنية مباشرة بالحفاظ على الصيغة التي تراها مناسبة لمصالحها لما يسمى (العملية السياسية) وتعبيراتها التشريعية والتنفيذية والصيغ الطائفية السائدة تحت عنوان: تقديم الدعم لحماية النظام الديمقراطي واحترام الدستور وصيانته وتحقيق المصالحة الوطنية، وذلك عبر استخدام كل الوسائل المتاحة وفي مقدمتها عمليات القتل والإرهاب وتكميم الأفواه، فيما سيكون من صلاحيات الإدارة الأمريكية التحكم بعلاقات العراق مع المنظمات والمؤسسات والمحافل الدولية والإقليمية، وإلقاء القبض على مفاصل الاقتصاد العراقي وعلى رأسها الثروة النفطية وفرض الصيغ الاقتصادية دون النظر إلى تكلفتها الاجتماعية (اقتصاد السوق).

ومع أن ثمة حيثيات متداخلة، ذات طابع داخلي وإقليمي ودولي فرضت هذا النمط من الاتفاقية التي تتعارض واتفاقية جنيف التي تعتبر أن لا قانونية ولا شرعية لأية اتفاقات توقع تحت حراب الاحتلال.

لذا وقّع الرئيس الأمريكي بوش ورئيس وزراء العراق المنصّب من قبل الاحتلال نوري المالكي في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٧م مذكرة تفاهم لإبرام اتفاقية أمنية بين الطرفين، وقد نشرت هذه الاتفاقية وقوبلت بردود فعل مختلفة حتى بين الأطراف الحاكمة اليوم في العراق، بينما اعترضت عليها كل القوى السياسية والوطنية على رأسها فصائل المقاومة العراقية ومنظمات المجتمع المدني العراقية والعربية انطلاقاً من أن هذه الاتفاقية تمس السيادة العراقية. وفي ٢٦ أغسطس/ أب ٢٠٠٧م صدر بيان أكد فيه المسؤولون وأيده الرئيس بوش، أن الحكومتين العراقية والأمريكية ملتزمتان بتطوير علاقة تعاون وصداقه طويلة الأمد بين البلدين مما يلي "السيادة" و"الاستقلال" ولهما مصالح مشتركة، وأن العلاقة بين البلدين سوف تكون لصالح الأجيال المقبلة، وقد بنيت على التضحيات البطولية التي قدمها الشعبان العراقي والأمريكي من أجل عراق حر ديمقراطي تعددي فيدرالي موحد.

إن العلاقة التي تتطلع إليها جمهورية العراق والولايات المتحدة الأمريكية تشمل آفاقاً متعددة يأتي في مقدمتها التعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية.

وهناك بنود سرية نشرت في عدد من الصحف العربية والعالمية كشفت حقيقة هذه الاتفاقية وتأثيراتها في داخل العراق وفي محيطه العربي والإقليمي.

تداعيات الاحتلال على دول الجوار الإقليمي والعربي

دول الجوار الإقليمي:

إيران:

على الرغم من أن إيران كانت تهدف إلى الإطاحة بنظام صدام حسين، إلا أن التأثيرات التي سوف تنجم عن حدوث ذلك بأيدي أمريكية لها تأثيرات ضارة على المصلحة الوطنية الإيرانية، و تتمثل أهم هذه التأثيرات فيا يلي:

١. يمثل الوجود الأمريكي على الحدود الإيرانية خطراً على النظام الإيراني ومصالحه، فلدى إيران قلق عميق من أن تصبح محاطة بالقوات الأمريكية، لاسيما مع الحضور الأمريكي الكثيف في دول الجوار الإيراني، وفي هذا الإطار، نشير إلى ما ذكره هاشمي رفسنجاني في أحد خطب الجمعة لآلاف المصليين، حين قال: "إن الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط هو أسوأ من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها صدام، (وأضاف) الوجود العسكري الأمريكي الكثيف في الخليج الفارسي يكشف عن النوايا الأمريكية السيئة".

٢. الخوف من فقدان المكانة الدينية لإيران باعتبارها المركز الشيعي الأول، مع وجود الطائفة الشيعية ومرجعيتها في العراق، وفيه المدن المقدسة مثل كربلاء والنجف الأشرف.

٣. الخوف من قيام الولايات المتحدة بالسيطرة على موارد النفط في مواجهة إيران.

٤. خوف إيران من تداعيات تأسيس نظام ديمقراطي في العراق، تكون له تأثيراته السلبية على النظام الإسلامي في إيران.

٥. خوف إيران من إقدام الولايات المتحدة على ضرب مفاعل بوشهر لاسيما في ضوء النوايا الأمريكية للعمل على منع إيران من حيازة سلاح نووي، وفى ظل هذا الواقع الجديد الذي أفرزته هذه الحرب واحتلال العراق تواجه إيران العديد من مصادر الخطر على أمنها القومي، وذلك بالرغم من أن الإطاحة بنظام صدام حسين قد أتاح لها تحقيق عدد من المكاسب في ظل الواقع الجديد، ويأتي في مقدمة المكاسب التي تحققت لإيران التخلص من نظام صدام حسين الذي تعتبره طهران السبب في حرب الثمان سنوات بين البلدين خلال الفترة بين عامي (١٩٨٠-١٩٨٨م)، وهي الحرب التي أرهقت (الجمهورية الإسلامية) الوليدة في إيران واستنفدت الكثير من قدراتها في هذا الوقت المبكر جداً من تأسيسها عام ١٩٧٩م، وفى السياق نفسه فقد أدى هذا الواقع إلى سقوط منافس إقليمي قومي، كان حائط صد منيع أمام محاولات إيران لتدعيم نفوذها الإقليمي في منطقة الخليج العربي، وبسقوطه فقد انتفى أحد مصادر تهديد الأمن القومي الإيراني عبر فترة تاريخية طويلة.

إن استمرار عدم الاستقرار في العراق، ليس بالضرورة مخالفاً لمصالح الدول الإقليمية وخاصة إيران، وإن كلاً من هذه الدول لها أسباب مختلفة للحفاظ على الوضع القائم وتستخدم كل منها أساليب مختلفة للتأثير على التطورات في العراق، حيث إن إيران لها وجود أمني واسع في العراق، كما أنها تتدخل دائماً في شؤون العراق، إما من خلال الشبكات الدينية التي تغطي عالم الشيعة، أو من خلال العالم المشبوه للمنظمات شبه العسكرية كالباسيج أو الباسداران واتصالاتها بمختلف الميليشيات الشيعية العراقية، وتوجد هذه

الروابط في أعلى المستويات في الحكومة العراقية وليس فقط الشخصيات السياسية الشيعية؛ بل أيضاً الأكراد وحتى بعض السنة، ولا تعد الولايات المتحدة من أكثر القوى الأجنبية القادرة في العراق، من حيث التأثير على الأحداث في المستقبل بل هناك إيران، وفي المنظور الجيوسياسي لإيران، فإن العراق وخاصة جنوبه، ما هو إلا الفناء الخلفي لإيران، إلا أن الأكثر إلحاحاً بشأن تورط إيران في العراق، فضلاً عن علاقات التاريخ والعقيدة هي كون العراق مسرحاً، حيث لإيران أن تحارب الولايات المتحدة بدون القيام بذلك علناً، وبنت طهران نفسها على الهيمنة على منطقة الخليج، مع وجود الولايات المتحدة في دول الخليج العربي التي تقف في طريقها، إن هذا الوجود يتم أخذه في أغلب الأحيان على أبعاد تهديدية ويعمل بمثابة حاجز أمام الطموحات الإيرانية في الخليج، وإن المواجهة الأخيرة حول البرنامج النووي لطهران من الممكن أن تتوصل إلى جعل الولايات المتحدة تقوم بعمل عسكري، ويمكن أن تستخدم الحكومة الإيرانية الآن الأحداث في العراق لإضعاف لجوء الولايات المتحدة على ذلك، على الأقل على صعيد الرأي العام المحلي، لاستهداف إيران بطريقة مباشرة، مع انجراف القوات الأمريكية لصراع بلا نهاية في مدن وبلدات العراق، ومع المعاناة في وقوع خسائر، يصبح أكثر صعوبة بالنسبة لقدرة الولايات المتحدة على القيام بهجوم على إيران.

إن قراءة بديلة للوضع تشير إلى أن إيران تقوم باستفزاز متعمد لضربة أمريكية، حيث من المؤكد أن الحكومة ستبقى وتقوى بالدعم الذي سوف تحصل عليه في مواجهة ما يسمى بالعدوان الصهيوني – الإمبريالي وفي كل الأحوال، فإن تأثير إيران في العراق يعمل لصالح الإستراتيجية الإيرانية؛ لذلك من مصلحة إيران أن تتعثر القوات الأمريكية في العراق، وأن تبقى هناك مشغولة لأطول فترة ممكنة؛ لذلك يرى البعض أن شعور إيران بأنها

ستكون الهدف التالي للولايات المتحدة بعد العراق جعلها تعتبر العراق خطها الدفاعي الأول، وتسعى لمنع الولايات المتحدة من الحصول على الفرصة والوقت الكافيين للتأمين والسيطرة الدفاعية على العراق، وإن أحد خياراتها هو إبقاء واشنطن منشغلة بالعراق من خلال اللعب بالورقة الشيعية، لكن هذه الإستراتيجية ستكون خطيرة بالنسبة لإيران لعدة أسباب منها:

أولاً: إن انكشاف التدخل الإيراني في جنوب العراق سيعطى واشنطن مبرراً كافياً لاتهامها بالمروق.

ثانياً: إن استعراض إيران لعضلاتها في الجنوب لا يعنى بالضرورة أن شيعة العراق سينصاعون إليها، وهم الذين اكتووا بنار الصراعات الماضية والذين يعتبرون نظام صدام خصمهم الأساسي الذي يجب أن تكون تجنب عودته بأي صورة من الصور هدفاً أساسياً.

هناك تيارات إسلامية هي في الوقت الحالي أشد خطراً على الولايات المتحدة من تلك الموجودة في إيران، كالتيار الوهابي، والسلفيين الإسلاميين، والذين يختلفون مع إيران، إذاً من مصلحة الولايات المتحدة استخدام إيران ومواليها في العراق لضرب أو تضييق الخناق على هذه الحركات التي تراها الولايات المتحدة أشد خطراً من إيران الجمهورية الإسلامية؟، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إلى جانب من يقف حكام العراق الجدد (والمقصود هنا بالائتلاف العراقي الموحد (الشيعي)، الذي ترعرع البعض من تنظيماته في إيران ونما عودها وقويت داخل تلك الدولة مثل حزب الدعوة الإسلامية، بل إن بعض التنظيمات ولد في رحم الجمهورية الإسلامية كالمجلس الإسلامي الأعلى في العراق، والجواب هنا صعب، بصعوبة القرار السياسي لحكام

العراق الجدد، فأي قرار هو أكثر مرارة من الآخر، والحقيقة أن هناك ثلاثة خيارات أمامهم.

الخيار الأول: الوقوف إلى جانب الصديق أو الحليف الجديد (الولايات المتحدة) ضد الدولة أو الامتداد العقيدي والمذهبي، طمعاً بالسلطة التي انتظروها طويلاً، وضياعها يعني الانتظار مجدداً لفترة جداً طويلة للحصول عليها مرة أخرى، إن لم يفقدوها بشكل نهائي حتى مستقبلاً، وهنا يكون حكام العراق الجدد رجحوا كفة المصالح على المبادئ فضلاًعن أنهم سيخسرون الكثير من تأييد الشعب لهم، لأن هناك تيارات عديدة بما فيهم من الشيعة أنفسهم تضمر الكره والعداء للولايات المتحدة كالتيار الصدري إضافة إلى تيارات وقوى أخرى مناهضة للاحتلال الأمريكي في العراق، ناهيك عن أنهم سيسخرون دعم المرجعية الدينية التي ساعدتهم في الوصول إلى السلطة، لأنه في كل الأحوال ومهما كان اختلاف وجهات النظر بين المرجعيتين الدينية في النجف وقم حول بعض المسائل، إلا أن موقف المرجعية الدينية في النجف سيكون بالتأكيد بالوقوف بالضد من أي عدوان أمريكي أو أجنبي ضد إيران، وهذا منطق طبيعي وبالنتيجة سيكون الخاسر الأكبر في العراق هم حكام العراق الجدد في الائتلاف العراقي.

الخيار الثاني: إن وقوف الحكام الجدد إلى جانب إيران في الصراع الأمريكي الإيراني، مفضلين العقيدة على الذات والمصلحة، فهذا يعني أن حكام العراق في قائمة الائتلاف ستخسر السلطة أيضاً وستدفع الولايات المتحدة القابضة والمهيمنة على السلطة الفعلية في العراق إلى دعم قوى أخرى قد تكون شيعية المظهر ولكنها أمريكية الجوهر، أو الإتيان بحكومة علمانية تلبي رغبات الولايات المتحدة دون إحراج أو خجل.

الخيار الثالث: هو الوقوف على الحياد، وهذا الموقف في جوهره هو أقرب إلى الموقف الأول لأن الولايات المتحدة ستستخدم من مركز إشعاعها المزمع في العراق محطة عدوانية أو على الأقل لوجستية في صراعها مع إيران. وبالتالي يكون العراق قد سهل للقوات الأمريكية من مهمتها في ضربها لإيران.

وخلاصة القول إن الحديث عن عداء أمريكي إيراني أو تقارب أمريكي إيراني له انعكاساته على العراق بعد الاحتلال كما كانت له انعكاساته قبل الاحتلال، ومتى مازالت أسباب هذه الخصومة والعداء أو الخلاف انعكس ذلك من موقفها إزاء العراق، وتتلخص أسباب هذه الخصومة وعداء الولايات المتحدة لإيران في الآتي:

١. توسع القوة العسكرية التقليدية لإيران.

٢. معارضة إيران عملية السلام في الشرق الأوسط.

٣. سعى إيران الحثيث إلى امتلاك السلاح النووي.

٤. طبيعة النظام الإيراني القائم على الفكرة الشيعية وتشجيعه الإرهاب والتخريب.

إلا أن أقوى الأسباب والذي يزيد في العداء الأمريكي الإيراني هو السبب الثالث كونه يثير أقصى درجات القلق للولايات المتحدة، وهذا ما حدث فعلاً حيث طورت إيران تكنولوجيتها وقدرتها على تخصيب اليورانيوم اللازم لتصنيع الأسلحة النووية، وهو الأمر الذي يثير قلق إسرائيل حليفة الولايات المتحدة، وهو ما ترفضه رفضاً قاطعاً.

تركيا:

تمحور الموقف التركي حتى نهاية شهر فبراير ٢٠٠٣م، وبشكل كامل في الموافقة على فتح القواعد الأرضية والجوية أمام القوات الأمريكية وبمشاركة القوات التركية بشكل مباشر في الحرب على العراق، وذلك مقابل حزمة من الطلبات تلبي رغبات صانع القرار التركي، وكانت الطلبات أو الثمن المطلق مقدماً كالتالي:

١. المطالبة بتمركز القوات التركية بين خطي العرض (٣٦، ٣٧).

٢. أن لا يقل تعداد أفراد الجيش التركي في العراق عن سبعين ألف مقاتل.

٣. يكون تموضع وانتشار القوات التركية خلف القوات الأمريكية.

٤. الحصول على ضمانات باستبعاد الأكراد من حكم شمال العراق.

٥. المشاركة في تقرير مصير العراق.

٦. الحصول على ١٥-مليار دولار في صورة قروض ومساعدات كتعويض عن الخسائر الاقتصادية.

وهكذا يتضح أن المطالب التركية كانت في سقفها الأعلى، ولو تحققت كانت ستذهب في تاريخ الجمهورية التركية كأكبر مكاسب إستراتيجية تحققت منذ تأسيس الجمهورية التركية بالعام ١٩٢٣م.

وتميز الأداء السياسي التركي أيضاً بسيادة تقديرات فعالية للمكانة الجغرافية التركية، مفادها الاعتقاد بأن واشنطن لن تدخل الحرب بدون تركيا؟ فثبت أن "السياسة التركية" مازلت رهينة تصوراتها المفرطة في التفاؤل عن حجمها الإقليمي والدولي؛ فأنقرة وإن تخطت مرحلة في طريقها للصعود الإقليمي بالانضمام إلى حلف الناتو وبتعاونها العسكري مع إسرائيل، إلا أن الأدوار الإقليمية لا يمكن لها تخطي الغطاء الدولي الذي يحدد سقف هذه

الطموحات ويعين هامش المناورة إلى حد كبير، وأثبت سير المعارك في العراق وتركيز القوات الأمريكية على الجبهة الجنوبية، بدلاً من الجبهة التركية الشمالية، الخطأ الكبير على الرهان بأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تدخل الحرب من دون تركيا، وأن واشنطن دشنت "سابقة تاريخية" في تاريخ العلاقات بين البلدين، عندما دخلت الحرب الواقعة على حدود حليفتها الإقليمية، ولكن بدون هذا الحليف حيث لم تحقق تركيا مكاسب إقليمية من الحرب على العراق واحتلاله، ويكفي للتدليل على وطأة هذه النتيجة في عدم حصول تركيا على فوائد إستراتيجية، ويضاف أن تركيا فقدت قدرتها على المبادأة في العراق، كما أن الحال قبل الحرب كان مريحاً نسبياً لأنقرة من حيث الموضوع الكردي، وما يبعث على قلق تركيا بعد احتلال العراق هو احتمال قيام دولة كردية أو شبه دولة **STATE SEMI** في شمال العراق والارتداد سلباً بالتالي على الأناضول.

وازدادت المخاوف التركية بعد دخول الأكراد كركوك بعد الاحتلال، وتعيينهم محافظاً كردياً هناك وقلبوا بالتالي سلم الأولويات التركي تجاه الموصل والأكراد، والجدير بالذكر أن طوال التسعينات كانت كركوك خارج منطقة "الحكم الذاتي الكردي" المقامة منذ عام ١٩٩١م، والآن كركوك تحت سيطرة عسكرية كردية كاملة وبمحافظ كردي، في شكل لا يخفى من أشكال "السيادة".

أثناء المفاوضات الأمريكية التركية كان المطروح هو شروط وأثمان، وكان التفكير يدور حول المشاركة في تقرير مستقبل العراق، والآن ينشغل صانع القرار التركي بأسئلة مثل: كيف يمكن ضمان عدم قيام دولة كردية في شمال العراق؟، وكيف يمكن منع الأكراد مستقبلاً من السيطرة على نفط كركوك والموصل؟، ولأن جار تركيا الجديد هو الولايات المتحدة الأمريكية

فقد ترتب على ذلك بالضرورة فقدان تركيا لدور الوكيل لأول مرة منذ عصر الحرب الباردة، فضلاً عن قدرة المبادأة وهي من المحددات الأساسية للأوزان الإستراتيجية والإقليمية، ويمكن إضافة عوامل خسارة أخرى مثل الانتعاش المحتمل في دور الأكراد العراقيين وتهديده المباشر للآمن القومي التركي، وأقصى ما تثار عليه السياسة التركية الحالية هو منع الأكراد من الحصول على نفط كركوك، لأن ذلك ليس ضرورياً لتحجيم تطلعاتهم القومية فقط، بل أيضاً لربطهم اقتصادياً بتركيا، وبالتالي منع اختلال التوازن داخل العراق كجزء من فضاء تركيا الاستراتيجي، وهناك مسألتان مهمتان تدخلان في الاهتمام الكبير لتركيا ولهما تأثيرهما الواضح في السياسة الخارجية التركية على الرغم من كونهما مسألتين عراقيين داخليتين وهما: المسألة الكردية وقضية مدينة كركوك، وكان للاحتلال الأمريكي دور في إثارتهما.

المسألة الأولى: تركيا لا تريد للأكراد إلى أن يصلوا إلى مرحلة قيام كيان خاص بهم شبه ما يكون بالانفصال عن العراق بحد ذاته، لأن ذلك يعني أن هذا الإقليم المنفصل سيكون امتداد للمناطق التي يسكنها الأكراد في جنوب تركيا، بل إن هذا الإقليم المنفصل عن العراق سيكون البداية لقيام دولة كردستان والتي تضم أراضي أخرى وبالأخص من تركيا وإيران خاصة إذا ما علمنا أن عدد الأكراد في هاتين الدولتين يفوق كثيراً عدد الأكراد في العراق فيما أن هناك عدد أقل في سوريا.

المسألة الثانية: تركيا لا ترغب بإحداث تغيير ديموغرافي لمدينة كركوك النفطية حيث ترى أن غالبية سكانها هم من التركمان الذين لديهم صلات وثيقة مع تركيا.

دول الجوار العربي

السعودية:

يؤثر احتمال ظهور الهلال الشيعي من العراق وإيران بلا شك على تصرفات بعض دول الخليج العربية في محاولاتها لتشكيل مسار الأحداث في العراق، ففي عام ٢٠٠٧م يظل احتمال حدوث الحرب السنية ـ الشيعية في الشرق الأوسط بعيداً، وعلى الرغم من ذلك فمن المؤكد أن قلق الدول العربية السنية في أن أحد المعاقل السابقة للقومية العربية، وهو العراق، هو الآن في أيدي أحزاب سياسة شيعية، وإن الدول الأجنبية الأكثر نفوذاً في البلاد هي إيران وقد سبب هذا الأمر ذعراً هائلاً، وخاصة في دول الخليج ولسبب وجيه وفى السعودية حيث إن المناطق الغنية بالنفط في إقليم الإحساء (أغلب سكانها من الشيعة) وعلى الرغم من أن القيادة المحلية تعلن ولائها للدولة السعودية، فإن الشيعة هناك يرتبطون قبلياً بالشيعة في جنوب العراق، ومعظمهم يختارون آية الله علي السيستاني (الفارسي) كمرجع لهم (مصدر محاكاة)، وسيؤدي أي انتصار للشيعة في العراق على السنة، وأي تقسيم للدولة إلى دولة كردية وسنية وشيعية، إلى اضطراب كبير للقيادة السعودية ولا يجب أن تقف السعودية مكتوفة الأيدي في حال انسحاب الولايات المتحدة من العراق الآن، والسبب الرئيس أن هذا الإجراء سيكون إيذاناً ببدء الحرب الأهلية السنية الشيعية في العراق، مع إمكانية محاربة إيران والسعودية بعضهما البعض في العراق وهناك تصور سعودي في احتمال سعي الولايات المتحدة إلى تقسيمها مستقبلاً، إذ تستخدم الولايات المتحدة وسيلة التهديد بالتقسيم أما

بالابتزاز السياسي أو لتحقيق التقسيم واقعاً على الأرض في ظروف مستقبلية بحجة من الحجج وهذا يعود إلى تنامي اليمين المتطرف في الإدارة الأمريكية منذ أحداث أيلول ٢٠٠١م باعتبار أن السعودية بؤرة التطرف والإرهاب، كما أن السعودية تخشى من إقامة نظام حكم شيعي في العراق وخاصة إذا كان هذا النظام متحالفاً مع الولايات المتحدة، وكذلك ترفض السعودية الفيدرالية المقترحة في العراق والتي ستشكل في جنوبه إقليماً شيعياً ترى فيه امتداداً لإيران ومحاذياً لمناطقها الشرقية ذات الأغلبية الشيعية.

سوريا:

هي من الدول العربية التي لا ترتبط بعلاقات جيدة مع الولايات المتحدة، فعلاقاتها متوترة دائماً مع هذه القوة العظمى وذلك بسبب عدد من الملفات، منها الموقف من إسرائيل وعملية التفاوض معها، والملف الفلسطيني المتضمن دعم سوريا لمنظمات فلسطينية إسلامية مثل حركة حماس والجهاد الإسلامي، والملف اللبناني، وما ارتبط به من اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، وما تلاه من تداعيات، ثم دعمها لحزب الله المناهض لإسرائيل، ثم جاء الملف العراقي الذي احتوى اتهام سوريا بتوفير ملاذ لعناصر النظام السابق، ودعم العمليات الإرهابية والمساهمة في عدم الاستقرار في العراق، وتسهيل مرور الإرهابيين بعد تدريبهم ودعمهم فضلاً عن تحالفها الاستراتيجي مع إيران ذات النظام غير الودود مع الولايات المتحدة.

إن طبيعة العلاقات السورية الأمريكية وخاصة بعد الرفض السوري للحرب على العراق عام ٢٠٠٣م ازدادت تأزماً بسبب تقرب القوات الأمريكية من الحدود السورية، وهذا ما حدث فعلاً فأصبحت القوات الأمَريكية على الشرق من حدودها، بل أصبحت سوريا في وضع جيوستراتيجي جديد لا

يحسد عليه، هذا الوضع جعلها بين السندان الإسرائيلي في الجنوب ومطرقة العراق المحتل من قبل القوات الأمريكية في الشرق إضافة إلى لبنان الذي بات مصدر ضعف لها بدلاً من كونه مصدر قوة.

إن الموقف السوري من الحرب على العراق جعل الإدارة الأمريكية تبعث الحياة من جديد في قانون محاسبة سوريا، ثم إقراره بعد أن وافق عليه مجلس النواب الأمريكي في ٨ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣م، أما البعد الاستراتيجي السوري فإنه يختلف نسبياً عن كل من تركيا وإيران فمن ناحية لا تملك سوريا أوراقاً أو أدوات تدخل فاعلة مثل البعد الشيعي بالنسبة لإيران، كما أن المشكلة الكردية أقل أهمية مما في تركيا التي ترتبط هذه المشكلة لديها بصميم أمنها القومي، لكن دمشق محكومة في سياساتها تجاه العراق بالعامل الأمني أيضاً ولكن بدرجة مختلفة عن تركيا، وذلك أن العراق هو الجار الشرقي المباشر لسوريا؛ ما يعنى أن طبيعة الوضع السياسي في العراق وتوجهات النظام الحاكم هناك من شأنها التأثير مباشرة على سوريا سلباً وإيجاباً وهو ما ينطبق بشكل أوضح على الوضع الراهن للعراق المحتل أمريكياً وبريطانياً.

وعلى المدى البعيد يبدو الأمر أكثر غموضاً وبالتالي مدعاة لقلق سوريا ذلك أن النظام العراقي السابق رغم العداء الشديد الذي ميز علاقته بدمشق لم يكن مصدر خطر حقيقي على الأمن السوري وطالما اجتمع البلدان على ما يشبه اتفاق ضمني غير مكتوب بعدم تحويل الخلافات السياسية والفكرية بين حزب البعث العربي الاشتراكي في القطرين إلى سياسات أو مواقف عدائية في حين أن الوضع الجديد في العراق _ ليس فقط بعد العملية الحالية لنقل السلطة بل أيضاً بعد خروج القوات الأمريكية هذا إذا خرجت _ غير مأمون

والمعطيات الحالية لا تحمل أي ضمانات أو تطمينات بشأن مستقبل الأوضاع على جبهتها الشرقية.

الأردن:

هو أقل دول المنطقة تأثيراً بتداعيات الاحتلال للعراق، كونه قادراً على التكيف مع الأهداف والمصالح الأمريكية، والأردن الذي كان له موقف مغاير عن الدول العربية ١٩٩٠م من غزو العراق للكويت وفى التحالف الدولي ضد العراق في حرب عام ١٩٩١م، والذي تجسد بمعارضة الحرب وأراد حل المسألة عربياً، وعاد وأبدى معارضته أيضاً للحرب عام ٢٠٠٣م، وهذه المرة جاء منسجماً مع مواقف الدول العربية الرافضة للحرب، وقد عبر الملك عبد الله من أن "ضرب العراق" يمثل كارثة للعراق وللمنطقة ويهدد أمن المنطقة واستقرارها، ولكن بعد اندلاع الحرب، واحتلال العراق، لم يحمل الملك عبد الله مسؤولية اندلاع الحرب لقوى التحالف فقط بل حمل صدام وكبار المسؤولين ذلك أيضاً، وهذا الإدراك الأردني متأت من قدرة النظام الأردني للتكيف مع الواقع والتعامل مع المتغيرات الجديدة التي ظهرت في الساحة الإقليمية.

إن تداعيات الاحتلال الأمريكي للعراق على الأردن لم تأت من وجود القوات الأمريكية في العراق، بل على العكس فقد تكيف مع نتائج الحرب الأمريكية على العراق، إلا أن ما أفرزه الاحتلال من نتائج فيما بعد ووصول "الشيعة" إلى السلطة في العراق هو الذي يقلق الأردن، وهذا ما عبر عنه العاهل الأردني من خشيته من إقامة ما أطلق عليه "الهلال الشيعي" والذي

يمتد (عبر تصوره) من إيران ليشمل العراق وسوريا والأردن، كما تحدث عن تفاصيل مثل أن هناك أكثر من مليون إيراني عبروا الحدود إلى العراق ليصوتوا في الانتخابات بتشجيع من الحكومة الإيرانية، كذلك فإن فكرة الفيدرالية تثير قلق النظام الأردني الذي عبر عنه العاهل الأردني حينما قال: "أخشى أن يكون اعتماد الفيدرالية طريقاً خاصة إذا ما بنيت على أسس طائفية وقومية".

الكويت

تبقى الكويت وعلاقتها بالعراق تشكل أحداثاً مهمة في التاريخ، وهي السبب المباشر لتغيير وجه العالم ونمط العلاقات الدولية، إلا أن هذا لا يعفي الكويت من تداعيات احتلال القوات الأمريكية للعراق، إذ إن هذه الدولة الصغيرة الحجم قدمت دعماً استراتيجياً ولوجستياً للقوات الأمريكية؛ حينما دخل في أراضيها أكثر من (٢٥٠) ألف جندي من القوات المتعددة الجنسيات وآلاف من المعدات والآليات والعربات المدرعة، وسمحت كذلك لهذه القوات باستخدام القاعدتين الجويتين العسكريتين (علي السالم وأحمد الجابر) كما سمحت باستخدام موانئها البحرية وتقديمها ملايين الدولارات كدعم عيني يشمل الغذاء والوقود، وكتقدير أمريكي للدور الكويتي هذا صنفت إدارة بوش في أبريل (نيسان) ٢٠٠٤م الكويت حليفاً رئيسياً (خارج حلف الناتو) وهو تصنيف تم إعطاءه لدول قليلة في العالم منها مملكة البحرين من دول الخليج العربي فقط، ورغم كل هذه المواقف الكويتية للولايات المتحدة الأمريكية إلا أن هذا لا يعفيها من تداعيات الاحتلال الأمريكي للعراق، لكونها دولة شرقية، أوسطية ومعنية بالتغيير من خلال:

١. استمرار الفوضى وعدم الاستقرار الأمني في العراق وهذا معناه تصدير هذه الحالة إلى الجارة الكويت لاسيما وإن مجتمعها الداخلي مهيأ على حد ما لاستقبال مثل هذه الفوضى.

٢. الكويت أيضاً تخشى النفوذ والسيطرة الشيعية المطلقة في العراق لما في ذلك من تأثير على أوضاعها الداخلية حيث أن الجنوب العراقي ذو الأغلبية الشيعية محاذٍ لحدودها، وخشيتها تزداد على وفق تصورها فيما إذا كان هذا النفوذ الشيعي هو امتداد للنفوذ الإيراني، علماً بأنها اكتوت بنيران علاقاتها مع إيران إبان الحرب العراقية الإيرانية.

٣. أما في حالة فرضية استقرار العراق، وجعله نموذجاً في الشرق الأوسط وفق التصور الأمريكي والأكثر ترجيحاً أنه سيكون في العراق نظام وفق التصور الأمريكي، كما أن الأكثر ترجيحاً أنه سيكون في العراق نظام علماني ليبرالي (على وفق الوصفة الأمريكية)، وهذا سيدفع بتأثيراته إلى خلق مؤسسات المجتمع المدني في الكويت على غرار ما سيكون في العراق، الأمر الذي سيؤثر مستقبلاً على طبيعة نظام الحكم في الكويت بما يتماشى مع المشروع الأمريكي لنظامها الشرق أوسطي الكبير.

٤. على الرغم من انتهاء نظام صدام حسين قد أنهى هاجساً أمنياً ظل يؤرق دولة الكويت طيلة أكثر من عقد، إلا أن هذا لا يعني نهاية المشكلة بين العراق والكويت، فالعراق المعول عليه في أن يكون قاعدة الارتكاز لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وهذا يتطلب أن يتنفس جغرافياً خاصة في إطلالته على الخليج العربي، حيث إن هذه الإطلالة في الوقت الحاضر ضيقة جداً، وبما أنه مقبل على مشاريع اقتصادية ضخمة فيما إذا لو صدقت الوعود الأمريكية، فإنه يحتاج إلى موانئ وسواحل أوسع على الخليج العربي وبالتأكيد

ستكون هذه على حساب الكويت، فلذلك لازال بعض المسؤولين العراقيين يطرحون مسألة تأجير جزيرة وربة وبوبيان، وهذا ما يؤرق الكويتيين خاصة وإن العراق أصبح أو سيصبح حليفاً للولايات المتحدة، وبمعنى أن هذه الأخيرة سوف لن تقف مستقبلاً مع الكويت ضد حليفها الجديد العراق، وهذا الأمر قد يدفع الكويت مكرهة إلى تلبية مطالب (العراق الجديد) الصديق والحليف للولايات المتحدة.

المراجع

١. أحمد منيسي، نكبة العراق؛ الآثار الاقتصادية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية الأهرام.

٢. ريم فؤاد شلبي/قبول الحقائق في العراق/ قراءات إستراتيجية/مركز الدراسات الإستراتيجية الأهرام السنة الثانية عشر/ والعدد الثامن/ أغسطس ٢٠٠٧م.

٣. د. حميد شهاب/ تداعيات الوجود الأمريكي على دول الجوار العراقي/ مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد: ١/٢٠٠٦م.

٤. د. مصطفى اللباد/ احتلال العراق وانعكاساته الإستراتيجية على تركيا ودورها في المنطقة/ الأهرام / مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية.

٥. سامح راشد/ عراق ما بعد الانتخابات/ نظرة عن المحيط الإقليمي/ السياسة الدولية والعدد /٦٠ / مركز الأهرام ٢٠٠٥م.

٦. د. سعدون الدليمي/ الآفاق المستقبلية للعلاقات العراقية- السورية/ مركز الخليج للأبحاث العدد السابع مارس / آذار /٢٠٠٥م.

٧. د. فيصل الرفوع/ العلاقات الأردنية العراقية مركز أبحاث الخليج العدد السابع مارس/ آذار/ ٢٠٠٥م.

٨. عبد الله خليفة الشايجي/ العلاقات الكويتية- العراقية/ مركز أبحاث الخليج العدد الرابع / أبريل / آذار / ٢٠٠٥م.

٩. د. عبد الكريم العلوجي/ الطرق من الاحتلال العسكري للاحتلال التعاقدي/ جريدة العربي – القاهرة.

الإسلام والغرب.. تعاون أم مواجهة!

د. محمد مورو [1]

هناك الآن أكثر من اتجاه بشأن العلاقة المفترضة بين الإسلام والغرب أو الإسلام وأمريكا باعتبارها الممثلة الكبرى للحضارة الغربية.

فهناك الغرب وأمريكا وبعض القوى المحلية عندنا تدعونا إلى الالتحاق بالركب الحضاري الغربي والاندماج في الحضارة الغربية والتخلي عن ديننا وحضارتنا وقيمنا أو على الأقل قصر علاقتنا به على العبادة الفردية والضمير، وهؤلاء يقولون إنه قد ثبت أن الحضارة الغربية حضارة عظيمة ويجب أن تسود العالم، أو يقولون إنه لا أمل ولا فرصة للمواجهة ومن الأفضل أن ننصاع لها، وهؤلاء بالطبع منافقون ومخادعون فلا الحضارة الغربية حضارة عظيمة، ولا هي حضارة ذات أخلاق، ولا هي قدر مقدور لا يمكن الفكاك منه، هؤلاء بالتحديد يدعوننا إلى الاستمرار في أداء دور

[1] باحث ومفكر إسلامي مصري.

الضحية والذبيحة، خاصة بعد أن شحذ الجزار سكينه وأصيب الآكلون بـنهم شديد، وفضلاً عن أننا سنكون مجالاً للنهب فإنهم يطلبون منا أن نتخلى عن قيمنا وذاتيتنا ومبادئ ديننا وحضارتنا وهذا بالطبع مرفوض.

واتجاه آخر يقول بأن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض أو تتزاوج وإن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أي أنها استفادت من كل الحضارات التي سبقتها وتفاعلت وتزاوجت معها وخرجت في النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها، وهذا الرأي خطير وبراق ولكنه خطأ، ولكي نعرف أنه خطأ ينبغي علينا أن نفرق بين أمرين أحدهما التفاعل والتزاوج والآخر التعاون، فالتفاعل والتزاوج لا يتم إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل الحضارة الرومانية واليونانية والإغريقية والجرمانية والسكسونية وهكذا.. وهذا التفاعل والتزاوج لا يتم بين حضارات من عائلات مختلفة، أي مختلفة نوعاً وكمياً، فلا يمكن مثلاً الحديث عن تمازج وتزاوج حضاري بين حضارة تقوم على الوثنية كالحضارة الغربية وأخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية، والأمر هنا أشبه بعمليات التطعيم التي تتم في النباتات، فلابد لكي تنجح عملية التطعيم هذه أن تكون بين أنواع معينة من النباتات تنتمي إلى عائلة واحدة، أو عائلات متقاربة، ولكن هذا التطعيم يفشل تماماً إذا ما تم بين شجرتين لا تنتميان إلى عائلة أو عائلات نباتية متقاربة.

وفي الحقيقة إن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل؛ لأن أي دراسة متعمقة للأساسيات التي قامت عليها كل من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية لا تترك مجالاً للشك في أن لكل منهما طريقاً مختلفاً وسياقاً خاصاً، لهذا يهدف الحديث عن التواصل الحضاري أو التفاعل الحضاري أو التزاوج الحضاري إلى

الإلحاق والتبعية الحضارية باعتباره جزءاً أساسياً في عملية الإلحاق الاقتصادي والثقافي والسياسي والسيطرة العسكرية.

وينبغي في هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط، فالداعون إلى الاندماج في الحضارة الغربية، ينسون نقطة أساسية وهي أن الحضارة الغربية لن تقبل الاندماج بها وأن يصبح غيرها جزءاً منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية معها، إنهم فقط يعنون بالاندماج أن نظل تابعين وأن نظل مجالاً للنهب دون مقاومة، ففرنسا مثلاً التي أدمجت الجزائر فيها وجعلتها جزءاً منها لم تقبل أن تعطي الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلاً ولم تقبل أن يكون لهم مثل حقوق الانتخاب التي للفرنسي مثلاً!.

والداعون إلى التزاوج والتفاعل الحضاريين مع الحضارة الغربية ينسون الظروف المشبوهة التي ظهرت فيها مثل هذه الدعوة، فهذا الموضوع لم يطرق بعيداً عن غايات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الاستعمارية والشعوب المقهورة والمستضعفة، فعندما طرح منظوراً أوروبياً هذا الموضوع كانوا في أغلبهم يرمون إلى سيادة الحضارة الأوروبية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم ومعايير ومفاهيم، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوروبية وضرب الحضارات الأخرى، أو طمسها، أو الإنقاص من قدرها أو خلطها بما يلغيها، وهو أمر يؤدي بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية، وإلى ضرب عوامل وجودها المادي والثقافي المستقل، فتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين ثم تتحول إلى تابع ذليل تلتقط الفتات، وتقف على العتبات، دون السماح لها بالدخول إلى صدر البيت.

والشيء الوحيد الممكن في العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون على أساس استقلال كل منهما وعلى أساس انفراد كل منهما بخصائصها الذاتية المتميزة دون أن تحاول

السيطرة أو ظلم أو نهب الأخرى، والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون ويدعو إليه في إطار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئة، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية التخلي عن النهب والظلم والعنصرية والعنف من أجل هذا التعاون؟ لنأخذ مثلاً مجال العلوم الطبيعية، وهذه الأطروحة تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم في اتجاه معين أي لإنتاج سلعة ضرورية مثلاً أو كمالية، للقضاء على مرض أو لنشر مرض! لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها.

أي أن هناك شقاً علمياً وشقاً قيمياً، والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علمياً كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعياً لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين، لأن حبس العلم جريمة في الفقه الإسلامي، أما الحضارة الغربية فإنها عندما تقدمت علمياً استخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر وسائل النهب وقهر الشعوب الأخرى وظلمها بل إنها أيضاً تحجب العلم عن الشعوب الأخرى، بل وتحاكم من يجرؤ على نقل شيء منها لبلاده " قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً " بل تغتال كل من ينجح علمياً في البلاد الأخرى.

على أية حال من الناحية النظرية يمكن التعاون في الاستفادة من العلوم الطبيعة ونقلها دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها أي في الشق العلمي دون الشق القيمي، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك وهي التي تغتال العلم، وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلك، بل وتضرب أي نهضة علمية في أي مكان خارج دائرتها الحضارية؟.

نؤكد مرة أخرى أن الإسلام يحض على التعاون، ويحرص عليه، ولكن التعاون ليس الاندماج والتزاوج والإلحاق، التعاون يقوم على استقلال

حضاري كامل فالحضارة الغربية عندما نقلت العلوم الطبيعية من الحضارة الإسلامية أخذتها دون شقها القيمي، أخذتها وهضمتها ووجهتها وفقاً لمعاييرها الحضارية، وجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب، أما نحن فمن المفروض أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغرب دون شقها القيمي فنهضمها وتصبح جزءاً من شخصيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقاً لمعاييرنا وقيمنا الحضارية في إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر وليس لنا وحدنا.

هل هناك فرصة للتعاون مع الغرب؟

قلنا إنه لا يمكن ولا نقبل لا الإلحاق الحضاري مع الغرب ولا التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية؛ لانتمائهما إلى عائلتي حضارتين مختلفتين، ولأن هذا في النهاية يعني التحول إلى تابع ذليل يظل خاضعاً للنهب والسيطرة، وقلنا إن العلاقة الصحيحة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية هو التعاون على أساس الاستقلال الحضاري الكامل والشخصية الحضارية المستقلة، ولكن هل هناك فرصة للتعاون؟ هل يقبل الغرب هذا التعاون؟ هل تاريخنا معه يسمح بذلك؟ هل تركيب الحضارة الغربية تسمح بذلك؟.

إن تركيبة الحضارة الغربية تقوم على النهب والقهر والعنصرية، ورخاء ورفاهية أهل الحضارة الغربية جاء من نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها، ولكي تستمر هذه الرفاهية لابد أن يستمر النهب والقهر، فهل أهل الحضارة الغربية مستعدون للتوقف عن النهب والقهر والعنصرية؟ هل هم مستعدون للتخلي عن رفاهيتهم القائمة على ثروات الآخرين من أجل التعاون معنا أو مع غيرنا؟

أعتقد أن ذلك صعب، بل يبدو مستحيلاً، وبالتالي فإمكانية التعاون بشروطها الصحيحة صعبة أيضاً، بل وتبدو مستحيلة وحتى إذا حدثت المعجزة وتخلى أهل الشمال عن القهر والعنف والعنصرية فماذا يبقى من الحضارة الغربية؟ إنهم يسقطونها تماماً، إنهم يفقدونها سماتها الأساسية، أي يقبلون الاندماج في نمط حضاري آخر وفي حالة دخولهم في النمط الحضاري الإسلامي مثلاً، فإننا لن نعاملهم معاملة التابع، بل معاملة الإسلام التي تقول إنهم أصبحوا مثلنا تماماً لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وإذا كانت تركيبة الحضارة الغربية لا تسمح بالتعاون إلا بانتفاء خصائص الحضارة الغربية ذاتها، وبالتالي فالتعاون هنا صعب ويكاد يكون مستحيلاً، ورأي أهل الحضارة الغربية فينا وموقفهم منا لا يسمح بقيام مثل هذا التعاون، فهم ينظرون إلينا نظرة صليبية عنصرية حاقدة لا تقبل بأقل من تدمير حضارتنا تماماً، وفي قول لا يخلو من الدلالة يقول المعلق فاسيليف: "إن أمريكا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة التي حلت محل الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان إمبراطورية الشر القديمة والتي تركزت كل الجهود الأمريكية خلال أكثر من أربعين عاماً للقضاء عليها".

وهذا المعلق المشهور فاسيليف استخدم هذه الحقيقة ونفس المصطلح المستخدم دائماً من قبل الأوروبيين والأمريكيين تجاهنا، فالبابا أوربان الثاني الذي فجر الحروب الصليبية قال في مجمع كليرمونت في سنة ١٠٩٥م: "إن إرادة الرب تحتم على المسيحيين تخليص بيت المقدس من أيدي إمبراطورية الشيطان"، وعندها خرّ الكهنة الحاضرون راكعين تحت قدمي البابا!.

والبارون دي كارافو يقول: "أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامي وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية

الانقسامات السياسية والعرقية.. دعونا نمزق الإسلام بل نستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية.. وذلك لكي نضعف الإسلام، لنجعله عاجزاً إلى الأبد عن صحوة كبرى[1]".

ويقول يوجين روستو اليهودي: "إن الحوار بين المسيحية والإسلام كان صراعاً محتدماً على الدوام، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامي للتراث المسيحي وتركت هذه آثارها البعيدة في المجتمعات الإسلامية[2]".

ويقول لورانس براون: "لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لهذا الخوف، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر وبالخطر البلشفي إلا أن هذا التخويف كله لم نجده كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا اللدود، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفر "الصين، اليابان" فإنها ليست خطيرة لهذه الدرجة، ولكن الخطر الحقيقي كان في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي[3]".

ويقول مورو بيرجر في كتابه "العالم العربي": " لقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام فليدمروا بتدميرهم الإسلام[4]"، ويضيف مورو بيرجر: "إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام، ويجب محاربة الإسلام

(١) مروان بحيري – الدراسات الاستعمارية في الإحياء الإسلامي في القرن ١٩.

(٢) نقلاً عن عبد الوراث سعيد "أمتنا والنظام العالمي الجديد".

(٣) د. مصطفى الخالدي.. د. عمر فروخ – التبشير والاستعمار.

(٤) جلال العالم – قادة الغرب يقولون – المختار الإسلامي.

للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قـوة العـرب، لأن قـوة العـرب تتصاحب دائمـاً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره[١]"، ويقول ج. سيمون: "إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على الـتخلص مـن السيطرة الأوروبية[٢]".

ويقول سالازار دكتاتور البرتغال الـسابق: "إن الخطـر الحقيقـي علـى حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم"، ولمـا سأله أحد الصحفيين: ولكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم عنا.. أجابه: "أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا[٣]".

ويقول ريتشارد هرير دكمجيان: "إن قلة فقط خارج نطاق العالم الإسلامي كانت قادرة على توقع انبعاث إسلامي فـي البيئـة المعاصـرة وإن ضـعف البصيرة في مجال التصور الذي أحدثته المادية الغربية والماركسية قد أعمـى بقوة كل العلماء ورجال الدين الذين مالوا إلى استبعاد قوة الإسلام أو التقليـل من شأنها[٤]".

ويحذر المفكر الألماني باول شمتز قائلاً: "سيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً مـن الشرق، عوداً على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة العالميـة الإسـلامية في الصدر الأول للإسلام وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسـلام ووحدته العسكرية، وستثبت هذه القوة وجودها، إذا ما أدرك المسلمون كيفيـة

---

(١) محمد محمد الدهان – قوى الشر المتحالفة – دار الوفاء.

(٢) د. عمر فروخ – مرجع سابق.

(٣) جلال العالم – مصدر سابق.

(٤) ريتشارد هرير دكمجيان – الأصولية في العالم العربي – ترجمة عبد الوارث سعيد – دار الوفاء.

استخراجها والاستفادة منها وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية[1]".

ويقول المفكر الإنجليزي هيلد بيلوك: "لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه".

وما بين الحقد على الإسلام، وكراهيته، والدعوة إلى تدميره والقضاء عليه أو التخويف منه ومن خطره التي تسود الروح الفكرية الأوروبية على اختلاف مدارسها هل هناك فرصة للتعاون بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية؟.. الإجابة: هذا صعب بالطبع.

وإذا تركنا كل ما سبق والتفتنا قليلاً إلى التاريخ، نجده مفعماً بالصراع الدامي الذي خاضته الحضارة الأوروبية ضد الإسلام للقضاء عليه وخاصة الإسلام دفاعاً عن نفسه ونشراً لقيمه وإنقاذاً للعالم من الظلم والطغيان.

خاض الإسلام معارك شرسة ضد الحضارة الأوروبية المتوحشة منذ اللحظة الأولى واستطاعت جيوش الإسلام أن تنتصر في اليرموك وعمورية وحطين، ثم بدأت أوروبا تستعيد المبادرة فظهرت الحروب الصليبية بدءاً من سنة ١٠٩٥م وحتى ١٢٩٤م في المشرق العربي أما في المغرب العربي فإن الإسلام استطاع أن يفتح أفريقيا والأندلس.

واستمرت المعارك مع الحضارة الغربية في الأندلس ثمانية قرون وفي بلاد المغرب العربي ألف عام قبل دخول الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الأندلس، ولم يتوقف الصراع مع الحضارة الغربية لا في

---

[1] باول شمتز – نقلاً عن عبد الوارث سعيد – أمتنا والنظام العالمي الجديد.

الشرق ولا في الغرب، ففي الشرق ظهرت الخلافة العثمانية واستطاعت أن تنقذ العالم الإسلامي من السقوط، ودخلت في معارك طاحنة مع أوروبا انتهت بفتح القسطنطينية ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح، بل وانتشرت جيوش الإسلام في أوروبا مرة أخرى تعاود الهجوم، وتعرضت الخلافة العثمانية إلى ضغط رهيب انتهى بسقوطها، وقبل ذلك بقليل بدأت أوروبا حملتها الصليبية الثانية على العالم الإسلامي والمسماة باسم الاستعمار بدءاً من هجوم نابليون ١٧٩٨ وانتهاء بسقوط معظم بلاد العالم الإسلامي في قبضة الاحتلال الأوروبي، وفي المغرب العربي ظلت أوروبا ترسل حملاتها الصليبية إلى المغرب بعد سقوط الأندلس، فتعرضت الجزائر وحدها إلى ١٠٠ حملة صليبية في أقل من ٣٠٠ عام بعضها برتغالي والآخر فرنسي أو إنجليزي أو إسباني أو ألماني أو بلجيكي بل وحتى أمريكي، وانتهى الأمر بسقوط الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي ١٨٣٠م ثم تبعتها المغرب وتونس.

إذاً فبرغم أننا لا نرفض التعاون مع الحضارة الأوروبية في إطار الاستقلال الحضاري لكل منا، إلا أنه لا التركيبة الحضارية الغربية تسمح بذلك ولا رأي قادتها فينا وأهدافهم تجاهنا تسمح بذلك، ولا تداعيات التاريخ القديم والحديث تسمح بذلك، وبالتالي لكي نعيش لا نخضع ونذوب وننتهي لابد من المواجهة.

حرب شاملة في مواجهة حرب شاملة..

إذاً فالمعركة حتمية، ولا سبيل هناك إلا المواجهة، أو الموت، وحتى المواجهة مع الهزيمة ربما تعطينا الفرصة في الصمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود من جديد لتثمر في مرحلة أخرى، ولكن الانصياع

والخضوع لا يعني فقط خسائر هائلة في الحاضر بل يعني تدمير المستقبل، لأنها تطال البذور الكامنة تحت التربة.

والمعركة هنا معركة حضارية شاملة، أي سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والغرب يستخدم معنا كل الوسائل السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية أيضاً، وما دام الغرب يشن علينا حرباً شاملة فلابد من مواجهته بحرب شاملة، تواجه بالكفاح وحتى إذا سلمنا بصحة مقدمة هؤلاء وهي أن الغرب وأمريكا أقوياء بدرجة لا يمكن مواجهتها، فإن النتيجة التي توصلوا إليها خطأ، لأن معنى مثل هذه القوة الهائلة للغرب وأمريكا أن الخضوع لهم سيؤدي إلى النهاية والموت والاندثار، وأن الخضوع لن ينقذنا ولن يحقن دماءنا، بل إن الخضوع سيتسبب في خسائر أكثر من المواجهة حتى ولو كانت غير متكافئة، على الأقل فالمواجهة سوف تقلل الخسائر وسوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء، بعيداً عن يد الغرب فتعود لتثمر في فرصة أخرى مستقبلية.

وفضلاً عن ذلك فإن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير من نقاط الضعف التي ينبغي الصمود واستثمارها أو الصمود وانتظار أن تؤدي تلك المواقع الضعيفة في جسد الحضارة الغربية إلى انفجار داخلي، فالإنسان في الحضارة الأوروبية مثلاً يفتقد التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقد التوازن في علاقاته مع الجماعة، وهذا يؤدي إلى انتشار الأمراض النفسية والجريمة والانحراف والشذوذ الجنسي وزيادة استهلاك الخمور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من سكان أوروبا وأمريكا وهو ما يمكن أن يؤدي على المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية من داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة في تحقيق أقصى قدر من النهب وبالتالي عدم التورع عن استعمال أقصى قدر من العنف ومع تزايد قوة الأسلحة

الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف مما يجعلها في النهاية قابلة للانفجار من داخلها أو بالتصادم مع بعضها البعض وإذا كانت الحرب العالمية الثانية التي نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمي إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل ٦٢ مليون إنسان معظمهم من الأوروبيين فكم يا ترى سوف يقتل في المعركة المسلحة والحرب الشعبية، وعلينا أن نواجه بالوسائل السياسية ونواجهه برفض الخضوع لوسائل النهب التي يمارسها ومن خلال بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ويعتمد على قوانا الذاتية ويقطع تماماً خيوط التبعية مع الغرب، ونواجهه أيضاً بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة وكل أشكال الاختراق الثقافي، ونواجهه بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية، ونواجهه بالوحدة، ورفض التجزئة التي فرضها علينا، ونواجهه بتعبئة شعبية شاملة، ونواجهه بحرب حضارية شاملة في مواجهة حرب حضارية شاملة.

ويجب أن ننتبه هنا إلى نقطة خطيرة، وهي أن أخطر هذه المواجهات هي على الجانب الثقافي، لأن الاختراق الثقافي يدمر حياتنا من الداخل، ويقلل قدرتنا على المواجهة ويضرب فينا قيمنا الإيجابية مثل الجهاد والوحدة والرفض، وبالتالي يجعلنا عاجزين عن المواجهة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولابد أن ننتبه إلى أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلاً أن نستخدم قيماً ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها ومهما كانت براقة فإنها لن تجدي في مواجهته، فكيف أواجهه على أرضيته الثقافية والحضارية؟ لابد أن أواجهه بأساليب وتكتيكات وقيم ووسائل واستراتيجيات مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الاستمرار.

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب وأمريكا وأن توازن القوى مختل تماماً لصالحهم، وأنه لا داعي للمواجهة؛ لأنها لن تفيد وأنه من الأفضل الخضوع أو البحث عن سبيل للتفاهم، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقاً لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط، مع العلم أن القدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلى مثيلتها أثناء الحرب العالمية الثانية، وفضلاً عن ذلك فإن الرغبة في الربح بدون وازع أخلاقي ولا مراعاة للتوازن البيئي يمكن أن تؤدي إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله.

ويلخص الأستاذ منير شفيق في كتابه: "الإسلام في معركة الحضارة" نقاط الضعف في الحضارة الغربية كالتالي:

١. التطور العام غير المتوازن بالنسبة إلى مختلف المجالات، فقد تكثف في المجالات المادية واختل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية مما يؤدي في النهاية إلى الإسراع بسقوطها لأن حالها يصبح كحال الذي يقف على قدم واحدة، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلى هزة قوية.

٢. اتسعت الهوة بين أصحاب تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبل لها بها، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنت تظل ضعيفة أمام قوة الأغلبية المظلومة صاحبة الحق، فالتضاد مع حقوق غالبية الشعوب ومصالحها يؤدي إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن.

٣. التآكل الداخلي يشكل سمة أساسية مميزة لمجتمعات الحضارة الإفرنجية سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع منفرداً أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها، إن الصراع على امتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يؤديان بالإسراع بعملية التآكل الداخلي.

٤. إن إطلاق الغرائز والنزعات البهيمية وانتشار الفساد والانحلال قد يصل في تلك الحضارة إلى ضعف داخلي شديد يجعلها غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها المادية، مما قد يكرر صورة الجندي الروماني الذي ربط بالسلاسل لكي لا يفر في معركة اليرموك، على الرغم من الكثرة العددية للرومان في تلك المعركة، وقوة دروعهم، وطول رماحهم ومضاء سيوفهم وفراهة خيولهم.

وقد يقول قائل إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج نقاط ضعفها أو تتخلص منها، وبالتالي تجدد نفسها، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية وطبيعة وجوهر نقاط الضعف فيها؛ لأن نقاط الضعف هنا هي من صميم وجوهر الحضارة الغربية وليس عارضاً عليها ولا ناشئاً من عوامل جانبية أو إهمال من القواد أو غيرها، إنها تنبع من داخلها ومن صميمها بطريقة تلقائية وحتمية بحيث إنه من المستحيل عليها معالجتها أو التخلص منها، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك العيوب فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها.

فمثلاً إن السعي لتحقيق أقصى درجات القوة العنيفة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدوس على كل القيم والمعايير التي تتعارض مع هذا السعي، أو بتعبير آخر إن ذلك السعي يسخر كل شيء من أجله، وهذا في حد ذاته يسمح بالتفوق في مجالات محدودة، وهذه نقطة قوة أساسية في الحضارة الغربية، وهي أيضاً سبب انهيارها المتوقع في مجالات أخرى، المجالات الأخلاقية والنفسية والإنسانية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية مما يشكل بدوره نقطة الضعف المركزية في هذه الحضارة، إن نقطتي القوة والضعف المتولدتين عن تلك السمة الأساسية في الحضارة الغربية سيصلان في نهاية المطاف إلى تدميرها

إن لم يعرضا مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب من شبه الإبادة الجماعية.

ومثل آخر: إنه إذا حاول نظام حكم عنصري التخلص من عنصريته، فإنه في الحقيقة يتخلص من نفسه، لأن العنصرية هنا هي التي شيدت بناءه وهي التي تسمح له بالاستمرار، فلولا النهب والاسترقاق والفصل العنصري لما كان هذا النظام العنصري قد نشأ، ولما كان حقق لنفسه هذا الرخاء، ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية.

أولويات التعليم العراقي في المرحلة الراهنة

د. منذر نعمان الأعظمي[1]

هذه الملاحظات مساهمة أولية لتشخيص أهم جوانب أزمة التعليم في العراق بعد الاحتلال، وطرق مواجهتها في مسيرة الاستقلال التام، وما بعده، وتتركز الملاحظات على مجالي التعليم الابتدائي والمدارس والمحافظات على ثلاثة مستويات مستقلة، نوعاً ما عن بعضها البعض.

المستوى الأول هو خراب المدارس كأبنية وتهميشها كمراكز حضارية في حياة المدن، والمستوى الثاني هو تدهور الإدارة التعليمية في المدارس والمحافظات والامتحانات والسياسات التعليمية للدولة، والمستوى الثالث، هو في المحتوى أي تدهور المستوى المعرفي في التعليم طلاباً ومعلمين؛ فهناك عملية مستمرة مؤسفة في إفراغ التعليم من أهم محتوياته في تطوير قدرات الطلبة على التفكير ونمو كفاءاتهم ومواهبهم المتعددة في أطر المسؤولية العامة، وتحويل دور المعلم إلى التدريب على مهارات شكلية قابلة للقياس البسيط، كعبور الامتحانات بأي شكل كان.

[1] كاتب عراقي، ومستشار في التعليم والمناهج العلمية والتربوية.

إن اختصاص الكاتب للسنين الثلاثين الماضية هو في المجال الثالث أي محتوى التعليم، وفي هذا المجال تنتهي الملاحظات بأفكار أولية حول أهمية التجريب في ظروفنا العراقية الخاصة في تطوير الطلبة والمعلمين، وهنا آمل معالجة جدوى متابعتنا في الظروف الراهنة لأساليب التدريس والمناهج الحديثة التي لا تعتمد على التكنولوجيا العالية أو الاستثمارات الضخمة؛ بل تتبنى منظور تطوير القدرات الذهنية للناشئة (فعلياً: الذكاء)، عبر التفاعل التعاوني في فعاليات صيفية تجريبية مفتوحة، في مقابل أساليب النقل والإيضاح والشرح السائدة للمناهج والنصوص المقرة، سواء في التعليم الأساسي أو للمتفوقين، وهذه الأساليب الحديثة تجريبية وتعتمد على المعلمين المبادرين، وقد يبدو غريباً أن نعالج أمراً كهذا في ظروف الاحتلال والمقاومة الراهنة.. لكننا يجب أن نعمل ليومنا هذا وللغد أيضاً، وأن ما يمكن تهيئته لما بعد الاستقلال التام، أو لمراحله مهما طال، من بناء حضاري يعتمد على كفاءات نسبية مهما قلت من طلابه ومعلميه الذين ينشأون في الظروف الاستثنائية الراهنة.

ويجدر بي منذ البدء الاعتراف بنواحي الضعف والقوة في منهج هذه الملاحظات فهي تستند على العلاقة غير المباشرة مع الوضع العراقي من جهة، وعلى المقارنة مع التجارب الأوربية التي كنا نقترب من مستواها قبل الاحتلال من جهة أخرى، ولتقليل السلبيات فقد تجنب البحث التفاصيل اليومية للتعليم في العراق، على أهميتها في فهم الواقع الإنساني، وتوجه نحو تلك الجوانب الأعم التي تابعها الكاتب، عبر العديد من الزملاء والأهالي في مناطق مختلفة داخل العراق، وعبر المعلومات الرسمية، على عواهنها، مما له علاقة بالسياسة التربوية والتعليم، وبضمن ذلك الإحصائيات المتداولة عن السكان والمدارس ونسب التسجيل فيها.

أن مسيرة استقلال العراق الفعلي قد تطول أو تقصر، ومراحلها تتداخل مع مسيرة البناء الذي يشمل بناء المؤسسات وبناء الإنسان العراقي، وهو بناء يتم سواء تدبرناه بحكمة أو بدون حكمة في جيلنا الحالي والجيل القادم بعده، فالإنسان يحيا وينجب ويربي أطفاله وينمّي كفاءاتهم في مدارسهم في نفس وقت مقارعة الطغيان والفساد والجريمة والعدو الخارجي، كما أن تحرير العراق من الاحتلال المباشر لن يعفينا من الصراع مع مخلفاته، ومع ما استنفره من ردود فعل مرضية أو صحية، ومع امتداداته التعليمية والثقافية والاجتماعية؛ بل يتطلب منا التطوير التدريجي للبدائل الحضارية التي تخدم جميع فئات الشعب وتطور مواهب أبنائه لخدمة الأمة والبلد.

الصورة العامة حسب الأرقام المعلنة[1]:

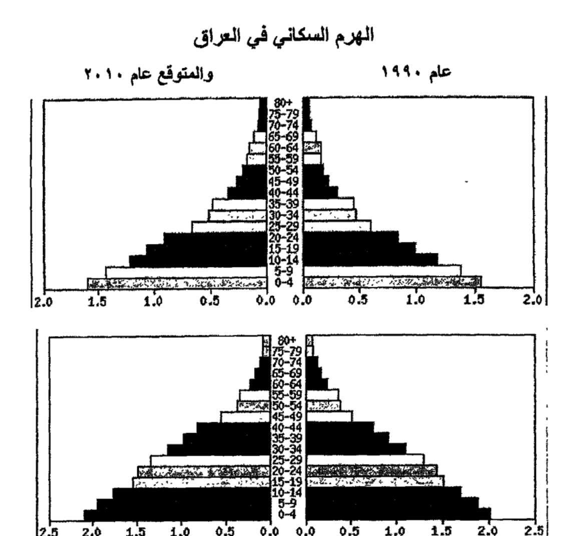
تجاوز نفوس العراق هذا العام ٣٠ مليون نسمة، ووصل عدد الأطفال الذين يصلون عمر الستة سنوات حوالي ٨٠٠ ألف (إحصاءات يونسكو عام ٢٠٠٧م هي كالتالي: النفوس ٢٩ مليون، معدل الزيادة السنوية ٢٧ بالألف، الولادات ٩٣٥ ألف، وفيات الشهر الأول ٦٣ بالألف، وفيات أخرى في السنة الأولى ٣٦

---

[1] ملاحظات حول الأرقام: إن الانترنت يوفر حاليا مئات المصادر الاحصائية والتقارير الرسمية من منظمات الامم المتحدة، والجامعات والحكومات حول العراق وبقية البلدان، ومنها ما يذكره موقع www.nationmaster.com عن العراق مثلاً the; unesco Institute for Statistics;; World Development Indrcators database UNICEF country offices; CIA world factbooks; World bank ; Geography zone وأغلب هذه المصادر وبضمنها الأمريكية مثل (سي آي أي) تستند على أرقام ودراسات اليونسكو التي لعبت دوراً اساسياً في العراق بعد توقيع اتفاقية النفط مقابل الغذاء عام ١٩٩٥م بقرار مجلس الأمن الدولي ٩٨٦، وقد كانت جهود اليونسكو واليونيسف الوجه المشرف للجهود الانسانية للمهنيين في المنظمة الدولية في مواجهة الدور المخزي لها في استمرار الحصار والتهيئة للحرب، وقد قامت اليونسكو مثلاً بتأهيل حوالي ١٠% من المدارس الابتدائية والثانوية والمباني الجامعية، وحاولت إدامة تواصل الهيئات التعليمية بالعالم الخارجية، وقد استندنا في هذا البحث في الغالب إلى ارقام اليونسكو بحيث لا تفرق عن الارقام الدقيقة بأكثر من ٥ الى ٢ % وهي الهامش الاحصائي في أغلب الاحصاءات، وخصوصاً في ظروف بلد كالعراق يمر بمرحلة طوارئ.

بالألف، وفيات أخرى تحت عمر الخامسة ٤١ بالألف، معدل العمر ٥٩ عاماً) وتتوزع هذه الأعداد على محافظة بغداد بنسبة حوالي ٢٣%، وعلى المحافظات الجنوبية بنسبة ٤٠%، و المحافظات الشمالية بنسبة ٣٧% (بضمنها محافظات الحكم الذاتي الكردي الثلاثة بنسبة ١٣%).

إن عدد السكان يتناقص بالتدريج كلما نظرنا إلى من هم الأكبر سناً، ويعبر عنه بالهرم السكاني الذي يمكن عبره تقدير حجم أي فئة عمرية يتم الحديث عنها، للذكور والإناث، والمخططان التاليان مقتبسان من مركز الإحصاء الأمريكي - الذي يبدو أنه يستثني النازحين من البلد - يمثل الهرم السكاني على اليمين عام ١٩٩٠م، الذي بدأ فيه الحصار بينما يمثل الهرم على اليسار تقديرات العام المقبل ٢٠١٠م، وتمثل كل طبقة من الهرم ٤ سنوات، ويمكن مثلاً تمييز أن عدد الذكور تحت عمر ٤ سنوات هذا العام هم حوالي مليونين و ١٠٠ ألف مقارنة بمليونين من الإناث، والرقمان ضعفا عدد العراقيين في الأعمار بين ٣٥ و٣٩ عاماً، وتبين الفروق بين الهرمين أهمية ازدياد عدد السكان من ١٨ مليون عند بدء الحصار عام ١٩٩٠م إلى ٣٠ مليوناً حالياً، وأن الطبقات الأربع الدنيا في صورة الهرم على اليمين تمثل العراقيين المولودين في السنوات العشرين بينهما، وأغلبهم في سن التعليم الابتدائي والثانوي، كما يبين الهرمان أن الفروق طفيفة نسبياً بين الجنسين خلافاً للانطباعات الناجمة من نسب الموتى بينهما في الأحداث الدموية في الحرب والاحتلال.



يبلغ عدد بنايات المدارس الابتدائية حوالي ١٢٠٠٠ تضم حوالي ٤ ونصف مليون تلميذ، ويبلغ عدد المعلمين والإداريين حوالي ٣٢٠ ألف، بزيادة ٦٠% من عددهم عند الاحتلال، ويبلغ عدد بنايات المدارس الثانوية ٣٠٠٠ مبنى تضم مليون ونصف طالب و٨٠ ألف مدرس، ويبلغ عدد المدارس المهنية ١٥٠ تضم ٦٠ ألف طالب و٥ آلاف مدرس، ويبلغ عدد دور المعلمين ١٠٠[1].

---

[1] هناك شكوك مشروعة في الأرقام الحالية، فليس هناك جهة مركزية لتفقد جميع المدارس والتحقق من البيانات التي تقدمها الإدارات لعدد الطلبة والمدرسين ودوام وحضور هاتين الفئتين اليومي والفصلي، أو عن ظروف المباني وتوفر التجهيزات والمرافق، ففي مجرى تدهور مستوى النزاهة في البلد عموماً بعد الاحتلال قد تؤدي مطالبة الادارات المحلية من المركز بتخصيصات مالية اكبر الى المبالغة في البيانات والتقليل من نسب التسرب أو غياب المدرسين، وقد كانت البطاقة التموينية منذ الثمانينيات مقياساً مهماً لضبط الاحصاءات السكانية،

إن احتياجات البلد التعليمية واضحة في خطوطها العامة؛ لأن بيانات الولادة كل سنة في أية محافظة أو مديرية أو حي تسمح كل سنة بتقدير الحاجة إلى عدد الصفوف الإضافية المطلوبة للأطفال في عمر الدخول للمدرسة الابتدائية قبل خمس سنوات من الحاجة المباشرة لها، وبالتالي عدد المعلمين المطلوبين أيضاً، وهذه هي أسس تقديرات الأمم المتحدة، لكن الأوضاع التي مرت منذ الاحتلال قد أدت إلى تخلخل كبير في توفير هذه الاحتياجات، والذي سيتم معالجة بعض جوانبه فيما يلي:

ماهي أهمية مباني المدارس، وهل لها أولوية في التعليم؟

إن المظاهر الأكثر وضوحاً في تخلخل الوضع التعليمي تتعلق بتدهور حال الأبنية والإمكانات المتوفرة في المدارس في كل المستويات: الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمهنية والجامعية، وهنا تأتي إحصاءات رسمية عراقية وأمريكية ومن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والتعليم (اليونسكو)، والأرقام هنا لا تعني الكثير إلا إذا أخذت بتفاصيلها ومعانيها، فعندما يجري الحديث عن ١٢ ألف مدرسة ابتدائية و٣ آلاف مدرسة متوسطة وثانوية، يجب أن يذكر أن عدد أبنية المدارس هي فعلياً أقل من هذا العدد؛ لأن المدارس تتشارك في الأبنية وأن كثيراً من مباني المدارس قد استولت عليها القوات الأمريكية في بداية الاحتلال، ثم استلمتها منها الميليشيات والجهات السياسية فيما بعد، لكون أغلبها في وسط المدن، وهذا مما اضطر أعداداً أكبر من المدارس للتشارك في مواقع أكثر ازدحاماً.

وبالتالي بتقدير الحاجات الأخرى للتعليم والصحة، واعتبرت عالمياً تجربة متقدمة نوعاً ما، وكانت بياناتها وكذلك قوة المفتشية التعليمية تحت رقابة دقيقة من جهات مركزية عديدة، لكن بيانات السنين التي تلت الاحتلال قد لا تعكس الواقع الفعلي على الأرض.

ثم القول إن أغلب أبنية المدارس مهدد بالسقوط أو مفتقر للمرافق الصحية، وإننا بحاجة ماسة للترميم السريع لهذه الأبنية، وإلى بناء ٤٠٠٠ مدرسة جديدة، هي معلومات قديمة تعود إلى مرحلة الحصار (١٩٩٠م إلى ٢٠٠٣م)، أما تكرار هذه الأرقام عبر سنوات الاحتلال الست فيبدو للاستهلاك الإعلامي وتمرير المقاولات الوهمية للترميم، وهي المقاولات المعتمدة على استخدام طبقة من الأصباغ الرديئة مقابل ملايين الدولارات من أموال الدولة التي تهدر بدون رقابة كافية؛ إذ أن المحتل وعملاءه لا يهمهم استرجاع العراق لعافيته التعليمية والذهنية والثقافية، وكيف يتصور عاقل غير ذلك حينما أعلن المحافظون الجدد والصهيونية مراراً أن الخطر الرئيسي في العراق يأتي من كفاءات أبنائه!.

والحال إن أعداد المدارس وعدد صفوفها حالياً لا توفر إلا نسبة ضئيلة من الحاجة المتزايدة للسكان من هذه الأبنية؛ فسكان العراق يتضاعف عددهم كل ٣٠ سنة تقريباً، وبحوالي ٧٠٠ ألف نسمة سنوياً حالياً (بحساب الولادات والوفيات)، أي ما يعني الحاجة لبناء مدينة متوسطة الحجم كل عام، أو بناء طوابق ثانية وثالثة على عشرات الألوف من البنايات الموجودة إن سمحت الظروف بذلك، وهناك طبعاً ما تعنيه هذه الزيادة السنوية من مدارس ومستوصفات وطرق وطاقة كهربائية ومياه شرب.وخدمات، ونحن نعلم أن شيئاً من هذا التوسع لم يحدث؛ بل هناك خراب وتخريب لكل البنية التحتية، ولا يمكن بناء طوابق ثالثة ورابعة فوق بنايات لا تملك أسساً أرضية ملائمة، وليست مربوطة بشبكات صحية كافية.

إن أي ضعف في شروط بناء الطوابق العليا سيؤدي إلى الكوارث التي حدثت بانهيار البنايات في تركيا ومصر والصين وغيرها في فترات الانفلات التي شهدتها تلك البلدان في مجال الإسكان، وحتى إذا بنيت الطوابق الإضافية

فهناك الحاجة بالإضافة للمدرسة والمستوصف مراكز الشرطة والإطفاء وإنارة الشوارع ونقل الأوساخ وتنظيم مرور السيارات وتوفير الإسعافات والمكتبة والقضاء.. إذا أردنا لشعبنا الحياة الكريمة كبقية الشعوب لا في مخيمات لاجئين في حالة طوارئ.

وبالإمكان تصور حجم المشكلة من دراسة وضع الأطفال العراقيين الذين ولدوا في ظل الحصار والاحتلال، وعددهم حوالي ١٣ مليوناً، وكيف أنهم حرموا من حقوقهم التعليمية والصحية، وأن قدراتهم الذهنية والجسمانية تتراجع باستمرار بالنسبة لأقرانهم في الدول المجاورة، بعدما كان العراق في طليعة بلدان المنطقة في هذا المجال قبل جيل.

إن المباني المدرسية وحجم الصفوف ومدة الدراسة في اليوم الواحد، كلها عوامل تلعب دورها في المستوى التعليمي، وكلها يجب أن تؤخذ في الحسبان في مشاريع التعليم في العراق، وهنا يجدر بنا وضع الهدف البعيد ثم تلمس المراحل الأولية إليه، وما إذا كانت المباني أو أموراً أخرى هي الأولوية، ويجدر أولاً معرفة المقاييس العالمية حول المدارس الحكومية في البلدان المتقدمة، أي التي تمولها الدولة بالأساس، والتي تشكل جانباً من الخدمات الاجتماعية الأساسية، إن هذه الخدمات الأساسية محمية بقوة من نوع من التحالف بين الاشتراكيين والأوساط السياسية المعتدلة والمؤسسات المسيحية ومؤسسات بقية الأديان، وبينها المنظمات الإسلامية التي يتزايد نفوذها رغم العداء السياسي، والنقابات والمنظمات الخيرية في المجتمع المدني، في مواجهة محاولات اليمين المتطرف والرأسماليين الذي يحاولون الدخول إلى هذا المجال، وخلق سوق تباع فيه المعرفة فقط لمن يدفع، وبعض المنظمات الدينية التي تحاول حصر تعليم أفرادها بها كنوع من التمايز.

إن أقصى عدد للتلاميذ والطلبة في الصف الواحد في المدارس الحكومية العادية في الدول المتقدمة هو حوالي ٣٠ تلميذاً، وهو ما أشاهده كمفتش ومستشار تعليمي باستمرار مثلاً في بريطانيا.

والصفوف المدرسية هي غرف تتوفر فيها الإضاءة والتهوية والتدفئة، في بنايات آمنة متينة توفر الحركة المريحة والمرافق الصحية، وقدرات بسيطة للإنترنت والطباعة، وساحات لعب، ومساحات خضراء، حتى في مراكز المدن والمناطق الفقيرة.

وتستغرق الحصة الدراسية في المدارس الحكومية حوالي ٣٣ ساعة في الأسبوع لأربعين أسبوع في السنة (خمسة ونصف ساعة يومياً لخمسة أيام، بضمنها فترة الغداء الذي يوفر مجاناً للبعض، وفترة استراحة صباحية مع الحليب والفواكه ومياه الشرب المتوفرة مجاناً للجميع)، ومع القرطاسية الموفرة مجاناً أيضاً، وهناك فضلاً عن هذه الترتيبات للتعليم الإجباري صفوف طوعية قبل الدوام الرسمي وبعده، بحيث يمكن لبعض الأطفال قضاء أكثر من ٧ ساعات في اليوم في المدرسة، كما اتجهت بعض الدول لتوفير حق دخول المدرسة لكل طفل من سن الرابعة في صفوف تتوجه ليس للتعلم المبكر للمناهج وإنما نحو الألعاب المنظمة والتعود على الفعاليات التربوية والنشاطات الرياضية من الركض والتسلق إلى السباحة وركوب الدراجة وإلى التعرف على النباتات والحيوانات والبيئة وتعلم أساليب المخاطبة والعمل الجماعي، كل هذا استثمار من الدولة في رأسمالها البشري.

إن للمرافق الصحية في المدارس أهمية كبرى، حيث انتبهت المجتمعات الأوربية مبكراً إلى أن النظافة أساس للصحة العامة، وإن المرافق الصحية تغرس في من يستخدمها تصوراً عن الحد الأدنى للنظافة في البيت، وأعتقد

جازماً أن هذا أمر حيوي وعاه العقلاء عندنا منذ زمن، لذلك تولي بعض المساجد مثلاً هذا الأمر اهتمامها، ومن ضمنه رفع أجور ومستوى المنظفين، ونظافتهم هم أنفسهم، وتوفير المواد الصحية وتصريف المياه، ومن المؤسف القول أن حال المرافق الصحية في أغلب المدارس في العراق مخزي تماماً؛ بل هناك تقارير تشير مثلاً أن بعض المدارس لا تمتلك مرافق صحية ويضطر التلاميذ للذهاب إلى بيوتهم أو لمناطق أخرى لقضاء حاجاتهم، وقد تطرق تقرير اليونيسيف في شباط ٢٠٠٩م إلى حالة المدارس في دهوك الذين يضطرون إلى العودة إلى بيوتهم لقضاء حاجاتهم، وتناولت الفضائيات حالة طالبات البكالوريا الثانوية في عكاشات في محافظة الأنبار، وهن مضطرات للدراسة المختلطة، للذهاب بعيداً في العراء لنفس السبب، وقد تدفع هذه الأسباب الاضطرارية الكثير من العوائل إلى منع الفتيات خاصة من الذهاب إلى المدرسة، ورفض تعليم البنات البالغات إلى جانب حالات الإصرار والشجاعة بين الأهالي والطالبات التي تتمثل في متابعة البعض منهن للتعليم في هذه الظروف حتى في بيئة محافظة[1].

إن لمواقع المدارس في المدن أهمية خاصة في جميع البلدان، وتقع أكثر مباني المدارس والمعاهد الجامعية في وسط المدن وأحيائها القديمة والحديثة، فيصبح منظر ذهاب الطلبة يومياً وإيابهم إلى المدارس من أهم مظاهر حياة المدينة الاجتماعية في مركزها، وتمنح التلاميذ الإحساس الداخلي بملكية مدينتهم وأمانهم، ورعاية الناس لهم، ويجيبون بمثلها، وأغلب المدارس قاومت بنجاح محاولات استملاك مواقعها لأغراض حكومية أو تجارية عندما تتضاعف أثمان

---

[1] انظر تقارير اليونسكو (مثلاً ٣ نيسان – أبريل ٢٠٠٨م، ٣ تشرين الثاني- نوفمبر ٢٠٠٨م) واليونيسف (مثلاً ٢٣أيلول سبتمبر ٢٠٠٧م، و٣ نيسان أبريل ٢٠٠٨م، ١٧ شباط فبراير ٢٠٠٩م).

العقارات بمرور الزمن، وبقيت المعرفة والتعليم ممثلاً ببنايات المدارس عنواناً لما هو الأهم في حياة المجتمع مقابل السلطة والمال.

وفي العراق أيضاً تقع أغلب المدارس في وسط المدن والأحياء كونها افتتحت في بداية نشوء هذه المدن، ويجدر بنا أن نبقي البنايات في مواقعها قدر الممكن؛ لأهميتها في النسيج الاجتماعي للسكان بصرف النظر عن أصولهم الدينية أو القومية أو العشائرية، أي كمواطنين متساوين في الحقوق والمسؤوليات، ويسري ذلك خصوصاً إن كانت هذه المباني قد أقيمت لهذه الأغراض، أو في بنايات سكنية جرى عليها تطوير هام جعلها تفي بغرضها التعليمي.

لقد كان من أولويات الاحتلال التمركز داخل كل مدينة وحي في العراق، ومنع تجمع السكان في تلك المراكز؛ لذلك فقد استولت قواته على بنايات المدارس والثانويات والمستشفيات في وسط المدن[1]، ولم تعبه الإدارة الأمريكية لا باتفاقيات جنيف التي تمنع قوات الاحتلال من تغيير المعالم المدنية للمناطق التي تحتلها، ولا بقواعد القانون الإنساني ولا للوعود التي رافقت الحرب من تطوير الحياة المدنية في العراق، وفي العام الأول للاحتلال تمركزت القوات الأمريكية في مباني جامعة بغداد، في حين مسحت دباباته ومتفجراته البنايات العسكرية للجيش العراقي كمعسكر الرشيد مثلاً، ولقد حاول العراقيون التعامل مع هذا الإجحاف بالحسنى، وبالوفود والتظاهر السلمي، لكن كل ذلك قوبل بوحشية بدأت كما هو معروف في مدينة الفلوجة التي كانت هادئة ودخلها المحتل بدون قتال.. ففي يوم ٢٨ نيسان٢٠٠٣م تظاهر حوالي ٢٠٠ من الأهالي

---

(1) EYE ON THE MIDDLE EAST: Schools Turned Into Military Bases, New America Media, News Report, Feb 02, 2006.فيما يتعلق بحديثة في محافظة الأنبار

أمام مدرسة في وسط أحد الأحياء التي عسكر فيها الأمريكان، وكان رد هؤلاء قتل ١٧من المتظاهرين وجرح عشرات آخرين.

هناك وعي عام في العراق لأهداف استيلاء قوات الاحتلال والسلطات أو المليشيات على بنايات المدارس، وحتى لاحتمالات أن التفجيرات التي تستهدف المدارس هي لأغراض تهجيرها وتحويلها كعقارات إلى المضاربين، أو لإنشاء مدارس بديلة مذهبية أو خاصة؛ لذلك فإن رفض الأهالي التخلي عن بنايات المدارس الحكومية في مراكز المدن جزء من المقاومة الاجتماعية للاحتلال وهيمنته، ولا يعقل أن يستهدف أحد حتى أكثر الناس تطرفاً المدارس بالشر؛ لأن للأطفال حرمة حتى لدى الأميين والمتعصبين، وقد سجل أحد مسؤولي اليونيسيف (منظمة الأمم المتحدة للطفولة) ممن عمل في أفغانستان في ندوة ساهمت فيها عن مشكلة اللاجئين العراقيين في جامعة أوكسفورد بتاريخ ٢٣ آذار ٢٠٠٧م، أن أهم نجاحاتهم أو نجاحهم الوحيد أنهم بعد حادثة تفجير إحدى المدارس طلبوا من الأهالي الحديث مع من يعرفونهم من المقربين لحركة طالبان حول الأمر، وبعد ذلك أصبحت المدارس آمنة، ويمكن التكهن بصرف النظر عن موقفنا من حركة طالبان أن الاعتداء الأول لم يكن منهم، وأنهم بعد ذلك كانوا يحمون المدارس، وقد يكون لهم ولأقربائهم من يداوم فيها.

ورغم أن بعض مباني المدارس في البلدان الأوربية تستخدم أحياناً لفعاليات تعليمية للآباء والأمهات والبالغين المعاقين مثلاً بعد الدوام، لكنه يندر أن تكون هناك فوضى الدوام المزدوج لأكثر من مدرسة في بناء واحد؛ لأن كثيراً من المعلمين والطلبة يستمرون في استعمال المباني بعد نهاية الدوام، ويبقى للتلاميذ شعور بالانتماء لمدارسهم ذاتها والاعتزاز بما يفعلون فيها، والشعور بملكيتهم

لها واستخدام مرافقها للفعاليات اللادراسية كالمعارض والتمثيليات والمسابقات الرياضية في أيام العطلة.

إن بلدنا قادر بسهولة على الوصول إلى هذا المستوى بثرواته الطبيعية، وكان في طريقه إليه، وها هي بلدان أخرى، كالصين التي كانت في القاع قبل جيل واحد من ناحية الدخل والثروات الطبيعية، تلحق باضطراد بدول الغرب المتقدمة، وكذلك كوبا و فنزويلا مؤخراً باختلاف ثرواتهما، كما هناك في مصر وبلدان أخرى مدارس خاصة بهذه المستويات أو أعلى، لمن يستطيع دفع أتعابها. كيف توصلت المجتمعات المتقدمة إلى صيانة كل ما ذكرناه من جوانب التعليم العام، وبضمنه مباني المدارس؟ هناك مساران هامان: المسار الأول إن أهم الطاقات الإصلاحية في المجتمع الأوربي قد تجنبت الصراع السياسي والثورات، واتخذت موقفاً بأن تقدم الإنسان والمعرفة عبر التعليم هو الطريق الأفضل لتقدم البشرية؛ لذلك انتشرت الأوقاف المخصصة للمدارس التي تحولت فيما بعد إلى مدارس حكومية، والمسار الثاني أن أغلب جوانب التقدم في التعليم العام الأوربي قد تمت في فترة الحرب الباردة حيث اضطرت البلدان الرأسمالية إلى منح تنازلات كبيرة للطبقات العاملة والفقيرة، لمنع انتشار التجربة الاشتراكية، وبعد فشل التجارب الاشتراكية في شرق أوربا في الثمانينات، نتيجة قمع الحريات والفساد والجمود البيروقراطي، جرت محاولات مستمرة لتصفية التعليم العام في أوربا ككل وتحويله إلى سلعة، لكن المؤسسات المدنية وشبه الرسمية والتقاليد التي نشأت عبر العقود قد منعت ذلك، وأحد هذه التقاليد وجود مجلس إدارة لكل مدرسة تشترك فيه أربع جهات وهي: الأهالي والمعلمين والإدارة المحلية ودوائر الدولة الممولة، والذي يجب أن يقر اتجاهات كل مدرسة رغم عدم سيطرته على التمويل أو مناهج التعليم الرسمية.

إن موضوع مجالس إدارة المدارس يستحق البحث كجزء من المقترحات الجديرة بالتناول في العراق اليوم، وخصوصاً حيث يزداد ضعف السلطة المركزية وتتوزع الصلاحيات الإدارية إلى المحافظات والنواحي، وخصوصاً أيضاً أن لدينا بدايات موجودة إذ يمكن اعتبار مجالس أولياء الطلبة والمعلمين المفترض وجودها في جميع المدارس النواة الأساسية لها، فمن حق أهالي كل منطقة المطالبة بصوت رسمي في إدارة المدارس كمباني في حارتهم ولتعليم أطفالهم، ولجميع المهام الأخرى التي لا تتعارض مع المنهج الدراسي، ويقوم أعضاء المجالس باجتماعاتها الدورية المتباعدة كعمل تطوعي للخدمة العامة، إن التقسيم الرباعي البسيط لمجلس إدارة المدرسة يسمح مثلاً بثلاثة ممثلين لكل من الأهالي وموظفي المدرسة نفسها والإدارة المحلية ووزارة التربية الوطنية، وأن تكون هناك قواعد بسيطة لاتخاذ القرار كتوافق ثلاث من هذه الجهات، وقد يكون من ينسبه الأهالي من الأطباء أو المحامين أو التجار أو أصحاب المهن الذين يحسنون تمثيل مواقف الناس ويتم تنصيبهم أو تغييرهم في اجتماعات أولياء أمر التلاميذ أو بالتصويت بالمراسلات أو بشكل آخر.

إن أشكالاً من هذا العمل التطوعي لرعاية الشأن العام هي ما افتقدناه طوال سنوات حكم الأنظمة السابقة ولانزال نفتقده، ويجب الشروع به في جميع المجالات، ولا يبدو أن هناك ما يمنع هذا لأنه لا يتعلق بربح مادي أو خسارة مادية لأحد وإنما هو عمل للصالح العام كما هي حالة الزكاة والصدقات.

هل يمكن اعتبار مباني المدارس أولوية في التعليم العراقي؟ لا اعتقد ذلك في الوضع الحالي خصوصاً لو قارناه بالكوارث الصحية والبيئية ووجود ملايين اليتامى والأرامل والمعوقين، إن المهمة المباشرة الأكثر عملية هي استعادة المدارس مواقعها الأصلية، وترميمها العملي لمنع الأسوأ أو إلحاق الأذى

بالطلبة، ثم العناية القصوى بالمرافق الصحية، وهذه مطالب يتفق عليها الجميع، ويمكن بعد ذلك إلحاق صفوفاً جديدة أو مؤقتة إلى حين تعافي البلد بما يؤهله لتشييد مباني أفضل.

إن مواقع مباني المدارس أولوية للمجتمع نفسه، ولحياة أي مدينة وأهاليها أكثر منه لعملية التعليم نفسه أي لعملية اكتساب المعرفة من قبل التلاميذ التي تعتمد أكثر على المعلمين والمناهج وطرق التدريس، والتي تعتمد بدورها على الإدارة الرشيدة أكثر منها على المكان والبناية، وينطبق ذلك على الدوام المزدوج حيث تشترك مدرستان في بناية واحدة، من المهم هنا أن لا تقل ساعات الدوام لكل وجبة عن خمس ساعات يومياً، وأن تكون هناك فترتان أو ثلاثة للعب والحركة والطعام والشراب لكل وجبة، بشكل حضاري وأمين، ومهما كانت الظروف المادية يجب أن نضمن أن تكون تجربة الطفل في المدرسة تجربة مضيئة وممتعة وليست أسوأ مما يدور في حياة الطفل البيتية.

إن بنايات المدارس هي جزء من مشكلة الإسكان في العراق، والنقص المتزايد في المساكن والمرافق منذ فترات الحصار لإيواء العوائل الجديدة، وإن الفوضى والمحاصصات الطائفية في الوزارات ونهب الأموال العامة يمنع أبسط عمليات البناء، فهناك مثلاً ٢٣ مشروعاً للمجمعات السكنية بضمنه مدارس صغيرة خطط لها ضمن خطة النفط مقابل الغذاء عام ٢٠٠٢م، أي منذ قبيل الغزو في جميع المحافظات عدا منطقة الحكم الذاتي، وبقيت هذه الخطة تعلنها وزارة الإسكان عبر حكومات الاحتلال، ولم ينفذ منها إلا الجزء اليسير، وما نفذ منها هو بأكثر من أربعة أضعاف تكاليفها، وبنوعية رديئة، ويتحدث المسؤولون في وزارات التخطيط والمالية والبلديات والإسكان والصناعة في الفضائيات عن وعود ولجان وتخصيصات عن مشاريع الإسكان، وكل يلقي اللوم على الآخر

في سلسلة من المهازل، هذه السنين السبعة قد انقضت بدون تنفيذ ما يستغرقه اعتيادياً سنتان علماً أن عدد الوحدات السكنية التي يتحدثون عنها لا تتجاوز التسعة آلاف أي أقل من ١% من حاجة البلد، فلا يمكن أن ننتظر هذا البناء مهما كانت أهميته لمسيرة التعليم.

إن التعليم الجيد قد يتم في بعض الأحوال الاستثنائية في خيمة أو في العراء إذا ما وجد المعلم الجيد، ولكن إستدامة التعليم لعدة سنوات وتدرجه وإنتظامه وإنتشاره للألاف والملايين من التلاميذ وهو من حقوقهم الأساسية، يحتاج إلى إدارة وتنظيم.

ما هي أهمية الإدارة الرشيدة للتعليم وهل لها فعلاً الأولوية فيه؟

كانت الاحتجاجات الشعبية التي وصلت حد المظاهرات الغاضبة، والسخرية الواسعة النطاق المحيطة بنتائج إمتحانات المرحلة الثانوية التي أعلنت في شهر تموز هذا العام ٢٠٠٩م، ومنها التظاهرات في الأعظمية والأنبار والموصل تعبيراً آخر على إنهيار الثقة بنزاهة المشرفين على التعليم في العراق، وهذا التدهور كان قد بدأ منذ بداية الاحتلال حيث سادت الفوضى الكثير من مراكز الامتحانات في صيف ٢٠٠٤م، وازداد الأمر سوءاً في السنين التالية بتصاعد دور المليشيات الطائفية، وفشلت جهود التعليميين والتربويين الشرفاء، ومن ساعدهم بشجاعة من علماء الدين والموظفين الكبار في بعض الوزارات بعلاقاتهم مع رجال الأمن لحماية أوراق الامتحانات في نقلها من المحافظات وإليها مثلاً في الحفاظ على الحد الأدنى المطلوب من الثقة بعدم تسرب وبيع الأسئلة والتلاعب بالنتائج الفردية والجماعية والإحصاءات، ويبدو أن المنظمات الدولية ومنها اليونسكو هي الأخرى أصبحت ترفض قبول النتائج والشهادات

العراقية على مختلف المستويات، إما لهذه الأسباب أو لاستشراء تزوير الوثائق في العراق، ويضطر الشباب العراقي اليوم إن أراد التعلم خارج العراق مثلاً أن يجتاز اختبارات إضافية كان قد اجتازها في بلده.

ويصعب تصور حلول لهذه المشكلة؛ لأن مصداقية الامتحانات تبنى عبر سنوات عديدة وليس بجرة قلم ووعود، ولربما يفقد العراقيون الثقة بالامتحانات العراقية تماماً ويتجهون للامتحانات الرسمية في البلدان العربية المحيطة إذا سمح لهم، ولربما يجد التعليميون العرب سبلاً للتدخل الودي ومساعدة المسؤولين العراقيين على تجاوز الفساد واستعادة الاستقامة، وكان العراق في بداية نشوء الدولة الحديثة يعتمد على الشقيقة مصر في تأهيل كفاءاته التربوية في كثير من المجالات، ولربما نحن بحاجة إلى الاستعانة بخبرات مصر مرة أخرى، وهي التي تغتني بالكثير من القدرات التربوية المتمسكة بقضية تطور الأمة بصرف النظر عن اتجاهات السلطة السياسية القائمة في البلدين.

إن فقدان مصداقية الامتحانات هي الجانب الأكثر وضوحاً للناس من حالة عامة في تدهور مستوى الإدارة التعليمية على مستوى البلد والمحافظة والمدرسة الواحدة.

إن انهيار المقاييس في تعيين المعلمين، وتوزيع المسؤوليات داخل المدارس وفي دوائر التعليم في المحافظات من المظاهر الأقل بياناً للعيان، ولربما الأكثر ضرراً، والفساد المستشري يبدأ من التعيينات الإضافية بدون كفاءة، وربما بأسباب الرشوة أو المنسوبية الحزبية والطائفية، ومع طرد عشرات آلاف المدرسين والمعلمين غير المرغوبين سياسياً بحجة اجتثاث البعث أو بحجج أخرى يبدو أن عدد المعلمين في المدارس الابتدائية مثلاً قد زاد من حوالي ٢٠٠ ألف قبل الغزو إلى ٣٥٠ ألف بعد زيادة الرواتب عشرة أضعاف عام ٢٠٠٤م،

وتضاعفها فيما بعد وهو ما يعني التوظيف في مناصب غير موجودة، ولغرض توفير دخل رسمي لمن لا يملك المؤهلات وربما لا يقوم بأي عمل، كما هو الحال في تضاعف عدد المستخدمين في جميع دوائر الدولة والمؤسسات، وأغلبها متوقف عن العمل تماماً لأسباب شتى، وهناك أيضاً نقل المحظوظين إلى بغداد ومراكز المدن وترك مدارس الأرياف والمدن الصغيرة بدون معلمين؛ لذلك فإن من المشاهد المؤسفة تراكم المعلمات والمعلمين في مدارس بغداد التي أصبحت بعض غرفها كالمقاهي المزدحمة للمعلمين والمعلمات في حين لا تجد مدارس أخرى خارج العاصمة معلمين لصفوفها المزدحمة إذا كانت في مناطق بعيدة عن الاحتدام، وكما هو الحال مع جميع دوائر الدولة فقد تضاءل دوام التلاميذ والمعلمين والمدرسين في فترة احتراب الميليشيات في ٢٠٠٦م و٢٠٠٧م، مثلما تحولت المدارس إلى حالة شكلية، وأرقام الحضور والغياب والتقييمات الفصلية إلى معلومات وهمية كاذبة.

لقد غاب دور المفتشين حتى إن وجدوا على الورق، وافتقدت هيبة أو نفوذ أي مسؤول تعليمي، مقابل أفراد المليشيات المسلحة أو زعمائها الذين إما أنهم هم أنفسهم من الجهلة والأميين، أو أنهم رحلوا عوائلهم إلى خارج العراق للدراسة في بلدان آمنة، وأصبح توفر أو شحة الكتب والقرطاسية ووسائل الإيضاح أموراً كاليانصيب، متوفرة أو مفقودة تماماً، وقد يطلب من أولياء أمور التلاميذ دفع أثمان وهمية لها، وقد بدأت اليونسيف (منظمة الأمم المتحدة للطفولة) بشحن وتوزيع القرطاسية عام ٢٠٠٧م على كل مدارس العراق، وإن كان ذلك أيضاً متعلق بالوضع الإداري المتردي.

يمكن اعتبار التعليم العراقي في حالة طوارئ منذ الغزو عام ٢٠٠٣م، وإن حالة الطوارئ هي ما تقره المنظمات الدولية رسمياً بالنسبة لما بين ٤ إلى ٥

ملايين من اللاجئين العراقيين داخل البلاد وخارجها، وقد اعترفت وزارة التربية عام ٢٠٠٧م بوجود مليون و ٨٠٠ ألف عراقي مهجر داخل العراق وما يعنيه ذلك من مشاكل في المدارس.

إن إصلاح الجانب الإداري في التعليم هو بالفعل أولوية، لكنه لا يشكل صعوبة بالغة أو يتطلب ميزانية هائلة.. كل ما هو مطلوب هو الإرادة والقرار المركزي في تنسيب الكفوئين في مناصبهم، وإقرار لكل ذي حق حقه.

إن بعض فقرات التفتيش بالغة السهولة إذ بمقدور أي قاض أو مجموعة صغيرة من الأهالي المهنيين في أي مدينة أو حي بقليل من العمل المنظم معرفة ما إذا كان المعلمون المسجلون في مدرسة ما.. هم أشخاص مؤهلين، أو حتى حقيقيين، وإن الأرقام التي تسجلها المدارس حول الدوام ومصاريف البناية والقيميين عليها هي حقيقية أو معقولة تقديرياً، وإن هناك التزام بوقت بدء الصفوف وانتهائها وحتى بأمان التلاميذ أثناء وجودهم في المدرسة، كل هذه الأمور التي لا تتعلق بنوعية التعليم والمناهج وطرق التدريس أمور تعالجها الدول الأوربية عبر ما يسمونهم " المفتشين غير المختصين"، ويتطوع الكثيرون من المهنيين لهذه الأعمال التي ليس لها مردود مالي كبير؛ لأن التعليم له جانب أخلاقي وفيه إيثار البالغين للأطفال والجيل القادم ككل، وليس لأطفالهم وحدهم.

إن إصلاح الجانب الإداري في التعليم أولوية تخص أكثر من ١٢ مليون عراقي في سن التعلم، وقد لا نستطيع في البدء تطبيق التعليم الإلزامي حتى سن الـ١٦ كما تفعل البلدان المتطورة، لكننا يجب أن نضع هذا الهدف أمام أعيننا لنبدأ بما يمكن إنقاذه من كارثة الاحتلال والمحاصصة الطائفية والفساد، ثم نسير بخطوات حثيثة محافظين على مبدأ التعليم للجميع وليس للنخبة المرفهة، رغم

اضطرارنا إلى الاعتماد على بعض المدارس الخاصة لحين توفر طاقاتنا التعليمية.

الأولويات في مناهج التعليم وطرق التدريس في العراق

ننتقل هنا إلى نوعية التعليم أو محتوى المناهج وطرق التدريس الأكثر فعالية وهو موضوع المختصين والمعلمين والمدرسين المتمرسين والمهتمين برفع المستوى التعليمي، ويمكن تلخيص أهم نواحي انهيار المستوى التعليمي للأجيال الحالية في العراق تحت ثلاثة عناوين: الأول في المستوى الأدنى، والثاني في مستوى النخبة، والثالث في المستويات الوسطى العامة:

١. أولويات المستوى الأدنى تتعلق بمعالجة انتشار الأمية بعد جيل من تراجعها الكلي تقريباً، ويجب تعريف الأمية هنا بأكثر من مجرد "فك الخط" أو كتابة الاسم واللقب، أو قراءة القرآن الكريم.. فيجب الحديث عن الأمية العملية أي عدم القدرة على قراءة التوجيهات في الاستمارات البسيطة واللوحات، وعدم القدرة على الإجابة الكتابية على بعض الأسئلة الشخصية، نتحدث إذاً عن مستويات من القراءة والكتابة.

وفي هذا المستوى يستطيع المجتمع العراقي بوقت سريع استعادة عافيته، لتوفر الخبرات السابقة واندفاع الناس في كل أعمارهم للتعلم، ونحن اليوم نعيش حالة فريدة من نوعها إذ أن الجيل الأكبر عمراً في الغالب بمستوى أعلى من الجيل الأقل عمراً، على العكس من الأجيال السابقة، لذا يستطيع البالغون بقليل من الدعم إيصال الشباب لمستوى معقول من التعليم الأساسي، مثلما اعتمد الأطفال في السنين الأخيرة على التعليم البيتي، حيث برز دور الأمهات العراقيات المشهود أكثر من ذي قبل، ويمكن للتلفزيون والأقراص المدمجة

والإنترنت أن تؤدي أدواراً هامة لم تكن متوفرة سابقاً، مادام بعض الشباب قد تمكنوا من هذه التقنيات ما نحتاجه هو إشهار برامج محلية في مختلف المواقع، مع أوقات وجداول للمدرسين والمشرفين، وبتوفر مجال استخدام الجوامع ودور العبادة عموماً لبعض الدروس والدورات التعليمية.

إن تجارب العالم الثالث الثورية قد أثبتت مراراً أن الطبقات الفقيرة قادرة على تجاوز الأمية في أقل من سنتين وبتكاليف زهيدة، ومن هنا يجب التفكير في هذا الأمر كحملة جهادية، لا كبرامج بيروقراطية يتعيش منها البعض أو يصرفون أوقاتهم في الاختلاط الاجتماعي، والوجاهة والسلطة التافهة.

إنه واجب ديني وطني يجب على جميع علماء الدين والسياسيين من مختلف اتجاهاتهم الدفع به ومن يتخلف عن هذا الواجب هو من له مصلحة بجهل الإنسان العراقي بحقوقه ومسؤولياته.

هناك مشاكل جديدة لا يزال التربويون في العالم يحاولون فهمها وهي لا تتعلق بنا وحدنا تتناقض مع مهارات القراءة والكتابة التقليدية، وتتعلق المشاكل بوتيرة التطور في التواصل البشري الذي كان حتى وقت قريب يتم عبر ما هو مكتوب ومطبوع في الكتب، فقد انتقلت البشرية خلال عقدين من الزمن نحو التواصل عبر الصورة والأفلام المسجلة، التي أصبحت في متناول الجميع تقريباً عبر الهاتف المحمول والتلفزيون والإنترنت، ورغم أن هذه لا تلغي أهمية المكتوب والمقروء، إلا أنها تعوّض من ليس لديه تلك المهارات، وليس لكاتب هذا البحث معرفة كافية بما ستسفر عنه الأمور في هذا المجال، سوى القناعة بأننا يجب أن نحافظ على اللغة والكتابة التاريخية في نفس وقت استخدام الوسائل الحديثة.

هناك أيضا الأمية الشفهية، أي التي تتعلق بالقدرة على التعبير الشفهي باللغة المكتوبة والعامية، وعلى عادات التواصل في مجموعة صغيرة في مجلس أو حول مائدة بحيث يكون الحديث مفهوماً وذي فائدة، وقد جرى تطوير بعض البرامج في تعليم البالغين في أوربا، وكان من أنجحها سلسلة تلفزيونية بريطانية بعنوان "قلها بنفسك" حول حالات قد يواجهها الإنسان في حياته اليومية وكيف يحصل على أفضل النتائج بأن يكون واضحاً ومختصراً في كلامه.

إن هذه الأساليب تنتقل إلى المجتمع عبر العديد من الأفراد الذين يساهمون في الدورات والندوات الدراسية المتعددة، وخصوصاً تلك التي تسمح بالمشاركة المنظمة بأخذ الدور، والتحدث المختصر، والاستماع المؤدب إلى آراء قد تبدو غريبة، فقد يكون هناك إذاً حاجة لدورات للجميع يجب ابتداعها وتجريبها في التواصل، والتعلم من التجارب العربية في آداب المجالس سواء ما نراه في مصر والمغرب مثلاً، وكذلك من المجالس العشائرية والمدنية العراقية حيث يعرف الناس قدر بعضهم بعضاً، ويأخذون دورهم في الكلام، ويتكلمون عن أمر واحد لا عن عدة أمور متشعبة، ويتجاوب الفرد مع ما جرى قبله، لا أن يحتل الساحة وحده، وتلعب المدارس دورها في هذا الأمر وسنأتي لذلك فيما يلي:

٢. أولويات المستوى الأعلى من التعليم تتعلق بمواكبة التقدم العلمي والتقني العالمي، هنا نتحدث عن النخبة النابغة أو الماهرة من أبناء البلد، أطفالاً وبالغين، وهي نسبة تشكل بين ١ ـ ٥ % من كل فئة عمرية، وهؤلاء يجب أولاً تشخيصهم ثم توفير أفضل ما يمكن من مجالات لتطوير كفاءاتهم، بحيث تكون لدينا فئة لا يختلف مستواها العلمي عن نخب بقية الأمم، وإن قلت عدداً.

إن التشخيص غالباً ما يبدأ منذ الطفولة، سواء من العائلة نفسها أو من المعلمين، وهنا يجب على المجتمع رعاية المتفوقين، بدون عزلهم عن أقرانهم

أو التضييق على نموهم الجسمي والعاطفي المتوازن، عبر المراحل التعليمية ثم إفساح المجال لهم لتنمية طاقاتهم الخاصة في أي مجال فني أو علمي أو إنساني، مع بعض التوجيه لسد حاجات البلد في آخر المراحل الدراسية، وبعد المرحلة الثانوية علينا توفير دورات دراسية من خيرة الأساتذة العراقيين والزائرين الأجانب لتوفير الفرص لنمو قدرات هؤلاء في التعليم الجامعي، ثم في البحث العلمي، ويجب الاهتمام بالتخلف الذي أصابنا عبر التركيز الزائد على توجيه المتفوقين نحو العلوم (وخصوصاً الطب والهندسة) في مقابل الاختصاصات الأخرى، وعدم التفريط بالعلوم الإنسانية والآداب.

إن هذا الضعف هو الذي أدى بنا إلى ترك التراث والتأريخ وعلوم الشريعة وغيرها حصراً بالهيئات الدينية بقدراتها المحدودة، وبعضها ذات التعصب والانغلاق المذهبي، غير القادر على تسليح المجتمع ضد أضرار الانقسامات القديمة وتجاوزها، بدون أن يكون للمجتمع طاقة لتطوير حلول علمية متقدمة لرفع مستوى الوعي الاجتماعي في هذه الحقول، وهو ما كان بإمكانه القيام به لو جرى الاهتمام الأكبر بالتاريخ والتراث والفلسفة الإسلامية على كل مستويات التعليم.

لقد كان التقليد الساري، وربما لا يزال هو في أن يجري تعليم الأطفال ذوي المستويات الأعلى في مدارس المتفوقين الابتدائية (في الماضي: المدارس النموذجية ومدارس تطبيقات دور المعلمين) في كل محافظة، ثم يتم اختيار أفضل ثلاثة أو خمسة في امتحانات السادس الابتدائي من كل محافظة للدراسة في مدارس ثانوية متميزة ببغداد وإسكان بعضهم في أقسام داخلية، ونعترف هنا بأن هناك الكثير من "الحظ والنصيب" في هذه العملية، التي تستند إليها معظم البلدان، بشكل منظم أو غير منظم، فهي في الغالب لا تعتمد على نوعية التعليم

والمعلمين أنفسهم، بل على ما هو فطري وعلى التخمين والشروط المؤقتة، لكنني لا أعتقد أن ثمة بديل واقعي لهذه التقاليد في الظروف الراهنة، ريثما نتقدم كبقية البلدان المتقدمة في معرفتنا بتطوير القدرات والمواهب منذ الصغر وتوسع تعليم الموهوبين، اعتماداً على مبدأ أن كلا الطبع والتطبع في حالة الإنسان يلعبان دورهما وليس الطبع وحده.

هناك بالنسبة لما يتعلق بالتعليم الجامعي موضوع البعثات إلى الدول المتقدمة بعد امتحانات الثانوية، وفي درجات الماجستير والدكتوراه، إن للبعثات إلى أكثر الدول تقدماً أهمية كبرى، وقد كانت البعثات التي أرسلها العراق لأبنائه وبناته من الثلاثينيات إلى الستينيات من القرن الماضي، حسب تأهلهم بدرجاتهم في الامتحانات العامة، دور أساسي في نهوض العراق السريع في النصف الثاني من القرن العشرين، وكان الذين عادوا إلى الوطن من هؤلاء ركيزة أخرجت خيرة الجيل التالي من علماء العراق وتقنيه، وقد أدت الظروف السياسية المعقدة والحصار الطويل الجائر إلى فقداننا الكثيرين من جيل البعثات ثم من طلابهم، وكان لذلك أثر في تدهور المستوى التعليمي الجامعي، فلدينا اليوم تجربة طويلة في اختيار البعثات، ولدينا استنتاجات منها ما يتعلق بضرورة تنويع البلدان التي نرسل إليها الطلاب، ومنها ما يتعلق بشروط إبقاء علاقة الطلاب بالعراق في فترة الدراسة الطويلة في الخارج، عبر ضمان الزيارات السنوية الطويلة لأهاليهم في العراق، لتقليل احتمال بقائهم في الخارج، ومنها ما يتعلق بفسح المجال لهم لاستثمار قدراتهم حسب الإمكان بعد عودتهم إلى العراق.

إن تنويع البلدان التي نرسل إليها بعثاتنا أصبحت مسألة استراتيجية، إذ تخلفنا في العقدين الأخيرين في استثمار التقدم العلمي والتقني في اليابان، والآن

في الصين، رغم أن هذين البلدين لا يمارسان التمييز ضد البلدان العربية والإسلامية في منع دراسة العلوم الحديثة كشتى فروع علوم الذرة والأحياء والكيمياء والفضاء، وهناك تطور علمي كبير في الهند حيث الدراسة فيها باللغة الإنكليزية، وربما يجدر بنا اتخاذ سياسة تلقائية تتغير مع الزمن تعتمد زيادة البعثات إلى الدول التي تتصاعد أسهمها في العالم بالنسبة للعلوم الطبيعية والإنسانية، ومن المؤسف مثلاً أن لا يتوفر عندنا كثيرون ممن يعرف اللغات الآسيوية، ولا من يستطيع طرح دراسات مقارنة بين الأديان والثقافات، والوصول إلى توصيات سياسية وتقنية حول الثقافات الأخرى في فترة اتخذت القوى الاستعمارية طرق تشديد صراعات الهوية والثقافية، مع منع التقدم العلمي التقني.

٣. المستوى الثالث يحمل أهمية لأغلبية الطلبة بالنسبة لمناهج التعليم، ولجميع الطلبة بالنسبة لأساليب التدريس، وهذا المستوى يتمثل في تطوير المناهج والأساليب بشكل تدريجي وتجريبي مستمر.

لقد استورثنا مناهج التدريس في جميع المستويات المدرسية تقريباً، أو ترجمناها من اللغة الإنجليزية في الغالب، حسب الارتباطات الأكاديمية بيننا وبين البلدان الأخرى، وهذه المناهج غالباً هي الأكثر شيوعاً في البلدان الأخرى، ومنها البلدان العربية ومصر في الغالب التي تتخذ نفس الأسلوب إلا في بعض المجالات، أي أن المناهج قد تقررت بقرارات لم نمعن النظر فيها بأنفسنا وربما كان اختيار بعض البرامج الأجنبية اعتباطياً أو بدون تمحيص لمناهج أخرى في نفس البلدان وخصوصاً البرامج الحديثة والتجريبية هناك.. أنا لا أعتقد أن هناك ضرراً كبيراً في هذا الأمر، لكن الضعف هو في أننا لا نمارس ما تمارسه البلدان المتقدمة، بل نكتفي بنصف ممارساتها، إذ أن هذه البلدان مع كونها تتخذ

مناهج عامة غالباً، فهي تسمح إلى جانبها بالعديد من المناهج التجريبية التي تنتهي بمرور الزمن بإغناء تلك المناهج الغالبة.

أهم ما في الأمر هنا أننا نتبع مبدأ "البدء من الأعلى" أي أن مناهج الدراسة الثانوية تعتمد على ما تحتاجه الجامعات، ومدارس الدراسة المتوسطة تعتمد على ما تحتاجه مناهج الثانوية، والابتدائية بدورها تتبع المتوسطة، وهذا الأسلوب يجعل الامتحانات هي المقياس الأول والأخير للمستوى المعرفي.. لكن هناك اليوم شبه إجماع في الأوساط التربوية والتعليمية أن هناك مهارات هامة تغفلها الامتحانات، والاتجاهات التي تعتمد التطور الذهني وعلم النفس الاجتماعي وتسمى أحياناً بـ" البنائية"، أي التي تفترض أن معرفة الفرد تبنى طبقة فوق أخرى عبر التجربة والاستيعاب الفعلي وليس بالذاكرة والاسترجاع، تؤكد ضرورة الانطلاق أيضاً من القدرات الطبيعية للطفل والطالب، وربطها تدريجياً بعالم الكبار والمناهج الرسمية العليا، وبسبب غموض هذه الرؤية لدى السياسيين وأصحاب القرار الذين هم نتاج للطريق التقليدي، وصعوبة قياس فعاليتها المباشرة، وجب التجريب انطلاقاً من تطوير مهارات التلاميذ من صغرهم للتفكير وصياغة الأفكار والتفاعل التعاوني والإبداع وحل المشاكل، وكلها جوانب يصعب قياسها بامتحانات تقليدية، ومن قبل معلمين ومدرسين لم يمروا هم أنفسهم بتجارب إبداعية، ما أدعو إليه هنا هو أن نضيف إلى ممارستنا العادية ممارسات تجريبية نحن أيضاً، وليكن بنسبة ١٠% من الجهود التربوية والتعليمية.

مشروع تجريبي في المدارس العراقية بمجال تطوير الذكاء العام

إن كاتب هذه الملاحظات ينطلق من تجربة ثلاثين عاماً في تدريس الرياضيات، وأحياناً العلوم الطبيعية وتقنية المعلومات، وبالأساس في تطوير المناهج وطرق التدريس التجريبية لهذه المواد التعليمية في بريطانيا، وهذه النشاطات هي في الغالب على هامش الممارسات الغالبة في المدارس في بريطانيا نفسها، لكنها ترفدها باستمرار عبر تبني المعلمين والمرشدين وأصحاب القرار وكليات تدريب المعلمين والمدرسين بأساليبهم الخاصة للاستنتاجات والتجارب التي نجريها، وتجريها مشاريع تجريبية كثيرة مشابهة في شتى دول العالم.

إنني على وعي تام أننا بحاجة إلى إنقاذ التعليم العراقي بأبسط مستوياته وحسب الممكن، وأن التجريب بمثل ما يجري في البلدان المتقدمة يبدو نوعاً من الترف، لكنني أعتقد أن ذلك تصور قصير النظر، لأن الطرق التجريبية سترفع القدرات التعليمية للجميع طلاباً ومدرسين، أي أن تجريب الفعاليات الصيفية الرامية للتحفيز الذهني من قبل بعض المدرسين المتفوقين العراقيين المنفتحين سيؤهلهم لتسريع عملية رفع مستوى التعليم العام، عبر إغناء أساليب ومناهج التعليم، بدل المراوحة أو مجرد اللحاق بما يجري اعتيادياً في البلدان المتقدمة.

وكما ذكرت في المقدمة فيمكن تصور هذا النشاط التجريبي بأنه يعتمد تطوير القدرات الذهنية للناشئة (فعلياً: الذكاء) عبر التفاعل التعاوني في فعاليات صيفية تجريبية مفتوحة، في مقابل أساليب النقل والإيضاح والشرح السائدة للمناهج والنصوص المقرة، سواء في التعليم الأساسي أو للمتفوقين.

إن ظروف العراق قد أدت بالتدريج منذ بدء الحصار عام ١٩٩٠م إلى تدهور تدريجي في تعليم أغلبية الأطفال والطلبة العراقيين في أغلب المدارس،

ثم أدت بعد الغزو، عام ٢٠٠٣م، إلى نتائج كارثية في جميع حقول التعليم، وتقدر آخر الدراسات[١] أن من لا يرتاد المدارس يتراجع مستواه العقلي سنوياً بنسبة ٣-٥ % عمن يرتادونها في المعدل، أي أن من المحتمل أن مستوى الذكاء لمن تسرب من المدارس لعشر سنوات هو حوالي ٧٠% من المعدل، وهو ما يمكن اعتباره تخلفاً عقلياً لهم في المعارف العامة، إن لم يكن في الأمور الحياتية العملية الروتينية، بالطبع هناك تعويضات كثيرة يوفرها التعليم الأهلي العائلي الذي قد يقلل كثيراً من هذا التدهور والذي يجب الانتباه إليه واستثماره، خصوصاً أننا في هذه الحالة الفريدة حيث جيل الآباء والأمهات وأولياء الأمر عموماً أعلى مستوى تعليمياً من الجيل التالي.

إنني آمل في أن تتبنى إحدى المؤسسات التعليمية الرسمية أو الأهلية في العراق برامج تجريبية مثل ما نقوم به في بريطانيا، وهي في الواقع دورات للمعلمين والمدرسين لتجريب دروس تنمية التفكير المنطقي في مواضيع الرياضيات والعلوم وغيرها، تكون إضافية للمناهج، وهو تجريب لا يزيد عن درس واحد في الأسبوع.

إن هذا الاتجاه يعتمد على مبدأين: أحدهما يتعلق بطبيعة الذكاء والآخر بأساليب التدريس. فمن المتفق عليه أن القدرات العقلية هي مزيج من الفطرة والتعلم، أو ما يسمى في التراث: الطبع والتطبع[٢]، فكلنا يعرف بوجود قدرات فطرية متفوقة لدى بعض الأطفال واليافعين في مجال ما كالأذن الموسيقية أو

---

[1] Richard E. Nisbett (2009) Intelligence and How to Get It: why schools and cultures count; WW.WW.Norton & Company New York and London.

[2] المصدر السابق الذي يعتبر أهم ما صدر هذا العام في حقل الذكاء يستعرض مئات الدراسات الأكاديمية الأمريكية عن هذا الموضوع ويرجح أهمية التعليم والتحفيز على القدرات الوراثية على أهميتها الجزئية، بتمييزها عن النشوء في بيئة أو ثقافة موروثة.

الذاكرة أو الفضول المنطقي للمعرفة، ونعلم أيضاً أن هذه المواهب قد لا تتفتح في وقتها المناسب في مجرى النضوج البدني والعقلي للطفل منذ ولادته بدون توفر الفرص في العائلة لممارستها، وينطبق الأمر أيضاً على الطفل في المدرسة، إذ يتوالى انفتاح الإمكانات البيولوجية مع العمر، لكنها قد لا تتطور بدون توفر الفرص الملائمة في المدرسة، وخصوصاً عبر التفاعل مع التربويين والمدرسين الآخرين الواعين لهذه الضرورة، وبدونها فكأنما تتوارب الأبواب العقلية والمهاراتية وتغلق.

فعندما ينعدم التفاعل بين الطفل والمعلم تتضاءل قدرة الطفل والطالب على تطوير تلك المواهب؛ لأن تفتحها موقوت موروثياً في مجرى عمر الفرد، ضمن أطر عريضة، كما في حالة استيعاب اللغة مثلاً بين عمر الـ ٢ إلى ٥ سنة كوقت أمثل مثلاً، وتعلم معنى العدد وليس مجرد لفظ الأرقام بالتسلسل فيما بعد، وتعلم الجبر بعد عمر العاشرة، وتعلم التفاضل والتكامل بعد عمر الـ١٥ سنة في الغالب، وفي مقابل ذلك أن القدرات الفطرية المتوسطة، وحتى الضعيفة للطفل والطالب يمكن أن تتطور عبر التعليم والتدريب في حالات كثيرة بحيث تؤهل أصحابها لنشاطات مثمرة لأنفسهم ومجتمعهم قد تعوض عن المهارات الفائقة في أغلب مجالات الحياة العملية.

عندها ننتقل إلى مرحلة أخرى هي تعليم الكبار الذي يكون أصعب بكثير من تعليم الصغار؛ لأن الكبار بحاجة إلى استخدام ما تعودوا عليه في فهم ما يقدم إليهم من جديد، وقد يكون في ما تعودوا عليه كثير من العثرات وسوء الفهم، في حين أن الطفل والطالب اليافع يهيكل عقله منذ البداية لتقبل المفاهيم المتقدمة بدون وجود تركة كبيرة من معلومات لا علاقة لها بالأمر إلا شكلياً.

هناك تفاوت كبير في فاعلية المناهج المقررة في كل مادة مدرسية بمدى تأثيرها الإيجابي أو السلبي على التلاميذ والطلبة، وبعض المناهج مستوردة وتقليدية وربما أخذت بدون تمحيص كما قلنا، والبحث التجريبي في المناهج هو في تشخيص الفعاليات المناسبة للأعمار المناسبة من الطلبة، بحيث لا تلقى المعلومات على عواهنها على الطلبة، أما أعلى بكثير عن مستواهم أو أقل مما يستطيعون التعامل معه، ومنها ما يحفزهم على تطوير واعي لقدراتهم وعدم الاكتفاء بالتلقي واسترجاع المعلومات وحل الأسئلة المدرسية الروتينية، فأقل ما يقدمه البحث التجريبي هو تطعيم المناهج الموجودة بمكونات أخرى مناسبة.

وهنا نأتي لأساليب التدريس فهناك تفاوت كبير في فعالية طرق التدريس الصيفية المعروفة في المدارس من التلقين إلى إدارة النقاش إلى التجربة العملية إلخ... فضلاً عن كفاءة المعلمين في استخدام كل طريقة، والموارد المالية المطلوبة لها أحياناً، لكن أساليب التعلم التعاونية ليست فيها صعوبات مالية، بل تعتمد على استعداد المعلمين للانفتاح وسماع آراء التلاميذ، بلغتهم الطبيعية، والتوسط فيما بينهم والربط بين أفكارهم وبين ما هو في المنهج المقرر بشكل تدريجي.

لقد انتقلت بعض التجارب إلى التعليم العام، واليوم في بريطانيا يعتبر المعلم أن الصف الذي يدرسه بحاجة إلى معرفة أسلوب العمل الجماعي في مجموعات صغيرة، فلنأخذ مثلاً واحداً: يجلس اثنان من الطلبة ليعملا على نفس السؤال أو المهمة متشاركين بالورقة أو المواد المتاحة، وقد يكون السؤال بسيطاً مثلاً:

" بعض الإجابات الخطأ عن طرح ٧٨ من ٢٠٥ هي : ١٣ و ٣٧ و ٧٧ و ١٠٣ و ١٠٧ و ١٣٧ و ٢٠٧. ماهي أسباب هذه الأخطاء؟ وهل هناك أخطاء شائعة أخرى؟ ".

على الطالبين، اللذين قد يكونا في الصف السادس الابتدائي أو في المدرسة المتوسطة، أن ينظرا في الأخطاء الشائعة، ويكتشفا أسبابها المنطقية، وكذلك أن يستطيعا شرح أفكارهما باللغة الطبيعية، أي اللغة الدارجة، هذه مهارات ليست في منهج التدريس ولكن لها أهمية ذهنية واضحة، وكل الأخطاء في هذا المثل تعتمد على الاستخدام الجزئي للقواعد التي تعلموها حول الطرح الحسابي، وأهمها مثلاً:

- لا تستطيع طرح رقم من رقم أصغر منه، لذلك تطرح الرقم الأصغر.
- لا تستطيع أن تطرح رقماً من الصفر لذلك تذهب إلى الرقم التالي على اليسار للصفر.
- تستطيع أن تستعير واحداً من رقم ثم تعيده!
- لا تستطيع أن تستعير من الصفر لذلك تستعير من الرقم التالي له.

فالتلميذان يجب أن يشرحا لأحدهما الآخر كيف يمكن توضيح المشكلة، ثم يتشاركان مع اثنين آخرين في صياغة المشكلة، وفي احتمالات الأخطاء الأخرى، (اكتشف المدرسون أثناء تجربة هذا السؤال أخطاء ممكنة أخرى هي ١٢٣ و١٣٣ و٢٧٣ و ٢٨٣ و٥٨٥، وهي أخطاء تأتي من التطبيق الحرفي الجزئي للقواعد البسيطة بدون الانتباه لقواعد أخرى أو لحجم الرقم)، فهناك الآن أربعة طلاب يجب أن يتعلموا الكلام كل حسب دوره، ثم الاتفاق على من سيتحدث باسمهم لطرح أفكارهم حول هذا السؤال أو بعضه لبقية الصف.

إن فائدة هذه التجربة ليست فقط في فهم أعمق من قبل الطلبة لصعوبات الحساب والأخطاء الشائعة في الطرح، بل بالقدرة على شرح الحساب باللغة، وعلى القدرة على التفاهم فيما بينهم، والقدرة على مخاطبة الصف كله بشكل منظم، ويأتي كل هذا مع بدايات غرس منظور متقدم للحساب والتعلم ولدور

المعلم إلخ... هناك إذاً تطوير ذهني، وتطوير اجتماعي في التعامل بين الناس، وتطوير في النظرة لما يعنيه التعلم وطبيعة الرياضيات، وعندما يمارس الطلبة هذا الأسلوب في مواضيع مختلفة يمكن تصور مدى التطور في عقولهم وقدراتهم وعاداتهم في التعلم.

هذا مثال لنوع من التفكير التعاوني الذي قد لا يستغرق أكثر من ربع ساعة من التفاعل الصفي بين الطلبة، وهو جزء من الدروس التي عملنا على ابتكارها في السنين الأخيرة، وقد ساهمت في سلسلة من المشاريع البحثية الجامعية في إعداد حوالي ١٠٠ درس من هذا النوع في مواضيع الجبر والهندسة والإحصاء والحساب، ملائمة في البداية للأعمار من ١٥ سنة فما فوق، ثم الانتقال إلى أعمار أصغر وصولاً إلى عمر ٦ سنوات مؤخراً، وهو العمر الذي يمكن اعتباره بداية استيعاب، أو استخلاص أول المفاهيم الرياضية عبر التجربة في واقع الطفل وبلغته الطبيعية، والواقع أن استيعاب المفاهيم ليس له علاقة مباشرة بالعمر إلا في نوعية الأمثلة الواقعية التي يعالج ضمنها المفهوم.

إن تشخيص المواضيع وابتكار الأسئلة (والقصص) لها عملية فيها الكثير من التجريب والتنقيح لإيصالها لأن تكون مؤهلة للنشر من قبل دور نشر رئيسية في مجلدات تستخدمها مجاميع تجريبية من المدرسين والمعلمين كل في فئته العمرية، هناك مجموعة دروس مشابهة في العلوم كما بدأ بعض مدرسي الفنون واللغة دروساً مشابهة، ويجدر القول أن المعلمين والمدرسين الممارسين بحاجة للتعامل مع كل درس أولاً بتصور أنفسهم طلاباً، وليسوا بدرجة معرفتهم الرياضية والعلمية ككبار، وعند ذلك فقط يستطيعون التفاعل مع الطلبة بشكل فعال، وقد وجدنا أن المعلمين والمدرسين أنفسهم يجدون في هذه الدروس فائدة

قصوى في توضيح مفاهيم جوهرية في الرياضيات لم يكونوا منتبهين لها هم أنفسهم.

تكمن الصعوبة أحياناً في أن المعلمين والمدرسين بحاجة إلى التخلي عن عادة إعلان أن هذه الفكرة صحيحة أو خطأ، بل أن يقبلوا كل ما يطرحه الطلبة ويتعاملوا معهم باعتبار أن له سبباً منطقياً وإن كان خاطئاً، وأن يحاولوا فهم منطق الطلبة قبل أن يربطوه بمنطق المنهج المقرر مثلاً أو حتى بدون ذلك، أي أن المدرس في هذه الدروس التجريبية يتخلى عن سلطته، وعن موقعه كمركز النشاط الصفي.

إن بعض المدرسين لديهم هذا الاستعداد للتجريب، وخصوصاً عبر القول في بداية الدرس "هذا الدرس من نوع تجريبي فلنرَ هل نخرج بنتيجة أم لا؟" ثم أن ينهي الدرس بأن يسأل الطلبة عما يعتقدونه في هذا الأسلوب.

إن تطوير مهارات المدرسين والمعلمين أمر تدريجي لأن فيه تغيير للقيم والعادات، ولذلك يجب التجريب به بدءاً ممن لديهم الاستعداد للمبادرة أو المغامرة، فيصبحون بمرور الزمن مرشدين لأجيال قادمة من المعلمين.

لقد بدأت هذا البحث باستعراض عام لمشاكل التعليم بعد الاحتلال، وعالجت أولوياته، وفي ذلك أوضحت رأيي أن الإصلاح الإداري يأتي في المقدمة على الأبنية، وأنه أمر يسير نسبياً، ثم عالجت المناهج وطرق التدريس وخلصت إلى الحاجة، حتى في الظروف الصعبة الراهنة إلى التجريب، وكل أملي أن ينظر زملائي التعليميون إلى هذه الملاحظات بسعة صدر، وقد يصلح بعض ما طرح فيها كمحاور لنقاشات مثمرة.

الأداء الأخطبوطي المتناغم مع إرادة المحتل
(مقتربات الانتخابات)

حارث الأزدي[1]

اختلفت صفحات المحتل ما بين صفحة وأخرى كل حسب الدور المرسوم له بدءاً من مجلس الحكم بتأسيسه الطائفي المتعمد مع سبق الإصرار تحت وصاية المندوب السامي بول بريمر، ومروراً بالحكومة المعينة احتلالياً، ومن ثم الحكومة المستفردة بالحكم بالاستقواء بالمحتل، وانتهاءً بهذه الحكومة التي ازدوجت معايير الأداء فيها بين الولاء لإيران ولقوات الاحتلال وركبت موجة المظلومية بالدفع باتجاه نصرة المذهب عبر أحزاب طائفية تغنت بمجد وهمي ونضال مدعى تاهت مساراته مع الانخراط في المشاريع الاحتلالية الرامية إلى تقسيم المقسم وتجزئة المجزأ.

من بين هذه التداخلات والمقتربات أُعلنت حكومة المالكي ذات الستة والثلاثين وزيراً في العشرين من شهر أيار عام ٢٠٠٦م بعد مخاض عسير

---

(1) رئيس تحرير جريدة البصائر العراقية.

نتيجة التجاذبات والتناحرات التي تحكم منظومة الأداء الحكومي المحكوم من قبل المحتل.

ولم يتمكن المالكي من اختيار الوزراء الأمنيين بسبب التناحرات التي رافقت تسميتهم؛ بسبب المحاصصة الطائفية وتقسيمات الديمقراطية التوافقية وقد توزعت الوزارات على الكتل النيابية المشاركة في الحكومة وبواقع ١٩ وزارة للائتلاف فضلاً عن منصب رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية والتحالف الكردستاني سبعة وزراء فضلاً عن منصب رئيس الجمهورية ونائب رئيس الوزراء والتوافق ستة وزراء فضلاً عن منصب نائب رئيس الجمهورية ونائب رئيس الوزراء والقائمة العراقية ثلاثة وزراء.

ولكي تحظى هذه الحكومة بالدعم جعلت قوات الاحتلال الأمريكي من قصة مقتل زعيم تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين بمثابة بداية قوية لاسيما بظهور ممثلها إلى جانب السفير الأمريكي زلماي خليل زاد للإعلان عن هذا الحدث وتجبيره باسمها.

تبع ذلك صفحة محاولة بسط السيطرة على بغداد بإطلاق المالكي ما سماه خطة أمن بغداد التي أطلقها في الرابع عشر من حزيران التي سميت آنذاك (معاً إلى الأمام) التي تضمنت فرض حظر التجوال خلال أيام الجمع من الساعة الحادية عشرة صباحاً لغاية الثالثة بعد الظهر، وهي خطة ذئبوية ظاهرها منع التفجيرات وتجنيب الناس هذا الخطر وباطنها السماح للمليشيات بالتحرك بحرية تامة أثناء الحظر الذي جعل العراقيين يلتزمون المكوث في بيوتهم في أيام الجمع كونها عطلة ولا يسمح الحظر - بوقته المختار له بعناية لشل حركة الشارع - أن يخرج المواطن من بيته لقضاء حاجياته.

ومع وجود هذه الخطة التي أراد المالكي أن يظهر فيها قوته وسيطرته إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافه واستمرت التفجيرات ومسلسل العنف الطائفي ونقاط التفتيش الوهمية والجثث مجهولة الهوية.

بعد هذا الفشل أراد المالكي أن يخطو خطوة أخرى تمكنه من إحداث طفرة نوعية على من سبقه، وذلك بإعلان مبادرة المصالحة الوطنية في الخامس والعشرين من شهر حزيران لسحب البساط من تحت الجماعات المسلحة باستدراجهم للانضمام إلى العملية السياسية وترك السلاح جانباً ليكونوا رقماً مستهلكاً بين أرقام لا قيمة لها، فالمقصود بالمصالحة الوطنية من وجهة نظر حكومة الاحتلال الرابعة هو ترك المناهضة والرفض لها وركوب قطار العملية السياسية في ظل الاحتلال والقبول بمنطق الأمر الواقع من دون تغيير للدستور أو نقض لقوانين بريمر أو المحاسبة على السرقات والقتل المنظم وقد حاولت هذه الحكومة تعمية الأمر بعقدها عدة مؤتمرات لما يسمى مصالحة وطنية من وجهة نظر عوراء.. كان منها لشيوخ العشائر ومنظمات المجتمع المدني وضباط الجيش السابق وبعض القوى السياسية، التي تبحث عن مكان لوجودها في مسرح الأحداث ولو على حساب أبناء العراق.

وقد كان لهذه الحكومة في الثامن عشر من تشرين الثاني عام ٢٠٠٧م إعلانها أضخم ميزانية شهدها العراق بلغت ٤٢ مليار دولار وقد أجمعت آراء المراقبين أن حكومة الستة والثلاثين وزيراً وذات الميزانية الضخمة لم تجد أي صدى لهؤلاء الوزراء المتحاصصين ولا لهذه الميزانية الضخمة.

وقد ارتفعت حالات القتل والتفجير والتهجير وحالات الاختطاف الجماعي التي انتشرت في العاصمة وكان أشهرها اقتحام مسلحين يرتدون زي مغاوير الداخلية دائرة البعثات العلمية إحدى دوائر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قرب ساحة الأندلس وسط بغداد واختطفوا ما يقارب من مائة وخمسين

موظفاً ومراجعاً.. هذه الحادثة وغيرها كانت بمثابة حجر الأســاس للتمهيــد لخطة أخرى أشد إيلاماً على العراقيين الأبرياء التي أعلنها نوري المالكي في الرابع عشر من شهر شباط أسماها فرض القانون التي تضمنت عدة إجراءات منها عدم حمل السلاح وفرض حظر التجوال من الثامنة مساءً ولغاية السادسة فجراً، وانتشار نقاط التفتيش وغيرها لكنها لم تحقق أي بند وعد بــه المــالكي سوى حظر التجوال وتأمين عمليات الاعتقال في مناطق بعينهــا مــن أرض الرافدين.

وقد صاحبت هذه الخطة منذ انطلاقتها انتكاسات تمثلت في تفجير الجسور ومنها: جسر الصرافية وجسر ديالى، وتفجير مجلس النواب أدت إلى كــشف المستور عن هشاشة الأمن المدعى بأن أجهزة الحكومة الأمنية سيطرت على الأوضاع في العراق.

إن حكومة المالكي على مدى السنوات الماضية ظلت تناور على مفــاخر وهمية تتلخص بوصفها حكومة الوحدة الوطنية وحكومــة الانجــاز الأمنــي وحكومة المصالحة الوطنية وما إلى ذلك من أوصاف ليس لهــا علــى أرض الواقع أثر يذكر، فلا يــزال العراقيــون يــذكرون كيــف تــشكلت حكومــة المحاصصة الطائفية وكيف حدثت الانسحابات ممن اشتركوا بهذه العملية مــن أمثال حزب الفضيلة وقائمة أياد علاوي وغيرهما ناهيك عن انسحابات الكتلة الصدرية المتكررة التي لم تتبع منهجاً معيناً بقدر ما هــي تــضع قــدماً هنــا وأخرى هناك.

مقتربات الانتخابات القادمة

لاشك أن حكومة كهذه لابد أن تسير على منهجها المعتمد الــذي أنــشئت عليه فعمليات التعمية والضغط والنقيض النوعي وتصفية الخــصوم سياســياً

وجسدياً أسفرت اليوم عن تناحرات وتناقضات بصورة جديدة لم تكن معهودة في المشهد العراقي قبل هذا التاريخ.

كان أول هذه المقتربات زيارة المالكي إلى واشنطن الموصوفة بأنها زيارة ولاء يراد منها الاستفراد والبقاء في الحكم مدة أخرى فتقديم الورود لمجاهيل الاحتلال في مقبرة قتلى الاحتلال في أمريكا ومحاولة استجداء البقاء بالقيام بفعاليات التنازل وتقديم المميزات التي تفرقه عمن يمكن أن يلعب دوراً في صفحة مغايرة ربما يريدها المحتل.

لم يكن أمام المالكي سوى تقديم الولاءات وشرح أبعاد تهديدات الأكراد بمحاولاتهم الضغط على ما يسمى حكومة المركز فضلاً عن التحذير مما سمته أمريكا مفاوضات مع بعض الفصائل التي تمت بوساطة تركية.

تهديدات الأكراد

لم يكف الساسة الأكراد استلاب بعض الامتيازات فيما يسمى حكومة المركز وتسلمهم سبعة عشر بالمائة من ميزانية الدولة بل تعدوا على ذلك بتكريد أجزاء من البلد بغية فرض السيطرة عليها، ومن ثم إنشاء مناطق أطلقوا عليها مناطق متنازع عليها امتدت إلى محافظات أخرى تمثل في مجملها أكثر من ثلث خارطة العراق.

وفضلاً عن ذلك فإن ضعف ما يسمى العملية السياسية في ظل الاحتلال أغرتهم بتوقيع عقود النفط وبيعه بصورة انفرادية والاتفاق مع شركات أجنبية للتنقيب عن النفط بعيداً عن سلطة المركز.. هذه كلها جعلت من الساسة الأكراد اليوم تهديداً لحكومة المالكي مما حدا بالمالكي إلى أن يقدم تنازلاً من نوع آخر أظهر مدى ضعفه بذهابه إلى الشمال واستقباله هناك بمراسم تدل على الانفصال الذي يسعى إليه هؤلاء الساسة، وهذا وهن آخر من نقاط

الضعف والهزالة التي بدت واضحة للعيان بعد إعادة الانتشار المسماة جزافاً جدولة انسحاب، فقد ذهب المالكي ليقدم تنازلات أخرى للساسة الأكراد من أجل الحفاظ على مكتسبات شخصية حزبية ضيقة.

التفجيرات الاستباقية للانتخابات

أشارت أصابع الاتهام في التفجيرات التي اتخذت مناطق مختارة بدقة وعناية لغرض التأجيج الطائفي والاستحواذ العرقي؛ إلى صراع الأحزاب السلطوية وما ذاك إلا أن الرابط والناظم للأحزاب المنضوية تحت راية المحتل هو أنها لا يمكنها الاستمرار من دون ادعاء التمثيل وكسب الأصوات بالترهيب من مجهول أو حتى صناعة عدو وهمي تضمن من خلال هذا السوق مصادرة أصوات الناس ومن ثم حقوقهم.

السرقات المصرفية خطوة أخرى للانتخابات

لقد أظهرت السرقات الانتخابية بمجرميها المنتمين إلى أحزاب السلطة أنها جاءت في إطار السوق الانتخابي لتمويل الانتخابات وتأمين عمليات الخداع الانتخابي بذر الرماد في العيون وتعمية الرأي العام من أن فترة قادمة تحمل التغيير حيث لا تغيير.

التحالفات وأساساتها

مثلما هي التفجيرات والسرقات التي تكون أهدافها انتخابية كذلك التحالفات القائمة على أساس المحاصصة والاستقواء تتم لنيل أكبر قدر ممكن من كعكة الحكم والتميز بالسلطة.

إن خريطة التحالفات التي قد تبدو للوهلة الأولى متجهة نحو التغيير والانقلابات على أصدقاء الأمس أعداء اليوم؛ إلا أن الرابط لها يبقى طائفياً وعرقياً حسب ضوابط المحتل.

فقد شهد العراق في فترة قريبة ومتقاربة عمليتين انتخابيتين ركبتا في سوقهما الإعلامي موجة التغيير إلا أن تغييراً لم يكن ليظهر ما دامت وجوه أدوات الاحتلال باقية على رأس السلطة مثلما هي.. والعمليتان الانتخابيتان هما انتخابات مجالس المحافظات حيث جنت قائمة المالكي نتائج القسم الأكبر منها نتيجة استخدام النفوذ وسلطة الدولة والتسويق لما يسمى دولة القانون، أما القوائم الباقية فقد كانت لأجل السوق الانتخابي والسماح لبعض العناصر في أن تشارك فيها فحسب، وقد اكتُسحت أحزاب السلطة وفي عقر دارها حتى قيل: إن شخصية واحدة أجمعت عليها آراء العراقيين في منطقة معينة قلبت معادلة الاحتلال، أما العملية الثانية فهي انتخابات الشمال حيث سمح لبعض المجاميع والأحزاب بالمشاركة فيها، ومع ذلك فإن المقص الانتخابي جعل الأمور تسير لصالح أحزاب الاستقواء الاحتلالي في شمال العراق وهما الحزبان الكرديان لبرزاني وطالباني.

أما الانتخابات القادمة فالتصور القائم أنه لابد من أن تتحالف هذه القوى والأحزاب على حساب المواطن، ومن هنا كانت زيارة المالكي للقادة الأكراد وإعطائهم الوعود بقضية كركوك وغيرها، ومن هنا أيضاً الجدل الدائر بين أطراف الائتلاف الذي رأس الحكومة لفترتين سابقتين، واضطرته المتغيرات إلى إعادة النظر في بنود هذا التحالف وتقاسم الحصص والتناحر فيمن يكون على رأس السلطة ويرأس هذا التحالف.

أما التحالف الثالث والمقصود به جبهة التوافق فلم يكن حظها موفقاً أبداً في اتخاذ قرار بالتوافق فيما بينها فضلاً عن أن تكون مؤثرة وفاعلة في

مكانها من الحكومة بغض النظر عن صحة دخولها من عدمه، فالتوافق اليوم مشروع للتشظي فهي بتشكيلاتها الثلاثة تقوم بحملة محمومة للتحالفات الجديدة بعد أن أثبتت التجربة عدم تمازج أمزجة المتوافقين على قائمة التوافق.

إن مقتربات الانتخابات القادمة تتمثل في الساحة العراقية بتقديم التنازلات للأمريكان وباقات الزهور وعقد الاتفاقيات والتشبث ببقائهم؛ أو التفجيرات التي يدفع فاتورة الدم فيها أبناء العراق سواء بتفجير الحسينيات أو اتخاذ الموصل وبعض الأقليات مسرحاً ومادةً لها؛ وتصب جميعها في ذات الهدف الانتخابي الموجه للانتخابات القادمة.

أما التحالفات الممجوجة التي لا تمتلك لوناً ولا طعماً ولا رائحة سوى المكاسب المادية والاستحواذ على مناصب تمكن من الاستقواء بالمحتل؛ فإنها تراهن على تأجيج الوضع ليبقي عليهم المحتل، فهم يبعثون برسائل تقول لا يوجد اليوم من يقدم تنازلاً أكثر منا.. وتندرج في هذا السياق محاولات خلق العدو الوهمي ورفع راية التمثيل لمكونات معينة من أبناء العراق؛ لغرض توجيه الأصوات بالخداع والترهيب لصالح أجنداتهم.

لكن على سوداوية هذا المشهد إلا أن المراقبين من أبناء العراق من الرافضين للاحتلال لا يزالون يتتبعون أثر الضوء في آخر النفق فمهما حاول المستقوون بالمحتل من التفافات وخداع وممارسات إقصاء إلا أنهم يرون أن الأمور في العراق تسير نحو الانفراج نتيجة التناحرات التي ظهرت جلياً باقتراب الانتخابات القادمة، فمهما حاولوا من لملمة شتاتهم والبقاء عقبة في وجه القوى الرافضة للاحتلال؛ فإن بناءهم واهٍ لا يصمد أمام مساءلة الشعب العراقي؛ فالفساد والقتل والاعتقالات العشوائية وانعدام الخدمات والبنى التحتية كلها مفردات إن أطلقت واحدة منها كانت الصورة المرتسمة في الذهن لأول وهلة حكومات الاحتلال المتعاقبة.

نحو ثقافة مقاومة..
قراءة في مشروع الممانعة في العراق

جهاد بشير[1]

مما لا شك فيه أن الممانعة هي المعبرة عن المشروع السياسي للمقاومة في العراق، وتعد من المرتكزات الهامة لبسط مطالب المشروع المقاوم وتبيان أهدافه ومقاصده ووسائله، لذلك فإن الممانعة ضرورة لا غنى للمقاومة عنها كما أنها لا تستغني عن المقاومة، إذ إن التكامل الحاصل بين الاثنين يعطي الصورة الكاملة عن المشروع المقاوم من حيث توجهاته وأهدافه ومنطلقاته وغاياته ووسائله.

ولأهمية الممانعة على الصعيدين السياسي والإعلامي سيتم تناول الموضوع وفق الآتي:

١. مشروع الممانعة:

- تعريف الممانعة

---

[1] كاتب وإعلامي عراقي.

- تمثيل الممانعة من خلال قوى رفض الاحتلال، مظاهر وأهـداف:(هيئـة علماء المسلمين في العراق أنموذجاً)

٢. **الممانعة والمقاومة:**

- وحدة الهدف
- التكامل: (فصائل التخويل أنموذجاً)

أولاً: مشروع الممانعة

مدخل

على الرغم من أن الممانعة لا يمكن حصرها ووسائلها عند ظرف معـين ونقطة محددة بحكم عموميتها وتوافرها متى ما توافر أضدادها، إلا أن احتلال العراق وانطلاق الممانعة بعده بشكل أكثر وضوحاً وببرامج بينـة ومخطـط دقيق يعد مجالاً خصباً للدراسة ومساحة واسعة لتسليط الأضواء، ومـن هنـا فإن الحديث عن الممانعة سوف يبتعد عن العموميات ويقتصر علـى المـشهد العراقي لكي تكون الدراسة أكثر تخصصاً وتركيزاً.

الممانعة في العراق لا تعني المعارضة، إذ إن المعارضة في حقيقتهـا لا تكون إلا ضمن إطار نظام مقَر بشرعيته وهذا ليس متوافراً حاليـاً، وبالتـالي فإنها تعني من وجهة نظر عامة: الإباء والرفض والمدافعة والمقاومة للظلـم والبغي والطغيان والاستبداد، وهي الوجه الآخر المتمم للعمل المقاوم المسلح، فإذا كان الأخير يستهدف جيش الاحتلال وآلياته وقواعده فإن مشروع الممانعة يستهدف مشاريع الاحتلال وأنظمته التي أتى بها وما أقِر تحت مظلتـه مـن دستور وانتخابات واتفاقيات وحكومات انبثقت عن العمليـة الـسياسية التـي أسسها ومن ثم رعاها الاحتلال وما زال يرعاها تبعاً لمصالحه، هـذا علـى الجانب السياسي، والتصدي للثقافات المستوردة والإعلام الموجه الذي رافـق

احتلال العراق على الصعيد الإعلامي والثقافي، والصمود بوجه الغزو الفكري المتجدد والذي نشط بقوة أكثر بعد ٢٠٠٣م ورافقته وسائل جديدة تسهم في انحطاط الأخلاق وبعثرة النظام الاجتماعي وتمزيق نسيجه وتفكيك أواصر الترابط بين مكونات الشعب العراقي على الجانب الاجتماعي والأخلاقي.

ومن هنا فإن دوراً كبيراً تؤديه قوى الممانعة في ترسيخ الثوابت والحفاظ على هوية العراق ووحدة أراضيه وتماسك مكوناته، وإن لمشروعها أهمية أكبر في تحقيق التوازن المطلوب بين الأجنحة المسلحة للمقاومة العراقية المتمثلة بالفصائل على اختلاف توجهاتها وبين العمل السياسي المناهض للاحتلال ومشاريعه والرامي إلى إنهائها وإنهاء ما أُفرز عنها مثلما ترمى الفصائل إلى إنهاء الوجود العسكري الأميركي ومن حالفه في احتلال العراق.

تعريف الممانعة

يمكن تناول التعريف من وجهين:

أولاً: معنى الممانعة

الممانعة في اللغة: هي مصدر للفعل (مَانَعَ)، يُقال: مانَعَ يُمانِعُ مُمانَعَةً ــ على وزن فاعَلَ مُفاعَلَة ــ فهو مُمانِعٌ[1].

والممانعة هي المُرادَعة على الكف[2]، أي المجابهة والمدافعة والمنازعة في أمر لا يرتضيه الممانِعُ فيبتغي من صاحبه الكفَّ عنه والتراجع عن فعله.

---

(1) ينظر: شرح ابن عقيل ١٣١/٢.

(2) ينظر: تاج العروس ٢٢٠/٢٢.

ومانعةُ الشيءَ ممانعة أي نازعه، والممانعة هي المحاجزة، وتمانع الرجلان أي تحاجزا، والعكس صحيح[1].

وتتولد الممانعة حين تطغى سلطة ما وتحاول أن تسلب حقاً من أهله باستخدام وسائل متعددة تعضدها بالقوة، فحين يبدأ أصحاب هذا الحق المسلوب مقاومة القوة هذه لاسترداد حقوقهم وإرجاعها فإنهم في الوقت ذاته يستخدمون وسائل وأدوات لمجابهة الوسائل التي ترافق هذه القوة فضلاً عن مهمة إضعافها، وهذا هو مبدأ الممانعة، وللممانعة معنىً أوسع يتلخص في رفض قوانين الظلم والطغيان والاستبداد في أي شكل من أشكال الحياة، والعمل على إزالتها واستبدالها بما يحقق العدل والحرية والأمن.

والممانعة تندرج ضمن سُنة التدافع التي عبَر القرآن الكريم عنها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[2]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[3]، والمتأمل في سياق الآيتين يجد أن الحديث عن سُنة التدافع يأتي مترابطاً ومتزامناً مع موضوع الجهاد وفي هذا الترابط إشارة إلى التكامل الحاصل بين مشروعي المقاومة والممانعة باعتبار أن الاثنين هما من قنواته، وعلى هذا فإن الممانعة باب من أبواب الجهاد وأداة من أدوات الدفع ووسيلة من وسائل مواجهة الباطل ومجابهته، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً.

---

(1) ينظر: القاموس المحيط:٦٥٣.

(2) البقرة: ٢٥١

(3) الحج: ٤٠

ثانياً: الممانعة في العراق

بعد قيام الولايات المتحدة الأميركية ومن حالفها باحتلال العراق تجاوز هذا الاحتلال المظهر العسكري والسياسي ليشمل نواحي الحياة جميعاً في هذا البلد، وقد استُخدمت مشاريع لها غايات وأهداف وتمتلك وسائل وأدوات جميعها تصب في مصلحة الاحتلال وتسعى لتحقيق ما تصبو إليه إدارات القوى المحتلة للعراق، فكانت العملية السياسية النواة الأولى لهذه المشاريع والتي انبثقت عنها جميع المشاريع الأخرى والقوانين، وعلى أساسها تشكلت الحكومات وصيغ الدستور وأبرمت الاتفاقيات، وحيث تكفلت فصائل المقاومة منذ وقت مبكر بالتصدي لجيوش الاحتلال ومقاتلتها فإن الجوانب الأخرى تحتاج إلى من يتصدى لها ويطلق يد العنان في مقارعتها على مستوى سياسي وإعلامي بالدرجة الأساس فتشكلت القوى الرافضة للاحتلال بالتزامن مع انطلاق فعاليات فصائل المقاومة، وهذه القوى لم تأتِ بشكل جزافي بل كانت وما زالت لها برامج ومخططات ومشاريع تنبع وتصب ضمن الإطار ذاته في رفض الاحتلال ومشاريعه وتتكامل مع برامج فصائل المقاومة والمشروع المقاوم، هذه البرامج ترمي إلى العديد من الأهداف المرحلية وطويلة الأمد، مثل إنهاء الاحتلال وحماية وحدة العراق ووحدة أراضيه وسيادته، والحفاظ على الثروات، وبناء بلد موحد قوي مستقل تسوده مبادئ العدالة والحرية وحقوق الإنسان والتنمية بكافة أشكالها التي تزيد الرصيد الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وصيانة المبادئ والقيم والأخلاق وضمان الحقوق الدينية والثقافية والمدنية[1]، وغير ذلك مما سيأتي ذكره أثناء الحديث عن تمثيل الممانعة.

---

(1) ينظر في هذا: وثيقة برنامج وفد القوى الوطنية المناهضة للاحتلال المقدم للأمين العام لجامعة الدول العربية في ٢٠٠٤/١٢/٨م.

ومن هنا فإن برامج ومشاريع القوى الرافضة للاحتلال، والأدوات والوسائل المستخدمة في تنفيذ هذه البرامج، ومراحل تطبيقها، والعمل السياسي المؤازر والمساند لمشروع المقاومة ولا يتقاطع معه في نقطة أو مرحلة، جميع ذلك يعبر عن معنى الممانعة في العراق بعد الاحتلال، والقوى والتنظيمات والهيئات ووسائل الإعلام المتبنية لهذا المخطط والعاملة على تثبيته وتسديده وزيادة زخمه هي القوى الرافضة للاحتلال وهي ذاتها قوى الممانعة(١).

تمثيل الممانعة من خلال قوى رفض الاحتلال

مظاهر وأهداف (هيئة علماء المسلمين في العراق أنموذجاً):

إن لقوى الممانعة رؤىً متنوعة الوسائل ثابتة المبدأ لا تخرج عن إطار الثوابت ولا تُحَرِّك المرتكزات، إذ إن مبدأ الممانعة في حد ذاته ـ وفي ظل الظرف الحالي في العراق خاصة ـ يعد ثابتاً شرعياً وعقلياً ووطنياً وقانونياً ونقطة ارتكاز أساسية للعديد من المحاور، وحين يتم الحديث عن مظاهر الممانعة أو أهدافها فإن ذلك مرتبط ببرامج من يمثلها، وحتى تكون الصورة

---

(1) عند الأنظمة المتبنّية لما يسمى (النظام العالمي الجديد) أو ما يندرج تحت مسمى (العولمة) وفي طليعتها أميركا فإن مصطلح (الممانعة) هو نقيض مصطلح (الاعتدال)، والأخير تطلقه تلك الأنظمة على كل من يوافق على سياستها ويرضى بمشروعها ويستسلم لإرادتها ويسهم في تنفيذ مخططاتها سواء على مستوى الدول أو الحكومات والأنظمة أو المؤسسات، وبالتالي فإن الأنظمة أو المؤسسات التي لا تؤيد مشاريع هذه القوى العالمية وترفض الانصياع لبرامجها هي أنظمة ومؤسسات لا تتسم بالـ(اعتدال) لأنها تمانع مشاريع النظام العالمي وترفض برامجه فأُطلق على منهجيتها المستخدمة في الرفض وعليها تسمية: الممانعة، دول الممانعة، وأنظمة ممانِعة.. وعلى هذا فإنه لا ضير من استخدامنا مصطلح الممانعة في التعبير عن الرفض والمناهضة وما إلى ذلك، لكن من غير الصواب والمنطق استخدام مصطلح (الاعتدال) بهذه الصيغة التي تحاول العولمة تجميلها، بل الصواب أن نستبدل (اعتدال) الأنظمة والمؤسسات المنصاعة بـ الخنوع والتخاذل.

أكثر وضوحاً وأجلى مشهداً يمكن اختيار أنموذجاً لمن يمثل الممانعة ومن خلال برنامجه نتعرف على تلك المظاهر والأهداف، وعليه فإن اختيار هيئة علماء المسلمين يعد ذا أهمية في هذا المجال لجملة من الأسباب أهمها:

١. تعد الهيئة أبرز القوى الرافضة للاحتلال وأوسعها مساحة في العمل؛ وذلك لكبر قاعدتها الجماهيرية وانتشارها في عموم البلاد.
٢. دأبت الهيئة بصورة دائمة ومنذ أول يوم لتأسيسها.. ولا زالت على أخذ زمام المبادرة في العمل الوطني الجاد ضد الاحتلال الأميركي للعراق، وكانت ولازالت بمثابة نواة تجتمع عندها باقي قوى الممانعة.
٣. للهيئة مبدأ ثابت لا يطرأ عليه تغيير في الدعم الواضح والصريح سياسياً وإعلامياً للمقاومة والدفاع عن مشروعها، وتأكيدها على ضرورة تحديد (الإرهاب) الذي غُيّب مفهومه، وأهمية فصله عن الحق المشروع في مقاومة الاحتلال، ورؤيتها للإرهاب على أنه استهداف المدنيين والأبرياء وأنه متعدد الجهات ويجب أن يُدان بكل صوره بما فيها إرهاب الاحتلال وإرهاب السلطة، وكانت هي أول من أدانه وشجبه عبر بياناتها وتصريحاتها الواضحة.
٤. سعي الهيئة إلى إنهاء الاحتلال بصورة كاملة وبجدول زمني مكفول دولياً وإنهاء مظاهره وإفرازاته وحرصها على حل الإشكالات المترتبة على وجوده وما نتج عنه وأن ذلك كفيل باستعادة سيادة العراق الحقيقية وعودته إلى محيطه العربي والإسلامي والأسرة الدولية، وتواصلها مع الناس في توعيتهم بعدم الاستسلام للواقع المر الذي تعيشه الأمة، والوقوف بحزم أمام كل من يريد سلخ العراق من هويته التاريخية وحضارته الإسلامية.

٥. رفض الهيئة للعملية السياسية وما نتج عنها وعدم تعاطيها معها؛ لأنها بنيت على أسس طائفية وعرقية، واعتمدت نظام المحاصصة، وثبات الهيئة على هذا الرفض وعدم تغيير الموقف تجاه ما يسميه الاحتلال وحكوماته بالتغيرات والتطورات السياسية، التي يبتغون من تعبيراتهم هذه ذر الرماد في العيون.

٦. يمتاز برنامج الهيئة بالشمولية في جميع المظاهر، كما تمتاز وسائلها بالمواكبة فهي ترصد جميع الأحداث في العراق وخارجه وتعبر عن موقفها بوضوح تجاهها.

٧. الهيئة تمثل العراق أو تشارك في تمثيله في العديد من المؤسسات الإسلامية والعربية والدولية مثل: الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والحملة العالمية لمقاومة العدوان، والمؤتمر القومي الإسلامي، والمؤتمر القومي، ورابطة الصحافة الإسلامية.. وغير ذلك، كما إن لها عدة مكاتب وفروع خارج العراق مما يتيح لها فرصة إيصال الصوت الممانع والمقاوم.

وأسباب أخرى كثيرة غير هذه مما يعطي للهيئة الأولوية لتخصيصها أنموذجاً تتجسد فيه جميع مبادئ الممانعة، هذا فضلاً عن إيداع باقي القوى ثقتها في هيئة علماء المسلمين باعتبارها الجهد الكبير والمؤثر في الساحة العراقية[1].

إن المتتبع لبرنامج الهيئة يدرك أنها ترمي إلى أهداف وتؤكد على جملة من المقاصد، منها: أنها تدعو بصورة دائمة إلى ضرورة إنهاء الاحتلال

---

(1) ينظر: المشروع الوطني المناهض للاحتلال والوثائق المرفقة معه عبر الموقع الرسمي لهيئة علماء المسلمين في العراق على شبكة الإنترنت، وينظر أيضاً: هيئة علماء المسلمين التعريف والمفهوم ــ فقرة "المعلومات التفصيلية عن الهيئة ومؤسساتها".

بمختلف مظاهره، وعدم الاعتراف بكل ما نتج عنه، من أجل أن يتحقق الأمن وتتحصل الحرية، وتبنى مؤسسات رصينة، وتتشكل حكومة عادلة، ويُكتب دستور دائم مؤهل لسن القوانين التي تحفظ للعراق وحدته ووحدة أراضيه ونسيجه الاجتماعي وتعزز الأخلاق والقيم وتحافظ على التركيبة السكانية، ويعاد بناء الجيش العراقي الذي يحمي البلد ويدفع عنه مخاطر الاعتداء ويكون ولاؤه للعراق، ويُبنى نظام اقتصادي لائق يحافظ على الثروات ويزيد في التنمية، وغير ذلك من مقتضيات بناء الدولة الحرة كاملة السيادة، ولأجل هذا فإن برنامج الهيئة في ضرورة تحقيق الشرعية الوطنية في كل من القوانين والحكومات والاتفاقيات وغيرها؛ مرتكز ثابت هو مبدأ لا تتنازل عنه، وحتى تتحصل الشرعية المطلوبة ينبغي أن تبنى تلك المؤسسات بعيداً عن إرادة الاحتلال ومخططاته[1]، وتلك هي نماذج عامة ملخّصة من مطالب الممانعة وأهدافها ومقاصدها.

وهيئة علماء المسلمين باعتبارها تمثل الوجه الأوسع للممانعة تعمل ضمن مجالات مهمة وكبيرة، يمكن تلخيصها من خلال الاهتمام بالقضايا التي يعيشها البلد تحت وطأة الاحتلال، والتعاون مع الأطراف الأخرى الممثلة للممانعة والتي ترفض الاحتلال وتعمل مع أنشطة وفعاليات العراقيين بمختلف أطيافهم لإعادة بناء البلد ومعالجة الواقع العراقي في ظل الاحتلال، وملء الفراغ السياسي بإدارة مستقلة تمكن مؤسسات الشعب العراقي من الأخذ بالدور الريادي في إزالة أو تقليل الأضرار التي تولدت عن الاحتلال، وممانعته ودفعه ورفض مشاريعه وإعلان ذلك بكل وسيلة متيسرة حتى إنهائه

(1) تنظر هذه المعاني وغيرها في كلمة الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق فضيلة الشيخ د. حارث الضاري في مؤتمر الوفاق العراقي في القاهرة ــ تشرين الثاني ٢٠٠٥م، فضلاً عن جلّ بيانات الأمانة العامة للهيئة وتصاريح قسم الإعلام فيها حول مجمل الأحداث.

تماماً، وتحقيق الأهداف المرسومة للوصول بالبلد إلى درجات عليا من الرقي الحضاري والإنساني والاقتصادي والسياسي وبقية المظاهر الأخرى في الحياة، ومن هذا المبدأ فإن مظاهر عمل الهيئة في تحقيق ما تصبو إليه الممانعة تبلورت في مظهرين أساسيين، أحدهما: العمل على متابعة الأحداث ومواكبة مجريات الأمور المفروضة على أبناء العراق على مستوى السياستين الداخلية والخارجية، وهذا الجزء معلن وواضح من خلال الوسائل الإعلامية بشكل عام وأدوات الإعلام الخاصة بالهيئة بشكل خاص، والآخر: العمل على بناء مشروع الهيئة في النهضة الحضارية والتغيير السياسي وتحديد الأسس والخطوط العريضة للسياسة التي يفرضها الواقع غير الطبيعي في العراق والمتمثل بالاحتلال[1]. ويعنى المظهر الثاني باستمرار وديمومة الممانعة بشكلها التنظيمي ومبدئها الفكري، في حين يكون المظهر الأول من أجل إيصال فكرة الممانعة وتبيان مطالبها.

وباستعراض الأهداف والمظاهر نجد أن صورة واضحة تفرض نفسها وتعكس الوجه الثابت للممانعة بمعنى أنها ومنذ انطلقت وحتى اللحظة ثابتة على مبدأ واحد ومنهج واحد ورؤية واحدة وهذا ما يؤكد صواب رؤيتها وصدق تشخيصها[2].

---

(1) ينظر: هيئة علماء المسلمين التعريف والمفهوم ــ فقرة " الطريقة وآلية التنفيذ ".

(2) حالة واحدة نأخذها لتوضيح الصورة وهي على سبيل المثال لا الحصر: بيان هيئة علماء المسلمين رقم (٤١) حول تشكيل الحكومة بتاريخ ٢٠٠٤/٦/٩م أشار إلى أن الحكومة المشكلة بعد مجلس الحكم وهي فاقدة الشرعية سوف تورط البلد بما يحقق مصالح الأميركيين على حساب الشعب العراقي من اتفاقات أمنية وغير أمنية..الخ، وأن الهيئة ملتزمة بإعلام الشعب العراقي بأي خطأ ترتكبه الحكومة وغيرها من الحكومات بحقه وهذا ما حصل بالضبط في أواخر عام ٢٠٠٨م أي بعد أربع سنوات من تحذير الهيئة، وكان موقفها من الاتفاقية متمثلاً بالفتوى ورسالة إلى الشعب العراقي وعدد من اللقاءات الصحفية مع قيادات في الهيئة امتداداً لما طرحته في البيان (٤١) دون أن تحيد عنه.

ثانياً: الممانعة والمقاومة

انطلاقاً مما مرّ ذكره آنفاً فإن التكامل الحاصل بين المقاومة والممانعة يعطي الصورة الكاملة عن المشروع المقاوم من حيث توجهاته وأهدافه ومنطلقاته وغاياته ووسائله، وهذا الأمر هو الذي أعطى لمشروع المقاومة في العراق تميزه على المستويين الميداني والإعلامي، والميزة التي ينبغي أن يتم الاهتمام بها أكثر هي أن الترابط والتكامل بين المشروعين آخذ بالنمو والصعود والاتساع على الرغم من المحاولات المتعددة في صناعة العراقيل وعلى كافة الأصعدة أمام مشاريع رفض الاحتلال.

وحدة الهدف:

إن الحديث عن وحدة الأهداف بين الممانعة والمقاومة لا يحتاج إلى إسهاب أو تفصيل، فالميدان أوضح ذلك وما زال يوضحه، ولكن لا ضير من تسليط الأضواء على بعض المرتكزات التي تجتمع عندها الوحدة، فإنهاء الاحتلال هو المرتكز الأم الذي تنطلق منه أدبيات المقاومة وتبدأ منه الممانعة مشروعها، ولذلك فإن التصدي لمشاريعه بالعمل المنظم والإجراء المخطط له يترجم وحدة الهدف الرئيس المتمثل بتحرير العراق وتحصيل السيادة التامة وإحلال الأمن والحرية، ومثلما تبين سابقاً مطلب الممانعة ومبدؤها في التحرير فإن المقاومة ترى: أن الطريق الصحيح لإنهاء الاحتلال والتمكين لشرع الله هو جهاد العدو المحتل حتى يرضخ صاغراً أمام المجاهدين[1]، وحين يتوحد الهدف الاستراتيجي فإن الأهداف المرحلية الأخرى متوحدة بالضرورة فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن موقف المقاومة من العملية

---

(1) ينظر: لقاء موقع المسلم مع عادل الزهاوي المتحدث المأذون من المكتب الإعلامي لجيش الراشدين في العراق. وينظر أيضاً: (من نحن؟)؛ بطاقة التعريف بكتائب ثورة العشرين على موقعها الرسمي.

السياسية هو موقف الممانعة ذاته وهو عدم مشروعية العملية السياسية في ظل الاحتلال وما ينتج عنها؛ لأن المحتل سوف لن يقبل إلا بنتائج مشروعه، والقناعة التامة منطقاً وواقعاً بعدم إمكانية إجراء أي عملية سياسية حرة نزيهة مع وجود الاحتلال وتأثيراته وضغوطه[1]، وبالقياس على هذا وبمتابعة مواقف المقاومة وبرامجها ومقارنته مع برامج الممانعة نجد أنهما يلتقيان ضمن مساحة واسعة مؤطرة برؤية واحدة، وهدف واحد، عبر مشاريع يكمل بعضها بعضاً وتخلص إلى نتائج موحدة وغايات محددة.

ومن الجدير أخذه بنظر الاعتبار في هذه الجزئية أن الأهداف المشتركة بين المقاومة والممانعة تقتضي أن يكون العمل السياسي في العراق [2] جارياً وفق ما يحدده برنامج المقاومة العام، والسياسيون العاملون في هذا المضمار ينبغي عليهم التقيد بمنهجية المقاومة والتحرك ضمن إطار مشروعها وليس العكس، فالمرحلة اليوم في العراق هي مرحلة جهاد الدفع؛ والحكم فيه للميدان، والسياسي المناهض لا ينبغي له التعامل مع الأحداث إلا من وجهة النظر هذه لأن الهدف الأول والاستراتيجي المرحلي هو إنهاء الاحتلال وإزالة كافة متعلقاته، وعلى البرامج السياسية المناهضة أن تكون اللسان الناطق في نصرة المقاومة وإيضاح أهدافها والدفاع عنها والتصدي لكل محاولات تشويهها أو إضمار مشروعها، وليس للسياسي الممانع أن يجتهد في قضية خارج إطار رؤية الممانعة المكملة لرؤية المقاومة.

---

(1) ينظر: مشروع جبهة الجهاد والتغيير ــ الفقرة الخامسة.

(2) نعني به العمل السياسي خارج العملية السياسية، أي بمعنى العمل السياسي المناهض للاحتلال.

التكامل: (فصائل التخويل[1] أنموذجاً)

منذ البداية أشرنا إلى أن العمل الممانع هو بمثابة المشروع السياسي للمقاومة، وما يمكن فهمه من خلال التعبير هذا بصورة إجمالية أن الترابط بين المشروعين لا يقتصر عند جزئية معينة أو مرحلة محددة ولذلك عبرنا عنه بأنه تكامل، إذ أن مشروعا الممانعة والمقاومة انطلقا من نقطة واحدة تجمعهما معاً والممانعة متممة لعمل المقاومة والأخيرة متعلقة بالأولى، وهذه تحصد ثماراً هنا، وتلك تجني قطافاً هناك، وجميع ذلك يودع في خانة واحدة، وإن تنوعت أساليب ووسائل كل منهما بحسب طبيعة البرنامج، وبحسب المضمار المختار لعمل كل منهما، فإن المشروعين لم ينفصلا ولا يمكنهما ذلك بحال من الأحوال، إذ إنه على فرض لو حصل ذلك وآثرت إحداهما التخلي عن الأخرى أو النأي ببرنامجها ومشروعها بعيداً عن برنامج ومشروع أختها فسيكون المآل هو الانهيار التام لكليهما، وهذا بعيد كل البعد عن الحدوث ففضلاً عن أن الافتراضات توضع لتقريب الصورة، فإن التاريخ والمرحلة ومؤشرات المستقبل جميع ذلك يقتضي أن تتكامل برامج الممانعة والمقاومة.

وأُخذت فصائل التخويل أنموذجاً في هذه الدراسة؛ لتقريب الصورة وإيضاح عملية التكامل لأن ذلك يعكس نتيجة ضمنية في إحدى مراحل المشروع الجهادي في العراق، فالتخويل جاء معبراً عن نضج مرحلي لتكامل في المشاريع ليس وليد لحظته، وجاء لإيصال المشروع المقاوم برؤيته

---

(1) فصائل التخويل: هي مجموعة من فصائل المقاومة أعلنت تخويلها للشيخ د. حارث الضاري أمين عام هيئة علماء المسلمين في العراق وأودعت ثقتها فيه لكي يمثلها في كافة المحافل ويتحدث باسمها في الأمور السياسية ذات الصلة بمشروع المقاومة، وللوقوف على التفاصيل ينظر: بيان الثقة والتخويل من على الموقع الرسمي لجبهة الجهاد والتغيير.

ونضجه وكفاءته إلى العالم أجمع، ومن أجل توحيد الخطاب السياسي لفصائل المقاومة، وهو خطوة على صعيد بلورة مشروع وطني لجميع القوى الممانعة والمناهضة للاحتلال(١)، لأجل ذلك وغيره تمت صياغة هذه النقلة النوعية المرحلية متجسدة بإعلان الفصائل بيانَ الثقة والتخويل اللذين منحتهما للشيخ الضاري(٢).

إن الغاية المنشودة من التخويل يمكن إيجازها في أن يجتمع العراقيون على أمر رشد في إطار كبير جامع يحقق آمال المجاهدين في تحرير العراق من رجس الكافرين والمنافقين والأدعياء، ويعود حراً مسلماً إلى أحضان أهله من العرب والمسلمين عزيزاً بدين الإسلام مرفوع الرأس(٣)، وهذا الأمر إذا ما قورنت أهدافه مع برنامج الممانعة ومشروع الجهاد نجد أنه يمثل الحصيلة النهائية لكل منهما، وهذا تعبير واسع ومجمل عن العملية التكاملية بين المشروعين، هذا من جهة أولى، ومن ثانية فإن فصائل التخويل أعلنت بوضوح بنود تخويلها الشيخ د. حارث الضاري في أن: يتحدث باسمهم ويفاوض عنهم في الأمور السياسية ذات الصلة بالمقاومة وأن ينوب عنهم في كل المحافل ليدافع عن دماء الشهداء من أبناء العراق وعن المعتقلين وعن الأعراض التي انتهكت والأموال التي هدرت(٤)، وتلك صورة أكثر اتساعاً للتعبير عن حقيقة التكامل، ومن جهة ثالثة فإن موافقة الشيخ د. حارث الضاري على التخويل أعطت الشكل النهائي التام لعملية التكامل، وهذا ما

---

(1) وللوقوف على تفاصيل أكثر يمكن مراجعة تصريحات الأمين العام لجبهة الجهاد والتغيير لموقع "الجزيرة نت".

(2) ينظر في هذا: مقال "للتاريخ.. صفحات ينبغي أن تدوّن" لجهاد بشير منشور على موقع هيئة علماء المسلمين في العراق على شبكة الإنترنت.

(3) ينظر: بيان الثقة والتخويل.

(4) ينظر: المصدر السابق.

عبّر عنه الشيخ الضاري بقوله: "إن قبولنا هذا التخويل سيكون عوناً لنا بإذن الله تعالى على تحقيق هدفنا في أن يكون العراق لكل أبنائه، بكل مكوناتهم الدينية والمذهبية والعرقية، لا يعاني فيه أحد من تهميش أو إقصاء"(١).

ومثال آخر يعبر عن حقيقة التكامل أنه مثلما ترفض قوى الممانعة أي اتفاقيات مع الاحتلال وإداراته ولا تعترف بشرعية الحكومات المنصبة بشكل عام وفي إجراء اتفاقات طويلة أو قصيرة بشكل خاص؛ فإن قوى المقاومة ترفض كذلك ومن منطلق تكاملي أي إجراء يتم مع الاحتلال على الشاكلة نفسها، ومن ذلك فإن هيئة علماء المسلمين عدّت قيام الحكومة الحالية بإجراء اتفاقية مع إدارة الاحتلال بأنه الاستسلام الذليل للعدو المحتل، ووصفت وشخصت وبينت جملة أمور ذات أهمية تتعلق في هذا الموضوع(٢)؛ ولذلك عملت قوى الممانعة على تسخير طاقاتها الإعلامية والسياسية للوقوف بوجه الاتفاقيات الباطلة والتي لا ينتفع منها سوى المحتل وحده، وبالخط الموازي فإن فصائل التخويل كان لها موقفها المبدئي والمتكامل مع موقف الممانعة في رفض إجراء أي مفاوضات مع الاحتلال تحت أي مسمى كان خاصة في الظرف الراهن، لأن طبيعة مرحلة الصراع بين المقاومة والعدو المحتل لا تستدعي التفاوض معه بل تتطلب زيادة زخم الضربات لإجباره على الإذعان لشروط المقاومة والممانعة والانسحاب من العراق(٣)، ومثلما ترفض قوى الممانعة العملية السياسية وصورها وما نتج عنها في ظل الاحتلال مما أشرنا

---

(1) ينظر: بيان موافقة الشيخ د. حارث الضاري على تخويل الفصائل ــ موقع جبهة الجهاد والتغيير.

(2) ينظر: فتوى هيئة علماء المسلمين بشأن (الاتفاقية الأمنية طويلة الأمد) ــ موقع الهيئة، وينظر أيضاً مقال " رفض اتفاقية الإذعان:قراءة في فتوى هيئة علماء المسلمين " لجهاد بشير على الموقع نفسه.

(3) ينظر: تصريح إعلامي صادر عن اللجنة الموحدة لفصائل التخويل حول تصريحات بشأن التفاوض مع المحتل ــ موقع جبهة الجهاد والتغيير.

إلى أمثلة منه سابقاً؛ فإن المقاومة تقول إن العملية السياسية برمتهـا وجميـع مفاصلها من حكومة ودستور ومفوضية وغير ذلك هي من إفرازات الاحتلال لا نعترف بها ولا نقر بمشروعيتها ونطالب بزوالها مع زوال الاحتلال وإعادة بناء العراق بأيدي أبنائه المخلصين[١]، والأمثلـة الأخـرى لتبيـان التكامـل الحاصل بين المقاومة والممانعة غزيرة النفع كثيرة العدد[٢].

بقي أن نلمح إلى إشارة بديهية في السلوك معبرة في محتواها وهـي أن الأساليب التي يتبعها العدو المحتل تجاه قوى الممانعة يكررها حين يتعامل مع قوى المقاومة في تعبير ضمني يمكن استنتاجه من سلوك الاحتلال وتصرفاته يدل على أن كُلاً من المقاومة والممانعة – في نظر العـدو– جبهـة واحـدة، وعلى الرغم من أن أحداً من الفريقين ليس بحاجة إلى شهادة من العـدو ولا يعول عليها، إلا أن ذلك يزيد الأمر تأكيداً ويضفي على المشروعين ثباتاً فوق ثباتهما.

خاتمة:

خلاصة ما ينبغي إدراكه أن في العراق مشروعاً كبيراً مناهضاً لاحتلال ظالم جائر على كافة المستويات والأشكال ومظاهر الحيـاة، وحيثمـا يـدخل الاحتلال من باب فإن للمشروع الكبير مرصداً فيه. وينطلق هذا المشروع من نقطة واحدة ومبدأ واحد ورؤية واحدة ويرفع لواءين متكاملين يعطي أحـدهما الآخر ويأخذ أحدهما من الآخر، ويتمم هذا عمل ذاك ويحمي ذاك عمل هـذا ويدافع عنه، وهذان اللواءان هما ما نعبر عنهما بالمقاومة والممانعة.

---

(1) ينظر: المرجع نفسه.

(2) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: رسالة هيئة علماء المسلمين في العراق إلى المجاهدين المـرابطين على أرض العراق بتاريخ ٢٠٠٧/٩/٥ م

فالمقاومة اتخذت من الجانب العسكري ميداناً لها فتشكلت الفصائل التـــي تعبر عن التطبيق العملي لمشروع الجهاد الذي يحافظ على كرامة وديمومـــة المشروع الكبير في التصدي والدفع وحمايـــة الأرض والعـــرض، واتخـــذت الممانعة من بقية جوانب الحياة ميدانها الذي من خلالـــه تعبـــر عـــن الإرادة الحقيقية لمطالب المشروع الكبير المناهض للاحتلال والرامي إلـــى تحريـــر العراق وتصفية أراضيه من الدخلاء والمخربين وصناعة قواعد وأسس للحياة المثلى التي تكرم الإنسان وتعيد تأهيله لتسلم زمام أمور الخلافة التي أمره الله تعالى بها في أرضه.

المراجع:

- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي.
- الجزيرة نت.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي.
- الموقع الرسمي لكتائب ثورة العشرين.
- الموقع الرسمي لجبهة الجهاد والتغيير.
- الموقع الرسمي لهيئة علماء المسلمين في العراق.
- موقع المسلم.
- هيئة علماء المسلمين التعريف والمفهوم؛ من إصدارات هيئة علماء المسلمين.
- وثيقة برنامج وفد القوى الوطنية المناهضة للاحتلال المقدم للأمين العام لجامعـــة الدول العربية.

واقع المرأة العراقية في زمن ديمقراطية الاحتلال الأمريكي

سكينة عبد المالك الصميدعي[1]

تمهيد

نحمد الله تعالى ونشكره على كل أحوالنا ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة لنا ولكل العالمين، وبعد...

فلاشك إن المرأة تشكل نصف المجتمع -إذا صلُحَتْ- وعلى النصف الآخر يرتكز بناء الرجل، وهذه البديهية لا يختلف عليها اثنان في المجتمع المسلم؛ ذلك أن المرأة الصالحة تتولى تربية النشء على منهج الله القويم في كل مراحل الحياة، فهي المرجع والحضن الدافئ للأبناء حتى لو بلغوا شأواً من أي منزلة في مراحل حياتهم المختلفة حيث نجد بصماتها الخيّرة في القيم التي يحملونها وينثرون عبيرها في كل زوايا المجتمع، ولنا في تاريخنا المجيد البعيد منه والقريب شواهد لا تحصى هي أمثلة حية بمثابة زاد ورواء يتزوّدن

---

[1] رئيسة رابطة الأم العراقية.

به رائدات هذه الأمة في عصرنا الذي نعيشه في زمن الديمقراطية التي تتزلف بالتحرير والانعتاق من كل فضيلة، وتدعو إلى التحلل والانسلاخ من قيم ومبادئ ديننا القويم، الذي هو بالنسبة لها الهدف الأول في العدوان واحتلال البلاد، ولما كان للمرأة المسلمة دور فاعل في صناعة الرجال ودوام المجتمعات متماسكة فقد انصبّ هدف الاحتلال عليها لتكون هي المصدر والمنطلق ثم هي الهدف الأساس في الحرب على هذا الدين القويم.

وهذا ما لمسناه واقعياً خلال السنوات الست المنصرمة حيث جنّد الاحتلال وأعوانه كل وسائل الهجوم الثقيلة منها والخفيفة، والمعلنة منها وما تستّر بوجوه وأسماء مختلفة متخذة من صناعة التمويه والتضليل والتشكيك ستاراً للهدف الذي تسعى إليه، وتعتمد في ذلك على خطة مرسومة ومدروسة مستغلة بذلك سذاجة الكثيرين من أبناء هذه الأمة الذين أغرتهم شعارات المحتل في التحرير والانفتاح على العالم الخارجي وقد صوّرت لهم طفولتهم الفكرية إنهم قد حققوا مرحلة من مراحل الحياة أكثر وردية بامتلاكهم جهاز الصحن الفضائي أو الهاتف النقال أو خدمات الشبكة العنكبوتية متجاهلين ما تمر به البلاد، وما انتاب العباد خلال هذه السنوات من دمار وتشريد وتحطيم منظّم للبنى التحتية وأهم بنية في تصورنا هي بنية القيم الإنسانية والتي أصبح العثور على حامليها حُلماً، هذه البنية هي التي يقوم عليها البناء المادي والبناء المعنوي لكل المجتمعات الإنسانية فكان من آثارها هذا الدمار الحاصل في البلد على جميع الصُعد حيث الخراب في البنيان، والخراب في الهيكلية السياسية المتمثلة بالوزارات حيث تعمل فيها معاول السرقة والرشاوى، والمحسوبية، وتولي المسؤولية لمن ليس أهلاً لها، ثم الخراب الديموغرافي المتمثل بإثارة النعرات الطائفية والعرقية، ثم بناء المشروع السياسي القائم اليوم على أساس من هذه النعرات، وهذا من أخطر معاول الهدم في صرح

مجتمعنا العراقي والذي خلّف محنة موغلة في الخطر صعبة جداً على إيجاد مخرج لها وحلول، ولولا لطف الله سبحانه، وقدره الماضي الذي لا يُرد؛ لأصبح العراق اليوم في خبر كان ولنعقت فيه غربان الظلام.

هذا الدمار والخراب الذي يعيشه بلدنا ترك بصمات حارقة في الجسد العراقي تحملّت المرأة الجزء الأكبر منه حيث إنها تواجه هذه المحنة وحيدة بعيدة عن حماية الرجل حيث قتل أبوها وزوجها وغُيِّب أخوها وأبنها إما خطفاً أو اعتقالاً أو تشريداً وهُدم دارها، أو هُجرت منه.. حُرمت من أبسط مقومات الحياة في التعليم، والعلاج، وإيجاد فرص العمل، وتوفير الخدمات الضرورية في الحياة كالماء والكهرباء والمواصلات... وغيرها كثير وكثير. ولا يُدرك حقيقة ما نقول إلا من عاش في وسط هذا الواقع المرير الذي يعيشه الشعب العراقي وتتحمّل جُلّه المرأة.

وسنبين بعض آثار المعاناة التي تتحملها المرأة العراقية على جميع المستويات، وما خفي كان أعظم.

المرأة العراقية قبل الاحتلال

من المهم جداً قبل الخوض في واقع المرأة العراقية في ظل الاحتلال أن نعرّج قليلاً على الواقع الذي كانت تعيشه قبل احتلال البلاد؛ وذلك لأهمية المرحلة والدور، ثم لبيان شخصية المرأة العراقية بالذات، ولماذا استُهدِفت كل هذا الاستهداف المُنظم الذي شمل كل مفاصل حياتها.

قالت لي مرة إحدى الأديبات من دولة عربية مجاورة: لو مرّت بلادنا بنفس المحنة التي مررتم بها في زمن الحصار وحده!! ناهيك عن القتل والتشريد لباعت نساؤنا كل شيء ولمحيت خريطة البلاد من الوطن العربي

-وتقصد الانهيار الاجتماعي وتفتت كيان الدولة- ولكن المرأة عندكم هي التي كانت سبباً مباشراً في هذا الثبات، وهذا التماسك.

وكُلّنا نتذكر زمن محنة الحصار ودور المرأة العراقية في لملمة شعث الفقر والعَوز والجوع، وغياب المُعيل، وكُنا نقف على صور من التضحية والصبر يسجلها التاريخ بمداد من نور، حيث تفننت المرأة العراقية في تلك المرحلة في وسائل سد الفراغ والوقوف في وجه المحنة العاصفة التي خلّفها الحصار وما سبقه من حروب كادت أن تعصف بأركان البناء الاجتماعي لولا أن الله سبحانه سخّر نساء ورجال هذا البلد الأبي للتصدي لها، من هنا ندرك سر الاستهداف وبهذه القوة لهذا البلد.

المرأة العراقية في زمن الحصار الظالم كانت تعجن العجين بيدها وتخبز الخبز في بيتها، وتزرع الخضراوات في حديقتها، وتصنع أنواع الصابون لأسرتها، وتصنع من العظام المغلية شراباً يعوّض أطفالها عن حرمانهم من فائدة اللحوم التي ما كان يتذوقها إلا شريحة خاصة من أبناء هذا الشعب في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ العراق.

حدثتني إحدى الأخوات أنها كانت تضع البترول في قارورة المياه الغازية، وتسد فوهتها بعجينة التمر كي لا تحترق الفتيلة من أجل توفير دريهمات ثمن الفانوس، وقالت كنت أصنع ذلك كي أوفر لقمة العيش لأولادي.

هذه صور من الثبات والصبر أيام المحن وغيرها كثير، وهذا ما لا يريده أعداء هذه الأمة؛ ذلك لأن المرأة الواعية المدركة والتي تتحمل المسؤولية عند اشتداد المحن وتسعى إلى تثبيت أركان مجتمعها وتعويضه عما فات مما يغيض أعداء الله، فيكون ثباتها هذا بمثابة حرب موجهة لهم.

ثم جاء الاحتلال قاطعاً آلاف الأميال

يجر وراءه كل حقد دفين على هذه الأمة ومقدراتها، وتغيرت صورة الحياة، وتلونت باللون الأسود والأحمر، ووجهت السهام من أول يوم للمرأة العراقية المسلمة، فكان قرار مجلس الحكم برئاسة بريمر رقم (٣٧) بإلغاء قانون الأحوال الشخصية المعدل للعام ١٩٥٩م والذي يعتبر نبراساً لكل قوانين الأحوال الشخصية في العالم العربي، والذي راعى فسيفساء الشعب العراقي، وحبك نسيجه بما يراعي حقوق المرأة المسلمة، ويراعي حقوق المجتمع العراقي ككل، فكانت الموافقة على إلغاء هذا القانون من قبل مجلس الحكم خيانة للدين والأمة ولهذا الشعب المظلوم.

في زمن عبد الكريم قاسم سارت مظاهرات حاشدة في بغداد وكل المحافظات بسبب إلغاء فقرة من هذا القانون فيما يخص الميراث "للذكر مثل حظ الأنثيين" لأن عبد الكريم قاسم حارب شرع الله وقرر بحماقته مساواة الذكر بالأنثى بكل شيء فقامت الدنيا عليه حتى أرجع هذه الفقرة في القانون.

فكيف بنا ونحن نشهد في أول خطوة يجرؤ عليها الاحتلال بإدارة مجلسه الحاكم بإلغاء قانون الأحوال الشخصية جملة وتفصيلاً!.

وكانت من تداعياته هذه الشروخ الكبيرة والعميقة في تلاحم مكونات المجتمع العراقي، وفي تردي حقوق المرأة في ظل غياب دولة تحترم القانون.

ثم فَتَح الاحتلال منافذ وأبواب الغواية على مصراعيها

فجاء بأذنابه الذين حملهم على دباباته من الرجال والنساء ليقوموا بالدور المطلوب في تسييس فكر المرأة بما يخدم أهدافهم، ويحقق تطلعاتهم، حيث عقدت الندوات والمؤتمرات في كل أنحاء العراق تدعو المرأة إلى التحرر من سلطة الرجل وتحرضها على المطالبة بالمساواة به عن طريق مفهوم غريب

عن مفرداتنا اسمه (الجندر) وقد حضرتُ إحدى هذه الندوات في عام ٢٠٠٤م في نادي الصيد في المنصور وذُهلت مما سمعت ومما شدّ انتباهي آنذاك أن إحدى المشاركات بالندوة ممن تحمل الجنسية الأمريكية كانت تغطي رأسها كناية عن الحجاب، وقد صوروا الإسلام كفترة زمنية مرت في تاريخ هذا الشعب واندثرت ولابد للمرأة أن تنفض عنها غبار الاندثار وتنطلق إلى آفاق واسعة ورحبة في التحرير والانعتاق ولابد أن يكون لها دوراً فاعلاً في هذه الفترة الزمنية المشرقة من عمر الاحتلال!!.

وانتشرت اللافتات في كل أرجاء بغداد تدعو المرأة العراقية للتحرر وكانت مضامينها تؤكد أن العراق لن تكتب له الحياة إلا بتحرير المرأة، وعوام النساء يفهمن ظواهر الأمور وينجرفن تحت طائل هذه الشعارات ظناً منهن أنهن سيكنّ في عالم أقرب ما يكون إلى المثالي، وهكذا دسوا السم في العسل وغايتهم واضحة وهي تحرير المرأة العراقية المسلمة من دينها وهويتها كي يسهل ابتلاع الفريسة؛ لأنهم يعلمون جيداً أن دور المرأة المسلمة في المجتمع المسلم كدور الحصن المنيع لأي بناء.

ثم شرعوا بإنشاء مراكز أسموها زوراً مراكز حماية المرأة وتدريبها على كافة الحِرف اليدوية، وكانت تحمل هذا الطابع في ظاهرها ويتم تحقيق الهدف الذي يبغونه من خلال تقديم الندوات، والتجمعات، والاحتفالات بسبب وبغير سبب، وهذه المراكز تتسم بالسعة في البناء والوفرة في الخدمات، حتى إن أغلب النساء عندما يخرجن إليها لا يتمنين الرجوع إلى بيوتهن، وحسب علمي أن مركزاً أُنشئ في منطقة الأعظمية، وأنشئ مقراً في منطقة المنصور لاستقطاب شريحة كبيرة من النساء المثقفات، وقد عُقدت ندوة في جمعية الأخت المسلمة في سنة ٢٠٠٤م دُعيت لحضورها عقدتها إحدى البرلمانيات حالياً حيث دعت وبقوة إلى تشجيع هذه المراكز ولابد لكل مسلمة أن تدخل

فيها وكما ادعت أن دخولها واجب وهو باب من أبواب الدعوة حيث إنها ستلتقي بشرائح مختلفة من أبناء هذا الشعب، فلابد من المشاركة كباب من أبواب الخير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!.

وأترك للقارئ الكريم التعليق!.

هذه المراكز كما ذكرت البرلمانية ستبنى في كل مناطق بغداد، ولم أتابع هذا الأمر بعدها لكني متأكدة من مركزي منطقة المنصور ومنطقة الأعظمية.

ثم توالت الأحداث

وبدأت مرحلة التصفيات بواسطة المنظمات المشبوهة التي دخلت العراق والتي تتبنى تصفية الخيّرين من أبناء هذه الأمة وفي طليعتهم روّاد الفجر.. فكانوا -كما نحسبهم- أول فوج من أفواج شهداء العراق.. فكانوا يلتقطونهم كما يُلتقط الطير من على الشجرة قصداً... من هنا بدأت المعاناة الحقيقية للمرأة في أول مراحلها حيث فقدت الأخ الحاني، أو الزوج القائم على شؤون الأسرة، أو الولد الذي هو قرة عينها، واستمرت مرحلة التصفيات والاعتقالات، والنفي، والتفجيرات، والسيّارات المفخخة التي أودت بحياة الكثير من الرجال حتى حلّت محنة تفجير المرقدين بسامراء والتي توّجت هذه المحن كلها فكانت بمثابة عاصفة حارقة للجسد العراقي هشّمت مفاصله حتى كاد أن يلفظ آخر أنفاسه لولا لطف الله سبحانه وعنايته.

هذه الأحداث وما تلاها خلّفت في المجتمع مليون أرملة بل وأكثر بكثير لأن إحصائيات الحكومة لا يُعتمد عليها في الغالب!.

كذلك تركت هذه الأحداث على أرض الواقع خمسة ملايين طفل يتيم حسب إحصائية وزارة التخطيط الحالية، وهذا يعني أن العدد أكثر.

سجون الحكومة العراقية وسجون إقليم كردستان تضم (٤٦٠٠٠٠) معتقل.

هذا فضلاً عن مصيبة التهجير والاستيلاء على المنازل بل وحرق بعضها.

كل هذه المصائب تركت إرثها للمرأة العراقية فأصبحت وإذا بها تتحمل مسؤولية الأب والأم... كالحة الوجه متشحة بالسواد لا تفكر إلا بشيء واحد وهو: كيف تعيش، وكيف يعيش أبناؤها القصّر، فبعد أن كانت عزيزة كريمة أصبح شغلها الشاغل من مطلع النهار أين تذهب؟ وماذا تعمل كي تعيل هذه الأسرة المحطّمة بسبب غياب الأب، الكثير من النساء لديهن شهادات علمية لكنهن لا تستطعن أن يجدن عملاً بسبب انتشار البطالة، مهندسات يعملن في وظائف عامة إما كاتبة في دائرة أو في مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني، الكثيرات من أصحاب الشهادات في الكيمياء والفيزياء والأحياء يعملن إما في روضات أهلية أو مدارس أهلية ابتدائية كوسيلة من وسائل الحصول على لقمة العيش وكي تحفظ ماء وجهها وأسرتها، وقد تجد لها عملاً وفي الغالب لا تجد فتضطر لطرق أبواب تتقوت منها لقمة العيش حتى لو كانت فيها شبهة، فأصبحنا ولأول مرة في تاريخ العراق أن نرى المرأة العراقية تعمل منظفة في محلات بيع الأثاث، أو في محلات بيع المواد الكهربائية تلبس (يونيفورم) خاص وتختلط برجال السوق، يتفطر قلب المسلم برؤيتها في هذا الموقع الذي كان الرجل في أيام عزها يمنعها من الوصول إليه وهو على قيد الحياة.

والكثير من النساء يطرقن أبواب الهيئات والمنظمات والجمعيات غير حكومية ساعيات لتحصيل فتات تسدّ به رمقها ورمق عائلتها التي خلّفها لها الزوج الغائب، وهنّ كثيرات جداً باستثناء التي يكفلها أهلها وعشيرتها ويقاسي

أغلب النساء الأمرين في الحصول على لقمة العيش فضلاً عن متطلبات الحياة الكثيرة كالعلاج ومصاريف المدرسة، وإن لم تتوفر لدى الأم فليس أمامها سبيل إلا ترك الطفل عرضة لنهبة الشارع وهذا ما يحصل في الغالب.

أما تكاليف العلاج فحدث ولا حرج ولا تقوى عليها هذه الشريحة، والمستشفيات الأهلية قد أقفلت أبوابها في وجه الأرامل وكلهم يسعون للكسب المادي، وكذلك أغلب العيادات الطبية لا ترحم الفقير ولا المسكين، فيضطرون لطرق أبواب الجمعيات الخيرية وهذه بالتالي هي مجرد تحصيل حاصل وهكذا تعيش الأرملة في دوّامة.

إحدى الأرامل قتل زوجها وترك لها سبعة من الأولاد أكبرهم عمره أحد عشر سنة بعد وفاة زوجها بفترة قصيرة أصيبت بمرض السرطان، فهي لا تدري أين تتوجه هل تنتبه لنفسها أم تهتم بصغارها حاولنا مراراً مع المنظمات الدولية والمحلية في الحصول على المال الكافي لعلاجها وعمل عملية استئصال الورم، وكان الجواب أن أمثال حالتها كثير، ولو تصورنا حجم المعاناة التي تعانيها هذه الأم وحدها لأدركنا حجم الضرر الذي ألحقه الاحتلال ببلادنا، أو كمثال المرأة التي يقتل زوجها ووالدها وإخوانها وتبقى شبه مشردة وبسبب صعوبة العيش لا يتحملها الأقارب والأهل لفترة طويلة فتضطر للسكن في الهياكل التي لم يكتمل بناؤها أو تجد لها مأوى في مسجد أو مدرسة وهنّ كثيرات جداً، ونحاول بجهدنا القليل أن نداوي بعض الجروح البسيطة التي لا تغني ولا تسمن من جوع، ولكنها جهد المقل ولعلنا بها نعتذر إلى الله تعالى في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

إحدى الحالات المأساوية التي خلفها ظلم الاحتلال هي حالة الطفلة زهراء من أهل الفلوجة والتي عانت من ويلات الضربات العنقودية والصاروخية في الحرب الثانية على الفلوجة فانقلب البيت الذي كان يؤويها ويؤوي عائلتها

المكونة من الأم والأب والإخوان إلى كومة من الأحجار اندثر تحتها كل من كان فيه وانتهت حياتهم في لحظات، وأراد الله سبحانه لهذه الطفلة أن تعيش فأخرجوها من تحت الركام كومة لحم عدا النفس يصعد وينزل.. كانت معالم وجهها شبه مختفية لا أنف والشفاه مشروخة ولا تستطيع الكلام.... بهذا الشكل استقبلتها رابطتنا تستصحبها جدتها.

اتصلنا بعدة جهات خيرية من أجل إنقاذ هذه الطفلة المسكينة إلى أن وصلتنا الجمعية الخيرية القطرية بمستشفى الشيخ حمد في قطر، وحققنا بفضل الله تعالى نجاحاً كبيراً في إنقاذ هذه الطفلة حيث أُجريت لها عدة عمليات من زرع وتجميل خلال سنتين!! وهي ترقد أغلب أيامها في المستشفى حتى عادت لا إلى طبيعتها الأولى ولكن أقرب ما تكون لها.

ليت القارئ يتدبر عظَم البلاء.. وهذه حالة واحدة.. وجدّة الطفلة زهراء أمية إلا أنها كانت عصامية واستطاعت بصبرها وتحملها أن تصل إلى ٧٠% من نجاح عملية زهراء.. فكيف لو كان أمثال زهراء آلافاً بل عشرات الآلاف، من يعينهم على تخطي مأساتهم والوقوف إلى جانبهم؟!! إذا كان الاحتلال هو القاضي والخصم وأعوانه مشغولون بتراث لم يحرصوا عليه كما تحرص الرجال فضاع منهم ولبسوا ما تبقى منه كحلل النساء وغرقوا في ملذاتهم حتى أصبح أهل البلاء الذي خلّفه الاحتلال كريشة في مهب الريح تتجاذبهم الحسرات، والعلل، وقلة الحيلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا غيض من فيض مخلفات ديمقراطية الاحتلال، وما خفي كان أعظم، والحرب مستمرة على هذا الشعب، والمطارق متعددة، ولا خلاص إلا بالثبات على مبادئ هذا الدين القويم، والتمسك به والعض عليه بالنواجذ، والنصر قادم بإذن الله تعالى "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا"

ولن يستطيعوا بإذن الله ما دامت هناك عصبة تذود عنه وتحميه بالنفس والمال، "ولينصرن الله من ينصره".

فطوبى لمن أدرك طريق الحق، وتمسك به، وضحّى من أجله، وطوبى ثم طوبى للصامدين في زمن الفتن التي تموج كموج البحر، ولم تتلوث أيديهم حتى بغبار الاحتلال البغيض.

"بلاك ووتر".. عنوان الحرب الصليبية في العراق

السيد أبو داود[1]

تواكبت التقارير الأمريكية والغربية التي أكدت أن إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما قامت بتمديد عقد مع شركة "بلاك ووتر" لتوفير "خدمات أمنية" في العراق، رغم سوء سمعتها والجرائم التي ارتكبتها ورغم سجلها الفضائحي، تواكبت هذه التقارير مع ما كشفته تحقيقات القضاء الأمريكي نفسه، وليست تحقيقات جهات عربية أو إسلامية، والتي أثبتت تورط شركة "بلاك ووتر" في عمليات قتل وتعذيب للعراقيين، وجاءت المعلومات على لسان شاهدي عيان عملا في السابق في هذه الشركة الصليبية المتطرفة.

هذا التواكب يؤكد التناقض في الرؤى والأهداف المعلنة، وهو يؤكد أيضاً أن السياسة الأمريكية في العراق لم تتغير، رغم خطب وتصريحات أوباما التي يبدو أنها تريد التغيير الإعلامي فقط وليس التغيير على أرض الواقع في بلاد الرافدين.

---

[1] رئيس تحرير موقع (لواء الشريعة) الإلكتروني.

وبالعودة إلى القضاء الأمريكي وشركة "بلاك ووتر" نتوقف أمام ما أعلنه أحد الشاهدين أثناء التحقيقات عن تورط صاحب الشركة "إيريك برينس" في عمليات قتل للعراقيين، منها قطع رؤوس المدنيين العراقيين في عمليات قتل متعمدة، فضلاً عن جرائم الشركة في الولايات المتحدة نفسها ومنها حلقات جنس وتبادل زوجات، واستخدام أطفال في أعمال فاحشة، فضلاً عن عمليات تهريب السلاح إلى العراق، وتهريب الأموال، وتعيين أشخاص ذوي ماض مخز في كوسوفو، والسماح باستخدام ذخائر تنفجر في الجسم البشري بعد اختراقه مسببة الموت الفوري والتشويه الأكيد، وتوظيف أشخاص مهووسين بقتل المسلمين والعرب، وتعمدهم حمل ألقاب لأسماء "فرسان مالطة" رأس الحربة في الحروب الصليبية، والذين ترتبط معهم "بلاك ووتر" بعلاقات وثيقة على مستويات العقيدة الدينية والتوجه السياسي.

كما نتوقف أمام اعتراف الشاهد الآخر لمحكمة فيدرالية في ولاية فرجينيا أن صاحب الشركة ورئيسها "إيريك برينس" سمح بهذه الأفعال والتصرفات ضد العراقيين لأنه يعتبر نفسه "مسيحياً صليبياً مهمته القضاء على المسلمين وعلى الدين الإسلامي ومحوهُ من على سطح الكرة الأرضية".

ولو أن كاتباً أو سياسياً أو إعلامياً عربياً قال هذا الكلام عن هذه الشركة المشبوهة، رغم تظافر الأدلة على صحته، لانهالت عليه الاتهامات الغربية والاتهامات العربية العلمانية، واصفة إياه بالاستسلام لثقافة المؤامرة، وبإلقاء الاتهامات جزافاً بلا بينة ولا دليل، أما وقد اعترف بها العاملون الأمريكيون أنفسهم في هذه الشركة فإن الأجدر بنا أن نتفق على أن الاحتلال الأمريكي للعراق كانت له رؤية وأهداف ومداخل صليبية مؤكدة لا جدال فيها.

هذا الاتفاق سيقودنا إلى اتفاق آخر وهو أن الحرب على العراق كانت جزءاً من حرب عالمية ضد الإسلام والمسلمين، أو بالأحرى حرباً صليبية

على الإسلام والمسلمين، وبالتالي تسقط وتنتفي أية اتهامات سياسية أمريكية رددتها الولايات المتحدة لتبرير عدوانها، ويتعين أخيراً على الدول العربية والإسلامية موقفاً واستراتيجية لمواجهة هذا الخطر الداهم، الذي بدأ بأفغانستان ثم العراق ولكنه لن يتوقف حتى يهدد كل الدول العربية والإسلامية.

وقد يستغرب البعض كيف يتم محاكمة عناصر من هذه الشركة المشبوهة بالولايات المتحدة، رغم تعاونها الكامل مع الإدارة الأمريكية والبنتاجون، ولكن الاستغراب يزول حينما نعلم أن الاتهامات الموجهة للشركة لا تخص جرائمها في العراق، ولكنها تتعلق بعمليات تهريب السلاح إلى داخل العراق بشكل غير قانوني؛ إذ كانت تتم عبر طائرات تابعة للشركة كانت تحط في البلد المحتل من دون رقابة حقيقية، وتتعمد تدمير أدلة ووثائق، لكن التحقيقات في هذه التهم قادت إلى كشف جزء من الحقيقة، وتأكد للعالم أن هذه الشركة الصليبية المتطرفة تورطت في عمليات قتل غير مبرر لمئات من العراقيين فضلاً عن إصابة وجرح الآلاف، تنفيساً عن غل وحقد دفين ضد الإسلام والمسلمين ترسخ في عقول وقلوب ونفوس هؤلاء الذين تربوا على ثقافة الكراهية لكل ما يخص الإسلام الحنيف.

بدايات تكشف المهمة والأهداف

تتبع النشأة الأولى للشركة يكشف عن أهدافها ومراميها الصليبية المتطرفة، فقد تأسست شركة "بلاك ووتر" عام ١٩٩٦م على يد المليونير المسيحي "إيريك برينس" الذي عمل سابقاً في البحرية الأمريكية، والذي ينتمي إلى المحافظين الجدد والملتصق بالتيار المسيحي الصهيوني، والمعروف عن عائلته تاريخياً هذا التوجه، ووالده أحد الممولين الكبار للتيار المسيحي المتطرف، وإيريك نفسه تحول إلى الكاثوليكية ليكون أقرب إلى التصور الذي

يشكل عقيدته كأحد مقاتلي "الحرب الصليبية الجديدة"، كما ساهم إيريك بدعمه المادي في صعود تيار اليمين الديني الذي ينتمي إليه.

ثروة إيريك ساعدت في صعود شركته بسرعة كبيرة، خاصة مع امتلاكه مساحة شاسعة من الأراضي تقدر بحوالي خمسة آلاف هكتار في بلدة "مويوك" بولاية "كارولينا الشمالية" أقام عليها الشركة، وحددت "بلاك ووتر" عملها في "الالتزام بتوفير طلبات الحكومة المتوقعة من حيث الأسلحة والتدريب على النواحي الأمنية".

استطاعت "بلاك ووتر" توقيع عقود مع إدارة بيل كلينتون، لكن التحول الكبير في عمل الشركة وشهرتها كان مع وصول جورج بوش الابن إلى البيت الأبيض، وهو اليميني المتطرف الذي يتلاقى في عقيدته وأفكاره مع إيريك برينس، وجاء التحول الأكبر بعد أسبوعين من هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، حيث أصبحت الشركة لاعباً رئيسياً في الحرب على أفغانستان وعلى العراق فيما بعد.

أبرمت الشركة العديد من العقود مع إدارة بوش وصارت خلال السنوات التالية من أكثر المستفيدين من استراتيجية "الحرب على الإرهاب" التي ابتدعها بوش الابن، وربحت حوالي بليون دولار في عقودها السرية مع الحكومة، أغلبها بالتكليف المباشر وبدون الدخول في أي عطاء أو منافسة، وخلال عشر سنوات تمكن إريك من توسعة منطقة المقر الدائم للشركة إلى سبعة آلاف هكتار، جاعلاً منها أكبر قاعدة عسكرية خاصة في العالم.

كانت "بلاك ووتر" تنمو بصورة تكاد تصل بها إلى مستوى الجيش المصغر، وأصبحت تعادل قوتها قوة جيش في دولة صغيرة بل ومتوسطة، خاصة بعد أن أصبح يعمل بها مليونان وثلاثمائة ألف فرد في جميع أنحاء العالم، وبعد أن أصبح لديها أسطول جوى يقدر بـ ٢٠ طائرة بما فيها

طائرات الهيلوكبتر المقاتلة وجهاز خاص للاستخبارات، كما أنها تقوم بتصنيع مناطيد المراقبة وتحديد الأهداف.

ولكي تدعم الشركة مكانها وسطوتها، استعانت بخدمات العديد من كبار الموظفين المقربين من إدارة بوش الابن وعينتهم في مناصب قيادية.

"الفلوجة" كشفت المستور

عندما قامت القوات الأمريكية بدخول "الفلوجة" وأخذ مركز لها في البنايات المدرسية وبعض الأبنية الرسمية الأخرى ومقرات حزب البعث في ٢٨ أبريل ٢٠٠٣م، قام بعض أهالي المدينة بتظاهرة احتجاجية على تصرفات الجنود الأمريكان من اعتقالات ومداهمات وسرقة محتويات البيوت، وانتهت هذه التظاهرة بقتل (١٧) من أهالي المدينة المشاركين في التظاهرة، أمام إحدى المدارس التي استخدمها الجيش الأمريكي كمواقع عسكرية، وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي أدت فيما بعد إلى تصاعد عمليات المقاومة ضد جيش الاحتلال الأمريكي وإلى معركة "الفلوجة" الأولى.

كان يوم ٣١ مارس ٢٠٠٤م يوماً مهماً في تاريخ "بلاك ووتر"، ففي هذا اليوم تعرض أربعة من جنود هذه الشركة بـ "الفلوجة" البطلة للهجوم وقتلوا، وقامت الجماهير بجر جثثهم في الشوارع، ومن هذه اللحظة حدث تحول في الحرب على العراق، حيث قامت القوات الأمريكية بعد ذلك بعدة أيام بالثأر من أبناء "الفلوجة" عن طريق محاصرة المدينة وأعملت فيها آلتها وترسانتها العسكرية، وقتلت وشردت الآلاف من أهلها، مما أشعل مقاومة عراقية شرسة استمرت في اصطياد عناصر قوات الاحتلال حتى اليوم، واستمرت المعركة عاماً كاملاً وبضعة أشهر وانتهت لصالح المقاومة، وعجزت القوات الأمريكية عن نقل جثث قتلاها.

استفادت "بلاك ووتر" من هذه الشهرة التي تحققت بفعل الأعمال القذرة للعدوان، وبفعل التغطية الإعلامية الغربية المركزة على الشركة ودورها في العراق ودورها في الحرب على "الفلوجة"، وعملت الشركة بعدها على استثمار ما حققته من شهرة، وقامت بعد ذلك بتعيين موظفين كبار مقربين من إدارة بوش الابن في مناصب مرموقة بالشركة.

وإلى جانب حادثة "الفلوجة"، فإن اسم الشركة تردد في أكثر من حادث وعمل عسكري للمقاومة، ففي نيسان/ أبريل ٢٠٠٥م نجحت المقاومة من إسقاط طائرة نقل تعود ملكيتها للشركة كانت تقل (١١) شخصاً قتلوا جميعاً، ستة منهم كانوا من حملة الجنسية الأمريكية، ثلاثة بلغاريين واثنان من فيجي، وفي ٢٣ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٦م، أسقطت المقاومة طائرة أخرى تعود ملكيتها إلى شركة "بلاك ووتر" في شارع حيفا قتل فيها خمسة أشخاص.

حادثة شارع حيفا كشفت الكثير عن طبيعة عمليات الشركة الخطرة، وتجاوز دورها لمهام توفير الأمن والحماية للشخصيات والمنشآت، وانتقالها إلى دور المشاركة الفعلية في العمليات العسكرية كبديل للقوات الأمريكية المسلحة.

ولهذا الدور فإن الشركة لا تجند الأمريكيين فقط بل إنها تجند عناصر المرتزقة من كافة أنحاء العالم، ربما من أبرز هؤلاء "الموظفين الأمنيين" الكوماندوز التشيليين الذين سبق وأن تدربوا وعملوا في الأجهزة الأمنية القمعية التابعة لحكومة الدكتاتور التشيلي السابق (أوغستو بنوشيه)، هذه العناصر تتقاضى أجوراً عالية، حيث يبلغ معدل الدخل اليومي للعاملين في هذه الشركة ما بين ٣٠٠ و ٦٠٠ دولاراً أمريكياً.

امتداد لـــ "فرسان مالطا" الصليبية

في كتابه: "بلاك ووتر.. صعود أقوى جيش مرتزقة في العـــالم"، يـــشير الصحفي الأمريكي جيرمي سيكل Jeremy Scahill إلى العلاقة الوثيقة التـــي تجمع بين شركة "بلاك ووتر" للمرتزقة ومنظمة "فرســـان مالطـــا" الـــسرية، المنشقة عن "فرسان المعبد" التي تعود جذورها إلى القرن الحادي عشر (وهي من بقايا غزوات الفرنجة والصليبيين على العالم الإسلامي).

إذ تزود "فرسان مالطا" شركة "بلاك ووتر" وغيرها من شركات المرتزقة الدولية، بمجندين تحركهم الحمية الأصولية المسيحية، ليقاتلوا فـــي الأمـــاكن الخطرة (العربية أو الإسلامية) التي يتردد باقي المرتزقة في دخولها.

ودولة "فرسان مالطا" حقيقة قائمة ولكنها دولة اعتبارية بكـــل المعـــايير؛ فهي بلا أرض ولا حكومة ولا شعب، وتمثلها ٩٦ ســـفارة افتراضـــية حـــول العالم. يقع المقر الرئيسي للمنظمة في العاصمة الإيطالية روما، ويحمل اســـم "مقر مالطا"، و"فرسان مالطا" نظام تاريخي ظل يحتفظ بالصفة السيادية، حتى بعد انهيار النظام ذاته وخروج الفرسان من مالطا وفقدانهم لأية قاعدة إقليمية، وتحولهم إلى مجرد هيئة خيريةِ، ومع هذا الوضع احتفظ الفرسان بحق إرسال بعثات دبلوماسية من جانبهم، وعلى مستوى السفراء، وهـــم بـــذلك يمثلـــون استثناءً فريداً في مجال الغلاقات الدبلوماسية والقواعد والأعراف المنظمة لها.

وبدأ ظهور فرسان مالطا عام ١٠٧٠م، كهيئة خيريـــة، أســـسها بعـــض التجار الإيطاليين، لرعاية مرضى الحجاج المسيحيين، قرب كنيـــسة القيامـــة ببيت المقدس، وظل هؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلامية، إلا أنهم ساعدوا الغزو الصليبي فيما بعد.

وعندما قامت الحروب الصليبية الأولى ١٠٩٧م وتـــم الاســـتيلاء علـــى القدس تم تأسيس تنظيم "رهبان مستشفى قديس القدس يوحنا" وهـــؤلاء بحكـــم

درايتهم بأحوال البلاد قدموا مساعدات قيمة للصليبيين، خاصة بعد أن تحولوا إلى نظام فرسان عسكريين.

بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبي هرب الفرسان الصليبيون إلى البلاد الأوروبية. وبسقوط عكا ١٢٩١م وطرد الصليبيين نهائياً من الشام اتجهت هيئات الفرسان إلى نقل نشاطها إلى ميادين أخرى؛ فاتجهوا إلى شمال أوروبا وجنوبها.

وبقيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م وغزوها إيطاليا فقد الفرسان الصليبيون ممتلكاتهم وامتيازاتهم في فرنسا وإيطاليا وانتهى بهم الأمر بفقد مقرهم في جزيرة مالطا نفسها وطردهم منها على يد نابليون أثناء حملته على مصر عام ١٧٩٨م، ودخلوا في مرحلة من الشتات والتفرق، وذهب بعضهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وصادف وصولهم فترة الحروب الأهلية هناك، فتحالفوا مع منظمة الكو ـ كلوكس ـ كلان الإرهابية العنصرية التي كانت تطالب في ذلك الحين بالدفاع عن المذهب الكاثوليكي وعن سيادة الرجل الأبيض ومنع مساواة المواطنين السود مع البيض في الحقوق، وتوثقت العلاقات بين المنظمتين، خاصة وأن كلتا الحركتين (الفرسان، وكوكلوكس) كانتا تركزان على العودة لأصول الدين المسيحي الكاثوليكي.

ويقدر عدد المتطوعين الذين يعملون معهم بحوالي نصف مليون شخص، منهم زهاء مائة ألف في فرنسا وحدها، ومثلهم في ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، وغير المتطوعين في الولايات المتحدة وحدها ألف وخمسمائة فارس، وقد انضم إلى عضويتها عدد من أصحاب الملايين خصوصاً أن نشاطهم الحالي خيري ويختص بالمستشفيات مما يغري بالتبرع لهم.

الوجه الصليبي استبان

السنوات الست للاحتلال أظهرت الوجه الصليبي له وبرهنت للعالم أجمع أن الهدف لحرب العراق ليس السلام والأمن الدوليين بل هي الأهداف الخاصة التي رسمتها الإدارة الأمريكية البروتستانتية اليمينية المتطرفة للسيطرة على العالم العربي والإسلامي، ثم تهيئة الأجواء من أجل نشر التنصير وفرض المسيحية الصهيونية وتنصير المسلمين واستخدام العراق كقاعدة لتنصير العالم الإسلامي بأكمله.

هذا الكلام ليس جزافياً بلا دليل، بل أكده برنامج في التليفزيون الألماني وأكدته مجلة "دير شبيجل" الألمانية في ٢٠٠٣/٢/٢٧م وقبل شهر من العدوان على العراق حيث أوردت أن هذه الحرب ما هي إلا "تكليف إلهي.. لمهمة تبشيرية.. للقضاء على الأشرار (وهم المسلمون) وللإعداد لما يسمى بمعركة هرمجدون، التي تهيئ للعودة الثانية للمسيح، وبالتالي فرض كلمة الله (أي الدين المسيحي الصهيوني) على العالمين العربي والإسلامي، ومن ثم العالم بأكمله، عن طريق تنصير الشعب العراقي ثم العالم العربي بأكمله، وهو المعنى الذي أوردته القناة الأولى الألمانية خلال برنامجها الأسبوعي بانوراما تحت عنوان: "المسيحية التبشيرية في العراق"، يوم ٢٤/٦/ ٢٠٠٤م مؤكدة أنه بعد الاحتلال العسكري.. "يأتي التبشير".

لماذا نتعجب من ذلك؟ فالرئيس بوش الابن نفسه اعترف بأنه يشن حرباً صليبية وتحدث عن معركة الخير ضد الشر، والعدالة الأبدية، ومحور الشر، كما أن المسيحيين المتطرفين سيطروا وما زالوا يسيطرون على دوائر القيادة في الإدارة الأمريكية، وبوش كان يهدف من كل ذلك إلى قيادة الحرب المقدسة ضد العالم الإسلامي بأكمله.. وهذا ما تجلى في العديد من التصريحات التي كان أبرزها ما قاله الجنرال "ويليام بوكين" مساعد وزير

الدفاع رامسفيلد، والذي قال: "إلهنا أكبر من إلههم، وإلهنا إله حقيقي.. بينما إلههم إله مزيف!" وهو ما أيدته بشدة الكنائس البابتيستية.

في هذا الإطار الصليبي التبشيري تم الكشف في العراق بعد سقوطه في يد الاحتلال الأمريكي عن حملات تنصيرية، وجدت العناية والدعم من المحتل الأمريكي، بل وبمشاركة المقاتلات الأمريكية نفسها التي قامت بإلقاء المنشورات والكتب الدينية على الشعب العراقي في مناطقٍ مختلفة.

وقد دخلت أكثر من مائة منظمة تنصيرية العراق بعد الاحتلال، وأكبر هذه المنظمات: "هيئة الإرساليات الدولية"، الذراع التبشيرية للمعمدين الجنوبيين، والذين يعدون أكبر طائفة بروتستانتية في أمريكا، و"مجلس الشرق الأوسط وشمال إفريقيا"، ومجموعة من المعمدين الجنوبيين من ولاية نورث كارولينا، و"هيئة المعونة الأمريكية"، و"منظمة كريستيان شاريتي ورلد نيشون إنترناشونال"، ومنظمة "المجتمع الدولي للإنجيل"، ومنظمة "تعليم أمة كاملة" تعرف اختصاراً: (داون)، ومنظمة "سامرتيان بيرس"، ومنظمة "المنصرين البروتستانت".

وقد استطاع المنصّرون العاملون في العراق خلال عام واحد، أن يوزعوا مليون نسخة من الإنجيل باللغة العربية، وشرائط فيديو تجسد ميلاد المسيح وحياته، وتعليقات تدعو المسلمين للدخول في النصرانية، ومليون كراسة دعائية إنجيلية.

تصريحات القس الأمريكي والصديق الشخصي للرئيس الأمريكي بوش الابن "فرانكلين جراهام" كانت حاسمة وقاطعة حينما قال: "إننا في العراق من أجل مهمة مسيحية في المقام الأول، إننا نسعى لتنصير العراقيين، وأتمنى أن نذهب جميعاً إلى كل بلدة في العالم لنمنحهم الخلاص، وإنني لا أتخيل أن يأتي

علينا يوم نتوقف فيه عن التبشير، لأن الأمر، ببساطة، هـو عـرض حقيقـة مهمة، وهي أن يسوع المسيح هو ابن الله).

ولم تكن مجلة النيوزويك الأمريكية مبالغة عندما جاء في صفحاتها قبيـل الغزو: "بوش وأنصاره من الإنجيليين يأملون أن تكون الحرب القادمة علـى العراق فاتحة لنشر المسيحية في بغداد". وتنقل المجلة عن ريتش هايني مـن منظمة "داون" التنصيرية قوله: "لم تحظ الحركة التبشيرية الإنجيلية بفرصـة جيدة منذ أكثر من عقد من الزمان مثل العراق، وإنه في مقدورنا أن نقول: إن هذه الحرب نعمة للمبشرين".

والآن وبعد كل ما سقناه من حقائق وأدلة... هل بقي منا ما زال متـشككاً في أن الحرب على العراق كانت مرحلة مهمة من مراحل وسلاسل الحـروب الصليبية التي بدأها الغرب الصليبي على أمتنا؟ وهل مازال بيننا من يحـسن الظن بأمريكا وسياساتها في عالمنا العربي والإسلامي؟ وهل ما زال منا مـن لا يرى ضرورة وحتمية مواجهة هذه الهجمة الـصليبية بـصورة مجتمعـة وبقيادات وجيوش موحدة؟.

جـذور الإرهاب

محمد رشيد[1]

لماذا هذا البحث؟!

ليس واجب هذا البحث توثيق جرائم (الإرهـاب الـسري) أو (الجـرائم الحربية) التي قامت بهـا قـوات الاحـتلال ومرتزقـة الـشركات الأمنيـة والميليشيات وفرق الموت التي نشرت في أرض العراق الفـساد والجريمـة وهي كثيرة جداً ومن الصعب إحصائها وتوثيقها في هذا البحث.

إنّ هذه الصفحات محاولة للبحث عن الجذور التاريخية للجـرائم الـسرية الغامضة التي حصلت في العراق، وأصولها الفكرية والعقائدية؛ والتي أنـشأت (ثقافة القتل غير المبرر والمفرط في الوحشية) التي يصعب علـى أي عاقـل تفهمها، والغريبة تماماً عن العقلية والثقافة العراقية، وتعـد مهـددة للأركـان الاجتماعية السائدة قبل احتلال العراق عام ٢٠٠٣م.

على أن نحاول إن شاء الله الاستمرار في بحـوث لاحقـة حـول قـادة الإرهاب الأمريكي في العالم ثم وبعون من الله سنلقي الضوء علـى بعـض

---

(١) كاتب ومحلل سياسي عراقي.

الجرائم التي حدثت في العراق، وللإدارة الأمريكية أصابع وبصمات واضحة فيها.

تأشيرة في المجتمع العراقي
(بين البداوة والحضارة)

يمكن أن يوصف العراقي بالمزاجية، وقد يوصف أيضا بالتقلب تبعاً لجو العراق المتقلب والمتناقض بين شتاء مفرط في البرودة، وصيف لا يطاق من الحرارة! ويمكن أن يوصف بالقسوة لكنه لم يكن وحشياً ولا دموياً (خصوصاً منهم أهل الحواضر) ولم تكن الجرائم المفرطة في القسوة والإجرام إلا من النوادر التي تهز الوجدان الاجتماعي وكانت نسبة جرائم القتل العادية أقل مما كانت عليه في الكثير من البلدان الأخرى (كانت جرائم القتل المتعمد الشائعة هي جرائم الشرف والنزاعات العشائرية والثأر في الأرياف والخلافات المالية.

أما جرائم القتل لأغراض السرقة أو التسليب فقد كانت نسبتها متدنية قياساً إلى تلك الجرائم)، وقد يقول قائل: إن ذلك كان بسبب قوة الدولة وبطشها آنذاك ولكن طبيعة المجتمع العراقي لا تؤيد ذلك؛ وتراجع نسبة القتل بسبب دوافع إجرامية خاصة هو دليل قوي على عدم شيوع عقلية القتل في الأوساط الاجتماعية العراقية، وكلنا يتذكر حجم الهلع والرفض الاجتماعي لجرائم (السفاح) (أبو طبر) الذي لم يتجاوز عدد ضحاياه تسعة ضحايا.

والحقيقة أن عقلية أهالي الكثير من المدن المهمة في العراق وعلى رأسها بغداد والموصل والبصرة والنجف وكركوك بشكل خاص عقلية (حضرية) وقد تحررت من البداوة قبل الكثير من حواضر المدن العربية المجاورة

للعراق، فالبصرة على سبيل المثال كانت ومنذ تأسيسها ميناءً مهماً جداً من موانئ المنطقة العربية، وأكبر موانئ الخليج العربي في حينه، الأمر الذي أتاح لها فرصة امتزاج الثقافات من خلال حركة السفن في موانيها المتعددة، وكذلك الشركات التجارية الأجنبية العاملة في البصرة (وكان ذلك في حينه من أهم موارد التفاعل الحضاري قبل ثورة الاتصالات والإنترنيت) ثم أزداد ذلك في تاريخ العراق الحديث بعد دخول شركات النفط الإنكليزية إلى العراق ثم الانفتاح الكبير أمام الشركات التجارية والصناعية الأجنبية (الإنكليزية والهندية والألمانية والإيرانية) لذا فقد كانت النوادي والملتقيات والاجتماعية موجودة في مدينة البصرة (نوادي شركة النفط والميناء والسكك)، وبهذا كانت البصرة حاضرة ولم تكن بادية، ولهذا أمتاز أهل البصرة بالانفتاح على الغريب والترحيب به وعدم الانغلاق، وتعاملهم الجيد والطيب مع الجميع (إضافة إلى ما هو المعروف من أن البصرة كانت في تاريخها الموغل في القدم من الحواضر العربية والإسلامية).

وكذلك بغداد (فهي حاضرة الدولة العباسية وعاصمة الخلافة والثقافة) ولقد تأثرت كثيراً بفعل كونها العاصمة السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية للعراق والتي أخذت حصة الأسد من البعثات والمراكز الثقافية والحضارية والجامعات المختلفة و لم تكن في يوم ما ذات صفات بدائية بل كانت على الدوام ضحية الهجمات والغزوات البربرية والبدائية من الخارج وكانت على الدوام طموح أهل الأرياف في الوصول إلى بغداد وهذا يعني الوصول إلى الأمان والاطمئنان.

أما مدينة النجف فقد جمعت بين أمرين مهمين ساهما في صناعة شخصيتها الاجتماعية الأول هو كون النجف مقراً لأهم مراجع الطائفة الشيعية في العالم وفيها مرقد الإمام علي عليه السلام ورضي الله عنه وكرم وجهه

وهو المزار الأول لكل شيعة العالم ويؤمه الكثير من المسلمين في العالم وهذا ما جعل النجف تستقبل الكثير من الأجناس والأعراق والثقافات وتتعامل معهم دينياً وثقافياً وتجارياً، والأمر الثاني أنها كانت من عواصم اللغة العربية منذ القدم ولها مدرستها الخاصة منذ تأسيسها وتوارثت الثقافة لتصبح في بعض الأحيان حاضرة للثقافة والشعر وتنافس بغداد في ذلك، ومنها خرج عدد من كبار الشعراء والمثقفين، وتعددت فيها المدارس العلمية والمنتديات الثقافية وتكاثرت فيها الصحف والمجلات والكتب وازدهرت فيها المطابع.

وما يقال عن البصرة من تمازج الحضارات والأقوام يمكن أن يقال على كركوك (عاصمة النفط العراقي) بل إن كركوك وبفعل نمو الصناعات النفطية فيها كانت تحتاج أكثر من البصرة إلى الخبرات العراقية فتوافد عليها العراقيون من كل مدن العراق وبالخصوص الخبراء منهم والأكاديميون، فكانت خلية للعمل والإنتاج والتمازج الاجتماعي الرائع والمثقف، كما أن تطور الوضع الاقتصادي للعاملين في شركات النفط في مدينة كركوك بفضل رواتبهم الخاصة جعلهم يتقدمون بشكل أسرع في الكثير من الأوجه الثقافية الحضارية!

ومما يدل أيضاً على وجود الانفتاح والتعايش الحضري في تلك الحواضر أنه كان لليهود دورهم الاقتصادي في البصرة كما كان للمسيحيين والصابئة في بغداد دورهم السياسي والاقتصادي المعروف، وكان للمسيحيين دورهم الاقتصادي وتميزهم في كركوك.

وكان الخوف يقبع في الطرق الخارجية البعيدة ولكنه رغم همجيته إلا أنه لم يبلغ في يوم ما أن يكون بالوحشية التي شهدها العراق أعوام الاحتلال بشكل عام وعلى وجه الخصوص عامي ٢٠٠٦م و ٢٠٠٧م.

وقد يقول قائل: (إن ليس في الأقطار الإسلامية كلها قطر يشبه العراق من حيث استفحال النزاع بين هاتين الطائفتين _السنة والشيعة_ فيه) علي الوردي ــ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ــ ص ٢٢٨.

وهذا أمر صحيح ولا خلاف عليه ولكن المقصود بالنزاع هنا هو (النزاع الفكري أو النزاع النظري) الذي لم يتحول في يوم من الأيام إلى نزاع مسلح كما كان يحدث في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى كالهند وباكستان.

وهذا النزاع ناتج من الاختلاط الطائفي في العراق فهو مجتمع متداخل بشكل كبير جدا ولا يوجد فيه عزل طائفي جغرافي كبير بين السنة والشيعة وهو متداخل قبليا وعشائريا ومتداخل اقتصاديا بل ومتداخل عائليا واجتماعيا مما وفر جواً من التفاعل والحوار الفكري بينهم الأمر الذي أوجد هذا النزاع الفكري لكنه لم يتطور في أي يوم من الأيام وطيلة تاريخه الحديث إلى (نزاع مسلح كما حدث في عام ٢٠٠٦ م) ولو حدث هذا لتحطمت البنية الاجتماعية والاقتصادية في العراق بل على العكس تماماً فإن الكثير من النزاعات العشائرية اتخذت منحى التعصب العشائري في غالب الأحيان على حساب الانتماء الطائفي؛ وكانت النزاعات القبلية والاقتصادية منتشرة في الكثير من المدن والقرى والبوادي العراقية (نزاعات المياه والأراضي الزراعية والمراعي) وعلى عكس النزاعات الطائفية أتسمت هذه النزاعات بالعنف المسلح في الكثير من الأحيان.

والحقيقة أن هذا النزاع الطائفي الفكري في أحد صوره مؤشر لوعي المجتمع وتطوره ومدى تغلغل هذا الفكر في حياة الإنسان ؛ فكل نشاط فكري غير تقليدي هو حاصل نضوج حضاري واجتماعي والعكس صحيح أيضاً كما أنه مؤشر من مؤشرات التحرر الفكري وعدم الانغلاق فالمجتمع العراقي

بشكل عام والحواضر منه بشكل خاص كان ينزع إلى التحرر والأتباع بدلاً من التقليد والانغلاق.

ويمكن أن نشاهد صورا كثيرة لهذا التنازع الفكري الذي يكاد أن يكون سمة اجتماعية في العراق من خلال تعدد الأحزاب (حتى في حال وحدة مراجعها الفكرية والعقائدية) و القيادات السياسية وتعدد المرجعيات الدينية والعشائرية و الاجتماعية.

وكذلك نزاعات المناطقية بين بعض المدن مثلاً على الرغم من أنهم من أصول واحدة، ونجد أيضا التنافس والتفاخر في مستوى التقدم والتأخر التي يعبر عنها بإعطاء صفات عن أهالي بعض المدن بحيث تكون حديثا شعبيا متداولا بين الناس ولكنه لا يرقى إلى أن يكون له مكان في الأحاديث العلنية.. والغريب والطريف في الوقت عينه أن الذين يتناقلون تلك المبالغات والنكات والقصص هم أنفسهم المعنيون بها (وقد يكونون من أهم مخترعيها) ولكنهم تناقلوها بلسان السخرية وروح الدعابة ولم تنتقل في يوم من الأيام إلى ساحة الصراع المسلح.

المهم أن النزاع الطائفي موجود في المجتمع العراقي لكنه كان في شكله الفكري والنظري فقط ولم يكن نزاعا مسلحا بل على العكس كانت هناك الكثير من ظواهر الاختلاط الطائفي في بعض مناطق العراق وبغداد منها على وجه التحديد ففي منطقة كـ (باب الشيخ عبد القادر الكيلاني) مثلاً كان السنة يشاركون الشيعة في مراسيم عزاء الحسين وفي المواكب الخاصة بمناطقهم وكذلك يتواجد الشيعة في ليالي الخميس في الحضرة القادرية ويشاركونهم في المدائح الصوفية. وكذلك نرى ما يشبه ذلك بين الأعظمية والكاظمية.. ونشهده في كل المحافظات التي يتواجد فيها الشيعة والسنة معاً.

ما الذي جرى لتتحول بغداد عاصمة الثقافة والحضارة إلى مجزرة للقتل الوحشي وتسود فيها ثقافة القتل والتخلف والهمجية!.

هناك أمر طارئ وهناك عناصر خارجية لا تمت إلى حاضرة بغداد أو البصرة أو النجف أو كركوك هي التي غذت هذا التحول الغريب الذي أستطاع الحس الحضاري العراقي أن يتجاوزه بسرعة بعد أن تحول وبفعل ((تفكير جمعي مخلوق طارئ)) في فترة ما (فترة فقدان الوعي) إلى (أداة) بيد قوى وأجهزة خارجية عملت على استخدامه في قتل نفسه وتحريف ماضيه واستئصال مستقبله!.

هذا فضلاً عن تميز المجتمع العراقي عن المجتمعات التي تجاوره من (التمازج العرقي والمذهبي) اجتماعياً وأسرياً ومناطقياً واقتصادياً بشكل لا نجد له نظيراً في المجتمعات الأخرى المنعزلة طائفياً إلى حد كبير ومن النادر (على سبيل المثال) أن يتزوج السني شيعية أو بالعكس في بعض البلدان المجاورة للعراق، بينما يعد هذا من الأمور المعتادة في المجتمع العراقي وعلى وجه الخصوص قبل الاحتلال، فضلاً عن التداخل والتمازج العشائري والأسري بين المذهبين إلى حد لا يمكن فصله ولعل هذا جزء من ناتج التفكير الحضري المترسخ في الذهنية العراقية التي اهتز برهة من الوقت أمام (المستعمر) الأمريكي.

أن ما حدث بعد احتلال العراق من جرائم (قتل على الهوية والاسم والمجازر الجماعية والقتل الطائفي والقتل العشوائي والقتل بدوافع السرقة والتسليب والاغتيالات السياسية والقتل بالتعذيب الوحشي السادي وتقطيع الأوصال وتثقيب الأجسام وقتل الأطفال وصغار السن والنساء والشيوخ والعلماء والأطباء واستسهال التعذيب والاغتصاب والقتل الاستعراضي وإطلاق الكلاب المفترسة على البشر وتأجيج الصراع والتمايز العرقي

والطائفي ومن ثم الحزبي وتهديد البنية الاجتماعية وثوابتها بالانهيار!!، والتغريب والاجتثاث في الداخل والتهجير والغربة في الخارج والداخل ومن ثم انهيار البنية الاجتماعية والأمن والسلام الاجتماعيين) كل ذلك كان غريباً جداً على الشخصية العراقية وبعيداً عن طبيعة المجتمع العراقي، ولكن كيف حدث هذا؟.

مما لاشك فيه أن هناك بعض العوامل قد ساعدت على حدوث هذا (الانهيار) الاجتماعي وليس (الانقلاب) الاجتماعي، وقد تأتي هذه بفعل عوامل عديدة منها ما هو(داخلي) وقد يكون سياسياً أو اقتصادياً، ومنها ما هو (نفسي) متوقع في كل البلدان التي تهزم في الحروب؛ ولكن لهذه الجريمة بلا أدنى شك عوامل خارجية تولت اقتناص كل عوامل الخلل الداخلي وكل الاهتزازات التي رافقت ظروف احتلال العراق وعمقت كل نقاط الاختلاف (التي لا يمكن أن يخلو منها أي مجتمع وتزداد بفعل التطور الحضاري لتلك المجتمعات والتي قد تكون (أذا ما أحسن إعدادها واستغلالها بالشكل الجيد) عناصر إيجابية تساهم في تقوية الناتج الاقتصادي و المنتج الإجمالي الثقافي والفلكلوري للمجتمع بحيث تصبح عاملاً مهماً من عوامل التطور.

إن أهم العوامل التي (خلقت) هذا الانهيار الاجتماعي وزرعت (نوعاً غريب من التفكير الإجرامي) داخل المجتمع العراقي هي (العوامل الخارجية) التي كان لها جذورها التاريخية الخارجية التي تؤكد ما ذهبنا إليه، وأقصد هنا (الجرائم الغامضة والسرية) التي ارتكبت بعد احتلال العراق والتي ألقيت أعباء الكثير منها على العراقيين فيما افتضح قسم كبير منها فيما بعد وتبين أنها من فعل غيرهم، تلك الجرائم التي اتصفت بالعنف المفرط غير المبرر والهمجي المتخلف، واستهدفت الوحدة الوطنية العراقية، وعملت على إحداث شرخ اجتماعي كبير في المجتمع العراقي.

إضافة إلى الجرائم (العلنية) التي أرتكبها (الجنود الأمريكان وفرق وشركات الحماية الأمريكية المختلفة، ومنها مرتزقة بلاك ووتر) وبمنتهى الرعونة والهمجية المتخلفة التي تحمل نفس البصمة ونفس (الثقافة)، وهنا أريد أن أذكر أنني لا أتكلم هنا عن (جرائم الحرب المباشرة التي أرتكبها الجيش الأمريكي أثناء الاشتباكات المباشرة سواء قبل وأثناء وبعد احتلال العراق وسواء كانت تلك الاشتباكات مع الجيش العراقي النظامي الرسمي أو مع عناصر المقاومة الشعبية)؛ ولكن الذي أريد أن أقوله: إن الاحتلال ارتكب (جريمة كبرى) في حق العراقيين تتجاوز حتى فلسفة (الصدمة والرعب) الرعناء و(الفوضى الخلاقة) المتخلفة.

لا شك بأن هناك جريمة واضحة حدثت بحق العراقيين ووحدتهم وما زال الجاني والمحرض والفاعل الحقيقي فيها غير واضح لدى الكثيرين وهو ما نعمل على كشفه؛ لتبرئة الشعب العراقي من تلك الجريمة، ولإلقاء (بعض الضوء) على المجرم الحقيقي سنبحث عن (جذور الجريمة) هذه لنكشف دوافع مرتكبيها واستحضار (صحيفة أعمال) المجرمين المتوحشين وسوابقهم الإجرامية التي تم اكتشافها لحد الآن ونحن على يقين مطلق أن ما خفي كان أعظم!.

الجريمة

بعد احتلال العراق وبفترة وجيزة ومنذ أواسط عام ٢٠٠٤م بدأ الشعب العراقي يرى ويسمع عن ظهور جثث مجهولة الهوية قسم كبير منها تعرض إلى تعذيب مريع قبل القتل، وقسم آخر ممزقة الأوصال، وأخرى بلا رأس، ثم تبعتها اغتيالات قسم منها ذات طابع سياسي وقسم أخر غير معروف الدوافع!، وبدأت تتسع دائرة القتل الغامض والجريمة المنظمة لتتحول مناطق

معينة إلى مناطق موت (تعجز أمريكيا بكل إمكانياتها العسكرية أن توفر الأمن في مناطق صغيرة جداً بصفتها دولة احتلال) ثم بدأت بالتشكل والوضوح تشكيلات وفرق موت ترتكب جرائمها على أسس طائفية وبطريقة واحدة تقريباً (رافقها ومنذ البداية خطاب طائفي تحريضي واضح المعالم الخطوط وعملية سياسية بنيت على أسس طائفية وعرقية وبدأت أعادة تشكيل الدولة وبالخصوص الجيش والقوى الأمنية على نفس الأسس الطائفية و العرقية) ثم وبعد تفجير المرقدين اندلعت أعمال عنف أشبه ما تكون بالحرب الطائفية، تم قتل الكثير من الأبرياء فيها، واستغلت تلك الأحداث سياسياً وأمنياً وحكومياً وفي الوقت الذي كان يقتل الناس في الشوارع من مختلف الطوائف والأعراق كان بعض السياسيين يرسخون وجودهم السياسي ومصالح أحزابهم الضيقة ويمدون تغلغلهم المريب في أجهزة الدولة، وكذلك استغلت إيران تلك الظروف بكل بشاعة ولكن بحنكة عالية وحذر كبير.

وحدثت الجريمة الكبرى التي هزت أركان المجتمع العراقي وقسمته عرقياً وطائفياً وجغرافياً ولم تقف الحكومة أمام هذه الجريمة إن لم تكن ساهمت مع المجرمين في صناعتها وتعميق آثارها وكذلك فعلت إيران؛ فكانت النتيجة (قتل على الهوية والاسم والمجازر الجماعية والقتل الطائفي والقتل العشوائي والاغتيالات السياسية والقتل بالتعذيب الوحشي السادي وتقطيع الأوصال وتثقيب الأجسام وقتل الأطفال وصغار السن والنساء والشيوخ والعلماء والأطباء واستسهال التعذيب والاغتصاب والقتل الاستعراضي وإطلاق الكلاب المفترسة على البشر وتأجيج الصراع والتمايز العرقي والطائفي ومن ثم الحزبي وتهديد البنية الاجتماعية وثوابتها بالانهيار!، والتغريب والاجتثاث في الداخل والتهجير والغربة في الخارج والداخل والعزل الطائفي المناطقي والعزل الكونكريتي ومن ثم انهيار البنية الاجتماعية

والأمن والسلام الاجتماعيين)، وأصبح الضابط الوحيد المعول عليه لتحقيق السلام الاجتماعي أجهزة أمن متخلفة ومخترقة وغير مهنية، وقسم منها موغل في الإجرام والقتل والسرقة إلى حد بعيد، وأصبح القتل والموت تابعاً عادياً في حياة المواطن ومتوقعاً في كل لحظة ومن أكثر من جهة، وكانت القوات الأمريكية على رأس فرق الموت المنتشرة في تفاصيل حياة المواطن، لذا فهم يبتعدون عنهم وهم خائفون أن يتم قتلهم بلا أي مبرر معقول!.

وتبعا لثقافة الموت في العراق الجديد أدخلت مصطلحات غريبة جداً على سمع المواطن العراقي وترسخت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مصطلحات يومية يعيشها المواطن: كـ (فرق الموت؛ الفرق القذرة؛ العمليات القذرة؛ الميليشيات؛ المفخخات؛ الدريل (المثقاب الكهربائي)؛ اللاصقات (القنابل اللاصقة)؛ شركات الحماية؛ الإرهابيين؛ القاعدة؛ التنظيم؛ المحاكم الشرعية؛ الطائفية؛ منطقة سنية؛ منطقة شيعية؛ منطقة كردية؛ جثث مجهولة الهوية؛ مكتب الإمام؛ المكاتب الشرعية؛ المداهمات؛ فرقة التعذيب؛ فرقة العقرب؛ صولة الفرسان؛...الخ). ورافقت ذلك مصطلحات سياسية لها علاقة وثيقة جداً بتلك المصطلحات كـ(الطائفية السياسية؛ المحاصصة الحزبية والطائفية والعرقية؛ الاستحقاقات الانتخابية؛ التكتل الشيعي؛ التكتل السني؛ التكتل الكردي؛...الخ) وكان أغلب السياسيون يرددون تلك المصطلحات كالببغاوات دون حتى التفكير بمدى خطورتها على الكيان الاجتماعي أو بمراجعتها والتدقيق في معانيها وبسبب جهل الكثيرون منهم بالسياسة فقد تلقفوها كمسلّمات لا نقاش فيها!.

المستفيدون

هناك الكثير من أطراف الصراع في العراق كانت لها مصلحة في هذه الجريمة الكبيرة، وهذه الأطراف المستفيدة هي: الأمريكيون الذين استفادوا مما جرى واستطاعوا تقسيم العراقيين وتفرقتهم، كي تسهل السيطرة عليهم كما استطاعوا بفعل هذه السياسة تحييد قسم كبير من المجتمع العراقي في قضية الاحتلال التي يصعب أنْ يقف الإنسان محايداً فيها، كما استفادت الأحزاب التي استثمرت مظلة الاحتلال وأسقطت النظام التي عجزت عن إسقاطه بغير التدخل الأمريكي المباشر، واستلمت السلطة على طبق من ذهب وبرعاية أمريكية خاصة.

وبدلاً من أن تسعى تلك الأحزاب في مشروع وطني جامع وتأسس (سلطة) وطنية جامعة تحقق الأمن والاستقلال والوحدة والقوة للبلد وتفعيل الهوية الوطنية والانتماء الوطني انخرطت طواعية في المشروع السياسي الأميركي، ولم تكن تملك غير ذلك فذهبت في طائفيتها وعرقيتها أبعد مما أراد المحتلون!! وأسقط الطائفيون المشروع الإسلامي وأسقط الوطنيون المشروع القومي!.

واستفادت كذلك بعض الدول الإقليمية وعلى رأسها إيران من إضعاف العراق(العدو التقليدي) وتقسيمه طائفياً وعرقياً وهو أسرع طريق لتقسيمه جغرافياً. كما استفادت إسرائيل من إضعاف العراق وهي جادة في سعيها إلى تقسيمه؛ حيث أن من صميم مصلحتها أن تدخل المنطقة العربية والخليج على وجه التحديد في صراعات إقليمية وطائفية.

ومن المستفيدين بعد ذلك شركات الحماية والمرتزقة التي استطاعت الحصول على عقود الحماية بفضل الانهيار الأمني وشيوع ثقافة القتل

والاستئصال والاغتيالات؛ حيث كانت عقود شركة بلاك ووتر وحدها داخل العراق ما يقارب ٦٠٠ مليون دولار عام ٢٠٠٦م، بعدما كان رأسمالها دون المليون قبل ٢٠٠١/١١/٩م.

ولا يخفى أن كثيراً من القتلة والمجرمين والعصابات وفرق الموت والمأجورين والمرضى الطائفيين والمتعصبين داخل العراق؛ قد انتفعوا من شيوع هذه الثقافة وانتشار هذه الجرائم التي كانوا من المساهمين فيها.

أما الخاسر الأول والأكبر من كل ما تقدم وكل ما جرى وفي (هذه الجريمة بالذات من جرائم الاحتلال)؛ فقد كان الشعب العراقي، الذي دفع ثمناً غالياً بسبب هذه الجرائم من دمه وأرواحه ومستقبله؛ وتربص الموت بالشعب العراقي (بكل طوائفه وأعراقه وأديانه) في الطرق والأسواق والمساجد والكنائس والمدارس وفي كل زاوية من زوايا الحياة.

المخطط

بعد أن تبينت لنا حدود الجريمة والضحية وحددنا الدوافع والمستفيدين منها فمن هو المخطط لها ؟ وهل للجاني سوابق وهل للجريمة من جذور؟.

مما لاشك فيه أن الإدارة الأمريكية التي احتلت العراق عام ٢٠٠٣م ودمرت كل بنيته التحتية وسيطرت عليه عسكرياً كانت تواجه هلعاً شديداً من احتمال وقوف الشعب العراقي أمام مخططاتها التي احتلت العراق من أجلها؛ كما إن (شبح ثورة العشرين) كان ماثلاً أمام تلك الإدارة فكان من أهم (أهدافها) تحجيم دور الشعب العراقي وتحديد حركته الوطنية وإلهائه في معارك وحروب داخلية طائفية وعرقية وصراعات داخلية ومصلحية وسياسية وحزبية وتقسيمه وتجزئته وتفتيته وطمس هويته الوطنية وكل عوامل وحدته

ومصالحه الوطنية وخلق تقاتل اجتماعي غير مبرر ومسخ تاريخه الـوطني، وكانت للإدارة الأمريكية (وسائلها وأدواتها المتعددة) السرية في تحقيق هـذا الهدف.

وقد يبدو _الآن_ أن من المستحيل تماماً معرفـة كـل أدوات الجريمـة المنظمة في العراق التي استخدمتها أمريكا ولكن هنـاك جهـازان أمريكيـان خالصان معروفان (مكشوفان) في العراق وهما:

❖ قيادة العمليات المشتركة الخاصة

أنشأ هذه القيادة الرئيس الأمريكي السابق، جورج بوش، بإشـراف نائبـه ديك تشيني، لملاحقة وتصفية أهداف ذات قيمة عالية في عشرات الدول (منها العراق)، دون علم أو إشراف الكونجرس، والتـي كـشف عنهـا الـصحفي الأمريكي المعروف (سيمور هيرش) في مقابلة تلفزيونية مع شبكة (سـي أن أن) الإخبارية الأمريكية وبحسب هيرش، خولت إدارة بوش الوحدة الـسرية، وتدعى (قيادة العمليات المشتركة الخاصة) تحت إشراف تـشيني المباشـر ـ تفويضاً مباشراً لتصفية أفراد استناداً إلى معلومـات أسـتخباراتية أمريكيـة، وأضاف: (الفكرة هي أن تتحرك الفرقة دون قيود تقديم تقـارير للكـونجرس، الذي علم القليل عن هذه المجموعة، ودون جلسات استماع، حتى السرية منها، وهي تتجول بتفويض من الرئيس للتوجه لأي دولة دون إعلام رئيس جهـاز الاستخبارات الأمريكية أو السفير الأمريكي فيها).

وكان هذا الصحفي قد كشف عن هذه (الوحدة) لأول مرة خلال كلمة لـه أمام جامعة مينسوتا في العاشر من شهر يوليـو مـن هـذه الـسنة ٢٠٠٩م، مستخدماً تعبير (جناح اغتيالات).

وأضاف: إدارة بوش فوضت قوات في مواقـع الحـدث اسـتناداً إلـى معلومات إستخباراتية اعتقدوا أنها سليمة، ويمكنني القول إن هذا لم يكن واقـع

الحال دائماً.. فبعضها اتخذ بعداً دموياً للغاية، ولم يكشف (سيمور هيرش) عن المصادر التي استقى منها معلوماته[1].

وفى المقابل، نفى مساعد تشيني (جون هاناه) في حديث لشبكة (سي أن أن) تلك الاتهامات قائلاً: ليست حقيقية.. وأعتقد أن هيرش أبتعد قليلاً عن المزاعم الأصلية التي أدلى بها مسبقاً وأشار فيها إلى المجموعة كـ (جناح اغتيالات).

إلا أن هاناه زاد الطين بلة معترفاً اعترافاً رسمياً بأن (للجيش الأمريكي في مناطق حرب كالعراق وأفغانستان وباكستان تفويضاً "بملاحقة واعتقال وقتل الأعداء" ويشمل ذلك قياداتهم).

وقالت (فرانسيس تاونسند) مساعدة تشيني مدافعة عنه: "إن لائحة الأهداف الإرهابية المجازة -من يمكن اغتيالهم دون محاكمة- لا تتعدى المائة" دون أن تذكر من وضع تلك القائمة؟ وكيف؟ وهل إن تلك القائمة قابلة للزيادة كما هي قابلة النقصان طبعاً.

وسبق ونشرت تقارير في الصحافة الأمريكية والبريطانية منذ عام ٢٠٠٣م كشفت عن استخدام القوات الأمريكية تكتيكات الجيش الإسرائيلي ومستشارين إسرائيليين بغرض التدريب والاستشارات لتشكيل فرقة اغتيالات في العراق، ونشرت صحيفة "الجارديان" في عام ٢٠٠٣م أن إسرائيل أرسلت عناصر حرب عصابات مدنية إلى "حصن براغ" في ولاية كارولينا الشمالية -مقر القوات الخاصة الأمريكية- من اجل تدريب قوات خاصة في البحرية الأمريكية على القيام بعمليات نوعية لاستهداف قيادات في العراق.

---

[1] ٣١ مارس ــ آذار ٢٠٠٩م الوكالات، صحيفة الشروق ١أبريل ــ نيسان ٢٠٠٩م، وموقع إسلام أون لاين في نفس التأريخ.

وذكرت الصحيفة أن الجيش الأمريكي أراد الاستفادة من خبرة إسرائيل في تشكيل ما يعرف بـ "وحدة المستعربين" ليعملوا وسط الناس بشكل عادي في زى عربي محلى مع تحدثهم اللغة العربية بطلاقة.

وكان هيرش قد أشار في تقرير سابق له عام ٢٠٠٣م بعنوان (تحريك وإزالة الأهداف) في مجلة (نيويوركر) إلى إستراتيجية "فرق الاغتيالات" الأمريكية والتي في الغالب، نسخة مطابقة لحملات الاغتيالات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، وقال: إن الإستراتيجية وضعت في عهد وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رامسفيلد ودفع بنائبه لشئون المخابرات ستيفن كومبون ليصبح مشاركا بعمق في تطوير أسلوب جديد للقوات الخاصة (فرق الاغتيالات) حسبما ذكر هيرش[1].

أما الأداة الثانية في يد الإدارة الإمريكية فقد كانت أقل سرية وأكثر مرونة ولكنها لازالت غامضة إيضاً تلك هي:

❖ الشركات الأمنية

حيث تقدم هذه الشركات خدمات أمنية وعسكرية خاصة أي أنها شركات مرتزقة، وإن كانت (شركة بلاك ووتر) تقف في مقدمة تلك الشركات العاملة في العراق وأكبرها فإلى جانب بلاك ووتر تعمل حالياً عشرات الشركات الأمنية الخاصة غالبيتها غربية في العراق، وتتعرض بانتظام لهجمات تبقى عمليا طي الكتمان، وأبرز هذه الشركات آرمر غروب ودينكوربس وأيجيس ديفنس سرفيسز، وهي تضم في صفوفها عشرات آلاف المرتزقة لتشكل ثاني

---

[1] هذه المعلومات التي أدلى بها سيمور هيرش منقولة عن صحيفة الشروق في عددها الصادر بتاريخ الأول من نيسان ٢٠٠٩م، وموقع (إسلام اون لاين) نقلاً عن وكالات الإنباء بتاريخ ٣١ آذار-مارس ٢٠٠٩م.

قوة أجنبية في العراق بعد الجيش الأميركي[1].

ولم تكن بلاك ووتر الوحيدة وقد لا تكون أكثرها بشاعة أو على الأقل فإن باقي الشركات لا تقل بشاعة عن (بلاك ووتر) وأغلبها لم يسلط عليه الضوء كما سلط على هذه الشركة، ومنها: (شركتان أمنيتان أخريان لهما وجود بحجم صغير بالعراق، وهما "دينكورب الدولية" و "تريبل كانبوي" والتي تعاقدت معهما الإدارة الأمريكية لتولي المهمة الأمنية هناك، خلفاً لبلاك ووتر بعد انتهاء العقد في أوائل مايو/ أيار ٢٠٠٩م).

وسنتناول في ما تبقى من هذا البحث الجذور والامتدادات التاريخية لتلك العقلية الإجرامية السادية المفرطة في الجريمة والقتل ونتطرق إلى بعض المنطلقات النظرية والدوافع لتلك العقلية.

الجـــذور

١٠٧٠م فرسان مالطا

عام ١٠٧٠م بدأ ظهور (فرسان مالطة) كهيئة خيرية أسسها بعض التجار الإيطاليين لرعاية مرضى الحجاج المسيحيين في مستشفى قديس القدس يوحنا قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس، وظل هؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلامية، وقد أطلق عليهم اسم (فرسان المستشفى) وتحور الاسم فيما بعد إلى (الهوسبتاليين) تمييزاً لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في القدس آنذاك مثل (فرسان المعبد) و (الفرسان التيوتون)، والمؤكد أنهم ساعدوا الغزو الصليبي فيما بعد.

---

[1] نقلاً عن وكالة الأخبار الإسلامية ٢٣ آيار– مايو ٢٠٠٧م.

في ١٥ فبراير ١١١٣م اعترف البابا باسكال الثاني بتنظيم (الهوسبتاليين) رسمياً ودخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف في غرب أوروبا، وصاروا يتبعون بابا روما وهكذا أصبح نظامهم يلقى مساندة من جهتين: تجار أمالفي وحكام البروفانس في فرنسا.

وعندما قامت الحروب الصليبية الأولى ١٠٩٧م وتم الاستيلاء على القدس تحولوا إلى نظام فرسان عسكريين وأعيد تشكيل التنظيم على أساس عسكري مسلح باركه البابا أنوست الثانى ١١٣٠م، حتى قيل إن الفضل في بقاء مدينة القدس في يد الصليبيين واستمرار الحيوية في الجيوش الصليبية يعود بالأساس إلى فرسان الهوسبتاليين بجانب فرسان المعبد، وقد كان تشكيل تنظيم الهوسبتاليين ينقسم إلى ثلاث فئات:

- فرسان العدل الذين هم في الأصل نبلاء أصبحوا فرساناً.
- القساوسة الذين يقومون بتلبية الاحتياجات الروحية للتنظيم.
- إخوان الخدمة وهم الذين ينفذون الأوامر الصادرة إليهم.

فضلاً عن الأعضاء الشرفيين ويسمون الجوادين الذين يساهمون بتقديم الأموال والأملاك للتنظيم وبفضل عوائد هذه الأملاك وكذلك الهبات والإعانات حيث كان (عُشر) دخل كنائس بيت المقدس مخصصاً لمساعدة فرسان القديس يوحنا؛ ومن هنا أخذ نفوذ الفرسان ينمو ويتطور حتى أصبحوا أشبه بكنيسة داخل الكنيسة.

بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبي هرب الفرسان الصليبيون إلى البلاد الأوروبية. وانتهى المقام بالهوسبتاليين في قبرص واستمروا في مناوشة المسلمين عن طريق الرحلات البحرية ومارسوا أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين واستطاعوا فيما بعد احتلال رودس وأخذها من العرب المسلمين عام ١٣٠٨م – ١٣١٠م ليصبح

اسم نظام الفرسان الجديد يسمى النظام السيادي لرودس أو (النظام السامي لفرسان رودس).

وفى (رودس) أنشأ تنظيم الهوسبتاليين مراكزه الرئيسة وازدادت قوته ونفوذه خاصة بعد أن تم حل تنظيم فرسان المعبد وآلت بعض ثرواته للهوسبتاليين؛ ولأن جزيرة رودس كانت بمثابة نقطة إستراتيجية هامة، فقد عمد الأتراك المسلمون بدورهم للاستيلاء عليها خصوصاً مع تزايد قرصنة الصليبيين لسفنهم وتمت استعادتها عام ١٥٢٢م، فهجر الهوسبتاليين الجزيرة في أول يناير ١٥٢٣م وتوزعوا بين عدة مدن منها سيفليل في إسبانيا وكاندي سيلان وروما في إيطاليا إلى أن منح الملك شارك كنت الهوسبتاليين السيادة على(جزيرة مالطة) في ٢٤ مارس ١٥٣٠م، وكانت لهم السيادة كذلك على عدة جزر مثل دى جوزوا وكومين بجانب مدينة طرابلس التي كانت تتبع عرش صقلية.. وقد صدق البابا كليمنت السادس على ذلك في ٢٥ إبريل ١٥٣٠م ومن ثم أصبح النظام يمتلك مقراً وأقاليم جديدة أدت إلى تغيير اسمه في ٢٦ أكتوبر ١٥٣٠م إلى (النظام السيادي لفرسان مالطة) ومنذ ذلك الوقت أصبحت مالطة بمثابة وطنهم الثالث، ومنها استمدوا أسمهم (فرسان مالطة).

وقد تميز هذا النظام منذ إقامته في مالطة بعدائه المستمر للمسلمين وقرصنته لسفنهم حتى كون منها ثروة ولاسيما في الحصار التاريخي ١٥٦٥م الذي انتهى بمذبحة كبيرة للأتراك، كما توسع النظام كثيرًا حتى إن الملك لويس الرابع عشر تنازل له في ١٦٥٢م عن مجموعة من الجزر في الأنتيل منها: سان كيرستوف، سان بارتليلى، وسان كوزوا، وصدق على ذلك في ١٦٥٣م إلا أن صعوبة المواصلات مع هذه الجزر اضطر النظام للتنازل عنها لشركة فرنسية ١٦٥٥م وظل النظام في مالطة تحت حماية إمبراطور الدولة الرومانية والكرسي الرسولي وفرنسا وإسبانيا وانتشر سفراؤه في بعض

الدول وهو ما كان يعنى اعترافاً بالسيادة الشخصية للسيد الكبيـــر للنظـــام أو رئيس الفرسان.

وبقيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م وغزوها إيطاليا فقد الفرسان الـــصليبيون ممتلكاتهم وامتيازاتهم في فرنسا وإيطاليا وانتهى بهم الأمر بفقد مقـــرهم فـــي جزيرة مالطة نفسها وطردهم منها على يد نابليون أثناء حملته على مصر عام ١٧٩٨م، وانقطع اتصال الفرسان نهائياً بمالطة _ دولة مالطة الحالية ليـــست هي فرسان مالطـــة.

وبحلول ١٨٠٥م أصبح الفرسان بلا رئيس حاكم، ومنذ ١٨٣٤م ونظـــام الفرسان يمارس شؤونه من روما بصفة رسمية باسم العمـــل الخيـــري وفـــى نطاق المستشفيات عملهم الأول وقت إنشائهم حتى أصبح نظامهم أشبه بهيئـــة خيرية لا تزال تسيطر عليها الروح الصليبية، وأخذت في التوسع حتى فتحت جمعية لها في الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٢٦م

ويقع المقر الرئيس للمنظمة حالياً في العاصمة الإيطالية رومـــا، ويحمـــل اسم مقر مالطة، ويرأس الدولة (البرنس أندرو برتـــي) الـــذي أُنتخـــب عـــام ١٩٨٨ويعاونه أربعة من كبار المسؤولين وقرابة عـــشرين مـــن المـــسؤولين الآخرين.

أما في فرنسا فقد استمرت محاولاتِ إحياء النظام، وإن كان إنشاء التنظيم لم يكن له اتصال عضوي بالتنظيم القديم الذي استقر نهائياً في الفاتيكان، كمـــا انتقل بعض أفراد هذا النظام إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعاشوا فتـــرات الحروب الأهلية، وقد أصبح رمز نظام القديس يوحنا هو صليب أبيض معلـــق بحبل أسود ولذلك أصبح (فرسان الهوسبتالية) يعرفـــون (بفرســـان الـــصليب الأبيض)، وصادف وصول هؤلاء فترة الحروب الأهلية هناك وشـــهدت هـــذه الفترة ظهور (منظمة الكوكلوكس كلان)، الإرهابية العنصرية، التـــي كانـــت

تطالب في ذلك الحين بالدفاع عن المذهب الكاثوليكي وعن سيادة الرجل الأبيض ومنع مساواة المواطنين السود مع البيض في الحقوق، وتوثقت العلاقات بين (فرسان مالطة) الفارين إلى أمريكا، وبين (الكوكلوكس كلان) خصوصاً وأن الطرفين يتفقان في المذهب الكاثوليكي.

وقد تجسدت هذه العلاقات وعبر عنها تنظيم (فرسان الكاميليا) وهو (تنظيم سرى نشأ داخل الكوكلوكس كلان)، تبنى نفس مبادئها، وكان تنظيمه الهيكلي يشبه تنظيم فرسان مالطة، فهناك المارد الأعظم على غرار السيد الأعظم لدى الفرسان ويعاونه أربعة من فرسان الصقر كما أن طقوس احتفالات فرسان الكاميليا والكوكلوكس كلان تشبه تماماً احتفالات فرسان مالطة إذ يلبسون ملابس بيضاء عليها صليب أحمر، ويضعون على رؤوسهم أقنعة لا يظهر منها سوى العينين والأنف والفم، ويشعلون المشاعل النارية، ويزيد أعضاء الكوكلوكس كلان (الجماجم) التي يحملونها وهي تنبعث منها نيران حمراء بشكل مرعب!

ومن المهم أن نشير إلى أن كلا الحركتين الفرسان، وكوكلوكس كانتا تركزان على العودة لأصول الدين المسيحي الكاثوليكي حتى إنه ليبدو أن مطاردتهم لغير العنصر الأبيض من السود وكذلك الآسيويين في الداخل كان اضطهاداً دينياً قبل أن يكون عنصرياً على اعتبار أن أصل هؤلاء السود والآسيويين الذين تم جلبهم إلى أمريكا عن طريق تجارة الرقيق يعود إلى أفريقيا وآسيا حيث غالبية السكان يدينون بالدين الإسلامي قبل حملات التبشير فيما بعد، فضلا عن أن هؤلاء السود والآسيويين جاءوا من المناطق التي سبق أن طُرد منها هؤلاء المهووسون دينياً وعنصرياً بعد احتلال طويل لها، وهو سبب كافٍ لاضطهادهم وتفريغ شحنات الغضب فيهم.

وتختلف دولة فرسان مالطة، من حيث هيكلها وتنظيمها عن جمهورية مالطة الجزيرة المعروفة في البحر المتوسط، وكلتاهما تحظى بالتمثيل الدبلوماسي والاعتراف الرسمي في العديد من دول العالم.

والمثير في سفارة هذه الدويلة أنها لا تحمل رايات كسائر السفارات، وتقتصر أنشطتها على الأعمال الخيرية والتبرعات والهبات، إلا أن مقرها الرئيس في روما يتمتع بامتيازات، فمواطنوها لهم محاكم خاصة وجوازات سفر ويقدر عددهم بنحو ١٠ آلاف فارس، في حين يصل عدد المتطوعين منهم إلى نصف مليون، وأن خطر الفرسان الحالي ليس أقل مما كان في الماضي.

وأشارت تقارير إلى أن منظمات الإغاثة التبشيرية في مناطق ملتهبة كجنوب السودان لا تزال تشكل عنصر الدعم للمتمردين على الحكومات العربية، وأنه كان لهم دور في فصل تيمور عن إندونيسيا، فدورهم التبشيري لا ينفصل عن الدور الخيري انطلاقاً من أن دول عظمى مثل أمريكا تسهل لهم المرور من دولة إلى أخرى بحجة أن نشاطهم لا يتعدى كونهم هيئات خيرية.

وعقدت (منظمات الفرسان الصليبية) اجتماعًا في جزيرة مالطة في أوائل ديسمبر ١٩٩٠م هو الأول من نوعه منذ أخرجهم نابليون بونابرت منها قبل حوالي قرنين من الزمان، وكان الاجتماع مثيراً للغاية كما قال روجر جيورجو أحد أولئك الفرسان الذين اجتمعوا في الجزيرة. وبلغ عدد الحاضرين حوالي خمسمائة معظمهم من القساوسة ينتمون إلى اثنين وعشرين دولة.

ولوحظ أن الفرسان الصليبيين المجتمعين اعتبروا هذا اللقاء خطوة باتجاه إحياء وإنعاش تلك المنظمة الكاثوليكية ذات الجذور الصليبية، وقد روت صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية تفاصيل هذا الاجتماع في حينه قائلة: إن

الفرسان توافدوا على الاجتماع، وقد ارتدى كل واحد منهم ملابس كهنوتية سوداء، يزينها صليب أبيض مزدوج الأطراف، ورأس الجلسات الأستاذ الأعظم الذي يقود المنظمة، وهو اسكتلندي سبق أن عمل في حقل التدريس، اسمه اندروبيرتي ٦٠ سنة وهو أول بريطاني يرأس المنظمة منذ عام ١٢٧٧، كما أنه الرئيس الثامن والسبعون للمنظمة منذ تأسيسها، ويحمل رتبة كاردينال، ويرأس مجلساً يتألف من ستة وعشرين فارساً يساعدونه على تسيير شئون المنظمة وتدعمه أمريكا بقوة!.

ويقدر عدد غير المتطوعين في الولايات المتحدة وحدها ألف وخمسمائة فارس، وقد انضم إلى عضويتها عدد من أصحاب الملايين خصوصاً أن نشاطهم الحالي يتخذ غطاءً خيرياً ويظهر الاختصاص بالمستشفيات مما يغرى بالتبرع لهم.

وهم مهتمون بإقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف الدول حيث يقول رئيسهم بيرتي: إن الدبلوماسية بحد ذاتها ليست من أهدافنا ولكن إقامة علاقات مع الدول تساعد في تسهيل أعمالنا والحصول على الأدوية والمواد التموينية ونقلها إلى المناطق المنكوبة، ولا ينفى تاريخهم الصليبي إذ يقول: نحن لا نخفي شيئاً، فنحن منظمة دينية قديمة ولنا تقاليدنا وشعائرنا لذلك فالجانب البروتوكولي والدبلوماسي في غاية الأهمية بالنسبة لنا، ونحن نبذل جهدنا لتقديم العون للمحتاجين والقسم الأكبر منا رجال دين وقساوسة.

واستغل فرسان مالطة نشاطهم الخيري، والسماح لهم بمزاولة عملهم من دول عظمى مثل أمريكا كجواز مرور للدول الأخرى[1].

---

[1] منتدى الإمارات الاقتصادي بتأريخ ٢٨ شباط – فبراير ٢٠٠٩م.

وفى ١١ ينــاير ٢٠٠٧م نــشرت وكالـــة (Innovative Media Inc) للأخبار على لسان (أندرو برتي) المسؤول الأعلى في فرسـان مالطـــة فـــي معرض حديثه إلى ممثلي ٩٦ دولة معتمدة لدى هيئة فرسان مالطة بمناســبة اللقاء السنوي المعتاد الذي المنعقد هذه السنة في روما في تلة الأفنتينو، فقال: يجب أن يتمتع جميع حجاج العالم بحق الدخول إلى أورشليم، معلناً أنه يود أن يقوم هو شخصياً بزيارة إلى الأراضي المقدسة في أكتوبر المقبل.

ودعونا نتأمل بعض جرائم الكوكلوس كلان التي حــدثت علـــى أعتــاب القرن الحادي والعشرين وفي دولة تدعي أنها تقــود العــالم بحربهـــا ضـــد الإرهاب ترى بماذا تذكرنا؛ ففي سبق صحفي انفردت به صحيفة "الاندبندنت" البريطانية تمكن المصور (انثوني كارين) من التقاط صور نــادرة لاحتفـــال عصابات الكوكلوكس كلان العنصرية البيضاء، التي ارتبط اســمها بجــرائم (قتل وإحراق وحشية) ضد الأميركيين السود، وذلك في مدينـــة سكوتـــسيور روبورو بولاية الباما.

وقال كارين الذي حضر الاحتفال بمعرفة الجماعة الإجرامية إن "الصور بطقوسها ومضمونها المفزع رسالة إلى الــرئيس الأميركـــي بـــاراك أوبامـــا والأميركيين الأفارقة بأن حلمهم الأسود لن يتم تحقيقه".

وتأتي تلك الأنباء عن عودة العصابات العنصرية للأضواء، بعـــد فتـــرة وجيزة مما تردد عن اختطافها للسيدة "كينيث لينش"، البالغة مـــن العمـــر ٣٤ عاماً، والمقيمة في اوكلاهاما، والفرار بها إلى غابة في شمال نيو اورلين، ثـــم قتلها على يد مجموعة فرعية في العصابة اسمها "أبناء ديكس"، وقد اعتـــرف زعيم المجموعة (تشيك فوستر) الذي ينتظر محاكمة في جريمة أخـــرى الآن بتفاصيل الحادث الأول، حيث تمت ملاحقة لينش والجري وراءها بالمـــشاعل ثم انتهى الأمر بإطلاق النار عليها.

وننقل من الويكيبيدا: "بينما تقوم أغلبية مجموعات الكوكلوكس كلان بهجماتها ضد أهدافها مرتدية جلابيب بيضاء وقبعات مخروطية الشكل تغطي الرأس كله ولا تظهر منه سوى العينين لإخفاء هويتهم مع إضافة عامل الترويع خلال هجماتهم الليلية على أهدافهم التي غالبا ما تكون قرىً صغيرة يسهل على السكان فيها التعرف على بعضهم البعض، وهنا يجب الذكر أن عمليات التصفية التي قامت تجاه رؤساء الأحزاب السود لم تقتصر عليهم وحدهم بل (شملت أُسَرِهم) بالإضافة إلى رؤساء الكنائس والجاليات، لتعبدد أنشطة الضحايا، فقد كان المقنعون يقومون بإطلاق الأعيرة النارية تجاه بيوت ضحاياهم (وإحراقها، أحياناً بمن فيها) واستطاعوا إزاحة المزارعين الناجين من مزارعهم (تهجيرهم).

بينما استمرت الجماعة في القضاء على ضحاياها تحت غطاء مدني، ومتخفية بدون أن تعلن عن انتمائها للكوكلوكس كلان، (استمرت الدولة في التغاضي) عن ممارساتهم ولم يتم تجريم عضواً واحداً بخلفية انتمائه للتنظيم، بل لم يكن بإمكان الأمريكان الأفارقة حتى التوجه للمحاكم للشكوى، أما في الحالات النادرة التي وصلت إلى القضاء، فقد كان من الصعب نطق الحكم بتجريم الفاعل لخوف المحكمة من إنتقام الكلان.

هذا ما كان يحدث في أمريكا وهذا ما حدث في العراق! صورة تتكرر كل يوم حتى أصبحت طبيعية ولا تثير أي انتباه رغم فضاعتها!

ولم يعد لمجموعة الكلان الأولى أي سبب للوجود فقد تم (إقصاء) الأفارقة _ الأمريكان تدريجياً من الحياة السياسية على الرغم من إنهم تمكنوا من ينالوا نظرياً حق الانتخاب بالتعديل ١٤و ١٥ من الدستور.

ففي ١٥ أيلول ١٩٦٣م انفجرت قنبلة أثناء القداس المقام في كنيسة معمدانية عائدة للسود وتستقبل الاجتماعات السياسية للزعماء السود بشكل

منتظم وذلك في برمنجهام في الاباما. وأدى الانفجار إلى قتل أربع صبيات وجرح عشرين شخص ولم تدن السلطات المحلية المسؤولين عن الحادث إلا قريباً جداً وذلك في ١٩٧٧م و٢٠٠١م ٢٠٠٢م.

أما الحادث الثاني فقد وقع في ٢١ حزيران ١٩٦٤م وقتل فيه ثلاثة شباب في سيارتهم وقد تم اتهام سبعة أعضاء في جماعة الكلان وذلك في نهاية القضية عام ١٩٦٧م.

المهم أن جرائم كوكلس كلان كثيرة جداً ومعروفة للقاصي والداني ولكن المهم معرفته أن فرسان مالطا استطاعوا قيادة تلك المنظمة واحتوائها ولكن من يصدق أن لتلك المنظمات وتحديداً لفرسان مالطا وجود وجنود في العراق!

ونقلاً عن تعريف الويكيبيدا لشركة بلاك ووتر: "بلاك ووتر العالمية التي كانت سابقا (بلاك ووتر يو أس أي)، هي شركة تقدم خدمات أمنية وعسكرية أي أنها شركة مرتزقة، وتعتبر واحدة من أبرز الشركات العسكرية الخاصة في الولايات المتحدة وهي مرتبطة (بفرسان مالطا).

ويقول (جيرمي سكاهيل) في كتابه "بلاك ووتر صعود أقوى جيوش المرتزقة في العالم: "هناك مخاوف خاصة من دور "بلاك ووتر" في حرب وصفها الرئيس بوش "بالحرب الصليبية" وهذه المخاوف ناشئة من كون جميع المدراء الكبار في الشركة من المرتبطين بأجندة التعصب المسيحي، ويقدم صاحب الشركة (اريك برنس) وأسرته تمويلاً سخياً لحرب اليمينيين الدينية ضد العلمانية ومن اجل تثبيت دور المسيحية في المجالات العامة، بل أن عددا من مدراء "بلاك ووتر" يتبجحون بعضويتهم في (مسلك مالطا العسكري المستقل) وهو عبارة عن ميليشيا مسيحية تشكلت في القرن الحادي عشر الميلادي قبل الحرب الصليبية الأولى وكانت رسالتها الدفاع عن الأراضي

التي أخذها الصليبيون من المسلمين، ويتبجح المسلك اليوم بأنه مطبق مستقل للقانون الدولي، له دستوره الخاص، ويصدر جوازات سفر خاصة به، وطوابع، ويقيم مؤسساته المستقلة "كما يرتبط" بعلاقات دبلوماسية مع ٩٤ دولة"، إن الاستعانة بمثل هؤلاء الصليبيين الجدد في تنفيذ العمليات العسكرية الأمريكية في الدول السلمية والمجتمعات العلمانية يعزز المخاوف الكبيرة التي يحملها البعض في العالم العربي وغيرهم من معارضي حروب الإدارة الأمريكية.

ومن خلال تداعيات القضية الرسمية التي رفعت في بتاريخ ١١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٧م في أحدى محاكم ولاية فرجينا الأمريكية ضد شركة بلاك ووتر بخصوص حادثة ساحة النسور ببغداد نيابة عن الضحايا العراقيين، ومن واقع شهادة الشاهد الثاني، وهي الشهادة رقم ٨ في القضية رقم ٦١٥ -CV٠٩/١٠٠ إلى تسلسل ١٨/١٧/١٥ حتى ٤٥ وفي شأن (ايريك برنس) وشركاته ومن خلال عمل الشاهد لمدة أربع سنوات معهم، أعلن انه يقيم الدعوى عليهم مع طلب إخفاء شخصيته، لتلقيه تهديدات من إدارة شركات برنس بالقتل والتصفية، وفي تلك الشهادة التي وقع عليها الشاهد بعد إقراره بأنه لا يقول سوى الحقيقة ويعلم عقوبات الكذب، ذكر أن (إيريك برنس) يمتلك عدة شركات تدار كشركة واحدة وكلها تعمل بإمرته وبإدارة جاري جاكسون، وان (برنس) أنشأ عدة شركات ليخفي بواسطتها جرائمه ومخالفاته وعمليات غش وأعمالاً غير قانونية، منها نقل أموال شركة "بلاك ووتر" المتعاملة كشركة حراسة مرتزقة مع وزارة الخارجية الأمريكية وجهات فيدرالية (حكومية أخرى) في العراق وحول العالم، إضافة لأعمال غير قانونية من دون مراعاة المحاسبة، مع إعطاء بيانات وأرقام مزيفة في

حين أن (برنس) يتصرف في أموال الشركات كأنها أمواله الخاصة، وكل هذه الأفعال تمت حسب الشهادة لسببين:

الأول: أن (برنس) ينظر إلى نفسه كمقاتل صليبي مسيحي موكلة إليه "مهمة إبادة المسلمين ومحو العقيدة الإسلامية من على وجه الأرض" ولذا تعمد إرسال رجال إلى العراق يشاركونه هذه الرؤية ويؤمنون بالتفوق المسيحي، كما أن برنس كان يعلم هذا وتعمد أن "ينتهز هؤلاء الرجال كل الفرص الممكنة لقتل العراقيين" والعديد منهم كانوا "يستخدمون أسماء وألقابا متخذة من أسماء فرسان مالطة الصليبيين"، وكانت شركات برنس "تشجع وتكافئ قاتلي العراقيين" بل كان العاملون في الشركة يتفاخرون بشكل علني بالأمر، وعلى سبيل المثال كان عادياً تحدثهم عن نيتهم النزول إلى شوارع العراق لقتل "بعض العراقيين"، كما كانوا يستخدمون أوصافاً عنصرية مثل "حاجي" و"أصحاب الخرقة على الرؤوس".

ثانياً: جشع برنس والتماسه أية فرصة لإرسال المزيد من هؤلاء الرجال ليحصل على المزيد من الأموال من الحكومة الأمريكية.

انتهى الاقتباس التي تداولته كل الوكالات الأنباء والصحف العالمية ومنها صحيفة التايمز بإنبهار شديد والذي جاء على لسان أحد المرتزقة الأمريكان العاملين في شركة بلاك ووتر.

كما أن من بين تلك الاتهامات التي قدمت لمحكمة بولاية فرجينيا قبل اسابيع قيام برنس بقتل أو اغتيال موظفين اثنين سابقين متعاونين مع المحققين الفيدراليين.

وقد وجهت هذه التهم لبرنس في شهادة خطية تحت القسم قدمها موظفان سابقان معه، أحدهما جندي سابق في قوات المارينز الأميركية، وقد رمزا

لاسميهما بـــ John Doe No ١ و John Doe No ٢ وذلك (خشية التعــرض للقتل إن كشفت هويتيهما.

وادعيا أن برنس وموظفين آخرين كبارا في شركة بــلاك ووتــر أتلفــوا أشرطة فيديو ورسائل إلكترونية ووثائق تدينهم كما قــاموا بإخفــاء ســلوكهم الإجرامي والتستر عليه عن وزارة الخارجية الأميركية.

وتأتي هذه الشهادة ضمن عريضة مقدمة إلى المحكمة من طرف محامين يمثلون ستين عراقيا يقاضون بلاك ووتر على خلفية جرائمها في العراق.

وأكثر من هذا نعود إلى نص الخبر المنقول من التايمز: "إن الشاهد الثاني John Doe No٢) أكد في شهادته: "أن برنس تعمد نشر من يشاطرونه نفس الفكر في العراق أي من يعتقدون مثله في التفوق المسيحي، وكان يعلــم بــل يرغب في أن يقوم هؤلاء الرجال بعدم تفويت أي فرصة ممكنة لقتل عراقيين وكان كثير من هؤلاء الرجال يستخدمون ألقاب ورموز فرســان الهيكــل، أي المحاربين الذين قاتلوا المسلمين في الحروب الصليبية".

ويقول الجندي السابق بقوات المارينز المذكور آنفاً (إن عدداً كبيــراً مــن الحوادث التي كانت تستخدم فيها القوة المفرطة كانت تسجل في أشرطة فيديو يتم مشاهدتها عليها في نهاية اليوم قبل أن تمحى)، وتحدث أحد الشاهدين عن جرائم اغتصاب فتيات قاصرات في العــراق.. وهكــذا فــإن هــذه الــسادية المتوحشة هي ما يحدث في العراق في العقــد الأول مــن القــرن الحــادي والعشرين!.

لا أعتقد أننا بحاجة إلى أكثر من هذه الاعترافات وهذه النصوص (التــي لم ينقل أي منها عن مصدر عربي أو إسلامي ونقلت بمجملها مــن مــصادر أمريكية أو غربية) لمعرفة الأبعاد الفكرية للجريمة التي حدثت فــي العــراق

والتي تؤكد الكثير من الأدلة على أنها حدثت أيضاً في أفغانستان وكوسوفو وفي الجزائر وفي جنوب السودان! .

هل هي حرب صليبية فعلاً ؟!

وإذا تجاوزنا الكلمة الشائعة (زلة لسان) للرئيس الأمريكي بوش الابن بأن الحرب على الإرهاب هي حرب صليبية وإنها ستأخذ حيناً من الوقت.

وإذا لم نستطيع توثيق ما نسب إلى الرئيس الأمريكي السابق (بوش) بأنه قاد احتلال العراق تحت الهاجس الديني وأن حرب العراق كانت مقدسة حسب رواية (البي بي سي BBC) عن المفاوض الفلسطيني نبيل شعث خلال برنامج أذيع من على تليفزيون (البي بي سي BBC) أن بوش قال تلك التعليقات خلال لقاء في عام ٢٠٠٣م، وقال شعث خلال البرنامج: إن "الرئيس بوش قال لنا جميعاً: أنا أقود مهمة الرب، الرب قد يقول لي: جورج، اذهب وحارب هؤلاء الإرهابيين في أفغانستان، وفعلت ذلك، ثم قد يقول الرب لي: جورج، اذهب وتخلص من الطغيان في العراق... وهذا ما فعلته" وأضاف والآن مرة أخرى أشعر أن كلمات الرب تصل إلي، اذهب لتأتي للفلسطينيين بدولتهم والأمن للإسرائيليين، والسلام للشرق الأوسط، وسأفعل ذلك بالاستعانة بالرب.

وقال الرئيس الفلسطيني محمود عباس، الذي كان حاضراً ذلك الاجتماع، في برنامج (البي بي سي BBC) إن بوش قال له "لدي التزامات أخلاقية ودينية، ولذلك سآتي لكم بدولة فلسطينية[1]".

---

[1] نقلاً عن شبكة "بي بي سي" بتاريخ ٧ تشرين الأول- أكتوبر ٢٠٠٥م.

لكن دعونا نتأمل مقولة أخرى له لم تكن هذه المرة (زلـة لـسان) أثنـاء حديث له عبر شاشات التلفزيون وأثناء شكره لطائفـة الجنـوب المعمدانيـة المعروفة بتعصبها الشديد ضد المسلمين على وجه الخصوص لدعمها الكبيـر له في الانتخابات التي فاز بها فهو يقول: "إنهم يشكلون ستة عشر مليوناً مـن المعمدانيين في أنحاء البلاد وعلاوة على هذا الكثير من المبشرين موجـودون بعيداً عن وطننا وجميعهم يشعرون بأنهم مكلفون بنشر كلمة الـرب وليعلنـوا عن مملكة الرب".

مع البيان إن لتلك الطائفة المتشددة والمتعصبة نشاطاً كبيراً فـي العـراق وسقط منهم الكثير من القتلى ولهم مؤسساتهم الكبيرة والناشطة التـي تمـول بملايين الدولارات ومن تلك المؤسسات مؤسسة صوت الـشهداء والمعروفـة بـ (The Voice Of Martyrs) وإن كان غالب عملهم سري ولكنه كان بعلم ودعم من الإدارة الأمريكية هناك وهم يجاهرون بمعتقداتهم وكرههم للإسـلام ولهم بعض الشعارات الغريبة ومنها (Aggressive love Gods) حب الـرب العدواني أو (إلهة الحب العدوانية) كما ينقل التلفزيون الألمـاني عبـر أحـد تقاريره الذي أعده الصحفيان (جون جتس) و (فلكرشتاينهوف) حول الحـرب المقدسة في العراق وخصص لنقد الحملة الصليبية على الإسلام في العـراق ـحسب تعبير القناةـ.

ويعود (الرئيس الأمريكي جورج بوش) لينظر إلى الحرب من وجهة نظر دينية حينما يقول: "الحرية ليست هدية أمريكا للعالم أنها هدية الله"، فهو وعـن طريق الحرب والدمار "ينشر هبة الله للعالم وهو المكلف بهذا من قبل الرب".

ولكن ماذا عن طائفة الجنوب المعمدانية التي يشكرها الرئيس الأمريكـي بوش ويمجد عملها؟.. الحقيقة إن تلك الطائفة هي جـزء كبيـر ومهـم مـن الداعمين الأساسيين للحزب الجمهوري وبالذات جناحه اليميني المتشدد وكانوا

يتبوءون أعلى المراكز المهمة في الكثير من الـدوائر الحكوميـة ويعتبـرون الحرب على العراق حرباً مقدسة على الإسلام -حسب ما جـاء فـي تقريـر التلفزيون الألماني- ومن هؤلاء على سبيل المثال الجنرال وليام بوكين الـذي يعتبر أحد الأشخاص الذين تولع بهم طائفة الجنوب المعمدانية وهو من القـادة العاملين في البنتاغون ومن المكلفين بمطـاردة أسـامة بـن لادن -حـسب التلفزيون الألماني- فهو يقول بتشنج ومرتديا ملابسه العـسكرية فـي أحـد الاجتماعات الخاصة بالطائفة: "العدو ليس أسامة بن لادن العدو هو الديانة... إلهي أكبر من إلههم... إلهي إله حقيقي وإلههم مزيف".

وكان إيريك برنس مؤسس شركات بلاك ووتر أحد جنود هذه المعمدانيـة التي يفخر أتباعها بأنهم يخوضون حرباً مقدسة ضد المسلمين في العالم ولابد أن يهزموا العراقيين ويجب أن يتحول كل العراقيين إلى المسيحية بـل وكـل سكان الشرق الأوسط... إنها حرب دينية حسب زعمهم هم وننقل عـن تـوم وايت رئيس مؤسسة صوت الشهداء: "نحن المسيحيين لابد أن نواصل الحرب المقدسة والشهداء هم الذين يسقطون في الحروب في أنحاء العالم مـن أجـل قضيتهم الدينية".

الشركات الأمنية الخاصة
والمهام "الإنجيلية التبشيرية"

ناصر الفهداوي[1]

تَدّعي الشركات الأمنية أن واجبها مع الجيوش هو تقديم الخدمات والاستشارات الأمنية وتدريب الحراس الأمنيين، ولا يتعدى واجبها إلى الواجبات القتالية ومواجهة المقاتلين عسكرياً، ولكن مقتل الآلاف وجرح عشرات الآلاف من جنود الشركات الأمنية يظهر المشاركة الحقيقية كجيوش قتالية مع جيوش الاحتلال.

وتَدّعي الولايات المتحدة الأمريكية وهي تنشئ الائتلافات والتحالفات؛ بأنها تريد أن تقدم الديمقراطية وإصلاحاتها المخملية (الشفافة) وأنها "حريصة الحرص كله" على تقديم النظام الجديد الذي يتجلى به الرب المزعوم عند جورج دبليو بوش، ومن قبله الكثير من رؤساء أمريكا، وهو المشاهد المعروف، بما لم تستح الإدارة الأمريكية من التصريح به، والبوح به وإعلانه

---

[1] باحث وإعلامي عراقي.

على واجهات ماكينتها الإعلامية، وهذا ما صرح به بوش الابن بأنه مرسل من الرب لأداء مهمة، وأن الرب يكلمه ويأتيه في مناماته ويكلمه فيها، وهو من أُثِر عنه أنه قال: "إننا سنشنها حرباً صليبية" وكررها، وحاولت أجهزة الإعلام التستر على مثل هكذا تصريحات لأنها تستثير المسلمين، وتكون عامل جمع لصفوفهم وتوحيد لكلمتهم، وحاولت تبرير هذا التطرف العدواني العنصري على الأمة الإسلامية بأنه (زلة لسان)، وكان الرد بأنه لا يمكن لزلة لسان أن تتكرر أكثر من ثلاث مرات - ولكن يبدو حتى أن هذا التهديد والوعيد بالحرب الصليبية لم يستفز المسلمين ليجمعوا كلمتهم وتتوحد مواقفهم لتدفع الأيادي التي تذبح المسلمين وشعوب المنطقة بأسرها-، وهو الذي صرح بأنه مرسل من الرب "لتصحيح خطأ الرب بتوزيع الثروات على الأرض بأن جعلها عند من لا يستحقونها"، وقال مراراً وتكراراً بأن الرب طلب منه قتال هؤلاء المتطرفين الإرهابيين الأصوليين "الإسلاميين".

وشن حروباً على دول المنطقة لتحقيق نبوءاته وأوهامه، ورفع شعارات مكذوبة ادّعى فيها تقديم الأنظمة الديمقراطية وتوفير العيش الرغيد للمنطقة، وإذا كانت أمريكا تريد أن تقدم الديمقراطية وإصلاحاتها الإنسانية وتخليص العالم من الدكتاتورية وأنظمتها، وتريد للعالم أن يعيش بحرية وتريد منه أن يخضع لنظامها العالمي الجديد.. فهل يحتاج ذلك إلى كل هذه الدول والجيوش والأحلاف وعصابات القتل المأجورة التي جمعت من كل مواخير العالم ودور الدعارة والنوادي الليلية وعصابات المافيا ومهربي المخدرات؟ وهل تحتاج الديمقراطية إلى كل هؤلاء الإجراميين المتوحشين المرتزقة من تحالف الجيوش الذين جاؤوا مع أمريكا لاحتلال العراق؟ وهل من جاء مع أمريكا من أذنابها وأجرائها الأدعياء، هم من يقدم صورة الديمقراطية؟!.

وهل تحتاج الديمقراطية لكل هذه الأعداد من الجيوش والترسانات التسلحية والعصابات المافيوية وكل هؤلاء القتلة المأجورين من عصابات المرتزقة الذين جمعتهم أمريكا من كل الزوايا المظلمة في العالم ممن سمتهم أمريكا في حربها الإنجيلية المتطرفة بأنهم (فرسان الصليب أو فرسان المعبد أو فرسان مالطا أو الأوسبيتاليين) وغيرها من الأسماء العنصرية العدوانية من جيوش الإرهاب.

بينما تصف المدونة الداخلية للمواقع (الإلكترونية) لأكثر الشركات، بأن إحدى مهام الشركات تتمثل في دعم السياسة الأمنية الوطنية والدولية التي تحمي المواطنين العزل، وتوفر بإخلاص صوتاً للجميع!.

وهذا يوضح الدوافع الدينية العقدية التي تبين اندفاعة الشركات الأمنية بزخم ملفت للنظر وهي تتشكل بصورتها هذه، وتعطي طابعاً تبشيرياً وتوفر الغطاء الأمني للتبشيريين مع شركات المرتزقة والجيش الأمريكي، وكذلك ترافق كالظل جميع الحركات التبشيرية في العالم، وهذا يبين المهام التبشيرية التي تقوم بها جيوش الاحتلال ويحدد مهامها بأنها حرب دينية بغطاء استهداف مقدرات ومصالح الشعوب.

وترتبط بعمق العلاقات بين رؤساء الشركات الأمنية والضباط الذين يتم اختيارهم من الإدارة الأمريكية وتحديداً إدارة بوش والإدارة القديمة لـ "رونالد ريغان" وكلاهما يعرف عنهما انتماؤهما إلى الجماعة الإنجيلية المتشددة مع غالب الرؤساء الأمريكيين، وهو يوضح طابع التدين "الإنجيلي المتصهين" الذي غلب على التصريحات الإعلامية في خضم التصريحات التي سبقت الحرب، والتي وضحت الأهداف والغايات من الحرب الأمريكية والأحلاف التي عقدت من أجلها.

وتوضح علاقات الشراكة بين مالك شـركة (XE) زي (بـلاك ووتـر)، وقادتها الميدانيين بأن هذه الشركة وباقي الـشركات الأمنيـة هـم الحلفـاء الرئيسيون مع جيش الاحتلال الأمريكي، وتقوم بأدوار تفوق بقدر كبير مهـام جيوش الاحتلال البارزة على الميدان، بينما تعمل هذه الجيوش بأدوار متعددة بالخفاء.. ولنأتي إلى مالك شركة "بلاك ووتر" المليونير (إيرك برنس) حيـث سبق وأن خدم في سلاح البحرية الأمريكية وهو يمينـي مـسيحي أصـولي متطرف، يعد من أكبر الـداعمين للحمـلات الدعائيـة الانتخابيـة والمنافـذ الإعلامية جميعها، ومن أنشط الأعضاء في مجلس إدارة مؤسـسة "الحريـة العالمية للمسيحيين" وهي مؤسسة غير ربحية، وكذلك رئيس الشركة (غـاري جاكسون) الذي كان يعمل سابقاً في القوات الخاصة التابعة للقـوات البحريـة الأمريكية.

والشركة عبر موقعها الإلكتروني يصفها رئيسها: بأنهـا تـسعى لتقـديم المساعدة للمسيحيين المضطهدين بسبب إيمانهم بالمسيح، وأنها مؤسسة إنسانية لا طائفية توفر المساعدات والدفاع وكتب الإنجيل للمسيحيين المضطهدين في مناطق النزاع أو الاضطهاد الحاد في العالم.

وأما أعضاء مجلس إدارة الشركة وهم كل من (جوزيف إشمتز) المفـتش العام السابق لوزارة الدفاع أيام حكومة "ريغان"، و(جي كوفر بـلاك) نائـب رئيس مجلس إدارة الشركة ويشغل منصب (المنسق السابق في مكتب مكافحة الإرهاب في الخارجية الأمريكية لـدى كـولن باول)، ويضاف لهم عـدد من كبار مسؤولي البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية السابقين ويـشغلون مناصب عليا في الشركة، منهم نائب رئيس الشركة (كوفر بلاك) الذي كـان من كبار المسؤولين في إدارة مكافحة الإرهاب بإدارة بـوش خـلال أحـداث

(٩/١١) صاحب المقولة الشهيرة "كنا هناك قبل ٩/١١، وبعد ٩/١١، وسنخلع القفازات"، و(نخلع القفازات) كناية عن الاستخدام المفرط للسلاح والإبادة.

وقد تم إظهار الأهداف والغايات التي أنشئت من أجلها الشركات الأمنية التي تدار جميعها من قبل الاحتلال الأمريكي، والشركات التي أخذت موقع الصدارة في قيادة الشركات الأمنية، ظهرت أهدافها كجيوش مرتزقة قاتلة وبدمٍ بارد وتقاتل في الميدان، تتقدم جيوش الاحتلال وتهيئ لها الغطاء الأمني والمعلوماتي الذي تحتاجه، وهي لا تختلف عن منهجية الجيش في الظاهر من أنها الذراع الساحق للشعوب الذي يعمل بخفاء مع الجيش، وفي نظمها تعلن بأنها تسعى "لتقديم المساعدة للمسيحيين المضطهدين بسبب إيمانهم بالمسيح" وهذا يكشف الأهداف الدينية لحروبهم على العالم الإسلامي، وترافق جهود الحركات التبشيرية وتقدم المساعدة بعد اكتمال مهام التبشيريين الذين يعملون على نشر أفكارهم، وتقديم تقاريرهم حول اكتمال مهامهم في الكثير من مقاطعات الدول الإسلامية، بأن هؤلاء الذين آمنوا حديثاً بالمسيح سيتعرضون للاضطهاد بسبب قبولهم بالأموال التي دفعها لهم قساوسة الحركات التبشيرية، وهم يستغلون فقرهم وعوزهم، وبالتالي فإنهم يطلبون القوات العسكرية للتدخل المباشر لحماية الحملات الصليبية التبشيرية، وتقول في نظمها وتنظيرها "أنها مؤسسة إنسانية لا طائفية توفر المساعدات والدفاع وكتب الإنجيل للمسيحيين المضطهدين في مناطق النزاع أو الاضطهاد الحاد في العالم" وهذا يوضح كذب الإدّعاء بأنها غير طائفية، وهي تقول بأنها (مؤسسة لا طائفية) فكيف تكون لا طائفية ولا توزع إلا الأناجيل ولا تدافع إلا عن المسيحيين المضطهدين في مناطق النزاع الحاد في العالم، وهذا يبين العنصرية الفاضحة للإدارة الأمريكية.

وتعتمد عليها الإدارة الأمريكية في القيام بعمليات التفاوض السري مع الكثير من الأطراف الدولية التي تتآمر على أنظمتها وتلوح بانخراطها في ركب المشروع الأمريكي "الإصلاحي الديمقراطي" وتعمل على إدارته المباشرة كممثل عن الطرف الأمريكي، وتقوم بتقديم وتوفير كل الاحتياجات (من الأسلحة والأموال وغيرها) التي تطلبها الأطراف الخاضعة للسياسة الأمريكية، لقاء تقديم كافة التسهيلات للجيش الأمريكي إذا تدخل تدخلاً مباشراً لاختيار الأشخاص المناسبين الذين يخضعون لسياساته ومشاريعه وإرادته، وهذا ما حصل تماماً في العراق وأفغانستان وبنما وباكستان ودول كثيرة، وهذا يكشف الوجه العنصري الخبيث لأمريكا.

الشركة عبارة عن تآلف جيوش متعددة من ذوي الخبرات القتالية والمعلومات الأمنية المتراكمة ومن أنحاء العالم كافة، ومن أبرزهم القوات الخاصة "الكوماندوز" ومن دول متعددة، وعلى الرغم من ذلك فإن مالك شركة "بلاك ووتر" يصف شركته محدداً ولاءها؛ بأنها امتداد وطني للجيش الأمريكي، ولذلك وسعت الإدارة الأمريكية اعتمادها واستخدامها لعناصر الشركة وقواتها المرتزقة في الكثير من فعاليات الحكومة الأمريكية، ومنها المشاركة الفعلية القتالية مع الجيش الأمريكي، وتقديم المعلومات الأمنية التي تحتاجها جيوش الاحتلال، وتوفير الحماية لأعضاء الإدارة الأمريكية في العراق ابتداءً من "جي غارنر" الحاكم العسكري للعراق، ومروراً بـ "بول بريمر" ونغروبونتي، وزلماي خليل زادة، وقد كشف تصريح زادة السفير الأمريكي السابق في العراق، عقب سقوط طائرة تابعة لشركة "بلاك ووتر" في مجمع عمارات شارع حيفا وقتل من فيها، ووصفهم بأنهم رجال أكفاء وسبق وأن عملوا معه، وهذا التصريح يكشف عن مهام الشركة التي كانت

تقتل المدنيين في تلك المنطقة، أو لحماية شخصية من شخصيات إدارة الاحتلال.

وكشفت الأعوام السابقة من الاحتلال عن جملة من النشاطات الواسعة التي تقوم بها الشركة، ومدى الاعتماد الكبير من قبل الإدارة الأمريكية على الشركات الأمنية الخاصة ومنها هذه الشركة، وبرز لها دور واضح في إدارة العمليات ونشاطات واسعة في العراق وأفغانستان، وتعمل بشكل خفي في السودان مع قوات حفظ السلام في (دارفور) ودفعت الشركة وبإصرار باتجاه المشاركة في قوات حفظ السلام في دارفور، على الرغم من المعارضة الشديدة في الأمم المتحدة من استخدام قوة خارجية في قوات حفظ السلام، لكنها شاركت فعلاً مع قوات حفظ السلام في دارفور، وإن خفي هذا..فإن جهة ما لا يمكن أن تنكر دور شركة "زي" بلاك ووتر وبقية شركات الأمن الخاصة في تقديم خدماتها المتعددة وفي المجالات كلها (العسكري والمادي المالي والمعنوي، والاستخباراتي المعلوماتي، وكل أنواع الدعم اللوجستي)، واعتمدوا بذلك على الجنس الأفريقي الذي لا يمكن أن يميز من بين قوات حفظ السلام، وقد بعثوا جنودهم الأفارقة حول دارفور في "الكونغو وليبيريا"، وقاموا بحماية قوافل الشاحنات للمواد الغذائية والمخازن والتي تحمل بين الغذاء شحنات الأسلحة لأطراف النزاع المتعاونين مع البرنامج الأمريكي، كما وفروا الحماية للشخصيات.

وذكرت مصادر بأن هناك مفاوضات مباشرة للشركة أجرتها في حينها مع (الجيش الشعبي للتحرير) تم الاتفاق بموجبها على مشاركة خفية داخل الجيش لغرض تدريب "المسيحيين" في جنوب السودان عسكرياً، وتم الكشف عن علاقة مالك الشركة بمؤسسة "الحرية العالمية للمسيحيين" التي استهدفت السودان لسنوات طويلة.

وكشف التحقيق الذي أجرته المحكمة الفيدرالية في ولاية "فرجينيا" في شهر آب/ من العام ٢٠٠٩م ، مع اثنين من مرتزقة "بلاك ووتر" عن تورط صاحب الشركة "إريك برنس" في عمليات إبادة الشعب العراقي وتسهيل عمليات القتل والإبادة، وقالا: بأن هذه الحملات من القتل تأتي على خلفية صاحب الشركة الدينية المتطرفة الذي هو من أتباع المسيحية المتصهينة ويعد نفسه "مسيحياً صليبياً مهمته القضاء على المسلمين وعلى الدين الإسلامي ومحوه من الأرض".

وتقوم وزارة العدل الأمريكية بلعب دور تزويق القانون الأمريكي، وكأنه حاضر مع الجرائم الأمريكية كلها، وهي تحاكم هذين المجرمين من بين مئات الآلاف من قتلتها المأجورين، ومن المشاهد التي نجدها مثيرة للسخرية أن الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تصر على التعامل مع شركة "بلاك ووتر" على الرغم من جرائمها المفضوحة، وهي التي ادعت كثيراً بأنها تحاول الحد من الجرائم التي ترتكبها هذه الشركات، وكذبت على الرأي العام العالمي بأنها لن تمنح شركة بلاك ووتر عقوداً أمنية في العراق، والغريب أن أمريكا التي أوعزت لوزارة "عدلها" أن تحاكم هذين المجرمين من شركة بلاك ووتر، نجد أن وزيرة خارجيتها "هيلاري كلنتون" استعانت بحماية الحراس الأمنيين من الشركة نفسها عندما زارت العراق، وكذلك باقي الشخصيات من الإدارة الأمريكية، وفي العام الذي تنكشف فيه خفايا الإبادة التي ترتكبها الشركة يتم تجديد عقد شركة "XE" (زي) بلاك ووتر، وتمديد فترة بقائها في العراق.

ويعود الطابع الديني المتعصب، والأيديولوجية اليمينية المتطرفة التي تتصف بها الشركة؛ إلى تأريخ مالكها "إيرك برنس" وهو المعروف عنه التصاقه الشديد بتيار اليمين المسيحي الصهيوني، وكذلك التوجه المعروف عن

عائلته، فوالده أحد الممولين الكبار للتيار المسيحي المتطرف، ويعرف عنه المقربون له بأنه أحد مقاتلي "الحرب الصليبية الجديدة" ولا تخفى علاقة هذه العائلة مع متشددي إدارة بوش السابقة.

وإذا كان الإعلام وخصوصاً ماكينة الإعلام الأمريكي، يركز على التوجهات العنصرية المتطرفة لدى شركة بلاك ووتر، وكأنها الشركة الأمنية الوحيدة التي تسلك السلوك العنصري وتتهم بحملات الإبادة ضد الشعب العراقي، لكن حقيقة الأمر تظهر السلوك العدواني المبني على الخلفيات العنصرية والحقد الديني المتعصب الذي يلغي المقابل ويصادر معتقده ورأيه ووجوده، وهذا الطابع يطبع جميع شركات الأمن الخاصة مع طابع الإجرام المافيوي لجميع القاتلين المأجورين في الشركات الأمنية.

ومن الأدوار المشبوهة التي اكتشفها الشعب العراقي ولمسها بنفسه.. حوادث إلقاء القبض على عصابات بسيارات مدنية وهم يجوبون المدن العراقية لافتعال الأزمات وخلق الفتن بين أبناء البلد، لتمزيقه وتشتيت وحدة شعبه وتجزئة أرضه وتشويه صورة المقاومة العراقية بعمليات إجرامية ومحاولة نسبتها إلى فصائل المقاومة عن طريق إعلامهم المأجور، وبالتالي يضربون مكونات المجتمع العراقي بعضها بالبعض الآخر من خلال تأجيج الفتن الطائفية وإثارة النعرات القومية عن طريق الاغتيالات واستهداف المراقد الدينية وغيرها من الأفعال، وبالتالي يتمكنون من إشغال العراقيين بأنفسهم عن طريق الاقتتال فيما بينهم، وهذا ديدن الاحتلال والحركات التبشيرية.. ومن هذه الأفعال ما حدث في جنوب بغداد في العام ٢٠٠٤م، وهي حادثة معروفة عندما شاهد أبناء إحدى المناطق سيارتين من نوع (هيونداي تريكان) حديثة، تجوب المنطقة ولعدة أيام؛ الأمر الذي دعا أبناء المنطقة إلى الحذر منها ونصبوا لها الكمائن ولم يتم التعرض لها حتى رأوها

تستهدف مرقداً في تلك المنطقة لتفخيخه ويحمل راكبوها أسلحة متطورة، وعندها هاجم أبناء تلك المنطقة إحدى سيارتي هذه العصابة وقتلوا اثنين وأسروا اثنين منها، وفرت السيارة الأخرى إلى جهة مجهولة؛ اكتشفوا عند تفحص الأوراق التي بحوزتهما أنهما من مرتزقة شركات الأمن الخاصة ومن الجنسية البلغارية تحديداً، ووجدوا في السيارة مخططات وخرائط لمناطق مختلفة من العراق وبرفقتهم قائمة أهداف تتضمن مراقد وأسماء ضباط عسكريين وشيوخ عشائر وأئمة مساجد وأسماء وعناوين أخرى، وتم تسليم هذه العصابة إلى مركز شرطة العامرية، وبعد أيام من الحادثة أخبر ضابط المركز أهالي المنطقة الذين تابعوا الموضوع لمعرفة تفاصيل الموضوع بأن قوة أمريكية جاءت إلى المركز وأخلت سبيلهم من دون أن يسمحوا لضباط المركز بقول كلمة واحدة.

وهناك فرق من شركات الأمن الخاصة جابت أراضي محافظة الأنبار وفعلت ما فعلت بهذه المحافظة، من قتل شيوخ العشائر وقتل علماء الدين والكفاءات والضباط العراقيين، وكان منها ما كشفه أبناء مدينة الفلوجة عندما تصدى أهلها لبعض سيارات الدفع الرباعي التي كانت مجهزة ومسلحة لتنفيذ واجبات خاصة ومشبوهة في محافظة الأنبار، وعندها كشف الحادث أن المهاجمين في سيارات الدفع الرباعي كانوا من مرتزقة شركة بلاك ووتر زي".

وفي يوم الثلاثاء ١١/ ١٠/٢٠٠٥م، فوجئ جنديان أمريكيان يرتديان الزي العربي بالشرطة الحكومية التي أنشأها الاحتلال بنفسه، وكانا يحاولان تفجير سيارة مفخخة بالمتفجرات في منطقة الغزالية التي تقع غرب بغداد، وبينما كانت قوات الشرطة تقودهما إلى أحد مراكز الاعتقال لاستجوابهما، ظهرت قوة عسكرية أمريكية وقامت بإنقاذ السجينين وفرت سريعاً من

المنطقة، وعندما حاولت أجهزة الإعلام العربية والعالمية تناول هـذا الحـدث الذي كشف الكثير من خفايا الأمور وأجاب على آلاف الأسئلة التي تدور فـي أذهان الشعب العراقي وشعوب العالم كلها، ومنها معرفة الجاني الحقيقي الذي يقتل الشعب العراقي بالمفخخات والعبوات الناسفة التي تـزرع فـي طـرق مدارس الأطفال وتجمعاتهم وفي الأسواق ومن الذي يقـوم بقتـل العـراقيين الأبرياء؛ جوبهت بالإرادة الأمريكية التي تريد التعتيم على مثل هكـذا أخبـار وأحداث، حتى لا يتعرف العالم على حقيقة الإجرام المنظم الذي يتعرض لـه الشعب العراقي، وفي اليوم التالي سكتت أجهزة الإعلام كلها ولم تتطرق إلـى خبر العصابات الدموية الإجرامية التي تقتل الشعب العراقـي، وهـذا ديـدن الإعلام دائماً في القضية العراقية عندما تأمره أمريكا أن يسكت فإنه يستجيب مباشرة طائعاً ومن دون أدنى تأخير، وعلى الرغم من أن الإعلام اكتشف أن المستهدف الرئيس من وراء تلك العملية كان قتل أشـخاص مـدنيين بـشكل عشوائي من أجل زيادة التوترات بين مكونـات العـراق، ومحاولـة إربـاك عمليات المقاومة العراقية.

وفي ٢٠٠٥/٩/١٩م، ضبطت الشرطة الحكومية في محافظـة البـصرة التي تبعد (٤٥٠) كيلو متراً جنوب بغداد، جنديين بريطـانيين متخفيـين فـي ملابس عربية ويحملان أسلحة أوتوماتيكية رشاشة ومتفجرات فـي سـيارة، وهذا الحادث برز إلى الواجهة الإعلامية بشكل ملفت للنظر، حيث أن تفاصيل الحدث صارت باعثة على الغرابة ومثيرة للتساؤلات، حيـث عملـت قيـادة القوات البريطانية المتمركزة في دولة عربية على الضغط على العراقيين مـن أجل إخلاء سبيل عصابات القتلة الإرهـابيين، ولمـا شـعرت أن مبادرتهـا السريعة تلك لم يتم التفاعل معها وفق الشكل المطلوب، بادرت فرقة عسكرية بريطانية بمهاجمة السجن باستخدام دبابات ومروحيات، ما أسفر عن تـدميره

كما قتلت العديد من الشرطة الحكومية وأطلقت سراح السجينين المجرمين، ومضى الأمر وكأن شيئاً لم يكن، وتم إغفال هذا الحادث الجلل وجميع تداعياته من دون متابعات وتأجيج من أجهزة الإعلام وبلا مساءلة قانونية أو متابعة قضائية، وكشف هذا الحادث أيضاً الخطورة الكبيرة التي ترتكبها عصابات التدمير والقتل الأمنية الخاصة في محاولة بث سمومها بين ثنايا المجتمع العراقي لتأجيج الفتن الطائفية والتناحر القومي لتمزيق لحمة البلد وتفريق صفه ليصفو لهم الحال للعبث بأمن العراق وسلب هويته من خلال التناحر الذي ينشأ على هامش تلك الأحداث الإجرامية، التي تحاول عصابات شركات المرتزقة نسبتها إلى المجتمعات الإسلامية - وبمرور الوقت تم اكتشاف أن الجنديين اللذين كانا يرتديان زيّاً عربياً كانا تابعين لقوات الخدمة الجوية الخاصة، تلك القوة البريطانية المدربة على "اجتياز خطوط العدو أرضاً وبحراً وجواً في أجواء عدائية".

أما عن الخدمات الإنسانية التي تدّعيها الشركات الأمنية فهي عبارة عن جهود خاصة تقدم في المناطق الأمريكية المنكوبة أو مناطق النفوذ الأمريكي التي تحدث فيها فوضى أمنية تعجز الإدارة الأمريكية عن كبحها لأنها غارقة في الانهيارات الاقتصادية والعسكرية والإعلامية وغيرها، وقد استخدمت أمريكا عناصر بلاك ووتر في مدينة "نيو أورليانز" من أجل السيطرة على الوضع الأمني في المدينة والولاية بعد الإعصار الذي ضربها.

وبلاك ووتر ليست الشركة الوحيدة العاملة في العراق، فهناك أكثر من(٣١٠) شركة أمنية أجنبية تعمل في العراق، وجميعها منظمة في اتحاد واحد تحت اسم "اتحاد الشركات الأمنية في العراق".

ومكّن قرار القيادة العسكرية من زيادة مستوى الوحدات بشكل كبير مع المتعاقدين الذين (أصبحت أدوارهم القتالية الآن موازية لتلك القوات التي

يسمح بها الدستور والكونغرس الأمريكي) حسبما كتب "هربرت فنستر" من مؤسسة "ماكينا لونغ والدريدج" القانونية، التي مركزها في واشنطن، وأثير تساؤل عن شرعية إشراك المتعاقدين في العمليات الحربية حتى في الداخل الأمريكي، ولكن لم تضع لا وزارة الدفاع ولا وزارة الخارجية دليلاً لاستخدام عشرات الآلاف من البنادق في ساحات القتال كعدة وتجهيزات لجيوش متكاملة، وأدى غياب الإشراف المباشر من قبل الوزارتين إلى زيادة الأعباء على الموظفين العاملين في الشركات المتعاقدة التي كانت تقوم بتحقيقاتها الخاصة حينما تقع حوادث إطلاق نار، وتعمل عشرات الشركات الأمنية تحت أطر من التعاقدات الثانوية التي تجعل الإشراف على أنشطتها وتعقبها أمراً مستحيلاً، فهم غير مسؤولين أمام أي طرف عن الحوادث العنيفة حسبما قال مسؤولون أمريكيون وممثلون عن الشركات على اطلاع بالترتيبات الخاصة بالتعاقدات، وغالباً ما يتوجه المسؤولون الأمريكيون إلى "اتحاد الشركات الأمنية الخاصة للعراق" وهي منظمة تجارية تمولها الشركات الأمنية، وذلك لبقاء استقلالية الشركات الأمنية من المتابعة والمراقبة واستقلاليتها المالية، والغاية من كل ذلك المحافظة على استقلالية التخطيط والتحرك والانطلاق لأداء الهجمات التي تقررها من خلال قيادة كل شركة أمنية على حدة.

ويعمل "لورنس بيتر" ضابط الاستخبارات المتقاعد كمدير للاتحاد، فيما هو يعمل كمستشار لمكتب دعم إعادة الإعمار للدفاع وهذا العنوان عبارة عن واجهة تخفي الأدوار الحقيقية لكل شخصية في المخططات الضخمة لمشروع الاحتلال الأمريكي، وهذا المكتب تابع لوزارة الدفاع ويقوم بإدارة العقود في العراق وأفغانستان، وقال "برايان ويتمان" المتحدث باسم وزارة الدفاع: إن بيتر (يكسب بضعة آلاف فقط من الدولارات في السنة كمستشار).

ويعمل اتحاد شركات الأمن الخاصة في مقر كبير يتألف من مجموعة مكاتب موجودة في دائرة فيلق "لوجستيكيات المهندسين" تقع داخل المنطقة الخضراء، وقال "جاك هولي" كولونيل المارينز المتقاعد الذي يرأس هذه الدائرة إن (بيتر والاتحاد يلعبان دوراً حاسماً ضمن مؤسسات الأمن الخاصة لتحسين أدائها، وهما يحاولان ملء فراغ نجم عن فشل الحكومة الأمريكية في تشخيص المشكلة).

وبالتالي نجد أن الحشود التي تعمل أمريكا على جمعها في المنطقة لم تكن من أجل الديمقراطية ولا رحمة بدول وشعوب المنطقة، وإنما من أجل مشروع كبير لترويض المنطقة وإخضاعها لسياستها ومشاريعها وهي تمارس دور القطبية الأحادية والتسيد على العالم بما تسميه أمريكا "مشروع الشرق الأوسط الكبير"، مستغلة انهيار المعسكر الاشتراكي الشيوعي الذي تمثل بالاتحاد السوفيتي أبان الحرب الباردة، وكأنها _ عندما أعلنت حربها على دول العالم _ تريد أن تبعث برسائل لجميع القوى المتسيدة على العالم المتمثلة بدول مجلس الأمن الدائمة العضوية في الأمم المتحدة؛ لتعلن انتصار المعسكر الرأسمالي، وكأن الذي يجري كله برضى هذه الدول وموافقتها على السياسة الأمريكية وهي تريد بعد ذلك تقاسم النفوذ والمصالح على هذه الدول، وبدأت بالشعوب التي تظن أنها تخضع بسهولة للمشروع الأمريكي نتيجة ضعفها وإنهاكها بحروب جانبية، فإذا بها تتفاجأ بمقاومة ورفض هذه الشعوب والمجتمعات لمثل هذه الشعارات المكذوبة، وترفض الهيمنة الأمريكية التي تريد مصادرة هوية البلاد التي تقوم بغزوها، واصطدمت بالزلزال المالي الذي هز كيان السياسات الأمريكية والوجود الأمريكي في عقر داره، وبالتالي سقطت أكذوبة انتصار المعسكر الرأسمالي بإعلان إفلاس مئات الشركات الأمريكية الكبرى وتبعه أيضاً إعلان إفلاس مئات المصارف الأمريكية

الكبرى، وشهد العالم زعزعة كيان الإدارة الأمريكية وسقوط هيمنتها، وسقوط الهالة المكذوبة التي أحاطتها الماكينة الإعلامية الضخمة التي عملت على تسويق المشاريع الأمريكية والسياسات العنصرية والمشاريع الإرهابية التي عملت أمريكا على نشر الرعب بواسطتها على شعوب العالم كلها.

وقد وجدت أمريكا نفسها تلجأ مضطرة إلى جلب جيوش المرتزقة والاستعانة بهم لإنقاذها من الهزيمة، وهي تحاول أن تنقذ ماء وجهها من الهزيمة المرة في العراق، وجاءت بهؤلاء المرتزقة من فرسان الصليب من القتلة وسفاكي الدماء لسحق الشعوب المسلمة، كما يصرح بذلك كل مدراء الشركات الأمنية الخاصة، وهم يتفقون على هذه الإستراتيجية العنصرية التي تريد أن تصادر الأديان وتصادر حياة من يعتنقها.

وعملت وفق برنامج ومنهجية وسلوكيات تؤدي إلى تمزيق وحدة الدول ووحدة نسيجها وأطيافها بأحداث خفية ونسبتها إلى السلوكية المجتمعية الإسلامية، ويراد من ورائها إضعاف المجتمعات الإسلامية، وصناعة المسوغات الوهمية للتدخل العسكري المباشر لإبادة الشعوب واحتلال الدول، وهذا ما نتج تماماً عن التحركات الخفية لشركات الارتزاق على أرواح الشعوب ورقابهم، والتهمة دائماً هي محاربة الإرهاب.

وتعمل شركات الأمن على التخطيط لمجموعة أحداث ومن ثم تتحرك بعدها على إشاعة وترويج أن مرتكبيها هم مسلحون خرجوا من المدن، وتتوجه بأسلحتها الفتاكة تجاه تلك المدن لسحقها وتحقق أهدافها التي تتبناها وفق مدوناتها التي تنشرها على مواقعها الإلكترونية.. وهذا كله يكشف الأهداف التي جاءت من أجلها شركات المرتزقة وهي تضم في صفوفها جحافل القساوسة ومتعصبي الكنائس المتصهينين وفرسان المعبد لسحق الشعوب وتدمير البلاد.

حينما تتجنى القيادة المركزية على الأقلام الحرة

حسين الرشيد[1]

قرأت سطوراً للسيد (غازي الأسدي) يزعم فيها أنه يرد فيها على مقالتي التي كتبتها قبل فترة وجيزة من الآن، وبلغت عشرين صفحة، ونشرتها في (مجلة حضارة العراقية الغراء) التي بدأ صيتها النبيل يذيع، رغم أنه لم ينقضِ من عمرها سوى عام واحد، وكانت بعنوان (جيش الاحتلال في العراق بين الفرار والانتحار)، ثم أعدتُ نشر مقالتي تلك في بعض الوسائل الإعلامية الأخرى؛ حتى تعمَّ فوائدها، وتُرتجى عوائدها.

وكان من بين من نشرها (وكالة يقين للأنباء) التي تعد رائدة في وصف الحالة العراقية، دون تزيين وتزييف، أو تبديل وتحريف؛ ليصلني بعد أيام من نشرها تعليقاً من سطور، ينتقد فيها السيد الأسدي ما جاء في مقالتي من حقائق، لم تعد خافية على عقلاء بني آدم.

والحقيقة أقول، أنني لم أشأ في بداية أمري الرد على السيد غازي الأسدي، المتحدث باسم القيادة المركزية لقوات الاحتلال الأمريكية؛ لأنني

---

[1] مدير تحرير مجلة حضارة.

منشغل ببعض الدراسات والأبحاث التي أقوم بها؛ لخدمة قضيتي العادلة، وشريعتي الغراء.

غير أنني آليت على نفسي إلا أن أتفرغ بعض الوقت حتى أوضّح بعض ما جاء في تعليق الأسدي من مغالطات، وما حوته السطور التي كتبها من تناقضات، تتّضح لمن يقرأ التعليق دون تعب أو معاناة.

ويبدو لي أن الذي أوقع السيد الأسدي بشباك الخطأ والزلل، هو شدة حرصه في الرد على الآخرين، ممن يقومون بفضح المخططات التي يرتكبها من يتحدث هو باسمهم من المحتلين الغاصبين، ممن يصفهم بـ (جنود التحرير)، الذين حرروا العراقيين من ظلم الدكتاتورية التي جثمت على صدورهم ما يزيد على عقدين ونصف من الزمن.

أقول: جاء في رد الأسدي عليَّ، أنني أصف خروج قوات الاحتلال من المدن بأنه نتيجة للهزيمة التي مُنيت بها تلك القوات الغازية، ويصحح لي بأنني أجافي الحقيقة وأتجاهل واقع الأمور!! وفات الأسدي أن يصف نفسه بالتجاهل والتناسي حين لا يعترف بأن الحقيقة الناصعة هي ما أشرت إليه، من أن ذلك الانسحاب (إن تم فعلاً) فإنه هزيمة، وجاء نتيجة الضربات الموجعة والمتتالية لفصائل المقاومة، التي ما فتأ السيد الأسدي يصفها في تعليقه بأنها (جماعات إرهابية خارجة على القانون)، الذي وضعه الاحتلال، الذي يتحدث هو باسم قيادته المركزية، في ظل وجوده اللاشرعي.

ثم ينتقل السيد الأسدي من شباك الخطأ والزلل؛ ليقع هذه المرة في شباك التناقض، فهو يخاطبني فيقول: ((إن مناقشتك المتعلقة بحالات الانتحار والفرار من الخدمة التي تدعي تفشيها بين الجنود الأمريكان وتستدل بها على أنها دليل للهزيمة هي خالية من الصحة وبعيدة عن الواقع لأنك أخفيت الكثير

من الحقائق فاسمح لي بالكشف عنها، رغم أنه من الحقيقي هنالك ارتفاع في معدل الانتحار بين جنود الجيش الأمريكي في السنوات الأخيرة)) انتهى بنصه

وأنا هنا أجعل القارئ الكريم هو الحكم، لأنني احترم القارئ وإرادته وفكره، ولا أفرض عليه فكرة مسبقة، كما يفعل الأسدي، وأدعو القارئ لأن يدقق في كلام الأسدي وتناقضاته، حين يصف إثباتي لحالة (الانتحار) التي تفشت في صفوف جيش الاحتلال الأمريكي والبريطاني على حد سواء بأنها ((خالية من الصحة وبعيدة عن الواقع))!! مع أنه بعد عشر كلمات فقط من هذا النص يقول: ((من الحقيقي هنالك ارتفاع في معدل الانتحار بين جنود الجيش الأمريكي في السنوات الأخيرة)).. فأيُّ تناقض هذا!!.

وإذا كان ثمة اعتراض من السيد الأسدي على هذه الحقيقة، فينبغي عليه توجيهه إلى بعض الفهماء الأمريكيين أنفسهم، ممن أدركوا خطورة الوضع الذي يمر به جنودهم الغزاة في العراق، فهذه الناشطة الأمريكية المناهضة للحرب في العراق (سندي شيهان)، التي قتل ابنها خلال الحرب الأمريكية على العراق تؤكد أن الخسائر التي خلفتها حربي العراق وأفغانستان ضخمة جداً، وأنها لا تقتصر على مقتل الجنود فحسب؛ بل خلَّفت تداعيات وآثاراً وخيمة على الجنود الأمريكيين لدرجة يقوم يومياً ثمانية جنود أمريكيين بالانتحار وسبب ذلك يعود إلى المشاكل والأمراض النفسية التي أصيبوا بها خلال هاتين الحربين.

وطالبت هذه الناشطة الواعية، العاقلة، النابهة، التي عرفت حقيقة ما يدور في العراق، في تقرير نشره تلفزيون "راشاتودي" بمحاكمة الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) ومعه كافة المسؤولين عن حربي العراق وأفغانستان؛ لارتكابهم جرائم حرب ضد الإنسانية، معتبرةً أن الحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان غير قانونية.. مؤكدةً بأن حربي العراق وأفغانستان أثّرتا

على المجتمع الأمريكي، وأن الأمريكيين لا يزالون يخوضون الحرب في العراق، في وقت تشهد فيه الأوضاع في أفغانستان تدهوراً كبيراً مما اضطر المسؤولين الأمريكيين إلى زيادة عديد القوات في هذا البلد، مشيرة إلى أن هناك أكثر من خمسة آلاف من القوات الأمريكية باتوا "ضحية" هاتين الحربين كما لقي (٣٠٠) جندي أمريكي حتفهم في أفغانستان خلال (٢٠٠٩م).

وهذه الحقيقة التي تفوهت بها هذه السيدة يقرُّ بها كثير من أمثالها من الأمريكيين والبريطانيين والأوربيين وغيرهم، فإذا كان هناك ثمة نقد يا سيد (أسدي) فينبغي توجيهه لأمثال هؤلاء الفهماء الحكماء!!

ثم يتناقض الأسدي أكثر حينما يرد عليَّ في إثباتي لتفشي حالة (الفرار) فيقول ما نصه: ((وكذلك الأمر المتعلق بالفرار من الخدمة العسكرية فإنه رغم ارتفاعه قبل سنوات حيث وصل إلى أعلى حد قبل سنتين بمعدل قدره ٩ حالات من بين كل ١٠٠٠ جندي))!! إنَّ السيد الأسدي الذي يصفني بإخفاء الحقائق عن القراء الكرام؛ لا أتلمّس في تعليقه هذا إلا مزيداً من محاولة إخفاء المعلومات عن القارئ، مع عدم تمكّنه من ذلك؛ لأن الحق أبلج، ولابد أن يظهر ولو كره الأسدي، ومن ركب معه في مركب الاحتلال.

وإنني لأعجب كثيراً أن يقع الأسدي في تناقض أعمّ وأشمل مما تقدم، مع أن تعليقه لا يتجاوز الصفحة الواحدة، حيث يقول أيضاً: ((إنَّ أية شخص يفهم مادة ولو بعقلية الأطفال سيرى ويستنتج بأن تلك الأرقام لن تؤثر كثيراً على تنفيذ الجيش لمهامه ولكن يبدو بأن الحقيقة ليست لها أهمية في مقالتك))!!.

ولي مع هذا النص الركيك (الذي تآكلَ بسبب ركاكته، وكثرة الأخطاء اللغوية التي فيه) وقفات مهمة، أولها: استهانة الأسدي بعقلية القراء، واستخفافه بمداركهم ووعيهم، وتجاوزه كثيراً عندما أراد أن يفرض فكره عليهم، وهو ما ساقه إلى أن يصف عقل من يخالفه بـــ(عقلية الطفل)!!

وثانيها: اعترافه وإقراره مرة أخرى بانتشار حالتي الفرار والانتحار، مع ادعائه بأن الأرقام المعلن عنها في هاتين الجزئيتين لا تؤثر كثيراً على تنفيذ الجيش لمهامه!!.

وثالثها: إنني أوجه سؤالي هنا للسيد الأسدي فأقول: ما هي المهام التي جاء هذا الجيش الجرار، وعبر القارات والبحار، حتى يقوم بتنفيذها على أرض الرافدين!؟ هل لك أن تضع القارئ أمام الحقيقة باعتبارك صاحب الحقائق الناصعة، والتي تتهمني وتزعم أن ((الحقيقة ليست لها أهمية في مقالتي))!! أرجو منك أن تضعنا أمام الحقائق يا سيد أسدي.

على إنني أذكرك بأنه حتى السياسيين المشاركين في الحكومة الحالية في العراق، يجهلون حقيقة المهام التي جاء الاحتلال من أجل تنفيذها في العراق، ولطالما سمعنا مطالبات بعضهم لأركان الإدارة الأمريكية وسادة البيت الأبيض بأن يُطلعوهم على ماهية تلك المهمة ومضمونها، والتي طالما ربطوا خروجهم من العراق بتحقيق وتنفيذ تلك المهمة التي جاؤوا من أجلها.

ولما لم يجد السيد الأسدي ما يرد به على مقالتي رغم طولها، بدأ يذهب بعيداً، دفعاً للحرج الذي وقع فيه، وراح يغرد خارج السرب، ليحدثني عن موضوع ما يسمى (الاتفاقية الأمنية بين الحكومة والاحتلال) وهو موضوع أكل عليه الدهر وشرب، وطبخ فيما مضى من سالف الأيام حتى احترق، فهو يقول: ((ومن الخطوات المستقبلية للقوات الأمريكية في العراق والتي حددتها تلك الاتفاقية هي الخروج من العراق مع حلول نهاية عام ٢٠١١م)). ويقول: ((إن هذه الخطوة ليست بسر خفي، بل أعلن عنه لتراه أنت وبقية العالم كجزء من تلك الاتفاقية التي يتضح بأنك لم تقرأها أو أنك تتجاهلها. أنا متأكد بأنك ستقلب ذلك الخروج المستقبلي بالهزيمة المذلة. إن أية إنسان عاقل ومنطقي

قام بقراءة تلك الاتفاقية سيستنتج من دون معاناة بأنها خطوة متبعة وتطور طبيعي)).

وهذه الفرضيات التي افترضها وأجاب عنها السيد (غازي الأسدي) بنفسه أوقعته في تناقض كبير، فإنه ليس من شأن مقالتي معالجة موضوع ما تسمى (الاتفاقية الأمنية) بين الحكومة والاحتلال، ولذا أجد حديثه عنها هرباً من الحقيقة الناصعة، التي لا تكاد تخفى على ذوي الألباب، وهو ذات المعنى الذي يقف وراء وصفه لي بجهل الاتفاقية الأمنية، أو تجاهلي لمضمونها!! ويبدو لي أن السيد الأسدي يعلم موقفي من تلك الاتفاقية مسبقاً، وبادر نيابة عني بوصف الانسحاب المزمع إجراؤه في نهاية عام (٢٠١١م) بناءً على ما نصّت عليه تلك الاتفاقية هزيمة!! مع أنني أشكك كثيراً بجدية الانسحاب الأمريكي من العراق.

وإذا كان الأسدي يصف ذلك الخروج بأنه خطوة تطبيقية لتنفيذ الاتفاقية، فإنني أعدّ تلك الاتفاقية برمتها وصاية يسعى الاحتلال لتطويق رقاب أعناق العراقيين من خلالها، في مسعى واضح للسيطرة على إرادة الشعب، ونهب خيراته وثرواته.

ثم يعرج السيد غازي الأسدي على موضوع المقاومة، ويصفها هذه المرة بـــ(القوات التي تحارب ضد القوات الأمريكية والحكومة العراقية الشرعية)، ويتساءل قائلاً: ((بأي منطق يقال بأنها (المقاومة) تدافع عن أحد؟ تلك القوات (المقاومة) لا تتحكم ولا حتى ببوصة واحدة من أرض العراق، أو تمثل أية فئة من فئات الشعب العراقي، ولم تجلب تلك القوات (المقاومة) إلا الدمار والإرهاب ضد الشعب العراقي، رغم جلبهم الكثير من العنف ضد المدنيين من الأبرياء، إلا أنه تأثيرهم على ما يحدث على الساحة العراقية صغير جداً،

وهذا يظهر من ردة فعل الشعب العراقي بالتحفظ والاحترام للسلام والقانون لأعمالهم الوحشية)).

والحق أنني لا أعرف كيف أتحاور في هذه الجزئية مع شخص لا توجد بيني وبينه أرضية مشتركة، في وقت يصف فيه الأسدي المقاومة بأنها قوات خارجة عن القانون، وهي تمارس الأعمال الوحشية، مع أنني ألاحظ حالة الارتباك والاضطراب في أوصافه؛ بسبب عدم قناعته بالكلمات التي يكتبها!! فالقوات الخارجة عن القانون يعترف الأسدي بأنها تقاتل القوات المحتلة، ولا أدري إن كان الأسدي يعلم أو لا يعلم أن مقاتلة المحتل واجب شرعي ووطني، وهو حق كفلته الشرائع والقوانين جميعاً، وسيد البيت الأبيض السابق ومسعر الغزو (جورج بوش) هو من صرح بنفسه أن الولايات المتحدة لو احتلت لدافع عنها!!، والأمريكيون وسادتهم ومن وقف معهم في إلحاق الظلم بالعراقيين هم من اعترفوا بأنهم يمارسون حالة الاحتلال لبلد مستقر ومستقل، فلماذا يدافع الأسدي عن المحتلين، وهذه رغبتهم وتلك توجهاتهم.

و يقول الأسدي إن المقاومة لا تتحكم ببوصة من الأرض العراقية، وأنها لم تجلب إلا الدمار والإرهاب للشعب العراقي، وهنا أتساءل عن التدليس الذي لا يفتأ الأسدي يختبئ وراءه، فبالله عليك من هو راعي الإرهاب؟ ومن هو الذي ألحق الأذى والدمار بالعراق؟ ومن الذي خرب مؤسساته؟ بل من هو الذي أشاع الفوضى والسلب والنهب بين وزارته وممتلكاته؟ ومن هو الذي حلّ جيشه وبعض وزاراته؟ ومن الذي رمّل نساءه ويتّم أبناءه؟ ومن الذي في ظل وجوده قُتل من أبناء العراق مئات الآلاف؟ ومن الذي بسبب تداعيات وجوده صار في سجونه عشرات الآلاف من العراقيين الأبرياء؟ ومن الذي بسبب وجوده شهد العراق أفضع هجرة جماعية في تاريخ الشعوب؟ ومن

الذي في ظله سُرق نفط العراق وأمواله؟ ومن الذي بسبب تغطيته نهبت آثاره وشوّه تاريخه؟ أهو بسبب المقاومة، أم بسبب المحتلين الغزاة؟.

إن الإنصاف يقتضي منك يا سيد (غازي الأسدي) أن تكون واقعياً، وأن لا تتجاهل الحقائق، وأن لا تحجب الشمس بغربال حتى يرضى عنك المحتلون.

ثم إن السيد غازي الأسدي يعتبُ عليَّ لأنني أصف جنود أمريكا المتواجدين على أرض العراق (محتلين)، وهو يبرر عتبه بأن هذه القوات التي أصفها بالمحتلة قامت خلال السنين الست الماضية ((ببناء البنية التحتية العراقية من خلال آلاف المشاريع التي كلفت مليارات من الدولارات)). ثم يقول: ((إن هذا ليس بعمل يقوم به المحتل إنما عمل يقوم به الصديق للشعب العراقي)). ويقول بعد سطرين: ((ولكن الحقيقة أن قواتنا تساعد تلك الحكومة التي انتخبها الشعب العراقي)).

ومع هذه الخرافات التي يتحدث بها السيد الأسدي، فليس لي معه أي تعليق أو رد؛ لأن من يقرأ كلامه يعرف بطلانه، وهو لا يحتاج إلى مزيد من التعب والمعاناة لإثبات زيفه.

ولعلي أستغل هذه المناسبة من أجل التأكيد على المسلّمات التي أؤمن بها، وأتشرف في الدفاع والذود عنها، حتى تنزاح غمة الاحتلال البغيض الذي جثم على صدورنا، وأذاق أبناء شعبنا الصابر المحتسب ألوان الأسى والظلم والعذاب.

- إن المقاومة التي تستهدف الاحتلال، وتسعى إلى إخراجه من أرض الرافدين حق مشروع، كفلته الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية والأعراف الدولية.

- إنني أدعو إلى المحافظة على وحدة العراق أرضاً وشعباً، ولا يجوز العمل على تفرقة أبناء هذا الشعب الذي تعايش أهله على مدى الزمان، تحت أي مسمى من المسميات الباطلة.
- إنني أدعو إلى المحافظة على أموال الشعب وحقوقه، وثروات العراق، التي حباه الله تعالى بها، وأرى أنّ من الخيانة لهذا الشعب إهدار ثرواته، وتضييع خيراته.
- إن العراق لا يحكمه إلا أبناؤه الأصلاء، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتسلط على رقاب أبنائه الجلادون الغرباء الذين يريدون حكمه بالحديد والنار.
- إنّ التوافق أساس الحل الحقيقي لما يعاني منه العراق اليوم من الخلاف والشقاق، وإن دعوات المصالحة لابد أن يتوفر لها الجو الملائم لتحقيقه، وذلك بالاعتراف بالمسلّمات التي شهدها العراق، من احتلال وخراب ودمار، خلّفه الغزو اللاشرعي للعراق.
- إنّ الدم العراقي محترم ومصون، ولا يجوز الاعتداء عليه بأي حال من الأحوال، وإن الاعتداء عليه تحت أي مبرر، يعد مرفوضاً رفضاً قاطعاً، كائناً من يقف وراءه من الأشخاص والجهات.

وإنني إذ أذلف على خاتمة هذه السطور؛ فإني أدعو السيد (الأسدي) إلى مزيد من التدقيق والتحقيق، والتأني والتأتّي، خاصة في معرض رده على الآخرين، وأوصيه بأن لا يكون أداةً تحركها إرادة الآخرين متى شاءت، وأنى شاءت!!، وليتمعن بقول الشاعر الذي يقول:

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ... ويبقي الدهرُ ما كتبتْ يداهُ

فلا تكتب بكفكَ غير شيءٍ ... يسـركَ في القيامةِ أنه تراهُ

راجياً الباري (جلّ جلاله) أن يوفقني لخدمة شريعته ورفع راية دينه، مبتهلاً إليه سبحانه وتعالى أن يستخدمني في طاعته، وتحقيق مرضاته، إنه وليُّ التوفيق والسداد.

الزيدي الذي قذف بوش بالحذاء يعلن: "لقد تعرضت للتعذيب"

ديفيد اوزبورن
باتريك كوكبرن

تذبح الخراف ويتجمع الأهل والأصحاب فيما يشبه حفل عرس يقام على شرف الصحفي العراقي منتظر الزيدي الذي رشق بوش بحذائه خلال زيارته الأخيرة إلى بغداد وقبل أيام قليلة على توديعه منصب الرئيس في شهر كانون الأول ـــ ديسمبر الماضي.

خرج الزيدي من السجن يوم أمس معرباً عن أنّ الغضب لا يزال بداخله تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن غضبه الأشد كان منصبّاً على الحكومة العراقية، التي وحسب ادعائه قامت بتعذيبه بأقسى أنواع وطرق التعذيب، كالضرب، والصعق بالصدمات الكهربائية، عندما كان محتجزاً في أحد مراكز الاعتقال التابعة للحكومة العراقية.

منتظر الزيدي، الذي حكم عليه أصلاً بثلاث سنوات بسبب ما قام به تجاه الرئيس الأمريكي قال في مؤتمر صحفي حاشد في مقر المحطة التلفزيونية التي كان يعمل لصالحها بأنه يعتزم كشف المتورطين في سوء معاملته والذي

كان من بينهم حسب ما ذكر مسؤولين رفيعي المستوى في دوائر الأمن العراقية.

بدأت عائلة الصحفي العراقي بالاستعداد لاستقباله والاحتفال به عندما علموا باطلاق سراحه مبكراً، على أساس حسن السير والسلوك.

((عدي)) وهو شقيق الصحفي العراقي منتظر قال لنا: الحمد لله إنَّ منتظر قد عاش ليرى نور الشمس مرة أخرى، أتمنى أن يتمكن بوش من رؤية سعادتنا وفرحتنا في الوقت الحاضر، وعندما سيتطلع بوش إلى الوراء ويقلب صفحات حياته فإنه سوف يرى حذاء الزيدي في كل صفحة منها.

وأضاف: إنه يخشى على حياة أخيه في العراق، وفعلاً تم وعلى الفور نقل الزيدي بطائرة خاصة إلى اليونان، ولكن الزيدي لم يرغب أن يمر اطلاق سراحه بدون أن يفجر عدداً من المفاجأت ومن العيار الثقيل حيث سلط الأضواء بشكل سريع على ظروف اعتقاله والفترة التي قضاها خلف قضبان المعتقلات العراقية، والذي ترتبط أيضاً بالظروف التي يعيشها العراق ككل، من فلتان أمني، وسيطرة الفساد على جميع مرافق الدولة، لا سيما المرفق الأمني، "أنا حر ولكن بلدي مازال محتلاً".

مظاهر الاحتفالات باطلاق سراح الزيدي تزامنت مع الزيارة المفاجئة التي قام بها وفد أمريكي رفيع المستوى إلى بغداد برئاسة نائب رئيس البولايات المتحدة (جو بايدن) والذي أجرى محادثات مع السيد المالكي؛ حيث قام الوفد الأمريكي بتغيير الطائرة التي كان يستقلها في قاعدة (ملدنهول) الملكية الجوية في بريطانيا في طريقهم إلى بغداد، ووفقاً للزيدي فإن رئيس الوزراء المالكي كان يراوغ ويخادع بإخباره الشعب العراقي بعد اعتقال الزيدي، بأن الزيدي بصحة جيدة، وأنه سيكون تحت رعايته، حيث قال الزيدي: "في الوقت الذي قال رئيس الوزراء نوري المالكي للتلفزيون بأنه لن

ينام حتى يطمئن على حالتي... بينما كنت أنا اتعرض للتعذيب وبأسوأ الطرق وذلك بضربي بالأسلاك الكهربائية وقضبان الحديد"، وأضاف: "أنا لست بطلاً وأنا أعترف بذلك، أنا مجرد شخص كان يرى أن بلده يحترق".

الزيدي الذي يعتبر الآن بطلاً بنظر جميع شعوب الشرق الأوسط فضلاً عن مختلف أنحاء العالم، بعد أن أدهش المراسلين القادمين من الولايات المتحدة والمراسلين المحليين العراقيين عندما عبر عن فورة غضبه أثناء المؤتمر الصحفي المشترك بين الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش ورئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، واصفاً بوش بـ"الكلب" والتي تعتبر إهانة شديدة في العالم العربي، وطاش حذاء الصحفي الزيدي ليخطئ وجه الرئيس الأمريكي ببوصات قليلة، مما دعا رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي إلى رفع يده ليحمي وجه الرئيس الأمريكي السابق من الحذاء الثاني.

"هذه هي هديتك من العراقيين... هذه هي قبلة وداعك يا كلب!"، كانت هذه العبارة هي العنوان الأبرز في نشرات الأخبار في مختلف أنحاء العالم.

يوم أمس كان في استقبال السيد الزيدي لدى مغادرته السجن عدد من أعضاء البرلمان العراقي الذين كانوا يساندوه، كما وصل إلى مقر (البغدادية) المحطة التلفزيونية التي كان الزيدي يعمل لصالحها، حيث قام على الأقل موظفين إثنين بذبح الخراف تكريماً له، أما في شوارع العاصمة فإن أنصاره أخذوا يقرعون الطبول ويهتفون باسمه، معلنين عن ولادة بطل قومي جديد في العراق.

لم يبد الزيدي وهو مسلم شيعي[1] أيّ ندمٍ على ما فعل، وبدلاً من ذلك أخذ الزيدي بالتعبير عن مدى غضبه تجاه جورج بوش بوصفه صاحب قرار اجتياح العراق في عام ٢٠٠٣م.

كان الزيدي يعد التقارير الصحفية عن تلك الحرب لصالح المحطة التلفزيونية التي كان يعمل لصالحها (البغدادية) وشهد أول آثار العنف التي تسبب بها تلك الحرب، وتابع الزيدي قائلاً: "الاحتلال قد غزانا تحت ذريعة التحرير، ولكنه بدلاً من ذلك قسم الأشقاء والجيران إلى طوائف متناحرة، بل جعل من بيوتنا خياماً للجنائز، ومن شوارعنا مقابراً".

متذكراً تلك اللحظة التي رمى بها الحذاء، استمر الزيدي بالقول: "رأيت فرصة أمامي لا يمكن تفويتها، لو عرف الذين وجهوا اللوم لي على ما فعلت عدد المنازل المهدمة التي دخلتها بذلك الحذاء، وعدد المرات التي أختلط بها هذا الحذاء بدماء العراقيين الأبرياء، كم من بيت دخله ذلك الحذاء وأصحابه قد فقدوا كرامتهم وكل ما ملكوا بسبب بوش لعرفوا بأن ذلك كان رد الفعل المناسب تجاه المجرم بوش".

كما أن الزيدي كان صريحاً وواضحاً في تهديده بأنه سيفضح المسؤولين عن تعذيبه في السجن، وأضاف: "سوف أعلن في وقت لاحق أسماء المتورطين في تعذيبي، ومن بينهم مسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة والجيش".

---

[1] هكذا وصفه الكاتب، مع أنّ منتظر الزيدي أصرَّ على تجريد نفسه من أي وصف يمكن أن يكشف عن طائفته، حتى وهو يتعرض لأقسى أنواع التعذيب في فترة اعتقاله، وأكد مراراً على أنّه يعتز بهويته الوطنية العراقية، وقد ترجمنا العبارة بنصها حرصاً على الأمانة العلمية.

الرجل الذي قذف بوش بالحذاء
منتظر الزيدي أطلق سراحه بعد سجنه وتعذيبه

ريتشارد كيرباغ

ها هو منتظر الزيدي يعانق شقيقته بعد اطلاق سراحه من السجن. في الليلة الماضية غادر الزيدي العراق لإجراء فحوص طبية، الزيدي هو الصحافي العراقي الذي سجن لقذفه حذاءً على الرئيس الامريكي السابق جورج بوش، قال أمس في مؤتمر صحفي عقده في مقر الفضائية (البغدادية) التي يعمل لصالحها: "بأنه قد تم تغطيسه في الماء (بما يعرف بتكنيك الايهام بالغرق) فضلاً عن الصعق بالكهرباء، والضرب المستمر ليلاً ونهاراً.

منتظر الزيدي الذي فقد بعضاً من أسنانه الأمامية، وكسر أنفه وبعض أضلاعه خلال فترة تسعة أشهر قضاها في أحد السجون العراقية، قال: بأنه سيكشف أسماء عدد من كبار المسؤولين في الحكومة العراقية متهماً إياهم بتعذيبه بصورة مباشرة.

المراسل الذي رفض الإعتذار عن رميه حذاءه على الرئيس الأمريكي السابق طالب رئيس الوزراء العراقي بالإعتذار منه متهماً إياه بتضليل الرأي العام بشأن المعاملة التي لقيها وراء القضبان، حيث قال في مؤتمر صحافي عقده في مكان عمله السابق (قناة البغدادية الفضائية): "لقد تعرضت للتعذيب بأبشع الطرق، الصعق بالصدمات الكهربائية والضرب بقضبان حديدية".

وقال: "بأن المالكي قد أكد علناً بأني سأنال الرعاية الكاملة في سجني بينما في الحقيقة وفي نفس توقيت إعلان المالكي كنت مكبل اليدين ومرمياً في العراء البارد بعد أن تم إغراقي بالماء كنوع من أنواع التعذيب".

"أنا أطالبه بالاعتذار عن اخفاءه الحقيقة عن الناس مع علمه بما يجري لي"، وأضاف الزيدي: "سأعلن لاحقاً أسماء الذين شاركوا بتعذيبي بما فيهم بعض كبار المسؤولين في الحكومة والجيش".

على الرغم من التحدي والظهور الذكي الذي بدا عليه الزيدي إلا أنه قد بدا ضعيفاً وواهناً جسدياً، وأحياناً كان بحاجة إلى المساعدة، بينما احتفل أصدقاءه وعائلته باطلاق سراحه، أما شقيقه الذي كان يشد على يد أخيه التي كانت ترتجف كما لو كان واقفاً تحت الثلوج.

سئل الزيدي من قبل مراسل صحيفة التايمز: "كيف تشعر الآن؟"، نجح الزيدي بوضع ابتسامة باهتة على شفتيه قائلاً: "ليس جيداً جداً"، وأضاف: "لكني مع هذا على ما يرام".

علي خضير أحد أفراد أسرة الزيدي أشار إلى علامات التعذيب التي كانت تغطي رأس منتظر الزيدي قائلاً: "هذا آثار الحرق بالسجائر التي كان حراس السجن يطفؤونها برأسه ووجهه، وهناك الكثير غير هذه العلامات وآثار التعذيب المنتشرة في كل أنحاء جسده ولكنها تختبئ تحت الملابس"، وبعد المؤتمر الصحفي غادر منتظر الزيدي على متن طائرة خاصة لسوريا

وهو في طريقه إلى اليونان؛ لاجراء فحوصات طبية وفقاً لما أعلنـه شـقيقه عدي.

ابن عمه حيدر الزيدي قال: "منتظر سيذهب إلى اليونان لتلقـي العـلاج الطبي لأنه كان قد حقن بمادة مخدرة كيماوية غير معروفة للأطبـاء، وأنـه يعاني من صداع مستمر".

قصة هذا الصحفي هيمنت على أخبار العراق والشرق الأوسط في الأيـام الماضية، حيث كان فعله "البطولي" على رأس نشرات الأخبار، كل الأحاديث في الشارع العراقي كانت تدور حول ما قام به الزيدي وحول اطلاق سراحه.

أصبح الزيدي من مشاهير العالم بعد أن قذف الرئيس الأمريكي السابق بحذائه خلال مؤتمر صحفي عقده في كانون الأول ـ ديسمبر الماضي خلال زيارته الأخيرة إلى بغداد، ودعاه بالكلب (وهما يعتبران من أسوأ الاهانات في مجتمعات الشرق الأوسط)، ربما تجنب بوش الأحذية التي طارت نحوه، ولكن الهجوم كان مصدر احراج كبير للمالكي الذي كان يقف إلى جواره.

هناك الآن عروض كثيرة قدمت للزيدي ليعمل فـي مختلـف المحطـات الفضائية العربية، فضلاً عن تلقيه عروضاً كثيرة للزواج من مختلـف أنحـاء المنطقة.

وقال الزيدي: إن هذه الضجة الإعلامية التي أحاطت به كانت أقل أهميـة بالنسبة إليه مما حدث للعراق، "أنا الآن حر ولكـن بلـدي لا يـزال أسـيراً" وأضاف قائلاً: "أنا لست بطلاً... بل أشعر بالإهانة لرؤية بلدي يعاني".

"أتمنى أن يعرف الناس الذين قاموا بلومي على ما فعلت، عـددَ المنـازل التي قد دمرها الاحتلال والتي قد دخلتها بهذا الحذاء، وعدد المرات التي خالط هذا الحذاء دماء الابرياء من أبناء بلدي، وعدد المنازل التي دخلتهـا والتـي كانت قد انتهكت من قبل قوات الاحتلال".

وأدين الزيدي في آذار – مارس وحكم عليه بالسجن لثلاث سنوات، ولكن تم تقليصها لسنة واحدة في الاستئناف؛ لكونه لا يملك سجلاً اجرامياً من قبل، إلا أن المدة خفضت مرة اخرى لحسن السلوك لتسعة أشهر.

وكانت السلطات العراقية قد نفت تعرض الزيدي للتعذيب في السجن ولكن بعد المؤتمر الصحفي الذي عقده الزيدي، قال سامي العسكري أحد مستشاري المالكي: إن مثل هذه الادعاءات ينبغي التحقيق فيها.

العراقي منتظر الزيدي الذي رشق بوش بحذائه تعرض للتعذيب بواسطة "الإيهام بالغرق"

فيليب نوتون

أخيراً أفرج عن المراسل الصحفي العراقي الذي حكم عليه بالسجن لرميه حذاءه على الرئيس الأميركي السابق جورج بوش، صرّح بأنه قد تعرض للتعذيب بواسطة الصدمات كهربائية وحتى تكنيك الإيهام بالغرق أثناء احتجازه.

منتظر الزيدي كان وراء القضبان منذ أن صرخ قائلاً "هذه هي قبلة الوداع يا كلب" وقذف بحذائه بوش خلال زيارته الاخيرة في بغداد أثناء مؤتمر صحفي في كانون الأول- ديسمبر الماضي، والتي تعتبر من الاهانات الشديدة في العالم العربي.

على الرغم من أن بوش تجنب الأحذية التي طارت نحوه وكان رده تجاهها بضحكة سخيفة تنم عن مدى الاحراج الذي أصابه، ولكن الاحراج الأشد كان من نصيب المالكي، الذي حاول إبعاد الحذاء الطائر الثاني عن وجه بوش.

مطلقاً لحية خفيفة ومرتدياً وشاحاً يحمل ألوان العلم العراقي متدلياً على كتفيه، قال الزيدي: بأنه لا يشعر بأي ندم إزاء ما قام به قبل تسعة أشهر تجاه بوش.

وقال في مؤتمر صحفي عقده في مكتب القناة التي يعمل لصالحها (البغدادية ومقرها في القاهرة – مصر) بأنه ليس بطلاً ولكن ببساطة قد اغتنم الفرصة لإهانة الرجل الذي أهان العراق خلال ست سنوات من الاحتلال.

وقال الزيدي: "بالنسبة لي كان رد فعلي عفوياً ومناسباً، ما أردت القيام به برمي حذائي في وجه المجرم بوش كان التعبير عن رفضي لأكاذيب احتلال بلدي".

وأضاف: "وفي الوقت الذي قال فيه نوري المالكي في تصريحات نقلها التلفزيون بأنه لا يستطيع النوم دون أن يشعر بالاطمئنان على صحتي... كنت أتعرض لأسوأ أنواع التعذيب وبأبشع الطرق، مثل الضرب بالأسلاك الكهربائية والقضبان الحديدية".

المراسل العراقي البالغ من العمر ٣٠ عاماً قال: بأنه يطالب المالكي بالاعتذار منه، مشيراً إلى أن الحراس قد أستخدموا في تعذيبه أيضاً تكنيك الإيهام بالغرق (وهو أسلوب استخدمه الأميركيون على المشتبه بهم الذين اعتقلوا بعد أحداث الحادي عشر من ايلول ــ سبتمبر ٢٠٠١م).

وأضاف الزيدي: "أنا الآن حر ولكن بلدي لا يزال أسيراً، أشعر بالإهانة لرؤية بلدي يعاني، وبغداد تحترق، وشعبي يقتل".

زغردت عائلة الصحفي الزيدي عندما سمعت أنباء اطلاق سراحه عن طريق الهاتف في منزلهم ببغداد، قام أقرباؤه وأصدقاؤه بذبح الأغنام في احتفال كبير أقيم له، ولكن لمّ الشمل تأخر؛ لأن السيد الزيدي كان من المقرر ان يخضع لفحوص طبية في مكتب قناة البغدادية أولاً.

وقال أقارب المراسل: بأنه كان مرهقاً وكان من المقرر أن يسافر إلى اليونان للعلاج بعد معاناة جسدية ونفسية تعرض لها في السجن.

قد يواجه الزيدي نمطاً جديداً لحياته مختلف جداً عن السابق، على الرغم من أنه لم يتم التخطيط لاستئناف مهام وظيفته القديمة، وقد وعده رئيسه في العمل بمنزل جديد كمكافأة على ولائه والدعاية التي تسبب بها عمله للقناة التي ذاع صيتها بسبب ما قام به الزيدي وتم بثه على الهواء.

وهناك أيضاً حديث عن مناصب مرموقة عرضت على الزيدي من أكبر الشبكات الإخبارية العربية، فضلاً عن الهدايا الفاخرة مثل السيارات الرياضية المقدمة من رجال الأعمال، وضمان النجومية، والتقارير التي تفيد بأن النساء في المنطقة العربية من بغداد إلى قطاع غزة تريد الزواج منه.

نشاطات مركز الأمة للدراسات والتطوير حتى تأريخ ٨/٨/٢٠٠٩م

نشاطات قسم الدراسات

الندوات

ندوة خاصة عن (الانسحاب الأمريكي من المدن العراقية بين الإعلان والواقع) بتأريخ ٣٠-٦-٢٠٠٩م وتضمنت محورين رئيسين:

أولاً: المحور السياسي قدمه الدكتور خالد المعيني مدير مركز دراسات الاستقلال، وتناول فيه:

- دلالات هذا الانسحاب وأبعاده السياسية والإعلامية.
- أهداف الحكومة من التسويق والدعاية لهذا الانسحاب.
- رؤية القوى المناهضة للاحتلال لإعلان الانسحاب.
- أوجه الاحتلال الأخرى غير العسكرية.

ثانياً: المحور العسكري وقدمه الدكتور مهند العزاوي مدير مركز صقر للدراسات الإستراتيجية والعسكرية، وتناول فيه:

- دلالات الانسحاب من وجهة نظر عسكرية وأمنية.
- القواعد العسكرية المقرر الانسحاب إليها وكل ما يتعلق بها.

- الشركات الأمنية ودورها ما بعد انسحاب قوات الاحتلال من المدن.

المحاضرات

- محاضرة للدكتور عزمي بشارة بعنوان (القضية العراقية من وجهة نظر عربية) بتأريخ ٨-٧-٢٠٠٩م.
- محاضرة للدكتور حاكم المطيري بعنوان (تحرير الإنسان على طريق تحرير الأوطان) بتأريخ ٢٣ -٧-٢٠٠٩م.

نشاطات قسم التطوير

ورشة عمل عن تطوير المهارات الشخصية قدمها رئيس قسم التطوير بتأريخ ٢٩-٦-٢٠٠٩م.

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر - التجارية - مصر

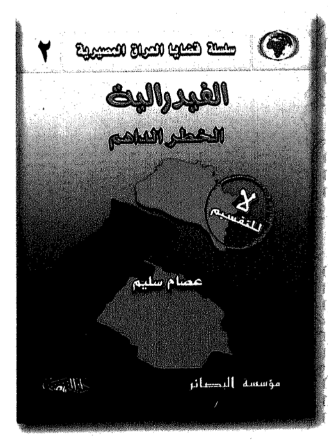

مركز الأمة
للدراسات والتطوير

حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثاني ربيع الثاني ١٤٣٠هـ / نيسان ٢٠٠٩م





يصدر

الفيدرالية

الخطر الدائم

تأليف
عصام سليم

أهمية الإصدار.. تبدو الفيدرالية اليوم من القضايا الأكثر إثارة للجدل في الواقع العراقي، في وقت يسعى فيه العراقيون لتحرير بلادهم، وتقرير مستقبلها.. من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي يقدمها المركز ضمن إصدار جديد من (سلسلة قضايا العراق المصيرية).

محتوى الإصدار.. يحتوي هذا الإصدار على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، يوضح الفصل الأول مفهوم الفيدرالية، والتنبيه على خطورة الخلط بين الفيدرالية والكونفدرالية، مع توضيح أشكال الفيدرالية.. ويبحث الفصل الثاني بدايات المطالبة بالفيدرالية وإقرارها في العراق، مع التعرف على الداعين لمشروع الفيدرالية، وموقف الأطياف العراقية والقوى السياسية من الفيدرالية.. أما الفصل الثالث فقد أوضح مبررات الداعين لمشروع الفيدرالية في العراق.. فيما يرصد الفصل الرابع من الكتاب مساوىء النظام الفيدرالي.. أما الفصل الخامس فيناقش الدور الذي لعبته (ورقة بايدن) في مشروع تقسيم العراق، مع بيان أ

إهـــــداء ٢٠١٠
مجلة الحضارة
جمهورية مصر العربية

حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثاني ربيع الثاني ١٤٣٠هـ / نيسان ٢٠٠٩م

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١

Mobile: 009647810801021

نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١

Mobile: 0020174876011

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦

Telefax: 0020237619596

البريد الإلكتروني

editor@hadharamagazine.net

ضوابط النشر في المجلة

(١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

(٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

(٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

(٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

(٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة **(A4)** كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

(٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين **(A4)** ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

(٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال وممانعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل و الأنشطة

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

حضارة في عددها الثاني

رئيس التحرير

((المتصفح للعدد الأول من مجلة (حضارة) يجد نفسه أمام باقة من التحليلات والدراسات التي تتناول قضايا الأمة بشكل يجمع بين العمق في التحليل والبساطة في الأسلوب بما يسهم بشكل كبير في توعية العرب والمسلمين بأهم القضايا المصيرية التي تواجههم والتي تعاني منها الشعوب العربية والإسلامية، وقد تعلمنا من خبرة التاريخ أن الفهم الصحيح والواعي لتلك القضايا وأسبابها وتداعياتها هي الخطوة الأولى لمواجهة المخاطر والتحديات التي تحيط بالمنطقة)).

هكذا تحدثت (وكالة الأخبار العربية – محيط) التي تعد من المواقع المتقدمة عربياً، وتعتمد عليها كثير من وسائل الإعلام العربية؛ عن العدد الأول من حضارة الذي لقي قبولاً كبيراً في أوساط كثيرة، وقد أفردت له الوكالة المتقدمة الذكر مقالين إضافيين في أخبارها العامة وفي قسمها الثقافي، فضلاً عن مواقع إخبارية ومتخصصة أخرى شاركت (محيط) هذا الاهتمام، ومنها: (وكالة يقين للأنباء)، و(وكالة أنباء العراق الدولية – واعد)، وموقع (لواء الشريعة) أحد المواقع المصرية العلمية المتخصصة، وموقع (الهيئة نت)، وموقع (المركز العراقي للتوثيق والدراسات).

كما اهتمت عدد من وسائل الإعلام الفضائية بصدور العدد الأول؛ حيث قامت قناة المجد الفضائية باستضافة أحد الباحثين في المجلة في برنامج (فصول) الذي يقدمه الإعلامي المعروف جمال سلطان، وجرى الحديث فيه عن مضامين المجلة وما ورد في عددها الأول من دراسات وتقارير ووثائق.

كما أعلنت قناة الرافدين الفضائية عن صدور المجلة منوهة إلى أن حضارة هي أول مجلة عراقية تطبع وتوزع في مصر، وعلى مستوى الشارع كانت أرقام توزيع المجلة في المكتبات ومنافذ التوزيع المصرية مشجعة كثيراً، وتدل على أن حضارة قد وجدت لها مكاناً جيداً في ساحة عربية كبيرة جداً ومهمة، فضلاً عن وصول المجلة بجهود أعضاء هيئة التحرير فيها إلى عدد من العواصم العربية والأوروبية.

ويضم هذا العدد بين دفتيه عدداً من الأبحاث والدراسات والمقالات والوثائق والتقارير؛ ففي حقل الدراسات تنشر حضارة بحثين من بحوث ندوة (التغيير الأمريكي وأثره على المنطقة – العراق أنموذجاً) التي عقدها مركز الأمة للدراسات والتطوير في العاصمة السورية دمشق منتصف شهر (كانون الثاني/ يناير) وهما (عوامل اختيار أوباما) للدكتور فالح الخطاب، و(استراتيجية الرئيس المنتخب أوباما تجاه العراق) للباحث رائد فوزي احمود، ويشتمل العدد على دراسات أخرى، تبحث الأولى منها في موضوع (العراق من الدولة المركزية إلى دويلات المدن) للدكتور فاضل الربيعي، ويسلط فيها الأضواء على نتائج انتخابات مجالس المحافظات الأخيرة.

وفي نطاق الدراسات المتعلقة بالشأن الفلسطيني؛ يضم العدد دراسة مهمة للدكتور كمال حبيب تعتني ببحث الدور التركي في أحداث غزة الأخيرة بعنوان (الدور التركي بعد أحداث غزة.. من الجسر إلى العمق)، وفي العدد أيضاً دراسة عن (العلماء في خدمة المجتمع في زمن الاحتلال – هيئة علماء

المسلمين نموذجاً) للدكتور مثنى حارث الضاري، كما احتوى العدد على مقالتين تتناولان موضوعين متقاربين هما:(الفضائيات العراقية بين الرقابة والحرية) للباحث محمد بهاء الدين زيدان، و (الأفلام التسجيلية ورصد الحياة العراقية) للدكتور عمر راغب.

أما ملف العدد فهو مخصص هذه المرة للذكرى السادسة لغزو العراق واحتوى على ثلاث مشاركات هي: (دور المقاومة العراقية في بلورة نظام عالمي جديد) للأستاذ علي حسين باكير، و(الاحتلال والمقاومة بعد ست سنوات – حسابات الهزيمة.. حسابات النصر) للدكتور رافع الفلاحي، و(ذكرى غزو العراق السادسة وأكذوبة إعادة الإعمار) لمدير تحرير حضارة الأستاذ حسين الرشيد.

وفي حقل مراجعات الكتب، تضمن العدد دراسة لكتاب (الطريق إلى غوانتانامو) للمترجم الأمريكي (إيريك ساد) ومراسلة صحيفة التايمز (فيفيكا نوفاك) أعدها الباحث في مركز الأمة عصام سليم.

واشتمل حقل الوثائق على ثلاث وثائق تتعلق بانتخاب الرئيس الأمريكي الجديد وإعلان خطة انسحابه من العراق، وتضمنت هذه الوثائق: ثلاثة بيانات لجبهة علماء الأزهر، وهيئة علماء المسلمين، وجبهة الجهاد والتغيير العراقية، وختمت المجلة بنشاطات مركز الأمة للدراسات والتطوير التي تضمنت جملة من نشاطات المركز بأقسامه المتنوعة.

وبعد، فهذا هو حصاد المجلة في عددها الأول ونتاجها في عددها الثاني، الذي سيخرج هذه المرة في حلة جديدة تتناسب والإهتمام الذي لقيته عند القراء، وكلنا أمل أن تستمر مسيرة المجلة الفتية بعون الله تعالى ورعايته، ومن ثم بجهود أبنائها العاملين فيها ومتابعيها ومحبيها والمهتمين بها، وإلى عدد ثالث تواصل به (حضارة) رسالتها الحضارية.

عوامل انتخاب أوباما

د. فالح الخطاب/ باحث وإعلامي عراقي

إن فترة حكم جورج دبليو بوش لم تكن مجرد فترة أخرى من فترات الرئاسة الأميركية التي تتوالى على الحكم في الولايات المتحدة، بل كانت تطوراً غير مألوف في السياسات الخارجية وتلك الداخلية.

أمران صبغا فترة حكم بوش في أعوامها الثمانية الرهيبة :

الأول: تمكّن المحافظين الجدد من الهيمنة الكلية على مراكز صنع القرار في واشنطن.

الأمر الثاني: هو هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م التي فتحت الأبواب مشرعة أمام تنفيذ خطط ورؤى المحافظين الجدد وتنزيلها على أرض الواقع بالقوة العسكرية كأسلوب لفرض السياسة الخارجية، وفي الحقيقة فإن النزوع لإثبات الانفراد الأميركي، وقيادة العالم بالوسائل العسكرية في أعقاب انتهاء الحرب الباردة، ربما يكون تأخر بعض الشيء لأسباب ذاتية أميركية وليست موضوعية خارجية.

الولايات المتحدة التي خرجت منتصرة من الحرب الباردة لم تجد نفسها مضطرة لاستخدام القوة العسكرية الخارجية على نحو واسع خصوصاً في سنوات العقد التسعيني من القرن المنصرم باستثناء حالات قليلة خاضت فيها

الولايات المتحدة حروباً (محدودة) في هاييتي والصومال والبوسنة إضافة لحرب الخليج الثانية (الكويت)[1].

كان للواقع الدولي الذي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه وتأثيرات حرب فيتنام قدرة على إقناع القادة الأميركيين بضرورة انصراف الموارد الأميركية إلى بناء الاقتصاد والإنفاق على المتطلبات الداخلية التي تحتاج إلى الكثير خصوصاً مع انتهاء الحرب الباردة. وحتى بوش الأب الذي خاض حرب الخليج الثانية ضد العراق، لم يكن يريد التورط المباشر مع عدو مجهول- العراق- لا تعرف عنه الدوائر الاستخبارية الأميركية الكثير "إلى درجة أن جميع البعثات الدبلوماسية، ومن ضمنها السفارة الأميركية (في بغداد) كانت تفتقر إلى معرفة حقيقية وعميقة بالحكام والمحكومين على حد سواء"[2]، وهو ما دعا بوش الأب لعدم الاستجابة لإغراءات عبور الحدود العراقية بعد الانتهاء من حرب الكويت رغم تدمير الكثير من القدرات العسكرية العراقية[3]، ولم يتغير هذا الوضع مع مجيء الديمقراطي بيل

---

[1] حرب في زمن السلم، بوش،كلينتون، والجنرالات، ديفيد هالبرشتام، ترجمة فاضل جتكر(الرياض: مكتبة العبيكان،الطبعة الأولى، ٢٠٠٣)، صفحة ١٠.

[2] أمة في شقاق: دروب كردستان كما سلكتها، جوناثان راندل، ترجمة فادي حمود (بيروت: دار النهار، ١٩٩٧م)، ص١١٣. يورد راندل في كتابه المهم الذي يبحث تطور المسألة الكردية وخفاياها في العراق، اقتباساً من كتاب روبرت كابلان، يتحدث فيه السفير الأميركي في بغداد- وقتذاك- ديفيد نيوتمان بصراحة عن حدود معرفة السفارة الأميركية بما يجري في العراق بالقول "كنا نعمل وفقاً لحدسنا، لم يكن لدينا سوى مصادر قليلة جداً لذلك لم نكن نعرف ماذا يجري فعلاً في البلاد، ولم يكن هناك من حولنا سوى الشائعات، وما كنا نسميه بـ"سوق التلغراف"، راندل، المصدر نفسه، ص ٣١-٣٢.

[3] بذل رئيس الأركان- في ذلك الوقت- كولن باول جهوداً استثنائية لوقف الحرب ورفض المجازفة بعبور الحدود لداخل العراق، باول العسكري المحترف والذي خاض غمار تجربة فيتنام يدرك جيداً حقيقة الصعوبات التي كانت القوات الأميركية ستواجهها داخل العراق، باول الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية في إدارة بوش الابن، كان أكثر المتحفظين على غزو العراق، رغم دوره في الترويج للحرب أثناء عرضه لصور قيل إنها مختبرات للأسلحة الكيماوية، والتي اعتذر عنها باول لاحقاً.

كلينتون الذي انتهج سياسة خارجية تقوم على استخدام ما يسمى بـ"القوة الناعمة" التي تتوسل أكثر من طريقة لفرض القيادة الأميركية في العالم وليس بالضرورة استخدام القوة العسكرية المجردة أو اعتماد الحرب نهجاً وحيداً للسياسة الخارجية.

المبحث الأول

الانقلاب: بوش الابن والمحافظون الجدد

كانت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م إيذاناً بتحول تاريخي عميق في الولايات المتحدة، فقد تمت مهاجمة القوة العظمى الوحيدة في العالم في عقر دارها، ولم يكن هذا الهجوم عملية محدودة أو معزولة، بل كان نوعاً من الحرب التي استهدفت رموز القوة الأميركية، حين هاجمت طائرات أميركية مختطفة نيويورك وواشنطن لتصيب عصب المال والقوة الأميركية معاً، وتصيب معه العقل الجمعي الأميركي الذي وقف مذهولاً لما جرى، يومها عدّ المحافظون الجدد أن هذه هي فرصتهم التاريخية التي لا ينبغي أن تضيع للخروج من النمط التقليدي الذي ميز إدارتي بوش الأب وكلينتون وطبعهما بطابع أكثر تحفظاً من الاندفاع لاستخدام القوة في مسائل السياسة الخارجية.

كانت الهجمات هبة ثمينة للمحافظين الجدد، فهذا الحدث "حول جورج بوش من رئيس وصل إلى البيت الأبيض بالمصادفة– قرار المحكمة العليا بفارق صوت واحد فقط– إلى قيصر أميركي، وأصبح الرئيس جورج بوش أداة تنفيذ سياسة المحافظين الجدد المبنية على "العمل الانفرادي" والانتشار

الدائم للقوات العسكرية إضافة إلى "الحرب الوقائية "، ولولا أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لكانت الحرب والتعبئة العسكرية من المحال"[١].

كان اليوم التالي للهجمات هو اليوم الذي ضلت الولايات المتحدة فيه طريقها وغابت بسببه عن مسارها التاريخي، فالهجمات لم تصب برجي التجارة والبنتاغون فقط، بل أصابت الديمقراطية الأميركية وأحدثت تحولاً عميقاً يصعب الرجوع عنه لفترة طويلة قادمة، "شكلت الأيام التي تلت ١١ أيلول/سبتمبر الحيز الحاسم الذي تطابق فيه مطلب صناع السياسة الكبار في صياغة رد ملموس على حالة طارئة قومية مع منظور تفكير المحافظين الجدد الذي تكون في نحو اثنا عشرة سنة"[٢].

وإذا كان هذا هو حال صناع القرار، فإن عموم الناس بدت عليهم مظاهر غير مألوفة "كان سائقو السيارات يزينون سياراتهم بالأعلام الأميركية والجيران يجتمعون معا لمساعدة بعضهم البعض، وولد الخوف الجماعي والاشمئزاز من الهجمات العنيفة جمهوراً أميركياً مستعداً لدعم رد قوي يعتمده زعماؤهم"[٣]، وعلى العموم جاء رد إدارة بوش سريعاً وفي اتجاهين، تمثل الأول في فرض ترتيبات أمنية داخلية لم تكن معهودة للأميركيين من قبل "لقد خول الرئيس بوش وكالة الأمن القومي سراً المراقبة والتنصت على مقادير هائلة من المكالمات الهاتفية والرسائل الإلكترونية وأشكال المرور الأخرى عبر الإنترنت داخل الولايات المتحدة، وذلك بحثاً عن دلائل محتملة على

---

[١] كهنة الحرب الكبار، مايكل كولينز بايبر، نقله إلى العربية عبد اللطيف أبو البصل (الرياض:مكتبة العبيكان،٢٠٠٦م)، ص٣٤-٣٥.

[٢] التفرد الأميركي.. المحافظون الجدد والنظام العالمي، ستيفان هالبر وجوناثان كلارك، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م)، ص ٢٦٥.

[٣] هالبر وكلارك، المصدر السابق، ص ١٨٩.

نشاط إرهابي، من دون مذكرات تفتيش أو أية قوانين جديدة من شأنها السماح بمثل هذا الرصد الاستخباراتي المحلي[1].

أما الاتجاه الثاني فقد تمثل بشن الحرب على أفغانستان بعدها حاضنة القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن، وهي الحرب التي كانت مقدمة فقط لتهيئة المسرح لحرب أهم وأكثر جدوى بنظر المحافظين الجدد؛ أي الحرب على العراق[2]، فخلال فترة قصيرة و "قبل أيام من الذكرى الثانية لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر، كشف استطلاع للرأي أجرته صحيفة "واشنطن بوست" أن سبعة من أصل تسعة أميركيين يعتقدون أن صدام حسين شارك بصورة مباشرة في الهجمات الإرهابية"[3].

"لقد تلاعبوا -المحافظون الجدد- بالقدرة المؤسسية التي تمنحها مناصبهم لهم لجذب الرأي العام الأميركي إلى ما يمكن وصفه بأنه عصاب مصطنع يدعم النموذج الذي وضعوه لتغيير النظام في الشرق الأوسط"[4].

ومع انطلاق حملة التضليل أصبح متاحاً لإدارة بوش الابن تعزيز وضعها الداخلي إذ "أسكتت كل الانتقادات ووصمت بأنها بعيدة عن الإخلاص للوطن، والعدو الشرير القابع في الخارج بات القوة الكبرى التي من خلالها يتم ترويض الأشرار في الداخل"[5].

---

(١) حالة حرب، جيمس ريزن، ترجمة سامي الكعكي (بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٦م) ص٥٧، تطرقت عدد من الكتب الأميركية إلى حالة العصاب الجماعي ومظاهر الخوف التي كانت تنتاب الأميركيين بسبب الإجراءات الأمنية، فالألوان الأمنية التي كانت مثبتة على لوحات خاصة في الشوارع والمطارات كانت تتبدل فجأة لتتحول من الأخضر إلى البرتقالي أو الأحمر، بدون سبب معقول.

(٢) راجع بتوسع: التفرد الأميركي.. المحافظون الجدد والنظام العالمي، هالبر وكلارك:.

(٣) التفرد الأميركي، هالبر وكلارك، ص٢٦٠.

(٤) التفرد الأميركي، هالبر وكلارك ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥) الأمبريالية الجديدة، ديفيد هارفي، ترجمة وليد شحادة (بيروت: دار الحوار الثقافي، ٢٠٠٤م)، ص٢٧.

وكانت البداية مع حرب العراق عام ٢٠٠٣م التي كان أمل المحافظين الجدد معقوداً فيها على جعل بلاد الرافدين القاعدة والمنطلق لإحداث تغييرات كبرى في ما أطلقت عليه الإدارة الأميركية "الشرق الأوسط الكبير".

بين الأب والابن: المعضلة العراقية

غير أن تعثر الاحتلال وزيادة خسائر قواته واتساع رقعة المقاومة وانتقالها من المبادرة إلى الاحتراف وانكشاف ضعف الإدارة الأميركية عن اجتراح معجزة تكرس الاحتلال أو تنهي مقاومته، أدى إلى بروز تململ في أوساط الأميركيين بدأ يتسع شيئاً فشيئاً ليتحول إلى موجة انتقاد فمعارضة لاستمرار الحرب بعدّها حرباً خاسرة بلا معنى، هذا التحول في المزاج الشعبي الأميركي لم يكن- كله- تعاطفاً مع العراقيين بل احتجاجاً على الخسائر الكبيرة التي بدأت تؤثر على الأميركيين داخلياً.

مثل العراق عقدة مستحكمة لم يستطع بوش الأب إنهاءها تماماً فمضى ليسلمها إلى بيل كلينتون قبل أن ينقلها الأخير لبوش الابن، وبالرغم من أن بوش الأب حقق شيئاً ما في الحرب على العراق حين استطاع إخراج قواته من الكويت في "حرب الخليج الثانية "، إلا أن هنالك أمرين مهمين برزا أثناء حرب الأب القصيرة تلك يستحسن الإشارة لهما في إطار فهم الرأي العام الأميركي لاحقاً، من حرب الابن على العراق غزواً واحتلالاً، فقد "تمثلت المفارقة الساخرة لحرب الخليج (الثانية) بأنها نجحت مؤقتاً في تغيير الموضوع الرئيسي على جدول الأعمال القومي وتحويله إلى قوة اعتزاز

بقوتنا العسكرية المتجلية حديثاً بعد أن كان متركزاً على نوع من القلق المتنامي حول الاقتصاد"[١].

ويضيف "هالبرشتام" قائلا" إن حرب الخليج لم تستطع أن تطمس الاستياء العميق السائد في البلاد، خصوصاً إزاء الوضع الاقتصادي إلا بصورة مؤقتة، فالمشكلة الاقتصادية كانت المشكلة الجديدة الأولى، أما المشكلة الثانية فتمثلت (رغم الاستقبال الحار والحماسي للوحدات العائدة) بحقيقة أن حرب الخليج نفسها لم تدم إلا قليلاً... أنها كانت في حقيقة الأمرحرباً بلا أصداء حقيقية، فالقتال البري الفعلي لم يدم إلا أربعة أيام، وقد تم خوضه بجيش نخبوي محترف مما جعله لا يمس إلا القليل من الأسر الأميركية نسبياً، بالنسبة إلى الجزء الأكبر من البلاد لم تكن تلك إلا نوعاً من الحرب الافتراضية، حرباً لم يشارك فيها ولم يضحِ في سبيل كسبها إلا القليل، وحين انتهت انتهت دون أن تترك إلا القليل من الآثار"[٢].

هذا الاقتباس يفيدنا في عقد مقارنة بين ذلك الشعور السريع بالفرح الذي أبداه الأميركيون بانتصار جيشهم في حرب الخليج الثانية من جهة وقصر مدة الحرب من جهة أخرى، والموقف الذي وقفه الرأي العام الأميركي من بوش الأب –رغم ذلك– بعدم تجديد انتخابه كعقاب على الوضع الاقتصادي الذي تردى أكثر فأكثر إبان فترة حكمه، ولنا أن نتصور تبعاً لما ذكر أعلاه، كيف سيكون موقف الرأي العام الأميركي من بوش الابن والجمهوريين في الانتخابات التي أوصلت أوباما والديمقراطيين للحكم في العام ٢٠٠٨م في ضوء ما حصل في العراق، فبالمقارنة مع حرب بوش الأب فقد تصاعدت خسائر الجيش الأميركي بعد احتلال العراق كما إنه وبالمقارنة بقصر الحرب

---

[١] حرب في زمن السلم، ديفيد هالبرشتام، ص ١٩.

[٢] المصدر السابق، ديفيد هالبرشتام، ص١٩– ٢٠.

التي خاضها بوش الأب، فإن حرب الابن استمرت طويلاً، ورغم تعثرها منذ مراحلها الأولى، إلا أن إصرار إدارة بوش على الاستمرار فيها أدى إلى انفضاض الرأي العام عنها، وإذا كانت حرب الأب لم تترك إلا القليل من الخسائر البشرية، فإن حرب الابن نتج عنها الكثير الكثير من الخسائر.

الأميركيون رفضوا انتخاب بوش الأب رغم انتصاره في الحرب على العراق، وقلة خسائر جيشه، وسرعة إنهاء الحرب؛ لفشل برنامجه الاقتصادي، فهل سيقبل الأميركيون بمكافأة بوش الابن على فشل الحرب وخسائرها الهائلة، والأدهى من كل ذلك هو هذا التدهور الاقتصادي الذي تعيشه الولايات المتحدة والذي ساهمت حرب العراق في تفاقمه بشكل كبير، ويقدر خبير الاقتصاد الأميركي والحائز على جائزة نوبل لعام ٢٠٠١م (جوزف شتغلتز) "نفقات الحرب على العراق بستة تريليونات دولار من دون الفائدة، فالسنة انتهت بأزمة اقتصادية عالمية رفعت عجز الموازنة الأميركية تريليونات أخرى"[1]، وكانت تقديرات (شتغلتز) وزميلته (لندا بلمز) المحاضرة في جامعة هارفارد عن تكاليف حرب العراق وأفغانستان، قد قدرت بثلاثة تريليونات دولار قبل الانهيار المالي الحالي.

هذه النكسات –بين عوامل أخرى– أدت لتراجع تأييد الأميركيين للحزب الجمهوري، كما ظهر في الانتخابات النصفية التشريعية التي جرت عام ٢٠٠٦م، ورفض المرشح الرئاسي الجمهوري (جون ماكين) بعدّه استمراراً لإدارة بوش.

كان تراجع الاقتصاد الأميركي والذي عززه الإنفاق المفتوح على حرب العراق، قد دفع للتساؤل "إذا سقطت الإمبراطورية السوفيتية من الإجهاد

---

[1] عيون وآذان، جهاد الخازن، الحياة، الأول من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩م.

الشديد الذي أصاب اقتصادها بسبب سباق التسلح، فهل تعمل الولايات المتحدة من خلال سعيها الدؤوب الأعمى لضمان هيمنتها العسكرية على تقويض الأسس الاقتصادية لقوتها تلك؟.. لا سيما وإن العجز المالي في الميزانية الفيدرالية في تزايد مستمر، والأزمات التي تعاني منها ميزانيات الدولة والأجهزة المحلية أخذت تؤثر في مجالات الخدمة العامة"[١].

سجل من الخطايا

لم تكن الحرب على العراق وأفغانستان وما خلفته من آثار هي السلبية الوحيدة التي لازمت إدارة بوش، فقد كانت هناك العديد من السلبيات على الصعيدين الداخلي والخارجي، إذ كان الإعلان عن فضيحة سجن (أبو غريب) صدمة للأميركيين الذين لم يكونوا يتوقعون أن تقوم بلادهم بهذا النوع من الممارسات، فضلاً عن هذا بدأت فضائح سجن قاعدة غوانتانامو بالظهور لتكشف عن نهج في التعذيب لم يكن مقصوراً على ممارسات (أفراد) فقط (كما زعمت الإدارة)، بل كشفت أيضاً أن التعذيب وانتزاع المعلومات كان سياسة منهجية تمارس بتعليمات من أعلى المسؤولين في وزارة الدفاع.

هذا فضلاً عن قيام الاستخبارات الأميركية بإدارة سجون سرية في عدد من البلدان العربية والإسلامية إضافة للأوروبية، إزاء هذا الوضع بدأت صورة الولايات المتحدة الخارجية تتدهور بشكل غير مسبوق كما ازدادت عزلتها الدولية، وبدأت أعراض فيتنام التي عزلت الولايات المتحدة عن العالم وحطت من سمعتها وأساءت إلى مكانتها بالظهور ولكن بشكل أقوى.

---

[١] الإمبريالية الجديدة، ديفيد هارفي، ص٨٧.

وإذا كانت هذه هي سمعة الولايات المتحدة خارجياً، فإن الأميركيين–الذين كوتهم نار الحرب على العراق– قد بدأوا بالتململ نتيجة التقصير الواضح في سلوك الإدارة إزاء الوضع الداخلي بعد أن رهنت نفسها لحربين مدمرتين، وحرب أوسع أطلقوا عليها "الحرب على الإرهاب"، وليست مأساة إعصار كاترينا وما كشفت عنه من قصور فاضح للقوة الأعظم في عقر دارها إلا أحد مظاهر تراجع تأييد الأميركيين لإدارة بوش.

على أن قاصمة الظهر كانت في الانهيار المالي الذي ضرب مؤسسات مالية تمثل قلب الرأسمالية الأميركية وجوهرتها الفريدة، وتطور هذا الانهيار لكي يتحول إلى إعصار مالي بدأت رياحه العاتية تضرب المرتكزات الاقتصادية وتتحول تدريجياً لكساد طويل أضحى معه ملايين الأميركيين بلا عمل وقسم منهم بلا مساكن وسط مخاوف من المجهول.

هذه التطورات وغيرها كثير مما حدث في ظل إدارة بوش، أذهلت الأميركيين وجعلتهم يفكرون لأول مرة ربما بمآلات بلادهم ومصيرها، والتي تصنف بأنها القوة الأعظم الوحيدة في العالم، والتي حولتها سنوات بوش العجاف إلى بلد منكوب بالحروب وفضائح التعذيب، والعزلة الدولية، وانحطاط السمعة، والقصور الداخلي، وفساد الشركات وبيوت المال–رغم أن هذا يعود لسنوات طويلة قبل تولي إدارة بوش الحكم– ومن ثم انهيار مالي قد يتبعه انهيار اقتصادي قد يؤدي لتغيير ما يسمى " نمط الحياة الأميركي" الذي يعدّه الأميركيون عصب تفردهم في العالم.

انتخاب أوباما

مع انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية الأميركية كانت حظوظ إدارة بوش الجمهورية في أدنى مستوياتها ومع اقتراب الحملة من نهاياتها كان

الأميركيون قد حزموا أمرهم بضرورة التغيير، وأشارت استطلاعات الرأي إلى تخوف غير مسبوق للأميركيين من استمرار الوضع الحالي "وقبل يوم واحد من الانتخابات- الإثنين ٣ تشرين الثاني/نوفمبر- أظهر آخر استطلاع لمؤسسة غالوب أن (٨٦%) من الأمريكيين غير راضين عن الوضع الحالي لأمتهم، أو بعبارة أخرى يعتقدون أن بلادهم تسير في الاتجاه الخاطئ"[١].

وتعبيراً عن التوق للتغيير الذي جعله أوباما عنوان حملته، فقد سارع الأميركيون للمشاركة في انتخابات عُدّت حاسمة، فقد "شارك في الانتخابات حوالي (٦٦%) من الناخبين الأمريكيين، وهي أعلى نسبة شهدتها الانتخابات الأمريكية منذ عام ١٩٠٨م، متقدمة بذلك على انتخابات ١٩٦٠م التي بلغت فيها نسبة المشاركة (٦٣,١%)، في حين بلغت نسبة المشاركة عام ٢٠٠٤م حوالي (٥٥,٣%)"[٢].

كان نجاح أوباما تحصيل حاصل لوضع يريد الأميركيون الخروج منه ورأوا في المرشح الديمقراطي السبيل الوحيد لذلك.

صحيح أن أوباما كان أسود أو (مختلطاً) وصحيح أيضاً أن التوجه لاختيار رئيس أسود يعد سابقة في الولايات المتحدة، إلا أن الإشكالات التي خلقتها إدارة بوش من جهة، وظهور جيل أميركي أقل تأثراً بالمسألة العنصرية من الأجيال السابقة، أدت بالأميركيين للتفكير بما لا يمكن التفكير به من قبل، فقد كان يمكن للناخب الأميركي أن يصوت لصالح هيلاري كلينتون وهي أحد أبرز قيادات الحزب الديمقراطي والمنافس الرئيس لأوباما على ترشيح الحزب، كما أنها عضو في مجلس الشيوخ وزوجة رئيس سابق يثق به الأميركيون بالنسبة لبوش على الأقل.

---

(١) تقرير واشنطن، ٨ تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠٠٨.

(٢) تقرير واشنطن، ٨ تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠٠٨.

إلا أن تغليب أوباما يدلل على أن الأميركيين بحاجة ماسة للتغيير، وأنهم قد فقدوا الثقة بكل القيادات الموجودة بعد أن تأكد لهم مدى الانحطاط الذي أصاب سمعة ومكانة بلادهم.

المبحث الثاني
أي تغيير؟

كان انتصار أوباما واحداً من الانتصارات غير المسبوقة في التاريخ الأميركي، ليس لرمزيته فقط كون أوباما (أسود) أو من أصول إفريقية مسلمة، ولكن الأهم من ذلك أنه يأتي في موعده تماماً كالمخلص المنتظر، فقد تدنت أميركا تحت إدارة بوش لمرحلة الحضيض، ولا يتذكر الأميركيون -رغم اختلاف الأجيال- حقبة أسوأ من هذه الحقبة بما فيها حقبة الحرب الفيتنامية بكوابيسها السوداء، ولا يمكن تفسير كل هذه الحماسة في انتخاب شاب أسود قليل التجربة السياسية- دخل واشنطن عام ٢٠٠٤م- إلا لوجود رغبة حقيقية في التغيير والتغيير الجذري.

وإذا كان هذا هو حال أميركا بوش، فإنها حال قد تشكل حدود التغيير الممكن الذي رفعه أوباما شعاراً وتلقفه الأميركيون أملاً، فتركة بوش الثقيلة التي يتوجب معالجتها قد تقلل من قدر التفاؤل بإمكانية إحداث تغيير حقيقي.

والأمر الأكثر أهمية هنا هو الاتفاق على معنى التغيير ومداه، وإلى أي حد سيتمكن أوباما أو حتى يرغب في تحقيق التغيير؟ هذه الأسئلة قد يصعب الإجابة عليها إلا أن هناك حقائق ومؤشرات قد تعطينا فكرة عما يمكن توقعه من الإدارة الجديدة.

حقائق

فمن الحقائق الجديرة بالملاحظة حقيقة أن أي رئيس أميركي، ليس إلا رئيساً لإدارة تستند في حكمها لمؤسسة أكبر تصنع الرؤساء وتشكل الإطار الاستراتيجي لمنهجهم في الحكم، وهي حقيقة يتوجب على أي رئيس مهما كانت شعبيته التعامل معها بقدر كاف من الجدية والالتزام، فـ"المؤسسة" تمثل المصالح القومية للولايات المتحدة وتدخل في صلب التركيبة المعقدة للنظام ما فوق السياسي الأميركي، والرئيس بالتالي يعمل على تعزيزها وصيانتها وفق أسلوبه في الحكم وقدراته القيادية، ولئن كان معروفاً وجود ما يسمى "المجمع الصناعي العسكري"[1]، ومدى تأثيره على السياسة الأميركية، فإن هذا المجمع ليس إلا جزءاً من المؤسسة التي تضم أيضاً أركاناً أخرى لا يقل تأثيرها السياسي مثل "وول ستريت" العنوان الأبرز للرأسمالية الأميركية ومراكز البحث التي تتولى مهمة تشكيل عقل القادة والساسة والمشرعين وتشكل كذلك منهجية التفكير السائدة في أي إدارة بكل مستوياتها وداخل كل المؤسسات الحكومية والخاصة، مراكز البحث هذه ترسم استراتيجيات أي

---

[1] هناك الكثير جداً من الدراسات التي تناولت دور وأهمية المجمع الصناعي العسكري في الولايات المتحدة كونه المحرك الحقيقي للتوجهات الأميركية وصنع القرارات داخلياً وخارجياً، يمكن مراجعة بعضها على سبيل المثال:

Hartung, William D. "Eisenhower's Warning: The Military-Industrial Complex Forty Years Later." World Policy Journal 18, no. 1 (Spring 2001).
Johnson, Chalmers the Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic, New York: Metropolitan Books, 2004
Kurth, James. "Military-Industrial Complex." In The Oxford Companion to American Military History, ed. John Whiteclay Chambers II, 440-42. Oxford & New York: Oxford University Press, 1999.
Nelson, Lars-Erik. "Military-Industrial Man." In New York Review of Books 47, no. 20 (Dec. 21, 2000): 6.

إدارة في إطار محدد من التوجهات والرؤى التي تتحول بدورها إلى سياسات مدعومة بقوة الدبلوماسية الأميركية أو القوة المسلحة[١].

وفضلاً عن هذا هناك الإعلام الذي يتولى تسويق أطروحات مراكز البحث وبثها في الرأي العام، أو الترويج لسياسات محددة وأمور أخرى تدخل في صلب النظام السياسي الأميركي المعقد[٢].

الإشارة إلى هذا وغيره حريٌ أن يضعنا في صورة الواقع الذي لا يواجه الرئيس فقط بل يصنعه كذلك، فالرئيس يبدأ حملته الانتخابية من حزبه، ومصادر تمويله، والإعلام، مروراً بمراكز البحث التي تزوده بخبراء يتحكمون برؤيته في القضايا الاستراتيجية، فضلاً عن مستشاريه الذين يأتي غالبهم، إما من مراكز البحث أو بكونهم مسؤولين سابقين أو عسكريين خارج الخدمة، وهكذا تتوالى عملية صنع الرئيس وتكوين خياراته، خصوصاً في المجال الخارجي.

(أوباما) لا يشذ عن هذه القاعدة بالطبع، وهو وإن توفرت له قاعدة انتخابية واسعة وتفويض كبير فضلاً عن حصوله على تبرعات كثيرة بطرق مبتكرة من أفراد ومجموعات شعبية، إلا أن هذا كله لا يمكن أن يصنع له إطاراً من الاستقلال عن المحيط الذي يتنفس فيه.

ومن الحقائق الأخرى بالنسبة لأي رئيس جديد إدراكه أنه لا يصنع السياسة بل يمارسها من خلال مواصلة عمل من سبقوه، وإن بطريقته

---

[١] هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية؟ دونالد أبلسون، ترجمة مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م) ص١٧، ٩٨.

[٢] يتذكر الجميع دور الإعلام الأميركي-والرصين منه على وجه الخصوص كصحيفة نيويورك تايمز الأكثر نفوذاً والواشنطن بوست وغيرها كثير- في الترويج لمزاعم وجود أسلحة دمار شامل في العراق، بشكل مستمر وإلى المدى الذي جعل الرأي العام يتقبل تلك المزاعم وعدّها حقائق لا يرقى إليها الشك.

الخاصة، وبالمعطيات التي تتوفر له لحظة تسلمه الحكم؛ فإنَّ الإدارات الأميركية تعتمد التأسيس على ما سبق، وليس التأسيس على الجديد، بخلاف ما هو طارئ، وبكلمة أخرى فإن الإرث الذي يتسلمه أي رئيس هو إرث يمثل سياسة تم اعتمادها وفقاً لأسس استراتيجية المصالح القومية الأميركية وتراث أميركي من الخطط والرؤى والاستراتيجيات الذي تشكل من خلال تراكم طويل الأجل وعبر عهود جمهورية أو ديمقراطية.

وبطبيعة الحال فإن هناك استثناءات يمكن معها (تصحيح) مسار ما أو تعديله أو تلوينه بعيداً عن الأسود والأبيض، ولكن كل هذا لا يرقى لإلغاء سياسة قائمة أو متفق عليها في الإطار الاستراتيجي.

فالسياسات الاستراتيجية إزاء موضوعات محددة –خارجية في الغالب– لا ينظر إليها على أنها سياسة إدارة بعينها، بل هي سياسة أميركية ثابتة يمكن أن تخضع للمراجعة أو التخفيف المؤقت أو التشدد... إلخ

وعلى هذا الأساس فإن كل سياسة خارجية أميركية تخضع للعامل التراكمي الذي ينبغي التأسيس عليه ومواصلته بالطرق ذاتها أو بطرق أخرى تتفق وأولويات الإدارة المعنية وظرفها السياسي والدولي، ويعود سبب ذلك إلى أن معالم السياسة الخارجية يرسمها بالعادة خبراء واستراتيجيون ومراكز بحث تتوسل (رؤية استراتيجية) لقضية ما وتحيطها من كل جوانبها بما يتلاءم مع استراتيجية المصالح القومية الأميركية.

العراق مثلاً، يدخل في إطار السياسة التراكمية أو الاستمرار في السياسة ذاتها إنما بمعطيات جديدة تزيد أو تنقص، ولكنها لا تخرج عن رؤية استراتيجية محددة المعالم، فمنذ إدارة (ريغان) في الثمانينات وصولاً إلى بوش الابن ومروراً بإدارات بوش الأب وكلينتون، لم تتغير السياسة الخاصة

بالعراق، بل عدّت سياسة دولة لا سياسة إدارة بعينها، وهو الحال مع إدارة أوباما القادمة[1].

مؤشرات

وإذا كان ما تقدم هو الإطار الموضوعي الذي يحيط بالرئيس، وهو هنا أوباما، فإن الإطار الذاتي أو طبيعة اختيار الرئيس الجديد لطاقمه الحكومي هو الذي سيترجم توجهات الإدارة، ويتضح الآن أن شخصيات هذا الطاقم تشير بالفعل لحدود التغيير الممكنة في عهد الرئيس الجديد، إذ اختار أوباما شخصيات قوية وذات خبرات واسعة، إلا أنها كذلك شخصيات يمكن أن ترسم حدوداً للرئيس أو تكبح اندفاعاته التي ترجمتها حملته الانتخابية، وبالرغم مما يقال عن تمتع أوباما بشخصية قوية أو كاريزما قيادية، إلا أن اختياره لفريق قوي جداً ذي اتجاهات معروفة لتشكل فريق سياسته الخارجية، يعني أيضا أن الرئيس قد اختار نهج الاتفاق والبراغماتية دون النظر إلى الاختلافات الآيديولوجية في رسم السياسات.

تجلى هذا في المناصب الثلاثة الأولى في السياسة الخارجية وهي الخارجية والدفاع والأمن القومي، فتعيين هيلاري كلينتون يعدّ، بشكل ما، استمراراً للسياسة الخارجية ولكن بقفازات مخملية تتناسب مع أسلوب "القوة الناعمة" التي يتوقع الكثير من المحللين عودة الولايات المتحدة لها بعد استدارة بوش الابن نحو القوة العارية المجردة كسبيل للسياسة الخارجية، كما إن الإبقاء على روبرت غيتس وزيراً للدفاع يؤشر للإبقاء على الزخم العسكري

---

[1] العسل والخل.. الحوافز والعقوبات والسياسة الخارجية، ريتشارد هاس وميغان أوسوليفان، ترجمة اسماعيل عبد الحكم (القاهرة :مركز الاهرام للترجمة والنشر ٢٠٠٢م)، ص٥١.

الأميركي في فترة الحرب التي تعيشها الولايات المتحدة والتي لا يعرف أحد حدودها أو مدياتها، ويدلل بأوضح صورة على نهج الاستمرارية[١].

وفي الحقيقة فإن وزارة الدفاع يمكن أن تكون المحك لسياسات أوباما وإدارته الجديدة إزاء العراق، فهذه الوزارة التي انطلق منها مخطط الحرب والغزو والاحتلال، "قد ملئت بموظفين تم استقدامهم من معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى وهو معهد مرتبط بمنظمة إيباك إحدى أبرز منظمات اللوبي الإسرائيلي في واشنطن"[٢].

أما إسناد رئاسة مجلس الأمن القومي إلى القائد السابق لحلف الأطلسي الجنرال جيمس جونز فإنه مؤشر آخر إلى محدودية التغيير المتوقع من إدارة أوباما، وسجل الرجل حافل بأربعين عاماً من الخبرة العسكرية والدفاعية والأمنية[٣].

كلمة أخيرة عن أوباما الرئيس علها توضح الصورة، فهو دخل إلى مجلس الشيوخ الأميركي عام ٢٠٠٤م عن ولاية إلينوي، ووفقاً للمحللين فإن هذا الشاب لا يعرف العاصمة (واشنطن) قبل هذا التاريخ، وهذا الكلام يعني الكثيرة لأن واشنطن ليست كأي مكان آخر، فهي مستودع الأسرار والدسائس وأوكار جماعات اللوبي والضغط، فضلاً عن مراكز البحث والمنظمات السياسية والإعلامية التي تمنح مزايا ثمينة للمتعاملين معها والعكس صحيح.

---

(1) Bill Gertz," Obama wants Bush war team to stay". December 23, 2008.

(٢) كهنة الحرب الكبار، مايكل كولينز بايبر، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل (الرياض، مكتبة العبيكان،٢٠٠٦)، ص٥٤.

(3) By: John Barry, Dan Ephron and Richard Wolffe" The General's Marching Orders", Newsweek issue dated Dec 8, 2008, http://www.newsweek.com/id/171269.

كما أن أوباما، فضلاً عن نقص خبرته السياسية، فهو وكما أسلفنا أسود يقود الولايات المتحدة الأميركية لأول مرة بما يعد سابقة في تاريخ بلاد مارست التمييز العنصري لفترة طويلة من الزمن، وإزاء هذه الحالة كيف سيتصرف أوباما من الناحية النفسية وما هي طبيعة استجابته لهذا الوضع الجديد؟، يمكن للمرء أن يجادل بالقول إن أوباما شق طريقه بقوة الانتخاب والتفويض الواسع وأنه شخصية تتمتع بقدرات كبيرة تمكنت معها من فرض حضوره الشخصي والذاتي وبما يحقق الفوز من ثنايا الفرصة التي برزت في هذا الوقت العصيب، وأن أوباما تالياً ليس مديناً لأحد بكفاحه الذي بدأ منذ فترة ليست قصيرة وهو الشاب الذي درس في أرقى الجامعات الأميركية، صحيح؟ نعم صحيح وكل هذا صحيح؛ غير أنه يبقى على أوباما أن يستحضر الأمور الآتية أثناء مزاولة عمله كرئيس لأكبر وأخطر دولة في العالم:

- أوباما أسود، وسط أغلبية بيضاء.
- شاب لا يتمتع بالنضج والكفاءة والخبرة السياسية اللازمة للعمل في أخطر منصب على وجه الأرض.
- يتولى قيادة سفينة أصابها العطب في خضم بحر متلاطم الأمواج وأعاصير عاتية لا تكاد تختفي حتى تأتي من جديد وبقوة أكبر.
- يقود القوات المسلحة الأميركية، وهي قوات أصاب روحها المعنوية والنفسية انحطاط كبير، كما استنزفت قوتها المادية حربان غير تقليديتين لم يكن الجيش مستعداً لمواجهتهما أبداً، ما أدى لسقوط كل من هيبة القوات الأميركية وهيبة سلاحها الذي يتمتع بقوة الردع من بعيد.
- يستجمع كل العزم الموجود في نفسه وروحه من أجل إنقاذ السفينة التي يقودها، خصوصاً بعد أن تسلم دفة القيادة فيها وسط هذا الخضم، وسيكون آخر شيء يفكر فيه أوباما أن يسجل التاريخ أنه الرئيس الذي شهدت الولايات

المتحدة المزيد من التدهور ولم يفعل ما يمكن لإنقاذها، كل هذا سيدفع أوباما لإثبات حرص-غير متكلف بالضرورة- على إعادة وتعزيز قوة الولايات المتحدة وإعادة عقارب الساعة للوراء من أجل استعادة الانفراد الأميركي بقيادة العالم، وكل هذا يعني المزيد من المواجهات الدموية والرهيبة مع المقاومين للمشروع الإمبراطوري الإمبريالي؛ لأن سمعة الولايات المتحدة باتت على المحك.

- في خطاب إعلان انتصاره بالرئاسة شدد أوباما على "الحلم الأميركي" الذي أتاح لرجل أسود من أصول مسلمة وغير معروف على نطاق واسع، أن يصل إلى المنصب الأول في الولايات المتحدة، لم يكن أوباما يكذب أو يبالغ بل هو يتكلم بإيمان بهذا الحلم؛ وهو ما يعني أنه سيقاتل بمرارة من أجل البلاد التي منحته ما هو فيه الآن، وبكلمة أخرى فإن الشعور الوطني أو الإيمان بالحتميات الأميركية المقدسة، سيكون عند أوباما الرئيس أقوى وأعلى بكثير من غيره من السياسيين الأميركيين، وهذا بذاته يحمل الكثير من الدلالات.

- الملاحظ في اختيار أوباما لفريق إدارته، أنه ضم نخبة من كبار الشخصيات أو مجموعة من "الطراز الثقيل" كما سماهم هنري كيسنجر، وبالفعل فقد ضم فريقه مجموعة من القدرات القوية والكفوءة وذات التجربة الطويلة ممن تقلدوا مناصب حساسة، أو كانوا قريبين جداً من مركز صنع القرار، وأوباما إذ يدرك ذلك إنما يريد أمرين: الأول: التعويض عن قلة خبرته السياسية وإعطاء إدارته قدراً كبيراً من الهيبة والقوة، أما الثاني: فإنه يدرك أن الظرف الذي تمر به الولايات المتحدة عصيب وصعب، ويحتاج للكثير من الطاقات غير الحزبية أو الأيديولوجية، وبالتالي فإنّ ضم هذا العدد الكبير من القدرات

السياسية من مختلف الألوان الحزبية في إدارته إنما بمثابة إعلان عن كون هذه الإدارة حكومة وحدة وطنية أو حتى حكومة إنقاذ وطني.

• وأخيراً، فإن اختيار أوباما لهذا العدد من القيادات الأكثر كفاءة وتجربة وسبقاً سياسياً وعسكرياً وأمنياً ودفاعياً من الرئيس نفسه وضمهم كمعاونين ومستشارين ووزراء لا يعني ببساطة أنه اختارهم ليكونوا له عدواً وحزناً.. فمستشار الأمن القومي الجنرال جيمس جونز، مثلاً يحمل خبرة أربعين عاماً من العمل العسكري والسياسي والأمني وواحد من أقوى الشخصيات وأكثرهم جرأة وصراحة (أي مواجهة) في واشنطن، والذي يتربع على مكتب يبعد أمتاراً فقط من مكتب أوباما الرئيس... أوباما لم يأت بهؤلاء كي يناكفهم أو يناكفوه، أو يخوض معهم جولات جدال، أو مماحكات سياسية، أو يستشيرهم ثم يختار الاتجاه المعاكس.. كلا، بل هو انسجام التراكم الإمبريالي-وإن بأساليب أخرى- لإنقاذ السفينة الأميركية، وبما يعني الإبقاء على كل مرتكزات القوة أينما كانت أو تحققت سواء في عهد البوشين أو غيرهم[1].

• ولعل خير ما يوضح الصورة، تصريحات وزيرة الخارجية كونداليزا رايس التي عبرت فيها عن اعتقادها بأن أوباما لا يملك أي خيار سوى مواصلة الكثير من سياسات بوش الخارجية[2].

---

[1] تم انتداب جونز عام ٢٠٠٧م ليعمل مع الجنرال كيث دايتون في "بناء وتأهيل الأجهزة الأمنية الفلسطينية" والتي كانت- لجنة دايتون- أحد صواعق تفجير الموقف بين حركتي فتح وحماس، كما تولى في التسعينيات قيادة مهام الإغاثة الأميركية في شمال العراق، وفي عام ٢٠٠٧م ترأس لجنة من كبار السياسيين والعسكريين أوصى فيها بتقليل حجم القوات الأميركية في العراق في محاولة لتغيير صورتها كقوة احتلال.

[2] Daniel Dombey in Washington" Rice: Obama to follow Bush foreign policy", Published: December 21 2008, http://www.ft.com/cms/s/0/99a2e8b6-cfa7-11dd-abf9-000077b07658.html?nclick_check=1

المبحث الثالث
القضية العراقية بعد انتخاب أوباما

تركة بوش الثقيلة

بذلت إدارة بوش المنصرفة كل جهد ممكن من أجل التوصل لاتفاق أطلق عليه اسم "الاتفاق الأمني" والذي جاء في ثنايا ما يعرف بـ "اتفاقية الإطار الإستراتيجي" التي (تنظم) العلاقة بين دولة الاحتلال من جهة ومشروعها السياسي في العراق المعروف باسم "العملية السياسية" وحكومتها في بغداد.

جهود إدارة بوش في توقيع الاتفاق، رغم تأكد رحيلها، جاء لأسباب عديدة، فبوش يريد التوصل لاتفاق يحقق به شيئاً ما يعد بمثابة إنجاز لإدارته التي تستطيع أن تفخر بأنها وضعت يدها على مستقبل العراق ومستقبل الاحتلال فيه لفترة زمنية غير محددة، ومن جهة أخرى فإن إدارة بوش التي حققت بنفسها غزو واحتلال العراق وارتكاب كل ما لا يمكن التفكير بارتكابه، من أجل إرساء وتثبيت هذا الاحتلال كحقيقة واقعة، لا تريد إنهاءه بنهاية عهد بوش ورحيل المحافظين الجدد عن الحكم، فالهزيمة التي لحقت بمشروع الاحتلال في العراق والانكسار العسكري الأميركي المعنوي والمادي، فضلاً عن الانهيار المالي والكساد الاقتصادي وتراكم المشكلات التي تواجه الولايات المتحدة، لا تغري كثيراً بتأييد بقاء الأوضاع في العراق على ما عليه بعد رحيل بوش ورحيل محافظيه الجدد.

فاحتلال العراق ليس استراتيجية أميركية قديمة، أو متفقاً عليها في الدوائر الأميركية، بل هو مشروع خاص بالمحافظين الجدد الذين رسموا على الورق معالم إمبراطورية أميركية، وما أطلقوا عليه "الشرق الأوسط الكبير" واعتبروا

أن احتلال العراق-وهو أهم دولة في الرقعة الجيواستراتيجية للشرق الأوسط- هو حجر الأساس في بناء الإمبراطورية وانطلاقها[١].

وفضلاً عن هذا فإنَّ احتلال دولة مثل العراق في عصر ما بعد الاستعمار، وخصوصاً بالطريقة التي تم بها، لا يعتبر أمراً مقبولاً، أو يمكن الاعتراف به في أوساط صنع القرار الأميركي أو حتى مراكز البحث الرصينة، ناهيك عن الرأي العام العالمي وما يسمى بالمجتمع الدولي،لأنه ببساطة مشروع لا يمكن تبريره، وبالتالي لا يمكن قبوله، مهما كان شكل نظام الحكم في العراق أو أيديلوجية ذلك النظام، صحيح أن الاستراتيجية الأميركية توسلت مقاربات عديدة إزاء العراق طيلة فترات حكم جمهورية وديمقراطية سابقة، كالاحتواء والعزل، والتحجيم والحصار، ومحاولات قلب نظام الحكم، أو حتى تشجيع أنواع التمرد العرقي والطائفي وصولا ربما للتقسيم[٢]، ولكن هذه المقاربات لم تصل إلى حد التفكير باعتماد الاحتلال كوسيلة أو مقاربة لحل "المسألة العراقية". المحافظون الجدد فعلوا بعد أن فكروا وقدروا وخططوا حتى إذا ما تمكنوا من الحكم في عهد بوش الابن نفذوا مشروعهم ولكن بثمن مكلف جداً وعلى حساب هيبة وموارد وقوة وسمعة واقتصاد الولايات المتحدة، حتى ليبدو الآن أن المحافظين الجدد هم أول من أطاح بالحلم الإمبراطوري الذي اخترعوه، كلفة كانت واحدة من أسباب انقلاب الأميركيين على الحزب الجمهوري ومرشحه الرئاسي جون ماكين، ولو بعد حين.

---

[١] التفرد الأميركي المحافظون الجدد والنظام العالمي، ستيفان هالبر وجوناثان كلارك، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥)، ص ١٩٢-٢٠٥.

[٢] العسل والخل الحوافز والعقوبات والسياسة الخارجية، ريتشارد هاس وميغان أوسوليفان، ترجمة اسماعيل عبد الحكم (القاهرة :مركز الاهرام للترجمة والنشر ٢٠٠٢)، ص٥١-٥٦.

هناك سبب ثالث دعا بوش لبذل كل ما يستطيع من أجل إبرام الاتفاقية الأمنية والاستراتيجية يتعلق بنوايا إدارة أوباما القادمة بشأن الانسحاب من العراق استناداً لجدول زمني محدد، بوش ومحافظوه أدركوا أن رحيلهم وسط هذه الظروف التي تواجه الولايات المتحدة من شأنه أن ينهي آثارهم، وأبرزها احتلال العراق، خصوصاً أن هذا الاحتلال لا يحظى بأي شعبية أو اهتمام ولا تملك الخزينة الأميركية ترف الإنفاق عليه، بعد أن أصبح عبئاً على الخزينة التي تنوء بأحمال دَين خرافي يقارب عشرة تريليونات دولار.

كما أن إبرام الاتفاق يمكن بوش من التحكم في الموضوع العراقي حتى وهو خارج البيت الأبيض، عبر إلزام الإدارة الجديدة باتفاقية تنظم (وجود) قوات الاحتلال وتمنحها (مشروعية) تم الاتفاق عليها بين الاحتلال وأركان العملية السياسية في بغداد، ويستطيع بوش أن يفخر الآن بأنه مكّن لبقاء قوات الاحتلال، مهما حاولت الإدارة الجديدة أن تفعل عكس ذلك في العراق.

العلاقة الأفغانية

بوش يدرك أيضاً أن أوباما الذي سيخوض (حربه) في أفغانستان، سيكون بأمس الحاجة لإرضاء المؤسسة العسكرية وجنرالاتها الذين يتوقف عليهم -من وجهة النظر العسكرية الأميركية- مصير الحرب في أفغانستان، إرضاء هؤلاء الجنرالات سيكون ممكناً فقط عبر التوصل لترتيبات (معقولة) ومقبولة للجنرالات بخصوص العراق، أبرزها عدم المضي قدماً في سحب القوات من هناك استناداً لبرنامج زمني محدد، كما يريد أوباما، باعتبار أن هذا من شأنه الإضرار بالجهد العسكري الأميركي والتضحية بـ(المنجزات) الهشة التي تحققت على الأرض بعد مشوار مكلف جداً استمر ست سنوات، ويدرك أوباما أن الرئيس الأسبق جون كينيدي حاول وفشل في القيام بسحب القوات

الأميركية من فيتنام، ولكن الجنرالات تحفظوا على أي خطط من هذا القبيل، مما دفعه للتراجع عن الأمر[1].

حرب أفغانستان ستكون حرب أوباما التي يعدّها حرباً حقيقية ضد (الإرهاب) بل الحرب "الصحيحة في مكانها الصحيح"، ففي معرض انتقاده اللاذع بشكل مستمر للحرب في العراق، كرر أوباما القول: إن بوش خاض "الحرب الخطأ في المكان الخطأ" وأطلق عليها صفة "الحرب الغبية"، ويعدّ أوباما أن الحرب "بدأت في أفغانستان ويجب أن تنتهي هناك" ومن هنا بدأ سعيه الدؤوب لتركيز الجهد العسكري والاقتصادي على الأرض الأفغانية وليس في بلاد الرافدين.

غير أن أوباما يدرك الآن أن مصير الحرب الأفغانية سيقرره الجنرالات وعلى رأسهم الجنرال ذي النفوذ المتصاعد ديفيد بترايوس، الحريص جداً على عدم المساس بالوضع العراقي و (منجزاته) الأمنية التي تحققت هناك على يده هو، والتي أسندها بدوره لواحد من أكثر جنرالات الاحتلال تطرفاً وأكثرهم رغبة بتوطيد (النصر) وإن جاء عبر أقصى درجات العنف؛ والإشارة هنا إلى قائد القوات الأميركية الحالي في العراق الجنرال أوديرنو.

هناك ثلاثة جنرالات يعارضون توجه أوباما بسحب القوات من العراق استناداً لجدول زمني محدد، وهم كل من بترايوس وأوديرنو ورئيس الأركان الأدميرال مولن، وإضافة للجنرالات الثلاثة هناك وزير الدفاع روبرت غيتس، الذي سيستمر في منصبه في دلالة واضحة على نهج الاستمرارية من عهد بوش إلى أوباما.

---

(1) Gareth Porter," POLITICS-US: JFK Episode Suggests Obama's Iraq Plan at Risk". http://ipsnews.net/news.asp?idnews=44888.

ذكاء أوباما –وهو ذكي جداً– سيقوده لإدراك أن الاتفاقية الأمنية مع حكومة العملية السياسية في بغداد، خطوة ستعود عليه بالنفع الكبير ولا ضرر منها، فهي أولاً ستؤمن انسحاباً من العراق، ليس مهماً تفاصيله أو طريقته أو زمنه وجدولته، وهو ما من شأنه أن يحقق لأوباما الوفاء بوعده الانتخابي بسحب القوات، يساعده على هذا إعلانه أكثر من مرة أنه "سيتشاور مع القادة الميدانيين قبل تنفيذ أي انسحاب"، كما أنه سيؤمن لأوباما مزيداً من القوات التي يمكن إرسالها إلى أفغانستان لتعزيز وضع القوات هناك، والتي تقترب من إعلان الهزيمة بعد أن أعلنت "عدم إمكانية تحقيق نصر عسكري".

فضلاً عن هذا كله ستخفف الإتفاقية الأمنية من أي توتر محتمل، بشأن العراق، مع جنرالات الجيش الذين يقفون في الميدان ويخوضون حرباً طويلة، ويتمتعون بالتالي بتعاطف الشعب الأميركي الذي يقدس جيشه ويقف إلى جانبه دائماً بغض النظر عن عدالة أو عدم عدالة الحرب التي تشنها الولايات المتحدة.

وعلى العموم، فإن الاتفاقية الأمنية تتيح للقوات الأميركية تأمين جبهة العراق والحفاظ على الأوضاع كما هي (Status quo) حتى يتم التفرغ لجبهة أفغانستان التي بدأت بالانهيار، ومن هنا فإن استقرار الأوضاع في العراق من شأنه أن يسد حاجة بالغة الحيوية للاستراتيجية الأميركية التي كان يمكن أن تتعرض لنكسة كبيرة جداً، في حال بقاء نزيف القوات والموارد في العراق كما هو، وبما يعني احتمال توجه القيادة الأميركية للتفكير الجدي بالانسحاب من هناك أو البحث عن بدائل لطاقم العملية السياسية الحالي أو حتى الحوار مع الجبهة المناوئة للاحتلال.

فالأوضاع العسكرية في العراق وأفغانستان أصبحت خرقاً استراتيجياً لا يمكن رقعه أبداً، وهو يعني أحد أمرين: خسارة العراق وأفغانستان معاً، أو

تجميد إحدى الجبهتين من أجل التفرغ للأخرى بما يترتب على ذلك من توفير الموارد والقوات، وبالفعل فقد أعلنت القيادة العسكرية الأميركية عن نيتها إرسال ثلاثين ألف جندي إلى أفغانستان بحلول الصيف، ما يمثل أول إنجازات الاتفاقية الأمنية، وفضلاً عن تحويلها لوضع قوات الاحتلال من كونها كذلك إلى قوات استعمارية دائمة، فإنها تعد كذلك اتفاقية إعادة انتشار استراتيجي للقوات، يمكن معها ليس الإضرار بالعراق فقط، بل الإضرار كذلك بأفغانستان كقضية ومقاومة وتحرير، إذ يوجد اليوم علاقة استراتيجية بين العراق وأفغانستان، وأي ضعف للاحتلال هنا سيقابله ضعف هناك، كما أن أي قوة للعدو هنا سينعكس أثرها هناك، ومن شأن زيادة الضغط على قوات الاحتلال في أفغانستان والعراق أن يؤدي لانفراط عقد الاحتلال في البلدين المهمين أو تخفيف الضغط في أحدهما، كما أن الاتفاقية باتت تشكل اليوم الإطار الذي يحكم تحرك أوباما في العراق، ولكنه بالمقابل يطلق يده في أفغانستان وهو كما أسلفنا، خيار استراتيجي لأوباما.

العراق: التجميد الاستراتيجي

مع إبرام الاتفاقية الأمنية وتمريرها إضافة لبدء العمل بها، يكون العراق قد دخل مرحلة التجميد الاستراتيجي الذي يمكن أن يطول أو يقصر حسب مقتضيات الوضع ميدانياً، هذا التجميد الاستراتيجي يعدُّ حاجة أميركية جوهرية لعدة أسباب، فواشنطن تعيش وضعاً صعباً بانتظار إدارة جديدة تحتاج وقتاً ليس بالقليل لترتيب أولوياتها في إطار عملي وليس فقط نظرياً من خارج الحكم، ووسط ضغوط الانهيار المالي والكساد الاقتصادي الذي يؤثر على كل المرافق.

التجميد الاستراتيجي للوضع في العراق تؤكده كذلك الحاجة لتطورات تنتظر نضوج ظروف داخلية هناك قد تفرض بدورها تغييرات استراتيجية على وضع الكيان العراقي، فهذا الكيان قد يتعرض لمخطط تقسيمي تحت اسم الفدرالية ويتم بموجبها شطره لكيانات بدأت من كردستان شمالاً ووصلت إلى البصرة جنوباً بانتظار الإعلان عن إقليم الوسط والجنوب مروراً بأقاليم أخرى قد تتحرك في حال نجح مخطط الفدرالية في البصرة، فالقوى التي تتحرك اليوم باسم الفدرالية لم تعد تتحرج من أي شيء طالما أن دستور الاحتلال وعمليته السياسية يوفران الإطار المناسب لمثل هذا التحرك، كما أن الأكراد باتوا أكثر جرأة على التصريح بما لم يكونوا قادرين حتى على التفكير به من قبل فضلاً عن البوح به، ومعالم الإقليم -الدولة الكردية- أصبح واضحاً وضوح الشمس بانتظار ظروف أكثر ملائمة سيوفرها تجميد الوضع الاستراتيجي في العراق وجواره[1].

الإدارة الأميركية القادمة لا تمانع في أي تطور ينتهي بتقسيم العراق شريطة أن لا يكون مثل هذا التقسيم بوابة لفوضى يصعب السيطرة عليها، أو التحكم بنتائجها، أو يمكن استغلالها من قبل أطراف أخرى، وهذه هي المحظورات الأميركية التي لولاها لما وجدت لوحدة العراق أي قدسية أو اعتبار، بعبارة أخرى فإن واشنطن تؤيد نظرية "التقسيم المرن"، ونائب الرئيس أوباما "جوزف بايدن" هو أول من أعلن، في مشروع يحمل اسمه، عن ضرورة تقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات بعدّه الحل الأمثل لتفادي حرب

---

[1] نهاية العراق، بيتر وغالبريث، ترجمة إياد أحمد(بيروت:الدار العربية للعلوم- ناشرون، ٢٠٠٧) ص٢٣٨-٢٤١.

أهلية بين مكونات البلاد الرئيسية، كما ينسب إلى اوباما خلال الحملة الانتخابية قوله: (إن العراق كان بالأصل مقسماً وأنه خضع لعملية تركيب).

وسواء صحت نسبة هذا القول لأوباما أم لم تصح[1]، فإن شواهد عدة تؤكد أن واشنطن سوف لن تقف ضد تقسيم العراق باعتبار أن ذلك مصلحة إسرائيلية حيوية، مثلما هي مصلحة أميركية وإيرانية كذلك، والدستور والعملية السياسية والمحاصصة ووضع الأكراد وشواهد أخرى تؤكد كلها أن ما يجري حالياً ليس إلا مقدمات لفصول أكثر أهمية.

العرقنة: بانتظار دايتون عراقية

وفي الطريق لهذه التطورات فإن العراق قد يكون مقبلاً على فصول جديدة من الصراعات الداخلية في إطار ما يمكن أن يسمى "العرقنة" أو إعادة إطلاق الصراع العراقي- العراقي من جديد، وإذا كان انطلاق المرحلة الأولى من الصراع قد بدأ في أعقاب تفجير المرقدين العسكريين بسامراء -هو بدأ قبل ذلك ولكن بوسائل أخرى- فإن المرحلة الثانية قد تنطلق هذه المرة على أسس فدرالية وتقسيمية، تتعرض للخريطة الجغرافية في كل محافظة ومنطقة في العراق، وقد يكون إعادة رسم الخرائط والجدل حول الحدود سمة المرحلة المقبلة ومحور صراعاتها.

ومن جانبها فإن قوات الاحتلال تراقب كل هذه التطورات (الدستورية) وتتحكم بدرجة تسخين القدر العراقي، وصولاً لإنضاج الطبخة في الوقت الاستراتيجي الحاسم، قوات الاحتلال ستتولى تأمين الوضع (الدستوري- السياسي) كإطار يستوعب كل هذه التطورات، وتقوم في مرحلة تالية بإدارة

---

[1] أورده عزمي بشارة في محاضرة له في بيروت بعد الانتخابات الرئاسية الأميركية.

الصراع يوم أن ينشب وتستعر نيرانه، من أجل تحديد أحجام الأطراف وحصصهم وأقدار كياناتهم، وتعمل بالتالي على خلق أمر واقع لا مفر من التعامل معه والاعتراف به، هكذا فعل الغرب والولايات المتحدة في يوغسلافيا حين وقفوا يراقبون اندلاع الصراع والحرب الدموية بين الأطراف اليوغسلافية، التي اختلفت على توزيع الحصص والكيانات وكل شيء، ولكنها اتفقت على مبدأ مقاومة تأسيس كيان للمسلمين في البوسنة؛ لأنه يقع أيضاً في قلب أوروبا المسيحية، وانتظرت إدارة كلينتون والغرب، حتى تم نحر الكيان المسلم وأهله وانتهى كل شيء، ليتم بعدها إجبار المسلمين على التوقيع على "اتفاقية دايتون" التي أخرجت مسلمي البوسنة من المعادلة نهائياً وإلى الأبد.

شرعية الاحتلال وتمرد المقاومة

أخطر من الاتفاقية الأمنية وفصولها، وأخطر من الفدرالية ومراحلها، بل وأخطر من قوات الاحتلال وشكل (وجودها)، هي العملية السياسية وقوتها ومستقبلها، هذه العملية هي أخطر ما أفرزه الاحتلال، وهي صفحته الثانية وأخطر منها كذلك، فالعملية السياسية والدستور وبرلمان الاحتلال والحكومة وجيش الميليشيات ومحاكم الاحتلال، كل هذا وسواه، يشكل البنى الارتكازية للاحتلال وأسسه التي يقوم عليها.

وضع العملية السياسية وتمكنها ومصيرها هو ما سيقرر وضع الاحتلال ومشاريعه التقسيمية ومصير العراق بل والمنطقة، وكل (شرعية) تكتسبها العملية السياسية ستنتقص بالمقدار نفسه من شرعية الجبهة الرافضة للاحتلال، ورغم أن الرافضين للاحتلال لا يستجدون شرعيتهم من الاحتلال أو عمليته السياسية، إلا أن تثبيت أقدام عملية الاحتلال السياسية قد يحول المقاومين مع الأيام إلى مجرد (متمردين) وحركة مقاومتهم (حركة تمرد) في

مواجهة (دولة) وكيان (دستوري) قائم يحصل على الاعتـراف و(الـشرعية) خصوصاً أن الوضع الإقليمي أسوأ من السوء ذاته، ولعل السلطة الفلـسطينية (الشرعية) وحماس (الإرهابية) مثال على ما يمكن أن تؤول الأوضاع إليـه، رغم أن حماس قد تكون أفضل حظاً وشرعية من غيرها من قوى المقاومـة بسبب قدسية القضية الفلسطينية وشبه الإجماع عليها.

الدول العربية لا تعيش الواقع ولا حتى الـوهم، وهـي تنتظـر أوبامـا لتتخلص من عبء الركون إلى بوش سيئ الصيت والسمعة، وإذا كان العرب قد اصطفوا مع بوش رغم ما فعل للأمن القومي للعرب قبل الأمـن القـومي للعراق، فماذا سيكون موقفهم من شخصية بعيدة عن الاتهام، حتى الآن علـى الأقل، مثل أوباما وكيف سيعلنون عن تأييدهم، دون حرج، لمشاريعه العراقية القادمة.

أما إيران فهي تفرك يديها فرحاً بل لا تكاد تصدق ما يجري.. فإن كـان العراق لها فقد تحقق الهدف، وإن كان جزء منه لها، فقد تحقق الهدف كـذلك، وإن مضى تقسيم العراق وتفككت وحدته الجغرافية فقد تحقق الهـدف أيـضاً وأيضاً.. وتبقى تركيا التي تمسك بيدها جمرة الانفصال الكردي وتصارع من أجل أبقائها قدر المستطاع، ولكن إلى متى؟!

استراتيجية الرئيس المنتخب أوباما تجاه العراق

رائد فوزي احمود / نائب مدير عام المعهد العربي للبحوث والدراسات الإستراتيجية

في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي، سعت الولايات المتحدة إلى دعم وتأكيد زعامتها للعالم عبر مراجعتها الشاملة لاستراتيجية السياسة الخارجية في عالم ما بعد الحرب الباردة، بحيث تم توسيع وتحديد قائمة الأهداف الأمريكية، وجرت إعادة صياغة أولوياتها، ومن ثم وضع الاستراتيجيات اللازمة لمواجهة مصادر الأخطار أو التهديدات القائمة أو المحتملة في ظل البيئة الدولية الجديدة؛ فنمو النزعة العسكرية وازدياد الميل لاستخدام القوة لفرض السياسات الأمريكية يعد من أهم مظاهر النزعة الإمبراطورية للولايات المتحدة.

في هذا الإطار يلاحظ أن الولايات المتحدة تصعد من محاولاتها لتعزيز هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط من النواحي السياسية والاقتصادية والأمنية، كجزء من استراتيجيتها الرامية إلى الهيمنة الأمريكية على النظام الدولي.

هذه النـزعة الإمبراطورية الأمريكية عززها إصرار أمريكا على تعميم نموذجها الثقافي ونمط حياتها على العالم، وهو ما يعرف "بالأمركة"، وقد تطور هذا الأمر بسعي أمريكا نحو تحجيم دور مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة في حل النزاعات الدولية.

إن فهم السياسة الخارجية الأمريكية يستوجب قراءة التحولات والمستجدات التي طرأت على النظام الدولي، وتوضيح وتحليل دور هذه المستجدات في تغيير الاستراتيجية الأميركية تجاه العالم، وقراءة هذه التحولات يحتاج إلى أكثر من مجرد بضعة أوراق لدراستها حيث يضيق المقام ويتسع، ولكن ما نتوخاه هنا الاشارة إلى أن هذه النزعة لا زالت تطل برأسها لدى مخططي السياسة الأمريكية إلى وقتنا الحاضر، ويتضح ذلك بالتصدي العنيف للولايات المتحدة للدول الطامحة في مسرح السياسة الدولية، للخروج من واحة الضغوط والسيطرة الأحادية للولايات المتحدة، ومع بداية هذا العام بدأت دول أوروبية وأخرى آسيوية تطمح إلى الخروج من السيطرة الأمريكية على مسرح العلاقات الدولية نتيجة ما أثارته الولايات المتحدة من أخطار على مصالحها، والفوضى المنتشرة في أغلب بقاع العالم نتيجة سياسة الرئيس بوش وطموحه في تنفيذ مشروعه الذي رسمه له المحافظون الجدد والمتمثل بمشروع القرن الأمريكي الجديد.

مع نهاية العام الماضي بدت تتضح بصورة واسعة حالة استياء عارمة حتى لدى حلفاء أمريكا مما آلت إليه الأوضاع في المنطقة العربية تحديداً والعالم بصورة عامة، خصوصاً على صعيد إصرار الولايات المتحدة الابتعاد عن المؤسسات الدولية في تنفيذ أجندتها، حيث كان الاستياء كبيراً لما قامت به الولايات المتحدة في حربها على أفغانستان ثم الحرب على العراق وما تبعه من تداعيات، مع اقتراب الرئيس المنتخب أوباما من سدة الحكم في العشرين

من هذا الشهر، تتضح صورة النظام الدولي الآخذة بالخروج من دائرة النفوذ الأمريكي وخصوصاً في المنطقة العربية الرافضة للمشروع الديمقراطي المفروض عليها ولكن في الوقت ذاته لازالت الولايات المتحدة حبيسة أفكارها الامبراطورية، وعليه يرى بعض الخبراء أن الرئيس الأمريكي لديه مهمة تتمثل باستكمال ما رسم من استراتيجيات بعد نهاية الحرب الباردة وموازنة هذا الطموح والمصالح بما يقابلها من استياء دولي قد يضعف تنفيذ هذه الاستراتيجيات؛ لذلك يتضح من تشكيلة وزراء أو مستشاري الرئيس الأمريكي اهتماماً واضحاً لمشاركة المجتمع الدولي في التعامل مع القضايا الدولية، وليس بالصورة التي نفدها الجمهوريون خلال فترتي رئاسة بوش.

لقد تحول النظام الدولي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي من عصر القطبين إلى عصر تتمتع فيه الولايات المتحدة بوضع الدولة العظمى الواحدة، لكن عدداً كبيراً من الكُتّاب مثل (كنيث والتز) خبير السياسة الخارجية ومؤلف كتاب "ظهور التكتلات الجديدة في السياسات العالمية" وغيره، اتفقوا تقريباً على أن سعي دولة واحدة لتجميع كل القوة في يدها وحدها، لا بد أن يحرض دولاً أخرى على استعادة ميزان القوى في مواجهة هذه الدولة، حتى لو كان ذلك عن طريق ائتلاف مجموعة دول، لذلك فإنَّ صانعي السياسة الخارجية اهتموا بالقوى المرشحة للصعود في النظام الدولي بغية موازاة الولايات المتحدة، وأهم هذه القوى اليابان وألمانيا والصين والاتحاد الأوروبي وروسيا (التي بدت في سياساتها مؤخراً تعيد أجواء الحرب الباردة مع الولايات المتحدة)[1].

---

[1] الأمريكي التائه في الشرق الأوسط، عاطف الغمري (القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١)، ص١٨٧-١٨٩.

هذه النزعة الإمبراطورية بدأت تهيمن على السياسة الخارجية الأمريكية منذ أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن الماضي (العشرين)؛ إذ رأت أمريكا أن تستغل قوتها وتفوقها في مختلف المجالات لفرض هيمنتها على العالم، ويعزز هذا القول أن هناك مشروعاً موجوداً منذ نهاية التسعينات لدى مراكز بحث أمريكية معينة يسمى "مشروع القرن الأمريكي" الذي يدور حول نظرة مستقبلية مفادها: كيف يمكن أن يكون القرن الحادي والعشرون قرناً أمريكياً، وليس قرناً آسيوياً؟، في ضوء الكثير من الكتابات التي تتحدث عن عظم التحدي الآسيوي، وجوهر هذا المشروع هو أن على أمريكا أن تتولى القيادة بكل الطرق الممكنة، وأن تمارس سلوكاً إمبراطورياً بما يتوافق مع ضرورات العصر[1].

هذا التوجه تسعى الولايات المتحدة إلى تحقيقه من خلال ما يأتي:

- السعي لترسيخ وجودها في دول أوروبا الشرقية، لتكون قريبة من أوروبا، بهدف مراقبة تطورات الاتحاد الأوروبي عن كثب؛ لأنه يشكل تحدياً ومنافساً لأمريكا.

- السيطرة على دول آسيا الوسطى؛ من أجل التحكم بثرواتها من النفط والغاز، والضغط على روسيا، ومراقبة تطور العلاقات بين أوروبا وآسيا (الصين واليابان والهند وغيرها من دول جنوب شرق آسيا) التي تشكل منافساً اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكرياً لأمريكا.

---

[1] التوزانات الاقتصادية الدولية الجديدة، محمود عبد الفضيل، آفاق التحولات الدولية المعاصرة، الباحث وليد عبد الحي وآخرون، عمان/ دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص٤٢.

● اتجاه الإدارة الأمريكية نحو تعزيز هيمنتها على العالم العربي؛ عبر إقامة نظام شرق أوسطي يقوم على الأسس الاقتصادية والأمنية والسياسية والإثنية، ويتجاهل الهوية الثقافية والإنتماء القومي(١).

وعليه، فمن المتوقع أن تستمر هذه الاستراتيجية خلال فترات الرئاسة الأمريكية القادمة، ويقع على الرئيس الأمريكي الحالي أوباما وهو محور دراستنا هنا مهمة تنفيذ الحلم الأمريكي بنهج مختلف عن خلفه خصوصاً على صعيد القضايا المختلفة التي بدا في التعامل مع بعضها أنه أخذ طابعاً شخصياً مما أثار استياء شعوب ودول، وعليه، فإنه ليس من المتوقع هروب أوباما من هذه الاستراتيجية إلى استراتيجية أخرى تعزل أمريكا عن العالم بل من المتوقع تنفيذ هذه الاستراتيجيات بما لا يضر بمصالح وحلفاء أمريكا في العالم والمنطقة العربية.

لقد اتضح أن السياسة الأمريكية منذ أحداث أيلول ٢٠٠١م اتخذت بعداً بدا يهدد مصالح حلفاء وأصدقاء أمريكا في العالم بصورة أخذت هذه الدول تتبع نهجاً بعيداً عن سياسة أمريكا، رغم ما يربطها من محاور وعلاقات استراتيجية وخصوصاً في المنطقة العربية، واتضح هذا السلوك مع تصرفات بعض الأنظمة العربية التي بدأت من خلال تعامل الولايات المتحدة في العراق، والأخطاء التي وقعت بها بدءاً باحتلاله ونهاية بتوقيع اتفاقية أمنية تضمن استمرار المشروع الذي أعد أو بني في العراق وما يشكله لدى بعض الدول من تهديدات مستقبلية على جيران العراق، بدأت تتململ من هذه السياسة التي أثارت فوضى في العلاقات بينها وبين متطلبات العلاقة مع

---

(١) التحول في الاستراتيجية الأميركية، ماجد كيالي، مجلة الشؤون العربية، العدد ١١٤، صيف ٢٠٠٣، ص٣١،٣٢.

الولايات المتحدة، لذلك اتخذت بعض الدول نهجاً وسلوكاً في بعض الأحيان لا ينسجم مع توجهات الولايات المتحدة في العراق، والعراق مشهد واضح لهذه التجاذبات وأصبح ساحة لتنفيذ أجندات تضمن أمن ومصالح وصيرورة هذه الأنظمة.

لقد اتضح لدى أغلب الدول المحيطة في العراق أن أمنها الداخلي يبدأ في العاصمة بغداد، وطالما أن مجريات الأمور لا تتفق مع مصالح أمنها الداخلي كان لا بد لها من أن تتدخل في الشأن العراقي، ولم يعد احترام المواثيق الدولية التي تمنع التدخل بالشؤون الداخلية للدول أمراً رادعاً طالما أن أمنها ومصالحها مهددة بحيث يفرض عليها ضرورة التدخل، بعضها وجد أن من مصلحته إنهاء النموذج الديمقراطي العابر للحدود خشية انتقال هذا المشروع الذي نفذ بدماء أو يراد أن ينفذ بدماء العراقيين، وأخرى وجدت في الساحة العراقية اهتماماً دون تدخل دول طامحة في تصدير معتقداتها الطائفية لها، وعليه لم تجد كثيراً المفاوضات والمحادثات والتهديدات الصادرة عن سلطات الاحتلال أو الحكومة العراقية آذاناً صاغية لهذه الدول التي وجدت أن بقاءها وصيرورتها كدول يبدأ في العراق ولا يبدو أنه ينتهي فيه.

وعليه يقع على الرئيس المنتخب أوباما الذي ستظهر الأيام أو الأشهر الأولى أنه متورط بالشأن العراقي أن يوازن بين مصالح ومخاوف حلفاء الولايات المتحدة من جهة وبين تنفيذ الحلم الأمريكي في استمرار السيطرة الأمريكية بما يضمن أمن الولايات المتحدة ويحقق لها انتعاشاً اقتصادياً؛ وعليه من المتوقع أن تتفق رؤية أوباما مع وجهات النظر التي ترفض النهج الإمبراطوري، مبررين ذلك على أساس أن الإمبراطورية تحتاج إلى حكومة أكبر وهذا يعني احتياجات مالية أكثر، فأمريكا تتحمل (٤٠%) من كافة المصروفات العالمية على الشؤون العسكرية، أي ما يعادل حوالي (٣٠%) من

الدخل القومي العالمي، وتتحمل أمريكا نفقات دفاع بقيمة (٤٠٠) مليار دولار سنوياً، ويؤسس هؤلاء الكُتّاب معارضتهم للإمبراطورية على أساس أنه لا صلة له بالأمن القومي، إذ لدى أمريكا امتيازات جغرافية، فلديها محيطان يحميانها من الشرق والغرب من أي اعتداء، ولديها أيضاً سلاح رادع هو السلاح النووي؛ لذلك فهم يفضلون عدم التدخل العسكري عبر المحيط[١].

هذا التحول في الاستراتيجية الأمريكية كان موضع انتقاد من الرئيس الأمريكي السابق كلينتون الذي قال: "تستطيع في عالم يعتمد على بعضه أن نقود لا أن نهيمن"[٢]، وهنا يبدأ نهج الرئيس أوباما.

المتطلبات اللازمة لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الكبير

المصالح الأمريكية في المنطقة عنوانها: السيطرة على منابع النفط، وهيمنة إسرائيل على المنطقة، وعدّها الدولة المركزية في مشروع الشرق الأوسط الكبير، وسيادة الليبرالية الغربية في مواجهة الدين والقومية، كما عبر عن ذلك صراحة وليم بريستول في معرض تبريره للحرب الأمريكية على العراق بقوله: (إن الحرب قامت من أجل تغيير الثقافة السياسية للمنطقة لبناء شرق أوسط جديد).

ما ذكر سابقاً عُدَّ متطلبات لمشروع أمريكي عالمي جديد، سمي مشروع "القرن الأمريكي الجديد"، الذي صاغه المحافظون الجدد، بشكله النهائي سنة ١٩٩٧م، والذين يسيطرون على مفاصل الإدارة الأمريكية منذ تسلم بوش الابن السلطة سنة ٢٠٠١م، هذا المشروع يسعى إلى جعل القرن الحادي

---

(1) Joel S. Benin, Ivan Eland, Edward A. Olsen, Preemptive war strategy: A new U.S. empire? The Independent institute, June 25, 2003

(٢) ماجد كيالي، مرجع سابق، ص٣٤.

والعشرين قرناً أمريكياً بامتياز، داعياً إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق ذلك، و "تأديب" القوى التي ترفض الانتصارات العسكرية الأمريكية، سيما الدول الضعيفة منها؛ لإشاعة الخوف في دول أقوى منها عسكرياً.

يعد المشروع أن قارتَي آسيا وأفريقيا، هما المجال الحيوي لتنفيذه، نظراً لثرواتهما وموقعهما الجغرافي، فضلاً عن أن نجاح الولايات المتحدة في هاتين القارتين، يمنحها النجاح في المناطق الأخرى من العالم، والشرق الأوسط يشكل الحد الفاصل بين القارتين، و فيه من الدول – العراق وسوريا ومصر والسعودية وإيران – التي قد تملك قدرات عسكرية متجددة تهدد المصالح الأمريكية مستقبلاً؛ لذا لا بد من إخضاعها، ومنعها من إنتاج أو حيازة الأسلحة النووية باستثناء إسرائيل التي يجب أن يبقى لديها القدرة على التدخل في الأوقات الحاسمة لصالح الولايات المتحدة – لذلك سنلاحظ أن إسرائيل موجودة دائماً في طبيعة التفاعلات الأمريكية السورية –.

وإذا كان المشروع قد عدّ العراق قاعدة الانطلاق في التنفيذ، وهو ما تمّ بالفعل؛ فإن سوريا يجب أن تكون المستهدفة مباشرة بعد العراق؛ لأنها تمثل مفتاحاً للمتوسط، وحلقة وصل تبدأ من إيران والعراق ثم مصر، ومنها إلى ليبيا والجزائر، فموريتانيا والسودان، ثم باقي دول القارة الأفريقية.

الحث على استهداف سوريا بعد العراق مباشرة .. تم الإجماع عليه تقريباً من قبل العديد من المؤسسات البحثية والدفاعية في الولايات المتحدة، لأسباب تكاد تكون متطابقة، فـ"مؤسسة راند" المرتبطة بوزارة الدفاع مثلاً، حذرت من سعي سوريا لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وامتلاكها الفعلي لأنظمة صواريخ تهدد توازن القوى في المنطقة لاسيما مع إسرائيل.

التخوف من امتلاك السلاح النووي هو ما حذر منه التقرير الصادر عن اللجنة الأمريكية من أجل لبنان حر، ومنتدى الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٠م،

-وهما مؤسستان مرتبطتان بوكالة المخابرات المركزية وبالمحافظين الجدد وإسرائيل- وقد دعتا إلى منع سوريا من امتلاك السلاح النووي بعملية عسكرية إن اقتضى الأمر، وفرض عقوبات اقتصادية عليها، ودعم المعارضة اللبنانية، واستخدام لبنان وسيلة للضغط عليها من أجل قبولها بالاحتلال الإسرائيلي لهضبة الجولان، ليتسق بذلك الموقف الأمريكي مع تصريح أرئييل شارون الذي قال: (إن إسرائيل لا ترغب في أن تنسحب من مرتفعات الجولان حتى في مقابل السلام مع سوريا).

الموقف الأمريكي هذا، قد يفسره اليميني المتصهين ريتشارد بيرل في التقرير الذي قدمه لرئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق بنيامين نتنياهو سنة ١٩٩٦م، ودعا فيه إلى عدّ إسرائيل جزءاً من الأمن القومي الأمريكي، وإلى فرض حصار دولي على سوريا.

ريتشارد بيرل نفسه، حين شغل منصب رئيس مجلس السياسات الدفاعية في البنتاغون، أعد تقريراً برعاية معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية العليا في واشنطن في نهاية سنة ٢٠٠١م، دعا فيه إلى إخراج سوريا من لبنان، ونزع سلاح حزب الله، كما دعا إسرائيل للتحرش بسوريا من خلال حزب الله، كمقدمة لتوجيه ضربة عسكرية إسرائيلية للقوات السورية في لبنان، وذلك ضمن خطة تهدف إلى إجراء تغيير كامل في منطقة الشرق الأوسط، ويكون التغيير بمساعدة إسرائيل ومن أجلها، وضمن استراتيجيات أخرى، من بينها عزل سوريا عن دول الخليج العربي.

التغيير في المنطقة، حدد ملامحه الخبير الاستراتيجي الأمريكي "بول مايكل فيبي" الذي أوفده الرئيس بوش إلى المنطقة بعد فوزه مباشرة في الانتخابات الرئاسية الأولى، حتى يحدد الإجراءات التي على الإدارة الأمريكية اتباعها في المنطقة، من أجل استقرارها وتأمين ديمومتها

ومصالحها، وقدم تقريراً للرئيس في كانون ثاني ٢٠٠١م بعنوان "الرؤية الاستراتيجية للإدارة الأمريكية الجديدة"، دعا فيه إلى إيجاد بديل للزعيم عرفات، وخروج أمريكا من مستنقع السلام، وإجبار الفلسطينيين على القبول بالشروط الإسرائيلية، وضرورة انسحاب سوريا من لبنان، ثم فرض عزلة اقليمية عليها بسبب تحالفها مع بغداد، وحث الدول الخليجية على تجميد علاقاتها مع دمشق، وعدم تقديم المساعدات إليها، والقضاء على مصادر التوتر التي تقف عائقاً أمام المشروع الأمريكي القادم في المنطقة.

أوباما رئيس جديد بمواصفات جديدة

لم يأتِ اختيار الرئيس باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة مفاجئاً بقدر ما جاء الاختيار لنهج أقل حدة واندفاعاً في السياسة الخارجية التي قادها بوش الابن بصورة متهورة، فما تحقق للولايات المتحدة خلال رئاسة الرئيس الأمريكي بوش الابن من احتلال بلدين وإنهاء المخاطر المهددة لأمن (إسرائيل) جاءت سريعة، وهي سياسة بالتقدير الاستراتيجي تأخذ وقتاً أكبر من ولايتين لرئيس أمريكي واحد، وعليه كان لزاماً إيجاد خليفة جديد يكون أقل اندفاعا يعمل على إعادة وضع النقاط أو بالأحرى تثبيت النقاط على الحروف، وتقليل الاندفاع المتهور لقطار الإدارة الأمريكية، وإعادة تقييم ما تحقق من الاستراتيجية الأمريكية المحددة ضمن مشروعها الذي دشنته في مطلع الألفية الثالثة والمعروف بمشروع القرن الأمريكي الجديد، الذي عدّ هذا القرن قرناً أمريكياً بامتياز يعمل على تحقيق النجاح للولايات المتحدة على الصعيد الدولي من خلال استغلال سنوات الفرصة التي تحققت بسيادة الولايات المتحدة على الساحة الدولية، جاء أوباما مكملاً لذلك المشروع الذي حدد لمنطقتنا، ووصِف بالشرق الأوسط الكبير؛ فحالة الانشقاق والاستياء من

تفرد الولايات المتحدة على الساحة الدولية، ناهيك عن الخروقات العديدة لملفات مشتركة أساسية يعنى بها المجتمع الدولي من مثيل حقوق الإنسان والديمقراطية، كل ذلك دفع باتجاه اختيار نهج أقل حدة بالاندفاع، يعيد تقييم ما سبق ويستكمل ما ترك، فجاء اختيار أوباما[١].

الحديث عن سياسة الرئيس المنتخب باراك أوباما حول استراتيجيته تجاه العراق أو قضايا السياسة الخارجية هو حديث يرتبط بسياسة الحزب الديمقراطي تجاه هذه القضايا؛ فقد ظهر الحزب الديمقراطي خلال السنوات السابقة متردداً تحت زخم الضغوط الداخلية في تبني وجهة نظر واحدة تجاه المسألة العراقية، وهو انقسام يرجع إلى الانقسام الذي اعترى الحزب وطال بنيته وهيكليته التنظيمية؛ فالحزب الديمقراطي انقسم إلى أكثر من اتجاه بين اليسار الجديد (انضوى تحته الأمريكان من ذوي أصول أفريقية ومن المهاجرين والمثقفين والحركات النسوية والشواذ) واليسار التقليدي المحافظ (الذي ينتشر في أوساط إقطاعيي الجنوب والطبقات العاملة والمتوسطة البيضاء وبعض مثقفي الشمال البيض الليبراليين وصقور السياسة الخارجية داخل الحزب الديمقراطي)؛ ففيما يتعلق بالعراق أو بالسياسة الخارجية للحزب فقد اتهم المحافظون التقليديون اليسار الجديد بمهادنة أعداء أمريكا ومبالغته بانتقاد إسرائيل، رافضين الحرب على العراق، هذا الانقسام ساهم ببروز تيار جديد من رحم هذا الصراع الدائر منذ منتصف الستينيات عرف بالليبراليين

---

[١] يتصف الرئيس الأمريكي المنتخب كونه أقل اندفاعاً وأكثر حذراً بقراراته التي قد تأخذ وقتاً طويلاً حتى تنضج؛ ويعمل قدر الإمكان على دراسة الوضع بصورة مستفيضة قبل أن يتخذ موقفاً إزاءها، لذلك فعندما انتخب لمجلس الشيوخ في العام ٢٠٠٥م وكان لديه موقف مسبق من الحرب الأمريكية على العراق والتي وصفها في تشرين الأول/اكتوبر عام ٢٠٠٢م كونها غبية آثر عدم الدخول بمساجلات مع أعضاء الكونغرس من الحزبين المؤيدين للحرب ولم يحدد موقفاً من هذه القضايا إلا بعد عام كامل قضاه في دراسة القضايا الشائكة التي تهم الشارع الأمريكي ومن ضمنها العراق.

الجدد أو الطريق الثالث ليكون أكثر توازناً بين التيارين الآخرين؛ بحيث آثر أعضاء هذا التيار الجمع بين المنهجين السابقين عبر التمييز بين السياسة الخارجية وسياسة الإدارة الداخلية؛ ففي السياسة الخارجية يتبنى الليبراليون الجدد سياسة أكثر صقورية؛ فعلى الرغم من أن هذا الاتجاه يفضل الانعزال نحو السياسة الداخلية، لكنه في السياسة الخارجية يفضل العمل الدولي الجماعي عبر التركيز على بناء المنظمات الدولية والتعويل على دورها بالتعامل مع الملفات الشائكة كالعراق مثلاً؛ وعليه أيد هؤلاء الحرب على العراق لكن اختلفوا مع الجمهوريين حول انفرادهم بالحرب دون الاعتماد على أنصار أو حلفاء أمريكا في الامم المتحدة؛ وقد قاد الرئيس السابق بيل كلينتون هذا الاتجاه الذي وفر له وللحزب الديمقراطي الفوز بدورتين رئاسيتين لم يسبق للحزب الديمقراطي الفوز بهما منذ الستينيات.

لكن سرعان ما انقسم الحزب على نفسه بموقفه تجاه العراق ما جعل مرشحيه للرئاسة آل غور ثم جون كيري يخسرون في دورتين متتاليتين أمام المحافظين الجدد برئاسة الرئيس بوش الابن؛ فقد ظهر التناقض واضحاً بموقف مرشحي الرئاسة، وخصوصاً جون كيري الذي تماشى مع أغلب الليبراليين الجدد في التصويت لصالح الحرب على العراق، لكن جاء تصويته بالكونغرس لصالح رفض تمويل الحرب، مما أظهر المرشح الديمقراطي منقسماً على نفسه، وهو ما ساهم بفوز بوش الابن في الرئاسة الثانية.

مع بروز نذر الفشل الأمريكي في العراق مطلع العام ٢٠٠٦م بدا اليسار الجديد الرافض للحرب على العراق أكثر قوة داخل الحزب الديمقراطي، لكن ممثلي الحزب من النخب في الكونغرس الأمريكي ابتعدوا عن انتقاد الحرب وشاركوا بالتصويت على تمويل الحرب، وبدوا واقعين تحت تأثير الليبراليين

الجدد؛ مما ساهم في زيادة الانقسام داخل الحزب الديمقراطي، وبدا أن هناك شرخاً بين الأغلبية الجماهيرية الرافضة للحرب وبين ممثليهم في الكونغرس.

وهذان التياران لازالا -مع انتخاب أوباما- يقسمان الحزب بحيث تتبدل المواقف بين رفض وقبول مما يجعل عوامل أخرى تلعب دوراً في تشكيل مواقف الحزب وقيادته من القضايا، من ضمنها شخصية الرئيس من جهة ومواقف اللوبيات وجماعات الضغط وغيرها من جهة أخرى.

وانسحب الانقسام في المواقف على قيادات الحزب الديمقراطي؛ فأوباما الذي رفض الحرب على العراق في العام ٢٠٠٢م بدا في العام ٢٠٠٨م مع تقدم الانتخابات الرئاسية أكثر يمينياً، وبدأت تصريحاته تتلون بصبغة أخرى، فانتقل سريعاً مع زخم الضغوط اليمينية والإسرائيلية والانتقادات الجمهورية له كونه يأتي من أصول أفريقية ويتسم بسمات غريبة لم يسبق أن وجدت بأي مرشح سابق للرئاسة، تراوحت مواقفه بين الانسحاب من العراق "خلال ستة عشر شهراً" من توليه الرئاسة إلى الانسحاب "المسؤول والمتوازن" بما يتلاءم مع خطط القيادة العسكرية في العراق، وبدا كغيره من السياسيين الأمريكان لا بد وأن يخضع لضغوط ومحاذير السياسة الأمريكية من أحزاب وصراعات ولوبيات ومصالح ضغط.

وعليه يقع على أوباما الذي يترأس الإدارة الأمريكية الآن أكثر من مهمة، ولعل أهمها على صعيد الحزب الداخلي هو توحيد الحزب وإخراجه من أزمته الحالية؛ وسيبقى العراق أحد الملفات الموحدة للحزب أو الدافعة نحو انقسامه.

إن تعامل الحزب الديمقراطي مع الملف في العراق اتسم بالتردد والتناقض دون وجود رؤية واضحة حول مصير ومستقبل العراق وموقف الإدارة الأمريكية من ذلك، ما يفتح المجال نحو دراسة أهمية العوامل الأخرى

في التأثير على موقف الرئيس المنتخب من القضية العراقية؛ فالحزب لا يبدو قادراً على توحيد موقفه من ذلك أو بالتأثير على مواقف أوباما.

وعليه سنحاول هنا حصر المؤثرات بدراسة شخصية الرئيس نفسها ودراسة دور مستشاري الرئيس الذين سيلعبون دوراً في بلورة معتقدات وقرارات الرئيس من القضايا المختلفة، دون أن نقلل من دور بقية المؤثرات الأخرى في عملية اتخاذه للقرار.

أولاً: شخصية الرئيس المنتخب المتناقضة

اتسم سلوك أوباما تجاه القضايا المختلفة داخل الحزب والولايات المتحدة بالوسطية والاعتدال؛ بحيث اتخذ موقفاً رافضاً للتصادم مع مختلف التيارات المتصارعة داخل الحزب؛ حيث بدا أكثر وسطية وأقل يسارية على خلاف موقفه المنحاز نحو اليسار الجديد من القضايا الخارجية وتأييده للانسحاب من العراق متقدماً على منافسيه جون أدواردز وهيلاري كلنتون المؤيدين للحرب؛ هذا الموقف جذب قواعد الحزب الديمقراطي لترشيح أوباما؛ لكن يبدو أن الضغوط الخارجية قد تدفع أوباما إلى تبني توجهات لا تنسجم مع رغبات القواعد التي رشحته كما كان عليه الوضع في العام ٢٠٠٦م، مما سيزيد من حدة الانقسام داخل الحزب، ما يدفع أوباما الذي وضع على نفسه شرطاً لتوحيد الحزب خلال فترة رئاسته القيام بدور المقايضة من خلال:

(١) التركيز على القضايا الداخلية للاستمرار بكسب أصوات قواعد الحزب، وهو ما واجه به منافسه للرئاسة بالقول: (إن ماكين تفاخر بزيارة العراق، ولكن حبذا لو زار المدن الأمريكية لرأى وفهم ما يحدث من مصاعب اقتصادية).

(٢) ولكون العراق أصبح قضية داخلية بالمجتمع الأمريكي، سيعمل أوباما على التركيز على دور يوازن بين المصالح الأمريكية في استمرار الوجود داخل العراق وبين تصريحاته الهادفة للانسحاب خلال أقل من ستة عشر شهراً؛ فقد أوضح بتاريخ ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨م أن لديه التزام أخلاقي.. وقال: (أول اجتماع لي وعندما أباشر بعملي كرئيس هو الاجتماع مع هيئة الأركان والمخابرات من أجل وضع جدول زمني للانسحاب من العراق).

لكن السؤال الذي يطل برأسه في هذه السطور، وهو هل لدى الرئيس المنتخب الخبرة الكافية بالتعامل مع هذا الملف؟، وهل لديه اطلاع أكبر حول السياسة الأمريكية بالعراق والبناء السياسي الذي وضع في العراق، بحيث يستطيع الخروج منه بأقل الأضرار الممكنة وبما يضمن المصالح الأمريكية المتمثلة بإبعاد خطر (التنظيمات الارهابية) من جهة، والحيلولة دون وقوع البلاد في حالة من الحرب الأهلية؟.

إن قلة خبرة أوباما في موضوعات السياسة الخارجية وخصوصاً ما يتعلق بالعراق؛ فإنه من المتوقع أن يفاجيء بوش الابن أوباما حول الوضع في العراق الذي سيكون أكثر توريطاً له؛ فقد استطاع الرئيس بوش خلال سنوات أدارته للعراق من تحويل البلاد ومؤسساتها بحيث أصبحت جبهة موحدة وآلية متقدمة للجيش والإدارة الأمريكية لمكافحة (الإرهاب الدولي)؛ أي أن العراق أصبح إحدى الجبهات المتقدمة لمواجهة الإرهاب الدولي، وسيقع على الرئيس الجديد التعامل مع الحرب في أفغانستان التي يدعمها تماماً بحيث يصفها أوباما بأنها المعركة الحقيقية أمام الولايات المتحدة الآن: "يجب مواصلة مطاردة قادة القاعدة بأفغانستان ومواجهة المخاطر العالمية، وليس استمرار الحرب على العراق الذي يجب على الحكومة العراقية تحمل

مسؤولياتها، ملقياً اللوم على الحكومة والبرلمان في تردي الأوضاع الأمنية والسياسية فيه.

وعليه من المتوقع استمرار السياسة الأمريكية في العراق وإن جاءت بأقل وتيرة؛ فالولايات المتحدة تعاملت مع الشأن العراقي بصورة يومية خلال السنوات الست الماضية ولن تستطيع الاستمرار بهذا التوجه لفترة طويلة، في ظل تنامي ملفات أخرى تجاهلتها إدارة الرئيس بوش الابن أو لم تتعامل معها بصورة مناسبة، بحيث أخذت تؤرق الإدارة المقبلة، كالملف النووي الإيراني، فالولايات المتحدة تخشى كشريكتها إسرائيل بأن تصل إلى وضع تجد نفسها تتعايش مع البرنامج النووي ما يدفع الولايات المتحدة كما صرح أوباما بعملية تفاوض مباشرة مع إيران دون تحفظات أو شروط مسبقة، خصوصاً لتوجهات إسرائيل التي قد تخرج عن إطار المصالح الأمريكية في التعامل مع هذا الملف بصورة عنيفة، بحيث تقوم بتوجيه ضربة لإيران قد تفاقم من دور الولايات المتحدة في المنطقة والعراق.

سيبقى العراق خلال السنوات الأولى من رئاسة أوباما يستولي اهتماماً كبيراً مع التركيز على ملفات أخرى وداخلية بصورة أكبر؛ حيث من المتوقع خلال الفترة الرئاسية الأولى لأوباما انشغال إدارته بالتخلص من تركة الرئيس بوش الابن، وينافي ذلك توجهات الحزب الديمقراطي الساعيه نحو إنهاء صفحة الوجود الأمريكي في العراق، وينافي أيضاً مواقفه السابقة.

ثانياً: دور مستشاري الرئيس المنتخب في التاثير على قراراته الخاصة بالعراق

السياسة الخارجية الأمريكية هي مجرد انعكاس للأفكار والرؤى الثقافية المتجددة باستمرار، وقد شهدت هذه السياسة تحولاً ملحوظاً في الشكل

والمضمون، وتحديداً مع صعود التيار اليميني المحافظ بوصول الرئيس بوش إلى سدة الحكم أوائل عام ٢٠٠٠م، وجوهر هذا التحول هو التخلي عن النظرة شبه (التعاونية) التي صبغت إدارة الرئيس الأسبق بيل كلينتون طوال عقد التسعينات في العقد الماضي (العشرين)، كي تحل محلها نظرة جديدة تقوم على الرؤية الانفرادية الاستعلائية، واستخدام كافة الوسائل المتاحة لنقل هذه الرؤية من عالم الأفكار إلى عالم الوقائع[1].

من الواضح بأن التيار اليميني المحافظ في الولايات المتحدة الأمريكية وإدارة الرئيس بوش هما المسؤولان عن احتلال العراق ومن قبلها الحرب على أفغانستان، في إطار ما يعرف باسم "الحرب على الإرهاب"، لكن الجديد في هذا الأمر هو القول أن هذا التيار يعد المسؤول الأول عن صياغة "شكل العالم خلال القرن الحادي والعشرين".

ولعل هذا ما تروج له دوائر الأوساط الفكرية الأمريكية التي وجدت في مقولة "محاربة الإرهاب" غطاءها الشرعي "هيكلية وإعادة فك وتركيب العالم وفق المصالح والرؤى الأمريكية".

وعليه من الأهمية بمكان دراسة خلفية المستشارين أو الرجال المحيطين بصانع القرار لفهم توجهات الرئيس من القضايا المختلفة، فالمحافظون الجدد لعبوا دوراً كبيراً في الحرب الأمريكية على العراق أمثال بول وولفيتز ورامسفيلد وغيرهم، وهنا يقع علينا لاستكمال الورقة دراسة الرجال الذين وضعهم أوباما حديث الخبرة في الشؤون الخارجية وألقى عليهم مسؤولية تحديد رؤيته المستقبلة وخصوصاً في العراق.

---

[1] المحافظون الجدد يخططون لابتلاع العالم"، خليل العناني، شبكة الإعلام العربي، أوين ٢٠٠٣/٦/٤م.

(١) نائب الرئيس المنتخب "جوزيف بايدن"

مع بداية حملته الانتخابية وتحت وقع الانتقادات من قبل منافسته هيلاري كلينتون وضغط اللوبي الإسرائيلي في تبنيه خطاباً متسامحاً وأكثر توجهاً نحو الحوار، أخذ أوباما يتجه نحو اليمين في سياسته الخارجية، وزاد ذلك باختيار نائبه للرئاسة جوزيف بايدن الذي سبق وصوت للحرب على العراق، والذي رفض تقرير توصيات لجنة دراسة العراق التي ربطت الحل في العراق بايجاد حل للصراع العربي الإسرائيلي، وعليه في ظل وجود هذا النوع من المستشارين، فمن المتوقع ازدياد حدة التطرف نحو مزيد من المواقف اليمينية في سياسة أوباما تجاه العراق، وخصوصاً مع تحميل الحكومة العراقية والمسؤولين العراقيين الأخطاء والتردي الأمني، فاختيار بايدن إنما هو اعتراف لدى البعض بنقاط ضعف أوباما؛ حيث يرى هؤلاء أن أوباما اختار بايدن رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي لكي يعوض ضعف خبرة أوباما بقضايا السياسة الخارجية، كما أن بايدن الأبيض أحد الوجوه القديمة والمألوفة بواشنطن قد يهدئ من مخاوف من يعارضون أوباما بسبب خلفيته وبشرته السوداء، وبسبب سجله غير المعروف لجماعات الضغط والمصالح واللوبيات، وبايدن من صف الليبراليين الجدد المؤيدين للحرب على العراق لكن من الساعين لفرض سياسة ترفض العزلة وتميل للدبلوماسية والحوار مع استعداد واضح لتبني مواقف صقورية.

(٢) وزير الخارجية "هيلاري كيلنتون"

تلعب هيلاري كلينتون دوراً يدعم الاتجاه نحو بقاء القوات الأمريكية لأكبر فترة ممكنة، فهي ناصرت الحرب على العرق، وكان لموقفها الداعم

للحرب خلال فترة منافستها الرئاسية دور استندت عليه في حملتها الانتخابية ضد الرئيس أوباما، وهي تنتمي أيضاً إلى جيل السياسيين الذين جاءت بعد حقبة الحرب العالمية الثانية بما يمثله هذا الجيل من شراسة سياسية وصراعات على المستوى الخارجي، ولكنها في معرض السياسة الخارجية الخاصة بالعراق، ستقود حملة تلقي باللوم على الحكومة العراقية في مواجهة الانتقادات العديدة إزاء تردي الأوضاع وتحمل الحكومة العراقية مسؤولياتها، رافضة عدّ الولايات المتحدة دولة يقع عليها اللوم والواجب في إخراج العراق من مأزق الأمن فيما لو تفجرت الأوضاع الأمنية.

(٣) ساماناثا بور Samantha Power

(٤) بغنيو برزيزنسكي Zbigniew Brzezinski

(٥) روبرت مولي Robert Malley

(٦) إيرك لين Eric Lynn

(٧) أنطوني لايك Anthony Lake

(٨) دان شابيرو Dan Shapiro

(٩) دينيس مكدونو Denis McDonough

(١٠) سوزان رايز Susan rice

العراق من الدولة المركزية إلى دويلات المدن

د. فاضـــل الربـيعي / باحث ومحلل سياسي عراقي

ثمة ترابط لا تماريهِ العين بالنسبةِ للمراقبِ الحاذق بـــين تـــزامن توقيـــع الاتفاقية- المعاهدة الأمنية الإستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكيـــة مـــن جانب حكومة المالكي، ومن ثم تمريرها في البرلمان (مجلس النـــواب) ومـــا أثاره نصّها العربي (المختلف كما يقال عن النص الإنجليزي الرســـمي) مـــن جدل سياسي صاخب، وأسئلة حائرة في مختلف الأوســـاط الـــسياسية؛ وبـــين تمرير قانون انتخابات مجالس المحافظات حتى قبل أن تفرغ الكتل الـــسياسية المتصارعة من التوصل إلى تفاهم حقيقي حول حدود صلاحيات الحكومـــات المحلية التي يجب أن يمنحها القانون لها، وما إذا كان يتوجب أصلاً تزويـــدها بكل هذا القدر من الصلاحيات الذي تتمتع بها الآن، بما في ذلك الحق في سنّ قوانين مختلفة عن قوانين الدولة المركزيـــة، ومعلـــوم أن مـــن بـــين هـــذه الصلاحيات الحق في تشريع قوانين محلية للولايات- الأقـــاليم تختلـــف عـــن قوانين الدولة، وأكثر من ذلك الحق في تشكيل جهاز أمني خاص بها، ولسوف يتجلىّ هذا الترابط بأوضح ما يكون حين يُمعن المرء النظر في النتائج التـــي أسفرت عنها الانتخابات من زاوية صلتها المباشـــرة، ولكـــن غيـــر المرئيـــة بصورة صحيحة وكافية بصعود قوى اجتماعيـــة ســـاهمت طـــوال ســـنوات

الاحتلال المنصرمة في تثبيت أسس الخطاب الفيدرالي في الثقافة السياسية العراقية، بكلام آخر سوف يكون بوسع المراقب السياسي أن يعيد قراءة مغزى ودلالات إبرام الاتفاق الإستراتيجي (الأمني في الجوهر والاقتصادي- الثقافي في الشكل) من خلال إعادة قراءة نتائج الانتخابات المحلية، بما هي نتائج صمّاء لا تعكس بالقدر الكافي من الحقيقة والوضوح مواقف كل الأطراف من مشروع الفيدرالية.

وفي الواقع ليس ثمة من بين كل القوى التي حصدت نتائج جيدة في صناديق الاقتراع في الجنوب والوسط وبغداد من يمكن اعتباره طرفاً مناوئاً للفيدرالية أو ناقداً لمشروعها التفكيكي، وعلى العكس من ذلك، سوف تبدو خريطة القوى المنتصرة وكأنها خريطة مرسومة بعناية، إذ لا وجود لطرف رافض- بصدق وقوة- للأسس التي صاغت مشروع الدستور كدستور دولة اتحادية- فيدرالية، كما لا يوجد في الخريطة الجديدة أي طرف معارض لخطاب الفيدرالية.

ومع ذلك، تبدت النتائج بالنسبة لكثير من المراقبين، وكأنها تحمل وعداً بتغيير دراماتيكي لا في خريطة القوى، وإنما كذلك في الاتجاه الذي سوف يسير فيه مشروع الفيدرالية في العراق.

والمثير للاستغراب، أن كثرة من المحللين السياسيين روجت لفكرة زائفة مفادها أن الانتخابات أدت إلى "إلحاق هزيمة بمشروع الفيدرالية " وأن قبضة "القوى الدينية- الطائفية التقليدية" قد تراخت في الجنوب والوسط لصالح قوى علمانية وليبرالية ودينية جديدة تنادى بدولة القانون والمؤسسات، وأن هذه القوى- وليس أي طرف آخر- هي التي سوف تحافظ على هيبة السلطة المركزية وتحمي العراق من انفراط عقد الدولة فيه إلى الأبد (وهناك في السياق مزاعم أخرى أقل أهمية عن صعود ائتلاف سياسي ستكون مهمته

التاريخية الحفاظ على تماسك العراق كوحدة جيوسياسية)، ولذلك يبدو أن لا مناص من قراءة نتائج الانتخابات المحلية في ضوء التوقيع على الاتفاقية الأمنية والعكس صحيح، بمعنى أن نقرأ دلالات التعجيل بتمرير الاتفاقية من داخل السياق نفسه الناظم للنتائج التي أسفرت عنها الانتخابات.

السلطة المركزية كطرف محلي

لقد رسمت كل من المعاهدة (الموقعّة نهاية العام الماضي ٢٠٠٨م ثم نتائج الانتخابات مطلع العام الحالي ٢٠٠٩م) ملامح عراق جديد بالفعل سوف تتحدَّد صورته خلال المرحلة المقبلة، وربما لسنوات طويلة قادمة داخل إطارين متلازمين:

الإطار الأول: أن المعاهدة مع واشنطن ليست (ولم تكن) مجرد اتفاقية بين بلدين يحتل أحدهما الآخر (نتيجة هزيمة عسكرية كما هو الحال بعد استسلام اليابان في نهاية الحرب الثانية أو المانيا بعد هزيمة هتلر) ذلك أن منطوقها القانوني والسياسي والتفاصيل "الأمنية" الدقيقة التي تضمّنتها وخصوصاً تلك المتعلقة بحق الولايات المتحدة الأمريكية في الرّد على "مصادر الخطر" وإبقاء العراق داخل ما يسمى "المعايير الأمريكية لمكافحة الإرهاب" يشي بوجود قاعدة ترتيبات سياسية وأمنية تتخطى الحاجة إلى ربط انسحاب جيش الاحتلال أو إعادة انتشاره، بضمانات "أمنية بعيدة المدى"، وهو ما يكاد يشكل "أرضية المعاهدة"، لتصبح "نواة" صلبة لنظام أمني إقليمي أكثر منها اتفاقية أمنية بين البلدين، ولسوف يغطي هذا النظام كامل أنحاء المنطقة العربية في المستقبل القريب وحتى العام ٢٠٢٥م، حيث يتوقع بزوغ "شرق أوسط جديد" يصبح فيه العراق قاعدة لمظلة أمنية أمريكية عملاقة، يمكن أن يضمّ – في مراحله الأولى– جزءاً من معسكر الاعتدال العربي، ولاحقاً كل الراغبين في

رؤية نهاية للنزاع العربي/ الإسرائيلي (وبالطبع كل الراغبين في رؤية مفهوم جديد للأمن القومي العربي، تتبدل فيه محددات الصراع ومصادره وتصبح فيه إسرائيل جزءاً عضويّاً من أمن المنطقة).

وفي هذا الإطار، سوف يلعب العراق الجديد أي عراق ما بعد المعاهدة والانتخابات المحلية، دور نقطة الارتكاز الكبرى في إستراتيجية تغييّر أولويات ومفاهيم الصراع، وذلك من خلال تنشيط وتصعيد (وحتى تهويل الخطر الإيراني وتحويله إلى تناقض رئيس بدلاً من إسرائيل أو الاحتلال الأمريكي)، ومن المهم للغاية ملاحظة أن التغيير المطلوب لن يعني أي شيء آخر سوى المضي قدماً في سياسة "تصنيع عدو جديد" للعرب يحل محل "العدو القديم"، وفي هذه الحالة سيكون العراق مهيأ لأن يلعب دوره المحوري في الصراع المرتقب مع إيران على خلفية "نفوذها" المتعاظم في المنطقة، ولذلك يتعيّن رؤية هذا البُعد في الاتفاقية- المعاهدة من خلال نتائج الانتخابات التي أسفرت عن "تحجيم أدوار" قوى بعينها، عُرفت بقوة ارتباطاتها مع طهران، وصعود قوى "ناقدة" للدور الإيراني.

الإطار الثاني: إن قانون انتخابات مجالس المحافظات غير المنتظمة في إقليم (وهذا هو الاسم الرسمي للقانون كما جرت المصادقة عليه في البرلمان) ليس (ولم يكن في الأصل) مجرد قانون ينظم لانتخابات تقليدية، بأفضل وأيسر الطرق والصيغ لأجل أن يتمكن الأفراد في المجتمعات المحلية من إزاحة "طبقة فاسدة" من الإداريين، والانتقال إلى حقبة الإعمار والبناء وتسريع وتحسين وتيرة تقديم الخدمات، والأدّق أن القانون غير المسبوق هو قانون تأسيس "لحكومات محلية قوية" تستطيع في أي ظرف لا التنافس مع الحكومة المركزية فحسب، وإنما أن تدخل معها في تسابق علني في ميدان التعاقد

المباشر مع الشركات الغربية الأوروبية والأمريكية، ومن دون الحاجة للعودة إلى رقابتها البرلمانية، أو تدقيقها القانوني للعقود، وأكثر من ذلك أن تتوفر الظروف أمامها (أي أمام الحكومات المحلية الطموحة والمتلهفة للعب دور مركزي) ومعها الطبقة الجديدة من الإداريين في المحافظات الجنوبية والوسط، وبدعم خفي من الجيش الجرار للمقاولين الطفيليين الذين ينتشرون اليوم في كل مكان، لإثارة نزاعات قانونية وإدارية وسياسية مع المركز تحقيقاً لاستقلاليتها هي "كمراكز طرفية".

وإذا ما ربطنا بين تمرير القانون الانتخابي ونتائج الاقتراع، وبين اقتراب موعد تمرير قانون النفط والغاز، فسوف تكون لدينا – في هذه الحالة وحدها- إمكانية أفضل لرؤية حكومات محلية لديها مال وفير وصلاحيات تشريعية واسعة وطموحات فيدرالية، وهذه بالضبط هي الوصفة الحقيقية للتقسيم.

إن التأمل في الترابطات الوثيقة بين المعاهدة (وقانوني الانتخابات والنفط والغاز) سوف يكشف عن حقيقة أن العراق الجديد لم يعد (ولن يعود في المستقبل المنظور) مؤلفاً من مركز وأطراف، بل من "مركز" من بين مراكز عدّة تحيط به في الأطراف، حيث كل حكومة محليّة فيه تريد وترغب في تقديم نفسها كنتاج "للنعمة الفيدرالية"، ولذلك سوف يعيش العراق الجديد ولسنوات طويلة قادمة وهم وجوده كبلد موّحد، وأن يعيد- في سياق سلسلة من التدابير والتحوّلات البنيّوية المتوقعة- تعريف "وجوده التاريخي "كبلد اتحادي- فيدرالي، وتماماً كما نصّ الدستور، يقطع نهائياً مع فكرته عن نفسه ككيان موحد أو قابل للتوحيد مرة أخرى، وفي هذه الحالة أيضاً، يتعيّن أن نرى ونلاحظ نتائج الانتخابات المحلية بوصفها إعادة "بناء للأحجام والأوزان السياسية" للقوى المشاركة في العملية السياسية، وبما يتلاءم ومهام ووظائف العراق المقبل، وليس بوصفها تجسيداً لهزيمة هذه الحركة الطائفية أو تلك.

وفي هذا الصدد يمكن للمراقب أن يقرأ نتائج الانتخابات لا بوصفها هزيمةً منكرة" لمشروع الفيدرالية " كما يزعم؛ بل كتعديل على أحجام وأوزان القوى التقليدية التي حملت مشروع الفيدرالية، وقامت بتبنيه والترويج له والدفاع عنه، وهي لا تزال تفعل ذلك دون تردد أو حياء، واستطراداً أن نرى إليها كمحاولة "ديمقراطية" سلسة وشفافة ومراقبة دولياً لإحلال قوى وتحالفات جديدة، تأخذ على عاتقها وبذريعة بناء "دولة القانون" وحراسة "روح الدستور" التي تشهق بنداء الفيدرالية، كما يتعيّن ملاحظة أن النتائج الانتخابية تعكس وبدرجات متفاوتة من الصراحة والوضوح حقيقة أن حلفاء إيران "التقليديين" قد هزموا بالفعل، لكن حلفاء آخرين لها تمكنوا من تحقيق انتصار لامع وهذا وضع حقيقي لا ينبغي تجاهله، وإذا ما استخدمنا لأغراض التصنيف وحسب الاصطلاح الرائج في الثقافة السياسية الإيرانية، حيث يجري تقسم قوى المجتمع إلى "محافظين" و "إصلاحيين"؛ فإن القوى المهزومة (المجلس الأعلى وحلفائه) وهي قوى تنتسب إلى معسكر اليمين الديني التقليدي، ستمثل أو تلعب دور "محافظي العراق"، بينما تبدو القوى المنتصرة (تحالف المالكي والإصلاح والصدريين) وكأنها ارتدت أزياء "الإصلاحيين" واستعدت بدورها للعب دورهم في العراق.

وبرأيي فإن المعاهدة ونتائج الانتخابات المحلية سوف تبلوّران كلياً وبالتدرّج شخصية العراق الجغرافية الجديدة، كما ستعيدان صياغة سياساته ومستقبله، وبالدرجة نفسها من الزخم ستقومان بإعادة تعريف هذا البلد لنفسه، فهو مؤلف من حكومة مركزية ضعيفة محاطة بسلسلة من المراكز تكون قادرة وراغبة في الآن ذاته بإنشاء أشكال من الاتحاد مع بعضها البعض، ولكن من دون إلغاء الروابط الهشة مع المركز (الحكومة المركزية في بغداد)، ولذلك سيكون العراق الجديد الذي ستقوده حكومات محلية تلاشت أو ضعفت

روابطها القديمة مع المركز، بينما تعاظمت ميولها إلى تطوير وحداتها الجغرافية الجديدة، عراقاً أكثر من "فيدرالي" أو ما فوق فيدرالي، يتحوّل فيه المركز إلى طرف فيما تتحوّل الأطراف إلى مراكز، وهذه هي بالضبط صورة "دويلات المدن" التي عاش العراق عصرها التاريخي مع سومر وأكد ما قبل ظهور سرجون الأكدي ٢٣١٦ ق.م، إن تفتت العراق المعاصر وتفكك بنى الدولة المركزية فيه سوف يسمح بنشوء نظام جديد يقوم على أساس الروابط الهشة بين "دويلات مدن هي خلاصة فيدراليات الأمر الواقع التي سوف تنبثق من داخل هذين الإطارين".

تكتيكات "تمرير المعاهدة " و"نتائج الانتخابات"

قد يكون من الصعب بالنسبة لي- على الأقل- تصوّر أن التكتيكات التي اتبعتها الحكومة العراقية قبل وأثناء التوقيع على الاتفاقية الأمنية الإستراتيجية مع واشنطن هي خلاصة أو نتاج "ذهنية عراقية"، فهذا أمر مشوب بشكوك لا حصر لها، ونظراً لمعرفتي بطبيعة "الشخصية السياسية" العراقية المعاصرة، وحساسيتها المفرطة حيال تقبّل وفهم الحاجة إلى التعاطي بمرونة مع التحديات "الصلبة" والخشنة في السياسات الدولية والإقليمية، وربما الحاجة للقيام بـ "مناورات محسوبة" في كثير من الأحيان لتفادي المخاطر والعواقب، ونظراً كذلك لمعرفتي المباشرة بالكثير من رموز النظام الراهن، وبقدراتهم الفكرية والسياسية (المحدودة وحتى الفقيرة في الكثير من الحالات) فإن شعوري بأن هذه التكتيكات تنتسب إلى بنية ذهنية أخرى، مشبعة بروح البراغماتية (النفعية) قد تعاظم خلال الآونة الأخيرة، فما الذي يعنيه هذا في إطار فرضيات تفتتّ الدولة المركزية وتفكك الكيان الجغرافي- السياسي للعراق المعاصر؟.

في السابق، وطوال نحو خمسة وثلاثين عاماً من حكم حزب البعث في العراق، تشكلت "شخصية سياسية"عراقية، يقوم كل مفهومها للسياسة على منظومة من المعتقدات الايديولوجية الصارمة التي لا تسمح بوجود "منطقة رمادية" في الموقف الرسمي (الحكومي والحزبي) من أي شأن محلي أو إقليمي أو دولي، كما نشأت في الثقافة السياسية الشعبية للمجتمع العراقي "ذهنية حسم" ذات طابع راديكالي، يصعب في الكثير من الأحيان فهم بواعثها ودوافعها وأسبابها، وفي غياب مجتمع سياسي مُنتج للأفكار، وطغيان "المجتمعات الحزبية" المحلية المرتبطة بمركز حزبي (آيديولوجي) يحرص على تكريس ذهنية الحسم هذه، فقد كان من المنطقي أن تصبح هذه الذهنية ذات قابلية للتعميم كنموذج، ولذلك اتسم سلوك "الشخصية السياسية" العراقية خلال ثلاثة عقود ماضية، وحيال مختلف الأوضاع والظروف بالرغبة الجامحة إلى حسم أي موقف بسرعة ودن تباطؤ بالرفض أو القبول فذلك سيّان ومهما كانت العواقب والنتائج، ولعل الطريقة التي دافع فيها النظام السابق عن برنامجه النووي أو تبريره لغزو الكويت هي من بين أكثر الدلائل قوة على أن ما يميز الشخصية السياسية العراقية المعاصرة ارتهانها لذهنية "الحسم"، بل وخضوعها التام وشبه المطلق لنوع من "الإرادوية الآيديولوجية" الساذجة والمنفصلة كلياً عن الواقع، أي خضوعها لذهنية تغليب إرادة الآديولوجيا على ممكنات الواقع، وما يؤكد ذلك ويدعمه بالحجة والمعطيات الواقعية، أن "ذهنية الحسم" هذه ظلت تتحكم في السياسة الرسمية حتى لحظة انهيار النظام، لقد كان الواقع يتبدى باستمرار رمادياً ولا قيمة له، بينما كانت الآيديولوجيا تبدو كشجرة خضراء يانعة وقادرة على الصمود أمام الأعاصير.

على الضد من النموذج العراقي لأشكال الدفاع عن المصالح الوطنية (بما فيها الحق المشروع ببرنامج علمي ونووي) ولوسائل المناورة السياسية

والدبلوماسية؛ أظهرت إيران قدرة لافتة على اللعب في الساحة الدولية والإقليمية ببراعة، بفضل "ذهنية" أخرى تبدو فيها الآيديولوجيا - وعلى العكس مما تصور العراقيون- "رمادية" عديمة القيمة مقارنة بواقع حيّ وصارم في منطقه، ويشخص مثل شجرة خضراء، هذا الفارق بين "الذهنيتين" العراقية والإيرانية تجلى في الكثير من المناسبات، من قبل في طريقة خوض الحرب التي نشبت بين البلدين طوال ثماني سنوات دامية، واليوم في التعاطي مع الضغوط الأمريكية، لقد كان العراقيون بالأمس فقط يخوضون الحرب مع إيران بجَلد البدويّ الطامع بنصر سريع وغنائم وفيرة، بينما كان الإيرانيون يخوضونها بعقلية حائك السجاد الصبور الذي استعد وتهيأ لخوض حرب طويلة وضروس بواسطة دبلوماسية "الصبر".

ولهذا تبدو الأسئلة الحائرة التالية مشروعة تماماً:

لماذا لم تعارض إيران بما يكفي من القوة تمرير الاتفاقية في البرلمان العراقي وبعدما ظهرت الكثير من الدلائل على أنها لن تمرّ؟، ومن الذي كان يقف بالفعل وراء تمريرها بهذه الصورة ولحساب مَن؟ وهل تنتسب "مناورات حكومة المالكي" إلى ذهنية عراقية، أم أن لاعباً بارعاً آخر كان يحيك السجادة بدلاً من البدوي؟، وما هي الرابطة التي تجمع بين توقيع الاتفاقية وانتخابات مجالس المحافظات، وأخيراً إلى أين يتجه عراق ما بعد الاتفاقية والانتخابات المحلية؟، إن تحديد أنماط تحدي وجود السلطة المركزية من جانب "حكومات محلية" ثرية وفاسدة وشرسة ولديها صلاحيات تشريعية وتنفيذية واسعة تمكنها من التنافس على لعب دور "دويلات المدن" في عراق جديد ومُقلص جغرافياً وسيادياً إلى أبعد حدٍّ ممكن، ومن ثمَّ تشخيص مصادر الخطر على وجود العراق كدولة موّحدة خلال العقدين القادمين، يمكن أن يرتسم اليوم في صورة

أسئلة يبدو أنها دون أجوبة، بيد أن التطورات الراهنة ترسم مع ذلك صورة سيناريو كابوسي تبزغ فيه "دويلات مدن" في الجنوب (الذي تشبّع بثقافة طائفية مقيتة) قادرة على تحويل السلطة المركزية إلى طرف محلي (أيّ إلى سلطة محلية محصورة في العاصمة بغداد وحسب) ومن خلال تهميش منظمّ وتدريجي لدور الحكومة المركزية، بل ومن خلال التهديد بتدابير عقابية ضدها (مثل غلق حدود المحافظات وقطع العلاقات مع العاصمة)، وهذا يعني أن السلطة المركزية التي يفترض أنها ستكون الضامن لوحدة العراق والقادرة على ضبطه وجوده، ستكون هي نفسها عرضة للتهميش وموضوعاً من مواضيع الصراع مع حكومات محلية ليديها الثروة والقوة.

إن فهماً أفضل للأسباب والدوافع والحسابات السياسية التي رافقت عملية التصويت على الاتفاقية في الحكومة والبرلمان، يجب أن يُلاحظ هذا الجانب الخفي من الظروف التي جرى فيها رسم التكتيكات المتبعة، فطهران التي أصاخت السمع مبكراً وبكل جوارحها لخطاب الرئيس الجديد باراك اوباما، وقرأت فيه خصوصاً أثناء آخر الجولات الانتخابية "سطوراً قليلة ولكن مفعمة بالدلالات" عن لهجة تصالحية مع مشروعها السياسي والعلمي "النووي"، واستعداداً غير مسبوق لدمجها في بنية نظام امني وسياسي جديد، يخرجها من دائرة التصنيف الأمريكي للإرهاب، سارعت إلى إقناع الائتلاف الشيعي الحاكم باستغلال حماسة الأكراد المفرطة إلى إبرام الاتفاقية، والاعتماد- في آن واحد- عليها لخلق الأجواء المناسبة، وكانت أولى ثمار هذا التكتيك تغيير الخط التفاوضي جذرياً، ولذلك تشكلت قبل أسابيع من عرض آخر مسوّدة من المسوّدات العشرة للاتفاقية ظروفاً جديدة تنبئ بكل الاحتمالات، بما فيها احتمال رفضها في البرلمان، وفي حين أصدر الائتلاف الشيعي سلسلة من التصريحات المتناقضة عن "وجود نقاط غامضة تتطلب تعديلاً" وسلسلة أخرى

من التصريحات التي توحي بوجود "انقسام حقيقي" داخل الائتلاف الحاكم، قام رئيس الوزراء بتغيير الطاقم المفاوض واستبعد وزير الخارجية (الكردي) هوشيار زيباري، ثم قام تالياً باستبدال بقية أعضاء الطاقم بجهاز تفاوضي معظم أعضائه من موظفي مكتبه، وبذلك خطت طهران أولى خطواتها على طريق الإمساك بمصير الاتفاقية قبل إبرامها، لقد استغلت بذكاء حماسة الأكراد لتوقيع الاتفاقية ووجهت لهم وفي الوقت عينه ضربة قاصمة من خلال شل قدرتهم على اللعب في ساحة التوقيع على الاتفاقية عبر وزير الخارجية زيباري المُبعد من طاقم المفاوضات، وبفضل هذا التكتيك تمكنت من وضع عملية التفاوض داخل إطار يسمح لها بالتلاعب في عامل الوقت، ويتيح لها في الآن ذاته القيام بمراقبة دقيقة لسلوك أوباما حيال ملفها النووي ودورها الإقليمي ونفوذها في العراق على حد سواء.

وكان موعد الرابع من تشرين الثاني (آخر جولة انتخابية لاوباما) يضغط بقوة على إدارة بوش مع تزايد المؤشرات على هزيمة المرشح الجمهوري ماكين، بينما كان موعد انتهاء تفويض مجلس الأمن الدولي للقوات الأمريكية في نهاية ديسمبر ٢٠٠٨م يقترب من اللحظة الحرجة لتصبح قوات الاحتلال بعدها دون غطاء "قانوني"، وهكذا ما إن حل موعد حسم معركة الرئاسة الأمريكية بفوز أوباما واتضح أن الجمهوريين قد غادروا البيت الأبيض، حتى سارعت طهران إلى "ترتيب" أوراقها داخل البرلمان العراقي استعداد لملاقاة هذا التطور، وتمثلت أولى علامات الاستعداد والتأهب في مواجهة إدارة أمريكية جديدة راغبة في انتهاج سياسة حوار جدي مع طهران، أن العاصمة الإيرانية أبدت ما يُفهم منه أنه "استعداد" للسماح بتمرير الاتفاقية في مجلس الوزراء العراقي (وبالأغلبية المطلقة)، وذلك ما عكسته بدقة سلسلة من التصريحات شبه المؤيدة لتوقيع الاتفاقية، كان آخرها تصريح صادر عن

رئيس "تشخيص مصلحة النظام" الإيراني، وكان واضحاً أن التناغم في التكتيكات المتبعة في بغداد وطهران هو أكثر من مجرد "توافق شكلي" في المواقف، وأن "ذهنية جديدة" تدير لعبة التفاوض، ما يثير الاهتمام في حكاية التمرير السهل للاتفاقية في البرلمان العراقي، أن اللاعب الإيراني لم يترك خلفه دليلاً واحداً يؤكد أنه كان وراء عملية التمرير، كل ما في الأمر أن أروقة البرلمان شهدت صراعاً بين "كتل سياسية" عراقية طامحة إلى استرداد "السيادة" من خلال معاهدةِ مع العدو، بيد أن للأمر وجهاً آخر، فطهران ضغطت في اتجاهين متلازمين:

أولاً: ربط توقيع الاتفاقية بإجراء استفتاء شعبي (استناداً إلى فتوى السيستاني) في موعد أقصاه تموز/ يوليو القادم، ولسوف يتيح هذا التكتيك لطهران (التي تتصرف بعقلية حائك السجاد المتلهف والمستعد لشراء الوقت ليفرغ من حياكة سجادته بهدوء) أن تتفادى مواجهة مكشوفة ومبكرة مع إدارة أمريكية منصرفة، ولكنها مستعدة للإقدام على شرور وحماقات أخرى، من بينها على الأقل السحب الفوري للحراسات الخاصة بالوزراء والنواب وبعض الوحدات العسكرية المكلفة بحماية بغداد، وهذا يعني أن إدارة بوش ستترك النظام السياسي الراهن فريسة بين أيدي "الجماعات الإرهابية" لتمزقه إرباً إرباً، وذلك فحوى التهديد بـ"عواقب وخيمة" الذي أطلقه الجنرالات، وفي هذه الحالة كان من المرجح أن طهران كانت ستجد نفسها في دوامة صراع مسلح يجعل من نفوذها في العراق نوعاً من "الغزو"، لقد اتاح هذا التكتيك لطهران أن تتفادى مواجهة محتومة مع إدارة أمريكية جديدة، راحت تبدي استعداداً أكثر للتعاطي مع الملف النووي والمشروع السياسي الإقليمي لطهران وبطريقة " أقل خشونة" مما فعل بوش طوال السنوات الثماني الماضية، وبطبيعة الحال فسوف يكون موعد الاستفتاء في تموز/ يوليو المقبل سيفاً

تشهره طهران في وجه أوباما، كلما اقترب هذا بطريقة "خشنة" من تخوم ملفها النووي ودورها الإقليمي، فإذا ما شعرت طهران أن الرئيس الجديد سوف ينفض يديه من وعوده؛ فإنها ستدفع باتجاه إسقاط الاتفاقية وفضح مضمونها "المخزي"، وبهذا المعنى أيضاً تكون طهران قد أرضت الرئيس المنصرف بوش والرئيس القادم اوباما على حد سواء، بينما أبقت "عنق الاتفاقية" بين يديها.

ثانياً: ربط توقيع الاتفاقية بشرط تحقيق "الإجماع الوطني" وهذا تعبير ملطف عن دبلوماسية توريط كل الأطراف (وليس الائتلاف الشيعي وحده)، وفي هذه الحالة تكون إيران قد تجاوبت مع حماسة الأكراد المفرطة (ولم تصطدم مع طموحاتهم خصوصاً وان الجار التركي بدأ سياسة جديدة لاحتوائهم وهذا أمر يثير قلق طهران)، وفي الآن ذاته تكون قد جذبت إلى صفها كتلاً "سنية" متبرمة ديدنها البحث عن مغانم ومكاسب حزبية انتهازية (تعبيرها الملّطف اليوم ما يدعى بوثيقة الإصلاح السياسي التي تطالب بها جبهة التوافق) بينما أبقت بين يديها بورقة التيار الصدري الرابحة بوصفها ورقة شيعية معارضة للاتفاقية، يمكنها أن تلوّح بها في وجه الأمريكيين متى شاءت.

لقد ضغطت طهران على الصدريين من اجل إبقاء معارضتهم الصاخبة للاتفاقية داخل دائرة ضيقة يسهل السيطرة عليها، ولذلك جاءت كل تظاهرات التيار الصدري بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية وهذا أمر مثير للحيرة، حتى أن آخر تظاهرة للصدريين ضد الاتفاقية كانت برعاية الداخلية وحراسات البرلمان وبإشرافه وانتهت بعد ساعات فقط بهدوء، كما أن الضجيج الذي مارسه الصدريون داخل البرلمان بدا محسوباً بدقة (والمعلومات المؤكدة أنهم منعوا من المقاطعة أو الانسحاب الجماعي).

في الواقع لم تعرف العلاقات الدولية والإقليمية كما صاغتها اتفاقيات سايكس- بيكو الاستعمارية، ومن قبلها معاهدة فرساي والتي رسمت حدود الدول ومناطق النفوذ في العالم، وضعاً شبيهاً أو مماثلاً لحالة العلاقات الراهنة بين بغداد وواشنطن من جهة، وبين بغداد وطهران من جهة أخرى، وثمة شعور بأن هذه العلاقات تتخذ طابعاً شديد التعقيد والخصوصية والتراكب، وإلى درجة بات فيها الاعتقاد أن طهران تتحكم في خيوط اللعبة الأمريكية ببغداد.

أكثر من مجرد اعتقاد واهٍ، وأصبح على العكس من ذلك أمراً مفروغاً منه وقد لا يحتاج لبرهان، بيد أن هذه العلاقات بلغت ذروة تعقيدها وتشابكها خلال الفترة القليلة المنصرمة، حين ترددت أصداء الجدل حول الاتفاقية الأمنية الإستراتيجية بين بغداد وواشنطن في أروقة وكواليس الدبلوماسيين في العالم بأسره.

فهل سيكون موعد تموز/ يوليو القادم (تاريخ الاستفتاء الشعبي على الاتفاقية) اختباراً دقيقاً لسياسة اوباما تجاه طهران؟، وهل باتت طهران (وليس واشنطن) هي من يتحكم في مصير الاتفاقية الأمنية؟، وهل حقاً تم تمرير الاتفاقية وفقاً لحسابات "ذهنية عراقية" أم أن "ذهنية أخرى" كانت تدير اللعبة؟، كل ما جرى يدلل على أن "ذهنية حائك السجاد الصبور" لا "ذهنية البدوي" هي التي مررت الاتفاقية في سياق التأهب والاستعداد منذ الآن لملاقاة مرحلة الانخراط المحتوم في نظام امني إقليمي جديد، قد يتيح لكل "حائك سجاد" راغب في الانضمام الفرصة والوقت الكافيين لحياكة سجادته بهدوء، شرط الالتزام بقواعد العضوية (براغماتية أكثر وآيديولوجيا اقل)، وبالطبع المزيد من الرغبة في الخضوع للأمر الواقع؟

ما بعد المعاهدة الأمنية مع الأمريكيين: أي معنى للسيادة؟

اليوم وبعد مصادقة البرلمان العراقي على نصوص المعاهدة الأمنية بين بغداد وواشنطن، تكون الطبقة السياسية قد انتقلت فعلياً من حقبة المزاعم عن "تحرير العراق من الاحتلال" إلى حقبة المزاعم عن "تحرير العراق من الفصل السابع"، بينما ينتقل الأمريكيون فعلياً من حقبة "الاحتلال" إلى حقبة "الوجود الشرعي".

وبناء على رغبة حكومة بلد صديق، وبذلك يكون الجزء الأهم من السجال السياسي الدائر حول المعاهدة قد تمحور كلياً منذ الآن في نقطة مركزية واحدة ستكون هي بؤرة ولبّ كل النقاش والفعاليات الاحتجاجية ومعها سائر أشكال التعبير عن السخط والغضب والرفض، هل يمكن حقاً استرداد السيادة من خلال معاهدة أمنية طويلة الأمد؟، وكيف؟، وهل يتمكن العراق من الصمود ككيان موّحد شكلياً حتى عام ٢٠٢٥م (موعد ظهور الشرق الأوسط الجديد المؤلف من دويلات مدن)؟، ويبدو أن السجال ضد هذه الفكرة ينطلق بدوره من مجموعة أفكار و "ملاحظات" فجرّها النص العربي من المعاهدة، والذي تضمن صياغة مبهمة لأهم شرطين من شروط السيادة وهما: خروج العراق نهائياً من الفصل السابع وتحريره من الأعباء والقيود التي تكبل وضعيته كبلد مستقل، وتقديم ضمانات قانونية للحفاظ على ممتلكاته وأمواله.

وهذان الشرطان تمت صياغتهما على نحو يصعب أو يستحيل على العراق في المستقبل إلزام الطرف الأمريكي الإيفاء بهما، وعلى سبيل المثال؛ فإن البند الخاص بمسألة معالجة خروج العراق من الفصل السابع لا يتضمن سوى "تعهد بأن تبذل الولايات المتحدة الأمريكية قصارى جهدها في مجلس الأمن"؟، ولكن من دون أي تأكيد رسمي بان مثل هذا الجهد يجب أن يؤدي

إلى "ضوء في آخر النفق"، وهذا يعني أن كل ما تشدق فيه السياسيون عن الخلاص من عبودية الفصل السابع لن تكون له– في نهاية المطاف– أدنى قيمة سوى قيمة المزاعم نفسها عن "تحرير العراق"، والأمر المؤكد أن العراق لن يخرج من الفصل السابع لا اليوم ولا في المستقبل المنظور، ذلك أن قرار الخروج يرتطم بفيتو روسي وربما صيني، إن روسيا التي تجد نفسها في ورطة أمام إصرار الأمريكيين على نشر أجزاء من الدرع الصاروخي في وارسو، واستمرار محاولات الأطلسي(الناتو) ضم جورجيا إلى عضويته مما يعني تعاظم الخطر على روسيا ومحاصرتها في عقر دارها، لا تجد نفسها إلا مضطرّة لاستخدام الفيتو لمنع العراق من مغادرة زنزانة الفصل السابع، كما أن كلاً من روسيا والصين سوف تجدان في محاولة واشنطن إخراج العراق من هذه الورطة فرصة مناسبة للمطالبة بحصتهما من النفط وعقود الإعمار، وللمرء أن يتخيل الطريقة التي سوف يتشكل فيها عراق فيدرالي تطوق عنقه عقوبات الفصل السابع، بينما يتحول الاحتلال إلى "قوات صديقة"؟.

ومن بين أكثر الذرائع والمبررات التي ساقتها الطبقة السياسية من اجل تمرير المعاهدة إثارة تلك المتعلقة بفكرة السلطة المركزية عن السيادة والتي عبر عنها رئيس الوزراء ثم بعض قادة الكتل البرلمانية أثناء التصويت ومفادها أن "المعاهدة الأمنية هي خطوة أولى على طريق استعادة العراق سيادته"، فهل نحن أمام خطوة "على طريق السيادة" حقاً؟، أم أننا أمام نفق مظلم آخر قد لا يفضي إلى أي ضوء؟، من الهام للغاية ملاحظة أن الجدل الذي رافق عملية التصويت ركز على فكرة أن العراق سيظل تحت الوصاية الأمريكية حتى مع توقيعه على الاتفاقية؟، ومع ذلك جرى تمرير المعاهدة بسهولة فما الذي حدث بالضبط؟، وكيف توصلت الكتل السياسية المتنازعة والمتصارعة إلى توافق سياسي على أن العراق يمكن أن يسترد سيادته فقط.

من خلال إبرام معاهدة تحصل قوات الاحتلال بموجبها على وضعية قانونيـة وسياسية فريدة في نوعها؟، وهل يمكن الحفاظ على "معنى السيادة" القـانوني والسياسي في ظل معاهدة تضفي على "الاحتلال" كل ما يلزم مـن شـرعية؟، ليست الاتفاقية الأمنية التي وقع عليها العراق اتفاقية بالمعنى القـانوني؛ بـل معاهدة إستراتيجية كبرى، لأنها تتضمن سلسلة مـن الاتفاقيـات الاقتـصادية والثقافية والعسكرية والأمنية وحتى الرياضية والصحية والتجارية، وبرأينا أن أخطر ما في هذه المعاهدة هو صياغتها "لمعنى السيادة"، إنها تقـدم صـياغة جديدة وعلى نحو ملائم تماماً لوظائف ومتطلبات مرحلة الاحـتلال الطويـل، وهي المرحلة التي تحدث عنهـا المرشـح الجمهـوري للرئاسـة ووصـفها بإستراتيجية البقاء في العراق لمائة عام، ولأن الأمر يتعلق بإعادة بناء "فكـرة السيادة" في الثقافة السياسية العراقية بأكثر مما يتعلق بـ "صياغات غامـضة" هنا وهناك؛ فإن لمن المهم ملاحظة أن واشنطن وهي تنتقل من حقبة الاحتلال إلى حقبة "الوجود الشرعي والقانوني" والذي تتحـول بموجبـه إلـى "قـوات صديقة"، تقوم في الآن ذاته بمساعدة الطبقة السياسية على الانتقال من فكرتها عن "التحرير" إلى فكرة الاحتلال نفسه عن "تحرير العراق"، وبـذلك يـصبح "التحرير مهمة أمريكية" لا عراقية.

بكلام آخر سوف تصبح الولايات المتحدة الأمريكية هي الطرف المقـرر في الصراع حول الاستقلال ما دامت قد أفلحت بالفعل فـي إنـشاء مفهـوم تجريدي للسيادة ووضعه في إطار قانوني ملزم للطرف الحكومي في العراق، أي ما دامت قد تمكنت من بناء فكرة أخرى عن معنى السيادة، وبحيث تصبح العبودية الأبدية مطلباً وطنياً؟ بل وتصبح العلاقة بـالأمريكيين والارتـهان لسياستهم في المنطقة نوعاً من أنواع الصداقة؟، ولعل التهنئة التـي أرسـلها عمار الحكيم (نجل الحكيم رئيس المجلس الإسلامي الأعلـى فـي العـراق)

لشيوخ عشائر محافظة ديالى بعد يوم واحد من توقيع الاتفاقية، هي التعبير الأكثر تجسيداً لهذا النوع من التحول في المفاهيم؛ إذ خاطب العشائر بقوله: (هنيئاً لكم توقيع الاتفاقية... اليوم أصبحتم على طريق السيادة)، ترى لماذا تصر بعض وسائل الإعلام العربية والأمريكية على الزعم أن المعاهدة الأمنية هي "اتفاقية لسحب القوات"؟، مع أنها لا تتضمن في الأصل أي اتفاقية ملزمة بالمعنى القانوني، لا لسحب القوات ولا لتعريف مهام ووظائف الوجود العسكري الدائم، علماً أن المعاهدة لا تتحدث مطلقاً عن جدول حقيقي للانسحاب؛ بل عن موعد تحدده "الأوضاع الميدانية" وعن "تنظيم دخول ومغادرة الجنود الأمريكيين"؟، قبل أكثر من خمس سنوات قدمت الطبقة السياسية في العراق كل ما هو مطلوب منها لتمرير مشروع الغزو، واليوم تستكمل ما يُطلب منها بتقديم كل ما يلزم لتحويل فكرة "السيادة المجردة" إلى مطلب بديل عن الجلاء والاستقلال الوطني، قد يبدو أنّ لا معنى للكلام اليوم عن السيادة في ظل "حكومات محلية" تتجه بالعراق نحو نظام دويلات المدن، ولنتذكر أن خطة جوزيف بايدن لتقسيم العراق والمعروفة باسم "خطة التقطيع الناعم" تتحدث عن سيناريو مخيف، لنشر ما يزيد عن مئتي ألف عسكري (دولي) على حدود الولايات العراقية وفي حوزتهم قاعدة بيانات متكاملة للمواطنين الداخلين والخارجين من حدود المحافظات، وبالطبع في وقت ما من انتقال "الحكومات المحلية" إلى وضعية "حكومات دويلات المدن" المتخاصمة.

بعد أحداث غزة
الدور التركي.. من الجسر إلى العمق

د. كمال حبيب / كاتب مصري متخصص في الشؤون التركية

حزب العدالة والتنمية الذي يحكم في تركيا اليوم، والمعروف هناك باسم الآق بارتي – أي الحزب الأبيض، هو أول حزب يحقق انتصارات متتالية في الانتخابات التشريعية مرتين متعاقبتين منذ أكثر من خمسين عاماً، فهو اكتسح الحياة السياسية في انتخابات تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢م أي بعد تأسيسه بعامين، وأول مرة يدخل فيها الانتخابات البرلمانية وحصل على (٣٤%) وفي الانتخابات الأخيرة في تموز/ يوليو ٢٠٠٧م، استطاع الحصول على (٤٧%) ليشكل الحكومة بمفرده، هذه النتائج لم تتحقق في التاريخ السياسي لتركيا منذ حقبة الحزب الديمقراطي الذي أسسه "عدنان مندريس" والذي سيطر على الحياة السياسية لتركيا منذ عام ١٩٥٠م إلى عام ١٩٦٠م.

نحن إذاً أمام حزب استطاع أن يعطي للسياسة معناها في تركيا بعد أن فقدت ذلك المعنى مع الأحزاب العلمانية التي تعاقبت على حكم البلاد بعد إرغام "نجم الدين أربكان" على ترك رئاسة الوزراء ولمّا يقضي فيها أقل من عام وذلك سنة ١٩٩٧م.

وفي الواقع، فإن حزب العدالة والتنمية ليس مجرد حزب كالأحزاب العلمانية ولا هو حزب كالأحزاب الإسلامية التقليدية، ولكنه يجمع بمهارة بين القيم السياسية التي تستلهم المعايير الإسلامية والتي يطلق عليها المحافظة وفي الوقت نفسه يمارس السياسة من خلال برنامج ومن خلال أدوات السياسة ومكرها وصراعاتها؛ ولذا يقول "أردوغان": (إن الناس يسألوننا كما لو كنا مفتين، ولكننا حزب سياسي)، وهو وأعضاء حزبه لا يرون أن يكون هناك حزب إسلامي في دولة أغلبيتها مسلمة؛ لأن الحزب هو قوة انقسامية، بينما الإسلام قوة توحيدية، ومن ثم فهم يرون أنفسهم حزباً سياسياً يجادل في الواقع السياسي عبر برامج وإنجازات، وكان لقادة الحزب دور كبير في الإنجاز والممارسة العملية على مستوى البلديات، فقد كان "أردوغان" عمدة لاسطنبول مثلاً ومن هناك تعلم الواقعية والتواصل مع الناس.

يصف حزب العدالة والتنمية نفسه بأنه حزب ديمقراطي محافظ – وهو هنا يجمع بين العقلانية والتوافق ويزاوج بين القيم التقليدية والحداثة، كما يربط بجدائل قوية بين المقاصد الكلية وبين الآليات الواقعية التي تحققها في الواقع، ويعبر هذا الحزب عن تيار الجيل الوسط في الحركة الطلابية والإسلامية التركية، وهو جيل رأى أنه لكي يصل إلى قلب العلمانية التركية واختراقها لا بد من تغيير المسار الذي اختطه أبو الإحياء الإسلامي في تركيا "نجم الدين أربكان"، ومن بين ما أراد هذا الجيل تحقيقه، هو وجهة تركيا ودورها في العالم العربي والإسلامي، فمنذ سقوط الدولة العثمانية والعالم الإسلامي لم يعد لديه مفهوم واحد للأمن القومي، ولم تعد الدولة القطرية التي خلفت الدولة العثمانية قادرة وحدها على حماية أمنها القومي أو النهوض لحماية الشعوب الأخرى حين تتعرض للخطر كما حدث مثلاً في العدوان الصهيوني الأخير على غزة.

رغم وجود ما عرف باسم "المسألة الشرقية" وهي تعني اجتماع الدول الغربية على تفكيك الدولة العثمانية وتقسيمها، بيد أن الدولة ظلت تقاوم وتستخدم الأدوات السياسية الممكنة وأبرزها استغلال التناقضات بين القوى الإقليمية في أوروبا من أجل إطالة عمر الدولة واستمرار حماية حدود العالم الإسلامي في مواجهة النهم الاستعماري والذي تمثل في الهجمة الاستعمارية على الدول العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر، ومن هنا فإن العدالة والتنمية يعبر عما نسميه تقاليد الدولة العثمانية، وهناك مصطلح جديد في تركيا ظهر مع "طورجوت أوزال" في أواخر ثمانينيات القرن الماضي ومطلع التسعينيات وهو مصطلح "العثمانية الجديدة"، أي ظهور تقاليد الدولة العثمانية وهي مختلفة عن التقاليد الكمالية.

"طورجوت أوزال" هو أحد الأسماء الكبيرة في التاريخ التركي المعاصر فهو من أسس لما يطلق عليه في تركيا "الجمهورية الثانية" باعتبار أن الجمهورية الأولى هي التي أسسها "أتاتورك"، والجمهورية الثانية هي التي أعلنت إفلاس العلمانية كما طرحها "أتاتورك" وهي تعبير عن أيديولوجية فاشية متصلبة عاجزة عن التجاوب مع متطلبات الإنسان أو الواقع، "أوزال" هو أول رئيس وزراء ورئيس جمهورية في تركيا ينتقد علناً "الأتاتوركية" ويحج لبيت الله الحرام علناً، ويسن قوانين تعطي لآل عثمان الحق في العودة إلى تركيا، وهو من سعى لتوثيق علاقات بلاده الاقتصادية بالعالم العربي خاصة دول الخليج، وهو من حرص على أداء الشعائر كالصلاة علناً، وهو الجسر الذي عبر حزب الرفاه عن طريقه للحياة السياسية ليكون أكبر حزب في تركيا طوال التسعينيات، وهو الذي انتعش في عهده الاقتصاد الإسلامي وتعاظمت رؤوس أموال الإسلاميين، وبشكل عام؛ ففي عصره بدأت الحالة

الإسلامية تنتقل من الهامش إلى القلب لتكون عنصر التوازن في الحياة التركية.

العدالة والتنمية هو من يؤسس لما أطلقنا عليه "الجمهورية الثالثة" أي تلك التي يقودها "أردوغان" و"عبد الله غول" والذين معهم والتي تتبنى "الديمقراطية المحافظة" على المستوى الداخلي حيث تسعى لتحجيم العسكر في الحياة السياسية التركية، ولتعظيم دور المؤسسات السياسية وتفعليها وعلى رأسها البرلمان، وهنا لا ينبغي أن ننسى دور البرلمان التركي الذي كانت الأغلبية فيه لحزب العدالة والتنمية والذي رفض أن تستخدم أمريكا الأراضي التركية لضرب العراق والعدوان عليه استجابة لمشاعر الشعب التركي وهو ما لم تفعله الدول العربية، وبشكل عام فإن الحكومة التركية بقيادة أردوغان كانت ضد الحرب الأمريكية ضد العراق، وترى أنها جاوزت المؤسسات الدولية، وأنها بذلك المعنى حرب غير شرعية.

مفهوم الدور ورؤية حزب العدالة والتنمية

إذاً نحن أمام جيل جديد يؤرخ للجمهورية الثالثة في تركيا، ومن أهم ملامح ذلك التاريخ أن يكون لتركيا دور في محيطها الإقليمي المجاور وخاصة العالم العربي، فهو يرفض لتركيا أن تكون مجرد ملحق تابع للسياسة الغربية، كما أراد "أتاتورك" وحزب الشعب والأحزاب الديمقراطية قبل العدالة والتنمية أن تفعل، باستثناء "أربكان" بالطبع الذي كان لديه توجه قوي نحو المشرق والعالم الإسلامي، ويعرف في تركيا باسم "الملي جوروش"، أي الفكر الوطني – أي الإسلامي، وحين نقول: (الدور في العلوم السياسية) فإننا نعني "التصورات والاستراتيجيات التي يصوغها صانع القرار السياسي فيما يتصل بتوجهات السياسة الخارجية لبلاده"، وهنا سوف نذهب لأحد الرموز المهمة

لأحد أبناء ذلك الجيل، وهو المهندس الحقيقي للسياسة الخارجية التركية "أحمد داود أوغلو" صاحب الكتاب الاستراتيجي، الذي يدرس في عشرات الجامعات بالعالم، وهو كتاب "العمق الاستراتيجي"، فماذا يقول فيه عن تصور صناع القرار الجدد في تركيا عن الدور الذي يجب أن تقوم به في مجال السياسة الخارجية، فهو يقصد هنا بالعمق الاستراتيجي الكتلة الجيوسياسية المجاورة لتركيا، والتي لا يمكن لها أن تقف مما يجري فيها مكتوفة الأيدي أو أسيرة أوهام متصلة برؤى قديمة لا بد من إعادة النظر فيها، يقول "داود أوغلو": أهم عامل تاريخي يفرق بين الثقافة السياسية لتركيا وغيرها من المجتمعات هو ذلك الموروث التاريخي، فتركيا كانت مركزاً لحضارة أسست نظاماً خاصاً بها في الماضي، وقد جلبت الحضارة الجديدة جبهة ضد هذا المركز السياسي وجعلته يفقد علاقته بمرور الوقت ويؤثر على البنية السياسية.. العنصر الأساسي الذي يفرق بين الثقافة السياسية التركية وبين المجتمعات الأخرى هو ذلك التوتر الموجود بين عناصر الاستمرار التأريخي الذي يهب من العصور السابقة ويستمر تأثيره في المجتمعات وبين الانكسار التأريخي الراديكالي الذي يعد الأساس الأيديولوجي للنظام السياسي، ولا يوجد ذلك الانكسار التأريخي الذي يوجه النظام السياسي في أي مجتمع وبين المؤسسات والهوية التي تحقق الاستمرارية في البنية التحتية الثقافية المؤثرة في المجتمع كما هو في تركيا، ففي حالة الثورة الفرنسية والبلشفية والمجتمع الياباني الذي اعترته رغبة تجديد إلى حد الولع لكنه في كل هذه الحالات لم يحدث ذلك الانكسار التأريخي الذي محا عناصر الاستمرارية مثلما حدث في السياسة العثمانية – التركية.

فالمشكلة الأساسية التي تعيشها تركيا اليوم – وفق داود أوغلو– هي مشكلة الانسجام والتوافق بين موروث الثقافة السياسية وبين النظام السياسي

الذي تأسس على طلب الالتحاق بمحيط حضارة أخرى من قبل النخبة السياسية الحاكمة".

وفي موضع آخر من كتابه "العمق الاستراتيجي" يقول: "بعد الحرب العالمية الثانية وجدت تركيا نفسها بميزان العولمة والإقليمية في شكل غير مؤهل من الناحية الاستراتيجية والنفسية وذلك عندما تأكد أنها غير مؤهلة حتى مع الوضع في الحسبان تراكمها المعرفي والنفسي بالشكل الذي يؤهلها لعمل تكتيكي أو لوجستي وهو الدور الذي تخلت عنه تركيا وهي تواجه مشكلات تتعلق بالأمن والسياسة الخارجية بشكل جاد في مناطق تقع خارج حدودها مثل البوسنة وأذربيجان وهو ما وضع تركيا أمام حقيقة أنها مضطرة لإعادة تقويم مقاييس الثقافة والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والأمن والتحرك من خلال الموقف الذي كشف لأول مرة عن مكانتها الدولية"، ويضيف "يمكن لتركيا أن تكون ذات إمكانيات تشكل مجال نفوذ ذاتي وتقوية مكانتها الدولية في القرن القادم إذا ما استطاعت التجديد السياسي الداخلي الراسخ والمؤثر مستفيدة من إمكانياتها الجيوبوليتيكية والجيواقتصادية وميراثها التاريخي الغني".

ويشرح "أوغلو" منظوره الجديد بمزيد من التفصيل ليقول: "رغم التغيرات الدينامية التي شهدها النظام الدولي في السنوات الأخيرة، فقد ظلت تركيا في مظهرها الخارجي ثابتة بمنأى عن التغيير سواء باعتبار مكانتها في العلاقات الدولية أو بنائها الداخلي... ورغم أنه يمكن القول إن كل الأحزاب السياسية سرعان ما أصبحت في حالة اختناقات حادة، فإنها لم تقطع خطوات تحقق تغيرات ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية بالمعنى الحقيقي، والنظام الذي رسمته النخبة الحاكمة لتركيا لم يتلاءم مع المتوقع والمثالي بحقيقة الدور الملائم للمجتمع التركي والموروث التاريخي، وصار المجتمع التركي في

محاولة للتعرف من جديد على ذاته وهذه المحاولة هي امتداد طبيعي لأزمة الهوية التي يعيشها، فقد أفلست سياسة فرض الهوية التي تنحاز لأوروبا والتي دأبت عليها النخبة السياسية منذ ما يزيد على نصف قرن.. لم يكن هذا الإفلاس ذا جانب واحد فرغم كل الضمانات التي أعطتها النخبة ضد الهوية الإسلامية؛ فإن أوروبا لم تنظر إلى المجتمع التركي بوصفه قطعة من أوروبا، كما أن الانتظار على أبواب أوروبا لا يمكن أن يتلاءم مع المجتمع التركي الذي يشعر بشكل قوي بهويته التي تكونت من موروث تاريخي قوي هو صاحبه، وكان فرض الهوية المعمول به في السياسة الداخلية هو عبارة عن بيئة ضاغطة ترفض كل أنواع التعددية والخيارات، أما تأثير فرض الهوية على السياسة الخارجية فقد تمثل في وجود سياسة خارجية ذات جانب واحد.. وتبدو تركيا الآن أكبر من أن تقوم بدور الجسر بين الشرق والغرب فحسب... وأصبح المثار هو المصير الذي ينتظر أي مجتمع يرضى لنفسه أن يقوم بدور الجسر متجاوزين بذلك عن نفسية تثق في هويتها بقوة".

الدور الجديد لتركيا

إذاً نحن أمام منظور جديد للسياسة الخارجية كما يفهمها حزب العدالة والتنمية تشكل الدور الجديد لتركيا والذي يحاول أن يجعل من المزواجة بين السياسة الداخلية والتطور فيها على مستوى الديمقراطية وتراجع العسكر ومواجهة المخاطر الأمنية المتصلة بحزب العمال الكردي والسياسة الخارجية التي ترفض أن تكون مجرد جسر وتابع وتعمل في اتجاه واحد هو التوجه غرباً محصلة للدور الذي يمكن لتركيا الجديدة أن تقوم به.

إذاً نحن أمام تغير في رؤية الدور التركي من قبل صناع جدد للسياسة الخارجية يرون أن بلادهم أكبر من أن تكون مجرد جسر للسياسات الغربية ومن اتجاه واحد وطرف واحد هو الالتحاق بالسياسات الغربية.

كانت عضوية حلف الأطلنطي والاندماج في السياسات الغربية قد جعلت من تركيا مجرد ملحق تابع لهذه السياسات وجزءاً من تصورات الغرب للصراع بين الشرق والغرب في ظل القطبية الثنائية، أما الآن فنحن أمام تحولات جديدة في العالم وتحولات في تركيا تفرض أن تكون بلداً بحجم تركيا أكبر من مجرد جسر لمرور السياسات وليست رافعة استراتيجية ودولة مركزية لصناعة السياسة والتأثير فيها، قرأ هذا الجيل الجديد وعلى رأسه "أحمد داود أوغلو" وغيره، الوثائق العثمانية والتاريخ الكبير للدولة العثمانية ومن قبلها الدولة السلجوقية وانتهوا إلى أن بلادهم وتاريخهم أكبر من مجرد الإلحاق والتبعية لأمريكا والغرب، ومن هنا كان الرهان على أن يكون لتركيا دور في الأحداث القريبة منها وفي ما أطلق عليه "أوغلو" العمق الاستراتيجي "فتركيا هي دولة مشرقية بامتياز وكل توجهاتها وعمقها البري ومساحتها الكبرى تقع في آسيا، وعمقها هو في العالم التركي الجديد الذي تحرر من الاتحاد السوفيتي فيما عرف باسم جمهوريات آسيا الوسطى" وأيضاً العالم العربي ومن هنا بدأت تركيا في حل مشكلاتها المتعددة مع العالم العربي خاصة سوريا والعراق وفي أوروبا مثل اليونان وروسيا، وإقامة علاقات متوازنة مع إيران ومحاولة حل المشاكل مع أرمينيا.

كانت أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، واحتلال العراق، والحرب على أفغانستان، وتعاظم الدور الإيراني في العراق، وحدوث فراغ كبير في الإقليم العربي، وتعقد المشاكل بين الكيان الصهيوني والفلسطينيين، والصراع على أفريقيا عوامل لإعادة التفكير التركي في التأسيس لسياسة خارجية ديناميكية

ونشطة، ولها طابع مستقل تتحول فيه تركيا من جسر إلى مركز، وكما تشير الوقائع، فإن تركيا عام ٢٠٠٣م عملت على الخروج من مشكلاتها المزمنة المتمثلة في الإرهاب وعدم الاستقرار السياسي والمشكلة الاقتصادية، وفي عام ٢٠٠٤م عملت على مضاعفة تأثيرها في المؤسسات الدولية مثل "منظمة المؤتمر الإسلامي، حلف شمال الأطلسي، مؤسسة اجتماعات دول الجوار الجغرافي للعراق"، ومحاولة تركيا الإشارة إلى كونها قوة إقليمية يمكنها أن تلعب دوراً مؤثراً في السياسة العالمية، وفي عام ٢٠٠٥م عملت على تعزيز علاقتها مع البلقان والشرق الأوسط والقوقاز والاتحاد الأوروبي، وعام ٢٠٠٦م هو عام الانفتاح على أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وبالطبع هذا الانفتاح على العالم وتأسيس مكان متميز في السياسة الدولية كان على حساب الالتحاق بالعلاقات مع أمريكا والارتباط بالكيان الصهيوني حيث كانت اتجاهات العلمانيين والجيش في السياسة التركية تميل للاستفادة من العلاقات مع الكيان الصهيوني لمواجهة اللوبي الأرمني في أمريكا من خلال اللوبي اليهودي، وللاستفادة من الإمكانيات العسكرية والاستخباراتية للجيش الصهيوني في التعامل مع حزب العمال الكردي ومشكلة الإرهاب، أي أن الانفتاح الجديد على العالم الذي تسعى تركيا لبنائه هو جزء من تقليص مساحات الانفراد الغربي والصهيوني بالعلاقات مع تركيا.

ومن هنا فإن ما رأيناه من دور نشط لتركيا إبان الحرب على غزة ومن ذلك ما أشار إليه "أردوغان" إلى كرامة تركيا المنتهكة لكذب "أولمرت" رئيس وزراء الكيان الصهيوني على "أردوغان" حين زار تركيا قبل الحرب على غزة وكان الحديث بينه وبين رئيس الوزراء على قيام تركيا بدور الوساطة بشأن استمرار التهدئة وإطلاق سراح الجندي "شاليط"، ووافق "أولمرت" بيد

أنه ذهب ليشن الحرب على غزة المحاصرة دون أن يشير إلى أن بلاده تنوي شن الحرب.

هنا رؤية "أردوغان" لدور بلاده في المنطقة، وإنه لا يجب الاستهانة بكرامتها ومكانتها من أي كان حتى لو كان ذلك الكيان المدلل المدعوم بقوة أمريكا والغرب والذي تعود أن يضرب عرض الحائط بالاتفاقيات الدولية وقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة، فتركيا هنا لا تريد أن ترهن نفسها لعلاقات مع كيان وصفه "أردوغان" بأنه دولة إرهابية عقب مقتلها للشيخ "أحمد ياسين" الأب الروحي لحركة حماس واستمرار فرضها الحصار على غزة، كما أنه استقبل "خالد مشعل" رئيس المكتب السياسي لحماس في أنقرة عام ٢٠٠٦م وهو ما جعل اللوبي اليهودي في تركيا يعدّ ذلك جريمة لا تغتفر، وبالمناسبة هناك لوبي صهيوني كبير في تركيا لكنه يتآكل لصالح المشاعر المتعاظمة من جانب الأتراك للتعاطف مع العالم العربي والقضية الفلسطينية، وخاصة بعد أحداث غزة التي خرجت فيها المظاهرات المليونية مطالبة بقطع العلاقات مع الكيان الصهيوني، أي أن أحد مشاهد التحول في الدور التركي هو تراجع دور اللوبي الصهيوني في تركيا في تشكيل السياسة الخارجية لتركيا لصالح الكيان الصهيوني والغرب، وبالطبع فإن علاقة تركيا بحماس هي علاقة ممتازة تجعل من "أردوغان" أحد المدافعين الكبار عن ضرورة بقاء حماس كتيار لا يمكن حذفه من المعادلة الفلسطينية؛ وذلك لأنها منتخبة بشكل شرعي وأن قطاعاً لا يستهان به من الشعب الفلسطيني منحه أصواتها في انتخابات حرة، وبالطبع فإن ما حدث في "دافوس" والطريقة التي تكلم بها "أردوغان" مع الثعلب العجوز المراوغ "شيمون بيريز" يشير إلى أن رئيس الوزراء التركي أراد أن يوصل رسالة جد لا هزل للكيان الصهيوني بأنه يجب أن يتعامل مع تركيا باحترام ومسؤولية، فتركيا هي وريثة الدولة

العثمانية كما أشار "أردوغان" أمام البرلمان التركي، وهي من حمت اليهود من محاكم التفتيش في الوقت الذي يذبح فيه اليهود الفلسطينيين في غزة، وأن عدم مسؤولية الكيان الصهيوني في الالتزام بقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار سوف يفتح الباب لتركيا هي الأخرى في أن لا تحترم قرارات المؤسسات الدولية، كل ذلك هو تعبير عن رؤية تركيا لدورها الجديد وإنها قوة إقليمية يجب أن تحترم، وهذا معنى قوله "أنا رئيس وزراء تركيا ولست زعيم قبيلة"، وفي "دافوس" طالب "أردوغان" الرئيس الأمريكي الجديد "باراك أوباما" بإعادة تعريف الإرهاب والمنظمات الإرهابية وتأسيس سياسة أمريكية جديدة في المنطقة وفق التعريف الجديد، بحيث لا يمكن الخلط بين المقاومة والإرهاب كما هو الحال بالنسبة للكيان الصهيوني، ومن ثم فإن حركات المقاومة في فلسطين والعراق وأفغانستان ليست إرهاباً ولكنها حركات تحرر وطني في مواجهة الاستعمار، ولا يجب علينا أن ننسى أن تركيا تسعى؛ لأن يكون لها مقعد دائم في مجلس الأمن فهي ليست أقل من تلك الدول التي تسعى لذلك مثل ألمانيا أو اليابان.

المشهد الآن هي علاقة تركيا الجيدة مع سورية لحد أنها كانت وسيطاً بينها وبين الكيان الصهيوني في محادثات غير مباشرة للتوصل إلى سلام سوري – إسرائيلي سيترك آثاره على المنطقة في لبنان وفلسطين والعراق وسينزع فتيل الاستقطاب في المنطقة ويحول دون إرباك المشروع الإيراني للأوضاع المرتبكة أصلاً في الإقليم العربي، ولديها علاقة جيدة مع مصر فهي تؤكد أنها إضافة للدور المصري وليست خصماً منه، وتتحدث المصادر التركية عن أن العلاقات الجيدة بين البلدين هي تعبير عن العصر الذهبي بينهما، ومع دول الخليج، والسعودية خاصة تتحسن العلاقات التركية، وفي المسألة الفلسطينية فإن تركيا لاعب كبير ومهم ويحوز ثقة جميع الأطراف

وحتى في العلاقات مع إيران فإنها جيدة لإدراك تركيا بأن الملف الإيراني بحاجة إلى وساطتها، كما أن الملف الأفغاني بحاجة إلى قربها منه، والملف العراقي هو بحاجة إلى تركيا فهناك المصالح العربية التي تحتاج لدعم تركي، وتؤكد تركيا أن انحيازها للجانب الفلسطيني بشأن حصار غزة والحرب عليها لا يعني تخليها عن دورها كفاعل رئيسي في المنطقة يسعى لجلب الاستقرار والسلم وبناء قاعدة من التوافق العام بعيداً عن الصراعات والحروب التي تعيش المنطقة في دوامتها منذ سقوط الخلافة العثمانية.

مستقبل الدور التركي في المنطقة

تتمتع تركيا بمؤهلات للقيام بدور مهم في المنطقة في ظل الضغوط الخارجية التي حجمت أدواراً مهمة لبلدان مثل مصر والسعودية، كما أن الاستقطاب في السياسة العربية، والذي جعل القاعدة الاستراتيجية الممكنة لفعل عربي يعبر عن الأمن القومي للمنطقة العربية، ويمكنها من التوافق على حد أدنى لعمل عربي يملأ الفراغ في العراق، ويحمي القضية الفلسطينية من الانقسام، ويحفظ للمقاومة استمرارها وعافيتها أمام التوحش الصهيوني، ونقصد هنا الانقسام العربي والخلافات بين دول الإقليم الثلاثة الكبرى مصر والسعودية وسورية، فالاستقطاب بين محور الاعتدال والممانعة بدد القوة العربية، ومن هنا فإن رؤى تركية عن دورها في المنطقة والانتقال من كونها عبئاً على العالم العربي كما كان علمانيو تركيا يرونها حيث كانت هناك مشاكل بينها وبين دول المنطقة (سورية والعراق) فضلاً عن علاقتها الاستراتيجية مع الكيان الصهيوني، ولكنه بعد أحداث غزة وبروز دور تركي مختلف تماماً ينحاز لقضايا الفلسطينيين، ويسعى للتواجد والتفاعل في المنطقة لا ليخصم من أدوار الدول العربية وإنما ليضيف إليها كما أكد "أردوغان"

مراراً وتكراراً، ومن ثم يمكن تصور مستقبل الدور التركي في المنطقة بعد أحداث غزة على النحو الآتي:

أولاً: على مستوى القضية الفلسطينية، من الواضح أن تركيا بإمكانياتها وعلاقتها بالغرب بل والكيان الصهيوني ذاته وعلاقتها بأمريكا هي قادرة على أن تقوم بدور مهم في دعم الوحدة الفلسطينية بين الفصائل المتنازعة خاصة فتح وحماس، كما أنها يمكن أن تقوم بدور مهم في الحفاظ على استمرار حماس وبقائها كقوة فلسطينية لا يمكن أن تُستبعد من الحوار حول الشأن الفلسطيني فهي قوة مختارة من الشعب بطريق ديمقراطي، كما أنه يمكن لتركيا أن تجسر لعلاقات جيدة بين حماس والدول الكبرى في المنطقة مثل مصر والسعودية بما في ذلك إقناع هذه الدول بتحمل مسؤوليتها التأريخية تجاه القضية الفلسطينية والدفاع عنها، بل يمكن لتركيا في تقديرنا أن تكون بديلاً مهماً لدعم حماس دون ترك إيران للانفراد بها، حيث تضطرها ظروف غياب الداعمين لها إلى أن تذهب إلى إيران، ومن الواضح أن تركيا ستقوم بدورها الذي قامت به في أحداث غزة وما قبلها والمتمثل في الدفاع عن حماس كقوة منتخبة وبناء جسور لعلاقات بينها وبين فتح، والقيام بدور الوساطة بينها وبين الكيان الصهيوني كما هو الحال بشأن الجندي الصهيوني "جلعاد شاليط"، ودعم الدور المصري في ذلك، ومن الممكن لتركيا أن تكون وسيطاً لعلاقة جيدة بين حماس وأوروبا، كما يمكنها أيضاً أن تمهد لحماس علاقات متوازنة مع الدول السنية المعتدلة بحيث لا توضع حماس فريسة؛ لكونها تقف مع قوى الممانعة وخاصة إيران، فحماس يجب أن تتحرك حيث تكون مصلحتها بحيث تظل راية المقاومة والتوحد الفلسطيني أحد الأولويات المهمة، وبالطبع فإن لتركيا دوراً مهماً في إعمار غزة ودعم المشاريع التي تخفف الضغط على المواطن الفلسطيني في غزة، وهناك عدد كبير من

المشاريع التركية في هذا السياق، ويمكن لتركيا أن تكون لاعباً مهماً في دعم تفاوض حماس على بناء تهدئة لفترة معقولة في مقابل رفع الحصار الكامل عن الشعب الفلطسيني المحاصر في غزة، ويمكن استخدام الدور التركي كوسيط موثوق فيه للدفاع عن حماس والشعب الفلسطيني لدى الأطراف الأوروبية والأمريكية ولدى الكيان الصهيوني ذاته، وينبغي هنا الإشارة إلى أن تركيا حصلت على مقعد غير دائم في مجلس الأمن لمدة سنتين وهو ما يمكن الدبلوماسية التركية من التحرك والانفتاح على المحافل الدولية المختلفة مثل البرلمانات الأوروبية، والمؤسسات الأوروبية؛ لإعادة النظر في التعاطي مع القضية الفلسطينية ويمكنها في ذلك توظيف مواقف دول مثل فرنسا، ونعتقد أن الدور التركي على مستوى القضية الفلسطينية هو البوابة التي يمكن لتركيا أن تبني علاقات إقليمية ودولية متميزة مع بلدان العالم العربي والإسلامي بل وبلدان العالم كله.

ثانياً: على مستوى القضية العراقية، فإن تركيا هي دولة من دول الجوار الجغرافي للعراق ولديها مصلحة مباشرة مع ما يجري هناك، فهناك الأكراد المتعاطفون مع حزب العمال الكردي والذي يمثل أخطر تحد أمني لتركيا خاصة وأن ما يجري بالنسبة للشأن الكردي يترك صداه على أكراد تركيا، مع العلم أن الأكراد في تركيا هم الأكثر عدداً بين الأكراد المنتشرين في الدول المجاورة سوريا وإيران بل والعراق ذاته، ومن ثم فإن التعاطي مع الأحزاب الكردية في شمال العراق هو جزء من استراتيجية تركيا لحصار حزب العمال الكردي، وهناك مجلس أعلى للتنسيق الاستراتيجي بين البلدين في القضايا المشتركة مثل المياه والإرهاب وغيرها من القضايا، بيد أن الموقف التركي من العراق كان رافضاً للحرب ورافضاً لزيادة القوات الأمريكية هناك، في الوقت الذي كانت هناك أصوات محافظة تدعو لذلك، وقد تمسك دائماً بوحدة

العراق وعدم تعرضه للتقسيم، كما أن هناك علاقات تجارية كبيرة بين البلدين وقد زار"أردوغان" العراق كأول زعيم تركي بعد الحرب الأمريكية الإرهابية عليه عام ٢٠٠٣م، ولتركيا مصالح مهمة مع التركمان هناك في منطقة كركوك، ومن ثم يمكن لتركيا أن تلعب دوراً فاعلاً في جذب الأكراد نحو منظور غير طائفي، بالتعاون مع العرب والتركمان في مواجهة محاولات الهيمنة الإيرانية، فالدور التركي في العراق يمكن أن يوازن مع الدور الإيراني ليس على أساس منظور طائفي أو مذهبي وإنما من منظور بناء عراق موحد لكل أبنائه، إذا كانت تركيا تقوم بدور الوسيط في المسألة الفلسطينية؛ فإن المسألة العراقية تجعل من تركيا فاعلاً مشاركاً للحفاظ على مصالحها، ومن ذلك استضافة دول جوار العراق وتحفيزهم لدعمه، ويمكن لتركيا ومصر والسعودية أن يشكلوا محوراً يدعم العراق وتكون للعرب والمسلمين قدم هناك للتوازن مع الوجود الإيراني.

ثالثاً: على مستوى العلاقات مع دول، كمصر والسعودية، فهناك علاقات مهمة بين البلدين آخرها زيارة "غول" للسعودية، وإذا كانت العلاقات الاقتصادية مهمة في هذا السياق بحيث يمكن للمال السعودي أن يستثمر في تركيا، فإن مصر بحاجة هي الأخرى للاستثمارات التركية، بيد أن البلدين يمكن أن يشكلا قاعدة لعمل مشترك في المنطقة والتعاطي مع قضاياها، بحيث يمكن لتركيا كبلد مجاور أن يكون مرتكزاً مع دولة كبرى ولها تأثير مثل مصر ودولة لها تأثيرها الكبير بإمكانياتها الاقتصادية والنفطية والمالية والرمزية أيضا مثل السعودية بحيث يصبح أمامنا محور مهم هو مصر، السعودية، تركيا يمكن أن يخفف من عوامل الاستقطاب في السياسة العربية ويوازن في العلاقة مع إيران.

رابعاً: على مستوى العلاقات مع سورية؛ فإن هناك جواراً جغرافياً بين البلدين وزيارات متبادلة على أعلى مستوى قام بها الرئيس السوري لأنقرة، وقام بها "اردوغان" لدمشق، وتعددت هذه الزيارات بشأن القضية الفلسطينية وكانت تركيا تقوم بدور الوسيط في بناء محادثات سلام غير مباشرة بين دمشق والكيان الصهيوني، وهناك إمكانية للتعاون بين البلدين بشأن ملفات أخرى مهمة مثل الملف العراقي بحكم كونهما دول جوار له، ويمكن أخذ سوريا للحوار عبر الوساطة التركية مع العرب الذين يوسمون بالاعتدال مثل مصر والسعودية، ومن المرجح أن يكون لتركيا دور كبير في العلاقات السورية مع العالم العربي والعالم مع مجيء أوباما للسلطة، حيث يغلب فيما هو ظاهر التقاء السياسات التركية مع التوجهات الجديدة للإدارة الأمريكية والتي تقوم على الحوار بدل المواجهة وتقوم على الدبلوماسية بدلاً من الحرب، وهو ما يجعل من أسهم السياسة التركية في الملف السوري والعراقي وغيرها من ملفات المنطقة يتصاعد على حساب قوى أخرى في تقديرنا مثل الكيان الصهيوني وإيران.

وفي الختام فإن الدور التركي في المنطقة العربية على وجه الخصوص بعد أحداث غزة يبدو مرشحاً للتصاعد كفاعل إقليمي لا يستهان به في قضايا المنطقة والإقليم العربي، ولعل أهم ما يعزز تلك التوقعات هو انتهاج صانع القرار التركي لدور مستقل في السياسة الخارجية عن أمريكا بل وعن الالتحاق بالاتحاد الأوروبي والعمل على وجود فضاء بديل هو العالم العربي والإسلامي، كل الفعل التركي هو رسالة واضحة لأوروبا أنه لدينا بدائل جديدة هي العمق العربي والإسلامي، وتبدو أمريكا في حالة تراجعها الاستراتيجي اليوم إن كان بسبب السياسات الحمقاء للمحافظين الجدد أو بسبب الأزمة المالية محتاجة للفاعل التركي الجديد الذي يملك خيوطاً مهمة لجميع

الأطراف الفاعلة في المنطقة بما في ذلك إيران ذاتها، والتي زار رئيسها "نجاد" أنقرة، ولم ترضخ تركيا للضغوط الأمريكية لمنع تلك الزيارة، كما أن الصورة التي ظهرت عليها تركيا في أحداث غزة أعطتها ثقة لدى كل القوى الدولية ومن ثم يمكن الاستناد إليها في كثير من الملفات الإقليمية والإسلامية والدولية، إن عودة تركيا للفعل في محيطها العربي والإسلامي هي إضافة مهمة، وعلى الدول العربية أن تبادر بالتلاحم مع عودة هذا الفاعل والتنسيق معه بإخلاص بعيداً عن حديث المهاترات حول التنافس على الأدوار أو أن القادم التركي الجديد يمثل تهديداً لأدوار عربية هي متراخية أو غائبة، إننا أمام فرصة تأريخية بإضافة حليف وصديق مؤكد للسياسات العربية وعلى صناع القرار في العالم العربي أن يتقدموا لانتهاز تلك الفرصة.

مراجع الدراسة

(١) تحليل السياسة الخارجية، محمد السيد سليم، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٩م.

(٢) مفهوم الدور الإقليمي، محمد السيد سليم، بحث مشارك في مؤتمر مركز الدراسات السياسية بكلية الاقتصاد السنوي، والذي كان بعنوان "التطورات المعاصرة لدور مصر الإقليمي"، والمنعقد في شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨م.

(٣) الإسلام والأحزاب السياسية في تركيا، دراسة حالة لحزب الرفاه (١٩٨٣م-١٩٩٧م) كمال السعيد حبيب، قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، عام ٢٠٠٦م.

(٤) "تركيا الجديدة" و "الجمهورية الثالثة" و "الكتب وجهات نظر"، كمال حبيب، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧م.

(٥) الموقف التركي من الحرب على غزة وآفاق دور استراتيجي جديد، حسني محلي، مركز الجزيرة للدراسات.

(٦) السياسة التركية تجاه القضية الفلسطينية، بولنت آراس، مركز الجزيرة للدراسات.

(٧) عودة تركيا إلى الشرق.. حلم عثماني جديد، أسلي آيدينتاسباس، جريدة الحياة، بتاريخ ٢٠٠٩/٢/٢٥م.

(٨) خوجا السياسة التركية، سمير صالحة، جريدة الشرق الأوسط بتأريخ ٢٠٠٩/١/١٦م.

العلماء في خدمة المجتمع زمن الاحتلال
هيئة علماء المسلمين في العراق نموذجا

د. مثنى حارث الضاري/ مسؤول الثقافة والإعلام في هيئة علماء المسلمين

المحن في حياة الأمم هي أوقات الاختبار والامتحان، التي تظهر فيها المعاني الحقيقية لأبناء هذه الأمم، بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة ونشاطاتهم الإنسانية المتنوعة وانشغالاتهم الحياتية الكثيرة، والعلماء ونعني بهم هنا – وفق العرف الشائع على ألسنة أبناء هذا العصر– كل من تلبّس بالعلم واشتغل به عالماً متقناً كان أو طالب علم؛ ليسوا بدعاً عن هؤلاء، بل منطق الأمور وقبل ذلك مبادئ الشرع ومقاصده توجب عليهم أن يكونوا في طليعة هؤلاء.

من هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يبحث، في ما يمكن أن يقوم به العلماء لخدمة مجتمعاتهم في الأوقات التي تمتحن فيها زمن الاحتلال، وبالتحديد في تجربة هيئة علماء المسلمين في العراق –في الذكرى السادسة لتأسيسها– في جهودها لمناهضة الاحتلال الأمريكي البريطاني طوال السنوات

الست الماضية من عمر الاحتلال في العراق، وأثرها في المجتمع العراقي في مختلف الجوانب التي اهتمت بها وعنيت بالاشتغال فيها.

ويمكن لنا أن نسلط الأضواء على هذه التجربة من خلال محورين اثنين، هما: أهداف الهيئة، وجهودها في هذا المجال المهم، وكما يأتي:

أهداف الهيئة

نشأت هيئة علماء المسلمين في وقت مبكر جداً بعد احتلال العراق، بل تكاد تكون أسرع المؤسسات غير الرسمية نشوءاً؛ فقد أعلن عن تشكلها بعد الاحتلال بأيام فقط وبالتحديد في١٣/٤/٢٠٠٣م، وكانت نشأتها بناءً على حاجة واقعية ماسة، لبروز إطار شرعي يهتم بما يهتم به العلماء في هكذا ظروف، من سياسة للناس وتوجيه لهم، ووعظ وإرشاد، ودلالة على الخير، ورفع للهمم والمعنويات، فضلاً عن مهام أخرى لا تدخل في الظروف الطبيعية في إطار الخدمات التي يمكن أن يقوم بها العلماء في العادة.

وبيّن الإصدار الأول للهيئة وهو (نظام الرأي والفتوى والسياسة الشرعية لهيئة علماء المسلمين في العراق) المراد بهذا قائلا: ((لقد عزم علماء المسلمين في العراق على إنشاء هيئة ذات شخصية معنوية جامعة للرأي والفتوى والسياسة.. على أن تعمل الهيئة على تبني مصالح الأمة وكشف خطط الأعداء))[1]، وتكفل الإصدار الثاني للهيئة (هيئة علماء المسلمين في العراق؛ التعريف والمفهوم) ببيان أن عمل الهيئة في العراق يدور في إطار مجالين كبيرين هما الأول: ((الاهتمام بالقضايا الراهنة التي يعيشها البلد تحت وطأة الاحتلال وثقله، والتعاون مع الأطراف المعنية التي يمكن التعاون معها

[1] نظام الرأي والفتوى والسياسة الشرعية لهيئة علماء المسلمين في العراق؛ قسم الثقافة والإعلام، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٥هـ_٢٠٠٤م.

لمعالجتها بما يتناسب والحال الحاضر. والثاني: الاهتمام بالبناء الداخلي للمسلمين؛ ليستعيدوا النشاط الحيوي في المجتمع على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر..))[1].

وقد قام أعضاء الهيئة بناءً على ما تقدم بجهود كبيرة، توزعت على الأعمال الإغاثية وأعمال حماية المؤسسات والمرافق الخدمية وحراستها وحفظ المال العام، فضلاً عن مسك زمام الشؤون الدينية وإعادة لملمة أمور الأوقاف والإشراف على المساجد، وحل المشاكل الناشئة فيها وإدارتها وتوجيهها لخدمة المجتمع.. وقامت الهيئة بكل ما تقدم في أيامها الأولى بداهة وبسرعة وبتعاون كبير من أفراد المجتمع الذين تفاعلوا بشكل كبير مع هذه الجهود.

وحرص المجلس التأسيسي للهيئة عند أول فرصة استطاع فيها وضع الخطوط العامة لنظامه الداخلي، على أن يضع في أهداف الهيئة هذه المهام ويزيد عليها ما هو متوقع أن تقوم به الهيئة لاحقاً.. فجاء نظامها الداخلي دالاً على انتباهها مبكراً إلى المهمة الكبيرة المناطة بها في ظل هذه الظروف الاستثنائية وحجم المسؤولية الملقاة على عاتق الثلة من العلماء وطلبة العلم الذين سارعوا إلى القيام بالواجب العيني عليهم، وأقاموا الهيئة على أساس خدمة الدين والمجتمع مستلهمين تجارب إسلامية سابقة في هذا المضمار، لعل من أبرزها تجربة جمعية العلماء المسلمين في الجزائر في النصف الأول من القرن الميلادي الماضي.

ويظهر هذا الاهتمام في الأهداف التي وضعتها الهيئة لنفسها في نظامها الداخلي الذي نصت المادة الخامسة منه على جملة من الأهداف المهمة منها:

---

[1] هيئة علماء المسلمين في العراق – التعريف والمفهوم؛ قسم الثقافة والإعلام، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٥هـ_٢٠٠٤م.

١. تثبيت العقيدة الإسلامية في النفوس، ونشر حقائق الدين الإسلامي وفضائله.

٢. ترسيخ قواعد الأخوة والتضامن بين المسلمين والعمل على إزالة الفرقة والخلاف فيما بينهم، وإشاعة روح التفاهم والتسامح بين أبناء الشعب العراقي بمختلف انتماءاتهم الدينية والعرقية، وإزالة الفوارق المذهبية ونبذ كل ما يفرق وحدة المسلمين.

٣. المساهمة في إحياء تراث الأمة الإسلامية بكل الوسائل الممكنة داخل العراق وخارجه.

٤. الاهتمام بالمرأة، من حيث التوعية الإسلامية والتثقيف العام، ومنحها الفرص الكاملة لتقوم بدور فعّال في بناء المجتمع الإسلامي، وفق ضوابط الشريعة الإسلامية السمحة.

٥. الاهتمام بحقوق الإنسان داخل العراق وخارجه والدفاع عنها وفق ما أقرته الشريعة الإسلامية وتناولته النظم الوضعية مما لا يتعارض مع مقاصد الشريعة[١].

وقدمت الهيئة لهذه الأهداف بمقدمة تناولت فيها الشاغل الأساسي لها في ذلك الحين، وهو الاحتلال كونه (واجب وقت) ونصت فيها على ((العمل على تحرير العراق بكل الوسائل الممكنة التي أتاحتها لنا الشرائع السماوية والنظم الوضعية، وتوعية الناس بعدم الاستسلام للواقع المر الذي تعيشه الأمة، والوقوف بحزم أمام أي قوة تريد سلخ العراق من هويته التأريخية والحضارية، والحرص على وحدته واستقلال أراضيه كونه جزءاً من أمته العربية ووطنه الإسلامي الكبير))[٢].

---

(١) المادة رقم (٥) من النظام الداخلي للهيئة.

(٢) المصدر نفسه.

ويدل هذا على أن الهيئة لم تحصر أهدافها في الإطار الديني المحض، وإنما وسّعت من نطاق عملها استجابة لظروف المرحلة الاستثنائية التي ولدت فيها؛ ولذا رأينا بروز اهتمامات حقيقية للهيئة في مجالات عدة، وتنوعت هذه الاهتمامات بين الجوانب السياسية البحتة كما تقدم ذكره، والجوانب الوطنية العامة كما يظهر في البند الثاني الذي ركز على مبدأ الوحدة بين أبناء المجتمع بمختلف أطيافه، والجوانب العلمية والاجتماعية وحقوق الإنسان، كما يظهر من باقي بنود هذه المادة.

كما أبقت الهيئة الباب مفتوحاً لكل هدف سام آخر يقره الشرع ويعتمده، وهو الأمر الذي فتح الباب واسعاً لنشاطات أوسع وجهود وأكبر سلكتها الهيئة فيما بعد في مختلف الجوانب الحياتية. ويحدد الدكتور محمد بشار الفيضي الأهداف المتقدمة في ثلاث مهام أساسية عملت الهيئة على النشاط فيها في بداية انطلاقها، وهي:

أ- **المهمة الأولى**: ((معالجة الخلل الكبير الذي طال منظومة المساجد في البلد بسبب انهيار المؤسسات التي كانت تعمل على إدارتها، فاضطرت الهيئة لملء الفراغ الطارئ، وقامت بممارسة دور وزارة الأوقاف المنهارة، في إدارة المساجد، وقدمت بهذا الصدد خدمات جليلة)).

ب- **المهمة الثانية**: ((العمل على تهدئة الأوضاع الداخلية بين مكونات الشعب العراقي، والحيلولة دون وقوع فتنة طائفية أو عرقية أو دينية. فقد بدا للهيئة أن الاحتلال يحمل معه أجندة إيقاد حرب أهلية، تغرق البلاد في بحر من الدماء، وتجعل جنوده بمأمن من مقاومة الشعب وجهاده في سبيل الاستقلال.... فسارعوا _ أي أعضاء الهيئة _ إلى إجراءات احترازية عديدة كان منها: القيام بزيارات منظمة لمرجعيات دينية ورجال سياسة ووجهاء ورؤساء عشائر من كل الأطياف الدينية والمذهبية، لغرض التوعية بهذا

الشأن، واستطاعت – بفضل الله– أن تتبادل معهم مواثيق وفتاوى والتزامات، تؤكد حرمة دم المسلم، وتحذر من الانزلاق في فتن يعد لها العدو بمهارة، فضلاً عن التوعية المنظمة لجماهير شعبنا بهذا الخصوص.

ت- **المهمة الثالثة:** ((كان من الواضح أن الإدارة الأمريكية لديها مشروع كبير في المنطقة يستهدف الهوية الإسلامية لها، فضلاً عن اقتصادها وعوامل نهضتها، وكان احتلال العراق هو البداية.... لذلك نشطت الهيئة للعمل وبالوسائل المتاحة لها على كشف النوايا الحقيقية للاحتلال، وتعبئة الشعب ضده.... وقد ازدادت الثقة في أطروحات الهيئة، حول النوايا الحقيقية للأمريكيين، حين كشفت أعمالها؛ عن فضائح أبي غريب، والقتل العشوائي، والاعتداء على المصاحف والمساجد، وغير ذلك))[1].

وقد رصد باحثون ومتابعون للشأن العراقي هذه الاهتمامات رصداً دقيقاً وكتبوا عنها.. فهذا مصطفى كامل في دراسته المبكرة عن الهيئة يجمل أهدافها – بعد لقائه بعدد من أعضائها– في أربعة جوانب، هي: ((تقوية تلاحم العراقيين في ظل حملات التقسيم والشرذمة المقصودة، ومواجهة الاحتلال ومقاومته بالطرق السلمية، وفضحه من خلال توعية العراقيين بمراميه ومقاصده، أما الجانب الثالث الذي اختطته الهيئة، فهو الجانب الديني المتعلق بقضايا الفقه الإسلامي باعتبارها نواة لمرجعية دينية... ولم ينس القائمون على الهيئة، الجانب الاجتماعي الذي يتحتم عليهم القيام به في ظل غياب مؤسسات الدولة بما يتضمن من توجيه ونصح وإرشاد ومساعدة))[2].

---

[1] أنظر: مقدمة كتاب بيانات هيئة علماء المسلمين في العراق؛ حصاد أربع سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق:٧-٨.

[2] حقيقة جديدة في المشهد العراقي، كتابات عن الهيئة: ٥.

ويحدد أكرم المشهداني الأهداف نفسها بعبارة أخرى قائلا: ((تداعى علماء الدين العراقيون إلى: تأسيس (هيئة علماء المسلمين في العراق) لتكون مرجعيةً دينيةً ووعاءً ينضوي تحته علماء الدين، بعيداً عن النعرات الطائفية والمذهبية، ومحاولةً صادقةً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ووقف تداعي الأوضاع الداخلية، وكان في مقدمة أهداف الهيئة الدفاع عن حقوق الشعب العراقي بكل طوائفه، وحفل نشاط الهيئة في حماية المساجد وتعميرها، وتنسيق جهود خطباء المساجد من أجل شحذ الهمم الوطنية في مواجهة خطر الاحتلال، إضافة للقيام بالعديد من المهام الضبطية والاجتماعية والإنسانية))[1].

جهود الهيئة ونشاطاتها

بعد النص على الأهداف سعت الهيئة حثيثاً إلى تطبيق تحقيق ما يمكنها منها وتطبيقها على أرض الواقع من خلال مقرها العام وفروعها التي فتحت في المحافظات والأقضية والمكاتب الملحقة بها، وبدأت بمزاولة نشاطاتها ذات الأبعاد المختلفة وحسب الإمكانات المتوفرة لها، وقطعت شوطاً بعيداً في ذلك على الرغم من الضغوطات السياسية والأمنية في حينها. ويمكن في هذا المجال الإشارة إلى نماذج من هذه الجهود وفي عدة جوانب، وهي:

١. الجانب الخدمي العام

قامت الهيئة في الأيام الأولى لتأسيسها بحماية المؤسسات الخدمية وتسليمها للجهات المعنية بعد استقرار الأحوال الأمنية، ومن هذه المؤسسات: محطات الماء والمجاري والكهرباء، ومخازن المواد الغذائية، ومخازن

---

[1] الدور السياسي المأمول لهيئة علماء المسلمين؛ كتابات عن الهيئة: ١٢، ط١، ١٤٢٨-٢٠٠٧.

الأدوية، ومخازن الوقود، وغيرها من الدوائر الخدمية. كما قامت الهيئة باستقبال المسروقات والمنهوبات وحفظها في المساجد وإعادتها إلى أصحابها، بعد التعرف عليها، وتوفير المساعدات الإغاثية السريعة لبعض المناطق والأحياء.

واعتنت الهيئة كثيراً في هذه المرحلة بتوفير الخدمات الطبية الضرورية للمواطنين؛ تعويضاً عن فقدان هذه الخدمات بعد انهيار جهاز الخدمات الصحية، حيث ساهمت الهيئة في محاولات إعادة تأهيل خدمات بعض مؤسسات وزارة الصحة،كما افتتحت عشرات المراكز والعيادات الطبية الخيرية في المساجد وغيرها، وقد قدمت هذه المراكز والعيادات الخدمات الطبية والعلاجية للكثير من المدن والأحياء، ولا زال قسم من هذه المراكز يؤدي عمله إلى الآن من خلال القسم الصحي والإغاثي للهيئة الذي يشرف على عدد من المراكز الصحية، ويوفر الخدمات الأساسية والمستلزمات الطبية والأدوية لعدد من المستشفيات والمراكز الصحية العامة والخاصة في بغداد وبعض المحافظات الأخرى، كما عُنيَ هذا القسم بتسيير عدد كبير من الحملات الإغاثية، إلى المدن المنكوبة في العراق، ويقوم إلى الآن بالإشراف على عدد من الجمعيات الخيرية المرتبطة بالهيئة بالتعاون مع القسم الاجتماعي وقسم متابعة الفروع.

٢. الجانب الفكري والتوجيهي

أ- توجهت الهيئة في أيامها الأولى للأئمة والخطباء وطلبة العلم الشرعي في رسالتين مهمتين، تدعو فيهما إلى تجاوز كل الخلافات الفكرية والاجتهادية الفقهية والتسامي عليها، وإرجاء كثير من الآراء الفقهية الجزئية المختلف فيها إلى ما بعد مرحلة الاحتلال، والدعوة إلى التعاون جميعاً لإنهائه وتقديم ما هو

أهم وهو مساعدة الناس والأخذ بأيديهم لتجاوز المحنة التي حلت بالعراق، وجاءت هذه التوجيهات في فترة زمنية مبكرة من عمر الاحتلال لترسم للأئمة والخطباء والموجهين سبل العمل الجهادي التي ينبغي عليهم سلوكها وطرق التعبير عن رفضهم الصادق للاحتلال.

ولازالت الهيئة إلى الآن تواصل هذه الجهود في المحافظات والأقضية والنواحي التي تنتشر فيها فروعها، بقدر استطاعتها وحسب الفرص المتاحة لها على الرغم من التضييق الأمني الكبير عليها؛ وذلك بواسطة أعضائها العاملين في لجان الفروع، والمساجد التي ينشطون فيها والمدارس الدينية التي تُشرف الهيئة عليها إشرافًا كاملاً أو جزئيّاً، وهي بحدود أربعينَ مدرسةٍ في أنحاء العراق.

ب- صاحب ما تقدم جهد إعلامي واكب هذه النشاطات وأسندها ووفر فضاءً حراً للتعبير عما يكتنف النفوس ويعتمل في الصدور بعد الهجمة الإعلامية الكبيرة المواكبة للاحتلال العسكري والمعد لها بإتقان، وقد قدمت الوسائل الإعلامية التي وفرتها الهيئة (صحيفة البصائر والموقع الإلكتروني الرسمي: الهيئة – نت، باللغات الثلاث: العربية ،الانكليزية ،التركية، وإذاعة أم القرى) فضلاً عن المؤتمرات الصحفية والندوات الإعلامية والمشاركات المكثفة في وسائل الإعلام؛ الغطاء المعنوي لهذه الجهود التي كانت تصب جميعاً في صالح الهدف الرئيس وهو مواجهة محنة الاحتلال والتصدي لها، ورفع الهمم، وتغذية عوامل الصمود والثبات في نفوس الشعب العراقي وبث ثقافة المقاومة والدفاع عن مشروعها.

وتتبع الهيئة الآن فضلاً عما تقدم ذكره عدة مؤسسات دعوية إعلاميَّة وثقافية أخرى وهي: مركز أم القرى للدراسات القرآنية، ومركز التوجيه والإرشاد النسوي، ومركز الأمَّة للدراسات والتطوير التابع لقِسم الإعلام،

ومجلة حضارة الفصليَّة، التي تصدر عن المركز، ومؤسسة البصائر للطِّباعة والنَّشر والتوزيع، ووحدة الأرشفة والتوثيق، وتعزز هذا كله خمسة مكاتب للهيئة خارج العراق، في دِمَشق، وعمان، والقاهرة، وصنعاء، ومكتب إعلامي في تركيا، ويجري العمل الآن في السياق الثقافي والإعلامي على إنشاء مشاريع ومؤسسات أخرى سيعلن عنها قريباً.

ت- دعمت الهيئة جهودها في المجال الفكري والتوجيهي في وقت مبكر من عمر الاحتلال عندما أعلنت عن ميثاق الشرف الوطني في ٢٧/جمادى الأولى/ ١٤٢٥هـ - ١٥/ تموز/ ٢٠٠٤م، الذي كان بمثابة المنهج الفكري العام لطريقة تعامل الهيئة مع القضايا المصيرية للعراق في زمن الاحتلال. حيث أكدت الهيئة في هذا الميثاق على ((أن مصلحة العراق وشعبه لا يعرفها ولا يقدرها إلا العراقيون أنفسهم، ولا يخرجه من الدوامة المأساوية في كل المجالات التي وضع فيها منذ أكثر من عام إلا أهله، إن هم أرادوا ذلك، وأخلصوا لله ولوطنهم وتركوا الاعتماد على الغير مهما كان الغير قريباً أم بعيداً، فهو لا يتحرك إلا وفق مصالحه ومخططاته على حساب مصالح الشعب العراقي وتطلعاته))[1].

ودعت الهيئة فيه ((أبناء الشعب العراقي الكريم بمختلف أطيافهم وتوجهاتهم وانتماءاتهم إلى نبذ الخلافات والعمل معاً تغليباً لمصلحة العراق التي هي مصلحة الجميع والتلاقي على ميثاق شرف يقوم على الولاء لله أولاً ثم للعراق ثانياً، وتقديم مصلحته على كل المصالح الشخصية والسياسية والمذهبية والعرقية وغيرها.. ورفض الاحتلال بشتى صوره كل حسب استطاعته وبالطريقة التي يراها مناسبة ومؤدية لهذا الواجب الديني

[1] نص الميثاق.

والوطني.. والعمل الجاد لإنهاء الاحتلال بأسرع وقت ممكن وبكل الوسائل المشروعة الممكنة؛ لأن الاحتلال يمثل المشكلة التي لا يمكن للعراق الخروج من الكارثة التي هو فيها اليوم بدون زواله نهائياً))

كما دعتهم إلى ((الإقلاع عن كل ما يولد الحساسيات ويثير الخلافات ويؤجج الفتن من أقوال وأفعال وسلوكيات شخصية أو إعلامية أو غيرها.. والعمل الجاد على جمع الكلمة ووحدة الصف وتوحيد الهدف للجميع في هذه المرحلة الخطيرة من تأريخ بلدنا وشعبنا لقطع الطريق على من يريدون الشر بالعراق وأهله تحقيقاً لمآربهم الخاصة.. والحرص على وحدة العراق أرضاً وشعباً وعدم التفريط بها تحت أي ظرف من الظروف، أو عذر من الأعذار))[1].

وبينت الهيئة رأيها أيضا في موضوع المصالحة الوطنية قائلة: ((إن المصالحة الوطنية الصادقة هي التي يتم فيها جدياً القضاء على النزاعات والخلافات وكل المظاهر المزعجة الغريبة على شعبنا والمهددة لاستقراره ووحدته، كالاختطاف والقتل والتصفيات الوظيفية ومحاولات الاستيلاء على الأموال العامة والخاصة ودور العبادة وغير ذلك من الأعمال الشاذة))[2].

ودعت في ختام الميثاق إلى ((إيجاد مرجعية أو لجنة متابعة عليا، لتفصيل مواد هذا الميثاق من كل الفئات الفاعلة وذات التأثير الحقيقي في الشارع العراقي؛ للنظر في الأحداث والقضايا المستجدة التي تحتاج إلى حل أو رأي مشترك فيها، وبواقع ممثل واحد على الأقل من كل جهة))[3].

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر السابق.

ويتوقف طلعت رميح عند هذه النقطة في أثناء حديثه عن مراحل تطــور النشاط الفكري والسياسي للهيئة قائلا: ((لكنَّ الهيئة من بعــد، تحولــت إلـــى تجمع إسلامي أعلى من إطار المرجعية الفكرية، وأعلى من فكــرة الحــزب السياسي الناشط، على صعد العمل السياسي والجماهيرية، كما تحول موقفهـــا المؤيد لفكرة وحق المقاومة إلى نشاط فاعل وكبير. والمهم هنا هو أنَّ الهيئـــة في حد ذاتها، ومع تحولها إلى حالة متكاملة من النشاط، مثلت تطوراً في الفهم والتعاطي مع القضايا السياسية، بالقدر نفسه الذي أظهرت فيــه عــدم قــدرة التيارات السابق وجودها قبل الاحتلال، على امتلاك القدرة والرؤية الصحيحة في التعامل مع تحدي الاحتلال، كما هي طرحت بوجودها قضايا عامة مهمـــة على صعيد حالة التجدد في الاستجابة العقدية والفكرية والــسياسية، لتحــدى دخول قوات الاحتلال إلى البلاد الإسلامية، ونمط استجابة القــوى الــسياسية لها))[1].

ج- أصدرت الهيئة منهجها للإصلاح والتغيير الذي أسمته (مــشروع الحيـــاة المثلى) ونشرته على موقعها الإلكتروني الرسمي (الهيئة نت) ثم طبع لاحقـــاً طبعتين، وقد تناول هذا المنهج بالتفصيل رؤية الهيئة في الإصلاح والتغييــر السياسي وسبل إنهاض الأمة ودعم عوامل مقاومتها في مجـــالات: الــسياسة المثلى لإصلاح الأوضاع العامة وتغييرها، والسياسة المثلى لإيجاد الحركـــات السياسية الصحيحة، والنظام السياسي للدولة (السياسة المثلى لإصلاح أوضاع السلطة والحكم)، والنظام الاجتماعي (السياسة المثلــى لبنـــاء إنــسان الأمـــة والعناية بالمرأة، والنظام الاقتصادي (السياسة المثلى لبنـــاء اقتــصاد قــوي)، ونظام التعليم (السياسة المثلى لبناء الشخصية المعنويــة للفــرد والجماعـــة)،

---

[1] هيئة علماء المسلمين بين المرجعية والقيادة، كتابات عن الهيئة: ٥٥.

والسياسة المثلى لمكافحة الرذيلة والجريمة، والسياسة المثلى لحفظ الأمن، والسياسة المثلى لإدارة الشؤون الداخلية والخارجية، والسياسة المثلى لوضع الدستور، وحقوق الإنسان[1].

ويشير طلعت رميح أيضا إلى انتباه الهيئة لهذه المهمة التي أنيطت بها وسعيها إلى التفاعل معها ومواكبة تطوراتها، وكيف أنها ((أصبحت تدرك طبيعة دورها الاستراتيجي في خوض معركة تحرير وبناء العراق، من خلال ما يلاحظ من تطويرها لأوضاعها الداخلية التنظيمية، بما انعكس في توسع ظهور العديد من قياداتها على المستوى السياسي والإعلامي، ومن خلال ما يلاحظه المتابع من تعميق وتوسيع الهيئة لإنتاجها الفكري وعلى صعيد الدراسات السياسية والاستراتيجية، ومن خلال توسيع مشاركتها في النشاط السياسي والفكري والجماهيري والإعلامي على مستوى الهيئات الشعبية العربية الإسلامية، وهو ما ظهر من خلال مشاركة قيادات الهيئة وعدد من القيادات في المؤتمرات التي تضم النخب الفكرية والسياسية))[2].

٣. جانب النشاط السياسي

انخرطت الهيئة في نشاطات كثيرة منذ الأيام الأولى للاحتلال: ابتدأتها بالمظاهرات الاستنكارية والبيانات المنددة بالاحتلال واتبعتها بالتجمعات الجماهيرية الكبرى، وكان أبرز شواهد عمل تلك المرحلة هي التظاهرات أمام مقر قوات الاحتلال في مدينة الأعظمية ببغداد وأمام مقر قوات الاحتلال في ساحة الفردوس في مركز المدينة للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين، ووقف حملات المداهمات التي كانت تشنها قوات الاحتلال بلا هوادة.

---

[1] انظر: منهج الإصلاح والتغيير، مؤسسة البصائر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٢٩-٢٠٠٨.

[2] المصدر السابق.

وتكللت هذه الجهود بالتجمع الكبير الذي أقامته الهيئة في مقرها العام بجامع أم القرى بتاريخ ١٨/٧/٢٠٠٣م وحضره الآلاف من المواطنين من عدة محافظات في صلاة جمعة جامعة، للإعلان عن رفضها الواضح والصريح لأولى ثمرات العملية السياسية في ظل الاحتلال وهو مجلس الحكم الانتقالي الذي شكله الحاكم الأمريكي الأول بعد الاحتلال (جي كارنر)، وتم التعبير عن هذا الموقف في بيان الهيئة الأول وكلمات عدد من أعضاء الهيئة أمام الجماهير المحتشدة. وكان تجمعاً ضخماً اهتمت به وسائل الإعلام اهتماماً كبيراً ونقلته بعض الفضائيات نقلاً مباشراً، وأصبح مثالاً يحتذي لتجمعات أخرى كبيرة بين حين وآخر وعندما تحزب الحاجة إليها.

واتسع نطاق عمل الهيئة بعد هذه المرحلة اتساعاً كبيراً؛ حيث عملت بقوة على تأييد مشروع المقاومة المشتد في حينها، ودعمه سياسياً وإعلامياً، كما عملت على ملء الفراغ السياسي في الساحة الوطنية المناهضة للاحتلال، ونشطت في هذا المجال كثيراً.. ومن أبرز معالم هذه المرحلة ما يأتي:

أ- المشاركة في وقت مبكر في الجهود الرامية إلى تشكيل جبهة وطنية عريضة لمناهضة الاحتلال؛ انطلاقاً من قراءة مبكرة بضرورة انخراط جميع العراقيين في هذا السبيل، وأسهمت الهيئة بفعالية طيلة عدة أشهر في الاجتماعات التمهيدية للإعداد للمؤتمر التأسيسي العراقي الوطني المناهض للاحتلال، الذي أعلن عنه في (٤/٥/٢٠٠٤م) ليكون إطاراً جامعاً لتنسيق جهود القوى الوطنية المناهضة للاحتلال.

وعمل أعضاء الهيئة بجد في إطار فعاليات المؤتمر المختلفة، واحتضن المقر العام للهيئة عدداً من اللقاءات التنسيقية والاجتماعات المهمة للمؤتمر، ومن أبرز هذه اللقاءات الاجتماعات التشاورية الثلاثة عام (٢٠٠٤م) المتعلقة بالموقف من الانتخابات العامة، وتكللت هذه الاجتماعات بقرار المقاطعة الذي

وقعت عليه أكثر من خمسين جهة دينية وسياسية ونقابية وعشائرية وشبابية وغيرها.

ب- عقد مؤتمر موسع للقوى الوطنية المناهضة للاحتلال بالتعاون مع المؤتمر التأسيسي وبعض القوى السياسية الأخرى المناهضة للاحتلال، للتباحث في شأن مشروع المصالحة الوطنية، والانتهاء إلى إصدار بيان أم القرى في (١٥/٢/٢٠٠٥م) بعد نقاش مستفيض في المؤتمر أولاً ومن ثم في لجنة الصياغة المكلفة بإعداد البيان الذي مثّل الموقف الرسمي لهذه القوى من مشروع المصالحة المطروح من الحكومة في وقتها، وضم هذا البيان سبعة أسس للمصالحة إذا أريد لها أن تكون مصالحة حقيقية، وعلى رأس هذه الأسس إنهاء الاحتلال[1].

وقد أظهرت الهيئة منذ تأسيسها اهتماماً بالغاً بموضوع المصالحة الوطنية، وسبق لها أن بينت موقفها من هذه المصالحة في مناسبات عدة؛ وتقوم رؤية الهيئة في هذا السياق على طرح مشروع حل كامل للقضية العراقية وليس حلاً ترقيعياً مقتصراً على موضوع المصالحة كما تروج أجهزة الحكومة، والتفرقة بين مفهومي المصالحة الوطنية (كمصطلح سياسي) درج على ألسنة أصحاب العملية السياسية الحالية، ومفهوم (المصالحة الوطنية الحقيقية)؛ وتعود هذه التفرقة إلى الأبعاد غير الصحيحة التي تضمنها المفهوم الأول بعد انفلات الأمور وغلبة الأبعاد الطائفية على الحراك السياسي في ظل الاحتلال، وضرورة المحافظة على وطنية النسيج الاجتماعي الواحد للشعب العراقي.

---

[1] أنظر: موقع هيئة علماء المسلمين الرسمي؛ الهيئة- نت، حقل وثائق الهيئة.

ويركز عبد الإلهِ بلقزيز على هذا الجانب من نشاطات الهيئة الذي يـراه الأكثر أهمية من وجهة نظره، وهو توفير الإطار المرجعي للبعد الوطني فـي العراق الذي يعبر عنه هو بالنصاب التمثيلي للفكرة الوطنية قائلاً:

((توفر "هيئة علماء المسلمين"نصاباً تمثيلياً للفكرة الوطنية فـي العـراق اليوم، وهي نهضت بهذا الدور منـذ سـنوات: غِـب الاحـتلال الأمريكـي البريطاني لبلاد الرافدين، أي منذ انهارت المرجعية الكيانية الجامعة للعراقيين (الدولة) فامتنع تمثيل سياسي وطني أصيل، وانطلق سيل الولاءات الـصغرى الجارف منفلتاً من عقال الاجتماع الوطني الواحد كي يغرق البلد وأهلـه فـي قعر لا قرار له من الانشقاقات الدموية))[1].

ويقارن بلقزيز بين تجربتي جمعية علماء المسلمين في الجزائر والهيئـة على هذا الصعيد قائلا: ((كان أمامَ كلتا المؤسستين.. : أداء الواجـب نفـسه، تجنيد الفكرة الدينية لخدمة المشروع الوطني، والرد على الاحتلال وسياساته، الاغتصابية، والتقسيمية، بتنمية موارد الشخصية الوطنية وحفظها من التبديد وتجميع القوى وتكتيل الإرادات مـن أجـل اسـتعادة الـوطن مـن بـراثن الاحتلال))[2].

ج- الموقف من الدستور: تلخص موقف الهيئة من موضوع الدسـتور فـي وثيقة أصدرها القسم السياسي في الهيئة في أثناء النقاش المحتدم عن الدستور وحملت هذه الوثيقة عنوان (الدستور وما ينبغي أنْ يكون عليه) وخلصت هذه الوثيقة – بعد استعراض أهمية الدساتير، وما ينبغـي لنجـاح كتابتهـا مـن مستلزمات، وما ينبغي أن يراعى أثناء صـياغتها، ومـا هـي المـستلزمات الضرورية لوضع الدستور المناسب- إلى عدم المـشاركة فـي أي نـشاط

---

[1] هيئة علماء المسلمين، كتابات عن الهيئة: ٤٤.

[2] المصدر نفسه: ٤٦.

حكومي متعلق به، دعيت الهيئة لذلك أم لم تدع؛ التزاماً بثوابتها الشرعية والوطنية المتمثلة في عدم مشاركتها في أي عملية سياسية في ظل الاحتلال؛ وذلك للحيلولة دون إضفاء الشرعية على أية عملية سياسية قد تجمل صورة الاحتلال البشعة أو تسهم في بقائه في العراق، أو تكون غطاءً لما يترتب عليها من أخطاء دينية أو سياسية أو وطنية في هذه المرحلة الدقيقة من تأريخ العراق[١]، وأصدرت الهيئة بهذا الشأن عدة بيانات ومواقف.

ولم تكتف الهيئة بذلك بل عقدت ندوتين في مقرها العام في جامع أم القرى؛ لبيان مخاطر هذا الدستور ودعت قوى سياسية وجهات قانونية لمناقشة الموضوع من كل جوانبه ومختلف أبعاده، وتمت إحداهما بالتنسيق مع نقابة المحامين العراقيين بتأريخ (١٩/٥/٢٠٠٥م)، تحت عنوان (الملامح العامة للدستور العراقي)، وحضرها جمع كبير من ممثلي القوى المناهضة للاحتلال والسياسيين والقانونيين ورجال الإعلام.

ثم اتبعت الهيئة ذلك باجتماع موسع للقوى السياسية لمناقشة الموقف من عملية الاستفتاء على مسودة الدستور، وتمخض الاجتماع الذي عقد في (أم القرى) عن موقف موحد ومنسق لمواجهة هذا الأمر بمقاطعة العملية حسب رأي الهيئة وكثير من القوى المناهضة للاحتلال، والتصويت بـ(لا) لمن أراد المشاركة، وصدر بيان مشهور في وقتها بهذا الشأن.

وأخيراً خاطبت الهيئة الشعب العراقي مباشرة برسالة مفتوحة بتأريخ (٨/٩/٢٠٠٥م) وصارحته بكثير من الأمور المتعلقة بهذا الموضوع.. قالت فيها بوضوح: ((إذا كنا من قبل قد أطلقنا على قانون إدارة الدولة المؤقت (قانون المؤامرة) فثقوا أن المسودة الحالية هي أسوأ وثيقة يشهدها عالمنا

---

[١] انظر: الدستور وما ينبغي أن يكون عليه– القسم السياسي في هيئة علماء المسلمين.

الإسلامي، ويصح فيها الوصف: أنها (دستور المؤامرة الكبرى)؛ لأنها تمهد لتقسيم البلاد وتبديد ثرواته وتحويل العراق إلى بلد ضعيف تأكله الانقسامات تماما كما فعلوا من قبل مع لبنان الشقيق الذي مازال يعاني من هذه المؤامرة))[1].

د- المشاركة في الجهود الرامية للتعريف بالقضية العراقية وكشف ما خفي من مشاريع الاحتلال في العراق، وقطع الطريق على المحاولات الساعية لتغييب الصوت العراقي المناهض للاحتلال والمقاوم له، ومن هنا كانت المشاركة في كثير من المؤتمرات الخارجية ومنها: المؤتمر القومي الإسلامي في دوراته جميعاً بعد الاحتلال، والمؤتمر القومي العربي، ومؤتمرات الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والمؤتمرات الدورية لجامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، ومؤتمرات ولقاءات مؤسسة القدس والحملة العالمية لمقاومة العدوان.

كما أسهمت وفود وشخصيات من الهيئة في مؤتمرات بحثية وإعلامية وندوات ولقاءات ومهرجانات أخرى كثيرة، وشاركت في جولات تعريفية في دول كثيرة شملت عدة دول عربية ومسلمة، فضلاً عن دول آسيوية ودول في أوروبا الشرقية والغربية.. جرت فيها زيارة مدن نحو: لندن وروما وميلانو ومدريد وموسكو وبوخارست وطوكيو وجكارتا.

وحضرت الهيئة مؤتمري الوفاق الوطني في القاهرة عام (٢٠٠٥م) واجتماع اللجنة التحضيرية له بعد أشهر في القاهرة أيضا (٢٠٠٦م) ولقاء العلماء في مكة، وعلى الرغم من القناعة التامة للهيئة والقوى المناهضة للاحتلال الأخرى المشاركة معها في هذين المؤتمرين واللقاء، بعدم جدواها

---

[1] رسالة مفتوحة من هيئة علماء المسلمين إلى الشعب العراقي بمناسبة الدستور، رسائل الهيئة المفتوحة: ١٣، ط١٤٢٨، ١-٢٠٠٧.

من الناحية العملية لأسباب عديدة لعل من أبرزها هيمنة إرادة المحتل الأمريكي وعدم رغبة الأطراف الحاكمة في بغداد بحل حقيقي ينهي الاحتلال في العراق؛ إلا أن المشاركة كانت تسعى أصلاً لإيصال القضية العراقية إلى منتديات لم تصلها من قبل وعرضها من على المنابر المتوافرة ما أمكن؛ سعياً لكسر الحصار القاتل عليها.

وإذا أخذنا مؤتمر (الوفاق الوطني) في القاهرة عام (٢٠٠٥م) كمثال على الجهود التي بذلتها الهيئة في هذا السياق؛ فإن المتابع والمهتم بالقضية العراقية سيلحظ بشكل واضح أن هذا المؤتمر كان فرصة مهمة للانتقال إلى مرحلة أخرى مهمة من مراحل العمل السياسي ضد الاحتلال ومشروعه، وهي محاولة إيصال رؤية القوى المناهضة للاحتلال والمقاومة إلى المحيط الدولي بأي وسيلة ممكنة؛ حيث حضرت الهيئة والقوى المناهضة للاحتلال في إطار المؤتمر التأسيسي بعد الاتفاق مع أمين جامعة الدول العربية عمرو موسى أثناء زيارته لبغداد؛ على أسس معينة للموافقة على المشاركة في المؤتمر وحضور أعماله، وأعلنت تلك الأسس في مؤتمر صحفي في اليوم نفسه لزيارة عمرو موسى لمقر الهيئة في جامع أم القرى.. وأهم هذه الأسس هي: أن يكون توصيف هذا اللقاء على أنه لقاء بين قوى مناهضة للاحتلال والجهات المشاركة في العملية السياسية، وأن لا يعد هذا المؤتمر جزءاً من العملية السياسية بأي حال من الأحوال.

وهذا ما حصل حيث كان المؤتمر فرصة مناسبة لبيان وجهة نظر القوى المناهضة للاحتلال والتعبير عن رأي المقاومة العراقية، التي سُعيَ إلى أن يكون لها حضور فعلي في هذا المؤتمر، أو حضور سابق له في الجامعة العربية على الأقل، وحيث لم يحصل الأمر فقد قامت القوى المناهضة للاحتلال بواجبها في إيصال وجهة نظر المقاومة كما هي.

الفضائيات العراقية.. بين الرقابة والحرية

محمد بهاء الدين / باحث إعلامي وإذاعي سابق

لم أجد مدخلاً لمقالي أبلغ من بيت شعر المتنبي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

تغيرت الأحوال، وفقدَ المشاهدون داخل العراق المحتل وخارجه التوازن الجميل في مكونات شخصياتهم، والكثير من موضوعيتهم، وخصوصيتهم، ورحابة فكرهم.. والسبب القنوات الفضائية العراقية التي تركت ظلالاً كثيرة على واقع شخصية الإنسان العراقي.. فأي متابع لما يحدث في ظل العبث الفني باسم السموات المفتوحة يكتشف أنه لم يعد هناك حوار عقل وكلمة وضمير وتثقيف وترفية بريء؛ بل نقش على الماء ولغو في الهواء.. حتى صفوة المثقفين والمفكرين والباحثين والإعلاميين لم يجمعهم رأي واحد أمام ما نراه بأعيننا ونسمعة بآذاننا ونعيه بفكرنا على شاشات الفضائيات العراقية التي تكاثرت حتى ناهزت الثلاثين ونيفاً، والحبل على الجرار، دون قواعد موضوعية ولا حاجة حقيقية، علاوة على أنها لا تخضع لمعايير مهنية وتقنية جيدة.. فما هو موجود إلا ما ندر يكاد يكون في معظمه متشابهاً ومكرراً،

ولكن هذا هو ثمن الحرية التي جلبها معه الاحتلال وأعوانه، وقوى النفوذ الاقليمي المجاور للعراق.

وأدى هذا الحضور الكثيف والمفاجئ، والمختلف في مضمونه وأهدافه ورسالته للفضائيات العراقية، ومساحة ما تتوهمه من حرية وحيادية وديمقراطية تتمتع بها؛ إلى ظهور ثورة التطلعات، التي تحولت بفعل ما يعيشه ويعايشه العراق من احتلال امريكي، وهيمنة لنفوذ إقليمي مجاور إلى ثورة إحباطات تلعب فيها تلك الفضائيات بإختلاف أسمائها وألوان رسائلها وتوجهاتها، وطرق تمويلها إلى رأس حربة درامية نتائجها مأساوية.

فهذه الأعداد الوفيرة من الفضائيات، رغم أنها لم تفصح عن هويتها للنأي عن مرجعيتها الحقيقية، في محاولة للالتفاف على المشاهد وعلى الواقع في العراق، إلا أن المشاهد لم يقتنع بعد بأن ما يشاهده يختلف عما كان يراه في المحطات التليفزيونية الحكومية بكل ما تحمله من أخطاء الماضي، من حيث إهمال المشاهد، والتعامل الفوقي معه فضلاً عن الاستمرار في تقديم أخبار مسؤولي الحكومات المتتابعة، والتي لا تضيف شيئاً إلى ثقافة ووعي المشاهد، وإشراكه في الحدث وصنع القرار.. الأمر الذي فسره الإعلاميون بأنه يعيد جمهور المشاهدين داخل العراق وخارجه إلى المربع الأول.

فهل قدمت الفضائيات العراقية البديل عن الاعلام الرسمي؟، أم أنها تعمل تحت رقابة الإعلام الحكومي الحالي.. وهل ظهورها كان اغتناماً للفرص، وملأً للفراغات، وأستجابة طبيعيةً لتمرير وتبرير اجندة المحتل وقوى الهيمنة الإقليمية المتنفذة في العراق، أم تنافس على ذهب المعز وسيفه؟.

ولأنها بلا تخطيط أصبحت بلا هدف، وعندما غاب الهدف ضاعت الرسالة، وأصبحت مثل زبد البحر، يذهب جفاءً عبر إرسال يتنوع بين السطحية، والسذاجة، وقتل الوقت.

ثم تتمتع الفضائيات العراقية فعلا بالحرية؟، وما هو سقف تلك الحرية، خاصةً وإننا نعلم أن حرية الأقوياء في الإعلام أدت إلى النجاح.. بينما بقيت حرية الضعفاء شعاراً أجوف.

إن قصة الفضائيات العراقية قصة يصعب فهمها، ما لم توضع داخل إطارها وخلفيتها في ظل فلسفة ومفهوم وسياسة الإعلام العراقي الحالي بأهدافه الخفية في إحتواء البعض، أو تهميش البعض بأساليب ووسائل الضغط، أو المساومة أو الاستقطاب.

وإذا كان لكل قصة بداية، فمن الحروب على العراق تكون البداية.

خاض العراق منذ عام١٩٨٠م من القرن الماضي وحتي عام٢٠٠٣م من القرن الحادي والعشرين سلسلةً من الحروب، بدأت بالحرب الإيرانية- العراقية والتي استمرت ثماني سنوات حتى وضعت أوزارها في ١٩٨٨/٨/٨م، ثم الحرب ضد العدوان الثلاثيني أو مايسمى بحرب الخليج الثانية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١م، والتي انتهت بانسحابه من الكويت، وفرض الحصار الجائر، وأخيراً ضد العدوان الأمريكي البريطاني الذي انتهى بغزو العراق واحتلاله، وإسقاط النظام السابق في ٢٠٠٣/٤/٩، ولم يظهر تأثير الإعلام المرئي واضحاً إلا في عام ١٩٩١م، حيث حققت شبكة الأخبار الأمريكية (CNN) قفزة نوعية، وتبوأت المكانة الأولى بين الشبكات الإخبارية العالمية بتغطيتها لأحداث العدوان، ونقلت المعارك على الهواء بعد أن انفردت بالبث من بغداد، والذي كان يتم التقاطه على القنوات الارضية لمحطات التلفزة بأنحاء العالم، مما لفت انتباه جماهير المشاهدين إلى التهافت لاقتناء وشراء أجهزة الاستقبال الفضائي، وانتشرت كالنار في الهشيم، رغم أسعارها الباهظة حينذاك.

والجدير ذكره أن العراق هو أول دولة عربية أطلقت أول محطة تلفيزيون في المنطقة، إلا أنه يعد آخر دولة أخذت بنظام البث الفضائي، وذلك بإطلاق قناة العراق الفضائية في١٩٩٧/٧/١٤، واعتمدت على كادر من التليفزيون الحكومي بهدف نقل صوت وصورة العراق إلى العالم.. إلا أن أغلب العراقيين لم يكن باستطاعتهم مشاهدة بث فضائيتهم؛ لعدم وجود أجهزة اسقبال البث الفضائي بسبب المنع الرسمي، حيث كان يعاقب من يضبط لديه أجهزة استقبال بث فضائي (الصحون اللاقطة) بالسجن لمدة ٦ أشهر، وغرامة مالية خفضت في نهاية الأمر إلى (٣٠٠) ألف دينار عراقي، فضلاً عن مصادرة الجهاز.. وفي مرحلة لاحقة اراد النظام السابق التخفيف من هذا المنع، والسماحللمواطن العراقي بالاستفادة من البث الفضائي ولكن ضمن سيطرة الدولة وتوجهاتها.. فاعتمد مجلس الوزراء العراقي في تشرين الأول/ اكتوبر عام ١٩٩٩م مشروعاً يقضي بالسماح للعراقيين بالتقاط القنوات الفضائية من خلال شبكة تنشأ لهذا الغرض، وحددت وزارة الإعلام رسم الاشتراك للمواطنين الراغبين في التقاط البث الفضائي بين (١٠) آلاف و (١٢) ألف دينار شهرياً، أي ما يعادل حوإلى (٦) دولارات، لالتقاط بث ثماني قنوات عالمية، ترتفع في ما بعد إلى (١٤) قناة على أن تكون مدة البث في المرحلة الاولى (١٦) ساعة يومياً ترتفع لاحقاً إلى (٢٤) ساعة.. والجدير بالذكر أن العراقيين خلال تلك الفترة كانوا يتابعون ثلاث قنوات تلفزيونية هي: التليفيزيون الرسمي، وتلفزيون الشباب، الذي كان يشرف عليه عدي صدام حسين النجل الأكبر للرئيس العراقي الراحل، وقناة العراق الفضائية.. وبعد التاسع من نيسان/ أبريل٢٠٠٣م تغيرت الأمور في العراق بشكل درامي، بعد أن نجح الاحتلال الأمريكي وأعوانه وعملاؤه في البطش بأبناء العراق ومقدراته، واستطاعوا اقتحام المجتمع العراقي وكسر أبوابه بعنف من

خلال إعلام خطط له بعناية مدروسة، وكان وراءه بلايين الدولارات، تحركه أيادٍ خفية في غاية البراعة تخطيطاً وممارسةً على أرض الواقع.. خاصة بعد أن اتخذت سلطات الاحتلال قرارها بإلغاء وزارة الإعلام العراقية، وأصبح المئات من الإعلاميين بشتى التخصصات والخبرات في الشارع.. وبدأت فترة من التعامي المقصود عن الأخطار التي يعيشها العراق، واعتمدت على حكومات متعاونة مع المحتل، وشعب مقهور، يمنح ثقته لكل من يدعي الحرية أو يلون وجهه بأصباغ الوطنية، وتولي أمر ذلك تجار الكلمة الذين أطلقوا بنات أفكارهم، من خلال إنشاء قنوات فضائية أحدثوا بها هزات عصفت برؤوس وعقول المشاهدين داخل العراق وخارجه، لتكون حديث الناس في خطوة لتحريك وتثبيت مخططات المحتل وأعوانه من الأحزاب السياسية والدينية، تحت رقابة أبعدت جمهور المشاهدين عن الحقيقة، تحت وهم أن المناخ السياسي لا يستسيغ ذلك.. فكان المزيد من الإغراق في غيبوبة التخدير، حتي لا يفيق العراق ويواجه واقعه بكل ظروفه، ومآسيه، ومعاناته.. ومارس المحتل دوراً اساسياً في تخطيط الرسائل الإعلامية من خلال القنوات الفضائية، التي ساهمت في إشعال المعارك، وزيادة الخلافات بين أبناء الشعب الواحد، وروجت لفكر وثقافة المحتل ومن آزره ، فخرجت لنا فضائيات تعد بمثابة لافتات براقة، لا تضيف جديداً للمشاهد سوى تعميق وتأجيج النزعات الطائفية، والعرقية، والقومية، والمذهبية محاولة الانتصار لمن أنشأها ومولها، ليحفر اسمه زوراً وبهتاناً على تاريخ العراق، وتلون ردود أفعال المشاهدين بألوان طيفها، تحت زعم الحرية في مناخ لا تتوافر فيه عناصر الحرية والأمن والاستقرار والسيادة والاستقلال.. فالاحتلال الأمريكي روج لتعبير تحرير العراق وركز عليه.. وهذا التعبير يبعث على التأمل للحرية وما لها من رصيد في عقول ونفوس المتلقين.. فالتحرير رمز

لغوي يحرك كوامن التعطش للحرية لدي أبناء الشعب العراقي، ومن جانب آخر يظهر أمريكا في ثوب المدافع عن الحرية، مما يترك أثره على جماهير الشعوب التي ترفض الاحتلال.. فهذه الحرية التي ابتدعها المحتل وأعوانه نستطيع أن نجملها في ما يأتي:

*حرية تعمل على تحطيم عوامل الحصانة والقوة والمقاومة في قلب أبناء العراق المجاهد الصابر الصامد، عن طريق بث السموم في العروق لإحداث التحول من القوة إلى الوهن، ومن الصمود إلى الاستسلام، ومن المقاومة إلى تقبل ظلال التبعية للاحتلال وأعوانه، وقوى النفوذ والهيمنة الاقليمية.

*حرية تستطيع أن تصغر ما تعارضه، وتكبر ما تدافع عنه، مقياسها في ذلك فلسفة وسياسات من يأمر بها.

*حرية قوامها مزيد من التقليد لإعلام المحتل وقوى النفوذ الإقليمي في العراق، لتكوين أجيال منصرفة عن التبعات الجسام التي تواجه العراق حاضراً ومستقبلاً.

*حرية تحمل ألفاظاً عامة ومطاطة وغامضة، تفهمها فقط الحكومات التي نصبها المحتل.. وكأنها خرجت من نير الاحتلال، وهيمنة النفوذ الاقليمي.. وأنها أصبحت بحاجة إلى تعزيز مبادئ سيادة الدولة، وترسيخ مقوماتها الإعلامية.

*حرية لإعلام تديره الحكومات المتعاقبة في ظل الاحتلال من وراء ستار تمويلاً وتخطيطاً، ورقابة تحمل من الألفاظ ما تفهمه هي فقط وفق سياقاتها فتسمح بها وقتما تشاء، وتمنعها وقتما تشاء.

ولا يغيب عن البال أن القائمين على تلك الفضائيات يعرفون تمام المعرفة أنه لا توجد حرية للإعلام في وطننا العربي عموماً، فما بالك بالعراق في وضعه الراهن.. والأدهى أنهم يعلمون أن الأصل هو حجب المعلومات

وتقييد الإعلام.. والويل والثبور وعظائم الأمور لمن يغرد خارج السرب؛ ففي الانتظار.. إغلاق المقرات والمكاتب، ومصادرة الأجهزة والمعدات، والإيقاف الكلي أو الجزئي، الدائم أو المؤقت، بضغط حكومي أو خارجي.. والشواهد كثيرة وحاضرة.

*حرية تحمل على أثيرها سياسة الأمر الواقع، وتدعيم الأوضاع التي صنعها المحتل، حيث ظهرت في العراق أعراف جديدة تعارض تماماً الأعراف الأصيلة التي درج عليها، ومفاهيم زائفة تضاد القيم الصحيحة.

*حرية لا تنظر للواقع العراقي نظرة الأمانة الصادقة والمسؤولية الحقيقية.

*حرية (واجهة) موالية للأوضاع القائمة تمام الموالاة من كل النواحي؛ بحيث لا تختلف مع السلطة الحاكمة ولا تعارضها.

*حرية خاطئة ومضللة فتحت أمام المتلقي أبواباً خطيرة، بأسلوب كله ذكاء، رعاها المحتل وغذاها إلى أبعد مدى بهدف خلق أجيال تجعل من النموذج الأمريكي إطاراً ومساراً لها.

لقد بدأت بعض الفضائيات العراقية كسلاح للصراع السياسي، والتطاحن بين الأحزاب، ثم تحولت إلى الميدان الاجتماعي، فغدت موجهة توجيهاً خطيراً لتدمير القيم التي كشفت عنها الكثير من الأحداث، وبرهنت على أن القائمين على بعض تلك الفضائيات يحملون في عقولهم التعصب، وفي نفوسهم النزق، وأن ذلك كله خلق جواً من الاصطدامات، والتوتر والاضطراب والبلبلة في نفوس أبناء الشعب العراقي.. فكانت أهدافها حصيلة مختلطة، وركاماً مضطرباً من الدعوات الهدامة، والنعرات المسمومة.

وغني عن البيان أن بعضاً من هذه القنوات تؤمن بأن رسالتها نقل الواقع الحكومي الحالي كمرأة تعكس توجهاتهم، ملامحهم، حتى لغة الحوار تكرس بجلاء الطائفية على أساس المذهب أو العرق أو القومية أو الطبقة الاجتماعية،

مما يزيد الاحساس بالعداء لدى المشاهد عندما يري أنه مختلف عمن حولـه.. فبعض أهل السياسة وأهل الدين ممن يحملون رايـة المحتـل أو الخاضـعين لهيمنة قوي النفوذ الإقليمي المجاور، يرون أن وجود كـاميرات التليفزيـون والميكروفونات مفتوحة؛ لنقل ما يقولون للمشاهدين على الهواء يشجعهم أحياناً على استخدام لغة وتعبيرات تلفت الانتباه؛ لتثبيت الاتجاه الذي يهدفون إليـه.. ولو رجعنا لمشاهدة برامج تلك الفضائيات فإننا سنجدها أقرب ما تكـون إلـى السينيما الصامتة، بمعني أنها لم تعبر عن اهتمامات أبناء الشعب العراقـي أو واقع حياتهم الحالية، متناسين أن المشاهد ليس بالتلميذ الغبي الذي يتلقف كـل ما يعرض عليه... ومن الطريف أن يعتقد بعض معدي ومقدمي تلك البـرامج أنهم يعبرون بحرية ويتحدثون بآرائهم وأسلوبهم، فإنهم في الواقـع يـرددون أفكاراً وآراءاً ومفردات لغة أمليت عليهم من آخرين.

بما يؤدي إلى تحريك أشياء كثيرة لدى المشاهد، وتترك لديه ردود أفعـال لا يعرف أحد مداها، وثمة جدل يثور حول مناط ومعيار الرقابة على القنوات الفضائية العراقية، وهل هي محايدة ؟ أم هي رقابة محافظة؟، وواقـع الحـال أبلغ من أي مقال لحسم هذا الجدل، ليكشف عن حجمها الحقيقـي، وتأثيرهـا الفعلي.

ففي تقديري أن المصير واحد، والنتيجة واحدة طال الـزمن أم قـصر.. هكذا علمنا ويعلمنا التأريخ.

الأفلام التسجيلية.. ورصد الحياة العراقية بعد الاحتلال الامريكي

د. عمر راغب زيدان / كاتب وإعلامي عراقي

ولدت السينما التسجيلية[1] أول ما ولدت على يد الأخوين (لوي) و(أورجست لوميير) منذ ما يزيد على مائة وعشرة أعوام، حينما قدما عرضاً لمدة دقيقتين بعنوان (الخروج من مصانع لوميير)، ومنذ ذلك التأريخ والسينما التسجيلية آخذة بالانتشار والتوسع في مواضيعها ومفرداتها، وأخذت تقنياتها تزداد يوماً بعد يوم حتى وصلنا إلى مرحلة متقدمة في هذا الشأن لتعمل في جوانب سياسية ودينية وعلمية؛ بسبب تأثيرها المذهل على الجمهور ومشاعرهم، وتعدى الأمر من التأثير العاطفي إلى التأثير الفكري والثقافي ليأخذ حيزاً من الأهمية المطلقة في الجانب الفني والثقافي لا يمكن تجاهله بحال من الأحوال.

---

(1) يعرف الاتحاد الدولي للأفلام التسجيلية الفيلم التسجيلي بأنه: (كافة أساليب التسجيل على فيلم لأي مظهر لحقيقة يتم عرضه إما بواسطة التصوير المباشر أو بإعادة بنائه بصدق عند الضرورة، وذلك لتحفيز المشاهد على عمل شيء أو لتوسيع مدارك المعرفة والمفاهيم الإنسانية أو لوضع حلول واقعية لمختلف المشاكل في عالم الاقتصاد أو الثقافة أو العلاقات الإنسانية)، معجم الفن السينمائي لأحمد كامل والدكتور مجدي وهبة، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

ثم تعدت مهمة الفيلم التسجيلي من الوظيفة الفنية إلى الوظيفة التأريخية التوثيقية فأصبحت تلك الأفلام بمثابة وثيقة تأريخية تحقق وتثبت بالأدلة والبراهين حقائق قد تكون خافية على العالم، حيث أخذت تظهر أفلام تناقش حوادث سياسية وتأريخية غامضة وفي غاية الأهمية والحساسية، وربما مما مضى عليها عشرات السنين، لكنها لم تسلم من التأثيرات التي طالتها بسبب السيطرة على الإنتاج من الشركات اليهودية وغيرها.

وإذا أردنا التطرق لموضوع الأفلام التسجيلية العراقية وأثرها في رصد جانب من حياة العراقيين وما عانوه من مرارة وويلات وما عانته حضارتهم ومؤسساتهم بسبب تداعيات الاحتلال الأمريكي للعراق الذي قادته الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣م..فلا بد لنا من العودة إلى الوراء للتعرف على تأريخ الفيلم التسجيلي في العراق، ففي عام ١٩٦٠م تأسست مصلحة السينما والمسرح وهي أول مؤسسة رسمية تعنى بالسينما بعد أن ظل إسهام الدولة في الإنتاج السينمائي غائباً قبل هذه الفترة، ثم تحولت بعدها إلى مؤسسة السينما والمسرح وأخذت تتمتع بنظامها الخاص.

ومن الواضح أن الأفلام التسجيلية في العراق نشطت بعد فرض الحصار عام ١٩٩١م، وقدمت موضوعات عن معاناة الشعب العراقي جراء الحصار ونالت تلك الأفلام جوائز عديدة، وتغير أسلوبها ونمطها عن السابق وتسمت بالجرأة في طرح الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد امتد الحصار حتى وصل إلى الأفلام نفسها حين منعت التقنيات الحديثة وحتى شرائط الفيلم الخام من دخول العراق مخافة أن تطرح الأفلام العراقية قضاياها عبر المهرجانات الدولية وإدانتها لما يتعرض له الشعب العراقي.

وبنظرة سريعة لما تناولته الأفلام التسجيلية بعد الغزو الأمريكي للعـراق يجد الناظر أنها قد أسهمت بشكل متواضع في رصد الحالـة العراقيـة ومـا يلاقيه المواطن العراقي جراء الاحتلال، إذ لا يختلف اثنان أن ما حدث فـي العراق جراء الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣م لم يشهد التأريخ مثيلاً له، فالـدمار الذي لحق بالإنسان والحضارة والثقافة كان بحق إبادة جماعية لشعب العـراق وحضارته.. ومشاهد القتل والدمار الوحشي الذي يتكرر في العراق والقصص المأساوية وعمليات السلب والنهب للمتاحف والآثار والأموال العراقية يعجـز الإنسان أن يصفها من خلال مقالة أو كتاب، في الوقت نفسه استطاعت تلـك الأحداث أن تكون مادة دسمة ليظهر مـن خلالهـا المخرجـون العراقيـون إمكانياتهم في إيصال تلك المعاناة للعالم أجمع.

ولم تستنهض هذه المشاهد المخرجين العراقيين فحسب بل تعـدت إلـى أقرانهم من الغربيين وحتى الأمريكيين بغض النظر عـن توجهـات أولئـك المخرجين والغرض من إنتاج تلك الأفلام.

فلقد استطاعت الأفلام التسجيلية التي تتحدث عـن واقـع العـراق بعـد الاحتلال أن تقفز إلى مراكز متقدمة عالمياً وتنافس غيرها لنيل جوائز عالمية، كما حدث مع فيلم (موطني) وفيلم (شظايا العراق) اللذين رُشحا من بين خمسة أفلام لنيل جائزة الأوسكار.

وفيما يأتي سرد لبعض الأفلام المنتَجة في فترة ما بعد الاحـتلال الأمريكـي للعراق:

(١) فيلم "موطني" للمخرجة لورا بيوتارس: يرصد الفيلم الانتخابات الأولـى في العراق بعد الاحتلال من خلال طبيب عراقي يرشـح نفـسه ومحاولتـه التغلب على المصاعب، وبينما تعمل أمريكا من وراء الـستار علـى تـسيير

الانتخابات بطريقتها الخاصة، فإن المجتمع العراقي يعالج مشاكله بطريقة أخرى.

تقول مخرجة الفيلم: الحقيقة أن أصعب شيء واجهني هو أنني عندما رجعت إلى بلدي أمريكا أدركت أن العراق وأمريكا عالمان مختلفان تماماً وبشكل لا يمكن التوفيق بينهما.

(٢) فيلم "شظايا العراق" للمخرج جايمس لونجي: ويرصد العلاقة بين المكونات الرئيسية في العراق وفق وجهة النظر الأمريكية (السنة، الشيعة، الأكراد) ومَن مِن هذه المكونات يعمل على تمزيق العراق؟ ويتناول الفيلم ثلاث قصص، الأولى للطفل محمد (السني) الذي يدرس في مدرسة ويعمل في كراج للسيارات، والصورة الثانية لمقتدى الصدر وكيف يحاول فرض آرائه بشدة، أما الصورة الثالثة لأسرة كردية تكافح وتناضل من أجل البقاء.

(٣) فيلم "حياة ما بعد السقوط" للمخرج العراقي قاسم عبد: يرسم الفيلم صورة عن الإحباط الشديد عند العراقيين بعد الاحتلال، كما يسجل الفيلم الكثير من الأحداث المؤلمة لمدينة مزقتها الحرب، وفواصل متفائلة في حياة عائلة المخرج تعكس محاولاتهم لمواصلة العيش رغم أجواء الخوف والشك والكآبة، وقد شارك هذا الفيلم في مهرجان دبي السينمائي الدولي ٢٠٠٨م.

(٤) فيلم "عصابات بغداد" للمخرجة العراقية عايدة شيلفر: الذي يتناول موضوع الخطف العشوائي للمواطنين العراقيين الذي يتعين على أهلهم أن يدفعوا فدية أو يواجه أبناؤهم الموت، ويطرح الفيلم سؤالاً عن إمكانية استمرار الحياة بعد الخطف الذي يتعرض له الإنسان، وقد شارك الفيلم في مهرجان دبي السينمائي في دورته الأولى.

(٥) فيلم "يوميات بغدادية" للمخرجة العراقية هبة باسم: الفيلم يتحدث عن يوميات طالبة عراقية من واقع مختلف، فهي تشعر بأن الواقع يُقصي

طموحاتها، لكنها مسلحة رغم ذلك ببراءتها وفطرتها الإنسانية، وتشرح عشقها لعالم نقي نظيف وهو الذي سيشكل لها فيما بعد خروجاً من صدمة الواقع المخيف إلى نافذة الحلم بعالم مضيء.

(٦) **فيلم "لعنة النفط" للمخرج العراقي المعروف محمد شكري جميل:** والذي يتناول قصة استهداف العراق، ويركز على أن السبب وراء ذلك هو النفط ابتداءً من تأريخ اكتشافه إلى احتلال العراق عام ٢٠٠٣م وهو من الأفلام الطويلة.

(٧) **فيلم "فنان في زمن الحرب" للمخرج العراقي كاظم صالح فرج:** يحاول المخرج إيصال رسالة للجمهور بأن الحرب ترسم صورة مشوهة للحياة، أما الفنان فهو يحاول أن يرسم لوحة جميلة مفعمة بالحب والألوان تكشف عن أسرار جمالية الحياة مما يساهم بخلق الأمل وتفعيل حب الإنسان من أجل بناء الحياة لا هدمها، وقد نال الفيلم الجائزة الأولى في مهرجان فولفوغراد السينمائي وجائزة لجنة التحكيم لمهرجان الجزيرة الدولي ٢٠٠٦م.

(٨) **فيلم "التغريبة العراقية" للمخرجة العراقية شيرمن عباس:** يتناول حياة العراقيين بعد الاحتلال والظروف الأمنية المزرية التي اضطرت العراقيين لمغادرة العراق والحالة المادية الصعبة التي يعيشونها في بلاد الغربة.

(٩) **فيلم "الرحيل المر" للمخرج العراقي صبري الرماحي:** يرصد الفيلم واقع اللاجئين العراقيين في سورية والصعوبات التي تواجههم، الفيلم من إنتاج قناة الجزيرة ٢٠٠٧م.

(١٠) **فيلم "حكاية من البلد الأسير" إخراج شادي الحصري:** يتناول واقع الأساتذة الجامعيين في العراق وعمليات الخطف والاعتقال والتصفية التي طالتهم مما اضطر كثيرين منهم إلى ترك العراق.

وإننا إذ نتحدث عن دور الأفلام التسجيلية في رصد حياة العراقيين بعد الاحتلال، فإنه لا يمكن تجاهل الاتجاهات التي ميزتها خلال هذه الفترة الحرجة من تأريخ العراق.. فلقد اتخذت الأفلام العراقية التي أنتجت خلال فترة الاحتلال الأمريكي للعراق عدة اتجاهات وذلك بسبب توجهات جهة الإنتاج والغرض من إنتاج تلك الأفلام، وكما يأتي:

الإنتاج الأمريكي

وتنقسم أفلام هذه الجهة إلى قسمين:

أولاً: الأفلام التي تم إنتاجها بشكل فردي عن طريق مخرجين مستقلين، كان غرضهم كشف الحقائق الخافية في العراق وتفنيد المزاعم الأمريكية في تبريرها للحرب على العراق.

وقد تناولت تلك الأفلام محاور متنوعة ابتداءً من المخاطر التي يتعرض لها الجنود الأمريكيون وازدياد عدد القتلى وانتهاءً بانتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش الأمريكي والشركات الأمنية بحق المدنيين العزل، مثل مجزرة حديثة وفضيحة سجن أبي غريب وغيرها.

ثانياً: الأفلام التي تم إنتاجها بتمويل من الإدارة الأمريكية ضمن ميزانية الحرب على العراق، وهذه دائماً كانت تتميز بإظهار العراقيين على أنهم إرهابيون يستحقون القتل، وأن أفراد الجيش الأمريكي هم رجال سلام ينشرون الأمن والسلام والحرية أينما حلوا.

ولابد من التأكيد هنا على أن هذا القسم من الأفلام لم يلق رواجاً ولم يحظ بأي اهتمام أو حتى تغطية لأسباب عدة، منها أن الفضائيات أخذت تنقل جرائم جنود الاحتلال في العراق والتي أصبحت تظهر بشكل متكرر وسافر لم تدع مجالاً للتغاضي عنها أو إخفائها من خلال فيلم يتم إنتاجه في أروقة

البنتاغون السرية، فضلاً عن أن الأفلام المستقلة ساهمت بشكل كبير في هذا الإتجاه، وكان لها الدور الكبير والتأثير الأقوى في نفسية المشاهد الذي عدّها أكثر حيادية، ويشيع القول إن الأفلام التسجيلية لا تكذب.

إلا أن السياسة الأمريكية تخطت هذه المرحلة، فأصبحت الأفلام التسجيلية حقلاً للألغام السياسية والأهداف العسكرية، فقد دفع عدم الرضا عن سياسة الرئيس بوش – مثلاً إلى إنتاج غير مسبوق من الأفلام السياسية في عام ٢٠٠٤م وبالتحديد قبل الانتخابات الأمريكية، فقد بدأت مدينة السينما الأمريكية "هوليوود" في ذلك الوقت تستغل الموقف لصالحها من أجل تحقيق مكاسب عدة، وتم إنتاج العديد من الأفلام الوثائقية التي تتناول أموراً سياسية، منها فيلم "الخداع" وفيلم "عقلية بوش وغرفة تحكمه"، والذي يتناول تغطية قناة الجزيرة للحرب على العراق.

لكن في الوقت الذي كان من المتوقع أن تنجح هذه الأفلام في أهدافها وتحقق أرباحاً جيدة، إلا أن الجمهور عزف عن مشاهدتها لصالح أفلام تنتقد سياسة الرئيس جورج بوش صراحة كفيلم "فهرنهايت" الذي نجح في جذب المشاهدين وجني الأرباح، وقد حصل على جائزة أحسن فيلم في مهرجان كان السينمائي وكان مخرجه (مايكل مور) يحاول من خلال الفيلم تقويض فرص فوز الرئيس بوش بفترة رئاسية ثانية.

الإنتاج العراقي

حين نتكلم عن الأفلام التسجيلية العراقية التي أنتجت في هذه الفترة، نلاحظ غياب الإنتاج العراقي ونعني به الإنتاج الحكومي أو الرسمي، فكل ما تم إنتاجه من أفلام في تلك الفترة هو إنتاج مستقل بشكل فردي بغض النظر عن رؤية المخرج أو الرسالة التي أراد إيصالها من خلال فيلمه.

الأمر الثاني الذي نلاحظه من خلال تلك الأفلام هو أن جميعها إلا ما ندر قد أنتج خارج العراق، وذلك بسبب الاحتلال، الأمر الذي جعل العراق بلداً غير آمن فطالت يد القتل والإجرام الكثير من أهل الفن، فكان الفنانون والمخرجون ضمن أربعة ملايين عراقي خرجوا من العراق؛ لأن يد القتل لم تفرق بين عراقي وآخر.

وقد تناولت تلك الأفلام أوضاع العراقيين ومآسيهم داخل العراق وخارجه، وكان أغلبها يدور حول قصص حقيقية لعوائل وأشخاص تعرضوا لمشاكل وأزمات ربما لا يصدقها أحد.. فيظن البعض أنه ليس لها مكان إلا في الخيال السينمائي، فكان لابد من تسطيرها من خلال رؤية فنية في إطار تلك الأفلام.

ومن الملاحظ انك تجد المخرج أو عائلته هما محور القصص لبعض تلك الأفلام، كما هو الحال في فيلم "حياة ما بعد السقوط" للمخرج العراقي قاسم عبد، والذي يصور حالة العراقيين بعد الاحتلال والاحباط الشديد عندهم، لكنه يمر على فواصل متفائلة يصورها من خلال عائلته هو، ومحاولتهم مواصلة العيش رغم العنف وإنعدام الأمن، وهذا الشيء يحسب للأفلام التسجيلية العراقية في هذه الفترة، فقد كانت من قلب الواقع تحاكي الوجدان وتلامس القلوب وتتميز بقدر من الجرأة العالية والمصداقية والواقعية.

واللافت للنظر أن تلك الأفلام كان لها حضورها المتميز في المهرجانات الدولية، بسبب قوة المواضيع التي تطرحها، وهذا من المفارقات المقبولة نوعاً ما، فالمآسي والأحداث المفجعة في العراق أصبحت مادة دسمة للأفلام العراقية، واستحقت من خلالها أن تقفز إلى مراكز متقدمة لنيل جوائز عالمية، كما تتميز تلك بمحاولتها الابتعاد عن النَفَس الطائفي أو العرقي والتمتع بقدر من الحيادية، بل على العكس من ذلك فربما نجد بعضها يدعو إلى نبذ

الطائفية والتأكيد على اللحمة الوطنية، وأن ما يتعرض له الشعب العراقي من مآس أصابت الجميع ولم تفرق بين سني وشيعي وبين عربي أو كردي.

كما نجحت تلك الأفلام في نقل صورة حقيقية عن المقاومة العراقية، حيث نفت عنها صفة الإرهاب التي تحاول الآلة الإعلامية الأمريكية إلصاقها بشكل أو بآخر بها، كذلك استطاعت أن تنبه العالم إلى خطورة ما يتعرض له العراق من إبادة للإنسان والحضارة ونبهت الرأي العام لضرورة مد يد العون والمساعدة لأكثر من أربعة ملايين عراقي تركوا منازلهم وأصبحوا لاجئين هنا وهناك يتخطفهم الفقر من كل مكان.

لكن مع ذلك كله يبقى هناك بعض الملاحظات التي تؤخذ على الأفلام العراقية في هذه الفترة، والتي لا تنتقص منها بقدر ما تعد ملاحظات تقويمية للارتقاء بمستوى هذه الأفلام؛ لتكون بمستوى المنافسة مع الأفلام العالمية وتوصل رسالتها بشكل أفضل، ومن تلك الملاحظات أن الإنتاج لا يزال فردياً.. صحيح أن هذا يعد انجازاً كونه من قبل أفراد حاولوا تقديم خدمة لبلدهم من خلال نقل حقيقة ما يتعرض له شعبهم بكل جرأة وموضوعية، ولكن يبقى الإنتاج الفردي له سلبياته التي لا ترقى إلى الإنتاج المؤسسي.

لذلك لابد من العمل على تشجيع الإنتاج المؤسسي للأفلام التسجيلية بهذا الشأن، ومحاولة البحث الجاد عن مؤسسات وشركات كبرى لرعاية تلك الأفلام، والعمل على تسويقها بشكل مدروس حسب متطلبات سوق الإنتاج العالمي.

دور المقاومة العراقية في بلورة نظام عالمي جديد

علي حسين باكير / باحث في العلاقات الدولية والشؤون الاستراتيجية

قد ينظر البعض إلى الموضوع على أنّه نوع من "الفانتازيا" أو الخيال؛ إذ كيف يمكن لمقاومة صغيرة مقارنة بما تملكه الدول العظمى من مقومات سياسية واقتصادية وعسكرية، أن تؤثّر في إعادة تشكيل النظام العالمي، في الوقت الذي لم تستطع فيه أن تغيّر نظاماً سياسياً مركّباً من الخارج، أو أن تستلم السلطة في بلدها بعد مقاومة الاحتلال الغاشم.

سؤال مشروع، وقد يصح في المعطيات إذا ما نظر إليه وفق الصيغة والمقاربة الموجودة أعلاه، لكننا إذا وسّعنا أفق النظر إليه، والى سبل ووسائل تأثيره على النظام العالمي من بوابة مواجهة الولايات المتّحدة في العراق وإغراقها في مستنقعه؛ فإننا سنصل حتماً إلى نتائج مغايرة تماماً للمقاربة المبسّطة وغير التفصيلية السابقة، دون أن ننفي تأثير عوامل وأحداث أخرى على إعادة تشكيل النظام العالمي، وموقع الولايات المتّحدة فيه وأبرزها هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١م، والمقاومة الأفغانية أيضاً.

ويظهر تأثير المقاومة العراقية بالمجمل على إعادة تشكيل النظام العالمي من خلال المواجهة مع الولايات المتّحدة الأمريكية، وذلك من عدّة بوّابات أهمها البوّابة الاقتصادية، والبوابة العسكرية.

أولاً: من الناحية الاقتصادية

استطاعت المقاومة العراقية استنزاف الولايات المتّحدة بشكل ضخم، أدى فيما أدى إليه كما رأينا بطريقة غير مباشرة إلى دخولها في أزمة مالية، انتقلت عدواها إلى النظام المالي العالمي، وسرعان ما تحولت إلى أزمة اقتصادية أطاحت بمركز الولايات المتّحدة، كأكبر قوّة اقتصادية ومالية في العالم، وفتحت الباب واسعاً أمام دخول قوى عالمية أخرى من بوابة الاقتصاد والمال.

كانت التوقعات الأولية فيما يتعلق بالتكلفة المالية للحرب على العراق متواضعة جداً بالنسبة للإنفاق الحاصل، إذ أشار المستشار الاقتصادي لإدارة بوش إلى أن النفقات المخصصة للحرب قد تتراوح بين (١٠٠) مليار دولار و(٢٠٠) مليار دولار، وطبعاً عدّ هذا الرقم كبيراً جداً في حينه مقارنة مع ما قدّره هيتش دانييل، مدير مكتب الإدارة والميزانية آنذاك من أنّ الحرب ستكلّف (٦٠) مليار دولار فقط!!.

ولما وقع العدوان فعلاً ومع مرور الوقت تبيّن أنّ حجم الإنفاق العسكري المطلوب لصد المقاومة العراقية وإخضاع العراق كبير جداً، وقد شكّل ذلك استنزافاً للقدرات المالية الأمريكية، وقام "جوزيف ستيغليتز" من جامعة كولومبيا ومسؤول سابق في البنك الدولي والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد بالتعاون مع البروفيسور "ليندا بيلمس" من جامعة هارفرد والخبيرة بمواضيع الميزانية بوضع دراسة بعنوان: "التكاليف الاقتصادية لحرب

العراق"، تقع في (٣٦) صفحة ومنشورة على موقع جامعة هارفرد، تقول "إنّ التكلفة الحقيقية للحرب على العراق تتراوح بين (٧٥٠) مليار دولار و(١,٢) تريليون دولار (للعام ٢٠٠٦) وحوالي أكثر من (٢) تريليـون دولار للعـام ٢٠٠٨".

وتوالت بعدها التقديرات الحقيقية للنزيف المالي الأمريكي، ففي الإطار نفسه، قام مركز "التقدّم الأمريكي"، بنشر تقرير في ٦ شباط ٢٠٠٧م بعنوان: "فرص ضائعة: إنفاق بوش الدفاعي في غير محلّه"، جاء فيه "أنّ الحرب على العراق أمست خطأً استراتيجياً بتريليون دولار دون أفق واضـح لإنهـاء الوضـع"، واستناداً إلى الدراسة؛ فإنّ الإنفاق فـي العـراق يـساوي ضـعف التمويـل المخصص للأمن القومي والدبلوماسية والمساعدات الدولية مجتمعة.

ثمّ عاد "جوزف ستيغليتز"، ليؤكد في مراجعة لـه أنّ النفقـات الجاريـة للحرب في العراق وأفغانستان تكلّف الولايـات المتّحـدة (١٦) مليـار دولار شهرياً وأنّ الكلفة الإجمالية للحرب على العراق ستبلغ قرابة الـ ٣ تريليونات دولار.

ولا شك أنّ هذا رقم كبير جداً وضخم في كل المقاييس، ويكفي أن نعلـم أنّه يشكّل حوالي ثلث الدين الفيدرالي الأمريكي التأريخي منـذ بـدء تراكمـه وحتى اليوم، أو حوالي (٢٠%) من الناتج المحلي الأجمالي للبلاد دفعة واحدة، حتى نفهم دور المقاومة العراقية في استنزاف الولايات المتّحـدة ماليـاً إلـى درجة إفلاسها، وفسح المجال أمام قوى مالية عالمية أخرى وإعـادة تـشكيل وتنظيم نظام مالي عالمي جديد، والمفارقة في هذا الإطار أنّ تقريراً اقتصادياً أمريكياً نشر مؤخراً في موقع (سي أن أن) العربي، يشير الى أن مجموع مع رصدته الولايات المتّحدة لخططها الإنقاذية وتـدخلاتها لمعالجـة الاخـتلال الحاصل في اقتصادها إثر الأزمة المالية العالمية يبلغ (٣) تريليونات دولار!.

ثانياً: من الناحية العسكرية

ومما لا شكّ فيه أنّ المقاومة العراقية استنزفت الجهد العسكري الأمريكي إلى أقصى حد مسبّبة اختلالاً في ميزان القوى العالمي، بشكل دفع النفوذ العسكري الأمريكي المباشر في مناطق متعددة من العالم من أن يفقد فعاليته وقدرته الردعيّة أو الهجومية، ومعطّلاً إيّاه ودافعاً باتجاه الشلل الكامل، ولنا على هذا الكلام أمثلة عديدة ليس أقلّها عدم قدرة الولايات المتّحدة على التدخّل في الحرب الروسية–الجورجية، ولا في منع إيران من مواصلة تمدّدها في دول الجوار، ولا حتى في منعها من مواصلة برنامجها النووي، ولا في حسم المعركة في أفغانستان، ولا في إجبار كوريا الشمالية عن التخلي على نزعتها العسكرية، والأمثلة عديدة وكبيرة، وكلها نتيجة للغرق الأمريكي في العراق على يد المقاومة العراقية.

فعلى الرغم من أنّ الحصول على معلومات دقيقة بخصوص الخسائر الأمريكية المباشرة في الشق العسكري، فيما يتعلق بعدد الآليات والدبابات والطائرات القتالية والمروحيات والمدرعات والعربات التي تمّ تدميرها، أو إعطابها يعدّ صعباً للغاية، في ظل التعتيم الرسمي الكامل والذي لا يوفّر حتى أرقاماً رسمية لهذا الموضوع، كما يفعل بالنسبة للقتلى من الجنود، إلا أنّ التقدير يعدّ سهلاً من خلال النتيجة الرديئة التي وصل الجيش الأمريكي إليها على الصعيد العالمي، ووقوفه مكتوف الأيدي أمام التحديات التي استجدت عليه، كما كان لجهود المقاومة تأثير على تلف وتآكل المعدات الأمريكية، وقد اعترف في العام (٢٠٠٥م) مسؤول أمريكي كبير في الجيش في تقرير لدايفيد آيزينبيرج بعنوان "تكاليف الحروب الأمريكية تستمر بالارتفاع" من "أنّه إذا انتهت الحرب الآن (أي في العام ٢٠٠٥م) وتمّت إعادة المعدات والآليات إلى الوطن، فإنها ستكون بحاجة إلى (١٢,٨) مليار دولار لإعادة تجهيزها

وإصلاح وصيانة ما قد تمّ إتلافه في العراق، فمعظم المعدات العسكرية تعرّضت للتلف والتآكل نتيجة الاستعمال الدائم والمستمر والقاسي ونتيجة لهجمات "المتمردين" المستمرة".

فضلاً عن الخسائر المباشرة، ذكر تقرير للجيش الأمريكي أنّ كلفة استبدال تجهيزاته المستنفذة في العراق قد تضاعفت ثلاث مرات في العام (٢٠٠٦م) عما كانت عليه في العام (٢٠٠٥م)، وأنّ هناك "حتى كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦م" حوالي (٥٠٠) دبابة (M1)، و(٧٠٠) آلية قتالية طراز (Bradley)، و(١٠٠٠) عربة (Humvees) تحتاج إلى عملية إصلاح وتنتظر دورها، ولكم أن تتصوروا ماذا سيصبح عليه هذا الرقم في العام (٢٠٠٩م).

واستناداً الى معلومات رسمية نقلتها "الواشنطن بوست"، فإنه و بدءاً من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦م، صرّح الجيش الأمريكي أنّ حوالي(٤٠%) من معدّاته الكليّة قد تمّ إرسالها إلى العراق وأنّ الكلفة التقريبية السنوية لتجديدها تبلغ حوالي (١٧) مليار دولار علماً أنّ هذه الكلفة قد تضاعفت عشر مرات عمّا كانت عليه قبل الحرب.

وقد تجاوزت جميع المعدّات الأمريكية في العراق من دبابات وآليات قتالية ومدرعات ومروحيات قتالية صلاحيتها الميدانية نتيجة لاستنزافها، وهي بحاجة سريعة وماسة إلى الإصلاح والصيانة، فعلى سبيل المثال تسير دبابة (M1 Abrams) حوالي (٨٠٠) ميل في السنة العادية، أمّا تلك الموجودة في العراق فإنها تسير حوالي (٥٠٠٠) ميل، وهذا يعني تحميلها ستة أضعاف طاقتها الاعتيادية، كذلك الأمر بالنسبة لباقي الآليات والعربات القتالية والمدرعات، والطائرات القتالية الهليكوبتر التي يتم تحميلها في العراق ما بين ضعفين إلى خمسة أضعاف طاقتها الاعتيادية.

باختصار، لقد فتحت المقاومة العراقية الباب واسعاً أمام تغيير معادلة النظام العالمي القائمة على القطب الأوحد أو الـ (Super Power) المتمثلة في الولايات المتّحدة، ويبدو أنّ المعطيات الاقتصادية والمالية والعسكرية وحتى السياسية توحي بأنّ النظام الدولي قد دخل بالفعل حيّز التغيير.

الاحتلال والمقاومة بعد ست سنوات حسابات الهزيمة.. حسابات النصر

د. رافع الفلاحي / باحث إعلامي ومحلل سياسي

بعد ست سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق، لم يعد وصف (الكارثة) محل خلاف بعد أن سلّم الجميع (سواء من مؤيدي الحرب أو خصومها) بأنها كارثة، ولا عذر لأحد في أن لا يرى الأمور كما هي ويسمي الأشياء بأسمائها التي بينت حقيقة الحرب ضد العراق واحتلاله منذ عام (٢٠٠٣م) وحتى الآن، كونها خروجاً على الشرعية الدولية والإنسانية، وليس لها علاقة بمصطلحات التحرير والديمقراطية والحرب على الإرهاب، التي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية شعارات أرادت من خلالها تضليل العالم، وتصوير الحرب على العراق واحتلاله وما وصل إليه، خلافاً للواقع وللكارثة التي حلت بالعراقيين، والتي لا يمكن تصور أبعادها المادية والإنسانية، حتى بات ادعاء الولايات المتحدة بأن ما فعلته بالعراق هو محاولة لمساعدة العراقيين في بناء بلدهم من جديد، مجرد نكتة تكشف جهل أو استهتار الولايات المتحدة بقدرة الشعوب على الفهم والرؤية الصحيحتين، وإدراك كذب السياسة الأمريكية، وزور الشعارات القانونية والإنسانية التي تتشدق بها.

ونحن اليوم على أعتاب السنة السابعة من عمر الاحتلال البغيض الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة بفعل مقاومة العراقيين وضرباتهم وقدراتهم المتنامية على الصمود والإبداع، ولا ندري كيف سيتعامل المؤرخون في المستقبل مع الكم الهائل من الكذب والتشويه والتلفيق الذي رافق غزو العراق واحتلاله وتدميره وسرقته سواءً في مرحلة الإعداد أو التنفيذ؟... كيف سيتعاملون مع التعتيم والتورية الإعلامية والسياسية والمعلوماتية بعد انزلاق الولايات المتحدة إلى المستنقع العراقي، فالرئيس السابق لأقوى دولة في العالم (جورج دبليو بوش) سجلت عليه لوحده أكثرمن (٩٣٥) كذبة، بينها (٢٣٧) كذبة سجلها عليه أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، كانت غايتها تبرير الحرب ضد العراق واحتلاله وتأمين المباركة من قبل الشعب الأمريكي والتقبل الشعبي والرسمي لاستمرار احتلال العراق، وتبني كل الأسباب الواهية التي ساقتها الإدارة الأمريكية آنذاك؛ لتبرير الحرب والاحتلال، وفي مقدمتها التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي لم يكن لها وجود، ومكافحة الإرهاب الذي ظهر في العراق بعد الاحتلال الأمريكي، فضلاً عن تحقيق الديمقراطية والحرية للعراق، والتي قضى بسببها أكثر من مليون عراقي عدا ملايين العراقيين الذين هاجروا وهجروا من ديارهم احتفاءً بهذه الحرية الرائعة وهذه الديمقراطية الزاهية.

وبرغم الكارثة التي ألحقوها بالعراق وبأنفسهم، إلا أن أركان النظام الأمريكي وطوال السنوات الست الماضية تمسكوا بإصرارهم على حرف الحقائق، وتشويه الوقائع، وإخفاء الرقم الحقيقي لأعداد قتلاهم وجرحاهم، وعزل المصابين بالجنون واللوثة العقلية والاضطرابات النفسية الذين ضاقت بهم المستشفيات والمصحات الخاصة داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها، أما الهروب من صفوف أقوى وأعظم جيش في العالم وعدم

الاستجابة لدعوات التجنيد، فقد باتت أكثر من حالات تخلف المطلوبين للخدمة العسكرية والجنود الحفاة الهاربين من بعض جيوش العالم الثالث (وفقاً للتصنيفات الغربية والأمريكية للدول والشعوب)، فضلاً عن حالات الانتحار داخل الجيش الذي لا يقهر التي يكفي الإشارة إليها من خلال (٢١) حالة إنتحار حصلت في صفوف الجيش الأمريكي خلال عام (٢٠٠٨م) فقط.

وإذا كان فشل خطط الاحتلال السابقة، هو المبرر المنطقي لحاجة المحتلين لخطط جديدة، فإن الاعتراف المباشر بهذا الفشل هو آخر ما يمكن توقعه حتى مع رئيس جديد وإدارة أميركية جديدة لم تكن لتفوز بالانتخابات الأمريكية الأخيرة إلا باستعمال ورقة فشل الإدارة السابقة (إدارة جورج دبليو بوش) في حربها واحتلالها للعراق، ولم تحصد أصوات الناخبين إلا من خلال الوعود بالانسحاب من العراق، وتقليص الميزانية العسكرية، وتوجيه الموارد والأموال لمعالجة المشاكل والأزمات الكبيرة، التي تعصف بالمجتمع الأمريكي... لكن السؤال المهم الذي سنحاول الإجابة عليه في هذه الدراسة بعد ستة أعوام من الاحتلال الأمريكي للعراق هو: ما هي حسابات الهزيمة والنصر من خلال قراءة بعض وقائع الاحتلال، وما جاء في خطة الرئيس الأمريكي الجديد (باراك أوباما) بشأن العراق والتي يراها البعض انسحاباً، ويراها البعض الآخر هزيمة؟.

الحصاد المرّ

عندما وضع الرئيس الأمريكي السابق (جورج دبليو بوش) قرار الحرب ضد العراق واحتلاله موضع التنفيذ في (آذار/ مارس عام ٢٠٠٣م)، لم يكن يتوقع أن العراق سيكون بعد الاحتلال الكابوس الذي سيؤرق الولايات المتحدة ويدفع بها إلى الانكسار مع تصاعد مقاومة العراقيين، واستنزاف الولايات

المتحدة عسكرياً وبشرياً واقتصادياً، كخسائر فادحة تعبر عن جانب منها التكاليف الاقتصادية التي وردت في الدراسة المشتركة التي أجراها الدكتور (جوزيف ستيغليتز) والبروفيسورة (لندا بليمس) تحت عنوان: (التكاليف الاقتصادية لحرب العراق) والتي أكدت أن التكلفة الحقيقية للحرب تتراوح بين (٧٥٠) مليار دولار و(١,٢) تريليون دولار (لعام ٢٠٠٦م) وحوالي أكثر من تريليوني دولار إذا بقي الاحتلال لعام (٢٠٠٨م) وما بعده، إستناداً للمعيار المعتمد، والحسابات الحذرة والمعتدلة والمتحفظة.[1]

ولم يكن الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) وإدارته بحاجة إلى زمن طويل لإدراك أن ما عدوه نزهة قد صار كابوساً وفاجعة أميركية، فقد انقلبت بشارة النصر التي زفها الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) للشعب الأمريكي في (الأول من آيار/ مايوعام ٢٠٠٣م)، إلى واحدة من أكبر الأكاذيب، التي فضحها المأزق الأمريكي الكبير في العراق، والذي تحول إلى معضلة لا حل لها، تستنفد الكثير من الأموال والدماء الأمريكية، فضلاً عن الخسائر السياسية والأخلاقية الهائلة، التي أكلت وتأكل من جرف القوة الأمريكية، لصالح كل القوى التي تطمح بإزاحة الولايات المتحدة الأمريكية عن سدة الزعامة العالمية.

إن السنوات الست الماضية من عمر الاحتلال الأمريكي للعراق، كانت حافلة بالكثير من الخطط الاستراتيجية والتكتيكية الأمريكية لمواجهة المأزق العراقي، إلا أن نتاج عقول القادة العسكريين الأمريكيين ومستشاري (بوش)

---

[1] العراق والتراجع الاميركي، علي باكير، بحث منشور، مجلة البيان (التقرير الاستراتيجي) الواقع الدولي ومستقبل الامة، الإصدار الخامس، ٢٠٠٨م، ص ١٩٥، ولمزيد من المعلومات: جوزيف ستكليتس ولندا بيلمز، الكلفة الحقيقية لحر ب العراق، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٩م.

الأمنيين والاقتصاديين والسياسيين في صياغة كل الخطط، كانت بلا جدوى في مواجهة مستنقع كان يتسع ويزداد عمقاً بفعل المقاومة العراقية.

وهي نتيجة استشعرتها الأطراف التي ساندت الاحتلال، وحاولت بكل الوسائل أن تمنحه الشرعية، حيث لم تمضِ سوى شهور معدودات على بداية الاحتلال حتى بدأت تلك الأطراف تشعر بالقلق الشديد من عدم مقدرة المشروع الاحتلالي من تقديم أدلة على حركته باتجاه الأهداف والغنائم التي قالت الولايات المتحدة إنها ستتحقق حتماً بمجرد احتلال العراق، الأمر الذي جعل التحالف الذي أقامته الولايات المتحدة في حربها واحتلالها للعراق يتعرض لتصدعات وضربات عدة، كان أبرزها إعلان إسبانيا وإيطاليا الحليفين الأهم للولايات المتحدة بعد بريطانيا سحب قواتهما من العراق، عقب تغيير النظم السياسية الحاكمة فيها، بفعل تداعيات هذه الحرب، كما أن بريطانيا نفسها (التي تعتبر أكبر حلفاء أمريكا في الحرب ضد العراق واحتلاله) قد اضطرت إلى العودة إلى دفاترها الاستعمارية القديمة يوم كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وتفتش فيها عن تأريخها الاستعماري القديم في العراق، وتستخلص منه الحكمة بتقليص قواتها، والتمهيد للانسحاب من العراق قبل أن تضطر للهرب، مثلما حصل لها إبان احتلالها الأول للعراق في بدايات القرن الماضي؛ لذلك عملت على تخفيض قواتها من (٤٦٠٠٠) ستة وأربعين ألف مقاتل في عام (٢٠٠٣م) إلى نحو (٤٠٠٠) أربعة آلاف مقاتل اليوم، سيتم سحبهم جميعاً من العراق بحلول شهر حزيران/ مايو (٢٠٠٩م)، هذا فضلاً عن كون باقي الحلفاء من الدول، التي ساقتها الولايات المتحدة للمشاركة في الحرب ضد العراق واحتلاله، كجزء من عملية التضليل التي مارستها (واشنطن) لإضفاء الشرعية على فعل غير شرعي بكل المقاييس، قد وجدت فرصتها في اتخاذ قراراتها بالانسحاب من

العراق، بعد أن أدركت حجم الكارثة الأمريكية، الأمر الذي جعل التحالف ينفرط خاصةً بعد أن استطاعت المقاومة العراقية بفعلها الجهادي أن تفتح الباب واسعة أمام كل شعوب الأرض ودولها، لكي ترى الولايات المتحدة على حقيقتها ولتجعلها تدرك بالملموس أن مفهوم القوة هو مفهوم نسبي[1].

أما حصاد العراقيين المر ومحنتهم الكبيرة نتيجة الاحتلال، فقد تجاوز كل التوقعات من حيث حجم التضحيات وعمق التأثير والانتشار، فقد بلغ عدد القتلى حسب مجلة (لانسيت) البريطانية نحو (٦٥٥) ألف عراقي، وحسب منظمات عراقية غير حكومية، وفصائل المقاومة تجاوز العدد (مليون) و(٢٠٠) ألف عراقي.

أما عدد المهجرين داخل العراق وخارجه وفقاً لبيانات وزارة الهجرة العراقية وبعثة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئيين أربعة ملايين، وحسب تقديرات العديد من المنظمات والهيئات العراقيية سبعة ملايين (ثلاثة ملايين داخل العراق وأربعة ملايين خارجه) فيما بلغت نسبة البطالة أكثر من (٦٠%)، وتبعاً لذلك ارتفعت نسبة العراقيين (تحت خط الفقر) إلى أكثر من (٥٠%) من عموم المجتمع العراقي، والنسبة قابلة للزيادة بشكل سريع في ظل اتساع البطالة، وإرتفاع مستوى أسعار السلع الأساسية، وانتشار الأزمات في كل القطاعات دون استثناء، وتفشي ظاهرة الطبقات الطفيلية والمستفيدة، التي تعمل على استغلال حاجة العراقيين إلى أي سلعة أو أي خدمات للمتاجرة فيها، من دون وجود جهة رقابية وجهات رادعة، بخاصة في ظل أزمات الوقود، والكهرباء، والمياه، والخدمات الطبية والأدوية، والأجهزة والمعدات

---

[1] التداعيات المستقبلية لاحتلال العراق، محمد احمد النابلسي، بحث منشور، المركز العربي للدراسات المستقبلية، تموز ٢٠٠٦م.

الطبية، والمواصلات، فضلاً عن الفساد ونهب الأموال العامة التـي جعلـت منظمة الشفافية الدولية تضع العراق على رأس قائمة البلدان الأكثر فساداً في العالم بعد الصومال ومابنمار[1]، فضلاً عن تقارير لمنظمـات دوليـة أخـرى عدّت العراق على رأس قائمة الدول الأكثر خطراً، والأكثر انتهاكـاً لحقـوق الإنسان، والأكثر طرداً لمواطنيه[2]، وأكثر البلدان استهدافاً للعلماء وأصـحاب العقول والكفاءات والخبرات، ويكفي أن نشير هنا إلـى أن جميـع الأسـاتذة الجامعيين صاروا بعد الاحتلال أهدافاً للترهيب، والتهديد، والخطف والقتـل، حيث بلغ عدد الذين تم قتلهم وفقاً لتقديرات وإحـصاءات موثقـة أكثـر مـن (٣٧٢) عالماً وأستاذا جامعياً[3].

إن كل هذه التقارير والوقائع التي شهدها العراقيـون تؤكـد أن المحتلـين وحكومات الاحتلال المتعاقبة وأحزاب وقوى وشخصيات العمليـة الـسياسية ومنذ عام (٢٠٠٣م) وحتى الآن، انغمسوا في مخطط تدمير ونهـب العـراق وهم غير معنيين بحل مشاكل العراقيين، وتخليصهم من معانـاتهم اليوميـة، حتى وإن ادعى هؤلاء عكس ذلك، ورفعوا الشعارات ونشروا الملصقات فـي كل مكان، وهي تشير إلى وعود بتلبية مطالب العـراقيين، والحـرص علـى إنهاء معاناتهم، كما فعلوا في انتخابات مجالس المحافظات التي جـرت فـي (٣١ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م)[4]، التي أشّـرت عـزوف العـراقيين عـن المشاركة في الانتخابات؛ لعدم ثقتهم بكل الشخـصيات، والقـوى والأحـزاب

---

[1] موقع أخبار العراق الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٢٠م .

[2] الاحتلال في عامه الرابع – الهزيمة أو الرضوخ لمطالب المقاومة، محسن خليل، مقال منشور، موقـع أخبار العراق الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٧/٣/١٨م.

[3] اغتيال الكفاءات العراقية، حسين الرشيد، مجلة حضارة، مركز الأمة للدراسات والتطوير، العدد الأول، كانون الثاني – ٢٠٠٩م، ص١٩١-٢١٩ .

[4] صحيفة العراق الإلكترونية، المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية، العدد ٨٢٧ ، بتاريخ ٢٠٠٨/٢/١م.

العاملة على الساحة العراقية، وإدراكهم أنها صنيعة الاحتلال ومسؤولة معه بشكل مباشر عن كل المشاكل والمعاناة التي واجهتهم منذ الاحتلال وحتى اليوم[1]، وهم يفعلون ذلك بدوافع سياسية تهدف إلى جعل حياة العراقيين جحيماً لا يطاق، كنوع من العقاب الجماعي للعراقيين؛ لدعمهم المقاومة وتأمين الحاضنة لهم ووقوفهم ضد الاحتلال، وللضغط أكثر على العراقيين في الداخل لإجبار أعداد كبيرة أخرى منهم للهجرة، وبما يفرغ العراق من أهله، ويقلص الحاضنة الشعبية للمقاومة، من خلال استهداف العراقيين بعمليات القتل والترهيب والاعتقالات والمداهمات، وانتهاك كل الأعراف والقوانين والقيم التي تربى عليها شعب العراق، فضلاً عن مصادرة الحريات وقمع الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى، حتى لا تبقى على الساحة غير الأجهزة الإعلامية الموالية لهم والمؤيدة للاحتلال؛ حيث تشير المصادر المختلفة إلى أن قوات الاحتلال وقوات حكومات الاحتلال المساندة لها، قتلت (٢٦٧) صحفياً وإعلامياً بينهم (٢٤) إعلامياً من غير العراقيين منذ بداية الاحتلال وحتى شهر (كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨م)، ليس لكونهم في صفوف المقاومة؛ بل لأنهم حاولوا نقل صور من جرائم الاحتلال وفضائحه بحق العراقيين[2].

العديد من التقارير والدراسات والبحوث تناولت الوضع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي، وحددت جملة نقاط يمكن من خلالها معرفة ما يحصل في العراق وأسبابه، ومن بينها دراسة أستاذ الاجتماع الأمريكي (مايكل شوارتز) مدير كلية الدراسات العالمية بجامعة (ستوني بروك) التي أعدها عام

---

[1] المصدر نفسه .

[2] جريدة الاسبوع الأدبي الإلكترونية، العدد ١٠٨٧ ، بتاريخ ٢٠٠٨/١/١٩م.

(٢٠٠٦م)[1]، والتي حاول من خلالها الإجابة على سؤال مفاده: كيف نفهم ما يحدث في العراق؟.

حيث يقول: إنَّ هناك سبع حقائق تحاول الولايات المتحدة الأمريكية إخفاءها والتي يمكن أن نفهم على ضوئها الواقع العراقي بعد الاحتلال ونتوقع على أساسها المستقبل، ويمكن تلخيص هذه الأسرار السبعة على النحو الآتي:

(١) الاحتلال الأمريكي هو السبب الرئيسي لتزايد العنف في العراق.

(٢) أمريكا هي التي أنشأت فرق الموت وأطلقت يد الميليشيات وموّلتها ودفعت بها؛ لاستهداف المقاومة والعقول والكفاءات العراقية وإشاعة الطائفية.

(٣) الحكومة العراقية ليس لها وجود خارج المنطقة الخضراء، وقوات الاحتلال (الأمريكية وغيرها) لا تستطيع أن تتحرك في معظم أنحاء العراق.

(٤) حركة المقاومة تنمو في العراق ولا تقتصر على (المناطق السنية) كما تدعي أمريكا وأجهزة استخباراتها والمتعاونون معها، بل تشمل كل أجزاء العراق.

(٥) الجيش الأمريكي والقوات التابعة للحكومة العراقية يتولون قتل واعتقال المدنيين، واستهداف المدن والقرى، وتعميم الرعب في محاولة لمنع العراقيين من مساندة المقاومة.

(٦) إن محاولات استهداف رموز الحكومة وقواتها الأمنية سببه مساندتهم للاحتلال، وليس لأسباب خاصة أو لأسباب دينية وطائفية وعرقية.

(٧) كل الأطراف في العراق تواجه احتمالات غير محسوبة، أهمها إمكانية تقسيم العراق، بتداعيات الاحتلال والوضع الراهن، أو بلجوء أمريكا إلى ذلك كجزء من خارطة الخروج من العراق.

---

[1] ماذا يحدث في العراق، سليمان صالح، دراسة منشورة، صحيفة الشرق القطرية، ٢٠٠٦/٩/٩م.

الجناة والضحايا

لم تقتصر كارثة الاحتلال على فئة معينة من العراقيين دون أخرى، فقد تعرض كل شعب العراق إلى ما يشبه الزلزال بدرجة (٩,٩)على مقياس ريختر، الذي لم يبق أي عراقي من دون أن يكون له قريب قتيل، أو معوق، أو مفقود، أو خلف قضبان السجون، أو مهجر، أو لاجئ في دول الشتات، وهي بلا شك معطيات رسمت أمام العالم (صورة كارثية) للعراق بكل ما يحمل المصطلح من مضامين وتداعيات واستخلاصات إجرامية لم يشهدها التأريخ من قبل؛ إذ أن ممارسات المحتلين في العراق لم تترك مجالاً من مجالات الحياة العراقية إلا وألحقت به ضرراً هائلاً، فلم تترك أسرة عراقية إلا ونكلت بأفراد منها، قتلاً، واعتقالاً، وتعذيباً؛ فالجريمة تحولت في العراق على أيدي المحتلين وأعوانهم إلى تطبيقات إرهابية دموية تدميرية مروعة ضد كل مكونات الوطن العراقي دون استثناء، ولعل عدّ المرأة العراقية أكبر ضحية من بين فئات الشعب العراقي، له دلالاته الواضحة في تعميم الأذى على كل المجتمع العراقي، ويكفي أن دراسات عديدة تشير بوضوح إلى أن الأرامل اللواتي تركن دون معيل منذ الاحتلال الأمريكي للعراق عام (٢٠٠٣م)، يصل إلى مليون امرأة، يفتقرن لسبل إعالة أنفسهن وأولادهن، مما يتركن ضحية للاضطهاد والفقر والاستغلال البشع[1]، وتشير الكاتبة العراقية هيفاء زنكنة في كتابها (مدينة الأرامل.. المرأة العراقية في مسيرة التحرير) إلى أنَّ أكثر من تسعين امرأة تترمل يومياً نتيجة استمرار العنف في جميع أنحاء العراق.. وإن الأعداد في ازدياد كل يوم بسبب استمرار اختفاء الرجال، وترك العائلات بلا معيل، وليس في حيازة الأرامل سوى النزر اليسير من

---

[1] صحيفة الحياة، حديث لوزيرة شؤون المرأة في العراق، لندن، بتاريخ ٢٠٠٨/٢/١

الموارد[1]، وبالتأكيد ليس هناك من يفكر في الولايات المتحدة بمحاسبة من اتخذوا قرار الحرب ضد العراق واحتلاله، حتى بعد اعتراف الرئيس الأمريكي الثالث والأربعين للولايات المتحدة (جورج دبليو بوش) الذي قاد الحرب ضد العراق واحتلته جيوش أمريكا والمتحالفين في الشر معها عام (٢٠٠٣م) بقرار منه، بأن قراره هذا كان مبنياً على أساس معلومات مغلوطة، كما ليس هناك من يجرؤ في المجتمع الغربي الذي يدعي حرصه على حقوق الإنسان والشرعية الدولية، أن يسعى إلى تجريم الذين ارتكبوا كل هذه الكارثة المترامية الأطراف بحق بلد وشعب آمن، وعمدوا فيه قتلاً وتدميراً وخراباً، واستباحوا حياته وكرامته بشكل همجي، حتى حولوا أيام كل العراقيين إلى محنة كبيرة وهمّ لا خلاص منه.

إن عدم شعور المجرمين بانهم قد ارتكبوا ما يشين وما يستحقون عليه العقاب ينبع من اعتقاد مشترك (كما يقول الكاتب الأمريكي نعوم تشومسكي) عند كل الأمريكيين وفي الغرب بأنهم يمتلكون العالم، وعلى الجميع أن يقبل بهذا الاعتقاد، ومن هذا المنطلق يخلص تشومسكي إلى أن الولايات المتحدة تتحدث عن (المقاتلين الأجانب) بالعراق وتقصد بهم بعض العرب، ولكنها لا تقصد الأمريكيين طبعاً؛ لأنّ الأمريكيين ليسوا أجانب بالعراق، فقد احتلوا العراق وأصبح ملكهم[2]، وفضلاً عن ذلك أن الولايات المتحدة تحاول دائماً وفقاً لسياسة (الأقنعة) التي تلبسها لسياساتها أن تربط بين التهديد الذي يشكل خطراً على الأمن القومي الأمريكي (كما تفترض) وبين الأمن العالمي، واستناداً لذلك، فهي تشعر بأنها تقوم بمهمة تأريخية وأخلاقية في احتلالها

---

(1) مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير، هيفاء زنكنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص١٢٠

(2) مقابلة معنعوم تشومسكي ، مجلة (Foreign Policy in Focus)، ٢٠٠٨/١/٢٣

للعراق كجزء من محاولاتها لمواجهة معسكر الشر والظلم، الذي يهدد وجودها والوجود الإنساني بمجمله؛ لذلك فإن الرئيس الأمريكي السابق (جورج دبليو بوش) طالما أكد في خطاباته طوال السنوات الست الماضية على أنه يقوم بهذه المهمة الأخلاقية بإرادة من الرب وبإيعاز منه، وهو ما يجعل الحرب على العراق (وفقاً لرؤيته هذه) ليست خطأً وإن أسباب تدهور الأوضاع يعود في جزءٍ أساسي منه إلى العراقيين، الذين لا يعرفون كيف يتعاملون مع واقعهم المزدهر الجديد فيرتكبون الأخطاء، أو نتيجة إساءة التصرف لمرحلة ما بعد الحرب، وإنَّ انسحاب القوات الأمريكية من العراق سيؤدي إلى نهاية مفجعة، لهذا سيظل العراق بحاجة إلى وجود قوات وقواعد عسكرية أمريكية على أراضيه لسنوات طويلة قادمة، ومن هذا التبرير الزائف خرجت (الاتفاقية الأمنية) التي هي جزء من إطار استراتيجي يحكم بإرادة أمريكية حياة العراقيين بكل تفاصيلها ويؤبد على بلدهم الاحتلال.

ومن مفارقات السياسة الأمريكية بعد رحيل إدارة الرئيس (جورج دبليو بوش) ومجيء إدارة (باراك أوباما)، التصريحات التي تتحدث عن الانسحاب ضمن خطة تنتهي في نهاية عام (٢٠١١م) (كما سبق للاتفاقية الأمنية أن أشارت إليه) في الوقت الذي يرفض فيه القادة العسكريون الأمريكيون هذه التوقيتات ويصفونها بغير الواقعية؛ لأن الوجود الأمريكي في العراق لا يمكن أن ينحصر في إطار جداول زمنية، كون المصلحة الأمريكية هي التي تحدد نوع السياسة وليس العكس، ووفقاً للعديد من السياسيين والاقتصاديين ومن شاركوا في التخطيط للحرب ضد العراق واحتلاله، فإنَّ الانسحاب من العراق يعتمد على تحقيق الأهداف التي من أجلها تم احتلاله، وطالما لم تتحق هذه الأهداف، فإن الحديث عن الانسحاب يظل مجرد حديث تتلخص قيمته في جعل الناخبين الأمريكيين الذين أدلوا بأصواتهم لصالح التغيير، وأملاً في

الانسحاب من العراق يطمئنون حالياً إلى أنهم وضعوا أصواتهم في المكان الصحيح، ثم ستتولى الإدارة الأمريكية فيما بعد إيجاد المبررات والأعذار للتنصل من وعودها بدعاوى درء الخطر عن الأمن القومي الأمريكي[١]، لكن كل ذلك سيصطدم بالتأكيد بمعطيات واقعية تجعل قضية التراجع عن وعد الانسحاب من العراق أشبه بمحاولات إطفاء الحريق بالوقود بدلاً عن الماء.

الفشل الامريكي

في كتابه (الفوضى التي صنعوها: الشرق الأوسط بعد العراق) الذي صدر في عام (٢٠٠٧م)، يقول الكاتب الأمريكي (جوين باير) وهو يقدم إدانته لقرار الرئيس الأمريكي السابق (جورج دبليو بوش) بشن الحرب ضد العراق واحتلاله عام (٢٠٠٣م): (إن الرأي العام الأمريكي يريد سحب قواته من هناك الآن، وليس غداً، ويعني هذا أن التحول في الموقف الأمريكي بدأ يحدث قبل أن تتمكن إدارة بوش من حسم الموقف على نحو أو آخر، ومع إصرار الإدارة على البقاء هناك، فلابد من أن تتزايد الخسائر ويتعمق المستنقع مما يضمن بصورة مؤكدة استمرار تجذير موقف الرأي العام بضرورة ترك الشرق الأوسط، بل إن أغلبية الأمريكيين يقولون بصورة واضحة في استطلاعات الرأي العام: إن اسم الشرق الأوسط بات مرادفاً في أذهانهم لكلمة مشكلة، ولصور تتسم بالعنف والدم والكراهية للولايات المتحدة)[٢].

ولعل رأي (باير) هذا الذي يشترك فيه مع الكثير من الكتاب السياسيين في العالم، والذي يعبر بشكل واضح ودقيق عن اتجاهات الرأي العام الأمريكي،

---

[١] إدارة أوباما ووعد الانسحاب من العراق، أزراج عمر، مقالة العرب أون لاين، بتاريخ ٢٠٠٩/١/٣١م.

[٢] الفوضى التي صنعوها: الشرق الاوسط بعد العراق، جوين باير، ترجمة سعد جمول، الثقافة الغربية، ٢٠٠٧م، ص١٣٣.

أما اتجاهات الرأي العام فنجدها أكثر حدة في الدول العربية، فالولايات المتحدة لم تحظَ بمستوى الكراهية، الذي بات يسم مواقف شعوب الدول العرابية تجاهها بنحو غير مسبوق إلا بعد احتلال العراق، فقد أدى هذا الفعل الأمريكي إلى تعظيم هذه الكراهية برغم أن الشعب العربي لم يكن يثق بأي قدر في السياسات الأمريكية في المنطقة بسبب العلاقة الخاصة التي تربط بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، والمعبر عنها عملياً بمواقف وقرارات اتخذنها الولايات المتحدة ضد العرب ودولهم، وعموم النظرة الدونية التي تتعاطى بها السياسة الأمريكية والمسؤولون الأمريكيون مع العرب طوال عقود عديدة مضت.

وفي شرح رؤيته لأحداث (الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١م) التي كانت الشرارة التي انطلقت منها الحرائق الأمريكية التي نالت العديد من الدول والشعوب وفي مقدمتها أفغانستان والعراق، يرى (جون باير) بأن ذلك الحدث كان هو الأسلوب المتاح لتحريك سطح البحيرة الراكدة[١]، وعلى أساس رؤية (باير) هذه، تبدو تلك الأحداث وبعد ثماني سنوات على حصولها وقد تجاوزت في نتائجها كل الحسابات والتقديرات والتوقعات، مع أن الغموض مازال يلف الجهة التي تقف وراء تلك الأحداث والأطراف التي قامت برسم خططها ووضعت آليات تنفيذها، وإذا كان الدخول في متاهة من قام بذلك العمل، ولماذا مازال صعباً، أو أن الحكم فيه لا يمكن أن يكون حاسماً ودقيقاً، فإن مراجعة ما طرأ بسبب تلك الأحداث على منطقتنا والعالم واكتشاف المتضررين فعلاً من عواقبها والمستفيدين؛ قد يقودنا إلى قراءة أقرب إلى تلك الأحداث التي تم استعمالها فعلاً؛ لتغيير توجهات سياسية في عالم القرن

---

[١] الفوضى التي صنعوها: الشرق الاوسط بعد العراق، جوين باير، ترجمة سعد جمول، الثقافة الغربية، ٢٠٠٧م، ص٦٩.

الواحد والعشرين؛ فالنظر إلى ردة الفعل الأمريكية على تلك الأحداث تظهر اليوم وكأنها كانت مرسومة سلفاً، وقد فاقت كل التصورات، ليس في حدتها فحسب، بل في خروجها عن موضوع الأحداث نفسها، وتوجيه الانتقام لدول وأطراف ثبت بالدليل القاطع وباعتراف الولايات المتحدة نفسها، أن لا علاقة لها بالأحداث، وأهم هؤلاء العراق والعراقيون.

وبغض النظر عن صحة أو عدم صحة الروايات التي تم بثها عن أحداث أيلول، فإن إعلان الحرب على الإرهاب بالشكل والطريقة التي اختارتها إدارة بوش إلى حد اليوم، قد قادت إلى نتائج مختلفة تماماً عما وعدت به تلك الدولة.

وإذا كانت الحرب المزعومة على الإرهاب التي شنتها الولايات المتحدة بعد أحداث (أيلول عام ٢٠٠١م)، قد وفرت لواشنطن فرصة ذهبية لزيادة نفوذها وهيمنتها على العالم، وكانت (القناع الأفضل) في نظر المحافظين الجدد الذي أنتجته مصانعهم السياسية منذ عقود، كانت الولايات المتحدة خلالها تتحين الفرص لإعلان نفسها الامبراطورية الوحيدة التي تحكم العالم من دون منازع، بل وبمباركة الجميع وانصياعهم وبما يجعل القرن الحالي قرناً أميركياً؛ تحقيقاً للشعار الذي رفعته إدارة (بوش الأب) بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في مطلع تسعينات القرن الماضي، غير أن السنوات الثماني الماضية على أحداث أيلول كانت كفيلة بإسقاط القناع وجعله وبالاً على السياسة الأمريكية بكل مفاصلها، وحتى مع إصرار واشنطن على عدم الاعتراف بالفشل وسقوط القناع عن وجه سياستها القبيح، فإنَّ ثمار حصادها الأشد مرارة من عبارة الفشل والذي لم يملك الرئيس الأمريكي الثالث والأربعين للولايات المتحدة (جورج دبليو بوش) الشجاعة والجرأة للاعتراف به، قد تم الاعتراف به فعلياً من قبل الشعب الأمريكي، وهو يذهب لصناديق

الاقتراع في (تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨م) لانتخاب الرئيس الرابع والأربعين، ففي ذلك اليوم عبر غالبية الشعب الأمريكي بانتخاب (باراك أوباما) عن رفض شعبي واضح لسياسة (جورج دبليو بوش) ولكل ما يرتبط به من حزب وشخصيات أسهموا جميعاً في تحميل الولايات المتحدة خسائر فادحة ما كان يجب أن تتحملها، فبحساب خسائر الولايات المتحدة في حربها واحتلالها للعراق ومقارنة حجمها وتأثيرها بالخسائر التي تكبدتها في مغامرتها السابقة في فيتنام (التي قال بوش يوم احتلال العراق: بأنَّ صورة فشل أمريكا فيها قد تم مسحها أخيراً من ذاكرة الأمريكيين)، تظهر حقيقة أن الكارثة صارت أعمق في العراق خاصة وأنها لم تنتهِ بعد، فحصادها الآني يشير إلى سقوط نحو خمسة آلاف قتيل (وفقاً للأرقام المعلنة من قبل وزارة الدفاع الأمريكية- البنتاغون) وأكثر من (٧٥) ألف قتيل، وفقاً لأرقام هيئات ومراكز أخرى، ونحو (٧٠-٩٠) ألف جريح، أكثر من نصفهم صاروا في أعداد المعاقيين على الدوام، فضلاً عن ترليون دولار أهدرت لحد الآن في تمويل العدوان على العراق واحتلاله من دون أن يتم تحقيق الأهداف التي كانت إدارة الرئيس الأمريكي السابق (جورج دبليو بوش) تراها قريبة، وقد أثبت واقع الحال أنها بعيدة.. وبعيدة جداً.

وإذا كان حكم التأريخ على مسببات وتفكك وانهيار الإمبراطوريات التي شهدها العالم عبر رحلته التأريخية الطويلة، يكاد أن يكون واحداً يتلخص في اتساع الهوّة بين الإمكانات والقدراتِ من جهة، وحجم وطبيعة الأهداف الموضوعة من جهة أخرى، وفي كون كل اتساع على حساب الآخر يقود إلى الترهل، وفقدان السيطرة، وتآكل مقومات القوة بنحو تدريجي يتسارع بعد مدة بما لا يعطي فرصة أو قدرة على مواجهته، وهو وضع أليم (وفقاً للعديد من المحللين والمراقبين) تواجهه الولايات المتحدة؛ بسبب سياساتها الهوجاء.

ولعل من الضروري أن نتعرض هنا للمقاومة العراقية كونها أهم الأسباب التي جعلت الهوّة تتسع بين إمكانات وقدرات الولايات المتحدة التي زجتها في الحرب ضد العراق واحتلاله من جهة، وحجم وطبيعة الأهداف الموضوعة من جهة أخرى، فالمقاومة استطاعت أن تجعل إمكانات وقدرات المحتلين برغم اتساعها وثقل وزنها على الأرض، قاصرة عن بلوغ الأهداف، فالحديث عن السنوات الست الماضية من عمر الاحتلال الأمريكي للعراق، يعني بالضرورة الحديث عن الدور التأريخي والاستثنائي الكبير للمقاومة العراقية بكل فصائلها ومستوياتها، في وضع الاحتلال في المأزق وتحويله إلى مأزق للمشروع الإمبراطوري الأمريكي برمته في العالم، وبما جعل السيطرة على العراق وإخضاعه للإرادة الأمريكية، يفوق قدرات أمريكا وإمكاناتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، الأمر الذي حوّل احتلال العراق إلى عبء قاد الولايات المتحدة إلى التراجع، وانكشاف وهم أمريكا في عدّها القوة هي العامل الحاسم في كل صراع، وإن الاعتماد على الجيوش المدربة والمجهزة بأكثر الأسلحة تطوراً وفتكاً كفيل بتحقيق الأهداف.

وقد عبّر عن ذلك بلغة دقيقة وعملية العديد من القادة العسكريين والاستراتيجيين الأمريكيين كالجنرال (بيتر بايس) الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة الأمريكية، الذي أدلى في شهر (شباط/ فبراير ٢٠٠٧م) بشهادته عن الحرب في العراق أمام الكونغرس الأمريكي قائلاً: (ان القوات الأمريكية في حالة تآكل، إنها مخاطرة كبرى أن يتم تقييدها بتحقيق مطالب وأهداف الحرب على العراق... إن القوات الأمريكية لن تستطيع والحال كذلك أن تتجاوب وبشكل كامل ومؤثر مع متطلبات أي أزمة جديدة يمكن أن تنشأ

وتستوجب الحرب)[1]، وهو الكلام نفسه الذي قاله قائد القوات المسلحة البريطانية المارشال (جون ستيراب) وهو يدلي بشهادته أمام لجنة الدفاع في مجلس العموم البريطاني عن أوضاع الجيش البريطاني في العراق واستمرار الوجود البريطاني هناك قائلا: (إن التزامات بريطانيا في العراق لن تسمح بأي تورط في أي قتال واسع لسنوات قادمة)[2].

ولعل هذا المأزق الذي وضعت الولايات المتحدة نفسها وحلفاءها فيه يوم احتلت العراق ، هو الذي دفع صحيفة لوس أنجلوس (الأمريكية) لأن تنقل على لسان مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكي (البنتاغون) قوله عن الحرب في العراق: (إن هذا الجزء من العالم لديه حساسية شديدة تجاه الوجود الأجنبي، وإن أمام الجيش الأمريكي فرصة قصيرة نسبياً)[3].

إن هذا التوجه وهذا الفهم لطبيعة الاحتلال الأمريكي للعراق، يؤكده أيضاً العديد من المنظرين والسياسيين الأمريكيين المميزين، ومنهم (زبينغو بريجنسكي) مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق، الذي حذّر المسؤولين الأمريكيين من مغبة استمرار احتلال العراق وقال في مقالة له بعنوان: (خارطة طريق للخروج من العراق) نشرت في العديد من الصحف الأمريكية قبل نحو عامين: (إن الحرب في العراق كارثة تأريخية واستراتيجية وأخلاقية نفذت بموجب افتراضات زائفة، وهي تقوض شرعية أمريكا العالمية.. إن على الولايات المتحدة أن تؤكد بشكل واضح نيتها بمغادرة العراق، وأن تعلن عن أنها ستبدأ في إجراء محادثات مع القادة العراقيين (الاصليين) الذين يستطيعون الوقوف على أقدامهم، أولئك الذين يمتلكون سلطة حقيقية خارج

---

[1] صحيفة واشنطن بوست الأميركية، بتاريخ ٢٠٠٧/٢/٢٧م .

[2] مجلة تايم البريطانية، بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٧ .

[3] صحيفة لوس أنجلوس الأمريكية، بتاريخ ٢٠٠٧/٣/١٢م .

المنطقة الخضراء؛ لأن النظام العراقي الذي تعدّه إدارة بوش ممثلاً للعراقيين، محصور في مساحة محددة بأربعة أميال مربعة داخل القلعة الأمريكية في بغداد، وهومحمي بالقوات الأمريكية وبجدار سمكه (١٥) قدماً) [١].

ومما لاشك فيه، فإنَّ هذه النتيجة التي توصل إليها العديد من القادة العسكريين والاستراتيجيين الأمريكيين والبريطانيين وغيرهم، لم تكن لتصبح حقيقة يتم التعامل معها، ويتم وضعها في مكانها الصحيح داخل حسابات الهزيمة وحسابات النصر، لولا المقاومة العراقية التي ظلت تسبح وتتحرك بالاتجاه المعاكس لمحاولات تيئيس العراقيين، التي كانت من الأهداف الأساسية والجوهرية في برنامج قوى الاحتلال وعملائه؛ فالمقاومة العراقية وطوال السنوات الست الماضية، قدمت على الساحة العراقية أنموذجاً رائعاً في مواجهة المحتلين وتقزيم قدراتهم برغم كل إمكاناتهم البشرية الكبيرة وامتلاكهم لوسائل وتجهيزات وامتيازات هائلة، في مقابل الإمكانات والقدرات المادية المحدودة للمقاومة، وحركتها الصعبة في طبيعة منبسطة وسهلة يصعب الاختفاء والمناورة فيها، على عكس ما كان متوفراً للمقاومة الفيتنامية مثلاً، وفي ظل انقطاع كل سبل الدعم الخارجي، على عكس تمتع كل المقاومات في جميع أنحاء العالم (قديماً وحديثاً) بالدعم المادي والمعنوي والبشري أحياناً من أماكن واتجاهات عديدة.. وعلى العكس لما تروج له إدارة الاحتلال الأمريكي وأعوانها من قوى العملية السياسية (وحكومة المنطقة الخضراء) عن انكفاء أعمال المقاومة وقدرة قوات الاحتلال وقوات الحكومة الحالية وشركات المرتزقة الخاصة مثل (بلاك ووترز) وغيرها على تحجيم قدرات القوى المناهضة للاحتلال، فان تقريراً لمكتب المحاسبة الأمريكي نشر

---

[١] صحيفة واشنطن بوست الأميركية، بتاريخ ١٩/٦/٢٠٠٧م.

في شهر (تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨م)، قد فند كل ذلك وكشف في صفحاته التي قدمت إلى الكونغرس الأمريكي.

إن مستوى عمليات المقاومة العراقية ضد (القوات الأمريكية وقوات الدول الأخرى المتحالفة معها في العراق) كانت مهمة جداً ومؤثرة، فعدد عمليات المقاومة العراقية، وفقاً لذلك التقرير على سبيل المثال خلال ثلاثة أشهر هي (آذار ونيسان وآيار) عام (٢٠٠٨م)، تجاوزت (٣٨٥٠) عملية[1].

ومن خلال حسابات بسيطة يتبين أن المقاومة العراقية وفقاً لتقرير مكتب المحاسبة الأمريكي، قد نفذت أكثر من (٤٢) عملية يومياً في تلك الأشهر التي قالوا إن المقاومة انكفأت بها، فيما كان واقع الحال يؤكد أن نحو عمليتين للمقاومة كانت تستهدف قوات الاحتلال في الساعة الواحدة، ولعل انتقال فعل المقاومة مع مرور الوقت إلى تنفيذ العمليات النوعية، هو مؤشر واضح على قدرة المقاومة العراقية على اجتياز مرحلة الثبات والمقارعة، واتساع الحاضنة الشعبية لها، على عكس ما تدعي قوات الاحتلال وقوات الحكومة الحالية المساندة لها.

إن نجاح الاستراتيجية التي اتبعتها المقاومة العراقية في إطار مواجهة خطط الاحتلال قد أفرز بالضرورة وعياً شعبياً بأن المقاومين العراقيين للاحتلال قد استطاعوا:

١. النجاح في إسقاط محاولات المحتلين وأعوانهم على تسويق أنفسهم بأطر شرعية وقانونية، مستمدة من الشارع العراقي، عبر القول بأن صناديق الاقتراع هي التي حملتهم إلى كراسي الحكم، وفوضتهم اتخاذ القرارات وتشريع القوانين، ولعل نتائج انتخابات مجالس المحافظات التي جرت في

---

[1] صحيفة العراق الإلكترونية، تقرير مكتب المحاسبة الأميركي، العدد ٧٢١ ، تشرين الأول ٢٠٠٨م.

(الحادي والثلاثين من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م)، التي أريد لها أن تكون واجهة للتضليل، قد صارت واجهة لفضح الشرعية والقانونية، التي أرادوا إسباغها على أنفسهم، حيث ظهر أن مستوى المشاركة في تلك الانتخابات لا يتجاوز (٢٠-٢٥%) وهي نسبة تؤشر عزوف الناس عن خطط المحتلين وأعوانهم وفقدان الثقة بهم، وقبل كل ذلك أشرت بنحو واضح بداية عودة الوعي الشعبي العراقي من غيبوبته الإجبارية، التي فرضتها ظروف وقساوة الاحتلال والممارسات التعسفية والإرهابية، التي مارستها قوات الاحتلال وقوات حكومات الاحتلال المتعاونة ضدهم، فضلاً عن الممارسات الإجرامية التي تعرضوا لها من العصابات والميليشيات التي تعمل بدعم من المحتلين وحكومات الاحتلال وأحزابها وتحت حمايتها.

٢. إفشال كل خطط الاحتلال الرامية إلى تقوية الأحزاب والقوى والشخصيات المساندة لها والداخلة في العملية السياسية، ومحاصرتها داخل أسوار محميات المحتلين، وأولها المنطقة الخضراء وفضح جرائمهم وفسادهم.

٣. إسقاط مخططات المحتلين الهادفة إلى جر المقاومة إلى ساحات صراع هي ليست ساحتها الفعلية، من خلال الممارسات الطائفية والإجرامية، المعبر عن صور أساسية منها في استهداف العراقيين، بالقتل والتنكيل والاعتقال والترهيب، بفرق الموت والميليشيات، وقوات حكومات الاحتلال المتعاقبة، فضلاً عن قدرة وعي المقاومة على إفشال محاولات دفع المقاومة للتواجد في ساحات مشبوهة ورمادية وأماكن معدة سلفاً؛ لغرض تشويه صورتها، وبما يسمح أيضاً القول: إن المقاومة تستهدف المدنيين العراقيين، وهي فرية طالما استعملتها قوى الاحتلال، كجزء من حملات التضليل التي تجري فيها صناعة أحداث معينة، يذهب ضحيتها أعداد من العراقيين، أو تتعطل بسببها إمكانية استفادة العراقيين من مورد معين، لكن استمرار المقاومة على خطها الجهادي

الواضح قد أفشل كل هذه المحاولات، وأدى إلى اتساع مساحة رؤية العراقيين بوضوح، وتعاظم وعيهم وقدرتهم على الفرز بين الإرهاب والمقاومة، وشكلِ وطبيعةِ وانتماء من يقف وراء هذا العمل أو ذاك، وبالتالي فشل مراهنة المحتلين وأعوانهم على نجاح المشروع الطائفي بكل ترتيباته وأطره الدينية والعرقية.

٤. الانتصار على محاولات الإغراء والترغيب، التي طالما مارستها إدارة الاحتلال الأمريكي، لغرض سحب البساط من تحت أقدام المقاومين وإسقاط القيم النبيلة التي يتخذونها إطاراً ومنهجاً لوجودهم وعملياتهم، فضلاً عن الانتصار على محاولات شق صفوف المقاومة، وبث الخلافات بين فصائلها من خلال استعمال الإعلام في طرح الإشاعات والإيحاء أحياناً بمحاباة فصائل ومعاداة فصائل أخرى، وتسويق قصص وهمية عن لقاءات وحوارات واستعمال شهود عيان ملفقين ومدربين جيداً، يدلون بتصريحات كاذبة هدفها زعزعة ثقة العراقيين بالمقاومة، وخلق انشقاقات داخل جسد المقاومة، وغيرها من الأفعال التي كان وعي المقاومين أكبر بكثير من كل ترهاتها، الأمر الذي حصّن المقاومة ومنع انجرارها ووقوعها بمثل هذه الفخاخ الخبيثة.

٥. نجاح المقاومة في المحافظة على نَفَسها الطويل، وتقسيم جهودها وفقاً لطبيعة الميدان، وزمن الشوط ومن دون المغامرة بزج قوتها، أو جزء كبير منها في معركة واحدة، وفي ساحة سبق للأعداء أن أعدوا مسرحها، فالنجاح في استثمار القوى والأمكانات بشكل صحيح، واختيار وقت المواجهة وساحتها، كان واحداً من العناصر الرئيسية في استمرار المقاومة العراقية، وعدم قدرة المحتلين على استهدافها بنيران كثيفة وبقوى كبيرة، أو إجبارها على تقديم تضحيات كان يمكن عدم تقديمها.

٦. نجاح المقاومة في إثارة الرعب في نفوس أفـراد قـوات الاحـتلال، وقوات حكومات الاحتلال، وقد أشارت الكثير من الدراسات الأمريكية التـي أعدت لغرض تقييم الوضع النفسي لقوات الاحتلال، إلى أكثر من (٧٠%) من أفراد هذه القوات يعانون من رهاب الوجود خارج قواعدهم وثكناتهم، فالعديد من الجنود الأمريكيين والبريطانيين الذين أدلوا بأحاديث عن وجـودهم فـي العراق أو كتبوا مذكرات عن تجربتهم هذه، أكدوا أن أصعب أوقاتهم وأكثرها رعباً عندما يأتيهم الأمر بركوب عرباتهم (حتى وإن كانت مدرعة)، والنزول إلى الشوارع، أو المسير في الطرق وصولاً إلـى مكـان أو هـدف معـين؛ فالموت على أيدي المقاومين (وفقاً لاحاديثهم) سيكون متربصاً بهم فـي كـل مكان، كما ان الدراسات اشارت إلى أن نحو (٦٠%) مـن جنـود الاحـتلال الأمريكي باتوا بحاجة ماسة إلى تلقي العلاجات النفسية، فضلاً عـن حـالات الهروب، وحالات تعاطي المخدرات، والتخلف عن الخدمة العسكرية، ورفض دعوات الدخول في الجيش سواء في أمريكا أو في بريطانيـا، والتـي باتـت تشكل ظاهرة لا يمكن التغاضي عنها، كنتيجة فعلية من نتائج الخـوف الـذي زرعته المقاومة العراقية في قلوب الأعداء.

٧. نجاح المقاومة في توسيع مساحة القناعة الشعبية، في أن كل الترتيبات التي حصلت في ظل الاحتلال وحكوماته المتعاقبة، لابد ستسقط بعـد رحيلـه وإن طال زمنها، وأنها ستبقى ترتيبات طارئة ومؤقتة، فـضلاً عـن القناعـة الشعبية بأن رموز الحكم والسياسة الذي جاء بهم الاحتلال، هم جزء من تلـك الترتيبات الطارئة، وأن مصيرهم بالزوال مرتبط بزوال الاحتلال، وأنهـم لا يمتلكون شرعية في كل الاتجاهات، ولعل عزوف العراقيين عن منحهم الثقـة من خلال عدم المشاركة في انتخابات مجالس المحافظات التـي جـرت فـي (الحادي والثلاثين من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م)، خير دليـل علـى ذلـك،

فضلاً عن افتضاح أمر هؤلاء الرموز من خلال تعاطيهم بسلبية واضحة مع هموم الناس، والتنصل من كل الشعارات التي رفعوها في إطار الحديث عن الحرية والديمقراطية والازدهار والتطور وغيرها، والانكفاء بنحو واضح على عمليات السلب والنهب، والاستفادة من فرصة الحكم في تعزيز مواردهم المادية، منطلقين من شعور عام وراسخ وصحيح بأن وجودهم طارئ، وأن إعدادهم لخطط هروبهم يجب أن يكون دقيقاً، وقابلاً للتنفيذ في أي لحظة.

٨. نجاح المقاومة في فرض نفسها (في معادلة الصراع)، كلاعب رئيسي معبر عن طموحات العراقيين، ومطالبهم المشروعة في تحرير العراق، وتقرير المصير، بعيداً عن أي تأثيرات، في مواجهة قوات الاحتلال وأعونها الذين يقفون في الطرف الثاني من المعادلة، إذ أن معادلة التوازن العسكري هذه قد فرضت عملياً، من خلال قدرة المقاومة على إنزال الخسائر المادية والبشرية بقوات الاحتلال، وإمكانياتها في زيادة وتوسيع رقعة هذه الخسائر واستمرارها.

انسحاب أم هزيمة ؟

ربما كان المشهد المثير الذي رأيناه يوم (١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨م)، مشهد قيام الصحفي العراقي منتظر الزيدي برجم الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) بفردتي حذائه، عندما جاء الأخير في زيارة وداعية للعراق يختم فيها سنوات حكمه ويتباهى فيها باحتلاله العراق، قد اختصر الطريقة الاحتجاجية والاستنكارية الرافضة، التي تعتمر صدور العراقيين إزاء الرئيس الأمريكي الذي اكتووا بنيرانه ونيران جيوشه التي احتلت بلادهم، وعاثت بها تدميراً وقتلاً وتنكيلاً وتفتيتاً.

إن أهم دلالات هذا المشهد تتركز في فضح الهزيمة الأمريكية، فبعد ست سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق، والادعاء بأن العراقيين قد تم تحريرهم، وهم يعيشون في زهو وسعادة في ظل الحرية والديمقراطية والأمل، الذي جاءت به الولايات المتحدة كهدية لهم.. جاء مشهد رجم بوش بالحذاء وفي داخل المنطقة المحصنة، كرد واقعي على كذب كل الادعاءات وهزيمة أمريكا، وعدم قدرتها على تحقيق الأهداف التي وضعتها أساساً لاحتلال العراق، وفي مقدمتها ترويض العراقيين وإخضاعهم، وجعلهم مجرد قطيع في إحدى المزارع الخلفية للولايات المتحدة.

وفق كل هذا؛ فإن إعلان الرئيس الأمريكي الرابع والأربعين (باراك أوباما) يوم (٢٧ شباط/ فبراير٢٠٠٩م)، عن تحديد (١٩) شهراً لسحب القوات الأمريكية من العراق تنتهي في (٣١ آب/ اغسطس٢٠١٠م)، مع بقاء قوة ما بين (٣٥- ٥٠) الف جندي لحين استكمال الانسحاب بشكل نهائي أواخر عام (٢٠١١م)، يعدّ ناتجاً طبيعياً ومنطقياً لمأزق أمريكا في العراق، الذي صنعته لها المقاومة العراقية، التي أدت ضراوة ضرباتها إلى كسر شوكة الجيش الأقوى في العالم، وتحطيم مكانته وإسقاط هيبة أمريكا، أما من يدعون بأن قرار (أوباما) بألانسحاب من العراق قد جاء نتيجة لانتهاء المهمة الأمريكية وتحقيق الأهداف، فإن ادعاءهم هذا لا يمكن أن يصمد في وجه الخسائر الأمريكية المتعاظمة على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وهي خسائر كارثية اعترف بها غالبية المسؤولين الأمريكيين، ومنهم من كان مشاركاً في الإعداد للحرب ضد العراق واحتلاله، مثل (جوزيف كوليتز)، الذي شغل بين الأعوام (٢٠٠١م-٢٠٠٤م) منصب مساعد وزير الدفاع الأمريكي السابق (دونالد رامسفيلد)، والذي قال في دراسة له بعنوان: (اختيار الحرب.. القرار باجتياح العراق ونتائجه) نشرتها جامعة

الدفاع الوطني الأمريكية: (إنَّ تلك الحرب مثلت هزيمة نكراء، فإذا قسنا الحرب في العراق بالدم الذي أزهق، والمال الذي صرف، فإنها بحق تشكل كارثة مكلفة ستستمر الولايات المتحدة بدفعها، في ظل احترام أقل في العالم، واتكال أكبر على الجيش، وتأثير سلبي بالنسبة لما تسمى الحرب على الإرهاب)[1].

على الرغم من المخاوف التي يثيرها البعض من التواجد الإيراني (داخل العراق)، ومن إمكانية أن تسعى ايران إلى ملء الفراغ الذي يحصل في حالة الانسحاب الأمريكي في العراق، فإن واقع ومعطيات السنوات الست الماضية من الاحتلال، تؤكد أن القوى المناهضة والمقاومة للاحتلال التي أجبرت الولايات المتحدة على الانكفاء بمشروعها الاحتلالي، وكبدتها خسائر جسيمة، وحولت الاحتلال الذي كانت تراه (نزهة) إلى (كابوس)، قادرة فعلياً على ملء أي فراغ أمني قد يحصل، كما أن رحيل قوات الاحتلال سيكون بمثابة لطمة قوية لكل القوى التي ساندت المحتلين وعبث بأمن ومقدرات العراقيين، وفي مقدمتها أذرع إيران في العراق، خاصة وأن الولايات المتحدة وإيران لم يستطيعا خلال السنوات الست الماضية من خلق قاعدة جماهيرية مؤيدة أو تابعة لهم، وحصتهم بعد كل ما جرى لا تتعدى رجالات السلطة وطبقة السياسيين المعزولين عن الشعب، والذي هرب الكثير منهم بعد أن اعتقد بأنه قد أمن جانبه المادي من أموال العراق المنهوبة، أما الجزء المتبقي منهم فسيلحقون المحتل حال خروجه.

وهكذا، يبدو واضحاً أن الهزيمة الأمريكية قد تحققت وفقاً لكل المؤشرات الاستراتيجية، وأن العراق يعيش اليوم بعد ست سنوات من الاحتلال المرحلة

---

[1] اختيار الحرب .. القرار باجتياح العراق ونتائجه، جوزيف كولينز، صحيفة العراق الالكترونية، تموز ٢٠٠٨م.

الاخيرة من عمر هذا الاحتلال البغيض، وأن من ضحوا في سبيل تحرير العراق، وفي سبيل المحافظة على هويته وكرامة أهله، لابد أن يكونوا اليوم قد اقتربوا من ساعة النصر الذي بذلوا لأجله الغالي والنفيس، وما عليهم لإخراج العراق من هذه المحنة الكبيرة، إلا التماسك والتوحد ونبذ الخلاف والوقوف صفاً واحداً، والتعالي على الجراح والأذى، والسعي للتسامح مع من لم تلوث أيديهم بدماء العراقيين، ومن لم يمدوا أيديهم لأموال العراق بغير الحق والاستحقاق، وتبني سياقات عمل ثابتة في إطار من التكامل الذي يقوي كل الفصائل، ويدفع بها إلى استمرار إدامة الزخم العسكري والسياسي والإعلامي ضد المحتلين وتضييق الخناق عليهم، وإكمال دائرة هزيمتهم.

ذكرى احتلال العراق السادسة وأكذوبة إعادة إعماره

حسين الرشيد / مدير تحرير مجلة حضارة

بحلول التاسع من نيسان هذا العام تكون سنة جديدة من سنيِّ الاحتلال قد طرقت الباب، لتتخطى العتبة السابعة من السنين المؤلمة التي عاشها العراقيون بعدما شنّت القوات الأمريكية-البريطانية وحلفاؤهما مغامرتهم الكارثية عام ٢٠٠٣ميلادية، وآلت فيما بعد إلى احتلال بلاد الرافدين في حلقةٍ من حلقاتِ التآمر الهادفةِ في مجموعها إلى إخضاع المنطقةِ للهيمنةِ الأمريكية، وتفكيكها، وإضعافها، وإثارةِ النزعات الطائفيةِ والعرقيةِ فيها، وإنهاءِ أيّ قدر من الممانعةِ فيها، ضمنَ أكذوبةِ ما يسمى بـ((الشرق الأوسط الجديد))، متخذةً من عبارة "محررونَ لا فاتحونَ"!! ستاراً تتستّر وراءه لتحقيق مآربها وأطماعها الخفية.. تلكَ الأطماع التي جاءت خاتمةً -بل نتيجة- لجملةٍ من الذرائعِ والحجج والاتهاماتِ الباطلة، التي صاغتها وطبختها إدارة الولاياتِ المتحدة الأمريكية، معتمدةً على معلوماتٍ مغلوطةٍ فبركها جهازها الاستخباري، فضلاً عن المعلوماتِ الكاذبةِ التي كان يزودهم بها أعوانهم، الذين باعوا تاريخَ العراق وحاضرَه ومستقبلَه مقابلَ وعودٍ بتسلم سلطةِ الحكم، بعد عمليةِ ما يسمونه (التحرير) و(نشر الديمقراطية في العراق).

لقد جاءَ التحريرُ المزعومُ يرافقه كلّ المكر والبلاء، وصارَ العراقُ بفضل الديمقراطيةِ مباحاً -أو مستباحاً- وصارت ثرواته وخيراته غنيمةً للاحتلال الذي افتضحت ممارساته وسرقاته، وافتضحَ أعوانه الذين حكموا البلادَ منذ نكبةِ الغزوِ وحتى يومنا هذا، والذينَ صنّفتهم "منظمةُ الشفافيةِ الدوليةِ" بينَ أسوأ الحكوماتِ في العالم، وأكثرها تبذيراً وفساداً!! فقد باتَ النهبُ في عهد الحكومات المتعاقبةِ في ظلِ الاحتلالِ يحدثُ علناً، تقومُ به طغمة فاسدة، يساندها فساد أمريكي تسيّره مجموعة فاسدة من الحاكمين المدنيين والعسكريين في العراق المحتل؛ ولعلّ أُولى تلكَ الفضائح هو ضياعُ ما يقربُ من ثمانية مليارات دولار واختفاؤها بعد استلامِ الحاكم المدني (بول بريمر) مهامّه في العراق، من الأموال التي نُقلت إلى بغداد، مما كانت تحتجزهُ الولايات المتحدة من إيراداتِ صادراتِ النفط العراقية، وأموالِ برنامج النفط مقابل الغذاء التابع للأمم المتحدة، فضلاً عن الأرصدةِ العراقيةِ التي صادرتها أمريكا من مختلف دول العالم بعدّها من بقايا أرصدة النظام السابق في العراق.

ويبدو أنَّ موضوعَ "إعادة الاعمار" كانَ مخططاً له بزمن سَبقَ الاحتلال، وقد أعدّت جهاتٌ أمريكية عديدة مخططاً مشبوهاً لتلكَ العقود الكبرى بما يضمنُ إحالتها لكبرى الشخصياتِ والشركاتِ والمؤسساتِ الأمريكية التي كانَ لها دورُها في احتلالِ العراقِ بما يشبهُ "تقسيم الغنائم"!! وقد نُقلَ تقرير[1] تبعاً

---

[1] نشرته جريدة الثورة السورية نقلاً عن "نيويورك تايمز" بعنوان ((معارك العقود الأمريكية مستمرة في العراق)) بناء على وثيقة حول "تقسيم الغنائم في حرب العراق قبل بدء الحرب" التي نشرت في كانون الأول عام ٢٠٠٥م .. تنظر التفاصيل على الرابط التالي :

http://thawra.alwehda.gov.sy/_print_veiw.asp?FileName=74773224820060124140222 بتاريخ ٢٠٠٦/١/٢٥م.

لأول روايةٍ رسميةٍ لبرنامج إعادةِ إعمار العراق وَضَعَها مكتب المفتش العام للشؤون العراقية: أنَّ معارك العقود بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الأمريكية، وإحاطةَ المشروعات بالسرية التامة، وارتفاعَ النفقات الأمنية، ونقصَ إعداد الموظفين، تسببت جميعها في تأخّر العمل لشهورٍ متصلةٍ.. وقد أعربت الرواية في الوقتِ ذاته عن قلقِها بشأنِ صياغةِ عقودٍ لحساب كيانٍ يحملُ وضعاً سياسياً مبهماً هو "سلطة التحالف المؤقتة في العراق".

لقد قال أشهرُ المدافعين عن حقوق الضرائبِ في واشنطن "الخبيرُ ستيف إيليس": إنَّ الأمرَ يبدو مثل نظام تقسيم غنائم الحربِ بين عدةِ وكالات، وإنَّ عمليةَ منح العقود بهذه الطريقةِ أسفرت عن نشوءِ عدةِ إقطاعيات.

إن أُولى حلقات الكذب المتواصلة أتت في عقدِ المؤتمراتِ الدوليةِ لتنسيق مواقفِ الدول الكبرى والمانحة، في سبيل إنجاح ما يسمونه "مشروع إعادةِ إعمار العراق" مع علمِ كثيرٍ من المشاركينَ فيها فساد المسؤولين الحاليين في العراق، وإنها لم ولن تجدِ نفعاً، وإنها لم تصمد في الوقوفِ أمامِ العملياتِ المنظمةِ لتبديدِ الأموالِ وإهدارها، ولقد ذهبت وعودُ وتعهداتُ مسعري الحرب بإعادة إعمار العراق أدراجَ الرياح، وساهمت التصرفات اللامسؤولة التي كان يقومُ بها الحاكمون المدنيون والعسكريون في العراق في تبديدِ هذه الوعود الفارغة.. وإن قولَ وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (كوندليزا رايس) في مؤتمر "رعاية الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي لبحث سبلِ إعادةِ بناء العراق" الذي عقدَ في العاصمةِ البلجيكية "بروكسل" في أواخر شهر حزيران/يونيو عام ٢٠٠٥م: ((إنَّ الشعبَ العراقيَّ يطلبُ منا أن نقفَ بجانبه،

وهو يستحقُ مساندتنا الكاملة))[1].. أقولُ : إنَّ هذا الوعد جُوبة بتصرفات عكست مدى السرقاتِ الكبرى التي نُهبت من أموالِ العراقيينَ تحتَ ستائر متنوعة سيتضح بعضها فيما بعد.

إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية –وهي مهندسةُ احتلال العراق– لم تفتأ أن تتذرع بذريعتي انعدام الأمن والفساد في تأخّر أو تعرقلِ إعادة إعمار العراق، وجاءَ في تقريرٍ للمفتشِ العام الأمريكي لإعادة إعمار العراق (ستوارت بوين) نشرهُ أواخرَ عام (٢٠٠٦م) : إنَّ تدهورَ الوضع الأمني هناك لا يزالُ يعرقل إعادة البناء ويتسبب في تأخيرِ عددٍ منَ المشاريع، ويمنعُ زيارةَ العديدِ منَ المواقع، ويزيدُ في النفقاتِ الأمنية، ويعرّضُ حياةَ المقاولين للخطر.. وندّد التقريرُ نفسه بفسادِ عددٍ من الوزارات العراقية، وأشار إلى أن العراقَ صُنّف في المرتبة (١٣٧) من أصل (١٥٨) بلداً في الترتيبِ العالمي للفساد عام (٢٠٠٥م) الذي أقرّته منظمة الشفافية الدولية.

وحلَّ العراقُ (ثالثاً) في قائمةِ أسوأ بلدان العالم من ناحية الفساد الإداري، بعد (ماينمار) و(الصومال)، وفق تصنيف منظمة الشفافية الدولية، التي أشارت في تقريرها الصادر يوم الثلاثاء الموافق (٢٠٠٨/٩/٢٣م) من برلين بألمانيا الاتحادية إلى أن هذا التصنيف يستند إلى رصد للفساد الإداري الملاحظ من رجال الأعمال والمحللين الاقتصاديين.. ولم يحصل العراق من المقياس المؤلف من (١٠) نقاط سوى على نقطة واحدة وثلاثة بالعشرة من النقطة فقط؛ ليحلَّ في المرتبة (١٧٨) من القائمة التي ضمت (١٨٠) دولة في العالم.

---

[1] ينظر : موقع BBC على الرابط الآتي :

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/talking_point/newsid_4642000/4642089.stm بتاريخ ٢٠٠٥/٦/٣٠م .

وتؤكدُ الحقائق بأنَّ احتلالَ البلدان وتخريبَ مؤسساتها، والتدخلَ في شؤونها، والتحكمَ في ثرواتها، وإهدارَ ونهب خيراتها، كفيلٌ بخلق جوٍ مليءٍ بالفسادِ والدمار.. وقد كانت الولاياتُ المتحدة الأمريكية محورَ الفساد في جميع الدول التي تحتلها؛ بسببِ تصرفات المسؤولين الأمريكيين الذين يعملون فيها، وفي العراق وأفغانستان نموذجان حقيقيان على صحة هذا الطرح.. ومنذ زمن مبكر حذّر مراقبو الإدارةَ الأمريكية من أنَّ عمليات الإهدار والفساد التي شابت إعادة إعمار العراق ستتكرر في أفغانستان، وهو ما دعا (جينجر كروز) نائب المفتش العام لإعادة إعمار العراق إلى القول: ((إننا بحاجة لمعرفةِ ما نحاول إنجازه في أفغانستان، قبل أن نمضي في ضخِ المزيدِ من الأموال، كما يجبُ أن نعرف متى نتوقف؛ حتى لا نضخ الأموال في ثقبٍ أسود)).

وقد أكّد موظفون سابقون في شركةٍ تابعةٍ لمجموعة "هاليبرتون الأمريكية" التي كان يرأسها سابقاً نائبُ الرئيس الأمريكي "ديك تشيني" -والتي استولت على عقودٍ ضخمةٍ لتزويدِ جيش الاحتلال الأمريكي بالخدمات- : أنَّ الشركة زوّدت قوات الاحتلال في العراق بمياهٍ تحتوي على معدلاتِ تلوثٍ، تعادلُ ضعفَ نظيراتها في نهرِ الفرات!![1]

لقد قدَّم (جينجر كروز) تقريراً للجنةِ العقودِ في زمن الحرب كشفَ من خلاله تاريخاً أسود من سوء التخطيط، وضعفِ الرقابة، وجشعاً أغرقَ دافعي

---

[1] جريدة الثورة السورية على الرابط :

http://thawra.alwehda.gov.sy/_print_veiw.asp?FileName=74773224820060124140222 بتاريخ ٢٥/١/٢٠٠٦م.

الضرائب الأمــريكيين[1]، وأشــار التقريــرُ إلــى أنَّ وزارة الــدفاع ووزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية دفعت للمقاولين أكثرَ مــن (١٠٠) بليون دولار منذ عام (٢٠٠٣م) بالنسبة للسلع والخــدمات لــدعم العمليــات الحربية، ومشروعات إعادة الإعمار في العراق وأفغانستان.

أما نائب المفتش العام بوزارة الدفاع الأمريكية (توماس جامبل) فقد كــشف عن وجود (١٥٤) تحقيقاً في قضايا رشوة، وتضاربٍ في المصالح، ومحاولــةٍ تزوير وسرقة في العراق وأفغانستان، موضحاً أنَّ أموال عملية الإعمار كثيراً ما يستغلها القادة العسكريون الأمريكيون في العراق وأفغانــستان لأغــراض شخصية تحت ستار بناء المدارس والطرق والمستشفيات، وأنه تم إنفاقُ أكثــر من ثلاثة بلايين دولار على هذه المشاريع، التي لم تكــن صــالحة!! بــل إنَّ صحيفة (بوست ستاندرد) الأمريكية أكّدت : أنَّ هناك شكوكاً فــي الإشــراف على الطرق التي يتم بها صرف أموال إعادة الإعمار، وأنه تم اكتشاف دفــع رشاوى وإكراميات للمسؤولين الحكوميين، وكشف محققون عن أن عمليــات الاحتيال كانت أقل خطورة من التعاقد مع مقاولين عــديمي الكفــاءة، بعقــودٍ باهظةِ التكاليف، وأنَّ في مثل هذه التعاقدات تبديد لأموال الأمريكيين[2].

ورأينا عن قربٍ تلك المكافآت التي كان يوزعها جيش الاحتلال الأمريكي على شكلِ عقودٍ -في غالبها عقود وهمية- لأولئك المتعاونين معه من الــذينَ خدموهم في إطار عدد من المشاريع المشبوهة، التي كانت تــستهدف بــشكل

---

[1] يقول رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ السيناتور "كارل ليفن" : ((إنَّ المكلفين الأمــريكيين دفعوا أصلاً ما لا يقل عن (٢٧) مليار دولار لإعادة الإعمار في العراق، في حين يحصل العــراق علــى عشرات المليارات من الدولارات من عائدات النفط، الذي ترتفع أسعاره بشكل كبير، ومن غير المقبول أن يستمر المكلفون الأمريكيون في تحمل عبءٍ يجب أن تتحمله الحكومة العراقية)).

[2] ينظر : موقع "مفكرة الإسلام"، بعنوان ((الفساد الأمريكي في العراق يتكرر في أفغانستان)) على الرابط http://www.islammemo.cc/akhbar/arab/2009/02/03/76461.html بتاريخ ٣/٢/٢٠٠٩م.

كبير تعويق مشروع المقاومة في العراق، من خلال تشكيل مجموعات مدعومة من المحتلين لمتابعة المقاومين والتضييق عليهم، تحت ذرائع مقاتلة ومحاربة المتطرفين الذين يقتلون العراقيين.

وقد حمّلت محكمة أمريكية[1] خمسة أشخاص، بينهم ثلاثة من الضباط الأمريكيين الاحتياط مسؤولية تمريرِ عقودِ مقاولاتٍ تفوقُ قيمتها ثمانية ملايين دولار بصورةٍ غيرِ مشروعةٍ إلى عددٍ من المقاولين العاملين ضمن برنامج إعادة بناء العراق، مقابلَ رشى على شكلِ مبالغَ مادية وتقديماتٍ عينية تشمل سياراتٍ وحلي وعقارات.. وأعلنت محكمة نيويورك لائحة تضم (٢٥) اتهاماً بينها تهمٌ بالتآمر والرشوةِ وغسيلِ الأموال، في تطورٍ هو الأحدثُ من نوعهِ ضمنَ سلسلةِ الفضائح المرتبطة بإساءة الأمانة في إدارة الأموال لأمريكية المخصصة لإعادة إعمار العراق.

وقد دعت كل هذه التجاوزات وزيرَ الدفاع الأمريكي (روبرت غيتس) إلى تقليصِ ما يعدل (١٧١) مليون دولار من ميزانية مشاريع إعادة الإعمار كانت مخصصةً لإعمارِ مقار الشرطة الحكومية الحالية في العراق، من أصل ميزانيةٍ تصل بمجموعها إلى (٥٩٠) مليون دولار، طلبها الكونغرس لمشاريع إعادة الإعمار في العراق[2].

بل إنّ تقرير المراجعة الأمريكية الذي أصدره المحقق الخاص في مشاريع إعادة الإعمار في العراق "ستيوارت بووين" كشفَ عن أكبر بكثير مما تقدم ذكره، وفضح آخر لمحاتِ الجهودِ غير المتوازنة في إعادة الإعمار، التي كلّفت دافع الضرائب الأمريكي أكثرَ من مائة مليار دولار.. وأنه بعد مراجعة (٤٧٣٢١) مشروعاً في برنامج "إعادة الإعمار" فإنّ (٨٥٥) عقداً أُلغيت من

---

[1] كان ذلك في الثلث الأول من شهر شباط من عام ٢٠٠٧ ميلادية.

[2] ينظر : موقع الرصد العراقي بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٣٠م .

قبل مسؤولين أمريكيين قبل اكتمالها؛ بسببِ عوامل غير مرئيـــة، وأنَّ (١١٢) عقداً أُلغيت فنياً؛ بسببِ الأداءِ الضعيف للمقاولين، وأن كثيراً مـــن المـــشاريع وُصفت بأنها أنجزت أو اكتملت بنجاح، بينما الواقع غير ذلك[١].

إنَّ أكثر من (١٣) مليار دولار كانت مخصصةً لمشاريع إعـــادة الإعمـــار في العراق قد تم تبديدها أو سرقتها.. حسبما اعترفَ بذلك أحد مسؤولي هيئـــة النـــزاهة العامة[٢] في إفادتهِ قبل فترةٍ أمامَ لجنةِ السياساتِ الديمقراطيـــة فـــي مجلسِ الشيوخ الأميركي، وهي إحدى اللجان التابعة للحزب الديمقراطي فـــي الكونغرس، ونشرت بعض الصحف الدولية -بما فيها الـــصحف الأمريكيـــة- مقتطفات من تلك الإفادة، التي تم التأكيد فيها على أنّ معظم المـــشاريع التـــي كان منَ المفترض تنفيذها إما لم يكن هناك حاجة إليها، وإما لم يكتمل تنفيذها، ما يعني أن مليارات الدولارات التي دفعتها الإدارة الأميركية لهذه المـــشاريع قد ذهبت أدراج الرياح.. وأوضحَ المسؤول أن تقريراً لإيضاح ذلكَ تم رفعـــهُ إلى رئيسِ الوزراء الحالي نوري المالكي ومسؤولين كبار آخـــرين، غيـــر أنّ التقرير لم يتم نشره، ولا أحدَ من المسؤولين يهـــتم بالتحقيقـــات حـــول هـــذه القضايا، وأكد أيضاً على أنه رفع تقريراً إلى مكتب "المفتش الأمريكي الخاص لعمليات إعادة إعمار العراق" حول قضايا اختلاس وفساد بحدود (٥٠) مليـــار دولار.

وكشفت "صحيفة الإندبندنت البريطانية"[٣] عن أنَّ المـــسؤولين الأمـــريكيين عن إعادة إعمار العراق سرقوا نحو (١٢٥) مليار دولار، من أموال العـــراق

---

[١] شبكة أخبار العراق، تقريـــر بعنـــوان ((فـــضائح جديـــدة عـــن إعمـــار العـــراق)) علـــى الـــرابط : http://www.aliraqnews.com/modules/news/article.php?storyid=11219 في ٢٠٠٨/٤/٢٩م.

[٢] هو السيد سلام عذوب، المفتش السابق فيما يسمى "هيئة النـــزاهة".

[٣] يوم الثلاثاء الموافق ٢٠٠٩/٣/٣م.

وأموال المساعدات التي حصل عليها.. موضحة في تقريرٍ لها عن أن اعترافات الأمريكيين بدأت تتوالى في التحقيقات التي بدأها محققون فيدراليون أمريكيون مع مسؤولين عسكريين، منهم الكولونيل "أنتوني بل" المسؤول السابق عن عقود عمليةِ الإعمار إضافة إلى "رونالد هليرد" الذي كان مسؤولاً عن عقود العراق عام ٢٠٠٤م.

* * *

لقد تراكمت فضائح ما سمي بـ"إعادة إعمار العراق" والذي وصفهُ العديد من أصحابِ الخبرةِ والتخصصِ بأنه "أكبر أكذوبة في العصر الحديث" وقد مضت ست سنوات من عمر احتلال العراق، الذي وعدوا وبشروا بإعادة إعماره وإذا بهم يباشرون بتخريبه، في وقت نشهد فيه ذكرى الغزو السادسة، غير أنَّ الملاحظ أنَّ كل هذه السنين مضت ولم يلحظ العراقيون إعماراً أو بناءً، بل شاهدوا الخراب المتواصل؛ بسبب العمليات العسكرية المتوالية التي كانت –ولا تزال– تطال المدن الآمنة.

لقد فشلت وعودُ الإعمار، كما فشلت من قبلها وعودُ التحرير، ونشرُ الديمقراطية والسلام، وتحولت تلكَ الوعود العسلية إلى سراب؛ ففِرقُ الموت ومليشيات القتل والخراب المحتمية بغطاء الاحتلال والحكومة فتكت بأرواح عشرات الألوف من العراقيين، وهجرة الملايين منهم!! فضلاً عن منهج الاعتقال والاختطاف الممنهج الذي يحدث على مرأى ومسمع من أصحاب الحكم الحالي في العراق.. ولقد بلغَ الفسادُ مبلَغه حينما بُنيت بأموال العراقيين أكبر سفارة للولايات المتحدة الأمريكية في العالم، في المنطقة التي تسمى "خضراء"، وبلغت كلفة بناء تلك السفارة (مليار دولار)، وهي تفوق في الحجم والمساحة مبنى الفاتيكان، وتفوق ست مرات مقر الأمم المتحدة في نيويورك!!

وإنَّ من بين الحقائق الملازمة لما يسمى "إعادة الإعمار" أن جملةً كبيرةً من أبناء الشعب العراقي -تصل نسبتهم إلى ما يقرب (٧٠%)- يعانونَ من الفقرِ والعَوَزِ والبطالةِ والحرمانِ وشحةِ الخدمات الأساسية، في وقتٍ أشارت فيه تقاريرُ بعضِ المنظماتِ الدولية إلى أنَّ أربعةً من بين كل عشرة من أبناء البلاد التي تزخر بالموارد الطبيعية والبشرية الهائلة لا يتقاضونَ أكثرَ من دولارٍ واحدٍ في اليوم، بينما يقفُ النظامُ التعليمي والرعايةُ الصحية على حافة الانهيار.. فضلاً عن أنَّ الفساد يستشري في كل الميادين وعلى مختلف المستويات، ولم يعد من الغريب أن تسعى جهات معينة لحماية نفسها وفرض السرية على ملفاتها، وهي ملفات تبدأ بالأسلحة وتمر بالمواد التموينية والأدوية، ولا تنتهي عندَ حدودِ عشراتِ الألوف من كشوف الرواتب والعقود الوهمية!!

ولعلَّ ما ساعدَ على تفشي "أكذوبة إعادة الإعمار" هو اتسامها بالفوضى وسوء الإدارة، وهي من بين الحقائق الصارخةِ في سلوكِ إدارةِ البيت الأبيض، التي أخفقت في مشاريع إعادة الاعمار، ومراقبةِ المقاولين، فضلاً عن غياب استراتيجية واضحة، وارتباكٍ في التنسيق بين الجهات المعنية، مما أدى إلى تفاقم التخبط، وتعاظم النهب، وبالتالي إلى المزيد من الويلات على بلادنا، ومعاناة الملايين من أبنائه[1].

إنَّ معالجة وباء الفساد المالي والإداري الخطيرين تتطلب جهوداً كبيرة، تبدأ بتشكيل هيئات تحتوي على لجان تحقيقية، تحقّقُ في كل الأموال التي

---

[1] ينظر : ((سنوات الإعمار.. سنوات المعاناة))، رضا الظاهر، موقع ينابيع العراق، على الرابط http://www.yanabeealiraq.com/politic_folder/reda-althaher060508.htm بتاريخ ٢٠٠٨/٥/٦م.

صرفت، وتدقّقُ في كلِ المشاريعِ التي أُهملت أو أُنجزت، على غرار الهيئة التي دققت بفساد إدارة "برنامج النفط مقابل الغذاء" من أجل أن تتقصى عن الحقائق، وتكشف عن المستور، وتفضح الفاسدين، الذين عاثوا بأموال الشعب فساداً، وتحيلهم للقضاء بتهمة إهدار ثروات العراق وأمواله، في وقتٍ تبلغ فيه ديون العراق ما يقرب من (١٦٢) مليار دولار.

قراءة في كتاب
الطريق الى غوانتانامو

عصام سليم / باحث ومدرب تنمية بشرية في مركز الأمة

تُعد قاعدة غوانتانامو البحرية آخر قاعدة عسكرية أمريكية في أمريكا اللاتينية، وهي تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لكوبا، ورغم بقاء هذه القاعدة نقطة خلاف أساسية بين الدولتين، إلا إنها تمثل أيضا بشكل لا يخلو من المفارقة موضع لقاء بين العسكريين الأميركيين والكوبيين.

وتطالب حكومة فيدل كاسترو منذ قيام الثورة الكوبية باستعادة الجيب الأمريكي الذي تعده من آثار الاستعمار الأسباني، وكان البعض يخشى أن يثور غضب الحكومة الكوبية بعد إعلان وصول أسرى من مقاتلي طالبان إلى القاعدة، خاصة أن فيدل كاسترو كان قد انتقد الحرب في أفغانستان، على الرغم من إدانته لهجمات ١١/ أيلول- سبتمبر على الولايات المتحدة.

وتبدأ قصة غوانتانامو قبل نحو مائة عام وبالتحديد في عام ١٩٠٣م حينما وافقت كوبا على التخلي عن هذه المنطقة، الواقعة في أقصى جنوبي شرق البلاد وعلى مسافة حوالي ألف كيلومتر من هافانا، لجارتها الصديقة آنذاك

الولايات المتحدة، كبادرة امتنان من الكوبيين للدعم الذي قدمه الأمريكيون لهم أثناء المقاومة الكوبية للاحتلال الأسباني وذلك في مقابل إيجار سنوي قدره أربعة آلاف دولار.

ومن اللافت للنظر أن الحكومات الكوبية المتعاقبة لم تقم بصرف أي شيك من الشيكات التي لا زالت الولايات المتحدة تقدمها لها حتى الآن، وذلك في إشارة إلى اعتراضها على الوضع الراهن، وحين اندلعت أزمة الصواريخ السوفيتية في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٦٢م، دافعة بالعالم إلى شفير حرب نووية، قامت فرقة من (١٨) ألف جندي كوبي بحراسة غوانتانامو، وتم زرع المنطقة المحيطة بها بالألغام، ومع انتهاء الحرب الباردة، فقدت القاعدة أهميتها الاستراتيجية وباتت تستخدم بصورة أساسية كمعسكر تدريب، كما نقل إليها عشرات الآلاف من اللاجئين الكوبيين والهايتيين ممن ألقي القبض عليهم وهم يحاولون الوصول إلى السواحل الأمريكية.

وعلى الرغم من تقلص أهمية قاعدة غوانتانامو البحرية مع أفول نجم الاتحاد السوفيتي السابق، ومن ثم انفراد الولايات المتحدة بالعالم، وتحولها إلى القطب الأوحد، فقد عادت هذه البقعة إلى دائرة الضوء مجدداً بعد نقل أسرى طالبان إليها، وتقع غوانتانامو على مقربة من أراضي الولايات المتحدة، فهي تبعد حوالي (٩٠) ميلاً فقط عن ولاية فلوريدا، كما يمتلك الجيش الكوبي قاعدة عسكرية مجاورة لها على مساحة تبلغ حوالي (٢٠) ميلاً، وكما كانت مسرحاً لإظهار الكراهية بين الكوبيين والأمريكيين حين اعتاد الجنود الموجودون في القاعدتين المتجاورتين التراشق بالحجارة وتبادل الشتائم فيما بينهم لفترات طويلة.

كتاب "الطريق الى غوانتانامو"

كشف كتاب الطريق إلى غوانتانامو اعترافات المترجم الأمريكي الذي يعمل في معتقل غوانتانامو (إيريك سارد)[1] عن جوانب مظلمة وممارسات وحشية ظالمة وأساليب منافية للمواثيق والأعراف الدولية.

وبيّن المترجم في كتابه -الذي نعرضه الآن- والذي ألفه مع زميلته فيفيكا نوفاك[2] مراسلة صحيفة (تايم) في واشنطن، أنه أدرك منذ البداية صعوبة الاستمرار في مهامه من هول المعاناة التي يتعرض لها المعتقلون هناك، لافتاً إلى أن معتقل غوانتانامو ليس مجرد منفى للمعتقلين من الدول العربية والإسلامية، وإنما للجنود والضباط والمحققين الذين وصفهم وزير الدفاع رامسفيلد بأنهم "أسوأ السيئين".

وروى سارد وزميلته تفاصيل حياة المعتقلين وشعورهم بالملل والإحباط فيما تحفزهم بعض الرسائل الواردة من الأقارب على مزيد من الصبر والتحمل وأن الجزاء سيكون أكبر كلما زاد تحملهم المشاق هناك، ووفقاً لسارد فإن كثيراً من الضباط والمترجمين من أصول عربية، كما أنهم ينقسمون قسمين:

(الأول) يعتقد أن المعتقلين هم السبب بل هم منفذو أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر.

(والآخر) يعتقد أن غالبية المعتقلين لا ذنب لهم فيما حدث، ومن ثم تصعب الإجابة على أسئلتهم.

---

[1] إريك سار خدم برتبة رقيب في الاستخبارات العسكرية الأمريكية في معسكر جوانتانامو لمدة ٦ أشهر من ديسمبر ٢٠٠٢ إلى يونيو ٢٠٠٣م، وكان ضمن فريق دعم الاستخبارات والتحقيقات.تخرج في كلية كينجز كلوليج في بنسلفانيا.

[2] فيفيكا نوفاك مراسلة لصحيفة تايم في واشنطن وتغطي الشؤون القانونية والإرهاب والحريات المدنية وأموراً أخرى.

"كانت مهمتنا الرئيسية مراقبة السماء في أريزونا بحثاً عن أي جنون قادم"!.

بمثل هذه العبارة يفتتح المؤلف كتابه، تعليقاً على أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ويقول المؤلف بعد التحاقه الفوري بالخدمة: "كانت الأقاويل في القاعدة ذلك اليوم تتحدث عن أن ذلك كان من تدبير أسامة بن لادن، جميع الذين أعرفهم في مجال الاستخبارات كانوا يعتقدون أنه جاد في تهديده باستهداف أمريكيين".

ويقول: "كنت أسمع كلاماً في دوائر الاستخبارات بأننا سنشن حرباً شاملة، ليس فقط في أفغانستان ولكن في شتى أنحاء العالم الإسلامي، بالنسبة لي ولمعظم زملائي في الجيش كنا ننتظر بلهفة بداية العمليات".

ثم يقدم الكاتب وصفاً موجزاً للأعمال العسكرية والاستخباراتية التي قام بها الجيش الأمريكي تحضيراً لغزو أفغانستان، مع ذكر مهامه التي قام بها في تلك المرحلة.

وبعد تحقق الغزو واحتلال أفغانستان، يذكر المؤلف انطباعه عن الدفعات الأولى من أسرى المجاهدين الذين يصفهم بـ(القاعدة) تارة وبـ(بالإرهابيين) تارة أخرى.

يقول: "في كانون الثاني/ يناير من ذلك العام، كانت إدارة بوش قد بدأت بإرسال معتقلين مشتبه بأنهم إرهابيون من أفغانستان إلى معسكر غوانتانامو، كنت أتمنى أن ينتهي الأمر بأي شخص له ارتباط ولو بعيد بالقاعدة في ذلك المعسكر، ليس هناك مكان أفضل من غوانتانامو (غيتمو كما يطلق عليه) لإرسالهم إليه، لأنه يعد منفى حتى بالنسبة للجيش نفسه".

التحاقه بمعتقل جوانتنامو

"أسرتني فكرة الذهاب إلى غيتمو"، ويقول المؤلف: "كنت قد رغبت في دخول مجال التحقيق عندما انخرطت في الجيش أساساً، كنت أعتقد أنني أحب التحدي الفكري الذي يأتي مع ذلك النوع من العمل".

"كنت قد تعلمت خلال فترة إعدادي لغوياً اللغة العربية الفصحى، كما تعلمت الكثير عن ثقافة الشرق الأوسط، وجغرافيته وسياسته وتاريخه على يد ستة أساتذة من مختلف الدول العربية".

ويبعث المؤلف بالرسالة الآتية الى حكام الدول الإسلامية إذ يقول بالحرف: "من دواعي السخرية أن الدول الإسلامية كانت تتحدث عن تكريسها للإسلام، ومع ذلك كانت هناك خلافات قاسية ومرة بين تلك الدول؛ لأسباب سياسية وطائفية"!.

ثم يتحدث عن ابتعاثه إلى مصر لتعلم الثقافة العربية والإسلامية من خلال (سياسة الدمج والمعايشة) التي تتبعها وكالة الإستخبارات الأمريكية، فيقول: "كنت دائماً أسمع السؤال: لماذا تدعم أمريكا إسرائيل دائماً؟، ورأيت كيف أن معظم المسلمين معتدلون ولا يتفقون مع الطروحات المتطرفة والمتعصبة لبعض الجماعات المتشددة".

"وغادرت إلى جوانتانامو في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢م"

يقول وهو مستلقٍ على سريره يقلب شاشات التلفزيون: "صور المعتقلين الأوائل على شاشات التلفزيون وهم يصلون إلى غوانتانامو، ويجلسون في الوحل في ملابسهم البرتقالية الخاصة، فيما كانت أعينهم معصوبة وأيديهم مقيدة لم تزعجني مطلقاً كما أزعجت البعض".

العزل القانوني

ثم يذكر الكاتب النقطة التي انطلقت منها ادارة بوش في حجب المعتقلين عن حقوقهم الإنسانية والقانونية، فيقول: "كانت إدارة بوش قد أطلقت مصطلح (محاربين أعداء) على المعتقلين، وقررت أنهم غير مؤهلين للحصول على تمثيل قانوني، وكان نشطاء حقوق الإنسان يقولون إن كامب دلتا – المعتقل الأول في غوانتانامو – لا إنساني".

ويستطرد المؤلف في رحلة البحث عن أسامة بن لادن فيقول: "كل شخص أعرفه في مجال الاستخبارات كان يعتقد أن اعتقال بن لادن يجب أن يكون في أعلى سلم واجباتنا".

العربدة الأمريكية

وبعد ذلك يذكر إريك سارد نقلاً عمن أسماه بأحد العسكريين المختصين عربدة المحققين والموظفين الأمريكيين في سجن غوانتانامو بعيد وصوله الى هناك، بالقول: "ليس هناك الكثير لفعله هنا، ما يفعله الناس هو العمل والسُكر"!.

إجراءات أمنية

يقول المؤلف: "تحدث إلينا أحد كبار المسؤولين الأمنيين في القاعدة وقال لنا إنه لا يسمح لنا بالكتابة أو الحديث عن جوانب متعددة في المعسكر وما يدور فيه لأي شخص، أو أن نلتقط أي صورة في أجزاء محددة ومعالم معينة من القاعدة، لا يسمح مثلاً بالتقاط صور للشاطئ إذا تضمنت اللقطة أي جزء من الشاطئ القريب من معسكر الاعتقال، كنت معتاداً على السرية في عملي،

ولذلك لم يزعجني أي شيء تحدث عنه، ولا حتى الاستمارة التي كان علينا أن نوقعها لنتعهد بعدم الإفشاء بأي معلومات سرية".

"كنا قلقين حول أي مجموعة لغوية سيتم تعييننا فيها، كانت هناك مجموعتان لغويتان منفصلتان تعملان في المعسكر، واحدة في التحقيق وتحليل المعلومات وكانت جزءاً من مجموعة الاستخبارات المشتركة (جي آي جي)، وفريق آخر يترجم الاتصالات اليومية بين المسؤولين في المعسكر والمعتقلين، وهو فريق تابع لمجموعة عمليات المعتقلين المشتركة (جي دي أو جي)، لقد تطوعت خصيصاً لكي أكون جزءاً من التحقيق".

نكتة من المؤلف: جندي امريكي مسلم ملتزم في غوانتانامو

"عندما انتهى تعريفنا بالمعسكر، اقترب منا ضابط عربي أمريكي وسيم من القوى الجوية.. واتضح أننا سنكون معاً في نفس الوحدة، الطريقة الودية التي قابلنا بها لم تكن الطريقة العسكرية، ولكن كان معروفاً أن القوى الجوية أقل تقيداً بالإجراءات العسكرية النظامية، قدم نفسه على أنه الكابتن سالم منصور، قائدنا الجديد، كان من مواليد السودان ومهندساً في هندسة الفضاء، وكان مسلماً ملتزماً – أحد الأمريكيين العرب الذين طلب منهم التطوع للخدمة في المعسكر؛ لأن الجيش كان يعاني من نقص في ناطقي اللغة العربية، وعندما سأله مارك عن اسم الفريق الذي سنعمل فيه، قال الكابتن منصور: ستكونون في فريق تابع لمجموعة عمليات المعتقلين المشتركة".

ثم يستطرد قائلاً: "في حفلة العشاء كان هنا حوالي عشرة أشخاص، معظمهم يبدو أنهم من أصول عربية وفي العشرينيات من أعمارهم، وقدمنا الكابتن منصور إلى شاب من أصل تركي سأله مارك عن العمل في مجموعة اللغويين، فلم يتردد التركي بالقول: هذا الفريق فيه مسيحيون ويهود وملحدون

ومسلمون، جميعهم لديهم آراؤهم الخاصة عن هذا المكان، نقضي كثيراً من وقتنا معاً، ونتجادل حول المعسكر أو الدين، بيني وبينكم هذا المعسكر كارثة، كل وكالة أرسلت شخصاً ما إلى هنا للتحقيق مع المعتقلين، وجميعهم يتقاتلون حول من يتحدث إلى المعتقل أولاً، وبعد ذلك يلاحظون أنهم لا يعرفون شيئا".

أبو كافر!!

ثم يذكر المؤلف ما طلب منهم من قبل رؤسائهم في غوانتانامو من تسمية أنفسهم بأسماء عربية ليكونوا قريبين من المعتقلين، "اختر اسماً عربياً يناديك به المعتقلون خلال الأشهر الستة القادمة"، ومن أجل البساطة اخترت اسم أحد المدرسين العرب الذين علموني خلال فترة التدريب – بسام، أما مارك فاختار أن يسمي نفسه اسماً استفزازياً (أبوكافر)، رغم أن الآخرين قالوا له إن هذه فكرة سيئة".

وصف المكان الأول للمعتقلين

"مررنا قرب معسكر (كامب إكس راي) حيث كان المعتقلون في البداية وضعوا فيه من كانون الأول/ يناير حتى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢م حين افتتح (كامب دلتا)، كان (إكس راي) خليطاً من الأسلاك الشائكة والزنزانات المعرضة لتقلبات الطقس ودلاء صغيرة تستخدم بدلاً من الحمامات، كان يشبه ملجأً للحيوانات في حي سيئ أكثر منه مكاناً يوضع فيه البشر".

لماذا أنا هنا ؟

يذكر المؤلف خلال سيره في الممر الفاصل بين الزنزانات سؤالاً واحداً كان

يواجهه من قبل المعتقلين، "هل تعرف لِمَ أنا هنا؟"، ثم يجيبه المؤلف بقوله: "رددت عليه لا أستطيع أن أساعدك في ذلك".

ونقل مشاعر العداء التي يكنها حراس السجن للمعتقلين بسبب التضليل الذي كانت تمارسه الشرطة العسكرية، "إن ما يزيد الأمور سوءاً أن قادة الشرطة العسكرية يقولون لهم كل يوم إن هؤلاء الرجال هم الأشخاص المسؤولين عن هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر".

المستويات الثلاثة للمعتقلين

يستطرد المؤلف في ذكر التصنيف الثلاثي للمعتقلين على ثلاثة مجاميع أو مستويات، يقول: "كان **المستوى الثالث** للمعتقلين الذين وصلوا حديثاً أو الذين لا يتعاونون مع محققيهم، كان يسمح لهم بالأساسيات فقط – بطانية، سجادة صلاة، قبعة، قرآن، فرشاة أسنان، **المستوى الثاني** كان للذين يتعاونون بشكل متوسط، كان يتضمن السماح بأشياء إضافية بسيطة مثل كأس للشرب، وكمية أكبر من الكتب، أما **المستوى الأول** فكان لأفضل مواطني غوانتانامو، كانوا يحصلون على كل ما يحصل عليه الآخرون بالإضافة إلى ساحة لممارسة الرياضة ووقت للاستحمام، والمجلات وحتى بعض الألعاب التي يمكنهم أن يلعبوها مع المعتقلين المجاورين من خلال الحاجز الشبكي، حتى تلك الأمور الصغيرة كانت تعني لهم الكثير".

هذا المكان جنة !!

ينقل المؤلف عن أحد المعتقلين تهكمه بإحدى الطبيبات الأمريكيات، عند اقترابها منه "بدأ بتلاوة القرآن دون أن يرفع رأسه عن القرآن، وقال دون

أن ينتظر أسئلتها: إنني أنام جيداً، وآكل جيداً، ولا أتعرض لكوابيس، ولا أريد أن أؤذي أحداً، بما في ذلك نفسي، هذا المكان جنة".

يقول المؤلف واصفاً انطباعه عن المعتقلين – ونقتصر هنا على التقييم الإيجابي-: " كان الإسلام مصدر قوتهم الأساسية، ويجب أن أعترف أنه في هذه الظروف، كانت تقواهم مثيرة للإعجاب، كان معظمهم يرددون الشهادة، وجميعهم تقريباً كانوا يصلون خمس مرات في اليوم، وكانوا يصومون رمضان على الأقل، وأحياناً أكثر، وقد حفظوا أجزاءً من القرآن، بعضهم كان قد حفظ القرآن كله"، ثم ينقل تواصي المعتقلين فيما بينهم على الصبر وتحمل التعذيب، بقولتهم المشهورة: "يجب أن تبقى قوياً يا أخي، وسيأتي جزاؤك فيما بعد"، أي تذكيراً بالثواب الأخروي عند الله يوم القيامة.

التكبير يؤرق الجلادين

يشير إريك إلى حالة نادرة وفريدة، وهي صيحات التكبير التي كان يرددها المعتقلون بوجه جلاديهم، وأثرها في زعزعة أمنهم النفسي، يقول المؤلف: "كان بعض عناصر الشرطة العسكرية يفتشون القرآن بأنفسهم، وذلك كان يدفع المعتقلين إلى ما يشبه أعمال الشغب، بما في ذلك البصاق على الحارس وصيحات عالية: (الله أكبر)، كانت هذه الاضطرابات طريقتهم في قتال مضطهديهم، قدرتهم على خلق التوتر في المعسكر كانت فائقة، وكانوا يعرفون ذلك".

تكتيك اللياقة مع الصليب الأحمر

بيّن المؤلف السياسة المتبعة داخل المعتقلات الأمريكية، وهي تلافي الاصطدام بلجان التفتيش التابعة للصليب الأحمر، من خلال عكس صورة

مضللة عن الواقع، يقول بهذا الصدد: "كان عناصر الشرطة العسكرية يتصرفون بأحسن صورة إذا كانت لجنة من الصليب الأحمر الدولي تقوم بإحدى زياراتها للمعسكر، لم يكن مسموحاً لهم ولا للغوبيين بالتحدث مع ممثلي الصليب الأحمر، إلا في حالة الضرورة القصوى، كانت قيادة المعسكر حذرة جداً منهم، وكانوا يقولون لنا أن نكون حذرين فيما نقوله عندما نمر بقرب القاطرة التي يجلس فيها ممثلو المنظمة".

نظرية المؤامرة

ذكر المؤلف طرفة عن أحد المعتقلين، بقوله: " كانت نظرية المؤامرة منتشرة بقوة بين المعتقلين، كان هناك معتقل لم يكن يثق بنا مطلقاً لدرجة أنه لم يصدق أن السهم في زنزانته يشير باتجاه مكة، كان يصلي في الاتجاه المعاكس".

ماذا حلّ بحقيبتي؟!

ولكن ماذا عن سرقة الجنود الأمريكيين لأموال المعتقلين؟!، يروي إريك القصة الآتية عن معتقل شيشاني مسلم، "عندما اعتقلت في الشيشان كنت أحمل حقيبة سوداء مليئة بالأموال النقدية.

عندما وصلت إلى هنا، أكد لي المحقق أنه سوف يسأل لي عنها ويخبرني بما حل بحقيبتي وماذا سيحصل للنقود، بعد أسبوعين التقيت محققاً آخر، وقال لي إنه لا يعرف شيئاً عن الحقيبة، بعد شهر من التحقيقات استطعت أخيراً إقناع ذلك المحقق بالسؤال عن ذلك الأمر، وقال لي إنه سيعلمني بما حل بحقيبتي، لم أسمع منه شيئاً على مدى أربعة أسابيع، وبعد ذلك، عندما ذهبت إلى التحقيق، قال المحقق الجديد طبعاً إنه لا يعرف شيئاً عن الحقيبة، كانت

تبدو عليه مظاهر النقمة التامة، قال "أعرف أن أولئــك الكــلاب الأمــريكيين ينفقون مالي كله!، أريد فقط أن أعرف إذا كنت سأسترجع بعــضه أو أرســله إلى أسرتي"، قلت له: "عليّ فعلاً أن أستفسر عن الأمر، ولكن لأكون صــادقاً معك فأنا لست مهماً كثيراً هنا، وأشك أن يعطيني أحد الإجابة".

حوار بين جنديين أمريكيين

يروي صاحب الكتاب حديثاً دار بين أمريكيين يعملان في مجال الترجمة أحدهما من أصول عربية مسلمة (أحمد) والآخر من أصل كلــداني مــسيحي عربي (لين)، على خلفية معاملة سيئة من (لين) لأحــد المعتقلــين، والقــصة تعكس مقدار التعجرف الذي يتصف به أولئك الناس، يقول المؤلف: قال أحمد لصاحبه لين: "لماذا تتصرف بهذه الطريقة مع هذا الشاب؟ لماذا لــم تــساعده وتمض في سبيلك؟" رد لين بغضب: "لماذا تشعر بالحزن على هؤلاء الأوغاد يا أحمد؟" رد أحمد "لست بالضرورة أشعر بالحزن عليهم، لكننــي أعتقــد أن علينا أن نعاملهم باحترام، لم يحاكم أي منهم على أي شــيء بعــد، لا تــنس ذلك؟، صرخ لين: "محاكمات، علينا أن نأخذهم جميعاً في سفينة ونضع مرساة في رجل كل منهم ونلقي بهم في قاع المحيط، ذلك يحل المشكلة ونستطيع أن نغادر جميعاً هذا المكان"، كنا قد سمعنا مثل هذا الحديث من قبل مــن لــين، مشى أحمد مبتعداً والاشمئزاز واضح على وجهه".

أسلوب قذر في مكافأة الجواسيس

وبما أن معتقل غوانتانامو قد زج فيه الأمريكان المئات من المعتقلين ومن أصول وأجناس مختلفة، وفيهم معتقلون لا صلة لهــم بمــا حــدث، ويمكــن

توظيفهم ببساطة لأداء مهام تجسسية لنقل معلومات هامة عن بعض المعتقلين مقابل بعض الفتات.

يقول المؤلف: " كان المحققون مستعدين دائما لمكافأة هـذه المجموعـة: كانوا أحيانا يحضرون لهم وجبات من ماكدونالـدز وكـانوا يأكلونهـا أمـام المعتقلين الآخرين، وكان (...) أحد المعتقلين النـادرين الـذين يـسمح لهـم بالحصول على مجلات، وقد فوجئ مارك مرة عندما أطلعه (...) علـى مـا بداخل إحدى المجلات التي كان غلافها لمجلة "ماكسيم" ولكنهـا كانـت فـي الحقيقة مجلة "بلاي بوي" الخليعة من الداخل، وقال له (...) "سأفعل أي شيء يطلبونه مني طالما أنهم يستمرون في إعطائي هذه المجلات الإباحية".

"اكتشفت في تلك الأثناء أن الوكالة الحكومية الأخرى كانت تملك حـافزاً آخر تستطيع تقديمه للمعتقلين الذين كانوا يبدون تعاونـــاً كبيراً، فضلاً عـن الأريكة والسجائر ووجبات ماكدونالدز وغيرها، كانت هنـاك قـاطرة يطلـق عليها اسم "كوخ الحب، وكان الأسرى الذين تتم مكافأتهم ينقلـون إلـى تلـك القاطرة في رحلة قصيرة، حيث يستمتعون بمشاهدة أفلام خليعـة ومجـلات تحوي صوراً مثيرة أيضاً".

التحقيق مع مراسل الجزيرة .. أمريكا لا تحترم الإسلام !!

ثم يسرد المؤلف مساعدته لمحققة في الجيش الأمريكي واسمها (ميـشيل) في استجوابها لأحد المعتقلين واسمه (أديب)، كان يعمل فـي قنـاة الجزيـرة كمراسل في أفغانستان قبضت عليه قوات تحالف الـشمال وسـلمته للجـيش الأمريكي.

"قمنـــا بالتحقيق أيضـــاً مع معتقل آخر، كان يشكل أهمية كبيــرة لدولـــة أجنبيــــــة، لا أملك حرية كشف هوية هذا المعتقل، ولكن المثيــر في قضيته أنه كان يعمل لقناة الجزيرة الإخبارية الفضائية.

سألته المحققة: من أين أنت؟ أراد أديب أن يدخل في صـــلب الموضـــوع مباشرة، لماذا لا تقولين لي لماذا اعتقلت حكومتك مراسلاً صـــحفيا؟، قالـــت ميشيل: حسناً يا أديب، ليست لدي كل الإجابات مع الأسف حالياً، ما أســـتطيع أن أقوله لك أن من مصلحتك بلا شك الإجابة على أسئلتي، قالت: أريـــدك أن تشرح لي دورك في تمويل المقاتلين في المنطقة التي كنت تعمل فيهـــا، قـــال أديب وهو لا يكاد يصدق: ألهذا السبب أنا هنا؟، لم أمولهم مطلقاً، لن أســـتطيع مساعدتكم.

وقبل أن تنهي التحقيق طرحت عليه سؤالاً أخيراً: أديب، كيـــف عوملـــت منذ أن تم اعتقالك على يد الأمريكيين؟، قال أديب: لقد فقـــدت الكثيـــر مـــن احترامي للأمريكيين منذ أن اعتقلت، إنني مندهش من احتقار الحراس الكامل لديننا، ولا أعتقد أنني الرجل البريء الوحيد هنا، قالت ميشيل: دعني أســـألك هذا السؤال: عندما تغادر هذا المكان، هل ستقوم بتقديم برنامج عـــن الوقـــت الذي قضيته هنا؟، وإذا فعلت ذلك، ماذا ستقول في هـــذا البرنـــامج؟، أجـــاب أديب: إنني أتشوق لعمل هذا البرنامج، سأقول ما رأيتـــه بالـــضبط هنـــا: "إن السلطات الأمريكية لا تحترم الإسلام، وإنهم يحتجزن أبرياء دون توجيـــه أي اتهام لهم".

"في جوانتانامو، كنا نمارس إجراءات تجعل الكراهية أسوأ"

هذه العبارة من المؤلف تجسد ما كان يجري في ذلك المكـــان، ومـــع أن إريك صاحب الكتاب الذي نستعرض فصوله قد أخفى الكثير من المعلومـــات؛

لأغراض استخباراتية وأمنية نظراً لطبيعة عمله في الجيش الأمريكي، إلا أنه ذكر بعضاً من المواقف والتي سنأتي على ذكرها كما وصفها المؤلف من غير أية إضافة، وهي مهمة بالنظر الى حاجز التكتيم الإعلامي والسرية العالية الذي أحيطت به التحقيقات داخل معتقل غوانتانامو، أسوأ المعتقلات الأمريكية في التاريخ.

وقد كانت ما يسمى بـ "**قوة الرد الأولي**"، وهي الشرطة العسكرية سيئة الصيت تقوم بوظائف التعذيب، والإضطهاد والترويع، فضلاً عن المحققين والمحققات اللواتي كن يستخدمن الجنس كوسيلة من وسائل التعذيب النفسية.

يقول المؤلف: "كان الحراس يملكون سلاحاً في جعبتهم، إذا كان أحد المعتقلين يرفض أمراً فإنهم يستطيعون أن يستدعوا مجموعة من خمسة عناصر من الشرطة العسكرية – كانوا يطلقون عليهم مجموعة قوة الرد الأولي–، وكانوا يجبرون المعتقل على إطاعة الأمر باستخدام القوة المطلقة".

ويذكر "بأن قيادة الحراس في المعتقل كانت تذكرهم دائماً أن ينظروا إلى المعتقلين باحتقار كامل"، وينقل عن أحد الضباط واسمه (مو)، "كل شيء في المهمة يقصد منه إخافة المعتقلين، حتى المترجمون من المفترض أن يعاملوا المعتقلين باحتقار شديد ويخيفوهم إلى أقصى حد".

ويصف معاناة المعتقلين بالقول: " لم يكن هناك أي أمل لنهاية معاناتهم، كان الرئيس بوش قد وقع في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١م، قراراً مثيراً للجدل أسس لنظام جديد (للعدالة)، لاتهام ومحاكمة ومعاقبة غير الأمريكيين الذين كان يسميهم (محاربين أعداء)، ومع ذلك لم يكن قد تم توجيه أي اتهام لأي معتقل بعد، ولم يسمح لأي منهم بمقابلة محام، وكانت النهاية المفتوحة لاعتقالهم بلا شك أصعب شيء عليهم لتحمله".

ويذكر أيضاً احتجاز الأحداث دون السن القانونية من الأفغان، وفي هذا الصدد يقول: "علمت أننا نحتجز في غوانتانامو مجموعة من المراهقين الأفغان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٤ عاماً، وكانوا موجودين في مبنى منفصل اسمه معسكر (إيغوانا)، وكنت أتساءل عن جدوى احتجازهم في مكان مثل غيتمو"، ويذكر أيضاً بأن التحقيق قد يستمر أحياناً إلى عشرين ساعة متواصلة، في محاولة لإجبار المعتقل ليعترف بتفاصيل حول التخطيط لهجمات ١١ أيلول/ سبتمبر وتنفيذها.

العقوبات الجماعية

يقول المؤلف: "كانت معاملة حراس الشرطة العسكرية للمعتقلين تزداد سوءاً، وتطور استخدام مجموعة "قوة التدخل الأولي" ليصبح عملاً عقابياً.

ولم يعد مجرد إجراء لإجبار المعتقلين على الانصياع لأمر معين، الآن، إذا تعرض أحد الحراس وهو يمشي بين الزنزانات إلى إلقاء الماء عليه فإنه يبلغ المسؤول عنه بذلك، ويقوم بالتالي بطلب فريق قوة التدخل الأولي، وكان هؤلاء لا يكتفون بمعاقبة الفاعل، ولكنهم كانوا يعاقبون سكان ثلاث أو أربع زنزانات في المنطقة نفسها التي وقعت فيها الحادثة".

مغالطة قانونية مكشوفة

يعمد البنتاغون الى تزوير الحقائق كعادة الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وقد صدرت تصريحات رسمية مفادها عدم عدّ المعتقلين في غوانتانامو كأسرى حرب، ومن ثم لا تسري عليهم معاهدة جنيف، وقد أطلق عليهم وزير الدفاع الأمريكي الأسبق رامسفيلد اسم (المقاتلون غير الشرعيين)، وقد كشف المؤلف عن ذلك عند حديثه عن هذه النقطة، ونقل عن ضابط في قيادة

المعسكر ذلك التلبيس القانوني من غير إشارة منه بالرد أو عدم القبول، يقول: "أمضى الكابتن هندرسون نصف ساعة وهو يتحدث عن علاقة معسكر (دلتا) بمعاهدات جنيف، وقال إن معاهدات جنيف لا تنطبق على المعتقلين في غوانتانامو لأنهم لا يعتبرون أسرى حرب، لأنهم كانوا يفتقرون إلى تركيبة قيادة محددة مثل باقي القوات المسلحة في الدول الأخرى، ولأنهم لم يطبقوا قواعد القتال التقليدية، وأخيراً لأنهم لم يكونوا يرتدون زياً عسكرياً رسمياً".

وانتقدت المنظمات الدولية تصريح رامسفيلد، وقالت "جامي فيلنر" المسؤولة في مجموعة «هيومان رايتس ووتش» المعنية بحقوق الإنسان، السبت ١٢-١-٢٠٠٢م: إن عبارة «مقاتلون غير شرعيين» تنص ضمنا على توفير أقل قدر من الحقوق والحماية المكفولة بنص المواثيق لأي تصنيف من تصنيفات السجناء، وأضافت فيلنر أن الولايات المتحدة وضعت كل هؤلاء المعتقلين تحت تصنيف «مقاتلون غير شرعيين»؛ لأن ذلك يناسب أجندتها السياسية.

وأكد العديد من المحللين السياسيين أن الأفراد التابعين لحركة طالبان وتنظيم القاعدة الذين احتجزتهم الولايات المتحدة في قاعدة "غوانتانامو" بكوبا يُعدون أسرى حرب، وتنطبق عليهم اتفاقيات جنيف لأسرى الحرب الموقعة عام ١٩٤٩م.

وقالت اللجنة الدولية للصليب الاحمر إنها تعد السجناء الذين تحتجزهم الولايات المتحدة في قاعدة غوانتانامو في كوبا أسرى حرب، بالرغم من رفض واشنطن منحهم هذه الصفة، ونقلت وكالة رويترز للانباء عن "دارسي كرستيان" الناطق باسم الصليب الاحمر قوله "إن المحتجزين قد أسروا أثناء القتال، ولذلك فإن الصليب الأحمر يعدهم أسرى حرب".

قال د. "محمد السيد سعيد" رئيس مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لشبكة "إسلام أون لاين.نت" الإثنين ١٤-١-٢٠٠٢م: "إن ما ذكرته وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) بأن مقاتلي القاعدة ليسوا أسرى حرب غير صحيح؛ لأن هؤلاء المقاتلين تم أَسْرُهم في حرب دارت رحاها -وما تزال- بين أفغانستان والولايات المتحدة، وأضاف أنه حتى مع افتراض أن عناصر القاعدة لا يُعدون أسرى حرب؛ فهم مدنيون ينبغي مراعاة حقوقهم المدنية، وهذا الأمر يُعد أكثر خطورة؛ فحقوق المدنيين أوسع بكثير من حقوق الأسير.

واتفق مع د . سعيد "أبو العلا ماضي" مدير المركز الدولي للدراسات بالقاهرة؛ حيث طالب بضرورة تحرك المنظمات الحقوقية العربية والدولية للضغط على الولايات المتحدة من أجل أن توقف محاكمتها العسكرية اللاإنسانية بحق مقاتلي القاعدة، وأن تتم محاكمتهم محاكمة دولية عادلة في بلد محايد، وتحت إشراف الأمم المتحدة.

يُذكر أن اللوائح العسكرية الأمريكية التي أُعلنت عام ١٩٩٧م حول معاملة الأسرى والمعتقلين تنص على معاملة كل الأسرى بطريقة إنسانية بموجب اتفاقيات جنيف إلى حين البتّ في وضعهم بواسطة محكمة فحص من ثلاثة ضباط، وتعريف السجين بحقوقه، والسماح له بحضور جلسة المحاكمة، وتوفير مترجم له إذا دعت الحاجة لذلك، واستدعاء الشهود، والبتّ في وضعه عن طريق أغلبية الأصوات على أساس ترجيح الدليل.

ولم يكن إريك سارد الذي نعرض لكتابه هو أول من كشف عن أساليب التعذيب داخل غوانتانامو، بل قد شاركه بعض الجنود الذين كانو معه في الخدمة، ومنهم كريستوفر برندون وهو مجند سابق في الحرس القومي الأميركي، والذي كشف بدوره عن حقائق مثيرة عن معسكر غوانتانامو الذي أسماه بـ «معتقل الشيطان»، وكان قد أدلى بتصريح لصحيفة «العرب»

القطرية بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٢م "إن التعذيب بالمعتقل ممارسة لا تتوقف ولا يمكن تصور أهواله"، وأضاف من لندن -حيث ينشّط حملة لإغلاق معتقل غوانتانامو مع الصحافية البريطانية والناشطة الإسلامية البريطانية إيفون ريدلي ومعتقلين سابقين- "أن معتقلات غوانتانامو، وباغرام و(أبوغريب) ستبقى وصمة عار في تاريخ بلاده".

إغلاق السجن

ونظراً للسياسة الجديدة في تلميع صورة الوجه القبيح للولايات المتحدة الأمريكية، فقد وقع الرئيس الأمريكي باراك أوباما في ٢٢ كانون الثاني ٢٠٠٩م، أمراً تنفيذياً لإغلاق سجن غوانتانامو خلال عام، وقد أمر وزير الحرب الأمريكى غيتس هيئة أركانه بإعداد خطة لإغلاق المعتقل الموجود فى القاعدة البحرية الأمريكية فى خليج غوانتانامو بكوبا، حسبما قال البنتاغون يوم الخميس ١٨ كانون الأول/ ديسمبر السابق،.وقال المتحدث باسم البنتاغون جيوف موريل: أن أوامر غيتس تستند إلى إعلان الرئيس الأمريكى المنتخب باراك أوباما بأن اغلاق غوانتانامو يمثل أولوية.

ووفقاً لوزارة الحرب الأمريكية، فإنه بالرغم من نقل مئات السجناء من غوانتانامو إلى دول مختلفة، فإنه مازال هناك (٢٧٥) سجيناً في المعتقل، يصنفون بأنهم (مقاتلون أعداء).

تقييم عام لكتاب: الطريق الى غوانتانامو

١. لا تخلو شهادات المؤلف التي نقلها من داخل السجن من الأهمية الوثائقية ذات المحتوى الأمني والسياسي.

٢. كتب الكتاب بأسلوب العرض القصصي المشوق من قبل الصحفية فيفيكا نوفاك، وهي تعمل كمراسلة لصحيفة تايم في واشنطن.

٣. لم يخف المؤلف مشاعر الكراهية التي كان يشعر بها تجاه المعتقلين، وظهرت منه عبارات غير لائقة، ومن ذلك قوله: "صور المعتقلين الأوائل على شاشات التلفزيون وهم يصلون إلى غوانتانامو، ويجلسون في الوحل في ملابسهم البرتقالية الخاصة، فيما كانت أعينهم معصوبة وأيديهم مقيدة لم تزعجني مطلقاً كما أزعجت البعض، كنت فرحاً لأنهم وقعوا في قبضة الأمريكيين".

وعند حديثه عن المظاهر الدينية داخل السجن يقول: " أدهشني ذلك، فوجئت بأننا نقدم ذلك التنازل للتعصب الديني للإرهابيين، بعد أن تعرفت على الإسلام المتطرف خلال وجودي في القاهرة، بدا لي أن قيادة المعسكر كانت تساعد على تسهيل تكريس الإرهابيين الديني، في الوقت الذي توقعت فيه أن يبعدوهم تماماً عنه".

٤. لقد أنصف المؤلف نفسه من خلال نقل الكثير من صور التعذيب والانتهاكات من داخل المعتقل، لا سيما وإنه كان يعمل ضمن فرق التحقيق كمترجم، فضلاً عن طبيعة عمله الاستخباراتية، وهي صور قد يحجم عنها الكثير من الجنود والضباط، لأسباب أمنية وأخرى تتعلق بمشاعر الكراهية الدينية، وإن كان المؤلف قد أغفل متعمداً على ما يبدو صور الإهانة الدينية للمصحف الشريف، وأضفى تفسيراً ذاتياً من عنده للحادثة، وكذلك الجزء المتعلق بأوجه التعذيب الأخرى والتي نقلها جنود آخرون عملوا في المعتقل نفسه.

٥. يتضمن الكتاب سرداً مفصلاً للحياة داخل ذلك المكان، فضلاً عن ذكر حوادث كثيرة بتفاصيلها الدقيقة، الأمر الذي ينم عن دقة ملاحظة المؤلف،

وحسن تعاطيه مع الأحداث، وقد أحجمنا عن ذكر بعض المشاهدات التي نقلها حول التعذيب الجنسي للمعتقلين من قبل مجندات أمريكيات، نظـراً لطبيعـة الأسلوب الذي عرضت به تلك الحوادث، وفقـاً لنظريـة الأدب المكـشوف، والنمط الأمريكي في الكتابة والذي لا يتورع عادة عن ذكر الفضائح بطريقـة تفتقر الى اللياقة الأدبية.

٦. تمت الإفادة مما ذكره المؤلف من قبل بعض المنتجين الـسينمائيين فـي أمريكا، فصدرت نسخة من فيلم يحمل الإسم نفسه (الطريق الى غوانتانـامو)، وتم توظيف المعلومات بطريقة ذكية ومؤثرة.

نص رسالة جبهة علماء الأزهر
إلى "باراك أوباما"

وجهت جبهة علماء الأزهر الشريف رسالة جديدة إلى الرئيس الأمريكي باراك أوباما.. وفيما يأتي نص الرسالة:

إلى السيد "أوباما" سيد البيت الأبيض في عهده الجديد

سلام عليك..

وهذه أول رسالة منا إليك وإلى أمتك ودولتك، حمّلنا عليها التقدير لك، والإشفاق عليك من تبعات سلفك لما بدا ويبدو منك في حقه، وقد ورِمت أنفه بأوهامه، فسعى في الأرض فساداً ثم طغى في البلاد، وسَعى في خراب الديار، فكنتَ بما بدا منك عندنا إلى الآن خيراً منه، نسأل الله لك العافية.

وإنا لنخالك سائلاً عن حقيقة تلك الجبهة التي تخط لك هذا الكتاب، بعد أن فشا الباطل، واستحكم في كثير من وسائل الإعلام والبيان، حتى كاد يحجب بأساطيله ضوء الشمس عن الناظرين إليها في رابعة النهار، وإنا نسارعك الجواب بأنه إذا كان الأزهر الشريف لا يزال عندكم كما هو عند غيركم فيه بعض معاني الإسلام اليوم، فإن في جبهة علمائه معنى الإسلام وتثبيت هذا المعنى.

وبهذه المكانة وتلك المسؤولية الشرعية والتأريخية كتبنا ونود أن نكتب إليك، "فإن العلماء ورثة الأنبياء" ينطقون بكلمتهم، ويقومون بحجتهم، فهم بعدهم للهداية لا للتلبيس، وفيهم معاني النور لا معاني الظلمة.

يا سيد البيت الأبيض

لقد أصبت إذ طلبت وُدَّ المسلمين، وخطبت حِلْفهم، وإننا نأمل لك بهذا أن تكون قد سلكت الطريق الصحيح إلى تصحيح مساركم مع أمتنا التي لم تر عداوة من جاحد مثل ما نالها من المجرم الأكبر سلفك الذي صار بحكم الواقع مسؤولاً اليوم منك وأنت أمام الله وأمام التأريخ مسؤول اليوم عنه.

وليس بخافٍ عنكم حقيقة مزاعمه التي وظّف لها كيده وسلطانه، فاستجاب لشيطانه، وقام هو على وفق ما ذاع بعد وانتشر بتخريب بيتكم، وهدم أسواقكم؛ ليتخذ من ذلك مُسوِّغاً لجرائمه التي فاقت جرائم الشيطان وجرائم نيرون.

فإن نيرون على شدة ما أجرم لم يأمر أذنابه بمثل ما أمر به بوش وأعدَّ على وفق ما جاء في شهادة الأستاذ "سامي الحاج" مصور الجزيرة في شهادته أمامها بعد أن أعتقه الله تعالى من جرائم كبير المجرمين الذي أمر بإهانة القرآن الكريم على أقبح وجوه الإهانات التي عرفها التأريخ من قبل لمجرم، وذلك بتكليفه العاهرات بأن يكُنَّ محققات مع المظلومين المعتقلين بغوانتانامو.

وكان من برامج التحقيق الذي سلكنه مع هؤلاء المعتقلين أن يطأن بأقدامهن القرآن الكريم أمام المعتقلين ثم يقمن بإلقائه بأوعية الغائط أمامهم – إذلالاً للمعتقلين وإهانةً لهم – بالإضافة إلى مافعلن من جرائم أُخر على فظاعتها في ذوات المعتقلين وأشخاصهم مما لا يملك أحد التنازل عنه، أو التسامح فيه، كما أنه لا يحل في شرعنا السكوت عليه أو التغافل عنه!.

أيها السيد

وإنك مهما تفعل لتصحيح ماكان من سلفك هذا – وهو بكل المقاييس صار في الإجرام العالمي إماماً – فلن تبلغ شيئًا من مرضاة الله ومرضاة عباده حتى ترُدَّ إلى القرآن الكريم حقه عليكم، وعلى العالمين، ذلك أنه لن يثبت حقٌّ لنبي ولا حرمةٌ لرسول ولا معلم لحق من الحقوق ما لم يثبت حق القرآن الكريم أولاً.

فهو سجل الحق الباقي على الزمان الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)، وقد رأيتَ أنت وسمعت ما كان من محطة القناة اليهودية العاشرة في حق روح الله عيسى ابن مريم وأمه الصديقة (عليهما السلام) دع عنك ماكان ويكون منهم في حق أخيه خير الخلق (محمد صلى الله عليه وسلم) من هؤلاء الخنازير الذين هم صنيعة أوروبا فينا وربيبتكم عندنا.

يا سيد البيت الأبيض

إن أمتنا لم تكن يوماً من حزب الظلام، ولا عصبة اللئام، ولافرقة الهدم، ولا جماعات الخصام، حتى يستحل هذا المجرم منا ومن ديننا ما استحل، إنما كنا – ولانزال بحمد الله – خير أمة أخرجت للناس، أمرنا بالمعروف، وأعلنا من قبل كلمة الله، وبلَّغنا رسالة الحق، وحملنا أمانة العلم.

هذا تأريخنا أنت تعلمه، تتألق أيامه الغُرُّ في ظلام الماضي، كما تتألق النجوم الزهر في حلك الليل.

أرشَدَنا الضالَّ من قبل فاهتدى، وحمينا الذليل فعز، وعلَّمنا الجاهل فتعلم؛ ولا يخفى على مثلك أننا مكَّنا في أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير حتى قويت في كل نفس، وازدهرت في كل جنس، وانبعثت في كل دين؛ وانتشرت في كل أفق؛ وحققنا لهذا الإنسان الذي كان طريد العدوان، وعبد الطاغوت أحاديث أحلامه؛ وهواجس أمانيه.

من الأُخُوَّة التي يعمُّ بها النعيم؛ والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخصب فيها المواهب؛ وذلك لأن رسالتنا لم يُوحها الجوع ولا الطمع، ولا (يهوا) إله الجنود، وإنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة، وجعل الظلمات والنور، وأوجد الفساد والصلاح، ليدرأ قوة بقوة، ويُصلح نظاماً بنظام، وينقذ إنساناً بإنسان، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ الحج/٤٠ .

ثم أدركَنا ما يُدرك الخلائق من ضعف المخلوق، ونقص البشر، وأعباء المجد، فأغفينا حِقبةً على رجاء أن نستجم فطالت بنا الغفوة؛ حتى كان ما كان مما نزل بالعالم وبنا من سُعار الجشع المسلح الذي يعصف بنا اليوم وبه، ونيران الطمع الباغي الذي أحاط بنا وبه، ثم ها هي أديان الشرق قد قلبَها المزاج الغربي إلى كَلَبٍ وغَلَبٍ: فعبقرية موسى- عليه السلام - ربا ودسيسة، وروحية عيسى عليه وعلى أمه البتول السلام خصومة وحرب.

وهكذا تحرّك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة، على أن من شأن تعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة أن تنفي الخبيث وإن طال الزمان، وتطرح الغثاء وإن بعُد العهد، وتركُمُ الأحداث وإن صغرت أو هانت، وابن آدم في يد القدر المُصرِّف محراث ومِنجل، بعضه يزرع الأمان والعمران والخير، وبعضه يصنع بمنجله الخراب؛ ويقطع السلام والوئام والحب.

والإسلام والحمد لله قوته فيه، ودفاعه منه؛ ولا يزال كتابه بأيدينا يعمر القلوب بالقوة، ويغمر النفوس بالحياة: والقوة هي قوة الإيمان أولاً، والحياة حياة الروح؛ أما قوة الأساطيل على الماء بغيرهما؛ وفي الهواء بدونهما

فعُمرها يوم وليلة؛ ثم لا تكون بغير الإيمان الذي خرج من عندنا إلا دخاناً في السماء، وحطاماً على الأرض، وتأريخاً قبيحاً عن قريب يجد أصحابه (ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً).

وإننا باسم علماء الأزهر الشريف وعلماء الشريعة نطلب منك لك ولبلدك وللإنسانية التي تعنت كثيراً بسلفك أن تُتبع خطواتك الوئيدة في الحق بما يُعززها من قرارات تنقذ بها أمتك من غضب الله الماحق، وتُجَمّل بها وجه دولتك الذي صار قبيحاً إن أردت، لقد طلبتم من تركيا العون والمساعدة في إخراج جيوشكم المتورطة في العراق، وهذا حسن.

لكن أحسن منه أن تسحبوا بقية جيوشكم العسكرية من ديارنا، ثم تلحقوا بقية المعتقلات السرية التي لوَّث بها سلفكم فجاج الأرض ودروبها بما ظهر منكم بشأن معتقل غوانتانامو، ثم تسحبوا كتائب التبشير والتنصير العاملة في ديارنا تحت مسميات ومظلات الثقافة والتنوير الكاذبين، فليس من الخير لنا ولكم أن تتخرج على مشورات هؤلاء فينا كتائب التربية والإرشاد، والتعليم والتوجيه بغير رصيد من ذلك إلا رصيد الألقاب الكاذبة، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها كله العذاب.

فنطق على ذلك من ارتضوه فينا عالماً بكلام يرده الشرع، ونافق حتى صار كلٌ منافق أشرف منه، وما في ذلك خير لأحد، فإنّ أهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم، فينزلونهم منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها.

والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله، فيجعل من وقاره بلادة، ومن رقته ضعفاً، ومن محاسنه نفاقاً، ومن سكوته على الظلم رشوةً يأكل بها، وهذا من بعض آثاركم، وما لم تتبع ذلك كله على أهميته بإنصاف كتاب ربنا بمساءلة المجرمين الذين أجرموا في حق القرآن منكم،

ثم رد الاعتبار إليه بالاعتذار الرسمي المناسب له، فلا قيمة لأي عمل في ميزان الحق تبذلونه تجاه المسلمين وإن عظُم.

إنك إن فعلت تكن قد أحسنت إلى تأريخك، وأحسنت إلى أمتك وذلك بدفع غضب الله عنها، غضب الله الذي لا تقوم له قائمة، وقد بدأت نذره تنزل بكم ومعالمه تظهر فيكم.

إن الغرب بغير الشرق لا يكون إلا كما يكون الجسم بغير روح، ونحن نأمل أن تأتلف العقول، وتتحالف القوى لإقرار النظام في الدنيا والسلام في العالم.

ولن يكون ذلك بالصمت أو التغابي عن حق كتاب ربنا الذي أهنتموه في دياركم، والإسلام هو دستور الديمقراطية الصحيحة، والأخوة الشاملة، يبسط يده لكل يد تدفع الإنسانية إلى التقدم، وترفع المدنية إلى السمو، وإنّ نورَه من الله، وسيسطع ما سطعت الشمس، وإن صوته من السماء، وإن سلطانه من العدل.

وسيبقى ما بقي الكون، فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه، وتغنموا رِفْده؛ أما الخداع والرياء، أو الشدة والجفاء وسوء الأدب؛ فتلك أسلحة مفلولة، إن قطعت قبلُ بالأمس فلن تقطع بعد اليوم.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ غافر/٤٤

صدر عن جبهة علماء الأزهر

الثاني من ربيع الأول ١٤٣٠هـ

الموافق ٢٧ من شباط/ فبراير ٢٠٠٩م

بيان هيئة علماء المسلمين في العراق المتعلق بخطاب الرئيس الأمريكي أوباما بشأن سحب قواته من العراق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد أعلن الرئيس الأميركي باراك أوباما في خطاب له أمس عن سحب القوات الأميركية القتالية من العراق خلال ١٨ شهراً تنتهي في ٣١ آب/ أغسطس ٢٠١٠م وبقاء قوة انتقالية لا تزيد عن ٥٠ ألف جندي إلى حين استكمال الانسحاب بشكل كامل مع نهاية العام ٢٠١١م.

وهذه أولى البشارات لأبناء المقاومة العراقية على أن دماء أبنائها الطاهرة التي أريقت في سبيل تحرير البلاد والعباد من الاحتلال البغيض لم تذهب سدى، وأنها قاربت على بلوغ أهدافها، فلها منا كل التبريكات والتهاني، ولها من أبناء الشعب كل الشكر والعرفان، وسدد الله خطاها في مواصلة الطريق حتى لحظة الخلاص النهائية من الاحتلال وتبعاته وأعوانه.

وعلى الرغم من أن هذا الانجاز وحده نصر، إلا أن الرئيس الأمريكي حاول التهرب فيه من كل ما قد يشير إلى ذلك مراعاة ـ على ما يبدو ـ للحالة المعنوية العامة في أمريكا.. وإننا في هيئة علماء المسلمين بعد ما تقدم ، الملاحظات الآتية على هذا الخطاب، وهي:

أولاً: من الواضح جداً أن الرئيس الجديد يسعى إلى انسحاب هادئ من طرف واحد، لا يوحي بأنه انسحاب هزيمة، ومع أن ذلك لا يغير من الواقع شيئاً، فلولا الضربات المتوالية للمقاومة العراقية، والنزيف الاقتصادي المدمر لقوات الاحتلال بسبب هذه الضربات، لم يفكر الرئيس الأمريكي ولا غيره بالانسحاب أصلاً، فضلاً عن أن يتخذ قراراً بشأنه؛ لذا فإن الانسحاب ـ في ضوء كل الحسابات ـ يعد طريقاً للهروب من جحيم العراق.

ثانياً: إن الرئيس الأمريكي لم يفِ بوعده تماماً في قضية الانسحاب، فقد تراجع عن المدة التي حددها، وهذا يعني أنه خضع لمقتضيات الموازنات بين جناحي السياسة الأمريكية وقد تذرع بالتزامات معاهدة الإذعان، التي ذكر أنه قبيل إلقاء خطابه اتصل برئيس الوزراء الحالي وجدد التزام بلاده بالاتفاقية الإطارية الموقعة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق؛ على الرغم من أن الجدول الزمني الذي أعلنه لم يرجع فيه إلى الحكومة الحالية التي يفترض أن تكون شريكة في هذا القرار، لا أن تعلم به بهذه الطريقة.

وفي كل حال أوحى الرئيس الأمريكي أن مهماته القتالية لم تنتهِ بعد، وهذا يعني بالضرورة أن القوى الوطنية المناهضة للاحتلال هي الأخرى لم تنتهِ مهمتها بعد، وان المقاومة العراقية ستبقى إزاء ذلك في نزالها المشرف، وفي مهماتها القتالية لدحر العدو وإلحاق مزيد من الخسائر بقواته.

ثالثاً: لا يبدي الرئيس الأمريكي نقده للحكومة الحالية، ولكنه هذه المرة يلمح إلى ذلك في إطار سياق عام ودعوة لحكومة عدل.. وما شابه، متجنباً الخوض في تفاصيل قد تحرجه وإدارته من قبيل: أن هذه الحكومة أفرزتها إدارة الاحتلال قبله عبر عمليات سياسية غير شرعية، ومتورطة في انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، ومشاركة في عمليات تطهير طائفية، وغارقة في الفساد الإداري إلى شحمتي أذنيها.

كما لا يبدي رغبة في تصحيح الأوضاع الشاذة التي تسبب فيها سلفه مثل المحاصصة الطائفية والدستور الذي سرق إرادة الشعب وغير ذلك مما أسهم بشكل واسع في تدمير العراق ونهب ثرواته وإسالة دماء أبنائه، وإيداع مئات الآلاف منهم في السجون ظلماً وعدواناً، وكل ذلك لا يتماشى مع شعار التغيير الذي كان الرئيس الأمريكي وما يزال يرفعه عنواناً لسياسته.

رابعاً: أولى الرئيس الأمريكي في خطابه اهتماماً بعض الشيء بقضايا لازالت تسبب المعاناة للعراقيين، منها قضية المهجرين، ومكافحة الفساد والسعي للتعاون مع دول الإقليم في توفير الأمن والاستقرار للعراق، والتأكيد على أن أمريكا غير طامعة في ثروات البلاد وخيراته، وغير ذلك، وهي إشارات ينظر إليها على أنها إيجابية نوعاً ما، تقتضي منه المعالجة بالطرق المناسبة، وليس بالأساليب التي كانت متبعة لدى الإدارة الأمريكية السابقة، فما لم تلغ العملية السياسية برمتها، ويستبعد أبطالها الذين استهدفوا المهجرين قتلاً وتشريداً عن مواقع السلطة، وتورطوا في الفساد، والقتل الطائفي، لن يكون ثمة حل جذري لهذه المعضلات.

وفي كل الأحوال فمازلنا حتى اللحظة نرقب الأداء للرئيس الأمريكي الجديد، ونرى هل سيأخذ العبرة من سيرة سلفه، ويلتزم جانب التغيير الذي وعد به فعلياً، بعيداً عن المناورات السياسية التي ألفناها من قبل الإدارة السابقة، وتضليل وسائل الإعلام الذي اعتمدته طيلة فترة حكمها.

الأمانة العامة

٤ ربيع الاول ١٤٣٠هـ

٢٨/ ٢/ ٢٠٠٩م

بيان جبهة الجهاد والتغيير العراقية حول الخطاب الأخير لرئيس دولة الاحتلال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ الروم: ٤-٦

إن الحمد لله أولاً وآخراً على ما أكرمنا به من نعمة مجاهدة المحتلين؛ وله الحمد على صبرنا وثباتنا على طريقه المستقيم؛ والصلاة والسلام على سيد الخلق وحبيب الحق إمام المجاهدين محمد؛ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فلقد أعلن رئيس دولة الاحتلال الأمريكية الهزيمة المرّة لجيشه وحكومته في بلاد الرافدين؛ وبادر بإنقاذ ما تبقى له من قوة عسكرية ودراهم معدودة بعد أن تركوا عزتهم وكبرياءهم مهانة ذليلة تدوسها أقدام العراقيين الأباة؛ وكان هذا بفضل الله تعالى على رجال الجهاد والمقاومة الذين قدموا أرواحهم وكل غال لديهم وتركوا الدنيا وملذاتها وإغراءاتها وراء ظهورهم؛ طمعاً في

رضا الله تعالى وكانت أولى بشائر ذلك الرضا هو قرارهم بالانسحاب وإعلانهم الهزيمة؛ وبهذه المناسبة نود أن نقول:

(١) إن ما تحقق هو نصر مؤزر للمقاومة العراقية التي أذاقتكم مر العذاب وأحالت أيامكم كلها ليالي سوداء وما تحقق هو نزر يسير ستتبعه ضرباتنا المتلاحقة بإذن الله تعالى حتى يخرج آخر جندي من فوق ثرى العراق المجاهد.

(٢) إن تغليف قرار الهزيمة باتفاقيات مذلة وخسيسة مع أذناب وأعوان الاحتلال لا يغيّر من جوهر الحقيقة المرّة عليكم شيئاً؛ فأنتم تعرفون حجم الضربات التي تلقيتموها والتي أرغمتكم على الخروج وأفرغت خزائنكم التي كانت يوماً ما مليئة، ولن تنفعكم تلك الاتفاقيات سوى أنها ستجر الويلات على من وقّعها وستطاردهم اللعنة في الدنيا قبل الآخرة، فالعدو مهزوم ومذلول وهم قد تشبثوا به حتى رمقه الأخير.

(٣) إن ما تضمنه خطاب رئيس دولة الاحتلال وبصورة أساسية بعد إعلانه الفشل والانسحاب هو تصريحه باستراتيجيته القادمة والتي تدلل وبأجزائها الثلاثة على أنه سيسلك النهج السلمي في تعامله مع انسحابه الجزئي من بلدنا والفرار بمعظم قواته، فنقول له:

إن المجاهدين من أبناء العراق الغيارى سيلاحقونكم، وسوف لن يلقوا السلاح حتى تخرج مذموماً مخذولاً مع كل ما أتيت به من عدة وجنود وإنك ما سلكت هذا الدرب إلا لأنكم عجزتم عن تحقيق أهدافكم بآلتكم الحربية وقوتكم التي أصبحت وبالاً عليكم ...﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ الأنفال: ١٩.

وسوف لن تجدوا المزيد من الساحات والجسور لتنقشوا عليها أسماء أبنائكم كما زعمت، وسنعيدها مجلجلة ونازفة من صحاري الأنبار إلى شواطئ نورماندي كما ادعيت.

(٤) إن تآمركم مع عملائكم في حكومتكم التي نصبتموها حول طريقة الانسحاب وآليته التي حققتم من خلالها مكاسب مع هذه الحكومة سوف لن يعفيكم عن تعويض العراق وأبنائه عن كل ما خسروه وما دمرتموه جراء احتلالكم لبلدنا وعليكم أن تزيلوا كل آثار عدوانكم بدءاً من تشريع قانون إدارة الدولة المؤقت مروراً بالدستور الذي مزقتم به وحدة بلدنا، وبحلّ جيشنا الذي كان لكل العراقيين، وإلغاء كل القوانين التي تدخلتم بها لتفريقنا طوائف وأعراقاً وأن تتركونا نتمتع بثرواتنا الطبيعية دون تدخل منكم وانتهاءً بإزالة كل عملائكم وأذنابكم وأدواتكم لتتركوا العراق يعيش حراً طليقاً بطريقته التي يراها تناسبه دون أن تستقدموا لنا قوى أجنبية جارة لنا تتدخل بمقدراتنا وتعبث بتركيبتنا وديننا، وسنكون لها بالمرصاد.

(٥) عليكم أن تسجلوا وتحفظوا حقيقة ناصعة، أن أبناء العراق هم أهله الذين يدافعون عنه ويرفضون التدخل الأجنبي فيه، وليس هم من يضعون أيديهم بأيدي الغرباء والمحتلين، فهؤلاء لن يجلبوا لكم سوى المزيد من التخبط فهم كالطحالب لا تعيش إلا بالماء الآسن، وماء العراق زلال وسيبقى كذلك ولا يضره من يكدره حيناً من الزمن، وسيبقى العراق ثائراً منتفضاً حتى يحكمه أهله المخلصون له.

(٦) وأخيراً، فيا أبناء شعبنا العراقي الأبي، يا من سجلتم بدماء أبنائكم وأرواحهم الزكية أروع البطولات، وأبهى الانتصارات، وأشجع الجولات، هاهي لحظات قطاف ثمرات جهادكم وأيام حصاد صبركم قد لاحت في الأفق، فالثبات الثبات على خياركم في مقاومة احتلالكم، والصبر الصبر على جهادكم

حتى تحين لحظة الانتصار النهائي، والرباط الرباط على ثوابتكم (فإنما النصر صبر ساعة) وإن الله سيجزيكم عن جهادكم ورباطكم، وإن التأريخ سيسطر ثباتكم وأفعالكم بأحرف من نور، وإن كوكبة المجاهدين -ونحن في طليعتهم- ستكون معكم ورهن إشارتكم من أجل تحقيق النصر المؤزر والتحرير الناجز.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يوسف: ٢١

جبهة الجهاد والتغيير

المكتب الإعلامي

٤ربيع الأول١٤٣٠هـ

٢٠٠٩/٣/١م



نشاطات وإنجازات

قام مركز الأمة بقسميه (الدراسات) و(التطوير) وكذلك (وحدة الترجمة) التابعة للمركز في الفترة القريبة الماضية بعدد من النشاطات التي نستطيع إجمالها فيما يأتي:

أولاً: نشاطات قسم الدراسات
الجلسات الحوارية

عقد قسم الدراسات في مركز الأمة عدداً من الجلسات نصف الشهرية والتي تناقش عدداً من الكتب المختارة، وقد تم منها الآتي:

(١) كتاب (النص الإسلامي)، للمؤلف محمد عمارة، عرض ودراسة الباحث ناصر خليف.

(٢) كتاب الاجتهاد- النص والواقع والمصلحة، للكاتبين محمد جبال باروق وأحمد الريسوني، عرض ودراسة الباحث حاتم حميدي.

(٣) (الأحزاب الإسلامية في العراق)، عرض ودراسة الباحث خالد القيسي.

(٤) كتاب الاقتصاد الإسلامي (علم أم وهم؟) للمؤلفين غسان محمود ود. منذر القحف، عرض ودراسة الباحث عصام سليم.

المحاضرات العلمية

في إطار اهتمام مركز الأمة بهذا الجانب عُقدت مجموعة من المحاضرات المهمة، التي نُجملها فيما يأتي:

(١) محاضرة (مراحل تطور الأمة وأسباب تأخرها)، للدكتور حاكم المطيري، عقدت بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٥م.

(٢) محاضرة عن الإعلام والتواصل الحضاري، للأستاذ طلعت رميح، عقدت بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٦م.

(٣) محاضرة عن فن اللقاء الصحفي، للأستاذ محمد الكبيسي، عقدت بتأريخ ٢٠٠٩/٣/٩م.

(٤) محاضرة (مراكز الدراسات والأبحاث بين الوعي الفكري وعملية صنع القرار)، للأستاذ علاء فاهم، عقدت بتاريخ ٢٠٠٩/٣/٥م.

الندوات والمؤتمرات

نظّم قسم الدراسات في المركز ندوته العلمية الأولى تحت عنوان (التغيير الأميركي وأثره على المنطقة.. العراق أنموذجاً)، شارك فيها عدد من الباحثين من أقطار عربية مختلفة وهم كل من:

(١) الأستاذ طلعت رميح (من مصر) وكان بحثه بعنوان: (رحيل بوش.. خيارات أوباما.. وخيارات المقاومة).

(٢) الدكتور فالح خطاب (من العراق) وكان بحثه بعنوان: (القضية العراقية بعد مجيء أوباما).

(٣) الأستاذ رائد فوزي (من الأردن) وكان بحثه بعنوان: (استراتيجية الرئيس المنتخب أوباما تجاه العراق).

(٤) الأستاذ محمد حميد العاني (من العراق) وكان بحثه بعنوان: (تغيير اللاتغيير).

ثانيا: نشاطات قسم التطوير

قام قسم التطوير في مركز الأمة بجملةٍ من النشاطات التي نوجز أهمها فيما يأتي:

(١) مراجعة بعض الإصدارات والكتب والدراسات المقدمة من قبل الباحثين؛ لغرض طباعتها ضمن سلسلة الاصدارات التي تصدر عن المركز.

(٢) إنجاز كتاب (الفيدرالية.. الخطر الداهم)، للأستاذ عصام سليم ضمن سلسلة "قضايا العراق المصيرية" التي يصدرها المركز تباعاً، وهو الإصدار الثاني من السلسلة، كان قد صدر منها: (قانون النفط والغاز .. حقائق وملاحظات) للأستاذ حسين الرشيد.

(٣) إصدار مطوية للتعريف بالمركز.

(٥) أقام القسم العديد من الدورات وورش العمل، ومنها:

(أ) دورة متخصصة في مجال الكومبيوتر بعنوان: "أسرار وخفايا برنامجي وورد وإكسيل" وعلى مدى ثلاثة أيام (الأربعاء والخميس والسبت) الموافق (١٦،١٧،١٩/١٢/٢٠٠٨م) بواقع ساعتين يومياً، وقد شملت الدورة أقسام المركز، والزملاء المرشحين من عدد من وسائل الإعلام العراقية، ألقاها المدرب في قسم التطوير عامر الهادي في قاعة المركز.

(ب) أقام قسم التطوير وبالتعاون مع مجلس الاستشاريين العراقيين ورشة عمل بعنوان: "مدير المشروع"، ولثلاثة أيام متتالية (٢٧ – ٢٩ كانون الأول ٢٠٠٨م) بواقع (٥) ساعات تدريبية يومياً، وقد شملت الدورة أقسام المركز، والزملاء المرشحين من عدد من وسائل الإعلام العراقية، وضيوف من خارج المركز، ألقاها الدكتور محمد العاني رئيس مجلس الاستشاريين العراقيين على قاعة المركز، وقد تم تدريب (٢١) مشاركاً من داخل المركز وخارجه لتطوير المهارات المتعلقة بالإدارة الحديثة وبالتحديد حول (مدير المشروع).

تناول المحاضر في اليوم الأول (مقدمة نظرية حول الورشة) واستمع فيها الى آراء المتدربين، فيما تناولت الورشة في اليوم الثاني (مفهوم مدير المشروع، ومفاهيم عن الإدارة الحديثة، وأنواع المديرين حسب التصنيف العلمي، وصفات المدير الناجح، وسكوب مجال المشروع لمعرفة الإفتراضات الخفية)، وتضمنت أيضاً نقاشات علمية حول العصف الذهني، وتداخل المتدربون حول محاور مهمة، كما تم توزيع رسوم وملزمة بمادة الورشة.

وفي اليوم الثالث تناول الدكتور العاني (إطار العمل المتضمن للجوانب الإنسانية لمدير المشروع الناجح في المؤسسة الحديثة، وخارطة الجوانب الإنسانية العامة، وخارطة الجوانب الإنسانية الشخصية لمدير المشروع، وخارطة البيئة المناسبة لمدير المشروع الناجح في المؤسسة الحديثة)، وتم التركيز في اليوم الثالث من الورشة على الجانب العملي من خلال التمارين

التي أجراها المدرب، وتمثلت بثلاثة تمارين، قام المتدربون بتنفيذها بعد أن تم تقسيمهم الى أربع فرق عمل، كان التمرين الأول عن صياغة الهدف لتحقيق المشروع في المؤسسة، فيما كان التمرين الثاني خاصاً بخارطة البيئة المناسبة لمدير المشرع الناجح، فيما اختص التمرين الثالث بديناميكية التفكير الطبيعية داخل خطوط المؤسسة، وقام الأستاذ المحاضر بمناقشة المتدربين وتصويبهم، وقد اختتمت الورشة بإجراء تقييم عام لمسارها ضمن مخطط (قياس الأثر) على اللوحة، وقد أبدى المحاضر إعجابه بالمستوى الثقافي للمتدربين وشد على أيدي القائمين على المركز، كما قدم بعض المقترحات المهمة لرؤساء الأقسام والعاملين في المركز لتطوير العمل والرقي بمستواه، وقال في هذا الصدد (لا تنظروا إلى مركزكم كفرد وبناء، وإنما كثقافة وتجارب، مركزكم خطوة رائعة نحو النجاح).

(ج) أقام المركز أيضاً دورة سريعة حول برنامج معالجة الصور (الفوتوشوب Photoshop)، بواقع ست ساعات تدريبية، للفترة من ٢٥-٢٨/٢/٢٠٠٩م.

ثالثاً: نشاطات وحدة الترجمة

سعت وحدة الترجمة منذ إنشائها إلى رفد مكتبة المركز بكل ما هو جديد من الإصدارات باللغة الإنكليزية سواء أكتباً كانت أم تقارير،كما قامت الوحدة بترجمة التقارير المعدة للنشر في مجلة حضارة، وترجمة ملخصات الكتب الصادرة عن المركز ومنها (قانون النفط والغاز.. حقائق وملاحظات) فضلاً عن بعض الإصدارات الأخرى المنشورة خارج إطار المركز نحو كتاب

(العراق في زمن الديمقراطية) للباحث والإعلامي العراقي حـسين الرشـيد، وذلك لأهميتها في فضح مخططات وممارسات الاحتلال في العراق.

فضلاً عن إقامة دورات تثقيفية وتطويرية باللغة الإنكليزية للعاملين فـي وحدة المجلة لمواكبة أحدث التطورات في أساليب الإعلام والتوثيق وإيـصال الخبر.

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر - التجارية - مصر

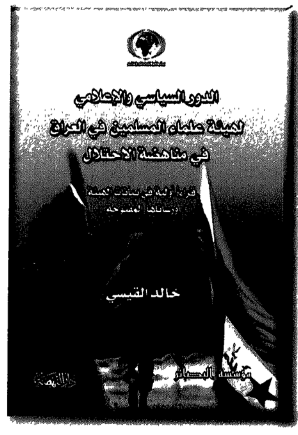


يصدر

الدور السياسي والإعلامي لهيئة علماء المسلمين في العراق

قراءة أولية في بيانات الهيئة ورسائلها المفتوحة

تأليف
خالد القيسي



تأتي هذه الدراسة الموجزة لترصد بإجمال الدور السياسي والإعلامي للهيئة، تمهيداً لدراسة أوسع تهدف إلى تناول هذا الموضوع المهم بكل تفاصيله وجزئياته وأبعاده.. ويقرأ هذا الإصدار بعضاً من تأريخ الأيام الأولى للاحتلال وينبه على خطورة المرحلة التي يعيشها العراقيون في هذا البلد الجريح وإلى الطريقة التي يسلكها الاحتلال في تنفيذ مخططاته.. وقد اعتمد المؤلف على بيانات الهيئة ورسائلها المفتوحة، إذ تعدّ تلك البيانات والرسائل وثائق مهمة لرصد الأحداث، والمواقف السياسية والاجتماعية وفق رؤية واعية ومستقبلية، فضلاً عن موقفها من تلك الأحداث، ليكون بمقدور الشعب العراقي الاطلاع على تلك المواقف، مما يسهم بدور كبير في تطور الوعي لدى الشارع العراقي والتأثير في الرأي العام الدولي.

العدد الأول محرم/ ١٤٣٠هـ - كانون الثاني/ ٢٠٠٩م



مركز الأمة للدراسات والتطوير
ALUMMA CENTER FOR STUDIES & DEVELOPMENT

مركز الأمة للدراسات والتطوير

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية. كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز:

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال ومما نعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة:

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

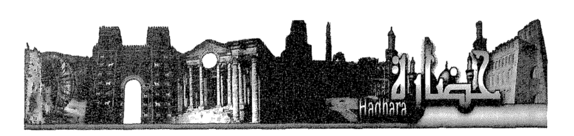
(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز:

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة التي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.



مجلة فصلية متخصصة تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الأول

محرم ١٤٣٠هـ - كانون الثاني ٢٠٠٩م

نقال: ٧٨١٠٨٠١٠٢١ (+٩٦٤)
نقال: ٧٤٨٧٦٠١١ (+٢٠١)
تليفاكس: ٣٧٦١٩٥٩٦ (+٢٠٢)
البريد الإلكتروني: editor@hadharamagazine.net

Mobile: (+964) 7810801021
Mobile: (+201) 74876011
Telefax: (+202) 37619596
E.mail: editor@hadharamagazine.net

شروط النشر في المجلة وضوابطه

١. أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

٢. الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقا علميا، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

٣. ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

٤. إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

٥. أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

٦. تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) وأن لا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

٧. لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها. وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

افتتاحية العدد

المشرف العام

بحمد الله وتوفيقه يطل العدد الأول من مجلة حضارة بعد العدد التجـــريبي الذي صدر في الربع الأخير من العام الفائت، وإذ تفتتح (حـــضارة) عامهـــا الأول؛ فإنها تسعى جادة إلى تحقيق هدفها في أن تكون منبراً منتجاً لفكر ملتزم بـــ(ثقافة الممانعة) التي تسعى لأن تكون ميداناً لبحثهـــا ومعرضـــاً لنـــشرها، ووسيلة للتعريف بالنشاط الفكري العراقي في أوساط المثقفين والقراء في البلاد العربية، ويظهر هذا العدد بعد الاستفادة من ملاحظات الإخوة المهتمين ممـــن اطلعوا على العدد التجريبي الذي وزع في نطاق ضيق في عدد مـــن البلـــدان العربية إضافة إلى العراق بجهود فردية لأعضاء مركز الأمة للدراسات والتطوير وهيئة تحرير المجلة، كما يشهد العدد مشاركة عدد من الأقلام العربية التي تعيش مع المركز والمجلة هموم الأمة، ويتفق أصحابها مع (حضارة) في أهدافها العامة؛ ليحققوا بهذه المشاركة التواصل المعرفي المقصود بين المثقفين العرب والمسلمين.

ويضم هذا العدد بين دفتيه ثلاثة دراسات تقرأ الأولى منها منـــهج فهـــم الصراع مع الصهيونية، فيما تبحث الدراستان الأخريان في المتغيرات المتوقعـــة لمجيء رئيس أمريكي جديد؛ فترصد الأولى منهما رحيل بوش وخيارات أوباما والمقاومة العراقية، فيما تستشرف الثانية ما ينتظر الرئيس الجديد، كما يـــضم العدد مقالين يتناولان الحالة الأمريكية العامة؛ فيـــدرس الأول منـــهما بعـــض مفاهيم القوة الأمريكية وموجباتها، فيما يقارن الثاني بين نهاية التاريخ ونهايـــة أمريكا، ويعتني ملف العدد بدراسة آثار الاحتلال الأمريكي للعراق في بعـــض الجوانب الاقتصادية والثقافية، أما حقل التقارير والاستطلاعات فإنـــه يعـــتني



بعرض تقرير مترجم صادر عن أحد مراكز الدراسات الأمريكية؛ يعرض فيــه معدّوه التحديات التي تواجه أمريكا بعد العراق..كما يهتم حقل الوثــائق في هذا العدد بنشر نصوص بعض الفتاوى المتعلقة باتفاقية الإذعان مع الاحتلال، ويختتم العدد بتغطية نشاطات مركز الأمة للدراسات.

وختاماً.. لابد من قيام بالواجب وشكر للإخوة هيئة التحرير ومستشاري المجلة في بغداد والقاهرة، والعواصم العربية الأخرى الذين بذلوا كل جهد ممكن لإخراج هذا العدد بهذه الحلة، وكذلك الشكر مــستحق للإخــوة البــاحثين والدارسين الذين تفضلوا علينا ببحوثهم ودراساتهم ومساهماتهم في هذا العدد.. والى عدد قادم بعون الله تعالى.



أبحـــاث

ودراســـات



د. محمد مورو

منهج لفهم الصراع مع الصهيونية

د. محمد مورو

إن حديثنا عن الصراع العربي الإسرائيلي على أرض فلسطين إنما هو حديث عن مستقبل كل الأمة الإسلامية، وبالتالي مستقبل العالم؛ ذلك أن الصراع الذي جرى على أرض فلسطين ليس إلا جزءاً من تاريخ وجغرافيا العالم الإسلامي.

إن ذلك الصراع يمثل بشكل شبه كامل جدل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فضلاً عن التاريخية؛ بل ويمثل صراع القوى الكونية في تلك اللحظة من عمر التاريخ، وإن فهمنا لطبيعة الصراع وتحليلنا للعوامل السابقة يقودنا إلى نتائج في غاية الخطورة والحسم.

مدخل تاريخي

يظلل وجه التاريخ دوماً ذلك الصراع المستمر والذي لم يتوقف لحظة بين القوى الربانية من جانب والقوى الشيطانية من جانب آخر، بما تملكه كل قوة من خصائص خاصة بها وأدوات وأساليب في الصراع خاصة بها أيضاً، ولكن ضمن سنن الله سبحانه وتعالى التي لا تستطيع أي قوة منها أن تتجاوزها، فالقوى الربانية قوة الجماهير المسلمة بقيادة الطليعة المؤمنة وهي قوى تعمل على:

(١) ربط مصير الإنسانية بأيدي كل الجماهير، أي أنها جماهيرية تعمل مع وبالجماهير.

(٢) تحرير البشر كافة من الخوف والجهل والاستبداد السياسي والظلم

الاجتماعي والتخلف القبلي.

(٣) قوى غير سلطوية بمعنى أنه لا إكراه لديها في أي شيء بل هي تعتمد في التفاف الجماهير حولها على تحرير تلك الجماهير من الاستبداد السياسي والتخلف القبلي والاجتماعي والظلم الاقتصادي ثم تترك للجماهير حقها في اختيار قناعاتها الدينية والسياسية والاجتماعية، فإذا بالجماهير تختار الإسلام لأن هذا يوافق فطرتها ولأن تصميم الكون والحياة والعقل البشري يقود إلى هذا تماماً.

(٤) قوى تعمل على إزالة كل أشكال التسلط من على وجه الأرض لتحرير كافة البشر (مفهوم الجهاد الإسلامي).

والقوى الشيطانية قوى غير جماهيرية تعزل الجماهير باستمرار عن الوعي والعلم والمشاركة في بناء حياتها بل تمارس عليها استبداداً سياسياً بمعنى أنها تصادر حرياتها وحقها في الاختيار فهي تفكر لها، ثم هي تربطها بالقيود القبلية والاجتماعية ولا تترك لها فرصة للاختيار الحر وتقمعها اقتصادياً بمعنى أنها لا تلبي لها حاجاتها الاقتصادية المشروعة، فهي في النهاية أن تمارس فئة من البشر التسلط والتحكم في الجماهير مستخدمة في ذلك إعلامها وشرطتها وأجهزتها القمعية المختلفة.

وبالتالي فإن أي نجاح في انتزاع حق من حقوق الجماهير في الحرية السياسية ورفع المعاناة الاقتصادية وتسليح الجماهير بالوعي هو في النهاية لصالح القوى الربانية ضد القوى الشيطانية والعكس دائماً صحيح.

وهكذا أصبح شكل الصراع في تلك الحقبة هو صراع بين القوى الشيطانية ممثلة في الحركة الصهيونية بدعم كامل من الغرب الصليبي (أمريكا وأوروبا)،

وذلك في مواجهة القوى الربانية التي تمثلها جماهير مؤمنة بقيادة طليعة واعية مع ملاحظة وجود حاجز قوي يمنع الطليعة من أداء دورها وهي أنظمة الحكم التي لا تكتفي بمجرد منع الطليعة من أداء دورها بل تطاردها وتنكل بها، وبذلك يكون هذا الفهم مدخلاً لفهم طبيعة الصراع في المنطقة.

يأخذ الصراع الإسلامي الصهيوني شكله الخاص عبر مستويين:

المستوى الأول

يمثل تناقضاً جوهرياً بين الطليعة المؤمنة وجماهيرها وبين رأس الحربة الشيطانية إسرائيل.

المستوى الثاني

هو التناقض الثانوي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.. وينبغي علينا الآن أن نفهم شروط وظروف كل من المستويين.

ولنبدأ بالمستوى الثاني

(١) التناقض بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل ليس تناقضاً جوهرياً وبالتالي فإن ذلك التناقض يمكن أن يحل عبر التفاوض، وبذلك يمكننا أن نقول إن التفاوض سمة أساسية من سمات الصراع بين الأنظمة العربية وإسرائيل.

(٢) إن تلك الأنظمة بما أنها لا تملك تناقضاً جوهرياً مع الكيان الصهيوني فإنها لن تواصل القتال ضده حتى النهاية، ولكنها في إدارة الصراع مع العدو الصهيوني تحاول أن تكسب مجرد أوراق تساوم بها من ناحية، ومن ناحية أخرى تسحب البساط من تحت أقدام الجماهير المؤمنة باعتبارها يمكن أن تكون نائباً عنها، وهكذا فإنها أنظمة مساومة تمتلك هامشاً من المصالح يتطابق مع وجود إسرائيل وهامشاً آخر تشكل إسرائيل خطراً عليها فيه.



(٣) إن تلك القوى مهما كان شكلها ستسقط في النهاية في الحقبة الإسرائيلية لأنها لا تملك مبرراً أيديولوجياً للاستمرار حتى النهاية.

(٤) إن تلك القوى والأنظمة تحاول استثمار حركات المد الجماهيري ضد إسرائيل لصالح تحسين ظروف التفاوض ليس إلا، بل وعلى استعداد أن تبيع دم الشهداء مقابل ثمن بخس.

(٥) إن تلك القوى ليست على استعداد لترك الجماهير لممارسة حقها المشروع في مقاومة الغزوة الصهيونية لأن هذا خطر عليها.

خصائص وشروط المستوى الأول

(١) التناقض الجوهري بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل يستمد أساساً من وعي تلك الجماهير.

إن إسرائيل ليست إلا آخر أشكال الصراع بين القوى الإلهية والقوى الشيطانية وإنها في هذه المرة تستهدف قلب الأمة المسلمة وعقلها معاً، وبالتالي فإنه صراع حضاري في جوهره وصراع فناء، فإما أن نكون وإما ألا نكون، وهكذا فإن الجماهير المؤمنة عاشت شعار "إن قضية فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية". (فكل نظام يريد أن يقوم لابد أن يدخل من بوابة هذه القضية وكل نظام يسقط يسقط أيضاً من هذه البوابة).

(٢) إن الجماهير المؤمنة بما أنها وعت شكل وحقيقة الصراع لا تملك أن تختار إلا طريقاً واحداً وهو حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى وإعلان الجهاد المقدس.

(٣) إن الجماهير المؤمنة ترفض تماماً طريق المساومات والتفاوض وخلافه بما أنها فهمت حقيقة الصراع.

(٤) إن الجماهير المؤمنة يجب أن تعرف شروط وظروف عملها في إطار الهجمة الغربية الشرسة وفي إطار الزمان والمكان وعليها أن تدرس طبيعة التناقضات الموجودة في الساحة وتستفيد منها، وعليها أن تفرز حلفاءها وأعداءها بوضوح، وانطلاقاً مما تقدم ينبغي علينا أن نضع تحت الدراسة بعض الوقائع التاريخية الآتية التي توضح دور الجماهير المسلمة ودور الأنظمة كمحورين للصراع ضد إسرائيل.

ومراحل ذلك الصراع

(أ) ظهرت إسرائيل على يد اليهود وبدعم من الإنجليز (وعد بلفور).

(ب) اعترف بها بمجرد إعلانها في عام ١٩٤٨م أمريكا الصليبية وروسيا الشيوعية بل والأحزاب الشيوعية في العالم العربي والإسلامي.

(ج) أيدها المسيحيون وبخاصة المارونيون في لبنان بمجرد قيامها بل دعوا إلى ذلك دعوات صريحة "يقول المطران مبارك في كتاب صدر سنة١٩٤٨م إذا لم تقم لليهود دولة في فلسطين سوف يتعذر أن نعيش مع العرب في صعيد واحد، ولم يكتف هذا المبارك بهذه الركلة فقط، ولكنه طاف بكل كنائس العالم وأمريكا ليلتمس من دولها في هيئة الأمم إنشاء وطن مسيحي في لبنان ليتعاون مع الوطن اليهودي في تأديب العرب.

(د) قامت الجماهير المسلمة بانتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينيات كانت الأولى سنة ١٩٢٠م والثانية ١٩٢٣م والثالثة سنة ١٩٢٩م وفهمت الجماهير المسلمة بحسها العميق أن الصراع ضد طرفي الهجمة بريطانيا والصهاينة مع ملاحظة أن التنظيمات الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات الصلة الوثيقة بالشيخ القسام.

وعلى الوجه الآخر تظهر الزعامات المحلية والعربية غارقة حتى أذنيها في الوسطية والتفاوض، بل وتقف كل القوى غير الإسلامية مواقف مشبوهة "يلاحظ موقف الشيوعيين الفلسطينيين من الانتفاضات".

(هـ) انتفاضة سنة ١٩٣٦ في حين كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد، وكانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر، جاء الزعماء العرب في الممالك العربية (مصر والأردن والسعودية والعراق) ليأمروا الجماهير المسلمة التي تنزف دمها بإيقاف المعركة الأولى لأن الصديقة بريطانيا ستفهم مطالبنا في جلسات التفاوض القادمة.

(ك) وعت الجماهير المسلمة في تلك اللحظات كيف أن الزعماء ليسوا على استعداد للذهاب حتى النهاية في النضال خوفاً على مصالحهم فطرح عز الدين القسام نظريته الفذة في العمل التنظيمي الجماهيري الذي يعتمد على الجماهير الغفيرة المسلمة (عمال – فلاحين – بائعي جاز) ويتخذ الجهاد الإسلامي المسلح طريقاً وحيداً، ولأن جماهير الأمة المسلمة هي صاحبة المصلحة في التصدي للغزوة الصهيونية، ولأنها هي القادرة حتى النهاية، فإن طريق القسام مازال يتحرك حتى اليوم عبر ذلك التاريخ مع ملاحظة أن القوى السياسية خارج الإطار الإسلامي تتحرك لتحجيم دور الجماهير ومنعها من أداء رسالتها.

وقد تم ذلك عبر عدة مراحل

(أ) المرحلة الليبرالية: الزعماء العرب يطرحون الليبرالية كشعار لهم ويمنعون الجماهير من الوصول إلى مراكز السلطة بالقمع والخداع مع ظهور تفاوت طبقي ضخم، ولقد خاضت تلك الأنظمة مكرهة تحت ضغط الجماهير معركة

سنة ١٩٤٨م، ولكن ما كان أسهل على العصابات الصهيونية أن تضرب تلك الأنظمة ضربات قاتلة ليس لأنها أقوى من جيوشها ولكن لأن قادة تلك الجيوش بما يمثلونه من طبقات وفئات اجتماعية ليس بينهم وبين إسرائيل تناقضاً جوهرياً فضلاً عن أن ما يمثله هؤلاء من الليبرالية ليس إلا جزءاً من الحضارة الغربية فكيف يستطيع أن يتحدى مثله الأعلى (لاشك أن إسرائيل تمثيل أكثر جودة للحضارة ولاشك أن الأنظمة العربية تمثيل متخلف للحضارة الغربية)، كما أن تلك الأنظمة قد دخلت الحرب كتنفيس لضغط الجماهير المسلمة عليها فهي ليست جادة في دخول الحرب.

(ب) وعلى الطرف المقابل تقوم الجماهير المسلمة والطلائع الواعية بالقتال البطولي مكملة طريق القسام.. (قام الإخوان المسلمون بقيادة البطل أحمد عبد العزيز بالقتال البطولي الرائع ضد اليهود وإلحاق قدر كبير من الخسائر بهم، وكذلك المجاهد البطل فوزي القاوقجي وعبد القادر الحسيني) إلا أن الأنظمة العربية تمنع الجيوش الجماهيرية المسلمة من إكمال انتصارها فتوقع هذه الأنظمة اتفاقية الهدنة، وهكذا تنتهي حرب ١٩٤٨م لتدرك الجماهير المؤمنة أن عليها أن تناضل بشكل جذري ضد تلك الأنظمة العميلة التي حالت دون انتصارها، وأدت بخياناتها إلى ضياع قلب الأمة الإسلامية وهكذا فإن حرب ١٩٤٨م أدت إلى:

(١) انتهاء حقبة الليبرالية العربية وإفلاس تلك الأنظمة وعدم قدرتها على الاستمرار فجاءت الخمسينيات لتحمل لنا أنظمة العسكر.

(٢) إن التناقض الرئيسي هو بين الجماهير المسلمة وبين إسرائيل.

(٣) إنه ليس ثمة تناقض رئيسي بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.

مرحلة حرب ١٩٦٧

لم تنقطع نضالات الجماهير المسلمة داخل الأرض المحتلة وخارجها ضد إسرائيل ولكن نلاحظ أن فترة ١٩٤٩م ـ١٩٦٧م كانت تحمل بوجه خاص محاولة لسحق الكيان الإسلامي للأمة على كل المستويات حتى البسيطة منها، (اغتيال وشنق وسجن العديد من قيادات الحركة الإسلامية) مع تصاعد مد علماني قومي اشتراكي على المستوى الثقافي والفني والمؤسسي، ويأتي عام ١٩٦٧م لتتكرر نفس المأساة فالقيادة (هذه المرة الاشتراكية القومية) تترك جيوشها لتسحقها إسرائيل سحقاً دون أن تطلق رصاصة تحت ستار مهزلة انسحاب مازالت تحمل الكثير من الأسرار غير المفهومة على المستوى التفصيلي، ولا داعي لأن نكرر أن نفس تلك الأنظمة بما تمثله من قوى وأيديولوجية غير قادرة على مواجهة مثلها الأعلى (الحضارة الغربية) التي هي جزء ممسوخ ومشوه لها، كما أنها لا تملك في الأساس تناقضاً مع الكيان الصهيوني (يلاحظ بعض الطروح الغربية في تلك الفترة عن وحدة البروليتاريا العربية والإسرائيلية وغيرها من الترهات التي صدعنا بها السادة اليساريون في تلك الحقبة).

وهكذا يأتي عام ١٩٦٧م لينهي رسمياً حقبة الاشتراكية، وإن كانت بعض تلك الأنظمة قد عاشت بعدها إلا أنها عاشت في الوقت الضائع من عمرها مهما طال ذلك الوقت، وذلك بسبب عدم قدرة الحركة الإسلامية على التقدم والقيام باستلام زمام الأمة لأسباب خاصة.

وهكذا فإن الهجمة الصليبية الصهيونية منذ عام ١٩٦٧م قد استطاعت أن تحل تناقضاتها مع الأنظمة العربية لصالحها وما عليها إلا أن تتقدم لتصبغ كل

شيء بالصبغة الإسرائيلية، ولتفتح عصر الحقبة الإسرائيلية وخصوصاً أن الحركة الجماهيرية المسلمة قد تم ضربها ضربات موجعة، وبدا أن تلك الحركة لم تعد قادرة على التصدي للهجمة الصهيونية داخل كيان الأمة وعقلها ووجدانها ولكن هيهات.

تبدو ملامح تلك الفترة في:

(١) إقامة أنظمة عميلة مباشرة للقوى الإسرائيلية بمعنى أنها تتلقى أوامرها مباشرة من شارون وبيجين، وهذه الأنظمة أنظمة تلفيقية لا تملك أيديولوجية محددة فهي تارة ديمقراطية اشتراكية أو قومية أو....الخ.

(٢) إن تلك الأنظمة لا تملك أي تناقض مع إسرائيل، بل إن تناقضها الأساسي مع الجماهير.

(٣) يتم تزييف الثقافة والفن بشكل كامل لصالح إسرائيل (رفع كل ما يمت للتاريخ الحقيقي بصلة من المدارس ـــ إغراق الأسواق بالأفلام والكتب والسلع ذات التوجه الإسرائيلي ـــ منع خطباء المساجد من ترديد آيات القرآن التي تسب بني إسرائيل)... الخ.

ملاحظة هامة جداً * ظهرت كثير من البطولات الإسلامية في سيناء والجولان بدوافع شخصية إسلامية بحتة، بل وقام عرب سيناء المسلمون بكثير من العمليات العسكرية ضد إسرائيل ولم يفصح النظام عنها تمهيداً للحقبة الإسرائيلية.

* برغم الضعف الشديد للحركة الإسلامية في تلك الحقبة إلا أن الحركة الإسلامية قد تصدت لتلك الحقبة بشكل قوي جداً أسهم في تأخير الحقبة الإسرائيلية وتقليل كثافتها بشكل كبير.

* قلنا إن الأنظمة العربية لم تعد تملك تناقضاً مع إسرائيل والهجمة الاستعمارية، ووقعت في شرك العمالة المباشرة لإسرائيل، وسحبت بنادق جيوشها من اتجاه إسرائيل إلى اتجاه قلوب الجماهير المسلمة، وإن وظيفتها في تلك المرحلة ستكون ضرب الجماهير المسلمة بلا هوادة وتغييبها وتزييف وعيها، إلا أن سقوط تلك الأنظمة سيكون متفاوتاً بحسب الظروف الذاتية والموضوعية لكل منها، وقلنا إن الجماهير المسلمة هي وحدها التي تملك تناقضاً جوهرياً، وبالتالي تملك القدرة على التصدي لإسرائيل، وظهر مما سبق وطبقاً لهذا التحليل إن الأنظمة العربية لم تخض معركة واحدة مع إسرائيل وإنها كانت تهزم قبل أن تدخل المعركة، وإن القوة الوحيدة التي استطاعت أن تحقق انتصارات تكتيكية ضد إسرائيل هي قوة الجماهير المسلمة وإنها قادرة على الانتصار النهائي ما لم تحل الأنظمة العربية دون ذلك، حزب الله ـــ حماس ـــ الجهاد الفلسطيني.

طبيعة الكيان الصهيوني

لكي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي يمثل رأس الحربة الشيطانية بتحد مكافئ له ينبغي لنا أن ندرس طبيعة هذا الكيان من حيث نشأته ومن حيث طبيعته ومن حيث توجهاته.

المجتمع التوراتي

تستطيع أن تقرر بكل حزم أن المجتمع الصهيوني هو مجتمع توراتي تماماً من حيث نشأته، من حيث طبيعته ومن حيث توجيهاته، ولا داعي أن نكرر أن الصهاينة يلغون النصوص ويحرفونها ليؤيدوا وجهة نظرهم فهذا ليس من موضوع بحثنا.

ومسألة توراتية المجتمع الصهيوني واضحة تمام الوضوح في كل قواه السياسية وكافة الاتجاهات من يمين ويسار وحتى ملحدين.

"نشأ هذا البلد تنفيذاً لوعد العرب ذاته، ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود".

جولدا مائير في تصريح لها لـ "لوماند" الفرنسية بتاريخ ١٥ مايو عام ١٩٧١م "لاحظ أن جولدا مائير رئيسة حزب العمل الإسرائيلي":

"لقد وعدنا هذه الأرض ولنا الحق فيها".

بيجين في أوسلو ونشرته صحيفة دافار عدد ١٤ ديسمبر سنة ١٩٧٨م وبيجين من كتلة ليكود:

"إذا كنا نملك التوراة وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة، بلاد القضاة، أرض أورشليم وحيرون وأريحا وأماكن أخرى" تصريح موشى ديان لجيروزاليم بوست في ١٠ أغسطس سنة ١٩٦٧م.

وهكذا يتردد دائماً على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس الشعارات سواء كانوا من اليمين أم من اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة ليكود ناطقين باسم الجيش أو باسم الحاخامية " التوراة ترسم كل شيء في إسرائيل".

ترسم ثقافة الأطفال في المدارس بناءً على توجيه بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في الدراسة.

الزواج في إسرائيل زواج ديني ولا يوجد زواج مدني كما أنه لا يوجد في دولة إسرائيل دستور لأن التوراة هي القانون الأساسي للدولة، كما أن التوراة ذاتها تعرف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي وهي ذاتها تحدد حدود الدولة بل وتبرر الحرب والإرهاب.

* علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التي تبرر هذه الحرب فنحن نؤدي واجبنا الديني بتواجدنا هنا فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً، وهو أن نغزو أرض العدو، صحيفة هاريتس ٥ / ٧ /١٩٨٢م على لسان حاخام برتبة نقيب، والمذابح ابتداءً من دير ياسين وحتى "صابرا وشاتيلا" تبررها التوراة. "وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" سفر يسوع الإصحاح ٦ الآية ٢١.

وإن تصريح شعار دولة علمانية ديمقراطية في إسرائيل مجرد إلهاء ولهو، لأننا رأينا كيف أن الكيان الصهيوني، كيان توراتي حتى النخاع، وبالتالي فإن من يطرح هذا الشعار كمن يدفن رأسه في الرمال أو يريد مواجهة مجتمع بأسلوب لابد أن يفشل معه وليس مكافئاً له وهو يسحب سلاح الجماهير المسلمة منها ولا يسحب سلاح الصهاينة منهم، وبالتالي فهو طرح خائن ومرفوض فضلاً عن أن هذا الشعار مرفوض تماماً في إسرائيل، فإسرائيل في نشأتها وطبيعتها لا تنفصل عن التوراة وإلا سقطت، وبالتالي فإننا حين نطرح أن الصراع يجب أن يكون قرآنياً فإننا بالتالي نعطي تحدياً مكافئاً فضلاً عن أن أمتنا لا تتحرك إلا من خلال قرآنها، وبالتالي فإنها حضارة توراتية بكل ما تملكه من إرهاب وعنصرية أمام حضارة قرآنية بكل ما تملكه من حرية وإخاء والصراع صراع حضاري.

المجتمع الصهيوني مجتمع عنصري

يدعي الصهاينة أن كل يهود العالم اليوم من ذرية جنس واحد وكتلة واحدة بأمر الرب، وهذه العنصرية تقوم أيضاً على أساس توراتي وتستمد وجودها من عناصر التوراة التي حرفها اليهود، وهكذا فإن اليهود هم شعب

الله المختار، وبقية العالم عبيد لهم، وهي فكرة مرفوضة من علم الأنثربولــوجي وعلم الآثار ومرفوضة أيضاً تاريخياً، ولكن يجب علينا كجمــاهير مــسلمة أن نطرح في مواجهتها شعار الأممية الإسلامية بمعنى أن نطرح شــعار الظــاهرة الثقافية في مواجهة الظاهرة العنصرية والظاهرة الرسالية المتفتحة علــى كــل المستضعفين في مواجهة القومية الدينية الضيقة الأفق، والإسلام يرفض فكــرة العنصرية والعرقية ويطرح المسلمون أن كل مستضعفي العالم من مسلمين وغير مسلمين في خندق واحد أمام كل القوى الشيطانية حتى لــو كــان فــيهم مستكبرون يتسمون بأسماء إسلامية.

إن جماهير المسلمين تطرح رسالة يقوم بها الإسلاميون التي يمكن أن ينتسب إليهم أي شخص بصرف النظر عن جنسه ولونه ويتحالف مع الإسلاميين كل المستضعفين، ويدافع هذا المعسكر عن كل المستضعفين حتى لو كانوا يهــوداً وهذا يسقط شعار القومية العربية في مواجهة القومية اليهودية.

الأسطورة التاريخية

ووفقاً لنصوص التوراة فإن الصهاينة يحاولون تلفيق التاريخ في المنطقة بشكل يجعل لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين، وهكذا فإن اليهود يستعملون كل طاقتهم التاريخية في حشد قواهم ضد أمتنا وحضارتنا، وبالتالي فإن أي طرح يجابه هذا التحدي يكون غير متكافئ ما لم يحشد طاقتنا التاريخية والحــضارية أمــامهم وهكذا فإن على الجماهير المسلمة أن تتسلح بالوعي التاريخي لتستطيع مواجهة ذلك التحدي الحضاري.

أسطورة الصحراء الخالية

روج الصهاينة لأسطورة أن أرض فلسطين شبه صحــراوية، وأنها لا زرع

فيها ولا ضرع وعلى من شاء أن يأتي للحصول على ما يشاء من الأرض، هذا من ناحية ومن ناحية فإنهم يروجون للمعجزة الإسرائيلية الاقتصادية في أرض فلسطين، وعلينا كجماهير مسلمة أن نواجه ذلك التحدي بما يلي:

(١) دراسة البيئة الاقتصادية للمنطقة وإثبات أنها لم تكن يوماً ما صحراء.

(٢) إثبات تآمر الرجعية العربية والأسر الإقطاعية مع الصهاينة في محاولة نهب الأراضي التي كانت مزروعة و لم تكن صحراء.

(٣) التشبث بشدة بالبقاء بالأرض المحتلة ودعم صمود الأهالي داخل الأرض المحتلة، بل ودعمهم اقتصادياً لإقامة كيان اقتصادي عربي داخل الأرض المحتلة.

الكيان الصهيوني كيان استعماري

لابد أن نقرر هنا أن الكيان الصهيوني هو جزء من القوى الشيطانية التي تستهدف أمتنا بحضارتها ومصالحها ووحدتها وطبيعتها بوجود رأس الحربة الشيطانية،

يقول هرتزل في كتابه "الكتلة اليهودية ستكون جزءاً من حائط يحمي أوروبا من آسيا وستكون بمثابة حارس يقف في الطليعة ضد البربرية" لاحظ أن آسيا هي القارة المسلمة وأن كلمة البربرية تعني المسلمين وهكذا فقد حدد هرتزل دور الصهيونية كجزء من القوى الاستعمارية وكحليف أساسي لها، وأنه سوف يؤدي دوره في ضرب حركة الجماهير المسلمة والوقوف كحائط أمام امتدادها، والكيان الصهيوني كيان استعماري من نوع استيطاني وهكذا فإنه يعتمد على الإرهاب والإفناء في محاولة التفريغ للأرض من سكانها والحلول محلها، وهكذا فإن كل يهودي يقيم في أرض إسرائيل فهو عدو لي مهما كان انتماؤه السياسي، وإسرائيل تعتمد سياسة التوسع وبالتالي فهي كيان

استعماري باستمرار استعماري بطبيعته، واستعماري بتركيباته، واستعماري بارتباطاته الاستعمارية وبدوره في المنطقة، وهكذا فإن مقولة التحالف بين البروليتاريا العربية والإسرائيلية التي يروج لها اليسار هي مقولة خائنة ومرفوضة، وعلينا أن نسقطها لأن الكيان الصهيوني كله كيان استعماري بكل انتماءاته وطبقاته وهكذا فإن الطرح المكافئ لهذا يتمثل في:

(١) ضرب كل المصالح الاستعمارية وليس ضرب اليهود وحدهم.

(٢) اعتبار كل يهودي على أرض فلسطين مستباح الدم.

(٣) إن كل أساليب التفاوض والمهادنة إلهاء وتضييع للجماهير وصرفها عن دورها الحقيقي.

(٤) اعتبار حرب التحرير الشعبية الإسلامية هي الحل الوحيد.

الكيان الصهيوني كيان عسكري

تنفق إسرائيل أكثر من ٥٠ % من ميزانيتها على الجيش وبذلك يمكن اعتبار الكيان الصهيوني كياناً توراتياً استعمارياً عسكرياً وهذا يدعونا لأن نواجهه بأيديولوجية إسلامية وحرب تحرير شعبية وصراع حضاري متكافئ، ودراستنا لطبيعة المؤسسة الإسرائيلية توضح بجلاء عبث الدخول مع الكيان الصهيوني في حرب جيوش ولكن ترك الجماهير المسلمة لتواجه الكيان الصهيوني بحرب طويلة المدى.

الكيان الصهيوني كيان فاشي

والكيان الصهيوني بتركيبته وطبيعته وتوجهاته، كيان فاشي فالديمقراطية الإسرائيلية ديمقراطية بالنسبة لليهود وليست ديمقراطية بالنسبة لغير اليهود والتحدي المكافئ لهذا هو النضال المستمر لجماهير المسلمين لأجل انتزاع

حريتها داخل بلدانها ومزيد من إبراز الوجه الحقيقي للإسلام كرسالة تؤمن بحرية الجماهير ومساواتهم.

بعض الملاحظات الهامة

قضية العداء للسامية

* معاداة اليهودية ترجع إلى أصل مسيحي وهي من مخلفات الفكر القسطنطيني الذي ورث تقاليد كهنة المعابد اليهودية وتقاليد الإمبراطورية الرومانية، فبعد أن كانت تلك الكنيسة مستضعفة أصبحت تمارس الاضطهاد بمجرد استيلائها على السلطة وراحت تصب غضبها على كل الأديان الأخرى سواء كانت وثنية أم يهودية ووجدت في اليهودية منافساً خطيراً ينبغي القضاء عليه، واقمت اليهود بأنهم عندما رفضوا الاعتراف بأن يسوع هو المسيح فقد أصبحوا في عداد "قتلة الرب" — من كتاب برنا ولازار (اللاسامية) نشر عام ١٨٩٤م.

* معادة اليهودية (اللاسامية) فكرة تخدم الصهيونية حيث إن أعداء السامية يريدون التخلص من اليهود ولو على حساب إقامة دولة لهم في أراضي الغير.

* إنه لم يثبت في تاريخنا أي اضطهاد لليهود على يد المسلمين.

* إننا كجماهير مسلمة ترفض العداء للسامية ونعلن تضامننا مع كل مضطهد، وإننا نرفض فكرة اضطهاد اليهود من أساسها، لأن هذا موقف يأباه ديننا الحنيف ولكننا بنفس القدر نرفض أن ندفع ثمن اضطهاد غيرنا لليهود.

إسرائيل والاستعمار الغربي

علينا أن نفهم أن هناك صراعاً جوهرياً بين القوى الإسلامية والقوى الشيطانية وأن القوى الشيطانية تمثل في العالم:

* استعماراً غربياً، صليبياً. * كياناً صهيونياً.

* وأن هناك تناقضاً أيضاً بين تلك القوى وبعضها، وبالتالي فعلينا ألا نقع في وهم أن إحدى القوى يعمل لحساب الأخرى، ولكن علينا أن ندرك أن هناك مصالح مشتركة تجمع بينها.

أهمية إسرائيل للاستعمار الغربي

(١) إن الغرب الأوروبي يعرف خطورة مد الجماهير المسلمة عليه، وبالتالي فإسرائيل تبرز باستمرار أنها تعتبر بالنسبة لأوروبا الحارس ضد البربرية (البربرية تعني المسلمين).

(٢) تقوم إسرائيل بمهمة الشرطي في الشرق الأوسط وذلك للحفاظ على المصالح الغربية البترولية التي لم يعد الغرب ـــ الولايات المتحدة ـــ بقادر على أداء هذا الدور.

(٣) تصل إلى مراكز الأبحاث الغربية ووزارات الدفاع معلومات متصلة من إسرائيل بشأن أنواع الأداء لمختلف أنواع الأسلحة التي لم تستخدم بعد، وهكذا يستطيع الجيش الأمريكي مثلاً تجربة أسلحته المتقدمة في جيش إسرائيل، وهكذا فإن مقولة اليمين بأننا نستطيع إقناع أمريكا أو المجتمع الأمريكي بحقنا المشروع هو قول من قبيل التضليل، فقضية أهمية إسرائيل الإستراتيجية بالنسبة للاستعمار الغربي قضية محسومة.

إن هذا يدفعنا لإسقاط مقولة إن أوراق اللعبة بنسبة ٩٩,٥ % أو أي نسبة مئوية أخرى بيد أمريكا، وعلينا أن ندرك أن علينا الاعتماد على أنفسنا في مواجهة إسرائيل ومعرفة أن إسرائيل ليست وحدها في المعركة ولكن الغرب،



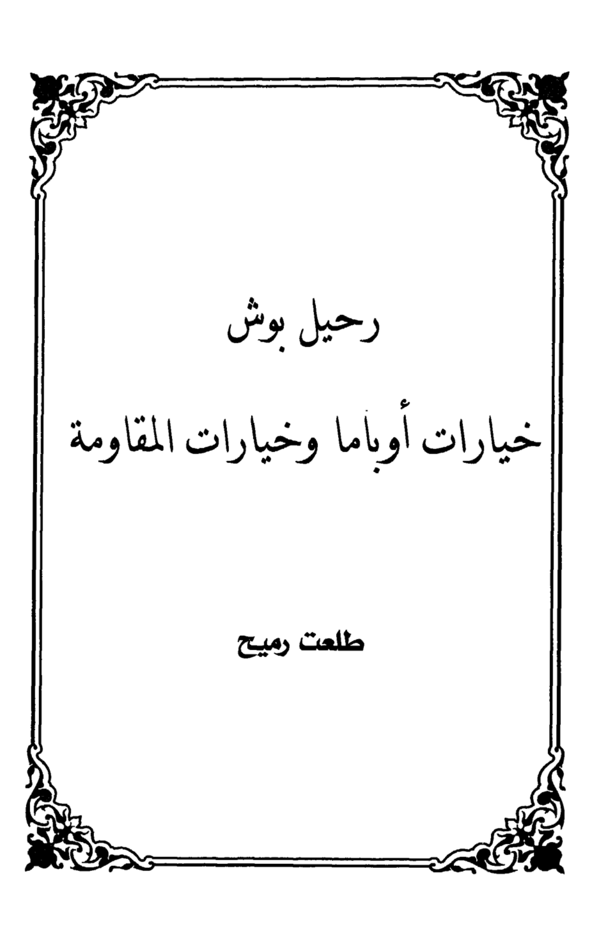
كل الغرب ضدنا ووفقاً لمصالحه، وهكذا فإن دراسة بنيان وطبيعة وتوجهات الكيان الصهيوني لمواجهة التحدي بتحد مكافئ، أبرز:

* إن الحرب حرب حضارة ضد حضارة.
* حرب انتماء.
* إنه ما لم نتسلح بأيديولوجيتنا الإسلامية فلا فائدة.
* إن حرب التحرير الشعبية الإسلامية طويلة المدى هي الحل الوحيد.
* إن الحروب النظامية بالنسبة لنا خسارة مؤكدة.

وهكذا فإن التحدي يبرز شعار

"أيديولوجية إسلامية وحرب تحرير شعبية"

وهي نفس المقولة التي يفرزها إسلامنا وقيمنا وواجبنا تجاه ربنا فليس هذا هو واجبنا تجاه الله فحسب ولكن جزء من طبيعة رسالتنا كما أنه هو التحدي الوحيد المكافئ للتحدي الصهيوني.



رحيل بوش

خيارات أوباما وخيارات المقاومة

طلعت رميح

رحيل بوش
خيارات أوباما وخيارات المقاومة

طلعت رميح

برحيل الرئيس الأمريكي جورج بوش و إدارة المحافظين الجدد عن قيادة الولايات المتحدة في يناير المقابل، تدخل الولايات المتحدة مرحلة سياسية جديدة، على المستويات الداخلية والخارجية بما يستدعي التدبر في ملامح تلك المرحلة الجديدة من قبل القوى التي تواجه وجود ودور الولايات المتحدة على الأراضي العربية والإسلامية، بالنظر إلى ما خلفته مرحلة حكم المحافظين الجدد[1] للولايات المتحدة، من حالات احتلال في العراق وأفغانستان والصومال ولطبيعة المساندة التي قدمتها تلك الإدارة للكيان الصهيوني وأثيوبيا .. الخ، إلى درجة يمكن القول معها، إن الولايات المتحدة طوال الحقبة الماضية قد كرست قدرتها (العظمى) في مواجهة شاملة مع الأمة الإسلامية من أدناها إلى أقصاها، إذا وضعنا في الاعتبار حجم الضغوط والممارسات العدوانية التي مورست على كل حكومات الدول الإسلامية، لتطويع إرادتها وتغيير سياستها ومناهج تعاملها مع مختلف قضايا السياسة الداخلية والخارجية.

غير أن "التدبر" في نوع وحدود ونتائج التغيير الحادث في الإدارة السياسية للولايات المتحدة، لتحديد طبيعة التغييرات المقابلة في استراتيجيات أو سياسات

---

[1] يبدو "التحوط" واجباً عند الحديث عن نتائج ما تبقى من مدة حكم الرئيس الجمهوري (جورج بوش) عن رئاسته للولايات المتحدة، وتقوم الفرضية الأساسية في تلك الدراسة على مغادرة (جورج بوش) لمقعد الرئاسة، دون القيام بأية عمليات عدوانية جديدة ضد أي من الأقطار الإسلامية، وهو الأمر الأغلب ترجيحاً.

قوى المقاومة الداخلية والعربية والإسلامية، هو أمر يتطلب تحديداً لبعض المفاهيم لإدراك محدداته، فضلاً عن الدراسة المتأنية للظروف الموضوعية الجارية التشكيل والتغير في المنطقة والعالم، بالنظر إلى الطبيعة المعقدة لعملية التغيير في الاستراتيجيات الأمريكية، رغم سلاسة التغيير في الإدارات السياسية التي تتولى الحكم، وباعتبار أن التغير في سياسات أو استراتيجيات قوى المقاومة هو أمر يخضع هو الآخر إلى ثوابت أصلية وإلى عوامل معقدة، لا ترتبط بالتغييرات الحادثة في سياسات أو استراتيجيات الخصم وحدها.

(١) حدود ومحددات التغيير في أمريكا

في رؤية وفهم محددات التغيير الذي جرى في الولايات المتحدة بوصول مرشح الحزب الديموقراطي (باراك أوباما) إلى مقعد الرئاسة، ينبغي التعرض لثلاثة قضايا، **الأولى**: القضية الدعائية والإعلامية، حيث ما يصل إلى المنطقة العربية يحوي بالأساس قدراً من الدعاية لصورة الولايات المتحدة بأكثر مما يدفع لفهم طبيعة التغيير، **والثانية**: فهم طبيعة العلاقة بين السياسة الداخلية ونظيرتها الخارجية لرؤية طبيعة التأثير والتأثر بين التغييرات الداخلية في السياسة الخارجية للدول، **والثالثة**: قضية العلاقة بين السياسات التي تتبعها الإدارات الأمريكية المتعاقبة والاستراتيجيات التي تعتمدها الولايات المتحدة، باعتبار أن طبيعة التغير في السياسات تختلف عن طبيعة التغيير في الاستراتيجيات.

(أ) الدعاية للتغيير

في الوضع الراهن، يبدو للمتابع أننا إزاء حملة إعلامية منظمة تستهدف الترويج لصورة جديدة للولايات المتحدة، تختلف عن تلك الصورة التي أطلت

على أمتنا بها خلال مرحلة حكم الرئيس الأمريكي (جورج بــوش)، أو بالأحرى أننا إزاء تغيير الصورة الحقيقة للولايات المتحدة، التي قــدمها هــذا الرئيس "المتعجرف" للعالم دون رتوش أو أصباغ، كما يمكن القول أننا أمـــام محاولة لتحسين صورة الولايات المتحدة واستعادة بريقها الحــضاري الــذي افتقدته خلال السنوات الماضية والعودة بها وبنا إلى الصورة القديمة.

لقد دارت الآلة الإعلامية "العربية" _في أغلبها_ طوال الأشهر الماضية، أي منذ بداية الانتخابات التمهيدية داخل الحزبين الديمقراطي والجمهوري، لتغرقنا في فيض متدفق من المشاهد والتطورات وإلاشاعات والألاعيب الجارية في تلك الانتخابات داخل كل حزب، حتى وصلت بالمتابعين (معصوبي الأعــين) إلى داخل الصورة الكرنفالية والاحتفالية للانتخابات بين (باراك أوبامــا وجــون مكين)، فصارت تلاحق المشاهدين باستطلاعات الرأي، وتطلب حتى تصويتهم (أي المشاهدين والمتابعين من الخارج) على كلاً من المرشحين، هــو أخطــر وسائل الدعاية للانتخابات الأمريكية، والحضارة الأمريكية، إذ يجــري دفــع المواطن من المجتمعات الأخرى إلى حالة من الاستلاب السياسي والحضاري، إذ يرى الحضارة الأمريكية هي الأرقى وحضارته هي الأدنى والتخلف بعينه، بــل هي تأخذه من متابعة ما يجري ببلاده، وما أن وصل (باراك أوباما) إلى السلطة حتى تحولت تلك الدعاية "المبطنة" للحديث عن "هذا التغيير الكبير والمهم" في القيادة الأمريكية دون أن تنسى تذكيرنا (أو تطرق رؤوسنا)، بهذا الرئيس الذي مثل "بالحلم الفردي" وأثبت كيف أن هذا الذي ينحدر من أصول أفريقية، و لم يكن إلا ابن مهاجر عابر، وتربى في مآس الفقر، قد أصبح رئيساً لأكبر دولة في

العالم إلى درجة أن صرنا أمام قصة كفاح تقدم كنموذج للإنسانية، وأمام مجتمع هو القادر وحده على اجتراح المعجزات.

والأهم من كل ذلك أن جرى تقديم "الرئيس الجديد" بصفته مختلف جذرياً عن ذاك الرئيس الراحل أو الآفل، وأنه داعية للحوار ومتصالح في رؤيته للسياسة الخارجية، يسعى للحوار مع الأعداء، وفي المقابل من ذلك كانت الرسالة الإعلامية تزرع في عقولنا، إن ما جرى من قبل أمريكا كان نتيجة لانحرافات (جورج بوش) عن مسيرة أمريكا.

وهنا ينبغي التنويه لثلاثة جوانب، **الأول**: هو معرفة الإطار العام للحركة السياسية وكيف تجري العملية الانتخابية في الولايات المتحدة، إذ أن المجتمع الأمريكي لم يتمكن عبر تاريخه من "إعادة إنتاج" الفكر السياسي ومدارسه السائدة، بل هو توقف عند حدود نشأة الحزبين الجمهوري والديمقراطي منذ نشأة البلاد واستقلالها وتوحدها، دون قدرة على تغيير تلك الثنائية من خلال ظهور أو ميلاد أي حزب آخر (ذو شأن) وهو ما يشكك في طبيعة وظروف المكون السياسي الذي تجري "بينه" اللعبة الانتخابية وكأنها لعبة بين طرفين لاحتلال كرسي واحد.

الثاني: هو ضرورة إدراك أبعاد وخفايا لعبة "صناعة الرئيس" في هذا البلد، إذ نحن أمام دورة بالغة التعقيد في تركيب وعمل مصفاة اختيار الرئيس، ولسنا أمام دورة انتخابية بالمعنى "الجماهيري" التي يتقدم من خلالها مرشح أمام جماهير الشعب الأمريكي ضمن حالة حقيقية من حرية الاختيار، نحن أمام شخصيات يجري تصنيعها واختبارها داخل معامل وأروقة الحزبين، ليوضع

الشعب الأمريكي أمام اختيار بين اثنين، إما الجمهوري (ورمزه الفيل) وإما الديمقراطي (ورمزه الحمار)، دون ثالث.

الثالث: هو أن صناعة الرئيس ونجاحه من عدمه هو "عملية إعلامية" أكثر مما هي عملية سياسية أو جماهيرية، وفي ذلك يبدو الإعلام هو المعطى الأول، كما يظهر أننا أمام "تغيير" عقول المتابعين (لإقناعهم) ولسنا أمام صراع سياسي، إذ الدعاية والإعلان _ بتكاليفها الضخمة _ هي الجانب الأقوى دوراً، ولذا وصلت تكلفة تلك الانتخابات إلى ما يزيد على مليار دولار أغلبها أنفق على الإعلانات الدعائية.

(ب) السياسة الداخلية و نظيرها الخارجية

والقضية الثانية التي ينبغي التعرض لها لفهم طبيعة ومحددات التغيير الذي جرى في الولايات المتحدة وحدوده هي قضية مفاهيمية، فإذا كانت قضية الدعاية ودورها في اختيار وصناعة الرئيس والترويج له داخلياً وخارجياً هي قضية إعلامية _ وفي جانب منها هي قضية إجرائية وفي جانب آخر هي قضية ترويجية _ فإن قضية العلاقة بين التغييرات الداخلية والتغييرات في السياسة الخارجية هي قضية "مفاهيمية"، وفي المفهوم العام، فإن السياسة الخارجية لأي بلد هي انعكاس للأوضاع الداخلية وللسياسات الداخلية السارية في هذا البلد، أو بالدقة تمثل السياسة الخارجية امتداداً لمصالح هذا البلد أو ذاك في علاقاته الخارجية لأي بلد، وفي ذلك نحن أمام "معنى شامل" حيث الرؤية التي تتشكل وفقها السياسة الخارجية لأي بلد تمثل انعكاساً شاملاً لأفكار ومفاهيم وعقائد وأيديولوجيات ومحصلة مصالح هذا البلد في علاقاته مع البلدان أو المجتمعات الأخرى، وفي الأمر معنىً أكثر تحديداً أو مباشرة، فإذا كان هذا البلد تسوده

قيم استعمارية للشعوب الأخرى، ولديه من الشركات ما يتطلب الحصول على المواد الخام وعلى أسواق لتوزيع المنتجات على المستوى الدولي، وتسيطر على قيادة المجتمع فيه نخب تمثل مصالح تلك الشركات..الخ، فإن السياسة الخارجية لهذا البلد ستكون في جانب أساسي منها انعكاس لتلك المفاهيم وترجمة لتلك المصالح، بما يتطلب فتح الأسواق الخارجية أمام التصدير والاستيراد، وتوسيع الصلات السياسية والثقافية والديبلوماسية والتجارية والاقتصادية مع الدول المستوردة للمواد الخام (الأولية) والدول المستوردة، أو فعل هذا وذاك وفق معادلات القوة والنفوذ والسيطرة العسكرية، أي الحالة الإستعمارية.

وفي ذلك تبدو المصالح متباينة بين الشركات ذات الطابع المدني في الإنتاج وتلك ذات الطابع العسكري مثلاً، إذ الأولى قد يكون اهتمامها الأساس بتوسيع حركة التجارة وفق أساليب النفوذ والعلاقات الثقافية والسياسية والتجارية، بينما يكون الاهتمام الأساس للثانية في إشعال الحروب، أو الاقتراب من مساحات الصراعات الدولية، لدعم فريق ضد فريق ـ ضمن الرؤية العامة للدولة ومصالح المجتمع ـ أو حتى لدعم الفريقين المتصارعين، والتدخل المباشر في الحروب مع دول أخرى، وفي كل ذلك يظل المعنى العام هو أن السياسة الخارجية هي انعكاس لمحصلة المصالح الداخلية في هذا البلد في العلاقات مع الدول الأخرى.

ولذلك، وفي محاولة فهم وإدراك قضية التغيير الذي جرى في الولايات المتحدة، أمام تساؤلات ينبغي الإجابة عنها ومنها: ما الذي تغير بالدقة في الأوضاع المفاهيمية للمجتمع الأمريكي، وما الذي تغير في نمط مصالح الشركات الكبرى في الولايات المتحدة، وما هو حجم التغيير الذي جرى في

الأوضاع الداخلية سياسياً واجتماعياً، حتى يمكن القول بأن ثمة "انقلاباً أو تغييراً جذرياً في السياسات والاستراتيجيات الخارجية للولايات المتحدة؟ بل وما هو حجم التغيير الذي جرى في النخب الحاكمة، وكيف يمكن تصور حدوث تغيير جذري بينما نحن أمام نجاح للحزب الديمقراطي ـ وليس فرد اسمه أوباما ـ الذي كان حاكماً من قبل للولايات المتحدة عبر دورات انتخابات الرئاسة والكونجرس، هل نجح أوباما كحالة فردية أم هو نجح بترشيح ودعم ومساندة الحزب الديمقراطي؟.

(ج) ثبات الاستراتيجية وتغير السياسات

والقضية الثالثة في محددات فهم طبيعة وحدود التغيير الذي نتج عن انتخاب أوباما (مرشح الحزب الديمقراطي) وفشل مكين (مرشح الحزب الجمهوري)، هي طبيعة العلاقة بين الاستراتيجيات الثابتة للدول والسياسات المتغيرة مع تغير الرؤساء والحكومات، إذ لو تصورنا أن استراتيجيات الدول ـ خاصة تلك التي لها استراتيجيات ذات طابع دولي ـ قابلة للتغير كل أربع سنوات مع تغير الرئيس الجالس على كرسي الحكم، لكنا أمام فوضى عارمة، ولصح القول بأن لكل رئيس استراتيجية، وهو ما يعني بالدقة عدم وجود استراتيجية أصلاً.

الدول لا تتغير استراتيجياتها، إلا عبر تغييرات حادة وإجمالية في أوضاعها الكلية (بالمعنى الحضاري والسياسي والعسكري والاقتصادي)، بينما الإدارات السياسية للدول (ولذلك يستخدم الأمريكيون تعبير الإدارة الأمريكية)، تعبيراً عن ثبات الاستراتيجية مع تغيير في السياسات لتحقيق الأهداف استراتيجياً.

وواقع الحال أن استراتيجيات الدول هي خطة تتشكل بالارتباط والمزج بين المفاهيم المستقرة والسائدة في المجتمع من جانب، والمصالح والأهداف

والتحديات الثابتة لمصالح وتطور هذا المجتمع لمرحلة طويلة وممتدة من جانب ثاني، كما هي تبنى على ثوابت الأمن القومي لكل بلد، التي بدورها تستمد من طبيعة تكوينه وجغرافيته والتحديات الأساسية التي تفرضها عليه وصراعاته الإقليمية والدولية تاريخياً .. الخ، ولذلك هي تحمل مقومات الاستمرار، كما هي عملية تطورية يصعب الإمساك بنقطة فيها لتحديد نقطة بدايتها، أو مفاصل تطورها _ ولا نقول تغييرها _ إلا عبر فترات ومراحل زمنية طويلة.

ولذلك فإن تغيير الرؤساء لا يمكن له أن يرتبط أو يتبع بتغيير الاستراتيجيات، إلا في حالات التغيير الشامل داخل المجتمع والدولة ولأوضاع تلك الدول داخل محيطها الحيوي (دولياً أو إقليمياً)، بما يتطلب تغييراً في الاستراتيجيات تنعكس في السياسات الخارجية، بل وحتى عملية التغيير الكبرى تلك لا يمكن لها أن تخرج في الممارسات عن "طبيعة ثوابت الأمن القومي لكل بلد" (وفي ذلك يبدو ما جرى في الثورة الخمينية مثالاً ونموذجاً إذ جرى الإطاحة بالشاه وتغيير النخب الحاكمة، دون الخروج على ثوابت الأمن القومي لإيران).

وهنا يبدو من الضروري تحديد مستوى التغيير الحادث في الولايات المتحدة بمجئ باراك أوباما، ضمن حدود التغيير في السياسات وفي الاستراتيجيات.

(٢) أسباب التغيير ودلالاتها

في الوقت الذي يجري الحديث فيه عن أهمية وخطورة هذا التغيير الحادث، ويجري تبشير العالم كله بأن تغييراً كبيراً أو خطيراً جرى في الولايات المتحدة، كما تحدق الأعين في عملية نقل السلطة بين بوش وأوباما _ وكل ذلك يقع ضمن الدعاية والترويج للولايات المتحدة _ فإن التساؤل الأهم أو لنقل

الجوهري، هو تساؤل عكسي وهو: هل كان من الممكن أن لا يحدث تغيير في من يجلس على كرسي الرئاسة الأمريكية في ضوء كل الكوارث التي جلبها جورج بوش للولايات المتحدة؟، التساؤل العكسي هو الطبيعي والأصح، وفي ذلك تبدو أسباب التغيير هي المعطى الأول في فهم طبيعة التغيير الحادث في الولايات المتحدة، كما هو الأساس الذي يجب أن تبنى عليه استراتيجيات وسياسات ومواقف قوى المقاومة التي تتصدى للاستراتيجية والسياسات الأمريكية في المنطقة باعتبارها تهتم ببواعث التغيير ودلالاتها لرؤية طبيعة التغيير وحدوده ومؤثراته ومجالاته ووضع خطط التعامل معها.

وفي فهم أسباب التغيير يمكن القول بأننا إزاء "ثلاث" حزم من الأسباب:

الحزمة الأولى: هي أن الولايات المتحدة وصلت إلى أفق مسدود على المستوى الدولي، بل هي بدأت تتراجع على مستوى قدرتها في الانفراد بالسيطرة على العالم أو مجريات السياسة الدولية، وهو ما ولد قلقاً كبيراً داخل النخب الأمريكية الفكرية والسياسية والاقتصادية، لقد تسلم الجمهوريون (جورج بوش الابن) الحكم من الديمقرطيين (إدارة كلينتون) والولايات المتحدة تمارس قدراً هائلاً من السيطرة والنفوذ في العالم، و انتهى الأمر في ختام رئاسة (جورج بوش) والولايات المتحدة في حالة استنزاف حضاري وعسكري واقتصادي وسياسي، إلى درجة جعلت حلفاؤها الأوروبيون يطلبون التحول من حالة التبعية لها إلى حالة الشراكة والندية معها (وفق الوثيقة التي أعدها الاتحاد الأوروبي وسلمها وزير الخارجية الفرنسي لأوباما)، ولدرجة اقتربت منها الصين على نحو أسرع من احتلال مرتبة متقدمة على المستوى الاقتصادي (بعض الاقتصاديين الأمريكين لا يرون حلاً للأزمة الاقتصادية

الأمريكية سوى طلب قرض بمبلغ ٥٠٠ مليار دولار من الصين)، وكذا تحولت روسيا ـ في ختام حكم جورج بوش ـ إلى فاعل على المستوى الإقليمي والدولي إلى درجة الندية الشديدة القوة للولايات المتحدة ..الخ، والأخطر أن كل ذلك جرى ويجري، والبريق الحضاري للولايات المتحدة يكاد ينطفئ، بعد أن تحولت إلى عدو أول للدول والمجتمعات والحركات الإسلامية، بما أصاب سياساتها ومشروعيتها بالانكسار والعزلة في العالم الإسلامي .. الخ.

الحزمة الثانية: هي أن الولايات المتحدة قد تدهورت في أوضاعها الاقتصادية الداخلية على نحو بات مؤثراً بقوة على حياة واستقرار المجتمع الأمريكي إن لم يكن النظام الرأسمالي كله، لقد تسببت الأزمة الاقتصادية في انهيار مؤسسات مالية وشركات صناعية وما يزال الحبل على الجرار (بما رفع نسبة البطالة وأضعف قدرة المؤسسات المالية والشركات الصناعية على المنافسة الدولية، بل وعلى الاستمرار لدى بعض الشركات الكبرى، كما تسببت الأزمة الاقتصادية في تدهور أوضاع القطاع العقاري وطرد آلاف الأمريكيين من منازلهم .. الخ.

الحزمة الثالثة: وهي أن الرئيس الأمريكي (جورج بوش) كممثل للمسيحية الصهيونية أو المحافظين الجدد، قد أحدثت سياساته وأفكاره قدراً كبيراً من السخط الداخلي، خاصة بين النخب في الدولة والمجتمع الأمريكي لأسباب تتعلق بتقليص الحريات المدنية، بعد سنّ قوانين المراقبة وتقليص الضمانات للحرية السياسية، ولاشاعته جواً من الخوف و الإرهاب الذي أصاب المواطنين الأمريكيين في نعمة الاستقرار والطمأنينة، والأهم أنه قام بأخطر محاولة لتغيير مفاهيم المجتمع الأمريكي وقيمه من البرجماتية إلى العقائدية أو الأصولية الدينية.

وهكذا توافرت للتغيير أسبابه الخارجية والداخلية، وفقـاً للإجابـة عـن السؤال: وهل كان بالإمكان تصور احتمالات عدم التغيير؟، ولكن الأهم هو كيف نتعامل مع تلك التغيرات في أوضاع الولايات المتحدة، في ضوء رؤيتنا لما هو متاح من خيارات أمام الإدارة الأمريكية "المتغيرة".

(٣) دور المقاومة في العالم الإسلامي

هنا يبدو ضرورياً البحث عن السبب الحاكم والمحرك لتراجـع الولايـات المتحدة دولياً وأزمتها الاقتصادية ولتغول جهاز السلطة التنفيذية على السلطات الأخرى، وتضييق الحريات المدنية .. الخ، والذي كان خلف الأسباب سـابق الإشارة إليها، التي ولدت إمكانية التغيير من الجمهوري إلى الديمقراطي، والتي جعلت المواطن الأمريكي يتخلى عن عنصريته وينتخب رجلاً أسوداً من خارج دائرة اللعبة الانتخابية التقليدية، لقد أذاعت وسائل الإعلام ـ نقلاً عن المراكز البحثية ـ أن تحليل عينات المصوتين في الانتخابات الأمريكية، أفـادت بـأن نحو٦٠% من المصوتين قد حددوا موقفهم في الانتخابات بناءً علـى تبعـات الأزمة الاقتصادية، وأن نحو١٠ % حددوا موقفهم في الانتخابات بناءً علـى الحرب في العراق، وأن١٠ % بناءً على موقفهم من الحريات المدنية .. الخ.

وفي ذلك يبدو من القراءة الأولية، أن الأزمة الاقتصادية (نتائجها الداخلية) كان لها التأثير الحاسم في هذه الانتخابات وفي التغيير الذي جرى من الحـزب الجمهوري إلى الديمقراطي، غير أن القراءة المدققة لهذه الإحصاءات تكشف أن المقاومة العراقية بشكل خاص والإسلامية في مختلف مناطق العالم الإسـلامي بشكل عام كانت العامل الجوهري في تحفيز هذا التغيير، إذ أن دورها كـان الأساس لكل العوامل الأخرى إلى درجة تجعل من الممكن القول بـأن٨٠ %



من الناخبين الأمريكيين صوتوا لأوباما، وأحدثوا التغيير من الجمهوري إلى الديمقراطي نتيجة لدور المقاومة في العالم الإسلامي.

لقد كان الاقتصاد الأمريكي مترنحاً منذ فترة طويلة (خلال نهايات الحرب الباردة)، بل جاء العدوان على العراق ثم غزو واحتلال هذا البلد، وفق رؤية لدى الجمهوريين لحل أزمة هذا الاقتصاد، من خلال الاستيلاء المباشر على الثروة العراقية والانطلاق من بعد للسيطرة الكاملة على البترول العربي والإسلامي وفق مجريات استراتيجية السيطرة على "الشرق الأوسط"، كما جاء العدوان والغزو والاحتلال للعراق _ وكذا أفغانستان _ ضمن خطة إضعاف الأقطاب الدولية الأخرى الصاعدة في العالم (من خلال السيطرة على البترول) خاصةً الصين وأوروبا والبرازيل (روسيا بلد مصدر)، كما يعلم الجميع أن التضييق على الحريات المدنية في الولايات المتحدة، جاء لقمع وإجهاض الاحتجاجات الشعبية الأمريكية على تلك الحرب، حتى لا تتحول إلى نمط آخر مشابه للاحتجاجات التي جرت على حرب فيتنام.

لقد كانت مقاومة وصمود العراق منذ بداية عدوان عام ١٩٩١م، واشتعال المقاومة العراقية بعد الغزو والاحتلال عام ٢٠٠٣م، هي ما أجهض خطة السيطرة على البترول العراقي، وجعله في داخل دورة الاقتصاد الأمريكي، كما كان فعلها ودورها هو الذي "أشغل" الولايات المتحدة عن ممارسة الضغوط والحصار على الأقطاب الدولية الأخرى، وكذا كان نشاطها هو ما دفع الجمهور الأمريكي للتحرك ضد الحرب (بسبب جثث القتلى الأمريكيين العائدين ولذا منعت وزارة الدفاع الأمريكية نشر صور لتوابيت الجنود العائدين قتلى من العراق)، وما دفع إدارة (جورج) لإصدار قوانين قمع الحريات في

الداخل الأمريكي، إضافة إلى دورها في إطفاء بريق الولايات المتحدة كحضارة ودولة جاذبة.

وكذا أن المقاومة العراقية (اشتعالها واستمرارها) هو ما أصاب الاقتصاد الأمريكي في مقتل بسبب الإنفاق العسكري، أو بالدقة لقد نجحت المقاومة العراقية في استنزاف القدرة الاقتصادية والقوة العسكرية الأمريكية، لتحول الحرب "الاستباقية" الأمريكية من أجل تقوية اقتصادها إلى حرب إنهاك واستنزاف لهذا الاقتصاد، لذلك شاهدنا كيف جرت "المعارك السياسية" في الكونجرس الأمريكي حول الاعتمادات المالية المخصصة لاستمرار العدوان والحرب خلال الفترة الثانية من رئاسة جورج بوش.

وفي ذلك كان الأمر جلياً من قبل، إذ جاء انتخاب الديمقراطيين وأوباما نتيجة منطقية للتغيير الذي حدث من قبل خلال الانتخابات الرئاسية والتشريعية السابقة، التي حقق فيها الديمقراطيون تقدماً كبيراً في مجلس النواب ومجلس الشيوخ (السيطرة على المجلسين) والتي كانت قضية العراق هي الحاضر الأكبر فيها وبشكل مباشر، ودون "مؤثراتها الاقتصادية المباشرة على الداخل الأمريكي، والإشكالية الآن هي أن المتابعين لما جرى مؤخراً أمسكوا بالمؤشرات الظاهرة أو بالنتائج (الأزمة الاقتصادية والحريات المدنية) وتركوا السبب الخلفي والجوهري والأساس.

وإذا كانت المقاومة العراقية هي الأكبر دوراً في مؤثراتها، فإن المقاومة الفلسطينية والأفغانية والصومالية _ إضافة إلى مختلف أشكال المقاومة الفكرية والسياسية والإعلامية في كل بلدان العالم الإسلامي _كان لها إسهاماتها في تحقيق التغيير في قدرة الولايات المتحدة وعوامل قوتها هي الأخرى.

وإذا كانت المقاومة الأفغانية والفلسطينية واضح دورها وتأثيرها _ على الولايات المتحدة وحليفها الكيان الصهيوني _ فإن المقاومة الصومالية قد ساهمت بدور غير مباشر في إنهاك الحليف الأمريكي الأكبر في القرن الأفريقي (أثيوبيا) وكذا الاقتصاد الأمريكي، باعتبار الولايات المتحدة هي التي مولت الاحتلال الأثيوبي للصومال، وكذا فإن المقاومة السياسية والفكرية والإعلامية في كل بلدان العالم الإسلامي، هي من ساهم في فضح الخطط الأمريكية وكشف أبعادها وإظهار الجوهر الحقيقي للحالة العدوانية الأمريكية _ إلى درجة جعلت المثقفين الأمريكيين يصدرون وثيقتهم الشهيرة "لماذا يكرهوننا"_ وهي ما أزال البريق الحضاري "الزائف" عن المجتمع والحضارة الأمريكية، إلى درجة أقلقت بل أفزعت النخب الأمريكية، والأجهزة الأمريكية التي تعمل من أجل الحفاظ على قدرة وهيبة الولايات المتحدة خارجياً.

لقد جرت معركة "طاحنة" على المستوى الفكري والسياسي والإعلامي بين المقاومة بمختلف أشكالها والولايات المتحدة، مما دفع وزارة الدفاع الأمريكية إلى تأسيس (مركز الكذب الاستراتيجي)، والبيت الأبيض إلى تعيين مسؤوليه عن الدعاية الموجهة إلى العالم العربي والإسلامي، لكن كلاهما فشل.

(٤) خيارات إدارة أوباما

يبدو التوصيف الدقيق للمحصلة العامة لنتائج عملية التغيير التي جرت في الولايات المتحدة هو أنها مؤشر لحالة تراجع للقدرة الأمريكية على المستويات الدولية وعلى مستوى الأوضاع الداخلية للولايات المتحدة، وأن الأسباب الخارجية كانت هي المعطى الأول بينما جاءت العوامل الداخلية كمعطى تابع للأول، كما يظهر أن الأطراف الأخرى على المستوى الدولي قد حصلت على

مساحات للقوة والنفوذ والتأثير في القرار الدولي على حساب الولايات المتحدة، وأن التراجع الأمريكي قد أصبح تراجعاً شاملاً وعنواناً لمرحلة طويلة ــ بغض النظر عن الانتخابات ــ إذ هو طال القوة والهيمنة العسكرية، كما كشفت عنه وقائع الصراع الروسي - الجورجي وما تلاها من تطورات استعراض القوة الروسية في العالم، والقدرة السياسية والدبلوماسية كما كشفت عنه وقائع التراجع الحادث في منطقة "الشرق الأوسط" مما جعل أطرافاً أخرى في المنطقة (خاصة الدول الإقليمية) تحتل مساحات وتمارس المناورات السياسية لتعزيز أدوارها ومصالحها، وعلى المستوى الاقتصادي وهو ما كشف عنه انعقاد قمة الدول العشرين في بكين ــ قبل انعقاد دورتها الثانية في واشنطن ــ الذي كان أشبه بتحول "البندول" الاقتصادي من أقصى القارة في واشنطن إلى بكين (خاصة وأن أوروبا هي من سعى إلى عقد تلك القمة في بكين)، وكذا ما حدث من بعد، إذ حلت مجموعة دول العشرين محل الدول الثماني الكبار في إدارة الاقتصاد الدولي.

وفي ضوء كل ذلك، فإن خيارات أوباما هي خيارات "تضيق" على المستوى الاستراتيجى الدولي، وتطرح احتملات قوية لدرجة ما للانكفاء على الداخل، لإعادة البناء والترميم مع تغيير في الاستراتيجية الدولية بحكم احتلال الدول الأخرى لمساحات من السيطرة والتأثير على القرار الدولي (عسكرياً واقتصادياً وسياسياً)، هذا التغيير لا علاقة له بأوباما ولا بالحزب الديمقراطي ولا الجمهوري بل هو ضرورة واقعية عملية، لتغير موازين القوى في العالم.

وهنا تبدو الملاحظة الأهم هي أن مثل هذا التغيير في الوضع الدولي، هو حالة صراعية وليس تسليماً وتسلماً بين الدول الكبرى، هذه الحالة الصراعية



هي العنوان الأبرز للنمط الجديد من الاستراتيجية الأمريكية التي سيجري اتباعها من قبل إدارة أوباما، لإدارة أزمة تراجع الولايات المتحدة، ومنع حدوث تدهور حاسم في أوضاعها الدولية، ولاستخدام أفضل الوسائل للحفاظ على مكانة الولايات المتحدة وفق الأوضاع الدولية الجديدة، وفي ضوء الأوضاع الداخلية الجارية الآن.

لقد بادرت روسيا بالهجوم والتصعيد مع اليوم الأول لإعلان فوز أوباما في الانتخابات الأمريكية، إذ أعلن الرئيس الروسي عن نشر صواريخ جديدة (إسكندر) على الحدود الروسية البولندية، موجهة للدرع الصاروخي (بولندا عضو حالي في حلف الأطلنطي) ومن بعد هي عرضت التراجع عن نشر الصواريخ في مقابل تخلي الولايات المتحدة عن خطة الدرع الصاروخي، كما شددت روسيا من إصرارها على تغيير النظام الاقتصادي الدولي ليصبح القرار الاقتصادي دولياً وفق نظرة تعدد الأقطاب.

كما بادرت أوروبا بالتوافق على وثيقة جديدة لتنظيم العلاقات بينها وبين الولايات المتحدة تنقلها من حالة التبعية التي كانت سارية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الآن إلى حالة الشراكة، التي تقوم على أن أوروبا هي ند وشريك للولايات المتحدة (حسب الوثيقة) وأنه لم يعد من الممكن لدولة واحدة أن تُسير دفة القرار الدولي، ومن بعد سعت أوروبا إلى تطوير علاقتها مع روسيا متخطية الموقف الأمريكي من قضية جورجيا وقضية نشر صواريخ إسكندر الروسية.

كما تباطأت الصين في دعمها السابق الدائم للاقتصاد الأمريكي (من خلال شراء سندات الخزانة الأمريكية التي تمول الميزانية الأمريكية)، كما هي لم

ترحب بمنح الولايات المتحدة قرض بمبلغ ٥٠٠ مليار دولار لإنقاذها من مأزقها الحالي، مع إشارات "غير رسمية" إلى شروط تطلب تحقيقها في مقابل هذا القرض، وهذا وغيره هو ما يضيق مساحة الخيار والمناورة على الإدارة الأمريكية الجديدة ويضعها في مأزق حقيقي.

ووفقاً للمعطيات المتوفرة عن ما يجري حتى كتابة هذه الدراسة، فإن إدارة أوباما لأزمة تراجع الولايات المتحدة ستقوم على المحاور التالية:

أولاً: على المستوى الداخلي

لا شك إن إدارة أوباما ستحدث تغييرات هيكلية في نمط الإدارة السياسية للحكم، إذ مؤشرات المفاوضات حول التعيينات الأساسية في إدارة أوباما، تشي بأنها ستكون أقرب إلى تشكيل نمط من الحكم "المتقارب أو المشترك" بين الجمهوريين (من غير جماعة المحافظين الجدد) والديمقراطيين، أو لنقل إننا أمام سابقة متميزة في التاريخ الأمريكي هي أقرب إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية لمواجهة الأخطار التي تتعرض لها الولايات المتحدة حالياً، والتي تستدعي الخروج بدرجة أو بأخرى عن الحالة الحزبية التقليدية، وعلى المستوى الاقتصادي ستعكف إدارة أوباما على إعادة دفع الاقتصاد الأمريكي مع الحرص على تقليل الآثار الاجتماعية التي أصابت المجتمع الأمريكي، وهو ما لا يمكن أن يتم دون تعظيم دور الدولة في إدارة الاقتصاد، وفي كل ذلك ليس أمام إدارة أوباما سوى التراجع عن كثير مما نتج عن حكم الإدارة السابقة في مجالات الحريات لإعادة دفع دورة الحيوية داخل المجتمع الأمريكي، وهنا فإن القضية الأصل التي تهم المتابعين لما يجري (من خارج الولايات المتحدة) هي أننا أمام ولايات متحدة ستركز قدراً مهماً من جهدها على مواجهة الأزمات

الداخلية، وهو ما سيؤثر ـ على نحو أو آخر ـ على دورها وسياستها الخارجية على الأقل لأن المجتمع الأمريكي يحتاج إلى نمط من التغيير في ثقافته وأنماط حياته للتعاطي مع المتغيرات الجديدة بما سيصعب مهمة إدارة أوباما.

ثانياً: على مستوى الوضع الدولي

لا شك إن إدارة أوباما ستحاول الخروج من المأزق الراهن عبر التسليم بمعطيات الوضع الدولي الجديد وفق حالة مراوغة تضمن إتاحة الوقت اللازم لإعادة إطلاق قوة الولايات المتحدة، لقد طرح أوباما فكرة الحوار كما إن الدول الأخرى راغبة في الحوار مع الولايات المتحدة، لكن باتجاه تقليص هيمنتها وسيطرتها على العالم، وفي ظل المعطيات الراهنة وأفقها المنظور ليس أمام إدارة أوباما إلا العودة إلى الشعارات الأمريكية القديمة المتعلقة بنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان وفق نمط تبشيري ودون الدخول في صراعات في داخل الدول كما فعل بوش، كما ليس أمامها في إدارة النزاعات الدولية الراهنة إلا الوصول إلى نمط من الموائمة بين المصالح الأمريكية ومصالح الدول الكبرى الأخرى والدول الإقليمية في كل منطقة من مناطق العالم من أجل تطوير وإصلاح الأوضاع في الداخل الأمريكي أولاً، وتقليص مساحات الصراع الجارية لغير مصلحة الولايات المتحدة، كما سيضطر أوباما إلى إخلاء بعض مساحات النفوذ التي تتعرض فيها الولايات المتحدة إلى صراعات تستنزف قوتها وقدرتها وطاقتها، دون إنهاء الوجود الأمريكي، أي إنه سيلجأ إلى مخطط لتسكين الصراعات بانتظار عودة القوة الأمريكية للاندفاع مجدداً.

(٥) خيارات المقاومة

المقاومة مثلها مثل كل تعبير عن مصالح مجتمع (سواء كان التعبير من خلال

دولة أو من خلال حركة تحرير) تتحدد استراتيجيتها وفق نفس الأسس التي سبق الإشارة إليها من قبل.

فأهداف المقاومة في التحرير والبناء واستراتيجيتها هي خلاصة كلية لأفكار وعقائد وأهداف ومصالح المجتمع الذي تدافع عنه، كما يجري تشكيل أطرها ومحدداتها من خلال ثوابت الأمن القومي للمجتمع ومهدداته الثابتة.

والمعنى أن استراتيجيات المقاومة مثلها مثل كل الكيانات والمؤسسات والدول، لا تتحدد وفق سياسات الخصم أو التغييرات الجارية فيه ـ إلا في جانب طرق المواجهة وأدواتها ـ ولا تتأسس على علاقاتها بهذا الطرف أو ذاك، بل على الأفكار والرؤى والمصالح وثوابت الأمن القومي لمجتمعها وأمتها.

وفي ذلك ينطبق كل ما ذكرناه حول محددات التغيير الحادث في الولايات المتحدة على حالة المقاومة، ومع ذلك هي في حاجة للتدقيق الشديد في التغييرات الحادثة لدى خصمها باعتباره يحتل الأرض ويتواجد بقوته العسكرية ويقاتل المقاومة، لكن ذلك يظل في حدود ذات وضعية الثوابت ويظل في حدود تغيير السياسات.

وإذا كانت الخلاصة في رؤية التغييرات الحادثة مع مجئ أوباما، هي أننا أمام تراجع للولايات المتحدة مع تقدم لأقطاب دولية أخرى وأمام انفتاح مساحة واسعة في الوضع الإقليمي، وأمام أزمة اقتصادية في الداخل الأمريكي.. الخ، فإن مسألة تغيير أوضاع الولايات المتحدة لا تعني "أوتوماتيكياً" ضعفها وتراجعها أمام المقاومة، أو انسحابها من مناطق الاشتباك بل قد يعني العكس في بعض الأحيان!.

لقد تراجعت بريطانيا وفرنسا عقب الحرب العالمية الثانية، وقبلت بقوة

ونفوذ دول جديدة على المسرح الدولي (أمريكا وروسيا)، لكن البلدان خاضت عدواناً على مصر بعد ذلك بعدة سنوات!.

والقصد هنا هو أن ما يحمى المقاومة من الانزلاق إلى تقديرات خاطئة هو تمسكها باستراتيجياتها والثبات عليها في إطارها العام، مع قراءة المتغيرات في قدرة الخصم وفي الوضع الإقليمي والدولي، لتحديدات التغييرات المقابلة في سياساتها وفقاً للتحديات الجديدة التي تطرحها تلك الأوضاع المستجدة.

وإذا كانت المقاومة مطالبة بإجراء تغييرات في خططها السياسية ـ وفق المتغيرات الجديدة التي عنونها وصول أوباما وجوهرها تراجع أزمة الولايات المتحدة ـ وإذا كان ذلك لا يعني إجراء تغييرات في استراتيجياتها فإن الإطار العام لهذا الوضع الدولي الجديد للولايات يفرض التحول إلى نمط أعلى من الهجوم على الولايات المتحدة لا العكس وفقاً لحسابات الأوضاع وتوازنات القوى الجديدة، حيث المعنى العام لتقدير الموقف هو أن المقاومة قد انفتحت أمامها مساحات لتعزيز عوامل قوتها وتطوراتها، ولتكثيف ضغوطها على الخصم الاستراتيجي، كما الإطار العام لهذه التغييرات بات يتطلب التحرك في الإقليم وفق حسابات أشد تدقيقاً وأكثر ديناميكيةً، والوضع في الاعتبار طبيعة التحديات المستجدة في داخل العراق نتيجة وصول أوباما للحكم في الولايات المتحدة.

وبصفة أكثر تحديداً تبدو المقاومة في المرحلة الراهنة أمام أوضاع جديدة وخيارات يمكن تلخيصها في التالي:

(١) إن مساحة سياسية واسعة في العلاقات الدولية قد انفتحت أمام المقاومة للاعتراف بها وبدورها، بما يغير أوضاعها السابقة (الخانقة) التي كانت تعيشها

في ظل هيمنة الولايات المتحدة على القرار الدولي، بما كان يمنع بعض الدول الراغبة في تطوير علاقتها بالمقاومة أو في الاعتراف بها، من الإقدام على ذلك، وهو ما يتطلب طرح المقاومة رؤية سياسية وإعلامية تمكنها من "التلاقي" مع تلك القوى والحصول على دعمها أو تطوير مواقفها من المقاومة، خاصة وإن قوىً دولية باتت راغبة الآن في الإفصاح عن مواقف أعلى من السابق في تعزيز المقاومة العراقية، لقد شهدنا روسيا تهدد بتحويل أفغانستان إلى فيتنام أخرى في معرض صراعها ومساومتها مع حلف الأطلنطي على جورجيا، وهو أمر يقدم نموذجاً على درجة جرأة قوى دولية على دعم المقاومة في بلد ما، إذا اقتضت مصالحها ذلك.

(٢) وفي الوضع الراهن يبدو المشهد الإقليمي متحرراً من الضغط والدور والنفوذ الأمريكي على نحو أعلى ومنفتحاً أكثر على قوى دولية متعددة، وهو ما يستدعي إعادة دراسة الأوضاع الإقليمية وتطوراتها، وفي ذلك يبدو أن المقاومة باتت مطالبة بالانفتاح على تطورات الوضع الإقليمي على نحو أكثر جرأة، سواء بعوامله السلبية باعتبار أن بعض القوى الإقليمية تأخذ موقفاً مضاداً من المقاومة، أو بعوامله الايجابية إذ بعض الدول الأخرى تصبح أكثر انفتاحاً على المقاومة بحكم مصالحها في مواجهة نفوذ ودور الدول المضادة للمقاومة (إيران) وخاصة في ظل احتمالات الحوار الأمريكي مع إيران.

(٣) وعلى المستوى الداخلي فإن مجيء أوباما للسلطة في أمريكا قد أوجد بدوره تحديات في مواجهة المقاومة في داخل العراق يمكن تحديد إطارها العام في التالي:

التحدي الأول: هو عودة الولايات المتحدة إلى لغة الخداع الأرقى، وهي

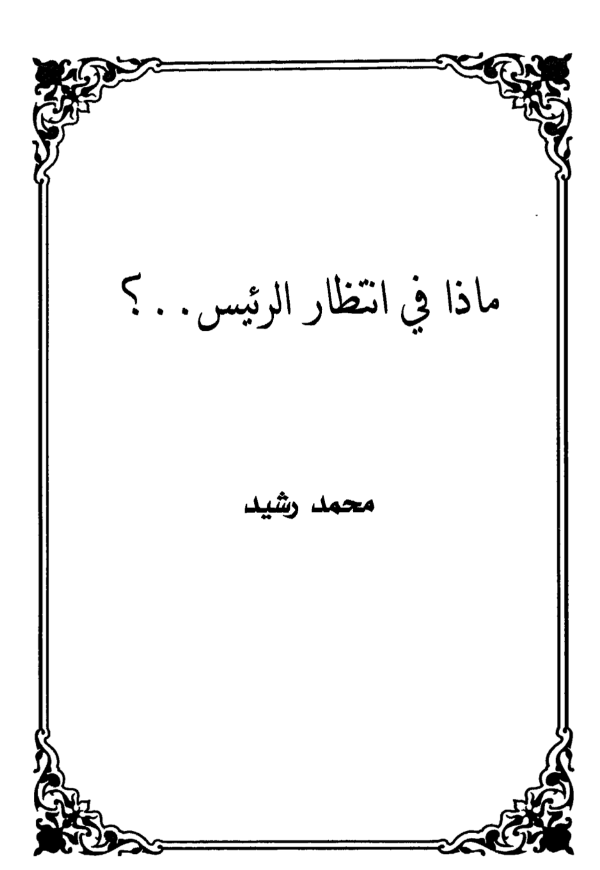
اللغة التي تستخدم وسائل القوة الناعمة _ مع قلة الاعتماد على القوة العسكرية الصلبة _ وفي ذلك يبدو الأمر واضحاً من الآن، إذ يلفت الانتباه ما يجري في إقرار الاتفاقية الأمنية من دعاية مكثفة حول فكرة جدولة الانسحاب، وانسحاب قوات الاحتلال من المدن وكلها تقدم تغطية لاستراتيجية أوباما، وبما هو أعقد من تلك التي كانت في ظل إدارة المحافظين الجدد ومرحلة الاستخدام الكثيف للقوة العسكرية.

التحدي الثاني: ويتمثل في تصعيد الدور الإيراني داخل العراق، وانتقال فكرة شراكة الاحتلاليين إلى حالة أعلى، حيث الحوار الأمريكي الإيراني يعني تحديداً الوصول عبر المساومة إلى تثبيت أوضاع السيطرة على العراق (ضمن المساومات حول الملفات الإقليمية الأخرى)، وفي ذلك يبدو أن المقاومة مطالبة بوضع هذا الأمر في الاعتبار، أو بالدقة تصبح مطالبة بتصعيد موقفها الداخلي والعربي والدولي ضد إيران، إذ الحوار القادم ستكون نتائجه لمصلحة إيران وحلفائها _ مقارنة بالوضع السابق _ كما سيشمل على نحو ما عدم تعرض إيران لخطر عدوان أمريكي بما يرفع الحرج عن مهاجمة إيران في وقت تهاجم فيه من قبل أعداء الأمة.

التحدي الثالث: إن توقيع الاتفاق الأمني وما يرتبط به من "سحب" القوات الأمريكية إلى قواعد محددة، وتغطية كل اعتداءاتها بشكل واضح من قبل الحكومة التي شكلها الاحتلال سيعني ضرورة التدبر في كيفية التعامل مع هذا الوضع العسكري المحدد على الأرض العراقية، وتحديد أطر أكثر فعالية في التعامل مع الحكومة الحالية التي تصبح في واجهة الأحداث أكثر من ذى قبل،

خاصةً وأنها تتحرك الآن ـ كما هو الحال في تشكيل مجالس الإسناد ـ لتدعيم نفوذها وطرق حمايتها في الشارع العراقي.

التحدي الرابع: هو تحدي النتائج السياسية للعمليات الانتخابية التي ستجري خلال المرحلة القادمة، والتي تستهدف تعزيز وضع المرتبطين بالاحتلال في السلطة والمجتمع، وفي ذلك يبدو أن الأمور تتطلب حواراً أعمق بين فصائل المقاومة والحاضن السكاني لها.



ماذا في انتظار الرئيس..؟

محمد رشيد

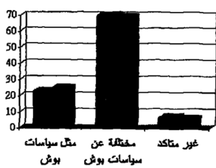
ماذا في انتظار الرئيس..؟

محمد رشيد

" إن الرئيس سيضطر إلى حمل عشرات من المشاعل الملتهبة بنهاية موكب التنصيب"
(ديفيد دريهل)

حالة اعتراف

أصبح فشل حقبة بوش محل إجماع الأغلبية المطلقة من السياسيين والرأي العام العالمي (ما عدا بعض أصدقائه الحميمين في منطقتنا الذين ما برحوا يتغزلون به والذين يتهيئون للارتماء في حضن الرئيس الجديد بدلع وغنج)، بل هو ما يراه الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية منذ فترة ليست بالقصيرة ففي استطلاع قام به "مركز بيو" بالمشاركة مع "مركز برينستون لأبحاث الرأي العام" لآراء (١٥٠١) مواطناً أمريكياً بخصوص الانتخابات الرئاسية في الفترة من (٧ أبريل وحتى ١٦ أبريل٢٠٠٦م بهامش الخطأ ٣%)، ونشر على الموقع الرسمي الأمريكي "تقرير واشنطن"، وكان السؤال (هل تريد من الرئيس الأمريكي القادم أن يتبنى سياسات مشابهة لتلك التي يتبناها الرئيس الحالي جورج بوش؟ أم تريد رئيساً تختلف سياساته عن سياسات جورج بوش؟)، فكانت إجابة ٧٠% أنهم غير



كما كشفت استطلاعات رأي أجراها (معهد غالوب) عن أن الرئيس بوش حصل على أعلى معدل رفض شعبي من بين الاستطلاعات التي أجراها المعهد على امتداد ٧٠ عامًا، ومما لا شك به أن تلك المعدلات قد زادت وتضاعفت خصوصاً بعد الأزمة المالية الأخيرة.

الشـــهـــود

وهو بلا شك أيضاً رأي الغالبية العظمى من المفكرين الأمريكان ومنـــهم الصحفي الأميركي الشهير (بوب ودوورد) في كتابه (حالة إنكار) الصادر في أواخر شهر (سبتمبر/أيلول٢٠٠٦م)، ويغطي الكتاب مساحة واسعة من الزمن تمتد من أواخر عام ١٩٩٧م حين بدأ (جورج دبليو بـــوش) في الـــتفكير في ترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة، وتصل إلى (يونيو/حزيـــران ٢٠٠٦م) وقد دخلت إدارة الرئيس جورج بوش دوامة أخطاء حرب العراق حيث بدا لها أن استراتيجيتها تجاه العراق مليئة بالعيوب والأخطاء ومع ذلك يـــصر كبـــار مسؤوليها على عدم الاعتراف بتلك الأخطاء منخرطين في (حالة إنكار) غـــير منطقية انطلاقاً من أهداف دعائية سياسية.[٢]

وهو أيضاً رأي غالبيـــة الـــسياسيين الأمـــريكيين (الجمهوريـــون منـــهم والديمقراطيون)، حيث اعترف خمسة من وزراء الخارجية السابقين وهم كـــل من (كولن باول ومادلين أولبرايت ووارن كريستوفر وجيمس بيكر وهنـــري

---

[١] تقرير واشنطن العدد ٥٦، ٢٧ أبريل ٢٠٠٦م

[١] حالة إنكار/علاء بيومي/الجزيرة نت

كيسنجر) في نقاش بعنوان (الرئيس القادم ... عالم من التحـديات) أدارتـه رئيسة المراسلين في الشبكة الإخبارية الأمريكية (سي أن أن CNN كريـستيان أمامبور) ومدير مشروع العلاقات العامة في (جامعة جورج واشنطن فرانـك سنو)، أن صورة الولايات المتحدة الأمريكية قد تشوهت كثيراً خلال حقبـة بوش وعلى الرئيس الجديد استعادة الاحترام للولايات المتحدة الأمريكيـة في العالم.[1]

وليس السؤال المطروح الآن حول تلاشي بوش وحقبته الفاشـلة ولكـن الحديث الذي يدور حول تلاشي الحقبة الأمريكية بأكملها وبداية ظهور عالم جديد بعيد عن الهيمنة الأمريكية، وهذا ما تحدث عنه الكثيرون منهم (فريـد زكريا) رئيس تحرير الطبعة الدولية لمجلة (نيوزويك) الأمريكية في كتابه (العالم بعد أمريكا) والذي يستعرض فيه التحولات الهائلة التي تقع في العـالم اليـوم وصعود كثير من دول العالم وانتقال مراكز القوة إلى تلك الدول شيئاً فـشيئاً على حساب أمريكا، وأن التحدي الكبير الذي تواجهه الولايـات المتحـدة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين هو تدهور نفوذها السياسي بعد زيـادة النمو الاقتصادي لهذه الدول النامية، ولهذا فإن الدور الرئيسي الذي تضطلع به أمريكا سيتعرض حتماً للانكماش والانحسار.[2]

وهذا ما يذهب إليه الوزراء (كـولن بـاول ومـادلين أولبرايـت ووارن كريستوفر وجيمس بيكر وهنري كيسنجر) على أن التحدي الرئيسي للسياسة

---

[1] موقع الجوار الالكتروني

[2] راجع العدد "١٦٥" من تقرير واشنطن ٢٨ /يونيو ٢٠٠٨م.

الخارجية أمام الرئيس الأمريكي القادم هو استعادة الولايات المتحدة الأمريكية صورتها في العالم.[1]

وهو ما يتحدث عنه (مايكل كلار Michael T. Klare) الأستاذ في معهد (أمهرتس في هامشاير) مؤلف كتاب (Shrinking Planet the ،Rising Powers New Geopolitics of Energy) يقول: تتوافق تحاليل جون ماكين وبارك أوباما للصعوبات التي تواجهها الولايات المتحدة في العديد من النقاط، إذ أنهما يصران على الكثير من التهديدات التي تواجه أمريكا في العالم ويشددان على عدم كفاءة إدارة جورج بوش لمواجهتها ويدعوان إلى تغيير جذري للاستراتيجيات.[2]

وفي كتاب صدر حديثاً عن دار نشر (تايمز بوكس) تحت اسم (ثمن الحرية _ الدفع لحروب أمريكا) لمؤلفه (روبرت هورماتس) مستشار وزير الخارجية الأمريكية السابق (هنري كيسنجر) للشؤون السياسية والاقتصادية وفيه يتحدث (هورماتس) بيأس وقلق شديدين حيث يقول: (إن الشعب الأمريكي يدفع حالياً ثمن عقدين من الأخطاء، لكن الثمن الأعلى هو ما دفعه الشعب الأمريكي على مدى السنوات الست الماضية وتحديداً جرّاء أخطاء الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش) في تعامله مع الحروب الأمريكية الحالية، وهي الأخطاء التي ستكلف الأجيال القادمة من الشعب الأمريكي ثمناً باهظاً، وهو

[٢] موقع الجوار الالكتروني

[١] لوموند ديبلوماتيك أكتوبر ٢٠٠٨م النسخة العربية.

الثمن الذي سيكون لزاماً على أطفال وأحفاد الجيل الحالي من الأمريكيين دفعه). [1]

كل هذا وتداعيات الكارثة الاقتصادية وحالة الركود الاقتصادي التي من المتوقع أن تسود العالم فضلاً عن أمريكا لازالت في طور التشكل ونتائجها وتداعياتها بدأت بالظهور مما قد يساهم بصورة أكبر في زيادة وتضخيم كل المصاعب التي تواجه الولايات المتحدة الأمريكية في حقبة الرئيس الجديد فإذا كانت (حالة الإنكار) هي صفة مرحلة (بوش) المنقرضة فإن المرحلة القادمة لابد أن تكون (حالة اعتراف)، وعلى الرئيس الجديد مواجهة الواقع من أول يوم والاعتراف أن عليه وعلى إدارته وعلى الأمريكيين جميعاً الاعتراف بحجم الأخطاء والكوارث التي ارتكبت في عهد (بوش) ومن ثم عليهم أن يمنحوا أنفسهم فرصة المراجعة وتصحيح الأخطاء.

وأخيراً فإن آخر ضحايا حقبة (بوش) الفاشلة هي هذه الخسارة الكبيرة للجمهوريين في انتخابات الرئاسة الأمريكية وما (جون ماكين) إلا آخر ضحايا (بوش).

ماذا في انتظارك أيها الرئيس ؟!

يوجز (فريد زكريا) رئيس تحرير الطبعة الدولية لمجلة (نيوزويك) الأمريكية الموقف الذي يواجه الرئيس الأمريكي الجديد قائلاً: (هل يمكننا الآن الاعتراف بما هو واضح؟ سوف تواجه الإدارة التالية مجموعة من التحديات لا مثيل لها في الذاكرة الحديثة، هناك عملية عسكرية جارية في العراق لا تزال تكلفتها تبلغ

[1] الموقع الالكتروني لأحدث الأخبار العالمية والعربية.

(١٠ مليارات) دولار شهرياً، وحرب ضد حركة طالبان في أفغانستان وباكستان لا نحرز فيها تقدماً ولن يسهل الفوز فيها، كما أن إيران وروسيا وفنزويلا تشكل تحديات استراتيجية صعبة هذا خارجياً، وأما داخلياً فستتطلب خطة إنقاذ وإصلاح القطاع المالي سنوات ومئات المليارات من الدولارات، وكلفة العناية الصحية إن لم يتم تقليصها ستؤدي إلى إفلاس الحكومة الفيدرالية، كما أن مسائل الرعاية الاجتماعية والهجرة والبنى التحتية المتداعية والنظام التعليمي ستزداد كلها سوءاً إن لم تتم معالجتها قريباً.

والحكومة الأمريكية عاجزة عن تحمل أعباء إضافية إذا أخذنا بعين الاعتبار التخفيضات الضريبية التي أقرها بوش، وحاجات الأمن القومي وحربي العراق وأفغانستان وخطة الإنقاذ، تبدو الميزانية في حالة يرثى لها، فضلاً عن ذلك وفي غضون بضع سنوات سيبدأ جيل مواليد ما بعد الحرب العالمية الثانية بالتقاعد ويتسبب بكلفة هائلة ومتزايدة (بالتريليونات).[1]

وترصد (رويترز) كل تلك التحديات التي تواجه الإدارة الأمريكية الجديدة على لسان أكثر من سياسي أمريكي: (يواجه الرئيس الأمريكي القادم قائمة مثقلة من تحديات السياسة الخارجية من الحرب في أفغانستان والعراق والأزمة المالية العالمية إلى الحاجة لتحسين صورة البلاد السيئة على الساحة الدولية، لكن أياً كان ساكن البيت الأبيض فإنه سيواجه عدداً هائلاً من قضايا الأمن القومي حين يسلم له الرئيس (جورج بوش) السلطة، وقال (جيمس لينزي) الذي كان مساعداً للسياسة الخارجية للرئيس السابق (بيل كلينتون) ويعمل حالياً

[1] نيوزويك، العدد ٤٣٣ـ ٧/ ١٠/ ٢٠٠٨م.

لحساب جامعة (تكساس باوستن): (يجب أن يكون شعار الإدارة القادمة هـــو إحذر مما تتمنى لأنك قد تحصل عليه)، وأضاف (الرئيس الجديد الذي سينتخب سيكون عنده صندوق وارد ممتلئ بالسياسة الخارجية وقرارات يتخـــذها لهـــا عواقب وخيمة على الأمن الأمريكي، وسيرث خليفته الذي يتولى سدة الرئاسة في (٢٠ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩م) حربي العراق وأفغانستان وجهوداً مكثفة لملاحقة متشددي القاعدة على الحدود الباكستانية مع أفغانستان، كما إن منع إيران من امتلاك أسلحة نووية وإلزام كوريا الشمالية بوعدها بتفكيك برنامجها للتسلح النووي من القضايا الملحة)، وقال (مارك ليبرت) مستـــشار (أوبامـــا) للسياسة الخارجية: (إن مكافحة الإرهاب والتصدي للمتشددين على امتـــداد الحدود الأفغانية الباكستانية وقتل أو اعتقال (أسامة بن لادن) زعيم القاعـــدة على رأس أولويات الأمن القومي)، وقال (ليبرت): (إن تقويـــة التحالفـــات الأوروبية سيفيد على جبهات كثيرة منها كسب مزيـــد مـــن النفـــوذ مـــع روسيا)[١]، ويحذر (ريتشارد أن هاس) رئيس مجلس العلاقات الخارجية الرئيس الجديد قائلاً: (ليس العالم الذي كنت تتحدث عنه في حملتك الانتخابية منـــذ عام أو أكثر، فالحملة والحكم أمران مختلفان جداً، فبعض الأمور التي قلتها كان من الأفضل ألا تقولها، والأهم من ذلك إن الحملة لم تحضّر النـــاس للأزمنـــة الصعبة الآتية، سوف تمر أيام تتساءل فيها لماذا بذلت كل هذا الجهد للحصول على هذا المنصب؟ مما سيجعل الأمور صعبة جداً ليس فقط كل ما ينتظرك إنما القيود التي سوف تفرض حدوداً على ما يمكنك القيام به فعلاً).[٢]

---

[١] رويترز.

[٢] نيوزويك العدد (٤٣٧) تشرين الثاني ٢٠٠٨م

وبالعودة إلى كتاب (ثمن الحرية _ الدفع لحروب أمريكا) لمؤلفه (روبرت هورماتس) الذي يتناول كيفية تعامل الرئيس الأمريكي القادم مع تكاليف الحروب الأمريكية التي كتب الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش) على أمريكا خوضها، فيقول: (ففي يناير من عام ٢٠٠٩م سيكون على الرئيس الأمريكي القادم أن يرث صراعاً خارجياً شديد التكاليف وشديد الإثارة للجدل، ومما يزيد من صعوبة الأمر هو أن هناك شريحة كبيرة من الشعب الأمريكي ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية ما كان لها أن تخوض حربها الحالية، بل وهناك من يذهب لما هو أبعد مؤكداً على أن أمريكا لن تخرج منتصرة من هذه الحرب، حيث يرى أصحاب وجهة النظر تلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تورطت في حروبها الحالية في مواجهة عدو يؤمن بشدة بفكره الأيديولوجي، كما أن الشعب الأمريكي لا يشعر بأن ما خسرته أمريكا من الأرواح والحريات والدولارات يساوي حقيقة ما يمثله أعداء أمريكا من تهديدات لها).

و يخاطب (ريتشارد أن هاس رئيس مجلس العلاقات الخارجية) الرئيس الجديد محذراً وموضحاً له حجم التحديات التي سيواجهها قائلاً: (أما أنت فسوف ترث في المقابل حروباً في العراق وأفغانستان، وقوات مسلحة منهوكة القوى وموزعة على جبهات عدة، ومعركة عالمية مع الإرهاب، ونفطاً وصل سعر برميله إلى ١٥٠ دولاراً، ومشاعر عداء قوية لأمريكا، وعجزاً في الموازنة الفيدرالية قد يصل إلى تريليون دولار في عامك الأول، وديناً قومياً يزداد تضخماً وقد يصل إلى عشرة تريليونات دولار، وتباطؤاً اقتصادياً عالمياً سوف يؤدي إلى تفاقم عدم الاستقرار في بلدان عدة سوف تتسلم منصبك بعد

عقدين من انتهاء الحرب الباردة، وما وصفه البعض بالمرحلة الأحادية القطب أصبح من الماضي، فالسلطة الاقتصادية والسياسية والعسكرية في أيد كثيرة ليست كلها ملكاً للدول وليست كلها حميدة، لا يعني هذا أن الولايات المتحدة ضعيفة بل على العكس، لا تزال هذه البلاد الكيان الأقوى في العالم، لكن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تسيطر، فما بالكم بأن تملي إرادتها، وتتوقع من الآخرين أن يطيعوها، ثمة حدود للموارد الأمريكية، وفي الوقت نفسه تعاني البلاد هشاشات خطيرة، لقد خلف إفلاس شركة (إنرون) وسجن أبو غريب وإعصار كاترينا والأزمة المالية فضائح، فقدرة أمريكا على أن تملي على الآخرين ما يجب القيام به أو على إقناعهم من خلال القدوة تضاءلت إلى حد كبير وانطلاقاً من هذه الخلفية سوف تواجه تحديات خاصة وسوف تجد الكثير منها في الشرق الأوسط الأكبر، ذلك الجزء من العالم حيث تعثر جميع الرؤساء بدءاً بجيمي كارتر ولنأخذ على سبيل المثال العراق الذي سيطر على سياسة بوش الخارجية سوف يجد المؤرخون الوقت الكافي لاستخلاص الحكمة (أو عدم الحكمة) وراء شن هذه الحرب المكلفة التي ذهبنا إليها بملء إرادتنا، الأولويات الآن هي خفض الوجود العسكري الأمريكي تدريجياً، ودعم دمج الأقلية السنية العراقية في المؤسسات الوطنية، وإقناع الدول العربية بمساعدة الحكومة والشروع في حوار مع إيران حول مستقبل العراق ... تشير الأسهم في الاتجاه المعاكس في أفغانستان، تكتسب حركة طالبان مزيداً من النفوذ والوضع الأمني يتدهور وتستشري المخدرات والفساد، ثمة حاجة إلى مزيد من القوات).

ثم يمضي في تفصيل الكثير من التحديات التي تواجه الرئيس الجديد وينتقل

إلى أنواع أخرى من التحديات، كل تلك التحديات تشير حسب رأيه إلى عدم إمكانية الولايات المتحدة الأمريكية على مواجهتها لوحدها ولابد من إشراك قوى عالمية جديدة في إدارة العالم الجديد!.

(هناك تحديات أخرى ملحة بالدرجة نفسها: التعامل مع كوريا شمالية نووية، والعمل لتهدئة روسيا المستاءة والصاعدة من جديد، والتوسط من أجل التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا، واتخاذ خطوات لزرع الاستقرار في البلدان الأفريقية، لا تستطيع أمريكا أن تفعل ذلك بمفردها، فتحديات هذه الحقبة لا تنطلق من دولة واحدة ولا تستطيع دولة واحدة أن تحلها، تعدد الأطراف هو السبيل الواقعي الوحيد والكلمة الأساس هي (الدمج)، يجب أن نشرك قوى كبرى أخرى في تصميم العالم وتشغيله، ثمة فرصة حقيقية لإحراز تقدم، فعدد كبير من القوى الحالية تدرك أنها أمام خيارين إما أن تتعاون في ما بينها وإما أن تدفع ثمناً باهظاً)، إلى أن ينتهي إلى نتيجة لامناص منها مطلقاً :(يبدو أن السنوات الأربع المقبلة سوف تكون صعبة).[1]

وصحيفة (كريستيان ساينس مونيتور) الأمريكية هي الأخرى غير متفائلة بمستقبل الرئيس الجديد بسبب أخطاء بوش وانتقدت سياسته في الحرب على ما يسمى بالإرهاب، قائلة إن حرب العراق تكلف الاقتصاد الأمريكي أكثر من ٢٥ مليار دولار شهرياً، وإن الحرب على العراق وأفغانستان ستكلفان الخزينة الأمريكية خمسة تريليونات دولار بحلول عام ٢٠١٧م ، وبالتالي فإن الرئيس الأمريكي القادم سيغرق حتى أذنيه في براثن أخطاء بوش.[2]

[1] نيوزويك، الثلاثاء، ٢٠٠٨/١١/٤م.

[2] شبكة الإعلام العربية.

ويذكر (ديفيد فون دريهل) في مجلة التايم: إن الرئيس القادم سيرث جملة من المشاكل الشائكة والقابلة للانفجار، بداية من المستنقع العراقي إلى الاقتصاد المتباطئ، ومن التحدي الصيني إلى فوضى الرعاية الصحية، الانتشار النووي إلى الاعتماد على البترول إلى (بعض الأشياء التي لا تتغير أبداً) مثل السياسة الكوبية، إن الرئيس القادم سيضطر إلى حمل عشرات من المشاعل الملتهبة بنهاية موكب التنصيب، ومن المهم معرفة إن كان ذلك الشخص يملك القدرة على هذه المهمة.[1]

هكذا إذن الجميع مجمع على كارثية أخطاء بوش على كافة الأصعدة الاقتصادية والسياسية (الداخلية والخارجية) والأمنية والتي سيورثها للرئيس الجديد ولكنهم قد يختلفون في وضع سلسلة الأخطار التي تواجه أمريكا هل هو الخطر الاقتصادي أم السياسي أم الأمني ؟ والجميع أيضاً يؤكدون عمق الخطأ الكبير في العراق وكارثيته ولكن الجميع يركزون على أمرين مهمين بلا شك وهما الخسائر المالية الكبيرة التي تتجاوز العشرة مليارات دولار شهرياً وكذلك الخسائر البشرية، فهل هذين الخطرين هما فقط التي تواجهها أمريكا في العراق؟ وكيف ينظر السياسيون الأمريكيون إلى الأزمة الأمريكية في العراق؟.

المأزق الأمريكي في العراق من وجهة نظر أمريكية

قد يستغرب البعض عندما نجد من الأمريكيين من يعتقد أن هناك تقدم حاصل فعلاً في العراق والمقياس الأمريكي لتقدم الوضع أو تأخره يعتمد على

(1) (مجلة التايمز بقلم: ديفيد فون دريهل) ١٨/ مارس /٢٠٠٨م نقلاً عن جريدة الرياض.

أمرين رئيسيين هما الانخفاض النسبي في الخسائر البشرية من قوات الاحتلال في العراق، فكلما قلّت خسائرهم اعتبروا ذلك مؤشراً لتحسن الأوضاع بالعراق بغض النظر عن ما يحدث على أرض الواقع العراقي والخسائر التي يتكبدها المواطنون العراقيون كل يوم!، الأمر الثاني هو التقدم الشكلي في العملية السياسية في العراق ومن دون أي اعتبار للواقع المعاش على الأرض وعن إفرازات هذه العملية وانجازاتها (وسيتم توضيح هذا الأمر بشكل واسع لاحقاً)، والذي يدفع الإدارة الأمريكية لذلك أمران أيضاً إرضاء المواطن الأمريكي (الناخب الأمريكي) وإقناعه بصحة السياسة الأمريكية ونجاحها في العراق وتطمين الكونجرس الأمريكي ودفعه نحو التجاوب مع الإدارة الأمريكية خصوصاً في ما يتعلق بالاستحقاقات المالية المطلوبة للحرب هناك، ومع هذا فإن أغلب السياسيين الأمريكيين ناقمون على سياسة بوش في العراق ويعتقدون بكارثية الوضع هناك ولا يعتقدون بصحة أي تقدم سياسي حقيقي هناك، ولعل (ريتشارد أن هاس) من القلائل الذين يعتقدون بوجود تقدم ما في العراق إذ يقول في دراسته "العالم الذي ينتظر الرئيس" موجهاً حديثه إلى الرئيس الجديد (الخبر السار هو أن الكثير من الأسهم في العراق تشير وأخيراً في الاتجاه الصحيح ولن تطغى المسألة العراقية على رئاستك أما الخبر السيئ هو أنك تعرف أن طريقاً شاقاً بانتظارك عندما يكون العراق هو الخبر السار.[١]

ولكنه وفي نفس الدراسة يقول في إشارة إلى الحكومة العراقية: (نرسل مبالغاً

[١] نيوزويك.

طائلة إلى بعض أبغض الحكومات في العالم، ونعزز موقعها بينما نبقي أنفسنا معرضين لقطع الإمدادات وتقلبات الأسعار).

فأين النجاح إذن؟ ثم يقول في مكان آخر من نفس المقال وهو يتحدث عن احتمال القيام بضربة عسكرية لإيران: (بل إنه يقود إلى انتقام إيراني من الموظفين الأمريكيين ومصالح الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان)، أليس ذلك تعبيراً عن هشاشة الوضع الأمني في العراق بشكل عام وضعف التواجد الأمريكي وهشاشته في العراق بشكل خاص؟!.

وأخيراً لا يمكن إغفال حقيقة كبيرة وواضحة جداً وهي أن المسألة العراقية كانت من أهم العوامل المؤثرة في الانتخابات الأخيرة رغم كونها من المسائل الخارجية التي من المعتاد أن تتراجع أهميتها في الانتخابات ولكن المسألة العراقية لم تعد فعلاً مسألة خارجية فقط لتأثيرها الكبير على الشأن الداخلي الأمريكي وعلى الاقتصاد الأمريكي وحتى الاجتماعي ثم أن عالم اليوم لم يعد مثل عالم الستينيات، بدءاً بالتقارب الفكري والتواصل القومي والاجتماعي وبالأخص الثقافي لذا لم يعد يتقبل المبررات القائمة على العنف والدمار والقوة المفرطة وبدأ يتجه نحو عالم من الرفاهية والتعايش وبالخصوص الشعب الأمريكي.

وقريباً من رأي (ريتشارد أن هاس) ولكنه يعترف بأن الحرب في العراق شاقة يقول "روبرت غيتس وزير الدفاع الأمريكي الحالي" في مقابلة له مع "مجلة نيوزويك" : (نحن متورطون في حربين شاقتين للغاية إحداهما في العراق التي تبدو سائرة نحو تحقيق نتيجة إيجابية لاسيما مقارنة بوضعنا السابق، لكن الحرب الأخرى ستكون عسيرة وبطيئة، وهي أكثر تعقيداً لأن دولاً كثيرة

أخرى مشاركة فيها، ليس على الصعيد العسكري فحسب، بل على الصعيد المدني أيضاً، لذا إدارة هذه الحرب أصعب بكثير في أفغانستان).[1]

بينما نجد بالمقابل على النقيض من ذلك أن الكثير من السياسيين والمفكرين الأمريكيين يعتقدون أن الوضع في العراق (كارثي) ولهم أسبابهم العديدة، بينما يتحدث (جون ماكين) عن أهمية استمرار المعركة في العراق وضرورة البقاء هناك حتى الانتصار: (ضرورة توقف التكهن بأن النصر في العراق بات قريباً، الذي اعتقده أنه يتعين علينا أن ننتظر حتى نحصل على هذا النجاح، ومن ثم نحتفل، ولا يجب توقع ذلك فقط، وعلينا أن نبلغ الشعب الأمريكي أن عملاً طويلاً وشاقاً وصعباً مازال ينتظرنا، إن إدارة بوش أخطأت في تعاملها مع الوضع في مراحله المبكرة وإنها رفعت سقف الآمال لدى المواطنين الأمريكيين حين كانت تصف المقاتلين في العراق بأنهم "يائسون" وفي "الرمق الأخير"، أعتقد أن هذا كان خطأً وأن النجاح في العراق سيكون خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء)، وأشار ماكين إلى احتمال بقاء الوجود الأميركي في العراق لقرن من الزمان على غرار ما تم فرضه في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية أو في كوريا الجنوبية إثر الحرب الكورية!.

(علينا أن ننتصر، ستكون عواقب الفشل مريعة، وهزيمة ذات مدىً تاريخي وستدفع المتطرفين الإسلاميين إلى أن يعتقدوا بأنّ العالم ملكٌ لهم وبأنّ كلّ شيءٍ ممكن بعد أن هزموا الاتحاد السوفييتي في أفغانستان والولايات المتحدة في العراق، ستتحول دولة العراق إلى مرفأ إرهابي في قلب الشرق الأوسط، ويمكن

---

[1] نيوز ويك.

أن تؤدي إلى حرب أهلية ثم تتحول إلى نزاعٍ إقليمي، لا بل إلى إبادة جماعية، ستعتقد إيران بأنها مدعوة للسيطرة على العراق والمنطقة)[١].

ويبقى "ماكين" مصراً على البقاء في العراق رغم اعترافه بالأخطاء الفادحة التي ارتكبت هناك: (بعد أربع سنوات من الأخطاء الفادحة فإنه أصبح للولايات المتحدة فرصة حقيقية للنجاح في العراق).[٢]

بينما ينظر الرئيس الجديد (باراك أوباما) إلى الأمر من زاوية أخرى: (إن إيران هي المستفيد الأكبر الوحيد من حرب العراق التي ما كان يجب خوضها، وتصريح أوباما هذا جاء في إطار حرب انتقادات متبادلة بين سيناتور إلينوي والمرشح الجمهوري جون ماكين، حول آرائهما المختلفة بشأن السياسة الخارجية الأمريكية، كما تأتي في أعقاب انتقادات ماكين له حول تصريحاته الأخيرة التي قال فيها إن التهديدات الإيرانية للولايات المتحدة أقل خطراً من تلك التي مثلها الاتحاد السوفيتي سابقاً، ورد أوباما مهاجماً خلال كلمة له في مونتانا (بأن سياسة بوش- ماكين للحرب في العراق ستجعل من الجمهورية الإسلامية أقوى)، وأضاف قائلاً: (لا مجال للالتباس هنا فإيران المستفيد الأكبر والوحيد من الحرب على العراق التي ما كان يجب إجازتها وما كان يجب أن تشن مطلقاً)، واستطرد قائلاً: (بفضل سياسة جورج بوش فإن إيران باتت

---

(١) حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٨م (ترجمة المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية).

(٢) (CNN) ٢٠٠٨/٠٦/١٣م.

أكبر تهديد للولايات المتحدة وإسرائيل والشرق الأوسط لجيل بأكمله، وجون ماكين يريد أن يضاعف كذلك من تلك السياسة الفاشلة).[1]

لذا فإن الرئيس الجديد يؤثر الانسحاب المبكر من العراق، وهو لم يلبث أن أفهم إيران في ما يلي من خطابه السابق قبل انتخابه رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية (إنها إذا انتظرت قليلاً فلن تضطر للقلق بشأن الجنود الأميركيين المنتشرين في العراق)، فهو قد كرّر نداءه لسحب القوات الأميركية من العراق من دون أن يربط الانسحاب بشرط الوضع على الأرض[2]، إضافة إلى أن إيران أصبحت أكثر قوة بعد الغزو الأمريكي للعراق.

ويتكلم فريد زكريا نيابة عن أوباما فيقول: (هدفي مازال يتمثل في إنهاء المشاركة القتالية الأمريكية في العراق وأن أفعل ذلك بصورة سريعة، ففي مرحلة ما سيكون علينا فطم أصدقائنا العراقيين عنا، أعتقد أنه ينبغي أن تكون لدينا خطة تحدد متى نصل إلى تلك المرحلة، فإذا حددنا النجاح بأنه يتمثل في إيجاد عراق يبدو كما لو كان فرنسا أو هولندا، فإن ذلك سيعني أن علينا أن نبقى هناك لفترة غير محدودة وأن نواصل إنفاق ١٠ مليارات دولار شهرياً والإبقاء على ١٤٠٠٠٠ جندياً أمريكياً في حال قتالية في العراق، وهذا أمر غير مقبول ولا هو قابل للاستدامة، علينا أن نقبل تعريفاً للنجاح في العراق يتمثل في طريق وسيط مشوش، أي أن نقبل عراقاً يُكوّن ديمقراطية فيدرالية عاملة بحكومة مركزية وجيش قادر على مواجهة غالبية التحديات التي تواجهه، لقد

---

(١) واشنطن، الولايات المتحدة (CNN).

(٢) واشنطن تايمز.

ذكر الجنرال بترايوس والسفير كروكر شخصياً أنه بغض النظر عـن النجـاح الذي نحققه فإنه سيظل هناك مستوى معين من الوجود للقاعـدة في العـراق وبعض الوجود الإيراني فيه، إذ أن إيران هي جار للعراق، علينا أن نـسحب قواتنا من هناك بالكامل، وإذا ما فرضت الظروف ذلك فإننا سـنُبقي علـى وجود صغير من قواتنا في العراق للتصدي للقاعدة ولتدريب الجيش العراقـي وحماية المصالح الأمريكية وتوفير المساعدة الإنسانية، ولكن هذا الوجود سيكون صغيراً ومؤقتاً. [1]

الشهود

ومن المؤكد أن قرار البقاء أو الانسحاب ترك منذ مطلع عـام ٢٠٠٨م إلى قرار الرئيس الجديد ولقد نشرت صحيفة النيويورك تايمز في مـارس ٢٠٠٨م وعلى لسان كل من "ستيفن لي مايرز **Steven Lee Myers**" و "تـوم شـانكر **Thom Shanker**": (إلى أن قرار سحب المزيد من القـوات الأمريكيـة مـن الساحة العراقية سوف يترك للرئيس الأمريكي الجديد، ولفت الكاتبان الانتباه إلى أن الرئيس الأمريكي بوش يعلم جيداً قلق الرأي العام الأمريكي من وضـع القوات الأمريكية في العراق والخسائر البشرية الكبيرة التي منيت بها منذ دخولها العراق)، وفي هذا السياق أعد "أنتوني كوردسمـان **Anthony H. Cordesman**" تحليلاً إخبارياً عن التقارير التي أكدت مؤخراً أن عدد القتلى الأمـريكيين في العراق وصل إلى أربعة آلاف قتيل منذ بداية الغزو الأمريكي للعراق في مارس من عام ٢٠٠٣م، حيث أشار التحليل الذي أذاعته شبكة **ABC** الإخباريـة أن

---

[1] ما ينبغي لأوباما قوله بشأن العراق/مجلة نيوزويك /العدد ٤١٩.

هذا العدد سوف يُزيد من التكلفة الرمزية للحرب في داخل الولايات المتحدة، لأنه من المتوقع أن هذا العدد الكبير من القتلى والجرحى سوف يُزيد من حدة الاستقطاب حول الحرب بين صفوف الرأي العام، وأشار التحليل إلى أن هناك العديد من الموضوعات التي يجب أن تؤخذ في الحسبان عند الحديث عن عـــدد القتلى الأمريكيين في هذه الحرب، على رأسها عدد الجرحـــى الأمـــريكيين، فبالرغم من أن عدد الجرحى قد تخطى حاجز الـــ ٢٩ ألف جريح من الجيش الأمريكي إلا أن وسائل الإعلام تركز اهتمامها فقط على القتلى دون سواهم، وهذا بالطبع يُعتبر تجاهل للآثار السلبية التي تتركها هذه الإصـــابات، فهـــي بالطبع تجلب على أصحابها آثاراً نفسية واجتماعية ســـيئة للغايـــة، وتجعلـــهم يشعرون بأن حياتهم قد تم تدميرها، ولكن السكوت عن هذا لم يعد مقبـــولاً داخل المجتمع الأمريكي لذا بدأت وسائل الإعلام الأمريكية بتسليط الضوء على الكثير من النتائج والأضرار الجانبية التي بدأت تخلفها حرب العراق.(١)

يشير "كوردسمان Cordesman" إلى أنه لا يمكن التكهن بالخـــسائر الأمريكية خلال الفترة القادمة، لأن عملية المصالحة السياسية في العـــراق مـــن الممكن أن تفشل وهذا بالتأكيد سيؤدي إلى تكبيد الولايات المتحدة مزيداً من الخسائر.وخلاصة الأمر أن النـــزاع مـــستمر بـــشأن البقـــاء في العـــراق أو الانسحاب منه لأن أحلاهما مر بسبب الأخطاء الكارثية الجسيمة التي ارتكبتها الإدارة المدنية والعسكرية في العراق منذ احتلاله في عام ٢٠٠٣م ولحد الآن مما جعل المستنقع الدامي في العراق مليء بالتناقضات ومغلف بإعلام متحيز تمامـــاً

(١) النيويورك تايمز في مارس ٢٠٠٨م.

وخادع في كثير من الأحيان ولكن الواقع أقوى من أن يُخفى إلى الأبـــد وأن حبل الكذب قصير والشمس لا يمكن حجبها بغربال وهاهم كبار الـــسياسيين الأمريكان يختلفون في الجواب على سؤال واحد.. هل هناك تقدم؟.ففي برنامج "Face The Nation" الذي يذاع على شبكة"CBS" استـــضاف اثنين من أعضاء لجنـــة الخـــدمات العـــسكرية Armed Services Committee في مجلس الشيوخ هما السيناتور الجمهـــوري "لينـــدزي جراهام Lindsey Graham" والسيناتور الديمقراطي "جـــاك ريـــد Jack Reed"، وفي خلال البرنامج أكد السيناتور الجمهوري "لينـــدزي جراهام Lindsey Graham" (والذي عاد من زيارة قام بها إلى العراق مؤخراً): إن الساحة العراقية سوف تشهد انجازاً كبيراً في الأســـابيع القادمـــة، خصوصاً على طريق المصالحة الوطنية، نتيجة للضغط الكـــبير الـــذي يـــضعه المواطنون العراقيون على السياسيين هناك(١). ولم يتحقق أي شيء يذكر منذ مارس ٢٠٠٨م لحد الآن بل لعل الأمر ازداد سوءاً على الأقل مـــن الناحيـــة السياسية وبدأت الضغوط الخارجية تتزايد على الحكومة العراقية وبدأ الكـــثير من الكيانات التي كانت عماد العملية السياسية الحالية في العراق بالتفكـــك، وعلى صعيد الجبهة العسكرية فيؤكد "جراهام Graham": إنه ما تـــزال مدن مثل الموصل تشهد معارك كبيرة، أما الجنوب العراقي فهو غير مستقر هو الآخر، والمليشيات (الشيعية) هناك هي السبب الرئيس وراء هـــذه الفوضـــى والاضطراب في هذه المنطقة، أما إيران فتبذل جهوداً جبارة من أجل نشر المزيد

---

(١) برنامج "Face The Nation" / شبكة"CBS".

من الفوضى في العراق بما يخدم مصالحها، حيث أنها ترى (من وجهة نظر جراهام Graham) أن الولايات المتحدة تحقق انتصارات وانجازات كبيرة على أرض الواقع تضرها وتضر بمصالحها في المستقبل(١). ولكن السيناتور الجمهوري يعود ويؤكد: أن الرؤية الكلية للوضع في العراق تشير إلى انجاز كبير وأداء رائع يقوم به الجنرال "ديفيد بيتراوس David Petraeus" والقوات الأمريكية العاملة في العراق، فعلى الجانب السياسي فقد تمت الموافقة على إعادة البعثيين مرة أخرى إلى الحياة السياسية، بتمرير قانون المصالحة الوطنية، بالإضافة إلى ذلك تم الاتفاق على توزيع العوائد النفطية بين الطوائف العراقية المختلفة، فضلاً عن أن قانون العفو الذي صدر أيضاً يسمح للعديد من السجناء بإطلاق سراحهم، هذا وسوف يشهد العراق انتخابات محلية في أكتوبر المقبل(٢).ولكن أرض الواقع لا تشير إلى ذلك، فقد عادت إلى الزيادة جرائم تفخيخ السيارات وعودة المليشيات وفرق الموت المدربة وقتل المدنيين وتهجير المسيحيين واغتيال الكثير من البعثيين السابقين، و لم يتم الاتفاق على قانون النفط والغاز رغم إلحاح الإدارة الأمريكية والرئيس بوش شخصياً على إبرامه و لم يشهد أكتوبر ٢٠٠٨م انتخابات محلية!.

أما السيناتور "جاك ريد Jack Reed" والذي كان وما يزال يرفض الحرب منذ بدايتها فإنه أكد إنه ليس هناك أي تقدم قد حدث في العراق، فهو يرى إن قانون المصالحة الذي تحدث عنه السيناتور "جراهام Graham" لم يفعّل على

(١) برنامج "Face The Nation" / شبكة "CBS"

(٢) برنامج "Face The Nation" / شبكة "CBS"

أرض الواقع، كما إن الحكومة المركزية لا تقوم بالمهام المنوطة بها على الوجه الأمثل، والسبب في ذلك _ طبقاً لما أورده ريد Reed _ هو إن الحكومة العراقية تعتقد أن لديها مزيداً من الوقت طالما ظلت القوات الأمريكية هناك تؤمّن لها ما تريد من حماية، وبالتالي يؤكد "ريد Reed" إنه لابد أن تبدأ الولايات المتحدة في العمل على إعداد استراتيجية خروج منظمة من العراق، ملامح هذه الاستراتيجية سوف تتحدد بناءً على الحقائق على أرض الواقع، ولذلك لابد من ممارسة المزيد من الضغوط على الحكومة العراقية من أجل أن تقوم بالوظائف التي من المفترض أن تقوم بها من أجل مستقبل أفضل للعراق، مشيراً إلى ضرورة تخفيف الاعتماد الكبير على القوات المسلحة الأمريكية لصالح قوات الأمن العراقية، والعمل على تنظيم خروجها من الأراضي العراقية.[1]

والحقيقة أن الحكومة العراقية منقسمة فكرياً وعقائدياً و سياسياً وواقعة تحت ضغوط عديدة مختلفة قد تصل في الكثير من الأحيان إلى التهديد بإنهاء وجودها على الأرض، هذا عدا عن اختراقها في الكثير من المفاصل من قبل المخابرات والقوى الإيرانية التي تتناقض مصالحها مع المصالح الأمريكية كما تتناقض مع المصالح العراقية!.

ولكن هل ما تم عرضه للمأزق العراقي من منظور أمريكي رغم تنوعه واختلافه هو كل الحقيقة؟!، أم أنهم يخشون مواجهة الواقع الحقيقي كما هو لا كما يريدوه أن يكون أو هم جاهلوه، أم أن اختلاف مواقع اتخاذ القرار

---

(1) العدد (١٥٢)٢٨مارس/٢٠٠٨م تقرير واشنطن/محمد الجوهري تحت عنوان: الانتخابات الأمريكية تزيد العنف في العراق.

الأمريكي وتصارعها في بعض الأحيان لها تأثيرها الأقوى على تشكيل القـــرار السياسي؟.

مفاجآت في انتـــظـــــار الرئيس

مما لاشك فيه أن العراق سيشهد تغييراً دراماتيكياً خلال الحقبة الجديدة من الإدارة الجديدة برئاسة "أوباما" التي ترفع شعار "التغيير" على فرض أن أوبامـــا سيقوم ــ كما يعلن لحد الآن ــ بالانسحاب المبكر من العراق "فهل تجد الإدارة الجديدة المخرج السليم من العراق؟ وهل ستغير موازين الواقع علـــى الميـــدان حسابات الإدارة الجديدة؟، وما هي حقيقة الصراع على أرض الواقع العراقي، وما هي "أوراق اللعبة السياسية" داخل العراق؟، وما هو تأثير التغلغل الإيراني هناك؟، وهل سيكون هناك لقاء أمريكي إيراني في بغداد للبحث عن مخرج أو لعقد اتفاقية أمنية بعيدة المدى مع طهران على حساب مصلحة الشعب العراقي ووحدته!؟، مكتفيةً بحرب واحدة مع المقاومة العراقية؟، أو أن هناك خيـــارات أخرى أمام الإدارة الأمريكية سيفرضها الواقع وثبات المقاومـــة المـــسلحة في العراق؟!، كل تلك الأسئلة ينبغي على "الرئيس الجديد" الإجابـــة الواضـــحة عنها.

ولكن الأمر المؤكد هو أن علـــى الجميـــع إعـــادة النظـــر في حـــساباتهم (الأمريكيون والحكام العراقيون الحاليون، والأحزاب العراقية الحاليـــة بكـــل انتماءاتها، والإيرانيون ومن هم خارج العملية السياسية والمقاومـــة العراقيـــة)، وللميدان حساباته الخاصة تفرضها المتغيرات التي بدأت تتبلور علـــى الأرض منذ الآن.

من المؤكد أن الورقة العراقية الأمريكية الإيرانية ترتبط بعدة أوراق "تمتلك إيران اللعب بها" ارتباطاً وثيقاً تؤثر بلا أدنى شك على أي قرار يمكن أن يتخذ بشأنها من الجانب الأمريكي وهذه الأوراق هي:

- القوات الأمريكية داخل العراق "وبالذات في المناطق الوسطى والجنوبية".
- الورقة اللبنانية.
- الورقة الأفغانية.
- الورقة السورية.
- الورقة الخليجية.
- الورقة النووية الإيرانية.
- الورقة الروسية.

كل تلك أوراق متلازمة مع بعضها تستخدمها إيران في التعامل مع الملف العراقي الأمريكي، ولكن مما لاشك فيه أنها على استعداد للتضحية بقسم من هذه الأوراق، ولكن إيران لا يمكن تحت أي ظرف أن تضحي بالورقة العراقية لأهميتها القصوى والكبيرة جداً بالنسبة لها لذا ستفعل المستحيل لتبقي نفوذها السياسي والأمني في العراق وتطوره بما يحقق أهدافها البعيدة في العراق قاطعة أي احتمال لعودة العراق إلى أن يكون أحد القوى المؤثرة في الخليج وفي المنطقة، وعلى الإدارة الأمريكية أن تمعن في ذلك الأمر جيداً وتوازن مصالحها وفق هذه الحقيقة، ولكن ماذا ستواجه الإدارة الأمريكية الجديدة "برئاسة أوباما" على أرض الواقع العراقي؟، ستواجه (مقاومة مسلحة ناضجة) لها

امتداداها السياسية والإقليمية وتكتيكها المتطور الذي يستوعب ويتلاءم مع المتغيرات الجديدة وستتحرك باتجاهين متلازمين هما:

الأول: الاتجاه السياسي المبني على التعامل مع تغيير الإدارة الأمريكية الجديدة وتصريحها بالرغبة في الانسحاب من العراق، ساعية لكي لا يكون هذا الانسحاب على حساب تضحيات المقاومة طيلة السنوات الست الماضية، ولتجنب رمي العراق في أحضان التغلغلات الإقليمية "وعلى رأسها إيران"، لذا لابد أن تعمد إلى الدخول في المفاوضات المباشرة وغير المباشرة مع الإدارة الأمريكية الجديدة في البداية بشكل حذر ومتردد لحين التمرس وكسب الخبرات التفاوضية والاطمئنان، عندها ستتجه بشكل أقوى في المرحلة الثانية من التفاوض.

الثاني: هو الأساليب العسكرية التي تستهدف إثبات وجود المقاومة المسلحة وقوها في العراق وإرهاق العدو وإرعابه في التنقل والحركة والمطاردة وإجباره على ذلك، وعدم السماح له بالاستقرار لزيادة الكلف المادية لبقاء القوات في العراق، وهي قادرة على تحقيق هذه الأهداف التكتيكية بغض النظر عن حجمها أو حجم القوات المعادية لها؛ فضلاً عن أن هناك مؤشرات توحي بانضمام أطراف جديدة إلى المقاومة المسلحة، كما إن اندماجها في مشروع سياسي واحد مسألة تفرضها هذه المرحلة وأمر لابد منه لتقوية الجانب المفاوض، ولعل "الإدارة الأمريكية" بما لديها من خبرات سياسية ستختصر الوقت للوصول إلى النتيجة التي لا مفر منها في كل الاحتلالات وحروب المقاومة المسلحة السابقة على مدار التاريخ الحديث والقديم، ألا وهي الجلوس في النهاية إلى مائدة التفاوض وسماع رأي المقاومة والحوار معها، والوصول إلى

اتفاق قد يساعده على إعادة الحسابات وترتيب سلم الأولويات الأمريكـــي، وعلى رأي "تشارلي بلاك" وهو مستشار كبير لـــ "ماكين": الشخص الـــذي يفهم الحرب ويفهم الجيش وتكون له سياسة خارجية وخبرة دبلوماسية هـــو الشخص الأمثل لتفادي الحرب، و"أوباما" هو آخر شخص يود خوض حرب، ولعله لا يقع في أخطاء من سبقوه حينما يكون عليه أن يتحمل مسؤولية أيـــة قطرة دم أمريكية إن لم يكن يهتم بالدم العراقي الذي يُراق كـــل دقيقـــة في العراق؛ وخيار المفاوضات على العموم هو الخيار الأخير المؤكد أمـــام الإدارة الأمريكية الجديدة الديمقراطية طال المطاف أو قصر، ولكن من المؤكد أن هذا الاتفاق "بين المقاومة والإدارة الأمريكية لو تم فإنه سيساعدها على الآتي:

- تحقيق وعود الرئيس"أوباما" بالانسحاب السريع مـــن العـــراق أمـــام ناخبيه.
- تقليص خسائر الجنود في العراق والتي يعتبرها الأمريكان مـــن أهـــم المؤشرات على التقدم في العراق.
- توفير القوات التي قد تحتاجها الإدارة الأمريكية في معاركها المتعـــددة الأخرى.
- تقليص النفقات العسكرية للمساهمة في حل المشاكل الاقتصادية الـــتي تواجه الإدارة الجديدة.
- تمكنها من توفير الجهد والانصراف إلى تحقيق التغـــيير المطلـــوب في السياسة الداخلية والخارجية الأمريكية.

كما إننا نعرف أن الشعب الأمير كي قد أصيب بالسقم والتعب و لم يعـــد يطيق الحرب في العراق ويتطلع إلى الخلاص، ولـــيس لديـــه أي اســـتعداد

لمواصلة حرب طويلة مكلفة هناك خصوصاً في مثل هذه الظروف التي تمر بها أمريكا.

أما عن إيران فإنها ستواجه "الإدارة الأمريكية الجديدة" في داخل العراق ولن تنتظرها في طهران من خلال:

- فيلق القدس والمليشيات المسلحة والتابعة لإيران رسمياً.
- التحالفات الاستراتيجية مع بعض الأحزاب والمنظمات والتكتلات السياسية والاجتماعية والدينية العراقية الموالية لإيران.
- المليشيات المتعددة وفرق الموت والفرق الخاصة والعصابات، والتي تدار بشكل مباشر أو غير مباشر من قبل المخابرات والأجهزة الأمنية وغير الأمنية الإيرانية.

لذا ستعمد الإدارة الإيرانية إلى زيادة التوتر في العراق وزيادة الضغط العسكري والأمني على القوات الأمريكية هناك لإجبارها على الإسراع بالانسحاب من العراق، والشاهد على ذلك أحد أهم القادة الميدانيين للجيش العراقي الحالي وهو اللواء الركن عبد الجليل خلف الشويلي قائد شرطة البصرة السابق، الذي نقل إلى بغداد بعد نهاية "صولة الفرسان" حيث يقول وبالحرف الواحد: (إن ما كان يجري في البصرة "مسرحية أجنبية" بممثلين عراقيين، وإن إيران فتحت "جبهة حرب" على أميركا وبريطانيا هناك قبل وصول قوات هاتين الدولتين)، وأعرب الشويلي في حديث إلى صحيفة الحياة عن خشيته من عودة الجماعات المسلحة من جديد بعد أن أفلتت من يد الحكومة أعداد كبيرة من قياداتهم أثناء صولة الفرسان، إضافة إلى سيطرتهم على ترسانة أسلحة خفيفة ومتوسطة وثقيلة تعادل تسليح فرقتين عسكريتين تخزن الآن في منطقة

الأهوار، والحدود مع الدول الأخرى سائبة لا سيما مع إيران والنفط الخام ومشتقاته يسرق علانية، والثروة الحيوانية تهرب، وفي المقابل تصدّر هذه الدول الأسلحة وتفتح معسكرات لتدريب مجرمين على قتل العراقيين، وعلمتُ بوجود مثل هذه المعسكرات على مقربة من حدود العراق داخل إحدى الدول المجاورة، وصارت العصابات والمافيات تعمل في البصرة علانية بفرض الإتاوات وهي مجهزة بأسلحة تفوق قوة أسلحة الشرطة والأجهزة الأمنية، وكونت قدرات مالية هائلة تقدر ببلايين الدولارات تقوم باستثمارها في إيران ودول خليجية لتكون لها مصادر تمويل ذاتية ثابتة، وللبصرة حدود مع إيران بطول ٢٨٠ كيلومتراً منها ١٨٨ كيلومتراً من المياه، مما يزيد في تعقيدات مهمة ضبطها في ظل الجو والظرف العام الذي يفرض نفسه على البلد، حتى وإن كنا ضبطنا إيرانيين أو وجدنا إيرانيين في شوارع البصرة هل من يأتي للعمل الاستخباراتي أو العسكري يفضح نفسه في وقت تسنح له الظروف للتخفي في غياب أجهزة أمنية فعالة أو قادرة على مواجهة استخبارات دولة مستقرة ولها مؤسساتها المحترفة، الإيرانيون يعملون وراء أغطية حزبية وشركات عدة توفر لهم أجواء مناسبة ومريحة لدخول العراق والعمل فيه.[1]

ستعيد "الإدارة الأمريكية الجديدة" اكتشاف الحكومة العراقية الحالية التي كانت تروج لها إدارة بوش في واشنطن لأغراض سياسية وانتخابية، وسيكتشف مدى هزالتها وانقسامها وتخلفها، فضلاً عن فسادها المستحكم؛ بسبب طبيعة تركيبها المبني على المحاصصة العرقية والطائفية، ومن ثم المحاصصة

[1] صحيفة الحياة اللندنية.

الحزبية ومن بعدها المحاصصة العائلية والمصلحية، بعيداً عن كـل مواصـفات الدولة الحقيقية والمهنية، كما أنها بعيدة كل البعد عن الحكومة الـتي تفرزهـا المجتمعات الديمقراطية والمبنية على التنافس الحر لاختيار الأفضلية العلمية والمهنية والنـزاهة في كل الوظائف العامة المؤثرة وغير المؤثرة وبعيدة أيضاً عن الميـزة الرقابية البرلمانية والشعبية التي تفرضها أيضاً المجتمعات الديمقراطية، ولن تستطيع أميركا أن توجد حكومة موالية لها كما تحب وكما تريد؛ كون قـسم مـن الموجودين حالياً على رأس الدولة والسلطة لهم ولاءاتهم الخاصة "وقسم كـبير منها بعيدة بشكل عام عن التوجه الأمريكي"، ولا تربطهم بها إلا مصالح آنيـة محدودة، وحتى المصلحة السياسية التي تربط البعض منهم مع أميركـا، فهـي "مصلحة تكتيكية"، وذلك واضح جداً، وأشك في أن الأميركـان يجهلـون ذلك!، كما أنهم على استعداد لأي بديل يوفر لهم البقاء في السلطة أو يوفر لهم الدعم أو الحماية اللازمة، والحقيقة أن جميع الأطراف المكونة للحكومة العراقية الحالية يعترفون بذلك وعلى رأسهم رئيس الوزراء الحالي "نـوري المـالكي"، وحينما دعا المالكي ـ في مؤتمر الكفاءات والنخب الذي عقد ببغـداد يـوم ٢٠٠٨/١١/٩م ـ إلى إعادة كتابة الدستور بطريقة "موضوعية" تمنح الحكومة المركزية الصلاحيات وليست الحكومات المحلية، قال الناطق الرسمي باسم جبهة التوافق العراقية سليم عبد الله: (إن تصريحات المالكي انعكاس للـصراع بينـه وبين الكرد بدليل أن برهم صالح تحدث بعده في المؤتمر بلهجة أخرى قال فيها إنه ضد المحاصصة وإنه مع الحكومة القوية، ولكن ليسـت الدكتاتورية، وإنـه يرفض الهيمنة والتفـرد الحزبي، بمعنى إن المؤتمر كان ساحـة خطاب انبرى لها

الجميع للتعبير عما يتصوره). [1]

ولعل أخطر اكتشافات الإدارة الجديدة التي أتوقع أن يتم كشفها في المرحلة القادمة والتي يتوجب على الإدارة الجديدة الاعتراف به هـو فـشل العمليـة السياسية الأمريكية في العراق برمتها سواء من خلال العملية الـتي صـاغتها الإدارة الأمريكية وقام بتنفيذها "بول بريمر" عن طريق "مجلس الحكم" وقـانون إدارة الدولة أو كل ما تمخض عن مجلس الحكم من نـسخ مكـررة سـقيمة وانتهاءً بحكومة المحاصصة العرقية والطائفية الحالية، والتي تمتاز بالفشل الـذريع في كل توجهاتها السياسية والفكرية والاقتصادية والأمنية وأخطر مـا أفرزتـه العملية السياسية الأمريكية في العراق أنها أهدت العراق لقمة سائغة على طبق من ذهب إلى إيران العدو اللدود لأمريكا، ولم تنـتج أي نظـام حـضاري ديمقراطي متطور كما تشيع الإدارة الأمريكية دائماً، وبقت عاجزة مقيدة بقيود المحاصصة والطائفية والعرقية، وقد صرح رئيس الوزراء الحالي "نوري المالكي" في نفس المؤتمر الذي دعا فيه إلى تعديل الدستور بما يتيح توسيع صـلاحيات الحكومة المركزية ـ مؤتمر الكفاءات والنخب الـذي عقـد ببغـداد يـوم ٢٠٠٨/١١/٩م ـ (إن الدستور العراقي ربما كتب في أجواء كانـت فيهـا مخاوف، لكننا ذهبنا بعيداً في تكريس المخاوف وتكريس التطلعات، وأضـاف المالكي: أستطيع أن أقول إنها (المخاوف) لم تكن موضوعية، وقد وضعنا قيوداً ثقيلة لكي لا يعود الماضي ولكنها كتفت الحاضر وكتفت المستقبل).

مع البيان أن الدستـور العراقي الحالي هو أحد الانجازات التي طالما تنطعت

---

[1] موقع الملف: ٢٠٠٨/١١/١٠م

الإدارة الأمريكية بأنه أهم انجازاتها في العراق، ومن المستحيل إقامة مشروع وطني وحكومة وطنية على أساس من المحاصصة العرقية والطائفية، لتناقض المنطلقات الأساسية لكل منهما لذا ولد الكثير من الإخفاقات على صعيد أداء الحكومة واختيار الوزراء، كما ولد الاحتقانات السياسية المتلاحقة التي هددت بقاء الحكومة واستمرار عملها رغم كثرة الانسحابات منها "وصلت في بعض الأحيان إلى ثمانية عشر وزير منسحب"، ولطالما انعكس هذا التصارع السياسي المحتقن على الواقع الاجتماعي وهدد السلام الاجتماعي بالخطر، ومع هذا أصرت الإدارة الأمريكية على استمرار الحكومة بأداء واجباتها ليس بعيداً عن الأعراف القانونية والدستورية وليس فقط بعيداً عن الممارسات الديمقراطية بل رغم استحالة أداء واجباتها المهنية والسياسية بمثل هذه الأوضاع.

لن تفاجأ "الإدارة الجديدة" حيث أصبحت هذه الحقيقة مؤكدة الآن وهي أن القوات الأمنية العراقية (الجيش والشرطة) يتنازعهما خياران لا ثالث لهما (الخيار الوطني) و(الخيار الحزبي)، وهناك جزء كبير من تلك القوات تابع بشكل أو بآخر، مباشر أو غير مباشر لتوجيهات وتأثيرات وسياسات الأحزاب المسيطرة عليها، والتي لم تتخلص من عقدة الخوف من النظام السابق، وتقمصت سياساته بشكل غريب، وبدوافع معقدة ومتخلفة؛ لذا فهي تصر على أهمية التواجد القوي في كل أجهزة الدولة بشكل عام والأجهزة الأمنية بشكل خاص، وفي النهاية سيكون انتماء تلك الأجهزة موزع على انتماءات حزبية وولاءات طائفية وعنصرية، ونعود إلى الشاهد "اللواء الركن عبد الجليل خلف الشويلي قائد شرطة البصرة السابق" حيث يقول: (شرطة البصرة منقسمة إلى ثلاث جهات الأولى تنتمي علناً إلى المافيات والميليشيات وتمارس

القتل والجريمة بحسب أوامر أسيادها، والثانية تأتمر بأوامر الأحزاب قلباً وقالباً وتنفذ سياساتها وأجنداتها، والثالثة خائفة مستكينة لا حول لها ولا قوة تخشى التصفية في حال السباحة عكس التيار السائد، أولى مهامي كانت تطهير الشرطة من العناصر المسيئة والمرتشية والمنتمية للأحزاب والميليشيات ووجدت دائرتَي الجرائم والاستخبارات متهمتين بالقتل والسلب لمصلحة جهات حزبية وميليشيات، فقمت بهيكلتهما على الفور وأصدرت أمراً بنقل ١٠٠٠ شرطي فاسد كمرحلة أولى، ثم ٣٠٠٠ آلاف آخرين واستدعيت ٣٠٠٠ آلاف شرطي موزعين لدى الأحزاب والمسؤولين الحكوميين خارج سيطرة الشرطة ووزعتهم على مراكز الشرطة بطريقة تضمن عدم تكتلهم، وسحبت ٢٥٠ آلية تابعة للشرطة تستخدم لدى جهات ميليشيوية وحزبية وعصابات كانوا يرتكبون الجرائم فيها بمشاركة الدولة كونها هي التي تدفع رواتبهم ووقود عجلاتهم وتسلحهم).[١]

وهذا ما يفسر الاحتكاكات المتكررة بين الجيش والشرطة وبين الشرطة والبيشمركة، وفشل الأجهزة الأمنية في معالجة الكثير من الأزمات داخل الكثير من المدن وإخفاقها في مواجهة المليشيات بشكل حاسم وقوي، كما يفسر احتياجهم المستمر إلى ما يعرف بـ "الصحوات".

ويمكن أن نشهد تطوراً دراماتيكياً كبيراً في بعض صفوف المقاومة المسلحة بما يعيد ترتيب موازين القوى من جديد على أسس جديدة غير طائفية، أو يفرز تكتلات جديدة تساهم في إعادة صياغة عملية سياسية جديدة، ويقوي

---

[١] صحيفة الحياة اللندنية.

جبهة الرفض للاحتلال ويعيد ترميم الغطاء الجماهيري للمقاومة، والتي عملت أمريكا بكل إمكانياتها وجهدها _ طوال الفترة الماضية _ على سحبه من المقاومة بطرق شتى.

وأخيراً هناك متغير خطير جداً ستواجهه الإدارة الأمريكية في العراق خلال المرحلة المقبلة ألا وهو "الشعب العراقي" بكل أطيافه وقومياته، وبقدر كون المقاومة حالة فطرية فقد أصبحت الآن مسألة سياسية واقتصادية وذلك بسبب ما قدمنا من فشل السياسة الأمريكية بكل أصعدتها إضافة إلى تعمدها إهمال مصالح الشعب العراقي الحقيقية وتعمدها مواجهته بشكل مباشر وقاسي جداً واعتمادها على الفاسدين والمفسدين والسراق، لذا فإن أغلب _ إن لم نقل كل _ ما أفرزته المرحلة السابقة من الاحتلال هو تدمير لكل شيء في العراق، ولا يمكن قياس ما تحقق من بعض الأمور الإيجابية "على افتراضها" على ما تم انتهاكه وتحطيمه وتدميره في العراق من بنية أساسية أو بنية اجتماعية أو دينية أو أمنية، وسيرفض الشعب العراقي في المرحلة المقبلة ويقاوم فكرة التقسيم العرقي والطائفي وسيتجه بقوة نحو تعزيز الوحدة الوطنية مما يشكل خطراً جسيماً للاحتلال الأمريكي في العراق، لذا لن يكون باستطاعة الإدارة الجديدة الانتصار في العراق "على الأقل ضمن هذه المعطيات المطروحة الآن على الساحة "ولن يكون أمامها حل إذا أرادت أن تحفظ ماء وجهها وإذا كانت جادة فعلاً في عدم إعطاء العراق إلى إيران، وإذا أرادت أن تؤسس لمشروع يمكن أن يقنع العراقيين ويقنع الشعب العربي ويقنع العالم؛ إلا بالجلوس مع ممثلي الشعب العراقي الحقيقيين بكل أطيافهم وأعراقهم وأديانهم وقومياتهم، ومن المؤكد والطبيعي أن تكون المقاومة العراقية حاضرة بقوة في مثل هذه

المفاوضات، كما أن المنتقدين للعملية السياسية الحالية والرافضين لها لابد أن يكونوا حاضرين ليساعدوا على تحقيق هدف الانسحاب المبكر من العراق.

وهذا إن حصل سيقضي على أغلب احتمالات التدهور الأمني في حالة انسحاب القوات الأمريكية من العراق ويدعم القوات الحالية ويرفع من جاهزيتها الأمنية، لأن إصلاحها وتقويتها ودعمها سيكون جزءاً مهماً وأساسياً من المفاوضات المتوقعة بالتأكيد، إضافة إلى أن ذلك يحقق الوحدة الوطنية الحقيقية المطلوبة لمواجهة كافة الأخطار الخارجية المحتملة، وسيحصل مثل هذا التوافق الشعبي المتنوع على أعلى دعم شعبي وقومي يمكن أن نتخيله، فضلاً عن الدعم العربي والأممي الرسمي وهو يؤسس لعملية سياسية جديدة واعدة مدعومة من الجميع بعيدة عن المحاصصات الحزبية والعرقية والطائفية بأسلوب حضاري متطور ومتين.

المعركة القادمة

جميع الأمريكان بلا استثناء يقولون إن النصر لم يتحقق وإن النصر في العراق صعب، وذهب "ماكين" إلى حرب مائة عام وهو بهذا يصرح أن المقاومة للأمريكان يمكن أن تبقى مائة عام، وبقت مبرراته ضعيفة بعيدة عن الواقع الذي تعيشه أمريكا ولن تستطيع أمريكا أن تصمد مائة عام، أم أن إدراكها هذا سيجعلها تختصر الطريق وتذهب إلى الصفحة الأخيرة كي تقلص خسائرها المليارية في العراق، فضلاً عن الآلاف من الجنود القتلى والجرحى والمعوقين، وأنا أتوقع أن هذا الذي سيحصل خلال فترة قصيرة جداً وخلال حكم الإدارة الأمريكية القادمة.

وسيكون هناك الكثير من المتغيرات السياسية على الأرض في العراق سترافق تغيير الإدارة الأمريكية منها:

(١) انحسار وفشل السياسيين المتحالفين مع الاحتلال وفشل العملية السياسية الحالية وانحسار الدعم الشعبي عنهم وفشلهم في الانتخابات القادمة "على افتراض أنها ستكون نزيهة"، وبروز الكثير من التناقضات بين الكتل المختلفة وداخل الكتلة الواحدة أيضاً، وسيتبع هذا بالتأكيد تغيرات سياسية كبيرة في الإدارة العراقية وكذلك في طبيعة العملية السياسية برمتها، فقسم كبير من تلك التوقعات أصبحت لها واقع على الأرض وبدأ الكثير من اللاعبين الأساسيين في العملية السياسية الحالية بانتقادها والإعلان عن فشلها، وبدأت الكثير من البدائل لها تطرح على العلن من داخل العملية السياسية ومن خارجها أيضاً.

(٢) تعاظم الدور الشعبي على حساب الدور الحزبي، وسيكون هنالك حضور للأغلبية الصامتة أو التي زورت إرادتها في المرحلة السابقة من الانتخابات وسيعلو

الصوت المعارض للفساد والطائفية.

(٣) زيادة الدور السياسي المؤثر للكثير من الأطراف السياسية والتجمعات والهيئات الرافضة للعملية السياسية الحالية.

(٤) انحسار المد الطائفي وبروز المد الوطني والشعبي المناوئ للطائفية والعرقية والتعصب الحزبي.

(٥) ازدياد المطالبة بالمشروع الوطني على حساب المشروع الطائفي والعرقي.

(٦) اتساع المقاومة المسلحة للاحتلال وشمولها كل أطياف الشعب العراقي.

(٧) اتساع المقاومة السياسية وازدياد نضوجها السياسي وامتداداها الاجتماعية واتساع غطائها السياسي وتنامي دور القوى الرافضة للاحتلال كقوة سياسية مؤثرة في الساحة السياسية، وبروز ممثلين لها وناطقين رسميين باسمها وستحتاج بكل تأكيد إلى تحالفات قوية ومتينة مع جميع القوى الرافضة للاحتلال، وقد نشهد جبهات سياسية تضم القوى السياسية إلى جانب المقاومة المسلحة.

ستكون المرحلة القادمة مرحلة "حرب المفاوضات"

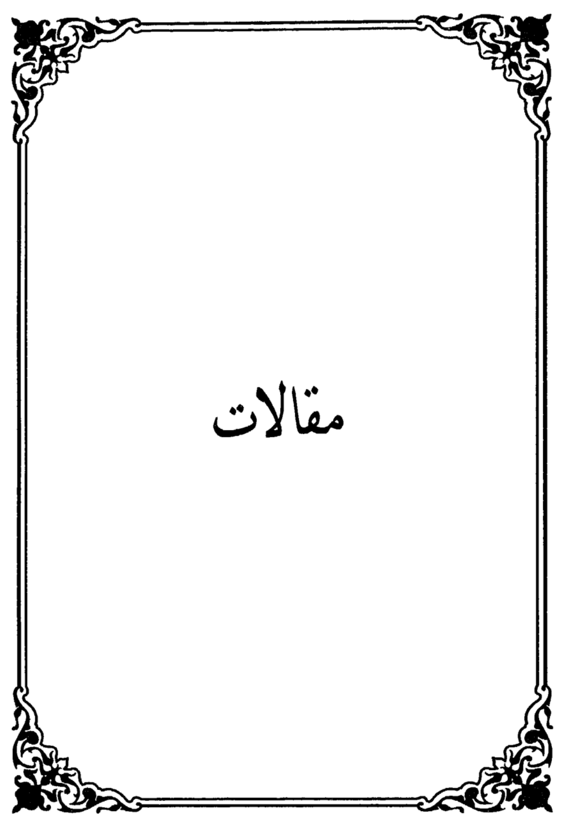
نتيجة للضعف التقني والتكتيكي في الإمكانيات التفاوضية لدى الكثير من الأطراف السياسية العراقية، وتعدد أطراف التفاوض وتناقض مطاليبهم، لذا لابد من توفير أرضية وطنية حقيقية تجبر الجميع على تغليب المشروع الوطني الجديد ومصلحة العراق فوق كل المصالح الحزبية والعرقية والطائفية ومكملة لها وتوفير مستلزمات وأدوات ومبادئ التفاوض واستحضارات المعركة السياسية المعقدة والصعبة.

ستعاني أطراف وقواعد المقاومة الكثير من عدم التوافق والانسجام مع مفهوم "المعركة السياسية" بينما ستندفع أطراف أخرى لها، لذا لابد من تهيئة أذهان قواعد المقاومة إلى أن حرب المفاوضات لا تقل أهمية وخطورة عن المقاومة المسلحة بل لعل واجب المقاومة المسلحة هو إجبار العدو إلى تقبل الأمر الواقع والرضوخ إلى التفاوض وليس العكس، وستواجه المقاومة بعض الصعوبات الفكرية واللوجستية في إدارة هذه المعركة، ومن ذلك أيضاً تقبل فكرة الشركاء الجدد الذين ستفرضهم المرحلة القادمة، ليس لكونهم شركاء في هذا الوطن فقط بل لكونهم سيكونون شركاء في المقاومة وكذلك فكرة المشاركة السياسية.

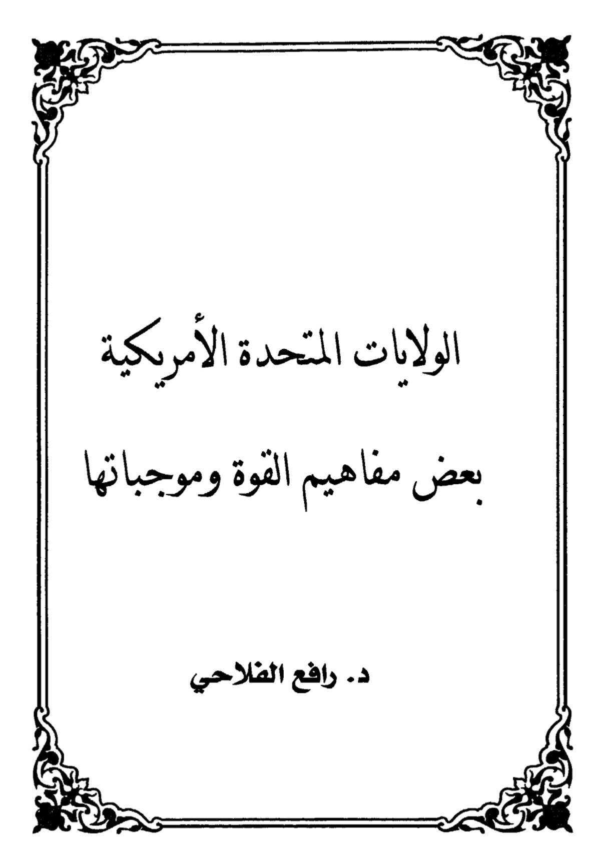


ولكن أخطر ما يهدد المقاومة في هذه المرحلة "في حالة حصولها" هو وحدة الصف بين القابلين بفكرة المفاوضات والرافضين لها، وكذلك بين القابلين بفكرة التفاوض أنفسهم وحجم تمثيلهم، والقبول بفكرة التخلص من الاحتلال مقابل المشروع الوطني، علينا إذن أن نتهيأ لحقبة جديدة من الزمن العراقي بعيداً عن الاحتلال والتغلغل الأجنبي إن شاء الله، والكلمة الأخيرة للشعب العراقي.

إن الصراع الإيراني الأمريكي على أرض العراق ليس للشعب العراقي فيه أية مصلحة، وبالعكس فهو المتضرر الأساسي من هذا الصراع، ولابد للشعب العراقي أن يعرف مصلحته ويحدد أعداءه وأصدقاءه، ولابد أن يكون هو المقياس والحكم لوطنية كل الأطراف العراقية، فمن يقترب منه ويدافع عنه وعن استقلال العراق ووحدته بعيداً عن كل أسباب الضعف والتخلف فهو الوطني، فإن ما قدمه العراق وما خسره وما ضحى به كاف، ونهر الدم والأشلاء لابد أن يتوقف الآن، كما إن التخلف لابد أن يتوقف لكي تعود للعراق عافيته ويواصل دوره الحضاري الأصيل، وليس هناك سبيل أمامه للخروج من محنته هذه إلا بالوحدة الوطنية والابتعاد عن الحزبية المقيتة والطائفية المتخلفة والعرقية المتعصبة، ولا يمكن أن يكون العراقي عدواً للعراقي من أي طائفة أو دين كان أو عرق، ولابد أن يعي الشعب العراقي من هم أعداؤه الحقيقيون والمتحالفون معهم، ويستعد ليقول كلمته عبر وحدته الوطنية، ولا سبيل أمامه سوى ذلك، والذي يسعى لوحدة العراق وقوته هو الأقرب والذي يسعى لفرقتنا وإضعافنا هو عدو للعراق وللعراقيين.



مقالات



الولايات المتحدة الأمريكية

بعض مفاهيم القوة وموجباتها

د. رافع الفلاحي

الولايات المتحدة الأمريكية
بعض مفاهيم القوة وموجباتها

د. رافع الفلاحي

(إننا لسنا مرتبطين بالعالم لأننا قطعنا على أنفسنا تعهدات بذلك، بل لأن مصالحنا هي التي تصنع تعهداتنا وليس العكس)

ريتشارد نيكسون/ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٩م-١٩٧٤م)

في محاولة لتسويغ العنف واستعمال القوة ضد الدول والشعوب، كانت الولايات المتحدة وما تزال تطرح مفاهيم مضللة تعبر في حقيقتها عن جوهر الإمبريالية أو بناء (الإمبراطورية)، فالاستراتيجيات الأمريكية تطرح مفاهيم تبرز ذلك التناقض الكبير في نظرة الولايات المتحدة لنظام العلاقات الدولية التي تريد قيامه، وفي محاولة منها لتسويغ نظريتها وأفكارها تذهب الولايات المتحدة إلى القول: إن نزوعها إلى بناء قوة عسكرية كبيرة وتطوير وسائل وإمكانيات تسليحها نابع ليس من مجرد شعورها بعدم الأمان فحسب بل للحفاظ على أمنها وأمن العالم.

الاستراتيجيون الأمريكيون (ومن خلال هذه النظرة) راحوا يحللون القوى المحركة للصراع الدولي على أساس ثلاثة عوامل رئيسية هي:

(١) الموارد الأولية ومصادر الطاقة اللازمتين لتحقيق التفوق.

(٢) عدد السكان المتنامي وحاجاتهم المتنامية.

(٣) تطور التكنولوجيا وارتباطها المباشر بالتطور وبناء القوة المطلوبة.

معتبرين أن هذه العوامل كانت على حد سواء وراء إدراك الولايات المتحدة لقضية "الندرة".. فإذا كانت الولايات المتحدة تعد كل ما موجود من ثروات ومصادر الطاقة في العالم، هي مصادر أمريكية لكن التغيرات الجيولوجية هي التي وضعتها بعيداً عن خارطتها الجغرافية، فلابد إذن (من منطلق المشروعية) أن تسعى الولايات المتحدة للسيطرة عليها حتى وإن استوجب ذلك منها دخول الصراعات والحروب مع غيرها ممن "يعتقدون" أنهم أصحاب هذه الثروات لمجرد أنها في أراضيهم!، ومن أجل تلبية حاجات ومطالب سياساتها، فإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة التي هي واجهة للمؤسسات الاقتصادية والصناعية والعسكرية مستعدة للقيام بأي عمل يفهم الآخرين جهلهم ويصحح الأخطاء التي ارتكبتها التغيرات الجيولوجية، وإن إنتاج السلاح وتنويعه وإعداد الجيش بنحو كبير وتطوير قدراته الهجومية باستمرار يندرج تحت هذا "القناع" لتسويغ تخصصها لإنتاج معين من الموارد المتوفرة في المجتمع الأمريكي وبما يمكنها من تحقيق التوسع وراء الحدود الجغرافية للولايات المتحدة.

وكما هو معلوم فإن "الندرة" كمصطلح قد لا يكون مرتبطاً بالموارد المادية الملموسة حسب، بل قد يشمل أموراً غير ملموسة مثل "المنزلة" أو "السمعة" أو "الأيديولوجية"، وإن الدول إما بسبب الندرة الفعلية في الموارد وتوزيعها غير السوي، أو بسبب الخوف من الندرة المحتملة قد تنزع إلى تنمية علاقتها وتعاونها مع الدول الأخرى وبناء جسور من تبادل المنفعة وبما يؤدي إلى خروجها من دائرة الخوف على مستقبلها بسبب افتقارها إلى عامل أو عدة عوامل من أسباب تقدمها واستمرار تطورها وضمان حياة أجيالها اللاحقة،

إلا أن هذا الحال لا يجد صداه في سياسات الولايات المتحدة، فهي تنزع إلى تنمية توجه عرقي متمركز يصور المحيط الخارجي في الغالب بأنه مهدد وعدائي، وبهذا المعنى قامت الولايات المتحدة بإنتاج نظام سياسي واقتصادي واجتماعي يتعامل مع بقية الأنظمة في العالم بمفاهيم مشوهة تعبر عن عدم الثقة والشكوك والشعور بانعدام الأمان وبما يسوغ النزوع إلى استعمال القوة والعنف على النطاق الخارجي، وهكذا قامت صحبة بين الولايات المتحدة والقوة والعنف والإرهاب أفرزت قصة حياة هذه الدول التي آمنت بنفعية استعمال القوة قبل كل شيء، وإذا كان بعض التردد قد حصل في التعبير العملي عن هذا الإيمان الأمريكي المطلق، فإنه قد حصل بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فبعد هزيمة ألمانيا الإمبريالية وغياب خطرها في الهيمنة على أوروبا والمحيط الأطلسي، وجد الأمريكيون أن من غير المربح في ذلك الوقت البوح بسياساتهم ودسّ أنف بلدهم في القضايا المعقدة للشعوب الأخرى والتي كانت الحروب العالمية قد جذرتها ووسعت تأثيرها، وبما يلحق خسائر بأمريكا لم تكن مجبرة على تحملها في الوقت الذي يمكن لها تحقيق أرباح هائلة باستغلالها الانتهازي للظروف والأوضاع الدولية المرتبكة في ظل انهيار اقتصاديات الدول التي كانت في ذلك الوقت تمثل الدول العظمى التي تتحكم بالنظام الدولي الذي كان قائماً آنذاك كبريطانيا وألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

وهكذا فإن السياسة (الانعزالية) التي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية منهجاً لها ما بين الأعوام ١٩٢٠م و١٩٤٠م كانت بمنزلة مرحلة الوثوب الأخيرة نحو عالم النزوات والعنف والإرهاب الأمريكي الواسع بعد عقود

من المناوشات التي كانت تعود على الولايات المتحدة بمنافع كثيرة وكبيرة، وقد حان الوقت لأمريكا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية لارتداء ثوب الحرب وأقنعة إخفاء النوايا ونظرات الذئاب المملوئة شهوة بدنو الفريسة لتمزيقها بتلك الأظافر القاسية والأنياب المدربة جيداً على التقطيع.

لقد كانت هناك أسباب كثيرة تجعل الأمريكيين يؤمنون بدعوة (تيودور روزفلت): (ليس لدينا خيار نحن شعب الولايات المتحدة في القيام بدوْر عظيم في العالم، بل لابد من القيام به)، فالأمريكيون كانوا يتطلعون بشغف إلى حالة القوة العظمى المتفوقة، ويتطلعون إلى عصر ذهبي يفرضون فيه أنفسهم على العالم بالقوة، وهو التطلع نفسه الذي راود المغول والتتار الذين اجتاحوا العالم في القرن السابع الميلادي ودمروا من خلاله أسس الحضارة والثقافة والعلوم وأسسوا على جماجم البشر إمبراطورية ضاعت فيها خصائص الشعوب وانجازاتها، ولقد آمن الأمريكيون بالقوة مثلما فعل المغول والتتار ونسوا وتجاهلوا نهاية ذلك المد المتوحش، وغابت عنهم حقيقة أن القوة دائماً تستدعي القوة وإن ميزة التحكم والسلطة تكون بحجم القدرة على الصمود وتغذية القوة بمقومات جديدة تعززها، وإلا فإنها الطريق الأقصر للانهيار، وحين تنبه الأمريكيون إلى هذه الحقيقة راحوا يعالجون الحال بما يضعف (وإن كانت الأقنعة قد أظهرته على إنه دليل تعزيز للقوة وقدراتها).. لقد كانوا يحلمون بأن يصبحوا أكثر قوة عن طريق التهالك في سباق التسلح الذي مكنهم من التفوق عسكرياً في الوقت الذي قربهم من الانهيار الاقتصادي نتيجة الأثمان الباهظة والجهود الهائلة التي بذلوها على هذا الطريق، وكان عليهم قبل أن يسلكوا مثل هذا الطريق أن يسألوا أنفسهم: كيف يمكن أن نعرض الآخرين لخسارة من

دون أن نعرض الداخل الأمريكي لخطر خسارة أفدح؟، ولوكان الأمريكيون قد واجهوا أنفسهم بهذا السؤال وأجهدوا عقولهم في البحث عن إجابته لما غاصت أقدامهم في أوحال فيتنام ولما اشتم الأمريكيون روائح الأفعال الكريهة لدولتهم، ولما شاهد الأمريكيون فيما بعد على شاشات التلفزيون جنودهم يُسحلون عام (١٩٩٣م) في شوارع العاصمة الصومالية (مقاديشيو) عندما احتل الأمريكيون الصومال تحت قناع (عودة الأمل)، ولما كان الأمريكيون يشاهدون قبل ذلك وبعده صور الأطفال العراقيين وهم يموتون بسبب نقص الغذاء والدواء نتيجة الحصار الشامل الذي فرضته دولتهم على العراق (١٩٩٠م-٢٠٠٣م) تحت قناع الحفاظ على الشرعية الدولية وتحقيق العدالة والحفاظ على حقوق البشر!، ولما واجهوا منذ احتلالهم العراق عام (٢٠٠٣م) حقيقة مقتل الآلاف من جنودهم ولما شاهدوا أو سمعوا بقصص العشرات من العراقيين الذين قُتلوا دفاعاً عن وطنهم ضد الغزو الأمريكي، أو بسبب سياسات التمزيق والتفرقة التي أشاعتها أمريكا بين العراقيين ولما تكلفت الميزانية الأمريكية أكثر من تريليون دولار لتمويل مشروع احتلالهم للعراق.. وغيرها من الأفعال التي لم تستطع كل الأقنعة الأمريكية تسويغها، الأمريكيون وبعد فشلهم وخيبتهم الكبيرتين في فيتنام، واجهوا أنفسهم ودولتهم بكل مؤسساتها بسؤال خطير له دلالاته على سقوط كل الأقنعة التي صنعتها دولتهم في تلك الفترة لتسويغ سياستها وأفعالها، والسؤال هو: هل أن دولتنا _الولايات المتحدة_ هي حقاً قوة عظمى؟.. وهو السؤال نفسه الذي عاد يتردد على ألسنة الأمريكيين بعد فشلهم في العراق وحتى في أفغانستان التي احتلتها جيوشهم عام ٢٠٠١م.

إن جميع الرؤساء الأمريكيون الذين تتابعوا منذ (جونسون وحتى جورج دبليو بوش)، واجهوا هذا السؤال الشعبي بتكرار بعد أن اكتشف الشعب الأمريكي ذلك الفشل الذريع الذي تعرضت له الولايات المتحدة في فيتنام ومن ثم في العراق، واشتم الرائحة العفنة للأفعال اللاإنسانية التي ارتكبت بحق الفيتناميين والعراقيين وحتى بحق الأمريكيين أنفسهم، الأمر الذي دفع نسبة كبيرة من الأمريكيين لمطالبة حكومتهم بالعودة إلى "العزلة" التي كانت عليها دولتهم من قبل، من دون أن يدركوا أن العزلة الأمريكية كانت اللجوء المرتبط مع ظروف موضوعية، و لم تأت من فراغ.. بل من تقييم انتهازي لفرص الزمن جرى خلالها احتلال أراضي واسعة والامتداد لفرض الهيمنة على رقعة شاسعة من أراضي الدول المجاورة للولايات المتحدة، إضافة إلى أنها كانت فرصة لبناء اقتصاد قادر على احتلال السوق المحلية ومجابهة أعباء المنافسة الخارجية، كما أن تلك العزلة قد وفرت للولايات المتحدة فرصاً لبناء قوة عسكرية هائلة تمكنها من تنفيذ مهمات ضد الحلفاء والأصدقاء على حد سواء، وإذا اكتملت كل تلك الخطوات بدأت مرحلة التخلي النهائي عن مبدأ (لكل امرىء شأن يعنيه) الذي سبق أن تبنته السياسة الأمريكية لتضمن لنفسها مرحلة انعزالية مثالية تحقق من خلالها الصعود نحو القوة.

لقد كانت نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م إيذاناً ببداية عهد أمريكي جديد دشن بتبني مبدأ (هاري ترومان) الذي لخصه في خطابه الشهير في الكونغرس خلال شهر آذار عام ١٩٤٧م، والذي جاء ضمن خطة الحكومة الأمريكية للتعبئة الشعبية ضد الاتحاد السوفيتي آنذاك باعتباره كان يمارس ضغوطاً ضد اليونان وتركيا الدولتين الحليفتين للولايات المتحدة واللتين تعتبرهما

واشنطن من المفاتيح المهمة لممارسة ضغوطها على الاتحاد السوفيتي من مناطق قريبة من حدوده، وقد كانت الولايات المتحدة قد أعلنت مساندتها لهما.. وإزاء ذلك قال ترومان في خطابه: (إننا حين نساعد الشعوب الحرة فإننا نعينها في الحفاظ على مؤسساتها ووحدتها الوطنية ضد الحركات العدوانية التي تسعى لفرض الأنظمة السياسية الشمولية).

و لم يكن إطلاق الولايات المتحدة لمبدأ التدخل الواضح في شؤون الآخرين تحت "قناع" المساعدة وصيانة السلام العالمي، ليتم بمعزل عن حملة إعلامية تولت تنفيذها الصحافة وأجهزة الدعاية الأمريكية الأخرى لتسويغ التصرفات اللاحقة من خلال القول إن أمن الولايات المتحدة يتعرض للتهديد ولابد من ممارسة سياسة "الاحتواء" التي بإمكانها أن تضمن للأمريكيين النوم الهانئ بسلام، ولقد كانت أجهزة الدعاية الأمريكية تهدف من وراء انجازها لهذه المهمة بهذا النحو، صناعة وجه أمريكي (قناع) يخفي الحقيقة بقياس وشكل يناسب البراغماتية (pragmatism) التي طرحها ترومان في خطابه، وبما يجعل الشعب الأمريكي يصدق بأن حكومته مضطرة دفاعاً عنه للتصدي لحالة (الاضطراب والعدوانية) التي تحدثها الشيوعية ونظامها الشمولي في جميع أنحاء العالم لتقويض أسس عالم الحرية والنظام الديمقراطي الذي تمثله الولايات المتحدة، وعلى هذا الأساس كان وقع خطى الجنود الأمريكيين يأخذ مداه الواسع في الحرب الكورية لترسيخ الانفصال بين شمال وجنوب شبه الجزيرة والتعبير عن سياسة التفتيت التي تؤمن بها الولايات المتحدة لتحقيق هيمنتها على العالم، وبمعنى أصح وأشمل الدفاع عن القاعدة الأمريكية المتقدمة في كوريا الجنوبية القريبة من حدود الصين والاتحاد السوفيتي على حد سواء، وفي الوقت

نفسه كانت واشنطن قد تحركت بنحو سريع لإثارة مخاوف أوروبا من خطر الوقوع تحت الهيمنة السوفيتية، وبما منحها فرصة فرض هيمنتها على أوروبا الغربية بحجة الدفاع عنها ضد المخاطر السوفيتية والشيوعية، وقد أثمرت تحركاتها بإقامة شبكة واسعة من الأحلاف العسكرية والمعاهدات الأمنية والسياسية والاقتصادية، تولت الولايات المتحدة رئاستها والسيطرة التامة على قراراتها وتوجهاتها، وكان من بين أهمها (حلف شمال الاطلسي) الذي تضمنت وثيقتة الموقعة في نيسان ١٩٤٩م تفويضاً للولايات المتحدة بفرض هيمنتها على أوروبا الغربية بحجة المشاركة في عملية الدفاع عنها ضد الخطر الشيوعي القادم من الشرق.

وفي كل تحركاتها لفرض هيمنتها، كانت الولايات المتحدة تحرص وعلى كل المستويات أن يكون ملهمها العميق في السياسة الخارجية هو التصرف من جانب واحد ومن دون انتظار حتى موافقة شركائها على ما تعزم القيام به والذين يجب عليهم تقديم الدعم والمساندة لها وعلى جميع الأصعدة التي تراها واشنطن مفيدة لتحقيق مصالحها وأهدافها وهو موقف معلن عبر عنه فيما بعد الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون بالقول: (إننا لسنا مرتبطين بالعالم لأننا قطعنا على أنفسنا تعهدات بذلك، بل لأن مصالحنا هي التي يجب أن تصنع تعهداتنا وليس العكس)، وما هذا القول إلا مزيج من الاستخفاف بالآخرين وحب الذات اللذان يجعلان الولايات المتحدة تظن أنها بمنأى عن مشاكل الآخرين وأحزانهم، ويحق لها بالتالي أن تدوس على رقاب الآخرين من أجل مصالحها فقط، وتلك هي قمة الصلافة التي تمتاز بها السياسة الأمريكية حتى مع أقرب حلفائها، وتأسيساً على ذلك، وطّن الأمريكيون أنفسهم للدخول في

مغامرات لا نـــهاية لها عبرت عن سياسة بلادهم الحمقاء التي قذفت بهـــم في خضم مشاحنات وحروب وعداءات عديدة، وسوف تبقـــى حادثـــة إلقـــاء القنبلتين الذريتين في ٦ و٩ آب ١٩٤٥م على مدينتي "هيروشيما وناغازاكي" اليابانيتين بمنـــزلة بداية لتاريخ أمريكي حديث ومعاصر موصـــول بتاريخها القديم ومكمل له، تتابعت فصوله بنحو مثير للدهشة يؤكد ذلـــك الإصـــرار الأمريكي على ارتكاب مجازر متعمدة لاثبات القدرات والقوة والتصميم على استعباد الشعوب، و لم يكن كل ذلك يجري من دون "أقنعة" تسوغ الباطل.

وثمة حقيقة هنا تؤشر أن الرؤساء الأمريكيون كانوا دائماً أول من يتـــولى الإفصاح عن شكل وطبيعة "القناع" الذي يلبسون به الباطل لبـــاس الحـــق، كجزء من وظيفتهم عندما يتصاعد القلق في نفوس الأمريكيين وشعوب العالم إزاء تصرف أو سياسة أمريكية معينتين، فالرؤساء يتولون مهمة إلقاء خطابات مزينة بعبارات الحسم والإنذار والتحذير التي تفرضها المبادئ والمثل العظيمـــة، في محاولة لطمس حقيقة الأهداف والنوايـــا، فـــالرئيس الأمريكـــي (وودرو ولسون) كان يرى بوضوح تام في عام ١٩١٧م أن الكفة تميل لصالح الهيمنـــة الألمانية ـــ خلال الحرب العالمية الأولى ـــ وبما سيؤدي إلى قيام ألمانيا بفـــرض سيطرتها على المحيط الأطلسي (بمعنى أن ألمانيا ستنازع الولايـــات المتحـــدة في فرض الزعامة والهيمنة على المحيط الأطلسي).. غير أن "ولسون" لم يكـــشف عن معرفته عندما توجه بالخطاب إلى الأمريكيين، إذ راح يتحدث عن حريـــة الملاحة الدولية وعن الحرب التي دخلتها الولايات المتحدة في سبيل حرية البشر والديمقراطية والعدالة والحرية، أما الرئيس (فرانكلن روزفلت) فقد وجد مهمته في ارتداء القناع أشد يسراً ممن سبقوه لتسويغ اشتراك الولايـــات المتحـــدة في

الحرب العالمية الثانية بسبب أن المد الألماني آنذاك كان عالياً ومستمراً يهـدد بغمر أوروبا كلها، فقد أدرك روزفلت منذ عام ١٩٤٠م أن بلاده ليس لديها خيار بين الحرب والانعزالية، ولكنه أخفى المصالح المتعددة للولايات المتحـدة والمكاسب التي ستجنيها من هذه الحرب، وراح يتحدث عـن التـدخل في أوروبا لحماية الحرية والديمقراطية.

وفي الهند الصينية، ومنذ عهد (ترومان وحتى عهـد جونسون)، طـرح الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون مختلف أنواع الأسباب التي تسوغ تدخلـهم وحروبهم هناك: (النضال ضد الإمبريالية الفرنسية، التصدي للخطر الـشيوعي السوفيتي، مساعدة الشعوب في الدفاع عن حريتها وتقرير مصيرها، المسؤولية الأمريكية في تحقيق السلام.. وغيرها)، لكن أياً من هذه الأسباب المذكورة لم تكن حقيقية، لذلك انهارت كلها عام ١٩٦٦م أمام حقيقـة عـدم وجـود مصلحة أمريكية معرضة للخطر تستوجب من الولايات المتحدة الغـوص في أوحال فيتنام وأدغالها، وعندما واجه الأمريكيون هذه الحقيقة في ظل نتـائج وخيمة ومعاكسة لكل ما كان الرؤساء والإدارات الأمريكيـة يعـدون بـه، اكتشفوا أن رؤساءهم لم يكونوا من أصـحاب العقـول الراجحـة والآراء السديدة، ولم يكونوا صادقين حيال شعوب الأرض والشعب الأمريكي بنحو خاص، فغرسوا أقدامه وكل ما بناه وأسس قواعده في رمال متحركة.. فكيف يمكن بناء دولة حقيقية أو قوة حقيقية على رمال متحركة؟، ومن المفيد هنا أن نذكر رأيين أوردهما المفكر الفرنسي "روجيه غارودي" في كتابه "الولايـات

المتحدة الأمريكية ...طليعة الانهيار"[1] على لسان اثنين من مخططي السياسة الأمريكية.. فقبل نشوب الحرب الكورية بقليل في (١٩٥٠م)

أقرت وثيقة تحديد الخط السياسي للولايات المتحدة، وهي وثيقة حررها "باول نتر" الذي خلف "جورج كنن" في رئاسة مجلس الدولة للتخطيط ضمن مجلس الأمن القومي، وقد كتب "جورج كنن" عام ١٩٤٨م يقول (إننا نمتلك ما يقارب (٥٠%) من ثروات العالم ولكننا لا نملك من سكانه سوى (٦,٣%)، وفي موقف كهذا لا يمكن تفادي أن نكون عرضة للغيرة والأحقاد، ولذلك فمهمتنا في الفترة القادمة هي أن نطور نظاماً للعلاقات التي تسمح لنا بأن نسيطر على هذا الموقف من اللامساواة من دون أن نعرض أمننا القومي للخطر، وحتى نحقق ذلك سيتحتم علينا أن نتخلى كليةً عن العواطف وأن لا نحلم أحلام اليقظة، يجب أن تكون نيتنا مركزة على أهدافنا القومية الملحة، يجب أن لا نخدع أنفسنا، فلن نستطيع اليوم أن نسمح لأنفسنا بترف تفضيل الغير علينا، ولا بعمل الخير على الساحة العالمية، ويجب أن ننتهي عن الكلام في الأهداف العامة وعن الشرق الأقصى الذي يجب أن يتحقق فيه احترام حقوق الإنسان وارتفاع مستوى المعيشة والديمقراطية، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي سيتحتم علينا التحدث فيه بصراحة وبلغة موازين القوة.. ولكن سوف تعكر صفونا شعارات المثالية، نعم سيحدث ذلك)، وكان "جورج كنن" قد أقيل من منصبه لأن السلطات الأمريكية عدته (العين الثاقبة) بمعنى أن هذه السلطات قد وجدته خارج مجموعة من يصنعون الأقنعة التي تسوغ سياساتها الأمر الذي

---

[1] روجيه غارودي: الولايات المتحدة الأمريكية ...طليعة الانهيار ، ترجمة كمال جاد الله، ص ٤٦-٤٧ .

سيعري هذه السياسات ويظهرها على شكلها الحقيقي أمام الجميع من دون تزويقات أو دبلوماسية، أما الرأي الثاني فقد ورد على لسان "باول نتر" وهو يوضح أهداف خطته المعروفة بـ (خطة الصقور) بالقول: (الولايات المتحدة تمتلك قوة عالمية، ولذلك فمن الضروري أن تحدد لها عدواً شاملاً ـ وكان آنذاك الاتحاد السوفيتي ـ)، فقد اعتبرت السلطات الأمريكية الاتحاد السوفيتي شيطاناً، واعتبرت كل شكل من أشكال التدخل أو العدوان من جانب الولايات المتحدة مسوغاً منذ البداية، فهو رد فعل للدفاع ضد تهديد شامل، وعلى أساس هذين الرأيين يمكن رؤية شكل وأغراض بعض "الأقنعة" التي تصنعها الولايات المتحدة لتسويغ أفعالها، ففي حالة العدوان الأمريكي على كوريا أو فيتنام لم يكن بمقدور السياسيين الأمريكيين القول بأن كوريا أو فيتنام قامت بغزو الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة هي التي قامت بغزوهما وهما على بعد آلاف الكيلومترات من حدودها.. لكن السياسيين الأمريكيين اعتبروا أن الولايات المتحدة قد قامت بذلك وهي في حالة دفاع شرعي عن النفس لوقف المد السوفيتي هناك.

وإذا ما تركنا تلك السنوات البعيدة نسبياً، وقفزنا إلى سنوات قريبة مضت سنجد الصورة ذاتها تتكرر بإصرار عجيب، وكأن الإمبراطورية الأمريكية محكومة بالانهيار بسبب سياسات رجال الحكم فيها، الذين أهملوا ويهملون أقدار بلادهم وأقدار حلفائها.. فهذا الرئيس الأربعين للولايات المتحدة (رونالد ريغان) يعلن في رسالة إلى الكونغرس عام ١٩٨٧م (أن الأمريكيين غير مهيئين لمعاملتهم وكأنهم حمقى في الحلبة التجارية الدولية، فهم سيكسبون أكثر على الصعيد العالمي إن أخفوا دوافعهم بنحو أقل)، وإذا كان هذا القول

موجهاً إلى الأمريكيين بنحو خاص، فإن "هنري كيسنجر/ وزير الخارجية الأمريكية الأسبق" كان قد وجه كلاماً مختصراً ومعبراً عن الرؤية الأمريكية للعلاقة مع الحلفاء الأوربيين، حين قال في عام ١٩٧٩م: (إن على الأوروبيين أن يكفوا عن مطالبتنا بتأكيدات استراتيجية معقدة لا نستطيع أن نمنحها لهم، حتى إن أعطيناها لهم فإننا لا نرغب بالوفاء بها وإلا جازفنا عندئذ بتدمير الحضارة)، وقد جاء هذا الكلام ليؤكد رؤية أوروبية مستقلة وواقعية كان الجنرال (شارل ديغول) قد وضحها عام ١٩٦٣م بالقول: (لا يمكن لامرئ في أمريكا أن يقول أين أو كيف أو متى سوف يجري استعمال الأسلحة النووية الأمريكية في الدفاع عن أوروبا)، ولقد كان ديغول يحذر في قوله من مغبة الانجرار الأوروبي وراء الوعود الأمريكية الكاذبة، وفي الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة تمارس ضغوطات شديدة على أوروبا وخصوصاً على فرنسا لمنعها من التزود بالسلاح النووي ولمنعها من الظهور كقوة مؤثرة قد تنافس قوة الولايات المتحدة وتستحوذ على مساحة نفوذ دولي لا ترغب "واشنطن" في أن تكون من حصة غيرها، فالولايات المتحدة ترى أنها الدولة الأكثر غنىً في العالم والأكثر جدارة بقيادة أوروبا والعالم، ولهذا فهي جديرة بالثقة الكلية.. ومن هنا فإن مبدأ تدخلها واتخاذها القرارات من جانب واحد وممارسة التفوق والتصدي للآخرين، كان ومايزال من المبادئ الأساسية في استراتيجية الولايات المتحدة للسيطرة على العالم وخلق حالة من عدم التوازن في كل المستويات الدالة على القوة (السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية.. وغيرها) بشرط أن يميل الميزان لصالحها وعلى الآخرين أن يتصرفوا

مع هذا الوضع على إنه أمر طبيعي وحق مكتسب ويجب عليهم، احترامه وعدم المساس به.

إن الطبيعة الجذرية لاختلال التوازن الذي حاولت الولايات المتحدة ايجادها وتنميتها لتسويغ تدخلاتها، لا تقتصر (وفقاً للتفكير الأمريكي الأناني) على مجموعة من الدول أو الشعوب من دون أخرى، فعلى الرغم من أن السياسات الأمريكية وقد عبرت (منذ ظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى على الساحة الدولية) عن هذه الطبيعة بما يوحي أن البلدان الفقيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هي المقصودة باعتبارها تؤلف تجمعاً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً منفصلاً بالقياس إلى دول الغرب والعالم المتقدم، وبما يستوجب وجوداً ملموساً ومؤثراً للقوى والمستويات المتقدمة في هذه الدول (الفقيرة) بدعاوى وأقنعة زائفة تتحدث عن المساعدة لخلق قواعد وجسور للتواصل مع العالم المتقدم .. لكن واقع التصرفات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم يؤكد أن نموذج التبعية الذي تخطط وتسعى إليه الولايات المتحدة مبني على أساس وجود نظام غير متكافئ بينها وبين كل دول العالم وشعوبها (متقدمة أو متخلفة)، بمعنى أن نمط علاقات الولايات المتحدة يجب أن يكون باستمرار في مصلحتها ويشكل أضراراً بالطرف الآخر حتى وإن كان من حلفائها، فالكل يشكل محيطاً وهي المركز، والنتيجة هي تطور كل المستويات الدالة على القوة (السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والاجتماعية.. وغيرها) في المركز وعلى حساب المحيط بما يضم هذا المحيط (وفقاً لتشكيل هندسي تكبر فيه الدوائر كلما ابتعدت عن المركز) من دول الغرب المتقدم ثم دول قريبة أو على عتبة التطور والتقدم ثم دول ضعيفة وفقيرة (اصطلح على تسميتها في الأدبيات

السياسية بدول العالم الثالث)، وكل هذه الدول الموزعة على الدوائر هي (وفقاً للنظرة الأمريكية) بحاجة ماسة إلى الحماية الأمريكية وموجبات التقدم وفق النمط الأمريكي، وهي أيضاً بحاجة إلى المعرفة والمهارات والتنظيم والقيم والتكنولوجيا ورأس المال من العالم الحر (أمريكا)، فالولايات المتحدة وفقاً للتفكير الاستعماري الشامل الذي تؤمن به هي مركز (النخبة) ولابد لهذه (النخبة) من دور متميز وغير مقيد وحصة متميزة في كل الموارد المادية المتوفرة في العالم، كما إنها يجب أن تتولى من دون مشاركة مسؤولية تحديد الكم والنوع الذي تحتاجه أية دولة أو مجموعة من هذه الموارد، والكيفية التي تحصل من خلالها على ما تحتاجه وفقاً لشروط تضعها واشنطن، وهو ما تطلق عليه الولايات المتحدة تسمية (نظام دولي).

بين نهاية التاريخ . . .

ونهاية أمريكا . . !؟

أحمد الهواس

بين نهاية التاريخ... ونهاية أمريكا..!؟

أحمد الهواس[١]

كلما جرت انتخابات أمريكية انشغل العالم بالمرشح الديمقراطي وخصمه الجمهوري واختزلت أخبار العالم بمن سيدخل البيت الأبيض، وكأن الداخل لهذا البيت هو رئيس العالم أو هكذا يبدو... ولكن هذه المرة لن يكون خليفة بوش مرتاحاً في الأقل فهو ليس زعيم العالم المنتظر، فقد آن لأحادية القطب أن تنتهي، وهناك مشاكل كثيرة أوقعت إدارة بوش أمريكا بها وبالتالي انعكست أزماتها على العالم أجمع، وبات المتربصون بأمريكا يجاهرون علناً بخطأ سياساتها على الأصعدة كافة!. فمن فشل عسكري (العراق وأفغانستان) إلى فشل مالي (الأزمة المالية وسبقتها بقليل أزمة الغلاء العالمي والصعود الجنوني لأسعار البترول) والغزو الروسي لجورجيا رغم الدعم الأمريكي لها، وكذلك استعراض القوة الروسية في الحديقة الخلفية لأمريكا..!.

وهكذا لن يكون خروج بوش الابن أمراً عادياً بل مصحوباً بالكوارث والأزمات وربما إيذاناً بنهاية القرن الأمريكي الذي بشر به المحافظون الجدد وعلى رأسهم فرانسيس فوكوياما.

قبل أن يحدث كتاب فوكوياما (نهاية التاريخ) جدلاً في الأوساط العالمية كان قد سبق ذلك بمقال له عام ١٩٨٩م يحمل العنوان ذاته، ثم طوره من مقال إلى كتاب كان سبباً في مصائب تترا، وأُستند على آراء مؤلفه في غزو أفغانستان والعراق بحجة محاربة الأصولية أو ما عرف فيما بعد الإرهاب.

---

(١) كاتب وإعلامي سوري مقيم في القاهرة.



مؤلف العمل رأى أن الدنيا قد خاضت تجارب عدة وفشلت وآخرها الشيوعية، وما أن سقطت النظم الشمولية الاشتراكية حتى لاذت بعدو الأمس الديمقراطية الليبرالية، فنهاية كل التجارب تصب بالتجربة الغربية والليبرالية الرأسمالية الغربية والنموذج الأمريكي تحديداً وأي تطور سيكون طفيفاً في التجربة الأخيرة للبشرية، فهي نتاج الشرعية كما يقول.... ويطرح في نهاية مقدمة كتابه سؤالاً: هل يقود التطور التاريخي المضطرد الغالبية العظمى من البشر نحو النظام الرأسمالي الليبرالي؟ والإجابة التي تمكنت من الوصول إليها هي: نعم ...!، وبعد صدور كتابه عام ١٩٩٢م قال فوكوياما في لقاء مع وكالة أورينت برس: ((لقد حققت أمريكا أضخم انتصار مع نهاية القرن العشرين.. إبادة الشيوعية، وسحق العراق، ولا أحد يشك الآن في أن أمريكا هي زعيمة العالم، نحن الأقوى والأعظم، انظروا إلى الروس والشعوب الأخرى التي خلعت رداء الشيوعية وجاءت لتحتمي بأمريكا! أنا أمريكي مائة بالمائة ولا أعاني إطلاقاً من ازدواجية الانتماء، فأنا _ رغم أصولي اليابانية _ ابن أمريكا.. إن أمريكا هي آخر بلد يمكن أن يُكن للاعتبارات العائلية أو العرقية أية أهمية، وهي لم تقم _كما يدعي البعض _ على أشلاء أهلها الأصليين من الهنود الحمر والآزتيك الذين كانوا يذبحون أطفالهم قرابين للآلهة. إن وصول المهاجرين الأوربيين لم يكن عملاً بربرياً، بل كان إنجازاً حضارياً، هل يمكن أن نتخيل مدى سوء الأوضاع فيما لو ظلت أمريكا مأهولة بتلك المخلوقات البدائية!، لدي إحساس قوي بأنني سأصبح شيئاً مهماً في التاريخ الأمريكي الجديد ربما كان البيت الأبيض)).

فوكوياما المبشر بالأنموذج الأمريكي والذي كان داعماً لتوجهات المحافظين الجدد ففي عام ١٩٩٧م أسس مركزاً للبحوث تبنى مشروعاً أطلق عليه (مشروع القرن الأمريكي)... هو المتناقض في أفكاره وآرائه، فبعد غزو العراق دعا إلى استقالة وزير الدفاع (دونالد رامسفيلد) ورأى أن إدارة بوش قد هولت من خطر الأصولية الإسلامية مما أدى إلى تنامي العداء للولايات المتحدة الأمريكية...!

وما أن ضربت الهزة المالية الولايات المتحدة الأمريكية حتى سارع إلى التصريح بأن النفوذ الأمريكي يتضاءل وقد نشر مقالاً في (نيوزويك) يقول فيه: إن أميركا لم تستمد سلطانها ونفوذها من دباباتنا ودولاراتنا، ولكن من إحساس السواد الأعظم من الناس بجاذبية النمط الأميركي في الحكم مما جعلهم يتوقون إلى إعادة صياغة مجتمعاتهم على نفس الشاكلة التي أطلق عليها أستاذ العلوم السياسية (جوزيف ناي) مصطلح "قوتنا الناعمة"، ومن العسير أن ندرك كنه الضرر الذي لحق بالنموذج الأميركي في سماته المميزة، ففي السنوات ما بين ٢٠٠٢م و٢٠٠٧م عندما كان العالم يمر بفترة غير مسبوقة من النمو، كان من السهل تجاهل أولئك الاشتراكيين الأوروبيين والمدافعين عن حقوق عامة الناس ممن شجبوا النموذج الاقتصادي الأميركي ووصفوه بأنه "رأسمالية رعاة البقر"، غير أن محرك ذلك النمو، الذي هو الاقتصاد الأميركي، قد خرج من سكوته وهو ينذر بسحب بقية العالم معه، والأدهى والأمر أن الجاني هو النموذج الأميركي بذاته، وبتبني مبدأ تقليص سيطرة الدولة، أخفقت واشنطن في ضبط القطاع المالي على نحو واف وأفسحت المجال للحكومة لتلحق ضرراً بليغاً بباقي المجتمع... على أن الديمقراطية فقدت بريقها حتى قبل ذلك، فعندما

ثبت أن العراق لا يمتلك أسلحة دمار شامل التمست إدارة بوش تبرير شن حرب على العراق بربطها ببرنامج حريات عريض، وسرعان ما أصبح نشر الديمقراطية هو السلاح الرئيس في الحرب على الإرهاب، وبدأ الخطاب الأميركي عند الكثيرين في مختلف أرجاء العالم أشبه بالمبرر الذي يسوغ تعزيز الهيمنة الأميركية.

إن الخيار الذي نواجهه اليوم يذهب إلى أبعد من خطة الإنقاذ أو حملة الانتخابات الرئاسية، فالنموذج الأمريكي يقف على المحك على نحو مؤلم في وقت تبدو فيه النماذج الأخرى الصيني منها أو الروسي أكثر جاذبية.

فوكوياما حاول أن يستدرك تناقضه فوقع في تناقض أكبر حينما رأى أن أمريكا قادرة على الخروج من الأزمة المالية الحالية فقد توقع أن العالم سيواجه انكماشاً اقتصادياً ولن يكون النموذج الروسي أو الصيني بديلاً للنموذج الأمريكي، واستشهد بالكساد الكبير في ثلاثينيات القرن المنصرم حيث استطاعت أمريكا الخروج منه بفضل قابلية نظامها للتكيف، ومرونة الشعب الأمريكي... !، فأين كلام فوكوياما الحالي من كلامه في كتابه نهاية التاريخ..؟ (يبدو لي ــ أخيراً ــ الجنس البشري كما لو كان قطاراً طويلاً من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهاً إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الآباتشي (الهنود الحمر) فضل الطريق، والبعض الثالث أنهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط الصحراء للإقامة فيه وتنازل عن فكرة الوصول للمدينة، بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طرق بديلة للوصول للمدينة، وفي النهاية يجد الجميع

أنفسهم مجبرين على استخدام الطريق نفسه ـ ولو عبر طرق فرعية مختلفة ـ للوصول لغايتهم، وفعلاً تصل هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عند وصولها لا تختلف عن بعضها بعضاً إلا في شيء واحد... هو توقيت الوصول للمدينة.. في سرعة أو بطء وصولها إلى الديمقراطية الليبرالية.. ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة... نهاية التاريخ).

لقد رأى (بوش الأب) عشية حربه على العراق أن العالم قد دخل في نظام عالمي جديد بقيادة أمريكا، وقد كانت حرب الخليج إيذاناً بنهاية المنظومة الاشتراكية، فالبرسترويكا التي أطلقها غورباتشوف كانت رصاصة الرحمة على الاتحاد السوفياتي فانحل عقده وتلاشى.

ويرى كثير من الباحثين في الشأن الأمريكي أن الواقع الجغرافي قد خدم أمريكا في جعلها بعيدة عن الغزوات، وأن الثروات الهائلة التي تمتلكها ساهمت بنموها الصناعي الهائل، وكذلك التجاري.. هذه الظروف دفعتها لأن تسود العالم لاسيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد برزت كقوة عسكرية حسمت المعركة لصالح الحلفاء واستخدمت السلاح الذري لأول مرة في تاريخ الحروب الحديثة، كذلك سيطرت على أوربا اقتصادياً عبر مشروع مرشال.

وقد اقتسمت العالم بينها وبين عدوها الشيوعي حتى سقط جدار برلين عام ١٩٨٩م فكشف عورة المعسكر الاشتراكي الذي تداعى كأحجار الدومينو...! فقد استطاع الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريغان) أن يجعل الشيوعية في سباق تسلح لم تكن قادرة على تحمل نتائجه الاقتصادية الكارثية، ثم كانت حرب الخليج ١٩٩١م لتعلن تأسيس النظام العالمي الجديد الذي تقوده بنفسها، وبعد ذلك ضربت بلغراد وهي تعني نهاية الراديكالية داخل

أوربا وحلفاء السوفييت أمس، وانتهى الأمر بتقسيم يوغسلافيا ومن ثم اختفاء هذه الدولة نهائياً بعد أن انفصلت صربيا عن الجبل الأسود.

وجاءت أحداث (١١أيلول/سبتمبر) لتعلن أمريكا أن هذه الأحداث ستغير وجه العالم فأعلنت حربها ضد ما يسمى الإرهاب فغزت أفغانستان ومن ثم العراق، ورأت أن حربها طويلة قد تمتد لعقدين.

الآن أمريكا الغارقة في العراق وأفغانستان عسكرياً، والمصابة بزلزال مالي قد يكلفها قيادة العالم، تبحث عن حلول كانت تعدها عيباً على الآخرين..! فها هي تذهب للتدخل في المصارف والشركات بعد أن كان شعارها (دعه يعمل دعه يمر)، وفي هذا الشأن كتب الفيلسوف البريطاني (جون غري) في صحيفة (الأوبزيرفر) يوم الأحد ٢٩- ٩- ٢٠٠٨م تحت عنوان "لحظة الانكسار في سقوط قوة أميركا" ((إن ما نمر به من غليان في الأسواق العالمية هو أكثر من أزمة مالية، بل هو (تغيير جيوسياسي) تاريخي يعاد فيه تشكيل موازين القوى في العالم دون رجعة، ويعلن فيه انتهاء حقبة الهيمنة الأميركية التي تعود منذ الحرب العالمية الثانية، ويضيف: مع تأميم الولايات المتحدة لأجزاء حيوية من نظامها المالي، فإن نظام أميركا الخاص بالأسواق الحرة يدمر نفسه بنفسه في حين تبقى الدول التي احتفظت بسيطرتها على الأسواق في أمان)).

لقد أطلقها الرئيس الروسي (مدفيدف) علانية حينما هوت بورصة وول ستريت: لقد ولى زمن الهيمنة الأمريكية إلى غير رجعة...!.

لا يعني نهاية النظام المالي الأمريكي انهيار اقتصاد دولة عظمى فحسب، بل هو نهاية إمبراطورية تسود العالم، وتتفرد بالقرار الدولي يعني نهاية العولمة ونهاية المشروع الأمريكي في العالم ولاسيما مشروعها المسمى بالشرق الأوسط

الكبير، وسقوط أخلاقي وقيمي (غوانتينامو وأبو غريب) وكذلك بروز قوى جديدة نأت بنفسها عن نصائح صندوق النقد الدولي (كالصين) وفي هذا المجال يقول الخبير الاقتصادي الأمريكي (جوزيف ستجليتز) في كتابه ضحايا العولمة الصادر عام ٢٠٠٢م:

(إن كانت العولمة لم تنجح في تخفيف الفقر، فإنها لم تنجح أيضاً في تأمين الاستقرار، إن الأزمات في كل من آسيا وأمريكا الجنوبية هددت الاقتصادات والاستقرار في البلدان النامية كلها، هناك مخاوف من انتشار عدوى مالية حول العالم بحيث يؤدي انهيار العملة المتداولة في إحدى الأسواق الناشئة إلى انهيار العملات الأخرى بالمثل، ففي عامي ١٩٩٧-١٩٩٨م بدا لفترة ما "إن الأزمة الآسيوية تشكل تهديداً لكل الاقتصاد العالمي".

إن العولمة وإدخال اقتصاد السوق لم يحققا النتائج الموعودة في روسيا وأغلب الاقتصادات الأخرى، التي تقوم بعملية التحول من الشيوعية إلى اقتصاد السوق، لقد قال الغرب لهذه الدول: إن النظام الاقتصادي الجديد سيجلب لهم رخاءً اقتصادياً غير مسبوق، وبدلاً من ذلك جلب لهم فقراً غير مسبوق...! لقد أثبت اقتصاد السوق من نواحٍ كثيرة بالنسبة لأغلب الناس أنه الأسوأ حتى مما تنبأ به زعماؤهم الشيوعيون، إن التناقض بين التحول في روسيا الذي وضعت هندسته المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحول في الصين الذي وضعت الصين تصميمه بنفسها لا يمكن أن يكون أكبر من ذلك، فبينما كان إجمالي الناتج المحلي للصين عام ١٩٩٠م لا يمثل سوى ٦٠% من إجمالي الناتج المحلي لروسيا، انعكست هذه النسبة في نهاية عقد التسعينيات، ففي الوقت

الذي شهدت فيه روسيا زيادة غير مسبوقة للفقر، شهدت فيه الصين انخفاضاً غير مسبوق للفقر..!).

لقد كانت مرحلة الرئيس الأمريكي (بيل كلنتون) مرحلة مهمة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فقد برزت العولمة كظاهرة اقتصادية تسمح لأمريكا أن تتسيد العالم بعد هزيمة الشيوعية، وهذا ما زاد الشعور لدى فوكوياما أن نظرية نهاية التاريخ صحيحة.! وتناسى أن عدوهم الشيوعية قد بشرت بذلك قبل حين بانتهاء العالم بمرحلة المشاع ..! لكنه لم ينتبه إلى أن أمريكا تعتمد على الثالوث المهلك (الطغيان والاستكبار والربا) وهذا مخالف للسنن الإلهية، وقد دفع الخيال (بفوكوياما) إلى أن النهاية ستكون بالليبرالية الأمريكية بعد أن استعرض آراء من سبقه ونقضها، لكن توقف أمام الإسلام قائلاً: (يبدو أنه من الممكن استثناء الإسلام ـ مبدئياً على الأقل ـ من هذا الحكم العام حول الأيدولوجيات المنافسة للديمقراطية، فالإسلام يشكل أيديولوجيا متجانسة ومنتظمة، مثله في ذلك مثل الديمقراطية والشيوعية، مع دلالته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية، وقد هَزم الإسلام في الواقع الديمقراطية الحرة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي موجهاً تهديداً خطراً للممارسات التحررية حتى في البلاد التي لا تمثل قوة سياسية ذات بال، وقد شهدت نهاية الحرب الباردة تحدياً سافراً للغرب من قبل العراق الذي يشكل الدين الإسلامي عاملاً مهماً في تكوينه الأيديولوجي، وعلى الرغم من الحديث عن جاذبية الإسلام العالمية، إلا أن الحقيقة الواضحة والأكيدة وهي أن هذا الدين ليس له أي جاذبية خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية، فقد انتهت أيام الغزوات الثقافية الإسلامية، قد يكسب الإسلام أحياناً أتباعاً ساخطين على

أوضاع معينة، لكن لا رنين له لدى الشباب في برلين أو طوكيو أو موسكو مثلاً، وبينما يوجد حوالي بليون من البشر ذوي ثقافة إسلامية ـ أي حوالي خمس سكان العالم ـ إلا أنهم لا يستطيعون تحدي الديمقراطية الحرة الموجودة في بلادهم على المستوى الفكري أو النظري، وفي الواقع فالواضح أنه بات ممكناً اختراق العالم الإسلامي ـ على المدى الطويل ـ بالأفكار التحررية، لأن مثل هذه الأفكار قد جذبت العديد من المسلمين الأقوياء خلال القرن ونصف الماضيين، ويبدو أنه من أسباب إحياء الأصولية الإسلامية التهديد الذي أحست به هذه المجتمعات الإسلامية التقليدية بسبب اختراقها بالقيم والأفكار الغربية التحررية).

نظرة فوكوياما للإسلام مليئة بالتناقضات وإن ما مرّ عليه بكلمات تحتاج إلى وقفات لاسيما حين عدّ الإسلام أيديولوجية متجانسة ومنتظمة مثله مثل الديمقراطية والشيوعية، وهذا فهم قاصر جداً فالإسلام ليس فكراً من وضع البشر حتى يقارن بأفكار البشر وأيديولوجياتهم المختلفة سواء كانت شيوعية أو ديمقراطية، ثم أضاف (مع دلالته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية) فلم يبين ماهية تلك الأخلاق، والسياسة، والعدالة الاجتماعية.. والفكرة الأخيرة هي كلمة السر في عظمة الإسلام وقدرته على تحقيق العدالة الاجتماعية..!.

وحين نظر إلى نسبة المسلمين في العالم رأى أن هذه النسبة على ضخامتها ليست ذات تأثير، وعدّ الثقافة الإسلامية التي سماها (غزواً) أنه ليس بإمكانها أن تجذب أنصاراً لها في العواصم الغربية والمتقدمة، وأن الذين يعلنون إسلامهم يعلنونه نتيجة حالة سخط من أوضاع معينة ولا ندري ما الذي رمى إليه بهذه

العبارة..؟ متجاهلاً أن الذين يعلنون إسلامهم من كبار العلماء والمفكرين الغربيين..!، ثم خلص إلى نتيجة أن الأقوياء كما أسماهم من المسلمين ينجذبون للنموذج الديمقراطي الليبرالي، وهنا يعني أن البقية الباقية ضعفاء وبالتالي يمكن اختراق المجتمعات الإسلامية ولو كان ذلك على المدى البعيد ـ وهو لا يفرق بين ضعف المسلمين الحالي وقوة الدين الإسلامي ـ متناسياً أن شعوباً مختلفة قد دخلت الإسلام من خلال معاملات وأخلاق التجار المسلمين ولاسيما في شرق آسيا، وزعم أن الانجذاب من هذه الفئة (الأقوياء) وسهولة الاختراق من قبل القيم والأفكار الغربية التحررية للمجتمعات الإسلامية قد ساهم في بروز الأصولية الإسلامية..!.

فوكوياما المعتز بأمريكيته تجاهل طغيان أمريكا بل برر للمهاجرين ما فعلوه بالسكان الأصليين كما ذكرنا آنفاً، وكذلك الاستكبار ومحاولة فرض الثقافة الأمريكية على الآخرين بالقوة، وهو ذهب إلى أبعد من هذا فقد رأى أن النموذج الأمريكي هو الأخير حتماً، وإن كان من متغير فسيكون طفيفاً جداً متناسياً حركة التاريخ وتغير الظروف طبقاً للحالة التي يمر بها الناس، وكذلك الحالة الاقتصادية الأمريكية القائمة على الربا كباقي العالم الغربي الغارق في المعاملات الربوية، وهذه الحالة انسحبت على دول العالم أجمع من خلال المصارف الربوية، وبنظرة سريعة للحالة التي وصل إليها الإقتصاد الأمريكي القائم على مبدأ الحرية نجد أن (الإقتصاد الأمريكي فقد في يومَي الإثنين والثلاثاء ٢٩-٢٠٠٨/٩/٣٠م فقط في (وول ستريت) تريليون دولار في صورة هبوط في قيمة الأوراق المالية المتداوَلة، وعمليات الإنقاذ في التجربة

الأمريكية والعالم تجاوزت حتى الآن رقماً غير مسبوق، وهو ثلاثة تريليونات دولار، اثنان منها في التجربة الأمريكية..!).

وقد قدّم الخبير الاقتصادي د. عبد الحميد الغزالي مجموعة من الحلول:

(١) وقف المضاربات، أي المقامرات، وبالذات التعامل في المشتقات، وهي الخيارات والمستقبليات والتحوّطات لتغيرات سعر الفائدة.

(٢) محاسبة المسؤولين عن الجهاز المصرفي بعامة والوحدات التي انهارت بخاصة.

(٣) تشديد رقابة السلطات النقدية، وعلى رأسها البنك المركزي، في ممارسة العمل المصرفي بعامة وضخ الائتمان بخاصة.

(٤) اعتماد السياسات المصرفية بحزم وصرامة، خاصةً في ما يتصل بإدارة السيولة والربحية وبإدارة مخاطرة الائتمان وبإدارة كفاية رأس المال.

(٥) الاستمرار في ضخ سيولة في شرايين الاقتصاد، حتى لا تنهار أساسيات القاعدة الإنتاجية، وندخل في كساد عالمي عظيم.

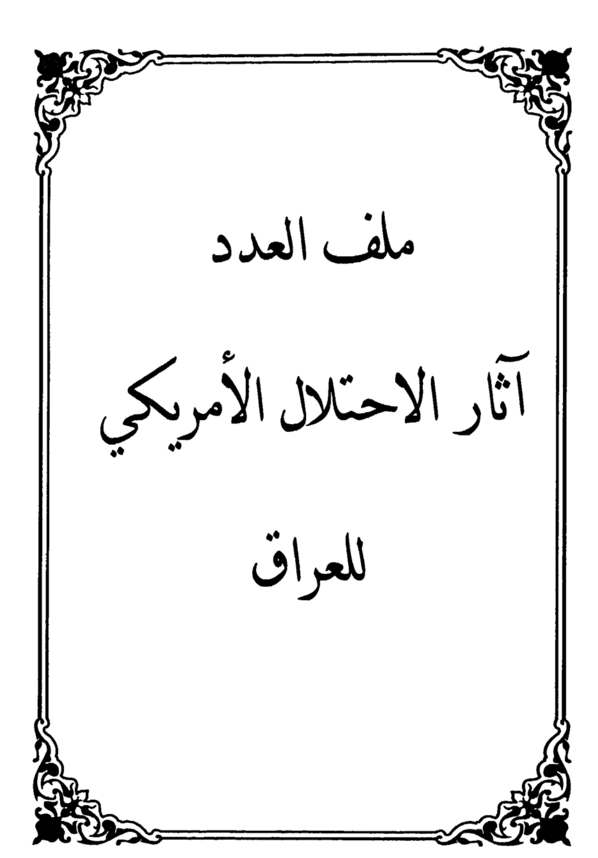
(٦) أخيراً وليس آخراً.. التفكير الجاد من قِبل المُنظِّرين الغربيين وأصحاب القرار في دراسة تطبيق النظام الإسلامي البعيد عن سعر الفائدة الربوية، والقائم على معدل الربح كأداة لإدارة النشاط الاقتصادي المعاصر، الذي يستند على استثمار حقيقي لتوسيع القاعدة الإنتاجية، وليس على أساس استثمار مالي قوامه المضاربات، أي المقامرات والمغامرات والاستغلال والفساد.

لقد أثبتت التجارب أن نجاح تجربة ما لا يعني استمرارها، وبالتالي يمكن مراجعتها والاستفادة من تجارب أخرى لاسيما إذا كانت ذات بعد أخلاقي وقيمي، ومثال ذلك المصرفية الإسلامية وتحريم الربا، والعودة للمعادن النفيسة،

ولقد سبق (للديغول) أن طالب بالعودة للمعادن النفيسة وكذلك نظرية رئيس وزراء ماليزيا السابق (مهاتير محمد) في العودة للدينار الذهبي.

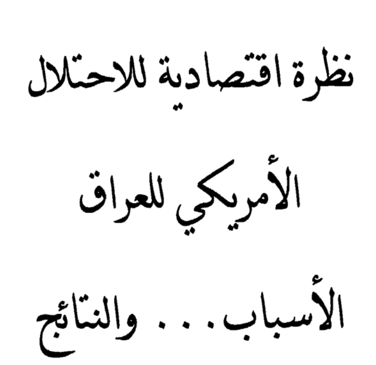
أمريكا التي سحبت الغطاء الذهبي عن الدولار منذ سبعينيات القرن المنصرم، وأدى ذلك إلى انخفاض سعر الدولار منذ عام ١٩٧٣م حتى هذا الوقت أربعين مرة...! إضافة للتضخم وأخيراً الغرق في حالة الكساد وانعدام ثقة المستهلك ..!

فهل لفوكوياما أن يعي عظمة الدين الإسلامي... وأنه ليس فكراً من وضع البشر.. وهو الذي بشر بنهاية التجارب الإنسانية بالتجربة الأمريكية..؟، وهل سيشهد بأم عينه نهاية أمريكا التي باتت وشيكة... وهي مسألة وقت ليس أكثر...؟!، وسيتذكر طويلاً أن النهاية كانت بدايتها بالتمدد الإمبراطوري وغزو بلدين مسلمين، وإن مفكري الاقتصاد الغربي بدأوا بالاستعانة بنظام المصرفية الإسلامية للخروج من الأزمة..! وأن نهاية أمريكا تكمن بداخلها لاسيما بالخلل الاجتماعي والشذوذ الجنسي، والزواج المثلي، وارتفاع نسبة الجريمة.



ملف العدد

آثار الاحتلال الأمريكي للعراق



نظرة اقتصادية للاحتلال الأمريكي للعراق الأسباب... والنتائج

عبد الستار أحمد

نظرة اقتصادية للاحتلال الأمريكي للعراق
الأسباب... والنتائج

عبد الستار أحمد

حين قررت الولايات المتحدة الأمريكية غزو العراق كانت هناك مجموعة من الأسباب الاستراتيجية، منها السياسية ومنها الأمنية ومنها الدينية ومنها الاقتصادية، منها ما أعلن عنها بشكل رسمي وعن طريق وسائل الإعلام، كما أعلن بوش الابن بأنه يقود حرباً صليبية بأمر الرب، ومنها ما لم يعلن عنها لغاية الآن، وقد أسهب الكثير من الباحثين والمفكرين والكتاب في إيضاح هذه الأسباب وكتبوا الكثير من الدراسات والبحوث والتقارير، حتى أُلفت كتب كثيرة في ذلك.

فبالإضافة للضرورة التاريخية (من وجهة نظر أمريكية بحتة) لتواجد أمريكي طويل الأمد في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، وفي المنطقة العربية بشكل خاص، كان هناك سبب استراتيجي آخر في الجانب الأمني وهو الحفاظ على أمن إسرائيل، لأن العراق كان على مر التاريخ عقدة تاريخية حقيقة لإسرائيل، وثبت ذلك من خلال مواقف الجيش العراقي في معارك العرب ضد إسرائيل، كما إن الشعب العراقي شعب معبأ بشكل دائم ضد العدو الإسرائيلي المحتل للأراضي الفلسطينية، كما إن مواجهة الإسلام ذلك الخطر الداهم القديم الجديد في عقر داره سبباً استراتيجيا آخر من أسباب ذلك الغزو ولعله السبب الأهم في الموضوع، يضاف لكل ذلك السبب الاقتصادي المتمثل في ضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصادية، وخاصة فيما يتعلق بموضوع

النفط لأن توفير مصادر الطاقة وديمومتها تعتبر من المصالح القومية الاستراتيجية الحيوية التي يعتبرونها من مستلزمات بقاء الدولة، على الرغم من إن بعض السياسيين والمفكرين لا يجدون أن النفط أحد أسباب الاحتلال الأمريكي للعراق من وجهة نظرهم، فلربما تأثر هؤلاء بما يروجه بعض مروجي السياسة الأمريكية ومنهم الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر) الذي سخر إبان تسلمه جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٢م خلال مؤتمر صحفي ممن سماهم "الحمقى" الذين يعتقدون أن سياسة أميركا تجاه العراق مبنية على المصالح النفطية، قائلاً: "يمكن شراء النفط بأسعار معقولة في حدود ٢٧ دولاراً للبرميل، وهذا أقل من التكلفة الضخمة التي يستدعيها اجتياح العراق"، ووصف رئيس دائرة التخطيط في وزارة الخارجية الأميركية آنذاك (ريتشارد هاس) عما يقال عن وجود دوافع نفطية دفعت أميركا لاحتلال العراق: بأن هذه المقالات سخيفة (على حد تعبيره)، وبعد أن أصبح سعر النفط بعد خمس سنوات من الغزو الأمريكي للعراق أكثر من ١٤٠ دولاراً للبرميل الواحد، لابد من توجيه سؤال بسيط لـ (كارتر) من هو الأحمق الآن؟، (تم تنزيل سعر النفط ضمن تداعيات الأزمة المالية العالمية الحالية بشكل متعمد ضمن سلسلة إجراءات حلحلة الأزمة).

لهذا كان لابد لصناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية أخذ كل أنواع التدابير لضمان هذه المصلحة فهو أمر واجب بالنسبة لهم، وقد اتفق العديد من صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية على أن النفط هو الحل السحري لكل المشاكل والتلكؤات الاقتصادية وغيرها التي تعصف بالولايات المتحدة منذ سنوات طوال، وفي هذه الدراسة المقتضبة سنسلط الضوء على هذا الجانب.

نبذة تــاريخيــة

لم تكن أطماع الولايات المتحدة في نفط منطقة الخليج العربي حديثة عهد، بل كانت لها جذور تمتد لأكثر من مائة عام مضت، نظراً للأهميــة الــسياسية والعسكرية والاقتصادية لدول الخليج العربي والعراق خاصة، كما لم تكن هذه أطماع أمريكا وحدها بل كانت لبريطانيا أيضاً التي كانت تــسمي نفــسها (العظمى) أطماع لا تقل شأناً عن الولايات المتحدة الأمريكية وقد كان لهــا ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وخططت لإبقاء هذا النفــوذ بــشكل منفرد أو مشاركة مع الولايات المتحدة بعد الحرب العالميــة الثانيــة باعتبــار بريطانيا دولة لها ثقلها السياسي والعسكري.

إلا إن الولايات المتحدة الأمريكية كما هو شأنها دائماً تحب أن تتفرد بهذه المصالح، فعلى الرغم من عقد اتفاقية (الخط الأحمر) عام ١٩٢٨م التي حددت نشاط جميع الشركات المساهمة الأمريكية في شركة نفط العراق ضمن السياسة التي ترتئيها هذه الشركة، مما أغلق باب التنافس بين الــشركات الأمريكيــة والشركات الأجنبية ومنها البريطانية بالذات في هــذه المنطقــة، إلا أن هــذه الاتفاقية لم تمنع الشركات الأمريكية الأخرى غير المساهمة في شــركة نفــط العراق من الدخول إلى المنطقة، كما أن هناك مناطق أخرى مثل الكويــت لم تشملها الاتفاقية، وبهذا فليس ثمة ما يحول دون دخول الشركات الأميركيــة المساهمة في شركة نفط العراق وغير المساهمة إليها، ولابد من الإشارة هنــا إلى أن أول امتياز مستقل لشركة أمريكية في الخليج العربي تمّ إقــراره في كــانون الأول ١٩٢٨م حيث استطاعت شركة (ستاندرد كاليفورنيا) من الحــصول على امتياز نفط البحرين، واستمر النــزاع الاقتصادي الأمريكي ــ البريطاني

بعد ذلك، وظهر تنازعهما للاستيلاء على نفط الموصل عام ١٩٣٢م وكذلك نفط البصرة عام ١٩٣٨م، واستطاعت بريطانيا لغاية أربعينيات القرن الماضي من إحكام قبضتها على مصالحها النفطية والاقتصادية في العراق والحد من تدخلات الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن، إلا إنها بعد هذا التاريخ اضطرت إلى نهج سياسة جديدة وهي سياسة المشاركة أمام الضغط والتسلط الأمريكي، وذلك من خلال إشراك المصالح الأميركية المساهمة في شركة نفط العراق لمواجهة المصالح الأميركية الجديدة غير الخاضعة لاتفاقية الخط الأحمر، فتم تشكيل (شركة امتيازات النفط المحدودة) كشركة تابعة لشركة نفط العراق لتتولى مهمة التصدي لنشاط الشركات الأميركية في الخليج العربي.

ولا يخفى أن السياسة البريطانية في العراق كانت تتذرع بهذه الحقيقة (وهي ازدواج المصالح البريطانية والأمريكية في شركة محدودة) كحجة لمواجهة سياسة الباب المفتوح التي تطالب بها الولايات المتحدة الأمريكية باعتبار أن شركة نفط العراق تضم في إدارتها عدداً من المساهمين الأمريكيين.

وقد ظهر التفوق الأمريكي بشكل لا يقبل اللبس في المملكة العربية السعودية ونجاح الشركات الأمريكية في عام ١٩٣٣م في الحصول على نفط (الإحساء) الذي يُعدّ من بين أكبر مستودعات النفط في العالم، حيث تم استبعاد الشركات البريطانية عن ساحة التنافس، وبعد الحصول على امتياز الإحساء من قبل الأمريكان، واصلت الشركات الأمريكية لنشاطها واستئثارها بالمناطق المتبقية من المملكة العربية السعودية، ومع مرور الوقت وحدوث التغيرات السياسية في الوطن العربي حدثت بعد الأحداث الكبيرة في الموضوع الاقتصادي منها قيام العراق بتأميم شركات النفط العراقي عام

١٩٧٠م بما عرف بـــ (تأميم النفط العراقي) ، ورفع العـــرب لأول مـــرة في تاريخهم شعار (النفط سلاح في المعركة) فقد قامت الدول العربية المنتجة للنفط بإقرار وتطبيق حظر نفطي بمنع تصدير النفط إلى الغرب بشكل عـــام الـــذي استمر من منتصف تشرين الأول ١٩٧٣م حتى منتصف آذار ١٩٧٤م، وقـــد اقتصر الأمر على الدول العربية وحدها وليس كل دول أوبك، وبالرغم مـــن فسح المجال أمام العديد من أوجه التسرب للتغلب على هـــذا الحظـــر، فقـــد استخدمت بعض ناقلات البترول مستندات مزورة لتتجه مباشرة من الخلـــيج العربي إلى الموانىء الأمريكية، في حين استخدمت ناقلات أخرى طرقاً ملتويـــة كان العرب على معرفة كاملة بها، ومع ذلك فإن هذا الجهد المقيد قد أوضـــح مدى إمكانية تعرض الولايات المتحدة الأمريكية لضغوط متجـــددة في هـــذا المجال، أمام هذا الخطر الجديد طلب رئيس اللجنة الفرعية الخاصة بالتحقيقات (لي هاملتون) من مجموعة باحثين في مكتبة الكـــونجرس برئاســـة (تومـــاس بروجان) دراسة في آب عام ١٩٧٥م حول الموضوع، قدمت اللجنة تقريرها إلى لجنة العلاقات الدولية وتتضمن الدراسة احتمال استخدام القوة العـــسكرية الأمريكية لاحتلال حقوق النفط الأجنبية في حالة الضرورة، كقضية جديـــة، وهذه الدراسة تقدم منظوراً شاملاً لهذه القضية لتمكين الكونجرس من المساهمة على أساس وطيد في المداولات الرامية إلى التوصل إلى قرار فيما يتعلق بالرغبة في القيام بمثل هذا العمل العسكري وجدواه إذا ما لزم الأمر، ويشير التحليـــل الذي تنطوي عليه هذه الدراسة إلى أن قيام كل أو معظم الدول الأعـــضاء في منظمة "الأوبك" بفرض عقوبات مستمرة سيكون من شأنه إلحاق الاضطراب بأسلوب الحياة الأساسي للولايات المتحدة الأمريكية والأمن الأمريكي، لكنـــه

لن يعرض بقاء الولايات المتحدة للخطر على الإطلاق، إلا أنه على النقيض من ذلك يمكن أن يعرض المصالح الحيوية لحلفائنا إلى الخطر على وجه السرعة، وقد حددت الدراسة الآليات والأساليب التفصيلية التي من المفروض أن تتبع في عملية احتلال المنشآت النفطية عسكرياً وكما يلي:

(١) الاستيلاء على المنشآت النفطية المطلوبة سليمة تماماً دون أن تمس.

(٢) تأمين هذه المنشآت لأسابيع أو أشهر أو لسنوات.

(٣) إصلاح المنشآت التي تعرضت للتدمير بسرعة.

(٤) تشغيل كل المنشآت دون مساعدة دول الأوبك.

(٥) ضمان المرور الآمن لإمدادات النفط والمنتجات البترولية.

الأهداف الاقتصادية لغزو العراق

لأن النفط يشكل٥٠ % من إجمالي إنتاج الطاقة في الولايات المتحدة، ولأنه المصدر الأساسي للطاقة في العالم، كما إنه عصب الاقتصاد العالمي، ولأن هذا النفط خارج نطاق سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية، صار من الضروري إعادة النظر في قضية السيطرة عليه وعلى أسعاره ليس في الولايات المتحدة فحسب بل في العالم، فإذا حدث نقص خطير في الطاقة في الولايات المتحدة نتيجة لأي نوع من الاضطرابات أو لخلافات اقتصادية تفرض نفسها مع دول غير صديقة، ستكون هناك ثلاث سبل محلية مترابطة متاحة لصناع القرار الأمريكيين، **الأول**: هو استخدام المخزون الاحتياطي النفطي لتعويض النقص، **والثاني**: زيادة الإنتاج الأمريكي من النفط، **والثالث**: خفض معدل الاستهلاك.

بالنسبة للسبيل **الأول** فإن أرقام المخزون الاستراتيجي النفطي متقلبة، فوزارة الدفاع تعلن عن مخزون متواضع (الحجم الحقيقي يبقى سراً)، أما المخزون المدني من النفط الخام فيمكن أن يكفي لتلبية الاحتياجات لمدة قصيرة جداً في حسابات الأزمات، في حين أن المنتجات النفطية المكررة يمكن أن تلبي الطلب عليها لفترة أطول من ذلك، لكن من المرجح أن يوجه جزء جوهري منها إلى تلبية الاحتياجات العسكرية في حالة الطوارئ، وقد حدث هذا التحويل إلى الاستخدام في الأغراض العسكرية في ١٩٧٣م، أثناء الحظر النفطي العربي بمقتضى قانون الإنتاج الخاص بالدفاع الصادر عام ١٩٥٠م، ونتيجة لذلك فإن التدابير قصيرة الأجل للحفاظ على الطاقة لا تستطيع على الأرجح أن تؤدي إلى انفراج كبير للأزمة، أما السبيل **الثاني** فإن خطوات زيادة الإنتاج الأمريكي من الطاقة لن تحقق سوى فوائد مباشرة ضئيلة، فالاحتياطي البترولي الأول المخصص للقوات البحرية، الموجود في تلال " أيلك" بولاية كاليفورنيا سيحتاج إلى وقت ليس بالقليل للشروع بالإنتاج، بينما يحتاج تنشيط الاحتياطي البترولي الرابع المخصص للقوات البحرية، الموجود في ألاسكا إلى مدة أطول لأن أرصدته مازالت تحتاج إلى استكمال استكشافها وتطويرها، كما أن التدابير الفنية لزيادة إنتاج حقول النفط الأمريكية العاملة الآن ستكون بمثابة مشروعات تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تؤتي ثمارها، وعلى سبيل المثال فإن تطوير الجرف القاري سيستغرق سنوات طويلة، كما أن المخزون الإنتاجي النفطي الأمريكي بالأصل لا يتحمل الزيادة إذا ما عرفنا وفق آخر الدراسات الاستراتيجية إن آخر حفارة لاستخراج النفط ستتوقف عام ٢٠١٥م في ولاية تكساس في الولايات المتحدة ما يعني لا مزيد من الاستكشافات النفطية.

أما السبيل **الثالث** المتمثل بخفض الاستهلاك باستخدام الوسائل الفنية فيمكن أن يخلق وفراً سريعاً وكبيراً يقرب من مليون برميل في اليوم، طبقاً لتقديرات المسؤولين في الإدارة الأمريكية ولكن المشاكل المترتبة على ذلك ستكون كبيرة جداً قد تؤثر على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في المستقبل.

ففي ولاية الرئيس (جيمي كارتر) تم وضع السياسة الأمريكية الجديدة وذلك في عام ١٩٧٨م وضعها كل من (هنري كيسنجر وبريجينسكي وبوش الأب ورامزي كلارك)، وقد خُططت هذه السياسة للفترة من ١٩٧٨م ولغاية ٢٠٠٣م أي لمدة (٢٥) سنة، استناداً لما جاء بدراسة اللجنة الاقتصادية الصغرى والتي كان تقريرها مستنداً لنظرية عضوها (جيرمي ريفكن) حيث وضع (جيرمي) ما يجب أن يكون عليه الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد العالمي ومبررات بناء الاقتصاد الأمريكي الجديد مرتكزاً على نظرية الإنتروبي (دالة العشوائية)، وذكر في مبررات بناء الاقتصاد الأمريكي الجديد أن الشعب الأمريكي الذي عاش عقوداً في بحبوحة من العيش لا يمكنه أن يرى عماله اليوم يعيشون دون مستوى معيشتهم بسبب تهديد دول العالم الثالث لأمريكا، تتويجاً لهذه الاعتبارات والمبررات وضعت الاستراتيجية الأمريكية مخططاتها لتنفيذ أهدافها السياسية والاقتصادية وبرزت إحدى خططها للسيطرة على مناطق تواجد النفط في العالم الثالث تحديداً تحت اسم المصيدة عام ١٩٧٩م، وتنص هذه الخطة على إخضاع الدول ابتداءً من أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ولبنان والأردن والسعودية ومصر إلى النفوذ الأمريكي، هذا الإخضاع

يتم بإيجاد حكومات تتحالف مع الولايات المتحدة مهمتها حماية المصالح الأمريكية المتمثلة بتوفير مصدر الطاقة النفط.

وتهدف سياسة الطاقة الأمريكية، وذلك وفقاً إلى استراتيجية الرئيس (جورج بوش وتقرير تشيني) وسياسات الطاقة السابقة إلى تحقيق مجموعة من المكاسب للولايات المتحدة أهمها:

(١) تعزيز مصادر الطاقة

فحيث إن النفط هو المصدر الأساس والرئيس للطاقة، كان لابد للولايات المتحدة الأمريكية وفق هذا المفهوم أن تعزز الكميات اللازمة لضمان توفير الطاقة لفترة أطول، ما يعني وضع يدها على أكبر احتياطي في العالم المتمثل بالاحتياطي النفطي العراقي ففي حال استقرار الأوضاع بالعراق، فإن ذلك سيمكن الشركات الأميركية من الوصول إلى ١١٢ مليار برميل من النفط وهو الاحتياطي المعلن للبلاد وبعضهم يشير إلى ٢٠٠ مليار برميل، ويعتبر أهم احتياطي عالمي، وهذا معناه أن السيطرة على العراق تعني الحصول على نحو ربع احتياطي العالم النفطي، دون أن نذكر الأرباح التي ستأتي للشركات النفطية الأميركية بعد إنهاء مصالح الشركات النفطية الروسية والفرنسية والصينية التي كانت قائمة سابقاً.

(٢) تنويع مصادر واردات النفط

بسبب سياسات الولايات المتحدة الحمقاء، فإن علاقاتها مع دول العالم في تذبذب مستمر لعدم وجود ثوابت في سياستها وإن مصالحها ومصالح إسرائيل هي التي تحدد هذه العلاقات، فأصدقاء اليوم بالإمكان أن يكونوا أعداء الغد، لذلك كان لابد من تنويع المصادر النفطية بالنسبة لها، وبالفعل فإن فنزويلا

كانت إحدى مصادر النفط الخام الرئيسية للولايات المتحدة ولكنها اليوم في صراع ومشاكل معها وصلت لحد طرد السفراء ربما تتبعها قطيعة عامة سياسية واقتصادية.

(٣) التحكم بأسعار النفط العالمية

فهبوط أسعار النفط سيؤدي إلى انخفاض الإنتاج في المناطق عالية التكلفة، وسيقلل من عدد الدول المصدرة، وهنا لابد من التذكير بأن نفط بحر الشمال ونفط ألاسكا ما كان له أن يرى النور لولا ارتفاع الأسعار على إثر رفع أوبك الأسعار ثم المقاطعة النفطية العربية التي تلت ذلك الرفع في المقابل، خسرت الولايات المتحدة نحو ثلاثة ملايين برميل من إنتاجها اليومي بسبب انخفاض الأسعار في منتصف الثمانينيات وفي عامي ١٩٩٨م و ١٩٩٩م، ولابد من الإشارة هنا إلى أن معظم الدول الأوروبية واليابان والصين والهند تستورد نفط الخليج، ولحسن حظ أميركا أن هذه الدول وخاصة أوروبا واليابان لا تمتلك نفطاً صالحاً للاستهلاك في أراضيها، وعليه فإن قوتها الاقتصادية ترتكز بالأساس على النفط المستورد من الخارج وبالتحديد من الخليج، وسيطرة أميركا على هذا النفط سيعطيها المجال أكثر لتحديد كميات الإنتاج وكميات التوريد وأسعار النفط.. الخ، ما يجعل تطور الدول الأخرى ونموها الاقتصادي خاضعاً بطريقة غير مباشرة للإشراف الأمريكي.

(٤) سحب النفط من المناطق الغنية والمستقرة والآمنة

كان الاعتقاد لدى القيادة الأمريكية إن العراق بعد الغزو سيكون من المناطق الآمنة الخالصة الولاء للولايات المتحدة وستسيطر أمريكا على النفط العراقي بشكل مباشر (بعد تحرير العراق) بزعمهم والنفط العراقي معروف

بانخفاض كلف استخراجه، كما أن الولايات المتحدة أصبحت تعي تماماً أنها ليست وحدها على الساحة الدولية خاصة من الناحية الاقتصادية، وأن هناك دولاً عديدة تسعى للوصول إلى مستواها والتفوق عليها في المدى المنظور، وعليه كان لابد لواشنطن أن تعمل على إفشال وصول الآخرين إلى مستواها أو التحكم في عملية صعودهم إليها، فكان النفط الخليجي والعراقي هو الوسيلة.

(٥) تعزيز الخزين الاستراتيجي الأمريكي

حيث تقوم الولايات المتحدة منذ فترة طويلة بضخ النفط الوارد إليها من شتى المصادر في خزانات أرضية عملاقة لغرض رفع حجم الخزين الاستراتيجي الأمريكي، وقد كان بوش قد أصدر أوامره بعد هجمات١١ أيلول بزيادة الاحتياطي الاستراتيجي من النفط بمعدل ١٠٠ ألف برميل يومياً، تحسباً لوقوع هجوم قد يستهدف المنشآت النفطية الأميركية، وإن مواقع تخزين ذلك الاحتياطي من الأسرار القومية التي لا ينبغي إفشاؤها تحت أي ظرف، إن الولايات المتحدة تقوم بتخزين ٧١١ مليون برميل من البترول في أربعة مواقع مختلفة وبما يوازي إمداد شهرين كاملين وتحمل هذه الكمية وفق هذا الترتيب اسمها المعروف رسمياً (الاحتياطي الاستراتيجي النفطي).

إن هذا الاحتياطي الاستراتيجي ليس مجرد مؤسسة ظاهرة للعيان بقدر ما أن هذه الكميات النفطية المخزونة مودعة في مستودعات تقع على عمق آلاف الأقدام تحت الأرض ومحاطة بسياجات من المواد الملحية ومخفية عن الأنظار بل إن الصور المحددة لها اختفت، أو أزيلت مؤخراً وبالعمد من مواقع شاشات

الحواسيب، وقد تم إحاطتها بتعتيم كبير من السرية في ظل مخاوف من احتمال أن يصبح الاحتياطي الاستراتيجي نفسه هدفاً للإرهابيين.

(٦) مذكرة التفاهم الأمريكية – الإسرائيلية

في عام ١٩٧٥م وقعت الولايات المتحدة مذكرة تفاهم مع إسرائيل، ومن ضمن ما جاء في هذه المذكرة ضمان الولايات المتحدة لكل احتياجات إسرائيل النفطية في حال حدوث أزمة، وهذه المذكرة تجدد كل خمس سنوات وتلتزم الولايات المتحدة بموجبها إنشاء وتخزين احتياطي استراتيجي إضافي لإسرائيل بقيمة تعادل ثلاثة مليارات دولار عام ٢٠٠٢م، فلابد من توفير مصادر لهذا الاتفاق.

(٧) ضمان عدم استخدام النفط كسلاح في المعركة مستقبلاً

سواء ضد الولايات المتحدة أو إسرائيل وخاصة إن العراق كان عنصر الدفع بهذا الموضوع أبان حرب تشرين عام ١٩٧٣م.

تداعيات الغزو الاقتصادية

عندما احتلت قوات الولايات المتحدة الأمريكية بغداد، انتعشت حالة الأسواق الاقتصادية الأمريكية بسبب تلك الدفعة من التفاؤل لمستقبل الحرب في العراق، فالنهاية السريعة للحرب كانت جيدة للاقتصاد الأمريكي، وكان الأمر يبدو للوهلة الأولى بهذا المنطق، ولكن المتتبعين للوضع السياسي العالمي يقرأون الأمر برؤيا أخرى مختلفة بعيداً عن الأحلام الوردية التي وضعت أسسها في خبايا البيت الأبيض، فقد ذكر (جوزف ستيغيليتز) الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد و(ليندا بيلمس) مؤلفا كتاب: (حرب الثلاثة تريليون دولار)

قالا: (إن حرب العراق سوف تكلف الولايات المتحدة ثلاثة تريليون دولار على الأقل، ومن المحتمل أن تصل إلى خمسة تريليون دولار)[1].

والآن وبعد مرور أكثر من خمس سنوات على دخول القوات الأمريكية ومن معها العراق فإن الكلفة المعلنة للحرب لغاية الآن ٥٠٠ بليون دولار أمريكي، (على الرغم من إن الرقم الحقيقي أكبر من هذا بكثير) وحتى لو سلمنا لهذه الأرقام على إنها صحيحة، فإنها أرقام حري بمن يهمه الأمر التوقف عندها طويلاً.

والحقيقة أنه ما إن حطت القوات الأمريكية رحالها في بغداد كان هذا هو الإسفين الأول في نعشها، حين انطلقت أول شرارة للمقاومة العراقية مباشرة مع بداية الاحتلال وبدأت قصة الخسائر المادية والبشرية والمرتبطة بالجانب الاقتصادي سواء شاءت أمريكا أم أبت، فالجيش المقاتل بحاجة إلى رواتب ونفقات يومية وتجهيزات عسكرية ومدنية وطبية ومعدات وصيانة لهذه المعدات ووقود.... الخ، ناهيك عن الوحدات الكبيرة جداً التي تقدم الدعم اللوجستي بكل أنواعه والتي لا تقل في حجم إنفاقها عن الوحدات المقاتلة وكذلك الإنفاق في أبواب تجنيد مليشيات ضد المقاومة وتسليحها وتخصيص مرتبات ومكافآت لها وكذلك حجم الإنفاق الهائل لتعزيز القوات الأمريكية وغير الأمريكية في أفغانستان التي لا تقل شأناً عن الوضع في العراق، ولابد من الإشارة إلى أبواب الإنفاق الأخرى غير المبررة في العالم من دعم كل قوة معارضة في العالم سواء أكانت على حق أم لا من أجل زعزعة الاستقرار في

[1] (التريليون= ١٠٠٠ بليون و البليون= ١٠٠٠ مليون)

دول العالم كافة، هذه الإنفاقات كلها تتحول مع الوقت إلى عقد مريرة صعبة الحل في الاقتصاد الأمريكي وقد بدأ الاقتصاد الأمريكي بـالترنح منـذ عـام ٢٠٠٣م ناهيك عن الخسائر الكبيرة الناتجة عن ضربات المقاومة العراقية الـتي صارت شوكة في خاصرة الاقتصاد الأمريكي.

ويرى الكثيرون أن استمرار الحرب في العراق وأفغانستان واشتداد الضربات الموجهة من قبل المقاومة الشعبية في هذين البلدين على القوات الأمريكية مـن شأنها أن تزيد من تعقيد الوضع الاقتصادي، كما ولدت الحرب ضد العـراق وأفغانستان شكوكاً كثيرة أدت إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتراجع أسـواق الأسهم وانحسار فرص العمل، ولو أردنا أمثلة على ذلك، فقد قالت مؤسـسة (كنتري وايد) كبرى مؤسسات القروض العقارية في الولايات المتحـدة إنهـا تعتزم خفض وظائفها بواقع (١٢ ألف وظيفة) لوحدها أي نحو خُمس العاملين لديها لمواجهة الخسائر الناجمة عن أزمة الرهن العقارية في البلاد، أما مجموع من فقدوا وظائفهم لهذا العام ٢٠٠٨م فيتجاوز الربع مليون شخص، كما انخفض الدولار إلى أدنى مستوى له منذ ١٥ سنة مقابل العملات الأخرى، فعلى سبيل المثال وليس الحصر كانت قيمة الدولار قبل أربع سنوات قريبة جداً من قيمـة (اليورو الأوربي) أما الآن فقد ازدادت قيمة (اليـورو) بحـدود ٥٠% أمـام الدولار الأمريكي، (انخفض اليورو قليلاً أثناء الأزمة المالية الأخيرة) ولا يمكـن إغفال ما تسببه الأعاصير التي تضرب الولايات المتحدة بشكل مـستمر مـن إضرار بالاقتصاد الأمريكي تبلغ أحياناً عشرات المليارات من الدولارات ومـا تسببه من إيقاف المنشآت الاقتصادية وخاصة النفطية منها.

وعلى الرغم من مناورة الولايات المتحدة الأمريكية في زيادة أسعار النفط الخام لتصل أكثر من ١٠٠ دولار للبرميل الواحد في بعض الأحيان، لزيادة دخلها ورفع قيمة وارداها المالية، إلا إن ذلك لم يسعف الحالة على الإطلاق بل على العكس، حيث تضاعف عجز الميزانية الأمريكية ثلاث مرات خلال السنة المالية ٢٠٠٨م، ووصل إلى ٤٥٥ مليار دولار وهو أعلى رقم يصل إليه عجز الميزانية على الإطلاق، علماً أن العجز في الميزانية الأمريكية كان يتراوح بين (٣٠٠_٤٠٠) مليار دولار سنوياً للأعوام ٢٠٠٣م _ ٢٠٠٧م وهي سنوات الحرب، إضافة إلى موضوع العجز التجاري الأمريكي فإن زيادة أسعار النفط في العالم أدى إلى الزيادة في أسعار المشتقات النفطية وبالتالي الزيادة في أسعار النقل والإنتاج والسلع كافة مما يعني زيادة التضخم في العالم بشكل عام مع بقاء دخل المواطنين سواء في العالم العربي أو الأوربي على حاله أو زيادته بشكل لا يوافق حجم التضخم الحاصل مما ولد مشاكل شعبية هائلة وكساد هائل في السوق الاقتصادي على مستوى العالم.

أمام هذه التداعيات الخطيرة في الاقتصاد الأمريكي سعت الولايات المتحدة إلى التكتيم الإعلامي على الموضوع وتقديم حزمة من المحاولات لإسعاف الحالة المتردية بعيداً عن الإعلان عنها في وسائل الإعلام المحلية والعالمية، إلا أن ذلك لا يمكن أن يستمر على الدوام، حتى انفجرت الفقاعة بشكل واضح للعيان بما يعرف بـ (أزمة العقارات) أو ما تعرف بأزمة (الانكماش الائتماني) وقد أطلق البعض عليها (تسونامي الاقتصاد الأمريكي)، التي هزت الاقتصاد الأمريكي والغربي كذلك، ولابد هنا من الاستدلال بتصريح لأحد حلفاء الولايات المتحدة هو وزير المالية الألماني (شتاينبروك) عندما وصف التدمير الأمريكي

للنظام المالي العالمي بقولـــه: (إنَّ الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية الأزمـة المالية العالمية الراهنة، وقال إنها ستخلف آثاراً عميقة، وستحدث تحـولات في النظام المالي العالمي، وقال (شتاينبروك) في بيان حكومي أمام البرلمان الألمـاني: (العالم بعد الأزمة لن يكون كما كان قبلها) مشيراً إلى فقدان الولايات المتحدة صفتها كقوة خارقة في النظام المالي العالمي.

وألقى (شتاينبروك) باللوم في الأزمة على عاتق واشـنطن وحـدها فيمـا وصفها بحملة (إنغلوساكسونية) لتحقيق أربـاح كـبيرة ومكافـآت هائلـة للمصرفيين وكبار مديري الشركات.

إن الاقتصاد الأمريكي في خطر حقيقي وهذا المقال ليس خيالاً من بنيـات أفكارنا بل هو صرخة أطلقها متوسلاً بوش الابن حين قـال ولأول مـرة في تاريخ الولايات المتحدة: (اقتصادنا برمته في خطر) وذلك في أيلول ٢٠٠٨م، فلابد من النظر لحجم الكارثة التي تحل بالاقتصاد الأمريكي مما يحدو برئيـسها ليدلي بهذا التصريح الخطير، ولابد من الإشارة إلى بعض النماذج لمـا يحـدث داخل الولايات المتحدة، ومن ذلك اضطرار الاحتياطي الفيدرالي الأمريكـي (البنك المركزي) عن حزمة من الإجراءات لإنقاذ مجموعة التأمين الأمريكيـة (أمريكان إنترناشونال جروب/إيه. آي. جي)، وكشف عن أنه سيقدم قرضاً بقيمة ٨٥ مليار دولار للمجموعة مقابل سيطرته على حوالي ٨٠% منها.

إن تدخل البنك المركزي الأمريكي يعني فشل كل السبل لحل أو حلحلـة هذه الأزمة إلا بهذه الطريقة، وبنفس الوقت يعني انقلاباً كبيراً علـى مفهـوم الرأسمالية ونظرية الاقتصاد الحر التي تنتهجها الولايات المتحدة وهـو مفهـوم اشتراكي بحت حين تتدخل الدولة لإسعاف حالة في القطاع الخاص، وهـذه

الصورة إن دلت على شيء فتدل على حجم الخطر الكبير، كما أعلن بنك (ليمان براذرز)، وهو رابع أكبر مصرف استثماري في الولايات المتحدة إفلاسه وطلب من الجهات المختصة اتخاذ إجراءات طارئة لحمايته من الانهيار التام، وذلك وسط تصاعد حدة الأزمة المالية التي يشهدها الاقتصاد العالمي، وجاءت خطوة المصرف بعد تعرضه لخسائر بلغت مليارات الدولارات نجمت عن تعاملاته في سوق الإقراض العقاري في البلاد.

وتداعيات الانهيار الاقتصادي وأزمة البنوك لم تتوقف عند الولايات المتحدة وحدها، بل دبّ الخطر لينال البنوك الغربية أيضاً وخاصة في بريطانيا حليفة وشريكة أمريكا الدائمة فمنها بنك (لويدز) البريطاني الذي توصل إلى اتفاق اندماج مع مجموعة (أتش بي أو أس) في اتفاق بقيمة ١٢ مليار جنيه إسترليني لكي ينقذ هذه المجموعة من الانهيار، وتعني هذه الخطوة قيام كيان مصرفي كبير جداً يتبعه قرابة ثلث المدخرات والقروض العقارية في بريطانيا بقيمة ٣٠ مليار جنيه إسترليني من أجل مواجهة الأزمات المالية الحالية وكذلك المتوقعة في المستقبل، وتعد مجموعة (أتش بي أو أس) أكبر كيان للإقراض العقاري في بريطانيا بنسبة ٢٠% من السوق بينما يحتل (لويدز) المركز الرابع في هذا المجال بنسبة ٨%، أما في ألمانيا فقد توقع مصرف (آي كي بي إنداستري) الألماني خسارة بين ستمائة وسبعمائة مليون يورو (بحدود ٩٥٠ مليون دولار) خلال العام المالي الحالي بسبب تأثير أزمة خسائر القروض على الرغم أن الحكومة الألمانية قدمت مساعدات للبنك الشهر الماضي لمساعدته في تجاوز هذه الأزمة التي جعلته على وشك الانهيار.

وكما اعترف من قبله بوش بخطورة الوضع الاقتصادي الأمريكي فقد تابعة وزير المالية البريطاني (اليستر دارلينج) باعترافه (بأن بلاده تواجه أسوأ أزمة اقتصادية خلال ستين عاماً) وأضاف في لقاء مع صحيفة (الجارديان): إن التراجع الاقتصادي سيكون أكثر حدة واستمرارية مما يخشاه معظم الناس، وجاءت تصريحات وزير المالية البريطاني بعد حزمة من الأخبار الاقتصادية السيئة غير المنقطعة، حيث هبطت أسعار المنازل إلى أدنى مستوى لها منذ ١٨ عاماً، وتشير أحدث الإحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن مايقارب من ستة ملايين مواطن أمريكي فقدوا وظائفهم في ولاية الرئيس بوش الابن فضلاً عن أن ستة ملايين عائلة قد هبطت من الطبقة الوسطى إلى الطبقة الفقيرة.

أمام هذه التداعيات الخطيرة في الجانب الاقتصادي بدأ المعنيون بالشأن الاقتصادي العالمي بإعلان صيحات الإنذار من خطورة الموضوع وإمكانية تفاقم الوضع ومن ذلك تحذير مدير صندوق النقد الدولي في أيلول ٢٠٠٨م من أن الأزمة المالية سيكون لها نتائج طويلة الأجل على الاقتصاد العالمي، وقال: إن الاقتصاد العالمي سيواجه كساداً طويل الأجل، وحذر مدير صندوق النقد الدولي الحكومات الأوروبية من التوسع في الإنفاق العام بشكل يؤدي إلى زيادة الديون العامة لأنه من الخطأ (إضافة ديون جديدة إلى الديون القديمة) لمواجهة الأزمة.

وبما أن الاقتصاد يرتبط ارتباطاً مباشراً بالسياسة فهذا يعني أن تقلبات سياسية تحدث أيضاً، فلقد بدأت العديد من الدول بتغيير مواقفها السياسية حين رأت أن الفرصة سانحة وأن الولايات المتحدة الأمريكية ليس بالصورة التي



ترسمها للعالم، فبدأت بعض الدول من التخلص من الدوران في مدارات الولايات الأمريكية ومثال ذلك (فنزويلا) التي كانت من كبار مصدري النفط للولايات المتحدة، فقد بلغ الحال إلى مرحلة طرد السفراء من الدولتين، وكذلك ما أقدمت عليه كوريا الشمالية من أنها ستعود لتكمل برنامجها النووي بعيداً عن تسلط الولايات المتحدة وفرق التفتيش فضلاً عن الموقف الإيراني المعادي علناً للولايات الأمريكية وتدخلها بشكل ملفت للنظر في العراق سواء في الجانب السياسي أو الأمني أو الاقتصادي، بل لابد من القول بفصيح العبارة: إن المستفيد الأول اقتصادياً من الاحتلال الأمريكي للعراق هي إيران، وغيرها من المواقف التي تؤثر بشكل مباشر في الاقتصاد الأمريكي والعالمي ولأول مرة في تاريخها دعت الدول الأوروبية الأربع الكبرى (فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا) الأعضاء في مجموعة الثماني إلى "إعادة تشكيل النظام العالمي في أسرع وقت "وكذلك" إعادة النظر في قواعد الرأسمالية المالية"، وذلك في قمة عُقدت في باريس في تشرين الأول ٢٠٠٨م، أمام هذه التحديات الخطيرة اضطرت الولايات المتحدة لعمل خطة من شأنها أن تضخ٧٠٠ مليار دولار لتجاوز الحالة ومنع الانهيار الاقتصادي، كما ضخت اليابان مئات المليارات وألمانيا وغيرهما من دول العالم، إن ضخ هذه الكتلة الكبيرة من السيولة سيعاني منها المواطن الأمريكي بسبب ما سيحصل من تبعات التضخم الناتجة عن ضخ سيولة عالية في زيادة التضخم وما يتبعه من كساد وكذلك سيعاني المواطن الأمريكي من عقدة تسديد الضرائب التي ستقوم الدولة بتعويضها لرفد الخزينة المركزية مرة أخرى ناهيك عن التزايد الهائل في البطالة، حيث ذكرت وزارة

العمل الأمريكية في آخر إحصائية رسمية لها إن عدد العاطلين في الولايات المتحدة هذا العام بلغ أكثر من ربع مليون عاطل كما ذكرنا!.

وتوسعت الأزمة وتمددت و لم تقف عند حدود الولايات المتحدة بل وصلت أوروبا وآسيا والمنطقة العربية وأُتبعت سياسة ضخ السيولة، فأوروبا ضخت مئات الملايين واليابان تضخ عشرات المليارات، وهذه الإجراءات ليس حلاً بالطبع بل مخدراً مؤقتاً لأن البنوك الكبرى أنفقت رؤوس أموالها كقروض عقارية بشكل مستمر لسنوات طويلة مما أدى إلى ارتفاع غير حقيقي في أسعار العقارات بلغ في بعض الأحيان١٠٠%، أمام هذه الحقيقة فإن استرداد رؤوس الأموال أصبح أمراً أشبه بالمستحيل بل هو المستحيل بعينه لهذا فإن الأموال ستسجل خسائر حقيقية.

وقد كشفت آخر الدراسات وأحدثها في الولايات المتحدة أن الأزمة التي تعصف بالاقتصاد الأمريكي لا تؤثر على "وول ستريت" دون سواه، بل الشريحة العظمى من الأمريكيين، وأظهر المسح السنوي الذي أجرته (جمعية علم النفس الأمريكية) أن نحو٨٠% من الأمريكيين يعانون من الإجهاد النفسي قلقاً على أوضاعهم المالية الشخصية والاقتصاد عموماً، وأكدت الرئيسة التنفيذية للجمعية أن أبرز أسباب الضغوط النفسية خلال الأعوام السابقة، تمثلت في الأوضاع المالية الشخصية والعمل، بالإضافة إلى القضايا المتعلقة بتنشئة الأطفال، وأردفت: "هذا العام القلق على صعيدي المال والاقتصاد قفز ليحتل المرتبة الأولى، وإنها خلال خبرتها الممتدة على مدى ٣٠ عاماً، لم يكن هذا في سلم الأولويات أو على رأس قائمة الشكاوى".

وقد شمل المسح الذي أجري خلال الفترة من نيسان إلى أيلـــول ٢٠٠٨م، قرابة ٧ آلاف أمريكي، وخلال فترة المسح التي امتدت لفترة خمسة أشهر قفز الهلع على الاقتصاد من ٦٦% إلى ٨٠%، وأعرب نصف من شملهم الاستطلاع عن تزايد هلعهم بشأن قدراتهم على تزويد أسرهم بأبسط احتياجات الحيـــاة، فيما تخوف أكثر من النصف أي ٥٦% من مخاوف بشأن الاستقرار المهني وفي دراسة أخرى أعرب أكثر من ٥٠ % من الأمريكيين أن القادة الأمريكيون هم المسؤولون بالدرجة الأساس عن كل ما حصل وفي كل الجوانب.

وتُرجمت المخاوف الأخيرة في واقع الحال إلى إنتاجية أقل في العمل جـــراء الهلع على الراتب وحجم العمل الهائل فضلاً عن الفزع حول مدى عدم تـــأثر الوظيفة، وبينت الدراسة أن النساء أكثر قلقاً من الرجال فيما يتعلق بالاقتصاد، والمدخرات الشخصية، والتكلفة المعيشية واستقرار الوظيفة، وجاء في المـــسح: "تراجع حال الاقتصاد القومي يستنـــزف المواطنين بدنياً ونفسياً، والنساء هن من يتحملن الشق الأكبر من الإجهاد الاقتصادي، وعَزت (باربرا غولد) نائب رئيس "معهد أبحاث سياسة المرأة" كون النساء يشعرن بأنهن أقل أمانـــاً مـــن الناحية الاقتصادية عن الرجال، وأضافت: "النـــساء يقلقـــن أكثـــر بـــشأن مدى الأمان الاقتصادي وهن الأكثر ترجيحاً لأن يعانين الفقر عند التقـــدم في السن من الرجال"، وأدى تراكم الضغوط بـــ٦٠% من المستطلعين للإفـــضاء عن مشاعر الغضب والتوتر التي تنتابهم، وأعـــرب ٥٦% عـــن إحـــساسهم بالإرهاق، فيما أشارت شريحة أخرى (تقريباً٥٢%) إلى أن القلق يحرمها النوم طوال الليل، وتحدث ٤٧% عن إصاباتهم بنوبـــات صـــداع، و٣٥% عـــن اضطرابات معوية، ويعاني ٣٥% من توتر عضلي جراء الإرهاق النفسي.. من

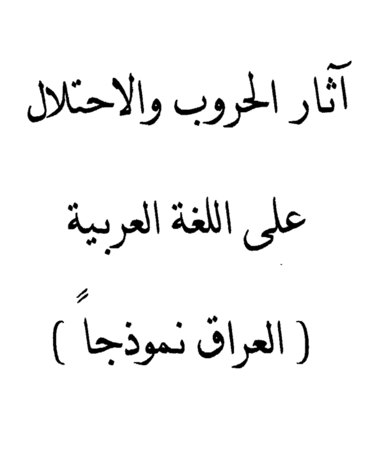
أجل كل هذا عبرت الجماهير المكبوتة في أمريكا والتي دفعت من جيبها ومن عمرها ضريبة أخطاء بوش ومساعديه، فقد عبرت عن ذلك في الانتخابات الرئاسية الأخيرة في تشرين الثاني ٢٠٠٨م، حين قالت كلمتها برفض سياسة الحروب والخسائر العسكرية والاقتصادية التي ينتهجها الجمهوريون بشكل عام وبوش بشكل خاص، وأدلت بأصواتها بشكل ملفت للنظر لسياسة التغيير التي وعد بها أوباما.

وفي أول مؤتمر صحفي لـ (أوباما) الرئيس الأمريكي الجديد، أكد هذه الحقائق حين قال إن هناك أكثر من ١٠ ملايين أمريكي عاطل عن العمل (وهو ما يعادل ٦,٥% من المجتمع الأمريكي) وإن إصلاح الاقتصاد لن يكون بالأمر الهين.

لقد شوهد الآلاف ممن كانوا في طريقهم للانتخابات في عمليات استطلاع الرأي يُسألون من قبل الصحافة، من ستنتخبون: فكانوا يجيبون بلا تردد بأنهم سينتخبون (أوباما) من أجل التغيير وكانوا يقولون: حرب خاسرة واقتصاد منهار فلم لا ننتخب (أوباما)؟.

الخاتمة: يتضح لنا من خلال ما تم استعراضه أنه كان ومازال للولايات المتحدة الأمريكية مطامع اقتصادية كبيرة في العراق وفي المنطقة، وقد اتبعت لتنفيذ مآربها أساليب وطرقاً غير مشروعة ومخالفة لكل القيم والأعراف الإنسانية، أدت بها إلى ما آلت إليه الأمور من أسوأ الأوضاع، وأثبتت لنا الأيام أنه (لا يصح إلا الصحيح)، فالظالم له نهاية ونهاية الظلم سوداء، والاقتصاد الرأسمالي مبني على وهم لأنه خالف السنن الكونية الإلهية، فالربا نظام ماحق وهالك، وهو أساس الاقتصاد الرأسمالي، وجعل الأموال بيد فئة متنفذة من

الرأسماليين والمحتكرين ليذلوا الناس ويتحكموا بمصائرهم، مخالفة وتحدٍ لله سبحانه وتعالى، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الحشر من الآية (٧)، وعلى الرغم من كل ما تفعله أمريكا ومعها الدول المنضوية تحت لوائها من إجراءات فإنها سوف لن تنفع، فنراها ساعة ترفع أسعار النفط وأخرى تخفضه وبنسب لا تتوافق مع المتغيرات الاقتصادية، ونراها ساعة ترفع الدولار أمام بقية العملات وأخرى تخفضه، كما قامت بتخفيض كمية النفط المصدر في أوبك بمقدار مليون ونصف المليون برميل يومياً، فمحاولات الولايات المتحدة الأمريكية من ضخ العملة وتقليل سعر النفط الخام والتلاعب بالعملات قابلها الركود الاقتصادي وتسريح مئات الآلاف من المواطنين من وظائفهم والتضخم وفقدان الآلاف لمنازلهم ومشاكل اقتصادية لا حصر لها، وإن ما أصيبت به من ضرر لا يمكن السكوت عنه ولا تلافيه بسنة وسنتين وثلاث، بل هناك خسائر لا يمكن استرجاعها بأي ثمن، وبغض النظر عما ستؤول إليه الأمور من سوء أو نجاح فإن الاقتصاد الأمريكي مع بقاء هذه السياسات العامة هو اقتصاد هالك لا محالة، ومهما أنفقت ومهما حاولت سوف لن تجني سوى المزيد من الخسائر والخيبة، لأن الله عز وجل قد توعدهم بذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) الأنفال (٣٦).



آثار الحروب والاحتلال

على اللغة العربية

(العراق نموذجاً)

د. أحمد قاسم كسار/ ماليزيا



آثار الحروب والاحتلال على اللغة العربية
العراق نموذجا

د. أحمد قاسم كسار[1]

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فليس من شك لأثر العربية في ثقافة المسلمين وعلاقة ذلك بالبناء الحضاري، ومن صروف الحياة موضوع الحروب والاحتلال، وللتعرف على ذلك وتحليل مخلفات هذا الموضوع ورواسبه على اللغة العربية اخترت هذا العنوان.

واخترت العراق ـ بلدي الحبيب ـ نموذجاً لأسباب من أهمها أنه خير عيِّنة للدراسة والبحث؛ لأنه يمثل ثقل اللغة العربية بمدارسها وعلمائها وتصانيفها وطلبة علمها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد شهد هذا البلد أنواع الحروب، ودخلت فيه أشكال الاحتلالات، وشهدت أرضه معارك عدَّة، وكانت اللغة العربية في ذلك كله لها حضور ووجود، وتأثر وتأثير، وهذا من أقوى الأدلة على حيوية لغتنا، وقدراتها على التعايش في مختلف الظروف والأحوال.

ومن ثَمَّ فإنَّ البحث فيه دلالة مفهوم المخالفة التي تعكس صورة في أبسط معانيها أنَّ الأمن والأمان والاستقرار والتمكين وغيرها من مفردات العيش

(1) محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية دار الرضوان الإسلامية في ماليزيا، وباحث عراقي له عدد من المشاركات البحثية في الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، وللتواصل مع الباحث على البريد الالكتروني: Dr.Ahmad77@YAHOO.COM

الرغيد بكل ألوان السلام عامل من الأهمية بمكان لتطور وازدهار اللغة العربية تعلماً وتعليماً، وبالمقابل فإن الحروب والاحتلال والاقتتال والعنف والفوضى والمشاكل المماثلة لهذه عوامل لا تخفى آثارها السيئة على تدهور مستوى اللغة العربية وضعفها واضمحلال إنتاجها العلمي والمعرفي المساهم في البناء الحضاري للأمة، ومن رؤية أخرى أقول إن ثقافة المحتل ومدى تحضر العدو يعكس آثاره سلباً أو إيجاباً على اللغة العربية من حيث الاهتمام والتطوير أو الطمس والتدمير، كما وإن العراق بلد تعايشت فيه اللغات بكل سلام مع العربية، إلا أنها في أوقات يشتد الصراع الحضاري والثقافي بينها فيكون أُكُلها في ساعات التفاعل طيباً وفي ساعات التصادم علقماً.

إنني على اعتقاد قريب من اليقين أن اللغة العربية في تاريخها تشكل لبنة من الأهمية بمكان في صرح حضارة الأمة الإسلامية وكيانها في مواجهة التحديات من جهة، وفي البناء الحضاري من جهة أخرى، وهذا ما سنجده رأي العين في بلاد الرافدين.

أعان الله لغتنا، وحفظها كما حفظ كتابه الكريم، وسلّمها لنا، وسلّمنا لها، وجعل جميع المسلمين من أهلها إن لم يكن نسباً فلساناً، وحرر عراقنا وجعله بلداً آمناً مستقلاً مستقراً وسائر بلاد المسلمين، آمين ..

التمهيد: وصف البحث:

أهداف البحث

(١) الكشف عن حقب تاريخية ماضية، والتحقيق في أحداث واقعية جارية، كيفية تعامل العدو المحارب والمحتل الغازي الأجنبي مع اللغة العربية في بلاد العرب والمسلمين.

(٢) التعرف على مدى تأثر وتأثير اللغة العربية في ظل الحروب والاحتلال، ومدى انعكاس ذلك على ثقافة المسلمين، وتقويم لأداء إسهامات اللغة في البناء الحضاري
للأمة الإسلامية في تلك الأوضاع.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في جرأة طرحه لهذا الموضوع، فضلاً عن حداثته، وكونه غير مسبوق بالبحث المنهجي العلمي من قبل، وكذلك دوره في تعريف الوسط العلمي بضرورة المحافظة على اللغة العربية في زمن الهجمات العسكرية والعلاقات السياسية والغزوات الفكرية التي تتعرض لها أمتنا الإسلامية، والقيام بدور لغوي رائد للدفاع عن لغة القرآن الكريم والمحافظة عليها؛ لأنها لسان حضارتنا الإسلامية ورمز هويتنا وانتمائنا لهذا الدين.

أسئلة البحث

يحاول البحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

السؤال الأول: هل تتأثر اللغة العربية بالحروب والاحتلال؟ وهل هناك آثار إيجابية، أو سلبية فقط؟.

السؤال الثاني: لماذا العراق نموذجاً؟ وهل إخضاع تجربة العراق اللغوية في خضم الحروب والاحتلال كافية لتوصيف صورة البحث وتقريب الغاية من الأهداف؟.

السؤال الثالث: ما هي آثار الحروب والاحتلال على العراق قديماً وحديثاً؟.

السؤال الرابع: هل اللغة العربية في حسابات مخططات الأعداء ومن أهداف

المحتلين؟ وما مدى التنبه والتيقظ لتلك المؤامرات من خلال التعامل العسكري والسياسي والثقافي؟.

السؤال الخامس: ما هو الدور المناط بأساتذة اللغة العربية وعلمائها وشيوخها المعاصرين، وكذا طلاب علمهم، للدفاع عن لغتهم، وما هي المحاولات الجادة للبناء مقابل موجات الهدم؟.

حدود البحث

حدود البحث لا يتجاوز العراق، اللهم إلا ما يتطلبه البحث من تعريف بإيجاز عن الأقوام الغازية والدول التي حاربت العراق واحتلته، وهذا التحديد من أجل التقيد مكانياً بعيّنة للدراسة الميدانية، ومن ثم فإن الباحث هو ابن البلد نفسه، وحديث عهد بالخروج منه، ومن المتابعين له إخبارياً بمشاركات إعلامية داخل العراق وخارجه.

منهج البحث

(١) اعتماد المنهج الاستقرائي الوصفي للحروب والاحتلال وملابساتهما في الساحة العراقية.

(٢) اعتماد المنهج التحليلي للوقائع، وقراءة نقدية للمواقف المتباينة.

(٣) اعتماد المنهج الميداني من خلال الكشف عن آثار اللغة العربية في أحداث الحروب والاحتلال.

خطة البحث

جاءت خطة البحث في مقدمة وتمهيد لوصف البحث وثلاثة مطالب رئيسة وشاملة لموضوعه، ومؤدية للغرض المقصود.

المطلب الأول

أرضية العراق اللغوية

يتضح من تاريخ العراق أنّه كان يمثل صراعاً بين كل الشعوب الوافدة إليه، ولاشكَّ أن اللغة واحدة من تلك الصرعات، واستطاع العراقيون أن يحدثوا تمازجاً وتعايشاً لغوياً بين مختلف الفئات المتعايشة على أرض الرافدين من العرب، والصابئة، والكلدان، والسريان، والآشوريين، والأكراد، والتركمان، وقد كان لعامل الدين الإسلامي والهوية العربية للبلد أن تكون اللغة العربية هي أداة التواصل بين هذه المجموعات ذات الجذور الأعجمية والأجنبية، وساهم في ذلك عنصر التصاهر والتجاور والتجارة والدراسة وغيرها، فقد نطق بالعربية في العراق ممن ليسوا من العرب، وتحدثوا اللهجة العراقية العامية مع شيء من اللكنة والعجمة الواضحة والمعهودة في ألسنة بعضهم.

نستثني من ذلك الأكراد الساكنين في حدود العراق الشمالية والشمالية الشرقية المجاورين لإيران وتركيا الواقعين على خط طول هلالي من تل عقرة وتلعفر في محافظة نينوى الشمالية إلى مندلي وخانقين في محافظة ديالى الشرقية، حيث تكاد تنحصر اللغة العربية أو لا تكاد أصلاً عند بعضهم.

ويتكلم باللغة العربية أكثر من٨٠ % من سكان العراق، كما يتكلم بها معظم أهل اللغات الأخرى الساكنين في العراق كالأكراد والفرس والأرمن والكلدان والشركس واللاجئين وغيرهم، ولذا يمكن القول بأن نسبة المتحدثين باللغة العربية في العراق قد ترتفع إلى نحو ٩٧% من مجموع سكان



العراق[1]، ويتكلم بعض العراقيين اللغة الكردية ويتحدث بها حوالي ١٥ % من سكان العراق وهي لغة الغالبية من الزيدية ذات الأصول الفارسية القديمة، وأما اللغة التركية والتركمانية فيتكلم بها مجموعة من السكان تقدر نسبته بحوالي ٩،١ % من مجموع السكان، ومن الجدير بالذكر أن اللغة التركية دخلت العراق مع العثمانيين الأتراك، وأما اللغة التركمانية فدخلت العراق في عهد المغول، ومن اللغات الأخرى في العراق الآرامية وهذه جاءت العراق مع السريان الوافدين للعراق من سوريا، وهي لغة الكنيسة في العراق، ويتكلم بها المسيحيون السريان والكلدان ويشكلون نسبة ٣،٠٠% من مجموع سكان العراق، وكذلك اللغة الآثورية تشكل النسبة نفسها وهي لغة منعزلة في المناطق الجبلية الشمالية، وأخيراً اللغة الأرمينية وهي لغة من نزح للعراق بعد الحرب العالمية الأولى، ولها أبجديتها الخاصة، ونسبتهم ٠،٢ % فقط[2].

وعلى أرض العراق نشأت العلوم اللغوية، فوضعت قواعد النحو العربي وصرفه في البصرة، وخولفت بالأقيسة النحوية في الكوفة، وجمعت أصولهما بغداد، وراج الشعر ورواته في العراق في المربد وكناسة وغيرهما من مجالس الأدب والسماع. وبعد أن كان العروض سماعياً في شبه الجزيرة العربية، قيّد أوزاناً وتفاعيل في العراق، وصنف في العراق أُمّات الكتب والمؤلفات في اللغة العربية وعلومها وآدابها فضلاً عن الترجمة منها وإليها، وإذا كانت القراءات القرآنية سبعة فإن أربعة منها لقراء عراقيين، وإذا كانت عشرة فستة منها حصة

(١) انظر : سكان العراق : ١٩.

(١) انظر : سكان العراق : ١٩.

العراق، وإذا كانت أربعة عشر فتسعة منها هـــي في أرض الرافـــدين الطيبـــة المباركة.

المطلب الثاني

آثار الحروب والاحتلال الإيجابية على اللغة في العراق

فيما يأتي بيان لأهم المحطات التاريخية التي أثْرت اللغة وعلومها بشكل عـــام من خلال تعاقب الدول والأقوام التي حكمت العراق، وأثـــر التـــدافع بـــين السلطات الحاكمة على هذا البلد بـــالنظر إلى خلفيـــاتهم العلميـــة والثقافيـــة والحضارية.

كتابة اللغة: بدء النشاط البشري في العراق في حـــدود ٦٠٠٠ ســـنة ق.م في العصور الثلاثة التي اصطلح عليها المؤرخون بالعـــصر الحجـــري: (القـــديم، والأوسط، والحديث) حيث شهدت الحضارة العراقية تطوراً كبيراً، وقد تـــوج هذا التطور بابتكار الكتابة ــ لأول مرة في تاريخ الكتابة والقراءة ــ إذ عثر على أول نموذج لها بهيئة صورية في مدينة الوركاء، وقد امتد تأثير الحضارة السومرية العربية إلى العيلاميين في إيران، وبلاد الأناضول، ومصر، كما يعطي فكرة عن حجم التطور الذي انتهى إلى ظهور أول أشكال السلطة وبداية عصر حضاري جديد[1].

ويتفق المؤرخون على أن الإنسان العراقـــي القـــديم يقـــف وراء التطـــور الحضاري، وهو صاحب رسالة التطور النوعي للمجتمع والانتقال بـــه مـــن البدائية إلى الحضارة والمدنية، فالعراق مهد الحضارات التي عرفهـــا الإنـــسان

[1] : المسلمون في العراق: ١٠.



باسم: (بلاد وادي الرافدين) أو: (بلاد ما بين النهرين) أو: (وادي الرافدين)، وعرف أهلها بدايات التنظيم الاجتماعي والسياسي للإنسان القديم، ويرجع أصل سكان العراق إلى القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين[1].

وفي تراث العراقيين القدماء البدايات الأولى للكتابة في مرحلة التصوير والرسم للمحسوسات والمخلوقات التي تعيش إلى جانب الإنسان، والثابت في الدراسات التاريخية والبشرية أنّ السومريين سكان العراق الأصليين كانوا يكتبون على الطين بخطهم المسماري القديم الفنون والثقافة في عصر فجر السلالات السومرية[2].

وعندما جاء الأكاديون حلت اللغة الآكادية محل السومرية في هذا العصر، فعندما أقام الأكديون دولتهم على أنقاض دولة السومريين، أخذوا الخطّ المسماريّ منهم؛ طوّروه وأدخلوا عليه الرسم الصوتي المقطعي، وأجروا تعديلات فنية على الخطوط فبعد أن كتبوا من الأعلى إلى الأسفل أخذوا يكتبون أفقياً من الشمال إلى اليمين[3].

وتعاونت أكد وسومر في بناء الحضارة، ومثلت لغة الشعبين وحدة لغوية بينهما، فطوروا النظام اللغوي الصوري إلى شكل الكتابة الرمزية المسمى بالخط المسماري، وهم أول من أسس النظام التعليمي المركزي (نظام المدارس)[4].

---

[1] انظر : المصدر نفسه .

[2] انظر : أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية : ١١٧

[3] انظر : أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية : ١١٧

[4] انظر : الدولة العباسية : ١١٩

نظام القراءة والكتابة في المدارس: إذا ذكرت المعرفة واللغة والثقافة في العصر البابلي الأول فينحصر الكلام في جهود الملك السادس حمورابي في هذا المجال أو تكاد، فقد حكم سلالة بابل الأولى (١٧٩٣_١٧٥١ق.م) تمكن خلالها من توحيد العراق بعد أن كان ممزقاً إثر سقوط سلالة أور الثالثة إلى عدة ولايات، واهتمَّ ببناء المدارس، إضافة إلى دور العلم والمعرفة في المعابد، وشجّع حركة جمع التراث الفكري، ومن أشهر أعماله مسلة حمورابي التي دوّن عليها تشريعاته وقوانينه[١].

التأليف اللغوي وجمع التراث: منذ عصر البابليين المبكر أخذ العراقيون القدامى في التدوين، وبدأت أول مرة حركة العناية بتراث العراق القديم وتدوينه وإعادة كتابة الملاحم السومرية، وازدهرت الثقافة والأدب والفنون، وقد شهد هذا العصر أقدم نسخة من ملحمة كلكامش التي خلدت مآثر ملك سلالة الوركاء الأولى وهي من أشهر النتاجات الأدبية اللغوية في تاريخ الحضارات القديمة، وإلى هذا العصر تعود قصة الطوفان وقصة الخليقة البابلية وغيرهما[٢]، وعرفت الإمبراطورية الآشورية وقاعدتها نينوى بشمال العراق بأنها دولة حربية ما تخرج من حرب إلا لتدخل في حرب أخرى، ولكن في الحقبة (٩١١_٦١٢ق.م) ازدهر تاريخ الآشوريين الثقافي، واشتهروا بإبداعهم الحضاري وشهدت مدنهم تطوراً ثقافياً وحضارياً، ولا سيما تلك التي حوتها مكتبة آشور بانيبال وكانت سجلاً للحياة العراقية القديمة.

---

(١) انظر:موسوعة دول العالم الإسلامي : ٨٣/١.

(٢) انظر:موسوعة السياسة: ٤/مادة (العين) .

وكذلك يتميز عهد الكلديين ببعث الثقافة العراقية القديمة ولا سيما في حقول الأدب والعلوم والمعارف الأخرى والاهتمام بالماضي وجمع مخلفات الملوك العظام وهو اتجاه واضح في حياة الملوك الكلديين، ويذكر أن البابليين في عصرهم الثاني اتجهوا إلى الأدب وإحياء التراث واستثارة الهمم والتجارة عندما خضع مجتمعهم للاحتلال[1].

المحافظة على اللغة والثقافة والهوية: شهد العراق في المدة: (٥٣٩ إلى ٣٢١ق.م) غزواً فارسياً بقيادة الملك كورش الإخميني الذي احتل مدينة بابل واتخذها عاصمة مُلكه، وكان هذا الغزو بداية لفترة احتلالية طويلة تعددت فيها الأطراف التي مارست احتلال العراق، شهد العراقيون فيه سياسية توطين الفرس وبخاصة رجال الدين المجوس ببلاد بابل في محاولة لفرض طبقة ثقافية وثقافة دخيلة على المجتمع، وقام الفرس بإقصاء الكهنة والكتاب البابليين، إلا أن العراقيين لم يرضوا ذلك؛ سرعان ما اتحدوا ونشطوا في دور علمي وفكري ظهرت نتائجه في وقت لاحق في حين لم يستطع الفرس خلق أي ثقافة في العراق وبقوا فيه محتلين يمتلكون القوة ولا يمتلكون الإبداع[2].

وازداد تمسك المجتمع بثقافته الوطنية وأصبح اسم نبوخذنصر رمزاً للوطنية آنذاك، واتخذه اسماً كل ثائر ظهر في بلاد بابل مما يدلل على فعل الذاكرة التاريخية في صنع المواقف السياسية، ويظهر من قوائم أسماء المولودين في عهد الاحتلال تدني نسبة الذين سموا أبناءهم بأسماء فارسية على خلاف الفرس الذين

[1] انظر : موسوعة السياسة: ٤/مادة (العين).

[2] انظر : تاريخ العراق — منبر الحقيقة :٦

انتقلوا إلى العراق واليهود الذين اتخذوا الأسماء البابلية بكثرة، ولم يعتنق السكان العراقيون الديانة الزرادشتية، ولم تكشف البقايا الآثارية أية آثار لمعبد نار في العراق[1].

الصراع اللغوي القومي بعد الموجة الفارسية: جاءت إلى العراق بالتعاقب موجات غزو فارسية بدأت بالأخمينيين فالسلوقيين فالفرثيين فالساسانيين، ومع هذه الاحتلالات فقد ظهرت بعض الممالك العربية الصغيرة التي تشبه دويلات المدن للتعبير عن استمرار العطاء الحضاري العربي حتى في أوقات الضعف السياسي، مثل دولة الحضر (مدينة العرب الصحراوية)، والتي اشتهر من ملوكها (سنطرق ملك العرب)، ودولة المناذرة في الحيرة التي برز فيها من الملوك النعمان الأول (٤٠٠ـ ٤١٨م)، والنعمان بن المنذر (٥٨٠ـ٦٠٢م)، وذاع صيتها بمعركة ذي قار مع الفرس الساسانيين، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم[2].

ارتباط اللغة بالدين: بعد معركة القادسية أصبح العراق جزءاً من الدولة الإسلامية، ودخلت اللغة العربية إلى عموم العراق وأرجائه مع الفاتحين، وكان لنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، واختيار نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أفصح من نطق بالضاد من قريش، كان أثر ذلك أن ارتبطت اللغة العربية بالإسلام، وكان لارتباطها شرف وتعظيم من جهة تلك الرابطة والعلاقة، وكان لها ارتباط آخر من جهة وقوفها في الخطوط الأمامية عند كل

(1) انظر : المصدر نفسه .

(2) انظر: معجم البلدان : ٢٩٤/٤.

مواجهة ضد الإسلام والمسلمين لتصدي الهجمات، وهذه الحالة الأخيرة مما لا يخفى على أحد أنَّ الأيام زادهما قوة وحيوية أكثر مما زادهما ضعفاً وهواناً، لأن حفظ اللغة ارتبط بحفظ القرآن هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد جعلت لسان كثير من المنتمين لهذا الدين من غير العرب، ولذلك يجب على العرب وغيرهم الدفاع عن لغة دينهم، فيجب أن يعلم أنه ليس الهجوم على اللغة العربية كونها أداة للتفاهم والتخاطب والمحادثة فحسب؛ بل لأنها لغة الإسلام، واللغة التي حفظت وحملت تراث المسلمين وحضارتهم عبر خمسة عشر قرناً، ومن هنا ركز الأعداء على إضعاف اللغة العربية ومحاربتها[1].

الدعم العربي للعراق لغوياً: أدركت الخلافة الراشدة المهدية أهمية العراق بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (أهل العراق كنز الإيمان، وجمجمة العرب، وهم رمح الله عزَّ وجلَّ)[2]، فهاجرت من بلاد العرب قبائل كثيرة ونزلت العراق، وكان الأساس في تعريب هذا البلد بعد أن عاثت فيه الرياح الفارسية، واستبدلت لغة الإسلام العربية اللغة الفارسية والسريانية وغيرهما في العراق، ولم تمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فيه، ومن ثمَّ ما هو معلوم أنَّ اللغة العربية لم تتراجع من أرض دخلتها[3]، ولما هجر الدين اللغات الأعجمية في العراق، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت الألسنة الأخرى كلها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر

---

[1] خصائص اللغة العربية، ولماذا يجب تعلمها: ٨٣.

[2] تاريخ بغداد : ٥٢/١.

[3] خصائص اللغة العربية، ولماذا يجب تعلمها.

الإسلام وطاعة العرب، وهجرت الأمم لغاهم وألسنتهم في الأمصار والممالك جميعها، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في أمصارهم جميعها، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة وغريبة[1]، هذا هو عين أثر النصر في المعركة اللغوية ودور الدعم في مساندة القضية اللغوية حينما تهدد بالخطر، ومن هنا يأتي قول العلامة ابن خلدون: (أنَّ المغلوب مولع أبداً الاقتداء الغالب في سائر أحواله، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تفتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه)[2].

المدارس النحوية: شيّدت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) البصرة والكوفة بعد فتح العراق، ليكونا من بعد مقرين رئيسين للإدارة الإسلامية في العراق، وقد أقام الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالكوفة معظم أيام خلافته.

وفي هاتين المدينتين أنشئت المدارس النحوية، والمقصود منها هي الاتجاهات والمذاهب التي تختلف وجهات نظرها في بعض المسائل النحوية، وقد كان وضع النحو ونشأته في العراق؛ لأنَّه كان على حدود البادية، وهو ملتقى العرب والعجم لما حباه الله من أسباب الرخاء والعيش فكان العراق أبرز بلد انتشر فيه اللحن الذي بسببه وضع علم النحو.

وإذا كان أبو الأسود الدؤليّ هو الذي تشير إليه الأصابع بأنه واضع النَّحو العربيّ فإنَّ النحو نشأ في البصرة التي كان أبو الأسود من أهلها، وذلك

[1] تاريخ بغداد: ٥٢/١.

[2] مقدمة ابن خلدون: ١١٤.

لتحصين الألسنة من آفة الخطأ المزري بصاحبه، فقد بدأ غرس النَّحو في البصرة وترعرع وازدهر فيها، ثمَّ جاءت الكوفة من بعد البصرة لتحقــق في النَّحــو دراسات واسعة النطاق، ثمَّ يأتي دور بغداد في إكمال النَّحو وتطوير قواعده، ثمَّ برز شعاع هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية، وقــد ذكــر الــشيخ محمــد الطنطاوي ذلك فقال: (وعلى ضوء هذا التاريخ فقد عــددنا أطــواره ــ أي النحو ــ الأربعة: طور الوضع والتكوين (بصري)، وطور النــشوء والنمــو (بصري كوفي)، وطور النضج والكمال (بصري كوفي)، وطــور التــرجيح والبسط في التصنيف (بغدادي، وأندلسي، ومصري، وشامي)[1]، ولقد كان في كل مرحلة من تلك المراحل علماؤها الذين أسهموا في خدمة علم النَّحو درساً وتأليفاً وتطويراً، وكان لكل مدرسة نحويَّة أصولها وقوانينــها التي قــام عليها مذهبهم النَّحوي.

إعجام القرآن الكريم وتنقيطه: شهد العراق إبان الحكم الأموي العديد مــن الحروب بين مؤيدي أبناء الإمام علي (رضي الله عنه) والدولة الأموية، وحــين ولّي الحجاج بن يوسف الثقفي العراقين سنة ٧٥ هـــ أراد له بداية جديدة تبدأ بالحزم ويصاحبها العلم.

وأحداث العراق تلك لم تمنع من القيام بإعجام المــصاحف؛ إذ بعــد أن اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم، وكادت العجمة تمس ســلامة اللغة، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يلح بالناس حتى ليشق علــى السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غــير

[1] انظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ٣٦.

معجمة، فأمر الحجاج والي العراق (نصر بن عاصم البصريّ ت ٨٩ هـ) و(يحيى بن يعمر البصريّ ت١٢٩هـ) لتنقيط حروف المصحف، ونجحا في هذه المحاولة وأعجما المصحف الشريف لأول مرة ونقطا جميع حروفه المتشابهة والتزما ألا تزيد النقط في أي حرف على ثلاث، وشاع ذلك في الناس بعد فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف[١].

ومن أسباب التنقيط اللغوية: كثر التصحيف في العراق ففزّع الحجاج كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فوضعوا النقط أفراداً وأزواجاً، وخالفوا بين أماكنها فأصبح الناس لا يكتبون إلا منقوطاً ثم أحدثوا الإعجام[٢].

حركة الترجمة اللغوية: بعد أن آل الحكم إلى بني العباس انتقل مقر الخلافة الإسلامية إلى بغداد سنة ١٤٧هـ، وكان المنصور قد أطلق عليها اسم (مدينة السلام)، وعاش العراق أفضل مراحل عطائه الحضاري، واستقطبت المدينة المدورة علماء ومفكرين من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغت قمتها في عصر هارون الرشيد المعروف بالعصر الذهبي[٣]، وشهدت بغداد أواخر القرن الثاني الهجري حركة الترجمة التي بدأت في العصر العباسي الأول منذ عهد أبي جعفر المنصور، والتي ازدهرت في عهد الرشيد، وكان بيت الحكمة الذي أسسه المأمون سنة ٨٣٠م شاهداً على تلك الحركة وتطورها؛ إذ ترجم التراث الثقافي اليوناني وكتب الطب والفلك والجبر والكيمياء، فحفظت بغداد التراث

---

[١] انظر: مناهل العرفان: ١/١٨٠.

[٢] انظر: الإسلام والحضارة العربية: ١/ ١٦٤.

[٣] انظر: الدولة العباسية: ١١٩

الإغريقي الذي عرفته أوروبا في عصر نهضتها[١]، ومضى القرن التاسع الميلادي برمته وبغداد تترجم لأقليدس وأرخميدس وبطليموس وديسقوريدس وأبقراط وجالينوس وأرسطو وتاوفرسطس وغيرهم[٢].

تعليم العربية لغير الناطقين بها: بعد أن ضعف حكم العباسيين وتدهور وضعهم مكّن البويهيون من الحكم، وقد شجع أمراء بني بويه ـ الذين ينتمون للأصل الفارسي ـ شجعوا وزراءهم على تعلم اللسان العربي والأدب العربي والعلوم العربية؛ لأن اللغة العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته عن اللغة الفارسية، فأسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي (دار العلوم) سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣م، لتعليم العربية لغير الناطقين بها من أبناء قومه[٣].

تخصيص مادة النحو العربي في المدارس العلمية: عندما ضعف البويهيون وانهارت دولتهم استولى السلاجقة على مقاليد الأمور ببغداد عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م[٤]، وكان لازدياد نفوذ السلاجقة واستقرار الحياة السياسية في دولتهم بعد سيطرتهم أثره الواضح في انتشار دور العلم ومعاهد الثقافة في أمهات المدن العراقية، وأخذت حلقات العلم تنمو وتتطور في المساجد والربط والمدارس وغيرها[٥].

(١) انظر: الدولة العباسية : ١١٩

(٢) انظر: الإسلام والحضارة العربية:١/ ١٦٦.

(٣) انظر: ظهر الإسلام : ١/ ٢١٧ ، ٢٥٥ .

(٤) انظر: سلاجقة إيران والعراق : ١٦ – ١٨ .

(٥) انظر: المدارس النظامية مجلة كلية الدراسات الإنسانية، العدد (١٦): ١١١ – ١١٢.

فأمر نظام الملك الحسن الطوسيّ (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ببناء المدارس في مدن وحواضر العراق، حتى صار له بكل مدينة بالعراق مدرسة، وكانت تسمى بالمدارس النظامية، ومنها المدرسة النظامية ببغداد، ومدرسة الرضى النظامية بالموصل، ومدرسة البصرة النظامية وغيرها، وكانت تدرس العلوم الشرعية، وأولت الاهتمام بعلم الكلام وعلوم اللغة العربية كالنحو والأدب والبلاغة، واشترط أن يكون في كل مدرسة مقرئ يُقرئ القرآن ونحويّ يدرس العربية[1].

إجراءات لغوية في أنظمة الدولة العراقية الحديثة: اللغة العربية هي اللغة الرسمية في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٣٢م وباعتراف عصبة الأمم والهيئات الدولية، وأصدر العراق عام ١٩٧٧م قانوناً لصالح اللغة العربية وهو قانون: (سلامة اللغة العربية) الذي ينص على ضرورة أن يحترم مستعمل اللغة العربية بالعراق سلامتها، وألا يخطئ في كتابتها أو النطق بها، من أجل ذلك كانت تعقد لرجالات الدولة دورات لغوية مستمرة، وألّف أستاذي الدكتور رشيد العبيدي (رحمه الله) كتابه: (نحو الموظف)، وكانت للمجمع العلمي العراقي ببغداد يد في صياغة الأسماء التجارية والمحال العامة، وأسماء الشوارع والأحياء والساحات المرورية بأسماء عربية، وتعريب المصطلحات الأجنبية والعلمية، والخروج بقرارات لغوية دورية تحافظ على سلامة اللغة.

وتم فتح واستحداث أقسام متخصصة في اللغة العربية، وقرر منهج اللغة

---

(1) انظر: المدارس النظامية مجلة كلية الدراسات الإنسانية، العدد (١٦): ١١١ — ١١٢.

العربية للمدارس الابتدائية والثانوية والإعداديات عامة، وقررت مادة اللغة العربية وبعض علومها في كليات وأقسام أخرى ولاسيما الشرعية، كما وصفت مادة: (العربية العامة) لمقررات الأقسام العلمية في الجامعات العراقية كافة، وأعيد تشكيل حلقات العلم في المساجد بعد أن خفت نورها وكان من أهم اهتماماتها باللغة العربية وعلومها وسائر علوم الآلة حيث كان المشايخ والعلماء يفتتحون الدرس النحوي بمقدمة إبن آجروم ثم بقطر الندى لابن هشام ثم بكتابه الآخر شذور الذهب، ثم بألفية ابن مالك، وكان المتن في مثل هذه الحلقات يحفظ، وهكذا النظام لكتب الصرف والبلاغة والعروض والإملاء والإنشاء، كما وأن الواقع يشهد في هذه الفترة كثرة الأبحاث والدراسات والمؤلفات اللغوية، فضلاً عن الأطاريح والرسائل الجامعية العلمية وأبحاث الترقية التي أشبعت الدرس اللغوي بحثاً وتحقيقاً وتأليفاً ونشراً.

جهود المقاومة في العراق في الحفاظ على اللغة العربية: لا يتصور أحد أنَّ للمقاومة في العراق دوراً في الحفاظ على اللغة العربية بالرغم من عظم مسؤولياتها وكثرتها، لاسيما وأنهم أدركوا من بداية المعركة أن أعداءهم في الداخل والخارج يحاولون استمالة الناس باللغة العربية فكانت المنشورات تكتب بلغة عربية ركيكة جداً، وتبث إيران وأمريكا وغيرهما قنوات إخبارية فضائية باللغة العربية، ووسائل الإعلام التي تتناول العراق وأحداثه الجارية كانت موجهة، فضلاً عن الإعلان عن هذا الغزو بأنه صليبيّ بصريح اللسان، فكان عامل الدفاع عن اللغة العربية دينياً، فالتزمت المقاومة اللغة العربية الفصحى في شأنها كله، وحرصت على أن تبقى للعراقي أذن تسمع الفصحى، وعين تقرأ الفصيح بعبارات مختارة لغوياً وحضارياً وشرعياً تتصدى للأجنبي والدخلاء

ولغاقم، وقد خصصت بعض المجاميع الجهادية بعض كتب النحو لتدريسها، واختيرت المقدمة الآجرومية (أخشى أن تدخل هذه المقدمة النحوية في لائحة الإرهاب!!!)، وكانت هناك تصحيحات لغوية آنية للقائمين بهذا الفرض، وكتبت مقالات وهي منشورة على الإنترنت من أهمها: (الأخطاء اللغوية عند المجاهدين والحاجة إلى تصحيحها لتعجيل النصر).

وأنّ الاختيار الدقيق لمفردات المقاومة للوصول إلى المعاني أعطت للبلاغة روحاً جديدة كحوليات الجاهليين ومفضليات الإسلاميين، وأحييت ألفاظ الجهاد التي كادت أن تموت وتطمس، وكأن المعركة في العراق هي معركة لغوية، ولك أن تقدر اللغة في هذه العبارات الآتية: (مدرعة أمريكية تعيش أنت ويموت من فيها بعد إحراقهم، معارك طاحنة يخرج منها العدو منسحباً يجر أذيال الخيبة، انفجار قاعدة عسكرية يهز الأرض ويضيء السماء، نقطة تفتيش تدك بصاروخ .. الخ).

المطلب الثالث

آثار الحروب والاحتلال السلبية والسيئة على اللغة في العراق

والآن يتطلب البحث العلمي إجراء موازنة ومعادلة لتناول الآثار السلبية والسيئة للحروب والاحتلال على اللغة من خلال هجمات الأقوام وعدوان الدول التي جاءت إلى العراق في فترات التاريخ المختلفة.

(١) **سرقة الجهود اللغوية وتدميرها:** بعد وفاة الإسكندر المقدوني الكبير الذي هزم الفرس من العراق سنة ٣٢١ق.م، كان العراق من نصيب الدولة السلوقية، واتسم عهدها بالاضطرابات والنزاعات والخلافات بين الطامعين، فتفرغت بابل للعلم فقصدها علماء اليونان طلاباً، وكانت لليونانيين فرصة

ثقافية فقد لجأوا إلى إلغاء الدور المحلي للمجتمع المحتل، والاستيلاء على التراث بكل ثقافته وحضارته ولغته، غير أنهم لم يفلحوا واضطروا إلى إعطاء المجتمع البابلي دوراً فعادت بابل إلى دورها السابق؛ ولكن بطابع جديد يطمس معالم الحضارة القديمة ويلغي دور العراقيين في التقدم العلمي الذي سلبوا معه أسماء المبدعين فأطلقوا عليهم أسماءهم أو غلفوا أسماءهم بأسماء يونانية لإسدال الستار على كل ما هو عراقي ونسبته إلى أنفسهم[1]، وحين جاء الغزو العيلامي دمروا بابل ومدناً عراقية أخرى وسلبوا ممتلكاتها بما في ذلك مسلة النصر ومسلة حمورابي أيضاً وتمثال مردوخ كبير الآلهة البابلية وغيرها من آثار العراق اللغوية والثقافية[2].

(٢) **قطع العلاقات مع العرب والعروبة:** عندما استولى الساسانيون من ٢٢٤م إلى ٣٣٧م على العراق، شهد عصرهم إصرار الفرس على إقصاء العرب من العراق، وتذويب سكانه القدماء بمنع تواصلهم مع إخوانهم عرب الجزيرة، ومنع تحرك القبائل العربية المتوجهة إلى العراق[3].

ومع ذلك فقد ظهرت إمارة الحيرة في أوائل القرن الثالث الميلادي إحدى ثمار الهجرة العربية في زمن النعمان بن المنذر، وعيّن الساسانيون ملكاً من أسرة اللخميين لينوب عنهم في العراق، وفي سنة ٦٠٢ عينوا حاكماً فارسياً على العراق حتى انهزم الفرس بسقوط المدائن على أيدي المسلمين بعد شهرين

---

(١) انظر : حضارة العراق : ٩/٢٣٠.

(٢) انظر : المصدر نفسه.

(٣) انظر: أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية: ٧- ٨

من معركة القادسية سنة ٦٣٧م/١٤هـ[١].

(٣) هجرة العلماء بسبب الاضطرابات: كانت حلقات العلم تعقد في مركزي البصرة الثقافيين المسجد الجامع والمربد، لإقراء القرآن وتفسير ألفاظه، وكذلك لسماع الشعراء والخطباء من أعراب الفصحاء اللذين يردون في المواسم حيث اللغة الفصيحة والأساليب البليغة[٢]، واستمرت هذه الحركة حتى جاءت ثورة الزنج في العراق ٢٥٥_٢٧٠ هـ على البصرة، وكان من نتائجها حرق المسجد الجامع بالبصرة، فهاجر الكثيرون من علمائها واستقروا ببغداد وواسط[٣].

(٤) غزو اللغة الفارسية للعراق: أسقط القائد المغولي هولاكو سنة ١٢٥٨ م _ ٦٥٦ هـ عهد العباسيين بعد أن دخل جيشه بغداد، وتحولت عاصمة الخلافة إلى مدينة تابعة إلى إيلخانية فارس يحكمها هولاكو وأبناؤه، وقُسمَت إلى قسمين، الأول: منطقة شرقي دجلة التي اتسعت فيها معالم الحضارة الفارسية، والآخر: منطقة غرب دجلة حيث احتفظت بالبقية الباقية من الثقافة العربية.

ومن هنا بدأت التفرقة بين اللغتين العربية والفارسية، ففي شرق دجلة تمسك الفرس بلغتهم، وفي غرب دجلة كانت خسارة الثقافة العربية فادحة بعد أن أحرقت ألوف الكتب والمحفوظات والمخطوطات، وأغرق بعضها في

---

(١) انظر : المصدر نفسه.

(٢) انظر: حضارة العراق: ٨/ ١٢٨.

(٣) انظر: حضارة العراق: ٨/ ١٢٨.

دجلة[١]، وكذلك شهدت بغداد انتشاراً للغة الفارسية بعد أن دخلها إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[٢].

(٥) دخول العامية إلى لغة العراقيين الفصحى: لا يمكن أن تقصر العامية العراقية في بدايتها وشيوعها على العصور العباسية، ولعلها ورثت شيئاً من ذلك في عصور سلفت، ولقد بقيت العامية إلى جوار الفصيحة في العراق طوال العصور العباسية، وهكذا كان الأمر إلى نهاية عصر الدولة العثمانية، وفي هذه الحقبة المتأخرة لم يبق للفصحى من القدر ما كان لها في العصور المتلاحقة، بسبب شيوع الجهل وتضاؤل التعليم، فقد اقتصر على طائفة قليلة، فعفت دور العلم وقلت المدارس، فكانت أمية شاملة[٣].

(٥) خطورة المستعربين على العراق: عانت الخلافة الإسلامية الراشدة من ظاهرة الفرس المستعربين وغيرهم، حيث مكنتهم اللغة الثانية من الاحتكاك بالمجتمع الإسلامي، ومن سهولة التخطيط للمؤامرات أو التجسس على أحوال المسلمين وأمورهم، ولذلك كان دعاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (اللهم لا تدركني أبناء الهمذانيات والأصطخريات ـ وعدَّدَ قرىً من قرى فارس ـ الذين معهم قلوب العجم وألسنة العرب)[٤].

(٦) الاستعمار اللغوي بغطاء القومية العربية: لقد استعمل البريطانيون الحيلة

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي: ٥٨.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١١٢.

(٣) انظر: قصة العامية في العراق :٥.

(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية:١/ ١٧٥.

مع العراق يوم أن علموا أن هناك خلافات (قومية) للعرب مع الأتراك العثمانيين، ووعدوا العرب بالاعتراف باستقلالهم ودولتهم الموحدة، وأعلنوا في ١٩١٨م أنهم (محررين) لا (فاتحين)؛ لكن البريطانيين تنكروا لوعودهم، فرفض الشعب العراقي سيطرة الإنكليز، لكن بريطانيا عملت على اضطهادهم فثار الشعب في٣٠/٦/١٩٢٠م عليهم، وقاتلوهم بأدوات بسيطة مقابل البنادق والمدفعية للحفاظ على إرثهم وحضارتهم، ومع إن ثورة العشرين لم تحقق أهدافها كاملة فقد كانت نموذجاً حياً لمقاومة الاستعمار، ومن بين مخلفات الإنكليز اللغوية كلمات ومفردات عدة مقحمة في العامية العراقية لحد الآن دخلت من خلال العمل والسياسة فضلاً عن وجودهم الميداني في البلد.

(٧) هدم بوابة العروبة المنيعة أمام بلاد فارس: إن محاولات نزع الهوية العربية عن العراق ما هي إلا رد فعل على مواقفه القومية في التاريخ، فالعراق على مختلف أنظمته السياسية السابقة كان يكافح بالنيابة من أجل المشاريع العربية، فالعراق مؤسس في جامعة الدول العربية، والنظام الملكي أراد أن ينشأ الاتحاد الهاشمي مع بعض الدول العربية، فضلاً عن المواقف القومية العراقية الأخرى، فالعراق يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي، فنزع هويته العربية عنه يمثل سقوطاً لهذه البوابة، وبالتالي يكون الوطن العربي ساحة مفتوحة للأطماع، وهذا ما أثبتته الأحداث في التاريخ، وفي الوقت نفسه يمثل العراق عمقاً للعروبة، وكان لحد وقت قريب ستاراً لدول الخليج العربي اتجاه النفوذ



الفارسي، وتعطيل مبدأ تصدير الثورة الفارسية للمنطقة[1].

(٨) أثر الحصار الاقتصادي: أدت العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق إلى الحد من مظاهر الحفاظ والاهتمام باللغة العربية، حيث أن اللغة بوصفها جزء من ثقافة البلد تأثرت هي الأخرى بتلك العقوبات، وأدلى مسؤولون في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) تحذيرات أعلن فيها خبراء المنظمة لوضع خطط لحماية التراث الثقافي العراقي، وطالبوا دول التحالف الضالعة في الحرب ضد العراق ومقاطعته وحصاره، باحترام معاهدة لاهاي بشأن حماية التراث الحضاري.

(٩) ألفاظ الحرب والاحتلال ودلالاتها اللغوية: استعمل وزير الإعلام العراقي الصحّاف أثناء غزو العراق كلمات، كانت محملة بإيحاءات سياسية، فوصف جنود الغزاة بـ (العلوج) وهي لفظة مستعملة في بعض فترات التاريخ لوصم الأعاجم من غير العرب كالفرس والروم؛ كونهم لا ينتمون للأصل العربي؛ لأنهم ليسوا من سلالة العرب، فبان لنا أن هذه الحرب هي الحرب على الهوية الحضارية لهذا البلد، وهكذا بقية الأوصاف: (مرتزقة، عصابات سطو مسلح، إرهاب دولي، خائبون ...الخ).

وحاول المحتلون أن يخوضوا حرباً لغوية فكانوا يتصرفون بالألفاظ لخدمة سياستهم فوزير الدفاع الأمريكي كان يصف المدافعين عن أرضهم بـ(الإرهابيين)، وهم أيضاً غيروا موضوع (الاحتلال) إلى (التحرير) في مطابقة

---

[1] انظر: أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية: ٧ –٨.

(للغزو) و(العدوان)، ونشروا مصطلح (الحرية) و (الديمقراطية) مقابل: (سيادة البلد واستقلاله) و (إذلال الشعب وإيذائه).

(١٠) **المحتلون الأمريكان يتعلمون اللغة العربية لأغراض خاصة**: يحاول المارينز أن يتعلموا اللغة العربية في إطار تدريباتهم التثقيفية في برنامج خاص بولاية كاليفورنيا الأمريكية من أجل الانتصار في وجه التحديات ـ بزعمهم ـ قبل ذهاب الجنود إلى العراق، ويتلقى الجنود حوالي (٢٠٠)كلمة بالعربية والعامية العراقية، ولكن ذلك ضرَّ العراقيين أكثر مما نفعهم، حيث الترجمة الضعيفة، وعدم الفهم الدقيق للمعاني ومدلولاتها، ويتحدث العربية (٢٦٠) جندي فقط في الجيش الأمريكي في العراق البالغ عددهم ـ في بدء الحرب ـ (٢٠٠) ألف جندي، بحسب إحصائية حصلت عليها (بي بي سي) من وزارة الدفاع الأمريكية.

(١١) **تخلي أكراد العراق عن اللغة العربية**: ترك الأكراد في شمال العراق اللغة العربية في المدارس والدوائر الرسمية، وكتبوا باللهجة الكردية منذ عهد مبكر من تاريخهم الحديث والمعاصر، وأخذ طلاب المدارس يدرسون مناهجهم باللغة الكردية من الصف الأول الابتدائي وإلى السادس الإعدادي، وأما اللغة العربية فتدرس عندهم كما تدرس اللغة الإنكليزية فيتخرج الطالب العراقيّ ولا يكاد يفهم من اللغة العربية إلا النادر الأندر، وقد بدت بغضاء بعضهم من اللغة العربية في تصريحاتهم الشهيرة حول رغبتهم لأن يعيدوا بسيارات حديثة اللغة التي جاءتهم على ظهور الجمال، ووجدت في شمال العراق دعوات تحررية تدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية لتفصل الشعب الكردي عن دينه وإسلامه وأمته، وهناك دعوات للتوقف عن تعلم اللغة العربية، وثمة متطرفون يطالبون حتى بأداء

الصلوات باللغة الكردية[1]، ومن هنا فإننا نذكر إخوتنا المسلمين الأكـراد في العراق بقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) الذي قال: (فإنَّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله)[2].

ثم إنَّ اللهجات الكردية مختلفة، فأي لهجة ستكون رسمية؟، أهـي اللهجـة الكورمانجية الجنوبية (السورانية) المعتمدة في كردستان العراق التي يتحدث بها أهل السليمانية ومن حولهم؟ أم اللهجة الكورمانجية الشمالية (البهدنانية) الـتي يتحدث بها أهل دهوك وقسم من أهالي أربيل؟ أم اللهجة الكورانية؟ أم اللهجة اللورية الفيلية؟.

(١٢) التلاعب بدستور العراق بما يخص اللغة: غيّب الدستور العراقي الجديد الهوية العربية للعراق وأضعفها، وغيَّب اللغة العربية بوصفها لغة رسمية وحيـدة للدولة والمجتمع، جاء ذلك في نص الدستور، ومن وراء

كواليس هذه المادة الدستورية الأخطار الجسيمة الآتية:

أ- محاولة تجهيل العراقيين _ بكل قومياتهم _ باللغة العربية، ليتحقق عنـدهم الجهل المطبق بالقرآن الكريم ولغته، ومن ثمَّ فهمه وتطبيقه والعمل به.

ب- زرع بذور الفتنة والتفرقة بين أبناء البلد الواحد، والتعـصب للقوميـات ومظاهرها المذمومة، والتخلي عن الانتماء للدين الإسلامي الذي يعتنقه الغالبية منهم، ولسان الإسلام هي اللغة العربية.

ج- إنَّ القوميات المدافع عنها في هذا النص، والأقليات المشار إليها بإمكانيتهم

---

(١) انظر: لغتنا والمؤامرة: ٩.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٣.

التواصل باللغة العربية، إذ لا أعتقد ثمة مسؤول حكومي أو سياسي عراقي مشارك في العملية السياسية اليوم لا يجيد اللغة العربية إلى الحد الذي يمكنه أن يتفاهم بها ويعبر عن أفكاره.

(١٣) سرقة المخطوطات العربية ونهبها: تعرض العراق على مر الأحقاب والسنين إلى هجمات شرسة ومدمرة استهدفت إطفاء شعلة العلم والحضارة واستهدفت الإسلام بشكل خاص وذلك لما للعراق من دور حضاري كبير، والتاريخ أعاد نفسه، ففي آخر النكبات التي شهدها في الاحتلال الأمريكي في ٩/٤/ ٢٠٠٣م، تكرر الخراب والدمار وأحرقت مباني الدولة، وكان للمكتبات والآثار النصيب الوافر من تلك الأحداث فدخل اللصوص والمخربين الذين أتوا من وراء الحدود فعاثوا الفساد الكبير.

(١٤) مظاهر اللغة العربية في ظل الاحتلال الأمريكي المعاصر: تمر اللغة العربية اليوم في العراق الجديد في أزمة لم تشهدها من قبل، في الضغوطات والممارسات الآتية:

أ- هجر اللغة العربية من قبل الجيل المعاصر، فأصبحت الإنجليزية هاجس العراقيين بعد الاحتلال من أجل الحصول على وظائف في مؤسسات وشركات تطلب تعلم الإنكليزية وإجادتها، وكذلك زاد الإقبال على الإنكليزية من باب (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم) فأراد الناس أن يتعلموا شيئاً من لغة المحتل للمحادثة معه ولفهم مقصوده في المداهمات ونقاط التفتيش، ومن مظاهر الهجر الأخرى الدراسة في أقسام اللغة الإنكليزية والعزوف عن أقسام اللغة العربية.

ب- ما تعرض له الأساتذة المختصون بعلوم اللغة العربية وآدابها مع غيرهم من الأساتذة من القتل والتصفيات الجسدية والمطاردة والملاحقة من قبل بعض

الأجهزة الأمنية، وكذا هجرة قسم منهم خارج العراق، وتشتتهم في ربوع بلدان الكرة الأرضية، فضلاً عمن تداركه الموت وانتقل إلى جوار ربّه من عقليات اللغة وثرواتها.

ج- أكاد أجزم أن العراق اليوم ليس فيه أي نشاط لغوي عدا برامج اللغة في المؤسسات التعليمية، في حين كانت تعقد الدروس والحلقات والمواسم والمهرجانات وغيرها من الأنشطة اللغوية، وهذا إن لم يطفأ جذوة اللغة فإنه يضعفها.

د- إن أوضاع التعليم الركيكة في مؤسسات وزارة التربية ووزارة التعليم الحاليتين ستنعكس آثارها السلبية على اللغة العربية والعلوم الأخرى بسبب الأوضاع الأمنية المتردية، والجو النفسي المتأزم المؤثر على شخصية طالب العلم ومداركه.

هـ- شيوع العامية العراقية ذات المدخولات الأعجمية الكثيرة على حساب الفصحى في الأجهزة الإعلامية، وغياب الرقابة اللغوية، وعدم الاهتمام بشأن مراعاة القواعد، فضلاً عن الأخطاء اللغوية المتفشية على ألسنة الخاصة والعامة.

و- شراء ذمم بعض الأساتذة المختصين في العلوم العربية والشرعية للتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، وإعمال اللغة في التأويل والتخريجات الفلسفية والحيل اللغوية فيما يخص عقيدة الولاء والبراء، والفتاوى السياسية، وإقناع الناس بمواد الدستور وغيره، وصدق صلى الله عليه وسلم القائل:(إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)[1].

---

[1] رواه أحمد في مسنده: برقم (١٤٣): ١/ ٢٢.

الخاتمة

قال الرافعيّ: (ما ذُلّت لغة شعب إلا ذُلّ، ولا انحطت إلا كان أمرها في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة التي يستعمرها، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناصيتها، ويحكم عليها أحكاماً ثلاثة في عمل واحد، فالأول: حبس لغتهم في لغته سجناً مؤبداً، وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً أو نسياناً، وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبعٌ)[1].

[1] وحي القلم : ٢/ ٣٣.

مصادر البحث ومراجعه

١- أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، د. رشيد العبيدي، مطبعة التعليم العالي، بغداد ،١٩٨٨م.

٢- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م.

٣- تاريخ بغداد، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغداديّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط / ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٤- حضارة العراق، د . بشار عواد معروف، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٥م .

٥- خصائص اللغة العربية، محمد نعمان الدين الندوي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط / ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٦- سكان العراق، دراسة ديموغرافية - جغرافية مقارنة، فاضل الأنصاري ، ط / ١، دمشق، ١٩٧٠م.

٧- السلاطين في المشرق العربي: معالم دورهم السياسي والحضاري، د. عصام محمد شبارو، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.

٨- ظهر الإسلام، أحمد أمين، بيروت، ط / ٥، ١٩٧٨م.

٩- لغتنا والمؤامرة، إبراهيم النعمة، أنوار دجلة، بغداد، ط / ١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

١٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ب . ت .

١١- معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، ت ٦٢٦ هـ، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

١٢– مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، دار صادر، بيروت – لبنان، ط / ١، ٢٠٠٠م.

١٣– مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط/١.

١٤– موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، ط/١، بيروت، ١٩٩٣م.

١٥– موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط/٢، بيروت، ١٩٩٠م.

١٦– نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، للشيخ محمد الطنطاوي، ط / ١، مصر، ب.ت.

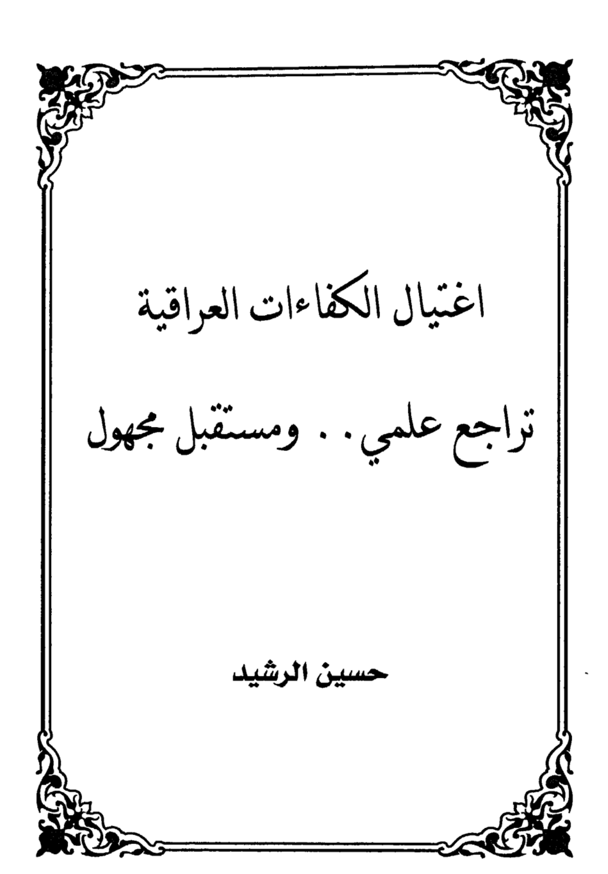
١٧– وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ب.ت.

المجلات والأبحاث:

١–أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية، أ.د. حميد شهاب أحمد، كلية العلوم السياسية – جامعة بغداد.

٢– قصة العامية في العراق: تاريخها وواقعها، الدكتور إبراهيم السامرائي، بغداد – العراق.

٣–مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد (١٦)، ١٩٩٨م.



اغتيال الكفاءات العراقية

تراجع علمي.. ومستقبل مجهول

حسين الرشيد

اغتيال الكفاءات العراقية
تراجع علمي لمجلجل ومستقبل مجهول

حسين الرشيد[1]

مدخل عام

شَهِد العراق الجريح تراجعاً علمياً وانتكاسة كبيرة لم يشهدها تاريخه أبداً، في ظل التدهور الأمني الذي يلف البلاد بسبب تداعيات الاحتلال الأمريكي في إطار الممارسات الهمجية التي تمارسها تلك القوات؛ إذ بات الكادر الأكاديمي والتدريسي في العراق ممزقاً بين واجباته العلمية وبين طلقة غادرة تودي بحياته.

وإذا كانت المقولة المشهورة تؤكد بأنَّ العلماء والمتعلمين هم رأس المال الذي لا ينضب لكل أمة؛ فإنَّ هؤلاء العلماء يمثلون حقاً ثروة لا يمكن ضياعها أو الاستهانة بها؛ لأنها السبب الأهم في تخريج الكوادر البشرية المتعلمة التي تُحيي المجتمع وتبث الروح بين أبنائه.. ومن هنا كان من الأهمية بمكان دراسة هذه القضية، وحقيقتها، وأسبابها، وتداعياتها، ومعرفة الجهة التي تقف وراءها، وسبيل الخروج منها، ووضع حداً لهذه الظاهرة الخطيرة التي استشرت في المجتمع العراقي منذ أن وطأت أقدام الغزاة ثرى بلاد الرافدين.. وإذا اتضح ما تقدم فإنني أود التأكيد على أنَّ جزئيات هذا الموضوع من خلال التركيز على المسالك الآتية:

---

[1] كاتب وإعلامي عراقي، مدير تحرير مجلة حضارة.

المسلك الأول
حقيقة اغتيال الكفاءات العلمية

أضحى العراق منذ احتلاله مسرحاً لعمليات قتـل واغتيـالات واسـعة وممنهجة، ومسلسل للتصفيات استهدف عدداً كبيراً من شخصياته العلميـة في شتى الاختصاصات كما سيأتي بيانه.

لكن ظاهرة اغتيال علماء العراق باتت متنامية بشكلٍ متسارع، سـاهم في تفاقمها حالة الانفلات الأمني والفوضى التي تشهدها البلاد، والذي يظهـر أنَّ هذه الاغتيالات جزءاً من استراتيجية الفوضى المنظمة التي يتبعها الاحتلال منذ غزو العراق واحتلاله؛ لتطويع العراقيين وإخضاعهم(١).

المسلك الثاني
أثر الاغتيال في التراجع العلمي

إذا أردنا الحديث عن هذا الجانب فإننا نتكلم عنه وفق النقاط الآتية:

أولاً: الأساتذة والعلماء الذين تم اغتيالهم: تنوعت أشكال الشخصيات التي تم اغتيالها من قبل العصابات المجرمة، فقد اغتيـل ذوو التخصـصات العلميـة والأكاديمية والأدبية والشرعية والثقافية والاستشارية وغيرها.. وتشير التقـارير أنه يتضح من هويات المقتولين أن الأمر لا يدخل ضمن نطاق الانتماء الطائفي أو الحزبي(٢)، كما يأتي في إطـار التخصـصات المتنوعـة؛ فـالمقتولون ذوو

---

(١) ينظر: اغتيال العقول العراقية الأهداف والخلفيات، للأستاذ سلمان بو نعمان، مقالة منشورة علـى شبكة الإنترنت.

(٢) لكن رابطة التدريسيين الجامعيين في العراق أكدت أن أمر الاغتيال كان قد اتخذ اتجاهين، ففي بداية بروز هذه الظاهرة لا يشك أحد أن طائفة ما بعينها كانت مستهدفة، وغالباً مـا تتـهم تلـك الشخصيات العلمية التي تم اغتيالها بسبب انتمائها السابق، وأغلبهم من رؤساء الجامعات، وعمداء

اختصاصات متنوعة من الجيولوجيين والأطباء والمعلمين والمهندسين والزراعيين والمؤرخين والجغرافيين وعلماء الشريعة واللغة والاقتصاد والسياسة والاجتماع والإعلام وغيرهم[1].

وتشير التقارير التي أعدها مؤسسات تُعنَى بشؤون التعليم العالي: أنَّ ما يقرب من ٨٠% من عملية الاغتيال استهدفت العاملين في الجامعات العراقية، ويحمل أكثر من نصف القتلى لقب (أستاذ ــ بروفسور) أو (أستاذ مساعد)، وأكثرُ من نصف الاغتيالات وقعت في جامعة بغداد، ثم البصرة، ثم الجامعة المستنصرية، ويحمل ٦٢% من المقتولين شهادة الدكتوراه، وثلثهم مختص بالعلوم والطب، وما يقرب من ١٧% منهم أطباء[2].

فعلى سبيل المثال اغتيل من علماء الجيولوجيا الأستاذ الفاضل الدكتور عصام الراوي عضو هيئة علماء المسلمين في العراق، ومن علماء الطب اغتيل الدكتور محمد عبد الله الراوي عميد كلية الطب بجامعة بغداد[3]، ومن علماء الهندسة الكيميائية اغتيل الدكتور غالب الهيتي الأستاذ بجامعة بغداد، ومن علماء الرياضيات الكبار اغتيل بروفسور الرياضيات عبد السميع الجنابي عميد كلية

الكليات، وممن كان لهم وجود وثقل في التعليم العراقي.. أما والأحداث قد تطورت فقد انحى الأمر منحى آخر وأصبح كل أستاذ مستهدف مهما كان توجهه أو طائفته.. وهذا ما أكد عليه الدكتور عصام الراوي رحمه الله في مقابلة مع قناة الجزيرة القطرية بتاريخ ٢٠٠٥/٦/٥م.

[1] موقع صحيفة الرياض على الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٦/٢/٢١م.

[2] ينظر : موقع مركز عمّان لحقوق الإنسان على الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٣م، ومؤسسة الإمارات للإعلام العدد (٤١٣) بتاريخ ٢٠٠٦/٥/٨م.

[3] ولعلها أول عملية تم من خلالها البدء بتصفية أطباء العراق، واتهم بتنفيذها جهاز الموساد الإسرائيلي آنذاك.

العلوم بالجامعة المستنصرية طعناً بالسكين، وفي مجال الفيزياء اغتيل الأستاذ الدكتور مجيد حسين علي الأستاذ في جامعة بغداد والمتخصص في مجال بحوث الفيزياء النووية وبمجال الطرد الذري، ومن علماء القانون اغتيل الدكتور منتظر الحمداني معاون عميد كلية القانون بالجامعة المستنصرية[1]، ومن علماء التربية وعلم النفس اغتيل الدكتور حارث عبد الحميد مدير قسم البحوث التربوية والنفسية بجامعة بغداد[2]، ومن أساتذة الإعلام الكبار اغتيل الأستاذ الدكتور عبد الرزاق النعاس أستاذ الإعلام بجامعة بغداد، ومن علماء الجغرافيا اغتيل الأستاذ الدكتور هيثم عباس الراوي، وغيرهم كثير جداً.

ثانياً: أهداف الاغتيال: هناك أهداف عديدة تقف وراء اغتيال الشخصيات والكفاءات العلمية في العراق حسب الجهة التي تقف وراء تلك العمليات، غير أنها بمجموعها لا تتعدى واحدة من الأهداف التي سنشير إليها.. وأهمها:

(١) إضعاف البلاد وحرمانها من طاقاتها البشرية، ولعلّ المحتل هو أول من عمل على ذلك، وهنا يقف أمام أعيننا ذلك الموقف الذي قامت به (مادلين أولبرايت) قبيل بدء الحرب على العراق حينما التقت بالعاهل المغربي (الحسن الثاني) وطلبت منه أربعة إلى خمسة الآف عالم عراقي أراد الأمريكيون اللقاء بهم وتسهيل خروجهم إلى خارج العراق، أو إعطائهم اللجوء السياسي في بلدان مختلفة.. وهذه ـ والله أعلم ـ أحد أسباب الحرب على العراق، فالحروب تُشنُّ لتدمير القدرة العسكرية أولاً، ثم لتدمير إرادة الخصم، وكما

(١) ينظر : موقع أصوات العراق على الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٤م.

(٢) ينظر : المصدر السابق.

نذكر قد قيل كثيراً في الصحافة الأمريكية والغربية أنَّ العراق صحيح أنه لم يعد يمتلك أسلحة دمار شامل وبرامج تصنيع عسكري، ولكنه قادر أن يبدأ هذه الصناعة متى شاء؛ لوجود هؤلاء العلماء، ولذلك يستهدف اليوم بشكل مخصوص علماء الفيزياء والكيمياء والمهندسين وكل الطاقات النادرة في البلد[1].

(٢) تحقيق الرغبات والأجندات الخارجية والإقليمية لصالح بعض الدول المعادية للعراق.. وتشير التقارير أن لبعض الدول المجاورة للعراق، والتي لها ارتباط وثيق ببعض الأحزاب الحاكمة الآن في العراق، ضلوع تام للحيلولة دون التقدم العلمي في البلد، نتيجة صراعات ماضية، وهي تعمل وفق مخطط سري للنيل من حلقات التعليم في العراق بكافة أشكاله، والكل سمع بتلك العملية التي طالت أرواح الأبرياء في الجامعة المستنصرية قبل ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن، إذ امتزجت دماء الطالب والطالبة الذين تم اغتيالهما في أثناء التجمع الطلابي لطلاب الجامعة المستنصرية في ١٩٨٠/٤/٣م بعد أن ألقى أحد الأشخاص قنبلتين على هذا التجمع فاغتال طالباً وطالبة، ليكونوا شهداء في طريق العلم والمعرفة[2].

(٣) سهولة تحقيق المقاصد التي تهدف إلى بث روح الضعف العلمي بين الطلبة العراقيين.

(٤) العمل على تحقيق الغايات المبطنة من خلال تغيير بعض المناهج العلمية، أو

---

(1) وقد توسع الأستاذ عبد الأمير علوان في هذه النقطة كثيراً في لقاء له على قناة الجزيرة الفضائية بعنوان (اغتيال العلماء وأساتذة الجامعات العراقية) بتاريخ ٢٠٠٥/٦/٢٥م.

(2) ينظر: تفصيل الحادثة في موقع جريدة المحرر على الإنترنت العدد (٢٤١) السنة الخامسة عشرة.

تحقيق ما يسمى بـ(أمركة الجامعات العراقية).

(٥) العمل على تعثر العملية العلمية والتربوية العراقية، لغرض تحقيق مقصد الافتقار لدى الجامعات العراقية بعد هجرة علمائها وأساتذها.

(٦) اضطراب الأجواء الجامعية، وازدياد الصراعات الشخصية والطائفية، وتحقيق الغايات التي تهدف للسيطرة على أكبر عدد من الجامعات العراقية.

(٧) العمل على تدمير الحضارة والثروة العراقية من خلال استهداف عقوله، والتصفية المنهجية لإمكانيات العراق، والعمل على إنهاء دوره كقوة استراتيجية في المنطقة.

ثالثاً: أسباب الاغتيال: كثيراً ما تأتي أسباب الاغتيال كنتيجة لتحقيق الأهداف التي يتم اغتيال العالم أو الأستاذ بسببها، وقد تطرقنا إليها قبل قليل.. ولكن قد تحصّل لديَّ بما لا يقبل الشك أنَّ اغتيال أكثر العلماء غالباً ما يجيء نتيجة للأسباب الآتية:

(١) الخطاب السياسي للأحزاب المختلفة، وفي مقدمتها الأحزاب التي تتبنى المشاريع الطائفية، مما أدى إلى التخندق الطائفي، لتنتقل تلك العدوى إلى جامعات العراق، بسبب تصرفات الأساتذة وانتقام بعضهم من البعض الآخر، على حساب الكفاءة والمسيرة العلمية.

(٢) إفراغ العراق من عقوله ومفكريه التي هي أساس تقدمه وتطوره، في حملةٍ مشبوهةٍ وإبادة جماعيةٍ للعقول العراقية متوخيةً تخريباً شاملاً لكافة المؤسسات العلمية والتربوية.

(٣) هذا بالإضافة إلى أمر مهم وهو محاولة منع الدول الأخرى من الاستفادة من خبرات العلماء العراقيين؛ لأن جهات عديدة خارجية وبعضها داخلية

تدرك القيمة العلمية التي يتمتع بها علماء العراق، خاصة وأنّ تلك الأفكار لا تخدم مشاريعهم التوسعية ومصالحهم في المنطقة[1].

ولكن مع كل هذا فإنه من الممكن أن تكون هناك أسباب مباشرة وآنية ربما تكون سبباً لانتقال الأستاذ من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة في العراق الجديد!! دون أدنى مراعاة لحرمة هذا الرجل الذي قضى عمره، وأفنى شبابه لتخريج كواكب من المتعلمين، ومن تلك الأسباب المباشرة على سبيل المثال لا الحصر:

١. **اعتراض الأستاذ على بعض التصرفات أو إنكارها:** فقد يصادف أن ينكر أستاذ من الأساتذة أمراً ما يحدث في جامعته، فلا تجده إلا مقتولاً بعد يوم أو يومين، كما حدث للأستاذ موسى سلوم _عميد كلية التربية في الجامعة المستنصرية_ عندما زجر طالباً بعد اعتدائه على بعض الأساتذة، فوجد مقتولاً بعد أيام، وكما حدث أيضاً لعالم الرياضيات الدكتور عبد السميع الجنابي عميد كلية العلوم بالجامعة المستنصرية عندما أراد تطبيق قرار وزارة التعليم العالي الذي يقضي بمنع استخدام الجامعات كمنابر للطائفية[2] ووجد بعدها مقتولاً بسكين، ومرمياً على قارعة طريق ببغداد.

٢. **الانتقام من الأستاذ بسبب عدالته في إعطاء علامات النجاح أو الفشل:** وهذا من أهم أسباب قتل العلماء، بمعنى أن الأستاذ مضطر لأن يتعامل مع طلابه على وفق جهودهم وكفاءتهم وتميزهم ونشاطهم العلمي، مما يستدعي تفاوت درجات الطلبة بين نجاح أو فشل.

---

[1] ينظر : اغتيال العقول العراقية، للأستاذ سلمان بو نعمان، مقالة على الإنترنت.

[2] ينظر تفصيل الحادثة في : جريدة الاتجاه الآخر، وموقعها على الإنترنت .



وفي العراق اليوم أصبح ردود فعل الطالب عند فشله في الاختبارات أو الامتحانات هو قتل أستاذه، وقد حدث هذا أكثر من مرة، بل إنَّ بعض الطلاب هددوا أساتذتهم بالقتل، مما خلق أزمة كبيرة بين الطالب وأستاذه!!.

وقد أفصح بعض الأساتذة عن وجود مليشيات طلابية تعمل في الجامعات العراقية.. قال الدكتور ناجي محمود: ((إنَّ بعض الطلبة صاروا يشكّلون مليشيات خاصة بهم، ويهددون الأساتذة من خلال بيانات يلقونها في غرفهم... وأضاف: إننا نعيش في حالة انهيار علمي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى))[1]. وقد تكون هناك أسباب أخرى؟.

رابعاً: عوامل نشوء حالة العنف في الجامعات العراقية: لابد أنَّ هناك عوامل مؤثرة تقف وراء حالة العنف التي تشهدها الساحة العراقية اليوم، وانعكس بصورة مباشرة على الجانب العلمي، تبعاً للتطورات السياسية والأمنية، ولعلي أستطيع إرجاع عوامل نشوء حالة الفوضى والعنف الذي يعم الجامعات العراقية إلى أمرين هما:

(١) التشدد الطائفي وممارسة دوره في أروقة الجامعات

الحقيقة أن هذا العامل كان له أثره في أحداث حالة من الفوضى، ومزيد من الإرباك، وقد يجد الباحث في هذه النقطة تحديداً كثيراً من الأمثلة، فالاعتراض على إقامة الشعائر الدينية في الجامعات العراقية اليوم سبّب الخوف والرعب لدى التدريسيين، ويؤكد بعض الطلاب بأن الثقافة في الجامعات اليوم تحولت إلى ثقافة عنف، وسماها بعضهم بـ((ثقافة المليشيات))، ويعود السبب في ذلك

[1] ينظر : موقع ميدل ايست أون لاين، على الإنترنت ٢٠٠٦/٨/٣١ م .

إلى تأصيل جذور الفكرة المذهبية في عقول الطلبة، خاصة وأنَّ كثيراً منهم ممن هم في سنِّ المراهقة أو ما زالوا على أطرافها، وغالباً ما تسهل استثارة من هو بهذه السنِّ، مما يدفعهم للدخول في الحماسة الدينية أو المد التكفيري، ومن ثم يطغى سلوكهم العنفي على مشهد الجامعة، ولعل هذا الأمر يتجلى في أوج تلك الشعائر الدينية التي تمر مناسباتها، فعلى سبيل المثال: تشهد الجامعة المستنصرية التي تسيطر عليها المليشيات إغلاقاً كاملاً لقاعات التدريس، وإقامة الاحتفالات الدينية، ذات الطقوس المعروفة كلما مرت مناسبة ما، مما يدخل تحت توجه تلك المليشيات المسيطرة، ولعلَّ التدخل المباشر من قبل بعض المرجعيات هو السبب المباشر وراء بعض حالات العنف الذي تشهده الجامعات[1].

(٢) سيطرة الأحزاب السياسية على حرم الجامعة

وهذا أمر واضح للعيان، بل يعد من ألف باء الوضع العراقي الذي لا يكاد يخفى على أحد مطلقاً، فالأحزاب أرادت أن تكسب الشباب لصالحها وصالح توجهاتها، بما يخدم مصالحها، تحقيقاً لمآرب داخلية وخارجية، وهي تعرف أن ذلك لن يتم إلا بكسب أكبر عدد ممكن من الشباب وخاصة المثقفين منهم، فوجدت بغيتها في أروقة الجامعات العراقية؛ ساعدها في ذلك الفلتان الأمني، والتدهور الأمني المستمر، وبالتالي أشعل روح المنافسة بين الطلبة الذين تختلف

[1] لا يفتأ ممثلوا المراجع من زيارة الجامعات، فعلى سبيل المثال زار وفد من مكتب المرجع المدرسي الجامعة المستنصرية في ٢٠٠٥/٥/٥م ، وطلب الوفد من رئاسة الجامعة طلبات كثيرة فيها تدخل واضح في سير الدراسة والتعليم، تنظر هذه الأمور مفصلة على الموقع الالكتروني للمدرسي بعنوان ((وفد مكتب المرجع المدرسي في بغداد يزور الجامعة المستنصرية)).

توجهاهم وأفكارهم بطبيعة الحال، فزاد الطين بلةً، لتصبح الجامعات مكاناً لتصفية الحسابات السياسية لصالح الأحزاب والتيارات، والضحية هو حياة الأستاذ أو مستقبل الطالب.

خامساً: الإحصائيات المعدة حول العلماء الذين تم اغتيالهم: إنَّ ما يتعرض له العلماء في العراق يعد نوعاً من الإبادة الجماعية المدبرة لإفراغ هذا البلد من طاقاته، وإفقار أهله من علمائه وخبرائه، ولذلك يتعرض بلد الرافدين اليوم إلى استنزاف رهيب لعقول أبنائه، كل هذا حدا بالصحفي البريطاني المشهور (روبرت فيسك) أن يكتب مقالته الشهيرة (يشعر منتسبو الهيئات التدريسية في جامعات العراق وجود مخطط لتجريد العراق من علمائه وأكاديمييه؛ لاستكمال تدمير الهوية الثقافية للعراق في أعقاب احتلاله عام ٢٠٠٣م)[١]، وذكرت تقارير[٢] أعدها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية مقتل أكثر من (٢٠٠) أستاذ جامعي منذ الغزو الأمريكي للعراق في ٤/نيسان/٢٠٠٣م، أما الأساتذة الذين غادروا البلد بسبب مخاوفهم فقد تجاوز (٣٠٠٠) أستاذ جامعي وأكاديمي، ونقلت صحيفة الرياض[٣] إلى أنَّ الذين تمت تصفيتهم من الأساتذة الجامعيين العراقيين بلغوا (٢٥٠) أستاذاً جامعياً، واختفى منهم مئات، وهرب عدد كبير يقدر بالآلاف.. بينما تؤكد رابطة التدريسيين الجامعيين على أن العدد وصل إلى (٢٦٨) أستاذاً بينهم (١٨٢) أكاديمياً، منهم (١٥٠) ممن يحملون شهادة الدكتوراه، ويحتل قسم كبير منهم مواقع مسؤولية أكاديمية

---

[١] موقع صحيفة الرياض على الإنترنت بتاريخ ٢١/٢/٢٠٠٦م.

[٢] موقع صحيفة الحياة على الإنترنت بتاريخ ٦/١٢/٢٠٠٦م.

[٣] في عددها الصادر بتاريخ ٢١/٢/٢٠٠٦م.

متقدمة، وأشارت إحصائيات أخرى رسمية أنّ ما يقرب من ألف عراقي لقوا مصرعهم في عمليات اغتيال، استهدفت الكوادر العلمية والثقافية والفنية خلال سنة واحدة أعقبت الاحتلال[1]، بينما أكد تقرير أمريكي بأن جهاز الاستخبارات الخارجية الصهيونية (الموساد) بالاشتراك مع قوات الاحتلال الأمريكي في العراق تمكن حتى الآن من قتل (٣٥٠) عالماً عراقياً، وأكثر من (٢٠٠) أستاذاً جامعياً في المعارف العلمية المختلفة[2]، وفي إحصائية نشرها جريدة المركز الدولي لرصد الانتهاكات في العراق بأنّ نحو (٥٠٠) عالماً عراقياً قد تم اغتيالهم على أيدي مجهولين وفق قائمة معدّة سلفاً تضمُ أكثر من (١٠٠٠) عالم عراقي، ويبدو أنّ هناك عدداً كبيراً من الأساتذة تم اغتيالهم يفوق كل هذه التقارير والإحصائيات التي نقلناها، وذلك للأسباب الآتية:

(١) عدم وضوحها ودقتها في الإحصاء، فأغلبها يشير إلى إحصاء في فترة محددة من الزمن.

(٢) إن كثيراً من الإحصائيات ينقصها الدقة في إحصاء الأساتذة الذين يتم اغتيالهم في المناطق التي تشهد توتراً أمنياً ملحوظاً، وخاصة المناطق الغربية من العراق، كمحافظة الأنبار مثلاً، التي تضم الرمادي والفلوجة وحديثة وراوة وهيت والبغدادي والقائم وغيرها، والسبب هو عدم قدرة القائمين على الإحصائيات من تغطية هذه الأعداد أو الاعتماد على المؤسسات التعليمية أو

---

[1] ينظر: جريدة الزمان العدد (١٧٦٣) بتاريخ ٢٠٠٤/٣/٢٢م، وينظر : مجلة المجتمع العدد (١٦٥٥) بتاريخ ٢٠٠٥/٦/١١م.

[2] ينظر : مقالة اغتيال العقول العراقية الأهداف والخلفيات، على شبكة الإنترنت.

التربوية فيها؛ بسبب إغلاقها بالكامل[1].

سادساً: تداعيات الوضع الأمني على الجامعات العراقية: هناك جملة من التداعيات التي أفرزهما الواقع الأمني المتردي على الواقع التعليمي في العراق بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣م نتيجة للتخبط السياسي والتدهور الأمني الذي شهدته الساحة العراقية.. ولعلَّ أهمها يتمثل بأمرين مهمين، هما:

(١) إجبار الطالب على التفكير بتأجيل الدراسة أو تعليقها، حيث أدرك عدد كبير من الطلبة أنَّ الموت سيحصد أرواحهم على أيدي قوات الاحتلال والمليشيات الطائفية والعصابات الإجرامية الطائفية، وتحدث جمع غفير من الطلاب عن تفكيرهم بتأجيل الدراسة عاماً كاملاً، آملين أن يتحسن الوضع الأمني في العام الذي بعده ليواصلون مسيرتهم الدراسية.

(٢) عدم انتظام الدوام بصورة صحيحة وفق جدول المحاضرات المطلوب، فالخوف من عمليات القتل والخطف جعلت الدراسة في الجامعات غير منتظمة، وتشير مصادر جامعية متعددة إلى أن معظم طلبة المراحل الأولى لم يلتحقوا بصفوفهم بعدما طالت الاغتيالات العشرات من الأساتذة والطلبة[2].

سابعاً: الجهات التي تقف وراء اغتيال الأساتذة والعلماء: هناك جهات

---

[1] على سبيل المثال ((جامعة الأنبار)) التي تضم ما يزيد على عشرة كليات أغلقت فترة من الزمن أو انعدم الدوام في بعض كلياتها على الأقل؛ بسبب التوتر الأمني الذي تشهده المحافظة، وبسبب الحواجز الأمنية التي تقوم بها قوات الاحتلال، حيث أقامت آنذاك نقطتين لتفتيش الطلاب بين كل نقطة وأخرى ٥٠٠ متر تقريباً، ولا يستطيع الطالب الدخول إلا عبر هذا المنفذ الوحيد، بالإضافة إلى اتخاذها لعدد من أبنية الكليات مقراً عسكرياً لها.

[2] ينظر : موقع جريدة الحياة على الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٦م.

عديدة من مصلحتها إيقاف عجلة العلم والتعلم والثقافة والمعرفة والوعي العلمي في العراق، فهي تسعى جاهدة لإرباك المسيرة التعليمية من خلال استهداف العقول والكفاءات العراقية.. وعلى أية حال فإنَّ من أهم هذه الجهات التي تقف وراء استهداف الكفاءات هي:

(١) **قوات الاحتلال**: وقد قامت باغتيال عدد من الأساتذة الجامعيين والعقول العراقية المؤثرة في الساحة؛ نقمة منها على الدور الذي يقوم به هؤلاء المفكرون في بلاد الرافدين، وربما بفعل الوشايات الكاذبة التي تصلهم من بعض العملاء[(١)].

(٢) **التنظيمات الطائفية**: وأغلبها معروف بتبعيتها لتيارات إسلامية تشارك الآن في الحكومة الحالية، وهي تسيطر على بعض الجامعات العراقية، وهدفها الواضح والمعلن هو (تصفية الخصوم والمنافسين في جميع المجالات).. وهذا القسم يأخذ اتجاهين اثنين هما: أولاً: الأحزاب والتيارات الطائفية وثانياً: المليشيات الطائفية المسلحة وغالباً ما تكون هذه المليشيات تابعة لهذه الأحزاب والتيارات، وهؤلاء يقومون بالدور الأكبر في عمليات الخطف والاغتيال.

(٣) **عملاء خارجيون**: وهم تابعون لجهات خارج العراق، وكثير من هؤلاء تقف وراءهم بعض أجهزة المخابرات، وهدفهم إفراغ بلاد الرافدين من العقول والإمكانات التي يتمتع بها، وربما تقوم بمثل هذه الاغتيالات لردِ اعتبار أو ثأر من بعض العلماء الذين كان لهم تميز أو حسن أداء، بما لم يخدم تلك الدول التي

---

(١) ينظر : مقالة للدكتور أكرم المشهداني ((مسلسل تصفية علماء العراق إلى متى؟ ومن المسؤول)) مجلة المجتمع العدد (١٦٥٥) بتاريخ ١١/٦/٢٠٠٥م.

ينتمي إليها هؤلاء العملاء[1].

(٤) **متشددون**: وهم لا يمثلون طرفاً في الساحة العراقية، وقد يقتلون أيَّ أستاذ جامعي أو غيره بمجرد توجيه التهم بناءً على الشبهة التي قد يستندون إليها.

(٥) **جهات تستهدف الأساتذة الجامعيين السابقين** (في النظام السابق) وقد تكونت جهات مهمتها اغتيال الأساتذة الذي يتهمون بقربهم من الحكومة السابقة.

(٦) **عصابات نفعية (ابتزازية)**: تبتغي من عملها الحصول على المال من خلال مطالبتهم بفدية مالية لغرض الإفراج عن المخطوف، وغالباً ما تحصل على المال ولا تنفذ وعدها بإطلاق سراح المخطوف، لتقتله وتطرحه جثة هامدة في طرق بغداد، وقد تنفذ وعدها وتطلق سراح المخطوف.

ثامناً: كيفية الخروج من مأزق ظاهرة الاغتيال: مما لا شك فيه أن مثل هذا الأمر ليس بالسهل، فهو يتطلب عملاً مكثفاً ودؤباً ويحتاج إلى مواصلة الجهود وتضافرها حتى تؤتي ثمارها في الحل الناجع لهذه الأزمة، خاصة وأن هناك جهات متعددة تعمل على القيام بهذا الوباء الذي ابتليت به بلاد الرافدين.. وتعاملنا مع الواقع يفرض علينا وضع حلول مناسبة، لا تقفز على الواقع بحيث يمكن لها أن تسهم بشكل ملحوظ في تخفيف دواعي هذه الظاهرة الغريبة،

[1] تشير التقارير إلى أن للموساد الإسرائيلي ما يقرب من (٥٠٠٠ الآف) عنصر يعملون في العراق، كما إنَّ المدن العراقية ــ وخاصة العاصمة والجنوبية منها ــ تضم ما يقرب من ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف عنصر إيراني دخلوا العراق بهويات مزورة، وقسم كبير منهم دخلوا مع الأفواج غير المنتظمة بحجة زيارة المراقد الدينية، حسبما تشير التقارير. ينظر : مجلة المجتمع العدد (١٦٥٥) بتاريخ ٢٠٠٥/٦/١١م.

وأرى أن الحلول يجب أن تمر بعدة مراحل:

(١) التذكير بالمبادئ الإسلامية النبيلة والقيم الأصيلة والأخلاق الفاضلة التي تدعوا إلى احترام نفوس الآخرين وحرمة إزهاقها بغير حق، وهذا المبدأ يمكن أن تعمل عليه الهيئات الإسلامية والمرجعيات الدينية من علماء الدين وخطباء المساجد وغيرهم.

(٢) إحكام سيطرة الدولة على الملف الأمني في البلاد بصورة حقيقية غير دعائية، والتعامل مع كل القوى التي تريد خلق الفتنة في البلاد بصورة عادلة في ضرورة إيقافها عند حدها، والعمل على إنهاء العنف في البلاد.

(٣) العمل على نشر ثقافة احترام الرأي والرأي الآخر مهما كان نوعه، وضرورة تقبل الآراء واحترام وجهة نظر أصحابها، دون الاحتكام إلى القتل أو إزهاق الأرواح.

(٤) اقتناع السياسيين بمفهوم استقلالية الجامعات والحرية الأكاديمية ومراجعة موقفها من حرية الفكر والتعليم الجامعي، والعمل على إبعاد تمثلياتهم المعلنة وغير المعلنة من حرم الجامعات وإداراتها.

(٥) إعادة النظر في إقحام السياسة أو التوجهات الطائفية المتطرفة داخل أروقة الجامعات العراقية.

(٦) تجنيد كافة الوسائل الإعلامية لخدمة مشروع تأهيل الجامعات وإعادة حيويتها في الإطار العلمي والفكري بعيداً عن السياسة وتداعياتها، والعمل على تحذير المؤسسات والجمعيات التي تهتم بحماية العالم والأستاذ العراقي لأن تأخذ

دورها في القيام بواجبها على الوجه الأكمل دون مضايقات[1].

(٧) هذا بالإضافة إلى خطوات عملية أخرى يمكن أن يكون لها تأثير واضح في التقليل من تلك العمليات، كالعمل على إسكان الأساتذة في بيوت قريبة من جامعاتهم، وتشديد الحماية على حرم الجامعات من قبل حراس نظيفين ليس لهم ارتباط بأي جهة حزبية أو طائفية[2]، وكذلك الطرق المؤدية إلى تلك الجامعات.

(٨) هذا فضلاً عن مطالبة الجمعية الدولية لحماية علماء العراق الحكومة الحالية توفير الحراس الشخصيين للأساتذة الكبار بما لا يقل عن حارسين في ظل هذا الوضع المتدهور وإلى حين استتباب الأمن في البلاد[3].

---

[1] من الجدير بالذكر أن هناك عدة مؤسسات دولية وعراقية تأسست من أجل العمل على حماية الأساتذة الجامعيين العراقيين أو محاولة ذلك على الأقل، فمن أهم الجمعيات الدولية هي (اللجنة الدولية لحماية علماء العراق) ومقرها في باريس، ويرأسها الدكتور قيس العزاوي، أما المؤسسات العراقية فأهمها (رابطة التدريسيين الجامعيين) ومقرها في بغداد، وقد تأسست في حزيران عام ٢٠٠٣م متكونة من آلاف العلماء والتدريسيين، وكان يرأسها الأستاذ الفاضل الدكتور عصام الراوي رحمه الله تعالى وهو عضو مجلس الشورى في هيئة علماء المسلمين، وقد طالته هو الآخر أيدي الظلم والغدر، والرابطة لها جهود مباركة كونها قريبة من واقع الأساتذة وتتقاسم تلك المعاناة معهم، وأصدرت ما يقرب من خمسمائة نداء وبيان استغاثة لحماية الأساتذة الجامعيين.

[2] إنما نؤكد على ذلك لأن كثيراً من الحراس الأمنيين على بوابات الجامعات هم ممن لهم ارتباط واضح بتلك الأحزاب أو المليشيات، بل هم في كثير من الأحيان من يقفون وراء عمليات الاغتيال أو الاختطاف. ينظر : موقع جريدة الرياض على الإنترنت تحت عنوان (دوامة القتل) بتاريخ ٢١/٢/٢٠٠٦م.

[3] جاءت مطالبة الأستاذ الدكتور قيس العزاوي رئيس اللجنة الدولية لحماية علماء العراق في مقابلة بثت على قناة الجزيرة في برنامج ما وراء الخبر بعنوان (النزيف العلمي في العراق) بتاريخ ١٧/٣/٢٠٠٦م، وهي بنصها على موقع الجزيرة نت.

قائمة بالعلماء والأكاديميين العراقيين الذين طالتهم أيادي الغدر[1]

في كارثة أقل ما يقال فيها أنها تمثل أكثر مآسي القرن الحادي والعشرين، تم استهداف مجموعة كبيرة من العقول والأدمغة من مختلف الاختصاصات الذين يمثلون نخبة العراق المميزة التي كانت رأس مال العراق على مر عشرات السنين من العمل والعلم المتواصل، وهذه القائمة تحتوي على أسماء بعض مواكب الشهداء من علماء العراق الذين اغتيلوا منذ الاحتلال الأمريكي للعراق ولغاية تشرين الأول/ أكتوبر من عام ٢٠٠٨م.

ت	الاسم	الاختصاص	الجامعة	تاريخ الاغتيال
١	عالم عبد الحميد	أ.د في الطب الوقائي/عميد كلية الطب	البصرة	مجهول
٢	عباس كاظم الهاشمي	أ.د في العلوم الإنسانية	بغداد	مجهول
٣	عباس العطار	أ.د في الدراسات الإنسانية	بغداد	مجهول
٤	عبد المنعم عبد المؤيد	أستاذ محاضر	البصرة	مجهول
٥	عبد الغني السعدون	أستاذ محاضر	البصرة	مجهول
٦	عبد الحسين الجابوك	أ.د	بغداد	مجهول
٧	عبد الجبار النعيمي	عميد كلية العلوم السياسية	الموصل	مجهول
٨	عبد السلام صباح	أ.د في علم الاجتماع	بغداد	مجهول
٩	عبد الكريم مخلف صالح	أ.د في اللغة العربية	الأنبار	٢٠٠٤/١٢/٥
١٠	عبد العزيز الأترجي	أ.د حماية النبات	الموصل	مجهول
١١	عبد العزيز جاسم	علوم إسلامية	بغداد	مجهول
١٢	عبد الهادي العاني	طبيب استشاري	غير معلوم	مجهول
١٣	عبد الرحمن سعيد	أ.د	غير معلوم	مجهول
١٤	عبد السميع الجنابي	أ.د /عميد كلية العلوم	المستنصرية	مجهول
١٥	عبد الجبار مصطفى	د. علوم سياسية	الموصل	مجهول
١٦	أحمد عبد الهادي الراوي	د. علوم التربة	الأنبار	مجهول
١٧	أحمد عبد الرحمن	أ.د كلية الطب	الأنبار	٢٠٠٥/٢/٢٦

[1] تم جمع هذه القائمة إستناداً إلى مواقع رسمية وغير رسمية ومن على شبكة الإنترنت.



	الكبيسي			
١٨	أحمد عبد الرازق	أ.د كلية الطب	غير معلوم	مجهول
١٩	زكي ذاكر العاني	أ.د كلية الأداب	المستنصرية	٢٠٠٥/٨/٢٦
٢٠	عقيل عبد الجبار البهادلي	أ.د/معاون عميد كلية الطب	النهرين	مجهول
٢١	علي عبد الحسين كامل	أ.د في الفيزياء	بغداد	مجهول
٢٢	علي المالكي	د. في القانون/ مدير دائرة الضريبة	بغداد	٢٠٠٤
٢٣	عامر الملاح	أ.د/مدير قسم الجراحة في المستشفى الجمهوري التعليمي	غير معلوم	٢٠٠٤/١٠/٣
٢٤	أمير مزهر الدايني	أ. في هندسة الاتصالات	غير معلوم	مجهول
٢٥	عمار العاني	أ. د في الطب	غير معلوم	٢٠٠٥/١٠
٢٦	عزيز علي	أ.د / عميد كلية الحقوق	غير معلوم	مجهول
٢٧	باسل الكرخي	أ.د في الكيمياء	بغداد	مجهول
٢٨	بسام كبة	مستشار في وزارة الخارجية	غير معلوم	مجهول
٢٩	عماد سرسم	أ.د في جراحة العظام والكسور عميد كلية الطب سابقاً	غير معلوم	مجهول
٣٠	فاضل طراد الياسري	مدير مدرسة في كربلاء	كربلاء	مجهول
٣١	محمد فلاح الدليمي	أ.د في الفيزياء/معاون عميد كلية العلوم	المستنصرية	مجهول
٣٢	فيصل الأسدي	أ.د في الهندسة الزراعية	البصرة	مجهول
٣٣	فيصل المشهداني	مؤسس الحملة الدولية ضد العدوان الصهيوني الأمريكي	مجهول	مجهول
٣٤	غالب لطيف	شيخ وأستاذ علوم إسلامية	ديالى	مجهول
٣٥	حافظ الحافظ	طبيب أطفال	مجهول	مجهول
٣٦	حيدر البعاج	مدير مستشفى البصرة التعليمي	بصرة	مجهول
٣٧	حيدر طاهر	أ.د كلية الطب	البصرة	مجهول
٣٨	هيثم عودة	نائب رئيس قسم الهندسة الكيميائية /جامعة البصرة	البصرة	مجهول
٣٩	حامد فيصل الفهداوي	أ.د في جامعة الأنبار	الأنبار	مجهول
٤٠	حازم عبد الهادي الطائي	أ.د في كلية الطب	بغداد	مجهول
٤١	هشام شريف	رئيس قسم التاريخ	بغداد	مجهول
٤٢	حسام الدين أحمد	عميد كلية التربية	المستنصرية	مجهول



٤٣	ابراهيم الرشيد	مدير عام في وزارة العلوم	مجهول	مجهول
٤٤	إحسان عبد علي الربيعي	أ.د معاون عميد كلية الطب	بغداد	مجهول
٤٥	إحسان كريم	مدير مكتب الرقابة المالية	مجهول	مجهول
٤٦	عماد نصير	كلية العلوم السياسية	المستنصرية	مجهول
٤٧	ايمان يونس	رئيسة قسم الترجمة	الموصل	مجهول
٤٨	عصام سعيد عبد الكريم	استاذ جيولوجي	مجهول	٢٠٠٤/١٠/١
٤٩	اسماعيل يوسف	أ.د نايب في محكمة الإستئناف	مجهول	مجهول
٥٠	جعفر صادق نجيب	أ.د في جراحة الأعصاب	مجهول	مجهول
٥١	جميل عبد	تعليمي ومدير مدرسة	مجهول	مجهول
٥٢	جاسم محمد	عميد كلية الآداب	بغداد	مجهول
٥٣	جواد الشكرجي	أ.د في الأمراض التناسلية	مجهول	مجهول
٥٤	محمد كمال الجراح	أ.د في اللغة النجليزية	وزارة التربية	٢٠٠٤/٦/١٠
٥٥	كريم غيث	أ.د في القانون	مجهول	مجهول
٥٦	كريم حساني	أ.د كلية الطب	البصرة	مجهول
٥٧	خالد ابراهيم سعيد	أ.د في الهندسة الفيزيائية	مجهول	مجهول
٥٨	خالد الجنابي	أ.د في التاريخ الإسلامي	بابل	مجهول
٥٩	كيلان محمود	أ.د عميد كلية الهندسة	البصرة	مجهول
٦٠	ليث عبد العزيز عباس	كلية العلوم	النهرين	مجهول
٦١	مجيد حسين علي	أ.د في الفيزياء وأحد العلماء الكبار في الطاقة النووية	بغداد	٢٠٠٤
٦٢	مكي الغرباوي	أ. جراح	مجهول	مجهول
٦٣	مروان الراوي	أ. في الهندسة	مجهول	مجهول
٦٤	مروان رشيد	أ.د نائب عميد كلية الهندسة	بغداد	مجهول
٦٥	مهند عباس الدليمي	أ. في الهندسة الميكانيكية	بغداد	مجهول
٦٦	محمد عبد الحسين واحد	أ. في السياحة /معهد الإدارة	بغداد	مجهول
٦٧	محمد عبد المنعم الأزميرلي	أ. في الكيمياء	بغداد	مجهول
٦٨	محمد الحكيم	أ.د عميد كلية الصيدلة	البصرة	مجهول
٦٩	محمد قاسم	أ.د في الهندسة	البصرة	مجهول
٧٠	محمد ياسين بدر	أ.د رئيس جامعة البصرة	البصرة	مجهول
٧١	محمد علي جواد	عميد كلية القانون	المستنصرية	مجهول
٧٢	محمد القيسي	أ. مُحاضر	بغداد	مجهول

٧٣	محمد فلاح الدليمي	أ.د في العلوم الفيزيائية/ معاون عميد كلية العلوم	المستنصرية	مجهول
٧٤	محمد منعم الإزميرلي	أ.د في الكيمياء	مجهول	٢٠٠٣
٧٥	محمد يعقوب العبيدي	مجهول	بغداد	مجهول
٧٦	محمد يعقوب الزيدي	أكاديمي	مجهول	مجهول
٧٧	مولود حسن	أ. كلية في الشريعة	الإمام الأعظم	مجهول
٧٨	مهند عباس خضير	أ.د في الهندسة الميكانيكية	بغداد	مجهول
٧٩	مهند الدليمي	أ. في العلوم	التكنولوجية	مجهول
٨٠	محي حسين	أ.د في الهندسة الديناميكية	التكنولوجية	مجهول
٨١	منير الخيرو	أ.د في القانون	الموصل	مجهول
٨٢	مصطفى المشهداني	أ.د في الدراسات الإسلامية	بغداد	مجهول
٨٣	نافع عبود	أ. في الأدب العربي	بغداد	مجهول
٨٤	نجم الياسري	تعليمي ومدير مدرسة	كربلاء	مجهول
٨٥	نزار عبد الأمير العبيدي	أستاذ	بغداد	مجهول
٨٦	نؤيل بطرس	أ.د في المعهد الطبي	الموصل	مجهول
٨٧	عمر فخري	أ.د في البايولوجي/كلية العلوم	البصرة	مجهول
٨٨	قصي تكريت	رئيس إتحاد الطلاب	الموصل	مجهول
٨٩	رعد أوخسن البينو	أ.د جراحة في كلية الطب	الأنبار	مجهول
٩٠	رياض خالد وليد	أ.د في هندسة الألكترونيات	مجهول	مجهول
٩١	سعد الربيعي	أ.د بايولوجي في كلية العلوم	البصرة	مجهول
٩٢	صباح بهنام	دبلوماسي	وزارة الخارجية	مجهول
٩٣	صباح حاجم جابر	أ. في العلوم التقنية	البصرة	مجهول
٩٤	صباح هاشم	أ. في معهد الإدارة	البصرة	مجهول
٩٥	صادق البعاج	د. مدير المستشفى العسكري	الناصرية	مجهول
٩٦	صادق العبيدي	أ. في الأعصاب	مجهول	مجهول
٩٧	ساهرة محمد المشهداني	الجامعة التكنولوجية	بغداد	مجهول
٩٨	صلاح بندر	مدير ثانوية الكندي	مجهول	مجهول
٩٩	شاكر فلاح حسن	مهندس في غاز الجنوب	مجهول	مجهول
١٠٠	شاكر الخفاجي	أ.د مدير جهاز التقييس	مجهول	مجهول
١٠١	شاكر محمود جاسم	أ.د في الزراعة	الأنبار	مجهول
١٠٢	سهاد العبادي	أ. في الفيزياء	مجهول	مجهول
١٠٣	ثامر عبد اللطيف	مدير عام في وزارة العلوم	مجهول	مجهول
١٠٤	زنوبيا عبد الحسين	أ.د في الطب البيطري	البصرة	مجهول

١٠٥	وجيه محجوب	أ.د في التربية الرياضية	وزارة التربية	٢٠٠٣/٤/٩
١٠٦	خالد فيصل حامد	أ.د في التربية الرياضية	الموصل	٢٠٠٣/٤/١١
١٠٧	محمد فلاح علي	أ.د /معاون عميد كلية العلوم	المستنصرية	٢٠٠٣/٥/١٠
١٠٨	صباح محمود الربيعي	أ.د /عميد كلية التربية	المستنصرية	٢٠٠٣/٥/١٦
١٠٩	كساب جابر العطار	أ. محاضر في كلية الهندسة	البصرة	٢٠٠٣/٦/٨
١١٠	رافي سرسيسيان	أ. محاضر في كلية التربية	بغداد	٢٠٠٣/٦/٩
١١١	محمد نجيب القيسي	أ.د في الجغرافية / قسم البحوث	المستنصرية	٢٠٠٣/٦/٢٠
١١٢	حسام الدين أحمد محمود	أ.د /رئيس قسم التربية	المستنصرية	٢٠٠٣/٧/١١
١١٣	محمد عبدالله الراوي	أ.د رئيس جامعة بغداد	بغداد	٢٠٠٣/٧/٢٧
١١٤	هيفاء علوان	أ.د في الفيزياء	بغداد	٢٠٠٣/٩/٧
١١٥	عبد الله الفضل	أ.د في الكيمياء	البصرة	٢٠٠٣/٩/٣٠
١١٦	أسعد سالم عبد القادر	أ.د /عميد كلية الهندسة	البصرة	٢٠٠٣/١٠/١٥
١١٧	عصام شريف محمد	أ.د في التاريخ	بغداد	٢٠٠٣/١٠/٢٥
١١٨	عبد الستار الدليمي	أ.د في الأحياء	بغداد	٢٠٠٣/١١/١
١١٩	عبد الوهاب سلمان	أ.د	مجهول	٢٠٠٣/١٢/٩
١٢٠	نافع محمود خلف	أ.د في اللغة العربية	بغداد	٢٠٠٣/١٢/١٣
١٢١	عادل جبار عبد	أ.د عميد كلية العلوم السياسية	الموصل	٢٠٠٤/١/١
١٢٢	محمد عبد الحسين وحيد	أ.د محاضر في معهد التكنولوجيا	بغداد	٢٠٠٤/١/٩
١٢٣	عبد اللطيف المياحي	أ.د في الإقتصاد	المستنصرية	٢٠٠٤/١/١٩
١٢٤	محمد يونس ذنون	أ. مساعد ومحاضر في التربية الرياضية	الموصل	٢٠٠٤/١/٢٧
١٢٥	حسين ياسين	أ.د في الفيزياء	البصرة	٢٠٠٤/٢/١٨
١٢٦	مجيد حسين	أ.مساعد في الطب	القادسية	٢٠٠٤/٣/١٠
١٢٧	مروان مظهر الهيتي	أ.د في الهندسة الكيميائية	بغداد	٢٠٠٤/٣/١٦
١٢٨	سعدي أحمد زيدان	أ.د في العلوم الإسلامية	بغداد	٢٠٠٤/٣/٢٦
١٢٩	علي غالب علي .	أ. محاضر في كلية الهندسة	البصرة	٢٠٠٤/٤/١٢
١٣٠	كفاية حسين صالح	أ.د في اللغة الانجليزية	البصرة	٢٠٠٤/٥/٢٦
١٣١	قحطان كاظم حاتم	أ.محاضر في كلية الهندسة	بغداد	٢٠٠٤/٥/٣٠
١٣٢	صابر مصطفى البياتي	أ.د في الجغرافية	بغداد	٢٠٠٤/٦/١٣
١٣٣	ليلى عبد الله سعيد	أ.د / عميد كلية القانون	الموصل	٢٠٠٤/٦/٢٢

١٣٤	فاضل موسى حسين	أ.د في الفيزياء	تكريت	٢٠٠٤/٦/٢٧
١٣٥	باسم المدرس	أ.د في الكيمياء	تكريت	٢٠٠٤/٧/٢١
١٣٦	سعدي داغر	أ.د في الفنون الجميلة	بغداد	٢٠٠٤/٧/٢٣
١٣٧	إسماعيل الكلابي	رئيس معهد المعلمين في الحمودية	بغداد	٢٠٠٤/٧/٣٠
١٣٨	عامر ابراهيم حمزة	أ. محاضر في تقنية الطاقة	بغداد	٢٠٠٤/٨/١٧
١٣٩	محمد صالح مهدي	أ.مساعد /مركز بحوث السرطان	بغداد	٢٠٠٤/٨/١٧
١٤٠	ايمان عبد المنعم يونس	أ.د في الترجمة	الموصل	٢٠٠٤/٨/٣٠
١٤١	محمود ابراهيم حسين	أ.د في البايولوجي	تكريت	٢٠٠٤/٩/٣
١٤٢	محمد تقي حسين	أ.د في الفيزياء النووية /عضو البرنامج النووي العراقي	مجهول	٢٠٠٤/٩/٤
١٤٣	زكي جابر لفتة	أ.مساعد في كلية الطب البيطري	بغداد	٢٠٠٤/١٠/١٦
١٤٤	خليل اسماعيل عبد الظاهر	أ.د في التربية الرياضية	بغداد	٢٠٠٤/١٠/١٧
١٤٥	فيضـــي الفيضـــي	عضو هيئة علماء المسلمين	الموصل	٢٠٠٤/١١/٢٢
١٤٦	قاسم مهاوي حسين	أ.د/مدير عام شركة الإتصالات	وزارة الإتصالات	٢٠٠٤/١٢/١٦
١٤٧	موفق يحيى حمدون	معاون عميد كلية الزراعة	الموصل	٢٠٠٤/١٢/١٨
١٤٨	محفوظ القزاز	أ.د في التاريخ الإسلامي	الموصل	٢٠٠٤/١٢/٢٠
١٤٩	طالب ابراهيم الظاهر	أ.د /عضو البرنامج النووي العراقي	ديالى	٢٠٠٤/١٢/٢١
١٥٠	حسن عبد علي الربيعي	أ.د/عميد كلية طب الاسنان	بغداد	٢٠٠٤/١٢/٢٥
١٥١	عمر محمود عبدالله	أ.د في الصيدلة	مجهول	٢٠٠٥/١/٤
١٥٢	مدلول الباز	جامعة تكريت	تكريت	٢٠٠٥/١/٦
١٥٣	أحمد ناصر الناصري	أ.د في التربية	بغداد	٢٠٠٥/٢/١
١٥٤	أحمد سعدي زيدان	أ.د في التربية	الأنبار	٢٠٠٥/٢/١
١٥٥	حارث عبد الجبار	ماجستير علوم/فيزياء	تكريت	٢٠٠٥/٢/١٢
١٥٦	سيف زكي سعدي	أ.د	مجهول	٢٠٠٥/٢/١٢
١٥٧	وناس عبدالله النداوي	أ.د في التربية	بغداد	٢٠٠٥/٢/١٨
١٥٨	وعد عبدالله قادر	أ.د	الموصل	٢٠٠٥/٣/٢٩
١٥٩	ناطق صبري حسن	أ.د في الزراعة	الموصل	٢٠٠٥/٤/١٢

١٦٠	باسم حبيب سلمان	أ.د في الطب	المستنصرية	٢٠٠٥/٤/١٥
١٦١	حسام قرياقوش توماس	أ.د في الطب	المستنصرية	٢٠٠٥/٤/١٥
١٦٢	فؤاد ابراهيم البياتي	أ.د في اللغة الالمانية	بغداد	٢٠٠٥/٤/١٩
١٦٣	نايف سلطان صالح	أ.د في المعهد الدولي	الموصل	٢٠٠٥/٤/٢٦
١٦٤	رعد عبداللطيف السعدي	أ.د في اللغة العربية	وزارة التعليم العالي	٢٠٠٥/٤/٢٨
١٦٥	عبد الحسين ناصر خلف	أ.د في قسم البحوث الزراعية	البصرة	٢٠٠٥/٥/١
١٦٦	باسل عباس حسن	أ.د في أمراض القلب	مجهول	٢٠٠٥/٥/١
١٦٧	عبدالله صاحب يونس	مدير مستشفى النعمان	بغداد	٢٠٠٥/٥/١١
١٦٨	كاظم علوش	مدير مستشفى الكرامة	بغداد	٢٠٠٥/٥/١١
١٦٨	مصطفى محمد الهيتي	أ.د /عميد كلية الصيدلة	بغداد	٢٠٠٥/٥/١١
١٧٠	سامي أيمن	أ.د/أمراض خبيثة وعلاج الإدمان	مجهول	٢٠٠٥/٥/١١
١٧١	سنان مؤيد	مدير مستشفى الحمدانية	الموصل	٢٠٠٥/٥/١١
١٧٢	رضا رفعت أمين	د. في الطب	مجهول	٢٠٠٥/٥/١٩
١٧٣	قاسم محمد العمري	أ.د	بغداد	٢٠٠٥/٥/١٩
١٧٤	موسى سلوم الربيعي	أ.د/معاون عميد كلية التربية	المستنصرية	٢٠٠٥/٥/٢٧
١٧٥	عبدالستار صابر الخزرجي	أ.د في الهندسة	بغداد	٢٠٠٥/٦/١٩
١٧٦	جاسم العيساوي	أ.د في العلوم السياسية	بغداد	٢٠٠٥/٦/٢١
١٧٧	جمهور كريم خماس	د. في اللغة العربية	البصرة	٢٠٠٥/٧/٨
١٧٨	علاء داود سلمان	أ.د في التاريخ / مساعد رئيس جامعة البصرة	البصرة	٢٠٠٥/٧/١٨
١٧٩	ظامن حسين العبيدي	أ.د/عميد كلية القانون	تكريت	٢٠٠٥/٧/٢٣
١٨٠	مجبل عجاج الجبوري	أ.محاضر في كلية القانون	تكريت	٢٠٠٥/٧/٢٣
١٨١	حكيم مالك الزيدي	أ.محاضر في اللغة العربية	القادسية	٢٠٠٥/٧/٢٤
١٨٢	عبد الجبار عبد مصطفى	أ.د في العلوم السياسية	الموصل	٢٠٠٥/٧/٢٤
١٨٣	وسام الهاشمي	رئيس إتحاد الجيولوجيين العرب	مجهول	٢٠٠٥/٧/٢٤
١٨٤	هاشم عبد الكريم	أ.محاضر في كلية التربية	المستنصرية	٢٠٠٥/٨/٢٨
١٨٥	سامر يلدا جرجيس	أ.د/معاون عميد كلية الإدارة	المستنصرية	٢٠٠٥/٨/٢٨
١٨٦	زكي ذاكر العاني	أ.محاضر في كلية اللغات	المستنصرية	٢٠٠٥/٨/٢٨
١٨٧	عبد اللطيف الطائي	أ.د	بغداد	٢٠٠٥/٩/٥
١٨٨	محمد المشهداني	عضو مجلس الحوار	مجهول	٢٠٠٥/٩/١٩

١٨٩	مولود حسن التركي	أ.د/العلوم الإسلامية	كلية الإمام الأعظم	٢٠٠٥/٩/٢٥
١٩٠	عمران حامد	أ.محاضر	تكريت	٢٠٠٥/١٠/١٢
١٩١	جاسم الفهداوي	أ. محاضر في اللغة الربية	المستنصرية	٢٠٠٥/١١/١٥
١٩٢	محمد الجزائري	أ.د في الجراحة التجميلية	النهرين	٢٠٠٥/١١/١٥
١٩٣	رعد محسن مطر	أ.د في البايولوجي	بغداد	٢٠٠٥/١١/١٦
١٩٤	عامر الخزرجي	أ.د في الطب	بغداد	٢٠٠٥/١١/١٧
١٩٥	هيكل محمد الموسوي	أ.د في الطب	بغداد	٢٠٠٥/١١/١٧
١٩٦	رعد شلش	أ.د/رئيس قسم البايولوجي	بغداد	٢٠٠٥/١١/١٧
١٩٧	سعد ياسين الأنصاري	أ.د في العلوم التطبيقية	بغداد	٢٠٠٥/١١/١٧
١٩٨	كاظم طلال اللامي	أ.د/معاون عميد كلية التربية	المستنصرية	٢٠٠٥/١١/٢٣
١٩٩	عبد المجيد حامد الكربولي	أ.د	الأنبار	٢٠٠٥/١٢/١
٢٠٠	حامد فيصل	أ.محاضر في كلية القانون	الأنبار	٢٠٠٥/١٢/١
٢٠١	كاظم مشحوت عواد	أ.د/عميد كلية الزراعة	البصرة	٢٠٠٥/١٢/١
٢٠٢	محمد فتحي ماجد	مدير دائرة الطرق والجسور	تكريت	٢٠٠٥/١٢/٥
٢٠٣	فراس النعيمي	أ.د في الطب	مستشفى الفلوجة	٢٠٠٥٨/١٢/١٣
٢٠٤	عمر ميران	أ.د	الموصل	٢٠٠٥/١٢/٢٣
٢٠٥	محسن سليمان العجيلي	أ.د في الزراعة	بابل	٢٠٠٥/١٢/٢٤
٢٠٦	نوفل أحمد حسن	أ.د في الفنون الجميلة	بغداد	٢٠٠٥/١٢/٢٥
٢٠٧	يوسف سلمان	أ.د في الهندسة	البصرة	٢٠٠٦
٢٠٨	عبدالله حامد الفضل	أ.د/معاون عميد كلية الطب	البصرة	٢٠٠٦
٢٠٩	ناصر عبدالكريم الدليمي	عضو المجمع التدريسي	الأنبار	٢٠٠٦/١/١٦
٢١٠	ناصر الفهداوي	أ.د	الأنبار	٢٠٠٦/١/١٦
٢١١	أثير هشام عبد الحميد	أ.د في الجراحة العصبية	مجهول	٢٠٠٦/١/٢٢
٢١٢	عبد الرزاق النعاس	أ.د في العلوم السياسية	بغداد	٢٠٠٦/١/٢٨
٢١٣	هيثم العزاوي	أ.د في العلوم الإسلامية	بغداد	٢٠٠٦/٢/١٣
٢١٤	عبد القادر ميران	أ.د	الموصل	٢٠٠٦/٢/١٤
٢١٥	فؤاد الدجان	أ.د في الطب	البصرة	٢٠٠٦/٣
٢١٦	سعد الشاهين	أ.د في الطب	البصرة	٢٠٠٦/٣
٢١٧	ياسين سليمان	أ.د في طب الأنسجة	الموصل	٢٠٠٦/٣/٢
٢١٨	علي حسين مهاوش	أ.د/عميد كلية الهندسة	المستنصرية	٢٠٠٦/٣/٩



٢١٩	فائز غني عزيز	مدير شركة الزيوت	بغداد	٢٠٠٦/٣/٩
٢٢٠	خليل إبراهيم	أ.د	البصرة	٢٠٠٦/٣/٢٠
٢٢١	قيس حسام الدين جمعة	أ.د	بغداد	٢٠٠٦/٣/٢٦
٢٢٢	كاظم زاهر الحياني	د. في علم النفس	المستنصرية	٢٠٠٦/٣/٢٧
٢٢٣	صلاح عبد العزيز هاشم	أ.د	البصرة	٢٠٠٦/٤/٥
٢٢٤	عبد الكريم حسين ناصر	أ.د في الزراعة	البصرة	٢٠٠٦/٤/١٠
٢٢٥	قاسم محمد الدايني	أ. محاضر في السايكولوجي	كربلاء	٢٠٠٦/٤/١٧
٢٢٦	ليث محسن	أ.د	ديالى	٢٠٠٦/٤/١٩
٢٢٧	سالم علي حسين	د.	ديالى	٢٠٠٦/٤/١٩
٢٢٨	بشار حسن	د. في الطب البيطري	مجهول	٢٠٠٦/٤/٢٢
٢٢٩	سلام حسين المهداوي	أ.د في التربية	ديالى	٢٠٠٦/٤/٢٦
٢٣٠	ميس غانم محمود	أ. محاضر في اللغة الإنكليزية	ديالى	٢٠٠٦/٤/٢٦
٢٣١	محسن حردان مظلوم	أ.د	ديالى	٢٠٠٦/٤/٢٦
٢٣٢	محمد عبد الرحمن العاني	أ.د في القانون	المستنصرية	٢٠٠٦/٤/٢٦
٢٣٣	ستار جبار	أ.محاضر في الطب البيطري	ديالى	٢٠٠٦/٤/٢٦
٢٣٤	حسين الشريفي	أ.د في الجراحة	بغداد	٢٠٠٦/٥/١
٢٣٥	فاضل عزالدين العبيدي	أ. في الصيدلة	مجهول	٢٠٠٦/٥/٨
٢٣٦	وليد كامل	أ.د	البصرة	٢٠٠٦/٥/٨
٢٣٧	سليمان جدعان الجبوري	أ.د في الطب	مجهول	٢٠٠٦/٥/١٠
٢٣٨	قاسم محمد	أ.في علم النفس	كربلاء	٢٠٠٦/٥/١٠
٢٣٩	خلف الجميلي	أ.د في القانون الإسلامي	الفلوجة	٢٠٠٦/٥/١١
٢٤٠	رياض عباس صالح	أ.محاضر في الدراسات الدولية	بغداد	٢٠٠٦/٥/١١
٢٤١	حامد فيصل	أ.د في الفيزياء	الأنبار	٢٠٠٦/٥/١٢
٢٤٢	خولة محمد	د. في الطب	الكوفة	٢٠٠٦/٥/١٢
٢٤٣	عباس العامري	أ.د/رئيس قسم إدارة الأعمال	بغداد	٢٠٠٦/٥/١٦
٢٤٤	رياض عباس الجبوري	باحث أكاديمي	مجهول	٢٠٠٦/٥/١٧
٢٤٥	علي أحمد حسين	أ.د في الهندسة	بغداد	٢٠٠٦/٥/٢٢
٢٤٦	صباح الجاف	مدير عام في وزارة التربية	مجهول	٢٠٠٦/٥/٢٢
٢٤٧	جاسم فياض الشمري	أ.د في علم النفس	المستنصرية	٢٠٠٦/٥/٢٣
٢٤٨	نبيل حجازي	أ.محاضر في كلية الطب	الأنبار	٢٠٠٦/٦/١
٢٤٩	أحمد عبدالقادر عبدالله	أ.د في كلية العلوم	البصرة	٢٠٠٦/٦/٩
٢٥٠	هاني عارف الدليمي	أ.محاضر في هندسة الحاسبات	بغداد	٢٠٠٦/٦/١٣

٢٥١	قاسم يوسف يعقوب	أ.د/رئيس قسم الهندسة الميكانيكية	البصرة	٢٠٠٦/٦/١٣
٢٥٢	مثنى حارث جاسم	أ.د	بغداد	٢٠٠٦/٦/١٣
٢٥٣	مظهر زيد الدباغ	أ.محاضر	الموصل	٢٠٠٦/٦/١٨
٢٥٤	هادي محمد العبيدي	أ.د في الجراحة	بغداد	٢٠٠٦/٦/١٩
٢٥٥	حمزة شنين	أ.د في الطب البيطري	بغداد	٢٠٠٦/٦/٢١
٢٥٦	جاسم محمد العيساوي	أ.د في العلوم السياسية	بغداد	٢٠٠٦/٦/٢٢
٢٥٧	براك فاروق	أ.د	بغداد	٢٠٠٦/٦/٢٦
٢٥٨	نؤيل بطرس متي	أ.محاضر في كلية الطب	الموصل	٢٠٠٦/٨/٤
٢٥٩	شكر أرسلان	أ.د في الطب	بغداد	٢٠٠٦/٨/٥
٢٦٠	علي الكفيف	أ.د	بغداد	٢٠٠٦/٨/٥
٢٦١	عادل المنصوري	أ.د في الجراحة	بغداد	٢٠٠٦/٨/٦
٢٦٢	كريم السعدي	أ.محاضر	ديالى	٢٠٠٦/٨/٦
٢٦٣	محمد التميمي	أ.محاضر في اللغة العربية	ديالى	٢٠٠٦/٨/٦
٢٦٤	عدي البيروتي	أ.د	النهرين	٢٠٠٦/٨/٦
٢٦٥	محمد عباس	رئيس قسم الحاسب الآلي	ديالى	٢٠٠٦/٨/١٩
٢٦٦	كريم سلمان السعدي	أ.د في اللغة العربية	ديالى	٢٠٠٦/٨/١٩
٢٦٧	أحمد عبد القادر	أ.د في سرطان الرئة	مجهول	٢٠٠٦/٩/١
٢٦٨	خالد إبراهيم موسى	أ.د في الطب	بغداد	٢٠٠٦/٩/٦
٢٦٩	شكر محمود السلام	أ.محاضر في طب الأسنان	بغداد	٢٠٠٦/٩/٦
٢٧٠	توفيق الشيخلي	د. في مستشفى بغداد	مجهول	٢٠٠٦/٩/٦
٢٧١	مهدي نصيف جاسم	أ.د في الحقول النفطية	بغداد	٢٠٠٦/٩/١٣
٢٧٢	يحيى الجنابي	د. في مستشفى الصدر	بغداد	٢٠٠٦/٩/١٨
٢٧٣	كامل ناصر	أ.د في التاريخ	المستنصرية	٢٠٠٦/١٠/١
٢٧٤	نجاة السهيلي	أ.د في علم النفس	المستنصرية	٢٠٠٦/١٠/١
٢٧٥	يقظان سعدون الظالمي	أ.د في التربية	بغداد	٢٠٠٦/١٠/١٦
٢٧٦	حاسب عارف العبيدي	أ.د في العلوم السياسية	المستنصرية	٢٠٠٦/١٠/٢٢
٢٧٧	سعد مهدي شلش	أ.د في الإعلام	بغداد	٢٠٠٦/١٠/٢٥
٢٧٨	فاضل الدليمي	أ.د/عميد معهد إعداد المعلمين	بغداد	٢٠٠٦/١٠/٢٩
٢٧٩	عصام الراوي	أ.د في الجيولوجيا	بغداد	٢٠٠٦/١٠/٣٠
٢٨٠	محمد جاسم الذهبي	عميدكلية الإدارة والاقتصاد	بغداد	٢٠٠٦/١١/٢
٢٨١	زوجة الاستاذ محمد جاسم	أ.د في كلية الإدارة والاقتصاد	بغداد	٢٠٠٦/١١/٢



٢٨٢	ضياءالدين مهدي حسين	أ.د في القانون الجنائي	المستنصرية	٢٠٠٦/١١/٤
٢٨٣	عبد الحميد الحديثي	أ.د	بغداد	٢٠٠٦/١١/١٣
٢٨٤	عبد السلام المشهداني	أ.محاضر في القانون السياسي	بغداد	٢٠٠٦/١١/١٣
٢٨٥	محمد مهدي	أ.محاضر	بغداد	٢٠٠٦/١١/١٤
٢٨٦	علي كاظم علي	أ.د في الهندسة	بغداد	٢٠٠٦/١١/١٦
٢٨٧	محمود محمد	أ.د	الأنبار	٢٠٠٦/١١/١٦
٢٨٨	أحمد حامد الطائي	أ.د في الطب	الموصل	٢٠٠٦/١١/٢٠
٢٨٩	علي الجراري	أ.د	بابل	٢٠٠٦/١١/٢٠
٢٩٠	فليح الغرباوي	أ.محاضر في الطب	بابل	٢٠٠٦/١١/٢٠
٢٩١	حسين قادر عمر	رئيس قسم التربية	كركوك	٢٠٠٦/١١/٢٠
٢٩٢	عزالدين الراوي	رئيس معهد النفط العربي	مجهول	٢٠٠٦/١١/٢٠
٢٩٣	فرحان محمود	أ.محاضر في كلية التكنولوجيا	تكريت	٢٠٠٦/١١/٢٤
٢٩٤	أحمد مهاوش حسن	أ.محاضر في اللغة العربية	ديالى	٢٠٠٦/١٢/١
٢٩٥	الحارث عبد الحميد	أ.د/رئيس قسم علم النفس	بغداد	٢٠٠٦/١٢/٦
٢٩٦	محمد حيدر سليمان	أ.د في التربية الرياضية	الموصل	٢٠٠٦/١٢/٧
٢٩٧	حسن أحمد	أ.د في اللغة العربية	ديالى	٢٠٠٦/١٢/٨
٢٩٨	علي جسام	أ.د في القانون	المستنصرية	٢٠٠٦/١٢/٢٠
٢٩٩	منتظر الحمداني	أ.د/عميد كلية القانون	المستنصرية	٢٠٠٦/١٢/٢٠
٣٠٠	أنس الجميلي	أ.د في الطب	النهرين	٢٠٠٦/١٢/٢٢
٣٠١	خليل الجميلي	أ.د في الطب	النهرين	٢٠٠٦/١٢/٢٢
٣٠٢	كامل عبد الحسين	معاون عميد كلية القانون	الموصل	٢٠٠٧/١/١٢
٣٠٣	ماجد ناصر حسين	أ.محاضر في كلية الطب	بغداد	٢٠٠٧/١/١٧
٣٠٤	انور عبد الحسين	أ.محاضر في طب الأسنان	بغداد	٢٠٠٧/١/٢١
٣٠٥	ضياء المكوطر	أ.في الاقتصاد	المستنصرية	٢٠٠٧/١/٢٣
٣٠٦	عبد السميع الجنابي	أ.د/معاون عميد الجامعة التكنولوجية	بغداد	٢٠٠٧/١/٢٣
٣٠٧	عبد المطلب عبدالرزاق الهاشمي	أ.د في القانون	النهرين	٢٠٠٧/١/٢٨
٣٠٨	عدنان محمد صالح	أ.د في القانون	النهرين	٢٠٠٧/١/٢٨
٣٠٩	عامر قاسم القيسي	أ.د في القانون	النهرين	٢٠٠٧/١/٢٨
٣١٠	ولهان حميد فارس الربيعي	أ.د/عميد كلية العلوم	ديالى	٢٠٠٧/٢/١

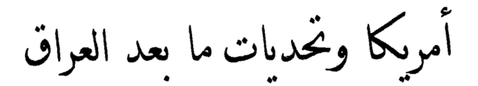
٣١١	أحمد عزالدين يحيى	أ.محاضر في الهندسة	كركوك	٢٠٠٧/٢/١٦
٣١٢	ماجد ناصر المعموري	أ.د في الطب البيطري	بغداد	٢٠٠٧/٢/١٧
٣١٣	كريم أحمد التميمي	أ.د/رئيس قسم اللغة العربية	المستنصرية	٢٠٠٧/٢/٢٢
٣١٤	عامر مكي الزهيري	أ.محاضر في التكنولوجيا	بغداد	٢٠٠٧/٣/١
٣١٥	خالد عنيد	أ.د/معاون عميد كلية الطب	النهرين	٢٠٠٧/٣/٢٩
٣١٦	رضا عبدالحسين القريشي	أ.د/معاون عميد كلية الإدارة	المستنصرية	٢٠٠٧/٣/٢٩
٣١٧	سامي ستار	أ.د في اللغة الانكليزية	النهرين	٢٠٠٧/٣/٢٩
٣١٨	منذر أحمد العاني	أ.د	مجهول	٢٠٠٧/٣/٣١
٣١٩	خالد الحسان	أ.د/معاون عميد كلية العلوم السياسية	بغداد	٢٠٠٧/٤/٢
٣٢٠	ثائر أحمد جبر	أ.د في الفيزياء	النهرين	٢٠٠٧/٤/٥
٣٢١	عبدالجبار القيسي	أ.محاضر في التاريخ	ديالى	٢٠٠٧/٤/١٠
٣٢٢	جعفر حسن صادق	أ.د في التاريخ	الموصل	٢٠٠٧/٤/١٦
٣٢٣	طلال الجليلي	أ.د/عميد كلية العلوم السياسية	الموصل	٢٠٠٧/٤/١٦
٣٢٤	علي محمد حمزة	أ.د في الدراسات الإسلامية	بغداد	٢٠٠٧/٤/١٧
٣٢٥	خالد جبير الدليمي	أ.د في الهندسة	الأنبار	٢٠٠٧/٤/٢٧
٣٢٦	عبدالوهاب ماجد	أ.محاضر في التربية	بغداد	٢٠٠٧/٥/٢
٣٢٧	إسماعيل طالب أحمد	أ.محاضر في التربية	الموصل	٢٠٠٧/٥/٢
٣٢٨	نضال الأسدي	أ.د في كلية العلوم	الموصل	٢٠٠٧/٥/٢
٣٢٩	صباح الطائي	أ.د/معاون عميد كلية التربية	بغداد	٢٠٠٧/٥/٧
٣٣٠	سعد جاسم محمد	أ.د في العلوم الإسلامية	بغداد	٢٠٠٧/٥/١١
٣٣١	مهدي صالح العاني	أ.د	مجهول	٢٠٠٧/٥/١٢
٣٣٢	محمد عزيز علوان	أ.محاضر في التصميم الفني	البصرة	٢٠٠٧/٥/٢٦
٣٣٣	خليل الزهاوي	أستاذ الخط العربي والإسلامي	مجهول	٢٠٠٧/٥/٢٧
٣٣٤	عبدالرحمن العيساوي	أ.د في الإعلام	بغداد	٢٠٠٧/٥/٢٩
٣٣٥	قيس صباح الجبوري	أ.د في العلوم الإسلامية	بغداد	٢٠٠٧/٦/٦
٣٣٦	علاء جليل العيسى	رئيس قسم البحوث والتطوير	بغداد	٢٠٠٧/٦/٧
٣٣٧	علاء شاكر محمود	أ.د/رئيس جامعة ديالى	ديالى	٢٠٠٧/٦/١٤
٣٣٨	محمد قاسم الجبوري	أ.محاضر في كلية الزراعة	بغداد	٢٠٠٧/٦/٢٢
٣٣٩	نهاد محمد الراوي	أ.د في الهندسة المدنية	بغداد	٢٠٠٧/٦/٢٦
٣٤٠	سامر علي محسن	أ.في كلية الإدارة والإقتصاد	بغداد	٢٠٠٧/٦/٢٨



٣٤١	زكي الفدك	أ.د في الجراحة	البصرة	٢٠٠٧/٧/١٦
٣٤٢	فراس عبد الزهرة	أ.د في الفيزياء	البصرة	٢٠٠٧/٧/١٨
٣٤٣	شهلاء النصراوي	أ.د في القانون	الكوفة	٢٠٠٧/٨/٢١
٣٤٤	عبدالقادر علي عبدالله	د. في كلية التربية	الموصل	٢٠٠٧/٨/٢٥
٣٤٥	مؤيد أحمد خلف	د. في الأدب	البصرة	٢٠٠٧/٩/١١
٣٤٦	ياسر الياسري	أ.محاضر	البصرة	٢٠٠٧/١٠/٥
٣٤٧	علي صبيح السعدي	أ.د في القانون	بغداد	٢٠٠٧/١٠/٦
٣٤٨	أمين عبدالعزيز شرهان	أ.د	بغداد	٢٠٠٧/١٠/١٥
٣٤٩	محمد كاظم العتابي	أ.د	بغداد	٢٠٠٧/١٠/١٨
٣٥٠	عادل عبد الهادي	أ.د في الفلسفة	الكوفة	٢٠٠٧/١٠/٢٨
٣٥١	جمال مصطفى	أ.د/رئيس قسم التاريخ	ديالى	٢٠٠٧/١٠/٢٩
٣٥٢	صبري عبدالجبار محمد	أ.د	كركوك	٢٠٠٧/١١/١
٣٥٣	هيثم عبد السلام	أ.د	كركوك	٢٠٠٧/١١/١٢
٣٥٤	موسى جعفر	رئيس دائرة المسح الجيولوجي	مجهول	٢٠٠٧/١١/٢٠
٣٥٥	مصطفى خضر قاسم	أ.د	تكريت	٢٠٠٧/١١/٢١
٣٥٦	علي النعيمي	أ.د	بغداد	٢٠٠٧/١٢/١٧
٣٥٧	محمد المياحي	عميد كلية المأمون	بغداد	٢٠٠٧/١٢/١٩
٣٥٨	سليم خليل النعيمي	أ.د في التكنولوجيا	الموصل	٢٠٠٨/١/٢١
٣٥٩	عزيز سليمان	أ.محاضر في علم الإجتماع	الموصل	٢٠٠٨/١/٢٢
٣٦٠	منذر راضي	عميد كلية طب الأسنان	بغداد	٢٠٠٨/١/٢٣
٣٦١	خليل إبراهيم النعيمي	أ.د في الفقه الإسلامي	الموصل	٢٠٠٨/١/٣٠
٣٦٢	عبدالستار طاهر شريف	أ.د	كركوك	٢٠٠٨/٣/٥
٣٦٣	خالد ناصر	أ.د في جراحة الأعصاب	البصرة	٢٠٠٨/٣/١٢
٣٦٤	أياد حمزة	أ.د في الكيمياء	النهرين	٢٠٠٨/٥/٤
٣٦٥	محمود طالب الجميلي	أ.د في العلوم الإسلامية	مجهول	٢٠٠٨/٥/١٥
٣٦٦	طه عبدالرزاق العاني	أ.د في الدراسات الإسلامية	تكريت	٢٠٠٨/٥/١٥
٣٦٧	فارس يونس عبدالرحمن	معاون عميد كلية الزراعة	الموصل	٢٠٠٨/٦/٢
٣٦٨	وليد سعدالله المولى	أ.د	الموصل	٢٠٠٨/٦/١٥
٣٦٩	صالح عبد حسون	عميد كلية القانون	بغداد	٢٠٠٨/٧/٧
٣٧٠	خلدون صبري	أ.د	مجهول	٢٠٠٨/٨/٢٥
٣٧١	سلام رشيد	أ.د في الطب	ديالى	٢٠٠٨/٩/١
٣٧٢	صالح العقيلي	أ.د في القانون	مجهول	٢٠٠٨/١٠/٩



تقارير واستطلاعات



تقرير معد للبنتاغون ولجنة

الدفاع في مجلس الشيوخ الأمريكي

أمريكا وتحديات ما بعد العراق

تقرير معد للبنتاغون ولجنة الدفاع في مجلس الشيوخ الأمريكي

في الرابع من أيلول ٢٠٠٨م قامت مؤسسة راند للبحوث والتطوير بالتعاون مع مركز التحليلات البحرية باستضافة مؤتمر تحت عنوان (أمريكا والتحديات الأمنية لما بعد العراق)، وقد شارك في المؤتمر أكثر من سبعين شخصية ضمت كبار المحللين السياسيين والعسكريين ونخبة من كبار ضباط الجيش الأمريكي وممثلين عن الحكومة الأمريكية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية بالإضافة إلى عدد من الصحفيين والإعلاميين، عقد المؤتمر في المقر الرئيسي لمؤسسة راند في (آرلينغتون/ ولاية فيرجينيا)، كان الهدف من هذا المؤتمر هو إعداد تقرير يقدم إلى البنتاغون وإلى لجنة الدفاع في الكونغرس الأمريكي لتزويد القيادات العسكرية واللوجستية بدراسة كاملة عن القضايا والتحديات الأمنية التي ستواجهها الإدارة القادمة والتي تستلزم وضع استراتيجيات جديدة (عسكرية وغير عسكرية) وإعادة ترتيب الأولويات الأمنية للولايات المتحدة.

رؤية عامة

يجب أن نوضح في البداية أن عبارة (ما بعد العراق) لا تعني بأن دعم استقرار العراق سوف يحذف من قائمة التزامات الولايات المتحدة كموضوع أمني ذو أولوية، بل على العكس لقد أدرك جميع المشاركين في المؤتمر بأن الحرب في العراق وأفغانستان سوف تستمر لفترة قد تتعدى المستقبل القريب.

إن الالتزامات والتعهدات الأمنية المرتبطة بهذين الصراعين (العراق



وأفغانستان) يجب أن تكون مدرجة في قائمة التعهدات الأمنية للولايـــات المتحدة إن لم تكن في أول القائمة بالإضافة إلى محاربة الإرهاب والحيلولة دون تنامي القدرات النووية والعسكرية لإيران والحفاظ على مضيق هرمز مفتوحـــاً أمام الملاحة وخاصة أمام ناقلات النفط، بالإضافة إلى تعزيز الـــسلام في شـــبه الجزيرة الكورية وصولاً إلى مضيق تايوان والحفاظ على مصالح حلفاء الولايات المتحدة وتعزيزها.

لقد كان هناك إجماع واسع من قبل المشاركين في المؤتمر حول أهم القضايا والتحديات الأمنية التي ستواجه الإدارة الأمريكية الجديدة، ويمكن تلخيص تلك القضايا بـــ:

(١) إن على الولايات المتحدة الأمريكية استعادة مركزها ومكانتها كقائد أول للعالم في مواجهة التيار العالمي المتنامي والمعادي للولايات المتحدة، وإن استعادة نفوذ الولايات المتحدة كصاحبة القرار الأول في الشؤون الأمنية الإقليمية يعتبر من الأولويات القصوى بالإضافة إلى تعزيز مصالح الحلفاء.

(٢) إن السلطة التنفيذية وبكل فروعها بحاجـــة إلى التحـــسين للوصـــول إلى التكامل والعمل الموحد بين جميع الوكالات الأمنية والعسكرية لتحديد ومعالجة المشاكل الأمنية، وإن هذا التفصيل أصبح ملحاً ومهماً في ظل المتطلبات الأمنية الناشئة عند استخدام الأساليب التقليدية وغير التقليدية كما هـــو موجـــود في العراق وأفغانستان والتي تمتلك تاريخاً طويلاً من الصراعات وعلى الأغلب أنها سوف تستمر في المستقبل غير القريب.

(٣) التعامل مع المستجدات التي تفرضها الصين اليوم، فإنـــه يبـــدو أن هـــذا الصراع الذي امتد وسيمتد لعدة أجيال على الأقل من ناحية الولايات المتحدة،

أما عن الجانب الأمني فإن من الضروري وخاصة مع تنامي القدرات العسكرية الصينية أن تحافظ الولايات المتحدة الأمريكية على مصالحها ومكانتها وإلا فإنها سوف تفقد مصداقيتها كضامن للاستقرار في شرق آسيا.

(٤) إن على واضعي خطط الدفاع في الولايات المتحدة الأمريكية أن يكونوا

مستعدين لردع الأعداء الإقليميين (الذين يسعون لتطوير الأسلحة النووية) في حال فشل الأساليب والمساعي (غير العسكرية) في منع إنتاج مثل هذه الأسلحة، فإن امتلاك بعض الأنظمة المعادية للولايات المتحدة مثل كوريا الشمالية وإيران لهذه التكنولوجيا قد يغير من موازين القوى بصورة كبيرة مما يضر بأمن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

(٥) إن التنامي السكاني السريع في العالم الإسلامي المرتبط بالاقتصاد بالإضافة إلى تنامي الشعور المعادي للولايات المتحدة الأمريكية، كل هذا يفرض أن تكون الحرب (الطويلة أصلاً) ضد الإرهاب أطول من المتوقع، وإن انحراف الشباب وتطرف أفكارهم يوفر إمكانية كبيرة لتكوين بيئة مناسبة لتجنيدهم وانظمامهم إلى التيارات الجهادية المتطرفة.

في نفس الوقت الذي أجمع فيه المشاركون في هذا المؤتمر على أن هذه القضايا تمثل أبرز التحديات التي ستواجه الإدارة الجديدة، إلا أنهم كانوا أقل إجماعاً حول السبل المثلى للتعامل معها، فإذا واجهت الولايات المتحدة الأمريكية هذه التحديات بالإضافة إلى الالتزامات والتعهدات المفروضة غليها للحفاظ على مصالحها وصالح حلفائها، فإن القوات العسكرية الأمريكية سوف تتحمل الجانب الأكبر من هذه المسؤوليات وسوف تجر إلى مواجهات

غير تقليدية وعلى درجة عالية من الخطورة ربما تكون أكبر مـــن قابلياتها في الوقت الحاضر.

من جانب آخر فإن المشاركين في المؤتمر قد ناقشوا ما إذا كانـــت نظريـــة (الحرب الاستباقية) قد ساعدت المخططـــين العـــسكريين والاســـتراتيجيين للاستعداد لمثل هذه المواجهات، بعض المشاركين ربطوا هذه النظرية بعمليات (تغيير الأنظمة)، وكانوا على قناعة تامة بأن هذه التجربة (احتلال العراق) قد أضعفت من احتمالية الأخذ بهذه النظرية، وشككوا أن تكون شـــهية الإدارة القادمة مفتوحة لمثل هذه العمليات مستقبلاً، أما البعض الآخر فقد عارض هذا الرأي متعللاً بالتاريخ الكبير للقوات العسكرية الأمريكية في مواجهـــة هـــذه الأنظمة (بدءاً من الحرب المكسيكية)، وكان رأيهم أنه من الخطأ حذف مثـــل هذه العمليات في المستقبل.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك نقاش جدير بالاهتمام بـــين المـــشاركين في المؤتمر حول إذا ما كانت القوات العسكرية الأمريكية بحاجة إلى إعادة ترتيب للمساعدة في تسهيل إدارتها وتوجيهها لمساعدتها على حسم المهمات الأمنيـــة الخارجية والتعامل معها بشكل أكثر فعالية وأسرع زمناً، و أغلب هـــذه الآراء كانت تدور حول الرؤى المستقبلية للقوات الأمريكية، فإذا كانـــت حـــرب العراق وأفغانستان هي آخر الحروب لهذا النوع من المواجهات فإن القـــوات العسكرية لا تحتاج إلى إعادة هيكلة أو ترتيب، أما إذا اتجهت الولايات المتحدة للاشتراك في مثل هذه المواجهات مستقبلاً فإن إعادة الترتيب تكـــون واجبـــة عندها، وفي نفس الوقت أجمع المشاركون على إن خطة الانتشار التي يتبعهـــا الجيش الأمريكي في الوقت الحاضر تسهل من عملية إعادة ترتيب القوات.

معظم المشاركين في المؤتمر أكدوا على ضرورة التركيز في المستقبل على القوات البحرية والقوات الجوية في حسم المواجهات ضد القوى الإقليمية، لذلك على القوات الجوية أن تكون قادرة على إرباك القوى المعادية بالتعاون مع الأسلحة المنطلقة بدقة من البحر في أكثر من مكان في العالم، البعض أكد على أهمية هذه العمليات واعتبرها من مقومات (الطوق الاستراتيجي)، ولكن المشاركين أكدوا في نفس الوقت على إن العمليات التي تقوم بها هذه القوات في العراق وأفغانستان قد وضحت وبشكل كبير قدرات هذه القوات على المشاركة بكل فاعلية في مثل هذه الصراعات في أي مكان في العالم في الوقت الحاضر وحتى في المستقبل.

باختصار كان هناك إجماع بأن تلك القضايا تمثل التحدي الأكبر للإدارة الجديدة القادمة مصحوبة ببعض المطالب بشأن القوات العسكرية الأمريكية التي تتطلب تغيير في المهمات، بالإضافة إلى وجوب تغيير وزارة الدفاع طريقة تدريب وتسليح وتجهيز القوات الأمريكية، وبصورة أوسع فإن على الإدارة الجديدة أخذ زمام المبادرة في تغيير نمط وأسلوب القوات العسكرية قبل أن تفرض الظروف والتحديات المستجدة ذلك عليها، ويمكن إيجازها بـ:

(١) يجب أن تكون القوات العسكرية الأمريكية قادرة على إدارة قواعد طويلة البقاء، ويجب توفر قوات إسناد على درجة عالية من التدريب والتجهيز وقادرة على تنفيذ مهمات وعمليات داخل البلدان التي تكافح من أجل القضاء على الإرهابيين ذوي القواعد الإسلامية.

(٢) وجوب أن تكون الدوائر والوكالات غير العسكرية ومن ضمنها الوكالة الأمريكية للتطوير الدولي ووزارة العدل ولجنة الاستخبارات قادرة على لعب

دور دولي أكبر في ملاحقة المتطرفين.

(٣) يجب على قوات الولايات المتحدة وقوات الحلفاء أن تكون مستعدة لكل الإجراءات اللازمة في حال تم نشر أسلحة نووية من قبل بعض الأنظمة الإقليمية المعادية مثل كوريا الشمالية وإيران التي تشكل تهديداً أمنياً ومتعارضاً مع المواثيق (سواء كانت هذه الإجراءات اجتياحاً عسكرياً قصيراً أو طويل المدى) وهو يمثل الخيار الأفضل في حال التهديد النووي وهذا يجذب الانتباه إلى مدى تطور القدرات التعجيزية لدى الأعداء لإخفاء هذه الأسلحة (في هذه الحالة يجب ضرب هذه الأسلحة في حال اكتشافها وضرب حتى أدوات نقل ونشر هذه الأسلحة).

(٤) في ظل التطوير المستمر الذي تقوم به الصين لقواتها العسكرية، يجب على واضعي الخطط الأمريكان (وهم مجبرون على ذلك) إعادة التفكير للوصول إلى المرتبة الأولى كقوة ردع للصين وخصوصاً أن وضع القوة العسكرية الأمريكية أصبح عرضة للانتقاد وبشكل كبير بسبب قوة أسلحة الردع الصاروخي الصينية.

وأخيراً فإن الضغط الذي يلقي بضلاله على الموازنة العسكرية والمتطلبات الإضافية لتمويل حربَي العراق وأفغانستان بالإضافة إلى الالتزامات التي ستفرضها التحديات المستقبلية؛ ستتطلب مصادر تمويل أكبر، على العكس مما إذا أخذت هذه الصراعات بالاستقرار والانحسار شيئاً فشيئاً، كما إن القوات البرية تحتاج أصلاً إلى تمويل إضافي بالإضافة إلى القوات البحرية والجوية التي تجاوزت معظم معداتها الخط الزمني المفترض للخدمة الفعلية، ولا أحد يعتقد



بأن الموازنة العسكرية ستبقى كما هي عليه الآن وسوف تلوح الإجابة عن هذا التساؤل في المستقبل القريب.

رؤية عامة حول طبيعة المستجدات الأمنية

(كيف يمكن للولايات المتحدة أن تتعامل مع المستجدات الأمنية؟ وكيف ستتمكن من تحديدها والأهم كيف ستتمكن من التكيف معها؟ أحد المحللين العسكريين)

ناقشت اللجنة الرئيسية للمؤتمر أهم القضايا والتحديات الأمنية التي يمكن أن تواجهها الإدارة القادمة وعلى مدى العشر سنوات القادمة، كما ناقشت اللجنة أهم القضايا التي ستتطلب من واضعي الخطط الاستراتيجية الأمريكيين اهتماماً كبيراً وعلى المدى الطويل.

أهم خمس قضايا أمنية ذات تأثير على أمن الولايات المتحدة

أوضح التقديم الأول للمؤتمر بأن عبارة (ما بعد العراق) لا تعني بأن دعم استقرار العراق سوف يحذف من قائمة التزامات الولايات المتحدة كموضوع أمني ذو أولوية، بل على العكس لقد أدرك جميع المشاركين في المؤتمر بأن الحرب في العراق وأفغانستان سوف تستمر لفترة قد تتعدى المستقبل القريب، وإن الالتزامات والتعهدات الأمنية المرتبطة بهذين الصراعين (العراق وأفغانستان) يجب أن تكون مدرجة في قائمة التعهدات الأمنية للولايات المتحدة إن لم تكن في أول القائمة بالإضافة إلى محاربة الإرهاب والحيلولة دون تنامي القدرات النووية والعسكرية لإيران والحفاظ على مضيق هرمز مفتوحاً أمام الملاحة وخاصة أمام ناقلات النفط، بالإضافة إلى تعزيز السلام في شبه

الجزيرة الكورية وصولاً إلى مضيق تايوان والحفاظ على مصالح حلفاء الولايات المتحدة وتعزيزها.

في ظل هذه الالتزامات ركز أحد أعضاء اللجنة على أهم خمس قضايا مؤثرة والتي تستدعي إيجاد أنسب الحلول لها وهي:

(١) غياب وتآكل التأثير الأمريكي، وهذا يتضمن الهبوط المحسوس في القوة والمصداقية الأمريكية والذي يضعف الجهود الأمريكية لردع الخصوم.

(٢) بروز الصين كجيش عالمي وقوة اقتصادية وقدرة الصين على ترجمة تلك القوة إلى تحدي سياسي واستراتيجي متماسك، والتأثيرات الواسعة الانتشار التي ستفرضها الصين على ميزان القوى الإقليمية في آسيا، وبما يؤثر على مركز أمريكا ومكانتها سلبياً كضامن للاستقرار في آسيا.

(٣) التغير في الخصائص السكانية (وتأثيراتها المحتملة على السياسة والمخاوف الأمنية في أوروبا، روسيا، الشرق الأوسط، وأفريقيا)، هذا بالإضافة إلى القلق المتزايد من تطرف أفكار الشباب في معظم العالم الاسلامي، والشعور المتزايد المعادي للأمريكان في العديد من البلدان الإسلامية والذي يكون بيئة لانضمام هؤلاء الشباب إلى التيارات الإسلامية المتطرفة، وهذا يؤكد على إن الحرب الطويلة ضد الإرهاب والتطرف ستكون في الحقيقة طويلة جداً.

(٤) الدور الذي ستلعبه بعض الدول المنتجة للطاقة (مثل روسيا، إيران، وفينزويلا)، التي زادت قدراتها الاقتصادية وثرواتها بفضل الارتفاع المتزايد لأسعار البترول (والذي وصل إلى أكثر من مائة دولار للبرميل)، مما سيشجع بعض هذه الأنظمة المعادية للولايات المتحدة على الاستمرار في سياساتها المعادية للمصالح الأمريكية، ويعكس هذا التضارب في متطلبات الأمن القومي،

والحاجة لإيجاد الحلول المتكاملة عبر الأجهزة الحكومية وبين الولايات المتحدة وحلفائها.

(٥) انتشار الأسلحة النووية والتقنيات ذات العلاقة، وإن المخاوف هنا هـي عدم قدرة الولايات المتحدة على منع الجماعات المتطرفة وليس الـدول مـن الحصول على مثل تلك التكنولوجيا، وهذا ما سيستدعي اهتماماً بعيد المـدى من قبل المخططين الاستراتيجيين في وزارة الدفاع، فيما أضاف بعض أعـضاء اللجنة النتائج الاستراتيجية المحتملة للتطـورات العـسكرية التكتيكيـة مثـل الصواريخ الباليستية المضادة للسفن والاستعمال العالمي للمتفجرات والقنابـل البدائية الصنع.

"خمسة حروب طويلة": نظرة عامة على أمن الولايات المتحدة بعد العراق

أما التقديم الثاني فقد طرح منظوراً مختلفاً جداً في خمسة تحديات استراتيجية من الممكن أن تؤثر على أمن أمريكا المستقبلي وهـي: الإسـلام الراديكـالي المتطرف، قوة الصين المتزايدة ومنافستها للولايات المتحدة في الـسيطرة علـى الملف الأمني في آسيا وربما العالم، قوى وأنظمة إقليميـة متـزودة بالأسـلحة النووية، نهوض روسيا الذي يزيد من صعوبة الوضع بالنسبة للولايات المتحدة، وأخيراً التغيير الذي يحصل في الشراكات والتحالفات بين الولايـات المتحـدة وبقية الدول.

وأضاف المتحدث بأن التحدي الأول الذي يمثلـه الإسـلام الراديكالـي المتطرف والجماعات الإرهابية تعتبر بذوراً لتحديات مستقبلية من المحتمـل أنها سوف تستغرق عدة أعوام قبل حسم هذا الصراع، وإن النجاح في حسم هذا الصراع سيتطلب تغيير وجهة النظر التي اعتمدتها الولايات المتحدة وخاصة

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م من حرب تقليدية إلى حرب ذات أبعاد أكثر شمولية وأعمق، ولاشك أن القوات الأمريكية والقوات المساندة الأخرى سيحتاجان لإجراء جهد إضافي ثابت وكبير من ناحية التدريب والتجهيز والتخطيط بالإضافة إلى مساعدة قوات البلد المضيف لهذه القوات لردع الجماعات المتطرفة.

أما عن التحدي الثاني وهو التنامي السريع في قوة الصين من الناحية الاقتصادية والعسكرية مما يجعلها منافساً استراتيجياً قوياً وصعباً بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، فيمكن القول هنا بأن هذا التحدي سيكون مصاحباً لبروز اليابان والهند أيضاً كقوة إقليمية ولكن بصورة قد تختلف عما هي بالنسبة للصين، لذا فإن الولايات المتحدة ستحتاج لتقوية الشراكات الإقليمية اتجاه هذه التحديات.

وعرَّف أحد أعضاء اللجنة التحدي الثالث المتمثل بقوى وأنظمة إقليمية تسعى للتزود بالأسلحة والتكنولوجيا النووية للخروج من دائرة الدول الضعيفة إلى دائرة الدول القادرة على ردع أي هجوم خارجي محتمل، ومما يزيد من صعوبة مواجهة هذا التحدي بالنسبة للولايات المتحدة هو ليس فقط عدم قدرتها على ردع مثل هذه الأنظمة في سعيها للحصول على التكنولوجيا النووية ولكن تكمن الصعوبة الحقيقية في ضمان عدم استعمال هذه التكنولوجيا في النزاعات أو المواجهات الإقليمية في المستقبل، وبالتأكيد إن ردع هذه القوى النووية الإقليمية سيكون مختلفاً إلى حد كبير عن ردع روسيا والصين.

أما التحدي الرابع فهو نهوض روسيا والذي نشأ بسبب النمو الاقتصادي

الروسي المقترن بإعادة مؤسسة الحكم الاستبدادي ورغبة موسكو لتأكيد نفسها كقوة معارضة لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، من المحتمل أن هذه التطورات ستستمر لفترة طويلة مما يتطلب تركيزاً أكثر من قبل المخططين في الولايات المتحدة.

وأخيراً التغيير الذي يحصل في الشراكات والتحالفات بين الولايات المتحدة وبقية الدول، وأكد المتحدث هنا بأن العلاقات والشراكات بين الولايات المتحدة وحلفائها آمنة نسبياً ولكنها قد تتدهور في أي منطقة من مناطق العالم وذلك على أساس نظرية الكلفة والمنفعة، لذا فإن هذه الدول تراجع حساباتها بين فترة وأخرى حسب المقاييس التي تضعها هذه النظرية والتي هي أساس أي علاقة بين بلدين.

في ضوء هذه التحديات أكد أحد أعضاء اللجنة على أن الخطط الحالية التي تعمل بها وزارة الدفاع الأمريكية هي أعقد بكثير مما يجب لذا ستستلزم إعادة نظر جوهرية، وأضاف أن طبيعة النزاعات والمواجهات التي تخوضها الولايات المتحدة هي شكل آخر من أشكال المواجهات التي لم تعتد القوات الأمريكية عليها (حتى بعد سبع سنوات من المواجهات في أفغانستان والعراق)، لذلك يرى المتحدث بأن الميزانية الممنوحة لوزارة الدفاع سوف لن تتقلص بأي حال من الأحوال في المستقبل ولن يكون هذا الخيار مطروحاً أمام الإدارة القادمة مهما كانت توجهاتها.

خيوط عدم الاستقرار

رداً على التقديمين الأولين أضاف أحد أعضاء اللجنة عدة تحديات مستقبلية محتملة وهي النمو السكاني المصاحب لتعثر الاقتصاد العالمي بالإضافة إلى العولمة

والمنافسة للسيطرة على مصادر الطاقة في العالم مثل النفط، والتغيير المناخي الذي تتأثر به عدد من الدول، وأخيراً فشل بعض الأنظمة السياسية في العالم والتي لها شراكات وتحالفات مع الولايات المتحدة.

كل هذه الأسباب تستدعي من الولايات المتحدة إعادة النظر في تحالفاتها وشراكاتها مع البلدان التي تعاني من هذه المشاكل وذلك للتأكد من قدرة الشريك أو الحليف على بسط السيادة الداخلية وذلك أيضاً مرتبط بجاهزية قوات الحلفاء لمواجهة النزاعات والحروب غير التقليدية إلى جانب الولايات المتحدة.

كما أضاف العضو عدة تحديات محتملة جديرة بالاهتمام وهي: المواجهات والحروب غير التقليدية واستعمال أسلحة الدمار الشامل في النزاعات الإقليمية والانهيار المفاجئ لحلفاء الولايات المتحدة وأخيراً التهديد الذي تفرضه الكوارث الإنسانية مثل الزلازل والحرائق والأعاصير كالتي حدثت في الآونة الأخيرة في جنوب وجنوب شرق الولايات المتحدة.

وأضاف عضو اللجنة بأن الولايات المتحدة تحتاج للعمل على إعادة تأثيرها ونفوذها العالمي في قيادة العالم، لأن الحلفاء سيواصلون الاعتماد على قدرة الولايات المتحدة في القيادة وحسم النزاعات التقليدية في المناطق المضطربة من أفريقيا وحتى آسيا مروراً بالقوقاز، كما أن العديد من الخطط الاستراتيجية التي اعتمدت عليها الولايات المتحدة في الماضي لم تعد نافعة وأنها بحاجة إلى إعادة نظر في الاستراتيجيات المتبعة وطبيعة الفرق العسكرية في القوات الأمريكية بالإضافة إلى استحداث فرق وأنظمة جديدة لمواجهة التحديات والمواجهات غير التقليدية كما في العراق وأفغانستان.

جلسة حول التساؤلات والأجوبة المطروحة

ركز التعليق الأول على قضايا الرأي العام، وبالتحديد على ما يكون معمولاً به لتبني التصورات الإيجابية من قبل الولايات المتحدة عالمياً، وذكر المتحدث نجاح الأسلوب الذي استعمل أثناء الحرب الباردة وتساءل فيما إذا كان بالإمكان استخدام نفس الأسلوب في المواجهات الحالية والمحتملة في المستقبل، وأضاف المشارك بأن الرأي العام ليس من السهل تكوينه أو تغييره ولكن يمكن أن تؤخذ الدروس من المحاولات الماضية، كما ركز على ضرورة تحسين المنظمات المجتمعية في العالم الإسلامي ودور الولايات المتحدة الأمريكية في دعمها واحتمالية تأثرها بالموازنة العامة للولايات المتحدة، وشدد على ضرورة أن توجد الولايات المتحدة مثل تلك المنظمات وإيجاد السبل الكفيلة بتعزيزها وتعزيز تأثيرها على الرأي العام في الدول الإسلامية.

كما أجمع أغلب المشاركين في المؤتمر على وجوب استهداف البنى التحتية للجماعات المتطرفة ومحاصرة الجهات الداعمة لهم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى دور الولايات المتحدة في إصلاح الأنظمة والمجتمعات الفاسدة، كل هذه الأسئلة شكلت انطباعاً حول موضوع المؤتمر الرئيسي وهو حاجة الحكومة الأمريكية ووزارة الدفاع لتعزيز التعاون بين جميع الوكالات المعنية بهذا الشأن، والذي سيؤدي بطبيعة الحال إلى إيجاد أنسب الحلول للمواجهات والتحديات التي ستواجهها الإدارة القادمة، كما أكد على ضرورة تعميق التعاون بين مختلف الدوائر والمكاتب الحكومية كوزارة الدفاع والخزانة والعدل والزراعة وجهات حكومية أخرى بالإضافة إلى المنظمات الوطنية غير



الحكومية لتحديد أهم العوائق والتحديات المستقبلية وإيجاد أنسب الطرق للتعامل معها.

وفي النهاية برزت عدة تساؤلات حول التوجهات والسياسات الأمريكية سواء كانت داخلية أم خارجية كوجود العجز في الميزانية الاتحادية الفيدرالية والذي يثير بعض القلق حول قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على الوفاء بالتزاماتها المالية داخلياً وخارجياً، بالإضافة إلى حاجة الولايات المتحدة إلى إبقاء مستوى الإنفاق العسكري الحالي (الذي هو أعلى مستوى وصلت إليه ميزانية الدفاع الأمريكية).

التهديدات والتحديات الرئيسية للمستقبل

(إن الردع وحده لا يكون جواباً مقنعاً بالكامل للرد على الأنظمة التي تسعى للتسلح النووي/ محلل في وزارة الدفاع)

(إن النصر على الإرهابيين والمتطرفين لا يأتي من خلال إلقاء القبض عليهم أو قتلهم، لكن يأتي من خلال إيقاف عجلة التطرف وكسرها، نحتاج لتغيير العناصر التي تساهم في تشكيل التصورات والخيارات وتبني الرؤى التي تطرح على أولئك الذين هم اليوم أطفال في العالم الإسلامي/ محلل في وزارة الدفاع)

بينما طرح التقديم الأول للمؤتمر وجهة نظر عالمية حول التحديات الأمنية المحتملة، وركز التقديم الثاني على بعض التهديدات والتحديات الجديرة بالاهتمام التي تحددت لدى اللجنة الرئيسية للمؤتمر (بعد عدة نقاشات وطرح

للآراء والأفكار). إن من أهم القضايا الأمنية ذات التأثير على أمن الولايات المتحدة ومصالحها وحلفائها هي أربعة:

(١) الصين.

(٢) قوى وأنظمة إقليمية تسعى للتزود بالأسلحة والتكنولوجيا النووية.

(٣) الإرهاب والتطرف.

(٤) إيران.

الصين كتحدي استراتيجي

ناقش المتكلم الأول الأبعاد الرئيسية للتحدي الاستراتيجي التي يفرضها ظهور الصين كقوة منافسة، وأكد المتحدث بأن إعادة ظهور الصين يعد أحد أهم التطورات السياسية في وقتنا، وأضاف أن الصين اليوم بعد التطور الذي أجرته على قوتها العسكرية والاقتصادية لم تعد تتأثر فقط بالمستجدات على الساحة العالمية بل إن مكانها اليوم يتيح لها أن تكون هي المكونة للساحة العالمية وبالأخص الملف الأمني العالمي، وأرجع سبب ذلك إلى عنصرين مهمين وهما نمو الاقتصاد الصيني، والرغبة العالمية بمساندة الصين للتخلص من ظاهرة القطب الأوحد في العالم وإضافة التوازن في الملف الأمني العالمي.

إن ظهور الصين يشكل عدة تحديات بالنسبة للمتطلبات الأمنية العالمية وخاصة فيما يتعلق بالقضايا الاقتصادية والعسكرية، وإن تحديث الصين العسكري والاقتصادي المصحوب بالثقة السياسية والدبلوماسية التي مارستها في المنتديات الإقليمية والعالمية بالإضافة إلى العلاقة المتميزة بين شنغهاي والأمم المتحدة، وهذا يلقي بتساؤلات كثيرة منها حجم النفوذ الاقتصادي للصين ومدى تأثيره على الساحة العالمية في حال استخدام الصين لهذه القدرة الكبيرة

كورقة ضغط لفرض إرادتها على المجتمع الدولي وما هو جدول الأعمال المطروح في النظام الحاكم الصيني ومدى صحة العلاقات الداخلية الصينية وخاصة بين النخب المدنية في المجتمع الصيني، وأخيراً مدى قدرة الحزب الشيوعي على تكييف نفسه وقدرته على حسم القضايا الداخلية.

تساءل أحد أعضاء اللجنة عن قدرة الولايات المتحدة وحلفائها (مثل الاتحاد الأوربي، كوريا الجنوبية، اليابان، أستراليا) على الرد على هذا البروز القوي للصين، وأكد المتحدث بأن المخاوف التي تثيرها الولايات المتحدة الأمريكية حول القابليات والامتيازات المؤسساتية لجيش التحرير الشعبي (الجيش الصيني) هي مخاوف مبررة، وببعض الثقة والجرأة نقول بأن هذا الظهور القوي للصين كقوة مؤثرة على الساحة الدولية سيؤثر على التوازن العسكري بشكل كبير في شرق آسيا، وعلى سبيل المثال كان الجيش الصيني يعد من أقوى الجيوش في العالم.. ولكن هذا الرأي كان يعتمد في جوهره على القوات البرية الصينية ولكنه تحول الآن إلى أكثر من مجرد قوة برية فالصين تمتلك اليوم ما يعد من أكبر القوى الجوية والبحرية ذات القيادة المركزية والقادرة على حماية المصالح في الداخل أو الخارج، إن الصينيين يطبقون في كل مناوراتهم وتدريباتهم العسكرية نظريتين وهما الصراعات الموجودة الآن في العالم ونظرية الصراعات المستقبلية المحتملة، وأوضح عضو اللجنة بأن الصين تطبق هاتين النظريتين في المناورات والتدريبات العسكرية منذ أوائل التسعينيات، أما مؤخراً فقد ركزت جهود الجيش الصيني على الاستعداد للحروب والمواجهات المحلية، بالإضافة إلى تطوير قابلية الجيش على حسم النزاعات بكل دقة وسرعة من خلال الاعتماد والتركيز على عدة عناصر ومنها التطور في أسلوب القيادة

المركزية والاتصالات وتكنولوجيا المعلومات والاستخبارات وطرق وأساليب المراقبة والاستطلاع، كما يطور أيضاً من قابلياته لمنع القوات الأمريكية من الوصول إلى المنطقة، وهذا بالتأكيد سيفرض على القوات الأمريكية أن تغير من أساليبها وتستمر في التحديث والتطور لمواكبة هذا التفوق الصيني.

أما عن أسلوب إدارة الصين للقضايا المحلية الصينية، فقد أكد عضو اللجنة النمو السكاني المتزايد الذي يزيد من الشباب المحروم من الحقوق والغاضب فعلاً في الصين ولاحظ بأن هذا النمو يمكن أن يؤثر على استقرار الصين الداخلي، وأضاف أيضاً الطريقة التي تستخدمها الصين في حسم التهديدات الداخلية وبشكل أكثر تحديداً الدور الذي يلعبه الجيش الصيني في الأمن الداخلي (وهذا ما رأيناه في أحداث التبت الأخيرة)، علاوة على ذلك ذكر عضو اللجنة المرونة التي يتمتع بها الجيش الصيني خصوصاً في مجال التعليم والتدريب مما سمح بتحويل الجيش الصيني التقليدي إلى قوة قتالية فعالة.

الخصوم الإقليميون ذوو التسلح النووي

استمر المؤتمر في تقديم طبيعة التهديد الذي يخص الخصوم الإقليميين ذوي التسلح النووي، إن مثل هذه الدول والأنظمة ككوريا الشمالية قد تكون ضعيفة جداً من نواح عديدة، لكن امتلاكهم هذه التكنولوجيا والأسلحة النووية يجعل في قدرتهم إعاقة الخيارات العسكرية الأمريكية في حال مواجهتهم رغم التفوق العسكري الأمريكي، وفي الحقيقة هؤلاء الخصوم قد يجدون ما يحفزهم على استعمال أسلحتهم النووية في الحرب، وإن من المفارقة أن يكون الضعف السياسي والعسكري لهذه الدول هو الذي يجعل الأمر صعباً لردعها عن استعمال الأسلحة النووية في أي نزاع مستقبلي.

نستنتج هنا بأننا يجب أن نتوقع دولاً نووية جديدة تحاول أن تجد "خطوطاً حمراء" لإيقاف خصومها، وفي نفس الوقت نؤكد على تفوق القدرات العسكرية الأمريكية التي سيكون لها قيمة رادعة ضد الخصوم الإقليميين ذوي التسلح النووي، ولكن هل يجب أن تجد الولايات المتحدة نفسها في حالة نزاع؟ في مثل هذا الحالة ستكون المهمة صعبة بلا شك.

بالتأكيد أن هذه الدول سيكون أمامها عدد من الخيارات لاستعمال الأسلحة النووية، يتضمن ذلك الأسلحة البايولوجية والقنابل ذات التأثير الكهرومغناطيسي، هجمات ضد الأهداف العسكرية، هجمات ضد البنية التحتية الاقتصادية، وهجمات ضد المناطق المدنية، وحتى الهجمات ضد الأهداف التي تعتبر في آخر جدول الأهداف يمكن أن تسبب آثاراً نفسية ذات تأثير سلبي كبير في حال التهديد بمهاجمة أهداف اقتصادية مدنية، وعند عدم تمكن الولايات المتحدة وحلفائها من منع مثل هذه الهجمات فإن الولايات المتحدة وحلفائها قد يجبرون على قبول بعض طلبات الخصوم، وأنهى المتحدث كلامه بأن برنامج الدفاع الأمريكي الحالي سوف لن يزود القادة المستقبليين بالثقة الكافية لردع هذه الاعتداءات النووية، ورداً على هذا الطرح ذكر أحد اعضاء اللجنة بأن هذه الدول تريد تفادي توجيه أي نزاع مع الولايات المتحدة وهذا يمكن أن يمنح الإدارة القادمة ببعض الثقة المعنوية، وأكد ذلك العضو بأن هذه الدول ستواجه أيضاً تحديات سياسية ودبلوماسية دولية هامة ربما تعيقها عن توجيه أي تهديدات أو تحديات مستقبلية حتى تحت أسوأ السيناريوهات المستقبلية.

تساؤلات وإجابـــات

ناقش المشاركون في المؤتمر حالة تسلح الجماعـــات الإرهابيـــة المتطرفـــة بالأسلحة النووية وأجمعوا على أن هذا التحدي يشكل مشكلة عميقة، بالرغم من أنه نفس الموقف الذي سيقع حال حصول الأنظمة على هذه الأســـلحة، ولكن الاختلاف هنا هو في الاعتماد على العقيدة والاســـتراتيجية المتطرفـــة للجماعات الإرهابية، والسؤال الذي يطرح نفسه هو ماذا يمكـــن أن تفعـــل الولايات المتحدة في حالة حصول جماعات إرهابية على القدرة لتوجيه تهديـــد نووي ضد الولايات المتحدة في نفس الوقت التي تكون هذه الجماعات غـــير قابلة للردع لعدة أسباب.

يمكن للولايات المتحدة أن تتخذ قرارات باستخدام الأسلحة النووية ضـــد بعض الدول وفق حسابات المواجهات على الرغم من صعوبة اتخاذ مثل هـــذه القرارات ولكن الصعوبة الحقيقية أو المستحيلة تكمـــن في اســـتخدام هـــذه التكنولوجيا ضد الجماعات المتطرفة التي تتميز بالانتشار والمرونة والتي لا يمكن تحديد أماكن تواجد أفرادها وحصرهم في منطقة معينة من العالم، وكمثال على ذلك تنظيم القاعدة الإرهابي الذي يمتد من جنوب شـــرق آســـيا (ماليزيـــا وأندونيسيا) مروراً بأفريقيا وأوروبا وحتى يشمل ذلـــك الخلايـــا النائمـــة في الولايات المتحدة.

ولكن بلا شك إن الوضع يختلف تماماً مع إيران، ففي حالة استخدام إيران للأسلحة النووية لن يكون هناك أي رد سوى استخدام القوة الكاملة لردعها، بالإضافة إلى أن تحسين فعالية أسلحة الدفاع الأمريكية مثل مشروع الـــدرع الصاروخي الذي يعد من أهم الوسائل التي تجعل من خيارات إيران النووية غير

فعالة وغير مجدية، في الوقت الذي أجمع المشاركون على أهمية النظم السياسية الإيرانية المحلية ومنظمات المجتمع المدني التي لا تزال بحاجة إلى دعم مستمر لتفعيل دورها، وللتوضيح أكثر فإن النظام الإيراني يعتمد على قاعدة أوسع من الدعم في مجتمعه مما هي عليه الحكومة في كوريا الشمالية، لذا فإن إيران قد تتصرف بشكل متعقل أكثر من كوريا الشمالية في حال الأزمة أو النزاع.

الإرهاب والتطرف.. التهديد المتغير

بلا شك أن الولايات المتحدة يجب أن تتعامل مع التهديدات المحتملة في المستقبل في نفس الوقت الذي تكون فيه مشغولة بحربَي العراق وأفغانستان، ونؤكد هنا بأن التطرف السلفي بدأ من فترة قصيرة مصحوباً بالنمو السكاني الهائل في الشرق الأوسط مما خلق صعوبة عظيمة في إيجاد التوظيف الأمثل لمثل هذه الطاقات، وهذا ما يؤدي إلى جنوح الشباب نحو الجماعات التي تتبنى تفسيرات متطرفة للإسلام، ظهرت هذه الصورة أولاً بعد حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧م بعد هزيمة الجيوش العربية التقليدية من قبل القوات الإسرائيلية التي استعملت التقنية المتطورة في ذلك الوقت، فيما بقيت القوة الهامة الوحيدة في العالم العربي (الفدائيون الفلسطينيون)، وتحولت هذه القوة في الوقت الحاضر إلى ما يعرف الآن بـ(الجماعات المتطرفة).

ثم ناقش عضو اللجنة ماهية الأساليب المعمول بها لمواجهة التهديدات من قبل هذا النوع من الجماعات، قائلاً بأن الولايات المتحدة عموماً ناجحة في عمليات الاغتيال وإلقاء القبض على هؤلاء كما هي ناجحة أيضاً من ناحية تصنيف التهديدات لكن براعتها ونجاحها يقلان بشكل ملحوظ في المجال الاستراتيجي، فالولايات المتحدة الأمريكية تحتاج لوضع استراتيجية لتحويل

هذا الانجذاب من قبل الشباب إلى الجماعات المتطرفة التي تستمر في خلق وتجديد الإرهابيين.. مثل هذه النظريات تدافع عن الاستثمار الحكومي الأمريكي في العالم الإسلامي والتي تحتاج إلى تنسيق دائم من قبل الوكالات المعنية، وأضاف أحد المشاركين في المؤتمر بأن الأفعال تولد ردود أفعال مساوية لها في القوة واستشهد بالثورات التي يكون دافعها دينياً وكيف أنها تتوسع بسرعة من إقليم لآخر وخصوصاً في ظل تكنولوجيا الاتصالات المنتشرة في العالم، يجب أن لا نتفاجأ عند رؤية ردود الأفعال الواسعة الانتشار بسبب الحرب الأمريكية في العراق وأفغانستان والأعمال الإسرائيلية في غزة والضفة الغربية ولبنان.

جادل عضو اللجنة بأن الولايات المتحدة تواجه صعوبات كبيرة في كيفية تصنيف ردود الأفعال التي يتبناها المجتمع الإسلامي بسبب العمليات التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، وكيف أنها تأخذ مدى أوسع بسبب ضعف المجددين في العالم الإسلامي وارتباطات الولايات المتحدة بالأنظمة المستبدة والديكتاتورية الحاكمة في العالم الإسلامي وخصوصاً في البلدان العربية.

تساؤلات وإجابات

ناقش المشاركون في المؤتمر الوقت أو المدى الذي من المحتمل أن يبقى فيه العراق تربة خصبة ومركزاً لتدريب العناصر الجهادية المتطرفة، وحدد أحد الأعضاء بأن من أهم الأسباب لاستمرار هذه الحالة هي استمرار قمع الدولة وسوء التوقيت والشمولية في إصدار القرارات الخاطئة والتي تغذي دعوة الجماعات الجهادية المتطرفة لمواجهة هذه الأوضاع، وناقش المشاركون أيضاً



أحد التقارير الذي صدر في وقت سابق من هذا العام والذي أظهر مدى قبول أو رفض المسلمين لممارسة العنف السياسي الـــذي قامـــت بـــه المجموعـــات الإسلامية المتطرفة، ومدى رغبة المسلمين في إقامة دولة إسلامية أو ما يـــسمى بـــ(الأمة الإسلامية) ومدى تقبلهم للهوية الجديدة التي تمـــنح لهـــم في حـــال هجرتهم أو لجوئهم في بلدان أوروبية مثل فرنسا، لاحظ الحاضرون بأن أعضاء اللجنة بدأوا باستعمال شَرطي الإرهاب والتطرف بشكل مترادف، ثم نـــاقش أحد الحضور بأن مصطلح الإرهاب يجب أن يعزل عن مـــصطلح التطـــرف والذي يمثل التهديد الأكبر، وجادل عضو اللجنة بأن جوهر التطرف هو مخالفة الرأي العام، بينما يرى الإرهابيون أنفسهم كطلائع ثورية بمعنى أن المتطرف هو مشروع لتكوين الإرهابي.

إيران والتحدي المتـــعدد الأبعـــاد

إن النقطة الأكثر أهمية هنا هي معرفة الحدود التي وصـــلت إليهـــا القـــوة الإيرانية، ومعرفة الاستراتيجية التي يتعامل بها الإيرانيون لحساب الفرص الـــتي تمنح لهم والتهديدات الموجهة لهم، وعلينا أن ندرك إن التـــصورات الإيرانيـــة لاحتياجاتهم الأمنية تتجاوز كل خلافاتهم الفئوية الداخلية.

إن من الأهداف المدرجة في الأجندة الإيرانية بالإضافة إلى الدفاع الـــوطن ودعم الحلفاء كأحد خطوط "الدفاع الأمامي"، إضفاء بعض الثقـــل للكفـــة الشرقية كجزء من محاولة تعديل الضغط من الغرب.

لا شك بأن الولايات المتحدة قد ساعدت إيران إلى حد ما بإزالة الأنظمـــة المعادية لها في العراق وأفغانستان، وعلى أية حال فإن إيران تسعى إلى التطـــوير من قدراتها مما يتيح لها المجال للعب دور إقليمي يمكنها في أغلب الأحيان مـــن

معارضة المصالح السياسة الأمريكية، ولكن إيران تدفع ثمن ذلك باهضاً بسبب الكلف الاقتصادية لسياسات إيران العدائية للغرب والعزلة التي أحدثتها هـذه السياسات، ولكن بعد دراسات عديدة قُدمت ونقاشات مستفيضة لها أفضت إلى نتيجة واحدة وهي كبر الهوة بين تطلعات إيران والحقيقة الموجودة علـى أرض الواقع.

لا شك بأن الاستراتيجية الدفاعية لإيران تعتمد إلى حد كبير على التعبئـة الهائلة والمقاومة الاجتماعية والحضارية مستندة على الاعتقـاد بـأن الثبـات الأيديولوجي سيمكن إيران من البقاء كمعارض للسياسات الأمريكية لفتـرة طويلة، لذلك أرادت إيران زيادة قدراتها العسكرية لكن ليس هناك دليل مؤكد على أنهم قد أحرزوا أي تقدم مهم، علاوة على ذلك لا يجب أن يكون مـن المفترض دائماً أن حلفاء إيران مثل حزب الله وحماس، سيتصرفون وفق دعـم دائم للمصالح الإيرانية، على الرغم من الدعم الكبير الذي تقدمه طهران لمثـل هذه المجموعات.

وتجدر الإشارة هنا بأنه إذا ثبتت دقة تخمين الاستخبارات الوطنية مـؤخراً حول إيقاف إيران لجهود تطوير سلاحها النووي فإن هذا التقرير قد يكـون سبباً لإعادة النظر في موقع إيران من الأولوية في التخطيط الدفاعي الأمريكـي كقوة متوسطة بدون برنامج نووي، بالإضافة إلى ذلك فإن إيران تعاني من عدة نقاط ضعف متأصلة والتي ستعيق طموحها بتوسيع تأثيرها، فـأولاً القـوات العسكرية الإيرانية التقليدية ضعيفة وثانياً هناك انشقاقات دينية حادة ضـمن النخبة الحاكمة لإيران، والتوترات الأخيرة بين إيران والولايات المتحـدة قـد ساهمت في تعميق هذه الانشقاقات، علاوة على ذلك أنه حتى في حالة خفض

التواجد الأمريكي في العراق فإن إيران لن تستطيع أن تملأ الفراغ في العـــراق لعدة أسباب ولعل من أهمها أن الأقلية السنية وإن تكن قد قاتلت ضد القوات الأمريكية ولكنها حتماً ستقف معها إذا ما أحست بالخطر الإيـــراني المتمثـــل بالتمكن من إدارة الحكم هناك وذلك للصراع الأيديولوجي العميق بين السنة والشيعة، بالإضافة إلى أن معظم الشيعة في العراق لا يؤيدون أي سيطرة لإيران على بلدهم، أخيراً فإن إيران عندها عدد مـــن المـــشاكل الاقتـــصادية منـــها الانخفاض في معدل الإنتاج الهابط من الحقول النفطية الإيرانية، وضعف الدعم الإقليمي للاستراتيجية التي تتبعها إيران حتى من قبل الدول المعادية للولايـــات المتحدة بالإضافة إلى المشاكل الأخرى المتعلقة بالدبلوماسية العدائية والخطابات الشديدة اللهجة التي توجهها إيران للمجتمع الدولي.

تقـــديم آخـــر

(تحتاج وزارة الدفاع الأمريكية لتغيير استراتيجيتها، نحن لا نستطيع إيجاد كل الحلول، يجب أن ندفع بحلفائنا للدخول على الساحة العالمية ليبحثوا عن رأس المال والقدرة، وإلا فسوف نفتقر إلى المصادر التي التي تمكننا من البقاء كقوة عالمية وحدنا/ ضابط عسكري كبير)

أبرز التقديم خمس قضايا ستستدعي اهتمام وزارة الدفاع الأمريكية وهي:

(١) العولمة والتي تطرح عدة أسئلة على القوات المسلحة للولايـــات المتحـــدة ومنها: ما النتائج الاستراتيجية لها، وكيف يمكن لوزارة الدفاع الأمريكيـــة أن تعمل بصورة أفضل في ظل العولمة آخذين في الاعتبار المسافات والحدود التي تم إلغاؤها بفضل تكنولوجيا الاتصالات والإنترنت، وكيف يجب أن تفكر وزارة

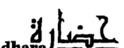


الدفاع الأمريكية بشأن الدفاع وعلاقاتها بالكيانات الأخرى؟، وكيف تؤثر أجهزة الإعلام الجديدة وعصر الاتصالات على الاستراتيجية القتالية الأمريكية؟.

(٢) اللغز الاستراتيجي التي تفرضه إيران وروسيا في الوقت الحاضر، فوزارة الدفاع الأمريكية لا تعرف إلى أي مدى تستطيع بلدان كـإيران وروسيا أن تتطور وإلى أي مدى يرغبون في تحدي المصالح الأمريكية في المستقبل، أو مدى رد فعلهم على العمليات التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية وما ترتيب الولايات المتحدة في جدول أعمال تلك الأنظمة، وبعبارة أخرى هل يمكن للولايات المتحدة أن تتقبل تطور روسيا وقدرة إيران على تصدير الإرهاب والعقائد المتطرفة؟.

(٣) انتشار أسلحة الدمار الشامل فالقوات الأمريكية لها القدرة والقابليات لكشف وتعقب مدى التسليح بالنسبة للأنظمة لكن ليس للكيانات الصغيرة ويتضمن ذلك حتى الأفراد، ويمكن اعتبار القوات الأمريكية متحيزة "صناعياً" لبناء الأسلحة الكبيرة التي يمكن أن تدمر أشياء كبيرة وذلك في المواجهات والتحديات مثل انتشار أسلحة الدمار الشامل، وهذا بلا شك يفرض على القوات الأمريكية إعادة النظر في الأساليب والطرق التي تتبعها وستحتاج لتكييف وتطوير القابليات الجديدة لتعقب وهزيمة الأهداف غير التقليدية.

(٤) علاقات أمريكا مع حلفائها، لم يعد باستطاعتنا القول بأن الإنفاق الأمريكي على البحث والتطوير يكفي لمسايرة التغييرات في العالم أو بأن استراتيجية البناء والتشغيل التقني ضمن المنظمات العاملة في التطوير بكل جوانبه قادرة على التنافس في ظل التطور الذي يشهده العالم اليوم، بلا شك



أن الولايات المتحدة تفتقر إلى المصادر والرأسمال الثقافي اللذين يجعلانها القـوة الأكبر عالمياً.

(٥) الأهمية المتزايدة لتكنولوجيا الاتصالات والإنترنت من حيـث البحـث والتطوير، وبلا شك أن وكالة الأمن القومي لها القابليات والقدرة لأخـذ دور أساسي في توصيف القضايا الأمنية المتعلقة بمجال الإنترنت، كما هي الحاجـة أيضاً لتكامل العمليات العسكرية مع تكنولوجيا المعلومات والتي تتـيح اتخـاذ القرارات بسرعة، ومن المعروف عسكرياً أن سرعة اتخاذ القـرار الـصحيح تساهم في تقليل الخسائر في المواجهات والمعارك، وهذه النقطة ستطرح عـدة أسئلة بخصوص قدرة القادة على كل المستويات واستعدادهم لفهـم الحالـة الواقعية على الأرض وصياغة وتنفيذ استراتيجيات ملائمة لها.

تساؤلات وإجابـات

ركز السؤال الأول على كم من الناس يجب أن تجندهم الولايات المتحـدة للعمل في مجال الإنترنت، وهذا يفرض أيضاً التعاون التام بين جميع الوكـالات الحكومية وغير الحكومية، ولكن توجد معوقات بيروقراطية أمام هذا الأسلوب وهي تؤدي إلى مزيد من التساؤلات حول كيفية تمكن الحكومة الأمريكية من تبني مثل هذه العملية وصياغة القرار المناسب لها داخل الحكومة الأمريكية، وما هي الضمانات التي ستجعل القوات الأمريكية هي المتفوقة دائماً في هذا المجال، هذا إذا لم نحسب حساباً لوقوع تلك التكنولوجيا في أيدي الأعداء المعـروفين بتكيفهم مع مختلف الظروف فهم يعملون كجماعات أو كـأفراد وفي كلتـا الحالتين لا فرق في النتائج، إن النـزاعات الإقليمية غير التقليدية ستحتاج إلى تطور في إسلوب وأدوات الاستخبارات والمراقبة وقابليات الاستطلاع القادرة

على اختراق الأراضي غير المعروفة بالنسبة للقوات العسكرية، وتبرز هنا الحاجة لتطوير "أدوات الكشف الفضائي" مثل الأقمار الصناعية الخاصة بالكشف والمراقبة، وبالتأكيد فإن مثل هذه الأدوات مكلفة جداً، وإن الأدوات الحالية لا يمكن الاقتناع بنتائجها.

حاجات أولوية لضمان المصالح الأمريكية

(نواجه معضلة أمن متأصلة، وهي أن الدفاعات الصينية تقوض تفوقنا العسكري/ محلل في وزارة الدفاع)

بدأ المقدم بذكر الوسائل التي تساهم في قلب التحدي وصناعة التأثيرات العالمية، وفي النهاية فإن الأهداف السياسية من الضروري أن تترجم إلى أهداف عسكرية حسب الوسائل والأدوات التي يملكها ويستخدمها القادة العسكريون لانجاز تلك الأهداف، أشار المتحدث إلى عدة قيود على العمليات العسكرية التي جرت في التسعينيات ومنها الحاجة للعمل والتنسيق مع قوات متحالفة والذي يسهم بتعقيد العمليات وتأخرها بسبب الحاجة لإيجاد التنسيق المناسب والتغلب على القيود القانونية، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أولوية قصوى لتجنب الإصابات بين المدنيين أي تحديد العوامل والعناصر التي تؤثر على اختيار الهدف، أخيراً فإن الجهود لتفادي الخسائر في القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها أعاقت العمليات البرية مما أجبر القادة على الاعتماد على قوة السلاح الجوي.

بعكس ذلك نلاحظ أن مبدأ قبول الخطر والأخذ بالمجازفة أصبح مقبولاً إلى حد ما في الوقت الراهن، وهذا المبدأ ساهم في إيجاد التزام طويل المدى من قبل القوات البرية، ولكن الأعداد المتزايدة من الإصابات في القوات الأمريكية

جعلت الكثير من الدول الحليفة لا تحب المساعدة في مثـــل هـــذه العمليـــات وخصوصاً في أعقاب حرب العراق، ويمكن استخدام نموذج جديد في حـــسم المواجهات المستقبلية وهو الجمع بين (القوات الجوية وقوات العمليات الخاصة) في مهمات مشتركة للحصول على نتائج أفضل وهذا ما قد يكون محبذاً أكثر في المستقبل، مثل هذا النموذج يمكن أن يكون قوي جداً في تنفيذ الأهـــداف السياسية بوسائل عسكرية وبدون التزام طويل المدى مثل الذي هو مفـــروض على الولايات المتحدة الآن في العراق وأفغانستان.

التغلب على "التهديدات غير التقليدية" في القرن الحادي والعشرين

ناقش أحد المشاركين كيف أن الحروب التقليدية التي تعوّد عليها العالم ربما لم يعد لها وجود في وقتنا الحاضر وأن الأسلوب الموجود في النـــزاعات الحالية هو أسلوب الحروب غير التقليدية، والتي يتمتع الخصوم في هـــذه المواجهـــات بقابليات مثل القذائف سهلة النقل والحمل وأسلحة ضد الدروع، بالإضافة إلى استعمال وسائل شاذة قد تفوق القابليات الموجودة في الجيوش النظاميـــة ممـــا يسبب استمرار هذه المواجهات لفترات طويلة وقد يصعب حسمها نهائياً (سبع سنوات في العراق وأفغانستان تعد خير دليل على هذا)، أضاف المتحدث بأنه في حال بقاء حزب الله والمتطرفين السنة في العراق وطالبـــان في أفغانـــستان كجزء هام من التهديد المستقبلي فهذا يحتم على القوات الأمريكيـــة تحـــسين قابلياتها العسكرية لحسم مثل هذه المواجهات غير التقليدية، علاوة على ذلـــك فإن قدرة أنظمة المخابرات الأمريكية غير كافية، كما هو الحال في القدرة على قيادة العمليات المعلوماتية وتجهيز الضباط وعدم التأهيل الكافي لهـــم للعمـــل كمستشارين إلى جانب القوات العسكرية.

القابليات المطلوبة لمواجهة الخصوم التقليديين

أكد عضو اللجنة بأن الولايات المتحدة يجب أن تطمئن أصدقاءها وحلفاءها خاصةً في شرق آسيا، وأوصى بتطوير استراتيجية جديدة لمنع الصين من الاستمرار في النمو لمنافسة الولايات المتحدة، واقترح أيضاً بأن على الولايات المتحدة أن تطور مثل هذه القابليات كمشروع الدرع الصاروخي والقوات المشتركة في القواعد الأمريكية حول العالم، وتحسين منظومة الدفاع الألكترونية (الإنترنت)، وتحسين القدرة على توجيه ضربات بعيدة المدى وتحسين قدرة الاستخبارات على المراقبة والاستطلاع.

الإمكانيات والأخطار

لاحظ أحد أعضاء اللجنة بأن كلا التقديمين قد طرحا الأخطار المحتملة والمتعلقة باستخدام تكنولوجيا الاتصالات والإنترنت، نحن نعيش في عالم متقلب جداً والذي يشكل معضلة لمخططي السياسات الدفاعية، وقال بأننا نحتاج أيضاً لوضع المشاكل الداخلية للولايات المتحدة في نظر الاعتبار عند رسم أي هدف أو اتباع استراتيجية مستقبلية.

إن من أهم عناصر القوة هي رأس المال البشري ولكن هناك عدة قوى تتمثل في التنوع في هويات من يخدم في القوات العسكرية الأمريكية، فالجيش الأمريكي يحتاج لتطوير الضباط ليكونوا أكثر تكيفاً مع الظروف التي تستجد وذلك بتنمية المهارات الإدارية بجانب المهارات القتالية لضباط الجيش الأمريكي، ويحتاج أيضاً لإشراك عدد أكبر من الموظفين الإداريين في الجيش الأمريكي لتعزيز إمكانية التخطيط المستقبلي، هذه بالتأكيد تمثل مشكلة لأن كل شخص تقريباً يعمل في الحقل الأمني القومي يقوم بتحليل المشاكل بصورة

منفصلة، والقليل منهم يركز على القضايا الأوسع والتي تكون بحاجة إلى وضع استراتيجية شاملة وطويلة الأمد.

ضرورة إعادة بناء الجيش في ظل الموارد المحدودة

مما لا شك فيه أن مستوى الإنفاق العسكري الأمريكي الحالي هو أعلى مستوى وصل إليه في تاريخ الولايات المتحدة، وتكمن المشكلة في أن هذا المستوى سيرتفع مع ظهور التحديات المستقبلية وحتى ربما قبل ظهورها.. أي في مراحل الاستعداد لها، وتظهر التقديرات الأخيرة بأن الإنفاق العسكري السنوي الأمريكي من المتوقع أن يصل إلى (٥٢١$ بليون في ٢٠١٤م) تقريباً، وإن الإنفاق على بناء السفن قد فاق مستويات الإنفاق أثناء الحرب الباردة، وتشير التقديرات بأن الإنفاق على صناعة الطائرات التابعة للقوة الجوية قد فاق أيضاً مستوياته أثناء الحرب الباردة.

لاحظ المتحدث أيضاً بأن وزارة الدفاع الأمريكية تضع خططاً لتعزيز الكثافة العددية للقوات (بشكل محدد القوات البرية) والذي بدوره سيزيد من الكلف الطبية والضمان الاجتماعي.

القوات البرية الأمريكية وخيارات للتطور المستقبلي

استبعد المتحدث فكرة أن الولايات المتحدة ستكون قادرة على تخفيض الإنفاق العسكري في السنوات القليلة القادمة، ويشير إلى أن أعداداً كبيرة من القوات البرية الأمريكية من المحتمل أن تبقى لفترة طويلة في العراق وأفغانستان، وسيضيف هذا الانتشار الممتد إجهاداً كبيراً على القوات البرية التي من المحتمل أن تخفف فقط بشكل هامشي، وأضاف المتحدث بأن الجيش يمثل القوة الرئيسية في حسم الحروب الطويلة، وسيحتاج الجيش للرد بشكل كاف على

هذه النـــزاعات إلى تطوير مستويات الضباط الميدانيين والضباط الإداريـــين، وإن على الإدارة القادمة معرفة القوة الحقيقية للجيش الأمريكي وأن توازن بين خياراتها العسكرية والخيارات الدبلوماسية السياسية قبل إرسال الجيش إلى أي مكان نزاع في العالم.

تساؤلات وإجابـــات

أبدى جميع المشاركين قلقاً مبرراً على حالة القوات المـــسلحة الأمريكيـــة كالنقص في الموارد والتجهيز والحالة السيئة للتعاون بين الوكـــالات الأمنيـــة الحكومية.. أحد المشاركين تساءل فيما إذا كنا نحن نخاطر بالقتال في الحروب من أجل غيرنا؟ وما إذا كانت هناك حاجة للعمل لخلق قابليـــات وقـــدرات لمكافحة التطرف عبر وكالات مدنية من خارج الحكومة الأمريكية؟، أكد هذا المشارك الحاجة لتعزيز أدوات السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية، وبالتأكيد سنحتاج لفهم أفضل للأدوات السياسية المتوفرة لدى الحكومة.

ملاحظات أخيـــرة

(كيف نخوض حربين ونستعد للمستقبل؟/ ضابط عسكري كبير)

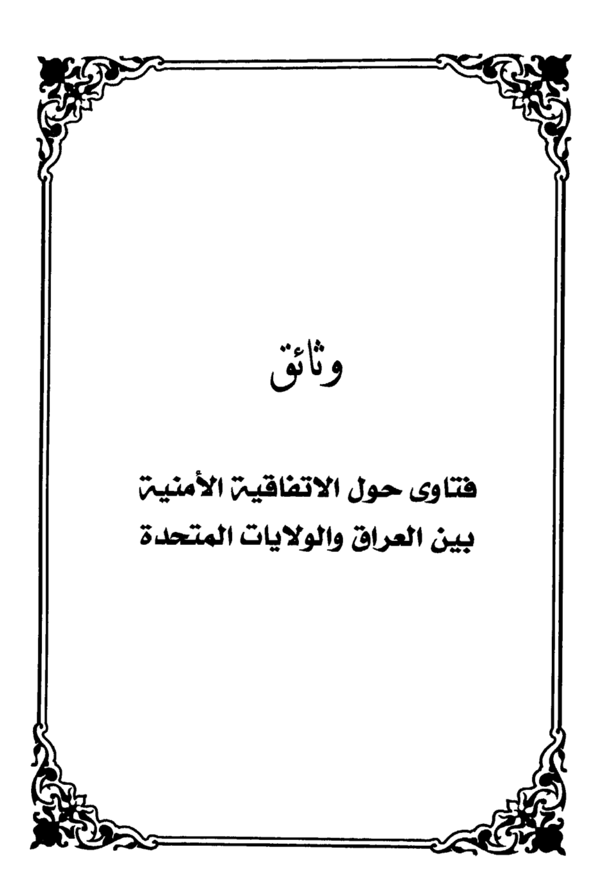
إن الحكومة الأمريكية لا تستطيع غض النظـــر عن العراق وأفغانـــستـــان، بالتأكيد نحتاج للاستعداد منذ الآن للتحديات التي ستلي هذين الالتزامين، كلنا نتفق على أن وزارة الدفاع الأمريكية تحتاج إلى:

(١) تطوير استراتيجية عسكرية عامة للشرق الأوسط.

(٢) إعادة تكوين القوات والذي أصبح أمراً ملحاً بعد الحروب والمواجهـــات الأخيرة.

(٣) معالجة القضايا الأمنية في العالم باستخدام الوسائل الدبلوماسية واللعب بأوراق الضغط الاقتصادية.

في أي استراتيجية توضع للشرق الأوسط يجب أن ينظر إلى دور إيران المستقبلي في المنطقة وضرورة تأسيس استقرار أكبر بين إسرائيل، سوريا، لبنان، والأراضي الفلسطينية، بينما وزارة الدفاع الأمريكية ستلعب الدور الأهم في تشكيل الاستقرار في كافة أنحاء المنطقة، وعلى الحكومة بجميع مكاتبها ووكالاتها أن تعمل لمساعدة وزارة الدفاع لتخفيف الضغط الواقع عليها، أما عن القوات المسلحة المرهقة أصلاً فتحتاج لبعض الراحة وهذا يتضمن الأفراد وعوائلهم و بخاصة القوات البرية التي تحتاج إلى تجديد وتنشيط.



وثائق

فتاوى حول الاتفاقية الأمنية بين العراق والولايات المتحدة

فتوى هيئة علماء المسلمين في العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

فتوى

في بيان الحكم الشرعي في الاتفاقية المزمع عقدها بين الحكومة الحالية وبين إدارة الاحتلال الأمريكي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد تواترت الأنباء هذه الأيام عن عزم الحكومة الحالية على توقيع الاتفاقية طويلة الأمد مع الاحتلال وبإلحاح من الجانب الأمريكي، وأخذت بعض الأوساط الرسمية في الحكومة الحالية ومن حولها تخفف من وقع ما اشتملت عليه هذه الاتفاقية من مطالب خطيرة؛ لتبرير التوقيع عليها.

ومن خلال النظر في واقع هذه الاتفاقية بحسب المعلومات التي وصلتنا عنها وهي معلومات مؤكدة، يتضح جلياً أنها ليست بالهدنة المتكافئة التي يجيز فيها الإسلام التعاقد مع غير المسلمين استناداً إلى مهادنة الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية؛ لأن جواز الهدنة مقيد بأمور، منها: اكتمال شروط الدولة للمسلمين ووجود مصلحة لنشر الإسلام، واستقامة المهادن، والحذر من نقضه العهد، ومدى مراعاته الاتفاق، مع وجوب تقدير مدة معينة معلومة لها.

والملاحظ أن معظم هذه الأمور غير متوافرة في الاتفاقية التي يراد إبرامها، فضلاً عن أن الحكومة الحالية في العراق غير مؤهلة لإمضائها لأنها من صنيع إدارة الاحتلال فهو الذي يشرع لها ويرتب لبقائها، فضلاً عن كونها الجانب

الأضعف الذي لا يستطيع دفع رغبة الطرف الأقوى (المحتل)، وبذلك تكون اتفاقية (الأضعف مع الأقوى) أو اتفاقية (إكراه) كما توصف في القانون الدولي.. وهي غير معتد بها في هذا القانون، ومع غياب المصلحة وفقدان معظم هذه الأمور، تخرج هذه الاتفاقية عن كونها هدنة، وتفصيل ذلك في الآتي:

أولاً: الوصف الشرعي للاتفاقية

إن الوصف الدقيق لهذه الاتفاقية أنها حلف أو معاهدة، وهنا لابد من بيان الآتي: الحلف في اللغة العهد والصداقة، وقد اصطلح على تخصيص إطلاقها على المعاهدات والأحلاف العسكرية.. وهي اتفاقات تعقد بين دولتين أو أكثر تجعل جيوشهما تقاتل مع بعضها عدواً مشتركاً بينهما أو تجعل المعلومات العسكرية والأدوات الحربية متبادلة بينهما، وإذا وقعت إحداهما في حرب تتشاوران لتدخل الأخرى معها أو لا تدخل معها بحسب المصلحة التي يريانها، وقد تكون هذه الأحلاف معاهدات ثنائية أو جماعية، وفي الحالين يكون الجيش الحليف إلى جانب حليفه ليدافع عنه.

إن هذه الأحلاف إذا تمت بين طرفين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم، فهي باطلة من أساسها؛ ولا تنعقد شرعاً وليس لأحد أن يلزم بها الأمة ولا تلتزم بها حتى ولو عقدها أمير المؤمنين (خليفة المسلمين) لأنها تخالف الشرع، فهي تجعل المسلم يقاتل تحت إمرة غير المسلم، وتحت رايته، بل تجعله يقاتل من أجل بقاء هيمنة الكفر، وذلك كله حرام، فلا يحل لمسلم أن يقاتل إلا تحت إمرة مسلم وتحت راية الإسلام.

قال الله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر،

قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)) آل عمران/١١٨، وروى مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (تؤمن بالله ورسوله؟) قال: لا. قال: (فارجع فلن أستعين بمشرك) قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة قال (فارجع فلن أستعين بمشرك) قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة (تؤمن بالله ورسوله؟) قال: نعم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق). صحيح مسلم،كتاب الجهاد: ١٨١٧.

وهذه الأحلاف باطلة أيضاً من وجه آخر، حيث إن هذه الأحلاف تجعل المسلم يقاتل مع غير المسلم أو تجعل غير المسلمين يقاتلون مع المسلمين مع احتفاظهم برايتهم وسلطانهم، أي يقاتلون كدولة لا كأفراد، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاستعانة بغير المسلمين وتحت رايتهم، والحجة في تحريم مثل هذه الأحلاف لهذا السبب، حديث الضحاك أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم (خرج يوم أحد فإذا كتيبة خشناء فقال من هؤلاء؟ قال: يهود كذا وكذا فقال لا نستعين بالكفار)، وفي رواية أخرى عند الطحاوي والحاكم عن أبي حميد الساعدي (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة خشناء، فقال من هؤلاء ؟ قالوا: هذا عبدالله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه من اليهود أهل قينقاع وهم رهط



عبد الله بن سلام قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين، الطحاوي: مشكل الآثار ٣/٢٤١، الحاكم: المستدرك ٢/١٢٢، وإسناده حسن.

ثانياً: الآثار الخطيرة التي تترتب على الاتفاقية

إن الاتفاقية المشار إليها إنما تقوم على أساس تقديم تنازلات من العراقيين حكومة وشعباً لأعدائهم المحتلين المغتصبين الأمريكان وحلفائهم، وهذه التنازلات ستكون في المحاور المذكورة وهي السياسي والدبلوماسي والثقافي والاقتصادي والأمني، ومن آثار التنازل في هذه الاتفاقية:

(١) الإقرار بشرعية الاحتلال، وشرعية كل ما نتج عنه من أنظمة وقوانين.

(٢) الإقرار بشرعية تقسيم العراق أو تجزئته على أساس طائفي وعرقي من خلال التعهد بالحفاظ على الدستور الحالي.

(٣) الخضوع لسلطان المعتدين الغزاة المغتصبين في كثير من أمورنا.

(٤) الإقرار بعدم شرعية الجهاد والمقاومة في العراق، وتحريم المجاهدين والمقاومين للاحتلال ووصمهم بـ(الإرهاب) الذي بموجبه سوف تستحلّ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

(٥) التنازل الكبير جداً عن ثروات البلاد لصالح الاحتلال وصالح شركائه وشركاته.

(٦) فتح الباب للتدخل في شؤوننا الثقافية والحضارية، وهذا ما يهم الاحتلال كثيراً.

(٧) التنازل عن كل الحقوق التي ترتبت على الاحتلال نتيجة عدوانه واحتلاله.

(٨) ضياع حقوق من انتهكت أعراضهم وغصبت أو سرقت أموالهم من العراقيين المظلومين.

(٩) الإمعان في ضياع عزة الشعب العراقي وكرامته اللتين أعطاهما الله تعالى لهم.

وبعبارة جامعة: الاتفاقية المشار إليها تعني الاستسلام الذليل للعدو المحتل.

ثالثاً: الحكم الشرعي

لما كانت الاتفاقية تتضمن تحالفاً عسكرياً مع دولة محتلة وغير مسلمة، فهي باطلة ابتداءً، ومحرمة شرعاً، ولما كانت قائمة على أساس اجتماع المتحالفين لقتال المسلمين من أهل البلد وغيرهم فإن الحرمة تكون آكد؛ لأنه لا يجوز في الإسلام أن يتحالف أحد من المسلمين مع غير المسلمين الحربيين لقتال أهل الإسلام، وإن كانوا عصاة أو بغاة، فهم أقرب للحق والإيمان من غير المسلمين، ولا يجوز مناصرة غير المسلمين بحال ضد المسلمين وإن كان المسلمون على غير الحق الكامل أحياناً.

والأدلة في ذلك كثيرة: منها قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ سورة النساء/١٤١.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) صحيح البخاري: ٦٩٥١.

أما من حيث الوضع في بلدنا العراق فإن الحرمة ترد من وجه آخر، ففضلاً عن كون الطرف المتحالف معه غير مسلم، فإنه غاز ومغتصب ـ في الوقت نفسه ـ والشرع يوجب قتاله حتى ينتهي عدوانه وتزول آثار اغتصابه، ويجب شرعاً بذل كل ما يمكن بذله من مال أو غيره في سبيل تحقيق ذلك، وقد

وردت بهذا الصدد نصوص كثيرة منها قول الله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ) سورة البقرة: ١٩٤، وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) سورة الشورى:٣٩، وقوله تعالى: (وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً) سورة التوبة: ٣٦، وقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ) البقرة: ١٩٣.

ويحرم على المسلمين والحالة هذه التمكين لغير المسلم والغاصب هذا بأي وجه، ومن ذلك إبرام أي اتفاقية معه مؤقتة أو دائمة تجعل له موطئ قدم في أرض المسلمين، وتستعين به على قتال من يمارسون حقهم الشرعي في مقاومته، أو قتال غيرهم من المسلمين، وتمنحه تنازلات سواء أكان ذلك التنازل مالاً يدفعه المسلمون لغير المسلمين أم تعهداً بوقف الجهاد، أم تعهداً بوقف الدعوة إلى الله تعالى، أم السماح له بممارسة سلطانه ونفوذه على المسلمين.

هذا بالنظر إلى الجانب العسكري في الاتفاقية، أما إذا نظرنا إلى الجوانب الأخرى من الاتفاقية والآثار المترتبة عليها، والتي تقدم ذكر بعضها فستتجلى لنا دواع أخرى لتحريمها، وتأكيد بطلانها.

وبناءً على ما تقدم

فإن هذه الاتفاقية إذا ما تمت بين الحكومة الحالية المنصّبة على العراق وبين الإدارة الأمريكية المحتلة للبلاد، فإنها تعد محرمة شرعاً وباطلة عقداً، ولا تلزم أبناء العراق بشيء؛ ولأن الأمر هنا متعلق بحق الأمة، فإن من يجيزها أو يمضي عليها من ساسة الحكومة الحالية سواء منهم من كان في السلطة التنفيذية أو التشريعية (مجلس النواب) فإنه يعد مفرطاً في المصالح العامة للأمة، وغير محترم

لإرادتها وبالتالي فإنه يقع في إثم الخيانة لله ورسوله والمسلمين من أبناء الـــشعب العراقي وغيرهـم.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل وصـــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قسم الفتوى

في هيئة علماء المسلمين في العراق

١٤/ شوال ١٤٢٩ هـ

٢٠٠٨/١٠/١٣ م

فتوى الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

فتوى شرعية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد سألني سائل عن ما يسمى بـ (الاتفاقية الأمنية) المراد عقدها بين أمريكا والعراق وهل يجوز عقدها شرعاً؟

والجواب:

أولاً: إن المقرر في الفقه الإسلامي والمتفق عليه بين الفقهاء أنه أذا احتل بلد مسلم وجب شرعاً على أهل هذا البلد وذي السلطة إخراج هذا المعتدي المحتل وهو ما يسميه الفقهاء بـ (جهاد الدفع)، وبناءً على ذلك وحيث إن أمريكا احتلت العراق وهو بلد مسلم فقد صار واجباً شرعياً عينياً على كل مسلم بالغ عاقل ذكر كان أم أنثى وعلى صاحب السلطة فيه (الحكومة) القيام بهذا الواجب الشرعي العيني، وهذا الواجب الشرعي لا يسقط بالتقادم ولا بمضي المدة ولا تجوز فيه المساومة عليه ولا الاستعاضة عنه وبالتالي لا يجوز للحكومة عقد هذه الاتفاقية كما لا يجوز لمجلس النواب تأييد هذه الاتفاقية أو الموافقة عليها لأن عقدها لا يجوز وما لا يجوز فعله يعتبر منكراً، والمنكر حقه الإزالة والإبطال وليس التأييد له والموافقة عليه والإبقاء.

ثانياً: يجوز فقط الاتفاق مع المحتل تحديد أقصر مدة ممكنة لخروج المحتل من العراق خروجاً كاملاً أبيض لا يبقي بعده أي جندي من جنوده ولا استقرار له على أي مكان في العراق ولو كان بقدر شبر، كما لا يجوز تمديد أمده



للخروج لأي سبب كما لا يجوز إقران أي شيء مع تحديد المدة اللازمة لخروجه.

ثالثاً: بعد خروج المحتل يجب على الحكومة مطالبته بدفع جميع التعويضات اللازمة عما أتلفه أو خربه من الأموال العامة للعراق وعن الأموال الخاصة للأفراد، وعن ما أزهقه من أرواحهم وعن ما ألحقه من أضرار على نساء العراق اللواتي تركهن المحتل أيامى لقتله أزواجهن وبتعويض أولاد العراق اليتامى الذين تسبب بيتمهم لقتله آبائهم، ولا يجوز للحكومة التنازل عن هذه التعويضات لأنها عن أموال وحقوق لا تملكها الحكومة ومن تصرف في شيء لا يملكه فتصرفه باطل، كما أن الحكومة إنما تولت السلطة لحفظ حقوق الرعية ودفع الضرر عنهم وليس للتفريط بهذه الحقوق ومن القواعد الفقهية (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة) أي أن تصرف صاحب السلطة مقيد في قبوله وصحته شرعاً بأن يكون محققاً لمصلحة الرعية كما أمر به الشرع فإن لم يكن ذلك فلا اعتبار لتصرفه.

رابعاً:وإذا تم كل ما ذكرناه جاز لحكومة العراق عقد أية اتفاقية مع أي دولة ترى في عقد المعاهدة معها ما يحقق لها مصلحة شرعية مؤكدة حسب الموازين والضوابط الشرعية في عقد المعاهدات من حيث الشكل والمضمون والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى الله تعالى

عبد الكريم زيدان٢٢- شوال ١٤٢٩ هـ

٢٣-١٠-٢٠٠٨م

فتوى الشيخ الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

س/ ما يدور الآن في العراق من خلال الإعلام، أنَّ الحكومة الحالية تريد عقد اتفاقيَّة طويلة الأمد مع أمريكا البلد المحتل للعراق، فما هو الحكم الشرعي لمثل هذه الاتّفاقيَّة ولا سيَّما ما تسمى بالأمنيَّة؟ نرجو بيان ما ترونه في حكمها.

السائل/ مجموعة من العراقيِّين.

(يَحْرُمُ عقد الاتّفاقيَّة مع المُحتل في شتَّى الجوانب إلاَّ بعد خروجه الكامل من العراق وإعطاء السيادة الكاملة والحقيقيَّة للدولة.. وبعد خروجه تجوز اقتصاديًّا لا أمنيًّا)

ج/ الحمد لله، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداه.

أما بعد:

فإليكم ما أراه جواباً لسؤالكم فيما توصَّل إليه علمي، والله أعلم بالصواب:

أوَّلاً: مِمَّا لا يُنكر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر بكتابة معاهدة مع اليهود في المدينة المنوَّرة، ومُعاهدة أخرى في صُلح الحُديبيَّة.

ولم يكتب مثل ذلك عندما كان فاقِداً للسيادة على مكَّة وكذا على المدينة المنوَّرة، بل كتبها بعد أن سيطر على تلك القُوَّتين المُعاديتين، وكانت المعاهدتان من منطلقِ سيادةٍ وقوةٍ .

ثانياً: لم تكن المُعاهدتان مُشتملتين على الاستعانة _ أمنيًّا _ بالكفرة، بل كانت ما بين مُعاهدةِ مُسالَمةٍ وهُدنةٍ، ولم تتضمن مُعاهدة أمنٍ واستعانة بهم على أمثالهم الكافرين فضلاً عن الاستعانة بهم على المُسلمين.

ثالثاً: رفض النبي (صلى الله عليه وسلم) الاستعانة بالمُشرك على مثله، وقال: (أنا لا أستعينُ بمُشرك) أي في أمور مُسلَّحة وقتالية، بل غاية الأمر أنَّه استعان بهم في وسائل الحرب وعُدَّته حيث استعار درع صفوان بن أُمَيَّة.

رابعاً: الساسة الذين يحكمون العراق الآن هم وإن كانوا يفقدون السيادة إلا أنَّ معظمهم ينتمون إلى أحزاب إسلامية – الحزب الإسلامي، حزب الدعوة الإسلامي، حزب الفضيلة الإسلامي، المجلس الأعلى الإسلامي وغيرها – لذا يجب عليهم احترام كلمة إسلامي أو التخلي عن أحزابهم أو حذف كلمة إسلامي وإبدالها بسياسي فقط بعد أن اتَّضحت لهم لعبة احتلال العراق أو محاربته تحت ذريعة أسلحة التدمير الشامل أو الإطاحة بالنظام السابق الذي لم يقم بعُشر مِعشار ما قام المحتل به تجاه الشعب العراقي وما قاموا به هم وميليشياتهم من تنكيل لهذا الشعب المسكين المظلوم وما حصل بسبب ذلك من مظالم وقهر وجوع وبطالة وتهجير وفقد خدمات لهذا الشعب المُتلاحم المُتحاب، وبدلاً من تصحيح مسارهم بموالاته إذا بهم الآن يتَّجهون إلى تكريس الاحتلال وإدامته تحت مهزلة تُضاف إلى مهزلة الاستفتاء على الدستور المُصمَّم من قِبَلِه وانتخابات عَرَفَ زيفها الكبير والصغير والداني والقاصي والتي هم يعرفون ذلك في قرارة أنفسهم: ألا وهي مهزلة اتِّفاقيَّة أمن. فما هو الأمن الذي حقَّقه المُحتل الذي لم يحضَ بالأمن على جنوده وآلياته فضلاً عن أن يجعل الأمن يستتب مُستقبلاً في العراق ومع جيرانه؟!!

فقد فَقَدَ الآلاف الكثيرة من جنوده – وليس كالعدد الذي يعترف بـه – وفقدَ الكثير من آليّاته وترك لبلده تركة ثقيلة – ماليَّة وجسميَّة- من خلال آلاف القتلى والمُعوَّقين.

خامساً: إنَّ حُكم هذه الاتِّفاقيَّة يُفترَض بالسياسيِّين والحكومة القائمة الآن أن يحكموا بتحريمها، فإنَّهم على يقين تامٍّ في قرارة أنفسهم أنَّها مُحرَّمة شرعاً ومُضِرَّة بالعراق وجيرانه، ولكنَّهم مغلوب على أمرهم، لا حول ولا قوة لهم، بل أمور تُفرض عليهم من قبل المحتل.

عليهم أن يحكموا بضررها وتحريمها قبل أن يحكم بها أنا وأمثالي من أهل العلم الشرعي.

فليس من المقبول شرعاً أو عقلاً أو عُرفاً أن نتعاهد مع مُحتلٍّ أهلكَ الحرث والنسل لأجل أن يستمِرَّ في احتلاله وما يقوم به من قتل ومُداهمات واعتداء على شعب العراق وسلب ثرواته.

وعلى أيِّ شيء تُعقد هذه المُعاهدة؟!! هل لحرب العراقيين؟!! أو للدول المُجاورة؟!! أو لدول صديقة أخرى؟!!

سادساً: يَحْرُمُ على الحكومة القائمة الاتِّفاق مع الاحتلال اقتصاديًّا – بصناعة أو زراعة أو تجارة أو إنتاج- وبعد انسحاب جميع قوَّاته فوراً من العراق، وبعد أن لا يترك فيه أيَّ أثر للاحتلال فعند ذلك تتعامل معه كصديق شأنه شأن الدول التي رفضت احتلال العراق ومُقاتلته وبقيت صديقة لا عدوَّة.

أي لا يجوز التعاهد معه فيما ذكرتُ من أمور ما دام جاثماً على أرض العراق، بل بعد إخلائه لكل شبر من أرضه وإعطاء السيادة الكاملة له ليتمَّ التعاهد مع حكومة لها السيادة الحقيقية الكاملة وليست قابعة تحت هيمنته

وتُنفّذ – مُكرهةً– رغباته، وأن لا يعتدي على المُسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

أما الاتفاق معه عسكريًّا أو أمنيًّا فإنه مُحرَّمٌ بكل الأحوال ولو بعد انتهاء الاحتلال؛ لأنه نوع ولاية له، والله تعالى يقول: (ومن يتولّهم منكم فإنَّه منهم) ولم يسبق بالتاريخ الاسلامي الاستعانة أمنيًّا بغير المسلمين.

وليحذر الذين هم في سدَّة الحكم من ان يغترُّوا بأقوال الإدارة الأمريكيَّة بعد أن جرَّبوا كذبها وخداعها، وذلك باستغلال المُعاهدة الأمنيَّة لاستمرار الاحتلال.

وهم على ثقة أنَّ من أشدِّ الأماكن حمايةً وأمناً هي المنطقة الخضراء، فإنَّها نالت نصيبها من ضربات المقاومة الباسلة وضربات أخرى، ولم يُمكنهم حماية المنطقة من تلك الضربات.

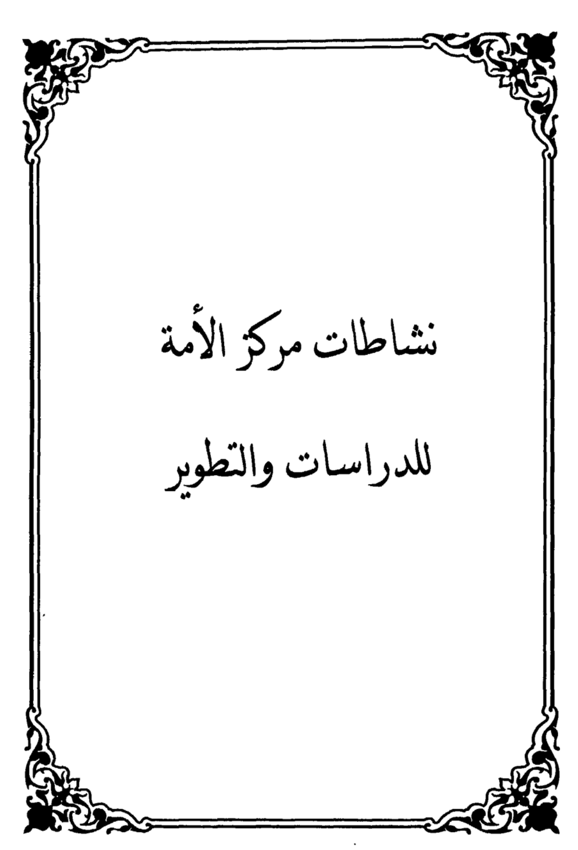
وعلى مَن تُسوِّل له نفسه بتطبيق ما تُسمَّى بالاتِّفاقيَّة الأمنيَّة بعيدة الأمد (الاحتلال بعيد الأمد) أن يجعلوا الله نصب أعينهم وأن يأخذوا الدروس مِمَّن حكم العراق قبلهم فإنَّهم سيرحلون عن المناصب والدنيا وتبقى لعنة الأجيال تُطاردهم في الدنيا وسيقفون أمام خالقهم يوم القيامة ليحاسبهم على تفريطهم بشعبهم ومواردهم وعراقهم مضجع الأئمة الأطهار والصحابة الأخيار والعلماء والصلحاء الأبرار.

والله ولي التوفيق.

د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي

٧/ جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ

٢٠٠٨/١١/٦ م



نشاطات مركز الأمة للدراسات والتطوير

قسم الدراسات يعقد جلسته الحوارية الأولى

عقد قسم الدراسات في مركز الأمة للدراسات والتطوير يوم السبت ٢٠٠٨/١١/٢٩م الجلسة الحوارية الأولى له وفق المنهج المعد لجلساته الحوارية نصف الشهرية تحت عنوان (كتاب النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية، للدكتور محمد عمارة)، وقام بقراءة الكتاب والتعليق عليه الأستاذ الباحث ناصر خليف.

وقدم الباحث ملخصًا عن دراسته للكتاب، ثم فتح باب الحوار أمام الحضور؛ لمناقشة القضايا والأفكار المطروحة في الكتاب والبحث، وكان ملخص الباحث كالآتي:

أولاً: التعريف بمؤلف الكتاب

مفكر إسلامي ومؤلف ومحقق، ولد بريف مصر- قرية (صروة) ١٩٣١م وتخرج من جامعة القاهرة/كلية دار العلوم، وحمل الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ثم نال درجة الماجستير سنة ١٩٧٠م عن أطروحته الموسومة (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، وحصل على الدكتوراه سنة ١٩٧٥م بأطروحته (الإسلام وفلسفة الحكم). وله أكثر من (١٢٠)كتاباً بين التأليف والتحقيق، منها:

- معالم المنهج الإسلامي، القاهرة ١٩٩٧م.
- الإسلام والسياسة، القاهرة ١٩٩٧م.
- سقوط الغلو العلماني، القاهرة ١٩٩٥م.
- التفسير الماركسي للإسلام، القاهرة ١٩٩٦م.

- تهافت العلمانية، القاهرة ١٩٩٣م.
- الإسلام وضرورة التغيير، الكويت ١٩٩٧م.

ثانياً: مقدمة عن موضوع الكتاب ووصفه من حيث الشكل والمضمون

عنوان الكتاب (النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية)، حيث درس فيه المؤلف ظاهرة تستحق الاهتمام والدراسة بحق، ألا وهي ظاهرة إشكالية تعامل المسلمين مع النص الإسلامي، باعتباره مدار الاجتهاد، وبالتالي يشكّل الاجتهاد المحور الأهم في التجديد لأمر الدين، وأكد المؤلف على حاجة الأمة الإسلامية للاجتهاد وضرورة استمراره وتجدده، لأنه يشكل العامل الأهم الذي يقطع الطريق على الجهود المتخبطة في فضاء النص.

ويقدم د.عمارة نصاً جديداً في نقد (النزاعات) المعاصرة المتغربة، فيطرح رؤية لنتاج عدد من المثقفين الذين تعرضوا للإسلام ونصوصه وتشريعاته بآراء وتصورات ومناهج مستحدثة ومبتدعة، فيقّوم أعمالهم ويتناولها بالدراسة والتحليل، ليبين ما لها وما عليها، مع بيان مناقبها ومثالبها.

ويوجه عمارة من خلال كتابه قضية (النص) وعلاقته بالاجتهاد، حيث واجه الفكر الإسلامي ويواجه _ قديماً وحديثاً _ نزعات من الغلو تراوحت بين الإفراط والتفريط.

ثالثاً: الآراء المستخلصة من الكتاب مع ذكر أهم النقاط والمحاور التي يتناولها الكتاب

عند دراستي لكتاب (النص الإسلامي) وجدته مستوفيًا لدراسة موضوعه، ويتمتع بنقولات علمية واسعة، ودراسات أصولية وفقهية وافية ومستفيضة،

على الرغم من صغر حجمه.

واطرح دراستي للكتاب والنتائج المستخلصة من موضعه، على ثلاثة محاور تتعلق بإشكالية تعامل المسلمين مع النص الإسلامي، وفق التالي:

المحور الأول: المظاهر

- جهل المسلمين في تعاملهم مع النص الإسلامي وعدم حضوره في ثقافة أكثرهم.
- الجمود الذي تتمرس به الأطراف الفكرية في ساحة العمل الإسلامي (الذي غلق الفكر الإسلامي)
- الانفلات في التأويل حيث تبنى الكثير من المسلمين دعوى أن المراد من النص هو المعاني الباطنة.
- القطيعة المعرفية بين أطراف الساحة.
- الغلو ونزعاته التي تراوحت بين الإفراط والتفريط.
- ظهور فلسفة (التنوير الغربي ـ الوضعي العلماني) وظهور الدعوات بالميول باتجاهها.
- مرت على أجيالنا القريبة من المثقفين المتغربين، مرحلة الدعوى بتاريخية معاني وأحكام القرآن الكريم، باعتبارها معاني وأحكام تجاوزها الواقع الذي تطور وعفا عليها التاريخ.

حيث ظهرت دعوة (محمد سعيد عشماوي) الذي ادعى أن لا عبرة بعموم اللفظ ولكن الأحكام بخصوص السبب.. حسب ما يدعي، ومن ثم عمم هذه الدعوى الدكتور (نصر حامد أبو زيد) على العقائد كما في كتابه (نقد الخطاب الديني) وهذه دعوى بائنة العوار.

المحور الثاني: الأسباب

- الجمود الذي غلف الفكر الإسلامي، كان من أهم الأسباب التي مهدت للشطحات والتأويلات.
- وإذا غاب التجديد فلا بد أن تكون النتيجة سيلاً من التأويلات والشطحات التي تنفجر نتيجة للانغلاق.
- فقدان لغة الحوار بين أطراف الساحة الفكرية.
- اعتاد أكثر الناس أن يتحدث للآخرين ولا ينصت لهم و (حوار الطرشان) هذا لا يعدو أن يكون ترسيخاً للشقاق والافتراق.
- النزعة النصوصية الحَرْفِيّة، عند الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ورفضهم للتأويل، بينما علم أصول الفقه يقرر أن الحكم تحيط به علوم متكاملة، لكي يُقرَّر أن يكون حكماً، والحكم يحتاج إلى (السبب والشرط والمانع والمقتضى واللازم) مع إنكارهم للمجاز وكان لهم الموقف غير الوِدِّي مع الرأي.
- النزعة الباطنية وهو لون من الغلو في التأويل.
- انشغال المسلمين بالحروب.

المحور الثالث: العلاج

- لابد من الدخول في حوار مع هذا العقل المعاصر.
- العودة إلى قراءة الإسلام قراءة شاملة، بتوصيفاته المختلفة، ونصوصه وتاريخه في ضوء رؤية عصرية، وهذه ضرورة ملحة في كل زمن.
- تأكيده على الحاجة للتجديد، مع استمراريته في ساحة العمل الإسلامي.

- حاجة الأمة للاجتهاد المستمر والمتجدد، يقطع الطريق على الجهود المتخبطة في فضاء النص.
- دوام الاجتهاد يعني حل الإشكالات، وبرمجة الأهداف، وبناء الذات ورفدها وتقويتها وإعادة التوازن لها.
- إننا أحوج ما نكون إلى قراءات متبادلة، لتأسيس لغة مشتركة يتم الحوار على أساسها.

المحور الرابع

ذكر المؤلف شواهد إبداعية في تعامل المسلمين مع النص وعدم الجمود والتطرف لحكم معين، وكان النظر عندهم للحكم لمقصده وعلته، لأن القاعدة الأصولية تقول إن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، والقاعدة الأصولية التي تقول إن الأحكام تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص والأحوال.

حيث درس الكتاب مسائل (نصيب المؤلفة قلوبهم/ حكم حد السرقة في عام الرمادة- الصوافي، والأرض المفتوحة/ الزواج من الكتابية/ الطلاق بلفظ الثلاث/ الضرب في حد الشرب الخمر/ الجزية/ تسعير السلع/ العطاء)، وقدّم دراسةً وافية لكل مسألة من المسائل.



المركز ينظم محاضرة وورشة عمل متعلقة باللغة العربية

إيماناً من مركز الأمة للدراسات والتطوير بأهمية اللغة العربيـــة، وضـــرورة المحافظة عليها وبيان المخاطر التي تعرضت لها زمن الاحتلال؛ استضاف المركز بتاريخ ٢٩—٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٨م، الدكتور أحمد قاسم كسّار الأســـتاذ في كلية دار الرضوان الإسلامية في كوالا لامبور بماليزيا؛ لإلقاء محاضرة وإقامة ورشة عمل في المجال المذكور، وذلك على قاعة المركز وبواقع ساعتين يوميـــاً، وحضرها منتسبو المركز وعدد من العاملين في المجال الإعلامي.

تناول الدكتور أحمد كسار في اليـــوم الأول موضـــوع (آثـــار الحـــروب والاحتلال على اللغة العربية.. العراق نموذجاً)، واستعرض في محاضرته الآثـــار السلبية للحروب على اللغة بشكل عام، واللغة العربية على نحو خاص، مبتدئاً بمحاولات الغزاة قديماً سرقة الجهود الأدبية للعراقيين، والاستيلاء على تراثهم، مقدماً بين يدي ذلك بمقدمة تاريخية شاملة ومفصلة عن مدى اهتمام العراقيين باللغة والحرف والكلمة منذ فجـــر الـــسلالات الـــسومرية الأولى والحـــرف المسماري الأول، ثم ما قام به الأكديون من تطـــوير الخطـــوط وتحـــسينها، وإدخالهم لرسم الصوت المقطعي لأول مرة في تاريخ البـــشرية، واســـتعرض الجهود التي قام بها الملك البابلي حمورابي وكيف أنه أدخل اللغة في نظام التعليم كدرس مستقل له مقرراته ومناهجه في المدارس، ناهيك عن تدوينه لأول مسلة قانونية في التاريخ، وتحدث المحاضر أيضاً عن ظهور النتاجات الأدبية في العهود الغابرة كقصص تكوين الخليقة والملاحم والأساطير، وأشار إلى مدى رعايـــة الإمبراطورية الآشورية للغة واهتمامها بها على الرغم من كونها دولـــة محاربـــة

مدللاً على ذلك بمكتبة آشور بانيبال، ثم تكلم الدكتور أحمد كسار عن الغزو الفارسي والعيلامي للعراق وما رافق ذلك من نهب للمكتبات وسرقة مسلة حمورابي، وأشار بهذا الصدد إلى وعي العراقيين بمواجهة الأخطار الخارجية منذ الحملات الفارسية وإلى يوم الناس هذا، فذكر على سبيل المثال لا الحصر محافظة العراقيين حينذاك على هويتهم وثقافتهم من خلال شيوع الثقافة الوطنية المفاصلة لأي عنصر أجنبي وافد، فلم يسجل التاريخ إمكانية خلق ثقافة فارسية في العراق على خلاف المتعارف عليه عندما تخضع الشعوب لقوة الأجنبي؛ وما ذاك إلا بسبب المقاطعة الشعورية والثقافية التي كان يواجه بها العراقيون القدماء من وفد إليهم تحت الحراب والسيوف.

ثم تدرج المحاضر إلى ذكر لمحات عن الغزو الذي تعرضت له اللغة العربية بعيد الفتح الإسلامي للعراق من خلال طرو الكلمات الأعجمية على اللسان العربي، ودخولها في قاموس التداول، وهجرة العلماء بسبب الاضطرابات السياسية مدللاً على ذلك بأحداث ثورة الزنج في البصرة، وكذلك بروز اللهجات العامية في أواخر الدولة العباسية، وما كان له من انعكاسات ألقت بظلالها على حيوية اللغة وجماليتها، ثم ختم الدكتور أحمد كسار محاضرته باستهداف الاحتلال الأمريكي لمكونات وجودنا ومقومات نهضتنا، من خلال استهدافه للغة العربية والواقع الثقافي والمدني والعمراني بشكل عام، ودلل على ذلك بتصفية الدوائر المخابراتية الأمريكية والصهيونية من خلال مجموعاتها الخاصة الناشطة في العراق في أعقاب الغزو الغاشم في ٢٠٠٣/٤/٩م للأساتذة والعلماء والمفكرين بقتلهم وتهجيرهم، وأشار بهذا الصدد إلى محاولات عديدة لشراء ذمم بعض الأساتذة المختصين في مجال اللغة العربية والشرعية لتأويل

وتحريف الحقائق الشرعية، إما بحيل لغوية، أو فتاوى مسيسة، أو تمييع لعقيدة الولاء والبراء والجهاد، وأشار إلى نشوء جيل من الشباب في ظل الاحتلال لا صلة له بلغته وحضارته متأثراً بقشور الحداثة ونزعات الاستهلاك الخادعة، وميولهم القوية نحو اللغة الإنجليزية بوصفها اللغة العالمية المهيمنة، والتي باتت تقترن بأحلام الشباب في الحصول على وظيفة مناسبة تكفل لهم سبل العيش في وطن ملأته الجراحات. والآلام بسبب سياسات المحتل البغيضة، وتحدث أيضاً عن أوضاع التعليم المتردية في الكليات والمعاهد والمدارس بسبب سياسة انتهجها الأمريكان من خلال خلق أوضاع أمنية شاذة لتعطيل المسيرة العلمية في البلاد وإعاقتها عن النمو والتقدم، فلم يكتف بتدمير المنشآت والبنى التحتية فراح يعيث فساداً في العقول والأفكار والأقلام، ونبه إلى دخول المفردات العامية في اللغة العربية في كافة وسائل الإعلام وما لذلك من أثر بالغ في تمييع الخطاب الإعلامي في مرحلة تستوجب المقاومة والمفاصلة بخطاب جزل الألفاظ محرك للقلوب والمشاعر وبنادق الرجال، ودعا الدكتور المحاضر أبناء العراق إلى ضرورة التنبه والتيقظ لهذه المخاطر التي تستهدف الهوية العربية باستهداف لغتها، ونصح بالتحرك النخبوي والشعبي لإفشال هذه المخططات بمفاصلة تامة لكامل المشروع الأمريكي بكل شعاراته ومقوماته وأهدافه وما يقترن به من دعوات مشبوهة يطبل لها البعض، والاستعاضة عنه بمشروع وطني تتآزر فيه وحوله كل القوى الوطنية المناهضة للاحتلال، تكون اللغة العربية فيه كقطب الرحى.

وفي اليوم الثاني قدم الدكتور أحمد قاسم كسار ورشة عمل بعنوان: (الأخطار اللغوية الشائعة في البحوث والدراسات والإعلام)، وتضمنت الورشة

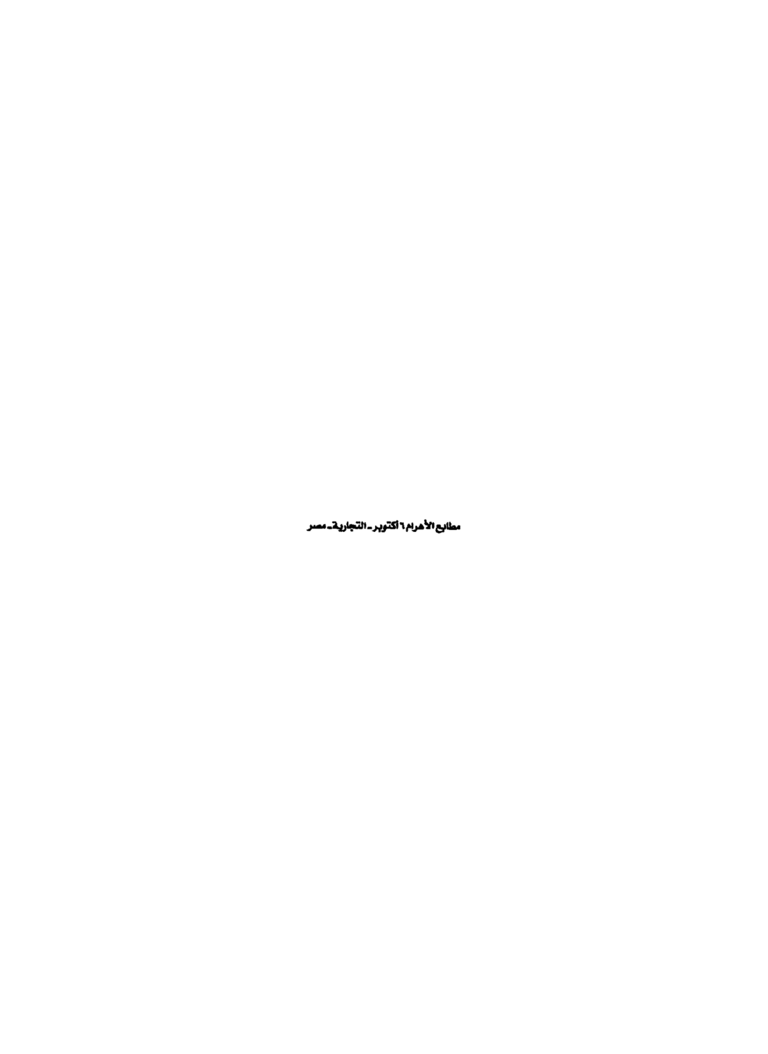
مقدمة نظرية استعرض فيها المحاضر أهم الأخطاء اللغوية والنحوية الشائعة في البحوث والدراسات والخطاب الإعلامي بمختلف وسائله المسموعة والمرئية والمقروءة، واستطرد بذكر أنواع الأسئلة الصحفية والإعلامية، مقسماً لها إلى ست مجموعات، ومنها : الأسئلة ذات النهايات المفتوحة والمغلقة، والأسئلة الرئيسة والثانوية، وأسئلة المعلومات، والأسئلة العامة، والأسئلة المحايدة والموجهة، والأسئلة الأولية، مذيلاً كل نوع منها بمثال عملي واضح، وتضمنت ورشة العمل تمارين عملية قام بها المشاركون في الورشة، ثم فتح باب النقاش والأخذ والرد للحضور حول بعض المحاور المهمة ذات الصلة.

مركز الأمة يستضيف الدكتور حاكم المطيري في محاضرة علمية

استضاف المركز بتاريخ ٢٦/ تشرين الثاني ٢٠٠٨م الدكتور حاكم المطيري المنظر العام لحزب الأمة الكويتي، الذي تفضل مشكوراً بتقديم محاضرة علمية على قاعة المركز بعنوان: النظام السياسي في الإسلام، وحضر المحاضرة منتسبو المكتب بالإضافة إلى عدد كبير من المهتمين بالدراسات الفكرية والسياسية.

وقد استعرض الدكتور حاكم في محاضرته الأدوار والمراحل التاريخية السياسية للأمة دارساً فيها العصر النبوي والراشدي، مروراً بعصر الخلفاء، والحكام في ظل الخلافة الإسلامية الأموية والعباسية وصولاً إلى الخلافة العثمانية، لغاية سقوطها في أوائل القرن الماضي، وما تلا ذلك من انتكاسات حضارية في مختلف مجالات الحياة، ونشوء الحركات القومية والقطرية وشيوع أنواع من الخطاب السياسي التأويلي والتبريري.

وشهدت أجواء المحاضرة مداخلات منهجية متخصصة حول محاور أساسية مهمة من قبل السادة الحضور، كما أجاب الدكتور المطيري عن العديد من الأسئلة التي وجهت له.



مطابع الأهرام ٦ أكتوبر - التجارية - مصر

مركز الأمة للدراسات والتطوير



صدر حديثاً

سلسلة قضايا العراق المصيرية ١

قانون النفط والغاز

حقائق و ملاحظات

حسين الرشيد

دار النهضة

مؤسسة البصائر



(CIVILIZATION)
Quarterly Magazine

ISSUED BY

AL-UMMA Center for
Studies & Developmen

Contacts
Mobile: (+964) 7810801021
Mobile: (+201) 7487 6011
TeleFax: (+202) 3761 9596
E.mail: editor@hadharamagazine.net

حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير
العدد الخامس محرم ١٤٣١ هـ / كانون الثاني ٢٠١٠ م



حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير
العدد الخامس محرم ١٤٣١هـ / كانون الثاني ٢٠١٠م

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١
نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦

Mobile: 009647810808021
Mobile: 0020174876011
TeleFax: 0020237619596

البريد الإلكتروني
Hadhara.magazine@yahoo.com

ضوابط النشر في المجلة

(١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

(٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

(٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

(٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

(٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

(٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

(٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

الافتتاحية

أبحاث ودراسات

مقالات

ملف العدد: حقوق الإنسان العراقي.. وشواهد الانتهاك

وثائق: آراء مركز الأمة في مستجدات الشأن العراقي

متابعات

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال ومماتعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

الافتتاحية

حضارة في عامها الثاني

رئيس التحرير

بهذا العدد الخامس من (حضارة) تكون إدارة المجلة قد وفت بوعدها لقرائها ومتابعيها باستمرار مسيرتها على الرغم من كل المعوقات التي اكتنفت مرحلة تأسيسها، وواكبت طريقها خلال العام الأول من عمرها، وها هي تستهل عامها الثاني بكل ثقة وعزم على المواصلة بعد أن وجدت قبولاً طيباً لدى المهتمين والمتابعين، وأضحت تحتل مكاناً لائقاً بها بين نظيراتها في العراق على الرغم من حداثة سنها.

وكما هي عادة (حضارة) فقد كانت قضايا العراق المصيرية هي محور اهتمامها المستمر، وظهر هذا بشكل جلي في مواد هذا العدد ولاسيما في حقل الأبحاث والدراسات الذي ضم دراستان الأولى عن المخاوف على وحدة العراق بعنوان (تقسيم العراق.. هل يصير غير الملزم ملزماً؟) ويتناول فيها الدكتور رافع الفلاحي هذا الموضوع وفقاً لما يرصده على الصعيد الأمريكي ومتجاوزاً ثنائية التقسيم أو عدم التقسيم إلى تخوفات تحول هذا الموضوع إلى أمر ملزم وخضوعه لمتغيرات الموقف الأمريكي ومتطلبات المراحل التي يمر بها مشروعه المتأزم في العراق، فيما يكمل الباحث محمد رشيد دراسته عن (جذور الإرهاب) التي نشر القسم الأول منها في العدد الماضي بقسم ثاني

يأتي متميزاً هذه المرة بمعلوماته المهمة، ومتابعته المستقصية لمنابع الإرهاب الأمريكية وآثارها الخطيرة على حالة السلم العالمي وكاشفاً اللثام بجرأة عن مصدر هذا الإرهاب ومعهد تفريخ قادته (مدرسة الأمريكيتين).

وتعالج مقالات هذا العدد وهي لثلاثة كتّاب عرب من مصر؛ ثلاثة موضوعات عراقية بحتة وهي: مأزق الاحتلال في العراق وصلته بالانتخابات للأستاذ طلعت رميح بعنوان (الاحتلال في مأزق متصاعد فهل ننقذه بالمشاركة في الانتخابات؟) والأوضاع الأمنية السيئة للأستاذ أسامة الهتيمي بعنوان (العراق.. بين التدهور الأمني والتهجير الطائفي) والمقاومة وإنجازاتها للمحامي والإعلامي ممدوح إسماعيل بعنوان (جهاد العراقيين سبب انسحاب الأمريكان).

أما ملف العدد فهو مختص هذه المرة بقضية مهمة جداً وهي حقوق الإنسان في العراق، حيث تضمن الملف الذي جاء تحت عنوان (حقوق الإنسان العراقي.. وشواهد الانتهاك) ثلاثة دراسات هي: (واقع حقوق الإنسان العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي) للباحث والأكاديمي نايف الشمري، و(الانتهاكات الأمريكية للقانون الدولي إبان غزو العراق) لأستاذ القانون الدكتور محمود المبارك من السعودية، و(جرائم التعذيب في العراق في ضوء القانون الدولي) لمدير تحرير (حضارة) حسين الرشيد.

واشتمل حقل الوثائق على مجموعة من آراء مركز الأمة في مستجدات الشأن العراقي وهي مقالات يصدرها المركز كل أسبوعين ويبين فيها رأي المركز في المتغيرات على الساحة العراقية، وحملت المقالات المنشورة عناوين: (العراق واتفاقيات الوصاية الأجنبية)، و(أوباما.. من الانسحاب التدريجي إلى الرجوع التدريجي إلى العراق)، و(حين تكون الوطنية شعاراً

انتخابياً!)، و(ساسة العراق الجديـد والـصفقات الـثلاث)، و(الإسـتراتيجية الأمريكية والرقم الأصعب).

ولخص لنا الدكتور أحمد الجنابي من ماليزيا في متابعات هذا العدد؛ وقائع مؤتمر تجريم الحرب ومحكمة جرائم الحرب التي عقدتهما منظمـة (بردانـا للسلام) التي يشرف عليها رئيس وزراء ماليزيا الأسبق محاضير محمد فـي كوالالمبور أواخر شهر (٢٠٠٩/١١)، وحضرتهما وفود كثيرة مـن مختلـف أنحاء العالم، وكانت القضية العراقية حاضرة فيهما بقوة.

وبعد.. فهذا ما قدمه أعضاء هيئة التحرير في المجلة وهـم كلهـم أمـل وعزم على تقديم الأفضل والأنفع دائماً، ومرة أخرى يجددون دعـوتهم لكـل الباحثين والدارسين والإعلاميين لمشاركتهم في همهم الجميل (حضارة).

أبحاث ودراسات

تقسيم العراق..
هل يصير (غير الملزم) ملزما؟

د. رافع الفلاحي[1]

مقدمة

في أوائل شهر مايس/ مايو عام ٢٠٠٧م، دعا نائب الرئيس الأمريكي (جوزيف بايدن) وكان آنذاك عضواً في مجلس النواب الأمريكي عن الحزب الديمقراطي، إلى تقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات على أساس عرقي وطائفي (كردية وسنية وشيعية)، تتمتع كل منها بإدارة ذاتية وباستقلال تام، كجزء من مفهوم (بايدن) للحلول الناجعة والكفيلة بإغلاق ملف العراق وتأمين الخروج الأمريكي من المأزق العراقي، ووقف نزيف الموارد والإمكانات البشرية والمادية الأمريكية التي ظلت تهدر في العراق منذ الحرب عليه واحتلاله عام ٢٠٠٣م، والحيلولة قدر الإمكان دون تحول هذا المأزق إلى كابوس مخيف مستمر، يعيد لأذهان الأمريكيين صورة ما حدث لهم في فيتنام، التي مازالت تفاصيل هزيمة أمريكا النكراء فيها، عالقة في الذاكرة الجمعية للشعب الأمريكي برغم مرور نحو أربع عقود عليها.

في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر من عام ٢٠٠٧م، وبعد أربعة أشهر من دعوة (جوزيف بايدن) تلك، التأم مجلس الشيوخ الأمريكي (وفي

[1] باحث وإعلامي عراقي.

ظل إدارة الرئيس الأميركي السابق جورج دبليو بوش)، ليصوت على قرار حمل عبارة (غير ملزم) يقضي وفقاً لمشروع واقتراحات (بايدن)، إلى تقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات وفقاً للاعتبارات الطائفية والعرقية (كردية/ سنية/ شيعية)، وكان حصول هذا القرار على (٧٥) صوتاً لصالحه من أصل (مائة) مقابل (٢٣) صوتاً ضده، مؤشراً واضحاً على أن القرار قد عبر عن اتفاق نادر الحصول بين الحزب الجمهوري (الذي كان في السلطة) والحزب الديمقراطي (الذي كان في المعارضة)، بخاصة في وقت كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تستعد لاستقبال الدورة الجديدة من الانتخابات الرئاسية، والتي من المؤكد أن يسعى كل طرف فيها (الجمهوري والديمقراطي) إلى إظهار أخطاء الآخر وعدم قدرته أو حتى عجزه في التعامل مع الملفات الحساسة والمهمة التي تتعلق بمكانة الولايات المتحدة الأمريكية وبسياساتها (الداخلية أو الخارجية) ومصالحها العليا، وبالتالي فليس من الوارد (نظرياً) ووفقاً لمعطيات الواقع وطبيعة وشكل التنافس الانتخابي، أن يتم التوافق بين الحزبين المتنافسين على معالجة لقضية يمكن أن تكون حجر الزاوية في إقرار من سيكسب الانتخابات. فكيف تم إذن التوافق في هذه القضية الحساسة والمهمة على النحو الذي عبرت به أصوات الذين صوتوا مع القرار والذين صوتوا ضده؟ وكيف يمكن فهم سعي حزب يسعى لنيل السلطة من الحزب المنافس إلى طرح مشروع يمكن أن يؤمن لأصحاب السلطة الخروج من مأزق له تأثير مباشر وحاسم (إذا ما استمر) في خسارتهم لمعركة الانتخابات (التي جرت فيما بعد عام ٢٠٠٨م)، بخاصة وأن هذه القضية (قضية احتلال العراق) سبق وأن كانت الأساس في جعل الحزب الديمقراطي يكسب جولة الانتخابات النصفية ومكنته من نيل الأغلبية في مجلسي النواب والشيوخ

الأمريكيين، ومهدت له إمكانية فوز مرشحه للرئاسة علـى مرشـح الحـزب الجمهوري لها.

ووفقاً لكل ذلك يبدو أن قرار مجلس الشيوخ الأمريكي القاضـي بتقـسيم العراق، (ملزماً) للتوقف عنده بعد أكثر من عامين على صدوره، والنظر فـي أبعاده وإمكانية جعله أمراً واقعاً، بخاصة في ظل دستور مفخـخ سـبق وأن أسهم في تهيئة الأرضية المناسبة لطرح مشاريع التقسيم من خلال ما جاء فيه من مواد خاصة بالفيدرالية وغيرها، فضلاً عن وجود قوى وأحـزاب علـى الساحة العراقية، تجد في تقسيم العراق مصالحها التي تعبر أيضاً وضمناً عن مصالح بعض الأطراف الدولية والإقليمية التي ترتبط بها، فهل يصير (غيـر الملزم) ملزماً؟.

التقسيم.. المشروع والواقع

ليس من التهويل في شيء القول إن قـرار مجلـس الـشيوخ الأمريكـي الصادر في ٢٠٠٧/٩/٢٦م بالموافقة على الخطة التـي اقترحهـا الـسيناتور الديمقراطي (جوزيف بايدن) الذي يشغل اليوم منصب نائب الرئيس الأمريكي (باراك أوباما)، والقاضي بتقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات عرقيـة ومذهبيـة، بأنه من أهم التطورات المرتبطة باحتلال العراق، ولعل مبعث أهميتـه هـذه تكمن في أنه عبر عن التوجه الأميركي بالتعامـل مـع العـراق والأهـداف الحقيقية للحرب ضده واحتلاله، فضلاً عن كونه قد مثل (مـن وجهـة نظـر العديد من المراقبين والمحللين) الطريقة (الممكنـة أو المثلـى) التـي يمكـن للأمريكيين التعاطي معها بعد سبع سنوات من الاحتلال لإخراج أنفسهم مـن المأزق الذي بدأ يتسع ويدلل على نهايات مأساوية لا يمكن تفاديها باسـتمرار البقاء في العراق، في ظل استمرار نزيف الخسائر البشرية والمادية الكبيـرة،

التي لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تتوقعها في ظل حسابات كانت ترى الحرب والاحتلال نزهة ومصدراً للثراء والنهب والسيطرة فحسب، كما أن القرار قد جاء ليفصح عن جانب مهم من الأهداف الحقيقية للحرب ضد العراق واحتلاله، بخاصة وأن الأهداف التي كانت معلنة قبل الاحتلال، قد سقطت كلها مرة واحدة بعد أن تبين كذب الإدعاء بوجود أسلحة الدمار الشامل في العراق وضرورة التخلص منها أو كذبة إقامة حكم ديمقراطي وغيرها من الأكاذيب التي تم صناعتها بعناية في مطابخ دوائر الاستخبارات الأمريكية والبريطانية، فاحتلال العراق بالكيفية التي حصل فيها، وما أفصح عنه بشكل واضح من استهداف مبيت ضد كل ما يمت لحياة العراقيين من أسباب، ووضع علامات القتل والتدمير والنهب والتمزيق والفرقة على كل البشر والحجر والثروات، قد جعل من اليسير جداً إدراك أن المستهدف هو العراق الواحد (شعباً وكياناً وثروات)، وبالتالي فإن السعي إلى تقسيمه إلى كيانات صغيرة (متنافرة ومتناحرة)، يبدو هدفاً منطقياً ووارداً في هكذا مخطط شرير، وبخاصة إذا ما وضعنا في حساباتنا كل ما فعلته قوات الاحتلال في العراق، وما تنطوي عليه التجارب الاستعمارية القديمة والحديثة من محاولات لتفتيت البلدان المستعمرة (بفتح الميم)، واعتماد المستعمرين على إعادة إنتاج واستحضار سياسة (فرق تسد) كدليل عمل لتحقيق أهداف العدوان والاحتلال.

إن الحديث عن تقسيم العراق لم يكن وليد مشروع (جوزيف بايدن) ولا كان بداية التعاطي معه مرتبطاً بحيثيات قرار مجلس الشيوخ الأمريكي، فأطروحات التقسيم سابقة لذلك كله ومهدت خلال سنوات عديدة لجعل التقسيم خياراً مطروحاً للتعاطي مع حالة العراق بعد تنفيذ مشروع احتلاله الذي نفذ عام ٢٠٠٣م، ولعل من المؤشرات المهمة والواضحة لأطروحات تقسيم

العراق والتي كانت مقدمة لطرح مشروعه بنحو علني لخصه (بايدن) فيما بعد بنقاط محددة هي:

أولاً: القرارات التي صدرت بشكل غير مسبوق (عدداً وإجراءات) عن طريق مجلس الأمن الدولي منذ دخول العراق إلى الكويت في الثاني من آب/ أغسطس عام ١٩٩٠م، والتي ازدادت قسوة ضد العراقيين واستهدافاً لوحدة العراق ووجوده كدولة ذات كيان موحد وشعب واحد، وفي مقدمة هذه القرارات تلك المتعلقة بفرض حظر الطيران في شمال وجنوب العراق وفقاً لخطوط العرض، بعد الخروج من الكويت عام ١٩٩١م، ومن ثم فرض ما يسمى بالمناطق الآمنة وأنموذجها محافظات الشمال (السليمانية ودهوك وأربيل)، وما يعنيه كل ذلك من محاولات واضحة للتفريق والإزاحة والاستبدال والتمزيق وجعل التقسيم حالة مقبولة (حتى وإن كان الجميع يتفق عليّ كونها حالة شاذة ويدعي - كذباً أو صدقاً- رفضها).

ثانياً: مؤتمرات ما كان يسمى آنذاك (المعارضة العراقية) التي عقدت قبل احتلال العراق، وبإشراف الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وبتخطيط وتوجيه دوائرهما الاستخباراتية وبالواجهات والشخصيات الدبلوماسية الأمريكية والبريطانية، ومن أبرزها مؤتمر بيروت عام ١٩٩١م ومؤتمر نيويورك عامي ١٩٩٩م ومؤتمر لندن ٢٠٠٢م، ففي المؤتمر الأول تمت المطالبة بإنشاء منطقة آمنة في جنوب العراق على غرار ما كان في شمال العراق، الغاية منها (حسب ادعائهم) هي حماية أبناء الجنوب من (بطش النظام)، وفي المؤتمر الثاني (نيويورك) جرت مناقشة موسعة لموضوع الفيدرالية، باعتبارها الخيار الأفضل لعراق جديد، مع التأكيد على أن العراق سيكون على ثلاثة فيدراليات (شمالية ووسطى وجنوبية) لابد أن تعد لها الحقوق الدستورية التي تثبت بعد ذلك في الدستور العراقي الذي سيوضع بعد

تغيير نظام الحكم في العراق، أما في مؤتمر (لندن) الذي عقد برعاية (زلماي خليل زادة) الذي شغل لفترة بعد الاحتلال منصب سفير الولايات المتحدة في العراق، فقد تم التركيز بشكل واضح على فكرة تقسيم العراق على أساس الفيدراليات أو الأقاليم، واتخاذ المحافظات الشمالية (دهوك والسليمانية وأربيل) أنموذجا لتأسيس الأقاليم الأخرى في العراق من خلال تفاهمات تجري لاحقاً لوضع حدود هذه الأقاليم وفقاً لاعتبارات معينة (ظهر فيما بعد أنها اعتبارات عرقية وطائفية).

ثالثاً: البحوث والدراسات والتصريحات الأميركية بشأن تقسيم العراق، التي سبقت ما جاء في مؤتمرات ما يسمى بالمعارضة العراقية قبل الاحتلال، والتي تتماثل بدرجة كبيرة مع ما جاء في مشروع (جوزيف بايدن) وقرار مجلس الشيوخ الأمريكي الذي استند إليه في موضوعة تقسيم العراق، وقد أجمعت هذه البحوث والدراسات والتصريحات على أن تفتيت العراق هو أحد الأهداف الرئيسة لمشروع الاحتلال، فأطروحات التقسيم ظهرت قبل الاحتلال وقبل أن تجد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها في مأزق خانق جراء حماقة تنفيذها لمشروع الاحتلال، نتيجة للخسائر الكبيرة التي استنزفت الكثير من قواها السياسية والاقتصادية والبشرية والعسكرية وجعلت هيبتها مثار شك وحتى مثار سخرية من قبل غالبية دول وشعوب العالم، والتي هي من النتائج المباشرة للمقاومة العراقية ولخسارة أمريكا للحرب في العراق، وسقوط مبررات الحرب ضد العراق واحتلاله، برغم أن الولايات المتحدة ظلت مصرة على إتباع سياسة التضليل لإقناع العالم بأنها مبررات واقعية وحقيقية، فضلاً عن تعثر مشروع الاحتلال الكبير الذي كان مصمماً على أن يكون درس العراق قابل للتطبيق على دول أخرى وبسهولة أكبر.

فمشروع التقسيم (وفقاً لما سبق وما سيأتي لاحقاً) ليس وليد لظروف ما بعد الاحتلال ولا هو تقرير لواقع ما هو على الأرض وصعوبة ابتلاع العراق، وقد كانوا يعتقدون الأمر يسيراً وممكناً بأقل الخسائر، وبالتالي فإن مشروع التقسيم لا يمكن عده وسيلة من وسائل تفعيل خارطة الخروج الأمريكي من العراق بأقل الخسائر الممكنة مع الاحتفاظ بماء الوجه، ولعل مسؤولية الولايات المتحدة الأمريكية عن كل ما حصل ويحصل في العراق من قتل وتدمير ونهب وإثارة للفتن الطائفية والعرقية، منذ عام ١٩٩١م وحتى اليوم (باعتبار أن ما تعرض له العراق من مآسي كبيرة نتيجة الحصار الظالم الذي فرض عليه كان بمسؤولية أمريكية مباشرة ومعلنة، وهو حلقة لا يمكن فصلها عن الذي جرى بعد ذلك منذ الاحتلال عام ٢٠٠٣م وحتى اليوم)، تنطوي على الكثير من الأدلة والإشارات الواضحة على كون تفتيت العراق كان هدفاً أمريكياً- صهيونياً مبيتاً منذ سنوات عديدة سبقت احتلاله.

ولعل من المناسب هنا أن نذكر بعض ما جاء في تصريحات ودراسات عديدة، تعبر عن حقيقة التوجهات الأمريكية لتقسيم العراق، والتي سبقت الاحتلال، باعتباره (دولة مارقة) مثلما جاء في وصف قوائم وزارة الخارجية الأمريكية.. أو هو من (دول معسكر الشر) الذي صار وصفاً حاضراً في أحاديث الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) عن العراق، بخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م.

فهذا المؤرخ الأمريكي المعروف (برنارد لويس) يكتب مقالاً في صحيفة الواشنطن بوست بتاريخ ١٥/٥/٢٠٠٢م يتناول فيه السياسة التي يجب أن تتبعها الإدارة الأمريكية إزاء العراق، قائلاً: (إن العراق دولة مصطنعة وليس حقيقية وإن احتلاله سيكون فرصة لتصحيح الخطأ الذي سبق أن ارتكبته

بريطانيا.. الطبيعي هو أن يتم تفكيك العراق إلى عدة دويلات بحسب الطبيعة السكانية وحسب الانتماءات الدينية والعرقية[1]).

ومن بين العديد من الدراسات المهمة التي تناولت موضوع التفتيت بشكل جدي، تلك الدراسة التي تصدت لطبيعة الإستراتيجية الأمريكية المطلوبة في الشرق الأوسط، والتي أعدها لصالح البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية)، معهد (راند) للدراسات الإستراتيجية، الذي يعد واحداً من أهم مطابخ السياسة الأمريكية، الدراسة التي أعدت عام ٢٠٠٢م، ركزت على ضرورة إعادة النظر في الخارطة الجيوسياسية في الشرق الأوسط وبما يضمن تفكيك الدول المركزية في المنطقة، وطالبت الدراسة لتنفيذ مثل هذا المخطط قيام الولايات المتحدة الأمريكية بشن هجمات استباقية (وفقاً لمبدأ الرئيس الأميركي السابق جورج بوش القاضي بشن الهجمات الاستباقية) على العراق ثم الانتقال بعد ذلك إلى السعودية وسوريا ومصر[٢].

كما قدمت مؤسسة (ستراتفور) المتخصصة في تقديم الخدمات التحليلية للقضايا الجيوسياسية المهمة، دراسة أعدتها عام ٢٠٠٢م لصالح الإدارة الأمريكية تناولت مستقبل العراق بعد شن الحرب عليه واحتلاله، وتمت مناقشتها مع عدد من المسؤولين الأمريكيين الكبار في شتى الاختصاصات، كما وعرضت بعض من تفاصيلها على عدد من المسؤولين في منطقة الشرق الأوسط، وذلك ربما لمعرفة ردود أفعالهم وما هو المطلوب منهم إزاء تنفيذها،

---

[1] صحيفة الواشنطن بوست.

[2] الدكتور عبد الإله الراوي، تفتيت العراق والوطن.. مطلب صهيوني- صليبي- صفوي، دراسة، شبكة البصرة الالكترونية، ٢٠٠٧/١٢/٣م.

أو لوضع ما جاء في الدراسة من توصيات في موضع الاعتبـار لاحتماليـة الأخذ بها أثناء تنفيذ الاحتلال[1]، ومن أبرزها:

- إن أي حكومة ستنشأ في العراق بعد الاحتلال سيكون من الصعب عليها إدارة شؤون بلد كبير جداً مثل العراق.
- على الولايات المتحدة الأمريكية التـي سـتتولى مـسؤولية العـراق بعـد الاحتلال، أن تعمل بشكل جدي لتقسيم العراق إلى ثلاث دويـلات منفـصلة، كجزء من عملية إنهاء العراق القديم وصناعة بديل جديد يمكن أن يكون بكـل (دويلاته) موالياً للسياسة الأمريكية أو (قاعدة) عسكرية أمريكية تهدد بـشكل مباشر (ومن قريب) كل من يجرؤ من دول المنطقة علـى مخالفـة الـسياسة الأمريكية[2].
- إن السنة (في وسط وغرب العراق) يمكن أن ينضموا إلى المملكة الأردنية الهاشمية، الأمر الذي يجعلها دولة أوسع وبموارد اقتصادية تعطيهـا القـدرة على الاكتفاء الذاتي، بخاصة وأن مناطق وسط وغرب العراق تحوي الكثيـر من الثروات التي تفتقر إليها الأردن وبخاصة النفط، كمـا أن احتـواء سـنة العراق تحت مظلة المملكة الأردنية سيبعد احتمالات التماس مع الشيعة ويقطع الطريق أمام احتمالات الحروب والمواجهات الطائفية.
- يمكن للشيعة (في جنوب العراق) أن يكونوا جزءاً من دولة الكويت، الأمـر الذي يمكن أن يحد من قدرات إيران ومن محاولاتها لإثارة النوازع الطائفيـة بما يخدم سياساتها التوسعية، أو لاستخدامها في جعل موازين القـوى تميـل لصالحها وبما يمنحها الفرصة لممارسة دور شرطي الخليج الذي سبق لـشاه

---

[1] جاري دي هالبيرت، تقسيم العراق، مقال لموقع جلوبال ريسيرش الكندي، ترجمة شيماء نعمان، شـبكة المسلم للحوار الإسلامي، ١٨/١٠/٢٠٠٧م.

[2] الدكتور حسن أبو طالب، أوجه خطر كثيرة في تقسيم العراق، مقال صحيفة الأهرام:٣/١٠/٢٠٠٧م.

إيران السابق أن مارسه طويلاً، وإذا كان في ذلك مخاوف وعوائق نابعة من طبيعة (الوضع الكويتي الهش) أو من طبيعة ولاء بعض القيادات الدينية الشيعية في جنوب العراق لإيران، فإن بالإمكان تشكيل دويلة جديدة خاصة بشيعة جنوب العراق شرط أن يتم تأمين أسباب قطع الطريق على إيران في التدخل والتأثير على هذه الدويلة، ويمكن أن يتم ذلك بإقامة قاعدة أمريكية كبيرة في جنوب العراق تكون إحدى مهماتها وقف المد الإيراني وإبعاد تأثيرات إيران في تصريفات السياسة التي ستتبعها تلك الدويلة، بخاصة وأن العشائر العربية في جنوب العراق ترفض أساساً التدخل الإيراني ويمكنها أن تلعب دوراً مؤثراً في هذا الشأن.

- إن الأكراد في الشمال يمكن لهم الحصول على دولتهم المستقلة على أن تشمل الموصل وكركوك الغنية بحقول النفط، بشرط أن تتولى الولايات المتحدة الأمريكية وبمساعدة بعض الأطراف الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا، إقناع تركيا بالموافقة وابتلاع مخاوفها من إمكانية مواجهة تمرد أكرادها أملاً بالحصول على استقلالهم كما هو حال أكراد العراق، ولعل إغراء تركيا بتأمين انضمامها إلى الاتحاد الأوربي يمكن أن يشكل جزءاً من ثمن موافقة (أنقره) على هكذا مشروع.

إن كل هذه الأطروحات والتصريحات وغيرها الكثير من الدراسات والخطط، التي أسهم في إعدادها العديد من مراكز الدراسات الأمريكية وعدد كبير من أبرز السياسيين الأمريكيين وعلى رأسهم وزير الخارجية الأمريكية الأسبق (هنري كيسنجر) الذي قال في الثامن من آذار/ مارس ٢٠٠٤م، وعبر برنامج (حوار صعب) على قناة (بي بي سي) البريطانية: "إن المصير الذي ينتظر العراق سيكون مشابها لمصير يوغسلافيا السابقة"، ويقصد طبعاً الاتجاه

نحو التقسيم كما حصل ليوغسلافيا التي انتهت إلى عدة دول[١]، وكذلك حديثه في ٢٠٠٤/١٢/٢٦م لشبكة (سي أن أن) الأمريكية الذي قال فيه: لا مصلحة لنا في إبقاء العراق موحداً[٢]، وهي نفس العبارة التي قالها فيما بعد لصحيفة الـ "لوموند" الفرنسية (جون بولتون) السفير الأمريكي السابق لدى الأمم المتحدة، والذي يعتبر واحداً من أبرز أعضاء جماعة المحافظين الجدد[٣]، فضلاً عن أقوال لا تختلف في مضامينها عن ذلك لمستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق (زبينغو بريجنسكي) وللكاتب والمنظر الأمريكي (توماس فريدمان) وغيرهم الكثير، والتي ركزت على فكرة التقسيم وتجذير وتكريس الطائفية في العراق كأداة مهمة وفاعلة في جعل التقسيم ممكناً، والتي تولى السفير الأمريكي (بول بريمر) تنفيذها بشكل عملي منذ أول يوم صار فيه حاكماً على العراق، من خلال سياسة المحاصصة العرقية والطائفية التي ابتدعها، والتي ظهرت واضحة في كل القرارات والقوانين التي اتخذها لتفتيت الدولة العراقية، ومن بينها (قرار حل الجيش العراقي) ومن ثم السعي لتأسيس جيش جديد وأجهزة شرطة وأجهزة أمنية وفقاً لمبدأ المحاصصة والسماح لأفراد الميليشيات الطائفية والعرقية الانضمام إليها فضلاً عن (قانون إدارة الدولة) الذي قسم المجتمع العراقي عمودياً وأفقياً، وكلها قرارات وقوانين هدفها تغيير مرجعية وولاءات العراقيين الوطنية الكبيرة الجامعة فيه، إلى ولاءات ومرجعيات طائفية وعرقية نزولاً إلى مرجعيات صغيرة جداً

---

(1) مقابلة هنري كيسنجر مع الـ "بي بي سي" بتاريخ الثامن من آذار/ مارس ٢٠٠٤م.

(2) سمير عبيد، تقسيم البلاد واستيلاء إسرائيل على نفط ومياه العراق، مقال صحيفة القدس العربي:٢٠٠٥/١/١١م.

(3) بولتون.. أمريكا ليس لها مصلحة إستراتيجية في إبقاء العراق موحداً، موقع مفكرة الإسلام الالكتروني:٢٠٠٧/١/٣٠م.

(كالمناطقية)، لغرض جعل التناحر والصراع بين العراقيين ممكناً وبالتالي جعل التقسيم مقبولاً من الجميع (حتى وإن كان على مضض).

ولم تتوقف المساعي الأمريكية لجعل (مشروع التقسيم) ممكناً، عند المرحلة التي سبقت الاحتلال أو التي تولى (بول بريمر) تنفيذها، تمهيداً لقيام (جوزيف بايدن) بطرحها في مشروع نال فيما بعد موافقة مجلس الشيوخ الأمريكي بتبنيه كقرار (غير ملزم) كما قالوا، ففي ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٣م نشرت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية، خطة لتقسيم العراق اسمها خطة (ليزلي جليب) وهو الرئيس الفخري لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكية وأحد أهم السياسيين والمفكرين في مراكز الدراسات التي تسهم في صناعة القرار الأمريكي، ومفاد هذه الخطة يتلخص في استبدال العراق الواحد بثلاث دول صغيرة (كردية في الشمال، وسنية في الوسط، وشيعية في الجنوب) بعدها تسحب الولايات المتحدة الأمريكية وجودها العسكري.

إن كل الدوافع التي ساقها الذين يطالبون بتقسيم العراق وفقاً لمشروع (بايدن)، والتي تقول مرة باحتواء العنف وثانية بتجنب وقوع العراق في قبضة حكم دكتاتوري وثالثة في تأمين أعلى مستوى من الديمقراطية وأخرى باستقرار الأوضاع وتأمين الانسحاب الأمريكي، هي في الواقع من أدوات ووسائل الخداع والتضليل والإيحاء بأن مشروع التقسيم هو وليد الظروف التي نشأت بعد الاحتلال وليس كونه جزءً من مخطط الاحتلال الرئيس، أما دوافع التقسيم الحقيقية فإنها تكمن في:

أولاً: لما كان احتلال العراق هو المرحلة الأولى من مراحل مشروع الاحتلال الكبير الذي يرسم في النهاية خارطة جديدة للشرق الأوسط، فإن تقسيم العراق سيكون التجربة التي يمكن إسقاطها على دول المنطقة الأخرى وبما يؤدي إلى إضعاف الجميع وخلق مجموعة من الدول الصغيرة الفاقدة لأسباب القوة،

والتي لها حاجة لا تنتهي للحماية وللمساعدة، وبالتالي ستكون مرهونة الإرادة وخاضعة للسياسات التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية ولسطوتها المباشرة وغير المباشرة على كل المقدرات والثروات.

ثانياً: لما كان من أهم أهداف احتلال العراق هو إضعافه وإخراجه من معادلة القوة القومية المؤثرة على (الكيان الصهيوني)، لذلك فإن تقسيمه لابد أن يكون مطلباً (صهيونياً) بعد أن كان احتلاله كذلك، وبالتالي فإن تقسيمه سيكون أفضل الحلول لإضعافه وتأمين هذا الكيان.

ثالثاً: لما كان الوضع العراقي الناشئ بعد الاحتلال، له تداعيات وانعكاسات واضحة على زيادة مخاوف عموم دول المنطقة من إمكانية تأثرها بما يحصل فيه، فإن تقسيمه بالتالي سيشكل هاجس الخوف الأكبر بالنسبة لهذه الدول، وسيعطي فرصة للولايات المتحدة لممارسة ضغوط أكبر على هذه الدول من خلال تهديدها بإمكانية تعرضها للمصير نفسه، بخاصة وأن عوامل التفتيت التي تم الطرق عليها لتنفيذ تقسيم العراق يمكن أن تكون موجودة في كل دول المنطقة، وبالتالي أيضاً فإن مشروع تقسيم المقسم سيظل سيفاً مسلطاً على كل الرقاب، باعتبار أن مشروع (سايكس بيكو) القديم لم يكن إلا مرحلة يمكن أن تعقبها مراحل أخرى في التفتيت.

رابعاً: لما كان العراق قد تحول إلى ساحة للمواجهة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعديد من أعدائها، حتى وإن كان ذلك على حساب الشعب العراقي، فإن تقسيم العراق سيكون رسالة واضحة لكل من يناصب أمريكا العداء، تلقي بتبعاتها على الجميع وبخاصة للدول التي تنطوي شعوبها على إثنيات وطوائف متعددة، وبخاصة دول الجوار العراقي التي ستجد نفسها منغمسة ومتورطة في وضع عراقي شائك وخطير يمكن أن يجرها إلى خسائر كبيرة ليس بمقدورها تحمل نتائجها الوخيمة، وبغض النظر عن بعض

العراقيين الذين رحبوا بفكرة تقسيم العراق وبمشاريعها الأمريكية – الصهيونية، فإن محاولات حثيثة قد بذلت من قبل المحتلين ومن والاهم أولاً وأطراف عديدة لها مصلحتها في تقسيم العراق، لغرض بث الفرقة بين العراقيين ومحاولة جرهم إلى حروب داخلية وانقسامات تؤدي إلى جعل فكرة التقسيم قابلة للحياة من خلال الإيحاء بأن التقسيم سيؤمن وضعاً أمنياً واقتصادياً واجتماعياً أكثر صلابة وتطوراً مما هو عليه في ظل عمليات القتل والتهجير التي طالت الكثيرين، فضلاً عن محاولات جرت ومازالت تجري لخلط المفاهيم وبما يسمح بنجاح عمليات التضليل والخداع، وبالتالي جر نسبة كبيرة من العراقيين إلى تأييد اتجاهات وتوجهات التقسيم من دون أن يدركوا أنهم يدعمون مشروع تفتيت بلدهم، ولعل الحديث عن الفيدرالية واللامركزية بشكل مغلوط ومضلل، هو ما تسعى إليه هذه الأطراف أملاً في تمرير التقسيم وجعل قرار مجلس الشيوخ الأمريكي (غير الملزم).. يصير ملزماً بتقسيم العراق، فكيف يمكن فهم حقيقة الفيدرالية واللامركزية بشكلها الحقيقي وليس بشكلها المضلل الذي يحاولون تمريره.

اللامركزية والفيدرالية

كان الفيلسوف الألماني المعروف إيمانويل كنت (١٧٢٤-١٨٠٤م) يرى أن الحالة المدنية هي العلاقة بين الأفراد في أي شعب من الشعوب، ومجموع الأفراد يسمى الدولة التي تسمى أيضاً (الشيء العام) نظراً إلى شكلها وترابطها بالمصلحة المشتركة للجميع الذين يجب أن يكونوا ضمن حالة قانونية[1].

---

[1] إمانويل كنت، فلسفة القانون والسياسة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٩م، ص/٨٧.

ولقد حفزت رؤية الدولة عند (كنت) العديد من الباحثين والمهتمين للقول بأن الدولة هي حالة قانونية تنطوي على عناصر ثلاث هي الشعب والوطن والسلطة، ولما كانت الدولة حالة عامة فالسلطة هي بالتالي حالة خاصة، تشكل في حقيقتها عنصراً من عناصر بناء الدولة، غير أن تماس الأفراد مع السلطة بشكل يومي وارتباطهم العضوي بها (سلباً أو إيجاباً)، جعل الحديث عن أشكال الدول ينصرف إلى الحديث عن السلطة وطبيعتها، ومع التطور التاريخي لأشكال وطبائع السلطات، وتحت وطأة الضغط الشعبي، و تنامي الوعي والنهوض الفكري إلى جانب التطورات الاقتصادية والاجتماعية، صارت هناك دول تمارس فيها السلطة بطريقة مركزية مطلقة وأخرى أقل مركزية، وقد استدعى التطور (الذي صاحبه بالتأكيد اتجاه العلاقات الاجتماعية وعلاقات الحياة الأخرى والعمل إلى التعقيد)، إلى توكيل السلطة المركزية بعض صلاحياتها إلى الإدارات المحلية (المحافظات أو المقاطعات أو الأقاليم)، كجزء من سياسة الإدارة الحديثة والإيمان بأن السلطات الأقرب إلى التجمعات والمصالح البعيدة نسبياً عن المركز هي الأقدر على تصريف الأمور بنحو أفضل وأسرع، وكما يدل على ذلك القول العربي المأثور: (أهل مكة أدرى بشعابها).

ولأن التطور لا يقف عند حدود ما دامت الحياة مستمرة، فقد استدعى ذلك ظهور تجارب عديدة لممارسة الحكم في مواجهة تجربة الحكم المركزية، في مقدمتها بالتأكيد (التجربة اللامركزية) التي أفصحت عن حالة توزيع السلطة بين المركز والأقاليم أو الوحدات الإدارية، والتي تلقفتها العديد من الدول (كفرنسا وإيطاليا وغيرها)، التي وجدت في تطبيقها فرصة للمضي في ممارسة الحكم من دون مشاكل كبيرة، وبما يؤمن مستوى الأمن المقبول الذي يسمح بالمضي في التعاطي مع ما اصطلح عليه ب (الحياة الديمقراطية).

ومع ارتفاع وتيرة نضال العديد من الشعوب لتحقيق استقلالها والتخلص من الاستعمار والتبعية، نشأت العديد من تجارب الحكم الجديدة وبتسميات مستحدثة مثل (الكونفدرالية)، كتعبير ممكن عن حالة توحيد القوى والجهود (بالحد الممكن) والعمل على استثمار الطاقات المادية والبشرية لتطوير حالة (الكونفدرالية) إلى استقلال كامل وناجز، ومن هذه التجربة (وبشكل يحتاج إلى شرح لسنا بصدده الآن) نشأ مفهوم (الدولة الاتحادية الفيدرالية)، التي حجزت موقعها في قائمة أشكال السلطة والحكم، المتضمنة أشكال عدة تتدرج من الدولة البسيطة المركزية إلى الدولة المركزية الديمقراطية إلى اللامركزية ثم الفدرالية والكونفدرالية والاتحادية وغيرها من أشكال السلطة والحكم الموجودة أو التي يمكن أن تظهر مستقبلاً[1].

ويعرف المعجم السياسي الحديث[2] الدولة الفيدرالية بأنها: دولة توجد فيها حكومة مركزية ومجموعات حكومات إقليمية، حيث إن كلاً من هذين المستوين من الحكم مستقل في مجاله عادة على وفق دستور مكتوب يحميه، يحدد اختصاصات مستويي الحكم ويضع ترتيبات لتخصيص الصلاحيات المتبقية وتنسيق تداخل الاختصاصات، فضلاً عن منح المسؤولية القضائية إلى محكمة دستورية أو مؤسسة أخرى لاتخاذ قرارات ملزمة، حيث تنشأ الصراعات المتعلقة بتفسير التحديد الدستوري للصلاحيات، وإن المجلس التشريعي الوطني في الدولة الاتحادية يضم عادة مجلساً ثانياً تمثل فيه على نحو مباشر ومتساو غالباً، الأقاليم المكونة منها.

---

(1) نبيل عبد الرحمن حياوي، اللامركزية والفدرالية، المكتبة القانونية، بغداد، ط٣، ٢٠٠٧م، ص٦.

(2) أحمد عطية الله السعيد، المعجم السياسي الحديث، بيروت، ٢٠٠٣م.

الأمر الذي يدل بنحو واضح على اختلاف المفاهيم والدلالات والاتجاهات، فهذه (دولة واحدة) وتلك (دولة موحدة)، وإن الخلط بينهما ومحاولة تسويق إحداهما باسم الأخرى، له بالتأكيد غاياته وأهدافه التضليلية.

هل يصبح ملزماً؟

إن من يريد أن يكون منطقياً وواقعياً في رؤية ما حصل في العراق منذ سبع سنوات وحتى اليوم عليه الإقرار بأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تشن الحرب ضد العراق عام ١٩٩١م وتفرض عليه الحصار لنحو ثلاثة عشر عاماً، ولم تعاود شن الحرب عليه عام ٢٠٠٣م وتحتله.. من أجل عيون الشرعية الدولية وعيون الكويتيين ومن ثم عيون العراقيين، ولا من أجل التخلص من أسلحة الدمار الشامل أو محاربة الإرهاب أو إحلال الديمقراطية كما ادعت، وأن يقر بأن الولايات المتحدة الأمريكية هي دولة غازية ومحتلة للعراق وليست محررة، كما يحلو للبعض القول ممن يدفنون رؤوسهم في الرمل كالنعام وهم يحاولون تقديم أنفسهم على أنهم أكثر إخلاصاً لأمريكا من الأمريكيين الذين باتوا يعترفون علناً بأنهم يحتلون العراق، وعلى أساس ذلك ينبغي أن لا نغفل حقيقة أن من الأهداف الإستراتيجية الرئيسية للحرب الأمريكية ضد العراق واحتلاله، هي تفتيت العراق وسلبه كل مصادر قوته وثرواته (سواء كان ذلك لتحقيق مصالح أمريكا في الهيمنة والاستحواذ وإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط من جديد، أو لصالح الكيان الصهيوني وتحقيق حلمه في الامتداد والأمن وشرعية الوجود)، ومن يراجع أحداث العدوان والاحتلال منذ عام ٢٠٠٣م سيجد أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تحمل مشروعاً للتفتيت والتقسيم تحاول أن تطبقه منذ أول يوم وطأت فيه أقدام جنودها أرض العراق، و من يقرأ كتاب الحاكم الأمريكي للعراق (السفير بول

بريمر) عام قضيته في العراق[١]، سيجد مشروع التفتيت واضح أمامه من خلال البدايات التي أسسها (بريمر) للعملية السياسية والكيفية التي صمم بها مجلس الحكم لأول مرة في تاريخ العراق، على أسس طائفية وعرقية، كما أن عليه أن يعود للدستور العراقي الجديد الذي كتبه الأمريكي- اليهودي (نوح فليدمان)، وسيجده ملغوماً بكل ما يمكن أن يتفجر في أي لحظة (آنية أو مستقبلية)، ويحيل العراق الواحد الذي نعرفه إلى مجرد ذكرى بعد أن تكون (انفجارات) مواد هذا الدستور قد مزقته إلى ثلاثة دول وربما أكثر.

وإذا ما وضعنا كل ذلك جانباً ونظرنا إلى ما فعلته القوى والأحزاب والشخصيات المحلية (والمستوردة)، التي منحت الولايات المتحدة الأمريكية ولاءها واعتبرت الاحتلال تحريراً والكارثة التي حلت بالعراقيين ازدهاراً وتطوراً وتطبيقاً عملياً للديمقراطية، فإننا سنجد بأن أمريكا قد أطلقت كل هؤلاء للعمل من أجل جعل نسبة كبيرة من العراقيين ترى التقسيم ممكناً أو خياراً لا بديل عنه، لتجريب شكل حياة جديد ربما يكون أفضل من أشكال الحياة التي عاشوها (مجبرين) في ظل الاحتلال، ولهذا جرى تكوين أجهزة الجيش والشرطة والأجهزة الأمنية الأخرى في وسط وجنوب العراق، وفقاً للمحاصصة الطائفية والميليشياوية، أما في الشمال فإن البناء العرقي لكل الأجهزة المدنية والأمنية قد جرى منذ عام ١٩٩١م، وبعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣م تصاعد الذهاب بإصرار شديد من قبل الحزبين المتحكمين بشؤون السياسة والناس في شمال العراق (الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود بارزاني والاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال طالباني)، باتجاه التعريق (تكريداً) وتجذير كل ما يقود إلى الانفصال، وما تبني هذين الحزبين لفكرة

---

[١] بول بريمر،عام قضيته في العراق، ترجمة.عمر الأيوبي،دار الكتاب العربي، لبنان، ٢٠٠٦م.

الفيدرالية وإصرارهما على إقرارها في الدستور العراقي الجديد مثلما جرى إقرارها (قبل ذلك) على يد (بريمر) في قانون إدارة الدولة العراقية، إلا مقدمة للانفصال وهو نفس الحلم (الخبيث) الذي يراود قيادات الأحزاب الطائفية في جنوب العراق وبخاصة (المجلس الأعلى الذي أصبح بزعامة عمار الحكيم بعد وفاة والده عبد العزيز الحكيم الذي كان من أشد دعاة إنشاء إقليم الجنوب على غرار ما يسمى بإقليم الشمال).

ولم يقف الأمر عند هذه الحدود بالنسبة للقوى والأحزاب والشخصيات الساعية إلى لعب دور(أداة التنفيذ) للمشروع الأمريكي- الصهيوني لتفتيت العراق، حيث عملوا على ترسيخ الطائفية والعرقية بممارسات متنوعة شملت القتل على الهوية والتهجير والتهميش وإشاعة الفساد ودفع العراق باتجاه الهاوية، الأمر الذي يجعل فكرة التقسيم قابلة للتداول بين طيف واسع من العراقيين كجزء من البحث عن فرصة للخلاص من الأوضاع المأساوية التي يعيشونها في ظل الفوضى وغياب الأمل في تحسن الأوضاع أو حتى ثباتها عند حد معين من السوء، في الوقت الذي تستمر فيه عمليات القضم من جرف الوطن لصالح التكوينات الطائفية والعرقية، وهذا ما حصل فعلاً من خلال استمرار الحزبين الكرديين في شمال العراق بالمطالبة بصلاحيات واسعة وبمناطق أخرى يصرون على ضمها لما يسمى إقليم كردستان، ولعل مسألة العقود النفطية الكردية وطرح دستور كردي يتحدث في كل فقراته عن إقليم وهو يقصد دولة مستقلة، خير مثال على الاتجاه نحو الانفصال في ظل حكومة مركزية عاجزة عن إدارة شؤون البلاد والعباد وتأمين أبسط متطلبات العيش الكريم للعراقيين، كما أن ما شهدناه من محاولات لإنشاء الأقاليم في الجنوب وآخرها محاولة إنشاء إقليم البصرة (برغم فشلها)، تعطي صورة واضحة عن السعي الحثيث والمحاولات المستمرة من قبل القوى الطائفية

لجعل قرار التقسيم (غير الملزم).. ملزماً، لكن ذلـك لا يعنـي أن أصـحاب مشروع التقسيم قد نجحوا أو أنهم أوشكوا على النجاح في تحقيـق أهـدافهم، فمثلما هناك فئة معينة تسعى للتقسيم وترى مصالحها في تنفيذه، فـإن هنـاك الغالبية من العراقيين الذين يجدون مصالحهم ومصالح وطنهم في بقاء العراق واحداً موحداً بكل أطيافه وقومياته وأديانه، والتي شكلت بتنوعها علـى مـدى التاريخ، حالة قوة وليس حالة ضعف، وهي بالتالي الضمانة الأساسـية لفـشل أي مشروع للتقسيم والانفصال، فضلاً عن عوامل أخرى قد يراها أصـحاب مشاريع التقسيم والانفصال سهلة وقريبة وهي في الحقيقة صعبة وبعيدة جـداً، وبالتالي فإنهم سيخسرون معركة تحويل (غير الملـزم) إلـى ملـزم. لأن أي مشروع للتقسيم سيولد ميتاً وإن ولد حياً فإنه سيظل معوقاً ومشوهاً لا يقـرب منه أحد وليس له أي (حاجة – لازمة) في حياة العراق والعراقيين.

ما الذي يسقط المشروع ويوقف عجلة التقسيم؟

لعل من المناسب هنا التذكير مرة أخرى بأن تقسيم العراق هو جزء مـن المشروع الاحتلالي الأمريكي للعراق، وهو مطلب أثير عند الصهاينة وعـدد من الأطراف الإقليمية (وبخاصة غير العربية)، وأنه فقـرة مهمـة وواجبـة التنفيذ في الإستراتيجية الأمريكية الرئيسية الخاصة بالرؤية السياسية المطلوبة والمقبولة أمريكياً للشرق الأوسط، والتي تقوم أساساً علـى اسـتبدال الـدول القائمة بدويلات تتسم بأحادية الطابع العرقي وأحادية الطابع الطائفي، وتحييـد هذه الدويلات (دويلات الأعراق ودويلات الطوائف) بجعل كل واحـدة منهـا ضد الأخرى على نحو مستمر(1). ووفقاً لذلك فإن عجلات مشاريع التقسيم لـم

---

(1) الدكتور مهند العزاوي، عجلة تقسيم العراق مستمرة وخطرة، دراسة مركز دمشق للدراسـات النظريـة والحقوق المدنية،٢٠٠٨م.

تتوقف مثلما يظن البعض اعتماداً على عدم وجود أصوات عالية أحياناً تطالب بالتقسيم بشكل مباشر، ولعل جملة من الاستحقاقات الواجب التعامل معها لاحقاً أو التي جرى التعامل معها ووضعها في الإطار الذي يتلاءم ومستلزمات تفعيل عوامل التقسيم، يمكن أن تدل بشكل واضح على أن عدم سماع الأصوات أحياناً لا يعني أن الأفعال قد توقفت، ومن بين أهم هذه الاستحقاقات:

أولاً: قانون النفط والغاز الذي مازال متعثراً بسبب انفضاح أهدافه ووجود رأي عام عراقي يقف بالضد من تمريره في مجلس النواب الحالي بعد أن أقرته الحكومة الحالية برئاسة (نوري المالكي)، غير أن ذلك لا يعني أن القانون لن يقر وأن العمل على تفعيل أهدافه لم يجر العمل عليها انتظاراً لإقراره، حيث إن المساومات والتجاذبات السياسية والصراع من أجل السيطرة والاستحواذ وقضم المساحات لصالح طرف على حساب طرف آخر، والاستحقاقات الانتخابية القادمة وضرورة الاهتمام بالتحالفات وبتلميع صور المتصارعين على السلطة وضرورة أن يبدو كل واحد منهم حريصاً على المفاهيم والقيم الوطنية لكي يضمن لنفسه فرصة الاستحواذ على الجزء الأكبر من الصلاحيات والثروات، وهذا لا يمنع من أن تكون جميع أطراف العملية السياسية متفقة على تمرير هذا القانون الذي يضمن عملياً ولسقف زمني مفتوح، سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على الثروة النفطية العراقية والتحكم بها لصالح سياساتها وتأمين قواعد الإمبراطورية الأمريكية كقوة وحيدة في العالم، حتى وإن توزعت حقولها جغرافياً بين عدة دويلات تقوم على خلفية تقسيم العراق الواحد.

ثانياً: الاتفاقية الأمنية بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق واتفاقية الإطار الاستراتيجي لعمل القوات الأمريكية في العراق، التي وقعتها حكومة المالكي

وأقرها مجلس النواب العراقي الحالي في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨م، والتي ترهن إرادة العراق لأجل غير مسمى برغم بعض الجداول الزمنية التي وردت فيها كمواعيد محددة لانسحابات متتالية لقوات الاحتلال الأمريكي من العراق، وكان أولها الانسحاب من المدن العراقية في الثلاثين من حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م، والذي ثبت بأنه مجرد كذبة وعملية تضليل؛ الهدف منها هو إعادة الانتشار وليس الانسحاب، وبالتالي يتأكد القول: إن هذه الاتفاقية هي لتأبيد الاحتلال وليس لإنهاء الاحتلال واستعادة العراق لحريته وسيادته، فاتجاه المحتلين إلى قواعد عسكرية كبيرة أعدت سلفاً لتنفيذ الاتفاقية الأمنية بشكلها ومضمونها الأمريكي الحقيقي، يدل فيما يدل عليه أن البنى التحتية والإستراتيجية الأمريكية لتأمين الوجود الدائم في الدويلات التي سيقسم العراق إليها وفقاً لمشاريع تقسيمه المطروحة (وأنموذجها مشروع بايدن)، قد تم إنجازها وإشغالها في انتظار تنفيذ التقسيم.

ثالثاً: قانون الاستثمار العراقي الجديد الذي صدر في شهر آذار/ مارس ٢٠٠٧م، الذي يعتبر هو الآخر من العوامل المهمة التي تلعب دوراً مهماً في تهيئة أرضية التقسيم، لما له من علاقة بشكل وطبيعة الاقتصاد العراقي المطلوب وبتأثيره المسرع في إنجاز عملية الانقلاب في السياسة الاقتصادية في العراق من (الاقتصاد المركزي) إلى (اقتصاد السوق)، من دون تهيئة الظروف والمناخات المطلوبة لإحداث هذا التغيير وخلق الاستعداد المناسب لدى العراقيين للتعاطي مع هذا التغيير الجذري في موضوع يلتصق بشكل جذري بحياتهم اليومية وبمستقبلهم، فقانون الاستثمار هذا يدفع نسبة كبيرة من العراقيين للوقوف في طوابير العاطلين عن العمل الذين صارت نسبتهم بعد

الاحتلال (أكثر من ٧٠ بالمائة)[1]، فضلاً عن كونه يمنح إعفاءات ضريبية وكمركية وتسهيلات إدارية ومالية والكثير من التنازلات للمستثمرين الأجانب، وكأن العراق بلد فقير ولا يملك قدرات بشرية بكفاءات عالية جداً قد لا تتوفر في بلدان كثيرة في العالم، وإذا ما أضفنا لقانون الاستثمار الجديد هذا، مشروع قانون استثمار النفط المعد بشكل دقيق لضمان سرقة هذه المادة التي تعتبر عماد الاقتصاد العراقي ومصدر التمويل الوحيد (حالياً)، فإن الصورة ستكون واضحة في إطار العمل على تنفيذ مشروع تفتيت العراق وتقسيمه.

رابعاً: الانتخابات التشريعية في آذار /مارس ٢٠١٠م، والاستعدادات لها التي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنها ستكون الفرصة الجديدة لترسيخ الطائفية والعرقية (بامتياز)، ودفع العراق باتجاه زاوية حرجة جداً يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة على العراقيين، الذين يعتبرون الخاسر الأكبر من جراء كل ما يجري منذ احتلال العراق عام ٢٠٠٣م وحتى اليوم، وهي الانتخابات التي تراهن عليها أطراف عديدة داخل العملية السياسية الحالية، للذهاب بأعداد غير قليلة من العراقيين (من جراء نتائجها) باتجاه التعاطي مع فكرة ومشروع التقسيم بنفس مستسلم لليأس.

خامساً: استحقاقات قضية كركوك.. القضية التي تنطوي على أبعاد خطيرة جعلت غالبية المراقبين والمهتمين بالشأن العراقي، يصفون كركوك بأنها اللغم العراقي الأخطر الذي يمكن أن يفجّر العراق، ولعل من أبرز عوامل تفجير هذا اللغم هي سعي الحزبين الكرديين إلى ضم كركوك إلى نفوذيهما وبما يجعل حلم الانفصال ممكناً جداً بعد توفير القاعدة الاقتصادية الدائمة المتمثلة بغنى كركوك النفطي، ولعل تصريحات المسؤولين في الحزبين الكرديين

---

[1] صحيفة الشرق الأوسط، العدد٣٠،١٠٠٩/٧/٣، ٢٠٠٣.

والأفعال السياسية والعسكرية وأعمال (التكريد) المستمرة لتغيير ديموغرافية كركوك، فضلاً عن ما تضمنه الدستور الكردي الذي أقره البرلمان الكردي في شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٩م من اعتبار كركوك جزءاً مما يسمى بإقليم كردستان، يعطي إشارات ودلائل واضحة عن سعي حثيث لتفعيل مشروع التقسيم وجعله حقيقة واقعة[1].

فهل يمكن عد كل النقاط السابقة بكل ما تتضمنه من عوامل الدفع باتجاه التقسيم، مدعاة للمضي في المشروع أم (كوابح) قوية جداً للتنازل عنه والبحث في العوامل التي تبقي العراق متماسكاً وواحداً بكل شعبه وأرضه وثرواته؟.

إن الإجابة بأنها (كوابح) وعوامل موجبة لنبذ مشاريع التقسيم حتى من قبل من سعوا إليها ومن يرون مصالحهم في تفعيلها وجعلها واقعاً، تكمن في حقيقة أن (الترياق) يستخرج من (سم الثعبان)، فالنظر برؤية تحليلية تراعي حسابات الربح والخسارة بشكل دقيق وبوعي يستند لواقع حال العراق بكل عوامل تأسيسه الحديث والقديم، وطبيعة مكونات شعبه والمواد والطرق التي استعملت لصيرورة وبناء العراق على النحو الذي كان عليه حتى لحظة دخول المحتلين، والسماح بوقوعه تحت طائلة الرغبات غير المشروعة التي استهدفت تغيير انتمائه و تفتيته إلى دويلات للطوائف والأعراق؛ هي الكفيلة بتحقيق ذلك.

إن هكذا رؤية لابد أن تجعل الجميع يدركون أن تقسيم العراق بكل تراثه القديم وبحضارة أهله الموغلة في عمق التاريخ لآلاف السنين، غير ممكن أبداً، وأن النقاط السابقة وغيرها تنطوي على عوامل تحمل كمية ونوعية من المواد المتفجرة، يمكن أن يؤدي تفعيلها إلى حصول سلسلة من الانفجارات

---

[1] صحيفة النهار (اللبنانية)، عدة حرب القوميات الأهلية جاهزة، تقرير، العدد (٧٢٤) ٢٠٠٩/٩/٨م.

والزلازل الرئيسية والارتدادية تضرب جميعها كل أرجاء العالم بدرجة قياسية واحدة تبلغ تسع درجات على (مقياس ريختر) لقياس شدة الـزلازل، الأمـر الذي يحدث انهيارات وتشققات يستحيل على الجميع تحمل نتائجها وتبعاتهـا، ويمكن لبعض الملاحظات التالية أن توضح معالم الصورة التي تظهـر فيهـا (الكوابح) التي تمنع (غير الملزم) من أن يصير ملزماً:

١. إن خروج المحتلين الأمريكيين من العراق، أمر حتمي.. طال الـزمن أم قصر، حيث إن كل الحسابات السياسية والعسكرية والاقتصادية تؤكد أن زمن الخروج قد أزف، ولن يكون بمقذور الولايات المتحدة الأمريكية حتى الالتزام بمواعيد جدولة انسحاب قواتها التي وضعتها بنفسها، حيث ستـضطر تحـت ضغط أوضاعها الداخلية وبخاصة الاقتصادية وعدد من العوامـل العـسكرية والسياسية الأخرى، إلى تسريع عملية الانسحاب شرط أن يكون ذلك مقترنـاً بدفع أقل الخسائر الممكنة، وعدم منح الفرصة للآخرين اعتبار الخروج مـن العراق هزيمة أمريكية. وهنا علينا أن نتساءل: هل إن إمكانية إنجاز كل ذلـك تتحقق في ظل العراق الواحد غير المقسم أم في ظل العراق المقسم؟.

إن الإجابة هنا لا تحتاج إلى خبراء في حسابات الربح والخسارة والكلفة، فتقسيم العراق يعني حتمياً اندلاع الفوضى والأعمال القتاليـة بـين دويـلات الطوائف والأعراق داخل تلك الدويلات (أيضاً)، وبما يشعل حرباً أهليـة لـن يقف حدود أذاها وخسائرها على العراق والعراقيين حسب، بل سـيمتد مهمـا كانت التحوطات إلى عموم المنطقة، وبذلك يفعل الزلزال فعله فـي التـدمير والانهيارات والتشققات، وبالتالي سيجر إلى تـداعيات الـزلازل الارتداديـة والمدى الذي يمكن أن تصل إليه، وهذا أمر لا يمكن لأمريكـا ولا لكـل دول العالم أن تقبل المساهمة في حصوله، أو البقاء متفرجة من دون العمل السريع للحيلولة دون وقوعه.

٢. إن حصول الانقسام سيؤدي مثلما قلنا في الملاحظة السابقة، إلى نشوء حرب أهلية وصراع شرس بين دويلات الطوائف والأعراق، كجزء طبيعي ومنطقي لسعي كل طرف من أجل تحقيق أعلى وأفضل المكاسب على حساب الآخرين، ومحاولة الدفاع عن المكتسبات التي حققها طوال السنوات الماضية من عمر الاحتلال، الأمر الذي سيؤدي بالتأكيد إلى انهيار سريع لكل الترتيبات التي جهد الاحتلال على تثبيتها وقدم لأجلها خسائر مادية وبشرية هائلة، وأول تلك الترتيبات التي ستسقط هي الحكومات والسلطات التي نصبت لحكم الدويلات ومنها الحكومة المركزية في حالة تكوين الدولة الاتحادية أو الفيدرالية، بخاصة وأن أمريكا تعرف قبل الجميع أن الحكومة المركزية غير قادرة الآن على أن تبسط سلطتها داخل كل أجزاء العاصمة (بغداد) في ظل أكثر من (١٣٠) ألف جندي أمريكي وأكثر منهم من مرتزقة الشركات الأمنية ومئات الآلاف الأخرى من الجيش والشرطة والأجهزة الأمنية التي تدعي تبعيتها وولاءها للحكومة الحالية، فكيف سيكون الأمر إذا ما رحلت كل هذه الأعداد؟ وماذا عن أمن الحدود والسيطرة عليها والقدرة على حماية الثروات وبخاصة النفط وتأمين استمرار تدفقه وضمان أمن الشركات المستثمرة؟.

٣. إن محاولة تشبيه العراق بالهند مثلاً (قبل انفصال باكستان وبنغلادش) أو تشبيهه بيوغسلافيا، والقول إن التجربة الانفصالية التي جرت فيهما يمكن أن يعاد تطبيقها في العراق وبالإمكان أيضاً وضع ميثاق كميثاق دايتون[1]، يضمن التعايش السلمي وعدم الاعتداء بين الدويلات التي سيقسم العراق إليها وبينها وبين دول جوارها الإقليمي.. هو في الحقيقة تشبيه قاصر وقول مردود، لأن لكل هذه الدول والعراق طبيعتها في التاريخ ولكل منها بنيتها

[1] اتفاقية دايتون، موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، معاهدات/ تاريخ البوسنة والهرسك.

الاجتماعية المختلفة تماماً في كل شيء، كما أن استنساخ (ميثاق دايتون) أو أي ميثاق شبيه له وإسقاطه على الوضع العراقي، لا يمكن أن يكون عقلانياً، فالقول إن (البوسنة) قد مزقتها محاولات التطهير العرقي وأن العراق يعاني بشدة من التطهير الطائفي والعرقي[1]، هو قول فاقد للمنطق والرؤية الصحيحة، فالشروط التي يجب توفرها للمقارنة بين الحالتين غير متوفرة أساساً، لكون العراق (ببساطة شديدة) لا يعاني من التطهير الطائفي والعرقي أبداً، بل يعاني من برامج سياسية مشبوهة ومصالح ذاتية قاصرة اتخذت من التثوير الطائفي والعرقي وسيلتها للاستحواذ على كراسي الحكم ومحاولة تمزيق العراق وإضعافه لصالح أجندات خارجية، ولم يسجل في تاريخ العراق الحديث والقديم أنه كان بلداً ينطوي على صراعات وحروب طائفية وعرقية، ويخطأ كثيراً أو يحاول التضليل من يدعي أن جولات القتال المتفرقة التي حصلت بين الحكومات العراقية المتعاقبة وأكراد العراق طوال نحو خمسين سنة مضت، هي جولات حرب تطهير عرقي، وما ترويج الحزبين الحاكمين في شمال العراق (الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الكردستاني) لهذه الفرية إلا لأغراض سياسية معروفة، يهدفون من ورائها كسب تعاطف الرأيين العامين المحلي والدولي، واستغلال ذلك برفع سقف المطالب وقضم أكبر جزء من الامتيازات والصلاحيات غير المشروعة بحجة (المظلومية السابقة) والتعويض.

كما أن الدول التي خرجت من تحت عباءة يوغسلافيا السابقة، كانت من دول البلقان القديمة (صربيا والبوسنة وكرواتيا) التي اتحدت بعد الحرب العالمية الثانية(١٩٣٩- ١٩٤٥م) فيما سمي بيوغسلافيا، وكانت لها حدود

[1] سيار الجميل، مشروع بايدن: تمزيق العراق لا تقسيمه، الحوار المتمدن، العدد ٢٠٦٠، ٦/١٠/٢٠٠٧م.

معروفة عادت إليها بعد تفكك يوغسلافيا، وهو أمر لا يمكن أن ينطبق على العراق لأنه (وببساطة شديدة أيضاً) لم يتشكل من مجموعة دول (لا حديثاً ولا قديماً)، وأن من يسوقون تجربة العراق في ظل الحكم العثماني يحاولون التضليل أو أنهم لا يدركون الفروق، حيث إن العراق في ظل الحكم العثماني ومنذ القرن السادس عشر ولغاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، كان مقسماً (إدارياً) إلى ثلاث ولايات وليس إلى ثلاث دول، وبالتالي فإن نجاح ولادة دول عرقية من يوغسلافيا لا يمكن توقعه أبداً في شأن العراق الذي (غزلت) وشائج نسيج مجتمعه (منذ قرون عديدة مضت) بخيوط النسب والتصاهر والعيش المشترك والمتداخل غير القابل للتمزيق، والقياس على ما حصل بين البعض من العراقيين بعد الاحتلال الأمريكي، هو قياس خطأ لأن كل ما حصل كان في ظروف غير طبيعية وطارئة، وكان من فعل قوى وأحزاب طائفية وعرقية لها أجنداتها الخاصة التي انفضحت وسقطت، حتى وإن استطاعت أن تسحب البعض إلى ساحات الصراع (لبعض الوقت) لكنها فشلت في النهاية أن تسحبهم إلى هذه الساحات (طوال الوقت)، وبذلك فإن محاولات ولادة كيانات طائفية وعرقية كبديل عن العراق تحميها ميليشيات وعصابات الأحزاب والقوى المتصارعة على السلطة، هي محاولات عقيمة لأن الحمل فيها بالأساس هو (حمل كاذب).

٤. إن الاشتراط من قبل البعض بأن وجود الفيدرالية (وكما ورد في مشروع بايدن أيضاً) هو الضامن لنهاية العنف في العراق، هو قول باطل جملة وتفصيلاً وبالتالي فإن المراد منه هو دفع العراقيين للاعتقاد بأن تقسيم البلاد إلى فيدراليات سينهي مشاكلهم كلها وبشكل خاص (المشكلة الأمنية) التي تؤرق حياتهم منذ الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م وحتى اليوم، فالفيدراليات المطلوب قيامها في العراق، تستند إلى النوع الواحد (عرقياً أو طائفياً)، وهنا

لابد من التساؤل: هل إن العنف اقتصر في العراق منذ الاحتلال وحتى اليوم على (المناطق والمدن المختلطة عرقياً وطائفياً) أم أن كل مناطق العراق ومدنه كانت مسرحاً لهذه الأعمال وبشكل لا يمكن فيها اعتبار هذه المنطقة أو تلك المدينة نالت قسطاً أكبر من أعمال العنف عن سواها إلا في حالات معروفة الأسباب والدوافع، وتستثنى من ذلك مدن (السليمانية ودهوك وأربيل) لظروفها الخاصة المعروفة وانغلاقها على نفسها بفعل سياسة الحزبين الكرديين الحاكمين فيها الساعية إلى خلق ظروف الانفصال؟.. فهل تجنبت العنف مدن الرمادي والنجف التي تعتبر كل واحدة منهما من لون طائفي واحد (مثلاً)؟ وكيف يمكن التصديق بأن عشرات الميليشيات الطائفية والعرقية ستنحسر وتعود إلى حواضنها الطائفية والعرقية إذا ما قامت الفيدراليات، وهي ما وجدت أساساً إلا للصراع على السلطة والاستحواذ والنهب وهضم حقوق الآخرين؟ وكيف يمكن رسم حدود هذه الفيدراليات على النحو الذي يقنع الجميع، إذا كانت ألغام ما يسمى (المناطق المتنازع غليها) توشك اليوم أن تنفجر وتجر إلى حرب أهلية، فكيف سيكون عليه الحال في ظل الفيدراليات الطائفية والعرقية، بخاصة وأن لكل منها ستكون ميليشياته الخاصة المدججة بالسلاح والتي يفترض أن يكون واجبها حماية الفيدراليات المنتمية إليها والدفاع عن مصالحها؟

٥. إذا كان العراق بوضعه الحالي وبوجود القوات الأمريكية المحتلة وأجهزتها الاستخباراتية وإمكاناتها الواسعة، غير قادر على وقف التدخلات الخارجية في شؤونه الداخلية، وبخاصة التدخلات (الإيرانية)، فكيف سيكون حال الدويلات الصغيرة في مواجهة مثل هذه التدخلات وحماية نفسها من الأدوار الأكبر التي يمكن أن تلعبها إيران وتركيا (مثلاً)، وإمكانية سلب حقوقها التي كانت مثبتة كحقوق للعراق أساساً.. بخاصة في ظل عدم وجود

اتفاقية أو ميثاق دولي أو إقليمي جرى الالتزام به أو احترامه من قبل الدول والقوى في عالم يكيل بمكيالين ويفرق أساساً بين الحقوق اعتماداً على (ما تمتلكه الدول من مصادر وإمكانات القوة)؟ وهل يمكن لدول الجوار الجغرافي العراقي غير العربية القبول بتقسيم العراق إلى دويلات طائفية وعرقية، وشعوب هذه الدول بالأساس مكونة من أعراق عديدة ومن طوائف مختلفة، يمكن أن ينفرط عقدها إلى دويلات تشبه وتتماثل مع انفرط إليه عقد العراق؟.

وهكذا فإن النظر إلى موضوعة تقسيم العراق والمشاريع المرتبطة بها، بنحو شامل يأخذ بنظر الاعتبار كل وجهات النظر المؤيدة والرافضة، ويسلط حزم الضوء المناسبة على كل الزوايا.. سيؤدي في النهاية إلى الخروج بنتيجة مؤداها أن مشاريع تقسيم العراق تولد ميتة مهما تعددت أرحامها؛ لأن حملها كاذب بالأساس، وإن محاولة إنجابها (بالتلقيح الصناعي) وتأمين حاضنات خاصة لتنشئتها، سيؤدي إلى صناعة ألغام شديدة الانفجار تأتي على حصون الجميع وتجرهم إلى خسائر لا يملكون القدرة على تحملها، وبالتالي فإن أحاديث التقسيم ومشاريعه، لا تعدو عن كونها أحاديث للتخويف والضغط ومصيرها سيؤول إلى الإهمال، وبالتالي فإن أصحابها سيضطرون للتراجع عنها وإلا فإنهم سيخسرون في النهاية كل شيء، ولا يصح إلا الصحيح ولن يصير (غير الملزم) ملزماً.

جذور الإرهاب
٢-٢

محمد رشيد[1]

في هذا الجزء (الثاني) من بحث (جذور الإرهاب) الذي حاولنا من خلال جزئه الأول البحث عن الأصول الفكرية للإرهاب، التي أنشأت ثقافة القتل غير المبرر والمفرط في الوحشية، التي يصعب على أيّ عاقل تفهمها، كونها غريبة على المجتمع؛ باعتبارها تهدد الأركان الاجتماعية السائدة قبل الاحتلال عام ٢٠٠٣م.

وفيما سيأتي من صفحات سنحاول رصد ما تبقى من مباحث الموضوع من خلال الإبحار في التاريخ الحديث بحثاً عن الجذور التاريخية لتلك الجرائم، من خلال الآتي:

الحرب العالمية الثانية تحطُّ أوزارها

وحطت الحرب العالمية الثانية أوزارها ليهدأ ضجيجها ولتدور رحى حرب خفية من نوع آخر ليس لها أي ضجيج وشعارها السرية المطلقة وكما غيرت الحرب العالمية الثانية الخارطة السياسية العالمية جاءت هذه الحرب

(1) كاتب ومحلل سياسي عراقي.

الخفية لتعدل ما لم تستطيعه تلك الحرب وتبدأ في محاولة السيطرة على أجزاء متعددة من العالم ليس بالطرق العسكرية المباشرة، ولكن بطرق وحشية غير مباشرة تدعم الطرق السياسية والحروب العسكرية التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية، والذي يهمنا هنا ونركز في بحثنا عنه هي: (إن كانت هناك جرائم مشابهة للجرائم التي هزت المجتمع العراقي وحولته من مجتمع يسوده السلم الأهلي ويبحث دوماً عن المشتركات التي تربط مكوناته وتوحده.. إلى مجتمع كل همّه البحث عن نقاط النزاع والاختلاف والتركيز عليها، من مجتمع قوي متماسك إلى مجتمع متنازع مشتت، وبدلاً من أن توحده ظروف الاحتلال كما تفعل وفعلت تلك الظروف على مدار التاريخ القديم والحديث استطاع الاحتلال استغلال كل نقاط الضعف في المجتمع العراقي ورصد كل ما يمكن أن يساهم في تدمير الأمة من الداخل ليتحالف الاحتلال والجريمة والتخلف وأعداء الأمة على تدمير العراق وحضارته وزعزعت كل نقاط القوة فيه).

والسؤال الذي نحاول البحث عن إجابته فيما تبقى من هذا البحث هل لتلك الجريمة من شبيه في التاريخ المعاصر؟.

١٩٤٥م

انتهت الحرب العالمية الثانية بعد نزاع دولي مدمّر بدأ في ٧ تموز/ يوليو ١٩٣٧م في آسيا و ١ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩م في أوروبا وانتهى في ٢ أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٤٥م باستسلام اليابان بعد إلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما التي كانت أول مدينة في العالم تلقى عليها قنبلة ذرية والتي يبلغ عدد سكانها حوالي ١،١٣٦،٦٨٤ نسمة (حسب إحصاء عام ٢٠٠٣م)، ثم تلتها ناغاساكي

في ٩ آب/ أغسطس من عام ١٩٤٥م حيث ألقت الولايات المتحدة الأمريكية على المدينة القنبلة الذرية الثانية.

معهد تفريخ الإرهاب (مدرسة الأمريكيتين)

ولم تندمل بعد جراح الحرب العالمية الثانية و بعد عام واحد فقط على انتهائها، وقبل عام من (مشروع مارشال) وننقل هنا عن الكاتب الأمريكي (غوتمان) من كتابه (مدرسة الأمريكيتين سياسة الاغتيالات: التراث الدامي للجيش الأميركي)

(School of the Americas: POLITICS OF The Bloody Legacy of the US Army ASSASSINATION: School of the Americas By W. E. Gutman)

أسست "مدرسة الأمريكتين" في (بنما) عام ١٩٤٦م، والتي سميت فيما بعد بعدة أسماء منها (مدرسة الدكتاتوريين ومدرسة السفاحين ومعهد تفريخ الإرهاب)، وسرعان ما تم نقلها إلى (حصن بينينج) في الولايات المتحدة بعد عامين لاتهامها بتعليم ممارسات التعذيب للحكومات اللاتينية، عندما طردها الرئيس البنمي (يورغ ايلويكا) ووصفها بأنها "أكبر(قاعدة) لإثارة القلاقل في أميركا اللاتينية"، ومنذ تأسيسها تخرج منها ما يزيد على ٦٠ ألف عسكري من أميركا اللاتينية (إحصاء ١٩٩٥م) حاول عدد كبير من الناشطين فضح تلك المدرسة وإغلاقها، وكذلك فعل العديد من السياسيين الأمريكان مثل النائب الديمقراطي الذي أصبح فيما بعد رئيساً (جوزيف كندي) الذي قال عنها إن "خريجيها يشملون دكتاتوريي أميركا اللاتينية وجنودا متورطين في جرائم

كبرى ضد حقوق الإنسان.. إنها تكلفنا ملايين الدولارات وتربط اسمنا بالمتسلطين ومضطهدي شعوبهم[١]".

اشتهر العديد من خريجي مدرسة الأمريكيتين (بأعمال الإرهاب والاغتيالات السياسية) وسنتابع تلك الجرائم ونقتفيها واحدة إثر أخرى وسنرى كيف تأسس الإرهاب في العالم ومن صنعه ومن دعمه وأين هي جذور الإرهاب.

لقبت هذه المدرسة بـ (معهد تفريخ الإرهاب) كما لقبت بـ "مدرسة الدكتاتوريين" و "مدرسة السفاحين" لتخريجها (أومار توريوس في بنما) و (كيبرمو رودريكز في الأكوادور) و(خوان فيلاسكو الفارادو في بيرو)، وقد استولى كل منهم على السلطة بعد الإطاحة بحكومة مدنية منتخبة بصورة ديمقراطية في بلاده.

وأيضاً تخرج منها (ليوبولدو كالتيري) الرئيس السابق (للجونتا الأرجنتينية) والذي عمل مساعدون له على تأسيس (فرقة الموت) الشهيرة "٣-١٦" في (الهندوراس)، كذلك تخرج منها (الرئيس هوغو بانزر سواريز) الذي حكم (بوليفيا) بالحديد والنار وسحق المعارضين وعمّال المناجم بقسوة ووحشية[٢].

وكذلك كان (روبرتو دوبوسيون) قائد إحدى فرق الموت السلفادورية والمخطط لاغتيال (القس الأكبر روميرو) ومتهم بالمشاركة في مذبحة "الموزوت" التي راح ضحيتها ٩٠٠ من الرجال والنساء والأطفال.

ومن أشهر خريجي مدرسة الأمريكيتين (مانويل نورييغا) دكتاتور (بنما) السابق الذي كان يحكم ويدير تجارة المخدرات بالتعاون مع إدارة (ريغان)

---

(١) راجع الرابط /http://ar.wikipedia.org/wiki مدرسة_الأمريكيتين .

(٢) راجع الرابط /http://ar.wikipedia.org/wiki مدرسة_الأمريكيتين

عندما كان (بوش الأب) مسؤولاً عن محاربة المخـدرات حتـى اضـطرت الإدارة الأمريكية للتخلي عنه والانقلاب عليه بعد افتضاحه أكثر ممـا يجـب وإصدار الكونغرس قانوناً ضده رغم اعتراض الإدارة الأمريكية الشديد علـى القانون ودفاعهم في البداية عن نورييغا، وحين لـم تجـد الإدارة الأمريكيـة طريقاً لإنقاذه وكان يفاوضها على ذلك مقابلاغتيال مسؤولي الساندينست فـي نيكاراغوا، هاجمت القوات الأمريكية (بنما) وفي النهاية سلم نورييغـا نفـسه وحكم عليه بالسجن لمدة أربعين عاماً بتهم تتعلق بتجـارة المخـدرات! كـان نورييغا شخصاً "مناسباً" للدراسة في "مدرسة الأمريكيتين" كما فعل فعلاً فقـد بدأ حياته "السياسية" كجاسوس للـ "سي آي أي" على الطلبة اليـساريين مـن رفاقه في أحد التنظيمات.

كذلك كان الجنرالان الهندوراسيان (بوليكاربو باز) الذي قاد حكومة فاسدة في الثمانينات و(همبرتو ريكالدو) الذي ارتـبط اسـمه (بكارتـل المخـدرات الكولومبية) أحد طلاب تلك المدرسة بل إن اسمه وضع في لائحة الشرف فيها عام ١٩٨٨م.

ومن الزملاء المرموقين أيضاً (مانويل انتونيو كالياس) رئيس الأمن فـي (كواتيمالا) في السبعينات وأوائل الثمانينات، الفترة التي شهدت اغتيـال عـدد كبير من السياسيين المنافسين للحكومة.

في (كواتيمالا) التي يبلغ نفوسها ١٠ ملايين نسمة كان لشعب (المايا) من سكان البلاد الأصليين حصة الأسد من المعاناة حيث قتل خلال ٣٠ عاماً مـن (الحرب الأهلية) منه ما يزيـد علـى ٢٠٠ ألـف مـواطن وكـان (معظـم الجنرالات) الذين شاركوا في الانقلابات الدموية وأعمال (الإرهاب) خلال تلك الفترة، من أولئك الذين (تدربوا في "مدرسة الأمريكيتين") .

ومن أشهر محاولات الاغتيالات محاولة اغتيال زعيم الكونغو (باتريس لومومبا)، وأعد (هيلمز) خطة اغتياله الأولية عن طريق وضع فيروس قاتل في طعامه أو في فرشاة أسنانه وخطة لإرسال قاتل محترف عميل لها لقتله. كذلك محاولة غير ناجحة لاغتيال (عبد الكريم قاسم) زعيم العراق في نهاية الخمسينات حين أرسلت له ال "سي آي إي" منديلاً ساماً يؤدي إلى شلله التام فكرياً وجسدياً[١].

وهكذا واصلت عمليات الاغتيالات دون توقف منها ما تم كشفه ومنها ما لم تكشف أسرارها بعد ومن ذلك اتهام وكالة المخابرات الأمريكية بأنها تقف وراء اغتيال (جون أف كندي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نفسها! في ٢٢ تشرين ثاني / نوفمبر ١٩٦٣م[٢])

ونتيجة للضغوط المتزايدة لإغلاق المدرسة سيئة الصيت، قام الكونغرس بحركة غريبة لإنقاذ المدرسة "الثمينة"، فقد صوت عام ٢٠٠٠م على (إغلاق المدرسة) ثم (إعادة فتحها) في كانون الثاني عام ٢٠٠١م باسم آخر هو ("معهد نصف الكرة الغربي للتعاون الأمني"[٣]).

(Western Hemisphere Institute for Security Cooperation) وتختصر إلى (WHINSEC)، كما وضع شرطاً أن يأخذ كل الطلبة فيها دروساً لا يقل مجموعها عن ٨ ساعات عن (حقوق الإنسان!) وقد وصف الناشط "بورجوا"، أحد مؤسسي منظمة "رقابة أميركا" العمل بأنه "أشبه بإلصاق ورقة كتب عليها "بنسلين" على قنينة للسم".

---

[١] (رينشارد هيلمز كبير الجواسيس الأميركيين ــ المركز العربي للدراسات المستقبلية).

[2] راجع العدد ٨٨ من تقرير واشنطن في ١٦ ديسمبر ٢٠٠٦م الاغتيالات السياسية في التاريخ الأمريكي.

[٣] راجع الرابط http://ar.wikipedia.org/wiki/مدرسة_الأمريكيتين.

في عام ٢٠٠٤م، اضطرت إدارة المدرسة تحت ضغوط المتظاهرين والناشطين إلى إضافة سياج ثان من الأسلاك الشائكة ذات الأمواس إلى المدرسة، وفي عام ٢٠٠٥م تمت إضافة سياج ثالث أيضاً! في ذلك العام بلغ عدد المتظاهرين حوالي ٢٠ ألف متظاهراً اجتمعوا لـ " ذكرى الذين تمت إسكات أصواتهم بالعنف من قبل خريجي المدرسة" واخترق عدد منهم الأسيجة المحيطة بها وصدرت بحقهم أحكام بالسجن بلغ مجموعها ٨١ عاماً لهذا العصيان المدني، لكن هذا لم يمنع المحتجين أو يخيفهم فازداد عدد المتظاهرين في العام التالي إلى ٢٢ ألفاً.

بعد محاولتين فاشلتين في عامي ٢٠٠٠م و ٢٠٠١م، تمكن المناهضون للمدرسة هذا العام أن يحتفلوا بأول انتصار حقيقي لهم حين اضطر الضغط الشعبي الكونغرس إلى أن يصدر قراراً يجبر البنتاغون على كشف معلومات تلك المدرسة تتضمن أسماء ورتب وتواريخ تخرج وجنسيات منتسبيها وطلبتها فضلاً عن الدروس التي تقدم فيها، بواسطة قرار الكونغرس الصادر في (٢٢ مايس ٢٠٠٨م)، وسيتيح كشف تلك المعلومات لمنظمات مثل منظمات حقوق الإنسان أن تتابع أعمال القائمين على المدرسة وخريجيها، وقد تم التصويت لصالح القرار بـ ٢٢٠ مقابل ١٨٩ وقد صوت المحافظون (حزب بوش) لإجهاض القرار (١٨١ ضده مقابل ٣ معه) وصوت الديمقراطيون مع القرار (٢١٧ معه مقابل ٨ ضده) وتعكس هذه النسبة النهج المستمر للمحافظين بدعم المدرسة ونشاطها وقد تمكنوا في الماضي من انقاذها بفارق أصوات قليلة عندما كانت لهم أغلبية في الكونغرس.

و(حسب النص المنقول من وكيبيدا) (يحاول "المعتدلون" اليوم استبدال تواجد القواعد العسكرية الأمريكية بالإكتفاء بتدريب تلك القوات للقوات العراقية من جيش وشرطة[١].

وفيما يأتي عدد خريجي مدرسة الأمريكتين حسب جنسياتهم:

بوليفيا ٩٣١ ــ البرازيل ـ ٤٠٤٩ ــ تشيلي ـ ٣٥٥ ــ كولمبيا ـ ٢٤٠٥ ــ كوستاريكا ـ ٨٦٧٩ ــ جمهورية الدومنيكان ـ ٢٤٧٦ ــ الإكوادور ـ ٢٣٣٠ ــ السلفادور ـ ٢٣٥٦ - كواتيمالا ـ ٦٧٧٦ ــ هنداروس ـ ١٦٧٦ ــ نيكاراغوا ـ ٣٦٩١ ــ بانما ـ ٤٦٩٣ ــ بارغواي ـ ١٠٨٤ ــ بيرو ـ ١٠٨٤ ــ أورغواي ـ ٣٩٩٧ ــ فنزويلا ـ ٣٢٥٠[٢].

وما قرأناه ليس من نسج الخيال وليس فلماً من أفلام الرعب وليس من وحي نظرية المؤامرة، وإن تفوق على كل تلك الاحتمالات في أنه حقيقة مرعبة قام بها نفس العقل الذي أمر بإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناكزاكي.. مع الفارق الزمني والفوارق المكانية وفي قرنين مختلفين. ولازال الأحرار في أمريكا يطالبون بغلق معهد تفريخ الإرهاب الأسود هذا.

١٩ آب/ أغسطس عام ١٩٥٣م ــ (عملية أجاكس)

تمكنت المخابرات المركزية الأمريكية من (الإطاحة بالزعيم الوطني الإيراني محمد مصدّق) في ١٩ آب/أغسطس عام ١٩٥٣م، ويعد محمد مصدق في إيران بطلاً قومياً لرفضه الإمبريالية الغربية وقيامه بتأميم النفط

---

[١] راجع الرابط http://ar.wikipedia.org/wiki/مدرسة_الأمريكيتين.

[٢] يقدم الموقع: http://www.soaw.org/article.php?id=205&cat=63 يقدم قوائم بأسماء الخريجين سيئي السمعة في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية في قائمة منفصلة.

أبان تسلمه الرئاسة) وأعيد الشاه بعملية أمريكية بريطانيــة مــشتركة ســميت بعملية أجاكس.

ومنحت هذه العملية وكالة المخابرات المركزية ســمعة أنهــا لا تُقهــر، وأصبحت نموذجاً للعمليات السرّية التي ستنفّذ في العــالم أجمــع فــي وقــت لاحق[١].

١٧ و١٨ حزيران/ يونيو عام ١٩٥٤ ("PB/Success")

في ٤ آذار/مارس عام ١٩٥٣م استملك (جاكوبو أربانز، الذي (انتخــب) رئيساً لغواتيمالا عام ١٩٥١م) ٨٤ ألف هكتاراً من أصل ٢٣٤ ألفاً، كانــت تستأثر بها شركة الموز الأميركية ("يونايتد فروت كومبــاني") (UFCO)، إلا أنه وبعد أشهر قليلة على هذا التأميم وتحديداً في ١٧ و١٨ حزيــران/ يونيــو عام ١٩٥٤م، دخل (جيشٌ من المرتزقة) آتياً من نيكاراغوا ومن هنــدوراس إلى غواتيمالا، و(أسقط حكم أربانز) في ٢٧ حزيران/ يونيو، وكــان (جــون فوستر دالاس) في حينها وزيراً للخارجية الأميركيــة وأخــوه (ألــن) مــدير المخابرات المركزية كلاهما مساهمين في شركة يونايتد فروت!، وقد نفّــذت العملية، التي حملت اسماً رمزياً ("PB/Success") بمساعدة فعّالة من ("فرقة صِدام") تابعة للـــ("سي.آي.إي.")، سيدوم أثرها على مدى عقود[٢].

---

[١] صحيفة الوقت البحرينية – العــدد ١٠٢١ الأحــد ٩ ذو الحجــة ١٤٢٩ هـــ – ٧ ديــسمبر ٢٠٠٨م
http://www.alwaqt.com/art.php?aid=141748

موقع وكيبيدا ـــ محمد_مصدق/http://ar.wikipedia.org/wiki

[٢] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـــ كانون الثاني/يناير ـــ٢٠٠٩ // الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

آذار/ مارس عام ١٩٦٠م ("مشروع كوبا")

أعطى (الرئيس دوايت آيزنهاور) الضوء الأخضر لعمليّة جديدة سـميت (مشروع كوبا) خصّصت هذه المرة (لزعزعة كوبا) حيث كانت الثـورة الكوبية قد انتصرت في الأول من كانون الثاني/ يناير عام ١٩٥٩م.

وقد تولّى (معظم العملاء الذين شاركوا في الإطاحة بأربانز مسؤوليات في "مشروع كوبا" وهم على التوالي، وتحت قيادة (ريتشارد بيسيل)، الرجل الثاني في السي.آي.أي.: (ترايسي بارنز)، الذي اضطلع بمسؤولية تشكيل (مجموعة) "فريق العمل الكوبي" Cuban Task Force)، و(دايفد آتلي فيليبس) المسؤول عن الحرب النفسيّة، و(هاورد هانت) (المكلّف بتشكيل "حكومة كوبية مؤقتة"!)، وقد انضم إلى المجموعة شابان آنذاك هما: السيد (بورتر غوس) ضابط التجسس المضاد في الجيش، والسيد((جورج هيربرت دبليو بوش)) وقد ساعد هذا الأخير في ("تجنيد بعض المنفيين الكوبيين) في (جيش الاجتياح) التابع للـ"سي.آي.أي[1]".

١٧ نيسان/ أبريل عام ١٩٦١م (خليج الخنازير)

وفي ١٧ نيسان/ أبريل عام ١٩٦١م قام (جيش الاجتياح) المؤلف من حوالي ألف وخمسمائة رجل، عُرِفوا (بالفرقة ٢٥٠٦) بعملية إنزال في خليج الخنازير، وبعد انهزامهم في أقل من سبعين ساعة، اضطر الرجلان الأولان في الـ"سي.آي.أي"، (دالاس وبيسيل) إلى الاستقالة.

---

[1] لوموند ديلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/يناير ـ٢٠٠٩ // الفريق.الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـ http://www.mondiploar.com/article2408.html

وإذ شعر الرئيس الأمريكي (جون كينيدي) بالخزي من هذه الهزيمة، فهو سيمنح الوكالة سلطةً مطلقة؛ وهو قرارٌ سوف يؤثر ولفترة طويلة في قضايا العالم أجمع[1].

إنزال خليج الخنازير عملية (JM/WAVE)

أشرف (روبرت كينيدي) وهو وزير العدل وشقيق الرئيس على عملية هجومية جديدة ضد كوبا، حيث أصبحت (ميامي) مركزاً لأكبر عملية شبه عسكرية، سميت (JM/WAVE) لم يسبق أن تمّ إعداد مثلها على الأراضي الأميركية، وقد تولى قيادتها كل من (تيودور شاكلي) "تيد" و(توماس كلاينز) "توم"، وقد حظت المجموعة على الأخص بمساعدة (الجنرال إدوار لانسديل) العائد من الهند الصينية حيث عمل مع المخابرات السرية الفرنسية الغارقة في الحرب الاستعمارية، وأيضاً بإسهام السيد ((دايفد سانشيز موراليس)) ضابط التجسس المضاد في الجيش[2].

تشرين الأول/ أكتوبر ـ ١٩٦١م عملية « مونغوز »

حاولت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي أي) مطلع الستينيات من القرن الماضي (اغتيال) عدوها اللدود (كاسترو) بواسطة (مناديل مسممة ومتفجرات داخل سيجار وغيرها)، وهذه المؤامرة الجريئة لقتل كاسترو حصلت على (موافقة الرئيس الأميركي شخصياً) لكنها فشلت

---

[1] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/يناير ـ٢٠٠٩ // الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـ http://www.mondiploar.com/article2408.html

[2] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/يناير ـ٢٠٠٩ // الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـ http://www.mondiploar.com/article2408.html

رغم الاستعدادات الواسعة النطاق، وكتبت مجلـة « ديرشـبيغل » الألمانيـة تقريراً حول ما يعرف باسـم عمليـة «مونغـوز» (الـنمس) (Operation Mongoose) وهي مجموعة من العمليات السرية ضد حكومة كاسترو التـي أثبتت فشلها[١].

فبراير/ شباط ١٩٦٢م

في فبراير/ شباط ١٩٦٢م وبطريقة مكشوفة أعلنت الولايـات المتحـدة (الحظر الاقتصادي) الكامل على كوبا، كما فكرت الولايات المتحـدة بهجـوم عسكري مباشر، وعرض القائد سلاح الجو (كورتيز ليماي) على كنيدي خطة (بتفجيرات) في سبتمبر، في حين يقوم سلاح الطيران بعمليات جوية للتجسس ويتحرش عسكرياً منطلقاً من قاعدة جوانتانامو البحرية.

١٤ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٦٢م (أزمة الصواريخ)

انفجرت "أزمة الصواريخ" في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر عـام ١٩٦٢م، حيث طالبت واشنطن بأن يسحب الاتحاد السوفيتي الصواريخ البالستية التـي نصبها في كوبا، فوافقت موسكو على ذلك، بشرط أن تتعهد الولايات المتحـدة بعدم اجتياح الجزيرة (وبأن تتخلى هي أيضاً عن صـواريخها فـي تركيـا)، ووافق كينيدي على ذلك، وأمر بتفكيك (مجموعة JM/WAVE[٢]).

---

[١] المركز العربي للدراسات المستقبلية ـ رينشارد هيلمز والعمليات الـسوداء للمخـابرات الاميركيـة ـ http://www.mostakbaliat.com/richard.html

[٢] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/يناير ـ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـ http://www.mondiploar.com/article2408.html

٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٣م

مدرسة الأميركيتين مرة أخرى

دفع نجاح الثورة الكوبية في البقاء وفشل الكثير من العمليات السرية وكذلك فشل الاجتياح المباشر لكوبا؛ واشنطن إلى تعديل استراتيجيتها للأمن القومي بشكل جذري، حينها بدأت عملية إعادة بناء (الجيوش الأميركية اللاتينية) وأنشئ مركز للتدريب والتوجيه من داخل "مدرسة الأميركيتين" في المنطقة الأميركية من قناة باناما، وعندما اغتيل كينيدي، في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٣م، في دالاس (بولاية تكساس)، كانت سياسته للأمن القومي الجديدة جاهزة قيد التنفيذ[١].

٣١ آذار/ مارس عام ١٩٦٤م

كانت الإطاحة بالرئيس البرازيلي "جواو غولار" في ٣١ آذار/ مارس عام ١٩٦٤م، بمثابة إشارة لانطلاق سلسلة من الانقلابات، وشكلت بداية عمليات (اختفاء وتعذيب المعارضين السياسيين بصورة كثيفة ومعقدة)..

ولم يكن لهذه الاستراتيجية الجديدة أن تهمل خبرة العملاء الكوبيين في مجموعة (JM/WAVE) ولا خبرة جزء من الألف ومائة وتسعة وثمانين رجلاً الذين وقعوا أسرى في عملية اجتياح خليج الخنازير، والذين عادوا إلى الولايات المتحدة في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٦٢م، وقد تلقى حوالي ثلاثمائة منهم، وهم في معظمهم من الكوبيين (ثم من الكوبيين الأميركيين في معظم الحالات بعد حصولهم على جنسية البلد المضيف) تدريب ضباط في أكاديميات العمليات الخاصة في (Fort Benning) (جورجيا) و(Fort

[١] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية – كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية – http://www.mondiploar.com/article2408.html

(Mayers) (فلوريدا) و (Peary Fort) (فرجينيا)... إلخ، كما وأرسل آخرون منهم إلى (Fort Gullick) ليتدربوا في (مدرسة الأميركيتين) وهكذا تعود (مدرسة تفريخ الإرهاب إلى الواجهة من جديد).

وذلك لكي يتلقوا تدريبات في حرب العصابات لمواجهة حركات التمرد المسلحة، ومن أسمائهم "خوسيه بازولتو" و"خورخيه ماس كانوزا" [الرئيس اللاحق للمؤسسة الوطنية الكوبية-الأميركية، المنظمة الرئيسية المناهضة لكاسترو ومركزها ميامي، والتي سيديرها حتى وفاته في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧م، وقد تورطت في سلسلة اعتداءات طالت العاصمة الكوبية هافانا عام ١٩٩٧م] و"فرانسيسكو (بيبي) هرنانديز" [الرئيس الحالي للمؤسسة الوطنية الكوبية-الأميركية]، و"لويس بوسادا كاريلليس" و"فيليكس رودريغيز منديغوتيا" إلخ، وإذ كان يفترض بهم البقاء دائماً متخفين وراء الأسماء المستعارة، فسرعان ما ستشغل أسماؤهم مسارح الأحداث، "وستصبح أميركا الجنوبية هي "الغرب البعيد" Far West حيث يلعبون دور الرواد"، بل سوف "يبرعون" بأعمالهم السرية حتى في أماكن أبعد من ذلك[1].

نهاية عام ١٩٦٢م الكونغوا فرقة الصِدام

ومن أمريكا اللاتينية إلى أفريقيا انتقلت (فرقة الصِدام) حيث نزلوا في (الكونغو) المستعمرة (البلجيكية) سابقاً، في نهاية عام ١٩٦٢م وذلك لكي يقدموا من بين ما قدموه دعماً جوياً لقوات الدكتاتور العتيد المستقبلي (جوزف- ديزيريه موبوتو).

---

[1] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ــ كانون الثاني/يناير ــ ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

وسخروا الطائرات من أسطول (شركة Air Amercia الجويــة) وهــي شركة كانت قد انشئت حديثاً تملكها الــ "سي.آي.أي" وعلــى الأرض شــكل الرجال "الفرقة ٥٨" المكلفة باقتفاء آثار(إرنستو تشي غيفارا) وملاحقتــه مــع مجموعة صغيرة من الثوريين الكوبيين؛ إنما من دون نجــاح، وبطلــب مــن (لوران–ديزيريه كابيلا) وكان غيفارا قد وصل حقيقة في أولخر نيسان/ أبريل لكي يقدم الإرشاد التقني للمتمردين المسلحين الذين كانوا يقاتلون موبوتو.

ولنا عودة إلى (الكونغو) مرة أخرى في أواخر القرن العــشرين لنتــابع الجريمة هناك بصورة أبشع أكثر دموية ولنشهد العقلية الاستعمارية الغربيــة ماذا فعلت هناك من جرائم[1]!.

آذار/ مارس عام ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨م

فيتنام ــ فونيكس ــ فرقة الصِدام

ومن أفريقيا إلى آسيا حيث تعززت (فرقة الصِدام) هذه بشكل نهائي فــي فيتنام؛ إذ استعادت وطورت أساليب القوات الفرنسية الخاصة المنهزِمة، وذلك عبر تمويل (عمليات قذِرة) من أموال تهريب الأفيــون مــن لاوس وبورمــا (وهناك أيضاً باستخدام طائرات "إيــر أميركــا")، وتعــود وجــوه عناصــر (JM/WAVE) أنفسهم للظهور: شــاكلي وكلاينــز وسانــشيز ومــوراليس وسيكورد و"إد" ديربورن، ورودريغيز منديغوتيا، برفقة دونالد غريــغ مفــتش عملاء الــ"سي.آي.أي"، والسيد (جون ديمتــري نيغروبــونتي) (المستــشار السياسي لمجمل العملية)، والجنرال (جــون ســينغلوب)، الــرئيس الــسابق للــ"سي.آي.أي" في كوريا، و(لاندسيل) المكلف بالعمليات من قبل البنتاغون،

---

[1] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ــ كانون الثاني/يناير ــ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

والسيد (أوليفر نورث) من دائرة الاستخبارات في البحرية الأميركيـــة، وفـــي العام ١٩٦٨م تمّ إرسال (وليم بيل كولبي) إلى المكـــان لكـــي يـــدير (عمليـــة "الحملـــة المـــسرعة لإحـــلال الـــسلام" Accelerated Pacification Campaign) (واسمها الرمزي كان "فونيكس")، والهدف منها كان (ترهيـــب السكان المدنيين بغية تعطيل فعالية المقاومة الفيتنامية)، هكـــذا ســـوف يقتـــل حوالى ٤٠ ألف (مشتبه بهم) في غضون أربع سنوات[١]).

آذار /مارس ١٩٦٧م ــ بوليفيا

لكن هذا الفريق (فرقة الصِدام) سيحقق نجاحاً باهراً في قارة أخرى، ففي آذار/ مارس عام ١٩٦٧م، برز اسم رودريغيز منديغوتيا من بـــين عـــشرين رجلاً تقريباً من الوحدات الخاصة الأميركية نزلوا في بوليفيا لملاحقة إرنستو تشي غيفارا، وعندما أسر الـــ"تشي"، وهو جريح في ٨ تشرين الأول/ . أكتوبر عام ١٩٦٧م، كان هو الذي نقل الأمر بإعدامه.

السبعينات

وفي السبعينات تم الكشف بموجب طلب الكونغرس عن القصص المذهلة للعمليات السرية القذرة التي جرت ضد كوبا وظهرت الكثير مـــن محـــاولات اغتيال كاسترو وتجنيد المافيا الأميركية، والأميركية اللاتينية في الانقلابات[٢] ومنها:

---

[١] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ــ كانون الثاني/يناير ــ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

[٢] المركز العربي للدراسات المستقبلية ــ ريتشارد هيلمز والعمليات الـــسوداء للمخـــابرات الأميركيـــة ــ http://www.mostakbaliat.com/richard.html

أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣م

قضية أليندي ــ تشيلي

لكن بعد الكشف عن جرائم العمليات السرية بثلاث سنوات (١٩٧٣م) لم تتمكن الـ"سي.آي.أي" من منع انتخاب المرشح الاشتراكي (سلفادور أليندي) رئيساً على التشيلي، فأصدر (الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون) أمراً إلى الوكالة بمنعه من استلام مهامه، وقد فشل الفريق (فرقة الصِدام) الذي أُرسل إلى المكان في مهمته، لكنه نجح في اغتيال قائد القوات المسلحة (الجنرال رينيه شنايدر) الوفي (لأليندي) ليخلفه (أوغوستو بينوشيه)، ومجدداً سيبرز اسما (فيليبس) و(سانشيز موراليس) بين المسؤولين عن العمليات على الأرض.

وإذ أضحى (شاكلي) بفضل أعماله في كوبا وفي فييتنام، رئيس إدارة ال"سي.آي.أي" للنصف الغربي من الكرة الأرضية، فقد كلف بالعمل على إسقاط الحكومة التشيلية، فعيّن (كلاينز) لكي يتفرغ لـ"قضية أليندي"، وقد أشرف (كولبي) على مجمل الأمور من موقعه مديراً مساعداً للعمليات الخاصة، كما أوكلت مهمة تنظيم .(الحملة الدولية لتشويه) صورة حكومة أليندي إلى السفير الأميركي في منظمة الأمم المتحدة: (السيد جورج دبليو بوش).

تمّ القضاء على أليندي في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣م، واستلم بينوشيه الحكم، وكانت الأمور تسير على ما يرام... لو لم تطال الـ"سي.آي.أي" فضيحة قصت جوانحها، بعد أن تمّ (كشف قسم كبير من جرائمها في الصحافة) وعبر

لجنتي التحقيق البرلمانية "تشورش" و"روكفيلر"[1]، لكن هذا لا يهمّ فالعمليات القذرة تزداد وتستمر..!.

(كوندور) ــ (كورو) ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧م

٣٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٦م إلى ٢٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٧م

"نقلت" الوكالة قسماً كبيراً من نشاطاتها إلى الأجهزة التي تعاونت معها (كما فعلت ذلك لاحقاً في أماكن أخرى من العالم وكما فعلته في العراق عن طريق إيران والميليشيات وفرق الموت والشركات الأمنية العاملة في العراق نيابة عن الأمريكان هناك) في "عملية كوندور" [تعاونية الاستخبارات السرية لديكتاتوريات جنوب القارة الأمريكية من أجل قمع واغتيال المعارضين السياسيين] وإلى عملائها الكوبيين في "كومندوس المنظمات الثورية الموحدة" (CORU)، وكانت هذه المجموعة قد تأسست في (جمهورية الدومينيكان) في أيار/ مايو عام ١٩٧٦م، بناءً على تعليمات من الـ"سي.آي.أي" التي أدارها من ٣٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٦م إلى ٢٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٧م... (أورلاندو بوش[2]).

وكان على رأس هؤلاء الكوماندوس، الذين تم تأمين تمويلهم من تجارة المخدرات السيدان ("أورلاندو بوش Orlando Bosch ") و("بوسادا كاريليس Posada Carriles").

---

[1] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ــ كانون الثاني/يناير ــ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

[2] لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ــ كانون الثاني/يناير ــ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ــ http://www.mondiploar.com/article2408.html

وقد نظما من كاراكاس (فنزويلا) الاعتداء الذي وقع في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٦م، والذي أدى إلى انفجار طـائرة تابعـة لـشركة (كوبـا للطيران Cubana de Avaiacion) أثناء طيرانها (وسقط فيها ٧٣ قتـيلاً)، وسنأتي على ذكر هذه الجريمة الشنعاء بالتفصيل:

وننقل من أرشيف وكالة الأنباء الفرنـسية فـي ٢٠٠٧/١٢/٥م: وتحـت عنوان (واشنطن تتغاضى عن أعمال "بن لادن" الكوبي).

انتقدت الكاتبة (روزا بروكس) في تعليق لها في (صحيفة لوس أنجلـوس تايمز) الطريقة الخرقاء التي تعاملت بها إدارة الرئيس الأميركي جوج بـوش مع (لويس بوسادا كارييس)، معتبرة أن تلك الطريقة توضح الكثير حول مـا يسميه بوش "الحرب على الإرهاب".

وأضافت بروكس أن الإرهابيين يفترض أن ينظر إليهم على أنهم أعـداء البشرية جمعاء، متسائلة عن السبب الذي جعل إدارة بوش تسمح لأحد أشـهر إرهابيي العالم بالتجول بحرية عبر الولايات المتحدة.

وذكرت أن بوسادا، الكوبي المولد كان يعتبر قبـل ٩/١١ أكثـر الإرهـابيين نجاحاً في مهماته في الجزء الغربي من الكرة الأرضية، إذ يعتقد أنـه العقـل المدبر لمؤامرة تفجير طائرة مدنية عام ١٩٧٦م بعلم من CIA) مما أدى إلى (مقتل ٧٣ شخصاً بينهم عدد من الفريق الكوبي للمبارزة بالسيوف).

وقد اعتقل بوسادا على خلفية هذه القضية، لكنه اسـتطاع الهـروب مـن السجن الفنزويلي الذي كان يقبع فيه، وأشارت إلى أنه اعترف بشن (سلـسلة الهجمات التي استهدفت فنادق ونوادي ليلية في العاصمة الكوبية هافانـا عـام ١٩٩٧م! كما أنه حاول مرات عدة (اغتيال الرئيس الكوبي فيديل كاسترو).

وحسب بروكس فإن(بوسادا) يعيش حالياً بصورة غير شرعية في الولايات المتحدة، وأكدت الكاتبة أن (بوسادا) تلقى تدريبه في (مدرسة الأميركيتين) التابعة لوكالة الاستخبارات الأميركية عام ١٩٦١م.

وقالت بروكس إن (بوسادا) دخل الولايات المتحدة عام ٢٠٠٥م، وطالبت منظمات حقوقية بمحاكمته، كما طالبت الحكومتان الكوبية والفنزويلية بتسليمه لهما، لكن الإدارة الأميركية ظلت تنفي وجوده في الولايات المتحدة إلى أن كشفت ذلك صحيفة ميامي هيرالد يوم ١٧ مايو/ أيار ٢٠٠٥م) عندها اعتقلته السلطات الأميركية، لكن (ليس بتهمة الإرهاب وإنما بتهمة خرق قوانين الهجرة).

وأكدت أن إدارة بوش حاولت منذ تلك اللحظة إسقاط التهم الموجهة إلى بوسادا، ونجحت في ذلك يوم الأربعاء ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٧م عندما قالت قاضية فيدرالية إنه "لم يعد أمامها من خيار" سوى إسقاط التهم عن (بوسادا) رغم كون قاض سابق قد حكم بتسليمه لفنزويلا، وتم رفض طلبه تحت ذريعة حماية بوسادا من التعرض للتعذيب المحتمل هناك.

ونددت الكاتبة بإطلاق سراح بوسادا، مشيرة إلى وجود أدلة لا تقبل الطعن في مشاركته أو تدبيره لعمليات إرهابية مما يستدعي اعتقاله حسب المادة ٤١٢ من قانون "باتريوت آكت" التي تقضي بالاعتقال الإلزامي للأجانب المتهمين بالإرهاب.

وأضافت أنه خلال اعترافه بتنفيذ الهجمات على (الفنادق) الكوبية وصف ما قام به بأنه عمل حربي يستهدف تركيع النظام الكوبي الاستبدادي عن طريق (حرمانه من السياحة الدولية والاستثمار الخارجي).

وأرجعت بروكس سبب رفض الإدارة الأميركية القيام بأي جهد حقيقي لملاحقة بوسادا قضائياً، إلى أن محاكمة هذا الرجل قد (تفضح) بعض جرائم

CIA وتسبب إزعاجاً للمهاجرين الكوبيين الذين تعتبرهم إدارة بـوش كتلـة انتخابية يجب إرضاؤها.

وختمت بالقول إن المقولة "العمل الإرهابي لشخص مـا قـد يعتبـر بالنـسبة لشخص آخر عملاً في سبيل التحرر"، تجاوزتها الأحداث بعد ٩/١١ لكن حتى وإن كان الجميع سيرفض الاعتراف بذلك فإن هذه الفكرة لاتزال ماثلـة فـي أذهان مسؤولي الإدارة الأميركية[1].

٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٦م

لعل ما حرّك المشاعر أكثر من غيره، وربما لأن العملية قد نفـذت فـي قلب واشنطن، هي الجريمة المشتركة لـ"كوندور" و"كـورو CORU" فـي (اغتيال) وزير الخارجية السابق في حكومة (أليندي) (أورلاندو لوتولييه) فـي ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٦م.

فمن بين الرجال الخمسة الذين تمّ توقيفهم لاحقاً، برز ثلاثة مـن قـدامى العاملين في "مشروع كوبا"، وقد بذلت الـ"سي.آي.أي" قصارى جهدها لكـي تعرقل التحقيق وتخفي الأدلة، وعندما سيصبح رئيساً (سيصدر بـوش نفـسه عفواً) عن المسؤولين الذين لم يمضوا في السجن سوى سنوات قليلـة، وفـي ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٠م، تمّ توقيف أحدهم (الـسيد غييرمـو نوفو سامبول) في باناما برفقة (بوسادا كاريليس) فيما كانا يحضران (لعمليـة تفجيرية)، ضد فيديل كاسترو الذي كان يقوم بزيارة لهذا البلد، وبعد أن حكـم عليهما في ٢٠ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٤م بالسجن ثماني سنوات ثم (حـصلوا

---

[1] وكالة الأنباء الفرنسية ـــ ٠٥-١٢-٢٠٠٧م ـــ واشنطن تتغاضى عن أعمال "بن لادن" الكوبي.

على عفوٍ خاص[١]، في ٢٥ آب/ أغسطس التالي من (رئيسة بانامـا ميريـا موسكوزو) (الصديقة الكبيرة للولايات المتحدة)١٩٧٦م.

في عام ١٩٧٦م أصدر الرئيس الأمريكي الأسبق (جيرالد فـورد) أمـراً رئاسياً يحظر على أجهزة المخابرات الأمريكية القيام بأي عمليات اغتيال بعد الكشف عن تورطها في مؤامرة لاغتيال الرئيس الكوبي السابق فيدل كاسـترو وغيره من السياسيين الأجانب!.

ليعود (جورج دبليو بوش) لينقض هذا القرار من جديد فهو مولع بالقتـل والاغتيالات والتفجيرات.

مخدرات مقابل أسلحة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٩م كتائب الموت

إيران ــ كونترا غيت

في هذه الأثناء كانت الحرب على نار خفيفة بين واشنطن ونيكاراغوا قـد جمعت معظم هؤلاء العملاء، وقد أشرف (جورج بوش) الـذي كـان نائبـاً للرئيس الأمريكي (رونالد ريغان) على هـذه العمليـات فيمـا أدار الـسيدان (غريغ) و(نورث) المسؤول السابق في فيتنام المؤامرة، وكان سفير الولايـات المتحدة في هندوراس (السيد نيغروبونتي) حيث كان يسمّي (الوالي) _الـدور نفسه في العراق بمساعدة بريمر (الحاكم المطلق للعراق) حسب تسمية بريمر لنفسه)، قد حوّل هذا البلد إلى قاعدة عسكرية خلفية للعـدوان؛ فيمـا قامـت

---

[١] نفس التسميات والمصطلحات التي استخدمت في العراق (فرق الموت) (الميليشيات) (الفرق الخاصـة) ونفس الأساليب والطرق التي استخدمت في الهندوراس وفي نيكارغوا القتل الاختطاف (لقمع المعارضـة) تموين مناهضي الثوريين النيكاراغويين (نفس الأساليب التي استخدمت ضد المقاومـة فـي العـراق ـــ نيغروبونتي الصحوة) ونفسه (نيغروبونتي) كإن حاضراً في العراق كان هناك أيضاً في الهندوراس، لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/يناير ــ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية

(كتائب الموت[١]) في الجيش الهندوراسي، الكتيبة ٣-١٦ (بقمع المعارضة)، وإذ انتقل السيد رودريغيز منديغوتيا من بوليفيا إلى حقول الأرز الآسيوية ثم إلى السلفادور، فقد راح يموّن مناهضي الثوريين النيكاراغويين (الكونترا contra)، بمساعدة السيد بوسادا كاريليس (والسيد باسولتو في الأراضي النيكاراغوية[٢]).

ولتمكينه من القيام بهذه المهمة، نظّمت ال"سي.آي.أي" والأوساط المعادية لكاسترو في ميامي (في آب/ أغسطس عام ١٩٨٥م) عملية فرار السيد بوسادا كاريليس من السجن الفنزويلي حيث كان قد اعتقل بعد الاعتداء على طائرة شركة "كوبانا دي أفياسوين"، (راجع فصل (كوندور) ـ (كورو) من هذا البحث).

وبما أن الكونغرس الأميركي قد حظّر أي دعم مالي لميليشيات "الكونترا" الكونغرس يحضر والمخابرات تساعد) فقد راح نائب الرئيس (بوش) يجمع الأموال من حيثما كان وبكل الوسائل، وقد أفضت عملية بيع السلاح غير المشروعة إلى إيران، بواسطة إسرائيل إلى ما عرف بفضيحة "إيران-كونترا غيت" Iran Contragate، وعندما أصبح السيد بوش رئيساً للجمهورية

---

[١] فرق الموت، مصطلح استخدم في العديد من مناطق النزاعات في العالم و كان آخرها العراق، وكان يشير إلى المنظمات السرية في المناطق الساخنة من التي تخلق حالة ما يسمى بـ(الفوضى الخلاقة) وهي عبارة عن سلسلة لا تنتهي من أعمال القتل العشوائي والتفجير والتخريب والسرقات تمارسه هذه الفرق الخاصة في بلدان النزاعات تلك.

[٢] نفس التسميات والمصطلحات التي استخدمت في العراق (فرق الموت) (المليشيات) (الفرق الخاصة) ونفس الأساليب والطرق التي استخدمت في الهندوراس وفي نيكارغوا (القتل الاختطاف (بقمع المعارضة) تموّين مناهضي الثوريين النيكاراغويين (نفس الأساليب التي استخدمت ضد المقاومة في العراق ـــ نيغروبونتي الصحوة) ونفسه (نيغرويونتي) كان حاضراً في العراق كان هناك أيضاً في الهندوراس، لوموند دبلوماتيك النشرة العربية ـ كانون الثاني/ يناير ـ٢٠٠٩م// الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية.

برهنت لجنة مجلس الشيوخ برئاسة السيد جون كيري عن وجود تحالف بين الـ"سي.آي.أي" والمافيا الكولومبية، وفي كوستاريكا في تموز/ يوليو عام ١٩٨٩م، سوف يوجه الاتهام رسمياً إلى السيدين نورث وسيكورد، مع آخرين من دوائر الحكم الأميركي؛ لكونهم مسؤولين عن شبكة تعمل بمبدأ "المخدرات مقابل السلاح"، تمّ تنظيمها في هذا البلد أثناء الحرب ضد الساندينيين(١).

ولقد اعتمدت المخابرات الأمريكية على هذا الوسيلةِ الدنيئة واستخدمت هذا الأسلوب (المخدرات مقابل السلاح) في الكثير من بقاع العالم الثالث المتصارع فنجد ذلك في (بنما والمكسيك وأفغانستان وكولمبيا والهندوراس) وهذا يجعلنا لا نستبعد استخدام وسائل دنيئة في بقاع أخرى قد لا تكون فيها تجارة المخدرات رائجة بشكل يكفي لتمويل الإرهاب لذا يمكن أن تلجأ إلى سرقة البنوك والأموال العامة والخاصة فضلاً عن تجارة المخدرات (كما حدث في العراق.

فرق الموت

كتائب أتلاكاتل أو "(فرق الموت(٢)) هم عناصر من قوات الجيش السلفادوري والتي تم تشكيلها وتدريبها تحت إشراف (العقيد الأمريكي جون ديفيد فاغلشتاين حيث تولت مهمة تدريبها قوات (القبعات الخضراء)".

---

(١) http://www.mondiploar.com/article2408.html?PHPSESSID=e710 لوموند دبلوماتيك.

(٢) نفس التسميات والمصطلحات التي استخدمت في العراق (فرق الموت) (المليشيات) (الفرق الخاصة) ونفس الأساليب والطرق التي استخدمت في الهندوراس وفي نيكارغوا (القتل الاختطاف (بقمع المعارضة) تموّين مناهضي الثوريين النيكاراغويين (نفس الأساليب التي استخدمت ضد المقاومة في العراق ـــ نيغروبونتي الصحوة) ونفسه (نيغروبونتي) كان حاضراً في العراق كان هناك أيضاً في الهندوراس.

كانت مهمة هذه الفرق القضاء على التواجد الشيوعي و(مساندة الحكومة السلفادورية المعينة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في بسط سيطرتها على السلفادور)، وقد ارتكبت (فرق الموت) العديد من (المجازر والانتهاكات لحقوق الإنسان) خلال فترة (الحرب الأهلية في السلفادور و التي امتدت لأواخر عام ١٩٩١م وذلك (بدراية من الولايات المتحدة الأمريكية وبموافقتها) [وكيبيدا].

وسنستعرض قسما من تلك الجرائم الإرهابية الوحشية التي ارتكبتها (فرق الموت) كما اصطلح عليها السلفادوريين (ترجمة لكتائب أتلاكاتل) والإعلام العالمي في حينه تاركاً للقارئ أن يقارن بينها وبين (فرق الموت في العراق) كما سماها العراقيون في العراق أو كما سماها الإعلام هناك وبين ما حدث في السلفادور قبل أكثر من ربع قرن من الزمان والجريمة هي هي لم تتغير الذي تغير هو المكان والزمان فقط، والمخطط والجاني الحقيقي واحد وهذا ما سنتوصل إليه بعد استعراض جرائم (فرق الموت) السلفادورية!.

١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١م

السلفادور ــ (مذبحة الموزوت)

[مقتبسة بشكل رئيسي من موسوعة ويكيبيدا والمركز الدولي للعدالة]

في العاشر من ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٨١م اشتبكت وحدات من (كتيبة أتلاكاتل) السلفادورية الحكومية المدربة من قبل جيش الولايات المتحدة الأمريكية) وهي إحدى الكتائب (فرق الموت) مع مجموعة من المتمردين بالقرب من قرية الموزوت، وكانت هذه الاشتباكات من ضمن عملية كانت تقوم بها قوات الجيش السلفادوري، سمتها (عملية الإنقاذ) هدفها الإطاحة بالمتمردين وتدمير مخيماتهم.

وبعد الاشتباكات توجهت (وحدات الأتلاكاتل ٩) إلى قرية موزوت، وهي قرية صغيرة ذات طبيعية ريفية توجد في القرية ساحة يحيطها ٢٥ منزلاً وفيها مدرسة صغيرة وكنيسة كاثوليكية ومبنى ملحق بالكنيسة كان يعرف بالدير مخصص للكهنة ورجال الدين، وعند وصول الوحدات للقرية طلبوا من السكان والفلاحين الذين التجأوا للقرية، التجمع في الساحة ليسألوهم فيما إذا كانوا يملكون أية معلومات عن المتمردين، ومن ثم سمحوا لهم بالذهاب لمتابعة نشاطاتهم وحذروهم من الهرب، وبقيت الوحدات في القرية.

اليوم التالي ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١م

في صباح اليوم التالي، قام الجنود بتجميع السكان والفلاحين الملتجئين للقرية في الساحة مرة أخرى، في البدء قاموا بفصل الرجال عن النساء والأطفال، ومن ثم قسموهم إلى مجموعات أصغر واقتادوهم إلى الكنيسة والدير وبعض البيوت، وبدؤوا (باستجواب الأفراد وتعذيبهم) وفي الظهيرة قاموا بفصل النساء والفتيات الصغار عن الأطفال، حيث قاموا باغتصابهن وقتلهن فيما بعد، بتهمة أنهن (متعاطفات مع المتمردين)، وأخيراً أقدم الجنود على (قتل بقية الأطفال) وبعد أن تمّ لهم قتل سكان القرية بكاملها (ما يقارب الـ ٩٠٠ من الفلاحين المدنيين) أضرموا النار في مباني القرية) وبقوا لليلة أخرى في المكان، في أسوأ (الأعمال الوحشية ضد المدنيين) في تاريخ أمريكا اللاتينية الحديث، كما أنها نقطة سوداء في تاريخ (الحرب الأهلية السلفادورية) والتي سببت الدمار للسلفادور، ما بين أواخر السبعينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين.

و بالرغم من انتشار أخبار هذه الحادثة ووصولها إلى إدارة رونالد ريغان في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الإدارة أهملتها تماماً واعتبرتها نوعاً

من البروباغاندا الشيوعية وذلك لأن هذه المذبحة كان يمكن لها أن تضع (الإدارة الأمريكية الجديدة في مأزق حرج نتيجة لقيام الحكومة السلفادورية والتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدعمها دعماً عسكرياً كبيراً، بانتهاك سافر لحقوق الإنسان من خلالها)، وتبعتها مجازر أخرى في القرى المجاورة لها في (مقاطعة مورازان).

القرى المجاورة

قامت (كتيبة أتلاكاتل) بالكثير من الأعمال المشابهة لما حصل في (قرية الموزوت) وذلك في القرى المجاورة لها وكانت أعمالهم الوحشية تزداد وحشية مع كل قرية كانوا يدخلونها:

_ قرية أرامبالا بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٨١م في هذه القرية اكتفى الجنود باعتقال الرجال واقتيادهم خارج القرية ليتم فيما بعد (العثور على بعض من الرجال قتلى في الجوار).

_ قرية كومارول بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٨١م في هذه القرية قاموا بتجميع السكان في الساحة واستجوابهم إلا أنهم لم يقتلوا أحداً منهم.

_ قرية لا خويا بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٨١م (فعلوا كما فعلوا في موزوت)

_ قرية لوس توريليس بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٨١م (فعلوا كما فعلوا في موزوت).

_ قرية خوكوتي أماريبو وقرية ثيرو باندو بتاريخ ١٣ دينسمبر ١٩٨١م فعلوا كما فعلوا في موزوت).

واستمرت الحروب الأهلية في السلفادور لغاية ١٩٩٩م فماذا يمكن للإنسان أن ينتظر عندما توسد الأمور إلى قادة عسكريين قتلة يفاخرون بأنهم يقودون (فرق الموت)!.

في عام ١٩٨٩م دخلت مجموعة من الجيش السلفادوري تسمى "الجامعة الأمريكية المركزية" (Universidad Centroamericana) ... الستة ... من القساوسة ومديرة منزلهم وابنتها، وتبين (حسب تقرير لجنة ... التابعة للأمم المتحدة) أن ١٩ من العساكر الـ ٢٦ المتورطين في ... كانوا من خريجي مدرسة الأمريكيتين!، ومنذ ذلك الحين يقوم الناشطون المطالبون بإغلاق المدرسة بالتظاهر سنويا بهذه المناسبة ... الأنظار إلى (معهد تفريخ الإرهاب) هذا (مدرسة الأمريكيتين).

ومازالت لجان ومنظمات حقوق الإنسان تسعى لإدانة المسؤولين السياسيين الأمريكيين المتورطين بجرائم الحرب السلفادورية ومذبحة الموزوت.

فقد قررت محكمة الاستئناف الدورية الحادية عشرة في ولاية أتلانتا (٣ مارس/ اذار ٢٠٠٥م نقض حكم صادر من محكمة ذات درجة أقل يقضي بإدانة (خوزيه غويلرمو غارسيا) و(كارلوس يوجينو فيدس كاسانوفا) ... من الناحية المدنية بمقتضى قانون ١٩٩١م الخاص بحماية ضحايا التعذيب، وذلك في دعوى مدنية كان قد رفعها شخص يعمل في كنيسة، وطبيب وأستاذ جامعي، وكان هؤلاء قد هربوا إلى الولايات المتحدة بعد أن تعرضوا لانتهاكات حقوق الإنسان على أيدي جنود من السلفادور، وكان القرار ... قضى بمنح ٥٤ مليون دولاراً أمريكيا للضحايا، غير أن محكمة الاستئناف الفيدرالية قررت بأن أولئك الضحايا لم يلتزموا بالمدة القانونية الخاصة برفع الدعاوى وهي عشر سنوات، وقد صمم رافعوا الدعوى على استئناف هذا القرار.

وعلى صعيد آخر قررت منظمة الدول الأمريكية إعادة فتح تحقيـــق فـــي مذبحة (الموزوت) على أساس دليل شرعي عثر عليه علماء الانثروبولوجيـــا في المكان الذي وقعت فيه المذبحة(١).

ونقلاً عن مجلة النيويورك تايمز في ٢٠٠٥/٣/٨م ففي تاريخ ٧ مـــارس/ آذار ٢٠٠٥م أفادت المجلة بأن منظمة الدول الأمريكية ســوف تعيــد فــتح التحقيق هذا الأسبوع في المذبحة التي راح ضحيتها المئات من الفلاحين فـــي عام ١٩٨١م في (موزوت) بناء على أدلة الطب الشرعي الجديدة التي عثــر عليها علماء الأنثروبولوجيا في الموقع، ووفقاً لمحامين يشاركون في القــضية التي قتل فيها أكثر من ٨٠٠ من الفلاحين العزل في ديـــسمبر كـــانون الأول ١٩٨١م من قبل جنود من القوات المسلحة السلفادورية في موســـوت، وهـــي قرية في جبال المنطقة موراسان، بالقرب من حدود البلاد الجنوبية، والتي قام بها جنود من كتيبة مدربة ومجهزة من قبل الولايات المتحدة، واتهم الفلاحـــين بتعاطفهم مع المتمردين، والمنظمة (منظمة الـــدول الأمريكيـــة ـــ O.A.S) تدرس ما إذا كانت الجريمة قد تمت بموافقة الحكومة السلفادورية(٢).

١١ سبتمبر ٢٠٠١م

في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م اعتبر (الرئيس بوش) أن الحظر الـــذي أصـــدره الرئيس الأمريكي الأسبق (جيرالد فورد) عام ١٩٧٦م الـــذي يحظـــر علـــى أجهزة المخابرات الأمريكية القيام بأي عمليات اغتيال لا يشمل عناصر تنظيم

---

(١) (المركز الدولي للعدالة) http://www.ictj.net/arabic/nl03-15-05.html

(٢) مجلة النيويورك تايمز في ٢٠٠٥/٣/٨م http://www.nytimes.com/2005/03/08/international/americas/08salvador.html?_r=1&pagewanted=all

القاعدة والإسلاميين المتطرفين على أساس أن اغتيال مثل هـذه العناصـر لا يختلف عن قتل جنود الأعداء في ساحات المعارك.

وأشار أعضاء ديمقراطيون في الكونغرس إلى أن برنـامج الاغتيـالات بمساعدة عناصر بلاك ووتر كان واحداً من برامج مخابراتية عديـدة أخفتهـا إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش عن الكونجرس(١).

٢٠٠٤م

وكالة المخابرات المركزية الأمريكيـة (سـي آى أي) اسـتأجرت عـام ٢٠٠٤م متعاقدين (مرتزقة) من شركة الأمن الخاصة بلاك ووتر للعمل ضمن برنامج يهدف إلى رصد وتصفية عناصر تابعة لتنظيم القاعدة.

وكانت أجهزة المخابرات الأمريكية قد لجـأت خـلال الـسنوات القليلـة الماضية إلى عناصر من خارجها لتنفيذ بعض المهام المثيرة للجدل بمـا فـي ذلك استجواب السجناء، وقال المسؤولون إن وكالة المخابرات المركزيـة لـم توقع عقوداً رسمية مع بلاك ووتر لهذه المهمة لكنها وقعت اتفاقات فردية مع كبار مسؤولي الشركة بما في ذلك مؤسسها إريك برنس.

إن فكرة استعانة المخابرات المركزية بعناصر من خارجها أو ما يمكـن اعتبارهم مرتزقة لتنفيذ عمليات اعتقال وقتل أثارت قلق المدير الجديد للوكالة بعد ذلك ليون بانيتا الذي دعا إلى اجتماع طـارئ لكـي يبلـغ الكـونجرس بالبرنامج الذي احتفظت بتفاصيله السرية.

وتحدث العديد من المسؤولين الحاليين والسابقين في الإدارة الأمريكيـة، بشرط عدم الكشف عن هويتهم، عن البرنامج السري في حين رفـض بـول

---

(١) مـارك مـازيتي ـ نيويـورك تـايمز// صـحيفة الـشروق الجمعـة ٢١ اغـسطس ـ آب http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?id=96242

جيمجليانو المتحدث باسم وكالة المخابرات المركزية تقديم أي تفاصيل عن البرنامج الملغى ولكنه قال إن قرار بانيتا، بشأن (برنامج الاغتيالات كان «واضحاً ومستقيماً[١]»).

وأبلغ نائب الرئيس الأمريكي السابق ديك تشيني مسؤولي وكالة المخابرات بأنهم غير مضطرين لإبلاغ الكونجرس بالبرنامج لأن الوكالة لديها بالفعل تفويض بقتل عناصر القاعدة.

ونعود لنذكر بشهادة الشاهد الثاني في جريمة ساحة النسور التي ارتكبها مرتزقة بلاك ووتر حينما قال: إن (برنس) ينظر إلى نفسه (كمقاتل صليبي مسيحي موكلة إليه "مهمة إبادة المسلمين ومحو العقيدة الإسلامية من على وجه الأرض") ولذا تعمد إرسال رجال إلى العراق يشاركونه هذه الرؤية ويؤمنون بالتفوق المسيحي، كما أن برنس كان يعلم هذا وتعمد أن (ينتهز هؤلاء الرجال كل الفرص الممكنة لقتل العراقيين) والعديد منهم كانوا (يستخدمون أسماء وألقاباً متخذة من أسماء فرسان مالطة الصليبيين)، ونعود لنذكركم بالتاريخ الذي بدأنا منه البحث عن الجذور التاريخية للإرهاب: عام ١٠٧٠م بداية ظهور (فرسان مالطة).

٢٨/ يونيو ـ حزيران ٢٠٠٩م

صفحة جديدة!

في ٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م أطيح برئيس هندوراس مانويل زيلايا بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية! وفي ظل الإدارة الأمريكية الجديدة! وفيما كان الرئيس (أوباما) يصرّح أن "الرئيس الوحيد للهندوراس هو مانويل

---

(١) مارك مازيتي ـ نيويورك تايمز// صحيفة الشروق الجمعة ٢١ اغسطس ـ آب http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?id=96242

زيلايا"، كانت وزيرة خارجيته هيلاري كلينتون من جهتها تعطي جرعة أوكسجين للانقلابيين (golpistas) مقترحة وساطة الرئيس الكوستاريكي أوسكار آرياس، واضعة بذلك منظمة الدول الأميركية وحكوماتها اليسارية خارج اللعبة، وفي واشنطن تمارس ضغوطاً شديدة ضد السيد زيلايا (الرئيس المخلوع)!.

وكان السيد (هوغو للورنس) سفير الولايات المتحدة في الهندوراس منذ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٨م، والذي كان في العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣م مديرا لشؤون بلاد الأنديز (المعنية بفنزويلا عند محاولة الانقلاب العسكري فيها) في مجلس الأمن القومي الأمريكي، وكان في الأيام التي سبقت ٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م قد شارك بحسب صحيفة "نيويورك تايمز" (الصادرة في ٣٠ حزيران/ يونيو) في الكثير من الاجتماعات مع "المسؤولين العسكريين (الإنقلابيين) هناك ومع زعماء المعارضة"!.

فهل كل هذا لعبة مزدوجة من واشنطن؟ وهل هناك خلافات بين البيت الأبيض والفريق الثنائي المتمثل بوزارة الخارجية والبنتاغون؟ أم إنها صفحة من الإرهاب السري جديدة يفتحها العهد الجديد والإدارة الجديدة التي لا تمتلك أي تبرير لإسقاط أنظمة ديمقراطية مستقرة ويكفي أن نعرف أنه وخلال فترة شهرين من عمر الإنقلابيين حصل في (الهندوراس) خمسة عشر اغتيالاً سياسياً وأكثر من مائة مفقود! ويكفي أن نعرف أن اعتراضات حدثت بين إدارة (الرئيس المخلوع زيلايا) وبين إدارة شركة (شيكيتا) وهو الاسم الجديد لشركة يونايتد براندز التي كانت السبب بالإطاحة بالرئيس الهندوراسي الجنرال لوبيز اريلانو في ١٩٧٥م وهي الاسم الجديد لشركة يونايتد فروت

الأمريكية سيئة الصيت التي أسقطت حكم أربـــاز فـــي غواتيمـــالا فـــي ١٨ حزيران/ يوليو ١٩٥٤م[١].

الخاتمة

إذا كنا قد تحدثنا وطوال هذا البحث عن جذور الإرهاب الوحشي فقد كنـــا نتحدث عن مؤسسات ومدارس وهيئات رسمية وغير رسمية ولكنا لم نوســـع دائرة الاتهام وبقينا ضمن حدود النصوص المنقولة من المـــصادر الموثوقـــة والمعتبرة (على الأقل من المنظور الأمريكي) ولم نتهم أمريكا بمجملها نظاماً وشعباً كما اتهمها الكاتبان: (جون بيلامي فوستر وروبرت دبليو ماكشنـــسي) في مؤلفهما الشهير: (الفيروس الأميركي.. فضح الإمبراطورية الأميركيـــة). عندما يقولان: (إن الإمبراطورية الأميركية الراهنة هي كـــالفيروس المنتـــشر في العالم، وليس لها علاقة بإحلال السلم العالمي) ويذهب المحرران بعيداً في التاريخ ليقولا: (إن جذور الإمبريالية الأميركية تعود إلى هزيمـــة المـــسلمين على يد الأسبان في القرن الخامس عشر، واكتشاف "العالم الجديد" مـــن قبـــل كولومبس الذي اتبعه حرب الإبادة ضد الهنود الحمر[٢]).

وفي ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢م كتب (الصحفي ماثيو أنجيل) في صحيفة (الغارديان) البريطانية يقول: (في بلاد يزيد عدد الذين يرتـــادون الكنائس فيها عن عشرين ضعفاً عمّا هو في بريطانيا (٤٠% مقابل ٢%) نجد أن العلاقة بين المعتقد الديني والسياسة قوية جداً).

---

(١) لوموند ديبلوماتيك سبتمبر ــ أيلول ٢٠٠٩م العدد (٦٦٦)

(٢) الفيروس الأميركي.. فضح الإمبراطورية الأميركية // جون بيلامي فوستر وروبرت دبليو ماكشنسي // عرض/ كامبردج بوك ريفيوز // الجزيرة ــ المعرفة // ٢٠٠٥/٢/٨

ونقلاً عن: د. محمد مخلوف وهو يناقش كتاب (العالم السري لجورج بوش) ما نصه: (وعلى أساس تأويلات دينية يؤيد عدد من الأشخاص النافذين في الإدارة الأميركية الحالية من أمثال (جـون أشـكروفت) و(تـوم دو لاي) الأصوليين المسيحيين سياسة متحيزة دون تحفظ لإسرائيل) (وليست قوى اليمين المتطرف المسيحي هي وجدها الفاعلة في إدارة بوش، إذ يوجد بعض العناصر في الفريق الرئاسي ممن يعدون الأكثر تشدداً خاصة في دعمهم لعملية (حرية العراق)، يدافعون عن أطروحات شبيهة تماماً بأطروحات نظرائهم الأصوليين).

ومن المعروف أن (مركز السياسة الأمنية) من المراكز المهمة في صناعة السياسة الأمنية الأمريكية والذي كان يرأسه (دوغلاس فيث) والذي أصبح فيما بعد نائب وزير الدفاع الأميركي يلخص هذا المركز السياسة الأمريكية بـ (تشجيع السلام بواسطة القوة[1])!.

وقد لا نستغرب وجود مثل هذه الأفكار الدموية الشاذة والمتخلفة والهمجية على أعتاب القرن الواحد والعشرين كما أن ليس من المستغرب بقاء مثل هذه الأفكار المتخلفة إلى هذا اليوم، ولكن المستغرب والمستهجن أن يتمكن مثل هذا الفكر ومثل هذه العقلية الجاهلة المتخلفة الوحشية من التأثير على مراكز إتخاذ القرار وتتمكن من أن تؤثر على مجريات الأحداث وأن يكون لها دور في سياسة القرن الواحد والعشرين!.

وأخيراً بداية جديدة

---

[1] العالم السري لجورج بوش هكذا انزلقت الرئاسة الأميركية جنوباً ـ علامات استفهام تطرحها الصلات الليكودية، عرض ومناقشة: د. محمد مخلوف
http://www.alitijahalakhar.com/archive/130/out_of_theway130.htm

ويبقى البحث مستمراً في جذور الإرهاب الذي زرعته الإدارات وبعض الأجهزة الأمريكية في العالم ولو شاء الله لاستكملنا البحث في بعض أفرعه الظاهرة في العراق وأفغانستان والجزائر والسودان.

وإذا تكلمنا عن الوقائع والأحداث التاريخية والمعاصرة والأجهزة والمؤسسات المتعلقة بالإرهاب فلابد لنا أيضاً من تسليط الضوء على بعض قادة الإرهاب المعاصرين من أمثال (جورج بوش الأب وجورج بوش الابن ورامسفيلد و ديك تشيني ونيغروبونتي وبريمر وإريك برنس...).

ولابد من تسليط قليلاً من الضوء على مفهوم (تدويل التعذيب) (وهو مصطلح دبلوماسي لمفهوم (تدويل الإرهاب) من خلال الوثائق التي أرادت المملكة البريطانية طويها كي تحافظ على هيبة المملكة التي (كانت) لا تغرب عنها الشمس.

لابد أيضاً من كشف (بعض) الجهات الأوربية التي ساهمت في سحق الإنسانية وتدمير حرية الإنسان وذلك ما سنفعله بتوفيق من الله إن كان في العمر بقية وإن فتح الله علينا.،، فالأمر كبير جداً ويحتاج إلى تضافر جهود كبيرة لمعرفة حجم الجريمة ومقدار بشاعتها وانحرافها عن كل المعايير الإنسانية والدينية والقانونية.

نتائج البحث

بسبب رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في السيادة على العالم خصوصاً بعد أن قادت الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وانتصارها العسكري الكبير على الأسطورة الألمانية وتدمير اليابان وبدء مرحلة شيخوخة بريطانيا العظمى والحرب الباردة على سيادة العالم مع الاتحاد السوفيتي كل ذلك دفع بالولايات المتحدة الأمريكية ومنذ عام ١٩٤٥م، إلى أن تنهج سياسة جديدة

فأطلقت للكثير من أجهزتها العنان بدون ضـــابط ولا رادع وتحايلــت علـــى الدستور والقوانين الأمريكية فــضلاً عـــن الأعــراف والقــوانيين الدوليــة واستطاعت بعض المنظمات الدينية (اليهودية والمسيحية) المتعصبة واليمينيــة المتطرفة النفوذ إلى عقل الإدارة الأمريكية في فترات كثيرة من تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر لتسوغ للجريمة وتبررها وتلبسها لبــوس دينيــة وعرقيــة متعصبة وتمتد بالتاريخ إلى الأعماق الجاهلة لتنتــزع رموزهـــا وشخوصـــها ومثلها منه.

وما جرائمها في العراق إلا امتداد لتلك العقلية ولتلك العقائــد الباليـــة ولـــذلك التاريخ المخيف والدامي!، ومن خلال بحثنا المتقـــدم فـــي مراجعـــة تـــاريخ الإرهاب الحديث وأصوله الفكرية نسجل الملاحظات الآتية:

- ❖ إن جذور الإرهاب الحالي في العالم (أمريكية) بامتياز سواء ما قامت به (وكالة المخابرات الأمريكية) أو (البنتاغون) بشكل مباشر أو غير مباشر معلناً أو سرياً عن قرب أو من بعد أو ما قامت به أجهزة أو حكومات أو عصابات أو ميليشيات غير أمريكية تــرتبط أو (لا تـــرتبط بـــالأجهزة) الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية بشكل معلن أو رسمي، وإن الكثيـــر من تلك الجرائم الوضيعة حدثت بعلم أو برعاية أو بتحريض أو دعم أو تغطية أو تستر من إدارة الولايات المتحدة الأمريكية في تلك البلدان.
- ❖ إن الغالبية العظمى من تلك الجرائم حدثت بشكل سري وما أعلن عنه أو تمّ كشفه يتم فوراً استنكاره ورفضه والتخلي عنه وعن القائمين به مـــن قبل الإدارة الأمريكية، كما إن قسما كبيرا منـــه يحـــدث تجـــاوزاً علـــى الدستور الأمريكي والقوانين والأعراف الأمريكية وقسم كبير مـــن تلـــك الجرائم تحدث من دون علم الكونغرس الأمريكي بها أو بالتحايل عليـــه

وعلى القوانين والأعراف الأمريكية فضلاً عن الأعراف والقوانين الدولية والتشريعات السماوية.

- ❖ إن تلك الإدارات الموغلة في الجريمة لها فضل السبق في إدخال التكنولوجيا المتطورة في تنفيذ تلك الجرائم والتستر عليها وإخفاء الأدلة، كما أن لها السبق في المبالغة في الوحشية وقتل الأبرياء تحت ذرائع ومبررات غير إنسانية ومنها (إسقاط الطائرات المدنية وتفخيخ السيارات والتفجير عن بعد والتفجير بواسطة الصواريخ الذكية والتفجيرات وسط السكان العزل واستخدام القتلة المتوحشين وهدم دور العبادة والمدارس على اللاجئين فيها والتهجير العرقي والطائفي الوحشي والإبادة الجماعية واستخدام السموم والمواد الكيمائية الفتاكة...إلخ.
- ❖ إن الفضل في إنشاء (فرق الموت) يعود إلى (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) (فرق الموت، مصطلح استخدم في العديد من مناطق النزاعات في العالم وكان آخرها العراق، وكان يشير إلى المنظمات السرية في المناطق الساخنة التي تخلق حالة ما يسمى بـ (الفوضى الخلاقة) وهي عبارة عن سلسلة لا تنتهي من أعمال القتل العشوائي والتفجير والتخريب والسرقات تمارسه هذه الفرق الخاصة في بلدان النزاعات تلك.
- ❖ إن الولايات المتحدة الأمريكية هي أول من أنشأ مدرسة خاصة لتعليم الإرهاب (مدرسة الأمريكيتين) ولازالت هذه المدرسة قائمة لحد الآن تحت مسميات مختلفة.
- ❖ الإدارة الأمريكية (الجمهورية) في (الحقبة البوشية) هي أول من شرعت الإرهاب واعتمدته بشكل علني في تنفيذ سياستها كأداة من أهم أدواتها

السياسية عبر (دبلوماسية القوة) و(فرض الديمقراطية) و(الصدمة والرعب) و(الفوضى الخلاقة)... إلخ.

❖ اعتمدت السياسة الأمريكية في الكثير من الأحيان على إثارة النزاعات الإقليمية بين الدول والنزاعات والفتن العرقية والطائفية والحزبية بين أفراد الشعب الواحد وتغليب جهة أو عنصر أو طائفة أو فئة أو عرق على آخر واستخدمت الشعب في ضرب الشعب ومارست سياسة فرق تسد البريطانية بشكل متعسف لتمزيق الكيانات الوطنية.

❖ استغلت الإدارات الأمريكية في كل مناطق الصراع سواء في (أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا (جهل وتخلف وبؤس) شعوب تلك المناطق البائسة من العالم وتطلعهم إلى التغيير والحضارة مما جعلهم يسلمون قيادهم لتلك الإدارات وسهّل لهم السيطرة على تلك الأمم والشعوب ولكن ما أن تستفيق تلك الشعوب من ذلك الوهم الخادع حتى تبدأ رحلة التحرر وعودة الوعي.

❖ في الوقت الذي تدعي فيه الإدارة الأمريكية دعمها للأنظمة المنتخبة والديمقراطية؛ فإنها في نفس الوقت أسقطت بعض الأنظمة الوطنية المنتخبة ودعمت بعض الدكتاتوريات وأسقطت ديمقراطيات.

❖ عندما تفشل الإدارة السياسة الأمريكية في أي مكان في العالم في فرض أجندتها بالطرق السلمية (الناعمة)؛ فإنها سرعان ما تلجأ إلى السياسة (الصلبة) وابتدعت (هيلاري كلنتون) أخيراً نوعاً جديداً من (السياسة الذكية) وهي استخدام القوة بشكل محدود وصاعق بغلاف من السياسة الناعمة وعلى رأس سياساتها الخفية تلك سياسة المؤامرات والاغتيالات والتصفيات السياسية وصولاً إلى المجازر الوحشية التي حدثت في التاريخ المعاصر.

❖ للولايات المتحدة الأميركية سجل طويل وحافل في التدخل المباشر أو غير المباشر.. وكما يأتي: الصين ١٩٤٥م، اليونان ١٩٤٧م إلى ١٩٤٩م، كوريا ١٩٥٠م إلى ١٩٥٣م، إيران ١٩٥٣م، غواتيمالا ١٩٥٤م، لبنان ١٩٥٨م، الكونغو ١٩٦٠م إلى ١٩٦٤م، كوبا ١٩٦١م، إندونيسيا ١٩٦٥م، جمهورية الدومينيكان ١٩٦٦م، تشيلي ١٩٧٣م، لبنان ١٩٨٢م إلى ١٩٨٤م، أنغولا ١٩٧٦م إلى ١٩٩٢م، غرينادا ١٩٨٣م و١٩٨٤م، أفغانستان ١٩٧٩م إلى ١٩٨٩م، السلفادور ١٩٨١م إلى ١٩٩٢م، نيكاراغوا ١٩٨١م إلى ١٩٩٠م، بنما ١٩٨٩م و١٩٩٠م، العراق ١٩٩١م، الصومال ١٩٩٢م إلى ١٩٩٤م، هاييتي ١٩٩٤م، البوسنة ١٩٩٥م، يوغسلافيا ١٩٩٩م، أفغانستان (٢٠٠١م ــ ؟) والعراق (٢٠٠٣م ــ ؟).

❖ الحقيقة التي لا شك فيها أن الاحتلال مرافق للجريمة ولانتهاك حقوق الإنسان وهو ذاهب ماحق لا محالة، ولابد من أن يأتي يوم وتسفر الحقيقة المخنوقة عن كل ما ارتكب في هذه الأرض من جرائم وعندها سيكون السؤال صعباً لماذا؟، وسيسقط السفاحون ويفتضح المجرمون وينكشف الزيف وإما ما ينفع الناس ويحافظ على كرامتهم وحريتهم فهو ما كث في الأرض لأنه أصالة وحضارة وما دونه تخلف وزبد.[1]

المراجع:

- موسوعة وكيبيدا

---

[1]. يسرني أن أستقبل من أساتذتنا وزملائنا والقراء الكرام ما يخدم تكملة هذا البحث على العنوان (usa_u47@yahoo.com).

•هل تخفي زبدة الفول السوداني الوحشية الأميركية؟، بقلم الكاتبة الهندية: أورانداتي روي عن صحيفة الجارديان اللندنية. ترجمة حصة منيف.

• عودة أيلول، بقلم الكاتبة الهندية أرونداتي روي. ت: حصة منيف.

• الفريق الصدامي في وكالة المخابرات المركزية الأميركية ـ أكثر من خمسين عاماً من "الضربات الملتوية"، هيرناندو كالفو أوسبينا، المركز الدولي للعدالة.

• الفيروس الأميركي.. فضح الإمبراطورية الأميركية، جون بيلامي فوستر وروبرت دبليو ماكشنسي.

• العالم السري لجورج بوش.. هكذا انزلقت الرئاسة الأميركية جنوباً .. علامات استفهام تطرحها الصلات الليكودية، عرض ومناقشة: د. محمد مخلوف.

• ريتشارد هيلمز كبير الجواسيس الأميركيين ـ المركز العربي للدراسات المستقبلية

• عودة الفاشية/ توماس شيهان/ صادر عن جامعة نبراسكا للإعلام ١٩٩٨ .

• شبكة الصحافة غير المنحازة.

• الولايات المتحدة الأمريكية...الدولة المارقة!، وليام بلوم.

• فرصة ثانية.. ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية، زبغنيو برجينسكي.

• رواية "باولا "، إيزابيل الليندي، ١٩٩٤م.

• عولمة التعذيب، محمد الحوراني، مركز الراية للتنمية الفكرية جدة ٢٠٠٧م.

- تقرير واشنطن// العلاقة بين الدولة والدين في أمريكا – ريا ميارسكوف // الدين كمبرر للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ــ عادل الدقاق // تــأثير المسيحية الصهيونية في السياسة الأمريكية ــ زياد أبو الريش // الاغتيــالات السياسية في التاريخ الأمريكي// غونزاليس: آخر فضائح إدارة بوش التـــي لا تتوقف // احتضار أجندة التحول إلى الديمقراطية// فساد أعضاء الكونغرس.. بين معضلة فصل السلطات والحقوق الدستورية ــ شابنام أسلم.
- صحف ومجلات ودوريــات ((لوموند دبلوماتيــك// نيويــورك تــايمز// نيوزويك// وكالة الانباء الفرنسية ووكــالات أنبــاء// الجارديــان اللندنيــة// واشنطن بوست// صحيفة الشروق المصرية// الوقــت البحرينيــة// الكفــاح العربي// الأهرام// المستقبل اللبنانية// الأسبوع الأدبي)).
- مجموعة خطب لبوش الابن ومنها (الاستراتيجية الجديدة في العراق).
- مجموعة رسائل وزارة الخارجية الأمريكية.
- تقرير كوبا بشأن القرار رقم ١١/٥٩ الصادر عن الجمعية العامــة للأمــم المتحدة.
- مواقع انترنت عامة (الجزيرة نت// شبكة الأخبار الإسلامية// إســلام أون لاين// الملف).

مقالات

الاحتلال في مأزق متصاعد فهل ننقذه بالمشاركة في الانتخابات؟

طلعت رميح[1]

سؤال اللحظة في العراق الآن هو مإذا عن الانتخابات، وفي الإجابة عن السؤال يبدو الأمر واضحاً بجلاء أمام عيون الوطنيين من كل اتجاه، فالانتخابات تأتي في إطار لعبة العملية السياسية التي شكّلها المحتل الأمريكي منذ لحظة غزو واحتلال بغداد وحتى الآن، وهو حلقة في سلسلة متصلة من عمليات الإلهاء السياسي التي تظهر نتائجها على كل تراب الوطن لا في داخل المجتمع فقط، وهو قصد في البداية ملء الفراغ الذي أحدثه تحقيقاً لأهدافه، بإنهاء النظام السياسي، وتحطيم جهاز الدولة وصولاً إلى مخطط تفكيك المجتمع، كانت تلك هي بديلة الاحتلال لما كان من قبل، كما جاءت وفق مقاييس تحقيق أهدافه، وهو ابتغى منها إضفاء مشروعية لوجوده مسيطراً على الوطن، من خلال حكم يديره هو فعلياً، ويكون في الظاهر حكماً "عراقياً" باللغة وأشكال الوجوه والسحنات، لا بالفكر ولا السياسة، وقد ظهر الأمر جلياً في عقد اتفاقات لتأبيد الاحتلال مع هذا الحكم الذي يديره هو، إذ كل من تابع ويتابع ردود فعل الاحتلال على عقد تلك الاتفاقية؛ فإن وسائل

([1]) خبير ومحلل سياسي واستراتيجي (رئيس تحرير سلسلة استراتيجيات).

الإعلام الأمريكية والحكومية قد رددت على السواء أن الحكم استمد شرعيته في التوقيع من خلال أصوات الناخبين، والأخطر أنه سعى إليها واستخدم كل قوته العسكرية والسياسية والإعلامية لفرضها لتشكيل حالة حكم "عراقية الشكل" تقوم بمواجهة المقاومة ليبدو الصراع عراقياً عراقياً.

هي انتخابات تشكل امتداداً لما جرى من قبل، أو هي ليست حدثاً منفصلاً لا عن نظائرها التي جرت والأشد أهمية أنها ليست منفصلة عن الأجواء التي جرت في سابقاتها، ولا حتى هي مختلفة على صعيد العناصر والمجموعات المشاركة فيها، فهي تجري في جانبها العام على أساس لعبة المحاصصة الطائفية والعرقية والجهوية، والمشاركة فيها تعزز هذا الأساس وتمكن له، وتحقق للمحتل التمكين من تثبيت مشروع المحاصصة والانقسام في العراق، وهي تجري في ظل سطوة ذات العناصر والمجموعات المتعاونة مع الاحتلال منذ يومه الأول، والمشاركة فيها تعزز قوة تلك المجموعات ونفوذها، وهي تجري تحت ضغط قوات الاحتلال والأمر لا تخطئه العين، إذ سفراء ومسؤولين أمريكيين وبريطانيين وإيرانيين، هم من يضغطون ويرتبون مواد القانون وعملية التصويت والتوقيت والقوائم واللعبة كلها، ووجودهم لا يعكس قوة حضورهم الشخصي؛ بل هو تذكير بالعصا التي بأيديهم، فكيف نفهم مغزى أن السفارة الأمريكية في العراق هي الأكبر والأضخم بين السفارات الأمريكية في العالم، هل جرى هذا لمجرد توسعة مساحة السفارة لكي تضم متنزهات أم لاستيعاب موظفين صاروا يمسكون بكل مفاصل الدولة والحركة السياسية في العراق، بالارتباط مع دور القوة العسكرية للاحتلال على الأرض.

تغيير الجياد

لكن هناك من يمكن أن يتصور تحت ضغط الظروف والأوضاع القاسية التي يعيشها العراق أو وقوعاً في حبائل خداع الضخ الإعلامي، إن تغيير الجياد سيغير اتجاه حركة العربة؟، بينما تغيير الجياد قد يعطي العربة قدرة على الحركة لكن في ذات الاتجاه، وإن أمثال هؤلاء لا يدركون أن مشكلة توجيه العربة هي في من يتولى التوجيه لا في الجياد، وهناك من يتصور أن من صمم العربة ليس هو من حدد قدرتها، بينما هو من حدد قدرتها على الحركة والمناورة وحدد صلاحياتها، وهناك من يتصور أن بإمكانه تحويل العربة التي تجرها الجياد إلى عربة قادرة على الحركة الميكانيكية السريعة بينما البشرية كلها، لم تلجأ إلى ذلك، بل صنعت العربة الميكانيكية بديلاً للعربة التي تجرها الجياد، والمعنى أن تغيير اللعبة القائمة في العراق كلها هو ما يمكن من تغيير أسس الحكم في العراق من العمل في ظل توجيهات الاحتلال إلى إعادة البناء الوطني والاستقلال.

والقصد أن هناك من يتصور أن بإمكان الانتخابات التي قد تغير الجياد، أن توفر القدرة على تغيير اتجاه النظام السياسي، من نظام طائفي ومحاصصة وجهوي وعرقي بغيض إلى نظام سياسي وطني يحقق مصالح العراق الوطنية، ناسياً أن الجياد المسموح لها بجر العربة هي من ذات الإسطبل والعناصر المرتبطة بالاحتلال، والقصد أن هناك من يتصور أن بإمكان التصويت أن يأتي بمن هم وطنيون قادرون على تحقيق مصالح الناس وتحسين أوضاعهم، دون إدراك أن المشكلة هي في النظام الذي شكله الاحتلال، إذ هو نظام مصمم لمنع وصول الوطنيين المخلصين؛ بل هو تأسس من أجل حربهم وأن وظيفته هي استبعاد احتمال وصولهم إلى السلطة السياسية (التشريعية أو التنفيذية)، إذ الاحتلال لم يأت إلى العراق بالقوة

العسكرية لتحقيق مصالح شعب العراق، أو لكي يسلم العراق إلى أهله بالديمقراطية، وهو الذي قتل ودمر وهدم وأباد وحارب كل من هو وطني وقومي وإسلامي بطريقة حرث الأرض من كل ما هو إنساني، أليس في المشاركة في الانتخابات تصديقاً لمقولات المجرم بوش بأنه غزا العراق واحتله من أجل تحقيق الديمقراطية، رغم ما قيل من الذين عملوا معه بأن قرار الغزو كان متخذاً منذ وصوله البيت الأبيض للاستيلاء على النفط وتدمير العراق لمصلحة الكيان الصهيوني؟.

المعادلة واضحة: ما جاء بعد الاحتلال، هو لتحقيق مصالح الاحتلال وأهداف الاحتلال، إذ هو القوة التي سيطرت على الأرض ومن يدفع للزمار يسمع اللحن الذي يريد، وما جاء بعد الاحتلال لا يمكن تغييره إلا بإنهاء الاحتلال، وبذات الطريقة التي حدث بها الاحتلال، وإن الأحذية الغليظة لجنود الاحتلال لا تتواجد والآليات والدبابات والطائرات لا تجثم على صدور شعب العراق إلا لحماية النظام السياسي الذي شكله الاحتلال، تلك الأوضاع لا تسمح لأي عنصر وطني بالنفاذ إليه ولو حتى بطريق الخطأ.

والأخطر أن المشاركة في لعبة تبديل الجياد، وسط كل تلك الأوضاع، تعطي انطباعاً خاطئاً لدى الإنسان العراقي، الذي يعيش كل هذه الظروف بالغة القسوة.

الأسئلة العكسية

في التعامل مع حالة الانتخابات الجارية في العراق حالياً، يبدو سؤال اللحظة هو كيف يجري النظر لها؟، لكن السؤال يطرح أسئلة عكسية، إذ مجرد السؤال عن ما هو معلوم تطرح التساؤلات عن سبب طرح السؤال لا عن الإجابة، على اعتبار أن الإجابة محددة ومعروفة، وما ينطبق على

الانتخابات الماضية هو ذاته، الأسئلة التي يطرحها هذا التساؤل، هي وما الذي تغير حتى تتغير النظرة للسؤال والإجابة، ما الذي تغير حتى نتصور أن بالإمكان قلب نظام مرتبط ومشكّل تحت حراب الاحتلال، من خلال صناديق انتخابات تجري وفق قانون وضعه الاحتلال ورجاله على مقاسهم وسلطتهم، وفي ظل وجود قوة الاحتلال العسكرية؟، وما الذي تغير في التنظيمات والأشخاص المشاركة في ذات اللعبة القديمة التي هي ذاتها المشاركة في الجديدة؟، هل صار مسموحاً مثلاً أن يذهب الناس للتصويت لمن يعبرون عن مصالح الوطن أم أن الخيار محصور في ذات الصنف الذي شارك في القتل الطائفي وفي النهب والسلب لثروات العراق؟، ثم ما الذي تحقق من الانتخابات السابقة، حتى نأمل في أن تحقق مثل هذه الانتخابات أمراً لمصلحة العراق؟، أليس الكلب الأمريكي ما يزال يؤدي دوره في "شمشمة" من سيدخل عضواً في البرلمان ليكون الكلب رقيباً يدقق في اختيار المنتخبين؟.

وواقع الحال، أن الظروف التي يعيشها الإنسان العراقي هي جد مؤلمة ومؤرقة وقاتلة، والإنسان يحاول تلمس بعضاً من الأمل من أي باب أو طاقة نور من أي اتجاه، لكن الإشكالية هي أن ما نراه واقعاً في لعبة الاحتلال ليس إلا أمراً عبثياً ليس إلا تجديداً إعلامياً لذات الخطاب القديم، وليس إلا خداعاً متطوراً للناس مع الحفاظ على ذات الخصائص؛ وليس إلا محاولة لجني نتائج فكرة غرس اليأس في صفوف الناس وتحويلها إلى فعل إيجابي لمصلحة الاحتلال، وليس إلا تواصلاً لعملية اختبار مدى انهاك الاحتلال للإرادة الوطنية للمجتمع العراقي، جراء الغزو والقتل وأعمال تفكيك المجتمع ونشاط العملاء، وليس إلا تجديداً لمحاولة استيعاب المجتمع في داخل دوامة الاحتلال بإعطاء آمال كاذبة ومخادعة على طريقة الجمع بين ارتكاب الجريمة وادعاء الخير في ذات الوقت.

لكن الشعوب والحركات الوطنية تتعلم من تجاربها، وفي النموذج الأوضح لذلك ما وصلت إليه الخديعة بالسلطة الفلسطينية، نموذجاً قاطع الدلالات، كان الخطأ هو في تصور أن الاحتلال يتنازل عن احتلاله دون استخدام القوة، وأن صناديق الانتخاب وبناء السلطة الفسطينية تحت الاحتلال ممكن؟، وأن إجراء انتخابات سيجعل العالم يعترف بها وبنتائجها؟، ألم تأت حماس للسلطة؟ ماذا جرى؟ وإلى أين وصلنا الآن؟، عباس يقول الخلاصة الآن – بغض النظر عن أهدافه أيّ ما سيقدم عليه من بعد– لا إمكانية لبناء سلطة وطنية في ظل الاحتلال.

التفجيرات والانتخابات

المتابع للإعلام التابع للحكم الراهن في العراق وللإعلام العربي والدولي الدائر في فلك الولايات المتحدة، يشعر وكأن ما في العراق محصور في عمليات القتل العشوائي وأخطرها الأربعاء والأحد الداميين من جهة، وفي عمليات وألاعيب العملية السياسية من قانون الانتخابات والصراعات بين المتعاملين والمتعاونين مع الاحتلال والتآلفات والتحالفات والانفضاضات والصراعات من جهة ثانية، وقضايا الصراعات العرقية حول بعض المناطق وأهمها واقعة كركوك التي يحاول المستعمرون والمحتلون وأعوانهم جعلها نقطة صراع على تقسيم العراق.

تلك هي صورة المشهد العراقي كما ترسمه أجهزة إعلام الاحتلال ومن ارتبط من العربية بها، وهي صورة متكاملة متناغمة رغم ما يجري فيها من تنافر وصراعات وما يسيل فيها من دماء أهل العراق، وإذا شئنا التحقيق أكثر، فتلك هي الصورة الحقيقية أو الواقع الفعلي لخطة تحقيق وإجراء الانتخابات!.

ففي الجانب الأول: فإن قتل المدنيين هو وسيلة تصفية الصراعات بين المتنافسين في الانتخابات أو وسيلة لتعديل التوازنات الانتخابية بينهم، كما أن قتل المواطنين العراقيين هو في صلب العملية الانتخابية من الزاوية العامة؛ إذ هي محاولة لدفع الناس للاقتناع بأن لا بديل أمامهم إلا القبول بخداع العملية الانتخابية لكي تدفع الموت عنهم، وفي الجانب الثانى: يبدو أمر التناحر بين الفرق المتعاونة مع الاحتلال بديهياً، سواء لأن الاحتلال احتلالان (أمريكي وإيراني يسود بينهما التنافس على السيطرة وتحقيق مصالح كل منهم على حساب الآخر)، أو لأن ما يجري في الانتخابات ليس تنافساً على الفوز بالمقاعد ولكن لاقتسام الغنائم، ولأن المشاركين في اللعبة يتعاملون مع الأمر بمنطق احكم واسرق واهرب، إذ السرقات الكبرى وسيلتها السلطة، وفي الجانب الثالث: يبدو الأمر طبيعياً؛ إذ لعبة الانتخابات هدفها التفتيت والتقسيم، أو هي مخططة على أسس تحقيق وتعميق الانقسام ويصب فيها كل خلاف على تقسيم جسد العراق، وإلا لا تؤدي وظيفتها.

المقاومة.. البديل

إذا عدنا إلى المشهد ثلاثي الأضلاع هذا، نجد أن المقاومة العراقية التي كانت تملأ الدنيا بدورها ونشاطها، لم تعد واردة في الإعلام الحكومي والأمريكي والمرتبط بكليهما، في محاولة لجعل المشاهد والمَتابع يتصور أن هذا هو مشهد العراق، وأن ذلك هو ما يشهده العراق وفقط، وهنا يبدو المغزى هو أننا أمام محاولة لدفع الناس للقول: وماذا بيدنا أن نفعل إلا الدخول والمشاركة في الدوامات الثلاث الانتخابية والصراعية حول أجزاء العراق أملاً في مواجهة عمليات القتل، الأمر محدد تماماً، محاولات إنكار ما يجري من مقاومة، لإيصال الناس إلى نقطة واحدة، لا أمل في تحرير

العراق، إلا من خلال أجندة من احتل العراق، والنتيجة بطبيعة الحال هي أن لا يتحرر العراق، إذ اللعبة السياسية هي داخلة ضمن لعبة الاحتلال كما سبق الإيضاح.

لكن ثمّة أمراً لافتاً للنظر، وسط هذا التعتيم الذي صار يجري بقصد وفهم لدى الكثيرين من العاملين في الإعلام العربي والغربي، وهو أن قوات الاحتلال صارت تكثر من الاعترافات بقتل جنود لها، وفق قول صار يتكرر كثيراً في هذه الأيام، قتل جندي في أعمال غير قتالية.. قتل جندي في حادث سيارات، حتى يخيل للمتابع أن ما فشلت قوات الاحتلال في تحقيقه هي وحكومة المالكي هو فقط في حدود مشكلات سير السيارات التي تتسبب للجيش الأمريكي بكل هذه الخسائر البشرية، أو أن أحداث السير في العراق صارت خاصة بالأمريكان وحدهم.

لكن المشهد ليس كذلك، أو لنقل: إن ما ينشر في الإعلام يختلف جوهرياً وحقاً عمّا هو جار في الواقع، ولو قرأنا سلوك المحتل جيداً لأدركنا ذلك، فأمر إخفاء قتلى الاحتلال أمر معروف ومشتهر في الولايات المتحدة، لكن الهلع البادي والتهديدات الصادرة بشأن تعطيل ما خططه الأمريكان في توقيتات إنهاء الانتخابات يظهر كيف أن المقاومة بخير وأن عدوها يضع أعينه عليها ويهابها ويعرف قدرها وأن عمد إلى إخفاء خسائره أو لتوجيه أنظار الناس إلى اللعبة السياسية أو القتل العشوائي أو قضايا النزاعات التي افتعلها وصار ينفخ في نيرانها.

بل إن أخطر الدلائل على تطور قدرة المقاومة هو أن العدو صار لا يعلن أبداً عن عدد قتلاه في كل شهر كما كان معتاداً، ونذّكر بأن الأمريكان لا يكشفون عن عمليات المقاومة وأرقام قتلاهم، إلا وفق أهداف تتعلق بخططهم، فحين جرى صراع في داخل الأجهزة الأمريكية – ووقتها كان هناك تعتيم في

بداية تولي بوش رئاسته الثانية- جرى الحديث واضحاً عن أن آلاف عمليات المقاومة تجري في الشهر الواحد، وكان ذلك للضغط على صانع القرار، وهم لا يعلموننا ولا يعلمون الشعب الأمريكي، فقط هم يستخدمون أعداد قتلاهم والإعلان عنها في صراعاتهم الداخلية، ودون إبلاغ كل الحقائق، على طريقة إذا أردت كذباً يصدقه الناس اذكر بعضاً من الحقيقة.

المقاومة بخير، والعملية السياسية إلى زوال والانتخابات ليست إلا مثل سابقاتها من ناحية الجوهر، وغد العراق هو للمقاومة العراقية، وما نشهده الآن على أرض العراق من تفلت وصراعات بين المرتبطين بالاحتلال هو أحد المؤشرات، ومن يتابع قناة الرافدين الفضائية والقليل مثلها ومواقع المقاومة ورسائلها على شبكة الإنترنت، يدرك ذلك جيداً، كما من يتابع اللهفة الأمريكية على التفاوض مع المقاومة يعرف حقيقة ما يجري.

لن تأتي الانتخابات إلا برموز المتعاونين مع الاحتلال، ولا يرجى منها ومنهم أي خير، والغد للعراق والمقاومة، والوقت لن يطول أكثر بإذن الله.

العراق.. بين التدهور الأمني والتهجير الطائفي

أسامة الغنيمي[1]

يبدو أن التساؤل من جديد حول الوضع [illegible] الأمني في العراق بعد أكثر من ست سنوات من الاحتلال الأمريكي الغاشم للعراق أضحى تساؤلا ساذجا إلى أقصى مدى إلا إذا جاء هذا [illegible] في سياق الاستنكار [illegible] استرخاص [illegible] روجه الاحتلال وأذنابه [illegible] زالوا [illegible] الفردوس الأرضي الذي سيكون على أرض العراق بعد التخلص من [illegible] صدام حسين السابق، وهي الأكاذيب التي أكدها [illegible] المرير الذي [illegible] خلال مدة السنوات [illegible] من أول يوم لدخول القوات [illegible] في مارس ٢٠٠٣م إلى [illegible] أرضي [illegible] يخمد سعير نيرانه.

تأمين المنطقة

لم يعد ثمة شك في أن الادعاءات الأمريكية التي مهدت لاحتلال العراق لم تكن إلا أكذوبة روجها الرئيس [illegible] ج بوش، وإدارته من المحافظين الجدد بهدف السيطرة على ثروات [illegible] من الطاقة بعدما أكدت العديد من الدراسات والتقارير المتخصصة أنه [illegible] في باطنه أكبر احتياطي

---

[1] [illegible]

للنفط في العالم لذا فقد كانت الوسيلة الأنجع والأهم في نظر الأمريكيين هو التخلص من النظام العراقي الذي يمكن أن يكون حجر عثرة أمام استغلال هذه الثروة النفطية الهائلة مع ضمان الإتيان بنظام سياسي جديد يكون بمثابة دمى تحرك خيوطها أيدي أمريكية وهو ما لن يتأتى إلا بتحويل العراق إلى بلد ممزق تتجاذب أطرافه تكتلات عرقية وطائفية يسعى كل منها إلى تحقيق الهيمنة والسيطرة على حساب الآخرين إلى أن يتم تقسيمه إلى دويلات صغيرة لا يمكن أن تشكل أية خطورة على الولايات المتحدة الأمريكية وما تريده من العراق.

ومع استحضار هذا الهدف الأمريكي الذي لم تخجل بعض قيادات الإدارة الأمريكية من أن تعلن عنه تصبح كل الممارسات الأمريكية الأمنية في العراق متمحورة حول تأمين مصالحها دون النظر إلى اعتبارات توفير الأمن للمواطنين العراقيين الذين يقدمون من ١٥ : ٢٥ ضحية كل يوم تقريباً – بحسب ما أشارت إليه بعض تقارير الطب العدلي العراقي – نتيجة التفجيرات وإطلاق النار العشوائي الذي تقوم به مجموعات مسلحة مجهولة في الوقت الذي انشغلت فيه الأجهزة الأمنية العراقية والقوات الأمريكية وشركات الأمن الخاصة البالغ عددها نحو ٧٠ شركة في حماية المنشآت والقيادات الأمريكية فضلاً عن رجال الأحزاب السياسية الذين ارتضوا الدخول في اللعبة السياسية بحسب القواعد والمحددات الأمريكية.

التدهور الأمني

إن تقديم نحو مليون قتيل عراقي أو ما يزيد بحسب تنوع الإحصائيات والمصادر على مدار السنوات الماضية لا يعد في نظر الإدارة الأمريكية جرم يستحق التوقف عن الاستمرار في نهج تعاطيها مع الملف العراقي بل إن ما

حدث وما يمكن أن يحدث خلال المرحلة المقبلة من استمرار نزيف الدم العراقي هو من الأهداف المرحلية التي تتعمدها الإدارة الأمريكية لبقاء حالة من الزعزعة الأمنية وعدم الاستقرار بالبلاد والذي هو الوسيلة الأولى والخطوة الأساسية لتحقيق التقسيم المستهدف.

فلا العنف الطائفي ولا التفجيرات العشوائية ولا الصراعات القبلية ولا حتى تصفية الحسابات بين الأحزاب السياسية مما يشغل بال الإدارة الأمريكية أو يحرك ضميرها فكل ذلك من الأمور المنشودة لديها إذ هو يعمق الفجوة بين العراقيين ويوسع الهوة بين أطيافه التي عاشت على مدار القرون الماضية في إطار الوحدة الوطنية التي كانت وإلى سنوات قريبة إحدى أهم مفاخر العراق الأبي.

وكالعادة فقد حاول الأمريكيون أن يبدو وكأنهم متألمين من هذا العنف اليومي الذي يحصد أرواح العراقيين فقرروا أن يضربوا عصفورين بحجر واحد من خلال الزعم بأن المسؤول الأول عن هذه العمليات المسلحة هو فصائل المقاومة العراقية التي يدرك الأمريكيون قبل غيرهم أنها تنأى بنفسها عن الدخول في مثل هذا النفق المظلم الذي لا تصب نتائجه إلا في صالح الاحتلال العدو الأول للمقاومة والعراق وبذلك يكون قد أساءوا للمقاومة وأوجدوا حالة من العداء فيما بينها وبين الشعب العراقي وفي ذات الوقت أبعدوا العيون عن أن تدرك الفاعل الحقيقي للجريمة حتى يستمر في تكرارها دون محاسبة أو ملاحقة.

لكن الحيلة الأمريكية هذه المرة لم تدخل على العراقيين بعدما أكدت لهم الشواهد والدلائل أن ما يحدث في العراق هو بفعل الأمريكيين أنفسهم أو بفعل أذنابهم من أتباع الأحزاب السياسية الذين سايروا المخطط الأمريكي فتغنوا بمشاريع طائفية ضيقة لتحقيق مصالحهم ومآربهم الشخصية بعيداً عن مصلحة

العراق والعراقيين وهو ما يفسر تصاعد هذه العمليات المسلحة في أعقاب انتخابات مجالس المحافظات الماضية مثلاً والتي عكست إحجاماً عراقياً شبه عام عن الاستقطابات الطائفية ما دفع العديد من هذه الأحزاب إلى شن المزيد من عمليات القتل لتأكيد خطابها الطائفي والعرقي في الشارع العراقي لذا فإن هذه العمليات لم تقتصر على طائفة دون أخرى بل إنها شملت فضلاً عن المكونات كثيرة عدد كالأكراد والسنة والشيعة شملت أيضاً بعض الأقليات القليلة جداً في العراق حيث استهدفت المسيحيين وكنائسهم وبعض تجمعات التركمان في الشمال العراقي.

على أية حال إن الناظر في النتائج المترتبة على تطورات العملية الأمنية المتدهورة في العراق طيلة السنوات الماضية يكتشف حجم الآثار السلبية التي مني بها الشارع العراقي والتي كان أبرزها هجرة ملايين العراقيين خارج البلاد حيث يعيشون في أوضاع مهينة ونزوح أكثر من ٢,٢ مليون عراقي من ديارهم داخل العراق ليعيشوا داخل الخيم دون أي رعاية صحية أو تعليمية أو اجتماعية أو خدمية فضلاً عن أن عدد أرامل العراق قد تجاوز المليونين أرملة فيما تجاوز عدد الأيتام الخمسة مليون يتيم.

كذلك فقد كان عدم الاستقرار الأمني في العراق سبباً مباشراً في حرمان نحو مليوني طفل عراقي من التعليم وارتفاع عدد الأيتام المشردين إلى ٥٠٠ ألف يتيم دون مأوى في حين وصل عدد الأطفال المعاقين إلى ٩٠٠ ألف معاق.

وفي دراسة للباحث العراقي فريد الهاشمي نشرت على الإنترنت تحت عنوان "ست سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق.. تدمير شامل للبيئة والإنسان" أشار الباحث إلى أن أكثر من (٥٥٠٠) من علماء العراق وكفاءاته العلمية قد اختفوا في ظروف غامضة بين قتيل وسجين ومخطوف وأن أكثر

من (٤٠٠) ألف سجين عراقي ما بين السجون الأمريكية البالغ عددها (٢٢) سجناً والسجون الحكومية في حين هاجر أكثر من (٧٠%) من الأطباء العراقيين وخصوصاً ذوي الاختصاصات المهمة.

الاختراق الصهيوني

والتردي الأمني الذي يعيشه العراق نتيجة الاحتلال الأمريكي لا ينحصر بطبيعة الحال في حالة الفوضى الأمنية في الداخل العراقي إذ إن الحديث عن الأمن يقصد به الحديث على مستويين أحدهما يرتبط بحياة الناس اليومية والآخر سيادي يتعلق بالدولة والتدخلات الأجنبية في شؤونها الداخلية وهو ما تعانيه العراق بشدة منذ سقوطها في يد الاحتلال الأمريكي إذ أصبح العراق بين يوم وليلة أرضاً مستباحة ومرتعاً للعديد من القوى الإقليمية والدولية التي تتخذها ساحة لتصفية حسابات لا علاقة للعراق بها من قريب أو بعيد.

وجاء الخطر الصهيوني ليجسد إلى أي مدى وصل العراق إلى مرحلة من الضعف والتدهور حيث تمكن الكيان الصهيوني من التواجد وبقوة في الأراضي العراقية التي لم يكن ليجرؤ على التفكير في مجرد الاقتراب منها والحلم الذي بدأ تحققه منذ أن اشترك الصهاينة مع الأمريكيين في التحضير لاحتلال العراق حيث تم الاستعانة بالعديد من ضباط وجنرالات الجيش الصهيوني لتدريب القوات الأمريكية على حرب المدن باعتبار أن القوات الصهيوينة أكثر خبرة من القوات الأمريكية في التصدي للمقاومين بحكم تجربتها الاحتلالية لفلسطين.

بل إن العديد من التقارير الصحفية والاستخباراتية أشارت إلى أنه وفي أعقاب الاحتلال الأمريكي للعراق تمكنت بعض الوحدات الصهيوينة العسكرية من دخول العراق للمرابطة على حدوده الغربية فيما نجحت عناصر أخرى

من الموساد والوحدات الخاصة بدعم أمريكي من دخول البلاد لتعيث فيها فساداً حيث يقوم بعضهم بجمع المعلومات والبيانات فيما يقوم آخرون بتشكيل فرق تستهدف قتل واغتيال علماء العراق الذين وردت أسماؤهم في قوائم مفتشي الأسلحة الدوليين حيث يوجد – بحسب تقرير لقناة (تي في٥) الفرنسية – نحو ٣٥٠٠ عالم عراقي يعملون في التصنيع والتطوير العسكري.

بل وصل الأمر إلى حد أن عينت الإدارة الأمريكية الكثير من الأمريكيين الصهاينة كمشرفين على الوزارات والهيئات العراقية بما يعني أن الكيان الصهيوني قد حقق الاختراق الأمني الكامل للعراق بل إن هذا الاختراق امتد أيضاً ليشمل الجانب الاقتصادي حيث سمح الاحتلال الأمريكي بوجود عدد كبير من الشركات الصهيونية للممارسة أنشطتها وأعمالها في العراق.

وفي ظل هذه المعطيات فقد اتسع النفوذ الصهيوني في العراق إلى حد أن اعتبرت شبكة البصرة في تقرير لها نشرته في الخامس من أغسطس الماضي أن ٨٠% من عمليات تفجير وحرق الأسواق والجامعات والمدارس والمراكز الحيوية وتدمير المشاريع الخدمية وشلل الاقتصاد العراقي وانعدام الأمن وتدمير المساجد ودور العبادة وعمليات القتل والخطف والتهجير وقتل وتصفيه الأساتذة والأطباء والعلماء لاجتثاث العقل العراقي وقتل القادة والطيارين العسكريين تنفذ من قبل الموساد الصهيوني بالتعاون مع شركات المرتزقة وقاده عصابات فرق الموت الطائفية المدعومة من إيران.

الدور الإيراني

وهنا يجدر بنا الإشارة أيضاً إلى تنامي ذلك الدور الإيراني في العراق في أعقاب الاحتلال الأمريكي والذي يعد هو الآخر وجهاً لانتهاك السيادة العراقية خاصة وأن العلاقات الإيرانية العراقية معروفة بتوترها نتيجة الصراع

السياسي والفكري في القديم والعسكري في العصر الحديث والذي كان آخره تلك الحرب التي امتدت لنحو عشر سنوات متواصلة بدأت مع نهاية السبعينات وانتهت نهاية الثمانينات من القرن الماضي.

فمنذ اللحظة الأولى لاحتلال العراق حرصت إيران على التواجد بقوة في العراق من أجل تقديم الدعم والمساعدة لحلفائها للعمل على إنشاء دولة (شيعية) في الجنوب العراقي يكون ولاءها الديني والسياسي لإيران وهو ما دفعها إلى تشجيع الخطاب الطائفي من خلال العناصر الموالية لها والتي استطاعت أن تتغلغل داخل المجتمع ومؤسساته المختلفة سواء كانت دينية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية أو حتى داخل أجهزة الدولة والوزارات والمؤسسات السياسية والعسكرية.

وفي هذا السياق فإن البعض يحمل إيران مسؤولية العديد من عمليات التصفية الطائفية التي توجه في بعض الأحيان إلى (السنة) وعلمائهم وفي أحيان أخرى إلى (الشيعة) حتى يبدو المشهد وكأن هناك صراعاً بين الطائفتين مما يمهد الطريق لهؤلاء الذين يدافعون عن تقسيم العراق.

وحول كيفية إدارة إيران لهذا الدور يقول الباحث سلام عبد الغني في دراسة له بعنوان "النفوذ الإيراني في المؤسسات العراقية بعد الاحتلال" "يرى بعض المراقبين أنه لا يوجد تواجد عسكري مباشر للحرس الثوري الإيراني في العراق وإنما هناك بعض القادة مسؤولين عن العمليات الخارجية والاستخبارات وعمليات التصفية والقتل التابعة لهذا الجهاز من مقر قيادة (فجر) يترددون باستمرار على العراق وأن مقر القيادة موجود في الأهواز مركز إقليم خوزستان المجاور للعراق.

لكن الفرع الرئيسي لـ(فجر) في مدينة (خرمشهر) المحمرة المجاورة للبصرة يتابع تسلل الإيرانيين إلى العراق عبر البصرة والعمارة بشكل خاص لتنفيذ أعمال التخريب والتفجير وإثارة الفتن والقتل المنظم".

ويضيف "وكما هو معلوم يتركز الحضور الإيراني في البصرة وعموم المحافظات الجنوبية ومحافظات الوسط، أما في كربلاء فتوجد قاعدة قوية للحرس الثوري ولجهاز استخباراته ولوحدة العمليات الخارجية يشرف عليها وعلى عموم العمليات في البصرة العميد (أحمد فروندة). أما فيلق القدس التابع للحرس الثوري فهو مسؤول بشكل مباشر عن تقديم الدعم اللوجستي للعمليات داخل العراق بقيادة العميد (قاسم سليماني)".

ويستطرد الباحث قائلاً "كما أنه في الغالب لا يتورط الحرس الثوري الإيراني في تنفيذ عمليات مباشرة داخل العراق وإنما تتم العمليات من اغتيال وتفجير عن طريق منظمات وشخصيات تستهدف أيضاً رجالات النظام السابق وكذلك الشخصيات الشيعية التي تعارض التسلل الإيراني الذين صاروا يعرفون بأعداء ولاية الفقيه".

التهجير القسري

ولا تنفصل عمليات التهجير القسري والطائفي في العراق عن المشروع الأمريكي الاحتلالي الهادف إلى تقسيم العراق إلى عدة دويلات صغيرة على أساس طائفي بل إن عمليات التهجير هي الوسيلة الثانية لتحقيق هذا الهدف إذ تعد أبرز انعكاسات العنف الطائفي.

وبحسب تعبير الباحثة والكاتبة العراقية منى إبراهيم في مقالها المعنون بـ "حقيقة التهجير القسري في العراق" فإن ظاهرة "التهجير القسري" تخضع في إطارها العام إلى أهداف ومصالح وأجندات سياسية وهي تنطوي –

عموماً- على أغراض تتلخص بمحاولة تصنيع خطوط تماس عرقية وطائفية تعزل العراقيين فيما بينهم على أساس الهوية الطائفية والعرقية ضمن مناطق محدودة تمهيداً لتوفير المناخ المناسب والأرضية الخصبة لحرب أهلية حاضرة وبالتالي فرض تقسيم العراق كأمرٍ واقع إلى أقاليم ومقاطعات لا مكان فيها للتنوع الطائفي والتعدد القومي القائم في العراق منذ زمن طويل يتعايش أهله دون قتالٍ أو احتراب".

ولعل أبرز النماذج التي تؤكد على ارتباط تصاعد وتيرة التهجير القسري للعوائل في العراق بأعمال العنف الطائفي هو ما شهده العراق عام ٢٠٠٦م في أعقاب تفجير مرقدي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء في فبراير من نفس العام حيث تجاوز عدد الأسر المهجرة سواء من السنة أو الشيعة حاجز الأربعين ألفاً.

وعلى الرغم من حالة القلق التي تبديها الحكومة ومعها مجالس المحافظات العراقية بين الحين والآخر إلا أن العديد من عمليات التهجير تتم تحت مرأى ومسمع من قيادات هذه المحافظات إذ يجبر السكان وبشكل علني على ترك منازلهم والنزوح خارج مدن بعينها في إطار محاولات تغيير الخريطة السكانية لبعض المناطق بما يعود بالفائدة على بعض الأحزاب التي تلعب على وتر الطائفية في الانتخابات المحلية والنيابية.

ومن النماذج المهمة في هذا السياق هو ما قام به ساسة أكراد العراق بمنح من يهاجرون من العرب من محافظة كركوك - شمالي العراق- ٢٠ مليون دينار وبيع ما يملك بأبخس الأثمان ليحلوا محلّ المهاجرين العرب نحو ٧٠٠ ألف كردي آخر جاء أغلبهم من دول الجوار بعد أن حصلوا على الهوية الخاصة بأكراد العراق تزويراً وبذلك تم تغيير التركيبة السكانية للمحافظة.

يضاف إلى ذلك ما تم في محافظات أخرى مثل نينوى وديالى وصلاح الدين وكركوك حيث مورست أشكال مختلفة من القهر والتقتيل وخطف الشباب لإجبار (العرب السنة) على ترك هذه المحافظات والهجرة باتجاه وسط وغربي العراق.

كذلك يأتي التهجير القسري لتحقيق أهداف أخرى يعكس أغلبها عمق الأزمة الاقتصادية والمعيشية التي يعانيها أبناء الشعب العراقي وهو ما أشار إليه الكاتب والباحث العراقي إبراهيم أحمد البغدادي في دراسته "العراق الجديد..التهجير" المنشورة على موقع شبكة البصرة في يونيو من عام ٢٠٠٩م إذ يقول"والتهجير في كثير من الأحيان لغايات أخرى منها (للاستيلاء على دور المهجرين) وما فيها من أثاث أو لشرائها بأسعار متدنية أو بعضهم يملك (مصنعاً صغيراً) حتى يتم الاستيلاء عليه والآخر يهجر حتى لا يتمكن من الذهاب إلى (دائرته) وبذلك يفقد وظيفته حتى يحتلها من كان وراء التهجير أو للاستيلاء على (دور المسفرين) والذي كان المواطن قد اشتراها من الدولة بمزاد علني ورست عليه فيتم طرده من الدار بدون مقابل وبذلك يفقد رصيد العمر الذي جمعه في حياته لشراء هذه الدار".

كذلك ومن ناحية أخرى فإن عمليات التهجير القسري لا تقتصر على كونها محاولات للتغير الديمغرافي واستجابة لنوازع طائفية وعرقية كفيلة بأن توجد حالة من عدم الانتماء والولاء الوطني إنما تمتد هذه التداعيات لتشكل في نهاية الأمر مأساة إنسانية تضاف إلى العديد من المآسي التي يعيشها العراق منذ بداية التسعينات من القرن الماضي.

فحياة هؤلاء المهجرين قسرياً باتت جرحاً عميقاً في نسيج المجتمع العراقي إذ هي صورة طبق الأصل لما يحيا عليه اللاجئون الفلسطينيون

فالمهجرون العراقيون يعيشون في خيام أو في بيوت من صفيح أو في بيوت دون أسقف دون أية بنية تحتية تمثل الحد الأدنى المطلوب لأية حياة آدمية.

والأغلبية من المهجرين لا يتلقون أي مساعدات لا من الحكومة ولا من غيرها كما أنهم لا يعملون وإن عمل بعضهم ففي أعمال متدنية ربما لا تتناسب مع وضع أغلبهم التعليمي أو الاجتماعي في المرحلة السابقة على التهجير فضلاً عن حرمان أبناءهم من التعليم أو الرعاية الصحية المناسبة.

إن هجرة أكثر من مليوني عراقي خارج البلاد ورغبة مليون آخر في الهجرة فضلاً عن التشرد الذي لحق بملايين أخرى داخل الأراضي العراقية رسالة تعكس حجم المعاناة العراقية بعيداً عن التجمل ومعسول الكلام كما أنها شاهد حي ومتجدد على نزاهة الحضارة الغربية والأمريكية التي ما فتأت تصدع رؤوسنا بالحديث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

جهاد العراقيين سبب انسحاب الأمريكان

ممدوح إسماعيل[1]

فى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م أعلن الرئيس الأمريكـي أوبامـا عزمـه التقيـد بتعهداته بسحب القوات الأميركية المقاتلة من العراق مع حلول تشرين الأول/ اكتوبر من العام المقبل ونقلت وكالة الاسوشيتد برس عن أوباما قوله بعد لقائه رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي في واشنطن إنه ملتزم بتنفيـذ خططـه التي أعلن عنها لدى انتخابه رئيساً للولايات المتحدة بانسحاب جميـع القـوات الأميركية المقاتلة وغير المقاتلة من العراق مع نهاية عام ٢٠١١م.

الخبر مهم وجدير بالانتباه حيث يطرح سؤالاً هاماً ما الذى غيـر خطـط الأمريكان ومشروعهم الإمبراطوري فى تكـوين أمريكـا القويـة المنفـردة بالسيطرة على العالم عسكرياً وسياسياً وإقتصادياً الحقيقة التى يتردد الكثير فى إعلانها والبوح بها إنه جهاد الشعب العراقي.. إنها مقاومة الـشعب العراقـي الباسلة للاحتلال الأمريكي المدعوم صليبياً بوحدات عسكرية غربية متنوعة.

لقد جاء أوباما إلى حكم الولايات المتحدة عقب أصعب سنة للأمريكان في العراق فى ٢٠٠٨م ووصلت فيها المقاومة إلى تحقيق الكثير من أهدافها فـى المقاومة فى ظل عدم التكافؤ الرهيب فى القوة العسكرية بين مقاومة بسلاحها

---

[1] كاتب وإعلامي، وعضو نقابة المحامين المصريين.

البسيط وجيوش دول غربية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما تملكه من تقدم تكنولوجي عسكري وأسلحة متنوعة وإمكانيات لوجستية رهيبة أمام مقاومة تقاوم بصدر مفتوح وأمامها عدو طاغية وخلفها وحولها خونة من أذناب الفرس وعملاء يقبضون مقابل بيع العراق ودماء العراقيين وعند التوقف مع قرار الانسحاب الأمريكي أو على الأصح تحجيم حجم القوات الأمريكية فى العراق نقف مع ما سبقه من فزع عند الساسة ومراكز البحث الأمريكان من حجم الخسائر الأمريكية فى العراق وعدم تحقيق النتائج المرجوة وقد تبلور هذا الفزع والرغبة والضغط فى سبيل الانسحاب فى النقاط الهامة التالية والتى كانت من أسباب القرار أيضاً وهى:

❖ في ٢٥ مارس ٢٠٠٨م صدر كتاب جديد تحت عنوان: "أمريكا.. فصلنا القادم" أصدره السيناتور الأمريكي تشاك هاجيل جاء فيه أن الولايات المتحدة تحتاج قيادة مستقلة وحزب سياسي ثالث فضلاً عن الحزبين القائمين، وأعرب عن اعتقاده بأن حرب العراق ستظل واحدة من أكبر خمس حماقات في التاريخ البشري وقال السيناتور هاجيل: "في الطريق المسدود الحالي الذي تسير فيه البلاد كان لابد من وجود مرشح مستقل للرئاسة".

❖ وفي ٢٨ مارس ٢٠٠٨م نشرت صحيفة واشنطن بوست الأمريكية أن أكثر من أربعين من المرشحين لعضوية الكونجرس الأمريكي عن الحزب الديمقراطي توجهوا للناخبين بوعد مفاده أنهم في حالة فوزهم بالعضوية سيتقدمون بتشريع لانسحاب فوري لقوات الاحتلال الأمريكية من العراق، وأوضح المرشحون الديمقراطيون أن التشريع لن يبقي سوى قوة أمنية لحراسة سفارة الولايات المتحدة في بغداد.

❖ وفى مارس ٢٠٠٨م أيضاً أكد السيناتور الديمقراطي البارز، جاك ريد أنه يعترض بشدة على السياسات التي تنتهجها إدارة الرئيس الأمريكي جورج

بوش تجاه العراق، وقال إن الولايات المتحدة في حاجة ماسة إلى اعتبار خيار الخروج من العراق لا رجعة فيه، وأكد السيناتور ريد خلال ظهوره على محطة سي بي إسو وهو عضو باللجنة العسكرية التابعة لمجلس الشيوخ: "صحيح أن أي جدول زمني لسحب القوات الأمريكية من العراق سيعتمد على مستجدات الأوضاع الميدانية على الأرض، إلا أن المهم أن يكون مبدأ ترك العراق هو سياسة لا بديل عنها، والبدء في تخفيض قواتنا في العراق لابد أن يبدأ ولا يتوقف أبداً، بل يزداد معدله.

❖ من ناحية أخرى اعتبر تقرير صادر في أبريل ٢٠٠٨م ونشرته جريدة الخليج الإماراتية من أهم جهة تحليلية تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية حول قرار غزو العراق وتداعياته، أن القرار وصل إلى درجة الفشل الذريع، وجاء في هذا التقرير "الصادم"، والذي أعده المعهد القومي للدراسات الاستراتيجية في كلية الدفاع الوطني الأمريكية، أن الحرب في العراق كلفت الولايات المتحدة خسائر باهظة في الأرواح والأموال والسياسات أيضاً.

❖ في ٤ أبريل نشرت جريدة الأهرام المصرية ما يلي: وجّه الجنرال الأمريكي المتقاعد وليام أودوم كبير مستشاري مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن، والرئيس السابق لوكالة الأمن القومي انتقادات حادة للإستراتيجية الأمريكية الحالية في العراق، وأكد أودوم، وهو أحد أفضل الخبراء الأمريكيين في القضايا العسكرية والإستراتيجية، أن زيادة القوات الأمريكية هناك لم تحقق الاستقرار السياسي، بل.على العكس أدت إلى إطالة أمد الفوضى ولم تخلق الظروف المواتية لتحقيق المصالحة السياسية التي أكد أنها مازالت بعيدة جداً، وشدد على أن الحل الوحيد المتاح حالياً هو الانسحاب من العراق.

❖ في ٢٢ أبريل ٢٠٠٨م كشف تقرير للجنة الرقابة في مجلس النواب

الأمريكي عن معلومات جديدة تفيد بأن الجيش الأمريكي ضاعف من تنازلاته الأخلاقية بتجنيد المجرمين والخارجين على القانون العام الماضي لتعويض نقص الجنود الذين فقدهم في العراق، وسمحت الولايات المتحدة الأمريكية لمرتكبي الجرائم الجنسية والاغتصاب، وللمجرمين المعتدين جنسياً على الأطفال، والذين قاموا بالتهديدات للقيام بأعمال تخريبية بالانضمام لصفوف الجيش الأمريكي لسد العجز الذي ترتب على حرب العراق.

❖ وفي استطلاع نشر في أبريل ٢٠٠٨م لمجلة " فورين بوليسي" التي تصدر عن مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، بالمشاركة مع "مركز أمن أميركا الجديدة" ما يُقدر بـ ٣,٤٠٠ من الضباط الحاليين والمتقاعدين على المستويات العليا، والمسؤولين عن القوات العسكرية الأميركية خلال نصف القرن الماضي، وبعض الجنود في الميدان، ويُعد هذا الاستطلاع واحداً من الاستطلاعات الشاملة للمجتمع العسكري الأميركي خلال الخمسين سنة الماضية كان رأي غالبية الجنود والضباط الأميركيين أن جيشهم ضعيف وغير قادر على خوض حرب أخرى بعد أن أنهكته الحرب في العراق.

❖ في ٢٨ أبريل ٢٠٠٨م كتبت صحيفة الجارديان البريطانية: "إن غزو العراق كان خطأً فادحاً، لاتزال أبعاده تتكشف بعد خمس سنوات"، وأضافت الصحيفة: "لقد أطيح بصدام ولكن مقابل اندلاع حرب أهلية طاحنة"، وطالبت بجلاء الاحتلال عن العراق، وإلى تنظيم مؤتمر دولي لإيجاد حل للمعضلة العراقية، ونشرت الجارديان مقالاً لسويماس ميلن تحت عنوان "ينبغي الإقرار بيوم العار هذا"، قال فيه: "إن كارثة العراق لا تكمن في الأخطاء أو في غياب التخطيط، ولكن في الإصرار على تجاهل رغبة الناس في مقاومة الاحتلال"، ويرى الكاتب أن "معظم العراقيين يعتقدون أن وجود جنود أجانب في بلدهم هو المصدر الأهم للعنف، وأن ٧٠ في المائة من العراقيين يريدون أن يرحل

أولئك الجنود.

❖ وفي استطلاع جديد صدر في الولايات المتحدة في ٢٨ أبريل ٢٠٠٨م من إعداد مؤسسة "جالوب" أن غالبية المواطنين الأمريكيين مستاءون من قرار حكومتهم بشن حملة غزو لاحتلال العراق عسكرياً، وأكد ٦٣ بالمائة من الأمريكيين الذين شملهم الاستطلاع، أن الولايات المتحدة وقعت في كارثة عندما قامت إدارة الرئيس جورج بوش بإرسال قوات عسكرية إلى العراق، وهو معدل يزيد ستة بالمائة عن آخر استطلاع مماثل أجري في شهر ديسمبر الماضي، وكانت حملة احتلال العراق قد انطلقت في شهر مارس عام ٢٠٠٣م للسيطرة على العراق وثرواته وإحداث تغييرات استراتيجية بعيدة المدى في منطقة الشرق الأوسط.

❖ في الأول من مايو ٢٠٠٣م وقف الرئيس الأمريكي على حاملة الطائرات (يو أس أس) وأعلن بكل غرور انتهاء العمليات الحربية في العراق وسط تصفيق وتهليل جنوده وكانت خلفه يافطة مكتوب عليها نفذت المهمة وبعد مرور خمس سنوات على العدوان على العراق وفي الأول من مايو ٢٠٠٨م أعلنت المتحدثة باسم البيت الأسود "الأبيض" ندم البيت الأبيض على تلك التصريحات وأن اليافطة لم تكن دقيقة.

❖ في ٣ مايو ٢٠٠٨م ذكرت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية أن الإدارة الأمريكية في حاجة إلى إستراتيجية واضحة للخروج من النفق العراقي المظلم، مؤكدة أن من يرغب في وظيفة بوش عليه أن يصرّ على التعاطي الآن مع هذه المشكلات، وأضافت الصحيفة في افتتاحيتها ليوم السبت، أن الرئيس الأمريكي جورج بوش لن يتمكن من أن يعيش مع الخطأ الذي ارتكبه عندما تكلم عن "إنجاز المهمة" في العراق، وأكدت أن المهمة الوحيدة التي ينبغي إنجازها الآن هي الخروج المنظم من العراق، وهو ما لم يقر به بوش

حتى الآن، ولا حتى المرشح الجمهوري للرئاسة جون ماكين، وأشارت إلى أن الأمر يبدو مضللاً للغاية خلال مضي بوش في حربه على العراق التي كلفت ما يقارب ٥٢٦ مليار دولار، لذلك فحري بالمترشحين الديمقراطيين باراك أوباما وهيلاري كلينتون إحياء النقاش بشأن العراق، وممارسة الضغط على البيت الأبيض للخروج من نفق الحرب المظلم.

❖ وبنفس التاريخ ٣ مايو ٢٠٠٨م نشرت مجلة التايم الأمريكية جزء من مذكرات قائد القوات الأمريكية في العراق من عام ٢٠٠٣م إلى ٢٠٠٨م قال الجنرال سانشيز: "الجميع كان يدرك أن الولايات المتحدة فشلت تماماً في تحقيق أي هدف أثناء السنة الأولى لنا في العراق، وفي هذا الوقت كانت مئات المليارات تهدر مقابل لا شيء، ولم يكن الأمر خافياً على أحد والكل كان قد عرف ذلك بمن فيهم كوندوليزا رايس، جورج تينيت، وكولن باول، ونائب الرئيس تشيني والرئيس بوش أيضاً كان يعرف "مئات المليارات من الدولارات من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين أنفقت في أمور غير ضرورية على الإطلاق، ولازال الأمر حتى الآن مستمر حيث نفقد مصادرنا العسكرية الثمينة ويسقط جنودنا جرحى ومصابين بدون داع ويتعرضون للقتل بسبب ما أعتقد أنه عجز كامل وشامل وإهمال للواجب من جانب إدارة بوش.

انتهت أهم النقاط التى ظهرت على سطح السياسة الأمريكية فى ٢٠٠٨م نتيجة جهاد الشعب العراقى.

ولم يتأخر أوباما فقد أعلن عن خطته للانسحاب فى حملته الانتخابية، وعقب توليه رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية قال المتحدث باسم البيت الأبيض روبرت جيبس فى ٢٧ فبراير ٢٠٠٩م إن الرئيس الأمريكي باراك أوباما أجرى محادثات هاتفية اليوم (الجمعة) مع رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي فيما يتعلق بخطة انسحاب الجيش من العراق.

ولكن لا يفوتنا الإشارة إلى أن الانسحاب الأمريكي لن يكون كاملاً فكما صرح أوباما فى نفس التاريخ فبراير ٢٠٠٩م في كلمته أمام البحرية الأمريكية في كامب ليجوني في نورث كارولينا أن خطة انسحاب معظم القوات الأمريكية من العراق ستتم في غضون ١٨ شهراً على أن يتم بقاء ٣٥ ألف إلى ٥٠ ألف جندي من إجمالي عدد القوات الحالية البالغ ١٤٠ ألف جندي، وهو ما يؤكد بقاء الوجود الأمريكي المحتل فى قواعد عسكرية ثابتة.

وأخيراً يهمني التنبيه إلى أن المحتل الأمريكي لم يترك الساحة وينسحب بتلك الطريقة وينكمش فى قواعده، إلا بعد أن اطمأن إلى وجود القوات البديلة وهى خطة قديمة استعمارية بريطانية نفذتها بريطانيا فى بلاد عربية وإسلامية كثيرة فلم تنسحب بقواتها العسكرية إلا بعد أن اطمأنت إلى وجود الطابور الخامس التغريبي العلماني المهيمن على مقاليد إدارة الحكم فى البلاد.

وفي العراق كما نجحت المقاومة العراقية الباسلة فى إجبار المحتل الأمريكي على خطة الانسحاب فهي صاحبة الفضل الأول والأخير إلا أن المحتل يرفض أن يعطي المقاومة ثمارها فعمل على:

(١) ترسيخ الحرب والعداوة الطائفية والمذهبية والعرقية بكل السبل عملاً بالقاعدة الاستعمارية فرق تسد.

(٢) وأيضاً عمل على تغيير التركيبة السياسية للحكم بتولية (الشيعة) مقاليد إدارة حكم بلد غالبيته من (السنة) لإبقاء الصراع الطائفي مشتعلاً فيظل العراق ضعيفاً منقسماً.

(٣) عمل المحتل على ضرب المقاومة بزرع الخلافات بين فصائلها وتسويق الخلافات وتنفيذ عمليات عنف ضد المدنيين وإلصاقها بالمقاومة لتشويهها وتسويق التشويه عبر وسائل الإعلام العربية العميلة له.

(٤) عمل المحتل الأمريكي على ترك النفوذ الإيرانى الفارسي فــى العــراق ليستخدمه فزاعة للدول العربية المجاورة وفى نفس الوقت يوقع الإيرانيين فى الحرب الداخلية ويستفيد من تناقضات الوضع العراقي في تحقيق وجوده الدائم فى المنطقة.

ويبقى أنه كما استطاعت المقاومة العراقية الباسلة بتضحياتها وجهادها أن تجبر أكبر قوة فى العالم على خطة للانسحاب من العراق حتى لو بقــى لهــا قواعد فإن المقاومة العراقية قادرة بإذن الله بــإخلاص جهادهــا لله وتوحيــد الصف ونبذ الخلافات وفهم وإدراك خطط العدو المحتل وأذنابه من العمــلاء على إحباط كل خططه وذلك بحكمة تضع الوعي الــسياسي المتكامــل مــع جهادها لتحرير العراق بحيث يكون الجهاد والمقاومة شاملة على كل الــسبل وبكل الطرق الإعلامية والسياسية تفضح مخططات المحتل وأذنابه من الــذين باعوا العراق بثمن بخس فى سوق العمالة ويكون ذلك مع العمليات العسكرية التى تزلزل العدو وتحقق القوة للخطاب المقاوم السياسي حتى يــسمع العــالم صوت المقاومة العراقية وهدفها الحرية للشعب العراقــي المــسلم لا شــكل الحرية المصنوعة كذباً فى البنتاجون مع العملاء.

والنصر بإذن الله للمجاهدين المقاومين من أجل حقهم وحق شــعبهم فــى الحرية والعدل والاستقلال التام.

ملف العدد
حقوق الإنسان العراقي.. وشواهد الانتهاك

واقع حقوق الإنسان العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي

د. نايف الشمري[1]

مقدمة

ترتبط قضية حقوق الإنسان بشكلٍ مباشرٍ بقضية وجوده ذاتياً، ونقطة الارتكاز فيها هي الإنسان بحكم إنسانيته، وبصرف النظر عن شكله أو لونه أو جنسه أو مهنته أو مذهبه له حقوق معينة ومحددة، على جميع الناس والمجتمعات والحكومات أن ترعاها وتحافظ عليها.

وإن البعد الأهم فيها ليس الاعتراف بها فقط، وإنما توفير الضمانات القانونية والأخلاقية وإعلاء شأنها؛ لذلك أصبح الجهد القانوني الدولي عبر الكثير من المواثيق والإعلانات والتوصيات والاتفاقيات الدولية ذات طبيعة عالمية ملزمة، وواحدة لا تقبل التجزئة.

وبعد قيام الولايات المتحدة الأمريكية والقوات المتحالفة معها بغزو العراق وإسقاط حكم صدام حسين، أصبحت أوضاع حقوق الإنسان في البلاد متردية، وقد أسفر نشر القوات التي تقودها الولايات المتحدة في العراق والمواجهة المسلحة معها عن سقوط آلاف القتلى في صفوف المدنيين وانتهاكات واسعة النطاق في ظل النزاع المتواصل، إذ يعيش العراق ظروفاً أمنية وسياسية واقتصادية صعبة وقاسية بسبب ما ترتكبه قوات الاحتلال

---

[1] مدرس في كلية القانون، بجامعة تكريت، العراق.

الأمريكي والأجهزة الحكومية من انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، وتفشي الفوضى والفساد في الأجهزة الإدارية، فضلاً عن تدخلات دول إقليمية بحيث أصبح العراق ساحة لتصفية الحسابات الدولية والصراعات الطائفية، ولعل ظاهرة التهجير القسري التي تعاني منها شرائح مختلفة من المجتمع العراقي، بخاصة الطوائف والأقليات الدينية والقومية والمذهبية واحدة من النتائج الخطيرة التي أفرزها الواقع العراقي.

ومنذ دخول الاحتلال الأمريكي للعراق ازداد الوضع الأمني سوءاً وفوضى يوماً بعد آخر حتى فقد المواطن العراقي حقه في حياة آمنة؛ لذا ومن أجل تحسين واقع حقوق الإنسان العراقي فيجب على قوات الاحتلال والحكومة العراقية، اتباع قواعد أساسية ومناهج جديدة في تعاملها مع الشعب العراقي من أجل وضع الحلول للانتهاكات التي ترتكب، وهذا ما سوف نعالجه في هذا البحث عبر المباحث الآتية:

المبحث الأول: سيتناول الاحتلال وماهية حقوق الإنسان

المبحث الثاني: سيتضمن انتهاكات حقوق الإنسان في العراق

المبحث الثالث: سيُعالج آليات تطوير حقوق الإنسان في العراق

المبحث الأول

الاحتلال وماهية حقوق الإنسان

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ماهية الاحتلال

أولاً: معنى الاحتلال:

- **الاحتلال لغةً:** هو لفظ من ألفاظ الافتعال، ويعني تعمد إزاحة الشيء عن محله ليحل محله شيء غيره.

• **الاحتلال اصطلاحاً:** هو وضع ناجم عن احتلال جيش دولة ما لأراضي دولة أخرى، مع ما يستتبع ذلك من قيام ظروف خاصة تزول فيها سلطة الحكومة الشرعية للبلاد أو للمنطقة المحتلة فتصبح القوة الغازية المهيمنة على إدارة المنطقة المحتلة، وبالتالي تقوم بدور السلطتين التشريعية والتنفيذية لضمان مصالحها الخاصة، وخلق أوضاع تمكنها من استغلال ثروات الأرض المحتلة، وفرض السياسات التي تناسبها وتضطر في بعض الأحيان إلى احترام حد أدنى من الحقوق الوطنية (حقوق الأفراد وحقوق الملكية[١]).

وقد يحدث الاحتلال مع الإبقاء على الحكومة المحلية كواجهة أو أداة لتنفيذ أوامر المحتل وتوجيهاته، فطالما خضعت الحكومة المحلية لأوامر وتوجيهات الطرف الآخر فهي مغلوبة على أمرها، وهذا لا يخرجها عن وصف الاحتلال، وإنما تكون صورة من صور الاحتلال.

ثانياً: متى يبدأ الاحتلال:

يعتبر الإقليم محتلاً إذا أصبحت الدولة التي ينتمي إليها لا تستطيع، على أثر الغزو الذي تقوم به الدولة المعتدية ممارسة سلطاتها العادية فوقه من الناحية الواقعية والفعلية، ومع قيام الدولة الغازية بحفظ النظام هناك (م٤١ من قواعد الحرب البرية التي تبناها مجمع القانون الدولي عام ١٨٨٠م)، ويفترض الاحتلال أمرين: حيازة الإقليم"Corpus"، وتوافر نية اكتساب السيادة عليه [٢]"Animus".

---

[١] ياسين صلاواتي، الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، المجلد (١)، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٢٢٧.

[٢] أحمد أبو الوفا، القانون الدولي والعلاقات الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٧٢-٤٧٣.

وتقضي أبسط القواعد الدولية، أن الإقليم يعتبر محتلاً حينما يوضع تحت سلطة الجيش المعادي أو القيادة العسكرية لهذا الأخير من الناحية الفعلية، حيث أن سلطة الحكم قد انتقلت إلى المحتل من حيث الواقع.

ويحكم الاحتلال الحربي العديد من القواعد، التي تم تقنسين أغلبها في اتفاقية جنيف الخاصة بحماية المدنيين وقت الحرب لعام ١٩٤٩م (وتعرف باسم اتفاقية جنيف الرابعة) واتفاقية لاهاي بشأن قوانين وأعراف الحرب البرية المعقودة عام ١٩٠٧م، وكذلك قوانين الحرب البرية التي تبناها مجمع القانون الدولي عام ١٨٨٠م.

وتعد كل أرض محتلة عندما تكون تحت السيطرة والإدارة الفعلية لمحتل ما، ولا تتضمن اتفاقيات جنيف تعريفاً للاحتلال، وإن كانت الاتفاقية الرابعة تشمل نصوصاً يمكن أن تنطبق بفحواها على وصف الأراضي المحتلة (المواد ٢٧-٣٤ من الاتفاقية الرابعة) وهي مكملة للائحة لاهاي ١٩٠٧م التي تنص على تعريف الاحتلال[1]، وتنص المادة ٤٢ من لائحة لاهاي على التعريف التالي: ((تعتبر أرض الدولة محتلة حين تكون تحت السلطة الفعلية لجيش العدو ولا يشمل الاحتلال سوى الأراضي التي يمكن أن تمارس فيها هذه السلطة بعد قيامها)).

ثالثاً: واجبات سلطة الاحتلال تجاه سكان الأراضي المحتلة:

تقع واجبات سلطة الاحتلال في كل من لائحة لاهاي، وفي المواد ٢٧-٣٤-٤٧-٤٨ من اتفاقية جنيف الرابعة التي تكمل لائحة لاهاي، وفضلاً عن ذلك تنطبق المواد من ١٣-٢٦ من اتفاقية جنيف الرابعة على الأشخاص المحميين في الأراضي المحتلة، وأيضاً على رعايا الدول الأطراف في النزاع

---

[1] جيمس بول وسيلين ناهوري، الحرب والاحتلال في العراق، ترجمة مجد الشرع، مراجعة هيثم مناع وعمر الأيوبي، تقرير للمنظمات غير الحكومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٥.

(أي رعايا سلطة الاحتلال)، ويتعين على سلطة الاحتلال القيام بعدد من الواجبات من بينها[1].

- تجميع الجرحى والمرضى والغرقى وتقديم الرعاية لهم دون تمييز وبغض النظر عن الطرف الذي ينتمي إليه (م ١٦من اتفاقية جنيف الرابعة).
- معاملة الأشخاص الموجودين تحت سيطرتها معاملة إنسانية (م ٢٧).
- عدم إرغام الأشخاص المحميين على الخدمة في قواتها المسلحة (م ٥١).
- ضمان الإمدادات الغذائية والطبية للسكان (المادتان ٥٦-٥٧).
- الموافقة على عمليات الإغاثة لصالح سكان الأرض المحتلة إذا كان السكان كلهم أو قسم منهم لا تصلهم المؤن الكافية (م ٥٩).
- توزيع شحنات الإغاثة على سكان الأرض المحتلة دون تحويل مسارها أو مصادرتها لصالحها (م ٦٠).
- السماح لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر بمواصلة أنشطتها بما يتفق مع مبادئ الحركة الدولية (م ٦٣)[2].

وبالمقابل يحضر على سلطة الاحتلال حظراً مطلقاً ما يلي:

(١) القيام بأعمال الاقتصاص ضد الأشخاص المحميين وممتلكاتهم (م ٣٣).

(٢) أخذ الرهائن (م ٣٤).

(٣) النقل الجبري للأشخاص المحميين إلى أي مكان خارج الأرض المحتلة ومهما كانت الأسباب (م ٤٩ من اتفاقية جنيف الرابعة).

واجبات سلطة الاحتلال بصفتها القائمة بإدارة الأرض:

---

[1] مجلة الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، العدد ٢٥، ٢٠٠٣، www.alahwaz.org

[2] الاحتلال الأمريكي للعراق (المشهد الأخير)، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، آب، ٢٠٠٧، ص ٢٠.

يتعين على سلطة الاحتلال استعادة الأمن والنظام العام، كما يتعين عليها استعادة الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى أقرب شكل كانت عليه قبل الاحتلال.

الاحتفاظ بالقوانين السارية في البلد ما لم يحول دون ذلك ضرورة قصوى، وبموجب المادة (٦٤) من اتفاقية جنيف الرابعة ليس لقوة الاحتلال سلطة تشريعية لتغيير القوانين، فضلاً عن ذلك فإن سلطة الاحتلال محدودة أيضاً في إدارة العدالة بحيث يتعين عليها إبقاء القانون الجنائي للأرض المحتلة سارياً (م ٦٤).

وفيما يتعلق بممتلكات الأرض المحتلة ومواردها:

يحضر تدمير أي ممتلكات عامة أو خاصة (م ٥٣ من اتفاقية جنيف الرابعة) وفيما يتعلق باستخدام البترول في الأرض المحتلة يتعين اعتبار البترول في الأرض ممتلكات ثابتة ولا يجوز لسلطة الاحتلال الاستيلاء عليه مطلقاً، إذ إن ذلك يتعارض مع الطبيعة المؤقتة للاحتلال.

ويتضح من خلال ذلك إن قوات الاحتلال التي دخلت العراق كان يجب عليها أن تأخذ بالحسبان الاتفاقيات والمواثيق الخاصة كونها دولة محتلة للعراق.

المطلب الثاني

ماهية حقوق الإنسان

الفرع الاول: تعريف حقوق الإنسان:

تعود الجذور التاريخية لحقوق الإنسان إلى نضال الأفراد والشعوب عبر التاريخ ضد الظلم والطغيان، وقد ساهمت الأديان والفلسفات والحركات

الاجتماعية والسياسية في بلورة حقوق الإنسان ضمن عدة وثائق، وتعود بداية ظهور وثائق حقوق الإنسان إلى عصر النهضة الأوربية[1].

وهنالك عدة تعريفات لحقوق الإنسان، إذ يعرفها البعض بأنها ((مجموعة من الحقوق التي يتمتع أو يجب أن يتمتع بها كل فرد في المجتمع الذي يعيش فيه، وهو ما يحتم أن تكون هذه الحقوق عالمية، يتمتع بها كل فرد بصفته إنساناً دون تمييز بين فرد وآخر، كما يجب أن تجد هذه الحقوق التزاماً قانونياً بتطبيقها، وليس التزاماً أخلاقياً)).

ويحدد اتجاه آخر، مضمون ومحتوى هذه الحقوق، بتعريفها بأنها((تلك الحقوق غير القابلة للتجزئة أو المساس بها، والتي تجب للإنسان لكونه إنساناً، والتي تهدف لتحقيق كرامة كل إنسان، فضلاً عن أنها تشكل التزاماً قانونياً سواء على المستوى الوطني أو الدولي[2])).

الفرع الثاني: أجيال حقوق الإنسان:

١- الجيل الأول: جيل الحقوق المدنية والسياسية، وهو جيل حقوق الفرد والمواطن ويشمل حق الإنسان في الحياة وفي الاعتراف له بالشخصية القانونية وعدم الخضوع للتعذيب والحق في الأمان وعدم رجعية القوانين وحرمة الحياة الخاصة وحرية التنقل والإقامة وحق اللجوء وحرية الفكر والتعبير وحرية تكوين الجمعيات وحق المشاركة في إدارة الشؤون العامة وحق الملكية[3].

---

[1] باسل يوسف، في سبيل حقوق الإنسان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٤.

[2] مصطفى عبد الغفار، ضمانات حقوق الإنسان على المستوى الإقليمي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، بلا، ص ١٣-١٤.

[3] فاتح سميح عزام، الحقوق المدنية والسياسية في الدساتير العربية / حقوق الإنسان في الفكر العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٩٨٩-٩٩٧.

٢- الجيل الثاني: جيل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي تشمل الحق في العمل والحقوق النقابية، والحق في مستوى معيشي جيد، والحق في الضمان الاجتماعي والحقوق العائلية والحق في الصحة والتربية والتعليم والحقوق الثقافية والمساواة في التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

٣- الجيل الثالث: جيل حقوق الإنسان الجديدة، إذ يؤكد هذا الجيل على ضرورة التضامن بين البشرية جمعاء في مواجهة التحديات التي تعترضها ويمكن أن تهدد بقاءها ومن أمثلة حقوق هذا الجيل حق الشعوب في السلم والحق في التنمية والحق في بيئة نظيفة[١]، وتعد هذه الحقوق حقوقاً كونية.

المبحث الثاني

انتهاكات حقوق الإنسان في العراق

بعد دخول الاحتلال الأمريكي للعراق عانى الشعب العراقي من الانتهاكات الكثيرة سواءً على أيدي قوات الاحتلال، أو ما مارسته الميليشيات الطائفية، ووصول هذه الانتهاكات إلى مرحلة خطيرة تهدد بها مكونات الشعب العراقي؛ وقد تعددت هذه الانتهاكات على مختلف الجوانب سواء على الصعيد السياسي أو الأمني أو الاقتصادي أو الإداري هذا فضلاً عن جوانب أخرى مهمة وسوف نتناول ذلك في هذا المبحث وعلى النحو الآتي:

---

[١] رياض عزيز هادي، حقوق الإنسان، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠٠٥، ص ٩١ –٩٤.

المطلب الأول

الاعتقالات ومداهمة المنازل والأوضاع

في السجون والمعتقلات

الفرع الأول: الاعتقالات ومداهمة المنازل:

منذ دخول القوات المحتلة إلى العراق والقوات الأجنبية مستمرة في عمليات الاعتقال الجماعي للأشخاص دون إنذار مسبق، على الرغم من عدم شرعية هذه الاعتقالات[1]، وما ترافقه عملية دهم المنازل من سوء المعاملة للعوائل الساكنة وعمليات السرقة التي تحدث[2]، وعلى الرغم من هذا الأمر فإن أغلب العوائل التي يعتقل أفرادها لا تستطيع معرفة مصير أقاربها الذين اعتقلوا على أيدي قوات الاحتلال وإلى أي معتقل قد أخذوا[3]، وهذا ما أشارت إليه تقارير المنظمات المعنية بحقوق الإنسان وتقارير الأمم المتحدة بالعراق[4]، فضلاً عن ما تقوم به الميليشيات الطائفية من عمليات الهجوم على مناطق سكنية معينة وممارسة عمليات الاعتقال والتعذيب والقتل بدون أي مسوغ قانوني وخطف رجال الأعمال وأصحاب الأموال ومطالبتهم بمبالغ نقدية طائلة[5].

---

(1) بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٣٢-١٣٣

(2) التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان في العراق لعام ٢٠٠٦، شبكة النبأ المعلوماتية، ص٧ www.annabaa.org

(3) عماد علو، أضواء على تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة حول: انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٢٥، مركز دراسات الوحدة العربية، أذار، ٢٠٠٦، ص ١٠١.

(4) الحرب على العراق، يوميات – وثائق – تقارير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، آذار، ٢٠٠٧، ص ٧٦٥.

(5) فاضل الربيعي، ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٠٢.

الفرع الثاني: الأوضاع في السجون والمعتقلات:

تعتبر قضية المعتقلين العراقيين من الملامح البارزة في مشهد انتهاك حقوق الإنسان العراقي[١]، وخاصة في سجون الاحتلال الأمريكي وهي أربعة معتقلات أساسية (سجن بوكا في البصرة، وسجني أبو غريب وكروبر في بغداد، وفورت سوسا بالقرب من السليمانية)، فضلاً عن مرافق الاحتجاز لمختلف الألوية التابعة لقوات الاحتلال[٢].

وقد انصب اهتمام دولي ومحلي كبير على ما يعانيه المعتقلون العراقيون من سوء المعاملة في المعتقلات ومن ممارسة شتى أنواع التعذيب، التي شملت التعذيب الجسدي بالضرب والتكبيل بالقيود الحديدية، وتركهم معلقين في قضبان النوافذ وأبواب الزنازين في أوضاع مؤلمة لعدة ساعات، فضلاً عن التعذيب النفسي الذي شمل تعرية المعتقلين من جميع ملابسهم وتصويرهم، والاعتداء الجنسي عليهم وغيرها من الوسائل التي تمس بكرامة المعتقل العراقي[٣].

فمنذُ غزو العراق من قبل قوات الاحتلال اعتقلت عشرات الآلاف من الأشخاص من دون توجيه التهم إليهم أو المحاكمة، ومن دون إعطائهم الحق في الطعن بشرعية اعتقالهم أمام هيئة قضائية[٤]، وهذا ما يتنافى مع القانون،

---

[١] هيومن رايتس ووتش، العراق الجديد / تعذيب المعتقلين وإساءة معاملتهم في حجز السلطات العراقية.www.hrm.org

[٢] منظمة العفو الدولية، الاعتقال والتعذيب في العراق بعد إحداث أبو غريب، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، العدد ٣٢٦، ص ١٠٣.

[٣] خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٣٤٤.

[٤] مجموعة من الباحثين، إستراتيجية التدمير: آليات الاحتلال الأمريكي للعراق ونتائجه (الطائفية – الهوية الوطنية – السياسات الاقتصادية)، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٦٥.

بحيث إنه لا يجوز توقيف أي مواطن من دون أمر قضائي صادر من محكمة مختصة فضلاً عن إن نظام الاعتقال الأمني الذي تطبقه قوات الاحتلال في العراق تعسفياً، وينتهك حقوق الإنسان الأساسية، إذ إن جميع المعتقلين يتمتعون بالحماية بموجب المادة التاسعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية التي تنص على أنه لا يجوز تعريض أحد للاعتقال التعسفي[١].

ومن صور الاحتجاز أيضاً ما يعرف بالاحتجاز السري، حيث تم اعتقال أعداد غير قليلة في العراق من دون أن يسمح لهم بأي اتصال بالعالم الخارجي، وإخفائهم من دون أن يعلم أحد بمصيرهم وأين مكان اعتقالهم، وهذا ما يعد من بين الانتهاكات الخطيرة للمعايير الدولية، وقد جرى الأمر على تسمية هؤلاء المعتقلين باسم (المعتقلين الأشباح)، وإن أغلب هؤلاء المعتقلين يلقون حتفهم لما يتعرضون له من التعذيب[٢].

يضاف إلى ذلك ما يعرف بالمعتقلين ذوي (القيمة العالية)، وهؤلاء المعتقلون من كانوا يشغلون مناصب رفيعة في عهد النظام السابق ويحتجز هؤلاء المعتقلون في معسكر كروبر في مطار بغداد، ويتعرضون لشتى أنواع التعذيب وسوء المعاملة مما أدى إلى حدوث وفيات فيما بينهم، كما أنهم يحرمون من الزيارات من قبل ذويهم إلا في حالات نادرة[٣].

---

[١] منظمة العفو الدولية، المصدر السابق، ص ٨٨.

[٢] تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان حول فضيحة أبو غريب، دار الخليج ص ٤.

[٣] مركز بغداد للدراسات والاستشارات، نص تقرير الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان في العراق، ص٢٤ .http:uraedalhamed.jeeran.com.

وإن أغلب المعتقلين لدى قوات الاحتلال لا يسمح لهم الاتصال بالعالم الخارجي باستثناء ما تقوم به اللجنة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وفق شروط معينة، ولا نجد وجود أنظمة أو لوائح محددة تتعلق بحق المعتقلين في مقابلة الأقرباء، فلا يسمح لهم خلال الأسابيع الأولى التي تلي التوقيف بمقابلة عوائلهم، ويرجع السبب في ذلك إلى رغبة قوات الاحتلال لممارسة التعذيب من أجل الحصول على المعلومات، أو أن أهالي المعتقل لا يعرفون مكان اعتقال أبنائهم.

أما بالنسبة لزيارة المحامين للمعتقلين فلا يحق لهم ذلك إلا بعد مرور ستين يوماً على الاعتقال، ويرى البعض أن زيارة المحامي على هذه الشاكلة ليس لها فائدة وذلك بسبب أن قوات الاحتلال لجأت إلى استخدام التعذيب الجسدي في استحصال المعلومات، وكذلك حتى لو أن المعتقل قد حظي بفرصة مقابلة المحامي، فإن هذا قد لا يفيده بشي، إذ ما فائدة المحامي بدون أن يعرض المتهم على محكمة مختصة، حيث إن أغلب المعتقلين لا يعرضون على المحاكم على الرغم من مضي فترات زمنية تتجاوز الثلاث السنوات، أما بالنسبة لهيئات المراقبة الدولية فلم تتمكن اللجنة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر إلا من زيارة عدد محدد من مرافق الاعتقال الكبيرة، بحجة الاعتبارات الأمنية في معظم الأحيان[1]، وقد وضعت قوات الاحتلال إجراءات تحرم المعتقلين من تمتعهم بما كفلته حقوق الإنسان والمعايير الدولية لهم، حيث تنكر على المعتقلين حقهم في الطعون القانونية بسبب اعتقالهم أمام

---

[1] بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١٣٩.

المحاكم، وبقاء البعض منهم مدة طويلة قد تزيد عن ثلاثة أعـوام، مـن دون إحالتهم إلى المحاكم[١].

وأيقنت الهيئات الدولية المهتمة بحقوق الإنسان، إن قوات الاحـتلال لـم تضع الضمانات الكافية لحماية المعتقلين من التعذيب أو سـوء المعاملـة، إذ على الرغم من تردد الأنباء عن كثرة الانتهاكات في المعتقلات إلا أن قـوات الاحتلال مستمرة في ممارسة الانتهاكات ضد المعتقلين وغير مهتمة بالنداءات الداعية إلى وقف هذه الانتهاكات[٢].

ولم يقتصر الأمر على المعتقلين من الرجال بل تعـداه إلـى انتهاكـات خطيرة تعرضت لها النساء والأطفال داخل معـتقلات الاحـتلال الأمريكـي، حيث تعرضت الكثير من النساء إلى سوء المعاملة وممارسة عمليات التعذيب والتهديد بالاغتصاب، وفي حالات كثيرة تم الاعتداء واغتـصاب نـساء أدى بالنتيجة إلى حملهن، وهذا ما حصل في سجن أبو غريب[٣].

المطلب الثاني

ظاهرة التهجير القسري والقتل على الهوية والكفاءة

الفرع الأول: ظاهرة التهجير القسري:

شهد العراق خلال سنوات الاحتلال تهجيراً قسرياً لأسباب طائفية وعرقية طالت مختلف مناطق العراق دون استثناء حتى وصل عدد المهجـرين فـي

---

(١) بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، التقرير الخاص بحقوق الإنسان، ٣١ آب ٢٠٠٥، العدد ٣٣٣، ص١٤٦-١٤٧.

(٢) عماد علو، مصدر سابق، ص ١٠١.

(٣) بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة في العراق، انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، المصدر السابق، ص ١٣٣.

الداخل إلى مليوني نسمة[1]، وهذا ما أشارت إليه إحصائية (لـوزارة الهجـرة والمهجرين)، حيث ذكرت إن عدد العوائل المهجرة بلغ (٢٦٨٥٨) في مختلف محافظات العراق عدا إقليم كردستان، حتى الشهر الخامس من عـام ٢٠٠٧م، موزعة على محافظة بغداد (٤٦٤٢)، محافظة المثنـى (١٥٨٥)، محافظـة واسط (٢٢٩٠)، محافظة ميـسان (١٨٣١)، محافظـة ذي قـار (١٦٦٨)، محافظة البصرة (١٠٤٠)، محافظة كربلاء (٣١٢٠)، محافظة بابـل (٧٠٠)، محافظة القادسية (٦٥٠)، محافظة النجف (٢٧١٠)، محافظة الأنبار (٩٠٠)، محافظة ديالى (٢٢٤٠)، محافظة صلاح الدين (٢٥٠٠)، محافظة كركوك (٢٧٤)، محافظة نينوى (٧١٣)[2]، مع العلم إن هذه الإحـصائية تمثـل فقـط أولئك المسجلين في مخيمات الهلال الأحمر العراقي في مختلـف محافظـات العراق، وإن الأرقام الرسمية لم تشمل أولئك الذين فروا إلى أقاربهم أو انتقلوا من حي لآخر في العاصمة بغداد، وبهذا فلا يمكن معرفة الأرقـام الحقيقيـة للعوائل النازحة، ومما لاشك فيه إنها أكبر من الأرقام المعلنة[3]، فـالوزارات ذات العلاقة أعلنت جهلها بأعداد المهجرين إلى الخارج كون الأمر خارج عن سيطرتها، طالما أن المواطن يمتلك حرية التنقل والسفر، وبحـسب مـصادر أردنية وردت في العام ٢٠٠٦م، فإن ما يقارب المليون مواطن عراقي فـروا إلى خارج العراق قاصدين الأردن إما هرباً من حـالات الانفـلات الأمنـي

---

(١) التقرير النهائي للمجموعة المستقلة لمراجعة عمليات الاعتقال من جانب وزارة الدفاع الأمريكية، مجلـة المستقبل العربي، العدد ٣٠٨، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ص ٦٥.

(٢) منظمة العفو الدولية، المصدر السابق، ص ٨٨-١٣٠

(٣) Gold and rone, (more tumult besets guard unit in Iraq), los angles times 2005/7/72م.

وانعدام سلطة القانون أو بسبب تلقيهم تهديدات من مصادر مختلفة بالرحيل عن منازلهم[1].

ويلمس المراقب للحدث العراقي عن كثب ومن غير مصاعب كبيرة، بأن موضوع المهجرون أو ما يصح أن نطلق عليه (بالتهجير الطائفي والعرقي)، قد بدا أول الأمر بصورة بسيطة في الأوساط السياسية والاجتماعية المصحوب بالقلق واستنكار الشارع الواسع ولا سيما من الطبقات والشرائح المتنورة، ولكن انتهى الأمر منذ أكثر من عامين ونصف تقريباً من الشكوك والحيرة إلى الحالة العلنية، وانتقل الموضوع ليصبح حديثاً يخرج عن كونه حالة منفردة بل ظاهرة عيانية مشفوعة بالأدلة والأسماء والأماكن، مقرونة بلغة إحصائية تؤشر أزمنة وأمكنة وأعداد تنطبق عليهم هذه الظاهرة، ومن الملاحظ أن الظاهرة برزت بشكل واضح بعد تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء، وهذا لا يعني أن النزوح لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ولكن تفجير المراقد الدينية وسع ظاهرة التهجير القسري[2]، وكان مما ساعد على ذلك هو ضعف الأجهزة الحكومية الأمنية في توفير الوسائل اللازمة لمعالجة الأزمة أو بالتصدي لها.

ويمكن إجمال أهم الأسباب التي كانت وراء ظاهرة التهجير القسري:

١- الاحتلال الأمريكي فهو يمثل الأرضية الخصبة لنشوء أي توتر في كل موقع يطأه وهو منشأ الصراعات في أكثر الدول التي تم احتلالها.

---

[1] ياسر البياتي، تفكيك المشهد العراقي مفخخات الطائفية السياسية والإعلامية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٤٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تشرين الثاني، ٢٠٠٧، ص ٤٤.

[2] الجمعية العراقية لحقوق الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية، بيان حول جريمة التهجير القسري.www.hrinfo.net.

٢- وجود أجندة خارجية في محاولة لتفكيك العراق ناتجة من خطر العـــراق المؤرق لبعض الأطراف، والناشئ من إرث تاريخي طويل ومحاولـــة تفتيتـــه إلى أجزاء متصارعة يسهل السيطرة عليه.

٣- عوامل داخلية متمثلة بصراعات سياســية اســتخدمت الورقــة الطائفيــة كوسيلة تهديد أو ضغط على الأطراف الأخرى في محاولات لتمرير مشاريع خاصة.

٤- ما رافق العملية السياسية عبر تشكيل مجلس الحكم الذي أنــشأه الحــاكم المدني (Paul Primer) على أسس المحاصصة الطائفية والقوميــة، التــي أسست بدايات التوتر والاستقطاب الطائفي وانتقال هذا التــوتر إلــى منــاطق العراق كافة.

يتضح مما سبق أن عمليات الترحيل والتهجير إنما هي وسيلة من الوسائل المتبعة في خلق الحروب الأهلية، وما جرى في البوسنة والهرسك من تهجير وتغيير في التركيبة السكانية وغيرها من دول العالم خير دليل علــى النتــائج المدمرة على مثل تلك المخططات والتي ما زالت تعاني الــدول منهــا علــى الرغم من انتهائها قبل أعوام عدة، وإن خطورة التهجير القسري تــأتي مــن كونها تهدد النسيج العراقي، ذلك النسيج الجميل الــذي تتبــاهى وتفخــر بــه الأجيال العراقية جــيلاً بعد جيل[1].

الفرع الثاني: القتل على الهوية:

لعل من أهم الملامح التي يشهدها العراق في ظل الاحتلال الأمريكي، هو الاقتتال الطائفي (القتل على الهوية)، حتى أصبحت هذه الحالة أمــراً يوميــاً ومنتشراً في العراق، وما يصاحب عمليات القتل من تعذيب جــسدي، حتــى

---

[1] بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، التقرير الخاص بحقوق الإنسان، مصدر ســبق ذكــره، ص ١٣٠-١٣١.

أصبح ما يحصل في العراق من اقتتال طائفي يذكرنا بـآلاف القتلـى الـذين سقطوا في الحرب الأهلية اللبنانية التي خلفت دماراً في كل شيء مـا زالـت آثاره حاضرة إلى حد الآن[1].

إن دوافع الاقتتال الطائفي في العراق تعددت وتشعبت، إلا أن من بين أهم الأسباب المؤدية إلى الاقتتال هو التنافس والصراع السياسي الحاصـل بـين الطوائف الإسلامية وبين القوميات والعشائر المختلفة من أجل الحصول علـى مكاسب في العملية السياسية، وتقسيم الفوائد من مناصب ووظـائف وثـروات على نفس الأسس، وهكذا بدأت كل كتلة تابعة لمكون من مكونـات الـشعب العراقي تعمل بكل ما أوتيت من قوة لتحقيق أهدافها على حساب الكتل التابعة للمكونات الأخرى، مما مهد للقوات المحتلة أن تجند العديد من المرتزقة الذين دستهم داخل أجهزة الدولة والقوات الأمنية[2].

ومن بين الدوافع الأخرى أن العراق قد تم اختراقـه مـن قبـل أجهـزة المخابرات لدول لها مصلحة في التدخل في الشؤون العراقية، وإطالـة حالـة التدهور الداخلي من أجل دفع الخطر المحدق بها وإفشال المشروع الأمريكي لها في العراق وإبعاد شبح الحرب عنها، فمن أجل ذلك نجـد بعـض الـدول تدرب وتجهز الميليشيات من أجل تأجيج الصراع والاقتتـال الطـائفي فـي العراق[3].

ولعل الخسائر والإخفاقات التي يواجهها الجـيش الأمريكـي علـى يـد المقاومة العراقية كانت الدافع الرئيسي لقيام البنتاغون بتجهيز ميليشيات غيـر نظامية بالمال والسلاح مهمتها زرع الموت والـدمار والقتـل فـي العـراق

---

[1] غازي الجبوري، هل القتل على الهوية مقدمة للشرق الأوسط جريدة الصباح.www.alsabaah.com

[2] فاضل الربيعي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.

[3] خير الدين حسيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥.

وضرب المقاومة العراقية من الداخل، وهذا ما أكدته جريدة (ماريان) الفرنسية من حالة الإحباط التي يعيشها الجيش الأمريكي إزاء إخفاقاته المتكررة، بحيث صرح وزير الدفاع الأمريكي السابق "دونالد رامسفيلد" بأن هذه الميليشيات هي الوحيدة القادرة على القضاء على المقاومة، مع العلم أن هذه التجربة لم تكن الأولى التي يلجأ إليها الجيش الأمريكي حيث سبق وأن قام بتجربتها في "السلفادور" في الثمانينات من القرن الماضي، حيث هناك وجه شبه كبير بين العصابات التي حولتها أمريكا في السلفادور وبين ما تقوم به في العراق في الوقت الحاضر.

إن هذه السياسة التي تقوم بها الولايات المتحدة لها نتائج خطيرة جداً، إذ إن تكاثر واتساع هذه العصابات أدى ويؤدي إلى تأجيج النعرات والأحقاد الطائفية[1].

الفرع الثالث: اغتيال الكوادر والعقول العلمية:

لم تقتصر الآثار والتداعيات السلبية التي ترتبت على غزو واحتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية على الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل امتدت إلى استهداف العلماء والعقول العلمية، وصولاً إلى اغتيال واختطاف أساتذة الجامعات والأطباء وغيرهم من الكوادر العلمية والمهنية، التي يناط بها مهمة بناء ونهضة المجتمع[2].

وتعددت الجهات المسؤولة عن تلك العمليات سواء كانت من جانب قوات الاحتلال أو من جانب بعض الجماعات والقوى المجهولة داخل العراق وخارجه، فضلاً عن تنوع وسائل وأساليب استهداف هذه الكوادر ما بين

---

[1] مجموعة من الباحثين، احتلال العراق: الأهداف – النتائج – المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٥.

[2] هدى عماش، مخاطر استهداف الكوادر العلمية في العراق، مركز دراسات الخليج للدراسات الإستراتيجية www.al-mohrer.net

الاغتيال والاختطاف للحصول على فدية مالية أو لدوافع سياسية أو محاولة إرغامها على الهجرة ومغادرة العراق، حيث اضطر آلاف الأكاديميين العراقيين إلى مغادرة بلادهم في السنوات الأخيرة حتى بلغ عدد الأساتذة والكوادر العلمية المهاجرة إلى أكثر من عشر آلاف شخص وفقاً لإحصائيات صادرة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ومازال الرقم في تصاعد مستمر ولم تظهر بوادر زوالها، وهذا بالتالي أدى إلى آثار سلبية خطيرة على المستوى العلمي في الجامعات مما أدى إلى غلق الكثير من الأقسام في الكليات وبخاصة في مراحل الدراسات العليا، بسبب النقص الحاصل في التدريسيين على الرغم من أن أغلب هؤلاء لا يهتمون إلا بالجانب العلمي والإخلاص لعملهم، كما أنهم بعيدون عن المجاذبات السياسية، ويظهر من سير الأحداث أن هذه العمليات لا تخص طائفة أو انتماء حزبي أو قومي أو عرقي، إنما مخطط يبدو إن منفذيه مبرمجين حسب خطط معدة لتنفيذ هذا المشروع، وفي الجانب الآخر نجد الحكومة عاجزة عن وقف استهداف العلماء مما ساعد على استمرار الجريمة وازديادها، ومما زاد في توسعها أيضاً دور المخابرات الخارجية في تزويد هذه الجماعات بالأسلحة والخبرات، وتدريبهم خارج العراق إذا اقتضى الأمر[1].

وضمن هذا الإطار فقد مثل استهداف العلماء العراقيين جانباً مهماً في توجهات وأهداف السياسة الأمريكية تجاه العراق، إذ عملت من وراء ذلك على تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها:

---

[1] هانز كريستوف فون سبونيك، تشريح العراق: عقوبات التدمير الشامل التي سبقت الغزو، ترجمة حسن حسني وعمر الأيوبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١٨٧.

١- محاولة منع العراق بعد سقوط النظام السابق من إعادة بناء قدراته العلمية وخاصة في المجالات العسكرية بعد وصوله إلى درجة متقدمة في هذا المجال.

٢- منع وصول هؤلاء العلماء إلى دول عربية أو إسلامية أخرى الأمر الذي قد يؤدي إلى تكرار تهديد العراق لإسرائيل.

٣- معرفة المصادر التي استمد منها هؤلاء العلماء خبراتهم، ومنع العلماء العرب الآخرين من التفكير في الاقتراب من مجالات البحث المحظورة من وجهة نظر واشنطن[١].

وإلى جانب الدور الأمريكي في استهداف العلماء العراقيين قامت إسرائيل بدورها في هذا الإطار، حيث أثبتت الوقائع اليومية إلى وقوف الموساد الإسرائيلي خلف سلسلة الاغتيالات وعمليات التصفية التي استهدفت علماء وأساتذة في الجامعات العراقية[٢].

وتعد ظاهرة استهداف الكوادر والكفاءات العلمية العراقية أحد التحديات الخطيرة التي تواجه الحكومة العراقية في الوقت الراهن لاسيما في ظل استمرار حالة الفوضى الأمنية وانتشار العنف وعجز القوات الأمريكية عن السيطرة على الأوضاع الأمنية في البلاد، وهو ما يتطلب ضرورة إعطاء الحكومة العراقية مزيداً من الاهتمام للأوضاع الأمنية لتوفير الأجواء الملائمة لقيام الكوادر بأداء دورها في تنمية ونهضة المجتمع والدولة العراقية[٣].

---

[١] مركز الحقيقة الدولية للدراسات، دراسة غربية تؤكد دور الحرس الثوري الإيراني في تأجيج الصراع والمواجهات الطائفية في العراق، دراسات وتحليلات.www.factgo.com.

[٢] مجموعة من الباحثين، احتلال العراق: الأهداف – النتائج – المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦

[٣] جريدة المؤتمر الوطني العراقي، الجامعات العراقية تواجه تحدياً بسبب الهجرة الواسعة لكوادرها .www.inciroq.com.

المطلب الثالث

انتهاكات حقوق المرأة وانعدام الخدمات في المؤسسات الصحية في العراق

الفرع الأول: انتهاكات حقوق المرأة في العراق:

لا تزال المرأة في العراق تعاني من تبعات الوضع المتأزم من النواحي الأمنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والذي يؤدي إلى جعلها عرضة للكثير من المخاطر والمزيد من التهميش من خلال تعرضها لشتى أنواع العنف القائم، مما أثر تأثيراً سلبياً على حياتهن، ونتج من وراء ذلك الكثير من الخروقات في مجال حقوق المرأة[1].

وتعاني المرأة في العراق من ظاهرة اختطاف النساء على أيدي العصابات والجماعات الدينية المتشددة لأسباب مختلفة تبعاً للجهة الخاطفة، وتقف الدوافع السياسية أحياناً وراء بعض عمليات الخطف، وخير مثال على ذلك ما وقع للنائبة في البرلمان تيسير المشهداني في حزيران عام ٢٠٠٦م، عندما قامت جهة مسلحة باختطافها مع ثمانية من حراسها، ولا توجد إحصائيات دقيقة عن عدد النساء المخطوفات، وذلك بسبب امتناع الأهل في الإبلاغ لدى الأجهزة الأمنية واعتماد الأهل على أنفسهم، بدفع الفدية أو غيرها في التعامل مع الخاطفين، بسبب خوف الأهل على شرف العائلة وذياع الأمر بين الناس، فضلاً عن ضعف الأجهزة الأمنية[2].

إن من بين الأسباب المهمة التي زادت في تفاقم الانتهاكات للمرأة العراقية، هي ضعف الأجهزة الأمنية وعدم سيطرة قوات الاحتلال على

---

[1] مجموعة من الباحثين، الاحتلال الأمريكي للعراق: صوره ومصائره، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٥٨.

[2] بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، التقرير الخاص بحقوق الإنسان، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠

الوضع الأمني في العراق، بل في حالات كثيرة نجد هذه الجهات هي التي تقوم بتلك الانتهاكات، وهذا ما أشارت إليه التقارير المقدمة إلى الأمم المتحدة من قبل منظمات المجتمع المدني.

فقد تمت مقابلة أعداد متزايدة من العراقيات المعتقلات من قبل منظمة العفو الدولية ممن تعرضن لسوء المعاملة والتعذيب والاغتصاب الجنسي والسجن الانفرادي لمدد زمنية طويلة وإجبارهن على الخضور عاريات، وهنا تكون عرضة للسخرية والإذلال من قبل المحققين وحراس السجن[١].

وفي حالات أخرى تتعرض النساء للقتل بدون أي ذنب سوى إنهن زوجات مسؤلين في الدولة أو زوجات أساتذة في الجامعات أو زوجات ضباط سابقين في الجيش العراقي السابق، عندما لا يستطيع المسلحون الوصول إلى أزواجهن، ومثال ذلك مقتل السيدة ميسون احمد الهاشمي شقيقة نائب رئيس الجمهورية (طارق الهاشمي)[٢].

وإن كثيراً من النساء يتم اعتقالهن بغية الوصول إلى أقربائهن أو أداة مساومة لسلطات الاحتلال على تسليم أنفسهم، وأحياناً يتم اعتقالهن بتهمة جاهزة هي ببساطة دعمهن لمقاومة المحتل[٣].

وتشير التقارير إلى أن ما بين ٩٠-١٠٠ امرأة عراقية تترمل يومياً نتيجة أعمال العنف والتفجيرات والقتل الطائفي المنتشر في العراق والعمليات العسكرية التي تقوم بها قوات الاحتلال الأمريكي، فضلاً عن تزايد القتلى من

---

[١] ندوة فكرية، إحتلال العراق وتداعياته عربياً وإقليمياً ودولياً، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٥٩٦.

[٢] بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، التقرير الخاص بحقوق الإنسان، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

[٣] عبد الوهاب حميد رشيد، حقوق المرأة العراقية في ظل الاحتلال البربري، شبكة البصرة .www.alnoha.com

النساء، إذ تشير الإحصائيات إلى أن حوالي ٥-٦ نساء يقتلن يومياً بسبب التفجيرات أو جراء الهجمات العشوائية في الأسواق المأهولة، فضلاً عن الإعدامات خارج نطاق القانون[١].

أما بالنسبة للجانب الصحي، فإن المرأة العراقية تفتقر إلى الرعاية الصحية في ظل الظروف السائدة بسبب صعوبة وصول النساء إلى المراكز الصحية، كما أن العديد من الطبيبات المختصات بأمراض النساء قمن بإغلاق عياداتهن الخاصة والهجرة خارج العراق بسبب تعرضهن لخطر القتل والاختطاف[٢].

كل ذلك وغيره جعل من المشروع القول: إن العراقية واحدة من أكثر النساء المعنفات في العالم، وإن العنف أعاق تمتعها بالحقوق والحريات الأساسية، بما يشكل خرقاً واضحاً للقانون الدولي الإنساني واتفاقيات حقوق الإنسان.

الفرع الثاني: انعدام الخدمات في المؤسسات الصحية:

أصبح القطاع الصحي من أسوأ القطاعات في العراق، وبخاصة في بغداد، إذ سيطرت الميليشيات على المستشفيات والمراكز الصحية، فالواقع المتردي في أغلب المرافق الصحية العامة يلقي بظلاله على المواطن العراقي، فالمؤسسات الصحية والمستشفيات العامة لا تقدم خدماتها بشكل

---

[١] مجموعة من الباحثين، احتلال العراق الأهداف – النتائج – المستقبل، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٧٨.

[٢] صباح البغدادي، المرأة العربية في معتقلات الاحتلال والحكومة، انتهاكات خطيرة، الرابطة العراقية www.news.albaina.com.

يتناسب وحاجة المواطن، وهذا يعود إلى عوامل عديدة يقف في مقدمتها الفساد الإداري وانعدام المتابعة والتدخلات اللامشروعة في طبيعة عملها[1].

فالقطاع الصحي في العراق بات على حافة الانهيار الشامل، وهـذا مـا أكدته تقارير منظمة الصحة العالمية حيث أكدت فيه إن الوضع الصحي فـي العراق أصبح أقرب إلى الكارثة، فتقارير منظمة الصحة العالمية تـشير إلـى زيادة كبيرة في أمراض الإسهال وباقي الالتهابـات الجرثوميـة، وأن ثلثـي الوفيات لدى أطفال العراق ممن تقل أعمارهم عن الخمس سنوات مـن هـذه الأمراض، فيما يعاني ٢٠% منهم من سوء التغذية بشكل دائـم ممـا يجعـل الأطفال عرضة لمخاطر العوق الجسدي والعقلي، وتؤكـد منظمـة الـصحة العالمية أن الأرقام التي تعلنها وزارة الصحة العراقية كانت أدق في السنوات الماضية، أما في عهد الاحتلال فالأرقام أقل دقة وذلك بسبب مـا يمـر بـه العراق من ظروف خاصة قلّ مثيلها في بلدان العالم الأخرى[2].

إن استمرار التدهور الحالي سيؤدي إلى ظهور أمراض وبائية، وهذا مـا حصل في شمال العراق حينما ظهر مرض الكـوليرا وانتـشاره فـي بـاقي المحافظات، والأسوأ من كل هذا هو نزوح الكـوادر الـصحية مـن أطبـاء وممرضين للعمل إلى خارج العراق بسبب تدهور الوضع الأمني، وهـذا مـا انعكس بدوره على تردي الواقع الصحي فضلاً عن زيادة عـدد الوفيـات، إذ تشير الأرقام المعلنة من الحكومة العراقية أن ٧٠% من الجرحى والمصابين

---

(١) شبكة النبأ المعلوماتية، التقرير الـسنوي عـن حالـة حقـوق الإنـسان فـي العـراق لعـام ٢٠٠٦م .www.annabaa.org

(٢) Dahr jamail / Iraqi Hospitals Ailing under occupation /Issued and endorsed by; the Brussels tribunal people vs. total war incorporated.

بالأمراض يموتون بسبب قلة الأطباء المختصين ونقص الأجهزة الطبية اللازمة[1].

ومما زاد في الأمر تعقيداً أن وزارة الصحة في العام ٢٠٠٦م، كانت على رأس قائمة الوزارات الأكثر فشلاً في تقديم خدماتها، وهذا ما أكده المفتش العام للوزارة إلى جانب الفساد الإداري والمالي فيها والذي بلغ مستويات خطيرة جداً، إذ إن حجم المبالغ المختلسة والمسروقة في وزارة الصحة بلغت ملايين الدولارات، وإن ظاهرة تسريب الأدوية من مخازن الوزارة والمستشفيات استفحلت ولم يعد من السهولة السيطرة عليها[2].

والصورة الأخرى للواقع المأساوي للقطاع الصحي هي في الاعتداءات المتكررة التي تتعرض لها الكوادر الصحية العاملة في المستشفيات على أيدي قوات الاحتلال والأجهزة الحكومية والميليشيات[3].

وظهرت مشاكل صحية حديثة في الآونة الأخيرة تتمثل بزيادة انتشار مرض السرطان وخاصة في المناطق الجنوبية من العراق، بسبب استخدام قوات الاحتلال لدى غزوها للعراق أسلحة غير تقليدية والتي يصاحبها عند انفجارها إشعاعات تسبب مرض السرطان، إذ لوحظ انتشار مرض "اللوكيميا" وسرطان الثدي حسب دراسة أجرتها كلية الطب في جامعة البصرة، كشفت عن ارتفاع قياسي في عدد حالات السرطان، ويشكو الأطباء من قلة الأدوية المتوفرة لمعالجة هذه الحالات ولاسيما في المراحل الأولى من المرض[4].

---

[1] الحرب على العراق: يوميات – وثائق – تقارير، مركز دراسات الوحدة العربية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨٥.

[2] نهلة جابر،الواقع الصحي في العراق، جريدة المنار، www.al-mannarah.com

[3] جريدة البصائر، العدد ٢١٢، السنة الخامسة – الأربعاء، ٢٨ تشرين الثاني ٢٠٠٧ م.

[4] مجموعة من الباحثين، الاحتلال الأمريكي للعراق، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.

إن واقع القطاع الصحي في العراق وما أصابه من إخفاقات يعود إلى عدة أسباب منها الصراعات الحزبية على المناصب الإدارية، والفساد المالي وعدم وجود مستشفيات تفي بالغرض، إذ إن الدراسات الحديثة تتطلب بناء مستشفى لكل عشرة آلاف مواطن للوصول إلى قطاع صحي فعال يخدم الإنسان، كذلك وجود فوضى دوائية تعم البلاد بسبب سماح المنافذ الحدودية للشحنات الدوائية بالدخول إلى العراق من دون إجازات استيراد صادرة من جهات طبية متخصصة، وعدم خضوعها إلى أي نوع من الاختبارات من حيث فاعليتها ومدى صلاحيتها للاستخدام، إذ إن أغلب الأدوية المتداولة في الصيدليات والمذاخر هي غير مسجلة لدى وزارة الصحة، كذلك ما أصاب المستشفيات من النقص الحاد في توفير الأجهزة الحديثة التي يعتمد عليها في تشخيص الحالة المرضية، وينعكس سوء الأوضاع الخدمية في المستشفيات على المختبرات فيها، وفي الغالب تتباين النتائج فيها مما يدفع المواطن بالبحث عن المختبرات الأهلية ذات الأسعار المرتفعة التي يعاني منها المواطن لدى لجوئه إليها[1].

المطلب الرابع

انتهاكات الميليشيات والعناصر المتطرفة:

سجلت خلال الأعوام الماضية العديد من الحالات التي تشير إلى انتهاكات الميليشيات والعناصر المتطرفة لحرمة القانون، كما أن هناك حقائق مؤلمة تؤكدها العديد من التقارير العراقية وغير العراقية التي تدل عليها الشواهد على الأرض وهي اختراق الميليشيات لتشكيلات الجيش والشرطة وبدرجات خطيرة بدءاً من أعلى المستويات القيادية فيها نزولاً إلى عناصرها الميدانية،

---

[1] مجموعة من الباحثين، إستراتيجية التدمير: آليات الاحتلال الأمريكي للعراق ونتائجه (الطائفية – الهوية الوطنية – السياسات الاقتصادية)، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦.

وهذه الميليشيات لا يهمها أمن ومصلحة العراق، فمرجعيتها العليا تكمن في قيادات الميليشيات وبعض القوى الطائفية أو العرقية المتعصبة التي لا تأتمر بأمر الدولة، ومن هنا فإن المصالح الطائفية الضيقة هي التي تتحكم في سلوكيات هذا الجزء من عناصر القوات المسلحة في استباحة دماء المواطنين أو اعتقالهم العشوائي أو اختطافهم أو إرهابهم أو تهجيرهم[1].

وتعيش هذه الميليشيات تحت إغراءات السلطة والنفوذ السياسي من خلال ممارسة القوة والعنف بعيداً عن سلطة القانون، وتخطط كل منها إما لفرض السيطرة الكاملة على الدولة وخيراتها أو الاستحواذ على جزء من الدولة لتأسيس دولتها الطائفية أو العرقية والتمتع بخيراتها.

وتشير التقارير الدولية بأن العناصر المسلحة من جيش المهدي باتت تشكل ٣٠% من عناصر الشرطة والجيش في بغداد، وهذا ما أكده أيضاً التقرير الصادر من مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية (CSIS)، حيث أكد أن جيش المهدي هو أحد أكبر الميليشيات والذي يلعب دوراً خطيراً على الساحة العراقية، وفي بعض الأحيان تمتد سيطرة هذه الميليشيات على قطاعات كاملة من الجيش تحت قيادة واحدة قد تكون أفواجاً أو ألوية جميعها من هذه الميليشيات وتمارس دورها تحت إطار القانون بما يخدم مصالحها[2].

ولم يقتصر امتداد هذه الميليشيات على دوائر الأمن فقط، بل تعداه إلى الدوائر الخدمية كوزارة الصحة وسيطرتها على المستشفيات ودوائر الطب العدلي، مما هيأ الفرصة لها لتصفية الأشخاص الذين لا يؤيدون توجهاتهم.

---

[1] عادل الطريفي، كيف تحولت التيارات الأصولية في العراق إلى ظاهرة حكم طائفي لن يتزحزح، www.alarabiya.net.

[2] مجموعة من الباحثين، العراق: الغزو – الاحتلال – المقاومة: شهادات من خارج الوطن العربي، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤، ص ٢٦٥.

وقد ساعد هذا الأمر على تدخل دول الجوار من خلال التنسيق مع هـذه الميليشيات على التدخل في الشأن العراقي من خلال دعـم هـذه الميليـشيات وتدريبها وتزويدها بالأسلحة والأموال اللازمة من أجل تنفيذ مخططاتها[1].

وتشير دراسة أصدرتها مؤسسة "جيمس تاون فاندويش" الأمريكية تحـت عنوان مساهمة إيران في الحرب الأهلية في العراق، إن الإيـرانيين أرسـلوا خلال العامين المنصرمين نحو ألفي طالب دين إلى النجف وكربلاء للدراسة، إلا أن ثلثهم على الأقل كانوا من عملاء المخابرات أو من أفراد قوات القدس، ويقوم هؤلاء بدعم الميليشيات وتنظيم أعداد من العراقيين في خلايـا سـرية، وأشار التقرير إلى شراء عناصر من المخابرات الإيرانية لمـساحات واسـعة من الأرض ولا سيما في جنوب العراق فضلاً عن بعض المنازل والمحـلات التجارية في بغداد والبصرة والنجف وكربلاء تحت أسماء عراقية، وأضـاف إن هذه الأماكن تستخدم كمواقع للإيرانيين العاملين في العـراق مـن أفـراد المخابرات والحرس الثوري والميليشيات التي تعمل معهم[2].

وقد باشرت هذه الميليشيات دوراً خطيراً في العراق من خلال انتهاكاتهـا للقانون وممارستها العدائية ضد مختلف شرائح العراق، وشملت عدة جـرائم تراوحت بين القتل والخطف وهدم دور العبادة والسرقة والمتـاجرة بـالمواد المخدرة وسرقة النفط، وضرب وقتل العديد من النساء بحجة عـدم ارتـدائها للزي الإسلامي، ومهاجمة صالونات الحلاقة وغيرها مـن الجـرائم، بحيـث تجاوزت جرائم هذه الميليشيات وما مارسته من قتل، جرائم المحتل نفسه[3].

---

[1] مجموعة من الباحثين، احتلال العراق: الأهداف – النتائج – المستقبل العربي، مصدر سبق ذكـره، ص ١٤٧.

[2] خير الدين حسيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧.

[3] مجموعة من المؤلفين، الاحتلال الأمريكي للعراق – صوره ومصائره، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

ومن هذا المنطلق فإن نزع سلاح الميليشيات وتفكيك هيكليتها العسكرية والسياسية ضرورة ملحة، ولا يمكن انجاز ذلك من دون ترسيخ مؤسسات الدولة وإعادة تشكيل القوات المسلحة العراقية لتصبح القوة الضاربة في وجه الذين عبثوا بأمن البلاد ووحدته، فالأمن أهم من الديمقراطية، ولا ديمقراطية من دون أمن على أن يتم دعم أي مجهود في هذا الاتجاه بقرار من مجلس الأمن الدولي، يستند إلى الفصل السابع من الميثاق يطلب من جميع [illegible] الإقليمية الالتزام بقرار حل الميليشيات، ويلزمها تحت طائلة العقوبات بالتوقف من التدخل في الشؤون الداخلية للعراق، والتخلي عن دعمها واستغلالها لهذه الميليشيات[1].

المبحث الثالث

آليات تطوير حقوق الإنسان في العراق

يتطلب أمر رفع الحيف عن الشعب العراقي والنهوض بواقع حقوق الإنسان المنتهكة [illegible] بالحسبان قوات الاحتلال [illegible] العراقية الانتهاكات التي يعاني منها الشعب العراقي، وضرورة [illegible] السريعة والأخذ بالوسائل اللازمة لرفع هذه الانتهاكات من خلال اتباع السبل الكفيلة لتحقيق ذلك، والتي سنقوم ببيانها في المطالب الآتية:

المطلب الأول

العمل بموجب اتفاقيات جنيف

على قوات الاحتلال الأمريكي كونها قوة محتلة لأراضي دولة أخرى أن تعمل بموجب اتفاقيات جنيف ولائحة لاهاي المواد (٢٧-٣٤-٤٧-٤٨) من اتفاقية جنيف التي تكمل لائحة لاهاي فضلاً عن المواد (١٣-٢٦) من اتفاقية

---

(1) مجموعة من الباحثين، إستراتيجية التدمير: آليات الاحتلال الأمريكي للعراق ونتائجه (الطائفية- الهوية الوطنية -السياسات الاقتصادية)، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

جنيف الرابعة على الأشخاص المحميين في الأراضي المحتلة، والتي تم الإشارة إليها في بداية بحثنا هذا[1].

المطلب الثاني

المعتقلون في السجون العراقية وقوات الاحتلال الأمريكي

تحتجز قوات الاحتلال الأمريكي لديها ما يزيد على عشرات الآلاف من المعتقلين من دون أن توجه إليهم أي اتهام أو محاكمة، وبدون إعطائهم الحق بالطعن بشرعية اعتقالهم أمام هيئة قضائية، وهذا يمثل انتهاكاً لحقوق الإنسان الأساسية ويخالف المادة التاسعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، فضلاًعن استخدام الأساليب الوحشية والقاسية في استجواب المعتقلين، والتعرض لهم بشتى الإهانات التي تمس شرفهم[2].

وعليه يترتب على قوات الاحتلال الأمريكي، إطلاق جميع المعتقلين لديها الذين لم يثبت عليهم أي اتهام أو إجرام، وتعويضهم لما تعرضوا له من عمليات التعذيب الجسدي والنفسي واستخدام الطرق والأساليب القانونية في التحقيق مع المتهمين والتي كفلتها لهم قوانين حقوق الإنسان، والسماح للمعتقلين الاتصال بالعالم الخارجي من خلال تمكين ذويهم من زيارتهم وتفعيل دور المنظمات ولجان الصليب الأحمر والهلال الأحمر في متابعة أحوال المعتقلين، وتهيئة الفرصة الكافية للمعتقلين من أجل توكيل المحامين في الدفاع عنهم أمام هيئة قضائية عادلة، وتسريع عرضهم أمام المحاكم وإعطاء الضمانات الكافية لحماية المعتقلين من التعذيب في المعتقلات[3].

---

(١) انظر صفحة رقم (٤-٥) من البحث.

(٢) محمد عبد العاطي، سوء معاملة المعتقلين، www.aljazera.net.

(٣) وصال نجيب العزاوي، انتهاكات حقوق الإنسان في سجن أبو غريب، www odabasham.net

إما بالنسبة للحكومة العراقية فإننا نرى في الآونة الأخيرة أنهـا خطـت بخطى إيجابية من خلال إصدار قانون العفو العام، على الرغم مـن وجـود الكثير من القصور فيه، إلا أنه خطوة ايجابية إلى الأمام من أجل رفع الحيـف عن المعتقلين، ومن ناحية أخرى يجب على الحكومة العراقية أن تأخذ بعـين الاعتبار واقع المعتقلين، وعدم تعريضهم لأي نوع من الانتهاكـات الجـسدية والنفسية، واستخدام واتباع الوسائل القانونية في التحقيق مع المتهمين[1].

المطلب الثالث

إنهاء دور الميليشيات

استعرضنا ما قامت وما تقوم به الميليشيات الطائفية من أعمـال خارجـة على القانون كان لها الأثر الهام في وصول العراق إلى ما هـو عليـه مـن حالات القتل الطائفي وعمليات التهجير القسري، والتدخل فـي إدارة الدولـة العراقية من خلال تسلل هذه الميليشيات إلى أجهزة الدولة ومرافقها الحيوية.

ويقتضي الحال من أجل وضع حد للحالة المأساوية للعراق ضرورة إنهاء دور هذه الميليشيات وما تقوم به من أعمال إجرامية، وهنـا نـرى أن مـن الضرورة أن تفعل الحكومة ذلك من خلال حل هذه الميليشيات ونزع الأسلحة لديها، وإخضاع جميع العراقيين لقانون الدولة بدون تميز، وطرد الميليـشيات المتطرفة من أجهزة الأمن العراقي، والتي كان لها الدور الكبير في العديد من جرائم القتل، ومن أجل ذلك نرى إن الحكومة العراقية قد بادرت بعد أن رأت أن هذه الميليشيات هي الخطر الأكبر على العراق بفرض العديد من الخطـط الأمنية وحلت العديد من عناصر الأمن الذين ينتمون إلى هذه الميليشيات مـن

---

[1] بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق، مجلة المستقبل العربي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.

أجل تقوية جهازها الأمني للقضاء على هذه الميليشيات، وقد لوحظ ذلك في السنة الماضية من خلال تحسن الحالة الأمنية في العراق بعد أن ضيقت الحكومة عمل هذه الميليشيات، وبدأ الناس بالتنقل داخل العراق وخاصة في بغداد بحرية أكبر مما كان سابقاً عندما كانت الميليشيات مسيطرة، ومتدخلة في الوضع العراقي[١].

المطلب الرابع

تفعيل دور المنظمات الإنسانية

لم يكن للمنظمات الإنسانية دوراً فاعلاً بعد الاحتلال، وذلك بسبب الأوضاع الأمنية التي مر بها العراق، وما تعرض له أغلب العاملين في هذه المنظمات من عمليات قتل واختطاف مقابل مبالغ نقدية عالية مما أدى إلى انسحاب أغلب هذه المنظمات إلى خارج العراق أو تحجيم دورها، فهذه المنظمات تعد العين التي تراقب الواقع الحقيقي للمجتمعات، كونها ترصد جميع الانتهاكات التي تحصل في المجتمع، وكذلك ما تقوم به من دورٍ فاعلٍ في إنشاء المشاريع الخيرية التي تعود بفائدتها للمجتمع، بيد أنه في ظل الاحتلال لم تؤد هذه المنظمات دورها في العراق بصورةٍ صحيحةٍ.

ويتطلب الأمر من الحكومة، إذا أرادت أن تنهض بواقع حقوق الإنسان، أن تتيح الفرصة الكافية لهذه المنظمات، وتهيئة الأجواء اللازمة لمباشرة عملها بصورة فاعلة، حينها تكون هذه المنظمات إحدى أهم الأدوات التي يمكن للحكومة العراقية أن تستعين بها من أجل رصد أي انتهاكات قد تحدث، وتوفر الوسائل اللازمة لمنع هذه الانتهاكات[٢].

---

[١] مجموعة من الباحثين، احتلال العراق: الأهداف – النتائج – المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧.

[٢] الحرب على العراق: يوميات – وثائق – تقارير، مركز دراسات الوحدة العربية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨٥.

الخاتمة

يتضح من خلال ما تقدم إن موضوع حقوق الإنسان يُعد من المواضيع التي تهم البشرية جمعاء، ولا يقتصر الأمر على دولة معينة بذاتها، ونظراً لخطورة هذا الموضوع فقد تناولته الهيئات الدولية بالتشريعات القانونية، وخير مثال على ذلك ما قامت به الأمم المتحدة من إصدار الميثاق الخاص بحقوق الإنسان، ووضعت له الضمانات اللازمة لمنع أي خرق لهذه الحقوق، وعلى الرغم من ذلك فقد انتهكت العديد من الدول هذه الحقوق سواء على الصعيد الداخلي حين تعاملها مع شعوبها، أو على الصعيد الدولي حينما تعتدي دولة معينة على دولة أخرى وتحتلها وتمارس فيها سلطاتها، ضاربة عرض الحائط الميثاق الخاص بحقوق الإنسان من أجل تحقيق مصالحها الخاصة، حتى أدى الأمر إلى وجود انتهاكات خطيرة تقع على الشعوب المحتلة، إذ إن الهدف الأساس للدول المحتلة هو تحقيق مصالحها ولا يهمها مصلحة الشعوب.

وما تعرض له العراق من احتلال غاشم على أيدي قوات الاحتلال الأمريكي، وما مارسته القوات العسكرية من انتهاكات خطيرة بحقوق الإنسان العراقي جعلت العراق من بين الدول التي تعرضت لأقوى وأبشع الانتهاكات على مر الزمان، فقلة من الدول في العالم تعرضت لما تعرض له العراق من جرائم خطيرة وصلت في الكثير من الحالات، إلى اعتبارها جرائم حرب ضد الإنسانية، ومن أمثلة هذه الانتهاكات هي الاعتقال العشوائي الذي يتعرض له المواطن العراقي بدون وجه حق؛ وما يتعرض له المعتقلون العراقيون في سجون الاحتلال الأمريكي من أشد أنواع التعذيب والمعاملة اللاإنسانية والتي ذاع أمرها وتناولتها العديد من المحطات العالمية، وصارت مضرباً لحالة الجور والظلم في العالم، وما قامت به قوات الاحتلال من إصدار وإلغاء

قوانين وحل الجيش العراقي وجميع الأجهزة الأمنية مما عكس بظلاله على حالة الفوضى في الشارع العراقي، وتدهور الأوضاع المعاشية في المجتمع العراقي، ونشوء ظاهرة القتل على الهوية التي لم يكن المجتمع العراقي قد عرف هذا النوع من الاقتتال على مر تاريخه، فضلاً عن عمليات السرقة المنظمة التي تقوم بها الحكومة الأمريكية من عمليات إعادة الأعمار في العراق، ووجود الميليشيات التي استعان بها المحتل في فترة زمنية محددة لتحقيق أهداف معينة، وما مارسته هذه الميليشيات من جرائم خطيرة بحق المجتمع العراقي، وما رافق ذلك من عمليات التهجير القسري الذي أدى إلى تشريد آلاف العوائل العراقية من مناطق سكناهم، وغيرها من الأمور التي يندى لها جبين الإنسانية.

ومن خلال بحثنا هذا فقد تم استعراض الكثير من هذه الانتهاكات وتم وضع بعض الحلول المناسبة من أجل رفع المعاناة والظلم عن الشعب العراقي على أقل تقدير.

الانتهاكات الأمريكية للقانون الدولي إبان غزو العراق

د. محمود المبارك[1]

إذا كانت انتهاكات القانون الدولي ليست بالأمر الجديد في العلاقات الدولية، فإن ما قامت به الولايات المتحدة من خرق فاضح وغير مسؤول لميثاق الأمم المتحدة بغزوها دولة حرة ومستقلة عام ٢٠٠٣م، ليعد زلزالاً قانونياً دولياً مدمراً، لا يستبعد أن يكون البداية التي تؤذن بنهاية عصر القانون الدولي!.

وإذا كان من الصعب حصر الانتهاكات القانونية الدولية التي قامت بها الولايات المتحدة إبان غزوها للعراق في عجالة كهذه، إلا أنه ربما أمكن تقسيم هذه الانتهاكات إلى ثلاثة محاور رئيسة:

المحور الأول: انتهاكات ما قبل الحرب:

يمكن القول إن الولايات المتحدة قامت بثلاثة انتهاكات جادة للقانون الدولي قبل بدء الحملة العسكرية على العراق، فأول هذه الانتهاكات هو تجاوز الطرق السلمية التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة، لحل النزاعات بين الدول؛ فالولايات المتحدة والعراق دولتان عضوان في منظمة الأمم المتحدة،

---

[1] كاتب سعودي، وأستاذ في القانون الدولي.

وقد كان الأولى بأي خلاف ينشأ بينهما أن يحال إلى أجهزة المنظمة الدولية ليتم التعامل معه بموجب الطرق السلمية التي نص عليها الميثاق، فقد نصت ديباجة الميثاق على أن الهدف من الميثاق هو تجنب حروب مستقبلية، من أجل إحلال الأمن والسلام بين دول العالم، كما نصت المادة ٢ (٣) على أن تحل جميع الدول الأعضاء خلافاتها بطرق سلمية، وقد حددت المادة ٣٣ (١) أن على الدول أن تتبع الطرق السلمية المتمثلة في "المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية، أو أن يلجأوا إلى الوكالات والتنظيمات الإقليمية أو غيرها من الوسائل السلمية التي يقع عليها اختيارهم"، بيد أن هذا التفصيل الدقيق للمادة ٣٣ (١)، الذي لم تأبه الولايات المتحدة باتباع تفاصيله، إنما قصد منه تفادي وقوع أي نزاع مسلح ينتج عن أي خلاف بين الدول الأعضاء، وحيث تجاوزت الولايات المتحدة الطرق السلمية المحددة في مواد الميثاق، فإن ذلك أوقعها في تجاوز جسيم للقانون الدولي.

الانتهاك الثاني الذي وقعت فيه الولايات المتحدة هو، التهديد باستخدام القوة العسكرية، ضد دولة عضو في الأمم المتحدة، وإذا كان العديد من القانونيين الدوليين يؤكدون على تجريم الولايات المتحدة باستخدامها القوة العسكرية ضد العراق، فإن ما يغفل عنه الكثير هو أن مجرد التهديد باستخدام القوة جريمة كذلك، ذلك أن المادة ٢(٤) من الميثاق تحرم "استخدام أو التهديد باستخدام القوة" في العلاقات الدولية بين الدول الأعضاء، وكما أن التهديد بالقتل في القانون الجنائي الداخلي يعد جريمة يحاسب عليها القانون، فإن التهديد باستخدام القوة في العلاقات الدولية، يعد جريمة في القانون الدولي.

وما قام به الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، من تهديد للرئيس العراقي السابق صدام حسين، وإعطائه وابنيه مهلة ٤٨ ساعة للخروج من

العراق، يعد في القانون الدولي تهديداً باستخدام القوة العسكرية، الأمر الـذي يتعارض مع المادة (٤٢) من الميثاق، ويعد جريمة قانونية دولية جسيمة.

الانتهاك الثالث – وهو الأخطر بين هـذه الانتهاكـات – هـو اسـتخدام الولايات المتحدة للقوة العسكرية ضد دولة عضو في الأمم المتحدة، ذلـك أن ميثاق الأمم المتحدة لا يجيز استخدام القوة العسكرية سوى في حالتين اثنتـين: الحالة الأولى: هي حالة الدفاع عن النفس، بموجب المادة ٥١ مـن الميثـاق، عندما يتعرض إقليم دولة معينة إلى اعتداء من قبل دولة أخرى، ومعلـوم أن الولايات المتحدة لم تتعرض إلى أي اعتداء لا بطريق رسمي ولا بطريق غير رسمي، ولا بطريق مباشر ولا بطريق غير مباشر من قبل الحكومة العراقيـة السابقة؛ بل إن ما قامت به الولايات المتحدة من غزو لبلد حـر مـستقل هـو الاعتداء الذي يجيز للعراق حالة الدفاع عن النفس المشار إليها في المادة ٥١.

وأما الزعم الأمريكي أن الغزو الأمريكي ضد العراق، كـان مـن بـاب "الدفاع عن النفس المسبق" لأجل منع العراق من الحصول على أسلحة الدمار الشامل، التي تهدد سلامة وإقليم الولايات المتحدة، فإن منطـق "الـدفاع عـن النفس المسبق" لا يجد ناصراً في المادة ٥١ من الميثاق، فضلاً عن أنه تبـين كذبه لاحقاً، (تماماً كما تبين كذب الادعاء الأمريكي الذي اتهم العراق بتهمـة الارتباط بالإرهاب والقاعدة)، وتبعاً لذلك فإن الغزو الأمريكي للعراق لا يمكن أن يتماشى مع منطق الدفاع عن النفس، المنصوص عليه في المادة ٥١ مـن الميثاق.

وأما الحالة الثانية: التي يجيز من خلالها ميثاق الأمم المتحـدة اسـتخدام القوة العسكرية، فهي حالة الحصول على تفويض من مجلس الأمن بموجـب المادة ٤٢ من الميثاق، ومعلوم أن الولايات المتحدة لم تستطع الحصول علـى تفويض من مجلس الأمن قبل غزوها العراق، بسبب الموقف الفرنسي الشجاع

في وقته لرفض استخدام القوة العسكرية من قبل الولايات المتحدة ضد العراق، وخلاصة القول إن ما قامت به الولايات المتحدة من غزو للعراق جاء متعارضاً مع المادة ٢(٤)، التي تحرم استخدام القوة العسكرية بين الدول الأعضاء، ومن غير تبرير المادتين ٥١ أو ٤٢ من الميثاق، وبذلك يمكن تصنيف الولايات المتحدة على أنها "دولة معتدية".

بل إن قرار تعريف العدوان الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤م، نص على أن "العدوان هو استعمال القوة المسلحة من قبل دولة ما ضد سيادة دولة أخرى أو سلامتها الإقليمية أو استقلالها السياسي، أو بأية صورة أخرى تتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة"، ولا أظن أن هناك تعريفاً أدق لما قامت به الولايات المتحدة ضد دولة العراق أو سيادتها وسلامتها الإقليمية واستقلالها السياسي، من هذا التعريف.

المحور الثاني: انتهاكات الحرب:

لم تكتف الولايات المتحدة بخرق القانون الدولي العام حينما قامت باستخدام القوة المسلحة ضد العراق، ولكنها أيضاً انتهكت العديد من قواعد القانون الدولي الإنساني أثناء حربها تلك.

ولعله من المثير للأسى، أن الولايات المتحدة لم تبال بخرق مواد اتفاقية جنيف الرابعة ١٩٤٩م، في خضم حربها على العراق، فقد قامت القوات الأمريكية بقصف المناطق المدنية، وقتل المدنيين، واستهدفت أماكن العبادة وقصفت المساجد والمستشفيات، وكل هذه أماكن محمية بموجب اتفاقية جنيف الرابعة، ولعله من المفيد القول إن المزاعم الأمريكية التي كان يرددها المسؤولون الأمريكيون -ومنهم وزير الدفاع السابق دونالد رامسفيلد- من أن المسلحين العراقيين كانوا يختفون في هذه الأماكن، هو زعم غير مقبول، ليس

كون هؤلاء مقاومين شرعيين في وجهة نظر القانون الدولي فحسب، بل ولكون هذا المنطق سبق أن استخدم من قبل النازيين الألمان أثناء محاكمتهم في محاكم نورمبرغ، ولكنه رُفِضَ بالكامل.

في الوقت ذاته استخدمت القوات الأمريكية الأسلحة المحرمة دولياً ومنها اليورانيوم المنضب والذي ظهرت قبل أسابيع بعض أضراره، في التشوه الخلقي الذي لحق مواليد الفلوجة، والذي فسره الأطباء كنتيجة لاستخدام اليورانيوم المنضب.

وفيما يتعلق بوسائل الإعلام، لم تراع القوات الأمريكية حرمتها، فقامت بقصف متعمد للعديد من مواقع وسائل الإعلام ومنها قصف موقع الجزيرة حيث اغتيل طارق أيوب، وفي ذلك مخالفة لاتفاقية جنيف الرابعة التي تعامل الصحفيين بأنهم مدنيون محميون، وللمادة ٧٩ من البرتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف الأربع الموقع عام ١٩٧٧م، الخاصة بحماية الصحفيين.

في جانب آخر انتهكت الولايات المتحدة اتفاقية لاهاي ١٩٥٤م المتعلقة بحفظ الممتلكات الثقافية، حين تعمدت ترك المتاحف العراقية عرضة للسلب والنهب، وهو أمر تتحمل الولايات المتحدة المسؤولية القانونية كاملة عنه، ولعله مما يثير السخرية، أن الولايات المتحدة كانت قد تزعمت غضبة قانونية دولية غير مسبوقة، حين أعلنت حكومة طالبان في أفغانستان تدمير تماثيل بوذا على أراضيها، كون ذلك العمل مخالفاً لاتفاقية لاهاي ١٩٥٤م المذكورة.

المحور الثالث: انتهاكات ما بعد الحرب:

لعل أبرز انتهاك أفضى إليه الغزو الأمريكي للعراق، هو الاحتلال الذي تبع الغزو؛ فالاحتلال كما هو معلوم في القانون الدولي أمر غير شرعي، وإذا حدث احتلال أثناء نزاع مسلح بين دولتين؛ فإن ذلك الاحتلال يجب أن ينتهي

بعد أن تضع الحرب أوزارها، على أنه لا يعفي الدولة المحتلة من مسؤولياتها القانونية الدولية تجاه الأراضي التي تحتلها أثناء فترة الاحتلال، كما نصت على ذلك اتفاقية جنيف الرابعة ١٩٤٩م.

ولكن الولايات المتحدة واصلت انتهاكاتها للقوانين الدولية من عدة أوجه، ليس فقط بإصرارها على احتلال العراق، وإنما أيضاً بتصرفات قواتها المسلحة في الدولة المحتلة؛ فقد أظهرت الصور التي أعلنتها وزارة الدفاع الأمريكية فيما عرف لاحقاً باسم "فضيحة أبو غريب"، جدية الانتهاكات القانونية لاتفاقية جنيف الثالثة ١٩٤٩م، المتعلقة بمعاملة الأسرى حيث قامت القوات الأمريكية بتعذيب وسوء معاملة الأسرى العراقيين، وإهانتهم وسوء استغلالهم جنسياً، وهي تدل أيضاً على مستوى التعامل الأمريكي مع الأمم الأخرى.

وما دام الحديث عن اتفاقية جنيف الثالثة فلعله من المفيد التذكير أن الطريقة التي اعتقل بها الرئيس العراقي السابق، صدام حسين، كانت تتعارض مع المادة ١٣ من الاتفاقية المذكورة، والتي توجب معاملة الأسرى معاملة إنسانية كريمة، وغني عن القول إن إظهار صورة الرئيس السابق وعلى وجهه آثار كدمات، لا يدل على معاملة كريمة، اللهم إلا إذا كان مفهوم "المعاملة الكريمة" مختلفاً عند القادة العسكريين الأمريكيين عن المفهوم المتعارف عليه عند بقية العالم الإنساني!.

تحت هذا المحور أيضاً أظهرت الاعترافات التي أدلى بها جنود أمريكيون لمجلة "ذي نيشن" الأمريكية عدد تموز (يوليو) ٢٠٠٧م، الطريقة الوحشية التي اتبعها الجنود الأمريكيون في تعاملهم مع المواطنين العراقيين، حيث شملت الاعترافات جرائم قتل عمد منهجية قام بها جنود أمريكيون، الأمر الذي ربما يشير إلى ارتكاب "جرائم إبادة"، يجب ألا تمر دون عقاب.

في جانب آخر أساءت الولايات المتحدة التصرف في اقتصاديات العراق، حيث تعاملت الولايات المتحدة بسرية كاملة مع خطة إعطاء الشركات الأجنبية امتيازات استثمار حقول النفط العراقية التي قيل إنها شملت عقوداً تصل مدتها إلى أكثر من أربعين عاماً، ومعلوم أن هذا التصرف يتعدى التفويض المخول للولايات المتحدة بصفتها دولة محتلة، وهو الأمر الذي وصفته منظمة بلات فورم بأنه تجريد للعراق من ثروته النفطية، فضلاً عن ذلك لا تزال عائدات النفط العراقية مجهولة! حري القول إن قرار مجلس الأمن ١٤٨٣ (٢٠٠٣م)، نص على "أن تكون جميع صادرات العراق من مبيعات النفط... متفقة مع أفضل ممارسات السوق الدولية السائدة، وأن يتولى مراجعة حساباتها محاسبون عموميون مستقلون ... "، وهو الأمر الذي لم يتحقق!.

وفي الوقت ذاته شملت الانتهاكات الأمريكية بعد غزو العراق جريمة التطهير العرقي للعراقيين السنة، خصوصاً في الجنوب، وهو أمر لا يزال السنة يعانون منه، حيث هُجِّرَ غالبية السكان السنة من مناطقهم من قبل ميليشيات شيعية، بتأييد عراقي حكومي، ورضى أمريكي.

وواقع الأمر أن الانتهاكات الأمريكية قبل وأثناء وبعد غزو العراق أكثر من أن تحصر في مقال كهذا وليست هذه العجالة سوى نبذة سريعة تبين الأنماط الرئيسة للانتهاكات القانونية الدولية التي قامت وما تزال تقوم بها الولايات المتحدة في العراق.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا بحاجة ماسة إلى استخدام سلاح القانون الدولي في المحافل والمحاكم الدولية لمواجهة الولايات المتحدة، التي ما تزال تلقن الأمة العربية والإسلامية دروساً في الالتزام بالقوانين الدولية!.

جرائم التعذيب في العراق في ضوء القانون الدولي

حسين الرشيد[1]

لعلَّ من المناسب هنا البدء بإثبات حقيقة شيوع ظاهرة التعذيب الذي يقوم به جنود الاحتلال، من خلال سرد بعض الأمثلة التي يتضح من خلالها التعذيب الممنهج الذي تمارسه تلك القوات الغازية بحق العراقيين الأبرياء منذ احتلال العراق في عام (٢٠٠٣م).

ولعلَّ من أشهر تلك الجرائم مما يغني التدليل عليها في إثبات جرائم التعذيب هو ما حدث في سجن (أبي غريب) الذي ذاع صيته، وطارت شهرته على وجه المعمورة، والتي صدمت قصته العالم أجمع، وكانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر الإدارة الأمريكية آنذاك، وأوقعتها في حرج كبير أمام المجتمع الدولي، وحطّت من مصداقيتها، وأثبتت بطلان ادعاءاتها المتكررة من أنها جاءت للعراق من أجل إشاعة الحرية والديمقراطية فيه؛ حتى قال السيناتور الجمهوري "جون وارنر": ((إنَّ الانتهاكات التي أظهرتها الصور لسجناء عراقيين عراة تعرضوا للازدراء والإذلال والإساءة إليهم من جنود

---

[1] مدير تحرير مجلة حضارة.

أمريكيين تمثل حالة خطيرة لسوء الإدارة العسكرية، لم يسبق له أن شهد مثلها في تاريخ عمله الطويل)).

وهو ما اضطر قادة الاحتلال إلى التنصل من تلك الأفعال والتنكر لها، مع أنهم هم من يقفون وراءها، حتى قال سيد البيت الأبيض وحامي الديمقراطية آنذاك (جورج بوش): ((هؤلاء الجنود لا يمثلون الأمريكيين، ولا يمثلون أخلاقهم، وليسوا أمريكيين))!!.

وقال "دونالد رامسفيلد" معلقاً على ما شاهده من انتهاكات في سجن أبي غريب: ((أشعر بالأسى الشديد لما حدث لهؤلاء المحتجزين.. إنهم بشر!! وكانوا محتجزين لدينا، كان على بلادنا الالتزام بحسن معاملتهم، ولكننا لم نفعل، وهذا خطأ!! إني أقدم أشد الاعتذار إلى أولئك العراقيين، الذين أساء أفراد من القوات الأمريكية معاملتهم)).

وبالطبع لا يمكن لِأيّ عاقل أن يصدق قول (جورج بوش) و(دونالد رامسفيلد) بعد أن تواتر كذبهما، ولطالما افتضحا في كل مرة بسبب مثل تلك الأكاذيب.

أمريكا، مبتكرة التعذيب في العالم

وعطفاً على ذلك فإن منهج التعذيب نابع من كون الولايات المتحدة الأمريكية مشهورة باستخدام أساليب متنوعة في التعذيب، ولها باعها الطويل في التنكيل، على المستويين الرسمي والشعبي.

وقد صدر في أمريكا قبل فترة ليست بالطويلة كتاب بعنوان "بوابات المظالم" كشف فيه كاتبه عن معاناة السجون الأمريكية، وما يتعرض له المسجونون -وخاصة النساء- من تعديات وانتهاكات، وأحصى الكاتب ما

يقرب من (١٨٠) ألف حالة تعدي وانتهاك في سجون أمريكا، تتمثل في "التحرش الجنسي" و"الاغتصاب" وغيرها من الأمور المعيبة والمنكرة.

ولعل بعض المتابعين قد اطلع على مضمون ما يسمى **"تجربة ستانورد"** التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧١م) على عدد من الطلبة المتطوعين، لمدة خمسة عشر يوماً، وتمّ الاتفاق على منحهم مكافأة مالية، على أن يقوم بعضهم بدور المسجونين، والبعض الآخر بدور السجانين، وطلب من الآخرين القيام بعمليات تعذيب قاسية لزملائهم المسجونين، وكانت التجربة تستهدف قياس مدى قدرة الطلبة على تقمص الأدوار، وخلال ثلاثة أيام من بدء التجربة لوحظ أن الطلبة الذين قاموا بدور السجانين قد أفرطوا في استخدام وسائل العنف والتعذيب، وخاصة تلك التي تسبب إيلاماً نفسياً للضحايا وامتهاناً لكرامتهم، حتى أن معظم المتطوعين ممن قاموا بدور المساجين أعربوا عن رغبتهم في عدم إكمال التجربة، غير أن طلبهم قوبل بالرفض!! ورغم الطابع الأكاديمي لهذه التجربة؛ فإنها تكشف تجذر القيم والممارسات العنيفة والوحشية في المجتمع الأمريكي منذ عقود من الزمان[1].

وقد قرأت مرة تعليقاً لأستاذ الفكر الأوربي ومؤلف كتاب **"الفجر الكاذب"** على حادثة تعذيب الأسرى العراقيين في سجن (أبو غريب) قال فيه: لقد جاءت فضيحة تعذيب الجنود الأمريكيين للمسجونين في سجن أبو غريب لتزيد من ورطة الولايات المتحدة في العراق، ولم تكُ تلك الممارسات كما يزعم البعض مستمدة من أخلاق الجنود الأمريكان وميراثهم الدموي الذي أباح لهم القيام بمثل هذه الفضائع الأخلاقية، ولكن أعمال التعذيب هي في

---

[1] ينظر: أوهام الهيمنة والمأزق الأمريكي في العراق، للسيد عبد الله صالح، مجلة العصر الإلكترونية، بتاريخ ٢١/٢/٢٠٠٥م.

حقيقتها تعبير عملي عن رؤية الإدارة الأمريكية وكيفية ممارستها في مواجهة ما يهددها من أخطار، في فترة ما بعد أحداث سبتمبر، حيث اعتبرت أمريكا نفسها في حالة حرب، ضد القوى المناهضة للحضارة الغربية.

التعذيب في العراق، الصورة الروتينية

من المؤكد أن صور التعذيب في سجن "أبو غريب" التي نشرت على الملأ، قد وضعت الإدارة الأمريكية في حرج شديد، ومأزق كبير، كما سبق بيانه، وبدأت مع هذه التجاوزات والانتهاكات السافرة غير قادرة على تزييف حقيقة صورتها أمام العالم بصفة عامة، وأمام الشعب العراقي والعربي والإسلامي بصفة خاصة، ولا شك أن هذه الانتهاكات ستترك أثراً سلبياً على الحالة النفسية للعراقيين، وقد شكلت جرحاً غائراً لن يندمل سريعاً!!.

ولقد كنا نسمع عن التعذيب في سجون الشيشان، وسمعنا عن تعذيب الفرنسيين للوطنيين من أهل الجزائر إبان الاحتلال، غير أن ما جرى ويجري في العراق من تعذيب بصورة روتينية يومية أنسانا كل تلك الصور من تاريخ أمتنا المؤلم، الذي صبّ أعداؤنا من خلالها على رؤوسنا أبشع صور الحقد والإيذاء والتعذيب والاضطهاد، حتى صرنا نرى ما يطال العراقيين طابعاً مختلفاً بأساليب ابتكارية لم تكن لتخطر على بال البشر؛ فرفاق إبليس من جنود الغزو ركزوا في عمليات التعذيب على الإيلام النفسي للضحايا، وجرح كرامتهم، أكثر من تركيزهم على التعذيب البدني كما هو معتاد سابقاً.

إننا إذا تمعنا في صور التعذيب المتوفرة فإننا نجد أنها وُضِعت من قبل خبراء متخصصين، درسوا -بلا ريب- حالة التعذيب التي تناسب المواطن العراقي، ومن هنا فإنهم قد بحثوا عما يؤثر في المعذّب من أساليب تحط من قيمته وكرامته، وتجعله ينهار بشكل تام، وقد نقلت صحيفة "واشنطن بوست"

عن مجندة الشرطة العسكرية الأمريكية "سابرينا هارمان" التي أنتدبت للعمل في سجن أبي غريب، وظهرت في بعض الصور وهي تعذّب وتهزأ بسجناء أبي غريب: أنها كانت مكلفة بجعل المعتقلين العراقيين ينهارون؛ استعداداً للاستجواب!!.

وقد وجد هؤلاء أن التأثير يكمن في التركيز على منظومتين، هما: الدين، والشرف. فخلعُ الملابس وإجبار السجين على التعري، وممارسة الفجور، وشرب الخمور، والاعتداء الجنسي على النساء، وإجبارهم على الإفطار – بل تناول المحرمات– في رمضان، والاعتداء والتبول على القرآن، إنما هي من المسائل الحساسة جداً عند المواطن العربي المسلم.

وأستطيع التأكيد هنا على أن ممارسة مثل هذه الأمور بحق المعتقلين لا تتطلب البحث عن أشخاص فقدوا ضميرهم وقيمهم؛ لأن كل جندي أمريكي قادر على أن يقوم بمثل هذا العمل الشنيع، ولذا رأينا نساء الاحتلال من أشهر المشتهرات بأبشع هذه الأفعال!!.

ولا ينبغي النظر إلى كل تلك التفصيلات دون التركيز على الخلفية التاريخية للشخصية الأمريكية التي نشأت على التمرد على القيم والأخلاق والمبادئ الفاضلة، وإننا إذا رأينا أن ثقافة التمرد والانحطاط والشذوذ تعم شرائح كبيرة من المجتمع الأوربي؛ فإننا نجد هذه الحالة تعم المجتمع الأمريكي عموماً، وهي منتشرة في كل زاوية من زوايا المجتمع، ونجدها أكثر ما تتجذر في "المؤسسة العسكرية" بشكل مخيف ومريب، ذلك أن النظام العسكري السائد يقوم على تجريد الجندي الأمريكي من الأخلاق والقيم؛ لأن التمسك بالقيم يقتضي استرجاع مبدأ المراجعة الذاتية الإنسانية، ومثل هذه المراجعة تفرض الرحمة والشفقة، وهي أمور تتناقض وهدف المؤسسة العسكرية!!.

إنّ الثقافة الأمريكية في الحروب تقوم على أساس مفاده: أن الجبهة المدنية والاقتصادية للعدو تعد امتداداً للجبهة العسكرية، وأن ضرب المدنيين وانتهاك حرمتهم بقسوة يوقع خسائر فادحة بالعدو، ويخل بالجبهة العسكرية ويربكها، وينشر الذعر فيها؛ ولهذا فإن الولايات المتحدة تحتفل في شهر آب من كل سنة بذكرى ضرب هيروشيما وناغاساكي[1] بحجة أنه لو لم تضرب تلك الأهداف، لكانت الحرب العالمية الثانية مستمرة لحد الآن!!.

وجدير بالمعرفة أن الموقف الأمريكي (غير الإنساني) الذي يجعل من المدنيين هدفاً عسكرياً انسحب على الموقف القانوني الرسمي؛ فالولايات المتحدة من أولى الدول التي عارضت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام (١٩٤٧م) واتفاقيات جنيف عام (١٩٤٩م) الخاصة بحماية الأسرى والجرحى والغرقى والمدنيين في المنازعات المسلحة، وعارضت (محررة الشعوب!!) أيضاً بروتوكول جنيف الاختياري عام (١٩٧٧م) الخاص بحماية المدنيين في المنازعات المسلحة، وكذلك معاهدة روما الشهيرة التي وقعتها (١٦٧) دولة من دول العالم عام (١٩٩٨م) الخاصة بمحاكمة مجرمي الحرب، وكانت أمريكا ومعها الكيان الصهيوني من بين سبع دول رفضت الانضمام للمعاهدة[2]!!.

---

[1] تقع مدينة هيروشيما اليابانية في جزيرة "هونشو"، واشتهرت عالمياً؛ لأنها أول مدينة في العالم تلقى عليها قنبلة ذرية. أما ناغاساكي، فهي مدينة تقع على الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة كيوشو اليابانية، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ألقت في ٩ آب- أغسطس من عام ١٩٤٥م على ناغاساكي القنبلة الذرية، وكان ذلك أهم حدث تشهده الحرب العالمية الثانية، وقبلها بأيام كانت الولايات المتحدة قد ألقت القنبلة الأولى على مدينة هيروشيما وتسبب ذلك في حالة الدمار الشامل التي أصابت المدينتين وأوقعت خسائر مادية وبشرية فادحة.

[2] ينظر: تصرفات الجنود الأمريكيين في العراق انعكاس للشخصية الأمريكية، سهيل حسين الفتلاوي، موقع البصرة الإلكتروني، ٢٠٠٤م.

أشكال التعذيب (الديمقراطي) في العراق

يتنوع التعذيب الذي يتعرض له العراقيون على يد قوات الاحتلال التي جاءتهم بالديمقراطية الزائفة إلى أشكال مختلفة ومتنوعة، يتمثل من خلالها أنواع الأذى والألم، وتجلت جملة من الصور التي يمارسها الأعداء بحق الأبرياء، الذين يقبعون في سجون الظلم والهوان، سيتضح بعضها بعد قليل.

وحتى يطّلع العالم على تلك الحقائق رأيت تلخيص أهم صور التعذيب، وإيضاح صور التجاوزات القانونية في السجون؛ حيث أخذ التعذيب في العراق صوراً متعددة، وأهمها "التعذيب الجسدي" الذي تمثّل بأساليب متنوعة، كالضرب المبرّح حتى النزف أو الإغماء أو التسبب بعاهة خلقية وجسدية، والصعق بالكهرباء، واستخدام مواد حارقة كـ"مادة التيزاب" وصبّ الزيت الحار على الجسد، وحقن المعتقل بما يحتوي على مخدرات وما شابه ذلك.

وقد كشف تقرير أصدره "مكتب حقوق الإنسان التابع لبعثة الأمم المتحدة في العراق" عن التعذيب الذي تظهر آثاره على المعتقلين، كالضرب بالأسلاك الكهربائية، وإصابات شتى في أنحاء متفرقة من الجسد، بما فيها الرأس والأعضاء التناسلية، وكسر عظام الأيدي والأرجل، وقلع الأعين، والأسنان، وحروق ناجمة عن الصعق بالكهرباء وإطفاء السجائر!!.

ومن صور التعذيب أيضاً "التعذيب النفسي" ومن أشكاله: الحرمان من النوم، وتجريد المعتقلين من ملابسهم، والتهديد بالاعتداء الجنسي، وتسليط الإنارة الساطعة، وتشغيل الموسيقى الصاخبة، واقتياد المعتقل إلى ساحة وسط السجن لتهاجمه الكلاب المتوحشة، وإجبار السجين على تناول المشروبات الكحولية المسكرة، وأكل لحوم الخنزير، وغيرها من الصور التي يكاد القلب يتفطر من ذكرها.

ومن صور التعذيب الأخرى ما يسمى "التعذيب الجنسي" ويتخذ هذا النمط صوراً بمنتهى الانحطاط الخلقي الذي يتمتع به سجّانوا الاحتلال، كالضرب على الأعضاء التناسلية، وتعري بعض سجانات الاحتلال أمام بعض الرجال ومحاولة إجبارهم على ممارسة الرذيلة معهنّ، وكذا اغتصاب بعض الحرائر من نساء العراق، وغير ذلك مما يندى له جبين الشرفاء.

أما صور التجاوزات القانونية في السجون فهي عديدة ومتنوعة، ومنها "الأوضاع الصحية المزرية" التي وصلت إلى مراحل في غاية الخطورة، كفقدان الوزن، وانتشار الجرب، والالتهابات المعوية، وعاهات مستديمة في أجسام المعتقلين!!.

ومن صور التجاوزات أيضاً "الازدحام الشديد داخل السجون" مما يؤدي إلى تداعيات صحية كبيرة، ويقدّر عدد السجناء في زنزانة الاعتقال الفردي في بعض السجون إلى أربعة أشخاص، وهم يفترشون مساحة أرض لا تزيد على متر ونص، مما يضطرهم إلى التناوب جلوساً وقياماً!!، أما حشد العشرات في غرفة واحدة فهو أسلوب متبع ومنهجي في السجون الحكومية.

وأُشير هنا أيضاً إلى تقرير أعده الجنرال الأمريكي "أنطونيو ثاغوبا" ونشرته مجلة نيويوركر أن ممارسات سادية وجرائم في سجن أبو غريب حدثت بين شهر تشرين أول وشهر كانون أول من العام الماضي، وقام بهذه الممارسات جنود من كتيبة الشرطة العسكرية رقم (٣٧٢) وعدد من عناصر أجهزة المخابرات الأمريكية وانتهاكات كبيرة منها:

- كسر الأضواء الكيماوية وسكب السائل على المعتقلين.
- سكب المياه الباردة والساخنة على المعتقلين بعد تعريتهم.
- ممارسة اللواط بحق المعتقلين وإجبارهم على تمثيل مظاهر جنسية.
- إجبارهم على ممارسة العادة السرية.

- تعرية المعتقلين وإجبارهم على النوم فوق بعض.
- إدخال أضواء كيماوية في دبر المعتقلين.
- إبقاء المعتقلين عراة لعدة أيام.
- ضرب المعتقلين بمقابض المكانس والكراسي.
- ربط رقاب المعتقلين وهم عراة بحبل وجرهم وهم مقيدين.
- حرمانهم من النوم.
- استخدام الكلاب العسكرية لترويع المعتقلين وعضّهم.
- اغتصاب النساء المعتقلات.
- ضرب السجناء بجدران السجن.
- ربط الأماكن الحساسة للمعتقلين بالأسلاك الكهربائية والتهديد بتشغيلها.

جرائم التعذيب الأمريكي، والقانون الدولي

إذا اتضح ما تقدم ذكرة من معلومات متنوعة تثبت ارتكاب جنود الاحتلال الأمريكي لأبشع أنواع جرائم التعذيب، التي تعرض لها السجناء والمعتقلون، بل والمدنيون رجالاً ونساءً، وشيباً وشباباً، صغاراً وكباراً.

أقول إذا اتضح كل ذلك فهل تسمى مثل تلك الجرائم (جرائم تعذيب) دولياً؟ وما هو موقف القانون الدولي من كل تلك الأفعال التي ما فتئ جنود الاحتلال يرتكبونها كل يوم صباح مساء؟ وهل هناك مبررات يمكن أن تقف وراء القيام بمثل تلك الأفعال الشنيعة التي يندى لها جبين الإنسانية؟.

لعل الإجابة عن تلك التساؤلات تتضح من خلال نقل نصوص الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، التي وقّعت عليها أغلب دول العالم، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، التي احتلت العراق بذرائع واهية بانَ زيفها وكذبها.

على أنني أنبه هنا أن تلك النصوص القانونية المتفق عليها دولياً تحرم أفعال التعذيب في أي وقت من الأوقات، في السلم أو في الحرب، مدنياً كان المعذَب أم عسكرياً.

إذن المقصود بالتعذيب في اتفاقية مناهضة التعذيب التي اعتمدتها الجمعية العامة في ١٠ كانون الأول ١٩٨٤م حسب المادة (١) من الجزء الأول منه، هو: أي عمل ينتج عنه ألم أو عذاب شديد، جسدياً كان أم عقلياً يلحق عمداً بشخص ما؛ بقصد الحصول على من هذا الشخص، أو من شخص ثالث على معلومات، أو على اعتراف، أو معاقبته على عمل ارتكبه، أو يشتبه في أنه ارتكبه؛ هو أو شخص ثالث، أو تخويفه، أو إرغامه هو أو أي شخص ثالث، أو عندما يلحق مثل هذا الألم أو العذاب لأي سبب من الأسباب يقوم على التمييز أياً كان نوعه، أو يحرّض عليه، أو يوافق عليه، أو يسكت عنه موظف رسمي، أو أي شخص آخر يتصرف بصفته الرسمية.

وتشير المادة (٢) من القرار ذاته إلى أن أي دولة طرف في هذا القرار يجب أن تتخذ إجراءات تشريعية، أو إدارية، أو قضائية فعالة، أو أية إجراءات أخرى لمنع أعمال التعذيب في أي إقليم يخضع لاختصاصها القضائي.

بينما تنص المادة (٣) على أنه ((لا يجوز التذرع بأية ظروف استثنائية أياً كانت، سواء أكانت هذه الظروف حالة حرب، أو تهديداً بالحرب، أو عدم استقرار سياسي داخلي، أو أية حالة من حالات الطوارئ العامة الأخرى كمبرر للتعذيب)).

وتنص المادة (٤) على أنه ((لا يجوز التذرع بالأوامر الصادرة عن موظفين أعلى مرتبة، أو عن سلطة عامة، كمبرر للتعذيب)).

أما الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عام (١٩٤٨م)، واعتُمد بموجب قرار الجمعية العامة ٢١٧ ألف (د-٣) المؤرخ في (١٠ كانون الأول- ديسمبر ١٩٤٨م)، فتشير المادة (٥) بوضوح إلى أنه ((لا يُعرّض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية، أو الوحشية، أو الحاطّة بالكرامة)).

وهناك نصوص شبيهة أيضاً في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، الذي اعتُمد وعرض للتوقيع والتصديق والانضمام بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٢٢٠٠ أ (د-٢١) المؤرخ في ١٦ كانون- ديسمبر ١٩٦٦م، وتشير المادة المادة (٧) من ذلك العهد (مثلاً) على أنه ((لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أواللاإنسانية أو الحاطة بالكرامة)).

ولعل تلك النصوص توحي بدلائل قانونية عديدة، وفيها من الاستنباطات الشيء الكثير الذي يدين المسؤولين الأمريكيين عن جرائم التعذيب الحاصلة في العراق، بما فيهم الجنود الذين قاموا بمثل تلك الممارسات.

ولا ينبغي أن يرد هنا أو يقال بأن أفعال التعذيب تلك (أفعال فردية) يمارسها جنود وفق تصرفاتهم وأهوائهم الفردية، نتيجة ما يتعرضون له من ضغوط نفسية وفكرية!! وهو التصور الذي يمنع بموجبه تحميل قادة الاحتلال المسؤولية القانونية والأخلاقية عن تلك الأفعال، وبالتالي عدم إدانتهم قانونياً، على اعتبار أن القوانين الدولية تنص على تجريم الأفعال الرسمية، التي تأخذ طابع التصرف بشكل رسمي ومباشر؟! لا ينبغي أن يقال ذلك؛ لأن الجميع يعلم أن حصر جرائم التعذيب بسلوك بعض جنود الاحتلال مرفوض رفضاً قاطعاً، فهذه الممارسات هي في صميم وجوهر نظام إرهاب الدولة العظمى الذي يمثله الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) الذي يحمل صفة القائد

الأعلى للقوات الأمريكية، وكذلك وزير دفاعه السابق (دونالد رامسفيلد)، وكل الإدارة الأمريكية التي أسهمت في قرار احتلال العراق، تتحمل المسؤولية القانونية والأخلاقية عن انتهاك الثوابت الإنسانية والمعايير الدولية لحقوق الإنسان وأحكام القانون الدولي.

جرائم التعذيب: بين السياسة والتوجيه

بمرور الوقت تزداد بشاعة مثل تلك الجرائم التي تقدمت الإشارة إلى بعضها وضوحاً، ويتضح من خلال ذلك أن بشاعة تلك الجرائم تكمن في كون قرار الارتكاب ليس قرار أفراداً من الجنود؛ وإنما هو قرار مؤسسة عسكرية بأعلى مستوياتها، لعل من أهم مقدماتها تدريب وكالة المخابرات الأمريكية جنود الغزو على عشرين نوعاً من أحدث أنواع التعذيب، أهمها: الاغتصاب والإهانات الجنسية الفردية والجماعية للأسرى والأسيرات، وربطهم وجرهم كالحيوانات، والتعذيب حتى الموت، وهكذا.

وفي هذا الإطار لابد من الربط بين تلك الأفعال وبين المذكرات الحكومية الأمريكية السرية التي وقعها كبار المسؤولين الأمريكيين، وكانت تتداول بين الأروقة الأمريكية؛ لغرض التشاور حول كيفية التعامل مع المعتقلين في أفغانستان والعراق، والتي يتضح معها الازدراء الأمريكي بالقانون الدولي وحقوق الشعوب في العالم، فقد أثبتت الأيام التي قضاها العالم في فترة (جورج بوش) وتجربته الرئاسية هو الانتهاك الصارخ للقوانين الدولية التي تنص على حقوق الآخرين في العالم.

ولعل من أهم المذكرات السرية التي أشرنا إليها قبل قليل، ويتضح معها انتهاك حرمة الشعوب المستضعفة والمحتلة، هي مذكرة مساعد وزير العدل السابق الى المستشار القانوني للبيت الأبيض عام (٢٠٠٢م)، والتي تروج

لفكرة أن الدستور الأمريكي يجعل من حق الرئيس إعلان عدم التزامه بتطبيق القوانين الدولية في تعامله مع أسرى حرب أفغانستان؛ بحكم أن أفغانستان هي دولة منهارة، وذلك بهدف حماية الجنود الأمريكيين من مغبة الوقوع تحت طائلة القانون الدولي.

وقد وافق عليها بوش في نيسان عام (٢٠٠٢م) عبر مذكرة لفريق الأمن القومي المساعد له، أكد فيها على أنه يمتلك سلطة إعلان عدم انطباق اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب على أسرى الصراع في أفغانستان ولكنه لن يستخدم هذه السلطة[1].

هذا في الوقت الذي أصدر فيه وزير الدفاع الأمريكي السابق (دونالد رامسفيلد) مذكرة في كانون الأول من عام (٢٠٠٢م) تسمح باستخدام خمسة عشر أسلوباً من أساليب التعذيب[2].

---

[1] ينظر مقالة الباحث (علي حسين باكير) بعنوان (جرائم التعذيب: إستراتيجية أمريكية بامتياز)، منشورة على موقع مجلة العصر الإلكترونية، بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٤م.

[2] كشف تقرير سري صدر في يوم الأربعاء الموافق ٢٠٠٩/٤/٢١م، ونشره موقع الجزيرة نت، على الرابط التالي: http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C٤٨٤DF٠-F١١٥٥-٤DC٩A-٦C٩-٨D٢٥٥E٠٦٣٩CE.htm عن أنَّ إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش وافقت على استخدام أساليب قاسية لتعذيب المشتبه بتورطهم فيما يوصف بالإرهاب، وركز التقرير الذي أوردته الصحيفة الأمريكية واسعة الانتشار (نيويورك تايمز) وصحف أميركية أخرى، على أساليب التحقيق التي نفذها الجيش الأميركي، وليس تلك الأساليب التي طبقتها وكالة المخابرات المركزية (سي.آي.أي) في سجونها السرية، مؤكداً على أن وزير الدفاع السابق (دونالد رامسفيلد) وافق في الثاني من ديسمبر- كانون الأول عام ٢٠٠٢م على (١٥) طريقة في التحقيق باستخدام التعذيب، ورفض التقرير مزاعم رامسفيلد وغيره بأن سياسات وزارة الدفاع (البنتاغون) لم تلعب دوراً أساسياً في التعذيب القاسي لمعتقلي سجن أبي غريب في العراق ومنشآت عسكرية أخرى، ويوثق التقرير كيف أن هذه الأساليب التي استخدمها جيش الاحتلال في سجون أفغانستان والقاعدة البحرية في غوانتانامو وكذلك العراق، كالتعرية ووضع المعتقلين في أوضاع صعبة، والحرمان من النوم- انبثقت عن برنامج عسكري يعرف بـ(البقاء، والمراوغة، والمقاومة، والهروب) استخدم لتدريب الجنود على مقاومة تحقيقات العدو التعسفية.

وبمناسبة ذكر اسم (رامسفيلد) الذي يعد رأساً من رؤوس الجريمة التـــي لحقت بشعب العراق، فإن جملة مؤثرة لا تزال تظن في أذنيّ ذكرها الأســـتاذ الدكتور محمود مبارك، أستاذ القانون الدولي في المملكة العربية السعودية لي ولمجموعة من الباحثين والإعلاميين، قال: إنه لو كان عراقياً لرفـــع دعـــوى قضائية ضد رامسفيلد منذ اليوم!!، وقال: ((الآن.. الآن وليس غـــداً)) يجـــب محاكمة مثل هؤلاء المسؤولين!!.

وقد أكد تقرير منظمة هيومن رايتس ووتش الـــصادر فـــي ٢٤ نيـــسان ٢٠٠٥م على وجود مذكرات أقل ما يمكـــن أن يقـــال فيهـــا، إن المـــسؤولين الأمريكيين كانوا على علم بتلك الجرائم وإنهم كانوا يتكتمون عليهـــا، وأشـــار التقرير إلى أن رامسفيلد قد وافق على طرق الاستجواب التي تخرق معاهدات جنيف واتفاقية مناهضة التعذيب من قبيل استخدام كـــلاب الحراســـة لإخافـــة السجناء ومن قبيل وضعهم في وضعيات "صعبة" ومؤلمة، و لـــم يتـــوفر أي دليل على أن رامسفيلد (وخلال ثلاث سنوات من تزايد التقارير التي تحـــدثت عن سوء المعاملة) قد مارس سلطته لإنذار من يعملون تحت إمرته بأن إساءة معاملة السجناء يجب أن تتوقف ولو كان قد فعل ذلك لأمكن بالتأكيـــد تجنـــب كثير من الجرائم التي ارتكبتها القوات الأميركية"، في حين أكد "ريد بـــرودي" المستشار الخاص في هيومن رايتس ووتش فـــي نفـــس التقريـــر أن ((هـــذا النموذج من إساءة المعاملة والمنتشر في عدد من البلدان لم ينتج عـــن أفعـــال الأفراد من الجنود الذين يخرقون الأنظمة، بل نتج عن قرارات متخـــذة مـــن جانب مسؤولين أمريكيين على مستوى رفيع لتحريف الأنظمة أو تجاهلهـــا أو حتى إلقائها جانباً))[1].

---

[1] ينظر مقالة الباحث (علي حسين باكير) بعنوان (جرائم التعذيب: إستراتيجية أمريكية بامتياز)، منـــشورة على موقع مجلة العصر الإلكترونية، بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٤م.

وليس أدل على ذلك من أن الولايات المتحدة الأمريكية وقعت الاتفاقية في الثامن عشر من نيسان- أبريل عام ١٩٨٨م دون أن تصادق عليها، وفقاً للمعطيات المتوفرة للعام ٢٠٠٠م، كما وأنها وقّعت على اتفاقية روما لعام ١٩٩٨م بتشكيل محكمة الجزاء الدولية ورفضت التصديق عليها؛ ربما لمعرفتها المسبقة لطبيعة مشاريعها العدوانية، فهل هذه استثناءات أم استراتيجية محكمة؟!.

طرق التعذيب.. والحط من الكرامة الإنسانية

إن التعذيب جريمة تحط بالكرامة الإنسانية؛ لأن هدف المعذب ((سلب إرادة الضحية))، ومن ثم إجباره على الإدلاء بما يريد من الاعترافات، أو التوقيع على ما لديه من إفادات معدة سلفاً.

ثم إن الأفعال الإجرامية التي ارتكبها الأمريكيون بحق السجناء والمعتقلين الأبرياء والعزّل تكشف نفسيتهم المريضة وعجزهم عن تحطيم المسلم وفشلهم في مسعاهم لإذلاله، والمرجح أنهم لجأوا إلى هذه الأفعال ليوهموا أنفسهم أنهم انتصروا وهم فاشلون، ولعل من قام منهم بتسريب صور التعذيب التي نشرت تأتي في إطار الحرب النفسية لإذلال المسلمين ولتثبيط الروح المعنوية للمقاومة العراقية بعد الانتصارات التي حققتها في عملياتها العسكرية في مقاومة الاحتلال.

وقد أشار البروفيسور الأمريكي "برناردو هيكل" أستاذ الدراسات الشرق أوسطية في (جامعة نيويورك) إلى أن تعرية الرجال وتكديسهم فوق بعضهم، أو إجبارهم على ممارسة العادة السرية جاء في ضوء قراءة إدارة الاحتلال للتقاليد العربية والإسلامية التي ترفض الإباحية والتعري، وتعتبرها منافية للخلق والدين، وبالتالي استخدمت قوات الاحتلال والمخابرات الأمريكية هذا

الأسلوب غير الإنساني في التعذيب كوسيلة لانتزاع الاعتراف وكسر إرادة المعتقلين، في حين أكد عدد من الجنود المتهمين أن المسؤولين عنهم وضباط الاستخبارات كانوا يقنعونهم أن ما يقومون به من عمليات تعذيب "مهمة عظيمة"، ويؤكدون أن تعذيب العرب وتعريتهم وانتهاك أعراضهم هي الوسيلة الوحيدة التي تجبرهم على الاعتراف بما ارتكبوه.

ولكن مع كل هذا فإن القانون الدولي لا يجيز ارتكاب جرائم التعذيب تحت أي ظرف من الظروف، فلا يبرر فعل الجرم مرض نفسية المجرم، أو امتعاضه، أو استشفائه بالمجني عليه، والمؤكد أن المادة (٣) من الجزء الأول من اتفاقية مناهضة التعذيب العالمية لا تجيز التذرع بأية ظروف استثنائية أياً كان نوعها لممارسة التعذيب، سواء أكانت هذه الظروف حالة حرب، أو حتى في حالة التهديد بالحرب، أو في جو عدم الاستقرار السياسي الداخلي، أو أية حالة من حالات الطوارئ.

وإنني إذ أدلف إلى ختم هذه السطور فإنني أستطيع التأكيد على أن تعذيب العراقيين من قبل قوات الاحتلال صار ظاهرة متواترة لا تكاد تخفى على أي متابع لهذا الشأن، وإذا ثبت هذا وتأكد فإن المسؤولية هنا منصبّة على القانونيين وأصحاب الشأن في أن يرتبوا أوراقهم، ويحزموا ملفاتهم، ويسعون لعرضها أمام المحافل والمحاكم الدولية لمحاكمة المتورطين بأرواح وأجساد العراقيين الأبرياء، ورد الاعتبار لهم، وعلى كل الضحايا والمجني عليهم أن يتعاونوا بتقديم تلك الملفات والإثباتات، التي تدين هؤلاء المجرمين الجناة، والله ولي التوفيق والسداد.

وثائق

آراء مركز الأمة في مستجدات الشأن العراقي

العراق واتفاقيات الوصاية الأجنبية

رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير

٢٠٠٩/١٠/١٥م

الأرض للأمريكيين والمياه للبريطانيين، هذا ما تقضي به آخر الاتفاقيات الموقعة بين الحكومة الحالية وبين سلطتي الاحتلال الأمريكي والبريطاني، غنيمة تقاسمها الحليفان الاستراتيجيان والشريكان الرئيسان في غزو العراق، تحت اسم "اتفاقيات أمنية"؛ إذ جاءت الاتفاقية الأمنية الأخيرة مع بريطانيا لتكمل المؤامرة على سرقة ثروات البلد، وسرقة قوت الشعب العراقي.

تدعي الحكومة حسب المتحدث باسمها أن هذه الاتفاقية "تأتي لغرض تأطير طبيعة العلاقة فيما يخص وجود قوات المملكة المتحدة وعناصرها على أراضي جمهورية العراق وتقديم المعونة الفنية والخبرة لتدريب القوات البحرية العراقية... وانطلاقاً من أهمية التعاون بين الحكومتين في مجال تدريب القوات البحرية والمشاة البحرية والكليات والمعاهد العسكرية وحماية المياه الإقليمية العراقية وحماية منصات النفط العراقية حسب طلب الحكومة العراقية... وتقضي بالسماح لـ ١٠٠ جندي بريطاني ومرافقيهم من العناصر المدنية و(٥) سفن بحرية وطواقم الملاحة العائدة لها حيث تتولى قوات المملكة المتحدة تقديم الدعم البحري التعبوي للقوات العراقية لحماية منصات النفط العراقية والمياه الإقليمية العراقية" حسب هذا المتحدث أيضاً.

أما الحقيقة فهي وضع مياه العراق وآباره ومنصاته النفطية تحت الوصاية الأجنبية، وفرض الهيمنة والسيطرة على منابع النفط العراقية كنوع آخر من الاحتلال وشكل من أشكال الوصاية يساعدهم في ذلك مجموعة من حلفائهم في البرلمان والحكومة.

لكن يبقى السؤال المهم في هذا الموضوع هو ما دلالات تمرير هذه الاتفاقية في هذا الوقت تحديداً وهي فترة ما قبل الانتخابات البرلمانية؟ ولماذا تعد فترة ما قبل الانتخابات هي فترة توقيع مثل هكذا اتفاقيات وتمريرها؟ وهل تربط هذه التوقيتات علاقة موضوعية معينة؟!.

وهنا لابد من التذكير بأن تمرير اتفاقية الإذعان مع الولايات المتحدة جاءت في ظروف مشابهة وهي فترة ما قبل انتخابات مجالس المحافظات وتحديداً في ٢٠٠٨/١١/١٧م.

إن اختيار هذا الوقت الحرج بالنسبة للكتل والأحزاب السياسية يكشف حجم المساومات والضغوط التي تمارس مع حلفاء أمريكا وبريطانيا في العراق في وقت تتصارع هذه الأحزاب والكيانات السياسية من أجل تأمين مكاسبها في الانتخابات القادمة في كانون الثاني ٢٠١٠م.

إذن الموضوع يتم وفق تفاهمات وصفقات بين رجال العملية السياسية وبين سلطات الاحتلال من أولياء نعمتهم في البقاء في الحكم خصوصاً إذا علمنا أن نسبة كبيرة من ساسة اليوم حصلوا على الجنسية البريطانية بعد أداء القسم بخدمة (بريطانيا العظمى).

أوباما.. من الانسحاب التدريجي إلى الرجوع التدريجي إلى العراق
الإستراتيجية الأمريكية القادمة في العراق..

رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير
٢٢/١٠/٢٠٠٩م

بعد حديث أوباما عن إستراتيجيته الجديدة في العراق القائمة على الانسحاب التدريجي من هناك، ها هو اليوم يحاول التراجع عن إستراتيجيته التي وعد وبشر بها أثناء حملته الانتخابية، وخصوصًا بعد أن اصطدمت استراتيجيه في أفغانستان بصخرة طالبان القوية وهو ما دفع القادة العسكريين ومستشاري الرئيس أوباما إلى إعادة النظر في مسألة إرسال قوات إضافية إلى هناك، وهو ما دفع أوباما إلى أن يعلن أنه لن يتخذ قرارًا إزاء إرسال مزيد من القوات لأفغانستان حتى (تتضح له تمامًا ماهية الإستراتيجية المتبعة).

هذا التغير المفاجئ في الخطط والإستراتيجية سيؤثر بالتأكيد بشكل سلبي على علاقة الإدارة الأمريكية بدول حلف شمال الأطلسي فقد أعرب بعض

قادته عن انتقاداتهم للإدارة الأمريكية في التأخر عن الإعلان عن الإستراتيجية الجديدة في أفغانستان.

وهذا التردد والاضطراب في تحديد أي الاستراتيجيات أفضل للتعامل مع الوضع القائم يشير إلى حجم مأزق الإدارة الأمريكية الحالية وهي تعيش تحت وطأة التركة الثقيلة التي ورثتها عن إدارة بوش السابقة ويبدو أنها لا تزال تراوح في منطقة وسط بين الخروج من دائرة بوش أو الاستمرار في تحمل تبعاتها المكلفة.

لكن التلازم الوثيق بين كل من الجبهتين العراقية والأفغانية يمنح الإدارة الأمريكية هامشاً من المناورة بين الجبهتين، وهنا يقفز التساؤل الأهم بالنسبة للقضية العراقية، وهو ما مدى تأثير هذا الهروب من الجبهة الأفغانية باتجاه العراق الأهدأ والأسهل نسبيًا في نظر القادة والجنرالات العسكريين؟ وما أبعاد هذا التحول الاستراتيجي على الصعيدين العسكري والسياسي في العراق؟

إستراتيجية الهروب هذه من أفغانستان نحو العراق تواجهها عقبة كبيرة في نظر الخبراء الأمريكيين وهي عقبة "الاتفاقية الأمنية" الموقعة مع الحكومة الحالية في العراق والتي تقضي بسحب القوات الأمريكية من العراق مع حلول عام ٢٠١١، ولذلك سيعمد المسؤولون الأمريكيون إلى التفكير في إعادة قراءة الأولويات في الجبهتين. وقد بدت ملامح هذا التراجع في الإستراتيجية الأمريكية من خلال تصريحات بعض أعضاء الكونغرس والقادة العسكريين، فقد أعلن النائب (هاوارد مكيون) كبير أعضاء الجمهوريين في لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب قائلاً: " إنه يخشى أن الجدول الزمني الذي وضعه أوباما لانسحاب لا يتيح لقائد القوات الأمريكية في العراق "مجالا يذكر للمناورة".

وقال خلال الجلسة: "ينبغي لعملية وضع الجدول الزمني لسحب القوات الأمريكية من العراق أن تستند إلى الظروف على الأرض، هل لدينا خطط طوارئ في حالة ما إذا تطلب الموقف الأمني تعديل الموعد النهائي المحدد بأغسطس ٢٠١٠... هل ما زال لذلك نفس المعنى اليوم..". أما مساعدة وزير الدفاع للشؤون السياسية (ميشيل فلورنوي): "إن خطط تقليص القوات الأمريكية "ليست جامدة" وإنما تسمح "بإعادة التقييم وتغيير خططنا وفقا للتطورات على الأرض إذا دعت الضرورة... إذا اقتضت الضرورة سنعيد دراسة الأوضاع."

ولو حاولنا قراءة المشهد السياسي العراقي اليوم وفق هذه المعطيات لوجدنا أن السباق المحموم للأحزاب والكتل السياسية للانتخابات القادمة تحمل من المؤشرات والدلائل ما يفيد بفوضى سياسية قادمة أكثر سوءً من الفترة السابقة، وهذا يمكن استنتاجه من طبيعة التحالفات والائتلافات التي تشكلت بعد التصدعات الكبيرة التي شهدتها الكتل الكبيرة السابقة، هذا سيولد برلماناً منقسماً على نفسه وبالتالي حكومة ضعيفة، وهو مطلب أمريكي حتمي في المرحلة القادمة.

الإدارة الأمريكية المسؤول الأول عن العملية السياسية الجارية اليوم في العراق لا تريد دعم طرف على حساب طرف آخر وإنما تريد وضعًا ضعيفًا غير مستقر بما يخدم المصالح الأمريكية والإستراتيجية الجديدة المعدلة، وبالتالي يدفع الساسة العراقيين إلى الشعور بضرورة تمديد فترة بقاء القوات الأجنبية خلافًا لما نصت عليه الاتفاقية الموقعة بين البلدين تحت ذريعة إن وجودهم صمام أمان لمنع تهديد طرف ضد طرف، وهذا لا يتحقق إلا مع وجود حكومة ضعيفة وعدم الاستقرار السياسي وعدم وجود أغلبية برلمانية من أي جهة كانت.

مما تقدم يظهر أن المطلب الأمريكي اليوم ينص على أن يكون الوضـــع العراقي ضعيفًا إلى درجة الاتكاء المذل على الوجود الأمريكي، وهذا يحقــق مرامي تغيير السياسة الأمريكية تجاه العراق استنادًا إلى حجم التحديات التـــي تواجهها الإدارة الأمريكية في الساحة الأفغانية.

إن مهندس الحرب الأمريكية في المنطقة يحاول ترقيع الخلل في المنطقـــة الأفغانية من خلال التنصل عن الانسحاب من الساحة العراقية، وبالتالي فـــإن المشهد العراقي يتلخص اليوم بضعف واضح فـــي الأدوات الـــسياسية التـــي تستخدمها أمريكا وخلل واضح في خطط وبرامج هذا الاحـــتلال، والمطلـــوب اليوم أن يكون هناك تحرك من أجل الضرب في عمق الـــضعف الأمريكـــي على الساحتين الأفغانية والعراقية، وهذا الدور يقع علـــى القـــوى الرافـــضة للاحتلال باستجماع أمرها وتحديد أهدافها وأولوياتها المستمدة من ثوابتها التي صارت نبراس هداية لكل الشعوب الحرة في العالم.

حين تكون الوطنية شعارا انتخابيا!

رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير
٢٠٠٩/١٠/٢٩م

أما آن لهذا الشعب أن يعي ما يضمر له هؤلاء المتلفعون بشعار الوطنية زيفاً وبهتاناً، أما آن لهؤلاء الساسة الجدد أن يكفوا عن المتاجرة بدماء العراقيين وأرواحهم؟.

كم يا ترى على الشعب العراقي أن يدفع ثمن بقاء هؤلاء جاثمين على صدره، وكم سيكلفه ذلك بعد!.

ماذا بقي من العراق للعراقيين؟، ولماذا يتوجب على العراقي تقديم حياته وحياة أبنائه قرابين مجانية وبلا ثمن لمشاريع مشبوهة غريبة عليه؟.

إن قراءة فاحصة للقوائم الانتخابية التي شكلتها الأحزاب والمجاميع والشخصيات المرتبطة جميعاً عبر مصادر تمويلها بقوى إقليمية أو احتلالية تدل بما لا يقبل الشك أن هذه التكتلات إنما هي مشاريع دكاكين للاستثمار في فترة انتخابية قادمة فلا يوجد عند الجميع ما يمكن أن يطلق عليه برنامجاً سياسياً يعد بخلاص العراق أو أن يضع في حده الأدنى سقفاً زمنياً حقيقياً لرفع معاناة الشعب العراقي من الاحتلال.

إن الوعود السرابية الموهومة لتثبيتهم على رأس السلطة لم تعد تطرب أذن المواطن البسيط، فالمشاريع العملاقة التي وعدوا بها فيما يسمى حملة الإعمار كانت خراباً ودماراً للبنى التحتية وغطاءً للسرقات المنظمة بقوانين الاحتلال ومن جاء معه.

إن عرض الشيء وممارسة نقيضه هو منهج احتلالي يتبعه كل من ارتبط بمشروع الاحتلال تنفيذاً أو دعماً أو ترويجاً، وليس أدل على ذلك من شعارات رفعتها الحكومات المتعاقبة في القوى الذي تمارس فيه نقيضها مثل شعار "المصالحة الوطنية" و"الاستثمار الأجنبي" و "ودولة القانون" التي يراد منها استغفال أبناء العراق بهذه الشعارات من دون أن يكون لها أي أثر في الواقع.

يبدو من خلال المعطيات والطروحات والتداخلات والتفجيرات أن اللاحق لن يكون أقل سوءاً من السابق.. ما دام الراعي للانتخابات واحداً وهو الاحتلال، ولقد قلنا في رأي سابق للمركز إن استراتيجية الاحتلال هي إيجاد حكومة ضعيفة مهلهلة تكتنفها النزاعات الشخصية والحزبية والفئوية بما في ذلك التحضير للاقتتال العنصري في الصفحة المؤجلة التي يمهد لها الفشل المتكرر لإقرار قانون الانتخابات الجديد والإبقاء على ألغام الدستور كالمادة (١٤٠) والتعسف في ممارسة مكتسبات العملية السياسية في ظل الاحتلال من جانب، وإيجاد المبررات المضللة لتمديد بقاء قوات الاحتلال في العراق من جانب آخر.

لقد بات من الضروري أن يدرك العراقيون اليوم حجم المؤامرة التي تحاك ضدهم ولذا عليهم أن يتخذوا الموقف الصحيح في فضح هؤلاء السياسيين المتاجرين بدمائهم ومحاسبتهم، فكم يا ترى سيقدمون من أبنائهم ودمائهم حتى موعد الانتخابات القادمة، ألا يكفي ما قدموه من تضحيات؟! كما

أن عليهم أن يدركوا أيضاً أن الاحتلال لن يُنزع شرعية بقائه ما دام هـؤلاء الموجودون بالسلطة يحظون بأصوات ولو شكلية يتم تجييرها على أنها انتخابات شرعية.

إن إجماعاً شعبياً على أن أسباب التفجيرات الأخيرة يقف وراءها أو يتحملها المتصارعون على السلطة أصبح وعياً جمعياً عاماً وهو كفيل بإفشال ما يصبوا إليه اللاهثون على السلطة من مكاسب حزبية ومصالح شخصية ضيقة على حساب مصلحة العراق والعراقيين.

ساسة العراق الجديد والصفقات الثلاث

رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير
٢٠٠٩/١١/١٢م

بدءاً من صفقة تمرير الدستور التقسيمي سيء الصيت ومروراً بتوقيع اتفاقية الإذعان وأخيراً وليس آخراً صفقة بيع كركوك، تلك هي أشهر وأخطر ثلاث صفقات في عراق ما بعد ٢٠٠٣م، أبطالها ساسة جدد في ظل الاحتلال، جاءت هذه الصفقات في شكلٍ من أشكال الالتفاف على إرادة الشعب والاستخفاف بمصيره، فها هي الكتل والأحزاب والمجاميع المنضوية في العملية السياسية تحت حراب المحتل حاولت أن تظهر على سطح الأحداث بمسرحية جديدة باتت فصولها المستهلكة معروفة لدى المتابعين عبر تمييع القوانين والتلاعب بالألفاظ والصياغات لنصوص قوانين ظاهرها إقرار وتعديل وباطنها استحواذ واستقواء بمحتل غاصب وإقصاء متعمدٍ لإرادة الشعب العراقي.

تمثلت صفقة بيع كركوك باعتماد سجل الناخبين لعام ٢٠٠٩م وهو ما يصب في مصلحة الطرف الكردي الذي عمل على تغيير ديموغرافية كركوك منذ غزو العراق في ٢٠٠٣م، ولذلك وصفت كتلة التحالف الكردستاني تمرير قانون الانتخابات بأنه: "إنجاز" وعدّته انتصاراً لمعركتها في قضية كركوك.

ينص هذا القانون على أن تكون عملية تدقيق سجلات الناخبين فيما لو تم تقديم طلب التشكيك من (خمسين نائباً على الأقل) من المجلس على أن (يحظى بموافقة مجلس النواب بالأغلبية البسيطة) - وهي النصف زائد واحد- وهذا الشرط يعد تعجيزياً في ظل مجلس نواب قائم على المحاصصة السياسية وخاضعٍ للتوافقات والصفقات الحزبية.

إن خطورة هذه المادة من القانون تكمن في صعوبة تحقق هذا الشرط عملياً، وذلك لأسباب عدة منها ما يتعلق بآلية تقديم طلب التشكيك آنفة الذكر، ومنها ما يتعلق باللجنة التي يشكلها مجلس النواب للنظر بهذا الطلب؛ إذ إن هذه اللجنة تتكون من:

١. ممثلي مكونات محافظة كركوك، وتحصيل حاصل سيكونون من الأكراد لأنهم سيستلمون إدارة كركوك كأغلبية على الأرجح بسبب أن سجل الناخبين لعام ٢٠٠٩ يضمن لهم ذلك، فما فائدة وجدوى تشكيل لجنة تدقق في السجلات المشكوك فيها بعد أن يكون غالبية أعضائها من الأكراد؟

٢. ممثل من وزارة التخطيط.

٣. ممثل من وزارة الداخلية.

٤. ممثل من وزارة التجارة.

٥. ممثل من المفوضية العليا المستقلة للانتخابات.

٦. ممثل من الأمم المتحدة.

وهؤلاء أعضاء اللجنة من ممثلي الوزارات والمفوضية بالتأكيد لن يكونوا مستقلين أو بعيدين عن أجندات الأحزاب التي ينتمون إليها، وبالتالي ستعود هذه اللجنة إلى مبدأ التوافقات والصفقات السياسية مرة أخرى.

ثم إن السقف الزمني المحدد لعمل هذه اللجنة - إن تشكلت - سيكون (سنة كاملة من تأريخ عملها) كما ينص القانون للتعرف على مواطن

الاعتراض، وهذا تمييع لا يصل معه معترض إلى ما يصبو إليه، ولن تتحقق معه الغاية التي من أجلها تشكلت اللجنة في ظل ظـروف تعـج بـالمتغيرات السياسية وتحكمها المصالح الحزبية الخاصة بعيداً عن مصلحة الجماهير.

إن آلية الاعتراض على أي خرق بعد الانتخابات وضعت بطريقة تضمن تدخلات الأطراف الفاعلة وتأثيرها بحيث لابد أن يـسلك هـذا الاعتـراض المسلك الذي حدده المحتل ويطبقه الطرف المستفيد (الـرابح الأكبـر)، ولـن يسمح بتجاوزه فهو بهذا الانجاز يعد نصاً مقدساً لا يمكن تجاوزه.

إن مسرحية إقرار القانون بصيغته الحالية وفوضى الاعتراضات وتهنئـة فؤاد معصوم رئيس كتلة (الرابح الأكبر) وشكره لمن أقرّ هذا القانون بطريقة السلق المعهودة في مثل قوانين المحتل؛ ليؤكد أن الأمر لم يكن ممارسة فعلية لعملية حقيقية يمارسونها وإنما هي إملاءات محتل أخرجها مسرحياً مستفيدٌ لا يأبه ببيع العراق كله من أجل مصلحة مرحلية ستعود على البلاد بـالويلات، لكن في النهاية إرداة الشعوب هي التي ستنتصر، والتأريخ يسجل، وغداً يـوم الحساب.

الإستراتيجية الأمريكية والرقم الأصعب

رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير
٢٠٠٩/١٢/٣م

الإستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان التي أعلنها أوباما مؤخرًا والقائمة على وضع جدولٍ زمني للانسحاب من هناك وفي غضون ١٨ شهرًا حسبما أعلن؛ تعكس الانقسام الحاد الحاصل داخل الإدارة الأمريكية حيال قضايا السياسة الخارجية وخاصةً الجدل الدائر حول جدوى الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة في كل من العراق وأفغانستان.

إن من أهم ما تضمنه خطاب أوباما هو إدراك (القوة العظمى) الوحيدة في العالم، وبعد سنوات من الحروب والغطرسة الأمريكية أن القوة وحدها لا تكفي في تحقيق المصالح والأهداف للولايات المتحدة، وهذا ما أكده أوباما خلال حديثه عن ضرورة أن يتزامن الجهد العسكري مع (العمل المدني) السياسي، والشراكة الفعالة مع الأطراف الأخرى.

لهجة التراجع التي غلبت على خطاب أوباما تكشف بوضوح الاعتراف بالعجز والقدرات المحدودة خلافًا لما اعتاد عليه العالم من اللهجة المتغطرسة لسلفه بوش الذي أدخل الولايات المتحدة في حربين استنزافيتين يصعب الخروج من مستنقعهما، وبناءً عليه بدأت إدارة أوباما تدرك حجم الخسائر والتكلفة الكبيرة التي سببتها تلك الحروب، وهو ما جعله يتحدث بوضوح عن

واقعية الأهداف في اعتراف صريح أنه لا يمكن (وضـــع أهـــداف تتجـــاوز مسؤولياتنا وقدراتنا ومصالحنا) حسب تعبيره.

السؤال المهم هنا هو: ما الذي جعل أوباما وإدارتـــه يعيـــدان حـــساباتهما ومراجعة الأهداف والاستراتيجيات بهذه الطريقة؟!

لا ينكر أي عاقل أو منصف أن الذي وقف في وجه الغطرسة الأمريكيـــة وأجبرها على التراجع وإعادة الحسابات وافشل مشاريعها في كل من العـــراق وأفغانستان هي المقاومة في كل من البلدين، فهما اللتان أجبرتـــا الجنـــرالات العسكريين وواضعي الاستراتيجيات على إعادة النظر فـــي حـــسابات القـــوة والقدرة وإعادة قراءة واقعية الأهداف الأمريكية على مستوى العالم كله.

مما لا شك فيه أن مقاومة الشعوب للعدوان أقوى وأعظم من كل القـــوى المادية الأخرى، فالمقاومة العراقية والأفغانية نالتا شرف الـــدفاع عـــن كـــل المستضعفين في العالم وحجب الشر الأمريكي عنهم من خلال كـــسر شـــوكة الغطرسة الأمريكية وعقدة غرور القوة التي دفعت أمريكا للاستخفاف بشعوب العالم والاستهانة بحقوقهم، هذا في الوقت الذي تفتقد هذه المقاومة إلى الـــدعم المادي والمعنوي على المستويين الدولي والإقليمي، لكنها اســـتطاعت خـــلال الأعوام الستة الماضية من اكتساب قدرات ومؤهلات جعلتها الرقم الأصـــعب المغير للمعادلات الإقليمية والدولية على حد سواء.

متابعات

مؤتمر تجريم الحرب ومحكمة جرائم الحرب المنعقد في كوالالمبور بماليزيا ٢٨-٣١/١٠/٢٠٠٩م

د. أحمد الجنابي

عقدت منظمة السلام الدولية (بيردانا) التي يرأسها تون دكتور محاضير بن محمد رئيس وزراء ماليزيا الأسبق مؤتمرها بشأن تجريم الحرب تحت شعار: (جعل الحرب جريمة) والذي عقد لمدة يومين (٢٨ - ٢٩ اكتوبر) في أكبر قاعات العاصمة الماليزية كوالالمبور (PWTC)، وأعقب ذلك المؤتمر تشكيل محكمة كوالالمبور للنظر في جرائم الحرب، وعقدت المحكمة جلستها على هامش المؤتمر في ٣٠-٣١ اكتوبر لاتخاذ قرار بشأن ما إذا كان الشهود وقضاياهم مختصة بالنظر في شكاوى ضحايا غوانتانامو وأماكن الاحتجاز الأخرى في "أبو غريب" وغيره، وكذلك لاتخاذ قرار بشأن ما إذا كان رؤساء دول ورؤساء حكومات ومسؤولين عن جرائم الحرب التي ارتكبت تحت حكمهم.

ويأتي نشاط منظمة بيردانا العالمية للسلام كخطوة أولى ولكنها حازمة في رحلتها الشاقة من أجل السلام العالمي، وتتحرك في هذا المؤتمر نحو هدف

واحد لوضع حد للحروب، ومؤسسها الدكتور محاضير محمد الـذي يتـوخى صراعاً خطيراً ونشاطاً ومتواصلاً ضد الحرب ومن أجل السلام.

علماً أن هذا المؤتمر هو الرابع من نوعه الذي يعقد فـي ماليزيـا؛ فقـد عقدت المؤتمرات السابقة في السنوات: (٢٠٠٥ و٢٠٠٦ و٢٠٠٧م)، وهذا هو المؤتمر الرابع ولكنه في هذه السنة ٢٠٠٩م هو المؤتمر الأول الذي يتخصص بموضوع تجريم الحرب على العراق حصراً.

وفي اليوم الأول للمؤتمر ألقى تون دكتور محاضير محمد راعي المؤتمر كلمته بالمناسبة تكرس فيها الحديث على فضح جرائم الحرب وتجريم الحرب في الوقت نفسه، الكلمة التي قاطعها التصفيق والتأييد للشجاعة المفوهة والحق الصادح بحضور أكثر من ألف ناشط ضد الحرب الذين تجمعوا فـي قاعـة (الاستقلال)، وبعد هذه الكلمة دشن المجتمعون معرضاً لجرائم الحرب، فكانت فيه مجسمات لتعذيب المعتقلين في غوانتنامو و"أبو غريب"، ومعدات جـرائم الحرب، وعرض للأساليب المستخدمة في الاسـتجوابات والتحقيقـات، فيمـا خصص جناح لآلات التعذيب الجسدي والنفسي، وكان منها الدريل والمـسمار والماء الحار والتيزاب والمنشار وغيرها، فيما كانت الأجواء والأضواء الفنية المعبرة عن هذه المشاهد قد تم اختيارها بدقة متناهية فضلاً عـن الأصـوات المسجلة للمعذبين التي صاحبت العرض.

ثم عقدت الجلسة الأولى التي خصصت عن خروقـات القـانون الـدولي وتحدث عن هذا الموضوع كل من النائب البريطاني جورج غالاوي، وعضو الكونغرس الأميركي السابق سينثيا مكيني، والسفير الهندي السابق كاجينـدرا سينغ، وبعد فاصل للاستراحة تابع المؤتمر جلسته الثانية التـي كانـت عـن الحرب الاقتصادية، وتحدث في هذا اللقـاء ميـشيل شوسودوفـسكي أسـتاذ

الاقتصاد في جامعة أوتاوا، وهانز فون سبونيك الأمين العام المساعد السابق للأمم المتحدة، والسيد خضير وحيد المرشدي.

وأما الجلسة الثالثة فكانت بعد الظهر عن الحرب والمجتمع المدني، وتحدث فيها داتؤ مخرز بن محاضير محمد وكيل وزارة التجارة الدولية في ماليزيا، داتؤ سري محمد أزومي المدير التنفيذي لمنظمة بيردانا العالمية للسلام، وديرك أدرينسينس الناشط في مجال السلام العالمي.

وفي اليوم الثاني كانت الجلسة الأولى لموضوع الحرب ووسائل الإعلام، وتحدث فيها كل من داتؤ سري أوتاما الدكتور رئيس يتيم وزير الإعلام الماليزي، وسامي الحاج المعتقل السابق والإعلامي الشهير، وداتؤ أحمد طالب المدير التنفيذي لميديا بريما، ثم تلتها الجلسة الثانية عن الأسلحة المحظورة في الحرب، وتحدث فيها دينيس هاليدي الأمين العام المساعد السابق للأمم المتحدة، ولورين موريه خبيرة اليورانيوم، والدكتورة سعاد العزاوي الأكاديمية العراقية.

ثم كانت الجلسة الثالثة عن السلام والعدالة وكان نصيب الحديث فيها لتان سري سنوسي الرئيس السابق للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، والناشطة العراقية هناء البياتي، ومحمد عمر رئيس مؤسسة رمضان.

وبعد ظهر اليوم الثاني وفي جلسة الاختتام للمؤتمر تحديداً ارتقى المنصة كوكبة من الناشطين السياسين في هذا المجال ترأسهم الدكتور محاضير بن محمد ومعه داتو سري أوتاما الدكتور رئيس يتيم، ميشيل شوسودوفسكي، هانز فون سبونيك، دينيس هاليدي، جورج غالاوي، سينثيا مكيني، وأهم ما جاء في هذه الجلسة الختامية:

- ضرورة مساعدة الأمم والشعوب المقهورة والتي تعرضت للظلم ولاسيما العراق.
- إن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ووجوب دعم المقاومة العراقية بكل أشكالها ولاسيما المسلحة، والتأكيد على دور هذه المقاومة في حماية المنطقة من شرور أمريكا.
- الدعوة لإغلاق معتقل (غوانتنامو) ولا فضل لأمريكا إن قامت بذلك بل هو واجب عليها.

ثم اختتم المؤتمر بقصيدة لأحد أفراد الجالية العراقية في ماليزيا الشاعر (إبراهيم المشهداني) شاكراً للمؤتمر والقائمين عليه لدعوتهم لنصرة القضية العراقية.

وعلى هامش المؤتمر عقدت محمكة كوالالمبور لتجريم الحرب جلستها على مدى يومين متتاليين وهما ٣٠-٣١/١٠/٢٠٠٩م، واستمعت المحكمة في اليوم الأول إلى شهادات الشهود من ضحايا الحرب والمتضررين من جرائمه البشعة، وكان أكثرهم من العراق، وفي اليوم الثاني كانت مداولات حكام المحكمة، وهم خبراء في القانون الدولي، ومراجع قانونية أممية وعالمية، وخلصوا بالإجماع في الجلسة النهائية لـ(محكمة جرائم الحرب) على ضرورة محاكمة (بوش الأب وبوش الصغير وطوني بلير) كمجرمي حرب عالميين، محمّلين إياهم مسؤولية حرب العراق واحتلاله سنة ٢٠٠٣م.

وقامت لجنة الادعاء بعرض قضايا جرائم الحرب على ستة قضاة من مختلف الجنسيات يرأسهم القاضي الماليزي داتؤ عبد القادر لمناقشتها وإصدار الحكم الغيابي ضد المجرمين.

وجاءت بعض القضايا تحمل مسؤوليات جنائية بحق (ديك شيني، وكوندليزا رايس، وكولن باول وغيرهم) لمشاركتهم في احتلال العراق سواء من خلال إصدار الأوامر أو التخطيط أو التنفيذ.

وخلصوا إلى القول إن القضاة استندوا في حكمهم على الجرائم التي ارتكبت (ضد السلام والإنسانية وجرائم الحرب والجرائم العرقية) إلى وجود سابقات قضائية مثل: (محاكم نورمبرك عام ١٩٥٠م) و(ميثاق لندن عام ١٩٤٥م) و(جرائم الحرب في يوغسلافيا من ١٩٢٠م وحتى ١٩٩٢م)، مؤكدين أن هذه المحكمة هي بذرة لقانون إنساني عادل وصحوة للضمير البشري للتمسك بالشرعية الدولية التي تم اختراقها من قبل دول الاحتلال ورموزهم المجرمة.

وشهد المؤتمر وجلسات المحكمة حضورا متميزا للجالية العراقية في ماليزيا، ومشاركات عربية وأجنبية أخرى، فيما كان الاهتمام البالغ من الحضور الكثيف للمعنيين بالشأن الدولي والسياسي العالمي من الناشطين والمتابعين والمحللين، وأساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا، وغيرهم حيث شغلت مقاعد القاعة بالتواجد الجماهيري على مدى أيام هذا النشاط وساعاته وجلساته، كما أن الجمعية العراقية في ماليزيا شاركت في هذه الفعالية ولجانها التنظيمية والإعلامية والفنية وغيرها.

وقد حضر المؤتمر ممثل قسم الثقافة والإعلام في هيئة علماء المسلمين في العراق الدكتور عبد الحميد العاني، وتضمن حضوره مداخلات، كان من أبرزها مطالبته المجتمع الدولي بدعم الإعلام المناهض للاحتلال والداعم للمقاومة العراقية.

نشاطات مركز الأمة للدراسات والتطوير

أولاً: الدراسات والبحوث والمقالات

أعد المركز خلال الأشهر الثلاثة الماضية عددا من الدراسات والبحوث والمقالات المتعلقة بالشأن، وتم نشرها في عدد من وسائل الإعلام العراقية والعربية.. وفيما يأتي موجزاً لأهمها:

ت	الموضوع	النوع	التاريخ
١.	أحداث الأربعاء.. صناعة أمنية	مقال	٢٠٠٩/٨/٢٠
٢.	العراق واتفاقيات الوصاية الأجنبية	مقال-رأي المركز	٢٠٠٩/١٠/١٥
٣.	نحو فهم للدور التركي الجديد في المنطقة..رؤية مغايرة	دراسة	٢٠٠٩/١٠/١٥
٤.	حرب الأشباح -الحرب السرية	دراسة	٢٠٠٩/١٠/١٤
٥.	أوباما.. من الانسحاب التدريجي إلى الرجوع التدريجي إلى العراق	مقال - رأي المركز	٢٠٠٩/١٠/٢٢

٦.	السياسة العراقية والتجاذبات الإقليمية والدولية	مقال	٢٠٠٩/١٠/٢٢
٧.	الجامعة المستنصرية.. من سعة الآفاق . إلى الإغلاق	مقال	٢٠٠٩/١٠/٢١
٨.	حين تكون الوطنية شعارا انتخابيًا... رأي مركز الأمة للدراسات والتطوير	مقال- رأي المركز	٢٠٠٩/١٠/٢٩
٩.	الفوضى تبعث من جديد	مقال	٢٠٠٩/١٠/٢٥
١٠.	وتستمر إراقة الدماء	مقال	٢٠٠٩/١٠/٢٦
١١.	التغيير سمة العراق "الجديد"	مقال	٢٠٠٩/١١/٤
١٢.	اوباما خطابات تهدئة وأفعال حرب	دراسة	٢٠٠٩/١١/٣
١٣.	العملية السياسية والطريق المسدود	مقال	٢٠٠٩/١١/٤
١٤.	ساســـــة العراق الجديد والصفقات الثلاث	مقال -رأي المركز	٢٠٠٩/١١/١٢
١٥.	مكننة الحرب- الثورة الأولى في التفوق العسكري	دراسة	٢٠٠٩/١١/١٢
١٦.	التغيـــير ســمة العراق "الجــديد"	مقال	٢٠٠٩/١١/١٢

	الجزء ٢		
.١٧	الانتخابات بين تزوير الحقائق والتجهيل المتعمد	مقال- رأي المركز	٢٠٠٩/١١/١٩
.١٨	توزيع المقاعد الانتخابيـــة	دراسة	٢٠٠٩/١١/١٩
.١٩	جرائم اللواء ٢٤ في قضاء أبو غريب	مقال	٢٠٠٩/١١/١٩
.٢٠	القوة المكتسبة تكتيك عسكري بأنياب حربية	دراسة	٢٠٠٩/١١/١٩
.٢١	فرق الموت تبعث من جديد	مقال	٢٠٠٩/١١/٢٥
.٢٢	الإستراتيجية الأمريكية والرقم الأصعب	مقال- رأي المركز	٢٠٠٩/١٢/٣
.٢٣	الخليج العربي بين الأطماع الإقليمية والهيمنة الأمريكية	دراسة	٢٠٠٩/١٢/٣
.٢٤	الانتهازية في سلوك الساسة في العراق "الجديد"	مقال	٢٠٠٩/١٢/٣

ثانيًا: ورش العمل

أقام المركز ورشة تدريبية في الصحافة الالكترونية بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/١١. وشارك في الورشة عدد من المتدربين الشباب في إطار برنامج التدريب والتطوير الذي يقوم به قسم التطوير في المركز.

ثالثاً: إصدارات المركز:

أصدر قسم الدراسات في المركز خلال الأشهر الثلاثة الماضية كتابين.. هما:

- التغيير الأمريكي وأثره على المنطقة العراق أنموذجًا.

وتضمن أعمال الندوة العلمية الأولى للمركز التي أقيمت بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٥. وتم نشره بالتعاون مع مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والإعلان.

- كيف السبيل إلى حل قضية كركوك؛ تأليف الدكتورة وصال العزاوي أستاذة العلوم السياسية والعميدة السابقة لكلية العلوم السياسية بجامعة النهرين.

وعالجت فيه قضية محافظة كركوك الشائكة، وطرحت فيه رؤيا للحل في إطار الوطن العراقي الواحد ومن منطلق رؤية القوى المناهضة للاحتلال. وتميز الكتاب باحتوائه على عدد كبير من الوثائق ذات الصلة بهذا الموضوع، فضلا عن بيان الأدوار الخطيرة التي مارسها ممثل الأمم المتحدة في العراق (ديمستورا) لصالح تمرير مخطط مشبوه في المحافظة.

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والإعلان.

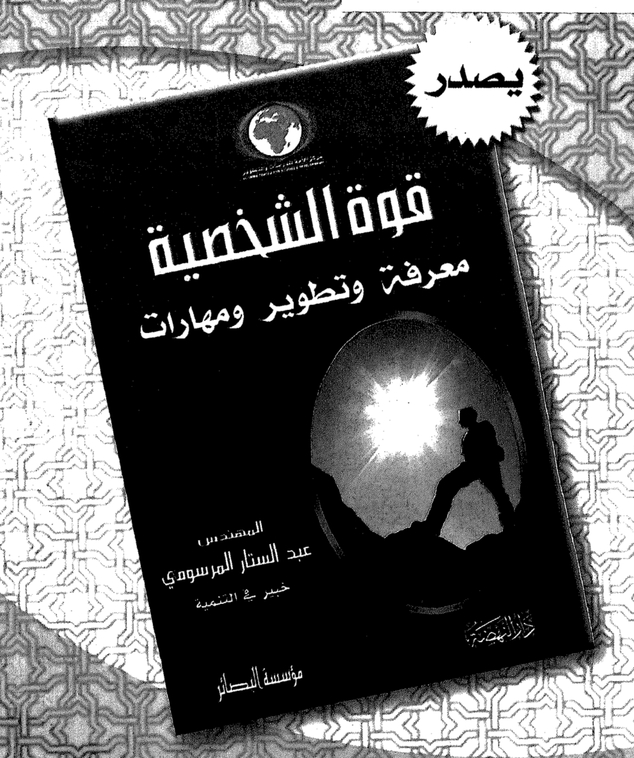
دار خيري للطبع والنشر 226 74 35 012



مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثالث رجب ١٤٣٠هـ / تموز ٢٠٠٩م

إهـــــــــداء ٢٠١٠
مجلة الحضارة
جمهورية مصر العربية



هذا الكتاب يضع للقارئ سبلاً واضحة المعالم يسير بها إلى مراده فيجد كيف ولماذا يخطط، ومتى وكيف يضع القرار المناسب، وآلية التعامل مع الآخرين بعد أن يحلل شخصياتهم



حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثالث رجب ١٤٣٠هـ / تموز ٢٠٠٩م

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١ Mobile: 009647810801021

نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١ Mobile: 0020174876011

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦ Telefax: 0020237619596

البريد الإلكتروني

editor@hadharamagazine net

ضوابط النشر في المجلة

(١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

(٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

(٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

(٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

(٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

(٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

(٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال وممانعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

(حضارة) على مشارف عامها الثاني

رئيس التحرير

بإطلالة هذا العدد تكون (حضارة) قد بلغت العدد الثالث الذي يكمل السنة الأولى من المجلة مع العدد التجريبي الذي صدر في مطلع (تشرين الأول _ أكتوبر/ ٢٠٠٨م)، وبذلك تثبت إدارة تحرير (حضارة) عزمها على مواصلة مسيرتها وتصميمها على تطوير المجلة محتوى وإخراجاً، بعد أن حققت عدة خطوات في هذا الصدد لعل آخرها هو طباعة العدد الثاني من المجلة طبعة ثانية في بغداد تزامن توزيعها مع توزيع المجلة خارج العراق، وهي نقلة مهمة كان لها صداها الطيب داخل العراق، الذي وزعت فيه المجلة في عدة محافظات بواسطة مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، كما بلغت المجلة عدداً من العواصم الأوروبية والآسيوية والعربية بفضل جهود عدد من المهتمين بها والساعين للتعريف بما تنشره من دراسات متخصصة.

وفي هذا العدد تتواصل معنا بعض الأقلام العراقية والعربية المهمة التي وجدت في حضارة فرصة مناسبة للتواصل مع القارئ العراقي والعربي، ومن هذه الأقلام الدكتور عبد الكريم العلوجي في بحثه: (الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال)، والأديبة والباحثة هيفاء زنكنة في دراستها: (حقوق المرأة في العراق الجديد، تفكيك الصورة النمطية)، والدكتورة وصال العزاوي

أستاذة العلوم السياسية وعميدة كلية العلوم السياسية في جامعة النهرين سابقاً في دراستها: (حوار الأديان ضرورة.. ولكن)، والأستاذ محمد جمال عرفة الصحفي والمحلل السياسي المصري المعروف في مقاله المهم عن (العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيتام والأرامل).

ويبقى حديث المقاومة عالياً في هذا العدد ببحثين ومقالين.. يتحدث البحث الأول عن: (ثقافة المقاومة بين احتلالين) وهو للباحث في مركز الأمة خالد القيسي، فيما يتناول الباحث حسين الرشيد موضوع: (جيش الاحتلال في العراق بين الفرار والانتحار).. أما المقالين فالأول بعنوان (الاتجاهات الشعرية وأثرها في دعم القضية العراقية) للباحث محمد مساعد آل جعفر، والثاني (المقاومة العراقية، قراءة في شواهد استعادة العافية) للإعلامي المصري أسامة عبد الرحيم، فضلاً عن حقل الوثائق الذي خصص في هذا العدد لهذا الشأن أيضاً.

ويمتاز هذا العدد بدراسة خاصة عن (القضية العراقية من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد) أعدها الدكتور أحمد الجنابي. كما لا يغيب في هذا العدد البعد الاقتصادي الذي نجد بشأنه دراسة للباحث في مركز الأمة عبد الستار المرسومي يتناول فيها: (تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية). أما ملف العدد فقد خصص هذه المرة لموضوع مهم وحيوي وهو موضوع المرأة العراقية وهمومها.. وضمّ هذا الملف فضلاً عن دراسة الباحثة هيفاء زنكنة المتقدمة دراسة عن: (تحقيق الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية) للإعلامية سارة علي.

وفي حقل الدراسات المترجمة تنشر (حضارة) في هذا العدد مقالة مترجمة عن الإنكليزية للمفكر الأمريكي المعروف نعوم تشومسكي نشرت على موقعه الرسمي في أواخر شهر (٤/٢٠٠٩م) بعنوان: (تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية) وهي تبحث في كون التعذيب سياسة متبعة في النظام السياسي الأمريكي منذ تشكله، وتأتي هذه الدراسة في إطار الجدل والنقاش المحتدم في أمريكا بشأن وعود الرئيس المنتخب فيما يتعلق بموضوع إنهاء التعذيب في معتقل غوانتنامو.

وأخيراً فهذا هو نتاج (حضارة) في عددها الثالث سائلين الله تعالى دوام التوفيق والتسديد؛ لأجل تقديم النافع من الدراسات والجديد من المشاركات، وكلنا أمل بأن نسمع من المتابعين والمهتمين ملاحظاتهم التي كانت عوناً لنا في الأعداد السابقة وستكون عوناً لنا دائماً إن شاء الله.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

د. عبدالكريم العلوجي[1]

كان الدور الإيراني بالغ النشاط والفعالية على مدار عام ٢٠٠٥م فمن ناحية استفادت إيران من أوراق كثيرة أتاحها وجود أحد المقربين منها هو إبراهيم الجعفري على رأس الحكومة العراقية حيث سمح لها هذا الوجود بحيازة مصادر للتأثير السياسي والاقتصادي والأمني على الساحة العراقية، ومع إن شروع الولايات المتحدة في مراجعة موقفها من الأطراف الشيعية خوفاً من تنامي النفوذ الإيراني في العراق، وبفعل إدراكها استحالة إنكار القوى السنية في المعادلة الأمنية والسياسية العراقية كان من شأنه أن يفضي إلى صدام مصالح بين الولايات المتحدة وإيران إلا أن إدراك الطرفين حدود القوة في علاقتهما الثنائية، مثّل ضابطاً لتفجير صراع مفتوح بينهما أكثر من ذلك، مثّل العراق ساحة محتملة للتفاهم بين الطرفين على بعض الملفات العالقة بينهما والتي تتجاوز الشأن العراقي إلى طبيعة الدور الإقليمي لإيران عموماً.

وقد اعترف محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيراني السابق بالدور الإيراني في العراق في ختام أعمال مؤتمر الخليج وتحديات المستقبل الذي

---

(١) كاتب ومحلل سياسي عراقي.

نظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية بإمـارة أبـي ظبـي بتاريخ ٢٠٠٤/١/١٥م بأن بلاده " قدمت الكثير من العون للأمـريكيين فـي حربيهم ضد أفغانستان والعراق" ومؤكداً أنه لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة.

وفي سياق التجاذب واللعب على الحبال المشتركة والغزل الخفـي بـين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وتصفية الحسابات المعلقة بينهما ما هدد به علي أكبر هاشمي رفسنجاني قائلاً: "إن لإيران دوراً مهماً وحاسماً في تشكيل مستقبل العراق وإن الولايات المتحدة الآن عالقة بالوحل العراقي، وإنها تعلـم علم اليقين إن إيران تملك طابوراً طويلاً من الأدوات التي تستطيع من خلالها التأثير في العراق، فالحرس الثوري الإيراني وضباط الاستخبارات الإيرانيـة كانوا يعملون في العراق منذ سنوات ولديهم شبكات عميقة ومقتدرة، وصـفوة القول إن الإيرانيين لا يبدون مهتمين باستقرار العـراق أو مـن هـو الـذي سيحكمه ولكن سياسة إيران هذه تعطي إشارات من خلال تعليقات رفـسنجاني أو أبطحي أو غيرهما من أن إيران لديها الاستعداد الكامل لعقد صفقات، وقـد سعت إيران من خلال تحركاتها داخل العراق إلى إبراز دورها الكبير الـذي يمكن أن تلعبه في الساحة العراقية وإظهار مقدرتها على تحريـك الأحـداث للتواصل إلى فرض قناعاتها على الإدارة الأمريكية بشكل غير مباشـر مـن خلال إحراجها داخل الساحة العراقية، وهو تكتيك مرحلي تسعى من خلالـه إيران إلى توظيف تداعيات الأحداث في خدمتها.

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانـب السنة في العراق يرون أن إيران عدواً تاريخياً للعرب والعروبة، حيث كـان لشعار تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخنـدق والتناحر الطائفي، إن ظروفاً إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور

والنفوذ الإيراني في المنطقة، الأمر الذي مهّد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة قد أخذ يثير القلق الدولي والإقليمي.

إيران والعراق

في ظل حرب الولايات المتحدة على الإرهاب حصلت إيران على دور إقليمي يأخذ شكله الأوضح في تداعيات المشهد الدموي في العراق من خلال دعمها لبعض الجماعات المتشددة هناك، فهل أصبح العراق ساحة لمعادلات سياسية عالمية أخرى؟.

بعد انتهاء العلميات العسكرية للحرب التي قادتها الولايات المتحدة على العراق لإسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين تأكد القادة العسكريون أن المهمة لم تكن لتنتهي بتلك السهولة التي كانوا يتوقعونها فهم أدركوا أنهم دخلوا بأرجلهم إلى خضم تركيبة عرقية معقدة إلى حد بعيد، تصاعدت وتيرة هذه العمليات بصورة كبيرة في الفترة التي أعقبت الإعلان الشكلي عن انتهاء العمليات العسكرية وهيمنت حالة دموية من عدم الاستقرار في العراق وقع ضحيتها الآلاف من الأبرياء بشكل أصبح الاستقرار في العراق لا يعدو كونه مجرد حلم ليس إلا.

وفي خضم هذه الأحداث وفي سياق عملية البحث عن المسؤول الأول عن حالة العراق الدموية اتهم جنرال أمريكي رفيع المستوى لأول مرة إيران بدعم جماعات شيعية متشددة في العراق ويرى الجنرال "مايكل باربيرو" أن طهران تنتهج سياسة "دعم اللاستقرار في العراق" وتغذي العنف المستمر هناك، كما أشار "باربيرو" إلى أنه من غير المستبعد أن تكون إيران مسؤولة عن تمويل

وتسليح جماعات متشددة في "المعسكر الشيعي" في ظل الانقسام والتخندق الطائفي الذي يشهده العراق وقال "باربيرو": إن إيران زودت هذه الجماعات بمعدات تفجير حديثة ساهمت بدورها في مقتل أكثر من (٣٠٠٠) عراقي خلال شهر تموز/ يوليو٢٠٠٦م وحده، ويبدو أن ارتفاع عدد ضحايا حمام الدم العراقي خلال الأشهر السابقة لهذا التاريخ لم يكن السبب الوحيد في تجديد توجيه هذه الاتهامات، فالمشهد السياسي في المنطقة عموماً مازال مثقلاً بعد بتداعيات الصراع بين إسرائيل وحزب الله اللبناني ومسألة الدور الإيراني في دعم حزب الله، فضلاً عن حالة الغموض التي ماتزال تكتنف مستقبل التعامل مع البرنامج النووي الإيراني، فهذه الانتقادات الأخيرة أتت متزامنة مع مهاجمة الإدارة الأمريكية للحضور الإيراني على كثير من الجبهات الإقليمية في المنطقة.

دور إقليمي كبير وقلق دولي أكبر

يرى أغلب المحللين أن عهد الرئيس الإيراني "أحمدي نجاد" شهد زيادة ملموسة في التطلعات الإيرانية إلى لعب دور أكبر في محيطها الإقليمي وبالتالي زيادة نفوذها في المنطقة، ويبدو أن ظروفاً إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور والنفوذ الإيرانيين في المنطقة، الأمر الذي مهّد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة، قد أخذ يثير قلق دولي وإقليمي، وبشأن ذلك ترى دراسة صدرت مؤخراً عن المعهد الملكي البريطاني للدراسات الدولية "أن حرب أمريكا على الإرهاب أتت بالمنفعة الكبيرة على تقوية دور إيران في المنطقة، إذ أزالت هذه الحرب اثنتين من الحكومات الإقليمية المنافسة

للدولة الإسلامية الإيرانية، فبعد أن أسقطت الولايات المتحدة وحلفائها نظام طالبان عام ٢٠٠١م ونظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣م فشلت الإدارة الأمريكية في استبدالهما بهياكل سياسية مستقرة ومتماسكة، وقد منحت حالة الفراغ الإقليمي هذه إيران الفرصة لا لأن تحتل مركز القوة الوحيدة في المنطقة فحسب، بل للعب دور مباشر في العراق وجهاً لوجه مع عدوها اللدود أمريكا.

إيران في المنظور العراقي

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانب يرى سنة العراق إيران "عدواً تاريخياً للعرب والعروبة" وكان لسياستها في تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخندق والتناحر الطائفي، فالزعماء السنة يتهمون طهران بالتحريض على إثارة القلاقل في العراق لإضعاف القوة العسكرية الأمريكية في المنطقة والتطلع إلى الاحتياطيات النفطية في جنوب العراق، وقد لا تتفق هذه النظرة إلى العلاقات الإيرانية ـ العراقية مع المفهوم العروبي الذي انتهجه حزب البعث في تقييم طبيعة العلاقة مع إيران فحسب، بل مع نظرة دول الخليج أيضاً التي تخشى من تنامي الدور الإيراني في الشرق الأوسط، ويبدو أن للتنافس بين إيران "الشيعية" والمملكة السعودية "السنية" على الصعيدين السياسي والمذهبي بصورة خاصة دور في تعميق هذه النظرة، فعلى المستوى الخليجي أثارت السياسة الأمريكية الخاطئة في العراق والتي قادت إلى تعاظم الدور الإيراني فيه هواجس هذه الدول المتفقة مذهبياً مع سنة العراق، على خلفية الميراث السلبي لكل منها في علاقاتها مع حكومة طهران، كما أن التخوف من انتقال النفوذ الإيراني المباشر إلى خارج حدود العراق، في ظل إصرار إيران على

امتلاك التكنولوجيا النووية دفع الكثير من زعامات هذه الدول للحديث عن الخشية من منطقة نفوذ "شيعية" أو كما سماها العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني "منطقة الهلال الشيعي"، ويمكن أن تكون منطقة النفوذ هذه أحد عناصر عدم الاستقرار في هذه الدول التي تقطنها أقليات شيعية ترتبط مذهبياً بإيران.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وعلى الرغم من الوحدة المذهبية بين شيعة العراق وإيران فإن العلاقة مع إيران تختلف من تيار شيعي إلى آخر، فمن جانب يرى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة الإسلامية في إيران صديقاً كونها احتضنت قيادات وزعامات هذين الحزبين في ثمانينيات القرن الماضي، بعد أن وقعوا خلال تلك الفترة تحت طائلة المطاردة والاعتقال من قبل نظام صدام حسين السابق، فكبار المسؤولين في هذين الحزبين اللذين يشكلان أكبر كتلتين شيعيتين في البرلمان العراقي، رفضوا في أكثر من مناسبة الحديث عن الدور الإيراني في العراق، ومن جانب آخر فإن هنالك تيارات شيعية أخرى كالفضيلة والولاء اتهمت إيران علناً بإثارة العنف في العراق ومحاولة زعزعة استقراره، ولذلك فهي تدعو إلى محاربة النفوذ الإيراني في بلاد الرافدين.

السياسة الإيرانية في العراق وأهدافها الاستراتيجية

لم يعد التقارب الأمريكي ــ الإيراني في العراق سراً، فقد أعلن وزير الخارجية الإيراني "كمال خرازي" أن الولايات المتحدة الأمريكية طلبت من طهران مساعدتها في تسوية الأزمة العراقية وقد أرسلت الأخيرة بالفعل وفداً إلى العراق وقام بجهود تهدف إلى التأثير على الشيعة العراقيين باتجاه التهدئة أي في الحقيقة حل الأزمة الأمريكية في العراق، ومنذ الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان ٢٠٠٣م لعبت إيران دوراً انتهازياً في المسألة العراقية،

وسعت بانتظام إلى مقايضة دعمها للمحتلين الأمريكيين بتحسين علاقاتها مع واشنطن.

غير أن السياسة الإيرانية في العراق المحتل لها ثلاثة أهداف استراتيجية تتطابق مع السياسة الأمريكية موضوعياً وتؤسس للتحالف الإيراني – الأمريكي في المنطقة، وهذه الأهداف هي:

١ـ تصنيع الطائفة أي تحويل الشيعة العراقيين من مواطنين إلى طائفة مغلقة، وهو ما يضمن نسبياً تحويلهم إلى امتداد إيراني، وتستخدم إيران في تحقيق هذا الهدف وسائل دينية وإعلامية أي أن وسيلتها الأهم تتمثل بالوجود الأمني الكثيف في جنوب العراق تحت يافطة (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) فيلق بدر، ويشارك قادة هذه الهيئة التابعة للمخابرات الإيرانية في مجلس الحكم سابقاً والحكومات العراقية السابقة، بزعامة إبراهيم الجعفري والحالية بزعامة نوري المالكي والهيئات السياسية الأمنية الأخرى التي أنشأها المحتلون الأمريكيون بينما تقوم ميليشيا بدر بعمليات إرهابية منظمة ضد المواطنين العراقيين الشيعة، مستخدمة كل الوسائل بما فيها القتل والاعتقال وإرهاب المدنيين وترويع ومطاردة الوطنيين العراقيين من التقدميين والقوميين الشيعة، بحيث تتم تصفية كل الخارجين عن مشروع تصنيع الطائفة وتغدق طهران الأموال بكثافة لخدمة هذا المشروع.

٢ـ ضمان عدم نهوض الدولة الوطنية العراقية وهي التي تشكل تهديداً استراتيجياً للنفوذ الإقليمي الفارسي، وتعرقل الأطماع الفارسية في أرض الرافدين، ومما لا شك فيه أن تصنيع الطائفة وتدعيم المشروع السياسي الأمريكي في العراق يصبان في طاحونة تدمير الدولة الوطنية العراقية.

٣ـ ضمان النفوذ الإيراني في بغداد، بحيث يكون لطهران رجالها المؤثرون في الهياكل السياسية العراقية، ولذلك كانت إيران هي الدولة الإسلامية الوحيدة

التي اعترفت رسمياً بـ (مجلس الحكم الانتقالي) الذي أسسه الغزاة، وسقط سياسياً في انتفاضة ربيع بغداد، ولا يريد الإيرانيون من العراق فقط تحقيق أهداف سياسية وأمنية وطائفية فهم يريدون أيضاً المشاركة في نهب العراق. ومايزال العراقيون يذكرون بدهشة كيف أن "عبد العزيز الحكيم" وهو رجل طهران في العراق دعا خلال رئاسته لمجلس الحكم إلى أن يدفع الشعب العراقي مائة مليار دولار تعويضات حرب لإيران.

أهداف إيران الاستراتيجية في العراق

١ــ احتواء شيعة العراق من خلال الأحزاب الموالية لها واستخدامهم كورقة مقايضة في أي استحقاق إقليمي ودولي لتهدئة الوضع أو إثارته في العراق.

٢ــ دعم المرجعية الشيعية والحوزة في النجف تمهيداً للسيطرة على قراراتها ومحاولة تحجيم دورها كي تبقى مرجعية قم هي المرجعية الأولى لشيعة العالم.

٣ــ إيران لديها مشروع نووي طموح ولديها حلم بإعادة الامبراطورية الفارسية والصفوية ولن تتخلى عنها بسهولة؛ لذلك تسعى إيران إلى أن تتخذ من العراق ورقة ضغط سياسة تساوم بها في الساحة الدولية.

٤ــ منع شيعة العراق من توحيد كلمتهم داخل العراق أو بسط سيطرتهم على أبناء الطائفة الشيعية بشكل يهدد السيطرة الإيرانية عليهم.

٥ــ إملاء المقررات الإيرانية على الأحزاب الموالية لها بصورة تؤثر على مجريات الأحداث في الساحة العراقية.

٦ــ خلق تغييرات ديموغرافية على الأرض العراقية بغية تحويل جنوب العراق (خاصة بعد الانسحاب الأمريكي) إلى مقاطعة إيرانية أو إقليم عراقي

تحت الوصاية الإيرانية من خلال تشكيل تجمعات إيرانية في تلك المناطق وتطهيرها من أهل السنة بالاعتقال أو الاغتيال أو التهجير.

٧ــ محاولة اقتراب النظام الإيراني من الإدارة الأمريكية ومحاولة طمأنتها لإكمال المشروع النووي الإيراني ولن يتم ذلك إلا على أرض العراق.

٨ــ السيطرة على المزارات والعتبات للاستفادة من الأموال والخمس المودوعة فيها.

٩ــ تسعى إيران إلى إقناع الأمريكيين بالدور الإيراني (السياسي والأمني في العراق) وهذا ما يشار إليه من توجيه الرئيس الأمريكي سفيره في العراق بالتفاوض مع إيران من أجل ترتيب الوضع في العراق.

١٠ ــ خلق سيطرة إيرانية كافية على أرض العراق تحت مظلة الاحتلال الأمريكي والبريطاني بأدوات دينية المظهر وعلى النموذج الإيراني مما يضمن لإيران الحيلولة دون قيام عراق يهدد إيران.

١١ــ بسط النفوذ الاقتصادي الإيراني في العراق من خلال ما يلي:

أ- تنشيط طبقة قوية من التجار الإيرانيين العائدين إلى العراق وبالأخص بمدينة كربلاء والنجف ومحاولة السيطرة على السوق العراقي.

ب- فتح فروع لبنوك إيرانية تحت عباءة عراقية في مدن عديدة مثل الكوت والبصرة والديوانية.

ج- خلال السنوات الأخيرة وبسبب المقاطعة الدولية للعراق أصبحت حقول النفط العراقية غزيرة بالنفط لذلك تسعى إيران إلى السيطرة على النفط العراقي وذلك من خلال مد ثلاثة أنابيب لنقل النفط، وقد ذكر وزير النفط الإيراني (بيجان زنكنة): "أن العراق سيصدر النفط الخام إلى إيران"، وأضاف زنكنة أيضاً: "إن إيران ستمد أنبوبين لنقل الخام من البصرة إلى المصفاة الإيرانية.

١٢ ــ إنشاء وسائل الإعلام للتمهيد الفكري للمشروع الإيراني، واغتيال العناصر والرموز الشيعية التي تشكل خطراً على المشروع الإيراني في العراق كما حدث لـ "عبدالمجيد الخوني".

لقد أثبتت التطورات الأخيرة في العراق فشل المشروع الأمريكي لتصنيع الطائفية فظهرت بالمقابل وحدة العرب العراقيين تحت راية المقاومة الوطنية وخلال بضعة أيام من انتفاضة الشعب العراقي سقطت الترتيبات الأمنية والسياسية التي ظن المحتلون الأمريكيون أنهم أرسوها خلال سنوات من الاحتلال الصعب.

وهكذا لم يكن أمام إدارة بوش الصغير سوى اللجوء إلى الشريك الإيراني لانقاذ الموقف، فهل ستنجح طهران في مساعيها لوقف الانتفاضة العراقية وإعادة الشيعة إلى بيت الطاعة الأمريكي؟.

تتلخص الإجابة فيما يلي:

١ــ الكتلة الرئيسية من الشيعة العراقيين هي كتلة عربية أصيلة، وتنظر إلى إيران من منظور قومي لا ديني، وقد ثبت ذلك تاريخياً من خلال استبسال هؤلاء في القتال ضد ملالي إيران أثناء الحرب العراقية ــ الإيرانية.

٢ــ من الناحية العقائدية فإن شيعة العراق لا يؤمنون بولاية الفقيه مثلما هو حال التشيع الفارسي، وهذا فارق نوعي سياسي، إذ لا يمكن مع ذلك استنساخ التجربة السياسية الإيرانية في العراق أو إخضاع العراق لولاية الفقيه الإيراني.

٣ــ التشيع في أساسه (مثل التسنن) عربي عراقي وللشيعة العراقيين بل للعراقيين من كل المذاهب والطوائف، مصلحة وطنية في أولوية مرجعية النجف على مرجعية قم.

٤ـ نفوذ إيران بين الشيعة العراقيين محصور بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وإلى حد ما في جناح حزب الدعوة وعبر وسائل أمنية ومالية ولهم بالطبع صلات مع مرجعية النجف، المستقلة ولكنها ربما تلتقي مع الإيرانيين في السعي إلى صفقة مع الأمريكيين، وبالمقابل فإن تيار الصدر مستقل عن إيران وهو تيار عربي عراقي نشأ داخل العراق ورفض دائماً إقامة صلات إقليمية أو دولية ضد العراق، كذلك فبين الشيعة قوى دينية ديمقراطية ووطنية ويسارية مؤثرة.

والأهم من كل ذلك هو أن انتفاضة الحركة الصدرية هي في النهاية تعبير فئات شعبية مستضعفة ولها مصلحة مباشرة في جلاء المحتلين وإسقاط ترتيباتهم السياسية، والعراق كما أثبتت هو خزان وطني وثوري لن تستطيع المساعي الإيرانية أو سواها لجمه.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

منذ قديم الزمان والعراق يواجه تحديات وأطماع كثيرة من الأعداء وشهد صولات وجولات ونزاعات وحروباً دامية، هؤلاء الأعداء هم على نوعين:

العدو الأول: وهو على نمط الاستعمار البريطاني ويكون عادة عدواً مكشوفاً يستهدف الموقع الجغرافي والاستراتيجي والثروة النفطية وكذلك الموقع السياسي في المنطقة، فهذا هو الاستعمار التقليدي والذي تجد في عام ٢٠٠٣م عندما غزت القوات الأمريكية ـ البريطانية الغاشمة العراق وتم انتهاك سيادته واستقلاله في ممارسة خطيرة حدثت في القرن الحادي والعشرين وفي عالم متحضر يفترض أن احتلال الدول العظمى للصغرى قد انتهى.

والعدو الثاني: هو الأشد عدواة فإنه يستغل الدين والمذهب للوصول إلى أهدافه السياسية في داخل العراق وكانت على مر التأريخ إيران (أو دولة

فارس) هي اللاعب الأساسي في إشغال الساحة العراقية بالفتن والمشاكل المتواصلة.

حقيقة الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

أثار التصريح الذي نشرته السياسة الكويتية بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣م عن السيد "عبد الله جول" وزير الخارجية التركي تحت عنوان (تركيا تحذر من مخطط إيراني للسيطرة على العراق وتصدير الثورة إلى الخليج) ومن قبله تصريحات وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل والمسؤولين الأردنيين عن الخطر الذي يتهدد هوية العراق ومستقبل المنطقة من الطرف الإيراني تساؤلات كثيرة لاسيما أن تلك التصريحات كانت موجهة للأمريكان ومتهمة لهم بأنهم يسعون لتسليم العراق إلى إيران، ولتوضيح الصورة والإجابة على تلك التساؤلات نطرح المحاور الآتية:

المحور الأول: ــ أمريكا وإيران خلاف أم وفاق؟

لا شك أن الذي يتابع مسيرة (الثورة الإسلامية) على يد الخميني والحرب الإعلامية مع الولايات المتحدة الأمريكية وقضية الرهائن الأمريكان الذين احتجزوا من قبل (الطلاب السائرون على خط الإمام) الذي يتابع كل هذا لا شك أنه سيصل إلى أن هناك خلافات جوهرية بين الطرفين ليس من السهولة التقليل من شأنها، إلا أن بعض المراقبين سجل في الاتجاه المعاكس مؤشرات أخرى قد تكون من الناحية العملية أقوى في الدلالة ومن هذه المؤشرات:

١ــ سكوت الإعلام الأمريكي المطبق حول قضية الجزر الثلاث المتنازع عليها بين إيران وبين دولة تصنّف على أنها قريبة من الولايات المتحدة رغم

المطالبات المتكررة لدولة الإمارات العربية من خلال مجلس التعاون الخليجي لاسترداد هذه الجزر!.

٢ــ سكوت الأمريكان عن الوضع المأساوي الذي تعيشه الأقليات الإيرانية مثل السنة والأكراد والعرب والبلوش في ظل (الحكومة الإسلامية) بينما نذكر كيف استغلت هذه المسألة ضد العراق.

٣ــ تعامل الأمريكان مع المعارضة الإيرانية المسلحة (مجاهدي خلق) التي كان لها معسكرات معروفة داخل العراق وبعد دخول الأمريكان اتجهت القوات الأمريكية إلى هذه المعسكرات وحاصرتها وأجبرتها على نزع سلاحها مع أن هذه الميلشيات علمانية التوجه بخلاف الحكومة الإيرانية.

٤ــ تخليص إيران من الجارتين اللدودتين (طالبان) في الشرق و(صدام حسين) في الغرب، نعم ربما تكون هذه فائدة غير مقصودة من قبل الأمريكان ولكن يبقى السؤال: هل كان صدام وطالبان أخطر على المشروع الأمريكي من إيران (الحكومة الإسلامية) ولماذا؟.

٥ــ تعامل الأمريكان مع الأذرع الإيرانية في العراق بعد الاحتلال، حيث لا يخفى أن جل الأحزاب والمنظمات والمليشيات التي تعاونت مع الاحتلال وكانت رأس الرمح في غزو العراق كانت كلها مؤسسة ومدربة في إيران مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (عبدالعزيز الحكيم) وجناحه المسلح (فيلق بدر) وحزب الدعوة (إبراهيم الجعفري) وهؤلاء هم عصب النظام العراقي الجديد بعد الاحتلال، وحتى على مستوى المرجعيات الدينية قام الأمريكان بمساعدة الإيرانيين في تهميش كل المراجع الشيعية العراقية مثل: آية الله العظمى فاضل المالكي وآية الله أحمد البغدادي وآية الله جواد الخالصي، وغيرهم كثير وتمّ التعامل حصراً مع آية الله السيستاني، وهو إيراني الجنسية فارسي الأصل لا يمتلك أي وثيقة عراقية، وقد أعلن رفضه

للجنسية العراقية التي منحتها إياه الجمعية الوطنية الحالية التي يسيطر عليها الاتجاه الشيعي الإيراني!، واليوم تعلن الولايات المتحدة وإيران الموافقة على إجراء مفاوضات مباشرة بخصوص العراق استجابة لدعوة المجلس الأعلى وهذا اعتراف صريح بأن إيران هي الفاعل الأقوى في المشهد العراقي، ونسجل هنا اعتراض التيار الصدري الذي يمثل القاعدة الأعرض للتشيع العروبي العراقي على هذه المبادرة كما هو حال هيئة علماء المسلمين وكل القوى العراقية الوطنية.

٦ــ وربما يتشكل على كل هذه المؤشرات الأزمة الأخيرة حول المفاعل النووي، ويمكن الجواب: بأن الأمريكيين يفكرون بالاستفادة من إيران ضمن سقف محدد لا يتعارض على الأقل مع سقف الكيان الصهيوني، وربما لو كان أي نظام عربي آخر يفكر بما تفكر به إيران سيواجه بقوة أشد حتى لو لم يكن إسلامياً، مثل صدام والقذافي.

المحور الثاني: العراق وإيران

لا شك أن حرب الثماني سنوات بين عراق صدام وإيران الخميني، أذكت تاريخاً طويلاً من الصراعات المدبرة تعود إلى أيام الفتح الإسلامي التي لازال الإيرانيون يجاهرون بكراهيتهم لقادة هذا الفتح كما ذكر كتاب "كشف الأسرار للخميني" الذي يتهم فيه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالزندقة، ومن المراقبين من يرجع بهذا الصراع إلى تاريخ نبوخذ نصر الملك العراقي الذي تمكن من أسر أمراء اليهود، وكورش الملك الإيراني مسيح اليهود ومحررهم من العراقيين.

لم يخف الإيرانيون رضاهم بما حصل للعراق على يد الأمريكان ومنهم من أعلن أن العراق ما كان له أن يسقط بيد الأمريكان لولا مساعدة الإيرانيين، فماذا تريد إيران من العراق اليوم؟.

يمكن بهذا الصدد تسجيل الملاحظات الميدانية الآتية:

١ــ تسعى إيران بقوة لتكريس مبدأ الفيدرالية في العراق تحقيقاً لمصلحتها الإقليمية في عراق مفتت ضعيف، والأحزاب الشيعية المرتبطة بإيران هي التي أصرت على هذا المبدأ على الرغم من أنهم يدعون تمثيل الأغلبية الشيعية في العراق، والمتعارف عليه أن الأقليات هي التي تتوجس من الحكومة المركزية القوية ولذلك تلجأ إلى الفيدرالية لحماية ذاتها وخصوصيتها، وعلى هذا فحينما يطالب الأكراد بالفيدرالية تكون مطالبتهم مفهومة، أما أن تطالب الأكثرية بهذا فمعنى ذلك أن هذه الأكثرية إما أنها أكثرية وهمية، أو أنها تعمل لصالح أطراف أخرى.

٢ــ تسعى إيران بقوة ومن خلال التنظيمات الموالية لها أيضاً لتهجير العوائل السنية من بغداد، ومن منطقة المدائن التي فيها "إيوان كسرى" بشكل خاص الذي يذكر بأيام الاحتلال الفارسي للعراق قبل الإسلام، كما أن الحكومة العراقية الحالية لم تخف رغبتها في تغيير محيط بغداد "ذي الأغلبية السنية"؛ حيث صرح موفق الربيعي مستشار الأمن القومي بأن بغداد لا يصح أن تبقى محاطة بالإرهابيين وموفق هذا هو كما يقال "كريم شاهبور" (إيراني الأصول) ولتحقيق هذه الغايات قامت وزارة الداخلية والمليشيات المرتبطة بها بحملات قتل وتعذيب وتشويه للجثث في هذه المناطق ولم يعد الأمر خافياً بعد اكتشاف السجون السرية وفرق الموت، واعترافات مدير مشرحة بغداد الذي أعلن عن وصول أكثر من سبعة آلاف جثة عليها آثار التعذيب وهرب إلى خارج العراق، وكان من المضحك أن تجيب الحكومة رسمياً: بأن هؤلاء الذين

يقومون بهذه الجرائم هم رجال يرتدون ملابس وزارة الداخلية ويستخدمون سيارات وزارة الداخلية لكنهم غير منتسبين فعلاً لهذه الوزارة، تجدر الإشارة إلى أن وزير الداخلية هذا هو "بيان جبر صولاغ " المعروف بأنه أحد قياديي فيلق بدر الذي أشرفت على تأسيسه وتجهيزه المخابرات الإيرانية واعترف بالاشتراك مع القوات الإيرانية في قتالها للعراقيين إبان حرب الثماني سنوات واليوم يفاخر بأنه يعمل جنباً إلى جنب مع القوات الأمريكية في ضرب المقاومة العراقية والمعارك الكبرى التي دارت في الفلوجة والنجف وسامراء.. إلخ شاهدة على ذلك.

٣ـ موقف إيران من المقاومة العراقية: كان يفترض بإيران أن تستثمر المقاومة العراقية لصالحها في صراعها المعلن مع الولايات المتحدة الأمريكية إلا أن الذي يجري على الأرض كان بخلاف هذا تماماً حيث إن الذي يقوم باعتقال أفراد المقاومة أو المشتبه بعلاقته مع المقاومة هم الأذرع الإيرانية المعروفة وحتى خطباء المساجد الذين يحثون الناس على الصمود يتم اعتقالهم وقتلهم بطريقة بشعة، وهناك احصائيات كثيرة في هذا وبعض الذين أفرج عنهم صرحوا أن بعض ضباط التحقيق كانوا يتكلمون الفارسية، وقد يقال إن هذا بدافع طائفي، ولكن الحقيقة أن موقف إيران هذا لم يختلف كثيراً عن موقفها من مقاومة الصدر في النجف وبغداد والبصرة.

حيث اشتركت القوات الموالية لإيران مع القوات الأمريكية في محاصرة الصدر، وبقيت إيران تمارس الضغط على مقتدى الصدر حتى أعلن أخيراً عن انضمامه للمشروع السياسي تحت قائمة الائتلاف التي يقودها "عبدالعزيز الحكيم"، وبهذا يكون موقف إيران من المقاومة لا يقل خطورة عن موقف الأمريكان أنفسهم، إلا أن هناك فارقاً واحداً يضاعف من خطورة إيران ألا وهو أن الاحتلال الأمريكي مدان عربياً وإسلامياً وحتى عالمياً، أما إيران

فإنها تقوم بكل ما تقوم به وهي في وضع مريح جداً حيث إنها أمنت أيـــة ردة فعل عربية أو حتى سنية، وذلك للأسباب الآتية:

١ـ إن الحرب الإعلامية بين إيران وأمريكا والتهديدات التي يطلقها الـرئيس الإيراني أحمدي نجاد ضد الكيان الصهيوني جعل من الصعب إدانة الإيرانيين لأن إدانتهم تعني الاصطفاف مع الامبريالية الأمريكية، وبهذا يتم التغاضي بل وعدم الرغبة أصلاً في بحث حقيقة الدور الإيراني في العراق والمنطقة.

٢ـ إن الحركات الإسلامية والواجهات العلمية لا تريد أن تظهـر بـالمظهر الطائفي وقد ظهر هذا جلياً في الأحداث الأخيرة حيث سارعت تلك الحركـات والواجهات بإدانة تفجير مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العـسكري فـي سامراء بينما تغاضوا عن هدم مائتي مـسجد مـن مـساجد الـسنة وحـرق المصاحف التي تناقلت صورها الكثير من وسائل الإعلام.

٣ـ إن إيران تساعد بعض الحركات المقاومة في فلسطين ولبنان وإن كنـا لا ندري حجم هذه المساعدات، لكن من الواضـح أن هنـاك لقـاءات رسـمية متكررة، ومن هذه الناحية قد يفهم موقف هـذه الحركـات لكـن المفكـرين والسياسيين في طول العالم الإسلامي وعرضه عليهم أن يسألوا الإيرانيين عن سر دعمهم لحركات المقاومة في لبنان وفلسطين ومحاربتها للمقـاومين فـي العراق بل وتعظيمها وتمجيدها بالذين تحالفوا مع المحتل الأجنبي حتى صرنا نسمع من الإيرانيين وحتى من بعض اللبنانيين مصطلح "شهيد المحراب" على محمد باقر الحكيم وهو الذي لعب دوراً خطيراً في تسليم العـراق للمـشروع الصهيوني الأمريكي.

إن هذا التساؤل لن يؤثر على مستقبل الحركات المدعومة من إيران بـل ستجد إيران أفضل رد على هذه التساؤلات هو دعمها المباشر لهذه الحركـات التي اكتسبت شرعية عامة في الأوساط العربية والإسلامية وبـنفس الوقـت

تحقق هذه التساؤلات هدفها في الضغط على إيران لتخفيف حملتها ضد العرب السنة والمقاومة بصورة خاصة.

وإذا كان البعض يفضل السكوت مراعاة لمصلحة تلك الحركات من مواجهة العدو المشترك (المشروع الصهيوني الأمريكي) فإن تقارير المقاومة العراقية تؤكد أنه لولا الدور الإيراني المتحالف مع الأمريكان لتمكنت المقاومة العراقية من كسر هذا المشروع مبكراً، ولأعلنت أمريكا عن فشلها في العراق، وهذا بلا شك سيترك تداعيات مفصلية في مستقبل تلك الحركات المقاومة بل والمنطقة والعالم كله.

تعاظم النفوذ الإيراني في العراق

تعاظم الدور الإيراني في العراق، يسير في أكثر من اتجاه، إذ أن الأجندة الإيرانية حافلة بالمشاريع المشاغبة، والتي تصب في مجملها في اتجاه البرنامج النووي، والمتتبعون لسياسة إيران الخارجية لابد أن يلاحظوا أن أهم أسباب تعاظم نفوذها في العراق يأتي بالأساس من دعمها المعلن للأحزاب الشيعية العراقية، وهذا بحد ذاته هدف تأمل إيران في جني ثماره مستقبلاً، ودعمها غير المعلن للجماعات المسلحة التي تفجر وتفخخ السيارات والأجساد بالمدنيين، إذن ثمة فجوة أو ازدواجية في التعاطي الإيراني مع الشأن العراقي، وعلى المتخوفين من تزايد النفوذ الإيراني التفكير بجد في ردم هذه الفجوة خاصة إن ما يقال عن ضلوع الإيرانيين في العنف الطائفي المتبادل في العراق أصبح هناك ما يؤكده على أرض الواقع من معلومات يتداولها العراقيون فيما بينهم، والمعلومات الاستخباراتية الأمريكية، إضافة إلى اعترافات بعض الإرهابيين الذين اعتقلوا في إيران وتمت مساومتهم على العمل في العراق لصالح إيران مقابل إطلاقهم وتخصيص أموال لهم.

من جهة أخرى استطاعت إيران أن تكوّن شبكة لاستخباراتها في العراق، وتوسيع قاعدتها من العملاء للتحكم بالشأن العراقي والعمل على إفشال أو عرقلة المشروع الأمريكي، هناك اتجاه آخر تتبعه إيران لزيادة نفوذها في العراق تساعدها في ذلك دون قصد بعض الدول العربية التي تعلن باستمرار عن تخوفها غير المبرر من ولاء شيعة العراق لإيران، والتشكيك بوطنيتهم وحتى بعروبتهم مما يساهم في دفع غالبية الشيعة إلى الحضن الإيراني وهذا ما تعمل إيران على استثماره جيداً من أجل استقطاب أكثر للشيعة إليها، وتساهم في تضخيم هذا القلق العربي بعض الأحزاب الشيعية التي تعمل ضمن أجندة إيرانية من خلال تصريحات ذات طابع طائفي لبعض قادتها، وتقديم مشاريع يشم منها رائحة انفصالية تزيد من المخاوف لدى بعض الدول المجاورة، إن هذه المشاريع والأفكار التي تتقدم بها هذه الأحزاب لا تمثل رأي الشارع العراقي وعلى الأخص الشيعي منه، ولا يخفى على المتتبع للشأن العراقي إن العنف الدائر في العراق يتم توظيفه من قبل هذه الأحزاب من خلال طرح نفسها كحامي للجماهير، وعلى هذه الجماهير أن تحتشد خلفها.

يبقى على الدول العربية التي تبدي تخوفها أيضاً أن تبدي استعداداً أكبر في الساحة للحد من دوامة العنف الذي أتلف العراق، كما عليها أن تمد جسوراً من الثقة مع الشيعة العراقيين، لأن التشكيك بولائهم للعراق وبعروبتهم يدفعهم أكثر إلى الانسلاخ عن المحيط العربي الذي هو امتدادهم الطبيعي، وأن يتم الفصل بين الأحزاب الشيعية وبين الشيعة كمكون أساسي من مكونات النسيج العراقي.

ثمة مسار آخر أكثر تطوراً يتبعه السياسيون الإيرانيون مؤخراً يتمثل في عرض خبراتهم في محال التقنية النووية على الدول العربية وهذا المسار له

هدفان، **الأول:** هو محاولة لاستقطاب بعض الدول العربية إليها، للخروج من العزلة الدولية التي تعانيها السياسة الإيرانية على الرغم من معرفة إيران المسبقة بعدم تجاوب هذه الدول معها، وأيضاً محاولة إثبات حسن نية في امكانية التعاون الإقليمي، **الهدف الثاني:** هو الإعلان عن ورقة جديدة تضاف إلى أوراقها في الصراع مع أمريكا لزيادة إرباكها في العراق، كما أن هذه الورقة ستصبح متداولة في الكونغرس الأمريكي لتوسيع الفجوة وتعميق الصراع بين الجمهوريين وبين الديمقراطيين وزيادة على ذلك أنها تبدو منتصرة أمام شعبها.

إذاً كيف يمكن وضع حد للتدخل الإيراني في العراق؟

تدرك أمريكا جيداً أن إيران في سباق مع الزمن، في انجاز مشروعها النووي، وإن كل ما تقوم به في العراق ما هو إلا محاولة لكسب الوقت، ومما لا شك فيه أنها تنجح في ذلك المسعى إلى حد كبير، وهو ما يجعل أمريكا في وضع حرج، ليس أمام أمريكا الآن سوى خيارين، من أجل إخماد دوامة العنف في العراق، والتفرغ إلى مشروعها في إعمار العراق كما تعلن دائماً:

الخيار الأول: هو ترك إيران تنفذ برنامجها النووي، وهو ما تريده إيران كهدف تعتبره مصيري، لكف يدها عن التدخل في العراق، وذلك أمر من الصعب على أمريكا الإقرار به.

الخيار الثاني: هو أن تطلق اليد العراقية في ضرب الجماعات المسلحة في العراق، بالطريقة التي تراها مناسبة مع توفير الدعم والإسناد اللازم لذلك، ومراقبة الحدود العراقية بشكل دقيق أو حتى إغلاقها، وطرد كل تمثيل دبلوماسي أو غير دبلوماسي لإيران من العراق، سيسهم ذلك في الحد من تسرب الإرهابيين والسلاح والذخيرة إلى العراق.

وأحسب أن الخيار الثاني مازال في المتناول وله مبرراته في الشارع العراقي خصوصاً أن ذلك ما يفكر فيه الكثير من العراقيين، وكان قد سبقهم إلى ذلك بعض ساستهم.

وأخيراً

فإذا كانت نتيجة هذه المواقف للجارة الكبرى إيران ستكون باتجاه تسليم العراق للمشروع الصهيوني الأمريكي أو انتزاع العراق من حضنه العربي لصالح الامبراطورية الإيرانية الكبرى أو تقاسم الكعكة، فلأمريكا النفط ولإيران الهوية فإن الخاسر الأكبر هو الأمة العربية والإسلامية.

إن المطلوب من الأمة اليوم هو أن لا تدس رأسها في الرمال بدوافع عاطفية أو مصلحية ضيقة، بل عليها أن تبحث عن الحقيقة كما هي لاتخاذ الموقف الصحيح، وربما تكون هذه المواقف أوراق ضغط مناسبة لإجبار الإيرانيين على التراجع والاصطلاح مع المشروع الكبير للأمة في حين أن السكوت واتخاذ المواقف الخجولة والمترددة قد يغري إيران بالاستمرار في طريقها هذا بحيث يصعب عليها فيما بعد مجرد التفكير بالتراجع أو التعديل.

حوار الأديان... ضرورة ولكن!

د. وصال نجيب العزاوي[1]

رغم إقامة مؤتمرات عديدة تحت مسمى (حوار الأديان) في السنوات الأخيرة بهدف الوصول إلى نتائج ملموسة وتحقيق تواصل حضاري وتعايش سلمي بين الغرب والعالم الإسلامي.. فإن هذا الحوار لم يحقق الأهداف المرجوة منه.

وهذا ما ظهر واضحاً بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م وضرب أفغانستان والتربص بدول إسلامية أخرى والحملات المعادية التي تتصاعد ضد الإسلام في الغرب.

وظهرت دعوات تطالب بضرورة تطوير الخطاب الديني باعتباره مطلباً إسلامياً بهدف تحسين صورة الإسلام في الغرب بشرط أن يكون التطوير والتحسين من داخل العالم الإسلامي، بالمقابل طالبوا الغربيين بمواقف أكثر

---

(١) عميدة كلية العلوم السياسية/ جامعة النهرين سابقاً.

موضوعية وإنصافاً فى التعامل مع الإسلام إذا كانوا بالفعل جادين فى تحقيق حوار بنّاء مع العالم الإسلامي.

بينما يرى علماء الإسلام أن فشل حوار الأديان وعدم نجاحه في تغيير الصورة المتوارثة عن الإسلام في الغرب هو نتيجة طبيعية لعدم جدية الحوار وعدم الاعتماد على المنهج العلمي، واستغلال الجانب الغربي هذا الحوار لتحقيق أغراض سياسية، فضلاً عن أن من يشاركون من الجانب الإسلامي ليسوا على المستوى المطلوب من الإلمام بالثقافة وباللغة الأجنبية وبطبيعة الطرف الآخر وثقافته.. علاوة على وجود منظمات غربية صهيونية تحاول دائماً إفشال حوار الأديان.

وتحاول هذه الورقة المتواضعة أن تجيب على التساؤل التالي: ماذا يعني الحوار وما جدواه؟... وكيف السبيل للتواصل؟.

أولاً: في معنى الحوار

ننظر في كلمة (حوار) ونستعين بالمعاجم في تحديد معناها، فنجد إنها من (الحَوَر) وهو (الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء)، و(حار حِواراً) إلى الشيء (رجع عنه وإليه)، وما رجع إلى المرء حين يكلم آخر هو (حَوار) (بفتح الحاء وكسرها) و(محاورة وحوير ومحورة) أي (جواب)، وأحار عليه جوابه أي رده.. ويقال (سمعت حويرهما وحوارهما) والمحاورة هي المجاوبة والتجاور هو التجاوب.. وهم يتحاورون أي يتراجعون في الكلام، والمحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

(الحوار) إذن (عملية) تتم بين اثنين أو أكثر.. وهى تتضمن حين تجرى بين اثنين (طرحاً) من أحدهما بتمثله الآخر و(يجيب عليه، فيحدث (تجاوب) يولد عند كل منهما (مراجعة) لما طرحه من كلام ومنطق حكم هذا الكلام)..

وقد تـثمر هذه المراجعة طرحاً ثانياً يتبعه تجاوب ومراجعة فتكون (مـرادة في الكلام)، فهذه المرادة هي المحاورة والحوار عنـد الأصـبهاني صـاحب (المفردات في غريب القرآن).. وقد ورد في القرآن الكريم الفعل المـضارع (يحاوره) مرتين في سورة الكهف فـي قـصة (صـاحب الجنتـين)، قـال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[1]، و(تحاوركما) في سورة المجادلة، قـال تعـالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

تتعدد أطراف (عملية) الحوار حين يجرى بين أكثر مـن اثنـين فيتلقـى (الطرح) أكثر من (جواب) وتتسع دائرة (التجاوب) و(المراجعة) و(المـرادة) وتثمر طروحاً أخرى تصل بهذه الأطراف إلى أجوبة أخرى.. وقد تنتهي بهم إلى الاتفاق أو إلى اطمئنان كل منهم لما توصل إليه.

إذن الحوار هو (حديث) يتضمن (طرح) أفكـار والطـرح لغـة الإلقـاء بعيداً.. وطرح عليه مسألة يعني ألقاها، ومنها اشـتقت (الأطروحـة) وهـي المسألة التي تطرح، و(المطارحة) وعملية الحوار تشهد مطارحة أفكار، وهي تتضمن (محادثة)، لأن الحديث هو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة الـسمع أو الوحي في اليقظة أو المنام[3].

ونشير أخيراً إلى ما تتميز به كلمة (حوار) من جرس موسـيقي يـوحي بوجود مراجعة وتفاعـل إيجابي.

---

(1) سورة الكهف/ الآية (٣٧).

(2) سورة المجادلة/ الآية (١).

(3) د. أحمد صدقي الدجاني، الحوار.. الحوار ما أحوجنا إليه!، مجلة العربي، العدد (٣١٣) كـانون الأول ١٩٨٤م، ص٩٣ـ٩٤٠.

ثانياً: حوار الأديان: مطلب إسلامي[1]

إن الحوار بين الأفراد أو المجموعات أو الأمم على مسائل دينية أو فكرية أو فلسفية يمثل ظاهرة قد يكون عمرها من عمر الإنسانية.. وإن الإسلام منذ بداية ظهوره يرحب بالحوار حيث كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحاور المشركين والمنافقين في مكة، واليهود والمسيحيين في مرحلة العهد المدني.. والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) انطلاقاً من الحوار كان له حوار مكتوب في شكل الرسائل التي أرسل بها إلى الملوك ورؤساء العالم على عصره يعرفهم فيها بنفسه باعتباره نبياً ومرسلاً.

والقرآن الكريم فيه من أمثلة كثيرة على الحوار بين الأنبياء وأقوامهم كما إن الحوار من الألفاظ القرآنية الموجودة في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وفي مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[3].

إذن الحوار ليس غريباً على الإسلام منذ بداية نزول الرسالة، وهو وسيلة من وسائل التعريف بالإسلام ونشر الدعوة.. وفي العصور التالية من عصر النبوة، ففي عصر الدولة الأموية والعباسية كان الحوار يعتبر وسيلة أيضاً لمخاطبة الآخر والاعتراف به وتقويم ما عنده.. وفي العصر الحديث ظهرت الدعوة إلى الحوار بطريقة أوسع سواء في شبه القارة الهندية أثناء الاحتلال

---

[1] ينظر لمزيد من التفاصيل ندوة (لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام)، صحيفة الخليج (الإماراتية) العدد (٨٣١٤)، ٢٠٠٢/٢/٢٢م، صـ١٤.

[2] سورة آل عمران/ الآية (٦٤).

[3] سورة آل عمران/ الآية (٦٥).

البريطاني أو في مصر خلال فترة الاحتلال وما تلاها، وظهـرت حـوارات على المستوى الرسمي في كل من مصر وليبيا والسودان والسعودية.

ثالثاً:ضوابط مطلوبة

تضمن القرآن الكريم سورتان كاملتان تجسدان طبيعة الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى من حيث الأهداف والمقاصد ومن حيث المنهج والأسلوب.. فالأديان فى نظر الإسلام أصلها واحد لقوله تعـالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1].

فرسالات السماء كلها تدعو إلى التوحيد وتكريم الرسل واحترام الأخـلاق الفاضلة والنهي عن الرذائل.. لذلك إذا كان حوار الأديان في جانب (العقيـدة فلا حوار) لأن الحق واضح ونصوص القرآن واضحة، وإذا كان في جانـب العبادات فهي مختلفة.. وإذا كان فى جانب الأخلاق فهي معروفة لكل عاقـل ولا تحتاج إلى حوار مثل الصدق والأمانة والوفاء وغيرها.. لكن نتيجة هـذا الحوار وما يترتب عليه من قبول أو رفض لا يتوقف بالضرورة على طبيعـة البرهان ولا أسلوب الحوار بقدر ما يتوقف على الطرف الآخر، وهل هو قابل للحق باحث عنه، قاصد إليه.. أم هو معاند مكابر، رافض للآخر مسبقاً، مقتنع بما تحت يديه من أنه الحق الذي لا مرية فيـه وأن الآخـر علـى ضـلال وبهتان؟، وهذا هو مفصل الخطاب في هذه القضية.

والسؤال المطروح هنا: هل كل طرف يعترف بالآخر؟ أم أن المـسلمين فقط هم الذين يقدرون للآخر قدره، وبالتالي يقدمون ما عنـدهم مـن حقـائق

---

[1] سورى الشورى/ الآية (١٣).

يقينية في أسلوب علمي؟.. لكن الطرف الآخر يتبنى مسبقاً موقف الرفض، وموقف الاستعلاء والعناد، فيكون بالتالي رافضاً لأي حق يقدم إليه، متعالياً على المحاور، وهذا من أخطر ما يسد أبواب الاقتناع.

إن الحوار بين الأديان الذي تمّ في القرن العشرين – وقد يأخذ مسميات مختلفة – لم يكن به الطرف المسلم يهدف إقناع الطرف الآخر (الغرب) أن يترك دينه ويعتنق الإسلام.. وإنما فقط ليبين له أن الإسلام لا يرفض الآخر ولا يُكرهه على تغيير عقيدته، ويقدم له الحقيقة الإسلامية الناصعة التي جسّدها القرآن الكريم في الآيتين التاليتين، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[1]، وقال تعالى أيضاً مخاطباً غير المسلمين عموماً: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾[2]، فإن هاتين الحقيقتين توضحان للآخر أن مطلب الحوار هو حسن الجوار وحسن التعامل، وأن يعترف كل منا بالآخر، لا أن يتعالى عليه بما يملك من أدوات العصر ومستحدثاته ويجعل من تفوقه العلمي والتقني دليلاً على صدق ما معه، وكذب ما مع الآخر، وهذا بعيد عن المنهج العلمي.

رابعاً: صراع أم حوار

بعد ظهور فكرة صِدام أو صراع الحضارات[3] خلال العقدين الأخيرين اتجه العالم الإسلامي والعربي تحديداً والمصلحون في أوربا إلى المناداة بحوار الأديان وليس صراع الأديان وأنواع الثقافات المختلفة التي تسود

---

[1] سورة البقرة/ الآية (٢٥٦).

[2] سورة الكافرون/ الآية (٦).

[3] ينظر عن هذا المفهوم :صموئيل هنتنيغتون، صِدام الحضارات، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٥م.

العالم، فبرز ما يسمى بحوار الحضارات وحوار الأديان وحوار الثقافات باختلاف وجهات النظر في تحديد مفهوم الثقافة والحضارة، فمنهم من يجعلها واحدة، باعتبار أن الثقافة هي الجانب الفكري والحضارة هي الجانب العملي الكلي، فنشطت حركة الحوار في أوربا وأمريكا والعالم الإسلامي والعربي بحيث لا يكاد يخلو يوم من مقال أو ندوة أو مؤتمر يعقد للحوار سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي أو المستوى العلمي الأكاديمي في الجامعات[١].. وقد عقدت عدة لجان للحوار بالمؤسسات الرسمية أو السياسية منها الأزهر والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والجامعة العربية، وقد تزايد الحديث عن التواصل الحضاري وحوار الحضارات بعد أحداث ١١/ أيلول ورغم هذه الحوارات لم نلاحظ أي تأثير يذكر على القرار السياسي لصناع القرار في أمريكا والغرب، ولم تستطع هذه الحوارات على كثرتها أن تعدل من وضع الصورة عن الإسلام في الغرب أو تقلل من حدة الإعلام الغربي وشراسته ضد المسلمين.. فما زالت حملة التشويه قوية وما زال الإسلام بالنسبة للغرب يقف وراء القضبان ويقاضى، وغالباً ما تصدر ضده الأحكام بدون إنصاف أو حتى بدون تفكير في طبيعة الحكم.

والسؤال المطروح: لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام؟ وهل نتوقف عند هذا الحد؟... الإجابة: أن المسلم ينبغي ألا يتوقف عن الحوار، فالدعوة في الأساس بلاغ وتوصيل رسالة.

والحوار من الوسائل الفعالة في توصيل رسالة الإسلام، وهناك فراغ فكري في أمريكا والغرب ينبغي على المسلمين المؤهلين دينياً وفكرياً أن

---

[١] ينظر حول ذلك: فخري لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حوار الثقافات: أوراق ومداخلات المؤتمر القومي الذي نظمته منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، القاهرة: منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، ١٩٩٧م.

يملؤه، فلا يجب أن نكف عن الحوار مهما كانت نتائجه لأن الإسلام يرفض اليأس من إصلاح النفس البشرية.

أما أسباب عدم التوصل إلى نتائج مطمئنة ومشجعة في مسألة حوار الأديان فإنها تتمثل في:

١- إن ثوابت السياسة الغربية والأمريكية لا تزال قلقة تجاه الإسلام، وبعيدة إلى حد كبير عن الإنصاف في التعامل مع المسلمين وفى النظر إلى قضاياهم السياسية العادلة.

٢- تسميم الرأي العام الغربي بسبب التسلط الإعلامي غير المنصف أو العدائي المسيطر على عقول الغربيين.

٣- وجود منظمات لها تاريخ طويل وخبرات عميقة وتمويلات هائلة داخل المجتمعات الغربية تلون القرار والإعلام الغربي باللون الذي تريده، ونعني المنظمات الصهيونية تحديداً.

٤- عدم كفاية ما نقوم به نحن المسلمين من جهود في صد هذا الإعلام وتوضيح صورة الإسلام.

٥- ليس عندنا مشروع قومي إسلامي يناسب تلك الحملات الشرسة والأجهزة المدعومة بأحدث أدوات التكنولوجيا وبالتمويل.

٦- إن ما جرى خلال السنوات الأخيرة من لقاءات حوار الأديان لا تمثل القواعد الأساسية التي اتبعها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسألة الحوار.. هذه القواعد يتصل أولها بالعقيدة وثانيها يتصل بالتعاون.. فيما يتصل بالعقيدة ومحاولة الوصول إلى الحق بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما ناقش وفد نصارى نجران ونزل فيها: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ

اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]، كما ذكر القرآن حوارات اليهود والوثنية وكل أصحاب العقائد، واستمر المسلمون في هذه الحوارات، وألفّ العلماء كتباً كثيرة في ذلك، أشهرها قدماً (الفصل في الملل والأهواء والنحل) للإمام ابن حزم.. أما فيما يتعلق بالجانب الثاني وهو التعاون من أجل نصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم ورد العدوان وإعطاء كل ذي حق حقه فهذا أيضاً بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما حضر حلف الفضول قبل البعثة في دار عبد الله بن جدعان فاجتمع الناس من أجل نصرة المظلوم وتحدث الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك فيما بعد فقال "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت"[2]، فتلك رسالتنا وبضاعتنا، ولكن ما يجري حالياً لا يمثل أي جانب من هذين الجانبين فهو لا يبحث في العقائد ولا ينصر المظلوم، بل أصبحت اجتماعات للعرض والإعلام فقط.. بل إنها أصبحت مكيدة للإسلام والمسلمين ويتخذها الطرف الآخر وسيلة للتغلغل في الأوساط الإسلامية وطرح أفكاره والسيطرة بأساليبه الخبيثة، ولم يستفد المسلمون شيئاً من هذا الحوار إطلاقاً، حتى في القضايا الإسلامية المطروحة على الساحة العالمية لم نسمع فيها كلمة حق من جانب هؤلاء المحاورين.

ونذكر على سبيل المثال أن (بابا الفاتيكان) سبق وأن اعتذر لليهود عن المذابح التي أقامها هتلر والغرب أثناء الحرب العالمية الثانية، في نفس الوقت رفض هذا البابا الاعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية.

---

[1] سورة آل عمران/ الآية (٥٩).

[2] رواه البخاري في "الأدب المفرد" (٥٦٧) و ابن حبان (٢٠٦٢).

خامساً:ما العمل؟ وما جدوى الحوار؟

إن الحوار بين المسلمين وبين الغرب لم ولن يثمر نتائج طيبة طالما أن مقومات هذا الحوار غائبة، والتي تتمثل في المشاركة في الحوار والظروف التي يخضع لها كل حوار، فضلاً عن الجو العدائي المتواصل في الغرب والذي تغذيه وسائل الإعلام الغربية بصورة مستمرة.. وقد قرأنا لكبار المسؤولين الأوربيين والأمريكيين من يحرض على الإسلام والمسلمين ويحيي نعرات الحروب الصليبية القديمة.. إذن ما العمل؟.

١- الحقيقة التي يجب أن ندركها جيداً هي إن تحسين صورة الإسلام في الغرب يبدأ من داخل العالم الإسلامي وهذا أمر لا خلاف عليه، ويجب أن نعترف بشجاعة بأن المفاهيم الخاطئة التي لا تزال عالقة بأذهان بعض المسلمين تستغل استغلالاً سيئاً من جانب الغرب وتتخذ وسيلة لتشويه صورة الإسلام وصد الغربيين عنه أو دفعهم لاتخاذ مواقف عدائية تجاهه.

لكن هذا لا يعفي الغرب بكل مؤسساته الإعلامية والسياسية والثقافية والعلمية والدينية من المسؤولية، حيث لا يجوز أن نتخذ من سلوكيات بعض الأفراد أو الجماعات وسيلة لتشويه صورة دين سماوي خاتم، فالحكم على الإسلام يكون من خلال تشريعاته وتعاليمه الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم).. من هنا فإن الغرب مطالب بإثبات حسن النية في التعامل مع الإسلام، وهذا لن يتحقق إلا من خلال جهود ملموسة لتصحيح المعلومات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتي يتوارثها الغربيون جيلاً بعد جيل، وتعد عقبة حقيقية في تحقيق تفاهم حقيقي بين الغرب والعالم الإسلامي.

٢- يجب أن يغير الغرب استراتيجيته في التعامل مع الإسلام وأن يتخلى عن معتقداته السياسية الخاطئة والتي تصور له الإسلام على إنه العدو البديل

للشيوعية، فالإسلام دين وسطية واعتدال ورحمة وتسامح وهو دين يدعو إلى التعاون والتواصل مع الآخرين.

٣- إن الإرهاب الذي يخشاه الغرب ويخشاه المسلمون أيضاً لاعلاقة له بالإسلام من قريب ولا بعيد إلا في أذهان المتعصبين والعنصريين الغربيين، لذلك يجب أن يتوقف الإعلام الغربي عن ترديد اصطلاح (الإرهاب الإسلامي).. والحقيقة تقال أن ما يحدث في العراق وفلسطين وأفغانستان من عدوان وقتل للأبرياء هو الإرهاب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وهو مرفوض ومدان من كل الشرائع السماوية.

٤- وقبل ذلك كله، ضرورة مراجعة وتطوير الخطاب الديني، فتطويره من أبرز مطالب علماء ومفكري الأمة منذ سنوات طويلة.. فالأمر ليس مرتبطاً بأحداث الحادي عشر من أيلول في أمريكا وتداعياتها التي ضاعفت من حدة التوتر في علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، فتحسين الخطاب الديني (إسلامي أو مسيحي) مطلب داخلي قبل أن يكون مطلباً خارجياً؛ لأن إزالة التوتر والتعصب مطلوب من المسيحيين كما هو مطلوب من المسلمين... وأخيراً وليس آخراً نقول إن بحث وسائل تطوير الخطاب الإسلامي لا تعني بأي حال من الأحوال إضفاء الشرعية على مواقف أو سلوكيات مخالفة، ولا تعني إطلاقاً التخلي عن الثوابت الإسلامية التي تفرض على المسلمين القيام بواجب الدعوة إلى الإسلام فى كل الظروف والأحوال وبذل النفس والمال دفاعاً عن الدين والوطن والكرامة وكما حددها لنا رب العزة والمنصوص عليها في قوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1].

---

[1] سورة النحل/ الآية (١٢٥).

قراءة في القضية العراقية المعاصرة

من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق محاضير محمد

د.أحمد الجنابي(1)

البطاقة الشخصية لمحاضير محمد

من مواليد عام ١٩٢٥م، انضم إلى منظمة الملايو الوطنية المتحدة عام ١٩٤٦م، وقام بدراسة الشؤون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٧م، ودرس الطب وتخرج طبيباً في عام ١٩٧٤م، ودرس –أيضاً– الصحافة بالمراسلة، بدأ حياته المهنية كضابط طبيب بسلاح الخدمات الطبية، وبقي يمارس عمله في عيادته الخاصة في الفترة بين عام ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٢م، ليشغل بعد ذلك منصب رئيس مجلس التعليم العالي الأول ثم رئيس مجلس الجامعة الوطنية، وحول العمل السياسي فقد بدأ محاضير مشواره بمنصب مندوب ماليزيا بالأمم المتحدة ١٩٦٣م، ثم عمل بعد ذلك عضو برلمان عن منطقته في الفترة بين عام ١٩٦٤، وحتى عام ١٩٦٩م، ليشغل منصب عضو المجلس الأعلى لتنظيم اتحاد الملايو الوطني إلا أنه طُرد من التنظيم لخرق مبادئ الحزب؛ ولكنه عاد للحياة السياسية بقوة حيث أصبح عضواً في مجلس الشيوخ في عام ١٩٧٣م، ثم انتخب محاضير

---

(1) باحث عراقي أكاديمي في جامعة ملايا – ماليزيا.

عضواً بالبرلمان مرة أخرى في عام ١٩٧٤م، وأعيد انتخابه في عام ١٩٧٨م، وشغل منصب وزير التربية والتعليم بالإضافة إلى منصبه كنائب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني، ثم شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير التجـارة والصناعة خلال الفترة (١٩٧٨– ١٩٨١م)، ويـنجح محاضـير فـي الفـوز بمنصب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني ليـشغل منـصب رئـيس وزراء ماليزيا الرابع في المدة من ١٩٨١م – ٢٠٠٣م، وخلالها وضع خطة لـبلاده وسار عليها لتصبح بحلول عام ٢٠٢٠م بلداً على درجة عالية من التقدم، يعد محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق من أعظـم القـادة الـسياسيين والاقتصاديين في آسيا، استطاع تغيير وجه ماليزيا وتمكن من أن ينهض بهـا تنموياً ويجعلها في مصاف الدول الاقتصادية المتقدمة، حيث تمكن من الانتقال بها من مجرد دولة زراعية تعتمد على تصدير السلع البـسيطة إلـى دولـة صناعية متقدمة، فأصبح الفكر التنموي للزعيم الماليزي محاضير محمد مـثلاً يحتذي به العديد من القادة والسياسيين والاقتصاديين في جميع أنحاء العـالم، جاء في وصفه: (الرجل العاقل في زمن الجنون، ناجح بـلا حـدود، قـصة المعجزة الماليزية، النمر الآسيوي، رجل الفكر والإنجاز).

مواقفه من القضية العراقية المعاصرة

حضيت قضية العراق المعاصرة في الفكر المحاضيري باهتمام بالغ، فقـد واكب هذه القضية سياسياً وبشكل دائم، وهذا الاهتمام إن دلّ على شيء فإنمـا يدل على عالميته البشرية ورؤيته الإسلامية الشمولية، وطيب علاقاتـه بهـذا البلد العربي المسلم وأهله، ولم يغب عن باله من أن هذه القضية بالذات قضية مصيرية ولها علاقات بالوضع السياسي والاقتصادي في المنطقة خـصوصاً والعالم الإسلامي عموماً، فتبرع مدافعاً عن العراق ومحامياً له فـي مواجهـة

التحديات الخارجية التي تعصف به، ولم ينفك ذكر العراق من على لسانه في المحافل الدولية والإقليمية والتصريحات الرسمية بشأنه، وتقديم الحلول والرؤى المساعدة والمساندة لهذا البلد للخروج من أزماته، وهذا كله يحسب لهذا الرجل في وقت سكتت فيه أفواه وألجمت أصوات حول هذا البلد وقضاياه.

ومما يميز موقفه موضوع الديمومة فيه، فهو على مدى سنوات طويلة في اللهجة الشديدة نفسها في انتقاد الحرب وما سبقها من حصار وما تبعها من ويلات، ولذلك وصفه بعض المحللين بأنه: (كان الضمير العالمي المعبر عن القضية العراقية)[1]، ولكي نستوعب هذا الموضوع لابد من تقسيمه على محطات بحسب الأحداث في قضية العراق المعاصرة لنقرأ المواقف على ضوئها، وبالتالي تتضح لدينا الرؤية الكاملة لهذا الموضوع تحديداً.

أولاً: مواقفه قبل الحرب على العراق

موقفه من الحصار قبل الحرب

كان الدكتور محاضير من المتابعين لتداعيات الحرب على العراق فرأى أنَّ هذه الحرب المسبوقة بحصار ظالم غير متكافأة، ووصف الأمم المتحدة بـ(العمى) عما يحدث في العراق في استمرار قوة عظمى واحدة في صراع طويل ضد هذا البلد، وإطلاق القذائف الصاروخية على أهداف بعيدة داخل العراق لكي تركع القيادة العراقية دون مراعاة لمعاناة الشعب العراقي

---

[1] الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية، عبد الرحيم عبد الواحد، ماليزيا، ط/ الأولى ٢٠٠٣م: ص ١٣٥.

المحاصر[1]، فاستنكر العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على (شعب) العراق والقيود على المدنيين والأطفال والكبار والمرضى والنساء طوال سنوات من المعاناة بحجة أن قائد الشعب غير محبوب لدى الغرب، فركّز حديثه على أذية هذا الشعب وأنه هو المستهدف واستدل على ذلك متعجباً بأن الحملة العسكرية كان بمقدورها أن تأسر زعيم العراق وتعتقله لكنها لم تفعل[2]!.

توقعاته للحرب وموقفه منها

كان الدكتور محاضير من المتوقعين لهذه الحرب قبل وقوعها حيث جاء في كلمته التي ألقاها بالجلسة الغير عادية للقمة الإسلامية في الدوحة بتاريخ ٥/ مارس- آذار/ ٢٠٠٣م فقال: (إنّ الهجوم على العراق واقع لا محالة بموافقة أو دون موافقة الأمم المتحدة ما لم تحدث معجزة)[3]، ودعا القادة العرب والمسلمين قائلاً: (علينا نحن قادة منظمة المؤتمر الإسلامي أن نساعد على حدوث هذه المعجزة بوقوفنا ضد الحرب على العراق)[4].

مناقشته لمبررات الحرب

ناقش محاضير مبررات الغزو الأمريكي لهذا البلد، فإذا كانت الحجة اجتياح العراق للكويت فهو لا يتفق مع مبررات العراق وقال: (ربما يكون للعراق

---

[1] موسوعة الدكتور محاضير بن محمد - رئيس وزراء ماليزيا السابق-، دار الفكر، كوالالمبور، ط/الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م : ٨/ ١٣٨.

[2] المصدر نفسه: ١/ ٨٦.

[3] المصدر نفسه: ١٠/ ٩.

[4] المصدر نفسه.

إدعاء تاريخي، لكن بالتأكيد على العراق أن يقبل بالكويت دولة مستقلة)[١]، وفي الوقت نفسه لا يتفق – أيضاً– مع مبرر تدخل أمريكا وحلفائها في العراق بسبب هذه الحجة، وضرب مثلاً في اتخاذ الغرب لنفسه ألف عذر وعذر في عدم تدخله في قضية الصرب عندما قتلوا المسلمين، ولم يقفوا ضدهم، ولم يتخذوا اجراءات بحقهم، فكذلك عليهم التعامل مع هذه القضية من باب العدالة الدولية إزاء مواقفهم؛ إلا أنه حلل هذا التدخل بأنه: (حماية للنفط وليس حماية للكويتيين)[٢]، ووصف تصرف الغرب بأنه: (تدخل في شؤون بلد مستقل)[٣].

واذا كانت الحجة في الحرب على العراق هي نشاطات العراق (الإجرامية) – بحسب تعبيرهم –، فقد كشف محاضير في تساؤله عن سبب عدم نشر استقالة ضباط الأمم المتحدة المكلفين بمراقبة نشاطات العراق وعدم تغطيتها إعلامياً بالشكل المطلوب لأولئك النفر الذين أدانوا البربرية ضد ذلك البلد[٤]؟.

وإذا كانت الحجة أحداث الحادي عشر من سبتمبر فرأى أن هذا معيار مزدوج للغرب فإذا ذكروا لنا من مات أو تضرر في نيويورك فربط لهم بين من مات جوعاً في العراق أو من نقص الرعاية الطبية[٥].

واعتبر موضوع أسلحة الدمار الشامل أكذوبة أمريكية من أجل تبرير شن حرب على العراق، ومع الافتقار لدليل والاستناد إلى شبهات كان عليهم أن

---

[١] موسوعة الدكتور محاضير بن محمد – رئيس وزراء ماليزيا السابق–، دار الفكر، كوالالمبور، ط/الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م: ١ / ٨٦.

[٢] المصدر نفسه: ١ / ٣١٦.

[٣] المصدر نفسه: ٣ / ٣٥.

[٤] المصدر نفسه: ١ / ٣١٦

[٥] المصدر نفسه: ١٠/ ٣١.

يعطوا الفرصة للدكتور هانز بليكس[1] للقيام بتحقيق شامل، ودعا الشعب العراقي إلى تحرك قانوني ضد الولايات المتحدة عبر الأمم المتحدة أو أي منظمة دولية لمحاكمتهم عن أضرارهم بسبب هذه الأكذوبة[2].

واشتد نكير محاضير الحرب على العراق لأنها جاءت من أناس يتحدثون دوماً عن حقوق الإنسان هذه من وجهة نظر إنسانية، ومن وجهة نظر دينية اعتبر محاضير أن سياسة أمريكا في حربها على العراق إنما تعد حرباً على المسلمين[3].

وأكد موضوع الحرب على المسلمين في استهداف العراق باستدلاله على موضوع أسلحة الدمار الشامل الآنفة الذكر، فرأى أن السياسة الغربية تكيل بمكيالين في هذا الموضوع فالاتهام موجه إلى كوريا الشمالية والعراق، فاستغرب من الضغط الدولي والتحرك العسكري على العراق فقط!، مع إن كوريا وبتصريحات صدرت من بيونج يانج أنها تمتلك أسلحة دمار شامل؛ لكن لم تكن ردود الأفعال حولها مثلما الذي جرى في العراق؛ بل لم يتعد الأمر سوى تحذيرات لها، فلماذا العراق هكذا إذن؟[4].

وكل هذه المبررات للغزو وغيرها والحجج التي ساقتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لضرب العراق كانت من الهشاشة بمكان عند محاضير محمد حتى أنه توصل إلى قناعة مفادها بقوله: (لقد أثبتت – أمريكا وبريطانيا- أنهم مستعدون لاختراع مزاعم كاذبة من أجل شن الحرب وقتل الأطفال والشيوخ والمرضى التي في نظرهم أنها مجرد أضرار جانبية...

(1) الرئيس السابق لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة.

(2) سفير عربيات في: ٤ / ١٠ / ٢٠٠٣م.

(3) انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية : ١٣٧.

(4) انظر: المصدر نفسه.

فاليوم يجتاحون بلداً لأنهم يرون أنه غير ديمقراطي، وهل فرض الديمقراطية بالغزو أمر ديمقراطي[1]؟.

رؤيته لما بعد الحرب

كانت نظرته صائبة جداً في رؤيته أن الحرب على العراق من المحتمل أن تزيد الموقف في الشرق الأوسط سوءاً، وكذلك مساهمة هذه القضية في مشكلات الإرهاب في العالم [2]، ومن رؤية محاضيرية اقتصادية رأى أن هذه الحرب ستفرز آثاراً سلبية على الاقتصاد العالمي – وهذا ما حدث فعلاً – وأن هذه الحرب ستزيد من غضب المسلمين وستضاعف من أعداد المتطوعين في المنظمات التي يسمونها (إرهابية)، ورأى أن وقوع الحرب يعد تكريساً لشريعة الغاب وتجاوز المواثيق الدولية كافة، وستوفر هذه الحرب الفرص لدول أخرى في أن تتبع النموذج الأمريكي؛ الأمر الذي سيفقد العالم بسببه الأمان، وهذه الحرب في نظر محاضير ستضعف ثقة العالم الإسلامي بالأمم المتحدة بعد عجزهم عن حماية العراق ومنع الحرب عليه[3].

ثانياً: مواقفه بعد الحرب على العراق

رأيه في السياسة الأمريكية في العراق

عن التدخلات السياسية لأمريكا وبريطانيا في العراق انتقد محاضير هذه التصرفات وقال: (لو كانت هاتان الدولتان تؤمنان حقاً بالديمقراطية لسمحتا للعراقيين بتشكيل حكومتهم بأي طريقة تتراءى لهم)[4] مؤكداً إذا استلزم التدخل في الشأن العراقي الداخلي فيجب أن يكون ذلك عن طريق الأمم

---

(1) انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٣.

(2) موسوعة الدكتور محاضير: ١٠ / ١١.

(3) انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٤.

(4) موقع أنباء الإخباري، الاثنين: ١٨/ آب– أغسطس/ ٢٠٠٣م.

المتحدة ، ولهذا قال : (لن نشارك في أي شيء يجري في العراق دون أن تجيزه الأمم المتحدة)[1] بدليل أن بلده ماليزيا لن تبحث إرسال قوات في أي مهمة لحفظ السلام بالعراق ما لم تقر الأمم المتحدة مثل هذه الخطوة[2].

ونظر إلى الانتخابات والحكومة المنبثقة عنها في ظل الاحتلال بأنها لن تلقى قبول الشعب العراقي، لأنها قوة مؤيدة للأمريكيين، واتهم الأمريكيين بعدم فهم الشعب العراقي، واستبعد من أجل ذلك استقرار الأوضاع بعد الانتخابات، بل وتوقع زيادة الأمر سوءاً[3].

ولم يرَ في إرسال المزيد من الجنود الأمريكيين حلاً للمشكلة العراقية وقال عنهم: (سيذهبون إلى العراق وسيقتل العديد منهم ويعودون في أكفان إلى ديارهم، وحين يرى الأمريكيون هذه الأكفان، سيفهمون ما معنى الحرب)[4].

موقفه من المقاومة العراقية

أشاد الدكتور محاضير محمد بالمقاومة في العراق، معتبراً أن عودة الكثير من الجنود في أكفان إلى الولايات المتحدة: (سيساعد الأمريكيين على تغيير رأيهم بشأن الحرب)، وقال بمناسبة إطلاق محكمة جرائم حرب – بديلة– عن محكمة لاهاي[5]:(امضوا قدماً في مقاومتكم، واحرصوا على أن يدفع الأمريكيون غالياً ثمن مغامرتهم)[6].

---

[1] موقع أنباء الإخباري، الإثنين: ١٨/ آب– أغسطس/ ٢٠٠٣م.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

[5] موقف محاضير من إنشاء المحكمة غير الرسمية لجرائم الحرب للتركيز على الضحايا في العراق وغيره من البلدان؛ لأنه يعد المحكمة الدولية الموجودة في لاهاي هي هيئة منحازة، وأوضح أن المحكمة لن يكون

وتوقع استمرار أعمال المقاومة في العراق ضد قوات الاحتلال الأمريكي وعدم استقرار الوضع في هذا البلد بالرغم من المشاريع السياسية مثل الانتخابات والدستور وغيرهما واستشهد على ذلك بمدينة (الفلوجة) وضربها مثلاً فقال: (إن القوات الأمريكية أرادت أن تظهر عبر الهجوم على الفلوجة أنها قادرة على الحل بالقوة العسكرية وأن "المتمردين" غادروا الفلوجة قبل اقتحام القوات الأمريكية للمدينة لمواصلة العمل في أماكن أخرى وأنهم قد يعودون مجدداً إلى الفلوجة)[٢].

وتوجه برسالة إلى المقاومة العراقية جاء فيها: (أنا أهنيء المقاومة العراقية، تابعوا نضالكم فقد سبق أن نجحتم – مشيراً إلى أن المسؤولين الإسبان والإيطاليين الذين ساندوا الحرب على العراق سقطوا في الانتخابات– وأن بوش وبلير خسرا شعبيتهما) وهذا نجاح سياسي في رأيه، وتابع قائلاً: (المقاومة العراقية أثبتت أنه من غير السهل أبداً اجتياح العراق والسيطرة على الوضع... وإذا كانت الولايات المتحدة تعتقد أنها ستسيطر على العراق وتستخدمه كقاعدة لتهديد الدول في محيط الخليج... وعدم بيع النفط إلى الصين، فإن المقاومة العراقية أثبتت أن الأمريكيين على خطأ)[٣].

وقد دافعت ماليزيا عن رئيس وزرائها السابق محاضير بعد رسالته وموقفه من المقاومة في العراق من باب حقه في التعبير عن آرائه، جاء ذلك

لديها أي سلطة قانونية ولا تلقى دعم أي حكومة، مؤكداً أن ممارسات مرتكبي الجرائم ستكتب في سجلات التاريخ.

[١] برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال١٤٢٥هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤م.

[٢] المصدر نفسه.

[٣]برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال١٤٢٥هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤م.

على لسان وزير الخارجية الماليزي سيد حميد البار الذي قال إن ماليزيا: (بلد حرّ وديموقراطي ومن الجيد جداً أن نرى كيف تمارس الحرية)[1].

ثالثاً: مواقفه حول تداعيات الحرب على العراق

مقاطعة الشركات التي ساهمت في الحرب

انتقد محاضير موقف بلده وخطوة حكومته بالسماح لشركة "هاليبرتون"[2] بالعمل في ماليزيا قائلاً: (إن ماليزيا ليست بحاجة لأموال مضرجة بالدماء)[3]، وتساءل ما إذا فقد الماليزيون الصفات الإنسانية ليسمحوا لمجرمي الحرب هؤلاء بالقدوم والازدهار على حساب اقتصاد البلاد، وكشف محاضير عن خبايا هذه الشركة التي قامت بجمع مليارات الدولارات بشكل أرباح من حرب العراق[4]، واستدل على ذلك بحسابات اقتصادية حيث ذكر أن قيمة سهم "هاليبرتون" قفزت من عشرة دولارات قبل الحرب على العراق إلى قرابة (٤٦) دولاراً بعد أن ضمنت الشركة عدة عقود في العراق ناهزت قيمتها (٢٠) مليار دولار[5].

دعا الدكتور محاضير من قبلُ دول العالم إلى وقف استخدام الدولار الأمريكي في التبادل التجاري وذلك للضغط على حكومة واشنطن، وقدم البديل باليورو أو الدينار الذهب الذي هو واحد من مشاريعه الاقتصادية[6].

---

[1] مفكرة الإسلام: الخميس، ٢٠ محرم ١٤٢٨هـ الموافق: ٨-٢-٢٠٠٧م.

[2] شركة الخدمات النفطية العملاقة، ترأسها في فترة من الفترات نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني.

[3] وكالة الأخبار الإسلامية – نبأ.

[4] انظر: المصدر نفسه.

[5] انظر: المصدر نفسه.

[6] انظر: (الجزيرة) http://www.aljazeeratalk.net

دعوته إلى تغريم أمريكا عما فعلته في العراق

حثّ محاضير العراقيين على جعل الولايات المتحدة تدفع ثمناً باهظاً جداً؛ وذلك غرامة لها بسبب احتلال العراق، جاء ذلك في إعلانه عن: (محكمة تجريم الحرب)[1] غير الرسمية التي ستجري محاكمات استناداً إلى شكاوى يرفعها ضحايا الحروب ضد قادة عالميين أبرزهم الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير.

وتوقع أن يكون معظم أصحاب الشكاوى ضحايا النزاعات في فلسطين والعراق وأفغانستان، وستكون مهمة المحكمة في المرحلة الأولى دراسة الشكاوى التي ستتلقاها من لجنة خاصة يترأسها محاضير نفسه[2].

وقال محاضير في كلمة أمام أكثر من (١٠٠٠) ناشط ضد الحرب جاءوا من مختلف أنحاء العالم في العاصمة الماليزية كوالالمبور: (نحن في اللجنة ننظر إلى هذه الشكاوى باعتبارها مآسي إنسانية، ليست محصورة بعرق أو دين أو عقيدة معينة، ونأمل أن نحقق شيئاً من خلال تخفيف معاناة أولئك العديدين الذين تألموا في العراق وفلسطين وأفغانستان وأماكن أخرى)[3].

مقارنته بين بوش وبلير وبين صدام حسين:

قارن الدكتور محاضير بين شخصيات متنازعة وهي بوش وبلير من جهة وبين صدام حسين من جهة أخرى فرأى في موازناته: (إن الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير مجرمي حرب وعلى أيديهما دم عراقي أكثر من الدم على يدي صدام حسين)، وشنّ محاضير

---

(١) انظر: موقع الإسلام اليوم، الخميس:٢١ محرم ١٤٢٨هـ الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

هجوماً على بوش وبلير في مؤسسة السلام الماليزية التي أسسها، وقال: (إن بوش يتعين عليه أن يواجه نفس العدالة الزائفة التي واجهها صدام).

رسالته إلى الرئيس الأمريكي الجديد (أوباما):

وجه الدكتور محاضير رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الجديد أوباما، حدد فيها مطالبه التي هي عبارة عن أولويات العمل في الإدارة الأمريكية وهي كالآتي[1]:

أولاً: توقفوا عن قتل الشعوب، الولايات المتحدة ومن أجل تحقيق أهدافها مولعة جداً بقتل الشعوب، أنتم تسمونها حرب؛ لكن حروبكم اليوم ليست بين جيوش مدربة تقاتل وتقتل بعضها؛ لكنها قتل للشعوب المدنية البريئة وبمئات الآلاف، بلدان بأكملها سيتم تدميرها، الحرب أصلاً هي طريقة رجال الكهوف للتعامل مع مشكلة، ولهذا أوقف تسليح جيوشكم والتخطيط لحروب مستقبلية.

ثانياً: أوقف الدعم العشوائي للقتلة الإسرائيليين بأموالكم وأسلحتكم، فالطائرات والقنابل التي تقتل الناس في غزة هي منكم.

ثالثاً: أوقف فرض العقوبات ضد الدول، في حين هي لا تقدر أن تفعل المثل ضد بلدكم، عقوباتكم على العراق قتلت نصف مليون طفل بحرمانهم من الغذاء والدواء أو بولادتهم مشوهين، ماذا حققتم من خلال هذه القسوة ؟، لا شيء غير كراهية الضحايا، وأصحاب التفكير السليم لكم.

رابعاً: أوقف علماءكم وباحثيكم من اختراع أسلحة جديدة أكثر شيطانية لقتل المزيد من البشر بكفاءة أكبر.

---

[1] انظر: نص الرسالة في هذا الرابط:
www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=11584

خامساً: أوقف صناعييكم الحربيين من تصنيع هذه الأسلحة وبيعها لجيوش العالم، فالمال الذي تربحونه منها ملوث بالدم، وهذا ضد تعاليم المسيحية.

سادساً: توقفوا عن نشر الديمقراطية إلى جميع أقطار العالم، الديمقراطية ربما تصلح للولايات المتحدة؛ لكنها ليست صالحة دائماً مع جميع الشعوب، ولا تقتلوا الناس لأنهم غير ديمقراطيين، فحملتكم الصليبية لنشر الديمقراطية بين الشعوب قتلت منهم ما لم تفعله حكوماتهم الاستبدادية التي أطحتم بها، ورغم هذا فأنتم لم تنجحوا في نشر الديمقراطية.

سابعاً: أوقف الكازينوهات التي تسمونها (مؤسسات مالية) وتوقفوا عن فتح صناديق الاحتياط ومشتقاتها وتداول العملات، وأوقفوا البنوك عن إقراض المليارات من العملة التي لا غطاء لها، ونظموا وأشرفوا على البنوك واسجنوا الأوغاد الذين يجنون الأرباح من استغلال النظام المصرفي.

ثامناً: وقع على بروتوكول كيوتو[1] وبقية الاتفاقيات الدولية.

تاسعاً: أظهر الاحترام للأمم المتحدة، وختمها بقوله: (لو تمكنت من فعل القليل مما اقترحته عليك، فسيتذكرك العالم كقائد عظيم، عندها ستعود الولايات المتحدة من جديد الأمة التي تحظى بأكبر الإعجاب في العالم، كما تتمكن سفاراتكم من خفض أسيجتها والأسلاك الشائكة المكهربة المحيطة بها، اسمح لي أن أتمنى لكم سنة جديدة سعيدة ورئاسة عظيمة)[2].

---

[1] اتفاق كيوتو يمثل عولمة الشأن البيئي العالمي، وخلق الآليات اللازمة لتنفيذه، ويمثل هذا البروتوكول أيضاً الخطوة التنفيذية الأولى لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ، وعلى العكس من ذلك ترى الولايات المتحدة الأمريكية أن الاتفاق ظالم لها، وغير محقق لمصالحها، دعا الرئيس الأمريكي جورج بوش – الابن – إلى معارضة تصديق الولايات المتحدة على الاتفاق، فالإدارة الأمريكية تعارض البروتوكول – دفاعاً عن مصالح رجال الأعمال–.

[2] انظر: المصدر السابق.

ثقافة المقاومة عند الشعب العراقي بين احتلالين

خالد القيسي[١]

الثقافة هي روح الأمة وعنوان هويتها، وهي من الركائز الأساس في بناء الأمم ونهوضها، فلكل أمة ثقافةٌ تستمدّ منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، وتصطبغ بصبغتها، فتنسب إليها، وكل مجتمع له ثقافتُه التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها.

واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقيّ الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات، والثقافة ليست مجموعةً من الأفكار فحسب، ولكنها نظريةٌ في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبما يتمثّل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعبٌ من الشعوب، وهي الوجوه المميّزة لمقوّمات الأمة التي تُميّزُ بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدّسات والقوانين والتجارب، وفي الجملة

---

[١] باحث في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

فإن الثقافة هي الكلُّ المركّب الــذي يتــضمن المعــارف والعقائــد والفنــون والأخلاق والقوانين والعادات.

وبما أن المقاومة حق مشروع ومطلوب للدفاع عن الوطن وهــو مبــاح بشتى الوسائل التي تتوافق مع الثوابت الشرعية والوطنية وحسب مــا تمليــه الظروف إما بالسياسة.وإما بالقوة فمن لا وطن له لا حياة له، غير أن هذه لها شروطها وأحكامها حتى لا تصبح فوضى يستغلها أصحاب المصالح لصالحهم فتضيع الحقوق ويقع الظلم وتصبح كلمة المقاومة إرهاباً، لذلك علينا أن نعلــم ما معنى كلمة المقاومة ومتى تكون.

والمقاومة تولد عند ظهور حالات الظلم والاضطهاد والاحــتلال ونهــب خيرات الشعوب واستغلالها من قبل الاستعمار وتختلــف أشــكال المقاومــة باختلاف نوع الغزو والاستعمار، فعندما يكون الغزو فكرياً يهدد تراث الأمــة وتاريخها ولغتها ليجردها من كل ما يميزها عن غيرها من الأمم يهب رجــال الفكر والأدب ليذودوا عن ثقافة أمتهم وتاريخها وأدبها ولغتها وفي هذه الحالة تكون أدوات المقاومة القلم والفكر وعندما يكون الغزو عسكرياً فإن الأمم تهب للدفاع عن أوطانها بكل ما تملك من الرجال والأموال لتدفع عن نفسها الــذل والهوان ولا تلقي السلاح حتى ترحل آخر قدم لجنود الاحتلال وطأت تــراب الوطن.

وأصبحت كل أمة تفتخر بفترة من فترات تاريخها وهي تلك الفترة التــي انتفض فيها أبناؤها وحملوا السلاح ليدافعوا عن وطنهم وأمتهم ليجبروا المحتل على الخروج صاغراً تاركاً لهم حرية الحياة على تربة الوطن.

وبعد نهاية فترة الاستعمار الذي أعقب الحرب العالمية الأولــى وانــدلاع حركات المقاومة في كافة الأقطار العربية لنيل الاستقلال، كان للعــراق دور كبير في ترسيخ مفهوم مقاومة الاحتلال تمثلت في انطلاق الــشرارة الأولــى

لثورة العشرين التي أشعلت الأرض تحت أقدام الإنكليز الغزاة لتبدأ من السماوة ويمتد لهيبها إلى كل أنحاء العراق.

ومن خلال المطالعة التاريخية للشعب العراقي بين الاحتلالين البريطاني والأمريكي نرى أوجهاً كثيرة للمقارنة من أهمها: أن الشعب العراقي انتفض مبكراً لمقاومة الاحتلال فكانت ثورة العشرين هي أول ثورة في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى عبّرت عن أصالة الشعب ولحمته وتماسكه ووطنيته ورفضه لمبدأ الاستسلام والخنوع للأجنبي، وأجبرت البريطانيين عن التخلي عن الحكم المباشر واستبداله بحكومة وطنية، إلا أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، إذ كان يتعامل فيه البريطانيون مع أشخاص مثل الملك فيصل الأول ورفاقه من القادة العراقيين ذوي المؤهلات العالية والانتماء الكبير فإن الإدارة الأميركية اليوم تفاوض نفسها.

وفي الوقت الذي يعجز فيه الاحتلال عن كسر إرادة الشعوب بآلته العسكرية فإنه يعمد إلى استخدام أسلوب آخر ربما يكون أشد فتكاً وهو إشاعة روح الانهزام والاستسلام بين الشعب من خلال وسائل متعددة منها أسلوب إقناع الشعب بأنه جاء محرراً لا يبتغي إلا إرساء قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان وإنهاء الدكتاتوريات التي قيدت الأيادي وكمّمت الأفواه وضمان حقوق الأقليات وحمايتها من الاضطهاد مستخدماً وسائل الإعلام والأقلام المأجورة التي تبشر بهذا المشروع وكأن الاحتلال هو المخلص الوحيد.

وعندما أدرك الاحتلال أن الشعب العراقي اليوم أكثر وعياً وأشد صلابة انتقل إلى مرحلة أخرى وهي أسلوب الضغط على الحاضنة كما فعل سلفهم البريطانيون عندما أحرقوا المحاصيل الزراعية للمدن التي اشتركت في الثورة وتوجيه حملات عسكرية شديدة القسوة ضد المدنيين الذين يشكلون الظهير الحقيقي للمقاوم وإعفاء الشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة من الضرائب،

واليوم يعاود الاحتلال استخدام الأسلوب نفسه من تدمير للمدن والبنية التحتية للخدمات ودور العبادة وقتل الأطفال والشيوخ والنساء واعتقال الرجال وإيداعهم في المعتقلات لفترات غير محدودة.

إن المقاومة اليوم هي عبارة عن منظومة تتكون من الجهد العسكري والشرعي والدعوي والإعلامي والمادي والمعنوي، فضلاً عن العلاقات الخارجية التي تسعى لكسب التأييد الخارجي وتوفير مساحة أكبر للتحرك تتكامل فيما بينها لتصنع أنموذجاً رائعاً للمقاومة التي ستكون في يوم ما سفراً خالداً يفتخر فيه الأبناء والأحفاد فضلاً عن الأمة كلها كما نفخر اليوم بأولئك الرجال العظماء من أبطال ثورة العشرين.

وبعد انتهاء العام السادس للاحتلال فإن المقاومة حققت إعجازاً عظيماً في حجم الخسائر التي كبدتها لقوات الاحتلال، واستخدمت استراتيجية الرعب بكل تفاصيلها وأصبح يخيل للجندي الأمريكي وهو يمشي على الأرض أن كل ذرة تراب من أرض العراق قنبلة ستنفجر عليه، وفي المقابل فإن المقاومة اليوم بحاجة إلى سلاح معنوي يساند سلاح المقاوم على الأرض ويديم زخم المعركة ويجعل البطل الذي يقاتل الاحتلال يشعر إن الأمة كلها وراءه بما تملك وإن مصير الأمة ومستقبلها وتاريخها مرهون بثباته على الأرض وبمطاولته وصبره وجلده، إن السلاح الساند الذي نحتاجه اليوم أكثر من قبل هو إشاعة روح المقاومة أو ثقافة المقاومة بين أبناء الوطن.

ولذا يمكننا تعريف ثقافة المقاومة بأنها مجموعة العوامل الدينية والمعنوية التي تزرع الثبات في النفوس وتدفعها للبذل والعطاء وتقديم النفوس والأموال من أجل مقاومة الاحتلال واستمرارها حتى يخرج آخر جندي من جنود الاحتلال وتنبذ مبدأ الانهزام والاستسلام والمهادنة.

التاريخ يعيد نفسه على أرض الرافدين ولكن لا ندري ما الذي أعمى عيون الغزاة وطمس على بصيرتهم وذهب بهم بعيداً عن تاريخ العراق، ألم يخبرهم حلفاؤهم البريطانيون عن أبطال العراق وهم يقارعون جنود الاحتلال البريطاني بالفالة والمكوار حين حولوا العراق إلى جحيم مستعر ونار متقدة تحت أقدامهم لم يخلصهم منها إلا اللجوء إلى حامياتهم، إن الذي يستقرأ تاريخ العراق يرى إنه شعب لا يقبل الضيم ولا ينام على الذل وإن مقاومة المحتل هي زاده عندما تطأ أقدام جنود الغزاة أرض الوطن، وفي هذه الأوراق سنقلّب بعضاً من صفحات تاريخ العراق المشرقة التي سطّر فيها الأجداد أروع الملاحم والبطولات ستظل على مدى التأريخ سفراً خالداً يستلهم منه الأحفاد كل معاني البطولة والإباء والعزة والكرامة ويتعلموا منه رفض الأجنبي الذي جاء ينهب خيرات البلاد ويقتل ويشرد العباد.

ثورة العشرين

وهي الثورة الأولى في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى وومضة مضيئة في تاريخ العراق الحديث وسفر من أسفار شعب الرافدين التي تعبر عن عظمته ووطنيته ولحمته، انطلقت شرارتها الأولى عندما اعتقل البريطانيون الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم، قام الثوار على أثرها باقتحام السجن وإطلاق سراحه واندلاع الشرارة الأولى للثورة ليشترك بعدها عشيرة الفتلة وتنتقل الثورة إلى مدينة العمارة والناصرية ثم إلى النجف وكربلاء.

أما ملحمة ثورة العشرين في أبي غريب، فقد اندلعت إثر مواجهة بين الشيخ ضاري المحمود شيخ عشيرة زوبع وبين أحد كبار ضباط الاحتلال البريطاني هو الكولونيل لجمان، حين وجه الشيخ ضاري المحمود له ضربة

سيف أطاحت بعنقه ليقطع الثوار بعدها خطوط الإمداد التي تأتي من الغرب، استطاعوا فيها تكبيد جيش الاحتلال خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات وقطع خطوط الإمداد وتدمير بعض خطوط سكك الحديد التي يستخدمها الاحتلال لنقل الجنود والعتاد لتعزيز قواته في المناطق التي اندلعت فيها الثورة والاستيلاء على الكثير من الأسلحة والذخيرة التي ساعدت الثوار في إطالة أمد القتال وفي الكوفة استطاع الثوار أن يغنموا مدفعاً أغرقوا فيه إحدى السفن البريطانية.

تبين ثورة العشرين وعي الشعب العراقي من خلال تكاتف عشائر العراق والتفافها حول شيوخها الذين كانوا قادة للثورة ما أكسبها بعداً وطنياً كبيراً اشتركت فيه كافة مكونات الشعب العراقي، وبعد أسابيع من اندلاع الثورة سيطر الثوار على أغلب المدن وانسحب جنود الاحتلال إلى حامياتهم ليحتموا بها من ضربات الثوار التي كبدتهم خسائر كبيرة وزرعت فيهم الرعب والخوف مما اضطر البريطانيين إلى استقدام قوات أخرى من الهند عن طريق البصرة والأردن لكي يعززوا موقفهم لجأ البريطانيون بعدها إلى القيام بحملات عسكرية قاسية والتضييق على الناس بحرق محاصيلهم الزراعية وهدم بيوتهم لإجبارهم على الاستسلام وإلقاء السلاح، وبعد انتهاء الثورة عقد الاحتلال مؤتمراً في الأردن اتخذ على أثره قراراً تخلى بموجبه عن الإدارة الفعلية للعراق إلى حكومة من العراقيين.

دور العلماء في ثورة العشرين

كان لعلماء الدين دور بارز في حشد الناس وتشجيعهم للانضمام إلى الثوار الذين بدأوا الثورة في جنوب العراق وشماله وقد شارك عدد كبير من علماء العراق من شماله إلى جنوبه في مد وقود هذه الثورة في خطب الجمعة

والتجمعات الدينية، وكانت من أشهرها في الجنوب الخطبة التي ألقاها الشيخ محمد الخالصي في كربلاء، وهذه مقتطفات منها:

(أستعيذ بالله أن أقول ما قالته بريطانيا بأن العراق يحتاج إلى قيّم وولي ووليه وقيمه بريطانيا، هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لا ترى غيرها في العالم، وتحسب صنوف البشر عبيداً أرقاء أذلاء لا يملكون لأنفسهم تجاه بريطانيا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة.

وأنتم واقفون بين بريطانيا وخالقها، خالقها يصفكم بصفة الأعلون، والمخلوق يصفكم بصفة الأدنون، فإن قبلتم صفة المخلوقين ذللتم وخزيتم وأصابتكم الدناءة واشتريتم بعد ذلك مرضاة المخلوق بسخط الخالق، وإن قبلتم صفة الخالق ذل لكم المخلوق، وإن من كان لله كان الله له، وعشتم أعزاء أعلون في بلادكم ولا يصيبكم حزن ولا وهن، وشرط ذلك خلوص الإيمان، كما شرط الله عليكم عدم الرضوخ إلى نزعات الشيطان الذي يخوف أولياءه {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} يعرج بكم إلى أوج السعادة ومنتهى درجات العزة، ومتابعة الشيطان تهوي بكم إلى الحضيض وأسفل دركات الذل، إن تابعتم بريطانيا وعشتم أذلاء في بلادكم).

اشتد الحماس بالحاضرين وكثر البكاء بينهم وعلت الضجة و قطع رؤساء العشائر رباط عقالهم بسيوفهم إيذانا بأنهم مستميتون في سبيل الدفاع عن العراق، ثم انفض الاجتماع والرؤساء مستعدون جميعاً للحرب عازمون على الموت في سبيل حفظ حقوق العراق.

دور الشعراء والأدباء في ثورة العشرين

كان للشعراء دور كبير في إلهاب حماسة الناس ودفعهم للالتحاق بالثوار، وكان الشعر وقوداً أجج الحماس ضد الاحتلال البريطاني الذي هيمن على

مقدرات الوطن وبذل الشعراء جهوداً كبيرة لتهييج الرأي العام ضد الاحتلال من خلال المساجد وأيام المناسبات.

ومن الملاحظ أن مدينة بغداد كانت قد تزعمت حركة الثورة بداية لكنها لم تستطع أن تقوم بعمل عسكري لأنها كانت تحت السيطرة البريطانية مباشرة، إلا أن الثورة استمرت في مناطق أخرى، واتفق الشعراء على الهدف في المطالبة بإنهاء حكم الإنكليز والمطالبة بحكومة استقلال، وحرضوا على ذلك فهذا محمد حبيب العبيدي يقول:

لم تكن يا ابن لندنٍ علوياً

هاشمياً ولم تكن قرشياً

لا ولا مسلماً ولا عربياً

من بني قومنا ولا شرقياً

فلماذا تكون فينا وصياً

إن رضينا بالأجنبي وصياً

إنما نحن في الحروب رجال

وكماة يوم الوغى أبطال

يا لقومي فلتنتج الأعمال

يا بني العرب خابت الآمال

ولقد كان أشهر شعراء الثورة العراقية محمد مهدي البصير بحماسته ضد الإنكليز محرضاً الشعب قائلاً له:

أفيطلبون لك الرعاية ضلة

ما كان أقصرهم وما أصحاكا

ولو أنصفوك لحرروك لأنهم

ربحوا قضيتهم بظل لواكا

والشاعر القشطيني بقصيدته التي يدعو إلى الموت في سبيل الأوطان:

يا أيها العربي قم

واقدح زنادك ينقدح

وافتح طريقك بالظبى

فبغيرها لا ينصلح

وخذ الحقوق جميعها

أو مت عزيزاً واسترح

وانبرى الشاعر محمد الباقر الحلي يحذر من الركون إلى وعود الإنكليز وضرب أمثلة مما قاموا به في مصر والهند:

يريدون منكم بالوعود مكيدة

ويبغون إن حانت لهم فرصة غدراً

فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا

أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا

ومن مات دون الحق والحق واضح

إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وعلى الفور قام الشيخ محمد العبطان وسل سيفه وقال: إنا قطعنا على أنفسنا عهداً، إما الموت أو الاستقلال التام.

وخلد الشاعر محمد الجواهري معركة الرارنجية التي انتصر فيها الثوار وأحرقوا فيها قطارين للبريطانيين

وللفرات نهضة

مشهودة لا تجحد

بفتية على المنى

أو المنايا احتشدوا

وللقطار وقعة

منها تفر الكبد

ما تركوا حتى الحديد

سلسلوا وقيدوا

دور المقاهي في بث روح المقاومة

استمرت المقاومة الوطنية للعراقيين ومظاهراتهم ضد الهيمنة البريطانية والحكومات المرتبطة بالاستعمار الأجنبي طوال عقود العشرينات والثلاثينات والأربعينات حتى قيام الثورة عام ١٩٥٨م، وكان شارع الرشيد ومقاهي منطقة (الحيدر خانة) تحديداً، البؤرة التي تنطلق منها تجمعات المثقفين والسياسيين ومظاهراتهم المعارضة للاستعمار البريطاني.

ولعل من أبرز الشخصيات الثقافية التي غذت الحماس الوطني وألهبته مع بدء ثورة العشرين في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م الشاعر والخطيب المعروف محمد مهدي البصير، وفي الثلاثينات شهد شارع "الحيدرخانة" نفسه ومقهى "عارف آغا" عدداً من الاحتفالات التي كان يحييها الشاعر معروف الرصافي، لتتحول إلى مظاهرات تخرج من المقهى لتنضم إلى الحشود، يشترك فيها عدد من أبرز الوجوه الوطنية والثقافية في العراق.

وشبيه بهذه الاحتفالات ما كان يقوم به شاعر العراق محمد مهدي الجواهري وهو خارج من "مقهى حسن عجمي" أو مقهى "البرلمان"، ليلقي قصائده العصماء التي تجر وراءها مظاهرات تبدأ ولا تنتهي، إن هذه المقاهي هي نفسها التي شهدت انطلاقة التظاهرة الكبيرة منها عام ١٩٤٨م لتسقط حكومة صالح جبر، ملغية المعاهدة البغيضة المعروفة بمعاهدة "جبر بيفن" المبرمة بين العراق وبريطانيا.

ثورة رشيد عالي الكيلاني

تمثل هذه الثورة دلالة واضحة على وطنية الشعب العراقي ومقاومته لكل مظاهر التبعية للاستعمار، وتختلف عن سابقتها ثورة العشرين التي كانت عبارة عن ثورة شعبية عارمة قامت بها عشائر العراق وامتدت من جنوب العراق إلى وسطه وشماله في كونها ثورة اشترك فيها كل فئات الشعب العراقي من برلمانيين أدت ثورتهم إلى إحداث تغيير دستوري وإسقاط حكومة كانت تابعة لبريطانيا وتعيين وصي جديد للعرش وضباط أحرار ساندوا التغيير الوزاري لصالح الثورة وصحفيي وشعراء العراق إضافة إلى عشائره في البصرة والفلوجة وبغداد.

كان السبب الرئيس لقيام الثورة استجابة حكومة نوري سعيد والوصي لمطالب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية والتي تتعدى التزامات العراق الموقع عليها في معاهدة ١٩٣٠م، إذ طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات عسكرية للجيش البريطاني وقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا وإيطاليا واعتقال الرعايا والدبلوماسيين لكلا الدولتين وتجميد الأموال العائدة لهما في العراق، قوبلت هذه المطالب برفض شديد من القوى الوطنية في البرلمان والجيش العراقي المتمثلة برشيد عالي الكيلاني الذي كان يشغل منصب رئيس الديوان الملكي ورئيس أركان الجيش حسن فوزي والمربع الذهبي المتمثل بالضباط الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سليمان، أدى ازدياد الغضب الشعبي وتفاقم الأزمة السياسية إلى استقالة حكومة نوري سعيد ولجوء الوصي عبد الإله إلى إسناد مهمة تشكيل وزارة جديدة إلى السيد رشيد عالي الكيلاني سميت بحكومة الإنقاذ الوطني.

ومع تطور العمليات العسكرية في أوروبا والهزائم التي مني بها الحلفاء عامي ١٩٤٠م و١٩٤١م واحتلال ألمانيا لفرنسا ودخول إيطاليا الحرب مع ألمانيا، تعالت الصيحات المطالبة بإنهاء الوجود البريطاني في العراق وإلغاء معاهدة ١٩٣٠م، وتوالت الضغوط السياسية على حكومة الكيلاني المنادية بضرورة التحالف الاستراتيجي مع دول المحور لتحقيق تلك المطالب، إلا أن الكيلاني من جهته كان مدركاً لخطورة القوات البريطانية التي لا يستهان بها في العراق على الرغم من الهزائم التي منوا بها في جبهات أوروبا، فكان لزاماً عليه اتباع سياسة عدم انحياز مدروسة والتي دعا لها، في الوقت الذي وجد نفسه محاطاً بمؤيدين متطوعين من المتعاطفين مع المحور أهمهم مجموعة المربع الذهبي والتي كانت تحوز على تعاطف القوات المسلحة، من قادة وآمرين وقطعات مختلفة، وشيئاً فشيئاً تعاظمت مطالب القوى الوطنية التي رأت في الكيلاني الملاذ لتخليصها من الهيمنة البريطانية فدفعته لاتخاذ مواقف أكثر حزماً بالوقوف ضد المطالب البريطانية التي حددتها المعاهدة في أوقات الحرب.

حاولت بريطانيا جس نبض الحكومة وذلك بمطالبتها الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات باستخدام القطارات والمطارات العراقية لتسهيل مهمات القوات البريطانية، قوبلت هذه الطلبات برفض الحكومة العراقية التي حاولت استغلال ضعف الموقف البريطاني للتخلص من التبعية لبريطانيا، طالبت بريطانيا بعدها وضباطها الموجودون في القواعد العسكرية باستقالة حكومة رشيد عالي الكيلاني وتدخل الوصي لحل المشكلة وطالب باستقالة الحكومة وتشكيل حكومة جديدة برئاسة حليفه نوري سعيد، شكلت هذه المطالب تحدياً سافراً للكيلاني بحيث تعد استجابة الكيلاني لهذه المطالب استسلاماً لبريطانيا.

دور الجيش العراقي في الثورة

كان للجيش العراقي دوراً وطنياً كبيراً في مساندة الثـورة مـن البدايـة بمؤازرته للقوى الوطنية في البرلمان وقيامه بمحاصرة القوات البريطانية فـي قاعدة الحبانية لصد أي هجوم تقوم به على بغداد من أجل إعادة احتلال بغداد وإعادة تنصيب حكومة نوري سعيد التي لجأت إلى الأردن وتنصيب الوصـي عبد الإله الذي فرّ إلى القاعدة البريطانية في البصرة قبـل الثـورة، خـاض الجيش العراقي معارك باسلة في منطقة الحبانية والفلوجة ولكن التفوق الكبير للجيش البريطاني ووصول قوات إضافية من الأردن أديا إلى تعزيز الموقـف لصالح القوات البريطانية ما أدى إلى نهاية الحرب لصالح بريطانيا.

الدور الشعبي لمساندة الثورة

لم تكد تبدأ حكومة الدفاع الوطني حتى أجمع العراقيون على تأييدها، وقد تمثل ذلك التأييد ببرقيات التهنئة المرسلة من قبلهم تعبيراً عن موقفهم المؤيـد لها، وكانت الحماسة شديدة لتـأييدها بين أوساط الطبقة المثقفة وخاصة بـين منتسبي المعارف من موظفين ومدرسين وطلاب لأنهم كانوا على درجة عالية من الوعي وأدركوا وطنية هذه الحكومة والغاية من قيامها، وقد تجـسد هـذا التأييد بخروج فتوة المدارس باستعراض منظم وساروا في الشوارع الرئيـسة معبرين عن فرحتهم بقيام الحكومة الجديدة، وكانت النـساء الواقفـات علـى شرفات المنازل يقبلن ذلك بالزغاريد والهتاف، كذلك أعلنت معظم العشائر في العراق عن موقفها الصريح في تأييد حكومة الدفاع الـوطني، ولمـا أعلنـت بريطانيا الحرب على العراق في الثاني من آذار/ مارس استعدت تلك العشائر للمشاركة في الدفاع والتصدي للبريطانيين خاصة بعد الفتاوى التـي أطلقهـا علماء الدين للجهاد.

دور المرأة العراقية في ثورة آذار/ مارس

لقد كانت البصرة والفلوجة ساحة المعركة المتوقعة بين الجيش العراقي والقوات البريطانية، لذلك كان لأهالي هاتين المنطقتين وقفة مشرفة في تقديم كل أنواع العون والمساعدة للجيش العراقي، أما في الفلوجة فقد شاركت العشائر في القتال جنباً إلى جنب مع الجيش العراقي فيما تقوم النساء متطوعات بإعداد الطعام للجيش بعد اندلاع الحرب واضطرار الجيش للانسحاب إلى الخلف، كما كان للمرأة البصرية دور متميز في دعم حكومة الدفاع الوطني، فقد قدمت بعض النسوة الدعم المادي والمعنوي للثورة، ولعل أبرز من عبّر عن موقف المرأة المثقفة في ذلك الوقت السيدة "نبيهة اسماعيل" التي كانت مديرة لمتوسطة البصرة للبنات حيث ألقت خطبة في ١ آذار/ مارس عام ١٩٤١م بمناسبة تحية العلم العراقي عنوانها (واجب المرأة العراقية اتجاه الوطن العزيز)، وكانت بمثابة نداء ثوري موجه إلى المرأة العراقية يدعوها لتلبية صوت الوطن، ولعل أبرز ما ورد في خطبتها قولها: "لقد حفزني حب الوطن المتغلغل في نفسي وروحي القومية والشيمة العربية التي جبلنا عليها أن أنادي أخواتي وبناتي بأنه قد آن الأوان ودنت الساعة الرهيبة التي ستظهر فيها بطولتنا، فالواجب يحتّم على الفتاة العراقية أن تقف جنب أخيها في ساحات الوغى كما وقفت جداتها بين مشتجر الفناء وتحت ظلال السيوف".

وبعد أن استعرضت البطولات الفذة التي قدمتها بعض النسوة العربيات اللائي يفخر بتدوينها تاريخنا العربي الإسلامي وقالت: " أخواتي وبناتي، لكل الشعوب الأبية مواقف عرفت بها وأثرت عنها فكانت مهبط الشرف من حياتها ومعقد الفخر من سيرتها، وليس موقف أمثال هذه الشعوب أملأ للقلب وأملك للنفس وآثر في التأريخ من موقف شعبنا العراقي النبيل الذي برهنّا فيه

وسنبرهن لأصحاب السياسة الغاشمة والأمم الخائنة لعهودها ولمن وراءهم ومن يواليهم بأننا سنقف في وجههم شباناً وكهولاً ونساءً فنردهم على أعقابهم.

دور الشعراء في ثورة آذار/ مارس

كان لشعراء العراق الدور البارز في تعبئة الشعب للوقوف مع الثورة ومطالبة القوى الوطنية في الحكومة والجيش العراقي بمزيد من الثبات والصمود من أجل نيل الاستقلال والتخلص من التبعية لبريطانيا، ومن أبرز شعراء الثورة السيد عزيز علي والشاعر أحمد صافي النجفي ومعروف الرصافي الذي خلد معركة الفلوجة بقصيدة وهذا جزء منها:

أيها الإنكليز لن نتناسى
بغيكم في مساكن الفلوجة

ذاك بغي لن يشفي الله إلا
بالمواضي جريحه وشجيجه

هو خطب أبكى العراقيين
والشام وركن البنية المحجوجة

حلها جيشكم يريد انتقاماً
وهو مغر بالساكنين علوجه

فاستهانت بالمسلمين سفاهاً
واتخذتم من اليهود وليجة

وطن عشت فيه غير سعيد
يعش حراً يأبى على الدهر عوجه

أتمنى فيه السعادة لكن
ليس لي فيه ناقة منتوجه

كل يوم بعزّه أتغنىّ جاعلاً
ذكـــر عـــزّه أهزوجـــــــــــه
ما حياة الإنسان بالذل إلا
مـــرة عنـــد حَسْوِهـــا ممجوجه
فثناءً للرافديـــن وشكـــراً
وسلامـــاً عليـــك يـــا فلوجـــة

الغزو الأمريكي للعراق فى عام ٢٠٠٣م

بالرغم من فداحة الخطب وهول المصيبة التي أحاطت بالعراقيين من كل حدب وصوب وهم يرون دبابات الاحتلال تجوب شـــوارع بغـــداد عاصـــمة الرشيد وأسراب طائراتهم وهي تستبيح سماء العراق، فإن أبناء الرافـــدين لـــم يقفوا مكتوفي الأيدي وهم يرون التاريخ اســـتدار إلـــى الـــوراء دورة كاملـــة ليذكرهم بالقائد البريطاني مود الذي خاطبهم بأنه جـــاء فاتحـــاً فعـــادت بهـــم ذاكرتهم إلى أولئك الأجداد العظام الذين قـــاتلوا المـــدفع البريطـــاني بالفالـــة والمكوار لتبقى أهزوجتهم "الطوب أحسن لو مكواري" مخزونة فـــي ذاكـــرة التاريخ يسترجعونها متى ما دار التاريخ دورته وعادت جيوش الغـــزاة لتطـــأ أرض الرافدين من جديد.

الشعب العراقي إبان الاحتلال

عند بداية الغزو وتصعيد العمليات العسكرية التي كان الهدف منها احتلال العراق وتدمير البنية التحتية للدولة العراقية، لم يكن الغزو يـــستهدف تغييـــر حكومة أو إزالة نظام حكم بل كان هدفه احتلال العراق وتجزئته إلى دويلات على أساس طائفي أو عرقي، ومع بداية الغزو نرى أن شعب الرافدين ســـلك

سلوكاً عظيماً ينم عن أصالته ووعيه الوطني يتمثل في الأعمال التي قام بها العراقيون أثناء المعركة والتي كان من أهمها:

مع تصعيد العمليات العسكرية واشتداد قسوتها حدثت هجرة جماعية من بغداد إلى بقية المحافظات القريبة منها حتى خلت بغداد من معظم سكانها، استقبلهم أخوتهم في المحافظات المجاورة وفتحوا لهم أبوابهم وأسكنوهم معهم وتقاسموا معهم الحياة طيلة تلك الفترة حتى تمّ إعلان توقف العمليات العسكرية وبداية رجوع سكان بغداد إليها، حتى أن علماء الدين تعجبوا من لحمة العراقيين وتراحمهم فيما بينهم وطيبة قلوبهم فأطلقوا عبارة جميلة "لقد أرجعتم فينا كرم الأنصار وأخوتهم للمهاجرين".

مع غياب مؤسسات الدولة فإن كل منطقة عقدت مؤتمراً من علماء الدين ووجهاء العشائر وبعض المسؤولين لتكوين لجنة تتولى مهمة إدارة المدينة والمحافظة على الدوائر التابعة إليها وحفظ الأمن وحقوق الناس فيها.

كثرة المظاهرات التي انطلقت تجوب شوارع العراق مطالبة الاحتلال بالرحيل عن أرض العراق ومعبرة عن اللحمة الوطنية للشعب العراقي، انطلق البعض منها من مسجد أبي حنيفة النعمان بعد صلاة الجمعة يقودها علماء الدين من السنة والشيعة معبرين للاحتلال بأن أبناء العراق لا يمكن تفريقهم على أساس الدين والعرق يرددون الأهزوجة التي تعبر عن وحدة أرض وشعب العراق "أخوان سنة وشيعة هذا البلد ما نبيعه".

هيئة علماء المسلمين

بعد أيام من احتلال بغداد اجتمع نفر من علماء العراق ومفكريه للنظر في المستجدات الخطيرة التي طرأت على البلاد، ومن ثم اتخذوا قراراً بتأسيس هيئة شرعية عرفت فيما بعد بهيئة علماء المسلمين، واستجابة للضرورة

الواقعية تفرع عن الهيئة فروعاً أخرى في أغلب مدن العراق، ولكــل فــرع مكاتب تعمل على خدمة الناس في المجال الذي تبنته الهيئة كما أنها ســاعدت في المجالات الأخرى التي رأت فيها مصلحة للبلد وأهله، وكــان مــن أهــم الأعمال التي قامت بها الهيئة معالجة الخلل الذي طــال منظومــة المــساجد بسبب انهيار المؤسسات التي كانت تديرها والعمل علــى تهدئــة الأوضــاع الداخلية بين مكونات الشعب العراقي والحيلولة دون وقوع فتنــة طائفيــة أو عرقية أو دينية.

الاستعداد للمقاومة مع بداية المعركة ودخول القوات الأمريكية بغداد

مع انطلاق أول صاروخ على أرض بغداد الحبيبة، بدأت تحركات أســود الرافدين يجوبون أرض العراق يجمعون الأسلحة المختلفة وتخزينها اســتعداداً منهم لبداية المعركة التي لم تكن في حسبان الاحــتلال، فتحولــت صــحراء العراق وبساتينه ومزارعه إلى مخازن للسلاح والعتاد متحدين بذلك الاحتلال وقواته ووعيده ومعتقلاته، ورغم كل إجراءات الاحتلال من اعتقــال وهــدم البيوت وتجريف البساتين لمن يشتبه به تقديم المــساعدة للمجاهــدين، إلا أن شعب العراق ازداد ثباتاً وشموخاً وســجل التــاريخ كلمــات خالــدة لــبعض العراقيين وهو يرى بيته يهدم وعائلته تقتل جراء القصف الوحشي الأمريكــي فلا يزيد على قول كلمة "كلنا فداء للدين والوطن".

بداية العمليات العسكرية ضد الاحتلال

لم يشهد التاريخ مثيلاً للمقاومة العراقية في سرعة نشوئها بعد الاحــتلال وحجم الخسائر التي كبدتها لقواته بعد أربعــة أشــهر مــن دخــول القــوات الأمريكية أرض بغداد، انطلقت صولات المجاهدين وعلت صيحات الله أكبــر

من حناجرهم مدوية في سماء العراق معلنة بداية المنازلة مع قوات الاحتلال، وما أن نُفذت أول عملية ضد الاحتلال حتى توالت البطولات تترا في أرض الرافدين، واستحالت الأرض لهيباً تحت أقدامهم وتحول العراق جحيماً تلظى من حولهم، لقد أذهل مجاهدو العراق العالم كله بنوعية العمليات التي نفذوها والتي تمكنوا من خلالها من إسقاط طائرات الاحتلال وتدمير دباباته وعجلاته، في بداية العمليات استطاع المجاهدون من إسقاط طائرة مروحية في الفلوجة ثم إسقاط طائرة (C-130) غربي الفلوجة وإسقاط طائرة أخرى في منطقة الضلوعية، وتعد معركة الفلوجة الأولى هي ملحمة الجهاد في العراق حيث تورط الاحتلال في عملية عسكرية داخل الفلوجة ثأراً لبعض منتسبي الشركات الأمنية ثم تحولت ردود الفعل على هذه العملية إلى ثورة شعبية اشترك فيها كل المجاهدين وعشائر العراق تم فيها إسقاط ما يقارب من عشرين طائرة وقطع خطوط الإمداد عن القوات الأمريكية بحيث تعذر عليهم إيصال المؤن والغذاء لقواتهم في القواعد والمعسكرات فضلاً عن القوات التي تتواجد على مشارف الفلوجة، مما اضطر الاحتلال إلى إيقاف القتال ودخوله في مفاوضات مع مدينة الفلوجة وقبوله بدفع تعويضات للأضرار التي سببها القصف الأمريكي للمدينة.

هذا فضلاً عن قيام أغلب مدن العراق القريبة من الفلوجة بإرسال قافلات من السيارات محملة بالمواد الغذائية والأدوية وبقائهم أياماً على مداخل الفلوجة من أجل إدخالها إلى المقاومين في الداخل، فضلاً عن المظاهرات التي انطلقت في كثير من المدن العراقية منددة بالعملية العسكرية التي تقوم بها قوات الاحتلال في المدينة ومعبرة عن حق العراقيين في الدفاع عن وطنهم.

العراقيون والمعتقلات الأمريكية

مع بداية الاحتلال قامت القوات الأمريكية بإنشاء معتقلات عدة أودعت فيها من ترى فيه أي خطورة على قواتها أو من يشتبه به بالقيام بأعمال ضد قوات الاحتلال، ورغم كل الظروف الصعبة التي عاشها المعتقلون والظروف الصحية والإنسانية الصعبة التي عاشها المعتقلون والانتهاكات الكبيرة التي قامت بها قوات الاحتلال لحقوق الإنسان في داخل المعتقلات وتعرضهم لحالات من التعذيب الجسدي والاعتداءات اللاأخلاقية، إلا أن ذلك لم يثن العراقيون من مقاومة الاحتلال، استطاع العراقيون داخل السجون من تحويلها إلى مدارس الغاية منها إعداد المجاهدين وتعليمهم القرآن والفنون القتالية واستخدام الأسلحة وتبادل الخبرات والمعلومات، وشهدت المعتقلات الكثير من الفعاليات التي تدل على عظمة شعب الرافدين ووعيه الوطني وتمسكه بإسلامه وعروبته إضافة إلى عقد الأمسيات والندوات التي يتخللها محاضرات وإلقاء القصائد والمواعظ التي تهون على المعتقلين ما هم فيه من الضيق وتعدهم وتشجعهم على مواصلة المقاومة والجهاد عند الخروج من المعتقل، وشهدت المعتقلات الكثير من العراقيين الذين تم اعتقالهم للمرة الثانية والثالثة ولم يثنهم الاعتقال وظروفه الصعبة عن مواصلة المسيرة.

تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية والمنظور الإسلامي لها..

عبد الستار أحمد[1]

إن ما جرى ويجري على الساحة الاقتصادية العالمية من تداعيات منطقية وواقعية هي في حقيقتها نتيجة لأزمة مالية من العيار الثقيل لم تستثنِ أيًّا من دول العالم وتستحق بجدارة أن توصف بكونها كارثة القرن الجديد، وإن هذا الحدث يستحق أن يكون حدث الساعة وحدث الإعلام المرئي والمسموع والمقروء وبلا منازع، وإن نتائج هذه الأزمة لم تكن بحسابات الورقة والقلم فحسب بل يشعر المتتبع أن هناك يداً تمتلك القوة المطلقة أوصلت هذه الأزمة لهذه الدرجة، ومن الملفت للنظر أن تتصدر وسائل الإعلام وبكل أنواعها أحداث أو أخبار لا تقارن أهميتها بأهمية الأزمة المالية العالمية التي هي بمثابة المصيبة التي ستأخذ بيد العالم المتقدم والمتأخر على حد سواء إلى الهاوية.

---

[1] رئيس قسم التطوير في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

وما يلفت النظر ذلك التكتم الإعلامي الشديد من قبل القوى العالمية المسيطرة على معظم وسائل الإعلام العالمية على هذا الحدث الجلل، وبطبيعة الحال فإن هذا التكتم لم يكن عفوياً بل كان مبيتاً ومع سبق الإصرار، والأمر لم يكن بالجديد فقد سبق وأن تكتمت تلك المؤسسات على ما حصل من ضربات تعد قاصمة للاقتصاد الأمريكي وبالتحديد بعد عام ٢٠٠٠م وصعوداً، ففي الفترة من ١١/ أيلول ٢٠٠١م وحتى ١١/ أيلول ٢٠٠٢م انهارت وأفلست مجموعة كبيرة من الشركات الأمريكية، قدرت بـ (٦٠) ألف شركة وقد تمّ تسريح ما لا يقل (١٤٠) ألف عامل أمريكي في تلك الفترة (وفقاً لتقرير صحيفة " وول ستريت جورنال"..

هذا بالإضافة إلى حالات الإفلاس[١] على المستوى الشخصي والتي سجلت في نفس الفترة رقماً قياسياً للإفلاس بلغ (٣٩١) ألف حالة إفلاس وبخسائر تصل إلى (٨،٦) تريليون دولار وذلك وفقاً لمعطيات لاتحاد أسواق المال الدولي.. وهنا نبين بعض ما جرى من كوارث حلت بالاقتصاد

---

[١] الإفلاس: هو أن تعلن المؤسسة أنها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها أمام الدائنين، وحينها تقوم الشركة بتصفية كل أملاكها وحساباتها البنكية لتسدد أكبر قدر ممكن من هذه الالتزامات ثم تخرج من سوق العمل، وعادة يحدث الإفلاس نتيجة قيام الشركات بالاقتراض لعدم توافر السيولة الكافية مع الأخذ في الحسبان إمكانية تسديد هذه الالتزامات في موعدها المحدد عندما تبدأ مرحلة جني عائد المبيعات، ولكن يحدث تغيير في الخطة أو لا يكون العائد المتوقع كافياً بحيث يغطي الالتزامات، فتضطر الشركة إلى تصفية بعض أملاكها لتسديد الالتزامات، فان لم تكف قيمة الأملاك حجم الالتزام مع الآخرين، تعلن الشركة إفلاسها، وأحياناً قد يحدث الإفلاس نتيجة التزوير في حسابات الشركة لإخفاء الخسائر، حيث تسجل الشركة في حساباتها أرباحاً وهمية لتخفي حقيقة أنها تخسر، وذلك حتى لا تسقط أسهمها في البورصة وبالتالي تنخفض قيمة الشركة، ولكن ذلك يؤدي في النهاية إلى فقدان الشركة لرأس مالها شيئاً فشيئاً بدون أن يظهر ذلك على السطح، ثم يحدث فجأة الإفلاس السريع، حيث تجد الشركة نفسها مدينة بالكثير من المال لحملة الأسهم وتكون غير قادرة على تسديده فتفلس.

الأمريكي بعد عام ٢٠٠٠م ولغاية الإعلان الرسمي عن الأزمة المالية العالمية المتفشية هذه الأيام:

في عام ٢٠٠١م سجلت شركة "يو أس أيرويز" طلباً لإشهار الإفلاس علماً أن أصولها تقدر بنحو (٧،٨١) مليار دولار مقابل ديون بلغت قيمتها (٧،٨٣) مليار دولار.. وهذه الشركة هي سابع شركة طيران أمريكية، كما أنها تشغل المكانة رقم (١٤) في قائمة كبرى شركات الطيران العالمية وتخدم أكثر من (٢٠٠) موقع داخل الولايات المتحدة وتنظم رحلات جوية للمكسيك وكندا ودول منطقة الكاريبي واعترف مسؤول الشركة بأن خسائرها بلغت ملياراً ونصف مليار دولار في عام ٢٠٠١م..

في كانون الثاني عام ٢٠٠٢م أعلن إفلاس الشركة العملاقة الأمريكية المتحكمة في الطاقة (إنرون) والتي تربعت على عرشها في ولاية تكساس لتدير دفة النفط وما يتبع النفط من طاقة كهربائية هي عصب الصناعة الأمريكية بل الاقتصاد الأمريكي بشكل عام.. و"إنرون" هذه دأبت على تمويل الحملات الانتخابية الرئاسية والبرلمانية بصورة غير متوازنة بين الجمهوريين والديمقراطيين.

إن انهيار "إنرون" دمرت معها إمبراطورية رأسمالية ضخمة تراكمت عبر سبعين عاماً أودعها الأثرياء أموالهم جيلاً بعد جيل، ثقة منهم في مستقبل الطاقة ومستقبل الريادة الأمريكية في حقول نفط العالم، ولم تكن "إنرون" الوحيدة في هذا المصاب بل كانت معها شركات أمريكية عملاقة مثل "جلوبال كروسينج" و"زيروكس" و"أدلفيا كوميونيكيشن" و"باليجرين سيستمز" و"وورلد كوم"..

شهد عام ٢٠٠٢م توقف الكثير من شركات الطيران عن العمل، فقد توقفت شركة طيران أمريكية هي "ميد واي إير لاينز" عن العمل وسرحت

جميع موظفيها والتي تعد ثالث أكبر شركة طيران في العالم، وتوقع جوردون بيتون رئيس شركة كونتيننتال أن يفقد ما بين مائة ومئتي ألف موظف بشركات الطيران حول العالم وظائفهم بسبب الكارثة في ذلك الوقت وقد كانت خسائر قطاع النقل الجوي في الولايات المتحدة سبعة عشر مليار دولار في ٢٠٠١م..

في عام ٢٠٠٥م بلغت الديون الوطنية الأمريكية بحدود ثمانية تريليونات ومائة وثمانين ملياراً من الدولارات وقد أشهر أكثر من مليوني أمريكي ثري إفلاسهم في نفس العام..

وعلى الرغم من هذه الحوادث الجسام وغيرها حاولت الولايات المتحدة الأمريكية إظهار أن الموضوع لا يتعدى مشاكل اقتصادية اعتيادية، إلا أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق ولم يكن بإمكان أصحاب القرار التكتم على ما يجري من انهيار اقتصادي إلى ما لا نهاية، فقد أزف وقت الفضائح والإعلان عما يجري فقد تعقدت الأمور وبلغت مراحل متقدمة من السوء وظهرت ما يعرف بالأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م التي ظهرت تداعياتها بشكل صريح وواضح في الولايات المتحدة الأمريكية ثم بريطانيا ثم أوروبا ثم انتقلت لبقية بلدان العالم، وهنا اضطر بعض قادة العالم بل وتجرأ بعضهم في انتقاد الولايات المتحدة الأمريكية، فقد قال رئيس الوزراء البريطاني غوردون براون: "الاستهتار داخل الولايات المتحدة بالنظام المالي هو الذي أدى إلى أزمة الائتمان المالي التي يعاني منها العالم"، فقد انهارت أو أفلست شركات ومؤسسات في كل أنحاء العالم، في أمريكا وأوربا وأفريقيا وآسيا ومن تلك الشركات أو المؤسسات:

- بنك الأعمال الأميركي "بير ستيرنز" الذي يعاني من نقص السيولة، اشتراه بنك "جي بي مورغان تشيز" بمساعدة السلطات الفدرالية، وإن تدخل السلطات

الفدرالية في هذا الباب وحده يكفي لإعطاء إشارة إلى حجم الكارثة لأن ذلك يتناقض مع أصل الفكر الرأسمالي..

• المجموعة الأميركية "واشنطن ميوتشوال"، سادس بنك أميركي من حيث الأصول، أعلنت إفلاسها أيلول ٢٠٠٨م، وقد أغلقتها السلطات الأميركية ونظمت التحويل الفوري لودائعها إلى منافسها "جي. بي. مورغان تشيز" مقابل (١،٩) مليار دولار..

• تأميم المجموعة الأميركية العملاقة في مجال التأمين "أي آي جي" في أيلول ٢٠٠٨م لتفادي إفلاسها..

• اشترى "سيتي غروب" مصرف "واكوفيا" رابع بنك أميركي من حيث الأصول..

• بنك الأعمال الأميركي "ليمان براذرز" وضع في ٢٠٠٩م تحت حماية قانون الإفلاس قبل تصفيته، واشترى البنك البريطاني "باركليز" نشاطاته الأميركية، في حين اشترى البنك الياباني "نومورا هولدينغ" النشاطات في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط..

• وضعت وزارة الخزانة الأميركية "فاني ماك" و "فريدي ماك"، وهما هيئتان لإعادة تمويل التسليفات العقارية، تحت وصاية الدولة في ايلول ٢٠٠٨م.

• مشروع "سيتي سنتر في ولاية لاس فيغاس" البالغ حجم استثماراته (٨ مليارات دولار)، والذي تملكه "أم جي أم ميراج" و"دبي العالمية"، يطلب النصح بشأن إشهار الإفلاس..

• "الواشنطن بوست" من أشهر الصحف الأمريكية وهي جريدة أمريكية تصدر من العاصمة الأمريكية "واشنطن دي سي" تم تأسيسها عام ١٨٧٧م، أعلنت في آذار عام ٢٠٠٩م لأول مرة منذ إصدارها بتخفيض رواتب موظفيها وتسريح عدد كبير من الموظفين بسبب مشاكل في تسويقها وعزوف

أعداد كبيرة من المشتركين عن الشراء إضافة لمشاكل مالية عالقة مع البنوك بسبب الأزمة المالية.

- أعلنت شركة "جون لانغ هومز" الأمريكية المملوكة بالكامل لشركة "إعمار" الإماراتية إفلاسها مطلع ٢٠٠٩م، وتقدمت بطلب إلى الحكومة الأمريكية لحمايتها من الدائنين، بعد تراجع حاد في مبيعات الوحدات العقارية.
- أعلنت شركة "سيركت سيتي" إفلاسها في مطلع ٢٠٠٩م وشركة "سيركت سيتي" متخصصة ببيع المواد الألكترونية ولديها (٨٥٠) مجمع ضخم في كل أنحاء أمريكا ويبلغ حجم محلاتها مجتمعة أكبر من مساحة دولة صغيرة..
- البنك البريطاني "نورذرن روك" أول مصرف للتسليف العقاري في بريطانيا تؤممه الحكومة البريطانية في شباط ٢٠٠٨م.
- البنك البريطاني "اليانس آند لايسستر": أعلن في تموز ٢٠٠٨م أن بنك "سانتاندر" الإسباني يشتريه بقيمة (١,٣٣) مليار جنيه (١,٦٦ مليار يورو) فقط مع زيادة رأسماله بواقع مليار جنيه ما يعني إفلاس الأول.
- اشترى بنك "لويد تي أس بي" منافسه البريطاني "أتش بي أو أس"، رابع بنك في بريطانيا من حيث الرسملة في أيلول ٢٠٠٨م، كما تم تأميم البنك البريطاني "برادفورد أند بينغلي" وتصفيته في أيلول ٢٠٠٩م، وهو المؤسسة المالية البريطانية الرابعة التي تفقد استقلاليتها منذ بداية أزمة التسليف الدولية.
- أعلن البنك البريطاني "رويال بنك أوف سكوتلاند" الخميس عن تحقيق خسارة صافية بمبلغ (٣٤ مليار دولار) خلال عام ٢٠٠٨م، وهي أكبر خسارة في تاريخ البنوك والشركات البريطانية، كما أعلن البنك وهو ثاني أكبر البنوك البريطانية من حيث الحجم، إنه سيضع مبلغ (٤٦٢ مليار دولار) من الديون المعدومة والمشكوك في تحصيلها في صندوق خاص تضمنه الحكومة البريطانية، وحذر العاملين فيه من إمكانية الاستغناء عن عدد كبير

من الوظائف، وأوضح أنه سيقلص أنشطته التي تمتد إلى ٣٥ دولة، لتتركز أساساً على السوق المحلي، وكان "رويال بنك أوف اسكوتلاند" على وشك الانهيار خلال عام ٢٠٠٨م، واضطرت الحكومة البريطانية للتدخل لإنقاذه بشراء نحو ٧٠% من أسهمه.

• انهارت المجموعة المصرفية والتأمين البلجيكية الهولندية "فورتيس" في أيلول ٢٠٠٨م، حيث أعلن بنك "فورتيس" أن صافي خسائر فرعه بهولندا خلال عام ٢٠٠٨م بلغت (١٨,٩ مليار يورو أي ما يعادل ٢٤,٩٦ مليار دولار)، لكن السلطات في بلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا قررت ضخ ما مجموعه (١١,٢مليار يورو) لتمويل "فورتيس" مقابل حصص في رأسمال المؤسسة.

• في آيسلندا، أعلنت الحكومة في أيلول ٢٠٠٩م شراء (٧٥%) من رأسمال "غليتنير"، ثالث بنك في البلاد الذي يعاني من نقص السيولة، بقيمة (٦٠٠ مليون يورو).

• أفلت البنك الألماني الخاص "هيبو ريل إستيت" المتخصص في الشأن العقاري، من الإفلاس في أيلول ٢٠٠٨م بفضل فتح خط ائتمان بقيمة (٣٥ مليار يورو) بكفالة الدولة بصورة رئيسة.

• عانت شركات سيارات عالمية مختلفة وشهيرة جداً من تداعيات مالية كبيرة بسبب الأزمة اضطرتها إلى إعلان إفلاسها أو تأجيل ذلك لوقت قريب ومنها شركات "جنرال موتورز" و"كرايسلر" و"بونتياك" و"فورد" واضطرت الخزينة الأمريكية من دعم بعضها بتقديم مليارات الدولارات كقروض ميسرة لها مع منحها فرصة لوقت محدد كما حصل مع "جنرال موتورز" التي منحت حتى الأول من حزيران ٢٠٠٩م لاستكمال خطة لإعادة تنظيم نفسها أو إنها تقوم باستعدادات مكثفة ودؤوبة لإعلان الإفلاس ولكن هذا الإجراء أدى إلى نتائج

سلبية، حيث هبطت أسهم هذه الشركة بشكل كبير بسبب ذلك فتعقدت المشكلة أكثر، علماً إن "جنرال موتورز" سجلت خسائر قدرها (٣١ مليار دولار) عام ٢٠٠٨م وسرحت (٢١ ألف) موظف وخسرت (٦ مليارات) دولار خلال الربع الأول من عام ٢٠٠٩م، ورغم كل تلك الإجراءات الاحترازية أعلنت الشركة إفلاسها رسمياً في حزيران ٢٠٠٩م، كما أقرت أوروبا في مجال دعم صناعة السيارات قروضاً بقيمة (١،٢ مليار) دولار لدعم شركات صناعة السيارات المضطربة في أوروبا في ظل مخاوف من احتمالات إشهار إفلاس شركة "جنرال موتورز" بسبب عدم تحقيق تقدم في إعادة هيكلة الشركة المتعثرة.. وأما شركة "كرايسلر" الأمريكية لصناعة السيارات فقد أعلنت إفلاسها وقدمت الحكومة الأمريكية لها قرضاً بقيمة ثماني مليارات دولار هي المحاولة الأخيرة لإعادة هيكلتها، وقد توصلت "كرايسلر" وشركة "فيات" الإيطالية لصناعة السيارات إلى اتفاقية للاندماج بينهما بحيث تمتلك فيات (٢٠%) من أسهم "كرايسلر" ويمكن رفعها إلى (٣٥%) لاحقاً، وفي نفس السياق فإن شركة "فيات" الإيطالية الشهيرة لصناعة السيارات تركت في عام ٢٠٠٩م الباب مفتوحاً أمام إغلاق مصانع تابعة للشركة لظروف مالية قاسية تمر بها الشركة بسبب الأزمة المالية، وقال رئيس الشركة إنه لا يستبعد إمكان غلق مصانع في إيطاليا، ويعمل لدى شركة "فيات" (٧٨ ألف) شخص، وقد اضطرها تراجع المبيعات إلى تقليص رواتب الموظفين، أما شركة "تويوتا" اليابانية الشهيرة التي تعتبر أكبر منتج للسيارات في اليابان فقد أعلنت في آيار ٢٠٠٩م إنها سجلت أول خسارة سنوية في تاريخها حيث منيت في صافية بقيمة (٤،٤ مليارات) دولار..

• الشركات المفلسة في فرنسا خلال (١٢ شهراً) من إعلان الأزمة المالية العالمية (٥٣,٦٤٠ شركة) وهو أعلى مستوى في عشرة أعوام وأسرع وتيرة منذ عام ٢٠٠٢م.

• أعلنت حوالي (١,٠١٠) شركات يابانية إفلاسها قبل نهاية عام ٢٠٠٨م وقد اضطر هذه الشركات للقيام بهذه الخطوة لأسباب عدة على رأسها تأثرها بالأزمة الاقتصادية.

• في نيسان عام ٢٠٠٩م أعلنت اثنتان من كبرى شركات صناعة الإلكترونيات في العالم "توشيبا" و"سوني أريكسون"، عن خفض الآلاف من قواهما العاملة بتأثير الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أدت لانكماش حاد في سوق العمل بكافة أنحاء العالم.

نتائج الأزمة المالية

أما هذه التداعيات الكبيرة المتمثلة في أكبر عمليات الإفلاس والخسائر الهائلة لكبرى مؤسسات العالم الاقتصادي الرأسمالية فإن هناك كوارث مالية واقتصادية لا تطال مالكي هذه الشركات والمؤسسات فحسب وإنما قد طالت وللأسف الجماهير الكادحة وحين نراجع لبعض ما حصل من آثارها فإننا نجد:

• قال الرئيس الأمريكي المنتخب أوباما في أول ظهور صحفي رسمي وفي أول خطاب أن لديه (١٠ ملايين) عاطل عن العمل، وهي تركت الأزمة لعام ٢٠٠٨م إضافة إلى ذلك فإن مليوني أمريكي فقدوا وظائفهم في أول ثلاثة أشهر من عام ٢٠٠٩م، وقد أظهرت بيانات حكومية أمريكية أن أرباب الأعمال الأمريكيين خفضوا (٦٦٣ ألف) وظيفة خلال شهر واحد هو شهر آذار ٢٠٠٩م فقط، كما أكد المدير العام لمؤسسة "إنتر ميديا" في أيار ٢٠٠٩م

أن هناك حالياً (٢٨ مليون) عاطل بالولايات المتحدة منهم (١٣،٢ مليون عاطل) رسمياً إضافة إلى (١٤،٦ مليوناً) لا يدخلون في حساب العاطلين "لأسباب سياسية" لكنهم عاطلون بالفعل، وفي ذلك دليل واضح على أن الأزمة ماضية بقوة بالتأثير على الاقتصاد الأمريكي والعالمي دون هوادة كمسرى النار في الهشيم..

- خلال مرحلة ما قبل انهيار المصارف الأمريكية، حذّر المراقبون مراراً من أنّ الأسوأ من أزمة الائتمان لم يأت بعد، وبالفعل فقد ظهر ذلك مع تراجعات حادّة في بورصات العالم أدّت إلى خسائر قياسيّة، أمّا المرحلة الحاليّة، فتفترض بحث الخسائر الحقيقيّة التي ستولّدها الأزمة، وعلى رأسها ارتفاع معدّلات البطالة فمن المتوقع أن تصل معدلات البطالة إلى (٢١٠ ملايين عاطل) من العمل على مستوى العالم خلال عام ٢٠٠٩م..
- حذر رئيس البنك الدولي في نيسان ٢٠٠٩م من تعرض أكثر من (٩٠ مليون) إنسان في العالم للفقر هذا العام بسبب الأزمة العالمية، وإن أكثر من ثلثهم بشرق أوروبا وآسيا الوسطى، متوقعاً أن يصل عدد الجياع إلى مليار جائع على مستوى العالم..
- في مطلع ٢٠٠٩م تشير الإحصائيات الرسمية أن في بريطانيا بلغ عدد العاطلين عن العمل في المملكة المتحدة (٢،٠٠٣ مليون) شخص، أي ما نسبته (٦،٥%)..
- قال مكتب الموازنة بالكونغرس الأمريكي إن عجز الموازنة وخلال العام الحالي ٢٠٠٩م سيشهد قفزة عالية وقد يرتفع على إثرها إلى ما بين (١،٦٧ تريليون و١،٨٥ تريليون دولار) وهو أعلى عجز في تاريخ الولايات المتحدة.. ما يعني ذلك المزيد من الضرائب على المواطنين والقصور في الخدمات بشكل عام وتوقف المشاريع التنموية..

• خسر العالم (٥٠ تريليون) دولار من قيمة أصـولـه الماليـة خـلال عـام ٢٠٠٨م، من بينها (٩،٦ تريليونات) دولار في آسيا وحدها بـسبب الأزمـة المالية العالمية، فيما سجلت اليابان صاحبة أكبر اقتصاد في القارة أول عجـز في حسابها الجاري منذ ١٣ عاماً..

• توقع تقرير خليجي أن يبلغ العجز في الحسابات الجاريـة لـدول مجلـس التعاون الخليجي ثلاثين مليار دولار خلال العام الجاري، بعد أن كان الفائض أربعمائة مليار دولار في العام الماضي، مؤكداً أن تداعيات الأزمـة الماليـة بدأت تظهر جلية في الفترة الماضية..

• التدفقات الرأسمالية الخاصة إلى الأسواق الناشئة والبلدان الناميـة تتنـاقص إلى درجة الاختفاء، ويقدر معهد التمويل الدولي أن هذه التدفقات تراجعت إلى (٤٦٧ مليار) دولار عام ٢٠٠٨م، أي نصف مستواها عام ٢٠٠٧م، وتـشير التوقعات إلى أنها ستواصل الهبوط إلى (١٦٥ مليار) دولار عام ٢٠٠٩م..

• في ظل الأزمة المالية الراهنة، يتوقع خبراء انهيار قرابة (١٠٠ مؤسـسة) مالية حتى نهاية العام الحالي، في حال استمرار تهاوي المصارف الأمريكيـة على ذات الوتيرة الراهنة، وبسيطرة السلطات الفيدراليـة المنظمـة للقطـاع المصرفي على مصرف "سيلفر فولس" بأوريغون بلغ عدد المـصارف التـي أعلنت إفلاسها خلال الأسابيع الستة الماضية ١٤ مصرفاً..

• أعربت منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة في مطلع عـام ٢٠٠٩م عن مخاوفها إزاء التسارع في شطب الوظائف بالقطاع المالي، مشيرة إلى أن من شأن ذلك أن يؤثر بصورة غير مباشرة على الاقتصاد الأوسع في المراكز المالية مثل نيويورك ولندن..

وكما طالت الأزمة عامة الناس فقد طالت أيضاً أغنياء العالم وإنمـا هـي من فعالهم فقد ذكرت مجلة "فوربس" أن (٣٠%) من أعضائها المليـارديرات

قد فقدتهم، وتبخر مبلغ نحو تريليوني دولار من ثروات هؤلاء، بينما تقلص عدد المليارديرات بمقدار (٣٥٥) عضواً منهم بسبب فقدان ثرواتهم، بينما توفي (١٨) منهم، ومن أولئك الأثرياء الذين خسروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم "بيل غيتس" الشريك المؤسس لمجموعة مايكروسوفت والذي حقق خسارة قدرها (١٨ مليار) دولار من ثروته بسبب انخفاض أسعار الأسهم عام ٢٠٠٨م، وكذلك "كارلوس سليم" الذي خسر (٢٥ مليار) دولار، أما "وارين بافيت" فقد خسر (٢٥ مليار) دولار، وغيرهم الكثير، وكشفت صحيفة "صنداي تايمز" عن خسائر أكبر عشرة أثرياء في بريطانيا، حيث بينت أن خسائر العشرة الكبار فقط تجاوزت (٢٣ مليار) جنيه إسترليني (حوالي أربعين مليار دولار)..

علاجات تخديرية

أمام هذه التداعيات الشديدة التي تمثلت بالانهيار المروع لكبرى المؤسسات المالية والصناعية والتجارية في العالم حاولت الدول الكبيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية اتخاذ إجراءات لم تتعدَ ضخ السيولة بكميات هائلة، وهذا العلاج من وجهة نظري هو علاج تخديري لفترة قد تطول أو تقصر وتحدث بعدها الكارثة فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

- أقر الكونغرس الأمريكي، بمجلسيه الشيوخ والنواب، خطة " تحفيز الاقتصاد" التي اقترحها الرئيس باراك أوباما بقيمة (٧٨٧ مليار) دولار في محاولة لإنعاش اقتصاد الولايات المتحدة الذي يعاني تراجعاً حاداً.
- توصل زعماء دول العشرين إلى اتفاق قيمته (١،١ ترليون) دولار لمعالجة آثار الأزمة الاقتصادية العالمية في قمتهم التي عقدوها في نيسان ٢٠٠٩م في العاصمة البريطانية، كما تعهدت قمة العشرين بتنفيذ أكبر خطة تحفيز

للاقتصاد العالمي وضخ أكثر من (٥ تريليون) دولار لحل المشاكل الاقتصادية، كما قررت القيام بدعم التجارة العالمية لأنها إحدى أهم أسباب التطور الاقتصادي.

• كشفت وزارة المالية اليابانية عن خطط لإعداد موازنة تكميلية للعام المالي ٢٠٠٩م مع حزمة حوافز اقتصادية بأكثر من (١٠ تريليونات ين أي ما يعادل ١٠٠ مليار دولار) لانتشال الاقتصاد من حالة الركود التي يعاني منها، ثم صرح بنك اليابان بأنّه سيقوم بتقديم منح مالية بقيمة تزيد على (١٠ مليارات) دولار أمريكي على شكل قروض إلى البنوك، على أمل دعم الأسواق الإقليمية وتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية.

• خصص البنك الدولي مبلغاً قدره (١٨ مليار) دولار خصص لمعالجة هذه الأزمة على الصعيد العالمي، منها (ملياراً و٢٠٠مليون) دولار لمساعدة تلك البلدان الأشد تضرراً من ارتفاع أسعار المواد الغذائية في عام ٢٠٠٨م.

• أطلق الرئيس البرازيلي "لويس إيناسيو لولا داسيلفا" خطة لإنعاش قطاع العقارات بقيمة (١٥ مليار) دولار، تهدف إلى تحفيز قطاع التشييد في ظل تباطؤ الاقتصاد العالمي، ويؤمل أن تخفف الخطة من حدة العجز الهائل في عدد الوحدات السكنية بالبرازيل..

• اتفقت بلدان جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية عقب اجتماعهم في تايلند في شباط ٢٠٠٩م، على الرفع من قيمة اعتمادات صندوق الطوارئ ليصبح (١٢٠ مليار) دولار لمعالجة الأزمة..

إن هذه الإجراءات تؤكد حقيقة دامغة في محورين، **المحور الأول:** أن هذه الإجراءات تمثل ضربة قاصمة للنظرية الاقتصادية الرأسمالية التي تأسست عليها العولمة ونظّر وروّج لها النظام الرأسمالي مراراً وتكراراً والتي تقوم على إعطاء صلاحيات غير محدودة لمؤسسات القطاع الخاص كي

تتصرف كما تشاء لتحقيق الكفاءة القصوى بأقل التكاليف، وتبين أن نظرية (دعه يعمل) كانت مجرد هراء وهباء.

أما **المحور الثاني** في القضية أنها تأتي في وقت الذروة للتربع الأمريكي الرأسمالي على العرش الدولي دون منازع والذي تأكد بصورة جلية عقب أحداث أيلول ٢٠٠١م، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الأزمة قد تمثل بداية النهاية للازدهار الاقتصادي الأمريكي الذي دام لسنوات طويلة مما قد يترتب عليه في الأمد الطويل أفول النجم الأمريكي عن السماء العالمية وفي كل الصعد الاقتصادية والسياسية والعسكرية..

إن ضخ الأموال بهذا الشكل سيؤدي بالتأكيد إلى زيادة التضخم وسيعزف المستهلكون عن شراء السلع فيحصل الكساد في السلع ثم يعقبها الركود الاقتصادي فتوقف الشركات والمؤسسات ويعود الحال إلى نقطة البداية ما يعني الدوران في حلقة مفرغة.. وهذه الخطة لن تكون ذات فاعلية في إنعاش النمو الاقتصادي المصاب بالخمول كما ستكون ظالمة من الناحية الاجتماعية لأن من شأنها أن تعود بالنفع على أكثر الطبقات ثراء في المجتمع الأميركي.

المنظور الإسلامي للأزمة المالية

ترى الشريعة الإسلامية أن التعامل مع المال كوسيلة للحياة أمر لابد منه ولكن بشرط أن يراعي هذا النوع من التعامل مصالح الآخرين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهْوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"[١]، فوجود المال بيد الإنسان يدعو للغبطة ولكن حين يُتعامل معه بالحق ويكون لصالح

(١) رواه البخاري/ كتاب الزكاة/ باب إنفاق المال في حقه.

الشعوب، وعلى ضوء ذلك يكون التعامل معه على أساسين، أولهما: اكتساب المال، وثانيهما: إنفاق المال، ولابد أن يكونا هذين الأساسين صحيحين وإلا فإن البناء الذي يكون أساسه هشاً فإن مصيره إلى زوال يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ"[2]. وفي كلا الحالتين من المفروض أن تكون الوسائل للاكتساب أو الإنفاق مشروعة، والمقصود بالمشروعة هي التي تتحدد بضوابط الشريعة الإسلامية وهي بطبيعة الحال تحقق مصالح الأشخاص أو المؤسسات لأن الشريعة الإسلامية أصلاً وجدت لتحقيق مصالح العباد وجاءت لحفظ ضروريات الحياة والتي منها مال الإنسان وحين نقول أن الإسلام هو الحل فإنه يتخذ من المنظومة الاقتصادية بمجملها من أجل حلها وليس تناول الجزئيات والنظر فيها وحلها حلاً جزئياً ووقتياً، فنجد أن الشريعة الإسلامية تطالب وبشدة مراعاة الجانب الإيماني وهو تطبيق ما أمر الله به وبعكسه فإن النتائج ستكون وخيمة، وهذا ما حصل بالفعل فبحسابات منطقية بالإمكان أن تحدث أزمة وتخسر شركات ومؤسسات وقد تنبأ بالفعل بعض المختصين بهذا، ولكن لم يتوقعوا بهذا الشكل الكارثي فالأمر لا شك ويعلمه المختصون أن هناك قوة عظمى تدخلت لإحداث هذا العطب الهائل في العملية الاقتصادية العالمية، وحين نتكلم عن رؤوس الأموال في النظام الرأسمالي بشكل عام

---

(٢) سورة التوبة/ الآية (١٠٩).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٠٢).

وفي الاقتصاد الأمريكي بشكل خاص نجد أن رؤوس الأموال تتداول بين أشخاص أو شركات بينما لا يجد عامة الناس ما يؤمن لهم الحياة المحترمة الكريمة وهنا يشخص "ابن خلدون" رحمه الله العلة ويشير إلى أن نقص المال بعد كثرة يأتي من أسباب:

١- تكثير الوظائف التي تكون في خدمة الملِك وأمنه.

٢- ترف الدولة وصرفها الأموال في أبواب لا تخدم الرعية.

٣- تجارة السلطان وهي أعظم الآفات التي تذهب بركة مال الدولة، حيث تختل الجباية (للمحسوبية) وتنتزع مصادر الرزق من أيدي الرعية وهذه الأسباب واضحة جلية في الأنظمة الرأسمالية.

كما ولابد من الإشارة إن الاكتساب غير المشروع للأموال (أموال السحت) سواء كان على مستوى الحكومات أو المؤسسات أو الأفراد لها نفس التأثير في محق وزوال بركة الحياة بشكل عام والأموال بشكل خاص، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

فمن وجهة نظر إسلامية وجود نسبة وإن كانت قليلة غير مؤثرة في الحسابات المادية من المال الحرام كفيلة بتدمير وفناء كم هائل من رأس المال وكما يقول أحد العلماء (إن درهماً واحداً من الحرام يهلك ألف درهم من الحلال)، وهذا هو أحد أسباب الأزمة المالية الاقتصادية وبالتالي فإن آثار الأزمة لم تطل مسببها فقط وإن نال القسط الأكبر من ذلك بل طالت السواد الأعظم من الشعوب..

[1] سورة الأنفال/ الآية (٢٥).

المحور الأول: اكتساب المال

فمن أمثلة طرق اكتساب الأموال في الأنظمة الرأسمالية السائدة في العالم اليوم:

الربا: فكل البنوك في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وبقية العالم بل وقسم كبير منها في العالم الإسلامي وللأسف قائمة على أساس التعامل الربوي (الفائدة) لمن يودع رؤوس أموال لديها وكذلك تمنح قروض ربوية للآخرين، وبهذا الوصف يكون الربا عندها بوجهين ما يعني أنها تمنح نسب ربوية لمن يودع أموال لديها وتقرض الآخرين مقابل نسب ربوية.. يقول تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[1]، والمحق هو الإبطال والمحي، ومن الضروري أن يذكر في هذا الباب صندوق النقد الدولي المرتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها المالية والذي يقوم بمنح الكثير من الدول قروضاً مقابل فوائد تبقى متراكمة إلى مالا نهاية، وسبب ذلك إن هذه الفوائد (الربا) غير ثابتة فهي تزداد كلما عجز المستفيد من القرض على التسديد وبالتالي يبقى يسدد فوائد متراكمة ومركبة لسنين طويلة، وهذا أحد أسباب النهي عن الربا في الإسلام الذي يرى أنه من أبشع وأخس التعاملات المادية يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2]، ولو لم يكن الربا فيه من الأضرار الهائلة على الأفراد والأمم لما جعل الله المتعامل فيه في نطاق الحرب من الله..

---

[1] سورة البقرة/ الآية (٢٧٦).

[1] سورة البقرة/ الآيات (٢٧٨– ٢٨١).

ولقد أعطت هذه الأزمة برهاناً ساطعاً على خطر الربا وما يترتب عليه من أضرار، وهو دليل واقعي رآه الجميع رأي العين، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الربا وهو في مجتمع صغير وبسيط ولا يتعدى عدد سكانه الآلاف وليس فيه من الأموال إلا القليل وحجم التعاملات المالية والاقتصادية بكل أنواعها محدودة، فكيف حين يكون الحال والتداول به مع ملايين البشر وبرؤوس أموال ليس لها حصر وبمعاملات تجارية لا تعد ولا تحصى ..

ولعل ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره عن حقيقة الربا خير ما يذكر في هذا الباب فيقول رحمه الله:

أولاً: إن الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، لأن من يبيع الدرهم بدرهمين يحصل له زيادة درهم من غير عوض ومال الإنسان متعلق بحاجته، وله حرمة عظيمة، كما في الحديث: "حرمة مال المؤمن كحرمة دمه"[1]، فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.

ثانياً: إن الاعتماد على الربا يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أو نسيئة، خفَّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات ولا شك أن هذه الحكمة مقبولة من الوجهة الاقتصادية..

ثالثاً: إنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت

---

[1] رواه الدارقطني في سننه برقم ٢٩٢٧.

حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان..

ونضيف على ما قاله الفخر الرازي فإنه في كل الأحوال يكون أحد الطرفين خاسراً ومغبوناً حقه، لأن النسبة الربوية المقررة لا تمثل حقيقة الربح المتأتي من عملية استثمار هذا المال فلو كانت أقل كان صاحب المال مغبوناً ومظلوماً ولو كانت أكثر من الاستحقاق كانت المؤسسة المالية هي المغبونة.. بينما يسعى الإسلام إلى العدل المطلق وإعطاء كل ذي حق حقه وهذا من المستحيل أن يتحقق في ظل النظام المالي الذي أساسه الربا..

تسخير ثروات الآخرين لصالح الدول الرأسمالية: ويتم ذلك عن طريق تكبيل دول العالم باتفاقيات تجارية تمنعهم من بيع ثرواتهم ومنتجاتهم بالأسعار والكميات التي تناسبهم، ومثال ذلك ما يحدث في منظمة (أوبك) للدول المنتجة للنفط فيما يتعلق بأسعار وكميات النفط المصدر من قبل الدول المنتجة الأعضاء في المنظمة، فحين هبط سعر البرميل الواحد للنفط أكثر من (١٠٠ دولار) في فترة قياسية فهذا يعني خسارة الدولة التي تصدر (٢ مليون) برميل في اليوم ما مقداره (٢٠٠ مليون) دولار يومياً أي بحدود (٦٠ مليار) دولار سنوياً (علماً أن الأسعار والكميات تتحكم فيها منظمة أوبك)، وكذلك اتفاقيات منظمة التجارة العالمية التي من شأنها في العادة أن تحول رؤوس الأموال من الدول المنتجة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وبطرق ملتوية وبأساليب خبيثة تتعلق بالاستيراد والتصدير من حيث السماح لبعض المنتجات والمواد الخام وعدم السماح لأخرى، ومهما تغيرت هذه الأساليب فهي سرقة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ

أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فلابد أن يعي العالم المتسلط أن سرقة أموال الشعوب إنما هي طريق الشيطان لأن فيها أذى البسطاء من الناس يقول تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ما يعني أن هذا الطريق نهايته الفقر..

الأموال المكتسبة من نشر كل ما من شأنه إفساد الناس: ونشر ثقافة الإباحية بينهم، كالمواقع الإباحية من فضائيات ومواقع انترنت وكذلك مصانع الخمور والمخدرات المنتشرة في العالم وكذلك بمرتبة أقل مصانع إنتاج السجائر في العالم وهذا كله من باب الإفساد في الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3]..

الأموال المكتسبة من عمليات الخديعة والغش: ومن ذلك عقد صفقات بيع كبيرة جداً وبمبالغ هائلة الغرض منها استنزاف ثروات الشعوب من أجل عدم الاستفادة منها في مشاريع تعود بالنفع على تلك الشعوب، ومثال ذلك بيع أسلحة لدول معينة بعد أن تصنع الولايات المتحدة خصماً وهمياً لتلك الدول فتبيعها أسلحة ربما لن تستخدمها أبداً، وتشير مراكز الدراسات المتخصصة بأن أكبر صفقات أسلحة قيمتها عشرات المليارات من الدولارات أبرمتها دولتين خليجيتين، وكذلك خلق حالة حرب بين دولتين لترويج الأسلحة كما حصل في حرب العراق مع إيران.. وفي نفس الباب الأموال المستحصلة من عمليات غسيل الأموال، وهذه في حقيقتها أموال مسروقة أو من طرق غير

---

[1] سورة البقرة/ الآية (١٨٨).

[2] سورة البقرة/ الآية (٢٦٨).

[3] سورة الروم/ الآية (٤١).

مشروعة ويبلغ حجم الأموال المغسولة في العالم على مستوى العالم (٣ تريليون)[1] دولار في العام..

الحصول على أموال نتيجة السرقات الخفية والعلنية: من أموال الشعوب وبطريقة يتم فيها الإعلان عنها باعتبارها أعمالا خيرية يكون في النتيجة غطاء لما صار يعرف (الفساد الإداري والمالي) الذي تسوق له الإدارة الأمريكية والدول التي تدور في فلكها من خلال مشاريعها المعلنة والمخفية لنشر الديموقراطية المزعومة، ومثال ذلك ما جرى في العراق فقد ابتلعت مئات المليارات (باعتراف قيادات أمريكية) من أموال العراق أو من أموال الدول المانحة خلال فترة احتلال العراق تحت شعار (حملة إعمار العراق) وفي حقيقتها سرقة ثروات الشعب العراقي.. وقبلها في مرحلة الحصار الجائر على العراق حيث يقول "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية: "لقد أظهرت الفضيحة التي تم الكشف عنها في البرنامج الممول من قبل الأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء) والخاص بالعراق الحاجة الملحة لوضع قوانين صارمة فيما يتعلق بتضارب المصالح، وأهمية الانفتاح في عملية المناقصات، وكما يقول "راينود ليندرز" و"جستن الكساندر" في تقرير الفساد لعام ٢٠٠٥م، إن أغلب الأموال المتوقع إنفاقها في عمليتي البناء والشراء في العراق لم يتم إنفاقها بعد فإذا لم تتخذ خطوات سريعة سيصبح العراق عندئذ أكبر فضيحة فساد في التاريخ..

ولقد تسربت وثائق في السنة السادسة لاحتلال العراق عن حجم هذه السرقات فلو ضربنا مثلاً لحالة واحدة فتشير إلى فقدان (١٢٠ مليار) دولار من الأموال العراقية ولتوضيح الأمر أكثر من ناحية حجم هذه السرقات في

---

[1] التريليون يساوي ألف مليار دولار.

هذا الباب، فإن الموازنة السنوية العامة لبعض الدول بحدود ٥ مليارات دولار، فهذا يعني إن الأموال التي تم سرقتها في العراق تكفي لدولة من تلك الدول لمدة تزيد على ٢٠ سنة فقط!!.

المحور الثاني: محور الإنفاق

ولو أردنا أن نستعرض بعض محاور الإنفاق في السياسة الاقتصادية الرأسمالية التي تمثل الولايات المتحدة الأمريكية رأس الحربة فيها نستطيع أن نحدد بعضاً من هذه المحاور وهي:

الحروب: كشف الاقتصادي الأمريكي البارز الحائز على جائزة نوبل للسلام "جوزيف ستيغليتز"، في كتاب جديد أن تكلفة حرب العراق التي تدخل عامها السادس في ٢٠٠٨م، تضاعفت ثلاثة مرات عن الأعوام السابقة، لتصل إلى (١٢ مليار) دولار شهرياً في العام الحالي، وتوقع "سيتغليتز" و"ليندا بيلميز" الكاتبة المساعدة أن حربا العراق وأفغانستان بالإضافة إلى تواجد عسكري طويل المدى في الدولتين تكلف الخزانة الأمريكية ما بين (١،٧ تريليون) دولار إلى (٢،٧ تريليون) دولار، أو أكثر بحلول عام ٢٠١٧م، وذلك في "أفضل الأحوال" وحال تطبيق سيناريوهات "واقعية ومعتدلة".

وقد تضيف الفائدة على قروض تمويل الحرب تلك وحدها مبلغ (٨١٦ مليار) دولار إلى التكلفة، لقد بدأ أصحاب الاقتصاد بحساب هذه التكاليف على مستوى اليوم والساعة والدقيقة وفي ذلك دلالة على ضخامة هذه الكلف، ولمزيد من المعلومات عن حجم الإنفاق العسكري الأمريكي تظهر لنا في الجدول الآتي:

السنة	الحرب على العراق ألف دولار/ دقيقة	الحرب على الإرهاب ألف دولار/ دقيقة	ميزانية الدفاع الأمريكي
٢٠٠٣م	٩٣	٥٤	٤٣٨
٢٠٠٤م	١١١	٧٤	٤٤٨
٢٠٠٥م	١٦٤	١٠٠	٥٠٧
٢٠٠٦م	١٨٨	١١٦	٥٣٦
٢٠٠٧م	٢٤٥	١٦٦	٦١١
٢٠٠٨م	٣٧١	١٩٥	٦٥٠

جدول يمثل حجم الإنفاق العسكري الأمريكي مجلة "الفور بوليسي" عن مكتب خدمات البحث بالكونغرس

يقول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[1]..

الإنفاق بسبب النتائج العكسية لنشر الفساد.. من السياسات المستهجنة من قبل القوى العالمية التي تحاول السيطرة على مقدرات الشعوب هي نشر الإباحية بين أفراد الشعوب بل وحتى شعوبها من أجل إشغالها والسيطرة عليها، وبالرغم من إن هذه الأمور لها تكاليفها الخاصة والتي لها ثقلها في المجال الاقتصادي إلا أن نتائجها تكون سلبية وتكاليفها أكبر بكثير فتشير الدراسات الطبية في هذا المجال أن متوسط تكلفة معالجة (وليس شفاء) شخص مصاب بالإيدز حتى يتوفى تبلغ (١٢٠ ألف) دولار.. وتشير الدراسات إلى أن عدد المصابين بالمرض حول العالم عام ٢٠٠٧م وصل إلى

---

[1] سورة الأنفال/ الآية (٣٦).

(٣٣ مليون) شخص، من بينهم (٢،٧ مليون) من المصابين الجدد ووفاة مليونين.

الإنفاق الناتج عن إدمان الخمور والتدخين، فالمشاكل الاقتصادية والخسائر التي تعود على الدول بسبب تناول شعوبها الخمور كثيرة وكبيرة، فالعالم يخسر من جرَّاء تناول الخمور بحدود (١٦٦ مليار) دولار سنوياً كما تقدرها منظمات الصحة العالمية.. كما وتشير المنظمة إلى أن ثلث أسرّة المستشفيات في الدول الصناعية يشغلها مرضى الخمر، وتصرف دولة مثل بريطانيا (١٦٤ مليون) جنيه إسترليني سنوياً لعلاج مرضى الخمر، حيث يقبع في المستشفيات العقلية والنفسية في إنجلترا ما يقرب من العشرين إلى الثلاثين ألف شخص بسبب الخمر، أما في مجال التدخين فهناك (مليار و ٣٠٠ مليون) مدخن في العالم.. والتدخين له تكاليف باهضة فعلى سبيل المثال وحسب آخر الدراسات الحديثة يكلف التدخين الولايات المتحدة بحدود (٦ مليارات) دولار سنوياً، بينما يكلف المملكة الأردنية الهاشمية (٦٠٠ مليون) دولار من جراء الأمراض والمشاكل الصحية الناجمة عنه..

الهدر بشكل عام: تقول منظمة الشفافية الدولية: "يعتبر الفساد في المشاريع العامة الكبيرة الحجم عقبة كبيرة أمام التنمية المستدامة"، على حد قول السيد "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية، ويضيف "ايجن": "إن الفساد في عملية إبرام وتنفيذ العقود يعتبر كارثة كبيرة على الدول المتطورة والنامية على حد سواء"، ويضيف: "عندما تكون الرشوة كبيرة ويغلّب الإنسان المال على القيم، تكون النتيجة إنشاءات رديئة الجودة وإدارة ضعيفة للبنى التحتية، إن الفساد مضيعة للمال، ونهب لموارد الدول، وتؤدي إلى قتل الأرواح في الكثير من الأحيان، ويقول ايجن: "يجب المحافظة على الأموال والمعونات المخصصة لمشاريع إعادة البناء في بعض الدول مثل العراق من خطر

الفساد"، ويضيف قائلاً: "يجب أن تكون الشفافية الشعار الأول، وخصوصاً في هذا الوقت الذي تقوم فيه الدول المانحة بضخ مبالغ هائلة، ويُظهر التقرير أيضاً الحاجة الملحة للحكومات والشركات الدولية من أجل ضمان الشفافية في عمليات الإنفاق العام من أجل القضاء على ظاهرة الرشوة على المستويين الداخلي والخارجي، لهذا نجد أن تقارير منظمة الشفافية الدولية تشير إلى نسب فساد وهدر مرتفع في الدول التي تعاني من ارتباط اقتصادها باقتصاد دول رأسمالية كالولايات المتحدة الأمريكية وذلك هو السر في أن العراق من أولى البلدان التي تمتاز بأعلى درجات الفساد في العالم.. بينما يحدث العكس في دول أخرى أشارت التقارير أنها من أفضل البلدان المصنفة كدول نظيفة ومنها الدنمارك والسويد ونيوزيلندا..

الحل الإسلامي

حين نتكلم عن الحل الإسلامي للأزمة المالية العالمية فإننا نتكلم عن منظومة اقتصادية متكاملة ومرتبطة الحوادث، ولا نزعم أن الحل يكمن في لمسة عصا، وإنما يقدم الاقتصاد الإسلامي الحلول وأنظمة العمل التي بالإمكان تطبيقها تدريجياً للوصول للحالة المثلى للبشرية في الجانب الاقتصادي، وهذا الموضوع لم يتناوله الإسلاميون فقط بل يرى غير الإسلاميين أن الحل بجعبة الإسلام، ففي افتتاحية كبرى المجلات الاقتصادية في فرنسا "تشالينجز" في ١١ أيلول ٢٠٠٨م كتب رئيس تحريرها "بوفيس فانسون" موضوعاً بعنوان (البابا أو القرآن) قال فيه: "أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن

من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود"، وفي نفس السياق قال "رولان لاسكين" رئيس تحرير صحيفة "لوجورنال دو فينانس" الفرنسية في الافتتاحية يوم ٢٠٠٨/٩/٢٥م بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لعلاج هذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جرّاء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة حيث قال: "إذا كان قادتنا حقاً يسعون إلى الحد من المضاربة المالية التي تسببت في الأزمة فلا شيء أكثر بساطة من تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية"، كما صدر كتاب للباحثة الإيطالية "لوريتا نابليوني" بعنوان (اقتصاد ابن آوى) أوضحت أن "المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية"، إن هؤلاء الغربيون يعترفون أن الإسلام منهج شامل كامل ومتكامل لكافة جوانب الحياة، دين وعبادات ومعاملات ودولة ويوازن بشكل ملفت للنظر بين المادية والروحانية، وأن في الإسلام نظاماً اقتصادياً فريداً معجزاً يتسم بخصائص إيمانية وأخلاقية وسلوكية لا توجد في أي نظام اقتصادي آخر كما أنه ينضبط بمجموعة من الأحكام والنظم والأسس مستخرجة من روح الشريعة الإسلامية وأنه صالح لكل زمان ومكان، وبنظرة إسلامية للحلول الممكنة نتوصل إلى ما يأتي:

- إن إغراق الأسواق بالمال خطر فادح بل هو من علامات الساعة في المنظور الإسلامي ما يعني هو أحد أسباب الاضطراب الذي يحدث قبل قيام الساعة لذلك لابد من تقليل الكتل المالية بشكل تدريجي والاعتماد على النقد المغطى بالذهب ومن الأفضل أن يتحول على الأقل الخزين النقدي الاستراتيجي إلى نقود ذهبية (دنانير ذهبية) وفي التجربة الماليزية مثال عملي على ذلك، لأن وجود كمّ هائل للأموال يولد جوانب سلبية في التعاملات

المالية، ومنها توسع غير مسيطر عليه للمضاربات في الأسواق المالية بما في ذلك تلك التي تجري عبر الانترنت على حساب المعاملات المالية الحقيقية، وكذلك فإن هذه المضاربات تؤدي إلى صفقات لا تقدم أي قيمة مضافة في الأسواق، يقول النَّبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ – وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ – حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضُ"[1]، والمال في الإسلام له وظيفة هي أن يكون في خدمة الإنسان كونه خليفة الله في أرضه فمن غيّر هذه الوظيفة فسيكون سبباً في فقدانه، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) للصحابي حكيم بن حزام رضي الله عنه: "يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"[2]، ومن أساليب عدم إغراق الأسواق المالية برؤوس الأموال الهائلة إيقاف المشاريع غير الاستثمارية التي تحمّل الميزانيات تخصيصات هائلة، ومثال ذلك الحملات العسكرية والحروب التي تؤدي في العادة إلى تراكم العجز في الميزان التجاري الأمر الذي يضعف الثقة بالاقتصاد الرأسمالي.. ولابد من تشجيع الاستثمار الحقيقي بحيث يُعمل على الحد من المضاربات المالية، وهنا لابد من فرض قيود على أنواع التعاملات المالية ومنع المعاملات التي لا تتضمن استثماراً حقيقياً..

التخلص تدريجياً من كل أنواع التعاملات الربوية لأن الربا يمحق رؤوس الأموال والحل الإسلامي لذلك هو التخلص من المعاملات الربوية بكل

---

[1] رواه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات.

[1] رواه البخاري: كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين) من سورة النساء.

أشكالها ويلاحظ استعداد المصارف الغربية لذلك، وقد حصل بالفعل أن خفضت هذه النسبة بشكل كبير مثل ما قام به بنك استراليا المركزي والبنك الأوربي أخيراً من خفض هائل لسعر الفائدة وما تبعه من توافق جماعي بين البنوك المركزية لعدة بلدان في هذا المجال، هو اعتراف ضمني للمعالجة الصحيحة للمشكلة ما يعني إمكانية التوصل لإلغائها وجعل التعامل مع المودعين صحيحاً من خلال أعمال صناعية أو تجارية أو أي نوع آخر من الاستثمار الصحيح بما يضمن عدم الظلم للطرفين، وقد قدم الإسلام الحل البديل عن الربا بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، ولقد عالج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أول قاعدة اقتصادية إسلامية في الربا بقوله في حَجَّةَ الْوَدَاعِ: (... فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ غَيْرَ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ...)[2].

وضع برنامج للتخلص من مصادر الأموال الحرام.. فالمال الحرام أساس هلاك البشرية يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ"[3].

ومصادر المال الحرام أو ما يعرف بـ (السحت) كثيرة ومتنوعة يصف ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه بعض منها بقوله: (السُّحْتُ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ وَمَهْرُ الْبَغِي وَثَمَنُ الْكَلْبِ وَثَمَنُ الْقِرْدِ وَثَمَنُ الْخِنْزِيرِ وَثَمَنُ الْخَمْرِ وَثَمَنُ الْمَيْتَةِ وَثَمَنُ

---

[2] سورة البقرة/ الآية (٢٧٥).

[1] جزء من حديث رواه الترمذي برقم (٣٣٦٧).

[2] رواه البخاري، كتاب البيوع، باب قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران (١٣٠).

الدَّمِ وَعَسْبُ الْفَحْلِ وَأَجْرُ النَّائِحَةِ وَأَجْرُ الْمُغَنِّيَةِ وَأَجْرُ الْكَاهِنِ وَأَجْرُ السَّاحِرِ وَأَجْرُ الْقَائِفِ وَثَمَنُ جُلُودِ السِّبَاعِ وَثَمَنُ جُلُودِ الْمَيْتَةِ فَإِذَا دُبِغَتْ فَلاَ بَأْسَ بِهَا وَأَجْرُ صُوَرِ التَّمَاثِيلِ وَهَدِيَّةُ الشَّفَاعَةِ وَجَعِيلَةُ الْغَزْوِ)، والمال الحرام خبيث والله تعالى لا يحب الخبيث، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]. فإذا انتشر فإن الله سبحانه وتعالى سيذيق الناس عقوبات على ذلك يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].. ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[3]، وقد ذكرنا أنواع الكسب والإنفاق الحرام ونضيف لذلك غلق قاعات الروليت والقمار وخاصة في دول العالم الإسلامي كمرحلة أولى، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"[4]... والمال الحرام مال خبيث يقول فيه تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[5]..

---

[3] سورة المائدة/ الآية (١٠٠).

[4] سورة الروم/ الآية (٤١).

[1] سورة الفجر/ الآيات (٦-١٤).

[2] رواه مسلم برقم (٤٥٧٨).

[3] سورة الأنفال/ الآية (٣٧).

خلق آلية لتعميم فكرة تطبيق أداء الزكاة على مستوى العـــالم، ذلـــك أن الزكاة تمنع تكديس الأموال في البنوك وتضخيم رؤوس الأموال لأن مالكيهـــا سيضطرون لإقحامها في التعاملات التجارية حتى لا تأكلها الزكـــاة ونـــزول رؤوس الأموال للأسواق بمشاريع استثمارية ستكون حلاً لكثير من المشكلات من أبرزها تحويل السياسة الرأسمالية إلى سياسة العمل والإنتاج وتوسع قاعدة الخدمات للجماهير وتشغيل الأيدي العاملة وغير ذلك، كما أنها تحقق في الحد الأدنى إحساساً بالعدل فتطفئ شعور الفقراء بالظلم، كما أنها تمنـــع الجـــرائم المالية مثل السرقات والنهب والسطو، وما أشبه ذلك؛ لأن الفقراء يـــأتيهم مـــا يسد شيئاً من حاجتهم و الزكاة مشتقة من زكا وتعنى النماء والطهارة والبركة وسميت الزكاة لأنها بحسب الدين الإسلامي تزيد في المال الذي أخرجت منه، وتقيه الآفات، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (نفس المتصدق تزكـــو، ومالـــه يزكو ويطهر)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صـــلى الله عليه وسلم): (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منهـــا حقهـــا إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار، فأُحْمِيَ عليها فـــي نـــار جهـــنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كـــان مقـــداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلـــى النار)[1]، ولو لم يكن في الزكاة مصالح العباد لما ترتب علـــى مانعهـــا هـــذه العقوبات الكبيرة..

خلق نظام رقابي عالمي للتعاملات المالية يبـــدأ علـــى مـــستوى العـــالم الإسلامي وليكن عن طريق منظمة المؤتمر الإســـلامي أو الاتحـــاد العـــالمي لعلماء المسلمين أو أي منظمة أخرى يعنيها أمر العالم الإسلامي يضعه أهـــل

---

[1] رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

الحل والعقد من المختصين بالاقتصاد الإسلامي ثم يتحول على مستوى العالم يراقب الدورة الاقتصادية على مستوى العالم ويصحح المسار، وهنا لابد من لفت النظر إلى أن كافة الفعاليات على مستوى العالم كالتربية والتعليم والزراعة وحقوق الإنسان... الخ لها دوائر معتمدة في منظمة الأمم المتحدة تراقب هذه النشاطات إلا الاقتصاد، وقد أرست الشريعة الإسلامية قواعد الرقابة المالية الإسلامية والتي تطورت مع دول الخلافة المزدهرة، فأصبح لها أجهزة ودواوين تباشر رقابة فاعلة ومستمرة على مالية الدولة وحمايتها من العبث والضياع بجانب الرقابة الذاتية التي غرستها العقيدة الصادقة في نفوس المسلمين، وذلك في ظل اقتصاد إسلامي مميز عن النظم الاقتصادية المعاصرة، ورغم الفارق الكبير بين النظم الإدارية والمالية في الدولة الإسلامية وما آلت إليه هذه النظم الآن في الدولة الحديثة، إلا أن نظم الرقابة المالية الإسلامية التي باشرها ديوان المكاتبات والمراجعات وديوان الأزمة ووالي المظالم والمحتسب وديوان الجهابذة وديوان الطراز بالإضافة إلى نظم الضبط الداخلي المتبعة في دواوين الأموال، أحكمت الرقابة على الموارد المالية ومصارفها، فقد كانت لهذه الرقابة المالية في الإسلام سمات مميزة تنطوي على قواعد وأسس ومبادئ عامة تصلح للتطبيق العملي في الدول الإسلامية الآن وتفوق في سائر جوانبها الرقابة المطبقة في عدد من الدول الحديثة.

العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيتام والأرامل!

محمد جمال عرفة[1]

إعتدنا أن نرى دولة تتفوق في الأرقام القياسية في التفوق.. الألعاب الرياضية مثلاً أو عدد العلماء والموهوبين أو المدن الصحية وهكذا، ولكننا لم نسمع أبداً عن دولة تتفوق في الأرقام القياسية في قتل علمائها العظام وأرقام قياسية في الفقر والنهب والفساد وأعداد القتلى والأيتام والأرامل أو انتشار الجريمة والمخدرات.. ولكن للأسف هذا هو حال العراق بعد ستة سنوات كاملة من الاحتلال!!.

الأرقام القياسية بدأت بعلماء العراق خصوصاً في العلوم الذرية والفيزياء، الذين بدأت فرق صهيونية أمريكية محترفة اصطيادهم في ظل الفوضى الأمنية واحداً تلو الآخر فقتل منهم المئات، وانتقل الاستهداف لكل الكفاءات العراقية من أطباء ومهندسين وخبراء من كل العلوم في خطوة لتفريغ العراق

---

[1] المحلل السياسي بشبكة إسلام أونلاين.

من علمائه وإعادته للعصور الوسطى عقاباً له على تفوقه الذي هدد الدولة الصهيونية.

ومع أنه لا توجد إحصائية لهذه العملية التي كشفت صحف فرنسية في أعقاب الغزو الأمريكي أن صهاينة يقومون بها بعدما أصبح الوجود الصهيوني رائجاً في العراق وخصوصاً في مدن الشمال الكردية، فقد قدرت دراسة إحصائية لمجزرة علماء وأطباء ومهندسي العراق، أعدها بالإنجليزية الطبيب الاستشاري العراقي "إسماعيل الجليلي"، وعُرضت في "المؤتمر الدولي حول اغتيال الأكاديميين العراقيين"، الذي عُقد في العاصمة الإسبانية "مدريد" لمناقشة هذه الكارثة أن عدد من قتل منهم لا يقل عن (٥٠٠ عالم)، وبأي حال من الأحوال فهو رقم قياسي لا مثيل له دفع من بقي منهم للهجرة، وحتى من تبقى من أطباء العراق مثلاً باتوا يسيرون في شوارع بغداد بأسلحتهم الخاصة وأصدرت لهم حكومة المالكي ترخيصاً بها!.

الكارثة الأكبر أو الأرقام القياسية التي تفوق كل ما لدى "جينيز" من موسوعة قياسية، كانت في تحقيق العراق أرقاماً قياسية في ظل الاحتلال فيما يخص أعداد الأرامل والأيتام والفقراء والفساد وتجارة المخدرات وغيرها؟.

فالعراق حقق في هذه المجالات كلها أرقاماً قياسية في المآسي والمصائب والإجرام حيث الأيتام الآن بالملايين، والأرامل نتيجة الحروب والقتل الجماعي بالملايين أيضاً.

بعض الإحصائيات تقول إنهم – الأيتام- بلغوا خمسة ملايين، أما الأرامل فتقول هذه الإحصائيات الدولية والحقوقية أنهن قد بلغن مليوني أرملة، وأما السجناء في العراق فاليوم يزيدون على (٣٠٠ ألف) أسير ومعتقل في سجون الحكومة وحدها عدا سجون الاحتلال، وهم موزعون على سجون معروفة

وسجون سرية تبلغ في مجملها أكثر من (١٠٠) سجن في جنوب ووسط وشمال العراق .

وإذا كانت الدنيا تقوم ولا تقعد والغرب يقلب الدنيا على حكومة الخرطوم مثلاً لأن سياستها في دارفور أدت لتهجير قرابة (٣٠٠) ألف مواطن على الأكثر، فالمهجرون في العراق يزيدون عن المليوني مهاجر من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، كما أن المهاجرين خارج العراق يبلغون نحو أربعة ملايين موزعين على بعض الدول العربية والدول الأجنبية.. ولكن لا أحد يتحرك!!.

الأحوال الاقتصادية ليست بدورها أفضل والنهب في قطاع واحد هو قطاع النفط علني – فهو هدف الاحتلال الأساسي – حيث (٨٨%) من نفط العراق للشركات الأمريكية وفقاً لقانون النفط الجديد و(١٢%) من النفط للعراقيين وتتولى توزيع عوائده الأمم المتحدة، أما العاطلين فحدّث ولا حرج في بلاد الرافدين، فعدد العاطلين اليوم في العراق يبلغ ما بين (٥٠%) إلى (٦٠%) بناءً على تقارير أممية وإنسانية، ومع هذا تقول الحكومة أن عددهم أقل من عدد العاطلين في بلد مثل فرنسا!.

فمع أن إحصائية لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية تقول إن عدد العاطلين عن العمل يبلغ (١,٢) مليون فقط، فهي تفتخر بالقول أن هذه هي النسبة نفسها تقريباً أو أقل لعدد العاطلين عن العمل في فرنسا، ما يوحي بأن العراق في أحسن حال.

وتتناقض هذه الأرقام بشدة مع تقديرات الأمم المتحدة والوكالات الدولية التي تقدر عدد العاطلين عن العمل بنحو(٥٠%) من مجموع القادرين عن العمل في بلد يبلغ عدد سكانه (٢٨) مليون نسمة، تمّ تهجير (٢٠%) منهم من منازلهم أو إلى الخارج.

وكان وزير المالية العراقي (بيان جبر صولاغ) قد اعترف في بيان صدر في يوليو ٢٠٠٨م بأن التقديرات تشير إلى أن عدد العاطلين عن العمل في العراق حالياً يمثلون نصف عدد القادرين عليه، أي (٥٠%)، وعزز هذا تأكيد وكالات الأمم المتحدة أن هناك نحو (٨) ملايين إنسان في العراق يعيشون تحت خط الفقر.

سباق قتل العلماء والكفاءات

منذ الغزو الأمريكي للعراق، ولا يمرّ شهر دون أن تنشر وسائل الإعلام العراقية خبراً على استحياء في ذيل صفحاتها عن مصرع عالم عراقي شهير من علماء العراق الخبراء في شؤون السلاح أو الذرة أو الكيمياء وغيرها في حادث إطلاق نار أو سيارة، أو داخل المعتقلات الأمريكية، ومن هم أحسن حالاً هربوا واختفوا في بلاد عربية مجاورة.

أحد هؤلاء الذين جرى الكشف عنهم بالصدفة هو عالم الذرة (طالب إبراهيم الظاهر) الذي اغتاله مسلحون مجهولون في مدينة بعقوبة في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٤م وهو في طريقه إلى مقر عمله أثناء عبور سيارته لأحد الجسور في مدينة بعقوبة مما أدى إلى مقتله وسقوط السيارة في نهر "خريسان".

وكذلك البروفسور في العلوم الكيميائية الدكتور (محمد منعم الأزميرلي) الذي كشفت صحيفة (الجارديان) البريطانية في تقرير صحافي مطول نشرته على صفحتها الأولى يوم ٢٤ حزيران/ مايو ٢٠٠٤م أنه توفي "في ظروف غامضة في المعتقل الأميركي في العراق" بعدما اعتقل من منزله بعد سقوط حكم الرئيس السابق صدام حسين حيث كان واحداً من قائمة (٢٠٠) مطلوباً القبض عليهم.

وهذا غير عشرات القصص الأخرى عن عشرات العلماء والأطباء العراقيين وأصحاب الخبرة والاختصاص في مختلف المجالات العلمية الذين تعرضوا لعمليات اغتيال وخطف من جهات مازالت مجهولة.

وقد شرح العالم العراقي الدكتور (مؤيد عزيز حسن) لصحيفة "المصري اليوم" في العدد الصادر يوم ٢١ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م تفاصيل هذه الجرائم مع توضيح أنه حتى قبل عمليات الاغتيال وأيام الحصار، كان العلماء يعانون من انقطاع شبه تام عن العالم الخارجي، وهو ما أثر بصورة سلبية على البحث العلمي والعملية التعليمية بالكامل في العراق.

وترجع قصة استهداف علماء العراق إلى ما قبل وبعد احتلال بغداد، فعقب الغزو بعدة أشهر، كشف جنرال فرنسي متقاعد لقناة التلفزيون الفرنسية الخامسة عن وجود (١٥٠) من وحدات الكوماندوز الإسرائيلية داخل العراق لاغتيال (٥٠٠) من العلماء العراقيين ممن لهم صلة ببرامج التسلح العراقية الكيماوية والبيولوجية والنووية والصاروخية وردت أسماؤهم في قوائم مفتشي الأسلحة الدوليين، كما كشف علماء عراقيون – في نداء استغاثة عبر البريد الإلكتروني – أن قوات الغزو الأمريكية والبريطانية التي لديها كشوف بأسماء وعناوين هؤلاء العلماء تدهم منازلهم وتحقق وتعتقل بعضهم وتطالبهم بتسليم ما لديهم من أبحاث وأوراق.

وقال الجنرال الفرنسي إن مخطط الاغتيال هذا تمّ وضعه من قبل مسؤولين أميركيين وإسرائيليين وأن لديه معلومات دقيقة بوجود الكوماندوز الإسرائيليين داخل العراق حالياً بهدف اغتيال العلماء العراقيين الذين كانوا نواة برامج التسلح الصاروخي والنووي والكيماوي التي أرعب إسرائيل وعددهم – حسب الجنرال الفرنسي – قرابة (٣ آلاف و٥٠٠ عالم) عراقي عالي المستوى من بينهم نخبة تتكون من (٥٠٠) عالم اشتغلوا في

تطوير مختلف الأسلحة وهذه النخبة هي المستهدفة من قبل العمليات الإسرائيلية بالدرجة الأولى.

وقد بلغت المأساة مداها عندما أطلق مسؤول عراقي في المنفى نداءً للعرب يدعوهم لتشغيل ما تبقى من العلماء العراقيين والكفاءات الذين طُردوا من عملهم أو مكثوا في منازلهم بلا عمل، ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولهم من الجلوس في المنزل!!.

النداء وجهه السفير علي جاروش، مدير إدارة الشؤون العربية بالجامعة العربية إلى الحكومة المصرية، وكل العرب في لقاء بعدد من البرلمانيين المصريين بلجنة الشؤون العربية بمجلس الشعب عام ٢٠٠٧م، وقال: "هناك كفاءات عراقية مثل أساتذة الجامعات تبحث عن عمل ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولها من الجلوس في المنزل".

كلمات "جاروش" جاءت على خلفية اجتماع لجنة الشؤون العربية بالبرلمان المصري ١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧م لبحث مشاكل العراقيين في مصر خاصة بعد تطبيق أجهزة الأمن المصرية لقرار يمنع دخول العراقيين للبلاد بدون تأشيرة دخول مسبقة من السفارات التابعة للخارجية المصرية في الخارج والاستعلام عن طالبي التأشيرة من الأجهزة المعنية بالدولة.

وقد فجرت كلمات "جاروش" حالة من الفوران بين النواب المصريين الذين أبدوا تعاطفهم مع النازحين العراقيين وطلب النائب مصطفى عوض الله – إخوان – من الحكومة المصرية أن تسمح بدخول أي عدد من العراقيين إلى البلاد في إطار رد الجميل لشعب العراق الذي وصفه بأنه تحمل تشغيل (٥ ملايين) مصري في فترة الثمانينات من القرن الماضي.

ودعا النائب لفتح الباب أمام العراقيين والسماح لهم بالعمل في ظل عدم تقديم الجامعة العربية أو المفوضية الدولية للاجئين أية مساعدات حتى الآن.

أرامل وأيتام الغزاة

المجال الاجتماعي هو اللاعب الأكثر ترشيحاً للفوز بجوائز الأرقام القياسية الأخرى في العراق.. فالفقر والفساد وأعداد الأطفال الأيتام والنساء الأرامل اللاتي يتسولن في الطرقات وغيرها كلها جوائز مضمونة!.

لم يكتف أعداء العراق بقيادته للحصول على المرتبة الاولى في الفساد عالمياً، ولا بحيازة بغداد لقب المدينة الأسوأ في العالم من حيث انعدام الأمن، ولا تفوق العراق على كل جيرانه في تجارة المخدرات في ظل الاحتلال ولا تبوءه المنصب الأول في الأمية بعد أن كان قد قضى عليها نهائياً قبل ثلاثين عاماً، وإنما سعوا لفوزه بالمراتب الأولى عالمياً في نسبة عدد الأرامل والأيتام!؟.

الاحتلال الأمريكي وما خلفه من فوضى وحروب خلّف وراءه جيشاً جراراً من الأيتام الذين تجاوزوا الخمسة ملايين، وهناك خمسة منظمات دولية رشحت العراق لأن يكون الأول في معدل الأيتام والأرامل في العالم، ليدخل موسوعة غينيس لحيازته هذا المركز الأول بجدارة!.

دراسة أجرتها الأمم المتحدة كشفت عن أن عدد الأرامل في العراق قد بلغ (٣ ملايين) امرأة بعدما تخطى عدد ضحايا الغزو الأمريكي أكثر من مليون عراقي تشردت أسرهم وتشتت، ومن بينهم مليوني أرملة في السنوات القليلة الماضية، عدد كبير منهن يعلن عوائل كبيرة وينزلن إلى ممارسة أعمال تدر عليهن بعض المال البسيط تاركات أطفالهن دون رعاية في الشوارع والطرقات.

بغداد التي كانت تشتهر بالثراء والكفاية أصبح مشهداً مألوفاً اليوم أن ترى في شوارعها متسولات من الأرامل وأعداداً كبيرة من الأيتام تركوا مدارسهم

وباتوا يمدون أيديهم أو يمارسون أعمالاً شاقة من أجل إعالة عوائلهم بعد أن فقدوا معيلها الوحيد في الحرب.

خمس منظمات دولية حذرت في تقارير لها من ارتفاع نسبة جرائم الطفولة والتشرد وتفشي الأمراض النفسية في المجتمع العراقي بسبب الغزو، ومنظمة اليونيسيف أكدت أن حصيلة العنف في العراق بلغت أكثر من (٥ ملايين و٧٠٠ ألف) طفل يتيم حتى عام ٢٠٠٦م نتيجة اغتيال آبائهم، أو أنهم قُتلوا في حوادث التفجيرات والمداهمات المسلحة وسقوط القذائف والقتل الطائفي.

وهناك إحصاءات أخرى تقدر عدد هؤلاء الأطفال بما لا يقل عن (٧ ملايين) يتيم يعيشون في كنف أرامل وثكالى ومعظمهم يعاني سوء التغذية والأمراض المزمنة وقسم كبير منهم إما مقعدون أو عجزة، فيما تضم دور الأيتام عدداً قليلاً منهم، ويعيش قسم كبير بلا مأوى في الشوارع.

المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة أعلنت عن وجود أكثر من (٤ ملايين) لاجئ عراقي، أغلبيتهم الساحقة في سورية والأردن (ما يزيد على مليونين) وأن هناك نازحين داخل البلاد بما يقارب هذا الرقم، رغم ما قيل عن تحسّن الوضع الأمني في الشهرين الأخيرين، وهناك "عودة معاكسة" للاجئين العراقيين إلى الوطن.

عراقيون كتبوا يتساءلون: كم مؤتمر عقد من أجل إعمار العراق منذ ستة أعوام ؟ وكم من الأموال جمعت من الدول المانحة تحت عنوان (إعمار العراق)؟، وكم من تصريح وبيان أذيع لهذه الحملة؟ داعين – من باب السخرية – لمنح أبطال حملة الإعمار أرقاماً قياسيةً في خداع الناس!.

من ضمن الأرقام القياسية في عراق ما بعد الاحتلال أيضاً عدد المعتقلين، وعدد الجثث مجهولة الهوية وعدد نقاط التفتيش الشرطة ناهيك عن الفساد.

وقد اعترف رافع العيساوي نائب رئيس الوزراء العراقي الأسبوع الماضي أن "انتشار الفساد هو سبب نقص الخدمات الأساسية بصورة دائمة وعلى نحو يهدد الاستقرار" حسب قوله، وقال إن التحدي الأكبر ليس فقط الميزانية التي اضطرت الحكومة لتخفيضها بسبب انخفاض إيرادات النفط، ولكن هذا التحدي يتمثل في الفساد أيضاً.

لكن المسؤولين أقروا أن المشكلة تفاقمت منذ السنوات الأولى التي شابتها الفوضى عقب الغزو الأميركي حين فقدت مليارات الدولارات من التمويل الأميركي لإعادة الإعمار وتعامل مسؤولون أميركيون وعراقيون مع الأمر دون رقابة تذكر.

وهناك تقرير طريف لمنظمة الشفافية الدولية يقول إن الصومال وميانمار كانا فقط أكثر فساداً من العراق في عام ٢٠٠٨م، ولكن ما عدا قبل وبعد ذلك فالعراق في المرتبة الأولى.. رقم قياسي أليس كذلك؟.

العراق – في عهدة الاحتلال وأعوانه من مرتزقة المحتل عاد للوراء عشرات إن لم يكن مئات السنين ودخل موسوعة جينيز وكل الموسوعات في الكوارث والفساد، وتدهور أحوال بلد كانت كل المؤشرات العالمية تضعه في مصاف دول المنطقة العربية ويعتبره الصهاينة مهدداً خطيراً لهم.. الآن أصبح أضعف بلد في العالم وأفسد بلد في العالم وبلا سيادة أو هوية ومتقطع الأوصال ويعاني الفقر والتدهور الاجتماعي والاقتصادي.

لقد دخل العراق – بحسب الشيخ حارث الضاري أمين عام هيئة علماء المسلمين – من حصيلة الواردات النفطية منذ الأيام الأولى للاحتلال وحتى

اليوم ما يزيد عن (٢٥٠ مليار) دولار (وقيل ٢٨٠ مليار) وبعض التقارير تقول (٣٥٠ مليار) دولار.. فأين ذهبت هذه المليارات التي لم يصل منها شيء إلى الشعب العراقي، ولم يعلم مصيرها الكثير منهم؟!.

كيف يكون هذا هو حالة دولة ثرية بهذه الأموال ولهذه الدرجة ومع هذا فهي مرشحة لدخول موسوعة جينيز للأرقام القياسية للفقر!.

جيش الاحتلال في العراق.. بين الفرار والانتحار

حسين الرشيد[1]

قامت الحرب الأمريكية في العراق على مجموعة من الإغراءات التي قدمتها الإدارة الأمريكية السابقة برئاسة (جورج بوش) إلى جنود الاحتلال، وتمنيتهم بأن تكون الحرب في العراق مهمة سهلة، لا تستغرق سوى بضعة أسابيع، يعودون بعدها رافعين راية ما يسمونه (التحرير) بعد نشر الديمقراطية المزعومة في بلدٍ طالما وصفوا النظام الحاكم فيه بالدكتاتورية والتسلط.

غير أنّ الحقيقة الناصعة في هذا المقام: أنّ الرياح جرت بما لم تشتهِ إدارة البيت الأبيض حينما قررت إشعال الحرب واحتلال العراق منذ ستة أعوام.. فتلك التوقعات الوردية التي كان يتوقعها مسّعرو الحرب بأنّ العراقيين سوف يستقبلون جنود الاحتلال (التحرير) بالورود قد تبددت،

---

[1] مدير تحرير مجلة حضارة.

وأصبحت من سخريات الماضي والحاضر!! ليقع هؤلاء الجنود الغاصبون في مستنقع العراق الذي سقطوا فيه طواعية وكرهاً، وهم لا يعرفون الخروج منه، إلا وهم على نعوش الموت، أو أنهم يتمنونه ولا يكادون يحصلون عليه؛ من شدة ما لحق بهم من أذى نتيجة مشاركتهم العدوانية التي يتحملون مسؤولياتها.. وصار الموت لا يكاد يفارق فكر وخيال أي جندي من أولئك الجنود.. أو أن تلحق به عاهة جسمية من بترٍ لليدين أو الرجلين، أو تلحق به حالة نفسية أو عصبية، بما هو أشد من الموت أحياناً.. بعد أن واجهت قوات الغزو الظالم مقاومة شرسة وحملة شعبية منظّمة، بشكلٍ فاجأ المجتمع الدولي جميعاً، بما فيها قوات الاحتلال!! إذ أسقطت المقاومة الباسلة هيبة أمريكا، واستنزفت قوّاتها العسكرية، وأربكت اقتصادها وميزانيتها، وأنهت الحلم الإمبراطوري التوسعي الذي كان يراود الأمريكيين منذ أن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم.. وبالتالي فإنّ جيش الاحتلال الأمريكي في العراق أمام أمرين لا ثالث لهما – اعتماداً على قراءة التاريخ والواقع- إما (عار) الهزيمة بما يلحقهم من خسران مادي ومعنوي، فضلاً عن الفضائح الأخلاقية التي يمارسها هذا الجيش، الذي يعتبره محللون من أفضع الجيوش؛ بسبب الفرق القذرة التي يضمها، وإما (الانتحار) الذي صار صفة ملازمة؛ للتخلص من مرارة الواقع الذي يعيشه الجندي الأمريكي في العراق، مع ما يلحق بعضهم من قتلٍ، ومرض، وإعاقة، وحالات نفسية متردية، حسب تقارير كثيرة، سيتضح بعضها بعد قليل.

هزيمة القوة التي لا تقهر..

حكاية (الهزيمة) الأمريكية في العراق صارت مسألة مفروغاً منها باعتراف بعض الأمريكيين أنفسهم، ولا داعي للمكابرة؛ لأنّ أمر ذلك صار

متواتراً، ولا يستطيع أن ينكره لا عدو ولا صديق، بعد أن انطلقت شرارة المقاومة سريعةً جداً، بل ربما هي الأسرع في تاريخ مقاومة الشعوب للاستعمار، بصورة شديدة الكفاءة والتميز، لترتفع وتيرتها يوماً بعد يوم؛ فتزداد أعداد القتلى من جيش الاحتلال، بما جعل من الصعب على قادة أمريكا وشعبها تحمّل إلحاق الهزيمة بها[1]، بل وإحساسهم بأنّ مسلسل الخسائر اليومي لأفراد قوات الاحتلال لا يمكن تحمله طويلاً.

وإذا أردنا القفز على فترة زمنية، من خلال تصورنا للبداية الحقيقية للهزيمة الأمريكية؛ فإنه لابد من معرفة أنّ أمر الهزيمة بدأ بجدية كاملة، بعد انهزام الجمهوريين في انتخابات الكونجرس، ما دعا الرئيس الأمريكي (جورج بوش) إلى القول بأنّ كل الاحتمالات بالنسبة للعراق مفتوحة.

وما رافقه وتبعه من تصريحات بعض المسؤولين الأمريكيين، بأن الولايات المتحدة ليس لها أن تبقى في العراق إلى ما لا نهاية، في وقت تستنزف فيه الثروة المالية الأمريكية، بما أرهق اقتصاد هذا البلد.

ويعترف كثير من المحللين العسكريين بأنّ طليعة الهزيمة الأمريكية في العراق ألقت بظلالها منذ الإطاحة بوزير الدفاع الأمريكي السابق ومسّعر الحرب (دونالد رامسفيلد)؛ إذ لم تكن الإطاحة بهذا الرجل مجرد تغيير وزير، فالرجل أحد أهم رموز المشروع الإمبراطوري الأمريكي، وأحد أهم مهندسي ومنظري المحافظين الجدد، والمسؤول الأول عن الحرب في العراق أخلاقياً

---

[1] جدير بالذكر أنّ العسكرية الأمريكية استعملت كل ما في وسعها من أجل القضاء على المقاومة العراقية، دون جدوى، إذ استخدمت الطائرات والدبابات والصواريخ واقتحام المدن والتعذيب والإذلال والاعتقال، بما يزيد المقاومة قوة في كل مرة، وتحققت بذلك نتيجة حتمية عند قادة أمريكا مفادها: أنه لا يمكن القضاء على المقاومة، وبالتالي فلا بديل سوى إعلان عار الهزيمة.

وقانونياً، وهذا يعني اعترافاً بالفشل، وطريقة مهمة من طرق الهزيمة التي تلاحق الأمريكيين.

ومن المهم قراءة ما اقترن بهذه الهزيمة التي مُنيَ بها (رامسفيلد) من إصرار الديمقراطيين، الذين يشكلون غالبية مجلسي (النواب) و(الشيوخ) الأمريكيين، على ضرورة الانسحاب من العراق، بعد أن صارت ميزانية الحرب المستعرة في العراق – وأفغانستان– تحت سيطرتهم، بما أرهق جورج بوش في كثير من الأحيان.

ثم تعزز ذلك بقول الناخب الأمريكي بكل وضوح (لا لاستمرار الحرب في العراق) يوم أن انتخب المرشح الديمقراطي (باراك أوباما) الذي رفع شعار (أولوية الخروج من العراق)، وبالتالي فهو مضطر أمام أبناء الولايات المتحدة الأمريكية إلى تلبية رغبتهم ورغبته.. في وقت توالت فيه التقارير الأمريكية التي أصدرتها (أجهزة الاستخبارات) على مدى السنتين الماضيتين، بأنّ الفشل هو الطريق الأقرب للأمريكيين، وأنّ إمكانية تحقيق النصر صارت أمنية لا يمكن نيلها.. لتعضد تلك التقارير تخوف الأمريكيين من التراجع الأمريكي، ففي استطلاع أجرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية منذ عام (٢٠٠٧م) إنّ (٣٣%) من الذين استُطلعت آراؤهم متخوفون من التراجع الأمريكي في العراق، و(٣٥%) منهم واثقون، ويعتري القلق (٥٥%) منهم حول الوضع في العراق.. ويضيف الاستطلاع أنّ ثقة الشارع الأمريكي بالحرب تراجعت من (٨٣%) عند بداية الحرب عام (٢٠٠٣م) إلى (٣٥%) فقط، كما تدهور الاعتداء الأمريكي بها من (٦٥%) إلى (٣٠%) حالياً (٢٠٠٧م)، وأشار الاستطلاع إلى أنّ ٦١% من الشعب الأمريكي لم يرَ في غزو العراق أي جدوى؛ حيث تواصل تدهور معدل المؤيدين للحرب، ليصل

إلى (٣٧%) العام الماضي، وقف عند (٣٥%) فقط وفق استطلاع أخير[1].. وبالتالي فإنّ الانسحاب (عار الهزيمة) هو النتيجة الحتمية لتلك القوات الغازية.

وبعد صعود (باراك أوباما) إلى سدة حكم البيت الأبيض، جاء الإعلان الرسمي عن الهزيمة التي تجرعها مع شدة مرارتها، في خطابه الذي ألقاه في بداية شهر آذار من عام (٢٠٠٩م) بسحب جنود الاحتلال من العراق سحباً جزئياً ينتهي في شهر آب من عام (٢٠١٠م)، على أن يتم سحب كافة جنود الاحتلال بنهاية عام (٢٠١١م)، واعترف بأنه سيبقى في العراق ما بين (٣٥-٥٠) ألف جندي أمريكي لمهمات غير قتالية، زاعماً أنها ستساعد العراقيين في إعادة الأعمار وتدريب قوات الشرطة والجيش!!، في وقت يعزو فيه المراقبون أسباب هذا الإعلان إلى الخسائر المادية بالأرواح والمعدات كما أشرنا قبل قليل، بالتزامن مع الهزة العنيفة للاقتصاد الأمريكي الذي يشهد تهاوياً لم يشهد له مثيلاً منذ زمن طويل.. وقد صرح بعض المسؤولين الأوربيين أن الأزمة المالية العالمية وتأثر أمريكا بها هو سبب قرار الرئيس الجديد بسحب جنوده من العراق!! في وقتٍ توقّع فيه (باراك أوباما) أن تكلفة الحرب في العراق وأفغانستان ستصل هذا العام إلى ما يقرب من (١٤٠) مليار دولار.

لقد تجرع الرئيس الأمريكي الجديد مرارة الهزيمة في العراق التي وضعها في عنقه سلفه المهزوم (جورج بوش) واتخذ قراره الذي يعتقد جميع المعنيين بأنه جاء متأخراً كثيراً؛ بسبب السياسة الهوجاء التي كانت تمارسها الإدارة السابقة، والتي أودت بالعراق والعراقيين في مآسٍ كثيرة نتيجة ما

---

[1] ينظر: أرقام تحكي العالم، للأستاذ عمرو توفيق ص٧٩ .

تعرضوا له من قتلٍ ما يزيد على مليون وربع المليون من أبنائـــه، واعتقـــال عشرات الألوف منهم في صور مذلة، وما تعرضوا له مـــن تـــأجيج الفتنـــة الطائفية، وإذكاء روح العنصرية والقومية، وإذكاء المشاريع التقسيمية، وإهدار الثروة العراقية، وإشاعة مبدأ المحاصصة والفساد وهدر الأموال، وما شـــابه ذلك من أمور جعلت العراق الأسوأ بين بلدان العالم أمنياً وسياسياً.

وصار موضوع الانسحاب من العراق الحل الأمثل، الذي لا يمكن العدول عنه لإنقاذ جنود الغزو من المحرقة التي سقطوا فيها، وبات الجـــدال منـــصبّاً على توقيت الانسحاب، وتهيئة الظروف المناسبة له، فإدارة الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) حرصت على أن يكون الانسحاب (منظمـــاً) بحيـــث لا تهدر معه الكرامة الأمريكية، ولطالما كرر (بوش) ونائبـــه (ديـــك تـــشيني) عبارتهما الشهيرة "نريد خروجاً مشرّفاً من العراق"، وفي الوقت ذاته يجب أن يضمن الانسحاب عندهم الحد الأدنى من العملية السياسية في العـــراق، فيمـــا يصر الديمقراطيون والرئيس الحالي (باراك أوباما) على الانـــسحاب المبكـــر وفق جدول زمني لخطة الانسحاب؛ مدركين أنَّ كل شهر يمر يكلفهم خـــسائر كبيرة بأرواح جنود الغزو هناك، فضلاً عن التكلفـــة الماديـــة التـــي أرهقـــت أمريكا، وأربكت اقتصادها المتهاوي؛ فعلى حد إفادة الكونجرس الأمريكي فإنَّ الكلفة الإجمالية لما يسمى الحرب على الإرهاب (الغزو) قد تصل إلـــى (١٤) تريليون دولار بحلول عام (٢٠١٧م).

والآن وقد تأكد موضوع (هزيمة جيش الاحتلال الأمريكي)، فمـــا الـــذي تعنيه لقادة أمريكا؟ وكيف يمكن تفسيره بالواقع الذي تعيـــشه الأمـــة العربيـــة والإسلامية، في ظل ما تتعرض له من مكايد ومخططات مشبوهة ومؤامرات؟ إنَّ الهزيمة في العراق لها تداعيات استراتيجية كبرى على مستوى خطـــورة الصعود الذي تنتظره بعض الدول الهادفة لنشر مشروعها من ناحية، وعلـــى

مستوى التداعيات بالنسبة لدول المنطقة، وأيضاً على مستوى إحساس الشعوب بالقدرة على مواجهة العدوان الأمريكي، وعدم قدرة آلة الحرب العسكرية على إخضاع الشعوب، الأمر الذي سيقلص قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على فرض إرادتها بسهولة على الآخرين.. فضلاً عن رفع الروح المعنوية لقوى الممانعة – بما فيها قوى المقاومة المسلحة- للمشروع الأمريكي.. ثم إنَّ الهزيمة في العراق تعني أيضاً فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي، الذي كان يخطط للقفز على بعض الدول المجاورة وغير المجاورة للعراق، بل إخضاع المنطقة بالكامل للنفوذ، المتمثل باليمين الأمريكي (المحافظين الجدد).

بالتالي فإنَّ هناك تعويلاً أوربياً، ومراهنةً غربية على النصر الأمريكي في العراق، حتى صارت خسارة أمريكا في العراق خسارة لكل شعوب أوربا، قال رئيس الوزراء البريطاني السابق (توني بلير) : ((إنَّ هزيمة أمريكا في العراق، هزيمة للغرب كله)) وقال (رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة): ((إنَّ قيمة انتصار أمريكا على المقاومة العراقية يساوي أو يزيد على الانتصار في الحرب العالمية)) وقال (هنري كسنجر) قبل سنين: ((إن خسارة أمريكا في العراق معناها خسارة الغرب لكل ما حققه في الخمسة قرون الماضية)).

عار الفرار ..

من الأمور التي لحقت بجنود الاحتلال هو (فرارهم من خدمتهم الإلزامية) التي أجبروا على أدائها في جحيم العراق، بسبب ما لاقوه – وما يلاقونه – من مقاومة شرسة، حتى بلغت معدلات فرار الجنود الأمريكيين من الخدمة أعلى معدل لها منذ عام (١٩٨٠م) وبلغت الزيادة في عددهم حوالي (٨٠%) وذلك منذ بدء غزو العراق في (نيسان/ مارس) عام (٢٠٠٣م)، ورغم أنَّ

العدد ما زال أقل مما كان عليه خلال الحرب الفيتنامية، إلا أنه أخذ يشهد زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية، عندما حقق قفزة بلغت نحو (٤٢%) في العام الماضي، ووفقاً للجيش الأمريكي فإن تسعة جنود من بين كل ألف جندي فروا من الخدمة عام (٢٠٠٧م)، ليرتفع عدد الجنود الفارين من الخدمة إلى (٤٦٩٨) جنديّاً، مقارنة بنحو (٧) من كل ألف فروا في العام السابق، والذين بلغ عددهم (٣٣٠١) جندياً عام (٢٠٠٦م)[1].

وكشفت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أنَّ عدد الجنود الذين فروا من الجيش الأمريكي، رفضاً للمشاركة في حرب أمريكا على العراق وأفغانستان في عام (٢٠٠٦م) بلغ (٣١٩٦) جندياً، ويزيد هذا الرقم من الجنود الفارين من الجيش الأمريكي عن العدد الذي تم تسجيله في العام الذي سبقه (٢٠٠٥م) بواقع (٨٥٣) جندياً.

وقد كشفت مجلة (دير شبيجل) أنَّ أكثر من (٢٥) ألف جندي أمريكي هربوا من الخدمة العسكرية منذ بداية الحرب في العراق ولغاية منتصف العام الماضي.. وقد قال أول جندي أمريكي يهرب من العراق ويطلب اللجوء السياسي في ألمانيا: إنَّ قرار لجوئه إلى ألمانيا جاء بسبب عدم رغبته في مساعدة بلادهِ على قتل الأبرياء!!.

أما ما يخص الجيش البريطاني – الذي يعدُّ ثاني أكبر الجيوش المشاركة في احتلال العراق بواقع (٧١٠٠) جندي– فقد كشفت وزارة الدفاع البريطانية منذ عام (٢٠٠٦م) عن ارتفاع وتيرة فرار الجنود البريطانيين من الخدمة في الجيش بعد احتلال العراق منذ عام (٢٠٠٣م)، وأكدت الوزارة بأنَّ عدد هؤلاء الجنود البريطانيين الذين هربوا أو تغيبوا عن الخدمة دون عذر وصل

[1] من تقرير نشرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية عام ٢٠٠٧م.

إلى (١١ ألف جندي)، وأوضحت الوزارة أنَّ عدد الجنود الذين فروا هذا العام وحده (٢٠٠٦م) بلغ (٢٨٣) جندياً، بينما بلغ عدد الفارين العام الـذي سـبقه (٢٠٠٥م) حوالي (٢٧٩) جندياً، في حين وصل عددهم خلال العام الذي سبقه (٢٠٠٤م) ما يقرب من (١٥٧) جندياً.

إنَّ ظاهرة فرار جنود الاحتلال – بمختلف تشكيلاتهم – يؤكد حقائق لابد من التطرق إليها والكشف عنها، فهي في حقيقتها تعكس مدى الضغط الـذي تتعرض له قوات الاحتلال، نتيجة المقاومة الشرسة والمنظمة التي يلاقونهـا بوتيرة متناسقة دون انقطاع منذ بداية الغزو ولحد هذه اللحظة، فـضلاً عـن حقيقة التفكك الرهيب الذي تعيشه تشكيلات تلك الجيـوش الغازيـة بعـد أن صحت ضمائر بعض هؤلاء الجنود في مواجهة التحدي الـذي يواجـه تلـك الجيوش، بعد غياب العامل الوجداني الذي جاءوا من أجلـه بحجـة تحريـر العراقيين من الظلم والاستعباد، بعـد أن تكـشف لهـم زيـف الادعـاءات والإغراءات التي مُني بها أولئك الجنود.

انتحار الجنود ..

تشير مجموعة كبيرة من التقارير المختلفة إلى تنامي حالة الانتحار، التي بدت تقض مضاجع مـسؤولي إدارة البيـت الأبـيض – الـسياسيين مـنهم والعسكريين على حد سواء – وزاد اهتمامهم بها، وهذه التقارير هي توضـيح مناسب لهذه الحالة الخطيرة التي يتعرض لها جنود الاحتلال، بعد أن أوصلهم إدراكهم بأنَّ الموت أكثر راحة لهم بكثير من العيش في حيـاة مليئـة بالـذل والهوان، بعد أن عجزوا عن تحقيق المهمة التي طالما كان يحلم بتحقيقها سيد البيت الأبيض السابق (جورج بوش) بعد أن قال مراراً أن القوات الأمريكيـة لن تغادر ما لم تحقق مهمتها في العراق، وهي مهمة مجهولة لا يعلم أحـد أي

شيء عنها، بما فيهم المشتركون في العملية السياسية الحالية، ضمن المشروع الأمريكي بعد الاحتلال!!.

وقد أكدت دراسة أصدرها معهد الصحة النفسية في (ولاية ميرلاند)، وهو أعلى جهة حكومية بالولايات المتحدة في مجال الصحة النفسية: أنّ عدد جنود الولايات المتحدة الذين انتحروا بعد عودتهم من العراق يمكن أن يفوق عدد الجنود الذين قتلوا هناك منذ احتلاله بحسب الأرقام الأمريكية المعلنة التي يشكك المتابعون كثيراً بصحتها.

واستند المعهد في استنتاجه إلى جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، إلا أن الناطقة باسم الوزارة (سينثيا سميث) رفضت نفي النتيجة أو تأكيدها، لكنها قالت: إن المسؤولين في (البنتاجون) ينظرون إلى حوادث انتحار الجنود الأمريكيين العائدين من العراق باهتمام كبير!! وقالت الدراسة التي أشرف عليها مدير المعهد توماس أنسيل: إنّ البحث امتد لشهور، وتعاونت فيه جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع.

وكانت قضية انتحار (العائدين من العراق) قد شغلت أجهزة الإعلام الأمريكية لبعض الوقت إلا أنها لم تخضع من قبل لدراسة إحصائية من جهة لها مصداقية.. وسبق أن أصدر (معهد راند) دراسة قال فيها إن (٢٠%) من الجنود الأمريكيين الذين شاركوا في معارك بالعراق وأفغانستان يعانون من اضطرابات نفسية شديدة، غير أن دراسة (راند) لم تلج إلى مجال الربط بين وقائع الانتحار وهذه الاضطرابات، ولم تقدم مسحاً إحصائياً لتلك الوقائع.

وتؤكد التقارير أن عام (٢٠٠٣م) شهد ما يقرب من (٧٩) حالة انتحار بين جنود الاحتلال الأمريكي، منهم (٢٦) جندياً ضمن القوات القتالية، بنسبة تتجاوز (١٢،٤) حالة بين كل مائة ألف جندي.

وسُجّل ما يقرب من (١٤١) حالة انتحار خلال الفترة ما بين (٢٠٠٢م) و(٢٠٠٥م).

ودلت أرقام الجيش على أن أكثر من ألفي جندي حاولوا الانتحار خلال عام (٢٠٠٦م) وبلغ عدد الجنود الذين انتحروا بالفعل (١٠٢) جندياً خلال ذلك العام.

وقد نقلت (سي أن أن) أنّ دراسة عسكرية لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) خلصت إلى أنّ معدل انتحار أفراد القوات الأمريكية ارتفع خلال عام (٢٠٠٧م) إلى أعلى مستوى له منذ أكثر من عشرين عاماً.. وبحسب تقارير صادرة عن جيش الاحتلال الأمريكي، فإنّ عدد حالات الانتحار بين الجنود الأمريكيين خلال عام (٢٠٠٧م) بلغ (١١٥) حالة، مقارنة بـ(١٠٢) حالة في عام (٢٠٠٦م) الذي كان هو الآخر يعدّ الأعلى خلال العشرين عاماً الأخيرة.. ويقرّ البنتاغون بأنّ السنوات الخمس الأخيرة التي شهدت عمليات عسكرية واسعة في العراق وأفغانستان قد سجلت ارتفاعاً غير مسبوق في حالات انتحار الجنود الذين ما زالوا في الخدمة، فيما أشارت الدراسة نفسها إلى أنّ أكثر من حالتين من بين كل خمس حالات انتحار لجنود عادوا للتو إلى وطنهم من أماكن القتال التي يتوزعون عليها في الخارج (العراق وأفغانستان).

غير أنّ حصيلة عام (٢٠٠٨م) بشكل عام كانت الأعلى منذ بدء عمليات الإحصاء قبل ثمانية وعشرين عاماً؛ إذ سجل انتحار (١٣٣) جندياً، والذي كان بدوره الرقم الأعلى منذ بدء الاحتلال بإحصاء عدد المنتحرين في جيشه.. وأشارت التقارير أنه في شهر كانون الثاني من عام (٢٠٠٩م) زاد عدد الجنود الذين انتحروا على عدد زملائهم الذين قتلوا بستة أضعاف، وحتى ضمن القوات البحرية "المارينز"، وبينت الإحصاءات أن عدد المنتحرين من

الجنود قد زاد عام (٢٠٠٨م) ليصل إلى (٣٣)، مقارنة بـ(٢٥) منتحراً عام (٢٠٠٧م) حتى أنها تجاوزت جميع الأرقام التاريخية.. وهذا ما دفع قاعدة "فورت كامبل العسكرية الأمريكية" إلى إغلاق أبوابها، بعد توالي حوادث الانتحار بين جنودها.. حتى وصلت نسبة حالات الانتحار المؤكدة إلى (٢٠,٢%) من كل مائة ألف حالة.

وتفيد إحصائيات الجيش الأمريكي أنّ (٣٠%) من عمليات الانتحار قام بها جنود لدى إرسالهم في مهمات، وأنّ ثلاثة أرباع هؤلاء الجنود كانوا يقومون بأولى عملياتهم.. كما تشير الإحصاءات إلى انتحار جندي من كل ثلاثة أي بنسبة (٣٥%) لدى عودته من مهمة استغرقت عموماً أكثر من سنة؛ إذ عمد الجيش إلى وضع برامج وقائية، واتخاذ تدابير للتعرف إلى الجنود الذين يعانون من مشاكل نفسية.

فقد أقدم (٢٤) جندياً من سلاح البر الأمريكي على الانتحار في العراق، و(٣٩) بعد عودتهم من الحرب، وذلك ابتداءً من مطلع عام (٢٠٠٨م) وحتى شهر آب من العام نفسه.

وأوضحت بعض الدراسات: أنّ عمليات الانتحار مرتبطة بشكل كبير بعمليات الطلاق، أو الانفصال، أو بسبب الصعوبات المالية، أو لأسبابٍ أخرى.

ومما يذكر أنّ جندياً تلقى بريداً من زوجته تقول له فيه (أريد الطلاق)، ثم انتحر.

وهناك عامل آخر في هذه العمليات وهو الإرهاق الذي يعانيه بعض الجنود لدى عودتهم والذي قد يؤدي إلى تشويش علاقاتهم الشخصية.. وعلى سبيل المثال: بين الجنود الـ(١٠٢) الذين انتحروا في عام (٢٠٠٦م) هناك

(٧٢) جندياً لم يكونوا في الخارج و (٢٧) كانوا في العراق وثلاثة في أفغانستان.

ومعظم الجنود الذين انتحروا هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨) و(٢٤) عاماً، ولكنَّ الخبراء بدأوا يتحدثون عن ارتفاع عمليات الانتحار لدى الأكبر سناً وفي صفوف النساء، حيث انتحرت (١١) امرأة في (٢٠٠٦م) من اللاتي يخدمن في صفوف الجيش الأمريكي.

ولعل ملخص هذا الموضوع ما ذكره نائب رئيس أركان الجيش الجنرال (بيتر شياريللي) الذي ربط حالة ارتفاع عدد المنتحرين من الجنود الأمريكيين بطول المدة، والوتيرة المتزايدة للمهمات التي تعقد العلاقات بين الجنود وعائلاتهم.. ورجحت مصادر طبية أن يكون للأمر علاقة بأشهر الشتاء الباردة والقاسية، وتزايد المهام المرهقة، والإكثار من الأدوية المضادة للاكتئاب.

وقد نبهت كبيرة أخصائيي علم النفس لدى قوات الاحتياط الأمريكية (العقيد كاثي بلاتوني) إلى أنَّ الكثير من الأدوية المضادة للاكتئاب التي يتناولها الجنود تترك آثاراً جانبية، تغذي فكرة الانتحار لديهم، وخاصة أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٨-٢٤ عاماً.

حالة جنود الاحتلال ..

لا يعدو أنَّ يلقى الجندي الأمريكي نصيبه الحتمي في العراق، فما بين قتله، أو عيشه برعب وخوف دائم بما يجعل الموت وسيلة راحة من الحياة، وما بين إصابته بحالة نفسية، أو إعاقة دائمة في جسده، من بتر اليدين أو الرجلين أو أحدهما، أو تشوه خلقي، وما شابه ذلك.

هناك تقارير ودراسات توضح الحالة الطبية والنفسية التي يعيشها جنود الاحتلال، سواء في ساحة المعركة في العراق، أو بعد إعاقتهم ونقلهم إلى بعض المستشفيات خارج العراق، أو بعد انتهاء مدة خدمتهم وعودتهم إلى وطنهم.

ووفقاً لما أظهرته الإحصائيات؛ فإنّ عدد حالات الإصابة بأحد الأمراض النفسية أو العقلية بين الجنود الذين خدموا في العراق أو أفغانستان زاد بنسبة (٥٨%) خلال عام واحد، فقفزَ العدد من (٦٣,٧٦٧) ألف مريض بنهاية شهر حزيران عام (٢٠٠٦م) إلى (١٠٠,٥٨٠) ألف مريض بنفس الشهر من عام (٢٠٠٧م).. بينما زادت حالات الإصابة بمرض نفسي واحد فقط يُعرف بـ"اضطراب ما بعد الصدمة" وهو نوع من الاضطرابات العصبية، بنسبة (٧٠%) خلال نفس الفترة المتقدمة؛ ليصل بذلك عدد المصابين بهذا المرض إلى ما يقرب من (٥٠) ألفاً، وهو رقم يزيد كثيراً عن رقم الـ(٣٠) ألفاً، الذين تعترف بهم وزارة الدفاع رسمياً كمصابين في معارك أفغانستان والعراق، وهو ما يعني أن الكثير من المرضى الذين يصابون بأمراض نفسية نتيجة القتال، يتم حسابهم ضمن أعداد المصابين.

ومن نافلة القول معرفة أنّ مرض (اضطراب ما بعد الصدمة) الذي يعرّف بأنه (اضطراب نفسي خاص يتبع تعرض الشخص لحدث مؤلم جداً "صدمة" ويتخطى حدود التجربة الإنسانية المألوفة) لم يكن موجوداً في قاموس الطب النفسي، غير أنه بدأ تدريجياً في الظهور عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث اكتشفت بعض الأعراض النفسية على الجنود في ميادين الحرب، ولكن هذا تم تعميمه على ما يحدث عقب الكوارث كالزلازل

والفيضانات والصدمات الكبيرة في الحياة والتي تشمل مجموعات كبيرة من الناس[1].

وفي إحصائية نشرت منتصف عام (٢٠٠٨م) بينت ارتفاع نسبة حالات الإصابة باضطرابات ما بعد الصدمة بين الجنود الأمريكيين الذين خدموا في أفغانستان والعراق بنسبة (٤٦,٤%) في العام (٢٠٠٧م)؛ ليبلغ العدد الإجمالي لحالات الإصابة حوالي (٤٠) ألف حالة في سنوات الاحتلال الخمس الماضية.

وبحسب إحصاءات أصدرها الجيش الأمريكي؛ فإنّ عدد الحالات التي شُخِّصت على أنها "اضطرابات نتيجة التعرض لصدمات" ارتفع حتى نشر التقرير من (٩,٥٤٩) حالة في عام (٢٠٠٦م) إلى (١٣,٩٨١) حالة عام (٢٠٠٧م)؛ وذلك في ظل زيادة فترة خدمة الجندي في العراق من سنة واحدة إلى (١٥) شهراً، وإرسال المزيد من القوات لمجابهة المقاومة الساخنة بالعراق وأفغانستان؛ ليصل عدد المصابين الإجمالي إلى (٣٩,٣٦٦) حالة في المدة من أول كانون الثاني (٢٠٠٣م) إلى آخر كانون الأول (٢٠٠٧م).. وأفادت الإحصائية: أنّ المصابين يشكلون تفصيلاً (٢٨,٣٦٥) حالة بين أفراد الجيش، و(٥,٦٤١) حالة بين مشاة البحرية، و(٢,٨٨٤) بين أفراد البحرية، و(٢,٤٧٦) بين القوات الجوية[2].

وعلق الجرّاح في جيش الاحتلال الأمريكي الجنرال الطبيب (إريك شوميكر) على تلك الأرقام بالقول: إن (المسؤولين لا يملكون أرقاماً وبيانات يمكن الاعتماد عليها حول عدد الجنود الذين يعانون من خلل نفسي أو توتر

---

[1] ينظر: صحيفة الوقت البحرينية العدد (١٧٢) الجمعة ١٧/رجب/١٤٢٧ هـ ، ١١/آب/٢٠٠٦م.

[2] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٥/٢٠٠٨م .

بعد العودة من الحرب أو عدد الجنود الذين سعوا إلى الحصول على علاج لأعراض هذا الخلل بعد العودة من العراق أو أفغانستان).

وأضاف إن (ارتفاع عدد الجنود المصابين بهذا النوع من الخلل النفسي في السنوات الأخيرة يعود إلى زيادة الوعي وتتبع مثل هذه الحالات في الجيش فضلاً عن تعرض المزيد من القوات لعمليات قتالية).

واعتبر أن (تلك الأرقام لا تعكس المعدل الحقيقي نظراً لأن عدداً من المصابين بتلك الأعراض لا يسعون إلى العلاج أو أن بعضاً من المصابين هم من المدنيين العاملين مع الجيش).

ووفقاً لأرقام وزارة الدفاع (البنتاجون) فإن قوات جيش الاحتلال ومشاة البحرية شهدت ارتفاعاً كبيراً في عدد الحالات المصابة بخلل نفسي وتوتر بسبب الحرب حيث بلغ ذلك العدد في قوات جيش الاحتلال (٢٣,٣٦٥) فيما بلغ في قوات المارينز (٥,٦٤١) جندياً.

بل إنّ مؤسسة (راند كوربوريشن) أوضحت في دراسة أعدتها بأنّ ما لا يقل عن (٣٠٠) ألف جندي أمريكي من أصل مليون وستمائة ألف جندي يعانون من اضطرابات نفسية منذ العام (٢٠٠١م).

ويوجد لدى جيش الاحتلال في العراق أربع عيادات، يعمل فيها أطباء نفسانيون وأخصائيون في علم النفس، إلى جانب مرشدين اجتماعيين وممرضين، ويمكن بقاء جنود الاحتلال فيها؛ لمجرد تبادل الحديث، أو المعالجة، أو للاستراحة فقط.

ولعلّ أكبر تلك العيادات تلك التي في (معسكر ليبرتي) الذي يعد من أكبر القواعد العسكرية الأمريكية في العالم، ويقع قرب مطار بغداد، ويتمركز فيه ما لا يقل عن خمسين ألف جندي أمريكي.

وتخصص لجنود الاحتلال الأمريكي عيادة لمعالجة (الإجهاد الناجم عن المعارك)؛ إذ يتم فيها استقبال الجنود من قبل طبيبٍ نفساني يقوم بتشخيص العلة ووصف العلاج المناسب لها، وفضلاً عن ذلك يتلقى المريض في تلك العيادة بعض الإرشادات والتوجيهات النفسية التي تلقى عليه أو تكتب له على جدران العيادة، ولعل من أهمها مخاطبة الجنود بالقول (لا تترك أبداً زميلاً يقاتل وحده، اصغِ إليه؛ فليست كل الجروح مرئية، ومنع الانتحار من مسؤولياتك، يجب جلب المساعدة لرفيقك)!!.

ومع كل ذلك؛ فإن ثمة انتقادات لا تنقطع عن إهمال المسؤولين والأطباء الأمريكيين للجنود الذين يتعرضون لإصابات خلال المعارك التي يشاركون فيها.. ويتمثل ذلك الإهمال بحالات متعددة أهمها ما يأتي:

١- **الإهمال الصحي:** وكانت فضيحة هذا الإهمال لجنود الاحتلال بعد تعرضهم للإصابات وعدم الاكتراث بحالتهم الصحية، قد تفجّرت في الولايات المتحدة بعدما كشفت صحيفة (واشنطن بوست) عن المشكلات التي يعاني منها الجنود في مستشفى (ولتر ريد) والتي تعّد أكبر مستشفى عسكري أمريكي إذ قالت: إنَّ الجنود يستكملون علاجهم هناك في مبنى متداعٍ يعج بالفئران والغبار والصراصير.. وأكدت أن (البيروقراطية) في هذه المستشفى تعيق تقديم المساعدات لجنود مصابين بإصابات بالغة[١].

٢- **الإهمال الاجتماعي:** بسبب عدم إدراج جملة كبيرة من جنود الاحتلال ضمن قوائم المصابين، وقد فجرّت صحيفة (يو أس أي توداي) الأمريكية فضيحة جديدة لوزارة الدفاع (البنتاغون) حيث كشفت عن وجود ما لا يقل عن (٢٠) ألف جندي شاركوا في القتال بالعراق وأفغانستان، إلا أنهم غير

[١] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٢/٢٠٠٨م.

مدرجين على قوائم الجيش كمصابين، في حين أنهم يعانون من إصابات في المخ نتيجة المهام القتالية.

وفي جزئية أخرى، تقول إحدى الدراسات أيضاً: إنّ جنود أمريكا العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية، قد تودي بحياة المصاب أو تربكها على أقل تقدير.. وقد أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة (ويب ميديكال نيوز) الأميركية أنّ مجموعة كبيرة من الجنود الأميركيين القدامى العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية.

وكشفت الدراسة أن هؤلاء الجنود يعانون من أحد أنواع الأمراض الرئوية الذي يصيب القصيبات الهوائية في الرئة، لافتة إلى أن التهاب القصيبات ينتج عن أسباب عدة منها استنشاق السموم، أو الالتهابات الجرثومية، أو مرض الروماتيزم.

وأوضح الباحثون الذين أجروا الدراسة: أن الفحوصات الوظيفية للرئة والفحوصات الشعاعية التي أجريت على (٥٦) جندياً من الذين بدت عليهم أعراض المرض الرئوي لم تشر إلى وجود أية علامات مرضية، لكن تحليل أنسجة الرئة (**Biopsy**) أظهر فيما بعد تعرض نحو (٣٠) منهم لالتهاب القصيبات الرئوية، وأن معظمهم شخّصت حالاتهم على وجود إصابة بالمرض بسبب تعرضهم لفترات طويلة إلى غاز ثاني أوكسيد الكبريت الذي نتج عن اندلاع حريق في منجم للكبريت قرب إحدى مناطق محافظة الموصل شمال العراق.

وأوضحت وزارة الدفاع الأميركية أن الدلائل تشير إلى أن جماعات مسلحة كانت وراء اندلاع هذا الحريق الذي يؤكد المختصون أنه الأكبر من نوعه على الإطلاق.

وأكدت الفحوصات التي قام بها الجيش الأميركي لنماذج من الهواء في المنطقة حصول التلوث بغاز ثاني أوكسيد الكبريت بنسب ذات سمية واضحة.

وإذا اتضح ما تقدم؛ فإنَّ من المؤكد أن الحالة النفسية المزرية التي يصاب بها المعتدون على البلدان المنكوبة لا تحصر إصابتها بالجنود المحتلين، بل تلاحق حتى السياسيين المتواجدين هناك، نتيجة الضغوط والخوف والقلق الذي يرافقهم ولا يكاد ينفك عن أحد منهم، وقد أوضحت دراسة بأن (٤٠%) من دبلوماسيّ أمريكا يعانون أمراضاً نفسية، خاصة في العراق وأفغانستان[١].

أما ما يتعلق بجراحة الجنود وبتر الأطراف بسبب الإصابات التي يتعرضون لها في ساحة الحرب نتيجة المواجهات المستمرة في العراق؛ فقد كشفت صحيفة (الأوبزرفر) البريطانية أنَّ معدلات عمليات بتر الأطراف التي أجراها الجراحون العسكريون للجنود الأمريكيين في العراق، قد ازدادت بمعدل الضعف، مقارنة بالمستويات التي سُجلت في الحروب السابقة، وأشارت الصحيفة إلى أنَّ (٦%) من المصابين من الجنود الأمريكيين هناك يحتاجون إلى عمليات بتر، مقارنة بـ(٣%) في مناطق الصراع الأخرى.

ويؤكد جراح تقويم الأعضاء في المستشفى العسكري التي تعالج جنود الاحتلال الأمريكي وبعض القوات الأمنية الحكومية المتعاونة معها في الموصل (الكولونيل وين موسلي) أنَّ الإصابات الخطرة التي تتطلب البتر وتركيب أطراف اصطناعية تصل إلى (٨٠%) من الإصابات[٢].

أما جنود بريطانيا، فهم أيضاً يعيشون أياماً مأساوية في العراق، وقد أكدت صحف بريطانية أن جنود الاحتلال البريطاني العائدين من العراق

---

[١] ينظر: أرقام تحكي العالم ص٨٥.

[٢] ينظر: الحوار المتمدن العدد (١٩٩٢) بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٣٠م.

وأفغانستان يعانون من مستويات غير مسبوقة من مشاكل الصحة العقلية، إضافة إلى إهمالهم وتجاهلهم ونسيانهم من قبل الحكومة البريطانية.. وقالت صحيفة (الأندبندنت أون صنداي): إنّ حوالي (٢١) ألفاً من الجنود البريطانيين – من الذين أدّوا الخدمة في العراق أو جنود الاحتياط – قد مسّتهم أمراض نفسية من قبيل القلق والاكتئاب، وإنّ الأرقام الرسمية تشير إلى (٢٠) عسكرياً بريطانياً أقدموا على قتل أنفسهم منذ غزو العراق في مارس عام (٢٠٠٣م)، فيما يعيش أكثر من ألف جندي سابق مشردين بلا مأوى[1].

---

[1] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٢/٢٠٠٨م.

الاتجاهات الشعرية بعد احتلال العراق
وأثرها في دعم القضية العراقية

محمد مساعد آل جعفر[1]

لطالما كان المثقفُ والأديبُ والفيلسوفُ أولَ المعلنينَ للثورة، ولطالما كان القلمُ السلاحَ الأولَ في المقاومةِ عبرَ التاريخ، ولطالما كان "الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ".

وهذه الظاهرةُ ظاهرةٌ منطقيةٌ من حيثُ تدرّجُ الثورةِ أو المقاومةِ، فالشعبُ الرازحُ تحتَ حكمٍ جائرٍ وظلمٍ وقهرٍ، لا ينتقلُ من مرحلةِ الخوفِ التـامِ إلـى مرحلةِ المواجهةِ المباشرةِ السافرةِ إلا بعدَ مرورهِ بمرحلةِ الـصوتِ المتعـالي شيئاً فشيئاً، الذي يبدأُ النبشَ في أسوارِ الخوفِ والخنوعِ لدى المجتمعِ؛ ولـذلكَ نجدُ المعتقلاتِ والسجونَ لا تبدأ باستضافةِ الثوّارِ المسلحينَ والإنقلابيينَ مـن ضباطَ أو منشقينَ عسكريينَ إلا بعدَ أن تكونَ قد اكتضت واتخمت بـالمفكرينَ والأدباءِ والمثقفينَ وأصحابِ الشهاداتِ العليا، بلْ إنّ القلمَ هو الرفيقُ الأوفـى للثورةِ؛ فهو أبوها الذي يضعُ بذرتَها في رحمِ المجتمعِ الخائفِ المترددِ، وهـو

---

[1] باحث وأديب عراقي.

أمُّها الحاضنةُ الحانيةُ المستميتةُ للحؤولِ دون إجهاضِها أو ولادتِها مشوهةً غيرَ مكتملةِ الملامحِ، وهو أخوها الذائدُ عنها والرقيبُ على تصرفاتِها والحريصُ على سيرها في السبيلِ القويمِ؛ يؤنبُها ويوبخُها إذا حادت فلا يتركها إلا عروساً في خدرِها أو ذبيحةً في قبرِها؛ دماؤها تبرئةُ من ذنبِها وتحط من خطاياها.

ولمّا كانت الحالُ كما وصفنا فإنّ منَ المنطقِ أنْ نرى هذهِ الظاهرةَ مضاعفةً في عراقِ اليومِ إذا نظرنا إلى تاريخِ هذا البلدِ المليءِ بالثوراتِ وغاباتِ الأقلامِ وحجمِ المأساةِ التي يمرُ بها في الوقتِ الحاضرِ، فالعراقُ بلدُ الإحتجاجِ الأولِ بلا منازعٍ؛ فهو البلدُ الذي لم يرضَ عن حاكمٍ على كثرةِ ما تعاقبت عليهِ حكام، وطُبِّقَتْ عليهِ سياسات تراوحت ما بينَ سياساتِ أرجا من "لو أرادَ أهلُ العراق في كلِّ يومٍ حاكماً يولّى عليهم، فَولِّ عليهم في كلِّ يومٍ حاكماً"، وبين سياساتِ أنكى مِن "أنجُ سعدُ فقد هلك سعيد".

وهو أيضاً بلدُ الشعرِ الأولِ، وأولُ من دونَ بالقلمِ، وخط العِلمَ مساميراً على ألواحِ الزمانِ ونقوشاً ناطقةً بالحضارةِ على صخورِ الجهلِ الصمّاءِ؛ إلا أنّ.... (وهنا نقفُ.. وهنا نتنبهُ.. وهُنا تُسكبُ العبراتِ)؛ هذا البلدُ الجبارُ وهذا (المثقفُ الحرُّ الثائرُ) أو (الثائرُ المثقفُ) نراهُ اليومَ على غيرِ عادتِه؛ خفيضَ الصوتِ في الكلامِ عن قضيتِه؛ كسولاً في الكتابةِ عنها، وأنا هُنا لا أُنكرُ وجودَ الصوتِ الأدبيِّ المقاوِمِ، غيرَ أنّي لا أسمعهُ - كما لا يسمعهُ غيري- متناسباً معَ حجمِ العراقِ وحجمِ القضيةِ العراقيةِ وحجمِ الوعيِّ العراقيِ والثقافةِ العراقية.

ولأنّي اتخذتُ الشعرَ نموذجاً لقياسِ الحركةِ الأدبيةِ المقاومةِ والناطقةِ باسمِ المقاومةِ المسلحةِ في عراق اليومِ، فإنّي أقولُ: إنّ الحركةَ الشعريةَ بصورةٍ عامةٍ في العراقِ بعدَ الاحتلال الإنجلو أمريكي قد اتخذتْ عدةَ أوجه:

الوجهُ الأولُ : شعرُ رثاءِ الوطنِ. **والوجه الثاني**: شعرٌ يذمُّ الاحتلالَ دونَ التعرّضِ للحكومةِ المُنَصّبةِ من قِبَلِهِ. **والوجهُ الثالثُ**: شعرٌ يذمُّ الاحتلالَ والحكومةَ العميلةَ لهُ. أما **الوجهُ الرابعُ**: فشعرٌ يذمُّ النظامَ السابقَ (وهو في غالبهِ شعرٌ يقفزُ متجاوزاً جرائمَ الاحتلالِ)، **الوجهُ الخامسُ**: شعرُ المقاومةِ المسلحةِ.

وقد تتداخلُ بعضُ هذهِ الأوجهِ أحياناً فيما بينِها خاصةً ما تقاربَ منها في الغاياتِ، وهذهِ الأوجهُ توزعتْ على أنواعِ الشعرِ المختلفةِ؛ الشعرُ الفصيحُ بنوعيهِ: العاموديُّ والتفعيلةُ، والشعرُ العاميُّ المعروفُ في العراقِ، والشعرُ النَّبَطيّ البدويّ، والشعرُ الريفيّ من أبوذياتٍ ودارمياتٍ.

والذي يَهُمُّنا في الدرجةِ الأساسِ هنا؛ الشعرُ الّذي يخدمُ قضيةَ العراقِ في جانبِها الإنسانيّ وقضيةَ العراقِ في مشروعِهِ الجهاديِّ المقاوم؛ ولذلك سيتركزُ كلامي في وجهينِ رئيسينِ من أوجهِ الشعرِ سالفةِ الذكرِ؛ وهما (شعرُ رثاءِ الوطنِ) و(شعرُ المقاومةِ العراقيةِ)؛ محاولاً قدرَ الإمكانِ التعريج على باقي الأوجهِ ببعضِ الاستشهاداتِ والذكرِ.

الوجهُ الأولُ: شعرُ رثاءِ الوطنِ

وهذا النوعُ من الشعرِ فنٌّ معروفٌ أدبياً باسمِ (رثاءِ الممالكِ) و(رثاءِ المدنِ)، وقد وصلَ هذا الفنُّ ذروتهُ بسقوطِ المدنِ الإسلاميةِ في الأندلسِ غرباً على يدِ الإسبانِ، وهو في الحقيقةِ فنٌّ أندلسيٌّ في الدرجةِ الأولى رغمَ ظهورِ بوادرهِ في المشرقِ العربيِّ بسقوطِ بغدادَ والمدنِ الإسلاميةِ الشرقيةِ على يدِ التتارِ؛ قال الشاعرُ الأندلسيُّ (أبو البقاءِ الرنديّ) في رثاءِ الأندلسِ:

فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسيّة

وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ

وأينَ قرطبةٌ دارُ العلومِ فكَمْ

مِنْ عالمٍ قَدْ سَمَا فيها لهُ شـــانُ

وأينَ حمصُ وما تحويهِ من نُزَهٍ

ونَهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ

في قصيدةٍ هي مِنْ عيونِ الأدبِ العربيِّ ومِنْ أعذبِ ما كَتَبَهُ العربُ، وقال الشاعرُ البغداديُّ (ابنُ أبي اليسرِ) في رثاء بغداد:

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ

فما وقوفُكَ والأحبابُ قدْ ساروا

يا زائرينَ إلى الزّوراء لا تفدوا

فما بذاكَ الحِمَى والدّارِ ديّـــارُ

إنَّ القيامةَ في بغدادَ قدْ وُجِدَتْ

وحدَها حينَ للإقبالِ إدبـــــارُ

ومع أنّ الحالةَ الأندلسية تختلفُ عن الحالةِ البغداديةِ زمنَ التتار، ومـــعَ أنَّ الحالتينِ تختلفانِ كثيراً عن الحالةِ العراقيةِ الحاليةِ، إلا أنَّ الإسقاطاتِ الأدبيةَ لَمْ تعترفْ بذلكَ الاختلافِ كثيراً، وعلى المستوى الشخصيِّ فقدْ تشابَهَتْ عنـــدي القضيّةُ الأندلسيةُ مع القضيةِ العراقيةِ في أبياتٍ نُشِرَتْ لِي في إحدى المجلاتِ الخليجيةِ؛ حيثُ يقفُ الحبيبُ متحيراً في بكاءِ الحبيبةِ والبلدِ:

أبكيك وداد أم أبكي

وطناً يَبكيكِ ويَبكيني

أم أبكي عرساً كرخياً

من دجلة زُفَّ إلى الطينِ

ليأتيَ صوتُ الحبيبةِ بعدَ عدةِ أبياتٍ موبخاً الحبيب ومُعلنـــاً للقـــارئ بـــأنَّ القضيةَ قضيةٌ إسلاميةٌ عامةٌ، وليستْ قضيةً وطنيةً أو قضيةً عربيةً فقط:

وأنا والبلد المنعي

أصداء عويل وأنيـــنِ

فكأنـــا أندلسٌ أخرى

يبكينا المسلم في الصّينِ

كما أن اللحن الأندلسي الحزين وجد من يعزفه بأوتار عراقية فـي قلـب أمريكا عبر ديوان شعري للـشاعرة العراقيـة (بـشرى البـستاني) عنوانـه (أندلسيات لجروح العراق) حيث صدر هـذا الـديوان مترجمـاً الـى اللغـة الإنجليزية عن دار (ميلن برس) الأميركية؛ بعنـوان (شـعر معاصـر مـن العراق) وهي خطوة أدبية كبيرة لتعريف المجتمع الأميركي بحقيقـة القـضية العراقية، ودعم الرأي المناهض للاحتلال هناك؛ تقول بشرى البستاني:

"الجندي الأمريكي

يطلق ناراً فوق جبين صبي

منتفخ الصدر

سقط الطفل ببركة دم

إذ فكوا صدره

كانت أرغفة الخبز

تنزف تحت قميصه"

وتقول أيضا على لسان الطفولة:

"أصحو في الفجر على صوت الإطلاقات

ألم شظايا العتمة فوق سريري

يتسائل طفلٌ في شرفة قلبي

عمّا يفعله الأمريكي على البوابات"

ويتواصل رثاء الوطن لدى الشاعر العراقي (حميد سعيد) متخذاً رمزية الحضارة الباعثة بنور الحكمة والعلم وقد أحاطها ظلام الهمجية قائلاً:

"سبعة كهانٍ من أورْ

سبعة حكماء من بابلْ ... سبع أميراتٍ من آشورْ

النيران تحاصرهم ... في فردوس الوطن المغدورْ

يطردهم وحش العتمة ... من حقل النورْ"

وكذلك في هذا الصدد يسمعنا الشاعر (يحيى السماوي) أبياتاً غايةً في العذوبة من قصيدته (سبايا) :

واليومَ ليلى بات يحكُمُها نَذلٌ خسيسُ الذيلِ والرُدُنِ

جازَ البحارَ ليَستبي وطناً ويُقيمَ فيهِ إمارةَ الفِتَنِ

فأنا الشهيدُ لأنَّ عاشقتي مَسْبيَّةٌ وسَبيّةٌ مُدُني

ولأن الجرح العراقي يوجع الجسد العربي كله فيتداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى، نجد الشاعر السعودي (عبد الرحمن العشماوي) يرثي العراق بقصيدة طويلة، وجدت فرقة إنشادية تنشدها بلحن غاية في الحزن والرتابة المتماشية مع رتابة المأساة العراقية، يصوّر فيها جرائم سجن بغداد الكبير، وأبشع إهانات الجيش الأميركي لأبنائه، وقد قامت بعض مواقع فصائل المقاومة على شبكة الإنترنت بنشر هذا النشيد، مما يدل على اهتمام فصائل المقاومة بالدور الأدبي وتنبهها لخطورته:

يحاصرني من اللقطاء جيشٌ وبئس الجيش ليس له ضميرُ

تلاحقني مجندة وكلب

فيا الله أيهما الحقيــــــــرُ

ويطعن عفتي وغدٌ رماني

وفي عينيه شر مستطيــــــرُ

ويقرر بعدها أنه ما عاد في العراق الذي كان يعرفه:

سجين في العراق ولست فيه

لأن عراقنا سجن كبيــــــرُ

وما بغداد بغدادي فإنـــي

أراها لا تجار ولا تجيــــــرُ

وهكذا تستمر القصيدة بالرتابة المأساوية إلى آخر بيتين فيها حيث يتساءل فيهما عن ابتسامة أمل، أو نخوة سيف إسلامي، ولا نحسُّ في سؤاله تحيزاً إلى أمل يراه، أو يأس من الرجاء، وإنما ترك السؤال مجرداً:

أما في أمة الإسلام سيفٌ

يخاف صليله الباغي الكفـــورُ

أما لليل فيها من نهار

تغرد بابتسامته الطيـــــورُ

وإذا انتقلنا غير بعيد نجد الشاعرة الإماراتية (هدى السعدي) تحكي أوجاع العراق، وما لاقته وتلاقيه بغداد على يد المجرمين المحتلين، وللشاعرة اسهامات رائعة في هذا الجانب المهم من تاريخ العراق الحرج في ظل الاحتلال.

ويمتد رثاء العراق فيشمل نوعاً آخر من الشعر، ألا وهو الشعر البدوي، أو الشعر النَّبَطي في قصائد كثيرة، منها قصيدة الشاعر (عادل الشاهين الشمري) بعنوان (بغداد تبكي) ويقول فيها:

"تبكي تصيح تقول (عـــذرا) ياالاحرار
وجابوا على الشاشات كيف اغتصابه
كل قطعة من سترها موجز أخبار
بغداد وإن حلـّـت عليج الجنابـــه
تطهّري من دمّنا واغسلي العار"

ويعبر عن بغداد بمريم العذراء؛ إلا أنّه ينتقل في آخر الأبيات مـــن نبـــرة المأساة، إلى نبرة الأمل والتحدي، حيث يبشر مريم بقــدوم المقاومـــة التـــي ستنجبها عن قريب فهي لها بمكانة عيسى لمريم:

"ياطاهرة عيسى على باب الأسوار
ولا تموت أمة رسول الصحابة"

منهياً قصيدته بارتفاع التحدي إلى حد التحذير

"واللي يشب النار لا يامن النار"

ويرثي الشاعر (يوسف العتيبي) بغداد وأهلها، إلا أنه في رثائه يستـــصرخ زعماء الأمة لنصرة العراق؛ بمناسبة قرب انعقاد مجلس جامعة الدول العربية حينها، فيقول:

"ماني بناسي صبح بغداد الأمجاد
اللي حجب شمسها من الظلم بـــارود
وإن كان في التاريخ صورة لبغداد
هذي شوارعها عصابات وجنـــــود
يا قادة الأمة نبي منكم أنجاد
ضاعت علينا وقت الاغلال وقيـــود
شعب يعيش الغبن وينذل ويباد
قتيل ومشرد ولاجي ومفقـــــــود

تتخاكم آهات الثكالى بالاصفاد
وطريق مجدب بالملمات مسدود"

ولا يسعنا المجال هنا لذكر الأناشيد والأغاني الكثيرة التي تناولت رثاء العراق وبغداد.. فقد امتدت ساحتها طولاً وعرضاً، وشملت الشامي والمغربي، بل شملت العربي والأجنبي.

ولعل ما نختم به هنا كلمات أغنية فرنسية بعنوان (جو ما بيل بغداد) ومعناها (إسمي بغداد) تؤديها المغنية الفرنسية (تينا آرينا) حيث تقول الأغنية:

"إسمي بغداد
لقد عشت في سعادة غامرة في قصوري المصنوعة من الذهب الأسود والأحجار الكريمة
ونهر دجلة ينساب على الشطآن المرصوفة بالكريستال
حيث تزاحم ألف خليفةٍ للرقص معي ... كانوا يدعونني مدينة النِعَم..
إلهي كيف مضى ذلك الزمان ؟!
إسمي بغداد وقد سقطتُ تحت نيران الدبابات..
إسمي بغداد.. كأميرة مجهولة نسيتني شهرزاد..
عشتُ على أرضي كمتسولة مسكينة تحت الجرافات ..
وجبريل كان يلازمني..
وقد ندبت جمالي المخرّب فوق الجمر .. إنها روحي تلك التي اغتالوها
كانوا ينادونني عاصمة النور والمعرفة..
إلهي كيف ضاع كل شيء ؟!
إسمي بغداد.. ولقد سقطتُ تحت نيران الدبابات..
كأميرة مجهولة.. نسيتني شهرزاد..
قصصي الألف ليلة وليلة لم يعد يهتم بها أحد..

لقد دمروا كل شيء
إسمي بغداد: ولقد سقطت تحت نيران الدبابات..
كأميرة مجهولة نسيتني شهرزاد".

الوجه الثاني: شعرُ المقاومةِ العراقية

عرف الأدب العربي المعاصر شعر المقاومة بوصفه ظاهرةً فنية على أيدي شعراء فلسطين بالدرجة الأولى، وذلك منذ أيام الانتداب الإنجليزي، حيث يؤكد بعض الأدباء أن مؤسس هذا الفن هو (الشاعر إبراهيم طوقان) صاحب النشيد المشهور في كل البلدان العربية (موطني)، ومن المفارقات أن هذا النشيد قد أصبح النشيد الرسمي لعراق ما بعد الاحتلال، بعد أن تمّ اختياره من إحدى الحكومات، التي لا أدري أين يذهب أعضاؤها عندما يسمعون بعض الأبيات التي لو تدبروها جيداً لجعلوها في خانة التحريض على الإرهاب، ولو سمعوها بقلوب وضمائر حيّة – وهو شيء مستبعد طبعاً– لذابوا خجلاً من أنفسهم:

"الشباب لن يكلّ
همّهُ أن تستقلّ أو يبيد
نستقي من الردى
ولن نكون للعدى كالعبيد"

وإذا ما أتينا إلى شعر المقاومة العراقية؛ فإننا سنجد المقاومة تفاجئنا بانتجاب أسماء أدبية جديدة، غير التي كنا نتوقع بروزها وغير ما كان معهوداً في المجال الأدبي إلا ما ندر؛ فلله درّ هذه المقاومة التي جددت دماء المجتمع العراقي على مختلف الأصعدة؛ فكما غابت وجوه من كانوا يدّعون انفرادهم في الذود عن الوطن، وبزغت وجوه طالما كانت مغمورة مبتلية، إمّا

بالتهميش، وإما بالملاحقة وتعمد الإساءة، نرى هامات أدبيّة عالية قد طأطأت وانحنت خاضعةً ذليلة، وأخرى كانت تتشدق ليلَ نهار في كل محافل العالم بالمقاومة الافتراضية لأعداء الأمة بدت بعد الاحتلال وكأنها في عالم آخر، في حين برزت أسماء أدبية كانت لا تجد صدى حروفها إلا في جوف مسجد صغير، أو على أوراق بعض شباب الجامعات يتداولونها على تخوّف أو استحياء.

وإذا أردنا أن نتتبع آثار أولئك الشعراء الذين آمنوا بقضيتهم وعملوا الصالحات في توجيه المجتمع منذ بواكير أعمالهم، وذكروا الله كثيراً في شعرهم، وانتصروا من بعد ما ظلموا، فإننا نرى الشاعر العراقي (محمد سعيد الجميلي) في طليعتهم بقصائده التي يتغنى فيها بالمقاومة العراقية؛ فالشاعر (الجميلي) وإن كان معارضاً لمن حكم العراق قبل الاحتلال إلا أنه لم يجعل ذلك مبرراً لمسالمة جيش الاحتلال وأعوانه؛ فهو في قصيدته (خمس عجاف) التي يحاور فيها العراق لا يبرئ الواقفين على حكم العراق قبل احتلاله من مسؤولية الدمار الذي حل به :

لي في مصابك وقفةٌ وعتابُ

ونزيف قلب جرحه أبوابُ

وشجون ذكرى تستدرُّ دموعنا

وحطامُ صرحٍ خانه البوّابُ

وهو في هذه القصيدة وإن كان قد جعل للأسف والحزن نصيباً في ثناياها، وجعل لهجاء الاحتلال وعملائه نصيباً من أبياتها؛ إلا أنه كان فيها مقاوماً من الطراز الأول، يصول في ساحات الجهاد وينزف الدماء فالقارئ للقصيدة يراه قد توحّد بالمجاهدين، حتى صار منهم يحكي لنا بطولاتهم قائلاً:

كنّا نصاول في الميادين العدا

وعلى مساجدنا تصول كلابُ

كنا نخط جهادنا بشريعة

تدعى لدى أعدائنا (إرهابُ)

ونميط عن غبش الطريق غشاوة

كي يفهم الجهّال والأعرابُ

وعلى نهج المدرسة التي يستقي منها (محمد سعيد الجميلي) يقدم إلينا من طلائع الشام الشاعر السوري (أحمد الهوّاس) بقصائد عن المقاومة العراقية منها قصيدة (عراق المجد) وقصيدة (نطق الرصاص) التي يحتفي فيهما الشاعر بالمقاومة العراقية وبمدنها ورجالها أيّما احتفاء في عرس للبطولات تكاد تسمع صناجره ودفوفه في السطور..

وفيما نتنقل منتهزين فرصة تماهي الحدود بين العراق والشام في هذه الرحلة الأدبية معايشين قول الشاعر:

ليس بين العراق والشام حدٌّ

هدّم الله ما بنوا من حدودِ

نسمع أخيراً صوت الشاعر العراقي (عبد الرزاق عبد الواحد) بعد طول انتظار يأتينا من دمشق مصحوباً بملايين الدمع لبغداد:

دمعٌ لبغداد دمعٌ بالملايينِ

من لي ببغداد أبكيها وتبكيني

ولا يقف الدمع عند حدود بغداد، بل يجاوزها بعد أن مرّ على كثير من أحيائها مهطالاً فيكون:

دمع لفلوجة الأبطال ؛ ما حملت

مدينة من صفات أو عناوينِ

للكبرياء لأفعال الرجال بها

إلا الرمادي ؛ هنيئاً للميامين

لم تأل تجأر دباباتهم هلعاً

في أرضها وهي وطفاء الدواوين

ماحرّكوا شعرةً من شيب نخوتها

إلا ودارت عليهم كالطواحينِ

وهكذا يستمر انهمار الدمع عند (عبد الرزاق عبد الواحد) متنقلاً بين مدن العراق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ليشمل العراق كله، والحقيقة أن هذه القصيدة وإن كانت غارقة بالدمع على المدن العراقية؛ إلا أني لم أضعها في خانة رثاء الوطن؛ لكونها تغنت طويلاً ببطولات مدن العراق وصولات أبنائها وجولاتهم في ميادين القتال، ناهيك عن أن دمع الشاعر في القصيدة لم يكن دمع رثاء:

وأنت تعرف أن الدمع تذرفه

دمع المروءة لا دمع المساكينِ

وما يلحظه القارئ في شعر المقاومة العراقية عموماً هو ذلك الاتحاد الدائم بين كل مدن العراق؛ وذلك التماسك بين مكونات شعبه، رغم كل محاولات السياسيين في فصل تلك المدن عن بعضها، والتفرقة بين مكونات شعبها وبث روح الطائفية، فدماء العراقيين في شعر المقاومة قد وحّدَت تلك المدن وتلك المكونات، كما صرح بذلك (عبد الرزاق عبد الواحد) في آخر أبيات قصيدته مخاطباً ملايين الشعب العراقي: (على دماكِ اتحاد السين والشين) في رمزية للسنة والشيعة.

وترادف تلك الجهود ما قام به شاعر الشباب الشهيد خالد السعدي، الذي برع في تجسيد قضية العراق وما يعانيه أبناؤه في ظل الاحتلال، ولكنَّ المطاف انتهى به شهيداً في أواخر شهر حزيران من هذا العام.

وتبقى قصائد المقاومة مستمرةً في تنوعها شاملة أطياف الشعب العراقي وقومياتهم وثقافاتهم فتظهر لنا أسماء أدبية من ريف العراق تصدح بأهازيج الريف تمجيداً للمقاومة ولعل أكثر من كتب للمقاومة من شعراء الريف الشاعر (محمود علي سليمان)، ثم تحملنا شمالاً لتسمعنا صوتاً كردياً أصيلاً هو صوت الشاعرة العراقية الكردية (ملّك كاوان) ابنة الشمال التي تبدأ إلقاء قصيدتها بتحية باللغة الكردية، ثم تتكلم باللغة العربية ناقلةً تحيات شمال العراق إلى جنوبه، ثم بعد ذلك ترتفع نبرة قصيدتها بالتحدي والمناداة بالثأر حتى تصل أوج حماستها عند تذكرها للطفلة (عبير الجنابي) التي اغتصبها جنود الجيش الأميركي، وقتلوها وأحرقوا جثتها، لتعلن بعد أن تتذكر هذه الفاجعة خروجها من المقاومة الأدبية لتنتمي إلى المقاومة العراقية المسلحة قائلةً:

ومن ذكرتج يا عبير وانتِ طفلة

ماتت بلا ذنب مهتوكة ستر

شققت بيدي الورق واقسم يمين

شما يظل بيّ نفس لاحرق (همر)

وقبل أن أختم مقالتي أود الإشارة الى أن هناك كثيراً من القصائد التي تغنت بالمقاومة العراقية، وتغنت بها المقاومة العراقية في مواقعها على شبكة الإنترنت، بل ويتضح اهتمام المقاومة العراقية بالحركة الشعرية الموازرة لها إذا ما عرفنا أن إحدى جبهات المقاومة العراقية عبر موقعها على شبكة

الانترنيت قد أقامت مسابقة شعرية، تستقبل فيها القصائد المناهضة للاحتلال والمؤيدة للمقاومة.

وختاماً فإنه رغم كل ما ذكرنا من قصائد، وهي لا تشمل كل ما قيل بطبيعة الحال ولا غالبه، بل هي أمثلة له، إلا أن الواقع يقول إن العراق قد بذل من الدماء أكثر بكثير مما بذل من الحبر، وإن المقاومة العراقية فجرت من الدبابات والمجنزرات وناقلات الجنود أعداداً تفوق بكثير أعداد ما استهلكت من أقلام في الكتابة عن قضيتها.. وكلنا أمل أن تشهد الأيام القادمة نهضة أدبية تكون رديفة لتلك الجهود التي يبذلها من ضحى بنفسه وماله من أجل العراق، ووحدته، واستقلاله.

المقاومة العراقية..
قراءة في شواهد استعادة العافية

أسامة عبد الرحيم حسين [1]

تجلت في وضوح ملامح الهزيمة العسكرية الأمريكية في العراق، وباتت تضاريسها سهلة التحديد أواخر عهد بوش وأوائل حقبة أوباما بأقل جهد من الرصد والتحليل، حتى وصل حال جيش الاحتلال حد الانهيار - في إعادة للمشهد الفيتنامي- وقام جنوده الذين يطاردون "الأشباح" في بغداد بقتل بعضهم بعضاً وفق تقارير تمّ تسريبها مؤخراً.

وترتكز هذه الهزيمة أول ما ترتكز حول تماسك المقاومة ورفضها الاستدراج وفشل الاحتلال من ثلم إرادتها وتدجين مواقفها كما جرى مع بعض الأطياف التى دخلت حظيرة المشروع الأمريكي مختارة.

وتعد عمليات المقاومة النوعية ضد الاحتلال وأعوانه أحد أدوات الكونجرس والبنتاجون لقياس تقهقر المشروع الصهيو- أمريكي على أرض الرافدين، وتزخر وسائل الإعلام بتقارير يومية عن عدد القتلى الأمريكان،

---

[1] باحث وإعلامي مصري.

وقد مُني جيش الاحتلال الشهر الماضي بأكبر نسبة خسائر في صفوفه منذ شهر سبتمبر عام ٢٠٠٨م.

كما شهد شهر مايو مقتل ٢٢ جندياً أمريكياً مما رفع عدد القتلى في صفوف قوات الاحتلال منذ العدوان على العراق عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من (٤٣٠٠) قتيل، بحسب تقديرات يراعى فيها عدم الحديث عن خسائر المرتزقة الأجانب المنخرطين في صفوف الاحتلال من طالبي الجنسية.

ورغم أن مستوى عمليات المقاومة قد هبط بنسبة كبيرة – وفق تقارير أمريكية – عما كانت عليه قبل عدة أعوام، إلا أن عودة الزيادة الحادة في الخسائر خلال الشهر الماضي جعلت إدارة أوباما تشعر بالقلق حيال مراهنتها على خيار المراوغة في بقاء قواتها رهن مقاومة لم تفلح معها قوات حكومة المالكي العميلة، كذلك لم تكبح جماحها قوات الصحوات التي تهاوت في مستنقع دولارات الاحتلال التي لم تسمن ولم تغن من قبضة المقاومة.

صحوات سنمار

في التحليل المباشر لمجريات الأحداث بوسعنا الآن تعريف هذه المجاميع والمليشيات التي أطلق عليهم الصحوات بأنهم "مطايا الأمريكان وعبدة الدولار"، التي تشكلت لتكون رأس حربة تضاف إلى الجدار البشري العازل الذي يتكون من قوات الشرطة والجيش ومليشيات تابعة لهما، ومهمته الفصل بين قوات الاحتلال من جهة وبين عمليات المقاومة لتقليص خسائر البنتاغون، وقد أنشئت قوات الصحوات للمرة الأولى في سبتمبر ٢٠٠٦م في محافظة الأنبار لتشكل شوكة في خاصرة المقاومة التي حصدت نصيب الأسد، خلال عمليات استهداف قوات الاحتلال الأمريكية، وخلال أشهر قليلة أظهرت

الصحوات نتائج مرضية للاحتلال الأمريكي، ما شجعه على تطبيق هذه التجربة في محافظات أخرى.

ومثل أي "سنمار" تجرعت الصحوات جزاءها بعد استغناء الاحتلال الأمريكي عن خدماتها، وبدا ذلك واضحاً خلال عمليات عسكرية ضارية في حي الفضل – أقدم أحياء بغداد– دارت رحاها بين جيش حكومة المالكي من جهة وقوات الصحوات من جهة ثانية.

وتتلخص المواجهات في قيام قوات حكومة المالكي باعتقال قائد مجموعة من قوات الصحوة في تلك المنطقة، التي كانت واحدة من أكثر مناطق بغداد التي تنتشر بها عناصر المقاومة، وأفضت الاشتباكات إلى مقتل عدد من عناصر قوات حكومة المالكي، وانتهت بتسليم عناصر صحوة منطقة الفضل أسلحتهم بعد أن انتشرت قوات الحكومة مدعومة بقوات الاحتلال الأمريكي في أرجاء المنطقة.

وانتشر القناصة الأمريكان على أسطح المباني وطالبوا قوات صحوة حي الفضل عبر مكبرات الصوت تسليم أسلحتها، مؤكدة أن كل من يواصل الاحتفاظ بالسلاح من عناصرها يعتبر إرهابياً!.

وبنظرة تحليلية لعمليات مشابهة قامت بها الحكومة ضد الصحوات مدعومة من قوات الاحتلال في مناطق أخرى، نجد أن مشروع الصحوات فقد الغرض من نشأته، وكما هو متبع فإنَّ الاحتلال غالباً ما يتخلى عن مشاريع أنشأها حالما تتحقق له أهدافه المرحلية.

وقد جاءت اشتباكات منطقة الفضل لتؤكد المأزق الذي تواجهه الصحوات في رمقها الأخير، فبعد أن أدت دور الخادم على أكمل وجه، وجدت نفسها في مهب الريح نظراً لتخوفات حكومة المالكي الطائفية من تنامي قوة تلك المجالس واتفاقها مع الاحتلال على دمجها مع القوات الأمنية للسيطرة عليها.

وتنظر حكومة المالكي الطائفية إلى عناصر الصحوات كأعداء سياسيين ومقاتلين كانوا يقاتلون ضدها خلال مجموعات متمردة، وعليه ينبغي معاقبتهم والقضاء عليهم، في نفس الوقت الذي وافقت فيه على انخراط مجالس إسناد العشائر الجنوبية في قواتها، بينما ترفض هذا الأمر مع باقي مجالس الصحوات رغم خدماتها ضد المقاومة؛ وذلك خوفاً من وقوفها حجر عثرة أمام تكريس نفوذ طهران الطائفي في العراق.

وخلال عامين وعدة أشهر نفذت الصحوات فيها عمليات ضد عناصر المقاومة وعرقلة عمليات ضد الاحتلال وحكومته الرابعة، فشلت تلك المجالس في تحقيق هدف نشأتها الرئيسي بتمكين المحتل الأمريكي من إنهاء المقاومة أو تحجيمها إلى حدود ضيقة.

وتعد عمليات المقاومة الأخيرة صك إغلاق لملف هذه اللعبة الأمريكية، ونجاحاً من جهة المقاومة في تجاوز شرك الصحوات، لذا كان من البديهي بعد انتهاء تلك المجالس وتفككها وانحلالها، أن تعود عمليات المقاومة للظهور ثانية أمام الملأ مستعيدة عافيتها بكل ثقة واقتدار.

وتمثلت هذه العودة في خبر تناقلته بعض وكالات الأنباء مساء يوم الأحد ١٢-٤-٢٠٠٩م مفاده أن عناصر مسلحة من المقاومة أقامت نقاط تفتيش على الطريق العام بين بغداد والقائم، وتحديداً في الطريق الممتد على طول مناطق "جباب" التي تقع بين قضائي القائم وراوة.

خلال هذه العملية النوعية حرص رجال المقاومة على الظهور العلني الفجائي والمباغت وهم يحملون قوائم لأسماء معينة يدققون من خلالها في هويات الذاهبين والقادمين بحثاً عن مطلوبين يعملون مع قوات الاحتلال.. ولم يكن القصد من هذا الظهور جس نبض الاحتلال أو حكومته بقدر ما هو اثبات جلي على إن المقاومة قد دخلت في ترتيبات جديدة متقدمة ومتفوقة على

المعوقات التي زرعها الاحتلال سواء في القوات الحكومية أو مجالس الصحوة.

وأعطت المقاومة بهذا الظهور رسالة واضحة إلى قوات الاحتلال وحكومته القابعة في المنطقة الخضراء، بأن ما تدعيه بالسيطرة على العراق مجرد وهمٌ كاذب، وإن صولات وضربات المقاومة موجودة بحسب ضرورة المواجهة من جهة، وما تقتضيه سبل التنفيذ المرتبط بأولويات المهمات من جهة أخرى.

ويمكننا القول أن المقاومة وفق عملياتها الأخيرة نبهت المتابعين للشأن العراقي أن استخباراتها تمتلك من دقائق التفاصيل السرية الشيء الكثير، بدليل أنه قد مضت ساعات وهي تبسط سيطرتها التامة على طريق رئيسي طويل وتقوم بالتفتيش، ثم تنسحب دونما أن تستطيع قوات الاحتلال أن تفعل شيئاً على الرغم من التقنيات والأجهزة الأمنية والعسكرية التى بحوزتها.

الإصرار على الانتصار

حقائق التاريخ تثبت وتشير دوماً إلى زوال المحتل وانتصار المقاوم، ويشهد التاريخ للمقاومة العراقية أنها جابهت على مدى ست سنوات ومازالت تجابه لليوم أعتى قوة كونية مدججة بأحدث التقنية العسكرية، وقدمت على الساحة الميدانية إنجازات مذهلة في التخطيط والتنفيذ والحفاظ على زمام المبادرات الهجومية، وكذلك مواكبتها في التواجد والحضور الإعلامي اليومي.

يقابل ذلك اضطراب قيادة الاحتلال الأمريكية سياسياً وعسكرياً جراء عدوانها المتواصل في العراق وما تكبدته من خسائر بشرية ومادية واقتصادية

باهظة دفعت إدارة "القديس" أوباما لوضع جدول زمني رسمي للانسحاب من العراق.

يأتي ذلك على خلفية ازدياد معدلات الانتحار بين جنود جيش الاحتلال الأمريكي، وتفشي الأمراض النفسية والعصبية وغيرها من الدلائل على انكسار عزيمة الجندي الأمريكي الذي أدرك أن حربه في العراق ليست خاسرة فقط، بل أنها مفتعلة أصلاً عبر أكاذيب وزيف صنعتها إدارة الرئيس جورج بوش لأهداف وغايات غير ما أعلنت عنه.

إذن فإن النتيجة المستقبلية لهذا الوضع يمكننا أن نتنبأ بها ونقول بتقدم المقاومة العراقية وتقهقر الاحتلال الأمريكي، وقد برهنت كثافة العمليات الأخيرة للمقاومة في مناطق متفرقة بالعراق على ثقل تواجدها الشعبي ودعم العراقيين لها ولأهدافها، ما شكل وعي وطني إسلامي وإرادة حقيقية صادقة في مواصلة قهر الاحتلال، والإصرار في الأخير على الانتصار مهما مضى الوقت.

وقد قلصت المقاومة عملياتها بشكل ملحوظ خلال ستة وثلاثين شهراً تقريباً، واحتجبت عن استعراض قوتها علانية، وهو ما جرى العرف عليه منذ الاحتلال لتدل على وجودها وتطمئن الشعب على سلامتها، واكتفت طيلة هذه الفترة بتنفيذ عملياتها الخاطفة ضد قوات الاحتلال وأذياله، إلا أنها مع اختلاف الظرف الميداني والمشهد السياسي عاودت الظهور في مختلف محافظات ومناطق العراق على طولها وعرضها، مخلفة في كل عملية تقوم بها قتلى أو جرحى يعترف الاحتلال ببعضهم ويخفي بعض.

وتجدر الإشارة إلى نجاح المقاومة في اختراق جيش حكومة المالكي، حيث سجلت حالات أقدم فيها جنود عراقيون على قتل جنود أمريكان يعملون في صفوفهم.

ففي يوم السبت الموافق ٢-٥-٢٠٠٩ تمام الساعة ٤:٣٠ عصراً أطلق الجندي حسن الدليمي الذي كان يعمل إماماً وخطيباً لوحدته العسكرية، النار على مجموعة من الجنود الأمريكان في مركز للتدريب بمعسكر الغزلاني الواقع في منطقة حمام العليل (٢٠ كم) جنوب الموصل، حيث أردى قتيلين وأصاب ثلاثة آخرين بجروح خطيرة.

وليس الدليمي وحده في الميدان بل سبقه في الموصل في نهاية شهر شباط من هذا العام شرطيان عراقيان قاما بقتل أربعة جنود أمريكان وأحد مترجميهم في حي الدواسة في الموصل أيضاً وتمكنا من الفرار، وفي شهر تشرين الأول من عام ٢٠٠٨م قتل جندي عراقي أربعة جنود أمريكيين وجرح اثنين في عملية دهم ليلية لبيت يسكن فيه رجل عجوز وابنته البالغة من العمر سبعة عشر عاماً، بعد أن شاهدهم يتحرشون بها وهي تستنجد!.

وبعد هذه الحادثة بشهر انتفض الجندي برزان محمد عبد الله الحديدي بعد أن صفعه أحد الجنود الأمريكان، إذ قفز إلى عربته المسلحة وفتح النار على الدورية الأمريكية المشتركة بحي الزنجيلي، فأردى أربعة قتلى منهم وجرح ثلاثة آخرين قبل أن يتمكنوا من قتله، وقبل كل هذا وذاك قام الجندي قيصر سعدي الجبوري، أحد أبناء منطقة القيارة، بقتل ثلاثة جنود أمريكيين بينهم ضابط برتبة نقيب، بعد ضربهم المبرح لامرأة حامل كانت تستغيث من شدة الألم، قائلين له: نحن نفعل ما نريد!.

هذا ونشير إلى شهادة الجنرال المتقاعد توني فرانكس – القائد السابق للقيادة المركزية الوسطى لقوات الاحتلال الأمريكية– التي أدلى بها أمام لجنة الدفاع في الكونجرس الأمريكي، والتي أقر فيها أن الهجمات التي تشنها المقاومة يصل عددها في اليوم الواحد إلى خمسة وعشرين هجوماً على أقل تقدير بحسب شهادته.

وبمعادلة بسيطة فإننا إذا أخذنا – فرضاً– مقتل جندي وإصابة ثلاثة آخرين في الهجوم الواحد فإن حصيلة الهجمات الخمس والعشرين في اليوم الواحد تصل إلى حوالي (٢٥) قتيلاً و(٧٥) جريحاً، وبفرض التعتيم الحالي على عمليات المقاومة، فإن هجمات المقاومة قد تتراوح ما بين سبعين إلى مائة هجوم في اليوم الواحد.

المقاومة ودعم المفاوض السياسي

ولم يغب المشهد السياسي عن أجندة المقاومة وتوظيف انتصاراتها في الميدان إلى بلورة واقع سياسي وضعته أمانة في يد قيادة سياسية إختارتها ووصفتها برباطة الجأش، والثبات على المبدأ، ومطاولة للأعداء، وإسناد منقطع النظير للجهاد والمقاومة في العراق.

ودعت فصائل المقاومة الرئيسية الشيخ "حارث الضاري" الأمين العام لهيئة علماء المسلمين، والذي يعد من أبرز رموز السنة بالعراق ويعيش خارج البلاد، إلى تحمل الأمانة والمفاوضة باسمها ليلتحم الجناح السياسي بالعسكرى ويقوي بعضه بعضاً.

وبتقديرنا أن المقاومة بهذا المطلب السياسي قد نفذت المطلوب منها ميدانياً في طريق تعجيل خروج الاحتلال الأمريكي من العراق بكافة الطرق العسكرية من جهة، ومن جهة ثانية بالطرق السياسية لكي تحرم إيران والحكومة الطائفية من الاستمرار في تفتيت العراق.

إذ أنه بخروج الاحتلال الأمريكي من العراق سوف يعجل من انهيار المشروع الطائفي الإيراني، على أساس تضارب الإنسحاب الأمريكي مع توسع هذا المشروع الطائفي.

حيث تريد واشنطن استخدام الطائفية إلى درجة معينة لإحداث توازن من شأنه تستطيع ضبط مجريات الأمور لصالحها، وفي الوقت نفسه تمنع إيـران في حال انسحابها من فرض سيطرتها المطلقة على المنطقة.

وقد تجسد في أسباب تلك الخطوة ما أشارت إليه الفصائل الثلاثة عـشر؛ حيث أشارت إلى أنها عرفت في الشيخ الضاري رباطة الجأش وثبات علـى المبدأ ومطاولة للأعداء وصبر على البلاء وإسناد منقطـع النظيـر للجهـاد والمقاومة في العراق على الرغم مما تعرض ويتعـرض لـه مـن ضـغوط وتجاوزات.. بل هو الحارس الأمين على مبادئ وثوابت الجهاد والمقاومة في العراق، وهو الرجل الشجاع صاحب الموقف الحق الذي لا يتخلى عنه ولـو كلفه ذلك حياته.

فكانت النتيجة تخويل الضاري متحدثاً باسم تلك الفـصائل، فـضلاً عـن التفاوض باسمها في الأمور السياسية ذات الصلة، وأن ينوب عنها فـي كـل المحافل ليدافع عن دماء الشهداء الزكية التي سالت على ثرى العراق والليوث التي أسرت والأعراض التي انتهكت والأموال التي هدرت.

حقوق المرأة في العراق الجديد
تفكيك الصورة النمطية

هيفاء زنكنة[١]

يصور الاحتلال وحكوماته المتعاقبة أنفسهم، منذ عام ٢٠٠٣م بأنهم المدافعون عن حقوق المرأة العراقية؛ بل إن الإدارة الأمريكية تعتبر "إن قضايا المرأة في صلب السياسة الأمريكية الخارجية وبالتحديد حربها على الإرهاب"[٢]، ولايزال هذا الخطاب طاغياً في السنة السابعة للاحتلال، رغم افتضاح انتهاكاته وجرائمه بحق المواطن العراقي وبالتحديد المرأة، ومن الصعب التصور أن إدارة أوباما – مهما أعلنت – ستغير أمراً في هذا المجال لأن مؤسسات وعلاقات أوسع من سياسة ساكن البيت الأبيض أو خطابياته هي التي تتحكم في تفاصيل الحضور الإمبراطوري الأمريكي في العالم، وهي مؤسسات وعلاقات يشترك فيها الحزبان الديمقراطي والجمهوري، ومراكز أبحاث وتمويل عريقة ومتداخلة.

---

[١] أديبة وباحثة عراقية.

[٢] خطاب كولن باول، وزير الخارجية الأمريكية السابق، في يوم المرأة العالمي، ٨ مايس ٢٠٠٢م.

سأحاول في هذه المقالة تفكيك صورة حقوق المرأة كما يقـدمها المحتـل وعملائه ومقارنتها بواقع المرأة اليومي وتراجع حقوقها في مجـالات التعلـيم والصحة والعمل، ودرجات امتهان الكرامة الإنسانية وتعريضها وأفراد عائلتها إلى الاعتقال والتعذيب والقتل، لأثبت بأن المسؤول الأول عن هذه المأساة هو المحتل ومن دربهم المحتل وهو الذي يواصل تشجيعهم على تطبيق سياسـته لأسباب عديدة، وسأقدم أولاً الصورة الإعلامية النمطية التي رسـمتها الإدارة الأمريكية عن المرأة العراقية بوصفها ضحية بحاجة إلى "التحريـر" الأنجلـو أمريكي – الصهيوني، ثم انتقل إلى كيفية انعكاس هذه الصورة علـى عمـل السياسيات والمنظمات النسوية المتواطئة مع الاحتلال ومقارنتها بواقع المـرأة وأولوياتها.

الصورة النمطية للمرأة العراقية

قدمت إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش نفسها عـشية غـزو واحتلال العراق، باعتبارها مدافعة عن حقوق المـرأة العراقيـة، وروجـت لإضفاء الصبغة الأخلاقية على الغزو والاحتلال؛ بـأن وجودهـا ضـروري لتتمكن المرأة من الحصول على حريتها وحق العمل والمشاركة السياسية فـي ظل " نظام ديمقراطي" يحترم حقوق الإنسان.

وكان تبرير نيل المرأة لحقوقها في "عراق ديمقراطي" هو السبب الثالـث الذي أعلنته الإدارة الأمريكية لشن حربها العدوانية علـى العـراق، وكـان السببان الأوليان هما تهمة حيازة النظام السابق لأسلحة الدمار الشامل، وتهمة صلة النظام السابق بتنظيم القاعدة[1]، وقد ثبت بما لا يقبل الشك، ومـن قبـل

---

[1] أكد تقرير لجنة التحقيقات الأمريكية الخاصة بأحداث ١١ أيلول وصدر في حزيران (يونيو) عام ٢٠٠٤م عدم وجود أدلة تشير إلى وجود علاقات بين صدام حسين وتنظيم القاعدة في تنفيذ التفجيرات.

القانونيين في بلدان الغزو نفسها كذبة العاملين الأوليين[1]؛ ليبقى التبرير الثالث أي "حقوق المرأة"، عكازاً تتوكأ عليه الإدارة الأمريكية، كلما اقتضت الحاجة، وبمساعدة عدد من النساء العراقيات اللواتي يصح وصفهن بأنهن " نسويات الاستعمار"، ويأتي تعبير " نسوية" هنا لتعريف من يجعل من حقوق المرأة الخاصة بكونها إمرأة؛ أي عدا كونها مواطنة عموماً أو جزءاً من عائلة مقياساً رئيسياً لمواقفهم السياسية.

و"نسويات الاستعمار" هن اللواتي ساهمن في الترويج الإعلامي للغزو ومن ثم دعم استمرارية الاحتلال ومرحلة الاستعمار الجديد المعتمدة على الوكلاء المحليين بشتى الطرق، فهن يستخدمن خطاب "حقوق المرأة" كواجهة تجميلية لا علاقة لها بحقوق الإنسان ولأغراض سياسية وتمويلية، وبينهن العديد ممن يترأسن منظمات نسوية تتلقى الدعم المادي من منظمات ومؤسسات أمريكية وغربية عموماً، وهو الدعم المشروط بخطاب الاحتلال

---

[1] "لم يتم العثور على أسلحة تدمير شامل من قبل المجموعة (الأمريكية) المكلفة مهمة البحث عنها، وتتكون المجموعة من ١٤٠٠ عالم وخبير عسكري واستخباري، وتعمل في نطاق من السرية والكتمان، وكانت تقديرات فريق البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق أن حكومة صدام حسين لم تمتلك أسلحة كيماوية وبيولوجية وإنما كانت لديها طموحات لتطوير برنامج نووي، كما أعلنت في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي في تقرير مؤقت ضم ما يقرب من ألف صفحة "انظر": مصدر أمريكي: لا أسلحة تدمير شامل في العراق". البي بي سي ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣م، وأشار تقرير ثان صادر عن المجموعة في ٢٧ أبريل ٢٠٠٥م، إلى الانتهاء الرسمي لعملية البحث عن الأسلحة التي استمرت عامين والتي قادها أخيراً تشارلز دولفير مفتش الأسلحة السابق في الأمم المتحدة.

وأكد "المركز من أجل النزاهة العامة" الذي أعد دراسة مع "الصندوق من أجل صحافة مستقلة" بصدد تصريحات المسؤولين الأمريكيين عن امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، أن ثماني إدارات رسمية "قدمت ٩٣٥ تصريحاً كاذباً على الأقل" حول امتلاك العراق أسلحة للدمار الشامل أو ارتباطه بتنظيم القاعدة في ٥٣٢ مناسبة. نيويورك تايمز ٢٣ كانون الثاني ٢٠٠٨م.

عن " تمكين المرأة " و" تدريب النساء القياديات" ومشاركة المرأة في "محترفات الديمقراطية"[1].

ولتسهيل الترويج لصورة المرأة العراقية باعتبارها ضحية للمجتمع "الإسلامي المتخلف" والعنف الذكوري ربطت برامج الإدارة الأمريكية الإعلامية، في فترة الإعداد للغزو، ولتقريب الصورة إلى أذهان الشعب الأمريكي بين صورة المرأة الأفغانية المبرقعة الواقعة تحت هيمنة الطالبان ووضع المرأة العراقية، ذلك لأن صورة المرأة الأفغانية "المسلوبة الإرادة" باتت مألوفة لدى الرأي العام الأمريكي لكثرة تكرارها إعلامياً وسياسياً ومن خلال مشاريع منظمات الإعانة الأمريكية حتى لم يعد هناك إلا فيما ندر من يشكك في صحتها أو حتى يتساءل عن طبيعتها إلا في أوساط الأكاديميين النزيهين ومناهضي الاحتلال في الغرب[2]، فكان إسقاط صورة المرأة الأفغانية ووضعها الخاص على وضع المرأة العراقية لعبة إعلامية ساهمت في إنجاحها نسويات الاستعمار العراقيات عن طريق المقابلات الصحافية وزيارة البيت الأبيض والوقوف بجانب مسؤوليه مع النسوة الأفغانيات الداعيات إلى "تحرير" أفغانستان، وكان حضور نسويات الاستعمار ضرورياً أيضاً لمنح الإدارة الأمريكية "الصوت العراقي" المؤيد للغزو، ودور نسويات الاستعمار مستمر اليوم في داخل العراق في فترتي الاحتلال والاستعمار الجديد[3]، وبعد إجراء بعض التغييرات اللفظية البسيطة وهو دور تتداخل فيه

---

[1] "مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير"، هيفاء زنكنة، ص ٨٧ – ١١٤، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م.

[2] انظر دراسة رستمي بوفي الباحثة في كلية الدراسات الآسيوية الأفريقية بجامعة لندن الصادرة عام ٢٠٠٧م. Afghan Women: Identity and Invasion by Elaheh Rostami-Povey - Zed books

[3] "نوّهت شارلوت بونتتشلي، كبيرة منسقي قضايا المرأة الدولية في وزارة الخارجية الأميركية، بالتفاعل الحواري بين وزارة الخارجية والنساء العراقيات على صعيدي المنفى والعراقيات الأمريكيات الناشطات في

التصريحات المضللة الهادفة إلى تزوير الوعي مع تنامي المصالح السياسية والمادية المتشابكة أكثر فأكثر مع كل يوم آخر يبقى فيه الاحتلال على أرضنا.

ويمكن اعتبار تصريح نسرين برواري وزيرة البلديات والأشغال العامة العراقية، أثناء تواجدها مع وفد نسوي عراقي وأفغاني في زيارة لبوش في البيت الأبيض[1]، كمثال على مستويات التضليل التي تمارسها نسويات الاستعمار فقد بدأت تصريحها قائلة: "إن المرأة العراقية كانت محرومة إبان عهد صدام حسين من القيام بدور في الحياة العامة" أي أنها قدمت الصورة النمطية عن حرمان المرأة المشاركة في الحياة العامة، ومضت إلى القول "إن النساء والرجال العراقيين يشيّدون معاً اليوم مجتمعاً عراقياً جديداً"، أي أنها قدمت الصورة الإيجابية المطلوبة من المحتل لتعزيز تواجده ودوره "الديمقراطي" وخلصت برواري في سياق إشارتها إلى "التنوع الإثني والديني والإيديولوجي الكبير" في وفدها إلى أن "عضوات الوفد لم يكنّ متحدات في أي وقت من الأوقات أكثر من اتحادهن في هذه اللحظة". وهي صورة تنفي في تأكيدها على إيجابية الصورة الحالية وجود التنوع والتقارب سابقاً مما

الولايات المتحدة وبين النساء في داخل العراق. ولاحظت أن هذا الحوار مستمر منذ شهور مشيرة إلى أن الرئيس جورج بوش قد تباحث مع نساء عراقيات حين استقبلهن في البيت الأبيض في الرابع من آذار/مارس الماضي. وقد أعقبت ذلك اللقاء سلسلة من الاجتماعات مع المنظمات غير الحكومية بما في ذلك اللقاء الذي تم بينهن وبين وكيلة وزارة الخارجية للشؤون العالمية بولا دوبريانسكي في الرابع والعشرين من نيسان/إبريل الماضي". انظر: "النساء العراقيات يطالبن بدور في إدارة شؤون مستقبل العراق"، وزارة الخارجية الأمريكية، ٢٣ أيلول ٢٠٠٣م.

[1] "عراقيات وأفغانيات يزرن الكونغرس في يوم المرأة العالمي: المسؤولتان في وزارة الخارجية، هيوز ودوبريانسكي، تنوهان بأهمية تعليم وتمكين النساء"، مايكل جاي فريدمان، نشرة واشنطن، ٨ آذار/مارس، ٢٠٠٦م.

http://www.america.gov/st/washfile-arabic/2006/March/20060308174357ssissirdile0.9416773.html

يدفع المتلقي بالضرورة إلى عزو هذه الصورة الإيجابية والتقارب والاتحاد إلى وجود الاحتلال، وهي صورة أبعد ما تكون عن الواقع إذ ارتكز المحتل بشكل كلي على سياسة "فرق تسد" الاستعمارية والتي ارتدت مسوح الطائفية والعرقية البغيضة.

ولترسيخ صورة الاهتمام البالغ الذي أولته إدارة بوش لحقوق المرأة في أذهان الرأي العام الأمريكي والعراقي والعالمي لم يدع المسؤولون في البيت الأبيض على اختلاف مناصبهم مناسبة تمر بدون ذكر "حقوق المرأة العراقية" وربطها بمسألة "التحرير". ففي خطاب لبوش في ١٤ مارس ٢٠٠٤م، قال: "إن التقدم في مجال حقوق المرأة والتقدم في مجال (التحرير) مسألتان غير قابلتان للانفصال"، وصرحت زوجته لورا بوش بمناسبة يوم المرأة العالمي في ٨ مارس ٢٠٠٥م: "جعل بوش من التقدم في حقوق المرأة بالعراق أولوية سياسية عالمية.. علينا جميعاً واجب الحديث عن المرأة التي غابت حقوقها وضرورة تعلمها ونيل حقوقها، وأن تُصوتْ لصالح الحرية الفعالة".

وقالت ألينا شو سكرتيرة إدارة العمل في ٩ مارس ٢٠٠٤م: "إن التزام هذه الإدارة لصالح حقوق المرأة في العراق غير قابل للجدل". كما قال زلماي خليل زادة السفير الأمريكي السابق في العراق في ٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٥م: "لن نقبل بالمساومة على مبدأ أن لكل عراقي دور متساو في بناء مستقبل بلدهم بغض النظر عن الجنس، العرق، اللغة، والدين"[١].

وقد تابعت الكاتبة عشتار العراقية[٢] كيفية تصنيع الصورة النمطية وفق مواصفات الإمبراطورية الأمريكية عن طريق رصد كتابات وتصريحات

---

[١] بصدد التصريحات المذكورة أعلاه، انظر: "موجة عنف ضد المرأة في العراق تجاهلتها وسائل الإعلام"، أماندا تركل، NBC، 24/١١/ ٢٠٠٦م، ترجمة: د.عبد الوهاب حميد رشيد.

[٢] ينظر الرابط : http://ishtar-enana.blogspot.com/2009/03/blog-post_26.html

المسؤولين الأمريكيين والصحافيين، ومن ثم اجترارها لا من قبل جنود الاحتلال في العراق وافغانستان فحسب ولكن من قبل نسويات الاستعمار العراقيات كذلك، ولنبدأ بتعريف الصحافي الأمريكي الصهيوني توماس فريدمان للعراق بأنه "حيث المرأة التي تشمّر عن أكمامها تعتبر كافرة"[١]، وعاد ليكتب في ذات الصحيفة في ٢٤/٨/ ٢٠٠٣ في موقفه المشجع من غزو العراق كخطوة أولى في مشروع المحافظين الجدد للهيمنة على الشرق الأوسط قائلاً: "إن مناهضي الاحتلال الأمريكي للعراق يعرفون أن هذه حرب على الأفكار والقيم يعرفون أن هذه حرب القوى الغربية بمساعدة الأمم المتحدة يأتون إلى قلب عالمهم لإقامة حكومات أكثر نزاهة وتسامح وعدالة مع المرأة بادئين بالعراق".

ولمعرفة كيفية اجترار هذه الأفكار من قبل جنود الاحتلال، تقدم لنا عشتار اقتباساً من مدونة جندية احتياط أمريكية حاربت في العراق تقول فيه: "من الرائع دائماً أن نرى التقدم في مجالات لا تخطر على بالنا حين نفكر في الحروب، ونحن النساء الأمريكيات نميل إلى أن نرى كحقيقة مسلّم بها مقدرتنا على متابعة تعليمنا والحصول على وظيفة وحريتنا في الذهاب إلى أي مكان نشاء، ولكن لسوء الحظ في بلاد مثل العراق وأفغانستان لم يسمح للنساء بأي من هذه الأشياء؛ بل بدلاً من ذلك كانت النساء تعامل مثل الأغنام ومكانهن في المجتمع محدود جداً، وجزء من التقدم الآن هو أن هؤلاء النساء يعاملن حالياً بعدالة، ويأخذن فرصهن في التعليم والتوظيف، هذا تقدم كبير

---

[١] اكذوبة إعادة الإعمار: مؤتمرات (تمكين) المرأة في القواعد العسكرية !! بقلم: عشتار العراقية. التصريح نشر في نيويورك تايمز ١٩٩١/٢/٣. انظر الموقع اعلاه.

للنساء في البلدين، هذا التمكين ليس فقط خطوة للأمام لنساء العراق وأفغانستان ولكنه يقدم لهن الأمل في المستقبل"[١].

وتستخدم مها الصكبان عضو مجلس إدارة مركز حقوق المرأة في الديوانية مفردات جندية الاحتلال نفسها لتكريس صورة نمطية مختلقة حين تقول: "النساء ممنوعات من القيام بدورهن في الحياة بسبب النظام السابق، ولكن الأمور الآن اختلفت"[٢]، ولاتزال صورة رجاء الخزاعي عضوة مجلس الحكم سابقاً ورئيسة المجلس الوطني للمرأة العراقية ماثلة للعيان حين لم تتمالك نفسها (والوصف هنا منقول حرفياً من خطاب لبوش)، عندما رأت بوش يتقدّم نحوها في البيت الأبيض فركضت باكية لتحتضنه مناديةً إياه يا محرّري ثم مضت بعد ذلك لتناول وجبة عيد الشكر التقليدية مع القوات الأمريكية![٣].

مسؤولية الاحتلال

إن الهوّة بين خطاب الاحتلال التضليلي عن حقوق المرأة في "العراق الديمقراطي الجديد" وواقع المرأة اليومي تزداد عمقاً يوماً بعد يوم تثبتها الشهادات الحية للنساء العراقيات الموثقة من قبل منظمات المرأة العالمية[٤] وتقارير منظمات حقوق الإنسان مثل منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش ويونامي والمنظمات الإنسانية مثل لجنة الصليب الأحمر الدولي

---

[١] أعلاه وكذلك : http://soldiersmind.com/2007/07/03/empowering-iraqi-women

[٢] المصدر أعلاه.

[٣] البيت الأبيض. المكتب الصحافي. الاحتفال ب" حقوق المرأة الكونية" March 12, 2004
http://govinfo.library.unt.edu/cpa-iraq/transcripts/20040312_bush_women.html

[٤] انظر التقارير التفصيلية على موقع منظمة " كود بنك"
http://www.codepink4peace.org/article.php?id=51

ومنظمة أوكسفام فضلاً عن منظمات المرأة العراقية المستقلة مثل هيئـــة إرادة المرأة؛ إذ تجمع كلها على تردي وضع المرأة بشكل مأساوي منذ غزو العراق واحتلاله في ٢٠٠٣م، وكأن ما مرت به من قمع سياسي وحروب وحـــصار جائر لم يكن كافياً، فجاء الاحتلال ليخلق كارثة إنسانية ونزوح جمـــاعي فـــي داخل البلاد وخارجها، بحجم لم تشهده المنطقة منذ نكبة فلـــسطين فـــي عـــام ١٩٤٨م، حيث يبلغ عدد النازحين والمهجرين ما يقـــارب الخمـــسة ملايـــين، ويشكل الأطفال والنساء ثلثا النازحين المحرومين غالباً من أبـــسط ظـــروف الحياة الأساسية من عمل وتعليم وخدمات صحية فضلاً عـــن القلـــق النفـــسي وانهيار الطموح وتلاشي الأمل بالمستقبل، ويقدم تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي المعنون "نساء في الحرب" الصادر في آذار/مـــارس ٢٠٠٩م، شهادات نساء عراقيات عن معاناتهن تحت الاحتلال وهي شـــهادات تـــدحض بشكل مباشر ادعاءات إدارة الاحتلال ونسويات الاســـتعمار عـــن " تحريـــر العراق والمرأة"، كما تفضح زيف الصورة الإعلامية المبثوثة يومياً من خلال أجهزة الإعلام المتواطئة مع الاحتلال عن حقوق الإنسان في "العراق الجديد".

ويلخص التقرير ما تتعرض له المرأة أما بشكل جـــسدي مباشـــر مثـــل الاختطاف والقتل العشوائي أو بشكل غير مباشر جراء اعتقال أو اختفـــاء أو قتل معيل العائلة أو أحد أفرادها من الذكور؛ إذ بلغ عدد ضحايا الاحتلال مـــا يزيد على المليون، وبلغ عدد المعتقلين من أبناء العراق «الديمقراطي الآمن» منذ «التحرير» وحتى اليوم مليوني معتقل[١]، وهو رقم هائل بكـــل المقـــاييس معناه إذا ما حسبنا المعدل واستثنينا محافظات إقليم كردستان الثلاث أن هنـــاك معتقلاً لكل عائلة في فترات زمنية متفاوتة، ومعظم المعتقلين هم من الرجال،

---

(١) "للاعتقال تأثير مدمر في العراق"، نك وترن ويل راو، تروث آوت، ١٠ اكتوبر/ تشرين الأول، 2008م. http://www.truthout.org/101008C

وإن لم يميز المحتل وعملاؤه بين الذكور والإناث فاعتقلوا النساء والأطفال وعذّبوهم أيضاً! وقد تحدث النائب محمد الدايني[1]: عن وجود (٤٢٠) معتقلاً سرياً تحت سيطرة قوات الاحتلال والحكومة العراقية معاً، وقدّم مستندات ووثائق الإثبات إلى مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة للتحقيق فيها، وأشارت الناطقة باسم الصليب الأحمر الدولي إلى أن الحكومة قد سمحت لها بزيارة ثلاثة مراكز اعتقال فقط.

أما المفقودين فقد كان عددهم عشية الاحتلال ومن جراء الحروب السابقة (٣٧٥) ألف مفقود ليتجاوز الرقم المليون في عام ٢٠٠٧م[2]، وهذه المآسي تجعل المرأة وأطفالها في حالة انتظار مستمر وحياتهم معلقة إذ لا يعرفون مصير أحبائهم فضلاً عن سقوطهم في هاوية الفقر المدقع نتيجة غياب المعي، وجاء في التقرير أن هناك في العراق اليوم "ما يقارب المليون إلى الثلاثة ملايين أسرة تعيلها النساء... وقد تفاقمت المأساة نتيجة إلقاء مسؤولية إعالة الأسرة ورعايتها على عاتق النساء بدون أن ننسى شبح الحوادث المؤلمة والشنيعة التي أودت بحياة أزواجهن، وهناك أيضاً خسارة المنزل الذي اضطررن إلى تركه بسبب التهديدات أو العجز المالي، إضافةً الى كفاحهن المتواصل لتوفير القوت اليومي وتحمل مصروفات العلاج والمدارس".

وتعيش معظم الأسر التي تعيلها النساء في فقر مدقع نظراً لتدني دخلها، وينعكس ذلك على صحة النساء إذ يعجزن عن سداد ثمن الأدوية أو تحمل نفقات زيارة الطبيب عند المرض، ويمتد الوضع المأساوي ليشمل الأطفال من الذكور الذين غالباً ما يضطرون إلى ترك الدراسة للعمل وإعالة الأسرة، بينما تحرم الإناث من الدراسة حرصاً على سلامتهن.

---

[1] في مؤتمر صحافي في مبنى الأمم المتحدة في جنيف، ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٨م.

[2] "الصليب الأحمر: عدد المفقودين في العراق ارتفع إلى مليون شخص "أصوات العراق" ٣١ آب ٢٠٠٧م.

وقد مرّ التقرير على أهميته مروراً عابراً على مشكلة النساء المعتقلات؛ إذ اكتفى بالإشارة إلى أنهن أقلية بالمقارنة مع الرجال وإن أوصى بوجوب توفير الاحتياجات الخاصة لهن، والمعروف أن إدارة الاحتلال وحكوماته المتعاقبة تبذل أقصى جهدها لإخفاء حقيقة وجود النساء المعتقلات خشية إثارة الغضب الشعبي في مجتمع يعتزّ بمكانة المرأة وشرفها وكرامتها، وإن كان حجم المأساة وغضب الناس قد دفعا بعض المنخرطين في العملية السياسية إلى التصريح بين الفينة والفينة ببعض الحقيقة وخاصة بعد إدراكهم أنهم مهما صرحوا فلن يخضعوا للمساءلة أو العقاب، كما هي الحال عادة في النظم الديموقراطية، ومن بينهم شذى العبوسي عضوة «لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب» التي اعترفت أخيراً بوجود المعتقلات، وأن غالبيتهن موجودات لدى «القوات المتعددة الجنسيات اعتُقلن نيابة عن أخ أو أب أو زوج أو ابن مشتبه فيه» أي كرهائن، وهو أمر مخالف لكل القوانين الدولية والإنسانية بالإضافة إلى المسؤولية الأخلاقية والعادات والتقاليد المجتمعية للعراق، كما تحدثت وزيرة المرأة نوال السامرائي عن وجود المعتقلات "الأمنيات" وكيف أنها تكفلت عدداً منهن لإطلاق سراحهن، ووصفت وزارة المرأة بأنها مجرد "مكتب استشاري داخل المنطقة الخضراء ليست له أية صلاحيات"[1]، وكشف نائبان من لجنة حقوق الإنسان في "البرلمان العراقي" عن عمليات اغتصاب وتعذيب واعتقالات كيدية بحق نساء التقى بهنّ وفد برلماني قبل في سجن للنساء تابع لوزارة العدل العراقية ويضم أربعة آلاف سجينة و٢٢ طفلاً حديثي الولادة.. وإن "بعض السجينات المغتصبات خارج السجن أقمن دعوى ضد الذين اغتصبوهن فتمّ اعتقالهن بدلاً من اعتقال

---

[1] وزيرة عراقية تبرر استقالتها بعجزها عن خدمة قضايا المرأة، الجزيرة نت، ٩ / ٢/ ٢٠٠٩م.

الجناة"[١]، واستناداً إلى ما أعلنه رئيس اتحاد السجناء السياسيين العراقيين محمد ادهام الحنش، فقد زاد عدد النساء المعتقلات خلال الست سنوات المنصرمة لدى القوات الأميركية والحكومية عن عشرة آلاف[٢].

الاستهداف المباشر

وبينما يشكل الرجال النسبة الأعلى "من بين المستهدفين جسدياً بواسطة الرمي (٩١ بالمائة مدنيون ذكور) والإعدامات مع التعذيب (٩٧ بالمائة)، شكلت الإناث والأطفال أعلى نسبة الضحايا المدنيين حين تضمنت طرق العنف إطلاق نيران أسلحة عشوائية من مسافات بعيدة، أي الهجمات الجوية والهجمات بمدافع الهاون"[٣].

وطرق استهداف المرأة من قبل قوات الاحتلال عديدة من بينها الهجمات الجوية التي يستخدمها بكثافة لحماية جنوده أو لتوفير الغطاء الجوي لقواته وقوات حكومة الاحتلال في مداهماتها، ويشكل إطلاق النار العشوائي في الأسواق المكتظة وعند نقاط التفتيش وأثناء مداهمة البيوت بحجة إلقاء القبض على "الإرهابيين" أسباباً أخرى، وقد استهدفت الميليشيات الطائفية المرأة كما الرجل، إما بسبب الانتماء المذهبي أو السياسي وغالباً تحت مسمى اجتثاث البعث فضلاً عن الأسباب الكيدية، وقد ساهم المرتزقة وموظفي الشركات الأمنية وهم الذين يتمتعون بالحصانة من القانون العراقي حسب تشريعات الحاكم بول بريمر في استهداف المدنيين وبضمنهم النساء كما في جريمة

---

[١] "لجنة حقوق الإنسان البرلمانية تكشف تعرض نساء إلى الاغتصاب خلال التحقيق" الحياة، ١٠ مايس٢٠٠٩م.

[٢] ملف النساء المعتقلات يثير قلقاً بالعراق، الجزيرة نت، ٢٤ /مارس ٢٠٠٩م.

[٣] "الأسلحة التي تقتل المدنيين: وفيات الأطفال وغير المحاربين في العراق ٢٠٠٣م – ٢٠٠٨م، ترجمة المستقبل العربي، ص ١٤٦– ١٥١، العدد ٣٦٤، حزيران / يونيو ٢٠٠٩م.

ساحة النسور حيث قتل ١٧ مدنياً عراقياً على يد مرتزقة الشركة الأمنية بلاكووتر في ١٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨م.

دور نساء البرلمان

من بين "الإنجازات" التي تفتخر بها الإدارة الأمريكية هو ما تسميه بمشاركة المرأة السياسية في العراق، وخاصة نسبتها المحددة وفق نظام المحاصصة بـ ٢٥%، وهي نسبة عالية حقاً حتى بالمقارنة مع أمريكا وبريطانيا، إلا أن وجود هذا العدد من النساء في البرلمان كما أثبتت سنوات الاحتلال لم يزد عن كونه واجهة تجميلية جوهرها مماثل لوجود الرجال المرتبطين بمصالح أحزابهم الطائفية والعرقية الضيقة، ولا علاقة لهن بهموم المرأة العراقية بل وغالباً ما تقوم البرلمانيات بتبرير جرائم أحزابهن مثال ذلك دور (سميرة الموسوي) النائبة عن كتلة «الإئتلاف العراقي الموحّد» ورئيسة لجنة المرأة والأسرة والطفولة في فضيحة دار الأيتام، فقد أشرفت الموسوي على كتابة تقرير لجنة المرأة والأسرة والطفولة في مجلس النواب عن سوء المعاملة والاعتداءات الجنسية وإهمال أطفال «دار الحنان» للمعاقين الذين عُثِر عليهم شبه أموات ضحايا الجوع والعطش، وبرّر التقرير حالة الأطفال المخيفة بأنهم كانوا «لا يفضّلون تناول الطعام» وأنهم كانوا عُراة على أرض الدار الجرداء «وموثوقين إلى أرجل الأسرّة التي مُنعوا من النوم فيها بسبب الخوف على حياتهم لأنهم يعانون من حالات غير طبيعية»[1]، ولم يشر التقرير إلى إهمال المسؤولين في توفير الحماية اللازمة للطفل العراقي في ظروف اقتصادية كارثية ازدادت فيها العمالة المبكرة للأطفال والمتسرّبين من

[1] "العراق: إجراءات لنقل أطفال فضيحة دار الحنان إلى الولايات المتحدة"، راديو دجلة، ٢١ تموز / يوليو ٢٠٠٧م.

المدارس والأيتام والمهجّرين قسرياً داخل البلاد وخارجها، كما لا يوجد في مفردات البرلمانيات أو غيرهنّ من الناشطات النسويات المعتمدات في تمويلهن على المؤسسات الأمريكية أو الأجنبية عموماً أي ذكر لانتهاكات وجرائم الاحتلال اليومية، وهو الموقف الذي تصفه الناشطة الحقوقية هناء إبراهيم بأنه مشاركة "في عملية تزييف الوعي التي تحتاجها الرأسمالية المتوحشة منها واللطيفة لعزل القضايا العادلة عن جوهر أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية"، وتعتبر هناء إبراهيم عدم الحديث عن عنف الاحتلال وجرائمه والاقتصار على الحديث عن "العنف الأسري" و "والتمييز الجندري"، أي النوع الاجتماعي، هو عزل للمرأة وقضاياها قائلة: "في قراءة المشهد العراقي اليوم وحال المرأة فيه يتكشف لنا بالواقع الملموس والدليل القاطع أن عنف الاحتلال ضد المرأة أعادها إلى ما دون درجة الصفر كيف لا والاحتلال بجوهره حالة تدمير وتفكيك وإفساد ومصادرة وإقصاء وسرقة ثروات وحرب ضد وجود الإنسان وسعي للقضاء على أسباب مقاومته؛ ولأن الاحتلال في بنيته لا يقدم خطاباً موضوعياً لدوافعه فإنه "كالطابور الخامس" يعمل بكل آلياته الإعلامية والسياسية على تزييف صورته ليحولها إلى صورة خادعة"[1].

الرئيس أوباما وآمال تغيير السياسة الأمريكية

لقد بنى بعض العراقيين آمالاً حول تغير السياسة الأمريكية تجاه العراق بعد فوز الديمقراطي باراك أوباما برئاسة الولايات المتحدة خاصة وأنه بنى

---

[1] "بمناسبة اليوم العالمي لرفض العنف ضد المرأة: عنف الاحتلال ضد المرأة وأولية المواجهة"، هناء إبراهيم، هيئة إرادة المرأة، ٧ كانون الأول ٢٠٠٨م.
tp://iraqiwomenswill.blogspot.com/2008/12/blog-post_07.html

حملته الانتخابية على سحب القوات الأمريكية من العراق وفق جدولة زمنية محددة، غير أن كل الدلائل تشير إلى أن سياسة أمريكا الخارجية تجاه العراق باقية كما هي، وأن تطبيق "جدولة الانسحاب" خاضع لتفسيرات مطاطية وحسب ثقة الإدارة الأمريكية بوجود "حكومة عراقية" توفر لها رعاية مصالحها وحسب المعاهدات بعيدة الأمد التي قامت حكومة المالكي بتوقيعها مع إدارة بوش؛ لتقيّد الشعب العراقي على مدى عقود مقبلة.

وتعتمد سياسة أمريكا تجاه العراق على تطبيق إدارة أوباما لتلك الاتفاقيات، كما تشير الدلائل إلى أن تعامل إدارة الاحتلال إزاء حقوق الإنسان العراقي لن يتغير كثيراً عن السابق خاصة بعد أن تراجع أوباما عن نشر صور التعذيب في أبو غريب التي قال سابقاً بأنه سيسمح بنشرها إثر تلقيه نصيحة من كبار ضباط الجيش بعدم السماح بنشر الصور "لما قد تثيره من مشاعر الغضب ضد القوات الأمريكية"، ويبلغ عدد الصور ٢٠٠٠ عن ٤٠٠ حالة انتهاك في أبو غريب وستة معتقلات أخرى، وهي "تتضمن صوراً تؤكد وقوع عمليات اغتصاب وانتهاكات جنسية من بينها صور تعرض جندياً أمريكياً وهو يغتصب معتقلة وأخرى لمجموعة جنود يقومون بتعرية فتاة ومترجماً أمريكياً من أصل مصري يغتصب صبياً، بينما تقوم إحدى المجندات الأمريكيات بتصوير فعل الاغتصاب، وتعرض صور أخرى انتهاكات جنسية قام بها جنود أمريكيون مستخدمين عصى وهراوات وأدوات أخرى[1]، ولم تصدر من أي مسؤول أو سياسي عراقي ذكراً كان أم أنثى نأمة صوت عن وجود صور حالات الانتهاك الأربعمائة أو موقف الرئيس أوباما بصدد نشر الصور الدالة على حجم وبشاعة انتهاكات حقوق الإنسان في "العراق الجديد".

---

[1] "صور الانتهاكات في أبو غريب تظهر الاغتصاب"، دنكان غاردام وبول غروشانك، صحيفة الديلي تلغراف، ٢٧ مايس ٢٠٠٩م.

أما بصدد "حقوق المرأة" فلم تتجاوز سياسة أوباما ما قيل وطبق سابقاً من قبل إدارة بوش تجاه المرأة "في العالم الإسلامي" إلا في إضافة ترسيخ بعض البديهيات التي يعتبر مجرد التطرق إليها ومناقشتها انعكاساً للتفكير الأمريكي وخطابه الإمبريالي على غرار "رفض وجهات نظر البعض في الغرب أن المرأة التي يفرض عليها الحجاب تخسر حقها" و"رفض إجبار المرأة على أداء دور معين"[1]، وتواصل إدارة أوباما فصل "حقوق المرأة" في العراق وفلسطين وأفغانستان، وهي البلدان المحتلة من قبل أمريكا وربيبتها إسرائيل، عن قضايا شعبها وطرح الحلول الجزئية المشروطة حسب الدعم المالي للاحتلال.

الخلاصة

إن حقوق المرأة التي تعتبر أمريكا نفسها واحدة من دعاتها الرئيسيين في العالم ويقدم عملاء الاحتلال أنفسهم باعتبارهم من المدافعين عنها أيضاً في "العراق الجديد" قد أثبتت سنوات الاحتلال بأنها إدعاء زائف غرضه تفتيت القضايا وإشغال المرأة بأمور ثانوية لا تمت لحقوق الإنسان بصلة، ولا علاقة لها بأولويات وواقع المرأة البائس تحت الاحتلال، وإذا ما تركنا جانباً القيم الأخلاقية والدينية والمجتمعية التي يتمتع بها المجتمع العراقي وتنص على احترام المرأة كإنسانة وأم وزوجة وأخت وابنة، وتفحصنا مدى تطبيق مقياس الأمم المتحدة الذي تتبناه أمريكا باعتبار أن حقوق المرأة هي حقوق الإنسان وهو مقياس نبيل إن تمّ تطبيقه فعلاً لوجدنا أن الاحتلال الإنجلو أمريكي للعراق قد انتهك كل حق من حقوق الإنسان بدءاً من حق الحياة والصحة

---

[1] خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما في القاهرة. ٤ حزيران ٢٠٠٩م.

والتعليم وحرية الحركة والمسكن والأمان والحصول على الأساسيات إلى حرية إبداء الرأي، ويتجاهل المنظور الإمبريالي لإدارة الاحتلال عن حقوق المرأة مسألة أساسية بكل المقاييس وهي ارتباط قضية المرأة بقضايا شعبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن استعادتها لحقوقها الأساسية وكرامتها وشرفها لن تُتحقق بمعزل عن تحرر وطنها من عبودية الاحتلال مهما كانت مسميات الاحتلال زاهية براقة.

تحقيق الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية

سارة علي[1]

أفرز واقع الاحتلال الذي جثم على العراق شعباً وأرضاً حالة تعتبر سابقة من نوعها في تاريخ العراق، بل وحتى تاريخ العالم وهي الهجـرة الجماعيـة لأبناء العراق ونزوحهم داخل وخارج العراق، وتعتبـر هـذه الـسابقة هـي الأخطر من نوعها ولا تكاد تسبقها إلا التهجير الذي حصل فـي أربعينيـات القرن الماضي للشعب الفلسطيني على أيدي اليهود المحتلين، ولا نبالغ إذا قلنا أن واقع اللجوء العراقي في حاضرنا اليوم أقسى من اللجوء الفلـسطيني إذ أن الكثير من دول العالم وشعوبها فتحت أذرعها لاسـتقبال اللاجـئ واللاجئـة الفلسطينيين، أما فرص العراقي اللاجئ أو اللاجئة فمحدودة والدول التي قبلت باستقباله لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ورغم أن الكثيرين من أبناء فلسطين المحتلة تمكنوا من بيع ممتلكاتهم والعيش بها في دول أخـرى، إلا أن العراقي أو العراقية ترك كل شئ خلفه لأن كل شئ استبيح من قبـل المحتـل

---

[1] كاتبة وإعلامية عراقية.

والمليشيات فلجأ إلى دول أخرى لا يحمل إلا النزر اليسير مما تمكن أن يسلم عليه، أما المرأة في العراق والتي جاء لها الاحتلال بواقع ديمقراطي وحرية لم تنلها سابقتها إذ قتل المحتل زوجها ورمّلها ويتّم أطفالها وسلبها أبسط ممتلكاتها ولعلها كانت أوفر حظاً من غيرها إذ لم يستبيح المحتل عرضها وشرفها شأن الكثير من حرائر العراق، وربما اعتقل الزوج وتمّ تهديده بالاعتداء على محارمه مما دفع الكثيرات إلى النزوح داخل العراق هرباً من المحتل والمليشيات، أو تركت العراق بحثاً عن ملاذ آمن لعلها تجده في دول الجوار، أغلب العراقيات اللواتي فقدن أزواجهن هن معرضات للتهديد لجأن إلى دول الجوار وبعض الدول العربية، وتحتل سوريا المرتبة الأولى في لجوء العراقيين يليها الأردن ولبنان ومصر وبعض قليل تمكن من الدخول إلى الدول الخليجية أو الحصول على لجوء في أمريكا الشمالية ودول أوربا، وقد سجلت المفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة النسب التالية لأعداد العراقيين للاجئين كالتالي:

أكثر من مليون ونصف عراقي في سوريا، وبين (٤٥٠ ألفا و٥٠٠ ألف) في الأردن، و(٢٠٠ ألف) في دول الخليج، و(٥٠ ألف) في لبنان، وبين (٤٠ ألفا و٦٠ ألف) في مصر، و(٦٠ ألف) في إيران، و(١٠ آلاف) في تركيا، وقد سجلت المفوضية السامية من هذا المجموع أكثر من (٢٧٧,٥٠٠) حالة لجوء أو ما يقارب (١٠%) من النسبة المقدرة لعدد السكان العراقيين في المنطقة.

لجان دولية ومؤسسات مختصة رصدت نسبة العراقيين اللاجئين في دول الجوار ومعاناة العراقيين بشكل عام والمرأة العراقية بشكل خاص، ففي دراسة استقصاء أجريت في الأردن من قبل معهد البحوث النرويجية بالتعاون مع الحكومة الأردنية عن نسبة العراقيين المتواجدين في الأردن تبين أن العدد

زاد بنسبة (٧٧%) بعد عام ٢٠٠٣م أي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وأغلب الذين وصلوا على أساس وحدات أسرية أو من النساء اللواتي فقدن المعيل (مابين قتل وخطف واعتقال)، ويبلغ متوسط حجم الأسرة العراقية الواحدة (٤,١) أشخاص ويتكون ثلثي العائلات من أطفال دون سن الثامنة عشر، تعيل النساء (٢٠%) من العائلات التي تكون في الغالب من فئات السكان الأكثر فقراً، يشكل المسلمون السنة ما يزيد على (٦٠%) من اللاجئين في حين يشكل المسلمون الشيعة من (١٧%-١٨%)، والمسيحيون من (١٢%-١٥%)، والطوائف الأخرى بما فيها الصابئة المندائيون واليزيديون (٥%).

ما يهمنا هنا هو وضع العراقية كلاجئة في الأردن والتي تعتبر من الدول التي لم توقع على اتفاقية ١٩٥١م (هذه الاتفاقية تنظم وضع اللاجئ، ومن ضمن الدول المستضيفة للعراقيين وموقعة عليها كل من تركيا وإيران ومصر هي دول وقعت على اتفاقية عام ١٩٥١م رغم أن المفوضية السامية تتولى بصورة منتظمة بموجب ولايتها بتحديد وضع اللاجئ على المستوى الفردي) أما سوريا ولبنان والأردن فليست طرفاً في اتفاقية عام ١٩٥١م، ولا يوجد لديها نظام حماية منظم لحماية العراقيين ومساعدتهم وباستثناء منح تصاريح الإقامة قصيرة المدى لا يستفيد العراقيون من أية خدمات إلا دعم محدود بل يتركون لتدبير حالهم بأنفسهم، وبالتالي تجد عدد كبير من العراقيات أنفسهن غير قادرات على العمل بطريقة قانونية فيقع البعض منهن في حالة فقر تزيد حدته حين تنفذ مواردهن والكثير منهن يحملن مؤهلات دراسية جيدة إلا أن عدم الحصول على تصاريح قانونية للإقامة ومن ثم للعمل يحول دون الحصول على فرصة عمل مع ندرة فرص العمل في دول ترتفع بها نسبة البطالة لأبنائها، ولذا لجأت بعض العراقيات إلى العمل في مهن لا تتناسب مع

الوضع الاجتماعي للمرأة العراقية كأن تكون خادمة أو عاملة نظافة أو جليسة أطفال وكثيرات منهن قمن بتسريب أطفالهن من المدارس لعدم القدرة على دفع مصاريف الدراسة ومستلزماتها أو إلى دفع أطفالهن للعمل (أي عمالة الصغار).

أما وضع اللاجئين العراقيين في سوريا بشكل عام والنساء بشكل خاص فهو وضع مأساوي وهنا لابد أن نتطرق إلى بعض النسب التي تخص اللاجئين العراقيين المتواجدين بسوريا حسب مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة مكتب سوريا والتي تبين فيها أن نسبة الذكور العراقيين في سوريا تصل قرابة (٥٣%) في حين تصل نسبة الإناث إلى (٤٧%) أما نسب المدن في العراق التي حصل فيها تهجير للعراقيين هي بغداد حيث تصل نسبة اللاجئين في سوريا من بغداد إلى (٥٦%) وتأتي بعد ذلك محافظة نينوى إذ تصل النسبة إلى (٧%) من نسبة اللاجئين، أما بالنسبة للمذهب فيشكل أبناء المذهب السني نسبة (٥٨%)، ويأتي بعد ذلك أبناء المذهب الشيعي بنسبة (١٩,٥%)، ثم المسيحيون العراقيون بنسبة (١٤,٥%)، أما عدد النساء اللاجئات اللواتي تعرضن للخطر في العراق وهنّ الآن متواجدات بسوريا فتصل النسبة إلى (٣,٣%) من نسبة مجموع اللاجئين العراقيين وتقصد المفوضية هنا بالخطر أي هنّ تعرضن للاغتصاب أو مهددات بذلك أو تعرضن للاعتقال أو تهددن بذلك أو للخطف أو تهددن بذلك مما اضطرهن إلى اللجوء إلى سوريا علماً أن هناك الكثيرات اللواتي لم يسجلن في مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة؛ لاعتبارات كثيرة، والجدير بالذكر أن تقارير مفوضية اللاجئين تشير إلى أن أكثر من (٢٠%) من نسبة النساء العراقيات اللاجئات بسوريا والأردن هنّ معرضات للخطر في العراق وسبق أن

تعرضن لأحداث عنف أو مهددات بذلك في العراق ممـــا اضـــطرهن لتـــرك العراق والهجرة إلى الدول لمجاورة.

أما نسبة الأطفال الذين تعرضوا للخطر ولجأوا مع عوائلهم إلـــى ســـوريا فتصل النسبة إلى (٤,٤%)، أما الأيتام وذوي الاحتياجات الخاصـــة فتـــصل نسبتهم إلى (١٧,٧%)، وما نريد أن نسلط الـــضوء عليـــه هنـــا أن أغلـــب اللاجئات العراقيات استنفدن مدخراتهن، وبما أن سوريا من الدول التـــي لـــم توقع على اتفاقية عام ١٩٥١م لذا فإن تأمين احتياجات اللاجـــئ العراقـــي لا تكون بشكل مستمر، وفي نفس الوقت يمنع العراقي من مزاولة العمل بسوريا وهذا الحال ينطبق على النساء والرجال العراقيين اللاجئين بسوريا، وسبق أن بيّنا أن الكثيرات من العراقيات بسوريا هن بدون معيل بـــسبب الاعتقـــال أو القتل أو لازال الزوج مجهول المصير بسبب اختطافه في العراق، عنـــد ذلك يصعب توفير المورد العائلي لكثير من العوائل العراقية التي بدون معيل.

تسجل النسب التي وصلت إليها المفوضـــية أن (٩٨%) مـــن العوائـــل العراقية بسوريا يستأجرون السكن وأن ما نسبته (٢%) من العراقيين بسوريا يملكون سكناً فإذا كان المعيل لهذه الأسرة هي اللاجئة العراقية فيجب عليها أن تدفع إيجاراً شهرياً – وأقل إيجار بسوريا لا يقل عـــن المائـــة دولار – فـــإذا كانت هي لا تعمل ولا تتوفر لها فرص العمل التي تتناسب معها مـــع تزايـــد الطلبات المعيشية والإيجار ومصاريف الأولاد فمن أين يمكن لتلك المـــرأة أن تسد هذه الاحتياجات المتزايدة، وما هي الخيارات المتاحة لتلك المـــرأة لكـــي تتمكن من المواصلة وبما يحفظ لها كرامتها وكرامة أطفالها؟.

ولعلنا إذا أردنا أن نبين أن الخيارات المتاحة للنساء العراقيات المتعلمـــات وحاصلات على مؤهلات دراسية جامعية تكاد تكون هـــذه الخيـــارات لأجـــل العمل معدومة أو قد تتاح لها فرصة العمل في مجال يختلف تماماً عن مؤهلها

الجامعي أو لا يتناسب مع مكانتها الاجتماعية، هذا بالنسبة للمـــرأة العراقيـــة اللاجئة المتعلمة، فكيف الحال مع اللواتي لا يملكن أي مؤهل جـــامعي أو أي خبرات أو أي تحصيل دراسي أو حرفة يتمكن من خلالها من العيش بكرامـــة ولسداد فقط مستلزمات الحياة الرئيسية، هذه الفئة ومنذ ســـنة تحديـــداً بـــدأت مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بصرف مبلغ لكل عائلة تكون بـــدون معيل وليس لديها ابن يبلغ من العمر ١٨ سنة تصرف لهذه العائلة مبلغ حوالي مئة دولار إضافة إلى المواد الغذائية التي تستفيد منها أكثر العوائل العراقيـــة اللاجئة بسوريا، فضلاً عن أن الكثير من تلك العوائل تحصل على مـــساعدات مقدمة من منظمات ولجان أوربية مرتبطة بالمنظمات الأم في أوربا وأمريكـــا الشمالية، وبالرغم من أن هذه المساعدات محـــدودة إلا أن أعـــداد العـــراقيين بشكل عام والعراقيات بشكل خاص أعداد كبيرة حيث يتقاطرن أمـــام أبـــواب هذه المنظمات لأجل طلـــب المـــساعدة ،علمـــاً أن أغلـــب تلـــك المنظمـــات والمؤسسات تعمل لإغراض التنصير للعراقيين ومن يدقق في تلك المؤسسات سواء الموجودة في الأردن أو في سوريا يجـــد أنهـــا مرتبطـــة بمؤســـسات تنصيرية في الغرب وقد توافدت هذه المؤسسات على الدول الحاضنة للاجئين العراقيين وبدأت تقدم لهم خدمات قل نظيرها إضافة إلى المـــساعدات الماليـــة والغذائية وتقديم الدورات التأهيلية للعراقيات ما بين تعلم اللغة والإدارة العامة والسكرتارية إضافة إلى مهنة الخياطة والحياكة وفوق ذلك تمـــنح المتخرجـــة من الدورة ماكنة خياطة حديثة وعدد من الأقمشة وبكميات كبيرة وعدة خياطة كاملة وكثير من العراقيات يلجأن لتلك المنظمات لأنهن لم يجدن البديل وإن لم يكن هذا الأمر مبرراً، ولأن الحصول على مبلغ المائة دولار الـــذي تـــستلمه الأم المسؤولة عن عائلة من قبل مفوضية اللاجئين للأمم المتحدة يذهب إلـــى

الإيجار ويبقى عليها التزامات أخرى لابد أن تلتزم تلك المرأة بأدائها منها المعيشة وأجور الماء والكهرباء والحالات الصحية الطارئة وغير ذلك.

وكثير من العراقيات عملن بمهن وحرف لم يكن يعملن بها في العراق ولا نستغرب إذا وجدنا طبيبة مثلاً تعمل خيّاطة بمعمل للخياطة؛ لأنها لاجئة ولا يحق لها مزاولة عملها كطبيبة وإذا زاولت مهنتها يصار إلى ترحيلها للعراق، عند ذاك تضطر للعمل بالخفية أو تزاول مهنة كالخياطة وبأجور تقل عن مثيلتها العاملة من ابنة البلد على اعتبار أن صاحب العمل متفضل عليها وتعمل عنده بالرغم من التحذيرات القانونية من منع العراقيين من مزاولة العمل والسبب أن تلك الدول التي لجأ لها العراقيون هي أصلاً تعاني من ارتفاع نسبة البطالة بين أبناء شعبها، فسوريا مثلاً لديها مليون وربع المليون عاطل عن العمل وكذلك الأردن لديها ما يقارب النصف مليون عاطل والحال معروف بمصر وقلة فرص العمل لذلك نجد أن فرصة العمل للعراقي بتلك الدول ضئيلة أو محدودة وهذا الأمر يضيف عبئاً آخر على كاهل اللاجئة العراقية.

ولعل خياراً آخر يطرح أمام العراقية هي الزواج من عربي وهذا الخيار متاح للنساء الغير متزوجات وليس لديهن أطفال وطبعاً فرص نجاح مثل هذه الزيجات قليل جداً لأن الكثيرين يرون أنفسهم متفضلين على المرأة العراقية؛ وبالتالي تكون استمرار حالات هذا الزواج قليلة، ولا ننسى أن نذكر أن البعض من الرجال العرب يتزوج العراقية لمدة قليلة ثم يتركها بعد فترة وجيزة من هذا الزواج، ولقد انتشر بكثرة ما يسمى بزواج نهاية الأسبوع أو الزواج لفترة محددة وإن كان هذا ليس زواجاً شرعياً حيث يتزوج الرجل العربي من العراقية لمدة محدودة ثم يتركها أو قد لا يخبرها بنيته تلك ثم يفاجئها بأن يسافر ويتركها.

وهنا لابد أن نشير إلى أن دولاً كثيرة مرت بمحن ولكن وجدت دولاً أخرى احتضنت أبناء تلك الدولة التي مر أبناؤها بحروب واقتتال لكن الحال مع العراق والعراقيين يكاد يكون صعباً إذ أن اللاجئ العراقي أو العراقية لا يحظى بفرصة الدخول إلى الدول العربية والأجنبية، ولا تكاد تكون فرصة الحصول للدخول إلى أية دولة في العالم متاحة للعراقي لأنهم يدركون أن العراقيين يرغبون في الاستقرار هرباً من الجحيم الذي يعيشه عراق الآن وحتى إن سمحت تلك الدول بإعطاء اللجوء أو الفيزا للعراقيين نجد أن الحكومة العراقية تسعى إلى عقد اتفاقيات مع تلك الدول لأجل إبعاد العراقيين من أرضيها أو أقل شيء هو التضييق عليهم، ومع كل ذلك لا نستغرب لما نعرف عن هجرة نساء مع أولادهن هجرة غير مشروعة إلى دول أوربا بحثاً عن الملاذ الآمن الذي ربما تجده في أوربا وفقدته بالعراق بسبب الاحتلال والعنف الدائر هناك، ورغم مخاطر تلك الهجرة والركوب في البحر والتعرض للموت لكن لازالت الكثير من العراقيات يهاجرن تلك الهجرة مع أولادهن إلى أوربا عن طريق البحر رغم المجازفة الكبيرة في هذا العمل وتفضله على العودة للعراق لأنها تعتبر رجوعها هي وأولادها للعراق انتحاراً، وقسم آخر يهاجر أزواجهن ويبقين هن وأولادهن في دول الجوار بلا معيل أو أي ادخار مادي وربما يموت الزوج في تلك الهجرة غير الشرعية ولا تسمع عنه أية أخبار وتبقى وحدها مع أولادها في تلك الدول وأيضاً رغم مخاطر تلك الهجرة على الرجال العراقيين وتركهم لأسرهم في دول الجوار إلا أنهم يفضلون القيام بتلك المخاطرة على الرجوع إلى العراق.

الخيار الآخر الذي يمكن أن تحصل عليه العراقية اللاجئة في دول الجوار هو فرصة التوطين بأمريكا ودول أوربا بعد أن تنطبق مواصفات التوطين عليها وعلى عائلتها ومواصفات التوطين تلك تخضع حسب الدول الموّطنة،

وهذا الأمر يعني للعراقية الذهاب للمجهول ومجتمع لم تألفه من قبل يختلف اختلافاً جذرياً عن المجتمع الذي نشأت فيه هي وأولادها وربما تحصل على فرصة كريمة للعيش هناك وقد لا تجد هذه الفرصة، فضلاً عن أن أولادها سينخرطون في تلك المجتمعات وقد لا يحافظون على معتقداتهم ودينهم وتقاليدهم إلا ما رحم ربي.

لذا فإن الواقع الذي تعيشه المرأة العراقية اللاجئة واقع مرير كان نتاجاً لما خلّفه الاحتلال الأمريكي لبلدها العراق، وأتى بانعكاسات سيئة للغاية على واقع هذه المرأة ولابد من انتشال المرأة العراقية من ذلك الواقع من قبل دول ومؤسسات عربية إضافة للمؤسسات العراقية المخلصة التي تهدف إلى المساعدة الحقيقية لتلك المرأة وليس استغلالها أو الرياء في مساعدتها لأهداف سياسية معروفة.

تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية... ممارسة روتينية منذ نشأتها

نعوم تشومسكي[1]
ترجمة
سيف الجبوري[2]

إن المعلومات التي تسربت في شهر نيسان من العام الحالي من البيت الأبيض حول ممارسات التعذيب كانت بلا شك صدمة مروعة للشعب الأمريكي، كانت هذه المعلومات المسربة عاملاً يضاف إلى عوامل الشعور الساخط لدى الشعب الأمريكي تجاه الإدارة الأمريكية السابقة وخاصةً بعد الشهادة التي ألقتها لجنة القوات المسلحة المكلفة بالتحقيق في ضلوع الإدارة الأمريكية وبأوامر مباشرة بممارسة التعذيب ضد المعتقلين (والتي عُرفت بلجنة تشيني- رامسفيلد) في مجلس الشيوخ الأمريكي حول المحاولات اليائسة التي قام بها رامسفيلد وتشيني لإيجاد صلة أو روابط تجمع بين العراق وتنظيم القاعدة، تلك الروابط التي ثبت بطلانها وتلفيقها لمجرد تبرير الغزو، أحد أعضاء اللجنة كان الرائد "تشارلس بيرني" والمتخصص في علم النفس قال في شهادته: "لقد أضعنا وقتاً طويلاً مركزين في البحث على أي رابط بين تنظيم القاعدة والعراق، ولكن المسؤولين أصيبوا بالإحباط لعدم تمكننا من

---

(1) باحث وناقد اجتماعي وهو مؤلف العديد من المقالات والكتب ومنها (سعي أمريكا للهيمنة على العالم) ٢٠٠٣م، (إساءة استعمال السلطة واغتيال الديمقراطية)٢٠٠٦م.

(2) وحدة الترجمة في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

إيجاد تلك الصلة، في الوقت نفسه تعرضنا لضغوط قوية ومستمرة من أجل اللجوء إلى اتخاذ تدابير ووسائل من أجل الحصول على نتائج فورية ومنها أساليب التعذيب"، كما ذكرت وكالة "ماك كلاتشي" نقلاً عن ضابط كبير في الاستخبارات الأمريكية قوله: "إن إدارة بوش قد مارست ضغوطاً على المحققين من أجل تطبيق أساليب تعذيب خاصة مع المعتقلين في محاولة للضغط عليهم وإيجاد صلة بين تنظيم القاعدة وصدام حسين"، كما أثبتت اللجنة (لجنة تشيني- رامسفيلد) بأن "تشيني" الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس الأمريكي "جورج بوش" و"دونالد رامسفيلد" الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع في نفس تلك الفترة قد أمرا وعبر قنوات رسمية عدداً من المحققين بالضغط على المعتقلين وخاصة المعتقلين الذي كانوا يعّدون صيداً ثميناً لهم واستخدام أقصى أساليب التعذيب من أجل الحصول على أي معلومات تساعد على ربط تنظيم القاعدة بالعراق، وكلما كان المحققون يأتون خالي الوفاض كان رجال رامسفيلد وتشيني يأمرونهم بالضغط أكثر على المعتقلين.

في نفس الوقت الذي تعدّ هذه الشهادة المخزية والفاضحة لخداع الإدارة الأمريكية السابقة تمثل صدمة للشعب الأمريكي، ولكن نستطيع القول أن تلك الممارسات كانت غير مفاجئة، والسبب في ذلك أنه كان من المتوقع أن يكون معتقل مثل "غوانتانامو" مكاناً مثالياً لممارسات التعذيب، إذ لماذا يتم إرسال المعتقلين لمكان أبعد ما يكون عن يد القانون ورقابته؟.

إن واشنطن بهذا النوع من التصرفات تنتهك المعاهدة التي كانت محل خلاف بين كوبا وأمريكا حتى استطاعت الولايات المتحدة إجبار كوبا على قبولها في النهاية، إن الولايات المتحدة تنتهك وبشكل سافر كل بنود تلك المعاهدة وذلك بدواعي أسباب أمنية مشكوك فيها وغير قابلة للتصديق، وبنفس

تلك الدواعي المزعومة أقامت الولايات المتحدة معتقلات ومراكز تحقيق سرية خارج أراضي الولايات المتحدة لتمارس شتى أنواع التعذيب بدون حسيب أو رقيب.

تعود ممارسات التعذيب التي يمكن القول إنها كانت بأوامر رسمية منذ الأيام الأولى لقيام الاتحاد الأمريكي على يد المغامرين القادمين من أوروبا وحتى اليوم، إذ دعا "جورج واشنطن" المغامرين والمستكشفين إلى إيجاد أراضي أخرى وغزوها وضمها إلى الاتحاد مثل "هاييتي" و"الفلبين" وغيرها الكثير.

ليس من الصعب القول أن التعذيب كجريمة وممارسة هو أقل بكثير من جرائم التعدي والإرهاب الدولي المنظّم وعمليات التخريب والخنق الاقتصادي الذي تفرضه الولايات المتحدة الأمريكية على كل من لا يحمل قيمها ومفاهيمها أو بالأحرى كل من يعارض سيطرتها، إن كل تلك الجرائم تلقي بظلالها السوداء على تاريخ الولايات المتحدة شأنها شأن كل القوى الاستعمارية الغاشمة، لكننا ورغم ذلك لا نجد رد الفعل المناسب على تلك الجرائم حتى من أشد معارضي الرئيس السابق "جورج بوش"، كمثال على ذلك كنا نقول: "بأننا أمة الأخلاق والمثل العليا" ولم يسبق لنا قبل جورج بوش "أن حضينا بقائد أو رئيس خان وبشكل مطلق كل ما آمنت به هذه الأمة وناضلت من أجل تحقيقه"[1]، إن أقل ما يمكن قوله أن كل تلك الممارسات التي قام بها الرئيس السابق "جورج بوش" قد أعطت صورة مشوهة عن أمريكا في الخارج وتاريخاً غير مشرف سيحمله أبناء هذه الأمة.

---

(1) الكاتب الأمريكي "بول كروغمان".

يبرز بين الحين والآخر صراع بين "ما ندافع عنه" وبين "ما نقـوم بـه" ولكن هذا الصراع أصبح أكثر صراحة الآن من أي وقـت مـضى، "هـانز مورغانثاو"[1] هو أحد العلماء البارزين والذي أخذ على عاتقـه فـك رمـوز وطلاسم هذا الصراع طوّر في إحدى دراساته الكلاسيكية المتـأثرة بخيـالات المدينة الفاضلة "الكاميلوت" من معيار "الهدف السامي" الأمريكي وهو "تحقيق السلام والحرية في كل الولايات المتحـدة الأمريكيـة وكـذلك نـشر هـذين المفهومين في العالم أجمع، وبناءً على ذلك فإن الساحة التي يفتـرض علـى الولايات المتحدة أن تعمل بها لتحقيق تلك الأهداف السامية أصـبحت العـالم ككل"، ولكن بصفته أحد العلماء الذين يميلون للتشكيك في كل شيء؛ أدرك أن العالم وبسبب جذوره التأريخية سوف يعارض كل أو على الأقل بعض تلـك المفاهيم "السامية" الأمريكية.

تركة من الجرائم الفظيعة

لنعد الآن إلى حقيقة فكرة تكوين أمريكا منذ الأيام الأولـى، إن العبـارة الملهمة "مدينة على التل" التي اخترعها "جون ونثروب" فـي العـام ١٦٣٠م والتي كانت مستوحاة من الإنجيل قد حددت مفهوم الأمة الجديدة "المباركة من الرب"، قبل سنة من ذلك التأريخ قام "جون ونثروب" الذي كان يحكم مستعمرة "باي" والمعروفة اليوم بولاية "ماساتشوستس" بعمل ختم خاص لتلك المستعمرة وهو عبارة عن رسم وجه لهندي أحمر مـع ريـشة فـوق رأسـه وعبـارة "ساعدونا" تخرج من فمه، وبسبب هذه العبارة قام المستعمرون البريطـانيون

[1] "هانز مورغانثو" هو أحد العلماء البارزين في الولايات المتحدة الأمريكية وصاحب نظرية الواقعية فـي العلاقات الدولية.

وتحت غطاء أسباب إنسانية بالاستجابة لنداء المساعدة الذي أطلقه ذلك الهندي الأحمر لإنقاذه من الإلحاد الذي هو فيه.

إن ذلك الختم بالرموز التي حملها يمثل الفكرة الأساسية لنشوء أمريكا والتي تزرع في عقول الأمريكيين اليوم منذ نعومة أظفارهم، وهي نفس المبدأ الذي رسم الخلفية والملامح الحقيقية للقاتل والسفاح "رونالد ريغن" والذي كان يصف نفسه بأنه "حاكم المدينة المضيئة التي تقع على التل" في نفس الوقت الذي كان يقوم بأبشع الجرائم ويتركها كميراث يحمله الشعب الأمريكي من بعده.

إن مصطلح "التدخل لدواعي إنسانية" يتم تحويره دائماً ليتناسب مع المرحلة التأريخية لأي حدث أو مكان يكون لأمريكا رغبة في اقتحامه، وهذه الحقيقة لم تكن خافية على أي من المتتبعين والمؤرخين في الولايات المتحدة، "هنري نوكس" أول وزير للحرب في تأريخ الولايات المتحدة كان قد فسر مقولة "اقتلاع جميع الهنود الحمر من أكثر المناطق سكاناً في كل أنحاء الاتحاد" بقوله "إن اقتلاع الهنود الأصليين من أرض الاتحاد أهم بكثير من مساعدة الشعوب المقهورة في المكسيك وبيرو"، وبعد فترة طويلة من تلك الممارسات الوحشية يأتي اعتراف الولايات المتحدة على لسان أحد أهم مفكريها "جون كوينسي آدامز" بقوله في إحدى كتاباته الشهيرة "لقد كنا في سباق لإبادة السكان الأصليين بأكثر الطرق وحشية، وبسبب هذه الجرائم الوحشية؛ أؤمن بأن الرب سوف يضع هذه الأمة يوماً ما أمام المحاكمة التي أرجو أن تكون عادلة أكثر من المحاكمات التي نصبناها للسكان الأصليين هنا"[١].

---

[١] وليام إيرل ويكس ، جون كوينسي آدامز (الإمبراطورية الأمريكية العالمية) كلنتاكي ١٩٩٢م.

إن الاستيطان في الغرب وبصورة لا تقبل الشك قد أظهر مقدار الفردية التي نتعامل بها، إن تلك الفردية قد كرست أيضاً لمفهوم الإمبريالية التي غُرست في نفوس المستكشفين والمغامرين والباحثين عن الثروات السريعة المغطاة بالدماء، كانت حصيلة تلك المفاهيم أن قد دعا السيناتور الأمريكي "هنري كابوت" في عام ١٨٩٨م إلى اجتياح كوبا بقوله: "إن الانتصار والتوسع الإقليمي الذي لا يضاهيه شيء في القرن التاسع عشر يجب أن لا يكبح الآن"، وقد تمّ الانصياع لمثل هذه الدعوات حيث أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي إرسال قوات عسكرية لمنع تحرر كوبا من الاستعمار الإسباني والتي استمرت حتى عام ١٩٥٩م.

بعد نجاح مصطلح "التدخل الإنساني" في كوبا عام ١٨٩٨م كانت الخطوة التالية هي لمصطلح "إحلال البركة الإلهية من خلال نشر الحرية في كل بقاع العالم" وطبق هذا المصطلح في الفلبين (حسب خطة وجدول أعمال الحزب الجمهوري في ذلك الوقت)، وقد روى الناجون من تلك المذابح والممارسات الوحشية والتعذيب الحيواني بأنهم كانوا فرحين وكأن الحياة قد عادت إليهم بعد نقلهم إلى السلطة الفلبينية والتي كانت تمثل نوعاً جديداً من أنظمة الحكم التي يصنعها المستعمر والتي تقوم على أساس إنشاء قوات عسكرية قمعية تقوم بكل الأعمال القذرة بالنيابة عن المستعمر الجديد كما هو الحال اليوم في أفغانستان والعراق[1].

بعد اعتراف الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" بممارسات التعذيب التي كانت تجري على يد القوات الأمريكية وقوات الحلفاء والقوات المصنّعة أمريكياً في أفغانستان والعراق كان يمكنه أن يوقف تلك الممارسات ولكنه

---

[1] الفريد ماكوي (أمن الإمبراطورية الأمريكية) ٢٠٠٩م.

اختار أن لا يفعل، إن مبدأ اللامبالاة يعتبر مكوناً للشخصية الأمريكيـــة منـــذ حروب الإبادة في القرن التاسع عشر ومروراً بحرب فيتنـــام وحتـــى حربـــي أفغانستان والعراق، إلا أن الطريقة القديمة قد ولّت وحلّت مكانها طريقة جديدة ألا وهي التعذيب بالأجر، تتمثل تلك الطريقة بتسليح وتدريب وقيـــادة قـــوات معينة من قبل المحتل لتقوم بعمليات التعذيب بدلاً من القوات الأمريكية وبذلك تظهر القوات الأمريكية بمظهر البريء المدافع عن الحقوق الإنسانية متى مـــا أرادت ذلك، وليس من المستغرب أن ترتبط المساعدات الأمريكية لأي دولـــة من الدول بقدرة تلك الدول على تهيأة مناخ يقوم على القمع والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان وغيرها من الممارسات التي أدت إلى نشوء علاقة محرمة بين المساعدات الأمريكية وانتهاك حقوق الإنسان(١).

بين بوش وأوباما

بلا شك أن الرئيس السابق "جورج بوش" قد تفوق على كل أسلافه في انتهاك القوانين الدولية والإنسانية فسار خلف بعض الآراء المتطرفـــة التـــي كانت تحيط به والتي كانت قد وجدت في عقل بوش الخالي مـــن أي منطـــق مكاناً مناسباً لها، في نفس الوقت الذي يشدد به الرئيس "أوباما" نفس تعهـــدات سلفه بالالتزام بالقانون الدولي يبدو أنه تعمد الرجوع إلى بعض أفكـــار بـــوش المتطرفة.

ففي القضية الشهيرة (بوميدين ضد بوش) في حزيـــران/ يونيـــو ٢٠٠٨م رفضت المحكمة العليا ادعاءات إدارة بوش بأن المعتقلين في "غوانتانـــامو" لا يخضعون للقوانين الأمريكية الخاصة بـــالمعتقلين والـــسجناء، إضـــافة إلـــى

(١) تشومسكي وهيرمان (الاقتصاد السياسي لحقوق الإنسان وشبكة الإرهاب الحقيقي) ١٩٧٩م.

ادعاءات تلك الإدارة بحق الولايات المتحدة بخطف وسجن أي شخص تراه يمثل تهديداً على أمن الولايات المتحدة ومن أي مكان في العالم، ولكن الإدارة السابقة قد بدأت بممارسة لعبة سخيفة وذلك بعد تطبيق نظام المحاكمات الأمريكي على معتقلي غوانتانامو إذ قامت بتحويل عدد كبير من معتقلي غوانتانامو إلى قاعدة "باغرام" لتكون حرة في ممارسة أنواع التعذيب سواءً كان ذلك بأيد أمريكية أم بأيد أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن الرئيس "أوباما" يعتزم إعادة إنشاء اللجان العسكرية والتي تعتبر من أشد الانتهاكات التي أوجدتها إدارة الرئيس السابق "جورج بوش"، يعود السبب في ذلك أن المسؤولين الذين يعملون على قضايا المعتقلين في "غوانتانامو" قد يواجهون صعوبات كبيرة في محاكمة بعض المعتقلين الذين قد يتسبب التحقيق في تعرضهم للتعذيب إلى إطلاق سراحهم بحسب قوانين المحاكم الاتحادية الأمريكية، فضلاً عن عدم قبول تلك المحاكم بالأدلة السماعية التي قد تمّ جمعها من قبل وكالات الإستخبارات العسكرية[1].

إن جميع الآراء تؤكد على عدم وجود أي فائدة لعمليات التعذيب التي قد تقود المعتقل إلى أن يعترف بأي شيء في سبيل التخلص من التعذيب، وإن عمليات تعذيب المعتقلين في "غوانتانامو" و"أبو غريب" قد تكلف الولايات المتحدة المزيد من الخسائر في صفوف قواتها العسكرية بسبب عمليات الانتقام، يقول الرائد في الجيش الأمريكي "ماثيو اليكساندر" (اسم مستعار) وهو أحد المحققين المخضرمين في العراق والذي قاد عمليات التحقيق التي أدت إلى معرفة مكان "أبو مصعب الزرقاوي" يقول في حوار له مع المراسل الصحفي "باترك كوكبورن": "أنا أؤمن بأن التعذيب لن يأتي بأي فائدة للمحقق

---

[1] وليام غلابرسون (إحياء المحاكم العسكرية في غوانتانامو) ٢٠٠٩م.

أو للقضية بشكل عام، بل إن تلك الممارسات تأتي بأحيان عديدة بنتائج عكسية والتي تؤدي دائماً إلى خسائر في صفوف القوات الأمريكية والتـي تجـاوزت في أعدادها أعداد المدنيين الذين قضوا فـي أحـداث ١١ أيلـول/ سـبتمبر ٢٠٠١م، ومن خلال المئات من عمليات الاستجواب استطعت أن استنتج بـأن أغلب المقاتلين الأجانب الذين دخلوا العراق كانت الكثير من مفاهيمهم تـرتبط بممارسات التعذيب التي جرت في "غوانتانامو" و"أبو غريب"، لذلك قد تحـول الكثير من مناهضي القوات الأمريكية إلى قنابل بشرية متحركة تضرب فـي كل مكان وفي أي وقت ويمكنني القول بأن كل ذلك كـان بـسبب إجـراءات التعذيب[١].

بلا شك أن هناك أدلة كثيرة على أن قرارات السماح بالتعذيب التي أقرها رامسفيلد وتشيني قد ساهمت بخلق نوع جديد من الإرهابيين وأحد تلك الدلائل هو عبد الله العجمي الذي عانى شتى أنواع التعذيب في معتقـل غوانتانـامو بتهمة المشاركة في عمليات مسلحة ضد القوات الأمريكية، بعد أربع سـنوات من التعذيب المستمر تمّ إعادته إلى بلده الأصلي "الكويت" ووجـد بعـد ذلـك طريقه إلى العراق، وفي ٨ آذار/ مارس ٢٠٠٨م استطاع الـدخول بـشاحنة مفخخة إلى داخل معسكر مشترك للقوات العراقية والأمريكية وقـام بتفجيـر نفسه وقتل ثلاثة عشر جندياً أمريكياً وعراقياً، وذكرت فـي وقتهـا صـحيفة "واشنطن بوست" على أن تلك الهجمة جاءت بسبب غطرسة الإدارة الأمريكية وسجنها للأبرياء وتعذيبهم بدون أي سبب قانوني أو مسوغ يفرض عليها ذلك.

يمكننا القول بأن مصطلح "الحرب على الإرهاب" الذي جاء به بوش بعـد أحداث ٢٠٠١/٩/١١م كان الغطاء لكل الممارسات والجرائم البـشعة التـي

---

[١] باترك كوكبورن (ممارسات التعذيب تقتل من الأمريكيين أكثر من الـذين قـضوا فـي ٢٠٠١/٩/١١م) صحيفة "الأنبدندنت" ٢٠٠٦/٤/٦م.

قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية ضد كل شعوب العالم، في أفغانستان والعراق والصومال والسودان وفي كل بقاع العالم فقط لإرضاء النزعة الإجرامية لدى الإدارة الأمريكية السابقة وإشباع الرغبة في ممارسة العنف لدى أفراد الشعب الأمريكي وتوجيهها إلى الخارج بدلاً من بقائها داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

إن النظرية القائلة بـ "استثنائية أمريكا" لا أساس لها في الوجود، وإنما هي مرض استوطن في عقول البعض الذين يرون أن على أمريكا قيادة العالم ليكون تحت إمرتها وطوع بنانها، يفرض هذا المصطلح الكثير من التناقضات التي تشبه التناقضات التي عانت منها الإمبراطوريات السابقة، فمثلاً في الوقت نفسه الذي كانت فرنسا تقود راية الثقافة والحرية العالمية وبناء نهضة إنسانية وفق معايير أخلاقية ومثل عليا.. كان وزير الحرب الفرنسي يدعو إلى إبادة الشعب الجزائري وإفراغ الجزائر من الجزائريين، وكذلك كانت الإمبراطورية البريطانية التي كانت تدعو إلى مساعدات حركات التحرر في الهند إلا أن الواقع قد كشف زيف ادعاءاتها من خلال ممارسات القمع والاضطهاد التي كانت تقوم بها بريطانيا في الهند خصوصاً تلك التي كانت في قمع التمرد الهندي عام ١٨٥٧م.

لاشك أن غزو العراق يعدّ من أبشع الجرائم التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية في التأريخ الحديث، لكن تداعيات هذه الجريمة الإنسانية تؤكد على أن الشعب الأمريكي يعاني من داء فقدان الذاكرة التأريخية وببساطة يمكننا القول بأن ذلك يؤسس للجرائم التي من المنتظر أن تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية في المستقبل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1]

بيان خاص مشترك
إعلان ثقة وتخويل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على إمام المجاهدين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فيعلم أهل الفضل من أبناء العراق إننا ما قمنا بوجه الاحتلال إلا لنلبي داعي الله، بوجوب دفع العدو الصائل، لا نبتغي من ذلك عرضاً من الدنيا، أو متاعاً زائلاً، وكنا نعلم علم اليقين أن طريقنا محفوفة بالمكاره، ومحاطة بالأشواك؛ لأنها السبيل إلى جنان الخلد، ومصاحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذه سلعة غالية ثمنها كبير أقله ترك الدنيا ومتاعها الزائل.

وها نحن أولاء يا أمتنا الغالية، بعد تلك الخوالي من السنين الصعاب، التي بها تختبر همم الرجال، وتظهر مقدرتهم على الثبات والمطاولة.. تلك السنين التي أبلى بها أبناء العراق المؤمنين الغيارى بلاءً حسناً، أذاقوا فيه العدو مرّ الهزيمة، جادوا خلالها بأنفسهم وأموالهم، وبكل غالٍ ونفيس، في حين كان غيرهم من المنافقين والمتأولين ينعمون بما يتيح لهم الاحتلال من عرض زائل.

ها نحن أولاء توكلنا على الله في أمر نعتقد أن فيه صلاحاً لديننا ودنيانا وأهلنا، فقررنا ما هو آت:

إننا نحن جبهة الجهاد والتغيير، وعصائب العراق الجهادية، وجيش المجاهدين المرابطين، وجيش الإمام أحمد بن حنبل نعلن الآتي:

---

(1) سورة المائدة: ٥٥ – ٥٦.

١- إعلان ثقتنا بالشيخ الدكتور حارث الضاري (أمين عام هيئة علماء المسلمين في العراق)؛ لما عرفنا فيه من رباطة جأش، وثبات على المبدأ، ومطاولة للأعداء، وصبر على البلاء، وإسناد منقطع النظير للجهاد والمقاومة في العراق، على الرغم مما تعرض ويتعرض له، من ضغوط وتجاوزات؛ ولأننا نعده الحارس الأمين على مبادئ وثوابت الجهاد والمقاومة في العراق، والرجل الشجاع وصاحب الموقف الحق الذي لا يتخلى عنه، ولو كلفه ذلك حياته.

٢- نخول الشيخ حارث الضاري بأن يتحدث باسمنا، ويفاوض عنّا في الأمور السياسية ذات الصلة بنا، وأن ينوب عنّا في كل المحافل؛ ليدافع عن دماء الشهداء الزكية، التي سالت على ثرى العراق، والليوث التي أسرت، والأعراض التي انتهكت، والأموال التي هدرت.

وفقك الله لخدمة دينه، وأيدك بتأييده، وسدد خطاك على طريق الحق، وكلنا أمل في أن يجتمع العراقيون الغيارى على أمر رشدٍ، في إطار كبير جامع، يحقق آمالنا في تحرير بلدنا من رجس الكافرين والمنافقين والأدعياء، ويعود العراق حراً مسلماً إلى أحضان أهله من العرب والمسلمين، عزيزاً بدين الإسلام، مرفوع الرأس، ويعود خيمة من العطاء يغني الله به أهله ويأوي إليه كل ملهوف ومحتاج.

والله أكبر وهو مولانا والكافرون لا مولى لهم

الموقعون:

١- جبهة الجهاد والتغيير: (كتائب ثورة العشرين، جيش الراشدين، جيش المسلمين في العراق، الحركة الإسلامية لمجاهدي العراق، سرايا جند الرحمن في العراق، سرايا الدعوة والرباط، كتائب التمكين، كتائب محمد الفاتح، جيش التابعين، جيش الجهاد).

٢- عصائب العراق الجهادية

٣- جيش المجاهدين المرابطين

٤- جيش الإمام أحمد بن حنبل

٨/جمادي الآخرة/١٤٣٠هـ

١/٦/٢٠٠٩م

بيان قبول التخويل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ولي المتقين، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فيا أيها الإخوة الأعزاء في الفصائل الجهادية، التي أولتنا ثقتها، وخولتنا بتمثيلها سياسياً.

السلام عليكم، وعلى كل فصائل المقاومة العراقية الأخرى، التي نعتز بها ونفتخر، ورحمة الله تعالى وبركاته..

بعد شكري لله تعالى، أقدم شكري لكم على ثقتكم بي، وتخويلكم لي فيما يتعلق الأمر بكم سياسياً، وعندما يقتضي الأمر ذلك، ونظراً لكون الموافقة على مثل هذا التخويل تعد من الواجبات الشرعيةِ والوطنية، التي لا يجوز لمثلي العدول عنها، على الرغم مما يترتب على ذلك من أعباء وتبعات، ولا سيما في هذه المرحلة الدقيقة والحساسة من تاريخ بلدنا وأمتنا؛ فإنني أعلن موافقتي على هذا التخويل؛ نزولاً عند رغبة إخواني في الفصائل الجهادية المباركة التي أولتني ثقتها، والتي أرجو أن يوفقني الله لأن أكون عند حسن ظنها، وأعاهد الله تعالى وأعاهدها، على أن أبذل كل ما بوسعي في هذا المجال، مهما كلفني ذلك من جهد وتضحيات، ولها عليَّ أن لا أقطع أمراً دونها.

أيها الإخوة الأعزاء أوصيكم:

أولاً: بتقوى الله تعالى، والتوكل عليه في كل شؤونكم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

ثانياً: الالتزام بضوابط الجهاد الشرعي؛ حتى يبارك الله تعالى بجهادكم ويمنحكم معيته التي لابد منها في النصر على الأعداء.

---

(1) سورة الطلاق (٣).

(2) سورة الطلاق (٢-٣).

ثالثاً: التعاون الأخوي مع كل الفصائل الجهادية، التي تسعى لتحرير العراق والمحافظة على وحدته وهويته وخير أبنائه بكل أطيافهم ومكوناتهم، من شماله إلى جنوبه، فأنتم أبناء العراق وأنتم تجاهدون من أجل أهله جميعاً، لا من أجل جزء واحد منه فقط.

رابعاً: المحافظة على أمن العراق واستقراره ليسهم في أمن واستقرار جيرانه والمنطقة كلها، والوعي الكامل بمخططات التخريب والتحريش بين الشعب العراقي وأشقائه.

خامساً: أوصيكم بالصبر والثبات والتحمل وطول النفس، وعدم الالتفات إلى المثبطين والمتساقطين واللاهثين وراء السحاب الخادع، فأنتم وإخوانكم في فصائل المقاومة العراقية الأخرى تمثلون ضمير العراق وضمير الأمة الحي؛ لأنكم تجسدون المشروع الحقيقي والوحيد لتحرير العراق من الاحتلال ومشاريعه الخطيرة، وأخيراً: إن قبولنا هذا التخويل سيكون عوناً لنا بإذن الله تعالى على تحقيق هدفنا في أن يكون العراق لكل أبنائه، بكل مكوناتهم الدينية والمذهبية والعرقية، لا يعاني فيه أحد من تهميش أو إقصاء.

بارك الله فيكم وأيدكم بنصره ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

حارث سليمان الضاري

الأربعاء ١٥/جمادي الآخرة/١٤٣٠هـ

١٠/حزيران/٢٠٠٩م

---

[1] سورة آل عمران (١٢٦).

بيان انضمام لموثق التخويل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، وإمام المجاهدين محمد، وعلى آله وصحابته الكرام الطاهرين، وبعد:

فلقد خصنا الله تعالى بخاصة الجهاد في سبيله، وكلفنا جلّ في علاه بمهمة الذود عن دينه وتحرير أرضنا من دنس الاحتلال الغاصب، وقد مضينا بفضل من الله في ذلك وأرخصنا أرواحنا وأموالنا في سبيل الله، وأثخنا مع إخوتنا المجاهدين في العدو الجراح، فصار يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة.

واليوم ونحن نشهد الخطوة الجريئة المباركة التي أطلقها الأخوة المجاهدون في (١٣) فصيلاً جهادياً بمنح الشيخ (حارث الضاري) الثقة وتخويله بالتمثيل السياسي لهذه الفصائل، فإننا ولما عرفناه وعهدناه عن الشيخ الجليل والإخوة المجاهدين في الفصائل المباركة، لنعلن تأييدنا وانضمامنا لهذا الموثق والتخويل، الذي خُول به الشيخ الضاري، ونمدّ أيدينا لتشدّ على أيدي إخوتنا ونبارك لهم جهدهم ورأيهم.

والله نسأل أن يجعل في هذا الأمر تأييداً لدينه، ونصراً لجنده، وإحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، اللهم أنت عضدنا ونصيرنا، اللهم بك نصول، وبك نجول، وبك نقاتل.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

الموقعون

جماعة أرض الرافدين   لواء ديالى الجهادي   سرايا الجنوب الجهادية

---

[1] سورة العنكبوت (٦٩).

[2] سورة الحج (٤٠).



تنويه

تعتذر أسرة تحرير (حضارة) عن السهو الطباعي الذي ورد في العدد السابق في بحث (العلماء في خدمة المجتمع زمن الاحتلال) في الصفحة (٩٦) والذي أشير فيه إلى تأريخ تأسيس هيئة علماء المسلمين في ١٣/٤/٢٠٠٣م والصواب هو ١٤/٤/٢٠٠٣م.

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر- التجارية - مصر

مركز الأمة للدراسات والتطوير





قانون النفط والغاز
حقائق وملاحظات

حسين الرشيد



الفيدرالية
الخطر الداهم

عصام سليم

الدور السياسي والإعلامي
لهيئة علماء المسلمين

خالد القيسي

تطلب من

مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد

دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع - سورية - دمشق ص.ب ١١٢٧١ هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٢٢٠٩٥٧

للاستفسار يرجى مراسلتنا على العنوان البريدي editor@hadharamagazine.net